الإنسيكلوبيديا العلوية

محمد سعيد الطريحي

الجزء الثاني

أكاديمية الكوفة
هولندا

الانسكلوبيديا العلوية

موسوعة علمية فكرية أدبية

حول سيرة ومسيرة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

صدرت بمناسبة ذكرى مرور أربعة عشر قرناً على اتخاذ الإمام عليه السلام لمدينة الكوفة عاصمة للعالم الإسلامي

٣٦ - ١٤٣٦هـ - ٦٥٦ - ٢٠١٥م

تأليف

نخبة من العلماء والمفكرين والكتاب والأدباء

رئيس التحرير

محمد سعيد الطريحي

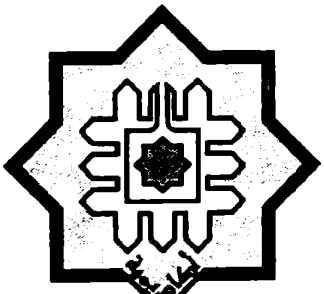

أكاديمية الكوفة

هولندا (سنة ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م)

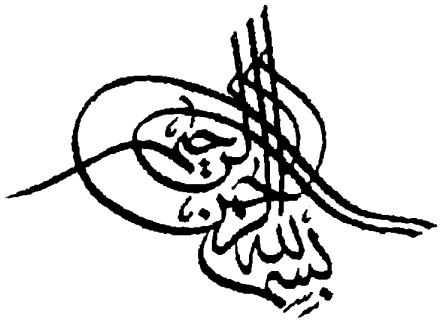

اللَّهُمَّ يَسِّرْ وَتَمِّمْ

وَصَلِّ عَلَى نَبِيِّ خَيْرِ الْأُمَمِ

وَعَلَى وَصِيِّهِ الْحَيْدَرِ الْكَرَّارِ

فَتَى نَهْجِ الْبَلَاغَةِ وَذِي الْفَقَارِ

وَعَلَى آلِهِ الْمَيَامِينْ

وَأَوْلِيَائِهِمُ الْمُصَابِرِينْ

المورث

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

صاحبها ورئيس تحريرها

محمد سعيد الطريحي

الكوفة

Kufa Academy

أكاديمية الكوفة

هولندا

المراسلات

KUFAACADEMY P.O.Box: 1113

3260 AC Oud-beijerland - The Netherlands

e-mail: saltouraihi@yahoo.com

www.almawsem.org

إشـــارة

وكل لبيب بالإشارة يفهم

"كم من عظيم بلغ الأوج في نسبه وعلمه بفضل كتابي، وكم من حاكم اشتهر بكلامي، كلهم يستنسخ شعري بالمجان، وأنا في مكانِ قصي أنظر وأرى.

إنهم يحسبونني أجيراً مرتزقاً في أسْرِهم، لستُ ألقى منهم غير (أحسنت)، ولقد خارت قواي مع هذا الثناء الرخيص، أما خزائنهم العامرة فمُوصَدَةٌ أمام قلبي الكسير".

الفردوسي

المكتبة الملكية ـ لاهاي ISSN 13842772

يحظر النسخ أو الطبع أو التصوير على دعامات ورقية أو عبر الحاسبات لكل أو بعض المقالات المنشورة أو أجزاء منها، بغير إذن كتابي مسبق من الناشر

المؤسس

لصاحبها محمد سعيد الطريحي

حدها

مسعد هدب الحهنس

فهرس

❖ نصب الإمام وملابسات الرسالة

..... آية الله الشيخ جعفر السبحاني ١١

❖ منظومة الحقوق في عهد الأشتر

..... د . إياد محمّد عليّ الأرناؤوطيّ ١٨

❖ مفاهيم الغدير بين القرآن الكريم ودعاء الندبة

..... م. أحمد جاسم ثاني ٣٩

❖ رسائل الإمام علي (ع) (دراسة بنيوية تحليلية)

..... عهود ثعبان يوسف الأسدي ٤٦

❖ بَيَانُ الإمام علي (ع) في التعبيرِ عن العبادةِ في نهج البلاغةِ

..... د. أحمد عاشور جعاز ٩٨

❖ وحدة الذات بين النبي (ص) والإمام علي (ع)

..... السيد عباس علي الموسوي ١٢٠

❖ أثر الرسول محمّد (ص) في منهج أمير المؤمنين (ع) في عهده لمالك الأشتر أنموذجاً ..... د. نوري كاظم الساعدي ١٢٧

❖ أدبُ الحِوار مِن وَحي الغَدير وذاكِرة المجالِس

..... د. أسامة رشيد الصفّار ١٤٦

❖ سر الإبداع اللغوي عند الإمام علي (ع)

..... د. عباس علي الفحام ١٥٣

❖ الأبنية الصرفية في خطبة غدير خم

..... د. حسن عبد المجيد عباس الشاعر ١٥٨

❖ الرعاية الصحية في فكر الإمام علي (ع)

..... أ. د. عطا سلمان جاسم

..... م. د. محمد حسين السويطي ١٦٨

❖ المواد الفلكية والكونية عند الإمام علي (ع)

..... السيد عبد الأمير المؤمن ١٧٩

الفصل الأول: خلق الكون وفناؤه ١٨٣

الفصل الثاني: سماء الكون ١٩٢

الفصل الثالث: الجاذبية الكونية ١٩٨

الفصل الرابع: النجوم والمجرّات ٢٠٤

الفصل الخامس: الشمس الأم ٢١٢

الفصل السادس: قمر الأرض ٢١٩

الفصل السابع: الكرة الأرضية ٢٢٥

الفصل الثامن: كواكب النظام الشمسي ٢٣٢

الفصل التاسع: الشهب السماوية ٢٣٨

❖ الأبعاد الإنسانية في عهد الإمام علي (ع) لمالك الأشتر

..... أ. د. عبد الكاظم محسن الياسري ٢٤٣

❖ « الآخر » في خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)
..... د. بشار نديم أحمد الباججي ٢٥٥

❖ الإمام علي (ع) وفن التعامل مع الناس
..... د. رزاق عبد الأمير مهدي الطيَّار
..... د. سهاد كاظم الموسوي ٢٥٧

❖ الإمام علي (ع) في الموروث الإنساني
..... د. حسن الزين ٢٨٨

❖ الإمام علي معجزة الإسلام .. الشيخ محمد رضا المظفر ٢٩٧
❖ الإمام علي والديمقراطية ... الشيخ عبد الحسين صادق ٢٩٩
❖ الحس الأمني عند الإمام علي (رض) ودوره في إيصال أبي ذر (رض) لرسول الله (ص) ..... د. مصطفى العوض ٣٠٧

❖ الحضور في الغياب: (دراسة مقارنة لحركتي الإمام علي (ع) والإمام المهدي) (ع) زمن لغيابهما عن الحكم الظاهر
..... د. أمجد حميد عبد الله الفاضل ٣٠٩

❖ قصيدة الأشباه للشاعر المفجع البصري (ت ٣٢٧هـ) (دراسة تحليلية)
..... أ. م. د. حسن عبد عودة الخاقاني
..... أ. م. د. حسين عبد حسين الوطيفي ٣٢٩

❖ الإمام علي (ع) في مرويات أبي ذر الغفاري (رض)
..... د. جبّار محمد هاشم الموسوي
..... د. أمل سهيل عبد الحسيني ٣٤٨

❖ الإمام علي (ع) غدير لا ينضب

..... عبد الحسين الخزاعي ٣٦٥

❖ التفكير اللساني والوعي الديني:

(التفكير اللساني لدى الإمام علي "ع" أنموذجاً)

..... أ. د. محمد كاظم البكّاء ٣٨٤

❖ الغدير بين نظريتين ..... السيد صدر الدين القبانجي ٣٨٩

❖ العدالة الاجتماعية في فكر الإمام علي (ع) (منهجاً وتطبيقاً)

..... م. د. سامي جودة الزيدي

..... م. م حيدر حسين جلود ٣٩٩

❖ الدلالة الشرعية واللغوية في خطاب الإمام علي (ع) من لسان العرب

..... د. حسين حاتم حسين

..... د. يعقوب حسن عبد ٤١٢

❖ التنمية الاقتصادية عند الإمام علي (ع)

..... علاء فالح آل خلف ٤٢٥

❖ المحتوى المثبت في كتاب علي (ع)

..... د. وفقان محسن خضير الكعبي ٤٥٧

❖ مفاهيم فيزياوية في تراث الإمام (ع) (مفهوم "النسبية" في القرآن

ونهج البلاغة ..... حسين عبيد الفريجي ٤٩٣

❖ القيمة الحقيقية للسلطة في المنهج الإلهيّ في ضوء تعامل الإمام مع

السلطة ..... علي التميمي ٥١٩

❖ العرفان الصوفي في فكر الإمام علي (ع) الإمام علي (ع) مدد العارفين
..... د. أحمدو بمبا بن صيار ٥٣١

❖ الغَديرُ في الشعر العرفانيِّ الفارسيِّ
(كتاب "مثنوي" لجلال الدِّين الرُّومي اختياراً)
..... د. علي مجيد البديري ٥٣٤

❖ واقعة الغدير تتجسد في القرآن
..... كاظم الحسيني الذبحاوي..... ٥٤٣

❖ الأبعاد التربوية للإمامة (الإمام علي (ع) أنموذجاً)
..... د. علاء إبراهيم رزوقي الموسوي ٥٥١

❖ أهمية دعاء الإمام علي بن أبي طالب (ع) (دراسة أسلوبية نحوية)
..... محمد إسماعيل عبدالله سعيد آل بدير ... ٦٠٥

❖ الإمامة وحقوق الأقليات السياسي (الإمام علي (ع) أنموذجاً)
..... د. خولة مهدي شاكر الجراح ٦٣٤

❖ التفسير الوعظي لآيات القرآن الكريم في نهج البلاغة
..... د. حسن كريم ماجد الربيعي..... ٦٥٢

❖ الحرب بين الإمام علي (ع) ومعاوية في نهج البلاغة
..... حسن عبد الأمير عبد الصاحب الظالمي .. ٦٦٠
الفصل الأول: تولي الإمام علي (ع) الخلافة..... ٦٦١
الفصل الثاني: الاستعداد للحرب..... ٦٦٥
الفصل الثالث: بدء القتال ثم النهاية بالتحكيم ٦٦٧

❖ الدلالات التفسيرية في شواهد نهج البلاغة القرآنية
..... د. عدي جواد الحجار ٦٧٢

❖ دور الإمام علي بن أبي طالب (ع) وتلامذته في ريادة المدرسة الأولى للقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف
..... أ.م.د مهند عبد الرضا حمدان الكنزاوي

..... أ. م. د عواد كاظم لفتة الغزي ٦٨٧

❖ أثر نهج البلاغة في التفسير
..... د. نجم الفحام ٦٩٧

❖ من القيم الصوتية في نهج البلاغة
..... د. تحسين فاضل عباس ٧٢٠

❖ فلسفة أحكام الجرائم والأمراض الاجتماعية في نهج البلاغة
..... د. حميد سراج جابر ٧٤٤

❖ سيمياء التأمّل في نهج البلاغة بين التصوير والإشارة
..... د عبد الحسين عبد الرضا العمري ٧٥٢

❖ تجربة الإمام علي بن أبي طالب (ع) في إصلاح الدولة والمجتمع
..... رعد الدخيلي ٧٦٧

❖ الإمام علي (ع) سيد البلغاء وبابُ الحكمة
..... د. إيمان سالم حمودي الخفاجي ٧٧١

❖ يا أبا الأمة..... السيد عباس شبر ٧٩٥

❖ الإمام ..... معن سعيد الطريحي ٧٩٨

❖ أبو تراب ..... غالب الناهي ٧٩٩

نصب الإمام وملابسات الرسالة

آية الله الشيخ جعفر السبحاني

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين وآله الطيبين.

الغدير في اللغة: منخفض من الأرض تجتمع فيه مياه الغيوث والأمطار.

هذا هو معنى لفظة الغدير في اللغة.. أنها تعني منطقة محدودة من الأرض.

ولكن الغدير الذي يمثل أعظم واقعة في الإسلام ليس بركة محدودة الشطوط، ومساحة محصورة من الأرض.

انه بحر عظيم بعيد السواحل، عديد الضفاف.

أجل أن الغدير بحر ذو سواحل بعيدة وضفاف عديدة.

ولا يمكن لأحد أن يغوص هذا البحر، ويسير أغواره وينزل إليه من جميع ضفافه وسواحله.

ولهذا فإننا ننزل إلى هذا البحر الخضم من ضفة واحدة، تاركين بقية الضفاف للآخرين.

وهذه الناحية هي أن ندرس الظروف الاجتماعية والسياسية الداخلية منها والخارجية التي حتمت نصب الإمام، وتعيين الخليفة، ولم تسمح بإلقاء الحبل على الغارب وترك الأمر للقدر.

وهذا هو ما عالجناه في هذا المقال آملين أن ينظر إليه بالنظر الموضوعي المحايد لتتضح الحقيقة.

لا شك في أن الدين الإسلامي دين عالمي، وشريعة خاتمة، وقد كانت قيادة الأمة الإسلامية من شؤون النبي الأكرم (ص) ما دام على قيد الحياة، وكان عليه أن يوكل مقام القيادة من بعده إلى أفضل أفراد الأمة وأكملهم.

إن في هذه المسألة - وهي هل أن منصب القيادة بعد النبي (ص) هل هو منصب تنصيصي تعييني أو أنه منصب انتخابي - اتجاهين:

فالشيعة: يرون أن مقام القيادة منصب تنصيصي ولابد أن يتعين خليفة النبي (ص) من جانب الله سبحانه. بينما يرى أهل السنة أنّ هذا المنصب منصب انتخابي جمهوري، أي أن على الأمة أن تقوم بعد النبي باختيار فرد من أفرادها لإدارة البلاد.

إن لكل من الاتجاهين المذكورين دلائل ذكرها أصحابها في الكتب العقائدية، إلا أن ما يكون طرحه هنا هو تقييم ودراسة المسألة في ضوء دراسة وتقييم الظروف السائدة في عصر الرسالة، فان هذه الدراسة كفيلة بإثبات صحة هذا الاتجاه أو ذلك.

إن تقييم الأوضاع السياسية داخل المنطقة الإسلامية وخارجها في عصر الرسالة يقضي بان خليفة النبي لابد أن يعين من جانب الله تعالى ولا يترك الأمر من دون هذا التعيين الإلهي، فان المجتمع الإسلامي كان مهدداً على الدوام من جانب الخطر الثلاثي (الروم - إيران - المنافقون) بشن الهجوم الكاسح وإلقاء بذور الفساد والاختلاف بين المسلمين.

كما أن مصالح الأمة كانت توجب أن يوحد صفوف المسلمين في مواجهة الخطر الخارجي وذل بتعيين قائد سياسي من بعده، وبذلك يسد الطريق على نفوذ العدو في جسم الأمة الإسلامية والسيطرة عليها، وعلى مقدراتها.

وإليك بيان وتوضيح هذا المطلب:

لقد كانت الإمبراطورية الرومية أحد إضلاع المثلث الخطر الذي يحيط بالكيان الإسلامي ويتهدده من الخارج والداخل.

وكانت هذه القوة الرهيبة تتمركز في شمال الجزيرة العربية، وكانت تشغل بال النبي القائد على الدوام حتى أن التفكير في أمر الروم لم يغادر ذهنه وفكره حتى لحظة الوفاة، والالتحاق بالرفيق الأعلى.

وكانت أولى مواجهة عسكرية بين المسلمين، والجيش المسيحي الرومي وقعت في السنة الهجرية الثامنة في ارض فلسطين وقد آلت هذه المواجهة إلى مقتل القادة العسكريين البارزين الثلاثة وهم: جعفر الطيار وزيد بن حارثة وعبد الله بن حارثة.

ولقد تسبب انسحاب الجيش الإسلامي بعد مقتل القادة المذكورين إلى تزايد جرأة الجيش القيصري المسيحي فكان يخشى بصورة متزايدة أن تتعرض عاصمة الإسلام للهجوم الكاسح من قبل هذا الجيش.

من هنا خرج رسول الله (ص) في السنة العاشرة للهجرة على رأس جيش كبير جداً إلى حدود الشام ليقود بنفسه أية مواجهة عسكرية، وقد استطاع الجيش في هذه المرحلة الصعبة المضنية أن تستعيد هيبتها الغابرة وتجدد حياتها السياسية.

غير أن هذا الانتصار المحدود لم يقنع رسول الله (ص) فاعد قبيل مرضه جيشاً كبيراً من المسلمين وأمر عليهم أسامة بن زيد وكلفهم بالتوجه إلى حدود الشام، والحضور في تلك الجبهة.

أما الضلع الثاني من المثلث الخطير الذي كان يتهدد الكيان الإسلامي كانت الإمبراطورية الإيرانية (الفارسية) وقد بلغ من غضب هذه الإمبراطورية على رسول الله (ص)

ومعاداتها لدعوته أن أقدم إمبراطور إيران (خسرو برويز) على تمزيق رسالة النبي، وتوجيه الإهانة إلى سفيره بإخراجه من بلاطه والكتابة إلى واليه وعميله باليمن بأن يوجه إلى المدينة من يقبض على رسول الله (ص) أو يقتله أم امتنع.

و "خسرو" هذا وان قتل في زمن رسول الله (ص) إلا أن موضوع استقلال اليمن ـ التي رزحت تحت استعمار الإمبراطورية الإيرانية ردحاً طويلاً من الزمان ـ لم يغب عن نظر ملوك إيران آنذاك، وكان غرور أولئك الملوك وتجبرهم، وكبرياءهم لا يسمح بتحمل منافسة القوة الجديدة (القوة الإسلامية) لهم.

والخطر الثالث كان هو خطر حرب النفاق الذي كان يعمل بين صفوف المسلمين في صورة الطابور الخامس وعلى تقويض دعائم الكيان الإسلامي من الداخل إلى درجة أنهم قصدوا اغتيال رسول الله، في طريق العودة من تبوك إلى المدينة.

فقد كان بعض عناصر هذا الحزب الخطر يقول في نفسه: إن الحركة الإسلامية سينتهي أمرها بموت رسول الله (ص) ورحيله وبذلك يستريح الجميع.

ولقد قام أبو سفيان بن حرب بعد وفاة رسول الله (ص) بمكيدة مشؤومة لتوجيه ضربة إلى الأمة الإسلامية من الداخل، وذلك عندما أتى علياً (ع) وعرض عليه أن يبايعه في مقابل من عينه رجال السقيفة، ليستطيع بذلك تشطير الأمة الإسلامية الواحدة إلى شطرين متحاربين متقاتلين من التصيد في الماء العكر.

ولكن الإمام علياً (ع) أدرك بذكائه البالغ نوايا أبي سفيان الخبيثة، فرفض مطلبه وقال له كاشفاً عن دوافعه ونواياه الشريرة:

والله ما أدرت بهذا إلا الفتنة، وانك والله طالما بغيت للإسلام شراً لا حاجة لنا في نصيحتك[1].

ولقد بلغ دور المنافقين التخريبي من الشدة بحيث تعرض القرآن لذكرهم في سور عديدة هي: سور آل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، والتوبة، والعنكبوت، والأحزاب، ومحمد، والفتح، والمجادلة، والحديد، والمنافقين، والحشر.

فهل مع وجود مثل هؤلاء الأعداء الخطرين والأقوياء الذي كانوا يتربصون بالإسلام الدوائر، ويتحينون الفرص للقضاء عليه أن يترك رسول الله (ص) أمته الحديثة العهد بالإسلام، الجديدة التأسيس من دون أن يعين لهم قائداً دينياً سياسياً؟

إن المحاسبات الاجتماعية تقول: إنه كان يتوجب أن يمنع رسول الإسلام بتعيين قائد للأمة، من ظهور أي اختلاف وانشقاق فيها من بعده، وأن يضمن استمرار وبقاء الوحدة الإسلامية بإيجاد حصن قوي وسياج دفاعي متين حول تلك الأمة.

---

(١) الكامل في التاريخ: ج٢، ص٢٢٢، والعقد الفريد: ج٢، ص٢٤٩.

إن تحصين الأمة وصيانتها من الحوادث المشؤومة والحيلولة دون حدوث ظاهرة مطالبة كل فريق الزعامة لنفسها دون غيرها، وبالتالي التنازع على مسألة الخلافة والزعامة لم يكن ليتحقق إلا بتعيين قائد للأمة، وعدم ترك الأمور للقدر.

إن المحاسبة الاجتماعية تهدينا إلى صحة نظرية "التنصيص على القائد بعد رسول الله (ص)، ولعل لهذه الجهة، ولجهات أخرى طرح رسول الإسلام مسألة الخلافة في الأيام الأولى من ميلاد الرسالة وظل يواصل طرحها والتذكير بها طوال حياته حتى الساعات الأخيرة منها حيث عيّن خليفته ونصّ عليه بالنص القاطع الواضح الصريح في بدء دعوته، وفي نهايتها أيضاً.

واليك بيان كلا هذين المقامين:

١. **النبوة والإمامة توائمان:** بغض الأدلة العقلية والفلسفية على المحاسبة الاجتماعية التي تثبت حقانية الرأي الأول بصورة قطعية هناك أخبار وروايات وردت في المصادر المعتبرة تثبت صحة الموقف. والرأي الذي ذهب إليه علماء الشيعة وتصدقه، فقد نص النبي (ص) على خليفته من بعده في الفترة النبوية من حياته مراراً وتكراراً، وأخرج موضوع الإمامة من مجال الانتخاب الشعبي والرأي العام.

فهو لم يعين (ولم ينص على) خليفته ووصيه من بعده في أخريات حياته فحسب، بل بادر إلى التعريف بخليفته ووصيه في بدء الدعوة يوم لم ينضوِ تحتَ رسالته بعد سوى بضع عشرة من الأشخاص، وذلك يوم أمر من جانب العلي القدير أن ينذر عشيرته الأقربين من العذاب الإلهي الأليم، وأن يدعوهم إلى عقيدة التوحيد قبل أن يصدع برسالته للجميع ويبدأ دعوته العامة للناس كافة.

فجمع أربعين رجلاً من زعماء بني هاشم وبني المطلب ثم وقف فيهم خطيباً فقال: أيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصي وخليفتي فيكم.

فأحجم القوم، وقام علي (ع) وأعلن مؤازرته وتأييده له، فأخذ رسول الله (ص) برقبته والتفت إلى الحاضرين وقال:

إن هذا أخي ووصي وخليفتي فيكم[1].

وقد عرف هذا الحديث عند المفسرين والمحدثين بـ: "حديث يوم الدار" و "حديث بدء الدعوة".

على أن رسول الله (ص) لم يكتف بالنص على خليفته في بدء رسالته، إنما صرح في مناسبات شتى في السفر والحضر، بخلافة علي (ع) من بعده لكن لا يبلغ شيء من ذلك في الأهمية والظهور والصراحة والحسم ما بلغه حديث الغدير.

---

(١) تاريخ الطبري: ج٢، ص٢١٦، الكامل في التاريخ، ج٢، ص٦٢ - ٦٣ وقد مر مفصله في هذه الدراسة فراجع.

٢. **قصة الغدير**: لما انتهت مراسيم الحج، وتعلم المسلمون المناسك عن رسول الله (ص) قرر رسول الله (ص) الرحيل عن مكة، والعودة إلى المدينة، فاصدر أمراً بذلك، ولما بلغ موكب الحجيج العظيم إلى منطقة رابغ[١] التي تبعد عن الجحفة[٢] بثلاثة أميال نزل أمين الوحي جبرائيل على رسول الله (ص) بمنطقة تدعى غدير خم وخاطبه بالآية التالية:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[٣].

إن لسان الآية وظاهرها يكشف عن أن الله تعالى ألقى على عاتق النبي (ص) مسؤولية القيام بمهمة خطيرة، وأي أمر أكثر خطورة من أن ينصب علياً (ع) لمقام الخلافة من بعده على مرأى ومسمع من مائة إلف شاهد.

من هنا أصدر رسول الله (ص) أمره بالتوقف، فتوقفت طلائع ذلك الموكب العظيم، والتحقق بهم من تأخر.

لقد كان الوقت وقت الظهيرة، وكان الجو حاراً إلى درجة كبيرة جداً وكان الشخص يضع قسماً من عباءته فوق رأسه والقسم الأخر منها تحت قدميه، وصنع للنبي (ص) مظلة، كانت عبارة عن عباءة ألقيت على أغصان شجرة (سمره) وصلى رسول الله (ص) بالحاضرين الظهر جماعة وفيما كان الناس قد أحاطوا به صعد رسول الله (ص) على منبر أعد من أحداج الإبل وأقطابها وخطب في الناس رافعاً صوته وهو يقول:

الحمد لله ونستعينه ونؤمن به ونتوكل عليه، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، الذي لا هادى لمن ضل، ولا مضل لمن هدى، وأشهد أن لا إله إلا هو، وأن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد: أيها الناس قد نبأني اللطيف الخبير أنه لم يعمر نبي إلا مثل نصف الذي قبله واني أوشك أن أُدعى فأجيب، واني مسؤول وانتم مسؤولون فماذا انتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنك قد بلغت ونصحت وجهدت فجزاك الله خيراً.

قال (ص): ألستم تشهدون أن لا إله إلا الله وان محمداً عبده ورسوله وأن جنته حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور؟

قالوا: بلى نشهد بذلك.

قال (ص): اللهم اشهد.

ثم قال (ص): إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً.

فنادى مناد: بأبي أنت وأمي يا رسول الله وما الثقلان؟

---

(١) رابغ تقع الآن على الطريق بين مكة والمدينة.

(٢) من مواقيت الإحرام وتتشعب منها طرق المدنيين والمصريين والعراقيين.

(٣) سورة المائدة: ٦٧.

قال (ص) : كتاب الله سبب طرف بيد الله، وطرف بأيديكم، فتمسكوا به، والآخر عترتي وان اللطيف الخبير أنبأني أنهما لم يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، فلا تقدموهما فتهلكوا ولا تقصروا عنهما فتهلكوا.

وهنا أخذ بيد علي (ع) ورفعهما حتى رؤي بياض أباطهما وعرفه الناس أجمعون ثم قال: أيها الناس من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم.

قالوا: الله ورسوله أعلم.

فقال (ص): إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم فمن كنت مولاه فعلي مولاه[١] اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره، واخذل من خذله وأحب من أحبه وأبغض من ابغضه وادر الحق معه حيث دار[٢].

واقعة الغدير خالدة إلى الأبد:

ولقد تعلقت المشيئة الربانية بأن تبقى واقعة الغدير التاريخية في جميع القرون والعصور كتاريخ حي يجتذب القلوب والأفئدة، ويكتب عنه الكُتاب الإسلاميون في كل عصر وزمان ويتحدثون حوله في مؤلفاتهم المتنوعة في مجال التفسير والتاريخ والحديث والعقائد، كما يتحدث حوله الخطباء في مجالس الوعظ ومن فوق صهوات المنابر، ويعتبرونها من فضائل الإمام علي الذي لا يتطرق إليها أي شك أو ريب.

ولم يقتصر هذا على الكتاب والخطباء بل استلهم الشعراء من هذه الواقعة الكبرى التي فجرت بالتكفير حول هذه الحادثة، وبالإخلاص لصاحب الولاية ينابيع التعبير في وجودهم فأنشئوا أروع القصائد وجادت قرائحهم بأنواع مختلفة من القصيد الجميل وخلفوا لمن بعدهم وبلغات مختلفة آثاراً أدبية وولائية خالدة.

ولهذا قلما نجد حادثة تاريخية حظيت في العالم البشري عامة وفي التاريخ الإسلامي والأمة الإسلامية خاصة بمثل ما حظيت به واقعة الغدير وقلما استقطبت اهتمام الفئات المختلفة من المحدثين والمفسرين والكلاميين والفلاسفة والشعراء والأدباء والكتاب والخطباء، وأرباب السير والمؤرخين كما استقطبته هذه الحادثة، وقلما اعتنوا بشيء مثلما اعتنوا بها.

إن من أسباب خلود هذه الواقعة الكبرى ودوام هذا الحديث هو نزول آيتين من آيات القرآن الكريم فيها[٣] فما دام القرآن الكريم باقياً مستمراً يتلى آناء الليل وأطراف النهار تبقى هذه الحادثة في الأذهان والنفوس ولا تمحو خاطرتها من العقول والقلوب.

---

(١) لقد كرر النبي (ص) هذه العبارة ثلاث مرات دفعاً لأي التباس أو اشتباه.

(٢) راجع للوقوف الكامل على مصادر هذا الحديث المتواتر موسوعة الغدير للعلامة الأميني (ره).

(٣) سورة المائدة: ٦٧و٣.

وحيث أن المجتمع الإسلامي في العصور الغابرة وكذا الطائفة الشيعية كانوا يعتبرون هذا اليوم عيداً كبيراً من الأعياد الدينية، وكانوا يقيمون فيها ما يقيمونه من المراسيم في الأعياد الإسلامية لهذا فإن هذه الحادثة التاريخية (حادثة الغدير) قد اتخذت طابع الأبدية والخلود الذي لا تمحى معه خاطرتها من الأذهان والخواطر.

هذا ويستفاد من مراجعة التاريخ بوضوح أن اليوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة الحرام كان معروفاً بين المسلمين بيوم عيد الغدير وكانت هذه التسمية تحظى بشهرة كبيرة إلى درجة أن ابن خلكان يقول حول المستعلى بن المستنصر:

فبويع في يوم غدير خم وهو الثامن من شهر ذي الحجة سنة ٤٨٧[١].

وقال في ترجمة المستنصر بالله العبيدي: وتوفي ليلة الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة قلت: وهذه هي ليلة عيد الغدير أعني ليلة الثامن عشر من شهر ذي الحجة وهو غدير خم[٢].

وقد عده أبو ريحان البيروني في كتابه الآثار الباقية مما استعمله أهل الإسلام من الأعياد[٣] وليس لابن خلكان وأبو ريحان البيروني هما الوحيدان اللذان صرحا بكون هذا اليوم هو عيد من الأعياد، بل الثعالبي قد اعتبر هو الآخر ليلة الغدير من الليالي المعروفة بين المسلمين[٤].

إن عهد هذا العيد الإسلامي وجذوره ترجع إلى نفس يوم الغدير لأن النبي (ص) أمر المهاجرين والأنصار بل أمر زوجاته ونساءه في ذلك اليوم بالدخول على علي (ع) وتهنئته بهذه الفضيلة الكبرى.

يقول زيد بن أرقم: كان أول من صافح النبي (ص) وعلياً أبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وباقي المهاجرين والأنصار وباقي الناس[٥].

ونحن باجتماعنا الباهر في هذا اليوم الزاهر، نجسد ولاءنا الخالص لصاحب الولاية، الذي ضحى بنفسه ونفيسه في سبيل نشر الدين ودعم أركانه.

سلام الله عليه يوم ولد ويوم استشهد ويوم يبعث حياً. ❖

---

(١) وفيات الأعيان: ج١، ص٦٠.

(٢) وفيات الأعيان: ج١، ص٦٠.

(٣) ترجمة الآثار الباقية ص٢٩٥ ـ الغدير: ج١، ص٢٦٧.

(٤) ثمار القلوب ص٥١١.

(٥) راجع مصدره في الغدير: ج١، ص٢٧٠.

منظومة الحقوق في عهد الأشتر

د . إياد محمّد عليّ الأرناؤوطيّ
كليّة التربية، ابن رشد، جامعة بغداد

أعني بالمنظومة: مجموعة من المكوّنات الجزئيّة الّتي تمتلك نوعا من الاستقلال من جانب، في حين تتضافر لأداء مهمّة واحدة، تتحلّل إلى مجموعة من المهامّ الجزئيّة من جانب آخر، فالمنظومة واحدة، من حيث آليّة أدائها لعملها بمكوّناتها المتعدّدة، والغاية الّتي تعمل لأجلها.

(الحقّ) في اللغة:

ذكر الرّاغب الأصفهاني للحق أربعة معان، رابعها: "للفعل، والقول الواقع بحسب ما يجب، وبقدر ما يجب، وفى الوقت الذّي يجب، كقولنا: فعلك حق، وقولك حق... ويقال أحققت كذا، أي أثبته: حقاً، أو حكمت بكونه حقاً"[1]. يلحظ أنّه: لا بد من طرفين، أحدهما: له الحقّ، والآخر: مكلّف، عليه الحقّ، فهما متضايفان لا يعقل أحدهما من دون الآخر. ولا بد من مرجعيّة للحق، سواء أكانت هذه المرجعيّة العقل الحاكم بالأدلة، أو جهة لها حق التّشريع.

الحقوق في الحياة الإنسانيّة:

أفاض أمير المؤمنين علي (ع) في الحديث عن الحقوق في الحياة الإنسانيّة في خطبة له، فقال: "أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ جَعَلَ اللّهُ لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً بِوِلاَيَةِ أَمْرِكُمْ، وَلَكُمْ عَلَيَّ مِنَ الْحَقِّ مِثْلُ الَّذِي لِي عَلَيْكُمْ، فَالْحَقُّ أَوْسَعُ الأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ، وَأَضْيَقُهَا فِي التَّنَاصُفِ، لاَ يَجْرِي لأَحَد إِلاَّ جَرَى عَلَيْهِ، وَلاَ يَجْرِي عَلَيْهِ إِلاَّ جَرَى لَهُ، وَلَوْ كَانَ لأَحَد أَنْ يَجْرِيَ لَهُ وَلاَ يَجْرِيَ عَلَيْهِ، لَكَانَ ذلِكَ خَالِصاً للّه سُبْحَانَهُ دُونَ خَلْقِهِ، لِقُدْرَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَلِعَدْلِهِ فِي كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ قَضَائِهِ، وَلَكِنَّهُ جَعَلَ حَقَّهُ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُطِيعُوهُ، وَجَعَلَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْهِ مُضَاعَفَةَ الثَّوَابِ تَفَضُّلاً مِنْهُ، وَتَوَسُّعاً بِمَا هُوَ مِنَ الْمَزِيدِ أَهْلُهُ. ثُمَّ جَعَلَ - سُبْحَانَهُ - مِنْ حُقُوقِهِ حقوقاً افْتَرَضَهَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْض، فَجَعَلَهَا تَتَكَافَأُ فِي وُجُوهِهَا، وَيُوجِبُ بَعْضُهَا بَعْضاً، وَلاَ يُسْتَوْجَبُ بَعْضُهَا إِلاَّ بِبَعْض. وَأَعْظَمُ مَا افْتَرَضَ سُبْحَانَهُ مِنْ تِلْكَ الْحُقُوقِ حَقُّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ، وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ، عَلَى الْوَالِي، فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا اللّهُ - سُبْحَانَهُ - لِكُلّ عَلَى كُلّ، فَجَعَلَهَا نِظَاماً لأُلْفَتِهِمْ، وَعِزّاً

---

(١) مفردات غريب القرآن ١٢٥ - ١٢٦.

لِدِينِهِمْ، فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلاَّ بِصَلاَحِ الْوُلاَةِ، وَلاَ تَصْلُحُ الْوُلاَةُ إِلاَّ بِاسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ. فَإِذَا أَدَّتِ الرَّعِيَّةُ إِلَى الْوَالِي حَقَّهُ، وَأَدَّى الْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا، عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ، وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ، وَاعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ، وَجَرَتْ عَلَى إِذْلاَلِهَا السُّنَنُ، فَصَلَحَ بِذلِكَ الزَّمَانُ، وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَيَئِسَتْ مَطَامِعُ الأَعْدَاءِ. وَإِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالِيَهَا، أَوْ أَجْحَفَ الْوَالِي بِرَعِيَّتِهِ، اخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ الْكَلِمَةُ، وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ الْجَوْرِ، وَكَثُرَ الأَدْغَالُ فِي الدِّينِ، وَتُرِكَتْ مَحَاجُّ السُّنَنِ، فَعُمِلَ بِالْهَوَى، وَعُطِّلَتِ الأَحْكَامُ، وَكَثُرَتْ عِلَلُ النُّفُوسِ، فَلاَ يُسْتَوْحَشُ لِعَظِيمِ حَقٍّ عُطِّلَ، وَلاَ لِعَظِيمِ بَاطِلٍ فُعِلَ! فَهُنَالِكَ تَذِلُّ الأَبْرَارُ، وَتَعِزُّ الأَشْرَارُ، وَتَعْظُمُ تَبِعَاتُ اللهِ عِنْدَ الْعِبَادِ"[1].

ومن هذه الخطبة تتضح رؤية أمير المؤمنين (ع) في مسألة الحقوق، وهذه فحواها:

١ ـ أنّ الحقوق مجعولة من الله تعالى، فله وحده حق تشريعها.

٢ ـ على رغم حلاوة الحق في الكلام، في الإنسان ميل غريزي لإجحاف حقوق غيره، **"فَالْحَقُّ أَوْسَعُ الأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ، وَأَضْيَقُهَا فِي التَّنَاصُفِ"**.

٣ ـ تضايف الحقوق سنة إلهيّة مطّردة لا يستثنى منها مخلوق، فمن وجب له حق على أحد وجب عليه حق تجاهه **"لاَ يَجْرِي لأَحَدٍ إِلاَّ جَرَى عَلَيْهِ، وَلاَ يَجْرِي عَلَيْهِ إِلاَّ جَرَى لَهُ"**.

٤ ـ لم يستثن الله تعالى ذاته المقدّسة من هذه السنّة المطّردة، إذ جعل لنفسه حقوقاً على خلقه، وجعل لخلقه حقوقاً عليه، تفضّلا منه ورحمة.

وقد جاء في الحديث الشّريف عن معاذ بن جبل: **"يا معاذ بن جبل، هل تدري ما حق الله على عباده، وما حق العباد على الله؟ فإن حق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله: أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً"**[2].

٥ ـ لو كان الحق يجري لأحد ولا يجري عليه لكان الأجدر بذلك هو الله تعالى، لسببين:

"الأوّل: أنّه القادر المطلق، فلا يعجزه شيء، يستطيع أن يقهر عباده على حقوقه، ويحملهم عليها، ولا يعطيهم شيئاً، وأمّا غيره فلا يملك ذلك.

الثاني: أنّه لو لم يجزهم بأعمالهم، ومع ذلك كلّفهم بها لكان عادلاً، لأنّ له من النعم على العباد ما لو عبدوه مدى الدّهر لم يوفوه حقّ نعمة واحدة منها"[3].

٦ ـ جعل الله تعالى من حقوقه حقوقاً لبعض الناس على بعض، فهي حقوق مزدوجة الجانب، من انتهكها انتهك حقّين، أحدهما لله الذي افترضها، والآخر للطرف الذي افترض الله له الحق.

---

(١) نهج البلاغة، خ٢١٦، ٢/ ١٩٨.

(٢) كنز العمال ١ / ٧٢، الحديث ٢٨٣.

(٣) شرح نهج البلاغة (الموسوي) ٣/ ٤٩٧.

٧ ـ لا تستقيم الحياة الإنسانيّة وتصلح إلا برعاية الحقوق، حقّ الله، والحقوق المتبادلة بين البشر، الّتي هي من وجه آخر حقوق لله.

يرسم أمير المؤمنين في عهد الأشتر لوحة متكاملة لمنظومة الحقوق بين الرّاعي (الدّولة) والرّعيّة (الشّعب).

واجبات الدّولة (الحقوق الّتي عليها):

قال أمير المؤمنين في مقدمة عهده: "**هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللهِ عَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الأَشْتَرَ فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ، حِينَ وَلاَّهُ مِصْرَ: جِبَايَةَ خَرَاجِهَا، وَجِهَادَ عَدُوِّهَا، وَاسْتِصْلاَحَ أَهْلِهَا، وَعِمَارَةَ بِلاَدِهَا**"[1]، وبذلك يحدد واجبات الدّولة عامة، ولاسيما سلطتها التّنفيذيّة، هذه الواجبات تنطوي على حقوق على الرعيّة أدائها، لذا كانت مفردات مهمة في منظومة الحقوق، وقد حددها بأربعة، هي:

١ ـ جباية الخراج:

تعني اليوم الموارد الاقتصاديّة عامة، إذ لم تعد واردات الدّولة الحديثة تنحصر، كما كانت، في الزّراعة فقط، بل تشعبت بعد الثّورة الصّناعيّة واتسعت، وكل تطور اقتصادي يحصل في البلاد على مستوى القطاعين: العام والخاص ينعكس إيجاباً على المجتمع بكامله. وفي تقديمه على بقيّة الواجبات إشارة إلى عظم أهميته من جانب، فهو عصب الحياة، وضمان استمرارها، وإشارة، من جانب آخر، إلى أنّ الدّولة لا يمكنها تحقيق واجباته الأخرى إلا بعد تحقيقه، إذ لا تدار عجلتها إلا به. وإذا كان على الدولة واجب الإفادة من الموارد الاقتصادية، فعلى الرعيّة أداء ما عليها في هذا المجال، وإلا تعطلت وظيفة الدولة.

وترى اتجاهات معاصرة "أن دور الحكومة في المجال الاقتصادي دور تنظيمي رقابي محدود. وأن الحكومة تتولى فقط تلك الأعمال الّتي لا يستطيع أو لا يرغب أفراد المجتمع في القيام بها بأنفسهم، ولذا رأى أصحاب هذا الرّأي أن أفضل حكومة هي الّتي تحكم أقل ما يمكن، والواضح أن هذا الفكر يفترض مجتمعاً يتميز أفراده بقدرات واستعدادات وتأهيل يخلق قطاعاً خاصاً قادراً على تحقيق كثير من مطالب المجتمع... فبدلاً من أن تكون مسؤولة عن تنفيذ وإدارة مشروعات التّنمية بذاتها، تصبح مسؤوليتها الأساسيّة ـ في مجال النشاط الاقتصادي ـ التّخطيط العام لمشروعات التّنمية، تنظيم ومراقبة تجاه الاقتصاد القومي والتّأكد من سلامته وحل مشاكله، والرّقابة على تنفيذ وحدات القطاع الخاص لعقود المشروعات المبرمة معها، وتلك الأعمال الضروريّة الّتي لا يستطيع أو لا يرغب

---

(١) نهج البلاغة: ٥٣، ٨٢/٣ ـ ٨٣.

أفراد وجماعات المجتمع في القيام بها بأنفسهم"[١]، ويمكن التّعامل مع هذه الاتجاهات في ضوء موقف الإسلام من الملكيّة، فالإسلام "قرر الأشكال المختلفة للملكيّة في وقت واحد، فيضع بذلك مبدأ الملكيّة المزدوجة (الملكيّة ذات الأشكال المتنوعة) بدلاً عن مبدأ الشّكل الواحد للملكيّة، الذي أخذت به الرّأسماليّة والاشتراكيّة. فهو يؤمن بالملكيّة الخاصة، والملكيّة العامة، وملكيّة الدّولة. يخصص لكل واحد من هذه الأشكال الثّلاثة للملكيّة حقلاً خاصاً تعمل به"[٢].

٢ ـ جهاد العدو:

ربّما تبادر إلى ذهن الدّارس أنّ هذا يختصّ بالجانب العسكري وحده، فقد فسره الشّيخ محمد جواد مغنيّة بـ "الشّؤون الحربيّة"[٣]، وهذا ما لا نوافقه فيه، فلا مسوّغ لحصر الجهاد بالجانب الحربي فقط، وقد استعمله القرآن الكريم في جهاد النفس أيضا، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[٤]، وكذلك الرّسول الأعظم (ص): فقد "**روي عن أبي عبد الله (ع) أن النبي (ص) بعث بسريّة فلما رجعوا قال: مرحبا بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي الجهاد الأكبر، قيل: يا رسول الله ما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس**"[٥]، وقد تطورت أساليب الأعداء في محاربة الإسلام وأهله، واتسعت لتشمل الجوانب: الإعلاميّة، والفكريّة، والاقتصاديّة، فضلاً عن العسكريّة، ومواجهتهم في كل هذه الميادين من واجبات الدّولة وأهدافها.

ولا مسوغ لحصر العدو بالعدو الخارجي فقط، فالأعداء الداخليون: من شراذم النفاق، وعملاء الأجنبي، وأرباب المصالح المتضررة بدولة الحق والعدل، لا يقلون خطرا عن العدو الخارجي، بل خطر هؤلاء في تصديع الجبهة الدّاخليّة أكبر من خطر العدو الخارجي، ذي الأساليب المكشوفة، والمطامع المفضوحة، وقد خاض أمير المؤمنين (ع) حروبه كلّها في مدّة خلافته، في مواجهة الأعداء الدّاخليين. فلفظ العدو يشمل العدوين: الدّاخلي الممزق المخرب، والخارجي الطامع. وبذلك يتسع لكل من يريد السّوء بالإسلام وأهله.

ولاشك في أنّ المسؤولية مشتركة في ذلك بين الدولة والرعيّة، على كل أن يؤدي ما عليه منها، فمهمة الدولة توجيه وتنظيم الجهد الجهادي بمعناه الواسع، ومهمة الرعية الجهاد المقدّس.

---

(١) دراسة السياسة العامة ٧٠ ـ ٧١.

(٢) اقتصادنا ٢٨٢.

(٣) في ظلال نهج البلاغة ٤٧.

(٤) العنكبوت ٦٩.

(٥) شرح أصول الكافي: ١ / ٢٦٢.

٣- استصلاح الأهل:

فسّره الشّيخ محمد جواد مغنيّة بـ "استصلاح حال المواطنين، ويشمل: الأمن، والثّقافة، والصّحة، ووظائف الدّولة والخدمات، وما إلى ذلك من الشّؤون الاجتماعيّة"[١]، ومفهوم الإصلاح في القرآن الكريم لا يتخصص بميدان أبدا، بل يتسع ليشمل جوانب الحياة الإنسانيّة كافة، وهو هدف النبيين، فقال تعالى على لسان نبيه شعيب (ع): ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[٢]. ويتسع ليشمل الدّين، ويمتدّ بعيداً ليشمل أمر الآخرة فضلاً عن الدّنيا، فقد جاء عن الإمام السّجاد(ع) دعاؤه لربه الكريم: **"أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي الّتي فيها معيشتي، وأصلح لي آخرتي الّتي إليها منقلبي"**[٣].

"وحين تحتد الفروق الاقتصاديّة، فتتسع وتعمق، تغيض منابع الفضيلة من المجتمع، وتسوده نوازع الحيوان. ... إن الجائع الذي لا يجد ما يسد جوعته وإن خشن وهان، والعاري الذي يجد للريح مثل لسع السّياط، وللشمس مثل مس الحميم، ... إن هؤلاء ينقلبون إلى قتلة ومجرمين ولصوص حين لا يجدون ما يسدون به حاجاتهم الأوليّة من طريق مشروع. وهكذا يظهر إلى العيان الصّراع الطبقي بالرّغم من أن المثل الأعلى هو الفضيلة ومكارم الأخلاق"[٤].

فاستصلاح الأهل يعني: النهوض بالإنسان، فرداً ومجتمعاً، من خلال تفجير طاقاته الإبداعيّة الكامنة، وتطوير قدراته المتحققة، وعلاج مكامن الضعف فيه حيثما وجدت، في أمور الدّين والدّنيا، ولا مسوّغ لتحديده بمحدد، وحيث كان الفساد اقتضت المعالجة بالإصلاح. وإذا كان واجب الدولة توفير مستلزمات الإصلاح فواجب الرعية الاستجابة والمشاركة الفاعلة فيه.

٤ ـ عمارة البلاد:

قال في تفسيرها الشّيخ محمد جواد مغنيّة "وتعم الزّراعة والصّناعة والتّجارة والإسكان والمواصلات"[٥]، وهذا تخصيص لها في الجوانب الماديّة فقط، وقد وردت المادة اللغويّة (عمر) بالمعنى نفسه في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾[٦]، الّتي قال الرّازي في تفسيرها: "عمارة المساجد قسمان: إما بلزومها وكثرة إتيانها يقال: فلان يعمر مجلس فلان إذا كثر غشيانه إياه، وإما بالعمارة المعروفة في البناء، فإن كان المراد هو

---

(١) في ظلال نهج البلاغة ٤٧.

(٢) هود: ٨٨.

(٣) الصّحيفة السجاديّة ٢٩٠.

(٤) دراسات في نهج البلاغة ٣٧ ـ ٣٨.

(٥) في ظلال نهج البلاغة ٤٧.

(٦) التّوبة: ١٨.

الثاني، كان المعنى أنه ليس للكافر أن يقدم على مرمة المساجد. وإنما لم يجز له ذلك لأن المسجد موضع العبادة فيجب أن يكون معظما والكافر يهينه ولا يعظمه، وأيضاً الكافر نجس في الحكم، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[1] وتطهير المساجد واجب لقوله تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[2]، وأيضاً الكافر لا يحترز من النجاسات، فدخوله في المسجد تلويث للمسجد، وذلك قد يؤدي إلى فساد عبادة المسلمين. وأيضا إقدامه على مرمة المسجد يجري مجرى الإنعام على المسلمين، ولا يجوز أن يصير الكافر صاحب المنة على المسلمين"[3].

وفصّل الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازي فقال: "من جملة المسائل الّتي يمكن أن تخالط أذهان البعض بعد إلغاء عهد المشركين وحكم الجهاد، هو: لم نبعد هذه الجماعة العظيمة من المشركين عن المسجد الحرام لأداء مناسك الحج، مع أن مساهمتهم في هذه المراسم عمارة للمسجد من جميع الوجوه: الماديّة والمعنويّة، إذ يستفاد من إعاناتهم المهمة لبناء المسجد الحرام، كما يكون لوجودهم أثر معنوي في زيادة الحاج والطائفين حول الكعبة المشرفة وبيت الله فالآيتان ـ محل البحث ـ تردان على مثل هذه الأفكار الواهية الّتي لا أساس لها، وتصرح الآية الأولى منهما بالقول: ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر. وشهادتهم على كفرهم جليّة من خلال أحاديثهم وأعمالهم، بل هي واضحة في طريقة عبادتهم ومراسم حجهم. ثم تشير الآية إلى فلسفة هذا الحكم فتقول: أولئك حبطت أعمالهم. ولذلك فهي لا تجديهم نفعاً: وفي النار هم خالدون. فمع هذه الحال لا خير في مساعيهم لعمارة المسجد الحرام وبنائه وما إلى ذلك، كما لا فائدة من كثرتهم واحتشادهم حول الكعبة. فالله طاهر منزه، وينبغي أن يكون بيته طاهراً منزها كذلك، فلا يصح أن تمسه الأيدي الملوثة بالشّرك"[4]. فعمارة المساجد الحقيقيّة لا تتم ببنائها وزخرفتها، فذلك مما يمكن أن يقوم به كل إنسان، وإنّما بأهلها من أهل الإيمان الذّين لتربيتهم بني المسجد، وعلى عقائدهم قامت دعائمه، قال أمير المؤمنين (ع) "**يأتي على الناس زمان لا يبقى فيه من القرآن إلا رسمه، ومن الإسلام إلا اسمه. مساجدهم يومئذ عامرة من البنى، خراب من الهدى**"[5]، فلو كان العمران مختص بالبناء المادي لما احتاج الإمام إلى قيد (من البنى).

---

(١) التّوبة: ٢٨.

(٢) البقرة: ١٢٥.

(٣) التّفسير الكبير: ١٦ / ٧.

(٤) الأمثل: ٥ / ٥٥٣ ـ ٥٥٤.

(٥) نهج البلاغة ٤ /٨٧ ـ ٨٨.

إنّ عمارة البلاد في الإسلام لا تتحقق بالازدهار العمراني المادي في الزّراعة والصّناعة والتّجارة فحسب، وإنما أيضاً بالمجتمع الصّالح الذي يقطنها، لذا، والله أعلم، جعلها أمير المؤمنين (ع) آخر الواجبات، بعد استصلاح الأهل، فعمارة البلاد تتم من خلال تشييد حضارة إسلاميّة قوامها المجتمع الصّالح: عقلاً، ونفساً، وجسماً، والاقتصاد المزدهر، فيعم الخير كل مكان، في العباد والبلاد.

حقوق الرّعيّة العامّة (حقوق الإنسان):

أعني بها الحقوق الّتي لا يتفاضل بها النّاس، وهي الّتي تسمى اليوم: حقوق الإنسان. وقد درج مؤرخو حقوق الإنسان على تغافل ما قدّمته الرّسالة الإسلاميّة في هذا الميدان، فأرخوا القرن الثّامن عشر انطلاقة في مسيرة هذه الحقوق، إذ صدر الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان في (١٧٨٩/٨/٢٨) الثامن والعشرين من شهر آب عام تسع وثمانين وسبعمئة وألف، الذي أصبح جزءاً من الدّستور الفرنسي في (١٧٩١/٩/٣) الثالث من أيلول عام واحد وتسعين وسبعمئة وألف[١].

وفي العاشر من كانون الأول عام ثمانية وأربعين وتسعمئة وألف (١٩٤٨/١٢/١٠) شهد التّاريخ البشري إقرار هيأة الأمم المتحدة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان إثر تعاظم الدّعوة البشريّة العارمة المطالبة بتلك الحقوق بعد معاناة طويلة استمرت قرونا متطاولة[٢].

يعني مصطلح (حقوق الإنسان) اليوم "تلك الحقوق الطبيعيّة الأساسيّة المتصلة بشخصه بوصفه آدمياً[٣]، والّتي يستوي بالنسبة لها جميع بني الإنسان"[٤]، فهي امتيازات يستحقها الإنسان من حيث أنّه إنسان. هذه الحقوق تتسم بسمتين: إحداهما: أنّها موروثة، وليست مكتسبة، يستحقها الإنسان لإنسانيته. والآخر: أنّ بني الإنسان ينالونها بالتّساوي، بلا تفاضل بينهم.

اشتدت الدّعوة إلى احترام هذه الحقوق والتزامها إثر الحرب العالميّة الثانية، وما شهدته من مجازر وحشيّة، ذهب ضحيتها الملايين من الرّجال والنساء والأطفال، رمياً بالرّصاص، أو قتلاً بالغازات السّامة الخانقة، فضلاً عن استعمال مختلف أساليب التّعذيب الوحشي كالكي بالنار، ونزع الأظافر، وفرض الأشغال الشّاقة[٥].

ولا يتسع البحث للاستطراد في تفاصيل المواثيق الدّوليّة في الموضوع، وسنشير في بحثنا في عهد الأشتر إلى ما ينبغي الإشارة إليه من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، إلا أنّه لا بد من تأكيد الآتي:

---

(١) ينظر: حقوق الإنسان (التّسخيري)، المقدمة، ٧ - ٨.

(٢) ينظر: نفسه، المقدمة، ٧.

(٣) في الأصل (كآدمي)، والصّواب ما أثبتّه.

(٤) حقوق الإنسان (د. عبد الكريم علوان) ٧.

(٥) ينظر: حقوق الإنسان (د. عبد الكريم علوان) ٨.

١ ـ أنّ أنبياء الله وخلفاءهم يبلغون عن الله، وأنّ الرّسالات الإلهيّة ستبقى حججاً على الفكر الوضعي، قديمه وحديثه، مهما بدا سائغاً، فحقائق الله مطلقة، وحقائق الإنسان نسبيّة، وهي وليدة الحضارة الّتي أفرزتهما.

٢ ـ أنّ المواثيق الدّوليّة صيغت بلغة فضفاضة ينتابها الكثير من الغموض، لعدم استنادها إلى رؤية كونيّة شاملة للعالم، محددة المعالم، واضحة الأسس، في حين تستند الرّؤية الإسلاميّة إلى أسس واضحة قوامها عبوديّة الإنسان لله وحده، وقد خلق لمسيرة تكامليّة تنتهي بلقاء الله، وهو مسؤول عما يعتقد ويفعل، وملاق جزاءه في حياة أبديّة خالدة.

٣ ـ تحدثت المواثيق الدّوليّة عن حقوق الإنسان، ولم تتحدث عن واجباته[١]، فافتقرت إلى معادلة متوازنة، وعلى التّوازن يقوم نظام التّكوين، وعليه ينبغي أن يقوم نظام التّشريع السّليم، "فالإنسان الذي يمكن أن نتصور له حقوقاً هو الموجود الذي يمتلك بطبيعته عناصر فطريّة، تولد معه، وتبقى معه، وهي تتطلب في الواقع مسيرة معينة إذا خرج عنها خرج عن الصّفة الإنسانيّة ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٢] ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[٣]. وإذا عومل معاملة تخالف فطرته كانت تلك الممارسة ممارسة لا إنسانيّة"[٤].

٤ ـ حقوق الإنسان في ضوء المواثيق الدّوليّة حقائق وجدانيّة "لا نستطيع الاستدلال عليها إلا بها... فبالوجدان نصل إلى ما نقطع من أحكام عقليّة تشكل أسساً لمعرفتنا كلها، وبه أيضاً نصل إلى ما نؤمن به جميعاً من حسن في الأفعال، أو[٥] قبح فيها، لتبنى عليها كلّ البنى الأخلاقيّة والاجتماعيّة"[٦].

٥ ـ يبقى السّؤال قائماً أمام تلك المواثيق الدّوليّة، عاجزة عن الإجابة: كيف يثبت حقّ لشخص؟ وما منشأ الحقّ وأصله؟ وجواب الإسلام: الله منشأ الحقوق، إذ له وحده حقّ التّشريع، وأفعاله ناشئة من الحكمة ورعاية المصالح الواقعيّة، وقد خلق الإنسان ليصل

---

(١) النظريّة الحقوقيّة في الإسلام ١/٢٨٧.

(٢) الحشر: ١٩.

(٣) الأعراف: ١٧٩.

(٤) حقوق الإنسان (التّسخيري) ١٧ ـ ١٨.

(٥) في المطبوع (و)، والسياق يقتضي (أو).

(٦) حقوق الإنسان (التّسخيري) ٢١ ـ ٢٢.

بسلوكه الاختياري إلى سعادته الأبديّة، وكماله، بالقرب من ربه الكريم، فشرّع ماله من الحقوق، وما عليه من الواجبات[١].

حقوق الإنسان في عهد الأشتر:

لقد تضمّن عهد الأشتر إجمالاً كل ما منحته الرّسالة الإسلاميّة المقدسة للإنسان من حقوق، من خلال أمرين:

الأول: أمر الإمام أمير المؤمنين (ع) واليه بالتزام كتاب الله: فرائض وسنن، إذ قال (ع) عن نفسه والأشتر: "**أَمَرَهُ بِتَقْوَى اللهِ، وَإِيثَارِ طَاعَتِهِ، وَاتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ: مِنْ فَرَائِضِهِ وَسُنَنِهِ، الَّتِي لاَ يَسْعَدُ أَحَدٌ إِلاَّ بِاتِّبَاعِهَا، وَلاَ يَشْقَى إِلاَّ مَعَ جُحُودِهَا وَإِضَاعَتِهَا**"[٢].

الثاني: تأكيد مرجعيّة كتاب الله تعالى، وسنة رسوله (ص) في كل مسألة تثير خلافاً، إذ قال (ع): "**وَارْدُدْ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ مَا يُضْلِعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ، وَيَشْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ الأُمُورِ، فَقَدْ قَالَ اللهُ تعالى لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾، **فَالرَّدُّ إِلَى اللهِ: الأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ، وَالرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ: الأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُفَرِّقَةِ**"[٣].

ومن المألوف أن لا نجد في عهد الأشتر تفاصيل هذه الحقوق، لما يأتي:

١ ـ ليس العهد وثيقة متخصصة في حقوق الإنسان، وإنما هو دليل عمل كتبه إمام الأمة، والقائد الأعلى للدولة، إلى عامل من عماله.

٢ ـ المخاطب بالعهد هو شخص العامل، ولم يشرك أمير المؤمنين (ع) الأمة في الخطاب، ليفصل القول في حقوق الإنسان وواجباته، لذا وردت أغلب الإشارات للحقوق لا الواجبات.

وصرّح العهد تفصيلاً ببعض هذه الحقوق، وهو ما يهمنا في هذا البحث، من ذلك:

١ ـ حقّ الحياة:

الحياة هبة الرّب الرّحمن الرّحيم لخلقه، ليس لأحد أن يستلبها منهم إلا بالحق، الذي تقرره شريعته سبحانه، وحين سأل الرّسول (ص) أمير المؤمنين (ع): "**ما أول نعمة بلاك الله (عز وجل)، وأنعم عليك بها ؟ قال: أن خلقني جل ثناؤه. ولم أك شيئاً مذكورا. قال: صدقت، فما الثانية ؟ قال: أن أحسن بي إذ خلقني فجعلني حياً لا ميتاً**"[٤]، فلو انتفى هذا الحق لكان

---

(١) ينظر: النظريّة الحقوقيّة في الإسلام، ١/ ٢٦٩ ـ ٢٧١.

(٢) نهج البلاغة: ٥٣، ٣/ ٨٣.

(٣) نهج البلاغة: ٥٣، ٣/ ٩٣ ـ ٩٤.

(٤) الأمالي ٤٩٢.

خلق الله الإنسان عمليّة عبثيّة لا حكمة من ورائها، ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[١].

ولتوقفت حركة الإنسان في مسيرته التّكامليّة[٢].

لذا قرر القرآن الكريم أنّ قتل النفس البشريّة اعتداء على الإنسانيّة كلها، فقال سبحانه: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[٣].

ومن حقوق الإنسان أن يشعر بالأمان على حياته، بل ليس ما هو أهم من هذا الشّعور، ومن دونه ينتفي الشّعور بالسّعادة الفرديّة، وتتعطل قدرات الإنسان على الأداء السّليم لأعماله في حياته اليومية[٤].

أشار العهد إلى حق الحياة لكل إنسان، فقال أمير المؤمنين (ع): **"إِيَّاكَ وَالدِّمَاءَ وَسَفْكَهَا بِغَيْرِ حِلِّهَا، ... وَلاَ عُذْرَ لَكَ عِنْدَ اللهِ وَلاَ عِنْدِي فِي قَتْلِ الْعَمدِ، لانَّ فِيهِ قَوَدَ الْبَدَنِ، وَإِنِ ابْتُلِيتَ بِخَطَأ وَأَفْرَطَ عَلَيْكَ سَوْطُكَ أَوْ سَيْفُكَ أَوْ يَدُكَ بِعُقُوبَة، فَإِنَّ فِي الْوَكْزَةِ فَمَا فَوْقَهَا مَقْتَلَةً، فَلاَ تَطْمَحَنَّ بِكَ نَخْوَةُ سُلْطَانِكَ عَنْ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ حَقَّهُمْ"**[٥]، ومما جاء في المادة الثّالثة من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان: "لكل فرد الحق في الحياة والحرية وسلامة شخصه"، والحرية معنى عائم فضفاض ينبغي تحديده لتبيان الموقف منه.

مما يلفت النظر في العهد أنّه أشار ضمنا إلى أنّ حق الإنسان في الحياة ليس ثابتاً ثبوتاً مطلقاً، فحق الحاكم نفسه في الحياة ينتفي عند ارتكابه جريمة القتل العمد **وَلاَ عُذْرَ لَكَ عِنْدَ اللهِ وَلاَ عِنْدِي فِي قَتْلِ الْعَمدِ**، وإذا انتفى حق الحاكم بالحياة فانتفاء حق المحكوم من باب أولى، وكأنّه يشير ضمناً إلى أنّ واجب الإنسان المقابل لحقه في الحياة هو احترام حق الآخرين بها، وهو المفهوم من قوله سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[٧] وقد أشار الإعلان العالمي لحقوق

---

(١) الإسراء: ٤٣.

(٢) النظريّة الحقوقيّة في الإسلام ١/٢٨٣.

(٣) المائدة: ٣٢.

(٤) ينظر: نظريّة الحريات العامة ٥٥

(٥) نهج البلاغة: ٥٣، ٣/ ١٠٧ ـ ١٠٨

(٦) البقرة: ١٧٩.

(٧) المائدة: ٤٥.

الإنسان في المادة الحادية والعشرين إلى خضوع الإنسان الفرد إلى القيود القانونية في بلاده لتأمين حقوق الآخرين وحرياتهم، والقيم الأخلاقية للمجتمع الدّيمقراطي، في حين أنه قد أشار سلفا إلى أنّ حقوق الإنسان المدونة في العهد فوق جميع القوانين الدّاخلية والدّولية، وهذا من تناقضات الإعلان[١].

٢ ـ حقّ المساواة في الإنسانية:

البشر نظائر في الخلق، بلا تمييز بمائز آخر، فهم سواسية أخوة من حيث أنهم بشر، مما يقتضي التّواد والتّراحم بينهم، قال أمير المؤمنين (ع): "**وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَلاَ تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ**"[٢]، ومما جاء في المادة الأولى من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان أنّه: "يولد جميع الناس أحراراً متساوين في الكرامة والحقوق، وقد وهبوا عقلاً وضميراً، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضاً بروح الإخاء"، ومما جاء في المادة الثّانية منه: "لكل إنسان حق التّمتع بكل[٣] الحقوق والحريات الواردة في هذا الإعلان، دون أي تمييز، كالتّمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدّين أو الرّأي السّياسي أو أي رأي آخر، أو الأصل الوطني أو الاجتماعي أو الثّروة أو الميلاد أو أي وضع آخر، دون أية تفرقة بين الرّجال والنساء"، ولا زيادة فيه عما جاء في العهد سوى التّفاصيل.

٣ ـ حقّ التّعامل السّمح:

ركّب الله تعالى في الإنسان قوتين تتصارعان في أغلب الأحيان، هما: العقل والشّهوة، ففي حين تحلّق به الأولى إلى حيث رضوان الله وجنانه، تهبط به الأخرى، إذا ما خرجت عن سلطان العقل إلى أسفل سافلين، حيث غضب الله وعقابه، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾[٤]، وبين مقامي: الأحسن تقويم، والأسفل سافلين، تندرج مقامات كثيرة يحل فيها الناس كل بحسب ما بلغه من كمال وتقوى، لا يخرج من ذلك إلا من عصمه سبحانه من الزّلل، وطهره من الرّجس، قال ربنا سبحانه على لسان يوسف (ع): ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٥]، فبشريتهم تقتضي احتمال الزّلل

---

(١) النظريّة الحقوقيّة في الإسلام: ١/٢٨٥ ـ ٢٨٦.

(٢) نهج البلاغة: ٥٣، ٣/٨٤.

(٣) في الأصل المترجم (بكافة)، والصّواب ما أثبتّه.

(٤) التّين: ٤ ـ ٦.

(٥) يوسف: ٥٣.

منهم، عن مقتضى العقل، ومستلزمات التّعايش الاجتماعي، عن قصد، أو من دون قصد، قال (ع): "يَفْرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَلُ، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ، يُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ وَالْخَطَأِ"[١]: و"كل الناس يخطئون، ومن ذا الذي تخلو صحيفته من هفوة، ما دام يعيش مع الناس ويحتك بهم؟ حتى الذي يعيش معتزلا قد يخطئ ويقصر بحق خالقه، ولكنه تعالى يعفو ويصفح عمن يطلب منه العفو والصّفح"[٢]، لذا لزم أن يكون الأصل في معاملة البشر السّماحة والعفو، والعقوبة إجراء تقتضيه عملية تربية الإنسان لتكامله، وتستلزمه المصلحة الاجتماعية العليا. قال (ع): "فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلِ الَّذِي تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيَكَ اللَّهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ، ... وَلاَ تَنْدَمَنَّ عَلَى عَفْوٍ، وَلاَ تَبْجَحَنَّ بِعُقُوبَةٍ، وَلاَ تُسْرِعَنَّ إِلَى بَادِرَةٍ وَجَدْتَ مِنْهَا مَنْدُوحَةً"[٣].

٤ ـ حقّ المساواة في الحقوق العامة:

أي التّعامل العادل المساوي بين الناس فيها، "والمساواة هي حجر الأساس في حقوق الإنسان بوصفه كائنا اجتماعيا يعيش في جماعة، قد تختلف عناصرها العرقية، أو الدّينية، أو اللغوية، أو السّياسية"[٤]، جاء في العهد قوله (ع): "أَنْصِفِ اللَّهَ، وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ، وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ، وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوًى مِنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّكَ إِلاَّ تَفْعَلْ تَظْلِمْ، وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللَّهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ، وَكَانَ للَّه حَرْباً حَتَّى يَنْزِعَ وَيَتُوبَ. وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللَّهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَةٍ عَلَى ظُلْمٍ، فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ دَعْوَةَ الْمُضْطَهَدِينَ، وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ"[٥]، قال البحراني: "أمره بإنصاف الله، وإنصاف الناس من نفسه وأهل هواه من رعيّته، فإنصاف الله: العمل بأوامره، والانتهاء عن زواجره، مقابلاً بذلك نعمه، وإنصاف الناس: العدل فيهم، والخروج إليهم من حقوقهم اللازمة لنفسه وأهل خاصته"[٦]، وإذا تحقق إنصاف الوالي للناس من نفسه وخاصته، تحقق إنصاف بعضهم من بعض من باب أولى، ومما جاء في المادة السّادسة من الإعلان: "لكل إنسان أينما وجد الحق في أن يُعترف بشخصيته القانونية"، وفي المادة السّابعة: "كل الناس سواسية أمام القانون، ولهم الحق في التّمتع بحماية متكافئة عنه دون أية تفرقة، كما أن لهم جميعاً الحق في حماية متساوية ضد أي

---

(١) نهج البلاغة: ٥٣، ٨٤/٣.

(٢) في ظلال نهج البلاغة ٥١/٤ ـ ٥٢.

(٣) نهج البلاغة: ٥٣، ٨٤/٣.

(٤) قانون حقوق الإنسان ٢٢٦.

(٥) نهج البلاغة: ٥٣، ٨٥/٣.

(٦) شرح نهج البلاغة ١٧٨/٥.

تميز يخل بهذا الإعلان وضد أي تحريض على تمييز كهذا"، وفي المادة الثّامنة: "لكل شخص الحق في أن يلجأ إلى المحاكم الوطنية لإنصافه عن أعمال فيها اعتداء على الحقوق الأساسية الّتي يمنحها له القانون"، وإذا كان العهد قد وفّر الحماية للإنسان تجاه الوالي نفسه، فقد وفّرها تجاه سواه ضمناً، وبذلك يتّضح أن لا زيادة في الإعلان عما في العهد.

٥ ـ حقّ الحياة بكرامة:

قال ربنا سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[1]، تشير الآية الكريمة إلى ثلاثة أقسام من المواهب الإلهية الّتي حباها الله لبني البشر[2]:

أولاً: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، ربّما قدّم الله تعالى موهبة الحركة في البر والبحر على المواهب الأخرى، لأنّ الإفادة من الطيبات لا تحدث بلا حركة، وحركة الإنسان على الأرض تستلزم وسيلة نقل، أو أن السّبب هو إظهار سلطة الإنسان على الأرض كلها فلكل نوع من أنواع الموجودات سلطة على جزء محدود منها، أما الإنسان فإنه يحكمها ببرها وبحرها وهوائها.

ثانياً: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، مع الالتفات إلى سعة مفهوم (الطيب) الذي يشمل كل موجود طاهر تتضح عظمة وشمولية هذه النعمة الإلهية الكبيرة.

ثالثاً: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

الفرق بين (كرمنا) و(فضلنا) أنّ (كرمنا) إشارة إلى المواهب الموروثة للإنسان، في حين (فضلنا) إشارة إلى الفضائل المكتسبة، وإن كانت بتوفيق الله، أو أنّ (كرمنا) إشارة إلى الجوانب المادية، أما (فضلنا) فهي إشارة إلى المواهب المعنوية، لأن كلمة (فضلنا) غالباً ما تأتي في القرآن بهذا المعنى.

الآية الكريمة تثبت كرامة تكوينية للإنسان، لماذا؟ بعض المفسرين يعزو سبب التّكريم لقوة العقل، وتعدد الاستعدادات، وحرية الإرادة. وبعضهم يعزوه إلى الجسم المتزن العمودي، وبعضهم يعزوه إلى الأصابع الّتي تمكّن الإنسان من القيام بوساطتها بمختلف الأعمال الدّقيقة، ومنها القدرة على الكتابة. وبعضهم يعزوه إلى أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يأكل طعامه بيده. أو لتسلطه على الكائنات الأرضية جميعاً. أو إلى قدرة الإنسان على معرفة الله، وعلى إطاعة أوامره.

---

(١) الإسراء: ٧٠.

(٢) ينظر: الأمثل ٧ / ٣٤٧ ـ ٣٥٢ .

ولا مانع من القول: إن التّكريم يتجلى من خلال جميع هذه المواهب وغيرها. إن للإنسان امتيازات كثيرة على باقي المخلوقات، ففضلاً عن الامتيازات الجسمية، للإنسان الاستعدادات والقدرات الكبيرة الّتي تؤهله لطي مسيرة التّكامل على نحو غير محدود.

الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يتكون من قوى مختلفة، مادية ومعنوية، جسمية وروحية، وينمو وسط المتضادات، وله استعدادات غير محدودة للتكامل والتّقدم. قال أمير المؤمنين (ع): "**إن الله عز وجل ركب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركب في البهائم شهوة بلا عقل، وركب في بني آدم كلتيهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم**"[1]. ولكن هل البشر جميعا أفضل من الملائكة، وبين البشر الكفار والمجرمون والظالمون، وهم من أسوأ خلق الله .. الجواب: نعم، جميع البشر أفضل، ولكن بالقوة والاستعداد، يعني أن الجميع يملكون القابلية ليكونوا أفضل، ولكنهم إذا لم يفيدوا منها سقطوا في الهاوية.

يرى آية الله محمد تقي مصباح اليزدي أنّ الآية الكريمة "في مقام بيان تفوق الإنسان في القوة والاستعداد الوجودي بالنسبة لسائر الموجودات، وليس لإثبات حقّ للإنسان، بل بالعكس فإنها بصدد بيان هذه النقطة المهمة، وهي: أننا قد وهبنا للإنسان الكثير من النعم، فعليه أن يؤدي وظيفته في العبودية لله تعالى، وإذا افترضنا إمكانية استنباط حق قانوني للإنسان من هذه الكرامة، فذلك لا يعني حفظ كرامته وإن ارتكب أفظع الجرائم، إذ يصبح الإنسان أحياناً بتصرفاته الإجرامية أسوأ من أي حيوان آخر[2]. ويخلص إلى القول: "إن الكرامة الّتي وهبها الله للإنسان لا توجب الفخر والشّرف لجميع الناس، وإن ما يوجب الفخر والشّرف يتوقف على أفعال وتصرفات الإنسان[3] الاختيارية، وكيف يستفيد[4] من النعم الإلهية لتحقيق الكمال الإنساني[5]:

يرى الباحث على قصر الباع، وقلة العدّة، أنّ القرآن الكريم يثبت للإنسان كرامتين: إحداهما: تكوينية موروثة، والأخرى: مكتسبة بالتّقوى، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) بحار الأنوار ٢٩٩/٥٧.

(٢) ينظر: النظريّة الحقوقيّة في الإسلام ١/ ٢٩٤.

(٣) الصّواب: أفعال الإنسان وتصرفاته.

(٤) الصّواب: يفيد.

(٥) نفسه: ٢٩٦.

﴿ ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[١]، فإذا أضاع الثّانية حرم الأولى، كما يحرم حق الحياة بقتل غيره ظلماً، أو الإفساد في الأرض.

ومن مظاهر حفظ كرامة الإنسان توفير مستلزمات الحياة الأساسية له، "فقد وعى الإمام أن الإنسان الجائع، المستغل، المحروم، المصفد بالأغلال لا يستطيع أن يكون فاضلاً، وأن من اللغو أن يوعظ بالوعد والوعيد، والتّرغيب والتّرهيب"[٢].

لقد حث أمير المؤمنين (ع) واليه على السّعي لتحقيق الأهداف المشروعة للناس، في حياة كريمة يتجاوز فيها الحاكم توفير الضروريات إلى توفير الأفضل الذي يحلم به الناس، اجتنابا للكبت في نفوسهم، والعداوة في صدورهم، وتحقيقاً لما يرجونه من الحياة الكريمة، قال (ع): "أَطْلِقْ عَنِ النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حِقْد، وَاقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وِتْر"[٣]، وقال (ع): "وَإِنَّ أَفْضَلَ قُرَّةِ عَيْنِ الْوُلاَةِ اسْتِقَامَةُ الْعَدْلِ فِي الْبِلاَدِ، وَظُهُورُ مَوَدَّةِ الرَّعِيَّةِ، وَإِنَّهُ لاَ تَظْهَرُ مَوَدَّتُهُمْ إِلاَّ بِسَلاَمَةِ صُدُورِهِمْ"[٤].

وأكّد حق المسحوقين من البشر بتوفير مستلزمات حياتهم الأساسية، قال (ع): "ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ الَّذِينَ يَحِقُّ رِفْدُهُمْ وَمَعُونَتُهُمْ. وَفِي اللَّهِ لِكُلّ سَعَةٌ، وَلِكُلٍّ عَلَى الْوَالِي حَقٌّ بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ"[٥].

٦ ـ حقّ الاعتدال في التّكليف:

العقل يحكم بأنّ من الظلم تحميل الإنسان ما لا يطيق، وقد تنزه عنه سبحانه، فقال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾[٦]، ومما ورد في القرآن الكريم من دعاء قوم مؤمنين: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[٧]، وقد جاء في العهد حث أمير المؤمنين (ع) واليه على الإحسان إلى الناس، وعدم تكليفهم ما لا يطيقون، قال (ع): "وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) دراسات في نهج البلاغة ٣٩.

(٣) نهج البلاغة: ٥٣، ٨٧/٣.

(٤) نهج البلاغة: ٥٣، ٩٢/٣ ـ ٩٣.

(٥) نهج البلاغة: ٥٣، ٩١/٣.

(٦) البقرة: ٢٨٦.

(٧) البقرة: ٢٨٦.

بِأَدْعَى إِلَى حُسْنِ ظَنٍّ وَال بِرَعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وَتَخْفِيفِهِ الْمَؤُونَاتِ عَلَيْهِمْ، وَتَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ قِبَلَهُمْ"[١]. ومما جاء في المادة الخامسة من الإعلان: "لا يعرض أي إنسان للتعذيب، ولا للعقوبات، أو المعاملات القاسية، أو الوحشية، أو الحاطة للكرامة."وكل هذا مما تضمّنته كلمات العهد وزيادة، فالتّكليف فوق الطاقة من المعاملات القاسية.

٧ ـ حقّ حريّة التعبير:

حرية الرّأي تعني: "حق الشّخص بإبداء رأيه أو عدمه"[٢]، ومما ورد في العهد حقّ التّعبير الحر عن الموقف من سياسة الحاكم وإدارته، وتجاوز العهد حد حقّ التّعبير عن الرّأي إلى احترام هذا الرّأي، والاهتمام له، بل جعله دالّة على حقيقة سياسة الحاكم، ونسبه إلى الله سبحانه، فقال: "ثُمَّ اعْلَمْ يَا مَالِكُ، أَنِّي قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَى بِلاَدٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُوَلٌ قَبْلَكَ، مِنْ عَدْلٍ وَجَوْرٍ، وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوُلاَةِ قَبْلَكَ، وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ، وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي اللهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسُنِ عِبَادِهِ"[٣]، قال ابن أبي الحديد في شرح هذا الكلام: "إنما يستدل على الصّالحين بما يكثر سماعه من ألسنة الناس بمدحهم، والثّناء عليهم، وكذلك يستدل على الفاسقين بمثل ذلك. وكان يقال: ألسنة الرّعية أقلام الحق سبحانه إلى الملوك"[٤].

وحق التّعبير الحر عن المظلوميّة، قال (ع): "وَاجْعَلْ لِذَوِي الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْماً تُفَرِّغُ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ، وَتَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِساً عَامّاً، فَتَتَوَاضَعُ فِيهِ لِلّه الَّذِي خَلَقَكَ، وَتُقْعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَشُرَطِكَ، حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَعْتِعٍ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ (ص) يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ: "لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لاَ يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ الْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَعْتِعٍ"[٥]، وهذا النص يتجاوز عموم حق التّعبير عن الرّأي إلى إيصاله مباشرة إلى أعلى سلطة في الولاية، متمثلة بشخص الوالي، متجاوزاً كل الحجب المألوفة من أحراس وشرطة، وأشار أمير المؤمنين (ع) من خلال نقله الحديث الشّريف إلى ضرورة توفير الأجواء الآمنة للضعيف من الناس للمطالبة بحقه في الإنصاف.

---

(١) نهج البلاغة: ٥٣، ٣/٨٨ ـ ٨٩.

(٢) نظريّة الحريات العامة ٧١.

(٣) نهج البلاغة: ٥٣، ٣/٨٣.

(٤) شرح نهج البلاغة ١٧ / ٣٣.

(٥) نهج البلاغة: ٥٣، ٣/١٠٢.

٨ ـ حق الاحتكام إلى القضاء العادل:

القضاء العادل صمام الأمان للحياة الاجتماعية الكريمة، وهو ملاذ المظلومين، ومردع الظالمين، فأين يولي الإنسان وجهه إذا انتهكت حقوقه؟ لقد أكّد أمير المؤمنين (ع) حق الناس في الاحتكام إلى قضاء عادل عند الخصومة، فقال (ع): "**ثُمَّ اخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ، مِمَّنْ لاَ تَضِيقُ بِهِ الأُمُورُ، وَلاَ تُمَحِّكُهُ الْخُصُومُ، وَلاَ يَتَمادَى فِي الزَّلَّةِ**"[١]، ومما جاء في المادة العاشرة من الإعلان "لكل إنسان الحق، على قدم المساواة التّامة مع الآخرين، في أن تنظر قضيته أمام محكمة مستقلة نزيهة نظراً عادلاً علنياً للفصل في حقوقه والتزاماته وأية تهمة جنائية توجه إليه".

٩ ـ حق ستر المعائب:

المعائب لا يخلو منها بشر إلا من عصمه الله تعالى، فالإنسان تحت تأثير نفسه الأمارة بالسّوء، فهل ينبغي ستر هذه المعائب أو إذاعتها والتّشهير بأربابها؟ قال أمير المؤمنين (ع): "**فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوباً، الْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا، فَلاَ تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ، وَاللّهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ، فَاسْتُرِ الْعَوْرَةَ مَا اسْتَطَعْتَ يَسْتُرِ اللّهُ مِنْكَ مَا تُحِبُّ سَتْرَهُ مِنْ رَعِيَّتِكَ**"[٢]. أشار الحكماء إلى رذيلة البحث عن معايب الناس، قال ابن أبي الحديد" عاب رجل رجلا عند بعض الأشراف فقال له: لقد استدللت على كثره عيوبك بما تكثر فيه من عيوب الناس، لان طالب العيوب إنما يطلبها بقدر ما فيه منها.... وفي الخبر المرفوع: دعوا الناس بغفلاتهم يعيش بعضهم مع بعض"[٣]. وإذا كان تقصي معائب الناس عيباً في عامتهم، فهو في الوالي أكبر.

إن الوالي مهمته أن يقيم الحدود إذا ظهرت دون أن يتقّصاها ويكشف عمّا غاب عنه منها، فالمعصية الّتي لم يجاهر بها صاحبها لا تضر غير العامل بها، بخلاف المتجاهر الذي أماط عن نفسه ستر حيائه، وهتك نفسه بنفسه، فإذا ثبت عند الحاكم شيء من ذلك وجب أن يقيم عليه الحد ويردعه عن المعصية[٤].

الحقوق الخاصة:

أعني بها الحقوق الّتي يجب أن تُؤدّى، أو تتمتع بها فئة من المجتمع بعينها، ويمكن إجمال ما تضمّن العهد منها بالآتي:

---

(١) نهج البلاغة: ٥٣، ٣/٩٤.

(٢) نهج البلاغة: ٥٣، ٣/٨٦ ـ ٨٧.

(٣) شرح ابن أبي الحديد ١٧/٣٦.

(٤) ينظر: شرح نهج البلاغة (الموسوي) ٥/ ٤٢.

١ ـ حق أصحاب السّيرة النقية:

ممّا جاء في العهد: "**إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيراً، وَمَنْ شَرِكَهُمْ فِي الآثامِ، فَلاَ يَكُونَنَّ لَكَ بِطَانَةً، فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الأَئِمَّةِ، وَإِخْوَانُ الظَّلَمَةِ**[١]"، "الوزير: رجل الدّولة الذي يختاره رئيس الحكومة للمشاركة في إدارة شؤون الدّولة[٢].

قال الشّيخ محمد جواد مغنية: "من البداهة أن الشّرير لا يصحبه إلا من كان من فصيلته وعلى شاكلته، ولذا حذر الإمام من أعوان الأئمة وإخوان الظلمة"[٣]. يوصي أمير المؤمنين (ع) عامله أن لا يتخذ وزراء الطاغوت أعواناً له، فإن نفوسهم الخبيثة، وسلوكهم المشين، وممارساتهم الشّاذة، وانحرافهم القديم، يزعزع ثقة الناس بالوالي من جهة، ويهدد رصانة بناء المجتمع المسلم، ويبدو الوالي عاجزاً عن تقديم نماذج بديلة عن هؤلاء الوزراء الأشرار، فعليه أن ينحي هؤلاء الوزراء الذّين عاونوا الطاغوت[٤]، ويمضي أمير المؤمنين (ع) قائلا: "**وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلَفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَاذِهِمْ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ وَأَوْزَارِهِمْ، مِمَّنْ لَمْ يُعَاوِنْ ظَالِماً عَلَى ظُلْمِهِ، وَلاَ آثِماً عَلَى إِثْمِهِ، أُولَئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَؤُونَةً، وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً، وَأَحْنَى عَلَيْكَ عَطْفاً، وَأَقَلُّ لِغَيْرِكَ إِلْفاً**"[٥]، فإن في المجتمع الإسلامي من به الكفاءة ممن لم يتدنس بمرافقة الظلمة، ولم يعنهم في جورهم وهذا الإنسان الطاهر الذي لم يتدنس يستطيع أن يندفع بإخلاص ويعاون برغبة ويسعى بعطف وحنان كي يثبت الحق ويدفع الباطل ويعمل بمقتضى نظافة باطنه وطهارة ضميره. إنهم رجال آخرون يفضّلون على أولئك من وجوه:

١ ـ لهم مثل آرائهم ونفاذهم في الأمور، لكنهم مبرّؤون من آصارهم وأوزارهم في معاونة الظالمين.

٢ ـ أولئك أخفّ مؤونة لأنهم أهل صلاح وسداد ولم يعتادوا الإسراف في المعيشة وادّخار الأموال.

٣ ـ معونتهم للوالي أكثر من الوزراء السّابقين لعدم اعتيادهم التّسامح في الأمور.

٤ ـ لم تغيّر صفاء قلوبهم المطامع، فكان حبّهم للوالي خالصاً[٦].

---

(١) نهج البلاغة: ٥٣، ٣/٨٧.

(٢) شرح نهج البلاغة (الدّخيل) ١/ ٦١.

(٣) في ظلال نهج البلاغة ٤/٥٨.

(٤) ينظر: شرح نهج البلاغة (الموسوي) ٥/ ٤٤.

(٥) نهج البلاغة: ٥٣، ٣/٨٧ ـ ٨٨.

(٦) شرح نهج البلاغة (الموسوي) ٥/ ٤٤.

ويمضي أمير المؤمنين (ع) موصياً عامله بذوي السّوابق الحسنة، لاختيارهم قادة عسكريين، قائلاً: **فَوَلِّ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِإِمَامِكَ، وَأَنْقَاهُمْ جَيْباً، وَأَفْضَلَهُمْ حِلْماً، مِمَّنْ يُبْطِئُ عَنِ الْغَضَبِ، وَيَسْتَرِيحُ إِلَى الْعُذْرِ، وَيَرْأَفُ بِالضُّعَفَاءِ، وَيَنْبُو عَلَى الأَقْوِيَاءِ، وَمِمَّنْ لاَ يُثِيرُهُ الْعُنْفُ، وَلاَ يَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ. ثُمَّ الْصَقْ بِذَوِي الأَحْسَابِ، وَأَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ، وَالسَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ، ثُمَّ أَهْلِ النَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ، وَالسَّخَاءِ وَالسَّمَاحَةِ، فَإِنَّهُمْ جِمَاعٌ مِنَ الْكَرَمِ، وَشُعَبٌ مِنَ الْعُرْفِ. ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُهُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا، وَلاَ يَتَفَاقَمَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ، وَلاَ تَحْقِرَنَّ لُطْفاً تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ وَإِنْ قَلَّ، فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَى بَذْلِ النَّصِيحَةِ لَكَ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ. وَلاَ تَدَعْ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمُ اتِّكَالاً عَلَى جَسِيمِهَا، فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعاً يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْقِعاً لاَ يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ**"[1]. يرى الإمام أنه لا يجوز للحاكم أن يعتمد على التّربية وحدها، وعلى الخلق الشّخصي وحده فيما يرجع إلى ضمان إخلاص هذه الطبقة. فهو بقدر ما يحرص على أن يكون القادة العسكريون ذوي تربية عالية وخلق متين يحرص كذلك على توفير ما يتوقون إليه من الناحيتين: المادية والمعنوية. فهؤلاء القادة يتوقون إلى أن يروا أعمالهم الّتي يقومون بها تلاقي التّقدير الذي تستحقه عند الحاكم، ويتوقون إلى أن يروا أن عين من فوقهم ترعاهم وتتعاهد أعمالهم وتوفيها ما تستحق من جزاء. وهؤلاء القادة، كغيرهم من الناس، خاضعون للضرورات الاقتصادية، وربما كانت حاجتهم إلى المال أكثر من حاجة غيرهم إليه، وإذ كانوا كذلك فلا بد للحاكم من مراعاة حالتهم الاقتصادية. ولا يجوز له أن يعتمد على الخلق والتّربية في ضمان إخلاصهم وتمسكهم بمثلهم العليا، فإن الحاجة تدفع إلى الإجرام أو الانحراف. ولا بد له من تتبع مآثرهم والإشادة بها، ومدحهم، والثناء عليهم بما أبلوا من بلاء حسن، وأتوا من فعل عظيم"[2].

٢ ـ حق العلماء والحكماء:

رفع الله تعالى من قدر العلماء، فقال سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[3]، وقد أوصى الإمام عامله، فقال: **"وَأَكْثِرْ مُدَارَسَةَ الْعُلَمَاءِ، وَمُنَاقَشَةَ الْحُكَمَاءِ، فِي تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ بِلاَدِكَ، وَإِقَامَةِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ"**[4] أوصاه بمدارسة العلماء" فإنهم الأمناء الذّين يحافظون على الدّين، ويدافعون عن الشّريعة، ويقفون سداً منيعاً أمام البدع والخرافات، إنهم الحصون التي تتكسر عليها كل الأفكار

---

(١) نهج البلاغة: ٥٣، ٣/٩١ ـ ٩٢.

(٢) دراسات في نهج البلاغة ٥٥ ـ ٥٦.

(٣) الزّمر: ٩.

(٤) نهج البلاغة: ٥٣، ٣/٨٩.

المنحرفة، والدّعاوي المضللة... يجب على الوالي أن يجتمع معهم، ويأخذ رأي الدّين منهم. ولا يتكل على رأيه ونظره، فإن ذلك يفسد عليه دينه، ويظله عن السّبيل المستقيم. ثم إن على الوالي أن يجتمع بالحكماء الذّين درسوا الحياة وعرفوا ما يصلح الرّعية مما يفسدها، وما يوحدها مما يفرقها، وما يحقق لها السّعادة مما يجر عليها الشّقاء... إن هؤلاء الحكماء ـ الذّين يضعون الأشياء مواضعها ـ قد خبروا الحياة ونفذوا إلى بواطن الأمور واستطاعوا بما عندهم من خبرة أن يكونوا أعواناً له في صلاح البلاد والعباد وإقامة الحق والعدل"[١] ويرى الشّيخ محمد جواد مغنية: "وإنما المراد بالعلم والحكمة ما يخدم الحياة، ويصلح البلاد، وأحوال العباد"[٢].

٣ ـ حق الطبقة السّفلى:

أوصى أمير المؤمنين (ع) عامله بالفقراء، فقال: "**ثُمَّ اللّهَ اللّهَ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنَ الَّذِينَ لاَ حِيلَةَ لَهُمْ وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُحْتَاجِينَ وَأَهْلِ الْبُؤْسَى وَالزَّمْنَى، فَإِنَّ فِي هذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعاً وَمُعْتَرّاً، وَاحْفَظْ للّه مَا اسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ، وَاجْعَلْ لَهُمْ قِسماً مِنْ بَيْتِ مَالِكَ، وَقِسماً مِنْ غَلاَّتِ صَوَافِي الإِسْلاَمِ فِي كُلِّ بَلَد، فَإِنَّ لِلأَقْصَى مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِي لِلأَدْنَى، وَكُلٌّ قَدِ اسْتُرْعِيتَ حَقَّهُ**"[٣]. "الطبقة السّفلى: الجماهير الشّعبية والغالبية العظمى الّتي تتألف من الفقراء والمساكين... أنّ صلاح المجتمع لا يكون إلا بصلاح هذه الطبقة لا بالأغنياء والأقوياء، لأن البناء يبدأ بالأساس لا بالسّقف، ومتى صلح الأساس صلح البناء. وتطلق عليهم كلمة الجماهير لأنهم الغالبية العظمى في كل الشّعوب أو جلها، وهم القوة والعدة لكل نبي ومصلح في حل الأزمات، وتقدم الحياة، ولولاهم ما كان للعلماء والعظماء اسم ولا أثر في مدنية وحضارة، أو شيء ينفع الناس، ولا كان للإنسانية هذا التّراث الضخم"[٤].

الخاتمة:

مما مرّ اتضح حرص الإمام أمير المؤمنين (ع) على إحكام منظومة الحقوق على نحو عادل ومتوازن بين الراعي ورعيته، بما يضمن مسيرة سليمة للحياة الإنسانية تقودها نحو شاطئ السعادة والفضيلة.

---

(١) شرح نهج البلاغة (الموسوي) ٥/ ٤٧.

(٢) في ظلال نهج البلاغة ٤/ ٦٣.

(٣) نهج البلاغة: ٥٣، ٣/ ١٠٠ ـ ١٠١.

(٤) ينظر: في ظلال نهج البلاغة ٤/ ٩٨ ـ ١٠٠.

المصادر:

- اقتصادنا للسيد محمد باقر الصدر (ت١٤٠٢هـ)، مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي ، ط ٢ ، ١٤٢٥ - ١٣٨٢ش.
- الأمالي للشيخ الطوسي (ت٤٦٠)، مؤسسة البعثة، ط١، دار الثّقافة للطباعة والنشر والتّوزيع - قم، ١٤١٤هـ.
- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، لآية الله ناصر مكارم الشّيرازي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط١، بيروت ٢٠٠٧.
- التفسير الكبير، محمّد بن أبي بكر الرّازيّ (ت٦٠٦هـ)، الطبعة الثالثة، بلا محقّق ولا مطبعة، د.ت .
- حقوق الإنسان للدكتور رياض عزيز، شركة العاتك لصناعة الكتاب، القاهرة، والمكتبة القانونية، بغداد، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.
- حقوق الإنسان، للدكتور عبد الكريم علوان.
- حقوق الإنسان بين الإعلانين الإسلامي والعالمي، للشيخ محمد علي التّسخيري، رابطة الثّقافة والعلاقات الإسلامية، مديرية التّرجمة والنشر، طهران، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- دراسة السياسة العامة، للدكتور خيري عبد القوي، منشورات دار السلاسل، ط١ ١٩٨٩م.
- شرح أصول الكافي، لمحمد صالح المازندراني (ت ١٠٨١هـ) مع تعليقات: الميرزا أبو الحسن الشعراني، ضبط وتصحيح : السيد علي عاشور، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع ودار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط ٢، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.
- شرح نهج البلاغة لكمال الدّين ميثم بن علي بن ميثم البحراني (ت٦٧٩هـ)، مطبعة أنوار الهدى، قم، ط١ ١٤٢٧هـ.
- شرح نهج البلاغة لعبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد، أبو حامد، عز الدّين (ت ٦٥٦هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- شرح نهج البلاغة، للسيد عباس الموسوي، دار الرّسول الأكرم ودار المحجة البيضاء، ط١ ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- الصحيفة السجادية، للإمام زين العابدين (عليه السلام) (ت٩٤هـ)، تحقيق: السيد محمد باقر الموحد الأبطحي الأصفهاني، مؤسسة الإمام المهدي (عليه السلام) ومؤسسة الأنصاريان للطباعة والنشر، ط١، قم المقدسة، ١٤١١هـ.
- في ظلال نهج البلاغة، لمحمد جواد مغنية، دار العلم للملايين، ط١، بيروت ١٩٧٣.
- كنز العمال، للمتقي الهندي (ت٩٧٥هـ)، ضبط وتفسير: الشّيخ بكري حياني، تصحيح وفهرسة: الشّيخ صفوة السّقا، مؤسسة الرّسالة - بيروت - لبنان، ١٤٠٩ - ١٩٨٩ م.
- مفردات غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)، مكتب نشر الكتاب، قم، ط٢، ١٤٠٤هـ.
- الميزان في تفسير القرآن، للسيد محمد حسين الطباطبائي (ت١٤٠٢هـ)، ج٢، الناشر: منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية - قم المقدسة، بلا سنة طبع.
- نظرية الحريات العامة، للدكتور حسان محمد شفيق العاني، الناشر: العاتك لصناعة الكتاب، القاهرة، توزيع المكتبة القانونية بغداد، طبعة منقحة، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨. ❖

مفاهيم الغدير
بين القرآن الكريم ودعاء الندبة

م. أحمد جاسم ثاني
كلية الإمام الكاظم (ع)
للعلوم الإسلامية الجامعة

هذا بحث مختصر يتناول بعض المفاهيم التي تتعلق بواقعة الغدير، ويحاول أن يربط بين نصين مقدسين؛ وهما: القرآن الكريم، ودعاء الندبة، ويأخذ منهما ما يخص هذه الواقعة العظيمة في الإسلام التي سميت بعيد الله الأكبر، ذلك العيد الذي نصّب فيه الإمام علي (ع) أميراً للمؤمنين وخليفة لرسول الله (ص)، إذ أن هناك آيات قرآنية أشارت بشكل مباشر إلى هذه الواقعة، وفي دعاء الندبة ما يؤرخ لمسيرة أمير المؤمنين (ع) مع رسول الله (ص) من بداية حياته الشريفة وحتى استشهاده (ع).

ويروم البحث دراسة المفاهيم التي تتعلق بالغدير دراسة لغوية دلالية ليثبت بالدليل أحقية الإمام علي (ع) بالخلافة وأنه هو المخصوص بالذكر في القرآن الكريم، ثم يربط ذلك بما ورد في دعاء الندبة، مستعيناً ببعض آراء المفسرين واللغويين. ومن الله التوفيق.

معنى الغدير:

تعني لفظة الغدير في اللغةً: (القطعة من الماء يغادرها السيل، أي يتركها)[١].

وقد تطورت دلالة هذه اللفظة منذ السنة العاشرة من الهجرة حينما رجع النبي محمد (ص) من حجة الوداع ووصل إلى الجحفة التي تشكل مفترق الطرق، وقريباً من غدير يقال له (غدير خم) إذ دعا الحجاج بأمر الله تعالى ليبلغهم بأمر الولاية من بعده... فأصبح اسم ذلك المكان ـ الغدير ـ يطلق على اليوم الذي نُصب فيه الإمام علي خليفة لرسول الله ووليا للمؤمنين، وسمي يوم الثامن عشر من ذي الحجة في كل عام بيوم الغدير، وهو من أعظم الأعياد في الإسلام. فهو (الوعاء الذي تصب فيه جميع تضحيات الرسول الكريم (ص)، وهو مخزن الأحكام والآداب التي أوحى الله تعالى إلى رسوله الأمين... والغدير روضة الفضائل والأخلاق والمكارم والمحاسن بل هو المكارم بعينها...)[٢].

---

(١) لسان العرب، ابن منظور: ٩/٥.

(٢) قبس من الغدير، السيد صادق الحسيني الشيرازي: ١٤ ـ ١٥.

الغدير في القرآن الكريم:

لقد وردت عدة آيات في القرآن الكريم تنص بشكل مباشر أو غير مباشر على هذه الواقعة كما يذكر بعض المفسرين[١] منها:

١- آية التبليغ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (المائدة/٦٧).

٢- آية الولاية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ (المائدة/٥٥).

٣- آية إكمال الدين: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة/٣).

نص دعاء الندبة المشتمل على قصة الغدير:

من المعروف أن دعاء الندبة المندوب قراءته في الجمعة والعيدين والغدير هو مروي عن الإمام أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق (ع)[٢].

ونص الدعاء الذي ذُكرت فيه قصة الغدير تبدأ من قول الإمام(ع): (فلما انقضت أيامه أقام وليه علي بن أبي طالب صلواتك عليهما وعلى آلهما هادياً إذ كان هو المنذر ولكل قوم هادٍ..... وينتهي بقوله (ع): إذ كانت الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين)[٣].

أولاً- التبليغ والتنصيب: جاءت الآية الكريمة الأولى بفعل الأمر الصريح "بلّغ" الذي لا يشابهه أمر آخر بهذه الصيغة في القرآن الكريم[٤]، مما يدل على خصوصية هذا الحدث من جهة وأهميته القصوى من جهة أخرى، وتحتوي هذه الصيغة - صيغة فعّل - على تضعيف عين الكلمة، إذ أن الكلمة في العربية توزن بالميزان الصرفي الذي يرجع الكلمة إلى أصلها الثلاثي (فَعَلَ)، فالحرف الأول يُسمى فاء الكلمة، والثاني عين الكلمة، والثالث لام الكلمة، والفعل هنا جاء مشدد العين الذي يقابله حرف اللام في كلمة "بلّغ"، مما يدل على التأكيد والتكرار، أي أن هذا الأمر الإلهي وهو الإبلاغ يجب أن يكون على شكل دفعات وبصورة متكررة؛ وذلك لأهمية الأمر، وهذا ما فعله رسول الله (ص) إذ ذكر موضوع خلافة

---

(١) ينظر: تفسير القمي، علي بن إبراهيم القمي: ١٦٢/١، و١٧١/١، ١٤١/١، ٣٠٧/١، وآيات نزلت في الإمام علي (ع)، آية الله العظمى مكارم الشيرازي: ١١ - ١١٤.

(٢) ينظر: شرح دعاء الندبة، السيد صدر الدين الطباطبائي: ١٠٦.

(٣) مفاتيح الجنان، الشيخ عباس القمي: ٥٣٣ - ٥٣٥.

(٤) ينظر: معجم آيات القرآن، د. حسين نصار: ٢٦٠.

علي (ع) على الناس مراراً منذ الأيام الأولى لظهور الإسلام وحتى وفاته[١]. وفي دعاء الندبة يذكر الإمام الصادق (ع) في حديثه عن حياة الإمام علي (ع) ومنزلته من رسول الله (ص): (فلما انقضت أيامه أقام وليه علي بن أبي طالب صلواتك عليهما وعلى آلهما هادياً إذ كان هو المنذر ولكل قوم هادٍ)، أي لما انقضت أيام رسول الله (ص) أقام علياً - نصَّبه خليفة - هادياً، ومن الملاحظ أن كلمة هادياً جاءت حالاً من علي (ع)، فلم يكن هذا المنصب للدنيا ومن أجلها، وإنما لهداية الأمة الإسلامية ولإكمال ما ابتدأه الرسول الأكرم من إبلاغ رسالة السماء، ومما يؤكد ذلك العبارة التي تلت هذه الجملة: (إذ كان هو المنذر ولكل قومٍ هادٍ)، فكما أن محمداً هو المنذر فإن علياً هو الهادي من بعده، وهذا الموقف هو ما أعلنه رسول الله يومذاك، وجسده حسان بن ثابت بشعره قائلاً[٢]:

يناديهم يوم الغدير نبيهم ... بخم وأسمع بالنبي منادياً

فقال: فمن مولاكم ونبيكم ... فقالوا ولم يبدوا هناك التعاميا

إلهك مولانا وأنت نبينا ... ولم تلق منا في الولاية عاصيا

فقال له: قم يا علي فإنني ... رضيتك من بعدي إماماً وهاديا

وهذا تأكيد آخر لما ورد في دعاء الندبة في كون الإمام علي هادياً للأمة من بعد الرسول. وثمة وجه ارتباط بين الآية الكريمة وبين عبارات الدعاء، فكأن الآية الكريمة حينما نزلت بالأمر الإلهي للرسول، جاء هذا المقطع من الدعاء إجابة أو بياناً لتنفيذ الرسول هذا الأمر، فقال: (فلما انقضت أيامه أقام وليه ...)، ولسان حال الإمام الصادق يقول: يا رب إن رسولك لما أوشك أن يُدعى إليك أقام وليه علياً وألقى الحجة على الأمة ولكنهم لم يلتزموا بما عاهدوك وعاهدوا رسولك عليه من أمر الولاية والخلافة.

ثانياً- الولي والمولى: ذكر بعض المفسرين من أهل السنة معانٍ كثيرة لكلمة "ولي" وصلت إلى سبعة وعشرين معنى وقد ذكرها العلامة الأميني في موسوعته[٣]؛ زاعمين بذلك أن هذه الكلمة هي لفظ مشترك بين معانٍ مختلفة ولا يعلمون مراد الله تعالى منها، وأي معنى من هذه المعاني هو المقصود في الآية الشريفة، ومن ثم فإن هذه الآية مبهمة ولا تدل على شيء[٤]، ولكن عندما نراجع كتب اللغة وأقوال اللغويين نجد أنهم لم يذكروا لمعنى "الولي" سوى

---

(١) ينظر: آيات نزلت في الإمام علي (ع): ١٣.

(٢) الغدير، الشيخ عبد الحسين الأميني: ٢١٧.

(٣) ينظر: الغدير: ٣٦٢/١.

(٤) ينظر: آيات نزلت في الإمام علي (ع): ٥٣.

اثنين أو ثلاثة معانٍ[١]، وعليه فإن سائر المعاني المذكورة لهذه الكلمة تعود إلى هذه المعاني الثلاثة وهي[٢]:

١- بمعنى ناصر والولاية بمعنى النصرة.

٢- بمعنى القيّم وصاحب الاختيار.

٣- بمعنى الصديق والرفيق.

وفي الاستعمال القرآني وردت كلمة "ولي" و"أولياء" في سبعين مورداً وبمعانٍ مختلفة؛ وهي الناصر والمعين، والمعبود، والهادي والمرشد، والقيم وصاحب الاختيار، وفي ضوء القرائن المتعددة للآية الكريمة - آية الولاية - فإن معنى الولي فيها هو القيم وصاحب الاختيار لا بمعنى الصديق والناصر[٣].

وقد ورد هذا المعنى في دعاء الندبة: (فقال والملأ أمامه من كنت مولاه فعلي مولاه)، في ذلك اليوم العالمي صرح رسول الله (ص) بأمر الله تعالى وأعلن أمام الملأ أن القيّم عليهم من بعده هو علي بن أبي طالب (ع) فهو ولي المؤمنين وإمامهم، ووجوده يمثل خليفة الله في الأرض، فحكمه حكم الله وولايته ولاية الله تعالى؛ لذلك أعقب رسول الله كلامه بالدعاء له قائلاً: (اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله)، فعلي - بناءً على ذلك - هو ميزان الحق؛ لأن من يواليه فإن الله يواليه، ومن يعاديه فإن الله يعاديه، ومن ينصره فإن الله ينصره، ومن يخذله فإن الله يخذله..... ويتبين ذلك من نص الدعاء نفسه، فقد ورد في سياق الدعاء: (ولولا أنت يا علي لم يعرف المؤمنون بعدي وكان بعده هدى من الظلال ونوراً من العمى وحبل الله المتين وصراطه المستقيم).

وهكذا يستمر النبي (ص) بسرد مناقب الأمير (ع) وخصائصه التي لم تكن لأحدٍ قبله ولا بعده: فهو نفس النبي لأنهما من شجرة واحدة، وسائر الناس من شجر شتى وأحله محل هارون من موسى..... لا يسبق بقرابة في رحم ولا بسابقة في دين ولا يلحق في منقبة من مناقبه يحذو حذو الرسول صلى الله عليهما وآلهما ويقاتل على التأويل ولا تأخذه في الله لومة لائم .....

ثالثاً- إكمال الدين وإتمام النعمة: لابد من الوقوف على الدلالة اللغوية لمفردة "الدين"، فمن معاني الدين لغةً: الجزاء والطاعة والإسلام[٤].

---

(١) ينظر: لسان العرب (ولي): ٤٠٦/١٥، والقاموس المحيط، للفيروز آبادي (ولي): ٤٠١/٤، والفروق اللغوية، أبو هلال العسكري (الفرق بين الولي والمولى): ٥٧٧ - ٥٧٨.

(٢) ينظر: آيات نزلت في الإمام علي (ع): ٥٣.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٥٣ - ٥٥.

(٤) ينظر: لسان العرب (دين): ١٦٩/١٣.

أما الدلالة القرآنية لمفردة "الدين" الواردة في الآية الكريمة فللمفسرين ثلاثة آراء فيها[١]:

١- القوانين، أي أن ذلك اليوم الذي نُصب فيه الأمير كملت فيه قوانين الإسلام فلا يوجد في الإسلام فراغ قانوني أو تشريعي بعد الآن. وقد يُثار سؤال في هذا المعنى، وهو: ما هذا القانون المهم أو الحادثة المهمة التي وقعت في ذلك اليوم وأدت إلى إكمال الدين من قوانين إلهية وتشريعات سماوية؟ وفي الجواب عن هذا السؤال يكمن مضمون الآية الشريفة ودلالتها على مكانة الولاية من الدين.

٢- إن المقصود من كلمة "الدين" في الآية الكريمة هو "الحج" أي أن الله تعالى قد أكمل حج المسلمين في ذلك اليوم.

٣- إن إكمال الدين وإتمام النعمة قد تحقق في هذا اليوم وذلك بأن الله تعالى نصر فيه المسلمين على أعدائهم وخلصهم من شرهم.

وأما مفردة "النعمة" فقد أطلقها القرآن الكريم في هذه الآية على الدين والولاية الدينية[٢]، ومن اللافت للنظر أن إتمام النعمة على الخلق مرتبط بموضوع الخلافة في هذه الآية الكريمة، أي كما أن تحقق كمال الدين ارتبط بالولاية فإن إتمام النعمة أُنيط بإعلانها من قبل رسول الله (ص)، مما يؤدي إلى اتساع دلالة النعمة هنا لتشمل جميع النعم، ظاهرها وباطنها؛ مثل العدل والمساواة والاتحاد والأخوة والعلم والأخلاق والطمأنينة النفسية والروحية والحرية والإحساس بالأمن، وبعبارة أخرى جميع أنواع العطايا[٣].

ورد عن أبي عبد الله (ع) عن أمير المؤمنين (ع) قال: (والله لقد أعطاني الله تبارك وتعالى تسعة أشياء لم يعطها أحداً قبلي خلا النبي (ص) ... إلى أن قال: وأن بولايتي أكمل الله لهذه الأمة دينهم وأتم عليهم النعم ورضي إسلامهم إذ يقول يوم الولاية لمحمد (ص): يا محمد أخبرهم أني أكملت لهم اليوم دينهم ورضيت لهم الإسلام ديناً وأتممت عليهم نعمتي كل ذلك مِنْ مَنِّ الله علي فله الحمد)[٤].

وقد أعلن رسول الله (ص) هذا الأمر المهم الذي به كمل الدين وتمت النعمة أمام الناس جميعاً في يوم الغدير، وأمرهم بأن يبلغ الحاضر منهم الغائب، كما بين منزلة علي (ع) منه، إذ ورد في دعاء الندبة: (ثم أودعه علمه وحكمته فقال أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد المدينة والحكمة فليأتها من بابها ثم قال أنت أخي ووصيي ووارثي لحمك من لحمي

---

(١) ينظر: جامع البيان، ابن جرير الطبري: ١٠٦/٦ ـ ١٠٧، وآيات نزلت في الإمام علي (ع): ٣٧ ـ ٣٩.

(٢) ينظر: الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي: ٣٩٢/٥.

(٣) ينظر: قبس من الغدير: ١١ ـ ١٢.

(٤) الخصال، الشيخ الصدوق: ٤١٤ ـ ٤١٥.

ودمك من دمي وسلمك سلمي وحربك حربي والإيمان مخالط لحمك ودمك كما خالط لحمي ودمي)، وللنظر بتأمل في هذه الكلمات: أنت أخي ووصيي ووارثي، فهل يعقل أن يؤول أمر الخلافة إلى شخص آخر غير علي (ع) بما يمتاز به من خصائص وردت على لسان رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى؟!

فهل رعت الأمة هذا الحق في عترة رسول الله (ص) من بعده، أم انقلبوا على أعقابهم كما قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (آل عمران/١٤٤)، نعم لم يرعوا حق الله فيهم، ولم يسلم أمير المؤمنين (ع) من غدرهم منذ أن توفي رسول الله (ص) وحتى شهادته (ع) (ولما قضى نحبه وقتله أشقى الآخرين يتبع أشقى الأولين لم يمتثل أمر رسول الله صلى الله عليه وآله في الهادين بعد الهادين والأمة مصرة على مقته مجتمعة على قطيعة رحمه وإقصاء ولده إلا القليل ممن وفى لرعاية الحق فيهم فقتل من قتل وسبي من سبي وأقصي من أقصي وجرى القضاء لهم بما يرجى له حسن المثوبة إذ كانت الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين).

وثمة اقتباس قرآني في الفقرة الأخيرة من الدعاء الذي يحكي مسيرة الإمام علي (ع) وهو: (إذ كانت الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين)، وهو اقتباس من قوله تعالى على لسان موسى (ع): ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الأعراف/١٢٨). وفي هذا النص المقتبس عود على بدء، وارتباط خاتمته مع بدايته، إذ بدأ النص بحادثة تنصيب الإمام علي (ع) يوم الغدير وانتهى بسنة من سنن الله في كتابه الكريم؛ ألا وهي سنة الاستخلاف ووراثة الأرض التي وعدها الله عباده المتقين، وهو ما لم يتحقق لأمير المؤمنين (ع) بشكل كامل ولا لولده الأئمة من أهل البيت (ع)، وإنه سيتحقق إن شاء الله تعالى للإمام المهدي المنتظر عجل الله فرجه الشريف، إذ يحكم شرق الأرض وغربها ويحقق العدالة الإلهية ويحقق حلم الأنبياء وآبائه الطاهرين (ع)، كما يُرجع كل حق مغتصب لأهل البيت ويقتص من ظالميهم.

الخاتمة:

وفي الختام يتضح جلياً أن هناك نقاط التقاء وثيقة بين كلام الله تعالى وكلام المعصومين (ع) وهذا ليس بغريب إذ أن كلامهم هو كلام رسول الله (ص) وكلام رسول الله هو كلام الله، ونقصد بذلك أنه مطابق لتعاليم الله وتوجيهاته، وفصاحتهم وبلاغتهم وأدبهم من فصاحة القرآن وبلاغته وأدبه، ونخص من بين المعصومين الإمام جعفر بن محمد

الصادق (ع) الذي إليه ينسب دعاء الندبة المشهور، وجاء هذا البحث المتواضع محاولة لتسليط الضوء على بعض مفاهيم الغدير في ضوء القرآن الكريم ونص دعاء الندبة، كاشفاً عن وجه الارتباط بين آيات الولاية في القرآن الكريم وبين نص الدعاء، فقد دار البحث حول أبرز مفاهيم الغدير وهي: (التبليغ، والولي، والدين، والنعمة)، إذ وردت هذه المفاهيم في آيات الولاية وورد ما يقاربها في اللفظ أوَ المعنى في نص دعاء الندبة على لسان رسول الله (ص)، مما يدل على أن هذه الآيات وما احتوته من مفاهيم كانت قد نزلت في حق أمير المؤمنين (ع) ولاسيما في تلك الحادثة المهمة التي بها دكمل الدين وتمت النعمة على الناس، ألا وهي بيعة الغدير، نسأل الله تبارك وتعالى أن يتقبل منا هذا اليسير بكرمه ويجعله ذخراً لنا عند مولانا مولى الموحدين الإمام علي بن أبي طالب (ع). والحمد لله رب العالمين.

مصادر البحث:

- القرآن الكريم.
- آيات نزلت في الإمام علي (ع)، آية الله العظمى مكارم الشيرازي، ط/١، ١٤٢٦ هـ، دار جواد الأئمة، بيروت - لبنان.
- تفسير القمي، علي بن إبراهيم القمي، ط/٣، ١٤٠٤ هـ، مؤسسة دار الكتب.
- جامع البيان، ابن جرير الطبري، ط/ ١٤١٥ هـ، دار الفكر، بيروت.
- الخصال، الشيخ الصدوق، ط/١٤٠٣،٢هـ، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية/قم.
- شرح دعاء الندبة، السيد صدر الدين الطباطبائي، (د.ت)، (د . ط)، الناشر: السيد جواد المدرسي.
- الغدير، الشيخ عبد الحسين الأميني، ط/٤، ١٣٩٧ هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.
- الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ط/١، ١٤١٢ هـ، مؤسسة النشر الإسلامي.
- القاموس المحيط، للفيروز آبادي، (د . ط)، دار العلم للجميع، بيروت - لبنان.
- قبس من الغدير، السيد صادق الحسيني الشيرازي، ط/٢، ١٤٢٥ هـ، دار صادق للطباعة والنشر، مطبعة الفرقان، النجف الأشرف.
- لسان العرب، ابن منظور، ط/١، ١٤٠٥ هـ، دار إحياء التراث العربي.
- معجم آيات القرآن، د. حسين نصار، ط/٢، ١٣٨٥ هـ، شركة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.
- مفاتيح الجنان، الشيخ عباس القمي، ط/٣، ١٤٢٤ هـ، دار التعارف للمطبوعات، بيروت ـ لبنان.
- الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، (د. ت) مؤسسة النشر الإسلامي/ قم.

❖ ❖ ❖

رسائل الإمام علي (ع)

(دراسة بنيوية تحليلية)(*)

عهود ثعبان يوسف الأسدي

المحور النظري:

انطلاقاً من قول غولدمان: "إذا أردت أن أشرح خاطرة لباسكال توجب علي الرجوع إلى جميع خواطره وفهمها. ولكن ينبغي أن أشرح نشأتها، وعندها أضطر إلى الرجوع إلى الحركة الجانسينية، وأستطيع أن أفهم الجانسينية بربطها بطبقة نبلاء الرداء وهكذا دواليك"(١)، وتأسيساً على أنه "لا يمكن فهم أحد المؤلفات إلا بوضعه في سياقه الاجتماعي والتاريخي"(٢)، فإننا سنقوم باستحضار السياق الذي نشأت فيه رسائل الإمام علي (ع).

ولما كان على الباحث الجاد - من وجهة نظر البنيوية التكوينية - "أن يقيم علاقة قوية بين النص وسياقه الشامل"(٣)، بغية اكتشاف الوعي التاريخي ومتابعته، فإننا سنسعى إلى صب الاهتمام على ذلك السياق الذي نتصور أنه سيكون شاملاً من الزاوية التي نهتم بها، ولاسيما الصفة الفكرية له.

ومعلوم - من وجهة نظر البنيوية التكوينية - أن "الرؤية الجماعية للعالم التي تعيشها المجموعة بشكل طبيعي و (لا مباشر) تؤثر في الفرد (الكاتب المبدع)"(٤).

وعليه فإن متابعة السياق الشامل ستسهم - كما نرى - بشكل فاعل في اكتشاف تلك الرؤية الجماعية، وفي متابعة تأثيرها في أكثر من فرد من أفراد المجموعة سواء على مستوى المرحلة التاريخية الواحدة، أو المراحل التاريخية المتعاقبة، على أن نضع في الحسبان أن صبغة المراحل التي نهتم بها وبحدودها، هي صبغة دينية واضحة ولا يمكن أن تكون طبقية اجتماعية، من حيث إن الدين لا ينحصر في طبقة من طبقات المجتمع، وأن (رؤية العالم) تعني عند غولدمان "منظومة من التطلعات والمشاعر والأفكار التي تجمع بين أعضاء طائفة أو طبقة أو قطاع، وتضعهم في معارضة أو مواجهة أو تناقض مع الطوائف الأخرى"(٥).

(*) مستل من أطروحة ماجستير نوقشت في كلية التربية - جامعة بابل بإشراف د. قيس حمزة فالح الخفاجي.

(١) في البنيوية التركيبية - دراسة في منهج لوسيان غولدمان: ٤٥.

(٢) تأصيل النص - المنهج البنيوي لدى لوسيان غولدمان: ٢٢.

(٣) في البنيوية التركيبية - دراسة في منهج لوسيان غولدمان: ٧٥.

(٤) م. ن: ٣٨.

(٥) المذاهب النقدية الحديثة - مدخل فلسفي: ٢٠٥، وينظر: اتجاهات النقد الأدبي الفرنسي المعاصر: ٦٢ - ٦٣.

وتشديداً على فعل (المواجهة) نقتبس ترجمة أخرى للنص نفسه مع التنبيه على أن بحثنا يفيد من لبّ الفكرة البنيوية التكوينية، ولا يسعى إلى التطبيق المدرسي للفكرة نفسها، جاء فيها: "إن الرؤية للعالم هي بالتحديد هذا المجموع من الطموحات، من المشاعر والأفكار التي تضم أعضاء مجموعة (وفي الغالب طبقة اجتماعية) وتواجهها بمجموعات أخرى"[١].

وهذه الرؤية تتضح "في الروح المشتركة أو السمات العامة التي تطبع الأعمال الأدبية والفكرية ببصمتها المتميزة"[٢]، ولذلك تعد (رؤية العالم) ـ بما تعتمد عليه من قيم ـ "صلب فكرة البنية التي تقاس بها الأعمال الأدبية عند جولدمان"[٣].

مثل هذا التصور يؤكد أن مقولة (رؤية العالم) التي تحدث عنها غولدمان ما هي إلا "النسق الفكري الذي يسبق عملية تحقق النتاج"[٤]، وأنها "ليست واقعة فردية بل واقعة اجتماعية تنتمي إلى مجموعة أو إلى طبقة"[٥]، وأن تلك الرؤية "نسق من التفكير يفرض نفسه، في بعض الشروط، على زمرة من الناس توجد في أوضاع اقتصادية واجتماعية متشابهة، أي على بعض الطبقات الاجتماعية. وقلة هم الأشخاص الذين يعون كلية هذا النسق الفكري إلا أن كل واحد يعيه بطريقة أو بأخرى وذلك في حدود كافية لتكوين رابطة من المشاعر والأفكار والأفعال تقرب هؤلاء الناس بعضهم إلى البعض، وتجعلهم يعارضون الطبقات الاجتماعية الأخرى"[٦]. وعليه فإن "مبدعي النتاج الفني ليسوا هم الأفراد بل هي المجموعات الاجتماعية، الطبقات التي هم أجزاء منها"[٧]. وهذا التعريف لـ (رؤية العالم) عند غولدمان قريب من تعريف (إيديولوجيا) عند محمد برادة، إذ قال: "نقصد بـ (إيديولوجيا) المعنى الواسع الذي يشمل مجموع الأفكار والمعتقدات، وطرائق التفكير المميزة لفئة ما، مثل أمة، أو طبقة، أو مهنة، أو حرفة، أو حزب سياسي... إلخ"[٨]، ولذلك نظر إلى هذه (الإيديولوجيا) على أنها تعبير عن قيم كونية[٩]، وأنها إذا أصبحت (إيديولوجيا) مسيطرة، فإنها ستسيطر على الأدوات الثقافية، ومن ثم تظهر بنية شكل جمالي خاصة بها[١٠].

---

(١) البنيوية التكوينية والنقد الأدبي: ٥٦.

(٢) المذاهب النقدية الحديثة ـ مدخل فلسفي: ٢٠٥.

(٣) نظرية البنائية في النقد الأدبي: ١٣٢.

(٤) البنيوية التكوينية والنقد الأدبي: ٤٨، وينظر: تطور المناهج الاجتماعية في النقد الأدبي، د. عبد الهادي الفرطوسي: ٣٤.

(٥) البنيوية التكوينية والنقد الأدبي: ٣٤.

(٦) م. ن: ١٥.

(٧) م. ن: ٤٥.

(٨) محمد مندور وتنظير النقد العربي: ١٧٠.

(٩) ينظر: م.ن: ١٧٠.

(١٠) ينظر: في معرفة النص ـ دراسات في النقد الأدبي: ٧٦، والمرايا المحدبة ـ من البنيوية إلى التفكيك، د. عبد العزيز حمودة: ١٩٤.

وليس هذا المفهوم (للإيديولوجيا) ببعيد عن مفهوم فلسفي لها يرى أنها "تعبير عن علاقة البشر بعالمهم. أعني (وحدة) علاقتهم الواقعية، وعلاقتهم المتخيلة، بظروف معيشتهم الواقعية"(١). وبناء على ذلك بدت (رؤية العالم) "حلقة وسيطة بين الطبقة الاجتماعية والأعمال الأدبية. فالطبقة تعبر من خلال رؤيتها للعالم، وهذه الرؤية تعبر عن نفسها عبر العمل الأدبي"(٢).

وصار من المعروف أن العلاقة الأساس القائمة بين الحياة الاجتماعية والإبداع الأدبي، لا ترتبط عند غولدمان "بمضمون هذين المجالين في الواقع الإنساني، وإنما ترتبط فقط بالبنى الذهنية، أي ما يمكن تسميته بالمقولات التي تنظم الوعي التجريبي الذي تتمتع به فئة اجتماعية معينة، والعالم الخيالي الذي يخلقه الكاتب"(٣)، أي أن الارتباط بين البعدين الاجتماعي والشخصي - كما يرى غولدمان - "لا يمس إلا البنى الذهنية، أي المقولات التي تسيّر المجموعة والفرد في آن. فالبنى الذهنية ذات بعد اجتماعي، ولا تمت بصلة إلى تصور الفنان ونواياه الواعية وغير الواعية الإيديولوجية أو الفردية، وإنما ترتبط بما يراه ويحسه ويعايشه فيكون عندئذ جزءاً من كل"(٤). وهذا هو أهم ما في الأمر... أن يكون جزءا من كل... مع التسليم "بأن الأدب لا يمكن أن ينفصل تماماً عن الإيديولوجية التي هي تعبير عن الوعي الجماعي"(٥).

وقد توسع غولدمان في تحليل الفاعل الثقافي، فإذا به جماعي أساساً، أو - كما يحب أن يكرر - "فردي تجاوز فرديته. أي أنه ماثل في الجماعات البشرية والطبقات الاجتماعية التي تمارس دورها السياسي والثقافي في آن واحد"(٦). فهو يرى أن "الفاعل ليس هو الفرد؛ وإلا ترتب على ذلك قبول التفسيرات النفسية؛ بل إن مجموع الأعمال الإنسانية لطائفة اجتماعية ما تتميز ببنية هي التي تحدد بدورها أي عمل صادر عن هذه الطائفة، وفاعلها الحقيقي إنما هو الجماعة لا الفرد، وبهذا الشكل لا بد من الأخذ بمبدأ الفاعل الجماعي"(٧).

وشاع في النقد أن "لهذا التصور أهمية كبرى في مجال الإبداع الثقافي؛ لأن الناس درجوا على اعتبار الإنتاج الثقافي أعمالاً فردية وربطوه بالضمائر الشخصية لمنتجيه، مع أن هذه

---

(١) مشكلات فلسفية (٨) مشكلة البنية: ٢٤٦.

(٢) في البنيوية التركيبية - دراسة في منهج لوسيان غولدمان: ٦٧.

(٣) م. ن: ٢٩، وينظر: المذاهب النقدية الحديثة - مدخل فلسفي: ١٨٩ - ١٩٠.

(٤) في البنيوية التركيبية - دراسة في منهج لوسيان غولدمان: ٧٨.

(٥) مقالات ضد البنيوية: ١٨.

(٦) في البنيوية التركيبية - دراسة في منهج لوسيان غولدمان: ٢٨.

(٧) نظرية البنائية في النقد الأدبي: ١٨٩.

الضمائر تتوقف في حقيقة الأمر على تجارب وممارسات الفاعل الجماعي حيث تندمج فيما بينها وتكون بنيتها المشتركة"[١].

ولذلك ظهر تشديد على أن "تجربة الفرد ليست إلا وجها جزئياً في الإبداع؛ إذ إن المبدع الحقيقي هو (النحن)، هو الذات الجماعية التي تلائم رؤيتها للعالم بنية العمل الفني"[٢]. يقول غولدمان في هذا الصدد: "إن الفرد، هذه الوحدة الفاعلة والمبنية (بفتح الياء) التي تسمح بمعرفة ذات دلالة، لفعل الناس، أو لطبيعة أو معنى العمل الذي ندرسه، ليس فرداً، وإنما هو حقيقة فوق فردية، إنها تتصل بفئة إنسانية"[٣].

وهذه العملية التي تدرج" الفرد في كلية سوسيولوجية لا تنطوي على تذويب لهذا الفرد، وإنما هي عملية هدفها أن تجد له موقفاً في قلب المجتمع لا على الهامش"[٤]، ولذلك يقول غولدمان: "إنني لا أنكر على الفنان قدراته على الخلق، ولكني أقول ببساطة إن الفنان يخترع عمله الفني من خلال المعطيات الفنية التي يشارك في صياغتها الآخرون"[٥]. ومثل هذا التوجه، دعا إلى القول إنه "ليس هناك عمل فكري هام يمكن أن يكون تعبيراً عن خبرة فردية خالصة"[٦].

وعليه سنسعى إلى اكتشاف البنية الذهنية لدى الفئة التي كان الإمام علي (ع) جزءاً منها، ونضع في الحسبان أنها ليست فئة اجتماعية، أو طبقة، أو مؤسسة، وإنما فئة دينية، يمكن أن نطلق عليها فئة (المنتجبين وأتباعهم).

والدين ـ كما هو معروف ـ مقياس فئوي، ليس مع من يؤمن به إيماناً كاملاً كـ(المصطفَين) و (المنتجَبين) فقط، وإنما مع من هم أدنى درجة منهم كـ (أتباعهم)، ومع من هم أدنى منهم بدرجات كثيرة، فـ"تصنيف الطبقات اعتماداً على المصالح المادية وحدها لا يكفي لشرح الانخراطات السياسية والانتماءات الإيديولوجية، فهناك قبل كل شيء،

---

(١) م. ن: ١٨٩.

(٢) العلوم الإنسانية والفلسفة: ١١.

(٣) ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب ـ مقاربة بنيوية تكوينية: ٣٣٥.

(٤) مقالات ضد البنيوية: ٤١.

(٥) م. ن: ٣٧.

(٦) التحليل الاجتماعي للأدب: ٣٣. ويمكن أن نعرف دلالة مصطلح (المصطفَين)، من خلال قراءة قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ❖ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤)، وقوله: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ} (النمل: ٥٩)، وقوله: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} (الحج: ٧٥)، ويمكن أن نعرف دلالة (المنتجبين) من خلال قراءة ما جاء في: لسان العرب: مادة (ن ج ب): "(المنتجَب): المختار من كل شيء، وقد انتجب فلان فلاناً إذا استخلصه، واصطفاه اختياراً على غيره".

عنصر الدين الذي يشمل ويوجه جميع الاتجاهات، ولو ظاهراً على الأقل"[١]. والدين من وجهة نظر علماء الاجتماع معرفة علمية، والوحي كذلك عندهم معرفة علمية[٢].

ومما يدفعنا أكثر نحو السعي بهذا الاتجاه، هو "أن تجربة الفرد وحده هي قصيرة ومحدودة جدا بحيث لا تستطيع أن تخلق مثل هذه البنية الذهنية؛ إذ لا تستطيع هذه البنية إلا أن تكون نتيجة النشاط المشترك الذي يقوم به عدد مهم من الأفراد وجدوا أنفسهم في حالة مماثلة"[٣].

ومن دلالات هذا الأمر أن الأبنية العقلية - وهي أبنية المقولات الدالة - ليست ظواهر فردية، وإنما هي ظواهر اجتماعية، خاصة عند التعامل معها من منظور أكثر تجريداً، منظور يثبت أن الفرد في حد ذاته لا يستطيع أن يمتلك مثل هذه البنية العقلية بوصفها ظاهرة اجتماعية، بل هو مجرد وحدة أو عنصر من العناصر المشكلة لهذه الظاهرة[٤].

ومعرفة الفرد تعود "إلى معرفة الفئة المجتمعية التي ينتمي هذا الفرد إليها. ويعني ذلك إن الفئة المجتمعية، في اعتبارها فئة معرفية، هي مولدة المعرفة وحاملتها وخازنتها ومكتسبتها. وعلى هذا الأساس، تتعدد الفئات المجتمعية في المجتمع الواحد"[٥].

ومن هنا صار من غير الممكن "اختزال الفئة المجتمعية، وبالتالي الفئة المعرفية، إلى مجرد تجميع بسيط لأفراد يتشابهون في متغيرات معينة. فالمعرفة من هذا المنظار، تعني الحركة الذهنية العامة، فتقترب من كونها نظاماً متكاملاً من العادات الذهنية وتبتعد عن كونها رأياً يبديه الفرد أو معتقداً يؤمن به أو سلوكاً يسلكه أو موقفاً يتخذه. كما أن الآراء والمواقف والأفكار والمعتقدات تتغير ضمن المعرفة الواحدة، ولا يعني تغيرها، في الضرورة، استبدال معرفة بأخرى"[٦].

ورأي غولدمان بهذا الأمر يتلخص "في أن الإنسان بنية، وهذه البنية حصيلة عناصر مادية ليست من صنعه ولكنها تأتي إليه وتمر عبره مؤدية إلى تكوين رؤيته للكون"[٧]، وهذا يؤكد أن "البنية الكلية تصوغ بنى الأفراد"[٨]، وأنه "لا يوجد وعي يستطيع أن يعبر عن نفسه دون أن يكون ملتحماً على نحو ما بالوعي الشامل"[٩].

---

(١) محمد مندور وتنظير النقد العربي: ١٧٥ - ١٧٦.

(٢) ينظر: الاتجاهات والمدارس في علم الاجتماع - دراسة في فلسفة العلم (الابستمولوجيا)، عبدالله إبراهيم: ١٢٦.

(٣) في البنيوية التركيبية - دراسة في منهج لوسيان غولدمان: ٢٩.

(٤) ينظر: البنيوية التكوينية والنقد الأدبي: ٤٥، وتطور المناهج الاجتماعية: ٣٤ - ٣٥.

(٥) الاتجاهات والمدارس في علم الاجتماع - دراسة في فلسفة العلم (الابستمولوجيا): ١٢٥.

(٦) م. ن: ١٢٦.

(٧) مقالات ضد البنيوية: ٣٣.

(٨) م. ن: ٣٤.

(٩) مقالات ضد البنيوية: ٤٥.

وعليه فإننا سنسعى إلى اكتشاف الوحدة (الإيديولوجية) القائمة في عالم الإمام علي (ع)، من خلال معالجة الوضع الديني بارتباطاته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغير ذلك، الذي نشأت فيه (الرؤية المستقيمة)، ودراسة الفئة الدينية التي تبنت تلك الرؤية، وعلاقتها بالمجتمع الإنساني كله، وبحركة التاريخ الإنساني ولاسيما في الجزيرة العربية وما حولها.

وسنضع نصب أعيننا وصية غولدمان للنقد الأدبي بألا يغفل ـ وهو يتبنى منظوراً واسعاً ـ "دراسة السيرة الذاتية ونفسية الفنان"[١]، كي لا نغفل عن دراسة السيرة الذاتية للإمام علي (ع) ونفسيته بما لا يتقاطع مع طريق البحث البنيوي التكويني، مستنيرين بإضاءات من نتاج الإمام علي (ع) نفسه، أو من الدراسات التي اشتغلت في حقله، أو درست شخصيته بصورة متنوعة، وبإضاءات من سيرة أفراد الفئة التي يمثلها.

وسنحاول أن ننطلق من سيرة الإمام علي (ع) من حيث إن "الانطلاق من سيرة الكاتب أمر جيد: لأنه يسمح بفهم أفضل للأعمال الكبيرة حقاً، من خلال التجربة التي كمنت وراء ظهورها"[٢]، ومن حيث إن "سيرة الكاتب قد تكون لها أهمية كبيرة، ومن واجب مؤرخ الأدب أن يفحصها بعناية ليرى في كل حالة خاصة، ما يمكن أن تمده به من تعاليم وشروح.. لكن يتحتم عليه ألا ينسى أبداً، عندما يتعلق الأمر بتحليل أكثر عمقاً، أن السيرة لا تعدو أن تكون عاملاً جزئياً وثانوياً، وأن الجوهري هو العلاقة بين العمل الأدبي، وبين الرؤيات للعالم التي تقابل بعض الطبقات الاجتماعية"[٣].

واستنارة بما عرفناه عن الإمام علي (ع) كما تجلى في نصوصه، فإننا لن نتشبث كثيرا في متابعة مفردات سيرته الذاتية خارج نصوصه، مع الإيمان ـ من غير تطرف ـ بـ"أنه كلما كان العمل تعبيراً صادراً عن مفكر أو عن كاتب عبقري، أمكن فهمه في ذاته بدون أن يلجأ المؤرخ إلى سيرة الكاتب أو إلى نواياه؛ ذلك أن الشخصية الأكثر قوة هي التي تتطابق بكيفية أفضل مع حياة الفكر، أي مع القوى الجوهرية للوعي الاجتماعي في مظاهره الفعالة والمبدعة. وعلى العكس من ذلك عندما يتعلق الأمر بفهم وتفسير نقط الاختلال والضعف في عمل أدبي أو فكري، نكون في معظم الأحيان، مضطرين إلى اللجوء إلى فردية الكاتب وإلى الظروف الخارجية لحياته"[٤].

---

(١) البنيوية التكوينية والنقد الأدبي: ٤٨.

(٢) م. ن: ٣٠.

(٣) م. ن: ١٦.

(٤) البنيوية التكوينية والنقد الأدبي: ١٩.

نقول: من غير تطرف؛ لأننا لسنا في حقل التاريخ، وإنما في حقل البحث الأدبي المتسلح بالبنيوية التكوينية، ونحتاج إلى وقائع مفصلة ـ جهد الإمكان ـ لما ورد مجملاً في النصوص الأدبية، أو لغيره؛ ومكان تلك الوقائع المفصلة هو السيرة والكتب الدينية والتاريخية والأدبية... ولأننا "في حالة دراسة إنتاج أديب معين نحتاج إلى سبر هوية (السياق) الرئيسي للكاتب لنعرف من ذلك كيف نفسر نصوصه، ونرتبها داخل سياقها العام وهو السياق الأدبي الموروث، وسياقها الخاص وهو مجموع أعمال الأديب الذي أنتج نصوصاً تداخلت مع بعضها في علاقات متشابكة لا يمكن سبرها وتمييزها إلا بمعرفة (سياقها) وتمييز شفرتها"[١].

وعلينا أن نتنبه على أن إهمال مقولة (الفاعل)، الذي شاع في الدراسات البنيوية الشكلية، يضيع علينا ـ كما يرى غولدمان ـ "فرصة فهم النص من وجهة نظر اجتماعية وتاريخية. إذ يجب أن يكون خلف كل جملة في النص فاعل لا يجوز نسيانه والإغفال عن دوره، إذا أردنا أن نفهم النص بشكل إنساني؛ لأن الإنسان هو المحرك الوحيد للتاريخ. ففي نظره هناك صلة وثيقة بين النص والفاعل والتاريخ"[٢]. وعلينا أن ننبه على أن الإنسان (الفاعل) الذي نتعامل معه في بحثنا هذا، مرتبط بالإرادة الإلهية وبتوجيهاتها (المحرِّكة) للمجتمع، وهو الإمام علي (ع)، وأن نصه هو الرسائل ذات الصبغة الدينية المهيمنة، وأن التاريخ الذي سنهتم بمتابعته هو تاريخ الأديان ولاسيما التاريخ الإسلامي.

هكذا يتضح لنا أن علينا أن نحاول الكشف في الفصل الأول عن البنية الذهنية المشكِّلة للإمام علي (ع)، بينما نحاول الكشف في الفصل الثالث عن البنية الذهنية المتشكِّلة في نتاج الإمام علي (ع)، وعن علاقتها بالبنيات الأخر في المجتمع الإسلامي وقتذاك؛ لأن "الواقع الإنساني برمته لا يمكن إدراكه إلا من خلال بنى أو أبنية عقلية"[٣]، بما يكشف عن مقدار تمثله للرؤية المستقيمة وتجسيده لها لغوياً.

ومرد ذلك ـ كما نرى، وكما ثبتنا ذلك في البداية بترجمة أخرى ـ "أن العلاقة بين حياة المجتمع والخلق الأدبي لا تتصل بمضمون هذين القطاعين من الواقع الإنساني عموماً، وإنما تتصل بالأبنية العقلية أساساً، وتتبلور من خلالها، وهو ما يسميه جولدمان بالمقولات أو المفاهيم التي تشكل الوعي الحياتي لمجموعة اجتماعية بعينها، بالعالم التخيلي الذي يخلقه الأديب"[٤].

---

(١) الخطيئة والتكفير ـ من البنيوية إلى التشريحية: ١١.

(٢) في البنيوية التكوينية ـ دراسة في منهج لوسيان غولدمان: ٩٢.

(٣) المذاهب النقدية الحديثة ـ مدخل فلسفي: ١٨٩.

(٤) م. ن: ١٨٩ ـ ١٩٠، وينظر: في البنيوية التركيبية ـ دراسة في منهج لوسيان غولدمان: ٦٧، وتطور المناهج الاجتماعية في النقد الأدبي: ٣٤.

وقد سار غولدمان في هذا الاتجاه؛ لأن العمل الأدبي ـ فيما ترجح عنده ـ "هو التعبير عن رؤية للعالم، عن نمط من الرؤية والإحساس بعالم ملموس من الكائنات والأشياء"[١]. وعليه سنهتم بتلك البنية العقلية، من حيث إنها "هي أساس الحياة الإنسانية والاجتماعية بكل تجلياتها المادية والفكرية والإبداعية"[٢].

بناء على ما تقدم، وعلى أننا لا نستطيع ـ كما يرى غولدمان ـ "أن نفهم البنية الدلالية بشكل معمق إلا إذا ربطناها ببنى أوسع كالبنية الذهنية ورؤى الطبقات الاجتماعية للعالم والبنية الاجتماعية الاقتصادية التي تفرزها حقبة تاريخية معينة"[٣]، آثرنا تقديم هذه الصورة الموجزة عن البنية الذهنية المشكّلة لوعي فئة إسلامية مهمة؛ وهي فئة (المنتجبين وأتباعهم) التي بينت الوقائع المتنوعة أنها ترتبط ـ كما سيتوضح ذلك في الصفحات التالية ـ ارتباطاً قوياً بفئة (المصطفَين) وبالقرآن الكريم وبالحديث النبوي الشريف.

والوضع التاريخي والديني لفئة (المنتجبين وأتباعهم) يدعونا إلى الاهتمام بالأثر الناتج عن نزول القرآن الكريم، من حيث أن الإسلام كان "تأسيساً لرؤيا جديدة ونظام جديد، فهو تحول بالقياس إلى ما قبله، غير أنه ثبات بالقياس إلى ما بعده. غير أن للثقافة العربية نشأة مزدوجة: جاهلية وإسلامية، وبما أن الإسلام نهاية أو خاتمة الرؤيا العربية (والإنسانية) للحياة والكون، فقد فسرت البداية في ضوء الدين الإسلامي، بحيث إن النهاية صارت هي نفسها البداية"[٤].

ولا شك في أن القرآن الكريم يمثل "القوة المركزية الفاعلة والمؤثرة في الثقافة العربية الإسلامية؛ ذلك أنه المصدر الذي تنبثق عنه الرؤية الدينية للوجود، وهو الخطاب المتعالي بنسيجه الدلالي والأسلوبي، وتركيبه اللغوي المخصوص. ويليه الحديث النبوي الشريف الذي يكتسب وجوده وأهميته من حيث كونه مفصلاً لذلك المجمل. فالعلاقة بين القرآن الكريم والحديث علاقة حاشية بمتن، وهما يصدران عن رؤية واحدة، ويهدفان إلى نظام فكري واحد"[٥].

ولوضع المتلقي في بؤرة الاشتغال، لا لغرض الاستباق، نقول: بدا لنا ـ كما سيتضح ـ أن تلك الرؤية الواحدة هي (الرؤية المستقيمة)، "وبما أن القرآن تضمن رؤية محددة للوجود، واستكشف ما مضى من الوقائع والأحداث وتنبأ بما سيأتي، فإن الحديث، بحكم علاقته بالقرآن، انطوى على الرؤية ذاتها، فإن مركزية (الوحي) ممثلة بالقرآن والحديث، استندت إلى قوة خاصة، جوهرها الرؤية الدينية للعالم منذ خلقه إلى فنائه، وضمن مسيرة العالم هذه

---

(١) البنيوية التكوينية والنقد الأدبي: ٤٩.

(٢) المذاهب النقدية الحديثة ـ مدخل فلسفي: ١٩٠.

(٣) في البنيوية التركيبية ـ دراسة في منهج لوسيان غولدمان: ٨٣.

(٤) الثابت والمتحول ـ بحث في الإتباع والإبداع عند العرب ١ ـ الأصول، أدونيس: ٣٥.

(٥) التلقي والسياقات الثقافية ـ بحث في تأويل الظاهرة الأدبية، د. عبدالله إبراهيم: ١٠١ ـ ١٠٢.

رتبت الرؤية الدينية شؤون الخلق؛ الفكرية والاجتماعية والتاريخية... إلخ، ومن ذلك فإنها انبثاق أحلت الوحدة محل التشتت، وأقصت مظاهر الضياع التي سبقت لحظة انبثاق تلك الرؤية"[١].

ولنا على فكرة الانبثاق تحفظ من حيث إن الوحدة كانت موجودة ولكنها مهمشة، وإن التشتت - كما سيتضح في الصفحات اللاحقة - هو الذي كان مهيمناً.

وقبل أن نقوم بمتابعة (الرؤية المستقيمة)، نود أن نثبّت تصورات ذات قيمة نقدية كبيرة، كشفها لنا التاريخ الأدبي؛ منها أن "الأدب موضوع له صلة وثيقة بالماضي"[٢]... ونحن نرى أن نصوص الإمام علي (ع) ولاسيما رسائله وثيقة الصلة بالماضي بصورة فاعلة، ولها علاقات متشابكة مع نصوص سابقة، ومهيّأة لأن تدخل في علاقات مع نصوص أخر، مع الإيمان بأن النص الأدبي "عالم مهول من العلاقات المتشابكة، يلتقي فيه الزمن بكل أبعاده، حيث يتأسس في رحم الماضي وينبثق في الحاضر، ويؤهل نفسه كإمكانية مستقبلية للتداخل مع نصوص آتية"[٣]، وبأن "العمل الأدبي حوار مع تاريخه"[٤].

وليس هذا الوجه للتاريخ هو الوجه الوحيد الذي يمكن التعامل معه، فهناك وجه آخر يتجلى في "أن الإنتاج الثقافي خير معبر عن نزعة الإنسان التاريخية، وبالتالي عن تطلعه إلى التقدم والتطور"[٥]، ووجه ثالث يتجلى في كون التاريخ "طريقة خاصة لدراسة الحاضر بمساعدة وقائع الماضي"[٦]؛ ولذا عدنا إلى وقائع الماضي نقتبس منها ما يساعد في دراسة نصوص الإمام علي (ع) بوصفها تجسيداً لحاضر عاشه الإمام علي (ع)، وتطلعاً إلى تحقيق (الرؤية المستقيمة) بصورة أكثر عمقاً وغنى في الواقع الإسلامي.

ومن تلك التصورات أيضاً، أنه "لا يمكن فهم الأدب في حقبة تاريخية محددة بغير تحليل دقيق للظروف السياسية والاقتصادية السائدة في نفس الحقبة"[٧]، من حيث "إن الحقيقة في هذا العالم لا تتأصل في الأشياء نفسها، بل في العلائق التي نلحظها بين الأشياء، أي أنها لا تتأصل في العناصر وإنما في البنى"[٨]، ومن حيث "إن البنيوية تسعى إلى استكشاف العلاقة

---

(١) م. ن: ١٠٢.

(٢) مقالات ضد البنيوية: ٥٦.

(٣) الخطيئة والتكفير- من البنيوية إلى التشريحية: ١٤.

(٤) مقدمة في النظرية الأدبية، تيري إيغلتن، ت: إبراهيم جاسم العلي: ٧٩.

(٥) في البنيوية التركيبية - دراسة في منهج لوسيان غولدمان: ٢٩.

(٦) البنيوية في الأدب، روبرت شولز، ت: حنا عبود: ٩٦.

(٧) التحليل الاجتماعي للأدب: ١٦٢.

(٨) البنيوية وعلم الإشارة: ٥.

بين نظام الأدب وبين الثقافة التي هو جزء منها"[١]. ونصوص الإمام علي (ع) نفسها - كما نرى - تحليل دقيق للظروف السياسية والاقتصادية السائدة في الحقبة نفسها التي ظهرت فيها تلك النصوص ولاسيما الرسائل، ومع أنها بنية، فهي - كما نرى - تشكل عنصراً من عناصر بنية أكبر هي بنية ثقافة فئة (المنتجبين وأتباعهم) التي هي عنصر من بنية أكبر هي بنية ثقافة الفئة المسلمة التي هي عنصر في بنية أكبر هي بنية ثقافة الفئة المتدينة التي تقف داخل بنية المجتمع الإنساني موقفاً بعيداً عن الفئة غير المتدينة.

ومن تلك التصورات أيضاً "أن التاريخ الأدبي لابد أن يكون تاريخاً أدبياً اجتماعياً ما دام يبحث الأدب في مظاهره المختلفة، والأدب ظاهرة اجتماعية"[٢]... ومعرفتنا بنصوص الإمام علي (ع) تدلنا على أنها ظاهرة اجتماعية، وأن تاريخها الأدبي لابد أن يكون - فعلاً - تاريخاً أدبياً اجتماعياً.

وإذا كانت "العلاقة بين العمل الأدبي والجمهور تعد علاقة بالغة العمق؛ ذلك أن مفهوم وتصور الجمهور الذي يريد أن يخاطبه الأديب، يدخل بلا أدنى شك، ويؤثر في نشأة العمل الأدبي ذاته"[٣]، فإن نصوص الإمام علي (ع) - كما نرى - انبنت على ذلك ولاسيما في الرسائل التي كانت إجابة لرسائل مرسلة إليه من عناصر فاعلة في فئات أخر، وإنها كانت من جهة أخرى عاملاً رئيساً من عوامل الوعي الاجتماعي لفئة (المنتجبين وأتباعهم).

نحن - هنا - إذا نحاول أن نضع نص الإمام علي (ع)، المتمثل في (رسائله)، في إطاره الزماني والمكاني، ونتعرف التاريخ الديني والاقتصادي والاجتماعي والثقافي للعصر الذي ظهر فيه، بغية تحليله تحليلاً بنيوياً تكوينياً؛ لأن مثل هذا التحليل يعي بوجود النص "داخل أنساق ثلاثة: نسقه الخاص كبناء مستقل، والنسق الأدبي العام للنوع الذي ينتمي إليه، ثم الأنساق الأخرى غير الأدبية التي تؤثر في تشكيل المزاج الثقافي الذي ينتج النص في نهاية الأمر. وفي ظل هذا الربط بين النسق الأدبي الفردي، والعام، والأنساق الأخرى غير الأدبية ينتفي جمود بنية النص التي تعكس في حيوية، التغيرات التي تطرأ على الأنساق الأخرى العامة. ويترتب على هذه الديناميكية تمتع النص بحيوية تمكنه من استيعاب هذه التغيرات، من ناحية، والتعبير عنها من ناحية أخرى"[٤].

ومن هنا قيل "إن الأشكال الأدبية لا تتغير أو تتطور بطريقة عفوية، بل نتيجة تحول في الغالب"[٥].

---

(١) الخطيئة والتكفير - من البنيوية إلى التشريحية: ٦١.

(٢) التحليل الاجتماعي للأدب: ١٦٢.

(٣) م. ن: ١٢٢.

(٤) المرايا المحدبة - من البنيوية إلى التفكيك: ٢٣٧ - ٢٣٨.

(٥) م. ن: ٢٣٨.

المحور التطبيقي:

أولاً ـ اجتباء رجل: تحتاج هذه القضية إلى العودة إلى اللحظة الأولى لاجتباء أول رجل. وقد نبه الإمام علي (ع) على ذلك في عرضه الموجز للفكر الديني، إذ قال: "أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه"[١]، ولما كان الأمر كذلك، استدعى أن يتمثل المخلوق البشري الأول (آدم) ـ الذي مرت طينته بمراحل معروفة ـ "إنساناً ذا أذهان يجيلها، وفكر يتصرّف بها، وجوارح يختدمها، وأدوات يقلّبها، ومعرفة يفرق بها بين الحق والباطل والأذواق والمشامّ والألوان والأجناس"[٢]. وهذا يدل على أن للتاريخ البشري ابتداء بخلق آدم (ع) صورة متميزة في ذهن الإمام علي (ع).

ولما كان الحديث عن الخلافة قد جرى بين الله سبحانه وتعالى وملائكته على وفق الحوار الذي حكاه لنا القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[٣]، فهذا يعني أن الخليفة الذي سيكون في الأرض، جاء اختياره واجتباؤه من واجب الوجود، وليس اختياراً واجتباء من مخلوق بشري أو غير بشري.

وقد عبر الإمام علي (ع) عن خلق آدم (ع) واصطفائه بأقوال كثيرة، منها: "خلق الله آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له الملائكة، وعلمه الأسماء كلها، واصطفاه على العالمين، فحسده الشيطان فكان من الغاوين"[٤]. وإذا كان من طبع الطين ـ وقد خلق الله سبحانه وتعالى آدم (ع) منه ـ الدنوّ، فإن طبع الروح الرفعة والارتقاء والسموّ[٥].

ونظر الإمام علي (ع) إلى هذا الموقف، وعرضه كاشفا عن البنية الذهنية المرادة، وعن البنية الذهنية لإبليس، بقوله: "الحمد لله الذي لبس العز والكبرياء، واختارهما لنفسه دون خلقه، وجعلهما حمى وحرماً على غيره، واصطفاهما لجلاله"[٦]، ثم قال: "وجعل اللعنة على من نازعه

---

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد (ت٦٥٦هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم: ٧٢/١.

(٢) م. ن: ٩٦/١.

(٣) البقرة: ٣٠ ـ ٣٣.

(٤) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة، محمد باقر المحمودي: ١٥١/٤.

(٥) ينظر: الإنسان والإسلام، د. علي شريعتي، ت: د. عباس الترجمان: ١٨.

(٦) شرح نهج البلاغة: ١٢٧/١٣.

فيهما من عباده، ثم اختبر بذلك ملائكته المقربين ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين، فقال سبحانه وهو العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ﴾[1] اعترضته الحميّة، فافتخر على آدم بخلقه، وتعصّب عليه لأصله، فعدو الله إمام المتعصبين وسلف المستكبرين الذي وضع أساس العصبية، ونازع الله رداء الجبرية، وادّرع لباس التعزّز، وخلع قناع التذلّل"[2].

ولذلك نبه (ع) من يستمعون إليه ـ بعد أن حذر من الشيطان ـ قائلاً: "فلعمري لقد فوّق لكم سهم الوعيد، وأغرق إليكم بالنزع الشديد، ورماكم من مكان قريب، فـ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قذفاً بغيب بعيد، ورجماً بظن غير مصيب صدّقه به أبناء الحميّة وإخوان العصبية وفرسان الكبر والجاهلية"[3].

وبناء على حوار الله سبحانه وتعالى مع ملائكته: "استأدى الله سبحانه الملائكة وديعته لديهم، وعهد وصيته إليهم في الإذعان بالسجود له، والخنوع لتكرمته، فقال سبحانه: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ اعترته الحميّة، وغلبت عليه الشقوة، وتعزّز بخلقة النار، واستوهن خلق الصلصال، فأعطاه الله النظرة استحقاقاً للسخطة، واستتماماً للبليّة، وإنجازاً للعدة، فقال: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾"[4].

وشدد الإمام (ع) على موقف إبليس، فوضحه بقوله: "أما إبليس فتعصب على آدم لأصله، وطعن عليه في خلقته، فقال أنا ناريّ، وأنت طينيّ"[5].

وفي هذا الكلام إشارة إلى ما مر ذكره من القرآن الكريم، وإلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[6].

---

(١) ص ٧١ ـ ٧٤.

(٢) م. ن: ١٢٧/١٣، والنص القرآني في: ص/من٧١ ـ من٧٤.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١٣٦/١٣ ـ ١٣٧، والنص القرآني في: الحجر/٣٩.

(٤) شرح نهج البلاغة: ٩٧/١، والنص القرآني الأول من: البقرة: ٣٤، ومن سور أخر، والنص القرآني الثاني من: الحجر: ٣٧ ـ ٣٨.

(٥) شرح نهج البلاغة: ١٦٦/١٣.

(٦) الأعراف: ١١ ـ ١٧.

وفيه إشارة أيضاً إلى قوله تعالى، الذي مر ذكر بعضه: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ﴾[1].

وهذا العرض في القرآن الكريم لموقف إبليس من آدم (ع) جاء بهذه الصور المتنوعة تنبيها على وجوب رفض الشيطان وآرائه، وعلى أنه موجود بأشكال مختلفة إلى يوم الوقت المعلوم، وأن على المخلوقات اجتنابه ورفض طريقه.

ونلحظ هنا أن الشيطان صب اهتمامه على وجوب قعوده في الصراط المستقيم، وأن الله سبحانه أكد عدم قدرة الشيطان على الإيقاع بالمخلصين. فالغواية ـ إذا ـ تقابل الاستقامة.

ثم يصف الإمام علي (ع) المرحلة التالية في الاجتباء، بقوله: "ثم أسكن آدم داراً أرغد فيها عيشه وآمن فيها محلّته وحذّره إبليس وعداوته فاغترّه عدوُّه نفاسةً عليه بدار المُقام ومرافقة الأبرار فباع اليقين بشكّه والعزيمة بوهنه واستبدل بالجذل وجلا وبالاغترار ندماً"[2]، لينتقل بعد ذلك لوصف الخطوة التاريخية المهمة جدا في تاريخ الجنس البشري عموما وفي اجتباء آدم (ع) خصوصاً، وذلك في قوله: "ثم بسط الله سبحانه له في توبته ولقّاه كلمة رحمته ووعده المردّ إلى جنته وأهبطه إلى دار البليّة وتناسل الذرّيّة"[3].

ونجد موجزاً لتاريخ الإنسان المتمثل في آدم (ع)، كما يراه الإمام علي (ع) نفسه، في قوله: "فلما مهّد أرضه، وأنفذ أمره، اختار آدم (ع) خيرة من خلقه، وجعله أول جبلته، وأسكنه جنته، وأرغد فيها أكله، وأوعز إليه فيما نهاه عنه، وأعلمه أن في الإقدام عليه التعرض لمعصيته، والمخاطرة بمنزلته، فأقدم على ما نهاه عنه موافاة لسابق علمه، فأهبطه بعد التوبة ليعمر أرضه بنسله، وليقيم الحجة على عباده"[4]. ثم تحدث عن حال البشر بعد قبض آدم (ع) وعن اجتباء الله سبحانه وتعالى لعدد من الرجال، فقال: "ولم يُخلِهم بعد أن قبضه، مما يؤكد عليهم حجة ربوبيته، ويصل بينهم وبين معرفته، بل تعاهدهم بالحجج على

---

(١) الحجر: ٢٨ ـ ٤٢.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١٠٢/١.

(٣) م. ن: ١٠٢/١.

(٤) م. ن: ٣/٧.

ألسن الخيرة من أنبيائه، ومتحمّلي ودائع رسالاته قرناً فقرناً حتى تمت بنبينا محمد (ص) حجته، وبلغ المقطع عذره ونذره"[١].

ومثلما أبرز القرآن الكريم موقف إبليس من اجتباء آدم (ع)، أبرز قضية تعجب الكافرين بالنبوة خلال المسيرة البشرية واجتباء من يجتبيهم الله سبحانه وتعالى، من نزول الرسالة الإلهية على بشر (رجل)، إبرازاً واضحاً؛ ومن ذلك:

١. قوله تعالى مثبتاً السمة (البشرية) في آدم وإعلام الملائكة بذلك: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾[٢]، وقوله تعالى كاشفاً عن الأصل الذي تابعه الكافرون في ردهم على الأنبياء والتشبث بـ (البشرية)، وهو إبليس في رده على الخالق سبحانه وتعالى، حاكياً قوله: ﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾[٣].

٢. قوله تعالى بشأن الكافرين المعاصرين لنوح (ع): ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[٤]، وقوله: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾[٥]، وقوله: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾[٦]، فهم قد رفضوا أمر الله تعالى بحجة أن المرسَل بشر، وليس ملكاً، وفي دواخلهم نزعة التكبر. ومثل ذلك قاله من جاء بعدهم، كما نرى في:

٣. قوله تعالى بشأن الكافرين المعاصرين لنبي جاء بعد نوح (ع): ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾[٧]، و: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[٨]. ويُستشعر ـ هنا ـ اختيارهم المضاد لأمر الله واختياره. ويتجلى الاختيار المضاد أكثر في توصيف أنفسهم المذكور في:

٤. قوله تعالى بشأن الكافرين المعاصرين لهود (ع): ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٣/٧.

(٢) ص: ٧١.

(٣) الحجر: ٣٣.

(٤) الأعراف: ٦٣.

(٥) هود: من ٢٧.

(٦) المؤمنون: ٢٤ ـ ٢٥.

(٧) المؤمنون: من ٣٣ ـ ٣٤.

(٨) المؤمنون: ٣٨.

فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[١]. وتظهر الحال نفسها للكافرين في زمن النبي صالح (ع)، كما في:

٥. قوله تعالى حاكياً الحوار بين الكافرين والنبي صالح (ع): ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾[٢]، وقوله: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ءَأُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾[٣]. وفي ذلك كله يؤكد الأنبياء (ع) أن ذلك الاجتباء لبشر إنما هو مما يمنّ الله به على من يشاء، كما ورد في:

٦. قوله تعالى بشأن قوم نوح وعاد وثمود في ردهم على الأنبياء (ع): ﴿ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[٤]. ومع ذلك يستمر الرفض في الأزمان اللاحقة، للحجة نفسها، وكأنهم في زمن واحد، ويسمع بعضهم بعضاً، ومن ذلك:

٧. قوله تعالى حاكياً كلام الكافرين المعاصرين لشعيب (ع): ﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[٥]. ولم يكن الرفض موجها حينما يكون هناك نبي واحد، وإنما يبقى الرفض نفسه للحجة نفسها وإن كان هناك أكثر من نبي، كما في:

٨. قوله تعالى حاكياً كلام كافري (القرية) للرسل: ﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾[٦]. وتبقى الحال نفسها رفضاً وتكبراً في زمن موسى وهارون (ع)، وذلك ما يظهره:

٩. قوله تعالى بشأن الكافرين المعاصرين لموسى وهارون (ع): ﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾[٧]. وهكذا فالحال واحدة، ومنبع الكافرين واحد، كما أن منبع الأنبياء واحد، ويمكن أن يجلي ذلك:

---

(١) الأعراف: ٦٩.

(٢) الشعراء: ١٥٤ ـ ١٥٥.

(٣) القمر: ٢٣ ـ ٢٥.

(٤) إبراهيم: من ١٠ ـ ١١.

(٥) الشعراء: ١٨٦.

(٦) يس: ١٥.

(٧) المؤمنون: ٤٧.

١٠. قوله تعالى الذي يكشف موقف الكافرين المعاصرين للأنبياء السابقين: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾[١]. ولا عجب حين تبقى الحال في زمن النبي محمد (ص) على ما هي عليه، وتتجمع الحجج الواهية والاتهامات الباطلة، كما أظهر ذلك القرآن الكريم في مواضع كثيرة من أجل غايات متعددة؛ منها فضح الذهنية الشيطانية التي تمثلها الكافرون وصدروا عنها في أقوالهم وأفعالهم، ومن ذلك:

١١. قوله تعالى بشأن الكافرين المعاصرين للنبي محمد (ص): ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾[٢]، وقوله: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾[٣]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾[٤]، وقوله: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾[٥]، وقوله حكاية عنهم، وتعليماً للنبي (ص): ﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[٦]، ثم تعليمه للنبي (ص): ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾[٧]، وقوله حكاية عنهم: ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾[٨]، وقوله: ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾[٩]، وقوله: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ

---

(١) التغابن: ٦.

(٢) الأنعام: ٩١.

(٣) يونس: ٢.

(٤) النحل: ١٠٣.

(٥) الإسراء: ٤٧.

(٦) الإسراء: ٩٣.

(٧) الكهف: ١١٠.

(٨) الأنبياء: من ٣.

(٩) الفرقان: ٧ ـ ٨.

﴿وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[١]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾[٢]، وقوله تعالى كاشفاً موقف الكافر المعاصر للنبي (محمد) (ص): ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾[٣].

وهذا العرض لتشكل السياق الديني التاريخي، ولكشف الخيط الرابط الممتد عبر العصور بين الأنبياء والمرسلين وأتباعهم، يعني أن الرؤية المستقيمة رؤية امتدادية من أول مصطفى وأتباعه إلى آخر مصطفى وأتباعه، وأن مصدرها واحد هو الله سبحانه وتعالى، ويعني أن الرؤية المعوجة رؤية ممتدة من إبليس بوصفه مصدرها الأول إلى آخر متمثل لها، وأن أخذ الميثاق لم يكن مقتصراً على الملائكة، بل أخذ من الأنبياء كذلك؛ وفي ذلك هداية إلى الاستقامة وإلى طريقها، وقد بين ذلك الإمام (ع) مشدداً على أهمية معرفة الله سبحانه وتعالى، وعلى أثر الشياطين في الإبعاد عنها، بقوله الذي يوجز فيه تاريخ الأنبياء (ع) والغاية من اختيارهم: "واصطفى سبحانه من ولده أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم لما بدّل أكثر خلقه عهد الله إليهم فجهلوا حقّه، واتخذوا الأنداد معه، واجتالتهم الشياطين عن معرفته، واقتطعتهم عن عبادته، فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكّروهم منسيّ نعمته، ويحتجّوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول، ويروهم آيات المقدرة"[٤].

وقد تم ذلك - كما هو واضح - بطريقة الاصطفاء والاجتباء التي أثبتها القرآن الكريم في مواضع عدة، منها: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۖ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٥].

ويوضح الإمام علي (ع) كيفية اختيارهم، فيقول: "ولم يخل الله سبحانه خلقه من نبي مرسل، أو كتاب منزل، أو حجة لازمة، أو محجة قائمة. رسل لا تقصّر بهم قلة عددهم،

---

(١) سبأ: ٤٣.

(٢) فصلت: ٦.

(٣) المدثر: ٢٤ - ٢٥.

(٤) شرح نهج البلاغة: ١/١١٣.

(٥) الأنعام: ٨٣ - ٨٨.

ولا كثرة المكذبين لهم: من سابق سمّي له من بعده، أو غابر عرّفه من قبله على ذلك نسلت القرون، ومضت الدهور، وسلفت الآباء، وخلفت الأبناء"[١].

ومن الأمور الواضحة جداً في كشف البنية الذهنية الواحدة عند الأنبياء (ع) وانطلاقهم من رؤية كونية واحدة، ما جاء مثلاً في سورتي الأعراف وهود.

ففي بداية سورة الأعراف نجد قوله تعالى: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾[٢]، ثم نجد أقوالاً محكية عن عدد من الأنبياء (ع) تعبر عن هذه الفكرة، بألفاظ واحدة عند الأنبياء كلهم؛ فعن نوح (ع): ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾[٣]، وعن هود (ع): ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾[٤]، وعن صالح (ع): ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾[٥]، وعن شعيب (ع): ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾[٦]. وهل يحصل ذلك التشابه بين تعبيرات بشر سواء أكانوا متباعدين زمانياً أم لا، إلا بالامتياح من مصدر واحد والصدور عن بنية ذهنية واحدة؟!

ونجد حكاية لحوارات بين عدد من الأنبياء (ع) وأقوامهم، تكشف عن الاختلاف الكبير بين البنية الذهنية للأنبياء (ع) المتشابهين في طريقة عرض الدعوة إلى اتخاذ الرؤية المستقيمة ومصدرها الإلهي طريقاً، والبنية الذهنية لأقوامهم المتشابهين في ردّهم عليهم وفي طريقته واتهاماته، فمما دار بين نوح (ع) وقومه: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[٧]، ومما دار بين هود (ع) وقومه: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[٨].

ومن بين الأمور التي يؤكد فيها أولئك الأنبياء (ع) أنهم لا يتقولون، وإنما هم مرسلون من الله عز وجل، ومتحدثون باسم السلطان الإلهي لا باسمائهم هم، إعلانهم عن أنهم مبلّغون رسالات ربهم، وأنهم ناصحون لقومهم؛ فنوح (ع) يقول: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾[٩]،

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١/١١٣ ـ ١١٦.
(٢) الأعراف: من ٣.
(٣) الأعراف: من ٥٩.
(٤) الأعراف: من ٦٥.
(٥) الأعراف: من ٧٤.
(٦) الأعراف: من ٨٥.
(٧) الأعراف: ٦٠ ـ ٦١.
(٨) الأعراف: ٦٦ ـ ٦٧.
(٩) الأعراف: من ٦٢.

وهود (ع) يقول: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[١]، وصالح (ع) يقول: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[٢]، وشعيب (ع) يقول: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾[٣].

ومن بين الأمور الأخر التي يؤكد فيها أولئك الأنبياء (ع) أنهم مرسلون، والتي تكشف عن التشابه الدال على الصدور عن بنية ذهنية واحدة، قول نوح (ع): ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾[٤]، وقول هود (ع): ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾[٥].

وإذا ما تم الانتقال إلى سورة هود، فسيتبين في بدايتها ما يثبت بشكل قاطع ما تم التوصل إليه من خلال سورة الأعراف، إذ نجد قوله تعالى حكاية: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾[٦]، ثم نجد بعد ذلك أقوالاً محكية مشابهة إلى درجة كبيرة، عن عدد من الأنبياء (ع) تعبر عن هذه الفكرة. فعن نوح (ع): ﴿نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٥ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾[٧]، وعن هود (ع): ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[٨]، وقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾[٩]، وعن صالح (ع): ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾[١٠]، وعن شعيب (ع): ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[١١]، وقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾[١٢].

ومنها ما عبر - بتعبيرات متشابهة إلى حد كبير - عن كونهم على بينة من ربهم؛ فنوح (ع): ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾[١٣]، وصالح (ع): ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ

---

(١) الأعراف: ٦٨.

(٢) الأعراف: من ٧٩.

(٣) الأعراف: من ٩٣.

(٤) الأعراف: من ٦٣.

(٥) الأعراف: من ٦٩.

(٦) هود: ٢ - من٣.

(٧) هود: ٢٥ - من ٢٦.

(٨) هود: من ٥٠.

(٩) هود: من ٥٢.

(١٠) هود: من ٦١.

(١١) هود: من ٨٤.

(١٢) هود: من ٩٠.

(١٣) هود: من ٢٨.

أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً ﴾[١]، وعن شعيب (ع): ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾[٢].

ومنها ما عبر عن عدم سؤالهم أجراً مادياً جزاء ما يدعون إليه: فنوح (ع) قال: ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾[٣]، وهود (ع) قال: ﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾[٤].

وفي ذلك كله دلائل على أن الأنبياء (ع) كلهم تمثلوا الرؤية المستقيمة والبنية الذهنية التي رسمها الخالق سبحانه وتعالى، وها هم أنفسهم يشددون على أهمية الاستقامة، أو ها هم يوصفون بأنهم على طريق الاستقامة. فهود (ع) ـ كما يحكي ذلك القرآن الكريم في السورة المسماة باسمه ـ يقول موضحاً البنية الذهنية الواحدة التي يتحرك على وفقها الفكر الديني المستمد من الخالق سبحانه وتعالى: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٥].

وحكى القرآن الكريم عن شعيب (ع) أنه خاطب أصحاب الأيكة، فأمرهم بالاستقامة، فقال: ﴿ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾[٦].

وأمر الله سبحانه، موسى وهارون (ع) بوجوب الاستقامة، إذ جاء في القرآن الكريم: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٧]، ثم وصفهما (ع) بالاستقامة، فقال: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[٨].

وحكى القرآن الكريم ما قاله عيسى (ع) لبني إسرائيل وشدد فيه على العلاقة بين عبادة الله سبحانه والاستقامة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾[٩]. ثم ربط بين عيسى (ع) والرسول محمد (ص) بوصف وحكاية، إذ جاء فيه: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾[١٠].

---

(١) هود: من ٦٣.

(٢) هود: من ٨٨.

(٣) هود: من ٢٩.

(٤) هود: من ٥١.

(٥) هود: ٥٦.

(٦) الشعراء: ١٨١ ـ ١٨٢.

(٧) يونس: ٨٨ ـ ٨٩.

(٨) الصافات: ١١٧ ـ ١١٨.

(٩) آل عمران: ٥١، وتنظر: الزخرف: ٦٤.

(١٠) الزخرف: ٦١.

مما مر يتبين أن هناك ربطاً وثيقاً بين طريق الاستقامة واختيار الأنبياء والمؤمنين لها بهداية الله سبحانه، وقد تجلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1].

ومن هذه الآية ومن آيات أخر توصل الدكتور محمد بهشتي إلى القول: "يوجد في دعوات جميع الأنبياء مبادئ مشتركة واحدة. فالقرآن يعلن أن الاختلافات الموجودة في عقائد الأديان السماوية ليست ناشئة عن مؤسسي تلك الديانات أي الأنبياء، بل هي من عمل مجموعة ممن أعلنوا عن أنفسهم حماة ومبلغين لعقائد الأنبياء من بعدهم، إما لتحقيق مصالح شخصية أو لجهلهم أو لوقوعهم تحت تأثير العقائد الأخرى حيث قاموا بإجراء تغييرات في العقائد التي جاء بها الأنبياء أو فسروها تفسيرات زائفة، وقد لعب الجهل الشامل للجماهير دوراً مهماً في تلك التغييرات والتفسيرات"[2].

ومن بين الأدلة على ذلك - كما نرى - تلك البنية اللغوية المستمدة من مصدر واحد، التي حكاها القرآن الكريم عن الأنبياء (ع) في مخاطبة المرسلين إليهم، والمستمرة على صيغة واحدة استمراراً يؤكد امتداد الرؤية الواحدة وتجليها لغة بصورة لغوية ما. ومن ذلك ما نجده مثلاً في سورة الشعراء:

١) ورد عن هود (ع): ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[3].

٢) ورد عن صالح (ع): ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[4].

٣) ورد عن لوط (ع): ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[5].

٤) ورد عن شعيب (ع): ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[6].

---

(١) البقرة: ٢١٣.

(٢) تحليل علمي للإيديولوجية الإسلامية، د.محمد بهشتي، تر: نبيل المسعودي: ٧٠. والآيات الأخر هي في: آل عمران: ١٩، ومريم: ٣٧، والزخرف: ٤٥.

(٣) الشعراء: ١٢٣ - ١٢٧.

(٤) الشعراء: ١٤١ - ١٤٥.

(٥) الشعراء: ١٦٠ - ١٦٤.

(٦) الشعراء: ١٧٦ - ١٨٠.

وبالتوقف عند النبي إبراهيم الخليل (ع) ومكانته بوصفه أحد أجداد النبي محمد (ص)، نجد أن الخالق سبحانه يربط بينهما في البنية الذهنية المستمدة منه سبحانه، وفي رؤيتها المستقيمة، وفي اجتبائه لهما، إذ يصف النبي إبراهيم (ع) بقوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1]. وهذا الربط في الاستقامة والماهية بين ملة إبراهيم (ع) الحنيفية والإسلام، يتجلى أيضاً في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[2]. ومن المعروف "أن الملة الكبرى هي ملة إبراهيم الخليل (ع)، وهي الحنيفية التي تُقابلُ الصبوة تَقابُلَ التضاد"[3]، وهذا يعني أن هناك تقابلاً تضادياً بين الميل إلى الجهل، والاستقامة الدينية.

ولغايات متعددة: منها ما يهتم البحث بكشفه هنا من حيث الصدور عن بنية ذهنية واحدة واستمرارية الرؤية المستقيمة، والاجتباء الإلهي لأفراد معينين، نجد أن القرآن الكريم قد أوضح مكانة إبراهيم الخليل (ع) والحنيفية في مواضع متعددة، فقد جاء فيه:

١. ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[4].

٢. ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[5].

٣. ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[6].

٤. ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾[7].

٥. ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[8].

٦. ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[9].

---

(١) النحل: ١٢٠ - ١٢٣.

(٢) البقرة: ١٣٥.

(٣) الملل والنحل، أبو الفتوح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني (ت٥٤٨هـ)، تح: أمير علي مهنا وآخر: ٥١/١.

(٤) البقرة: ١٣٥.

(٥) آل عمران: ٦٧ - ٦٨.

(٦) آل عمران: ٩٥.

(٧) النساء: ١٢٥.

(٨) الأنعام: ٧٨ - ٧٩.

(٩) الأنعام: ١٦١.

٧. ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[١].

٨. ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٢].

ثم بين القرآن الكريم وجوب الاتصاف بالحنيفية، بقوله تعالى: ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ ﴾[٣]، وبقوله: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾[٤].

ولم يتوقف الأمر باختيار طريق الاستقامة وبوصفها ووصف أصحابها وأعدائهم، عند النبي إبراهيم الخليل (ع)، بعد أن أُمر الأنبياء (ع) السابقون له بذلك ابتداء بآدم (ع)، بل أُمر بذلك من جاء بعده، ومنهم موسى وعيسى (ع). وخير دليل على ذلك ما جاء في كتابيهما التوراة والإنجيل: وهذه الأهمية لهذا الدليل، وقول الإمام علي (ع): "لو ثنيت لي الوسادة لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم وبين أهل الزبور بزبورهم وبين أهل القرآن بقرآنهم"[٥]، بما يعني كون الكتب السماوية السابقة جزءاً من البنية الذهنية للإمام (ع) جعلا البحث يفرد له نقطة خاصة به، ويتابع كثيراً من التفصيلات.

ثانياً ـ الاستقامة في التوراة والإنجيل: إذا ما بحثنا في العهد القديم فسنجد إشارات واضحة وكثيرة جداً، إلى الاستقامة وأهميتها، من مثل:

أ. (٣٤.... لأن اللاويين كانوا أكثر استقامة قلب من الكهنة في التقدس)[٦]، وبترجمة أخرى تجعل الاستقامة تطهيرا: (٣٤.... لأن اللاويين كانوا أكثر اهتماماً بتطهير أنفسهم من الكهنة)[٧].

ب. (٦. كرسيك يا الله إلى دهر الدهور. قضيب استقامة قضيب ملكك)[٨]، وبترجمة أخرى تربط الاستقامة بالعدل: (٦. عرشك يا الله إلى دهر الدهور، وصولجان ملكك عادل ومستقيم)[٩].

---

(١) يونس: ١٠٥.

(٢) الروم: ٣٠.

(٣) الحج: من٣٠ ـ من٣١.

(٤) البينة: ٥.

(٥) شرح نهج البلاغة: ١٩٧/١٢.

(٦) العهد القديم والجديد، مجمع الكنائس الشرقية: ٧٢٤/١ (الإصحاح التاسع والعشرون).

(٧) التوراة والإنجيل، موقع arabicbible: ٨٠٤.

(٨) العهد القديم والجديد: ٨٦٤/١ (المزمور الخامس والأربعون).

(٩) التوراة والإنجيل: ٩٦٦.

ج. (٦. اسمعوا فإني أتكلم بأمور شريفة وافتتاح شفتي استقامة)[١]، وبترجمة أخرى تجعل الأمور الشريفة استقامة، والاستقامة إخلاصاً: (٣. كلماتي تصدر من قلب مستقيم، وشفتاي تتحدثان بإخلاص بما أعلم)[٢].

د. (٣. استقامة المستقيمين تهديهم واعوجاج الغادرين يخربهم)[٣]، وبترجمة أخرى تجعل الاستقامة براً، الهداية نجاة: (٦. بر المستقيم ينجيه، والغادرون يؤخذون بفجورهم)[٤].

ه. (٦. فدعا أخيش داود وقال له حي هو الرب إنك أنت مستقيم)[٥]، وبترجمة أخرى تجعل الوصف بالاستقامة قسماً: (٦. فاستدعى أخيش داود وقال له: أقسم لك بالرب الحي إنك مستقيم)[٦].

و. (١٧. وقد عملت يا إلهي أنك أنت تمتحن القلوب وتسر بالاستقامة. أنا باستقامة قلبي انتدبت بكل هذه)[٧]، وبترجمة أخرى تؤكد سرور الإله بالاستقامة، وعلاقة القلب بالاستقامة: (١٧. وأنا أعلم يا إلهي أنك تفحص القلوب وتسر بالاستقامة، وأنا قدمت إليك كل هذه بقلب مستقيم)[٨].

ز. (١٥. ليخبروا بأن الرب مستقيم. صخرتي هو ولا ظلم فيه)[٩]، وبترجمة أخرى تحول الإخبار بالاستقامة إلى شهادة بها: (١٥. ليشهدوا أن الرب مستقيم. إنه صخرتي وليس فيه سوء)[١٠].

ح. (٣٧. لاحظ الكامل وانظر المستقيم فإن العقب لإنسان السلامة)[١١]، وبترجمة أخرى تؤكد نوعية النهاية الطيبة للإنسان المستقيم: (٣٧. لاحظ الكامل وانظر المستقيم، فإن نهاية ذلك الإنسان تكون سلاماً)[١٢].

---

(١) العهد القديم والجديد: ٩٤٤/١ (الإصحاح الثامن).

(٢) التوراة والإنجيل: ٩٢٠.

(٣) العهد القديم والجديد: ٩٤٧/١ (الإصحاح الحادي عشر).

(٤) التوراة والإنجيل: ١٠٦٠.

(٥) العهد القديم والجديد: ٤٧٧/١ (الإصحاح التاسع والعشرون).

(٦) التوراة والإنجيل: ٥٢٥.

(٧) العهد القديم والجديد: ٦٧٨/١ (الإصحاح التاسع والعشرون).

(٨) التوراة والإنجيل: ٧٥٢.

(٩) العهد القديم والجديد: ٨٩٩/١ (المزمور الثاني والتسعون).

(١٠) التوراة والإنجيل: ١٠٠٤.

(١١) العهد القديم والجديد: ٨٥٨/١ (المزمور السابع والثلاثون).

(١٢) التوراة والإنجيل: ٩٦٠.

ط. (٢٩. الشرير يوقح وجهه. أما المستقيم فيثبت طرقه)[١]، وبترجمة أخرى تجعل تثبيت الطرق تقويماً: (٢٩. الرجل الشرير يغلظ وجهه، أما المستقيم فيعمل على تقويم طرقه)[٢].

ي. (١٠. أهل الدماء يبغضون الكامل. أما المستقيمون فيسألون عن نفسه)[٣]، وبترجمة أخرى مختلفة بين إيجابية المستقيمين، وسلبية الأشرار: (١٠. المتعطشون إلى الدماء يكرهون الكامل، والأشرار يلتمسون هلاك المستقيم)[٤]، وغير ذلك كثير في العهد القديم.

ومما جاء في الكتاب المقدس: (٢١. فلا حظ لك في هذا الأمر ولا نصيب، لأن قلبك غير مستقيم عند الله)[٥]، و: (١٥. واجتهد أن تكون في حضرة الله ذا فضيلة مجربة وعاملاً ليس فيه ما يخجل منه ومفصلاً كلمة الحق على وجه مستقيم)[٦].

ثم يستمر الأمر بالاستقامة بعد ذلك ويظهر جلياً مع النبي محمد (ص) خاتم الأنبياء (ع)، بوصفه بشخصه وبالكتاب السماوي (القرآن الكريم) المرسل به، من العناصر الفاعلة في صوغ البنية الذهنية للإمام علي (ع) ورسم معالم الرؤية المستقيمة له. ومن هنا خصصنا للنبي محمد (ص) ومنه لجده عبد المطلب، ولعمه أبي طالب، ولأمه آمنة نقطة خاصة.

ثالثاً ـ النبي محمد (ص): بين القرآن الكريم أن النبي محمد (ص) سليل الإيمان والاستقامة نسبا ودينا، وذلك في التصريح الإلهي: ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾[٧]، وقد روى الثعلبي في التفسير: ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾: "أن محمدا لم يلده إلا نبي أو وصي نبي أو مؤمن"[٨]، وقال أبو عمر الزاهد في كتاب (الياقوت): "قال النبي (ص) لعلي (ع): (لم أزل أنا وأنت نركض في الأصلاب الطاهرة، إلى عبد الله وأبي طالب لم تدنسنا الجاهلية بأرجاسها وسفاحها)"[٩].

وروى الشيخ المفيد أن رسول الله (ص) قال: (لم يزل ينقلني من أصلاب الطاهرين، إلى أرحام المطهرات حتى أخرجني في عالمكم هذا)[١٠]. وفي هذا الكلام إشارة واضحة إلى طهارة

---

(١) العهد القديم والجديد: ٩٥٩/١ (الإصحاح الحادي والعشرون).

(٢) التوراة والإنجيل: ١٠٧٥.

(٣) العهد القديم والجديد: ٩٦٨/١ (الإصحاح التاسع والعشرون).

(٤) التوراة والإنجيل: ١٠٨٥.

(٥) الكتاب المقدس. مجمع الكنائس الشرقية: ٣٩٥.

(٦) م.ن: ٦٧١.

(٧) الشعراء: ٢١٩.

(٨) الصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم، زين الدين أبو محمد علي بن يونس العاملي (ت٨٧٧هـ)، صححه وحققه وعلق عليه: محمد الباقر البهبودي: ٣٤١/١.

(٩) م.ن: ٣٤١/١.

(١٠) أوائل المقالات. الشيخ المفيد(ت٤١٣هـ)، تح: إبراهيم الأنصاري: ٤٦.

جده عبد المطلب وعمه أبي طالب، وإلى استقامتهما، وقد روي عن الأصبغ بن نباته أنه قال: "سمعت أمير المؤمنين صلوات الله عليه يقول: والله ما عبد أبي ولا جدي عبد المطلب ولا هاشم ولا عبد مناف صنماً قط، قيل له: فما كانوا يعبدون؟ قال: كانوا يصلون إلى البيت على دين إبراهيم (ع) متمسكين به"[١]. ولذلك "روي أن عبد المطلب كان حجة وأبا طالب كان وصيه"[٢]. وقال الأميني: "لم يكن دين عبد المطلب (سلام الله عليه) إلا دين التوحيد والإيمان بالله ورسله وكتبه غير مشوب بشيء من الوثنية"[٣]، وأكد أنه مما "يعرب عن تقدمه في الإيمان الخالص والتوحيد الصحيح انتماء رسول الله (ص) إليه ومباهاته به يوم حنين بقوله: (أنا النبي لا كذب ❖ أنا ابن عبد المطلب)"[٤].

ويسند ذلك قوله (ص): (إن الله اصطفى كنانة من بني إسماعيل، واصطفى من بني كنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم)[٥].

وما قول أبرهة الحبشي لعبد المطلب حين توجه إلى مكة لهدم الكعبة: "أتكلمني في مائتي بعير، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه فلم تكلمني فيه؟!"[٦]، وقوله لأبرهة: "إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربا سيمنعه منك"[٧]، ثم قوله بعد أن أخذ بحلقة باب الكعبة ودعا الله تعالى (من مجزوء الكامل):

وانصر على آل الصليـ ـب وعابديه اليوم آلك[٨]

إلا أدلة على إيمانه الخالص بالله عز وجل، وبقدرته على حماية بيته الحرام، وعلى معرفة القاصي والداني بذلك الإيمان. ولم يأخذ "هذا الموقف إلا بدافع إيمانه الوثيق القوي بالله وبقدرته"[٩].

---

(١) كمال الدين وتمام النعمة، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت٣٨١هـ): ١٧٢، وتنظر: ١٧٤ - ١٧٥، وينظر: مواهب الواهب في فضائل والد أمير المؤمنين أبي طالب (ع)، جعفر بن محمد النقدي (ت١٣٦٩هـ)، تح: محمد هادي الأميني: ٨٦.

(٢) الاعتقادات، أبو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي الشيخ المفيد (ت٤١٣هـ)، تح: عصام عبد السيد وآخرين: ١١٠.

(٣) الغدير في الكتاب والسنة والأدب، الشيخ عبد الحسين أحمد الأميني (ت١٣٩٢هـ): ٣٥٣/٧.

(٤) الغدير في الكتاب والسنة والأدب: ٣٥٣/٧.

(٥) الإتحاف بحب الأشراف، عبدالله بن محمد بن عامر الشبراوي، تح: سامي الغريري: ٥٣.

(٦) مناهل الضرب في أنساب العرب، جعفر الأعرجي النجفي (ت١٣٣٢هـ)، تح: مهدي الرجائي: ٣١.

(٧) م.ن: ٣١، وينظر: مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت٣٤٦هـ)، تح: أمير مهنا: ١٣٥/٢.

(٨) ينظر: مناهل الضرب في أنساب العرب: ٣٢.

(٩) خلفاء الرسول (ص)، خالد محمد خالد: ٣٦٥.

ومن أدلة إيمانه وتمثله لبنية إيمانية ذات رؤية مستقيمة، أنه ورد عنه "أشياء: منها الوفاء بالنذر، والمنع من نكاح المحارم، وقطع يد السارق، والنهي عن قتل الموءودة، وأكل المتردية، وما أكله السبع، وتحريم الخمر والزنا، وأن لا يطوف بالبيت (أحد) عريانا"[١].

وما روي عن النبي (ص) في حق جده عبد المطلب يكشف عن أن جده تمثل بنية ذهنية ذات تميز عن البنية الذهنية السائدة في وقته، إذ إنه (ص) قال للإمام علي (ع): (يا علي إن عبد المطلب سن في الجاهلية خمس سنن أجراها الله له في الإسلام: حرم نساء الآباء على الأبناء، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم ﴾، ووجد كنزا فأخرج منه الخمس وتصدق به فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ ﴾، ولما حفر زمزم سقاها الحاج فأنزل الله: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾، وسن في القتل مائة من الإبل فأجرى الله عز وجل ذلك في الإسلام، ولم يكن للطواف عدد عند قريش فسن فيهم عبد المطلب سبعة أشواط فأجرى الله ذلك في الإسلام. يا علي إن عبد المطلب كان لا يستقسم بالأزلام، ولا يعبد الأصنام، ولا يأكل ما ذبح على النصب، ويقول أنا على دين أبي إبراهيم (ع))[٢].

وكانت تلك البنية الذهنية المتميزة، من أسباب شهرته بين العرب وغيرهم، وتبعاً لذلك كانت له عشرة أسماء كاشفة عن تلك المنزلة "تعرفه بها العرب وملوك القياصرة وملوك العجم وملوك الحبشة، فمن أسمائه عامر، وشيبة الحمد، وسيد البطحاء، وساقي الحجيج، وساقي المغيث، وغيث الورى في العام الجدب، وأبو السادة العشرة، وعبد المطلب، وحافر زمزم، وليس ذلك لمن تقدمه"[٣].

وبناء على ذلك الاصطفاء جاءت ولادة النبي محمد (ص) متميزة، فقد "روي عن أمه أنها قالت: رأيت لما وضعته نوراً بدا مني ساطعاً حتى أفزعني، ولم أر شيئاً مما يراه النساء"[٤].

وقد وردت رواية، في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٥] رواها الجمهور عن ابن عباس عن النبي (ص) قال فيها: (انتهت الدعوة إليّ، وإلى علي، لم يسجد أحدنا قط لصنم، فاتخذني نبياً، واتخذ علياً وصيا)[٦].

---

(١) مواهب الواهب في فضائل والد أمير المؤمنين أبي طالب (ع): ٤٩.

(٢) مواهب الواهب في فضائل والد أمير المؤمنين أبي طالب (ع): ٤٩، والنصوص القرآنية في: النساء: من ٢٢، والأنفال: من ٤١. والتوبة: من ١٩على التوالي.

(٣) الخصال، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت٣٨١هـ): ٤٥٣/٢.

(٤) تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح المعروف باليعقوبي (ت٢٨٤هـ): ٩/٢.

(٥) البقرة: ١٢٤.

(٦) نهج الحق وكشف الصدق، الحسن بن يوسف المطهر الحلي، تعليق: عين الله للحسني الأرموي: ١٨٠.

وبقي رسول الله (ص) "مع أمه آمنة بنت وهب، فلما توفيت قبضه إليه جده عبد المطلب وضمه ورق عليه رقة لم يرقها على ولده، وكان يقربه منه ويدنيه، ويدخل عليه إذا خلا وإذا نام. وكان يجلس على فراشه فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك: دعوا ابني إنه يؤسس ملكاً"[١].

وجاء هذا المعنى برواية أكثر تفصيلاً، هي: "كان رسول الله (ص) مع جده عبد المطلب وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول ذلك الفراش حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً فكان رسول الله (ص) يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني فوالله إن له لشأناً ثم يجلسه معه عليه ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع"[٢].

وجاء أيضاً في رواية تشتمل على معلومات أكثر، هي: "كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة لا يجلس عليه أحد إلا هو إجلالاً له، وكان بنوه يجلسون حوله حتى يخرج عبد المطلب، فكان رسول الله (ص) يخرج وهو غلام، فيمشي حتى يجلس على الفراش، فيعظم ذلك على أعمامه ويأخذونه ليؤخروه، فيقول لهم عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني فوالله إن له لشأناً عظيماً إني أرى أنه سيأتي عليكم يوم وهو سيدكم، إني أرى غرته غرة تسود الناس، ثم يحمله فيجلسه معه ويمسح ظهره ويقبله، ويقول: ما رأيت قبله أطيب منه ولا أطهر قط، ولا جسداً ألين منه ولا أطيب منه، ثم يلتفت إلى أبي طالب؛ وذلك أن عبد الله وأبا طالب لأم واحدة، فيقول: يا أبا طالب إن لهذا الغلام لشأناً عظيماً فاحفظه واستمسك به فإنه فرد وحيد، وكن له كالأم، لا تصل إليه بشيء يكرهه"[٣]. وفي رواية أخرى تشديد على صفة الأخ الشقيق، بقوله: "فإني قد تركت بني كلهم وأوصيك به لأنك من أم أبيه"[٤].

وتأكدت وصاية أبي طالب للنبي (ص) حين حضرت الوفاة عبد المطلب، إذ "أوصى أبا طالب بحفظ رسول الله (ص) وحياطته"[٥]. وقد روي عن فاطمة بنت أسد ما يدل على اختيار النبي (ص) نفسه لعمه أبي طالب ليكون كفيله، وذلك في قولها: "لما ظهرت أمارة وفاة عبد المطلب قال لأولاده: من يكفل محمداً؟ قالوا: هو أكيس منا، فقل له يختار لنفسه، فقال عبد المطلب: يا محمد جدك على جناح السفر إلى القيامة، أي عمومتك وعماتك تريد أن

---

(١) السيرة النبوية، أبو الفداء إسماعيل بن كثير (ت٧٧٤هـ)، تح: مصطفى عبد الواحد: ١/ ٢٤٠.

(٢) السيرة النبوية المسمى عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، أبو الفتح محمد بن محمد بن عبدالله بن محمد بن يحيى المعروف بابن سيد الناس (ت٧٣٤هـ): ١/ ٥٥.

(٣) كمال الدين وتمام النعمة: ١٦٩، وتنظر: ١٧٠ - ١٧١، وينظر: مواهب الواهب في فضائل والد أمير المؤمنين أبي طالب (ع): ٥٣.

(٤) كمال الدين وتمام النعمة: ١٧٠.

(٥) السيرة النبوية، ابن كثير: ١/ ٢٤٠.

يكفلك؟ فنظر في وجوههم ثم زحف إلى عند أبي طالب، فقال له عبد المطلب: يا أبا طالب إني قد عرفت ديانتك وأمانتك، فكن له كما كنت له"[١].

وبعد وفاة عبد المطلب كفل رسول الله "أبو طالب عمه، فكان خير كافل. وكان أبو طالب سيداً شريفاً مطاعاً مهيباً مع إملاقه. قال علي بن أبي طالب: أبي ساد فقيراً، وما ساد فقير قبله"[٢].

وهنا ينبغي أن نعطي صورة عن الوضع السائد في أثناء بعثة النبي (ص) لنبين مدى اختلاف الرؤية السائدة في ذلك الوقت عن الرؤية المستقيمة التي أسهم الإسلام في نشرها، ولذلك خصصناها بنقطة خاصة.

رابعاً - السياق العربي العام وبعثة النبي (ص): اهتم الإمام علي (ع) اهتماماً كثيراً بالكشف عن الأوضاع الدينية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية وغير ذلك، التي كانت سائدة ومهيمنة قبل بعثة النبي (ص) ووقت البعثة، ومن ذلك الكشف ولاسيما في الجانب الديني قوله: "بعث الله سبحانه محمداً رسول الله (ص) لإنجاز عدته وإتمام نبوته مأخوذاً على النبيين ميثاقه مشهورة سماته كريماً ميلاده وأهل الأرض يومئذ ملل متفرقة وأهواء منتشرة وطرائق متشتتة بين مشبّه لله بخلقه أو ملحد في اسمه أو مشير إلى غيره فهداهم به من الضلالة وأنقذهم بمكانه من الجهالة"[٣]. ومن المهم هنا أن نتنبه على النظرة الشمولية في قوله: (وأهل الأرض)، وعلى التقسيم الثلاثي للمنحرفين عن الطريق المستقيم، المتجلي في قوله: (بين مشبّه لله بخلقه أو ملحد في اسمه أو مشير إلى غيره).

ومنه قوله الذي بين فيه آثار ترك طاعة الرحمن، والاتجاه إلى إطاعة الشيطان: "أرسله بالدين المشهور والعلم المأثور والكتاب المسطور والنور الساطع والضياء اللامع والأمر الصادع إزاحة للشبهات واحتجاجاً بالبينات وتحذيراً بالآيات وتخويفاً بالمثلات والناس في فتن انجذم فيها حبل الدين وتزعزعت سواري اليقين واختلف النجر وتشتّت الأمر وضاق المخرج وعمي المصدر فالهدى خامل والعمى شامل عصي الرحمن ونصر الشيطان وخذل الإيمان فانهارت دعائمه وتنكّرت معالمه ودرست سبله وعفت شركه أطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه ووردوا مناهله بهم سارت أعلامه وقام لواؤه في فتن داستهم بأخفافها ووطئتهم بأظلافها وقامت على سنابكها فهم فيها تائهون حائرون جاهلون مفتونون في خير دار وشرّ جيران نومهم سهود وكحلهم دموع بأرض عالمها مُلجَم وجاهلها مكرم"[٤].

---

(١) الاحتجاج. أبو منصور أحمد بن أبي طالب الطبرسي (ت٥٦٠هـ)، تعليقات وملاحظات: محمد باقر الخرسان: ٣٤٢/١.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ١٤/٢.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١١٦/١.

(٤) م. ن: ١ ١٣٥ - ١٣٦. و(النجر): الأصل والحسب. ينظر: لسان العرب: مادة (ن ج ر).

وإذا كان القول السابق عاماً في أوله وخاصاً في آخره، فإن قوله الآتي يبين اهتمامه الكبير بوصف حال العرب أنفسهم آنذاك: "إن الله بعث محمداً (ص) نذيراً للعالمين وأميناً على التنزيل وأنتم معشر العرب على شرّ دين وفي شرّ دار منيخون بين حجارة خشن وحيّات صمّ تشربون الكدر وتأكلون الجشب وتسفكون دماءكم وتقطعون أرحامكم الأصنام فيكم منصوبة والآثام بكم معصوبة"[١]. وقوله: (خير دار) في القول السابق لا يتقاطع مع قوله: (شرّ دار) في هذا القول، من حيث إن الأول منطلق من ناحية دينية إلهية، وإن الثاني منطلق من نواح جغرافية (منيخون بين حجارة خشن وحيّات صمّ) واقتصادية (تشربون الكدر وتأكلون الجشب) واجتماعية (وتسفكون دماءكم وتقطعون أرحامكم) فضلاً عن الناحية الدينية البشرية (الأصنام فيكم منصوبة والآثام بكم معصوبة).

وأوضح الإمام علي (ع) الحكمة من بعثة النبي (ص): "إن الله بعث محمداً (ص) وليس أحد من العرب يقرأ كتاباً ولا يدّعي نبوّة فساق الناس حتى بوّأهم محلّتهم وبلّغهم منجاتهم فاستقامت قناتهم واطمأنت صفاتهم"[٢]. وتمثيل قوله (استقامت قناتهم) لاستقامة أحوالهم، ودلالته على القوة والغلبة، واضحان[٣]، فضلاً عن أن المراد من: (يقرأ كتاباً) - كما يبدو - هو الكتاب السماوي.

وكشف (ع) عن كثير من الجوانب جملة واحدة في قوله: "أرسله على حين فترة من الرسل وطول هجعة من الأمم واعتزام من الفتن وانتشار من الأمور وتلظّ من الحروب والدنيا كاسفة النور ظاهرة الغرور على حين اصفرار من ورقها وإياس من ثمرها واغورار من مائها قد درست منار الهدى وظهرت أعلام الردى فهي متجهمة لأهلها عابسة في وجه طالبها ثمرها الفتنة وطعامها الجيفة وشعارها الخوف ودثارها السيف"[٤].

وشدد الإمام علي (ع) على صفة الاستقامة في وصف الرسول (ص) في أقوال كثيرة، منها قوله فيما نحن بصدد توصيفه: "سيرته القصد وسنّته الرشد وكلامه الفصل وحكمه العدل أرسله على حين فترة من الرسل وهفوة عن العمل وغباوة من الأمم"[٥]. و (القصد) في اللغة هو (الاستقامة)[٦].

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٩/٢.

(٢) م. ن: ١٨٥/٢، وتنظر: ١١٤/٧.

(٣) ينظر: نهج البلاغة من كلام أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب (ع): ٦٦ (في الهامش).

(٤) شرح نهج البلاغة: ٣٨٧/٦.

(٥) م. ن: ٦٢/٧.

(٦) ينظر: لسان العرب: مادة (ق ص د)، ونهج البلاغة من كلام أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب (ع): ١٥٨ (في الهامش).

وفي (الهفوة) دلالة على "زلة وانحراف من الناس عن العمل بما أمر الله على ألسنة الأنبياء السابقين"[١].

ومنها قوله: "بعثه والناس ضلال في حيرة وحاطبون في فتنة قد استهوتهم الأهواء واستزلّتهم الكبرياء واستخفّتهم الجاهلية الجهلاء حيارى في زلزال من الأمر وبلاء من الجهل فبالغ (ص) في النصيحة ومضى على الطريقة ودعا إلى الحكمة والموعظة الحسنة"[٢].

ولما ورد ذكر الفتنة في القول السابق فلا بد من التنبيه من جديد - وإن بطريقة أخرى - على تقسيم آخر لأنواع أتباع الشيطان، ورد عند الإمام علي (ع) في قوله: "أرسله على حين فترة من الرسل وتنازع من الألسن فقفّى به الرسل وختم به الوحي فجاهد في الله المدبرين عنه والعادلين به"[٣]. فهناك فئة المدبرين عنه، وهناك فئة العادلين به.

ونجد تفصيلاً لمثل هذه القضية، دالا على تمثل الإمام علي (ع) للرؤية المستقيمة، في قوله: "فأشهد أن من شبهك بتباين أعضاء خلقك، وتلاحم حقاف مفاصلهم المحتجبة لتدبير حكمتك، لم يعقد غيب ضميره على معرفتك، ولم يباشر قلبه اليقينُ بأنه لا ند لك، وكأنه لم يسمع تبرؤ التابعين عن المتبوعين إذ يقولون: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾! كذب العادلون بك، إذ شبهوك بأصنامهم ونحلوك حلية المخلوقين بأوهامهم، وجزؤوك تجزئة المجسمات بخواطرهم، وقدّروك على الخلقة المختلفة القوى بقرائح عقولهم. وأشهد أن من ساواك بشيء من خلقك فقد عدل بك، والعادل بك كافر بما تنزلت به محكمات آياتك، ونطقت عنه شواهد حجج بيناتك"[٤].

ومما ربط بين أجزاء ما تقدم، فكشف عن الغاية من البعثة وعن وجوب المعرفة لله سبحانه وتعالى، قوله (ع): "فبعث الله محمداً (ص) بالحق ليخرج عباده من عبادة الأوثان إلى عبادته ومن طاعة الشيطان إلى طاعته بقرآن قد بيّنه وأحكمه ليعلم العباد ربهم إذ جهلوه وليقرّوا به بعد إذ جحدوه وليثبتوه بعد إذ أنكروه"[٥].

وإذا كان هذا القول يشتمل على تحديد لنوع من المعبودات الباطلة وهو الأوثان، وعلى وصف ديني للسمة المهيمنة على الناس، وعلى تقسيم فئوي ثلاثي، هو: الفئة الجاهلة، والفئة الجاحدة، والفئة المنكرة، فإنه يحدد صفات نفسية وعقلية اتسمت بها طباع أولئك الناس، في

---

(١) نهج البلاغة من كلام أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب (ع): ١٥٨ (في الهامش).
(٢) شرح نهج البلاغة: ٦٦/٧.
(٣) م. ن: ٢٧٤/٨.
(٤) م. ن: ٤١٣/٦. والنص القرآني في: الشعراء/٩٧ - ٩٨.
(٥) شرح نهج البلاغة: ١٠٣/٩.

قوله: "أضاءت به البلاد بعد الضلالة المظلمة والجهالة الغالبة والجفوة الجافية والناس يستحلّون الحريم ويستذلّون الحكيم يحيون على فترة ويموتون على كفرة"[١]، وفي قوله: "أرسله على حين فترة من الرسل، وطول هجعة من الأمم، وانتقاض من المبرم"[٢]. وفي هذا دلالة على نوم الغفلة في ظلمات الجهالة، وانتقاض الأحكام الإلهية التي أبرمت على ألسنة الأنبياء[٣].

وبين أفعال الرسول (ص) بأمر الله وبتوفيقه، في قوله: "أظهر به الشرائع المجهولة وقمع به البدع المدخولة وبيّن به الأحكام المفصولة"[٤]، في وقت ابتعثه الله سبحانه فيه: "والناس يضربون في غمرة ويموجون في حيرة قد قادتهم أزمّة الحين واستغلقت على أفئدتهم أقفال الرين"[٥]. وفي (أقفال الرين) دلالة على حجاب الضلال، وفي (الغمرة) دلالة على شدة الفتن وبلاياها[٦].

وكان التشديد على صفة الاستقامة عند الرسول (ص) وعلى أمره (ص) باتخاذها سبيلاً، أمراً واضح المعالم والدلالة في أقوال الإمام علي (ع): ومن ذلك قوله: "أرسله وأعلام الهدى دارسة ومناهج الدين طامسة فصدع بالحق ونصح للخلق وهدى إلى الرشد وأمر بالقصد (ص)"[٧]. وهذا الأمر ـ كما يؤكد (ع) ـ ليس سهلاً ولاسيما أن الله سبحانه وتعالى: "بعثه حين لا علم قائم ولا منار ساطع ولا منهج واضح"[٨].

ولما كان القرآن هو العنصر الآخر الفاعل في صوغ البنية الذهنية للإمام علي (ع)، أفردنا له نقطة خاصة، بوصفه مصدر تشريع لتلك البنية ولرؤيتها المستقيمة، وبحديث يتكامل مع ما أوردناه منه في الحديث عن الاستقامة وعن البنية الذهنية عند الأنبياء السابقين (ع)، من حيث تشديده على مواطن أخر في الآيات القرآنية الواردة هناك، أو ذكره لآيات لم تذكر، ومن الطبيعي أن ذلك الذكر الكثير بتجلياته المتنوعة في القرآن ـ كما سنرى ـ له غاياته التي منها تثبيت أهمية الاستقامة وأهمية تمثلها قولاً وفعلاً، ومن حيث إن القرآن يمثل وأحاديث النبي محمد (ص) وسيرته الشريفة، السياق الخاص القريب من الإمام علي (ع) زماناً ومكاناً.

خامساً ـ الاستقامة في القرآن الكريم: إذا ما نظرنا بتفحص إلى الآيات القرآنية التي اشتغلت على الاستقامة فسنجدها متنوعة الاتجاهات متحدة الهدف؛ فمنها ما فيه تصريح بأن عبادة البشر لله سبحانه ـ وهي طريقه ـ استقامة، قال تعالى:

---

(١) م. ن: ١٣٧/٩.

(٢) م. ن: ٢١٧/٩.

(٣) ينظر: نهج البلاغة من كلام أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب (ع): ٢٥٦(في الهامش).

(٤) شرح نهج البلاغة: ٢٣٧/٩.

(٥) م. ن: ١١٥/١٣.

(٦) ينظر: نهج البلاغة من كلام أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب (ع): ٣٢٨(في الهامش).

(٧) شرح نهج البلاغة: ١٧٠/١٠.

(٨) م. ن: ١٧٦/١٠.

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[1].
- ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴾[2].
- ﴿ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴾[3].
- ﴿ أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبّٗا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيّٗا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[4].

ومنها ما فيه أمر للنبي (ص) ولأتباعه الصالحين بالاستقامة، قال تعالى:

- ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾[5]. وهذا يعني أن "طريق الاستقامة هذه تسير بعكس طريق الطغيان"[6].
- ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[7].

ومنها ما فيه وصف للنبي (ص) بأنه على استقامة، قال تعالى:

- ﴿ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[8].
- ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[9].
- ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[10].
- ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴾[11].

---

(١) آل عمران: ١٠٠ - ١٠١.
(٢) الأنعام: ١٢٦.
(٣) يس: ٦٠ - ٦٢.
(٤) الملك: ٢٢.
(٥) هود: ١١٢ - ١١٣.
(٦) الاستقامة في مائة حديث نبوي (كتاب في شبكة المعلومات)، د. محمد زكي محمد خضر: ١.
(٧) الشورى: ١٥.
(٨) الزخرف: ٤٣.
(٩) الحج: ٦٧.
(١٠) يس: ٣ - ٤.
(١١) الشورى: ٥٢ - ٥٣.

ومنها ما فيه أمر بالتصريح بهداية الله له (ص) إلى الاستقامة، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1].

ومنها ما فيه وصف للرسول (ص) بأنه يدعو إلى الاستقامة، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2].

ومنها ما فيه وصف للرسول الكريم (ص) بأنه يأمر بالاستقامة، قال تعالى:

- ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[3].
- قال تعالى في صد قوم النبي (ص) عن عيسى لما ضرب مثلاً: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾[4].
- وأمره الله تعالى أن يخاطب الناس يدعوهم للاستقامة: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾[5].

ومنها ما فيه وصف بأن ما جاء به النبي (ص) يهدي إلى الاستقامة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[6]. ومن مثل ذلك توصل بعضهم إلى القول: أعلن نبي الإسلام (ص) أن العقيدة في الشريعتين اليهودية والمسيحية "قد حرفت وبدلت وأخرجت عن جوهرها الصحيح الأصيل، وأنه قد بعث ليعيد هذه العقيدة إلى جوهرها الأصيل. ولقد قال نفس ما قاله الأنبياء السابقون وأراد تحقيق ما أرادوا تحقيقه"[7].

---

(١) الأنعام: ١٦١.

(٢) المؤمنون: ٧٣.

(٣) مريم: ٣٥ ـ ٣٧.

(٤) الزخرف: ٦١.

(٥) فصلت: ٦ ـ ٧. وينظر: الاستقامة في مائة حديث نبوي: ١.

(٦) المائدة: ١٥ ـ ١٦.

(٧) تحليل علمي للإيديولوجية الإسلامية: ٧٢، والآيات الأخر هي في: البقرة: ٤١، ٨٩، ٩١، ٩٧، ١٠١، وآل عمران: ٣، ٥٠، ٨١، والنساء: ٤٧، والمائدة: ١٩، ٤٩.

ومنها ما فيه تصريح من النبي (ص) بأنه على استقامة، قال تعالى حكاية عن النبي (ص) بعد ذكر القرآن: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1].

ومنها تصريح بكون الهداية إلى الاستقامة - سواء أكانت للرسول (ص) أم لغيره - ثواباً إلهياً، قال تعالى:

١) في حادثة مبايعة الشجرة: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[2].

٢) ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[3].

٣) ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۝٦٦ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۝٦٧ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[4].

٤) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[5].

٥) ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[6].

ومنها ما يدل على ثواب الاستقامة عند الله سبحانه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾[7]، "فالمسلمون قد مضوا بشطر هذه الآية حيث قالوا ربنا الله فاقروا بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً (ص) رسول الله.. أما الشطر الثاني فمعظمهم بعيد عنه... قد وعدهم الله، ووعد الله حق.. إذا ما استقاموا أن تتنزل عليهم الملائكة وهي تنادي أن لا تخافوا.. ولا تحزنوا.. وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون.. فالحزن بعيد عمن استقام..

---

(١) الأنعام: ١٥٣.

(٢) الفتح: ١ - ٢.

(٣) الفتح: ٢٠.

(٤) النساء: ٦٦ - ٦٨.

(٥) النساء: ١٧٥.

(٦) الحج: ٥٤.

(٧) فصلت: ٣٠ - ٣٢.

والخوف بعيد عنه.. وله البشرى.. وله الرزق الحسن"[١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[٢].

ومنها ما فيه تصريح بأن اختيارها والوصول إليها مشيئة إلهية، قال تعالى:

١. قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٣].

٢. ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٤].

٣. ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٥].

٤. ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٦].

٥. ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٧].

ومنها ما يدل على أهمية الاستقامة في أمور الحياة ومعاملاتها:

١. قال تعالى: ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[٨].

٢. ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٩].

٣. ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[١٠].

بل إن أول دعاء المؤمنين في القرآن هو الدعاء بالهداية إلى الاستقامة، قال تعالى تعليما: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[١١].

---

(١) الاستقامة في مائة حديث نبوي: ١.

(٢) الأحقاف: ١٣ - ١٤.

(٣) البقرة: ١٤٢.

(٤) الأنعام: ٣٩.

(٥) التكوير: ٢٥ - ٢٩.

(٦) يونس: ٢٥.

(٧) النور: ٤٦.

(٨) التوبة: ٧.

(٩) النحل: ٧٦.

(١٠) الإسراء: ٣٥.

(١١) الفاتحة: ٦ - ٧.

وجاء في القرآن الكريم أيضاً: " ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾[١]. وما الطريقة التي تريد الآية الاستقامة عليها سوى الطريقة التي سار عليها رسول الله (ص)، فهو أول من سلك طريقة الاستقامة قدوة لهذه الأمة مستجيبا لأمر الله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ وليس ذلك وحده.. بل ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾"[٢].

ولتبين أثر تلك الآيات القرآنية في جعل الاستقامة عنصراً في صوغ البنية الذهنية للمسلمين ورؤيتها، آثرنا إفراد عدد منهم بنقطة خاصة لكشف ذلك.

سادساً ـ الاستقامة في فكر عدد من المسلين: ورد في الأحاديث الشريفة للنبي (ص) ما يؤكد أن الاستقامة هي لب الإسلام، ومن ذلك ما روي عن أبي عمرو - وقيل أبي عمرة - سفيان بن عبد الله أنه (قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك، وفي حديث أبي أسامة: غيرك. قال: قل: آمنت بالله، فاستقم)[٣]، ومن ذلك قوله (ص) في حديث ثوبان: (استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن)[٤]، وما روي عن أنس بن مالك أنه قال: (قال رسول الله (ص): لا يستقيم إيمان عبد حتّى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتّى يستقيم لسانه ولا يدخل رجل الجنّة لا يأمن جاره بوائقه)[٥].

وقد بدأ عدد من الصحابة يوصون بها من يسألهم، ومنهم ابن عباس؛ فـ (عن عثمان بن حاضر الأزديّ قال دخلت على ابن عبّاس فقلت أوصني. فقال نعم عليك بتقوى الله والاستقامة اتّبع ولا تبتدع)[٦].

وجاء في الشعر أيضاً ما يسير بهذا الاتجاه؛ فهذا حسان بن ثابت يقول في حق الرسول (ص) (من بحر الطويل)[٧]:

عزيزٌ عليه أن يحيدوا عن الهدى حريص على أن يستقيموا ويهتدوا

وظهرت الاستقامة بصورة جلية عند الإمام علي (ع)، إذ قال في إحدى خطبه مشدداً على أهمية الاستقامة: "العمل العمل ثم النهاية النهاية والاستقامة الاستقامة ثم الصبر الصبر والورع الورع"[٨]، ثم قال مقدما نصائح للناس: "ألا وإن القدر السابق قد وقع والقضاء الماضي قد تورد وإني متكلم بعدة الله وحجته قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا

---

(١) الجن: ١٦ ـ ١٧.

(٢) الاستقامة في مائة حديث نبوي: ١، والنص القرآني من: هود/١١٢.

(٣) صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت٢٦١هـ): ١/٤٧.

(٤) مسند أحمد وبهامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ): ٥/٢٧٧.

(٥) م. ن: ٣/١٩٨.

(٦) سنن الدارمي، أبو محمد عبدالله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي (ت٢٥٥هـ): ١/٥٣.

(٧) ديوان حسان بن ثابت، شرح وضبط نصوصه وقدم له: د.عمر فاروق الطباع: ٥٦.

(٨) شرح نهج البلاغة: ١٠/٢٤.

تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾، وقد قلتم ربنا الله فاستقيموا على كتابه وعلى منهاج أمره وعلى الطريقة الصالحة من عبادته ثم لا تمرقوا منها ولا تبتدعوا فيها ولا تخالفوا عنها فإن أهل المروق منقطع بهم عند الله يوم القيامة"[١]، وانتقل بعد ذلك إلى آثر اللسان في الاستقامة: "ثم إياكم وتهزيع الأخلاق وتصريفها واجعلوا اللسان واحداً وليخزن الرجل لسانه فإن هذا اللسان جموح بصاحبه والله ما أرى عبداً يتقي تقوى تنفعه حتى يخزن لسانه وإن لسان المؤمن من وراء قلبه وإن قلب المنافق من وراء لسانه لأن المؤمن إذا أراد أن يتكلم بكلام تدبره في نفسه فإن كان خيراً أبداه وإن كان شراً واراه وإن المنافق يتكلم بما أتى على لسانه لا يدري ماذا له وماذا عليه ولقد قال رسول الله (ص): (لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه) فمن استطاع منكم أن يلقى الله تعالى وهو نقي الراحة من دماء المسلمين وأموالهم سليم اللسان من أعراضهم فليفعل"[٢].

وقال في خطبة أخرى: "وإنه من لا ينفعه الحق يضره الباطل ومن لا يستقيم به الهدى يجر به الضلال إلى الردى"[٣].

وورد عنه أنه جعل السلامة مع الاستقامة، إذ قال: "السلامة مع الاستقامة"[٤].

ولكون الاستقامة ظهرت هذا الظهور عنده (ع)، ولكونه الشخصية المبحوث في نتاجها، آثرنا أن نفرد للإمام علي (ع) نقطة خاصة نتابع فيها حياته.

سابعاً ـ الإمام علي (ع): لو تابعنا حياة الإمام علي (ع) لوجدنا معلومات مهمة جداً: فقد ولد (ع) سنة ثلاثين من عام الفيل، بمكة في بيت الله العتيق بعدما انشق جداره لأمه (فاطمة بنت أسد) حينما أحست بوجع الولادة، ولم يولد هناك (ببطن الكعبة) أحد قبله ولا بعده، وهي كرامة خصه الله بها إجلالاً لمحله، وإعلاء لمرتبته، وإظهاراً لتكرمته[٥]. وقد قال السيد الحميري في ذلك (من بحر الكامل)[٦]:

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٠/ ٢٤ ـ ٢٥، والنص القرآني في: فصلت/ ٣٠.

(٢) م. ن: ١٠/ ٢٨.

(٣) م. ن: ٢/ ٩١.

(٤) الدعوات، قطب الدين الراوندي (٥٧٣هـ)، تح: مدرسة الإمام المهدي (عج): ١١٣.

(٥) ينظر: أصول الكافي، محمد بن يعقوب الكليني (ت٣٢٩هـ)، ضبطه وصححه وعلق عليه: محمد جعفر شمس الدين: ١/ ٥٢٤، ومروج الذهب ومعادن الجوهر: ٢/ ٣٦٦، وكنز الفوائد، أبو الفتح محمد بن علي الكراجكي (ت٤٤٩هـ): ١/ ٢٥٥، والمناقب، الموفق بن أحمد بن محمد المكي الخوارزمي (ت٥٦٨هـ)، تح: مالك المحمودي: ١٢، وعمدة عيون صحاح الأخبار، ابن بطريق شمس الدين ابن الحسن الأسدي (ت٦٠٠هـ)، تح: مالك المحمودي وآخر: ١/ ٦٧، وعمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، جمال الدين أحمد بن علي المعروف بابن عنبة (ت٨٢٨هـ). تح: محمد حسن آل الطالقاني: ٥٥، ومناهل الضرب في انساب العرب: ٨٤.

(٦) ديوان السيد الحميري، إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة المعروف بالسيد الحميري، شرحه وضبطه وقدم له: ضياء حسين الأعلمي: ٧٠.

ولدتـــه في حـــرم الإلـــه وأمنـــه والبيـــت حيـــث فنـــاؤه والمـــسجد

ولم يتدنس (ع) بدنس الجاهلية من عبادة الأوثان وغيرها، فلم يسجد لصنم قط، ولم يشرك بالله طرفة عين[١].

ولما كان عمره (ع) ستة أعوام، عصفت بقريش أزمة اقتصادية من قحط نالهم، فأشار الرسول (ص) قبل بعثته على عمه العباس بالانطلاق معه إلى أبي طالب الذي كان كثير العيال، ليكفوا أباهم مؤنتهم، ليخففوا عنه ثقل عياله، فقبل أبو طالب على أن يتركا له عقيلاً، فأخذ الرسول (ص) علياً وضمه إليه[٢]، وأخذ العباس طالباً، وأخذ حمزة جعفراً[٣]، "فقال رسول الله (ص): اخترت من اختار الله لي عليكم عليا"[٤]. فكان مما أنعم الله به على علي (ع) في هذه الكفالة "أنه كان في حجر رسول الله (ص) قبل الإسلام"[٥]. وقد شكلت هذه الأزمة الاقتصادية وتلك التربية للإمام (ع) في حجر الرسول (ص) مفتاحاً إيديولوجياً وعلامة كبيرة ستنبني عليهما البنية الإيديولوجية للإمام (ع). "وكان أول من أسلم خديجة بنت خويلد من النساء، وعلي بن أبي طالب من الرجال"[٦]، وعمره آنذاك ـ على ما يروى ـ عشر سنين[٧]، وقيل تسع سنوات[٨].

---

(١) ينظر: الأمالي، الشيخ المفيد أبو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان العكبري (ت٤١٣هـ)، تح: الحسين استاد ولي علي أكبر غفاري: ٢٣٦، ومعرفة الصحابة، أبو نعيم الأصبهاني أحمد بن عبدالله بن أحمد بن إسحق (ت٤٣٠هـ)، تح: محمد حسن إسماعيل وآخر: ٩٩/١، وأمالي الشيخ الطوسي، أبو جعفر بن محمد بن الحسن الطوسي، تقديم: محمد صادق بحر العلوم: ٢٦٥، وإعلام الورى بأعلام الهدى، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت٥٤٨هـ)، تح: مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث: ٣٦٠، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، عز الدين ابن الأثير أبو الحسن علي بن محمد الجزري، تح: علي محمد معوض وآخر: ٩٢/٤، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، أبو الحجاج جمال الدين بن يوسف بن عبد الرحمن المدني، تح: عمرو سيد شوكت: ٣٢١/٧، والكامل في التاريخ، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد ابن عبد الكريم المعروف بابن الأثير: ٥٧/٢.

(٢) ينظر: مقاتل الطالبيين، أبو الفرج الأصفهاني (ت٣٥٦هـ)، شرح وتحقيق: أحمد صقر: ٤١، وكنز الفوائد: ٢٥٥/١ ـ ٢٥٦، والبداية والنهاية، إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، تح: علي شيري: ٢٥/٣.

(٣) ينظر: مقاتل الطالبيين: ٤١.

(٤) م. ن: ٤١.

(٥) معرفة الصحابة: ٩٩/١، وينظر: الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، تح: عادل أحمد عبد الموجود وآخر: ٤٦٤/٤.

(٦) تاريخ اليعقوبي: ٢٣/٢. وينظر: كتاب الطبقات الكبير، محمد بن سعد بن منيع الزهري، تح: د. علي محمد عمر: ٢٠/٣، وأسد الغابة في معرفة الصحابة: ٩٢/٤، وأمالي الشيخ الطوسي: ٢٦٥، وتاريخ بغداد أو مدينة السلام، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي: ١٣٣/١، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال: ٣٢٠/٧ ـ ٣٢١، والإصابة في تمييز الصحابة: ٤٦٤/٤.

(٧) ينظر: معرفة الصحابة: ٩٩/١، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال: ٣٢١/٧.

(٨) ينظر: كتاب الطبقات الكبير: ١٩/٣.

وقد ورد في الأحاديث النبوية ما يكشف عن سابقته في الإسلام، ومن ذلك قوله (ص): (علي أول من آمن بي، وأول من يصافحني يوم القيامة، وهو الصديق الأكبر، والفاروق بين الحق والباطل، وإنه يعسوب المؤمنين، والمال يعسوب الظلمة)[١]، وقوله: (وهو أول من آمن بي وآخر الناس عهدا بي)[٢]، وما يكشف عن منزلة خديجة بنت خويلد، ومن ذلك قوله (ص): (أفضل نساء أهل الجنة أربع: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون)[٣].

وقد ذكر (ع) إيمانه بنفسه، إذ قال: "والله لأنا أول من صدّقه، فلا أكون أول من كذب عليه"[٤]، وقال في مناسبة أخرى عن الله تعالى: "أنا أول من آمن به"[٥]، يعني بعد النبي (ص)، وقال عن النبي (ص): "أنا أول من صدّقه"[٦]. وقد روي أن النبي (ص) استنبئ "يوم الاثنين، وأسلم علي يوم الثلاثاء"[٧].

ويعرض (ع) في مناسبة أخرى تفصيلات كثيرة تبين جوانب من تشكل بنيته الذهنية: منها: "ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله (ص) وخديجة وأنا ثالثهما أرى نور الوحي والرسالة وأشمّ ريح النبوّة ولقد سمعت رنّة الشيطان حين نزل الوحي عليه (ص) فقلت يا رسول الله ما هذه الرنّة فقال هذا الشيطان قد أيس من عبادته إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلا أنك لست بنبيّ ولكنك لوزير وإنك لعلى خير"[٨]، بعد أن أشار (ع) إلى أبعاد التربية التي حظي بها من لدن أستاذه ومربيه النبي (ص)، ومداها وعمق أثرها: "وقد علمتم موضعي من رسول الله (ص) بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة وضعني في حجره وأنا ولد يضمّني إلى صدره ويكنفني في فراشه ويمسّني جسده ويشمّني عرفه وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلة في فعل"[٩]، وبعد أن كشف عن أمر خاص جداً ومهم، بقوله: "ولقد قرن الله به (ص) من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك

---

(١) الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، أبو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي المعروف بالشيخ المفيد(ت٤١٣هـ): ٣١ ـ ٣٢.

(٢) م. ن: ٣٧.

(٣) الخصال: ٢٠٦/١، وينظر: نوادر الأصول في أحاديث الرسول، أبو عبدالله محمد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذي، تح: د. عبد الرحمن عميرة: ١٨٢.

(٤) شرح نهج البلاغة: ٢٨٤/٢.

(٥) م. ن: ١٢٧/٦.

(٦) م. ن: ١٢٧/٦.

(٧) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا وآخر: ٦٧/٥.

(٨) شرح نهج البلاغة: ١٩٧/١٣.

(٩) م. ن: ١٩٧/١٣.

به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره ولقد كنت أتّبعه اتّباع الفصيل أثر أمّه يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالاقتداء به ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري"[١].

وكانت أمه (فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف) ـ "وهي أول هاشمية ولدت لهاشمي"[٢] ـ من بين الذين أسلموا قبل الهجرة، بل قيل إنها كانت حادية عشرة في السابقة إلى الإسلام[٣]، "وكانت صالحة، وكان رسول الله (ص) يزورها ويقيل في بيتها"[٤].

وليس هناك في الحقيقة أي تنازع بين رأي الأكثرية ورأي الباقين، المعروضَين في قول المسعودي: "وقد تنوزع في علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وإسلامه، فذهب كثير من الناس إلى أنه لم يشرك بالله شيئاً فيستأنف الإسلام، بل كان تابعاً للنبي (ص) في جميع أفعاله مقتدياً به، وبلغ وهو على ذلك، وأن الله عصمه وسدده ووفقه لتبعيته لنبيه (ع)؛ لأنهما كانا غير مضطرين ولا مجبورين على فعل الطاعات، بل مختارين قادرين، فاختارا طاعة الرب، وموافقة أمره، واجتناب منهياته، ومنهم من رأى أنه أول من آمن، وأن الرسول دعاه وهو موضع التكليف بظاهر قوله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، وكان بدؤه بعلي"[٥]، من حيث إن ما حصل قبل نزول القرآن كان على الفطرة التي فطرهما عليها رب العالمين، وحافظا على نقاوتها واتجاهها الصحيح أشد المحافظة بتسديد إلهي، وما حصل بعد نزوله كان ـ كما ورد في نص المسعودي نفسه ـ موضع تكليف يوجب الاستجابة والطاعة. روي عن النبي (ص) أنه قال: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه)[٦]، وبرواية أخرى: (كل إنسان تلده أمه على الفطرة، أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه فإن كانا مسلمين فمسلم)[٧].

وسئل أبو عبدالله الصادق (ع) عن قول الله عز وجل: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[٨]. فقال: التوحيد[٩]. وجاء في رواية عنه (ع): "هي الإسلام، فطرهم الله حين أخذ ميثاقهم على التوحيد"[١٠].

---

(١) م. ن: ١٩٧/١٣.

(٢) تاريخ بغداد أو مدينة السلام: ١٣٣/١، وينظر: تهذيب الكمال في أسماء الرجال: ٣١٦/٧.

(٣) ينظر: مقاتل الطالبيين: ٢٨. والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم: ٢١٣/٣.

(٤) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: ٢١٣/٣، وينظر: تهذيب الكمال في أسماء الرجال: ٣١٦/٧.

(٥) مروج الذهب ومعادن الجوهر: ٢٩١/٢ ـ ٢٩٢، والنص القرآني في: الشعراء/٢١٤.

(٦) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: ٢٨/٩.

(٧) شعب الإيمان. أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تح: أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول: ٩٧/١.

(٨) الروم: من ٣٠.

(٩) التوحيد. أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه المعروف بالشيخ الصدوق (ت٣٨١هـ): ٣٢٨.

(١٠) ينظر: م. ن: ٣٢٩.

وحين آخى النبي (ص) بين المسلمين فيما بينهم في مكة قبل الهجرة على الحق والمواساة، جعل عليا (ع) أخاه هو (ص) دون غيره، وقال له: (أنت أخي في الدنيا والآخرة)[١]. ولا شك في أن لتلك المؤاخاة ولغيرها الأثر البارز في صوغ البنية الذهنية للإمام (ع) وفي تمثل الرؤية المستقيمة.

وأظهر الإمام علي (ع) إحساسه العميق بتلك الأخوة على المستويات كلها، حينما بات على فراش النبي (ص) فادياً إياه بنفسه، لما أجمع المشركون أمرهم على قتل النبي (ص)[٢].

وفي الروايات ما يشير صراحة إلى أن قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[٣] نزل في الإمام علي (ع) ومبيته تلك الليلة على فراش النبي (ص)[٤].

ولم يكن موقف رد الأمانات والودائع التي كان عند النبي (ص) الذي كلفه به، بأقل دلالة على إحساسهما معاً بتلك الأخوة، وعلى الفدائية والبذل والتضحية من أجل الدين والمرسل به[٥].

ولما نزل النبي (ص) المدينة، وآخى بين المهاجرين والأنصار على المواساة والحق، جعل عليا آخاه أيضاً، وقال له: (أنت أخي في الدنيا والآخرة)[٦].

وهذه الأخوة لم تكن لأحد غير علي (ع)[٧] ولاسيما أن المبدأ العام للمؤاخاة كان بين مهاجر وأنصاري، ومؤاخاتهما كانت بين مهاجر ومهاجر، مما يجعل مؤاخاتهما مؤاخاة خاصة ذات أبعاد متنوعة.

---

(١) ينظر: سنن الترمذي وهو الجامع الصحيح، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت٢٧٩هـ)، حققه وصححه: عبد الوهاب عبد اللطيف: ٩٧٩، وأسد الغابة في معرفة الصحابة: ٨٨/٤، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال: ٣٢٢/٧، والسيرة النبوية المسمى عيون الأثر: ٢٦٤/١، والبداية والنهاية: ٢٢٦/٣.

(٢) ينظر: كنز الفوائد: ٥٥/٢، وأمالي الشيخ الطوسي: ٢٥٨، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم: ٤٧/٣، والكامل في التاريخ: ١٠٣/٢، وأسد الغابة في معرفة الصحابة: ٩٢/٤.

(٣) البقرة: ٢٠٧.

(٤) ينظر: أمالي الشيخ الطوسي: ٢٥٨.

(٥) ينظر: الكامل في التاريخ: ١٠٣/٢، وأسد الغابة في معرفة الصحابة: ٩٢/٤، وخلفاء الرسول (ص): ٣٩٧.

(٦) ينظر: كتاب الطبقات الكبير: ٢٠/٣ - ٢١، ومروج الذهب ومعادن الجوهر: ٤٤٦/٢، والإرشاد في معرفة حجج الله على العباد: ٣٧، والفتوح، أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي (ت٤١٣هـ)، تح: علي شيري: ٦٥٩، وإعلام الورى بأعلام الهدى: ٣٦٣، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم: ٧٤/٣، وأسد الغابة في معرفة الصحابة: ٨٨/٤، ١٠٤، والسيرة النبوية المسمى عيون الأثر: ٢٦٤/١ - ٢٦٥، والإصابة في تمييز الصحابة: ٤٦٤/٤.

(٧) ينظر: الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد: ٣٧.

ومن معالم بنيته (ع) دينياً قوله: "ما شككت في الحق مذ أريته"[١]، وقوله: "ولقد علم المستحفظون من أصحاب محمد (ص) أني لم أردّ على الله ولا على رسوله ساعة قطّ"[٢].

ومما يكشف عن قوته الإيمانية ما روي عن أن النبي (ص) حينما ارتدت كتيبتان إسلاميتان أمام حصن خيبر، "ألقى على الصفوف الحافلة بأصحابه وبجيشه نظرة متفائلة"[٣]، وقال: (لأعطين الراية غدا رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه)، ثم أعطاها لعلي (ع) ففتح الله على يده حصن خيبر بعد أن اقتلع بابه[٤].

وقال عمر بن الخطاب - وهو صاحب الكتيبة الثانية - "ما تمنيت الإمارة قط إلا ذلك اليوم، رجاء أن أكون من يحبه الله ورسوله"[٥]. وكان عمر بن الخطاب قد أخذ اللواء "ونهض من نهض معه من الناس فلقوا أهل خيبر: فانكشف عمر وأصحابه فرجعوا إلى رسول الله (ص) يجبنه أصحابه، ويجبنهم فقال رسول الله (ص): (لأعطين اللواء غدا رجلا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله)، فلما كان من الغد تطاول لها أبو بكر وعمر، فدعا علياً، وأعطاه اللواء، وفتح الله له ولهم"[٦]، وبعبارة أخرى: "فلما قال رسول الله (ص) مقالته هذه تطاولت لها قريش"[٧]، وبعبارة ثالثة: "فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله (ص)، كلهم يرجو أن يعطاها"[٨].

ومن المواقف التي أسهمت في تثبيت منزلة الإمام علي (ع) من النبي (ص)، غزوة تبوك: فقد خلفه (ص) "على أهله وأمره بالإقامة فيهم، فأرجف المنافقون بعلي بن أبي طالب، وقالوا: ما خلفه إلا استثقالاً له، وتخففاً منه، فلما قال ذلك المنافقون، أخذ علي سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله (ص) وهو بالجرف، فقال: يا نبي الله، زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استثقلتني، وتخففت مني، فقال (ص): كذبوا ولكني إنما خلفتك لما تركت ورائي فارجع

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٢٠٧/١.

(٢) م. ن: ١٧٩/١٠.

(٣) خلفاء الرسول (ص): ٤٠١.

(٤) ينظر: صحيح البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري: ٦٥٩، وتاريخ اليعقوبي: ٣٦/٢ - ٣٧، والثقات، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي (ت٣٥٤هـ): ١٢ - ١٣، وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء: ٦٢/١، وإعلام الورى بأعلام الهدى: ٣٦٤، والمناقب: ٧٤، والسيرة النبوية المسمى عيون الأثر: ١٣٥/٢، ومعرفة الصحابة: ١٠٢/١، وخلفاء الرسول (ص): ٤٠١.

(٥) خلفاء الرسول (ص): ٤٠١.

(٦) تاريخ الطبري تاريخ الأمم والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، مراجعة: نواف الجراح: ٤٤١/٢ - ٤٤٢.

(٧) الكامل في التاريخ: ٢١٩/٢.

(٨) مسند أحمد: ٣٣٣/٥، وينظر: الإصابة في تمييز الصحابة: ٤٦٦/٤.

فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي! فرجع علي إلى المدينة، ومضى رسول الله (ص) على سفره"[١].

وهذه المنزلة - منزلة هارون من موسى - تكفل القرآن الكريم "تفسيرها، وإيضاح أبعادها، ولم يدع للناس فرصة تأويلها. فقد حكى القرآن الكريم عن موسى (ع) دعاءه: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾، وقال تعالى حكاية عن موسى (ع): ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فتلك هي منزلة هارون (ع) من موسى (ع)، وهي بعينها منزلة علي من محمد (ص) إلا النبوة"[٢].

ولذلك فمن معالم بنيته (ع) عسكرياً ودينياً ما نجده في قوله: "لقد كنت وما أُهدَّد بالحرب ولا أُرهَب بالضرب وإني لعلى يقين من ربي وفي غير شبهة من ديني"[٣]، وفي قوله: "أنا وضعت في الصغر بكلاكل العرب وكسرت نواجم قرون ربيعة ومضر"[٤]، وفي قوله يصف نفسه (ع) والمؤمنين: "ولقد كنا مع رسول الله (ص) نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا ما يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليماً ومضيّا على اللقم وصبرا على مضض الألم وجدّا في جهاد العدوّ، ولقد كان الرجل منّا والآخر من عدوّنا يتصاولان تصاول الفحلين يتخالسان أنفسهما أيهما يسقي صاحبه كأس المنون فمرة لنا من عدوّنا ومرة لعدوّنا منا فلما رآنا الله صدقا صبرا أنزل بعدوّنا الكبت وأنزل علينا النصر"[٥]، وقوله كاشفاً عن حالته الخاصة مع النبي (ص): "ولقد واسيته بنفسي في المواطن التي تنكص فيها الأبطال وتتأخّر فيها الأقدام نجدة أكرمني الله بها"[٦].

---

(١) تاريخ الطبري تاريخ الأمم والملوك: ٤٧٣/٢ ـ ٤٧٤، وينظر: كتاب الطبقات الكبير: ٢٢/٣، والتاريخ الكبير، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي البخاري (ت٢٥٦هـ)، تح: مصطفى عبد القادر عطا: ١١٧ ـ ١١٨، ومروج الذهب ومعادن الجوهر: ٤٤٦/٢، وأمالي الشيخ الطوسي: ٢٥٨، وتهذيب تاريخ دمشق الكبير، أبو القاسم علي ابن الحسن بن هبة الله الشافعي المعروف بابن عساكر (ت٥٧١هـ): ١٠٨/١ ـ ١٠٩، وأسد الغابة في معرفة الصحابة: ٢٨٦/٥، وسير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت٧٤٨هـ)، تح: مصطفى عبد القادر عطا: ٤٥٨/٢، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال: ٣٢٢/٧، والإصابة في تمييز الصحابة: ٤٦٤/٤.

(٢) منهج في الانتماء المذهبي، صائب عبد الحميد: ٧٤ ـ ٧٥، والنصوص القرآنية في: طه/٢٩ ـ ٣٢، والفرقان/٣٥، والأعراف/١٤٢ على التوالي.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٣٠٣/١.

(٤) م. ن: ١٩٧/١٣.

(٥) م. ن: ٢٤٠/٢.

(٦) م. ن: ١٧٩/١٠.

ومن ذلك الإكرام الإلهي أن الرسول (ص) اتبع أمرا إلهيا بسد أبواب المسجد غير باب علي (ع)[١]. وروي عن عبد الله بن شريك عن عبد الله بن الرقيم الكنانيّ أنه "قال خرجنا إلى المدينة زمن الجمل فلقينا سعد بن مالك بها فقال أمر رسول الله (ص) بسدّ الأبواب الشارعة في المسجد وترك باب علي (رضي الله عنه)"[٢]، وروي عن هشام بن سعد عن عمر بن أسيد عن ابن عمر أنه قال: (لقد أوتي ابن أبى طالب ثلاث خصال لأن تكون لي واحدة منهن أحبّ إليّ من حمر النعم زوّجه رسول الله (ص) ابنته وولدت له وسدّ الأبواب إلا بابه في المسجد وأعطاه الراية يوم خيبر)[٣].

وروي عن ميمون أبى عبد الله عن زيد بن أرقم أنه (قال كان لنفر من أصحاب رسول الله (ص) أبواب شارعة في المسجد. قال فقال يوماً: سدّوا هذه الأبواب إلا باب علي. قال فتكلّم في ذلك الناس. قال فقام رسول الله (ص) فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإني أمرت بسدّ هذه الأبواب إلا باب علي وقال فيه قائلكم وإني والله ما سددت شيئاً ولا فتحته ولكني أمرت بشيء فاتّبعته)[٤].

ومما يكشف عن القدرة التوصيلية للإمام علي (ع) ومنزلته عند أهل اليمن، ما ورد عن أن النبي (ص) بعثه "إلى اليمن وقد كان أرسل قبله خالد بن الوليد إليهم يدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوه، فأرسل علياً وأمره أن يعقل خالداً ومن شاء من أصحابه، ففعل، وقرأ علي كتاب رسول الله (ص) على أهل اليمن فأسلمت همدان كلها في يوم واحد"[٥].

وحين نزلت سورة براءة، وأرسل النبي (ص) أبا بكر بها إلى أهل مكة، أرسل خلفه علي بن أبي طالب ليقوم بالمهمة، ولما سأله أبو بكر عن السبب، قال: (لا يؤدي عني إلا أنا أو علي)[٦]، وروي: "أو رجل مني"[٧]، وبرواية أخرى: "بعث رسول الله (ص) أبا بكر ببراءة فلما أتى ذا الحليفة أتبعه عليا (ع) فأخذها منه قال أبو بكر: يا علي ما لي أنزل في شيء؟

---

(١) ينظر: التاريخ الكبير: ٤٠٨/١، وأمالي الشيخ الطوسي: ٦١٠، والمناقب: ٧٤،

(٢) مسند أحمد: ١٧٥/١.

(٣) م.ن: ٢٦/٢.

(٤) م.ن: ٣٦٩/٤.

(٥) الكامل في التاريخ: ٣٠٠/٢، وينظر: تاريخ الطبري تاريخ الأمم والملوك: ٤٨٣/٢، وفيه: "فأقام [خالد] عليه ستة أشهر لا يجيبونه إلى شيء، وأمره أن يقفل خالدا".

(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطار: ٨٤/١٠، وينظر: عمدة عيون صحاح الأخبار: ٢٤٧/١.

(٧) مسند أحمد: ٣/١، وينظر: علل الشرائع، الشيخ الصدوق أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى ابن بابويه (ت٣٨١هـ): ١٩٠/١.

قال: لا ولكن رسول الله (ص) قال: لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل من أهل بيتي، قال فرجع إلى رسول الله (ص) فقال: يا رسول الله أنزل في شيء؟ قال: لا، ولكن لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل من أهل بيتي"[١]. ومما يقترب من دلالة هذا الأمر، قوله (ص): (علي مني وأنا من علي)[٢].

وكشف (ع) عن ملازمته النبي (ص) إلى آخر لحظة: "ولقد قبض رسول الله (ص) وإن رأسه لعلى صدري ولقد سالت نفسه في كفي فأمررتها على وجهي ولقد ولّيت غسله (ص) والملائكة أعواني فضجّت الدار والأفنية ملأ يهبط وملأ يعرج وما فارقت سمعي هينمة منهم يصلّون عليه حتى واريناه في ضريحه فمن ذا أحقّ به مني حياً وميتاً"[٣].

ومما يتصل بأهل بيته (ع)، ما "روي عنه (ع) أنه قال: كان الحسن في حياة رسول الله (ص) يدعوني أبا الحسين، وكان الحسين يدعوني أبا الحسن، ويدعوان رسول الله (ص) أباهما، فلما توفي رسول الله (ص) دعواني بأبيهما"[٤]، وما روي من أن النبي (ص) دخل على فاطمة وعندها الحسن والحسين (ع)، "فقال النبي (ص) أرسلوا إلى علي. فجاء فأكلوا، ثم اجتر بساطاً كانوا عليه فجللهم به ثم قال: (اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا)، فسمعت أم سلمة، فقالت: يا رسول الله، وأنا منهم، فقال: (إنك على خير)"[٥].

ومن ذلك ما روي عن النبي (ص)، إذ قال: (فاطمة سيدة نساء العالمين)[٦].

ومنه قوله (ص): (الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة)[٧].

ويرتبط بذلك ما رواه العباس إذ قال: "كنت جالساً عند رسول الله (ص) إذ دخل عليه علي (ع) فسلم فرد النبي (ص) السلام وقام إليه وعانقه وقبل ما بين عينيه، فقال له العباس: يا رسول الله أتحبه؟ فقال: (يا عم والله، الله أشد حبا له مني، والله عز وجل جعل ذرية كل نبي في صلبه وجعل ذريتي في صلب هذا)"[٨]، وما روي عنه (ص) إذ قال: "(كذب من زعم أنه

---

(١) علل الشرائع: ١٨٩/١، وينظر: السنن الكبرى، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت٣٠٣هـ)، تح: د.عبد الغفار سليمان البنداري وآخر: ١٢٨/٥ ـ ١٢٩، وأمالي الشيخ الطوسي: ٥٤٨،

(٢) أمالي الشيخ الطوسي: ٢٧٧، وينظر: عمدة عيون صحاح الأخبار: ٢٤٧/١.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١٧٩/١٠، وينظر: الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد: ٣٧.

(٤) مقاتل الطالبيين: ٣٩.

(٥) أسد الغابة في معرفة الصحابة: ٤٥/٤.

(٦) البرهان في تفسير القرآن، هاشم البحراني، تح: لجنة: ١١٥/٣، وينظر: الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد: ٣٧.

(٧) البرهان في تفسير القرآن: ١١٥/٣.

(٨) الإتحاف بحب الأشراف: ٩١.

يحبني ويبغض هذا) يعني عليا (ع)"[١]، وإذ قال: (أحب إخواني إلي، علي بن أبي طالب)[٢]، وما روي عن الإمام نفسه، إذ قال: "عهد إلي رسول الله (ص): إنه لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق"[٣]، وإذ قال: "إن النبي آخذ بيد الحسن والحسين وقال: (من أحبني وأحب هذين وعليا وفاطمة كان معي في درجتي يوم القيامة)"[٤]، وما روي عن عائشة، إذ قالت: "كنت عند النبي (ص) فأقبل علي بن أبي طالب (ع) فقال: (هذا سيد العرب). فقلت: يا رسول الله ألست سيد العرب؟ قال: (أنا سيد ولد آدم وعلي سيد العرب). قلت: وما السيد؟ قال: (من افترضت طاعته كما افترضت طاعتي)"[٥].

وقصة الطائر الذي أهدي إلى النبي (ص) تبين أنه كان دعا الله سبحانه وتعالى بأن يأتيه بأحب خلقه إليه ليأكل معه، فجاء علي (ع)[٦]. قال أنس واصفاً ذلك الموقف: "فقرع الباب، فقلت إن رسول الله (ص) مشغول، وكنت أحب أن يكون رجلاً من الأنصار، ثم إن عليا فعل مثل ذلك، ثم أتى الثالثة فقال رسول الله (ص): (يا أنس أدخله فقد عنيته)"[٧].

وصرح النبي (ص) بالمكانة العلمية للإمام علي (ع)، ومن ذلك قوله لفاطمة (عليها السلام) عنه: (وعنده علم الأولين والآخرين)[٨]، وقوله: (أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم فليقتبسه من علي)[٩].

وجاء عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾: إنه علي (ع)[١٠].

وصرح عمر بن الخطاب بتلك المكانة، بقوله: "علي أقضانا"[١١]، وبقوله: "أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن"[١٢].

---

(١) روضة الواعظين، محمد بن الفتال النيسابوري، تصحيح وتعليق: الشيخ حسين الأعلمي: ٥٢، وينظر: بشارة المصطفى(ص) لشيعة المرتضى (ع)، عماد الدين أبو جعفر محمد بن أبي القاسم الطبري (ت٥٢٥)، تح: جواد القيومي الأصفهاني: ١٩٤.

(٢) ينظر: عمدة عيون صحاح الأخبار: ٢/٢٦٨، وتنظر: ٣٦٩.

(٣) الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد: ٤٠.

(٤) الإتحاف بحب الأشراف: ٧٨، وينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة: ٤/١٠٤، وروضة الواعظين: ١٧٤ - ١٧٥.

(٥) نهج الحق وكشف الصدق: ١٠٢، وينظر: البرهان في تفسير القرآن: ٣/١١٤.

(٦) ينظر: مروج الذهب ومعادن الجوهر: ٢/٤٤٦، وأسد الغابة في معرفة الصحابة: ٤/١٠٥، وسير أعلام النبلاء: ٢/٤٦٠

(٧) أسد الغابة في معرفة الصحابة: ٤/١٠٥.

(٨) الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد: ٣٧.

(٩) م. ن: ٣٣.

(١٠) ينظر: نهج الحق وكشف الصدق: ٢٠٥، والنص القرآني: النحل/من ٧٦.

(١١) سير أعلام النبلاء: ٢/٤٦٢.

(١٢) م. ن: ٢/٤٦٢.

وقد كان المسلمون يستشعرون مكانة الإمام علي (ع)، ومن ذلك ما روي عن الشعبي من أنه "قال: رأى أبو بكر عليا فقال: من سره أن ينظر إلى أعظم الناس منزلة من رسول الله (ص) وأقربه قرابة وأفضله دالة وأعظمه غناء عن نبيه فلينظر إلى هذا"[١]، وما روي عن سلمان، إذ قال: "إن أول هذه الأمة وروداً على رسول الله (ص) أولها إسلاماً علي بن أبي طالب"[٢]، وما روي عن أبي إسحق، إذ قال: "قيل لقثم بن العباس: كيف ورث علي رسول الله (ص) دونكم؟ قال: إنه كان أولنا به لحوقاً، وأشدنا به لزوقا"[٣]، وما روي عن أبي ذر، إذ "قال: سمعت رسول الله (ص) وهو يقول: خلقت أنا وعلي من نور واحد نسبح الله بمنة العرش قبل أن خلق آدم بألفي عام فلما أن خلق الله آدم جعل ذلك النور في صلبه، ولقد سكن الجنة ونحن في صلبه، ولقد هم بالخطيئة ونحن في صلبه، ولقد ركب نوح السفينة ونحن في صلبه، ولقد قذف بإبراهيم في النار ونحن في صلبه، فلم يزل ينقلنا الله عز وجل من أصلاب طاهرة إلى أرحام طاهرة حتى انتهى بنا إلى عبد المطلب، فقسمنا بنصفين فجعلني في صلب عبدالله، وجعل عليا في صلب أبي طالب، وجعل في النبوة والبركة، وجعل في علي الفصاحة والفروسية، وشق لنا اسمين من أسمائه، فذو العرش محمود وأنا محمد، والله الأعلى وهذا علي"[٤].

ومما يتصل بأمر النور أن العرب كانت تعد علم الأنساب والتواريخ والأديان نوعا من العلوم شريفا لما فيه من معرفة بأنساب أجداد النبي (ص)، ومن اطلاع "على ذلك النور الوارد من صلب إبراهيم إلى إسماعيل (عليهما السلام)، وتواصله في ذريته إلى أن ظهر بعض الظهور في أسارير عبد المطلب وببركة ذلك النور ألهم عبد المطلب النذر الذي نذر في ذبح العاشر من أولاده، وبه افتخر النبي (ص) حين قال: (أنا ابن الذبيحين) أراد بالذبيح الأول إسماعيل (ع)، وهو أول من انحدر إليه النور فاختفى، وبالذبيح الثاني عبدالله بن عبد المطلب، وهو آخر من انحدر إليه النور فظهر كل الظهور"[٥].

وسمع رسول الله (ص) يقول كاشفا عن أمر مستقبلي: (إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله) فقال أبو بكر: أنا هو؟ قال: (لا)، قال عمر: أنا هو؟ قال: (لا، ولكنه خاصف النعل، وكان أعطى عليا بنعله يخصفها)[٦].

---

(١) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المتقي الهندي (ت٩٧٥هـ)، تح: بكري حياني وآخر: ١١٥/١٣.

(٢) أمالي الشيخ الطوسي: ٢٥٢.

(٣) معرفة الصحابة: ١٣٨.

(٤) معاني الأخبار، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالصدوق(ت٣٨١هـ)، تقديم: السيد محمد مهدي السيد حسن الخرسان: ٥٣، وينظر: عمدة عيون صحاح الأخبار: ٣٩٩/٢.

(٥) الملل والنحل: ٥٨٦/٢ ـ ٥٨٧، وينظر: الخصال: ٥٦.

(٦) سير أعلام النبلاء: ٤٦٤/٢.

وروي أنه خاطبه مباشرة فقال له: (تقاتل يا علي على تأويل القرآن، كما قاتلت على تنزيله)[١].

وسمع رسول الله (ص) يقول كاشفا عن أمر مستقبلي مرتبط بأمر التأويل: (تقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين)[٢].

وانطلاقاً من هذه الأحاديث وغيرها سمع أحمد بن حنبل وهو يقول: "ما ورد لأحد من أصحاب رسول الله (ص) من الفضائل ما ورد لعلي"[٣].

وكان الرسول (ص) ينوه بمكانة عدد من المسلمين مثلما نوه بمكانة الإمام علي (ع)، فقد "قال رسول (ص): (خير الناس حمزة وجعفر وعلي) (عليهم السلام)"[٤]، و"قال: (ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر)"[٥]، و"قال: (إن الله أمرني بحب أربعة قالوا: ومن هم يا رسول الله، قال: علي بن أبي طالب، ثم سكت، ثم قال: إن الله أمرني بحب أربعة قالوا: ومن هم يا رسول الله، قال: علي بن أبي طالب، والمقداد بن أسود، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي)"[٦].

بناء على ما تقدم وعلى قوله (ع): "اليمين والشمال مضلّة والطريق الوسطى هي الجادّة"[٧]، وقوله: "نحن النمرقة الوسطى بها يلحق التالي وإليها يرجع الغالي"[٨]، فإننا نصل ـ كما وصل غيرنا ـ إلى قضية مهمة؛ وهي: أن" (الاستقامة) تعبير عن الوسطية الإسلامية"[٩]. ولذلك سنفرد لها نقطة خاصة.

ثامناً ـ الاستقامة والوسطية: ترتبط الاستقامة ـ بوصفها مفهوماً "في الاستخدام القرآني ـ بمفاهيم العدل والإيمان والأمانة والشهادة"[١٠].

---

(١) الجمل والنصرة لسيد العترة في حرب البصرة، أبو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان البغدادي الشيخ المفيد (ت٤١٣هـ)، تح: علي مير شريفي: ٨٠.

(٢) الجمل والنصرة لسيد العترة في حرب البصرة: ٨٠.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٤٦٢/٢.

(٤) مقاتل الطالبيين: ٣٤.

(٥) سير أعلام النبلاء: ٣٧٦/٢، وينظر: أمالي الشيخ الطوسي: ٥٢.

(٦) الاختصاص، أبو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي الملقب بالشيخ المفيد (ت٤١٣هـ)، صححه وعلق عليه: علي أكبر غفاري: ٩.

(٧) شرح نهج البلاغة: ٢٧٣/١.

(٨) م. ن: ٢٧٣/١٨.

(٩) الاستقامة (مقال في شبكة المعلومات)، هبة رؤوف عزت.

(١٠) م. ن.

والاستقامة تشمل على ما ذكره الدكتور محمد زكي محمد خضر في كتابه (الاستقامة في مائة حديث نبوي)[١]:

أ ـ استقامة الأعمال الباطنة كالنية والإخلاص والتزام التقوى ومحبة الله ورسوله (ص) والتوبة إلى الله عز وجل واليقين به والرضا بما قدر والصبر على البلاء والتوكل على الله والقناعة والزهد والخوف والرجاء.

ب ـ ما يتخذ المؤمن من منهاج ودليل عمل يستند إلى المعرفة بالله تعالى. فعلى المؤمن أن يعد القرآن مصدره الأول ثم سنة رسوله (ص)، ثم بعد ذلك يأتي الاجتهاد ولزوم الجماعة وعدم إطاعة مخلوق في معصية الله تعالى وأن لا يكون إمعة ويجتنب البدع وسبل المشركين والمنافقين. وعلى المؤمن أن ييسر ولا يعسر وأن يتقن عمله ويستغل أوقاته، وغير ذلك.

ج ـ العبادات: وتأتي في مقدمتها الصلاة والصيام والزكاة والحج لمن استطاع إليه سبيلا، وليست العبادات تلك فحسب، فالطهارة عبادة وتلاوة القرآن عبادة وطلب العلم عبادة، وكذلك الذكر والدعاء والصلاة على رسول الله (ص) والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله والتفكر في خلق الله والشكر على نعمائه.. كل هذه من العبادات.

د ـ اجتناب المعاصي والكبائر التي حرم الله تعالى كعقوق الوالدين وقطع الأرحام وأكل مال اليتيم وقتل النفس التي حرم الله والخمر والميسر والزنا وقول الزور والسحر وقذف المحصنات والتخنث ولبس الذهب والحرير للرجال وتشبه النساء بالرجال وتركهن الحجاب والخيانة والكذب والظلم والغش واللعن والاحتكار.

هـ ـ الأخلاق، وإنما بعث رسول الله (ص) ليتمم مكارم الأخلاق من صدق وحسن خلق وحياء وحفظ اللسان وتواضع وغض للبصر وسخاء ورحمة لعباد الله وترك الجدال وما لا يعني. والاستقامة في المعاملة وأساسها أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه، وحب الصالحين وبذل النصح والعدل بالحكم والإحسان إلى الجار وذوي الأرحام والرفق في كل شيء وخاصة للمرء مع أهل بيته وطاعة المرأة لزوجها ورعايتها لولدها وأداء الأمانات والإيفاء بالوعود.

ز ـ تزكية النفوس، فقد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها. فاجتناب التكبر والرياء ومحاسبة النفس وترك الحسد وسوء الظن وذكر الموت، كل تلك من جوانب الاستقامة.

---

(١) الاستقامة في مائة حديث نبوي: ٢ ـ ٣.

وقد "بين العلماء رحمهم الله أن الاستقامة هي الاعتدال. وضدها الاعوجاج والميل هذا من حيث اللغة. يقال خط: مستقيم يعني خط لا عوج فيه ولا ميل. قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾. الصراط المستقيم هو الطريق المعتدل الذي ليس فيه اعوجاج ولا ميل بخلاف الطرق الضالة فإن فيها اعوجاجاً وفيها ميلاً وفيها مخاطر. أما الصراط المستقيم، صراط الله سبحانه وتعالى فهو طريق معتدل لا اعوجاج فيه ولا ميل ولا خطر على من سلكه"[١].

والعودة إلى (لسان العرب) تؤكد ما مر قبل قليل: فـ"الاستقامة: الاعتدال، يقال: استقام له الأمر. وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أي في التوجه إليه دون الآلهة. وقام الشيء واستقام: اعتدل واستوى. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾، معنى قوله استقاموا عملوا بطاعته ولزموا سنة نبيه (ص). وقال الأسود بن مالك: ثم استقاموا لم يشركوا به شيئاً، وقال قتادة: استقاموا على طاعة الله. وفي الحديث: (قل آمنت بالله ثم استقم)، فسر على وجهين: قيل هو الاستقامة على الطاعة، وقيل هو ترك الشرك. أبو زيد: أقمت الشيء وقومته فقام بمعنى استقام، قال: والاستقامة اعتدال الشيء واستواؤه"[٢].

وقيل: إن الاستقامة هي"الاستمرار على سنن واحد ونقيضها الاعوجاج وطريق مستقيم لا اعوجاج فيه"[٣].

وعلى هذا "فالاستقامة معناها الاعتدال على إطاعة الله سبحانه وتعالى، الاعتدال على شرعة الله، الاعتدال على كلمة التوحيد. هذه هي الاستقامة شرعاً كما تدل على ذلك عبارات السلف. كلها تجتمع على أن الاستقامة شرعا هي لزوم طاعة الله سبحانه وتعالى من غير ميل ومن غير التفاف إلى غيرها"[٤].

و"هي تعني لزوم ما شرعه الله سبحانه وتعالى في التوحيد وإخلاص العبادة لله وفي الآداب والأخلاق والتعامل مع الناس وفي كل ما يفعله الإنسان في هذه الحياة يكون مستقيماً على المنهج الصحيح الذي رسمه الله سبحانه وتعالى وبينه رسوله (ص) لأن هذا المنهج هو منهج الذين أنعم الله عليهم، كما قال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

---

(١) الاستقامة في حياة المسلم (محاضرة في شبكة المعلومات)، صالح الفوزان: ١. والنصان القرآنيان من: الأنعام/١٥٣. والفاتحة/٦ على التوالي.

(٢) لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور: مادة (ق وم)، والنصان القرآنيان من: فصلت/٦، و٣٠. والحديث النبوي في: صحيح مسلم: ٤٧/١.

(٣) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، تح: مؤسسة النشر الإسلامي: ٥١.

(٤) الاستقامة في حياة المسلم: ١.

فالذين أنعم الله عليهم هم أهل الاستقامة من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا" [١].

وهي "تعني التوسط بين الإفراط والتفريط، بين التساهل وعدم المبالاة، وبين الغلو والتشدد. هذا هو طريق الاستقامة لأن دين الله بين الغالي والجافي. الغالي هو الذي يزيد ويتشدد. والجافي هو المتساهل الذي لا يهتم بدينه بل هو مفرط، وكذلك الغالي والمتشدد الذي يزيد في العبادة ويزيد في التمسك يظن أنه بذلك يطيع الله ورسوله، وهو بالعكس لأن من خرج عن الجادة ومال عنها سواء بتساهل أو بتشدد خرج عن شرع الله سبحانه وتعالى. فالاستقامة هي الاعتدال من غير جفاء وتساهل ومن غير زيادة وتشدد وإفراط في العبادة هذا هو طريق الاستقامة" [٢].

فالاستقامة هي "السير على الطريق المعتدل وهو ما شرعه الله تعالى وشرعه رسوله (ص) والتزام ذلك من غير إفراط ولا تفريط"[٣]. و "الحاصل أن الاستقامة مقامها في الدين عظيم ومن غير تشدد ومن غير تساهل وتفريط وجفاء وعدم مبالاة"[٤].

بهذه الصفحات السابقة نكون قد رسمنا صورة عن حركة الرؤية المستقيمة في التاريخ الاجتماعي للبشر عموماً، وفي التاريخ الاجتماعي العربي الإسلامي الذي تجلت فيه، خصوصاً، مما يؤكد أن للتاريخ بأبعاده: الماضي والحاضر والمستقبل، مساحة بينة في الدراسة البنيوية التكوينية، وأن البحث في ظواهر اجتماعية يستدعي متابعة صيرورة البنية الشمولية الدالة وتشكلها، على مدى زمني واسع، من أجل أن نفهم تلك الظواهر بوساطة البنية الذهنية المتشكلة.

❖ ❖ ❖

(١) م. ن: ٢، والنص القرآني من: الفاتحة/٦ ـ ٧.

(٢) الاستقامة في حياة المسلم: ١.

(٣) الاستقامة في حياة المسلم: ٤.

(٤) م. ن: ٧.

بَيَانُ الإمام علي (ع) في التعبيرِ عن العبادةِ في نهج البلاغةِ

✍ الدكتور أحمد عاشور جعاز

جامعة بغداد، كلية التربية (ابن رشد)

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين. وبعد.

فنهج البلاغة: عنوان أطلقه الشريف الرضي (ت٤٠٦هـ) على كتاب جمع فيه المختار من كلام أمير المؤمنين (ع) في جميع فنونه، ومتشعبات غضونه، وجعله دائراً على أقطاب ثلاثة: الخطب والمواعظ، والعهود والرسائل، والحكم والآداب، إذ ضمّ الكتاب (٢٣٧) كلاماً وخطبة تقريباً، و (٧٩) بين كتاب ووصية وعهد، و (٤٨٠) من الكلمات القصار[١].

ويبدو أنّ سبب إطلاق تسمية الشريف الرضي تسمية (نهج البلاغة) على هذا الكتاب من غير تسميته بـ (منهج البلاغة)، ولا (مناهج البلاغة) يعود لأمرين[٢]:

الأول: أنّ الأصل هو النهج، والنهج هو طريق واضح يسلكه سالك يؤدي إلى الخير، يقال: نهج الرشاد، ونهج النجاة، والمنهاج أعم من النهج.

الثاني: أنّ النهج ما لا ينقطع وضوحه، مأخوذ من مادة (نَهَجَ)، وهو تتابع النفس، يقال: فلان ينهج في النفس.

يقول حسن الصفار: (ومن تسمية الشريف الرضي للنهج نستشف ميوله الأدبية واتجاهه البلاغي، فكلمات الإمام علي تفيض بالحيوية، وتنبض بالرسالية والنضال والكفاح، وكان يمكن أن تسمى بـ (نهج الحياة)، أو بـ (نهج النضال)، أو بـ (نهج الجهاد)، ولكن ميول الشريف فرضت عليه اسم (نهج البلاغة) رغم أنّ البلاغة غير مقصودة، ولا متعمّدة من خطب الإمام وكلماته، وإنّما هي سليقة الإمام، والهدف والقصد من كلمات الإمام هي المفاهيم الحيوية وقضايا الرسالة والنضال)[٣].

أما البلاغة فهي الوصول إلى الشيء، وسميت الفصاحة بلاغة، لأنّ بها يبلغ صاحبها إلى ما يريد[٤]. والبلاغة عند الإمام (ع) هي الكشف عن المعنى، وإيضاح الغامض، وسهولة

---

(١) ينظر: مصادر نهج البلاغة وأسانيده: ١/٨٧ - ٨٨.

(٢) ينظر: أسلوب الشرط في نهج البلاغة: ٤.

(٣) رؤى الحياة في نهج البلاغة: ٣٤.

(٤) ينظر: معارج نهج البلاغة: ١٤.

العبارة، حين ذكرها بقوله: (البلاغة إيضاح الملتبسات، وكشف عورات الجهالات، بأسهل ما يكون من العبارات)[١].

وبذلك يكون معنى الكتاب، أنّه طريق بيّن واضح، لا ينقطع وضوحه، ويبلغ سالكه به ما يريد من الفصاحة[٢].

ولذلك فقد أضحى النهج لدى الناس عَلَماً مبلّغاً عن الإمام وفكره، فكلامه بين أيديهم يحكي عبقرية رجل لم يعرفه إلاّ الله عزّ وجلّ ورسوله (ص)[٣]. إذ تعجز العقول وإن قويت فطنتها عن سبر غور علي بن أبي طالب (ع) الذي جمع من الفضائل والمناقب ما تمنّى الصحابة الأجلاء أن يظفروا بإحداها، ليكون ذلك خيراً لهم مما طلعت عليه الشمس، أو خيراً لهم من حمر النعم[٤].

لقد وصل إلينا كتاب (نهج البلاغة) وفيه من خطب الإمام علي بن أبي طالب (ع) ما هو قبس من نور الكلام الإلهي، وشمس تضيء بفصاحة المنطق النبوي، والنظر فيه يورث الشجاعة والشهامة والمروءة وعظمة النفس، لأنّه من روح قهّار واجه المصاعب بعزائم الأسود[٥].

وهو كتاب ضمّ بين دفتيه عيون البلاغة وفنونها، وتهيأت ـ للناظر فيه ـ أسباب الفصاحة ودنا منه قطافها. إذ كان من كلام أفصح الخلق بعد الرسول (ص) منطقاً، وأشدّهم اقتداراً، وأبرعهم حجة، وأملكهم للغة يديرها كيف شاء الحكيم الذي تصدر الحكمة عن بيانه، والخطيب الذي يملأ القلب سحر بيانه، والعالم الذي تهيأ له من خلال الرسول (ص) وكتابه الوحي والكفاح عن الدين بسيفه ولسانه منذ حداثته ما لم يتهيأ لأحد سواه[٦].

إذن نهج البلاغة تراث عظيم، وثروة ضخمة تبرز أهميته فيما يأتي[٧]:

١- أنّه مصدر هام للكشف عن مفاهيم الإسلام وآرائه في جميع حقول الحياة، فمن مبادئ الأخلاق، إلى قوانين الحرب، إلى تعاليم إدارية وسياسية إلى رؤى اجتماعية واقتصادية.

٢- أنّه مرآة صادقة تعكس لنا الكثير من أحداث التاريخ الإسلامي، فهو بمثابة مذكرات رجل عاش الأحداث وشارك في صناعتها.

٣- وهو بعد ذلك ثروة أدبية يفيض بالذوق الرفيع والبلاغة حتى قيل عنه أنّه: (دون كلام الخالق، وفوق كلام المخلوق).

---

(١) كتاب الصناعتين: ٥١ ـ ٥٢، وينظر: أثر النحاة في البحث البلاغي: ١٤، وأسلوب الشرط في نهج البلاغة: ٤.

(٢) ينظر: معارج البلاغة: ١٥.

(٣) المباحث الدلالية في شروح نهج البلاغة: ٣.

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٣.

(٥) ينظر: تمام نهج البلاغة: ٨٩/١، والمباحث الدلالية في شروح نهج البلاغة: ٤ ـ ٥.

(٦) ينظر: مقدمة شرح محمد عبده: ٢ ـ ٣.

(٧) ينظر: رؤى الحياة في نهج البلاغة: ٣٤، والتقييد في نهج البلاغة: ٢ ـ ٣.

٤- أنّ هذا الإرث إذ أقيس بالموروث الأدبي كان له ثمنه الذي لا يُضاهي به شيء، لذا كان ضرورياً آن يُستعان به على تفسير القرآن، واستجلاء غوامضه وتوضيح مقاصده، وذلك لأن صاحب نهج البلاغة كان قد تلبّس بالقرآن الكريم، وأصبحت علاقته بالقرآن وطيدة متينة، وقد جسّد النبي (ص) تلك العلاقة بقوله: (علي مع القرآن، والقرآن مع علي لا يفترقان حتى يردا عليَّ الحوض)[١]، ولما كان الأمر كذلك، كان (ع) خير مصدر لتفسير القرآن بعد النبي (ص)، وهو بحق خير من شعر العرب بدليل أنّ شهادة الرسول تفوق شهادة ابن عباس (رضي الله عنه)، بل بدليل قول ابن عباس نفسه: (جلّ ما تعلمت من التفسير من علي بن أبي طالب (ع))[٢].

وكلامه (ع) في نهج البلاغة هو صورة مطابقة له، لذا فنهج البلاغة هو الإمام (ع)، وهو نهج يستعان به على فهم القرآن، وعلى فهم أساليب الكلام.

٥- أنّ الإمام (ع) وظّف لسانه في هداية الأنام، وخدمة القرآن، وليس كلٌّ من يقدر على فهم القرآن: لأنّ من القرآن ما يفسر بعضه بعضاً، فلو اكتفى الإنسان ببعض من دون الآخر لكانت ضلالته محتملة، وهذا ما جعله (ع) يرشد ابن عباس (رضي الله عنه) إلى أن يجادل خصومه بالسُّنة، لأنَّ فيها تفصيل مجمل القرآن، وذلك في قوله: (لا تخاصمهم بالقرآن، فإنّ القرآن حمّالٌ ذو وجوهٍ، تقول، ويقولون، ولكن حاججهم بالسُّنة، فإنّهم لن يجدوا عنها محيصاً)[٣].

٦- من يدرس نهج البلاغة فإنّه سيدرس العربية بالاعتماد على نصّ متين لا بتوهم أمثلة من قيود الفكر، وتأملات الهواجس، وهذا ما يجعل الدراسة أرصن وأصون، وكلامه (ع) جدير بالاستشهاد، بل أولى من الشعر في ذلك، إذ لا تُوبقه آفة الضرورة.

ونظراً لهذه الأهمية العظيمة فقد أخذ مكانة مميزة، حدت به إلى أن يكون موطئ أذهان الشراح، ومسيل مداد أقلامهم، حتى شارفت شروحه على ثمانين شرحاً، وتزيد[٤].

وتدل هذه الكثرة في الشروح، وفي الدراسات، على أنّ نهج البلاغة كان على سنام الاهتمام والمكانة في كلّ الأحوال، وقد شاعت شهرة نهج البلاغة حتى عند المستشرقين. فيروى أنّ المستشرق الإنكليزي كرينكو قال: (إنّ للقرآن أخاً صغيراً يُسمى نهج البلاغة، فهل في إمكان أحد أن يأتي بمثل هذا الصغير حتى يسوِّغ لنا البحث عن الأخ الكبير)[٥].

---

(١) ينابيع المودة: ٢٦٩/١، وينظر: التقييد في نهج البلاغة: ٢.

(٢) ينظر: التفسير والمفسرون: ٢٣٩/١، والتقييد في نهج البلاغة: ٢.

(٣) نهج البلاغة: ٦٥٠/٣.

(٤) ينظر: التقييد في نهج البلاغة: ١٥.

(٥) ينظر: صوت الإمام علي(ع) في نهج البلاغة: ١ ـ ٣٦، وينظر: التقييد في نهج البلاغة: ١٥.

وعليه فمهما أطال ذوو الصنعة النظر في نهج البلاغة والتأمل في ألفاظه وتراكيبه لن يجدوا في أنفسهم نفوراً ولا صدوداً، بل إنّ هواجسهم تجرهم إليه بعد حين جراً، فيقبلوا عليه مجدداً كأن لم يقرأوه بالأمس، وفي كل يوم لهم فيه جديد فيظفرون منه بالمزيد[١]. يقول الشريف الرضي في أهمية نهج البلاغة: (يتضمن عجائب البلاغة، وغرائب الفصاحة، وجواهر العربية، وثواقب الكلم الدينية والدنيوية، إذ كان أمير المؤمنين مشروع الفصاحة وموردها، ومنشأ البلاغة ومولّدها، ومنه ظهر مكنونها، وعنه أخذت قوانينها، وعلى أمثلته حذا كل خطيب، وبكلامه استعان كل واعظ، ومع ذلك فقد سبق وقصروا)[٢].

وهذا ما نحاول أن نبيّنه في هذه الدراسة عن بيان الإمام (ع) في أحاديث العبادة في نهج البلاغة. فسوف نرى فيها عجائب البلاغة حقاً، وغرائب الفصاحة حقاً.

مفهوم العبادة في الإسلام:

يجد دارس الفكر الإسلامي تنظيماً لكل العلاقات التي تخص شؤون الفرد، فنظّم علاقة الفرد بربه، ونظّم علاقة الفرد بالفرد، ونظّم علاقة الفرد بالمجتمع والدولة، ذلك أن حكمة الله أرادت أن لا يترك عباده دون نظام كامل لحياتهم، يتناول فيه جميع مناحي الحياة، إذ قال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ (القيامة: ٣٦) وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ﴾ (النحل: ٨٩).

وقد جاء هذا التنظيم لكل جوانب الحياة، بتشريع وافٍ، نظر فيه إلى فطرة الإنسان، والى استعداداته وطاقاته، وعلمه بمآله ومصيره، وما يسعده في حياته وبعد مماته، فشرّع له نظاما ومنهجا كاملا لكل جوانب حياته[٣] ومن أهم هذه الأنظمة، نظام العبادات في الإسلام، ذلك أن للعبادات دوراً كبيراً في الإسلام، وأحكامها تمثل جزءاً مهماً من الأحكام الشرعية، والسلوك العبادي يشكل ظاهرة ملحوظة في الحياة اليومية للإنسان المتدين، ونظام العبادات في الشريعة الإسلامية يمثل أحد أوجهها الثابتة، التي لا تتأثر بطريقة الحياة العامة، وظروف التطور المدني في حياة الإنسان، إلا بقدر يسير، خلافاً لجوانب تشريعية أخرى مرنة ومتحركة، يتأثر أسلوب تحقيقها وتطبيقها بظروف التطور المدني في حياة الإنسان، كنظام المعاملات والعقود[٤].

وانطلاقاً من هذه الأهمية فقد شرّع الإسلام أنواعاً متعددة من العبادات، من أجل تزكية النفس البشرية، وربطها بخالقها في كل أحوالها، وهي على نوعين[٥]:

---

(١) ينظر: المباحث الدلالية في شروح نهج البلاغة: ٥.

(٢) نهج البلاغة: ١/ ٢ ـ ٣.

(٣) ينظر: النظم الإسلامية: ٥ ـ ٦.

(٤) ينظر: نظرة عامة في العبادات: ٩.

(٥) ينظر: النظم الإسلامية: ٥٧ ـ ٥٨.

١- **عبادات قلبية:** ومستقرها القلب، كالإيمان بالله وتوحيده، وحب الله ورسوله، والتوكل على الله، ورجاء رحمته، وخشية عذابه، والتفكّر في قدرة الله وعظيم صفاته... إلى غير ذلك من المعاني والأحوال القلبية التي أمر لله تعالى المؤمن أن يسعى إلى تحصيلها.

٢- **عبادات عملية:** وتشمل أركان الإسلام، كالشهادة وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت والجهاد، وسائر النوافل والتطوعات التي هي من جنس العبادات التي فرضها الإسلام، كما تشمل العبادات أيضاً: ذكر الله باللسان، كالتكبير والتسبيح والتهليل والحمد وقراءة القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسائر ما يقوم به المسلم من أقوال وأفعال، طاعة لله ورسوله، فكلها يجمعها معنى العبادات العملية، لذلك أطلق عليها السيد محمد الصدر مصطلح: (العبادات بالمعنى الأعم)، وأطلق على أركان الإسلام الخمسة: مصطلح: (العبادات بالمعنى الأخص)[1].

وهذه العبادات العملية على ثلاثة أنواع هي[2]:

١- **عبادات بدنية خالصة:** كالصلاة والصيام، فالصلاة عبادة بدنية، تجب على المكلّف في اليوم والليلة خمس مرات، وقد سميت الصلاة بالعبادة البدنية، لأن المسلم يمارسها ويقوم بوظائفها ببدنه قياماً، وقعوداً، ركوعاً وسجوداً، وكذلك الصيام، لأنه يمارس هذه العبادة ببدنه ومشاعره وأحاسيسه.

٢- **عبادات مالية:** كالزكاة مثلاً، فالله تعالى فرض على كل مسلم في ماله حقاً معلوماً يخرجه من أصناف مخصوصة، إذا بلغ المال قدراً معلوماً، ومنه أيضاً الخمس وصدقة التطوع...

٣- **عبادات مركبة:** ويقصد بها عبادات مركبة من النوعين السابقين، فهي عبادة بدنية ومالية في الوقت نفسه، ومن أمثلتها: الحج فإنها عبادة تحتاج إلى المال من جهة ويمارسها المسلم ببدنه من جهة أخرى، وذلك بالقيام بمناسك الحج وشعائره، لذلك فرضها الإسلام مع الاستطاعة، ومنه أيضاً الجهاد، فهو عبادة شرعت في النفس والمال لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ (الحجرات: ١٥).

وهكذا تكون العبادات منظمة لعلاقة الفرد بربه، بطاعته والخضوع له، والإقرار بربوبيته، وانطلاقاً من هذه الأهمية العظمى فسوف تركز هذه الدراسة على مفهوم العبادة في الإسلام بصورة وافية، تتلاءم والمراد منها، وسيكون نهج البلاغة، الميدان الرئيس لها، بوصفه مصدراً مهماً من مصادر التشريع الإسلامي.

---

(١) ينظر: فقه الأخلاق: ١/ ٢٤ ـ ٢٥.

(٢) ينظر: كنز العرفان: ١/ ١٦٥، النظم الإسلامية: ٥٧ ـ ٥٨.

العبادة لغة واصطلاحاً:

أصل العبادة لغة: الخضوع والتذلل، والعبد: المملوك ضد الحر، والجمع: عبيدٌ واعْبُدٌ وعِباد وعُبْدان وعِبْدان وعُبُد، ويقال: طريق معبّد: أي مذلّل بالوطء قد أثر الناس فيه، قال طرفة[١]:

تُبـــارِي عتاقـــاً ناجيـــاتٍ وأتْبَعَـــتْ وَظِيفـــاً وَظِيفـــاً فـــوق مَـــوْرٍ مُعَبَّـــدِ

والتعبيد: الاستعباد: وهو اتخاذ الشخص عبداً، وجملٌ معبد: أي مذلل بالقطران أيضاً، ويقال: عبّدت الرجل: إذا أذللته حتى يعمل عمل العبد وهو حر[٢]، و (عَبَدَ بفتح الباء: بمعنى ذلّ وأطاع، وعَبِدَ من الشيء بكسر الباء: أنِفَ، وعَبَدَ: غَضِبَ)[٣]ويقال: (بعير معبد: إذا كان مذللا قد طلي بالهناءَ من الجرب حتى ذهب وبره، وقال طرفة[٤]:

إلى أنْ تَحَـــامَتْنِي العَـــشِيرة كُلُّهَـــا وأُفْـــرِدْتُ إفـــرادَ الـــبعيرِ المُعَبَّـــدِ

معناه: المذلل)[٥] وذكر سيبويه: أن العبد في أصل اللغة صفة كقولهم: (رجلٌ عبدٌ)، ثم استعمل استعمال الأسماء، والجمع: اعْبُد وعبيد وعِباد وعُبُد[٦]، وذكر ابن خالويه أن الصحراء سميت (أمّ عُبيد لأنها تُذِلّ من سلكها)[٧].

إذن أصل العبادة هو الخضوع والتذلل، ومن ذلك (قول العرب: قد عبدتُ اللّهَ أعبده: إذا خضعت له وتذللت وأقررت بربوبيته)[٨]، قال ابن سيده: (وكل خضوع ليس فوقه خضوع فهو عبادة)[٩].

أما العبادة بمعناها الشرعي فهو: (فعل المكلف على خلاف هوى النفس تعظيماً لربه)[١٠]، وعرفها ابن سيده على أنها كل (طاعة لله على جهة الخضوع والتذلل)[١١]، فالعبادة إذن: نوع من الخضوع لا يستحقه إلا المتصف بالربوبية والأُلوهية، وهي بهذا المعنى الذي اتسم بصفة الشرعية، تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، وتتضمن غاية الذل لله تعالى ممزوجاً بغاية المحبة له، فيجب

---

(١) ديوانه: ١١.

(٢) ينظر: الصحاح (عبد)، المفردات: ٥٤٣، الزاهر: ٢٠٤/١، اللسان (عبد).

(٣) المثلث: ٣٠٠/٢.

(٤) ديوانه: ٢٧.

(٥) الزاهر: ٢٠٤/١.

(٦) ينظر: اللسان (عبد).

(٧) ينظر: كتاب إعراب ثلاثين سورة: ٣٧ ـ ٣٨.

(٨) الزاهر: ٢٠٤/١، وينظر: كنز العرفان: ١٨٣/١.

(٩) المخصص: ٩٦/٤.

(١٠) التعريفات: ٩٠.

(١١) المخصص: ٩٦/٤.

لتحصيل العبادة بمعناها الدقيق أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء، وان يكون الله أعظم عنده من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والخضوع التام إلا الله[١].

والعبادة بهذا المفهوم إنما تقودنا إلى أمر في غاية الأهمية ألا وهو الطاعة التامة، والانقياد الكامل للباري (ﷻ)، على أساس أنها (غاية التذلل ولا يستحقها إلا من له غاية الأفضال وهو الله تعالى)[٢]. ومن أجل ترسيخ هذه الغاية المقدسة في نفوس البشر، فقد تقصّد الباري (ﷻ) أن يُصدّرها في أعظم سورة في القرآن الكريم بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥) مريداً بذلك تذكيرهم بمعنى العبودية والاستكانة له، فالمتأمل بهذه الآية يجد أن (معنى نعبد: نخضع ونذل ونعترف بربوبيتك)[٣]، فهي إذن إظهار التذلل والاستسلام والانقياد للرب والامتثال لأوامره تعالى، وقد ذهب الغزالي إلى أن العبادة ترتبط ارتباطا وثيقاً بما يفعله الإنسان في واقعه الذي يعيش فيه من خلال تصرفاته، ورؤيته للتكاليف الشرعية: إذ يقول: (الطاعة والعبادة: متابعة الشارع في الأوامر والنواهي، بالفعل والقول، وكل ما نقول ونفعل ونترك يكون باقتداء الشرع)[٤]، فالشرع إذن هو الذي يرسم ملامح العبادة، وذهب السيد السبزواري إلى أن العبادة هي الطاعة والخضوع وهي عنده تشمل: العبودية التسخيرية والعبودية الاختيارية[٥]، ولعله أراد بالعبودية التسخيرية: عبودية الإنسان لله تعالى، عن طريق الجبر، فهو مخلوق لله تعالى يتصرف به أنى شاء، وهذا أمر واقع، فالناس كلهم عبيد الله، أما المراد بالعبودية الاختيارية فلعله يقصد الجانب التعبدي للإنسان، أي: اختيار طريقة فعلية للاتصال بالله تعالى والانقياد له من خلال عبادته عبادة حقّة، تؤكد شكر المخلوق للخالق، وتؤكد مبدأ العبودية التامة له وعدم الجحود الذي يغرزه الشيطان في نفوس البشر، وهذه عبودية يتحكم بها الإنسان فبإرادته هو يختار الجانب الإلهي أو الجانب الشيطاني ومن هنا جاءت هذه التسمية.

فالأمر بالعبادة إذن هو (تذليل النفس الأمارة بالسوء واللوامة ليطيعا النفس المطمئنة، فيحصل الترقي إلى الكمال، ورضى ذي الجلال)[٦].

وبذلك أضحت (العبادة) مصطلحاً جديداً استعمله القرآن الكريم والسنة النبوية المباركة بأسلوب جديد وبمعنى جديد، أضفى عليه ملامح الإقرار والاعتراف بالربوبية لله الواحد، بعد أن سَلِب منها معنى عبودية الإنسان لأخيه الإنسان الآخر.

---

(١) ينظر: المصطلحات الأربعة في القران: ١٠١.

(٢) المفردات: ٥٤٢.

(٣) الزاهر: ١/٢٠٥.

(٤) أيها الولد: ٦٨.

(٥) ينظر: مواهب الرحمن في تفسير القران: ١/٣٤.

(٦) كنز العرفان: ١/١٨٣.

ونظراً لأهمية العبادة نرى أن القرآن الكريم استعمل مادة (عبد) في مواضع كثيرة، وبدلالات متنوعة، تفوق الاستعمال المعجمي لها. فالقرآن مثلاً يفرق بين صيغتي (عباد) و (عبيد) باستعمال غير مألوف، فاستعمل الأول بمعنى العباد الصالحين قال تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ (الزخرف: ٦٨)، وقال: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٦)، واستعمل الآخر بمعنى من يعصون الله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (الأنفال: ٥٠ ـ ٥١)، وقوله: ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (ق: ٢٨ ـ ٢٩). وغيرها من الآيات[1]. يزاد على ذلك أن لفظة (عبد) في القرآن الكريم قد تغيرت دلالتها من معنى الذل الذي يصيب الإنسان، إلى معنى العز والشرف والكمال الذي يصيبه، فقد حمل مصطلح (العبد) في الإسلام معنى راقياً يتمثل بالإنسان المؤمن الذي يتسم بكل صفات الخير والأخلاق كقوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ (الإسراء: ١).

هذا وقد فرق الراغب الأصفهاني بين لفظتي (العابد) و (العبد) على أساس أن العبد أبلغ من العابد، لأن العبد عام، إذ يطلق على جميع الخلق سواء بالتسخير أو بالاختيار، ولما كان العابد أخص من العبد من حيث إنه يطلق على من يتجرد لعبادة الله، فانه على هذا يصح أن يقال: ليس كل إنسان عبداً لله[2].

فالعبد إذن مصطلح عام يطلق على بني البشر كافة، فهم عبيد الله، العابد منهم وغير عابد، أما العابد فهو مصطلح خاص، اتصف به الإنسان المنقاد لله تعالى المتبع لتعاليمه السمحة.

ومن الاستعمالات القرآنية لهذه المادة، إنها تأتي دالة على الناس عامة، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ (سبأ: ٣٩) وهم بطبيعة الحال البشر، وتأتي كذلك دالة على جنس خاص من الناس وهم المؤمنون بالله تعالى، كقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (الحجر: ٣٩ ـ ٤٠).

والملاحظ في استعمالات القرآن لهذه المادة، إن الله تعالى كان دقيقاً جداً في ذلك ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ الاستعمال الذي لم يأت بصورة واحدة، وإنما جاء بصور متعددة رائعة، الغاية منها إظهار عظمة القرآن الكريم وإعجازه في تناول مفردات اللغة وكيفية صياغتها صياغة جديدة، تختلف عن الاستعمال المعجمي لها وصياغتها في كلام العرب وأشعارهم، وذلك أن دلَّ على شيء فإنما

(١) ينظر: الألفاظ الإسلامية وتطور دلالتها: ١٦١.
(٢) ينظر: المفردات: ٥٤٣.

يدل على قصدية القرآن في إثبات مصطلح جديد، يحمل معنى جديداً، يكون قاعدة رئيسة للدين الإسلامي، من خلال تشريع العبادات في الإسلام، وجعل معنى العبادة المدخل الأول لمعرفة أصول ذلك النظام الراقي وقوانينه، الذي تميز به الإسلام عن باقي الأديان الأخرى.

فالعبادة إذن هي الخضوع والتذلل التام لله تعالى، وهي بذلك تتخذ معنى عاما لمجموعة التكاليف التي أمر بها الإنسان كي ترسم له الطريق الصحيح لحياته الدنيا والآخرة أيضاً، وان التطبيق الفعلي لهذه التكاليف الشرعية يمثل معنى خاصاً يرتبط بالمعنى العام الذي تمثله العبادة، والذي يمكن أن نطلق عليه مصطلح (التعبد)، وفي ضوء ذلك يكون (التعبد) هو التنفيذ الفعلي للعبادة، أو هو ترسيخ لمفهوم العبادة في ذهن الناس عامة، فضلاً عن العمل بمقتضياتها، وهذا ما فعله الرسول الكريم (ص)، إذ إنه بيّن الكثير من معالم العبادة التي ذكرت في القرآن الكريم بصورة إجمالية من دون تفصيل في آيات كثيرة، الأمر الذي تولاه رسولنا الكريم (ص) بالإيضاح والتفسير والتشريع، فكانت سنته الشريفة ترجماناً عظيماً لمفهوم العبادة من خلال تسخيره كل المعطيات والمواقف في سبيل غرس مبدأ التعبد الذي سار عليه بنو البشر منذ عصره (ص) وحتى قيام الساعة، لذلك نلاحظ أن استعمالات الرسول (ص) لهذه المادة (عبد) لم تختلف كثيراً عن استعمالات القرآن لها، وإنما جاءت بمنظور واحد وبمعنى واحد، لأن الغاية واحدة، ألا وهي الخضوع لله تعالى وطاعته طاعة حقيقية، ومن هنا ورد عن النبي (ص) في أهمية العبادة قوله: (اعبد الله كأنك تراه فإن كنت لا تراه فإنه يراك)[١]، وقوله كذلك: (حقُّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً)[٢]، وعن الإمام الصادق (ع) أن الرسول (ص) قال: (العبادة سبعون جزءاً، وأفضلها جزءاً طلب الحلال)[٣] وأحاديثه (ص) في العبادة وفضلها كثيرة.

مرادفات العبادات:

وجدَت في القرآن الكريم والحديث النبوي ألفاظ يُظن أن لها معنى العبادة العام، ولذلك نجد أن العلماء وقفوا عندها بالشرح والتحليل، واختلفوا في ذلك، فمنهم من ذهب إلى القول بترادفها، استناداً إلى وجود ظاهرة الترادف في اللغة العربية، ومنهم من أنكرها على أساس بطلان الترادف في اللغة العربية عامة، والقرآن الكريم والحديث النبوي خاصة، انطلاقاً من مبدأ أن لكل كلمة معناها الخاص بها والذي حمل في طياته ملامح دلالية، تقصدها القرآن والحديث النبوي. وسنقف عند أهم الألفاظ التي قيل بترادفها مع لفظ العبادة:

---

(١) بحار الأنوار: ٨٣/٢٩٠.

(٢) صحيح مسلم ١/٥٨.

(٣) معاني الأخبار: ٣٦٧.

١ ـ الطاعة:

أصل الطاعة في اللغة: الانقياد، يقال: أطاعَ يُطيعُ إطاعةً: إذا انقاد للشيء، وفلان طوع يَدِك أي منقادٌ إليك[١]، والطَوْع: الانقياد وضده الكُره، والتطوع في الأصل: تكلف الطاعة وهو في التعارف التبرع بما لا يلزم كالتنفل[٢]. وعُرف التطوع في الشرع بأنه (اسم لما يشرع زيادة على الفرض والواجبات)[٣].

والشيء اللافت للنظر أن العلماء انقسموا على قسمين في حقيقة ترادف هذه اللفظة مع لفظة العبادة:

الأول: ذهب إلى القول بوجود فرق كبير من حيث المعنى بين الطاعة والعبادة وفي مقدمتهم أبو هلال العسكري، إذ إنه فرّق في كتابه (الفروق اللغوية) بين العبادة والطاعة قائلاً: (إن العبادة غاية الخضوع ولا تستحق إلا بغاية الإنعام، ولذا لا يجوز أن يعبد غير الله تعالى، ولا تكون العبادة إلا مع المعرفة بالمعبود، والطاعة: الفعل الواقع على حسب ما آراده المريد متى كان المريد أعلى رتبة ممن يفعل ذلك، وتكون للخالق والمخلوق، والعبادة لا تكون إلا للخالق، والطاعة في مجاز اللغة تكون إتباع المدعو للداعي إلى ما دعاه إليه وان لم يقصد التبع، كالإنسان يكون مطيعاً للشيطان وان لم يقصد أن يطيعه ولكنه اتبع دعاءه وإرادته)[٤] وجاء في كشاف اصطلاحات الفنون نص في الفرق بينهما مفاده: (والطاعة اعم من العبادة، لان العبادة غلب استعمالها في تعظيم الله تعالى غاية التعظيم، والطاعة تستعمل موافقة أمر الله وأمر غيره، والعبودية إظهار التذلل والعبادة ابلغ منها لأنها غاية التذلل، والطاعة فعل المأمور ولو ندباً وترك المنهيات ولو كراهة، فقضاء الدين والإنفاق على الزوجة ونحو ذلك طاعة الله وليس بعبادة، وتجوز الطاعة لغير الله من غير المعصية ولا تجوز العبادة لغير الله تعالى)[٥] وأحسب أن هذا الكلام لا يختلف كثيراً في مضمونه عن كلام أبي هلال العسكري في الفرق بين الطاعة والعبادة.

الثاني: ذهب إلى القول بترادفهما على أساس أن لهما معنى واحداً وفي مقدمة هؤلاء الغزالي، إذ انه لا يفرق بينهما ويجعلهما نوعاً واحداً، إذ يقول: (الطاعة والعبادة: متابعة الشارع في الأوامر والنواهي بالفعل والقول، وكل ما نقول ونفعل ونترك يكون باقتداء الشرع)[٦].

---

(١) ينظر: الجمهرة: ٣/١٠٧.

(٢) ينظر: المفردات: ٥٢٩ ـ ٥٣٠.

(٣) التعريفات: ٣٩.

(٤) الفروق اللغوية: ١٨٢.

(٥) كشاف اصطلاحات الفنون: ٢/٩١٤ ـ ٩١٥.

(٦) أيها الولد: ٦٨.

وممن ذهب إلى هذا الرأي السيد السبزواري من خلال تعريفه العبادة إذ يقول: (العبادة: الطاعة والخضوع)[١]. كذلك نلمح من كلام السيد محمد الصدر بعدم التفريق بين العبادة والطاعة، بل هما شيء واحد إذ يقول: (فالطاعات الظاهرية: هي إطاعة الأوامر والمرجحات الشرعية الظاهرية، كالصلاة والصوم والصدقة وغيرها كثير، والمعاصي الظاهرية هي معصيات تلك الأوامر والنواهي كشرب الخمر والكذب والغيبة والزنا)[٢] ويقول كذلك: (والطاعات الداخلية أو الباطنية هي ما يخص العمل النفسي أو القلبي للإنسان وليس له أثر مباشر على الجسد كالإخلاص والصبر والتوكل والتوحيد، والمعاصي الداخلية ما يقابل ذلك كالحسد والجشع والرغبة في الحرام والشرك وغير ذلك)[٣]. ونلمح حقيقة عدم التفريق بينهما كذلك في قوله: (... ومن ذلك عبادة الطواغيت والظالمين والشياطين بمعنى طاعتهم في عصيان الله (ﷻ)، أو قل تفضيل طاعتهم على طاعة الله سبحانه... وكذلك عبادة الشيطان أي طاعته، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ (يس: ٦٠).

ولا شك أن فحوى كلام السيد محمد الصدر يقودنا إلى القول بتبنيه فكرة اتحادهما - أي العبادة والطاعة - من حيث المعنى، فالعبادات الشرعية مثل الصلاة والصيام والصدقات، أطلق عليها السيد الصدر: الطاعات الشرعية الظاهرية، والعبادات الشرعية الباطنية مثل الإخلاص والتوكل والتسليم أطلق عليها الطاعات الداخلية، فلا فرق إذن بين المصطلحين، والملاحظ أن السيد الصدر لم يكتف بذلك، بل انه فسّر العبادة الواردة في الآيات السالفة الذكر على أنها طاعة على نحو ما وجدنا في تفسيره قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾(يس: ٦٠)، فقد فسر العبادة بطاعة الشيطان، وهذا يدل على انه لا يفرق بين العبادة والطاعة، بل هما يحملان مدلولاً واحداً قائماً على أساس الخضوع والانقياد لله تعالى.

ويبدو لي أن هناك فرقاً بين المصطلحين على أساس أن لكل لفظة - في القرآن الكريم والحديث النبوي، وكذلك الدراسات الأصولية والفقهية - معنى خاصاً بها لا يناظره معنى آخر، فالعبادة مفهوم عام وقاعدة عظيمة وضعها الخالق للناس كافة، وإن ممارسة الإنسان لهذه العبادة وجعله خاضعاً لله تعالى منقاداً له في كل ما شرّعه، وهو الذي يمكن أن نسميه طاعة، فلا يمكن أن تكون العبادة عبادة إلا بطاعة الله تعالى حق طاعته وإتباع أوامره واجتناب نواهيه، إذن فالعبادة مصطلح عام والطاعة جزء مهم من العبادة، لا بل هي لبّ عبادة الله تعالى.

وفي ضوء ذلك لا يمكن أن نطلق على العبادات الشرعية الظاهرية أو الباطنية اسم الطاعات، لأنها سوف تحمل معنى جزئياً غير مرتبط بالمعنى الكلي الذي يحققه معنى

---

(١) مواهب الرحمن في تفسير القران: ١/ ٣٤.

(٢) فقه الأخلاق: ١/ ٢٩.

(٣) نفسه: ١/ ٢٩.

العبادة، ذلك لان غاية العبادة إظهار الإنسان بمظهر التكامل الإنساني البعيد عن معنى الجزئية المرتبط بملامح النقص والعيب، ولذلك فان جعل الصلاة والصيام عبادات شرعية يكسبها مبدأ التكامل والشمولية الذي يهدف إليه الإسلام، ومن ذلك كله فالملاحظ أن استعمال القرآن الكريم والحديث الشريف لمصطلح الطاعة كان بغاية الدقة والروعة. إذ إنه أكسبها دلالة جديدة وإن كانت مرتكزة على معناها اللغوي، وتمثلت هذه الدلالة بالانقياد لأوامر الله تعالى.

٢ ـ النُسُك:

المَنْسَك والمَنْسِك عند العرب: الموضع المعتاد الذي تعتاده، والمَنْسِك: الموقع الذي تذبح فيه النسيكة والنسائِك: أي الذبيحة، ونَسَكَ يَنْسِك نسْكاً إذا ذبح، وقولهم: نَسَك وتنسّك: إذا عبد وصار ناسكاً والجمع: نُسّاك[١]، قال الخليل: (النُسُك: العبادة، يقال: نَسَك ينْسُكُ نُسْكاً فهو ناسك)[٢]، وقولهم نسكَ الثوب: غسله بالماء وطَهّره[٣].

هذه هي أهم المعاني اللغوية التي جاءت لهذه المادة، ومن خلالها نظر العلماء إلى هذه اللفظة على أساس مرادفتها للفظة العبادة، لان المتأمل في معاني اللفظة، يجد أن فحواها يصب في معنى العبادة العامة، وان كانت عبادة غير شرعية، لأنها ليست بنية القربة لله تعالى، وإنما هي بنية القربة للأصنام، ومع ذلك فقد جعلها العلماء لفظة تدل على العبادة لان القرآن الكريم قد استعملها بهذا المفهوم في بعض الآيات، فكانت بذلك دالة على العبادة الشرعية الحقة بعد أن لم تكن كذلك.

والمتتبع لآيات القرآن الكريم، يجد أنها استعملت هذه المادة بصور متنوعة، غير مكتفية بصورة واحدة، فذكر القرآن لفظة (نُسُك) وأراد بها الذبح في قوله تعالى: ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ (البقرة: ١٩٦)، بمعنى ذبح شاةٍ[٤]، كما أنه استعمل اللفظة نفسها بمعنى العبادة في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الإنعام: ١٦٢)، وقد ذكر الزمخشري أن المعنى في هذه الآية: (عبادتي وتقربي كله، وقيل: وذبحي، وقيل: صلاتي وحجي من مناسك الحج)[٥]، وكلام الزمخشري يبين لنا اختلاف العلماء في تفسير هذه اللفظة، فمن ذهب إلى القول بأن المراد: الذبيحة في الحج، إنما أراد الملائمة مع قول الله تعالى، ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ (الكوثر: ٢)، ذلك أنه جمع بين

---

(١) ينظر: اللسان: (نسك).

(٢) العين: ٣١٤/٥ (نسك)، ينظر: الصحاح (نسك).

(٣) ينظر: الدراسات الفقهية: ٥٦٠.

(٤) ينظر: تفسير الجلالين: ٣٨، والدراسات الفقهية: ٥٦٠.

(٥) الكشاف: ٦٤/٢، وينظر: التبيان: ٢٣٥/٤، وكنز العرفان: ٢٢٧/١.

الصلاة والذبح، إذن فهو في هذا المقام قد جمع أيضاً بين الصلاة والنحر، ومن ذهب إلى القول بان المراد بالنُسُك هنا هو الحج، إنما أراد الجمع بين معنيي الصلاة والحج معاً، لتحقيق مبدأ الشمولية في العبادة أولاً، وثانياً ليجتمع ركنان مهمان من أركان الإسلام في خطاب الله تعالى آلا وهو الصلاة والحج، وفي ذلك يقول الطوسي: (وإنما ضم الصلاة إلى أصل واجبات الحج، لأن فيها التعظيم لله تعالى عند التكبير)[١]، فالصلاة تفتح بالتكبير وأساسها التكبير، وكذلك الحج فان التكبير يعد لبّه وأساسه. ويبدو لي أن هذا القول أرجح من القول بان معنى النسك: العبادة العامة، وذلك نظراً لوجود أمرين:

الأول: أن وجود العطف بين الصلاة والنُسُك يدل على إنهما أمران متغايران.

الثاني: أن الصلاة جزء من العبادة، فلا يمكن لله تعالى أن يعطف المعنى الجزئي للعبادة على معناها الكلي، فالعبادة عامة والصلاة خاصة، والعطف بينهما سيكون من باب الاعتباط، وحاشا لله أن يكون كلامه اعتباطاً، وفي ضوء ذلك فإن تفسير لفظة النُسُك بمعنى الحج يكون ملائماً للسياق القرآني في هذه الآية.

كذلك استعمل القرآن لفظة (مَنْسَك) بمعناها العبادي في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾(الحج: ٦٧)، فالمَنْسَك هنا يراد به جميع العبادات التي أمر بها الله[٢] وبعضهم ذهب إلى أن المراد: العبد أو هي بمعنى متعبداً في إراقة الدم بمنى وغيرها[٣].

ومقام الآية يدلنا إلى اختيار القول الأول الدال على المعنى العبادي الخاص بالأحكام الشرعية من دون غيره من الآراء، لأن الله تعالى لا يمكن أن يجعل الأمم تتيه في ظلمات الكفر والإلحاد، بل انه نوّرها بنور الهداية والإيمان برسله الذين حملوا رسالة الإخلاص الأبدي من عالم الظلمات إلى عالم النور، عالم مليء بالإيمان والعمل الصالح، عالم قائم على عبادة الله والاعتراف بربوبيته، ومن أجل ذلك فقد جعل الله لكل امة طريقة خاصة في العبادات، من خلال الأديان السماوية، متمثلة بكتبها وصحفها التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه، فكانت ترسم لهم طريق الفوز بالجنة الأخروية.

كل هذه الآيات جعلت الكثير من العلماء والمفسرين يعتقدون بترادف لفظة النسك مع لفظة العبادة، لأنهما يحملان معنى واحداً - وإن كان مختلفاً من حيث المفهوم الجاهلي لها والمفهوم الإسلامي - من خلال جعل النسك العبادة الخالصة لله تعالى، في حين كان النسك عبادة غير خالصة لله تعالى، وإنما كانت للأصنام، (لأن القرابين والذبائح لها دلالات دينية قديمة، حيث كانت تقدم للآلهة)[٤]، ولكن الملاحظ أن هذه اللفظة وإن كان معناها يدل

---

(١) التبيان: ٤/٣٣٥.

(٢) ينظر: التبيان: ٧/٢٩٩، والدراسات الفقهية: ٥٥٩.

(٣) ينظر: المصدران نفسهما.

(٤) الألفاظ الإسلامية وتطور دلالتها: ٢٤.

على العبادة، إلا إنها ارتبطت بشكل خاص بفريضة الحج أكثر من غيره من الفرائض، وأصبحت مناسك الحج معروفة بتعاليمها وطقوسها والمراد بها عبادات الحج حصراً[١]، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ (البقرة: ٢٠٠)، وهذا ما يؤكده احد الباحثين المعاصرين إذ يقول: (فالنسك في الأصل: العبادة مطلقاً، وكل حق لله تعالى يتقرب به من صلاة وغيرها، ثم صار علماً بالغلبة على الحج والعمرة، أو على كل عمل من أعمالها)[٢].

ويبدو لي أن القول بترادف هاتين اللفظتين أمر يدعو للتأمل والنظر، انطلاقاً من القاعدة التي ذكرتها سابقاً من أن العبادة معنى عام، وتتمثل بجميع الأحكام الصادرة من لدن الله تعالى، وإن الأخذ بهذه الأحكام ومحاولة تطبيقها على واقع الحال، يعد أمراً متمماً لمعنى العبادة العام، ومن ذلك لفظة النسك، فكل معانيها اللغوية والقرآنية، تركز على ارتباطها بشعائر الحج وطقوسه الربانية، والدليل على ذلك أن الرسول (ص) استعمل المعنى نفسه لهذه اللفظة، إذ يقول: (خذوا عني مناسككم)[٣] ويريد: شعائر الحج، فهذه إذن تحقق جانباً مهماً أو ركناً مهماً من أركان العبادة، فإذا كانت هذه اللفظة جزءاً من معنى عام، فلا يمكن إطلاقها على معنى كلي بصورة مطلقة، فالجزء ما هذا إلا مفردة واحدة من مفردات الكل، اللهم إلا إذا كان من باب المجاز، وهو غير موجود في هذا السياق لعدم وجود قرينة تدل عليه.

إذن هناك معنى العبادة الكل، ومعنى النُسك الجزء، فكل نسك عبادة، وليس كل عبادة نسكاً بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الإنعام: ١٦٢)، فالصلاة عبادة، والنسك عبادة أيضاً لكن وجود العطف في هذه الآية دلّ على أن الصلاة تختلف عن النسك الذي فُسّر هنا بمعنى الحج[٤]، ومع ذلك فكلاهما يعدّ عبادة، ومتمم لأركان الإسلام التي بينّها الرسول (ص) بقوله: (بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت)[٥].

العبادة في نهج البلاغة:

يقول الشهيد المطهّري في مقاربته لحقيقة العبادة في نهج البلاغة: (إنّ صورة العبادة في نهج البلاغة من نوع عبادة العارفين بالله تعالى، بل نقول: إنّ منبع الإلهام لتصوّر العارفين بالله من العبادة في الإسلام - بعد القرآن الكريم وسنّة رسول الله (ص) - هو كلام الإمام (ع)...)[٦].

---

(١) ينظر: المفردات: ٨٠٢، وتفسير الجلالين: ٢٠٠.
(٢) الدراسات الفقهية: ٥٦٠.
(٣) سنن البيهقي الكبرى: ١٢٥/٣.
(٤) ينظر: كنز العرفان: ٢٢٧/١.
(٥) صحيح البخاري: ١٢/١.
(٦) في رحاب نهج البلاغة: ص٦٥.

فالإمام علي (ع) إمام العارفين والسالكين الذي تذوّق طعم العبادة وحلاوتها، ومارسها بأبهى صورها، وكان مثالاً يُحتذى به في عبادته لربّه. عدّ في النصوص الواردة عنه حول العبادة أنّها عالمٌ آخر مليء باللذات الروحيّة، وأنّ العبادة الحقّة هي نوع من الانتقال من هذا العالم المادي إلى عالَم آخر مليء بالحركة والنشاط والخواطر القلبية واللذات الروحية[١]. وقد جاء في نهج البلاغة صورٌ كثيرة عن أهل العبادة. عن سهر لياليهم، وعن خوفهم وخشيتهم، وعن شوقهم ولذتهم. وعن حرقتهم والتهابهم، وعن أنّاتهم وآهاتهم، وعن زفراتهم وحسراتهم، كما جاء في النهج شرح نتائج العبادة، ومنها تلك العنايات الإلهية الغيبية التي يحصلون عليها بالمراقبة وجهاد النفس، وتلك الآثار الحميدة في طرد الذنوب وأدرانها، وفي علاج الأمراض النفسية والخُلقية[٢].

يقول (ع): (فاتقوا الله عباد الله، تقيّة ذي لُبٍّ، شَغَل التفكُّرُ قلبَهُ، وأنصَبَ الخوفُ بدَنَهُ، وأسهَرَ التهجُّدُ غرار نومه، وأظمأ الرجاءُ هوَاجرَ يومِهِ، وَظَلَفَ الزهدُ شهواته، وأوجَفَ الذِّكْرُ بلسانه، وقَدَّم الخَوْفَ لأمانه)[٣].

وصف عبادة الإمام (ع):

لقد كانت العبادة بالنسبة للإمام عليّ (ع) المنطلق الأساس لكلّ ما قام به وجاهد من أجله، ففي الوقت الذي كان فيه أول المسلمين والمجاهدين، نراه ذائباً من العبادة، كما وصفه أحد أصحابه واسمه ضرار بن ضمرة الضبابي عند دخوله على معاوية ومسألته له عن أمير المؤمنين، قال: (فاشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله، وهو قائم في محرابه قابض على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين ويقول: يا دنيا يا دنيا إليك عنّي، أبي تعرضت، أم إليّ تشوّقت: لا حان حينك هيهات غرّي غيري، لا حاجة لي فيك قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعيشك قصير، وخطرك يسير، وأملك حقير، آه من قلة الزاد، وطول الطريق، وبعد السفر، وعظيم المورد)[٤].

يقول ابن أبي الحديد في وصف عبادة الإمام علي (ع): (وأمّا العبادة فكان أعبد الناس وأكثرهم صلاة وصوماً ومنه تعلم الناس صلاة الليل وملازمة الأوراد، وقيام النافلة. وما ظنّكَ برجلٍ يبلغ في محافظته على وِردِه أنْ يُبسَط له نطعٌ بين الصفّين ليلة الهرير؟ وما ظنك برجلٍ كانت جبهته كثفنة البعير لطول سجوده؟ وأنت إذا تأملت دعواته ومناجاته، ووقفت على ما فيها من تعظيم لله سبحانه وإجلاله وما يتضمنه من الخضوع لهيبته والخشوع لعزّته، عرفت ما ينطوي عليه من الإخلاص، وفهمت من أي قلب خرجت، وعلى أي لسانٍ جرت...)[٥].

---

(١) ينظر: دراسات في نهج البلاغة: ١٢٣.

(٢) ينظر: دراسات في نهج البلاغة: ١٢٤.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ٨١.

(٤) نهج البلاغة، ج٤، ص١٦ - ١٧.

(٥) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٢٧/١.

وقد أخرج الإمام علي (ع) مفهوم العبادة من الإطار الضيّق ليشمل كثيراً من جوانب الحياة وتصرّفات الإنسان، ومن ذلك ما ورد عنه (ع): (من قضى حق من لا يُقضى حقّه فقد عَبَدَهُ)[١].

و (من لم يختلف سرّه وعلانيته وفعله ومقالته فقد أدى الأمانة وأخلص العبادة)[٢].

وفي نصوص كثيرة نجد أنه (ع) يُشير إلى أنّ نعمَ العبادة التفكّر في آلاء يقول (ع): (التفكّر في آلاء الله نعمَ العبادة)[٣]. وكذلك التفكّر في صُنع الله تعالى، وأنّ من العبادة لين الكلام وإفشاء السلام.. إلى غير ذلك من النصوص الواردة في نهج البلاغة التي توسع معنى العبادة ولا تحصرها في تلك العبارات، بل في كل فعلٍ أخلاقيّ، وكل عملٍ صالح، وكلّ قولٍ فيه رضى لله تعالى[٤].

آثار العبادة في نهج البلاغة:

أولاً ـ نور القلب وصفاؤه:

إنّ واحدةً من أبرز آثار العبادة وأهمها هي تلك النوارنية التي تحصل للقلب والصفاء والخضوع والتذلل الذي يعيشه المتعبد تجاه الله تعالى. ويُبصر عبره بقلبه فضلاً عن بصره[٥]. وعن التأثير الخاص للعبادة على القلب يقول (ع): (إنّ الله تعالى جعل الذكر جلاءً للقلوب، تسمعُ به بعد الوَقْرَة وتُبصرُ به بعد العَشوَةِ وتنقادُ به المُعاندة، وما برِحَ لله. عزّت آلاؤه. في البُرهة بعد البرهة وفي أزمان الفترات عباد ناجاهم في فكرهم وكلمهم في ذات عقولهم فاستصبحوا بنور يقظة في الأبصار والأسماع والأفئدة)[٦]. يقول الشهيد المطهري تعليقاً على هذا النص العلوي:

(وقد بين الإمام (ع) في هذا الكلام الأثر الغريب لذكر الله في القلوب، حتى إنّها قد تستعد بذلك لتلقي الإلهام من الله سبحانه والكلام معه)[٧].

وأيضاً فإنّ للعبادة أثراً في الترقي بالإنسان نحو الكمال، والانتقال إلى حالات ومقامات معنوية خاصة كما يقول (ع).

(قد حفّت بهم الملائكة وتنزلت عليهم السكينة، وفتحت لهم أبواب السماء، وأعدّت لهم مقاعدُ الكرامات، في مقام أطلع الله عليهم فيه فَرَضِيَ سعيهم، وحَمِدَ مقامَهُم، يَتَنَسّمون بدُعائهِ روح التجاوز)[٨].

---

(١) نهج البلاغة، الحكمة: ١٦٤.
(٢) المصدر نفسه، الكتاب: ٢٦.
(٣) دراسات في نهج البلاغة: ١٢٥.
(٤) ينظر: المصدر نفسه: ١٢٥.
(٥) ينظر: دراسات في نهج البلاغة: ٢٦.
(٦) نهج البلاغة، الخطبة٢٢٢.
(٧) في رحاب نهج البلاغة: ٦٧.
(٨) نهج البلاغة، الخطبة: ٢٢٢.

وإنّ من أهم موجبات جلاء القلب وصفاء النفس وتطهير الروح ذكر الله تعالى، لأنّ المداومة على ذكر الله تجعل العبد يُدرك أنه مُراقَب دائماً من الله يسمعه ويراه[١]. ولهذا يوصي (ع): (أفيضوا في ذكر الله، فإنه أحسن الذكر وارغبوا فيما وعد المتقين...)[٢].

ثانياً - الأنس بالله، واللذة في الحياة:

عالَم العبادة في منظور الإمام علي (ع) وفقاً لنصوصه في نهج البلاغة هو عالَم آخر يختلف عن عالمنا. ودنيا العبادة ليست كالدنيا التي نعيش فيها، وموجبات السعادة فيها وكذلك موجبات الأُنس واللذة فيها ليست هي نفسها في هذا العالم المادي.

فالملذات الدنيوية هي تلك الأمور المادية التي يحصل عليها الإنسان، أما الملذات في دنيا العبادة فهي عبارة عن تحصيل وسائل القرب الإلهي، والسير والسفر إلى الله تعالى، وهو ليس سفراً مادياً كالسفر في الدنيا، بل سفر في عالم روحاني يُضيء للإنسان طريقه إلى الهداية وإلى الصراط المستقيم.

فالعابد في سيره الروحي همّه رضى الله تعالى والفوز به، فإذا ما حصل له ذلك كان في أرقى حالات السعادة في دنياه[٣].

يقول الإمام (ع): (طوبى لنفسٍ أدّت إلى ربّها فَرْضَها، وعَرَكَت بجَنْبها بُؤسَها، وهَجَرَت في الليل غَمْضَها، حَتَى إذا غَلَبَ الكَرى عليها افتَرَشَت أرضَها وتوسَّدت كَفَّها، في مَعْشرٍ أسهَرَ عُيُونَهم خوفُ معَادهم، وتجافت في مضاجعهم جنوبُهُم، وهمهمت بذكر ربهم شفاهُهُم، وتقشَّعَت بطول استغفارهم ذنُوبُهم، أولئك حزب الله ألا إنَ حزب الله هم المفلحون)[٤].

وفي موضع آخر يعدّ الإمام (ع) أنّ الذكر لله تعالى هو العوض لأهله عن كلّ ملذات الدنيا، وذلك للشعور الخاص الذي يكتنفهم من هذه العبادة، يقول (ع): (وإنّ للذكر لأهلاً أخذوه من الدنيا بدلاً)[٥].

ولكي يُحافظ الإنسان على هذه اللذة والأُنس من العبادة لابدَّ من الالتفات إلى ضرورة التوازن بين إقبال النفس عليها وعشقها لها في بعض الأوقات، وعدم رغبتها في العبادة في حالات معينة[٦]، ولذا يقول (ع): (وخادع نفسك في العبادة وأرفُق بها ولا تقهرها

---

(١) ينظر: دراسات في نهج البلاغة: ١٢٧.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ١٠٨.

(٣) ينظر: الدراسات في نهج البلاغة: ١٢٧.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة٤٥.

(٥) نهج البلاغة، الخطبة: ٢٢٢.

(٦) ينظر: دراسات في نهج البلاغة: ١٢٨.

وخُذْ عَفْوها ونشاطَها، إلاّ ما كانَ مكتوباً عليك من الفريضة، فإنّه لابُدَّ من قضائها وتعاهُدها عِند مَحَلّها)[١].

ويقول (ع): (إنّ للقلوب إقبالاً وإدباراً فإذا أقبلت فاحملوها على النوافل وإذا أدبرت فاقتصروا بها على الفرائض)[٢].

ثالثاً ـ غفران الذنوب:

إنَّ للعبادة وذكر الله أثراً في تربية الوجدان الديني للإنسان، فتكثر فيه الرغبة إلى الخيرات والعمل الصالح، وتقلُّ فيه الرغبة إلى الشرّ والفساد والذنوب. بينما نرى أنّ للذنوب أثراً مظلماً على القلب، تقلّ فيه معها رغبة المذنب إلى الخيرات والأعمال الصالحات، وتكثر فيه الرغبة إلى الذنوب. فتكون وظيفة العبادة إزالة الظلمات والكدورات الناتجة عن الذنوب وتبديلها إلى الخير والبرّ والعمل الصالح[٣]، لذلك قال سبحانه عن الصلاة: **(إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ)**[٤].

وعن هذا الأثر العظيم للعبادات فإنّ الإمام (ع) وفي خطبة له في الصلاة وأداء الأمانة، يقول بعد تأكيده الشديد على الصلاة: (وإنّها لتحتُّ الذنوب، وتُطلقُها إطلاقَ الرِّبَقِ، وشبّهها رسول الله (ص) بالحمّة تكون على باب الرجل، فهو يغتسل منها في اليوم والليلة خمس مرات، فما عسى أن يبقى عليه من الدرن؟!..)[٥].

رابعاً ـ التحلي بالأخلاق الفاضلة:

إنَّ للعبادة انعكاساً هامّاً على سلوكيات الإنسان حيث تكون باعثاً ومحركاً للإنسان نحو التسامي والتحلّي بالأخلاق الفاضلة. وما لم يكن هذا الأثر موجوداً لدى العابد فإنّ عبادته تكون خالية من مضمونها الذي أراده الله تعالى.

فالعبادة تدفع بالإنسان نحو العدل والإحسان واحترام الآخرين، وتردعه عن الغيبة والظلم والتكبر وقطع الرحم[٦]..

يقول (ع): (وعن ذلك ما حَرَس الله عبادَهُ المؤمنين بالصلاة والزكوات، ومُجاهدة الصيام في الأيام المفروضات، تسكيناً لأطرافهم، وتخشيعاً لأبصارهم، وتذليلاً لنفوسهم، وتخفيضاً لقلوبهم، وإذهاباً للخُيلاء عنهم. ولما في ذلك من تعفير عِتاق الوجوه

---

(١) نهج البلاغة، الرسالة: ٦٩.

(٢) المصدر نفسه، الحكمة: ٣١٢.

(٣) ينظر: دراسات في نهج البلاغة: ١٢٨.

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

(٥) نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٧.

(٦) ينظر: دراسات في نهج البلاغة: ١٢٩.

بالتراب تواضعاً، والتصاق كرائم الجوارح بالأرض تصاغراً، ولُحُوق البطون بالمُتُون من الصيام تَذلُّلاً..)[١].

أقسام العبادة ومراتبها:

في نظر الإمام علي (ع) أنّ لكل عبادة روحاً ومضموناً وكذلك صورة ظاهرية. وهذا ما يجعل لها أقساماً ومراتب. فالعبادة هي علاقة العبد بربّه. والناس لا يستوون في فهم هذه العلاقة، فمنهم من يأتي بها بروحها ومضمونها، ومنهم من يكتفي بظاهرها وصورتها. لذلك قسَّم الإمام علي (ع) الناس من حيث عبادتهم إلى ثلاثة أنواع[٢]:

١- الذين يعدون العبادة سلعة يطلبون العوّض والثمن والربح، وهذه عبادة التجار.

٢- الذين يقومون بالعبادة منفّذين لأوامر الله، خوفاً ممّا يترتّب على مخالفتها من جزاء وعقاب، وهذه عبادة العبيد.

٣- الذين يعبدون الله لمعرفتهم إياه وتقديرهم لعظمته، وأنّه أهل للعبادة سواء أثاب أم لا، وعاقب على تركها أم لا، وهذه عبادة الأحرار. وهي درجة العارف بالله، الذي يتخذ العبادة معراجاً إلى ذات الله. وفي هذه الدرجة تكون العبادة تربية روحية ورياضة للقوى الإنسانية، وحالة إشراقية لانتصار الروح على البدن، وتعالياً عن المادة، وصعوداً إلى مشارق أنوار الوجود[٣]. وفي بيانه لمراتب العبادة يقول الإمام علي (ع): (إنّ قوماً عبدوا الله رغبةً فتلك عبادة التجار، وإنّ قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد، وإنّ قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار)[٤].

وفي نص آخر بالمضمون نفسه يقول (ع): (إلهي ما عبدتكُ خوفاً من نارك ولا طَمَعاً في جنّتك، ولكنْ وجدتك أهلاً للعبادة فعبدك)[٥].

كانت هذه إطلالة موجزة على عالم العبادة في نهج البلاغة، وما هي إلاّ غيض من فيض أمام ما قدّمه أمير المؤمنين (ع) عن هذا العالم الكبير في نهجه العظيم.

الخاتمة:

في ختام هذه الدراسة لابد من ذكر أهم النتائج العامة التي توصلت إليها هي على النحو الآتي:

١. إنّ نهج البلاغة مصدر هام للكشف عن مفاهيم الإسلام وآرائه في جميع حقول الحياة.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٠.

(٢) ينظر: دراسات من نهج البلاغة: ١٣٠.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١٣٠.

(٤) نهج البلاغة، الحكمة: ٢٢٧.

(٥) بحار الأنوار: ٤١/١٤.

٢. إنّه ثروة أدبية يفيض بالبلاغة والذوق الرفيع.

٣. كان نهج البلاغة خير مصدر لتفسير القرآن بعد النبي (ص).

٤. من يدرس نهج البلاغة فإنّه سيدرس العربية باعتماد على نصّ متين، وهذا ما يجعل الدراسة أرض وأصون.

٥. العبادة في الإسلام هي كل طاعة لله تعالى على جهة التذلل والخضوع، وهذا المفهوم للعبادة يقودنا إلى أمر في غاية الأهمية، ألا وهو الطاعة التامة والانقياد الكامل لله تعالى.

٦. العبادة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بما يفعله الإنسان في واقعه الذي يعيش فيه من خلال تصرفاته ورؤيته للتكاليف الشرعية، فالشرع هو الذي يرسم ملامح العبادة.

٧. العبادة في نهج البلاغة أشمل من العبادة المعهودة، فالتفكر ولين الكلام، وإفشاء السلام، وما شابه ذلك، كلّه يدخل تحت مفهوم العبادة.

٨. من آثار العبادة في نهج البلاغة:

أ- نور القلب وصفاؤه.

ب- الأنس بالله تعالى واللذة في الحياة.

ت- غفران الذنوب.

ث- التحلي بالأخلاق الفاضلة.

ج- أقسام العبادة ومراتبها ثلاثة: عبادة التجار، وعبادة العبيد، وعبادة الأحرار.

والحمد لله ربّ العالمين.

المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم.

٢. أثر النحاة في البحث البلاغي، د. عبد القادر حسين، دار نهضة، مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٥.

٣. أسلوب الشرط في نهج البلاغة دراسة نحوية تطبيقية، يسرى خلف سمير السعيدي، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، ٢٠٠٩م.

٤. الألفاظ الإسلامية وتطور دلالاتها إلى نهاية القرن الثالث الهجري: يعرب مجيد مطشر العبيدي، رسالة ماجستير، مطبوعة على الآلة الكاتبة، مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٣م.

٥. أيها الولد: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، ت ٥٠٥هـ، دراسة وتحقيق: صباح محمد علي كاظم، مطبعة العاني، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.

٦. بحار الأنوار الجامعة لدرر آخبار الأئمة الأطهار: العلامة محمد باقر المجلسي، ت ١١١١هـ، مؤسسة الوفاء، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

٧. التبيان في تفسير القرآن: أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، ت ٤٦٠هـ، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي، دار الهدى للطباعة والتجليد، النجف الأشرف، مكتبة الأمين، لا. ت.

٨. التعريفات: أبو الحسن علي بن محمد بن علي المشهور بالسيد الشريف الجرجاني، ت ٨١٦هـ، مطابع دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، لا. ت.

٩. تفسير الجلالين: جلال الدين المحلي، ت ٨٦٤هـ، وجلال الدين السيوطي، ت٩١١هـ، قدم له وعلق عليه: العلامة محمد كريم بن سعيد راجح، مكتبة النهضة، بغداد، الطبعة الرابعة، ١٩٨٧م.

١٠. التفسير والمفسرون في ثوبه القشيف، الشيخ محمد هادي معرفة، منشورات الجامعة الرضوية للعلوم الإسلامية، ط١، ١٩٩٨م.

١١. التقييد في نهج البلاغة دراسة نحوية، عباس إسماعيل الغرّاوي، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، ٢٠٠٩م.

١٢. تمام نهج البلاغة: تحقيق وتتميم: السيد صادق الموسوي، مؤسسة الأعلمي، لبنان، ١٤٢٦هـ.

١٣. جمهرة اللغة: أبو بكر محمد بن الحسن الازدي، ابن دريد، ت٣٢١هـ، دار صادر، بيروت، لا. ت.

١٤. الدراسات الفقهية على مذهب الإمام الشافعي: خالد بن عبد الله الشقفة، قدّم له: سعيد حوى، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، مصر، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

١٥. دراسات في نهج البلاغة: مركز نون للتأليف والترجمة، نشر: جمعية المعارف الإسلامية، ط١، ٢٠١٠م.

١٦. ديوان طرفة بن العبد البكري مع شرح الأديب يوسف الأعلم الشنتمري، اعتنى بتصحيحه ونقله إلى اللغة الفرنساوية: مكس سلغسون، طبع في مدينة شالون، بمطبعة برطرند، فرنسا، ١٩٠٠م.

١٧. رؤى الحياة في نهج البلاغة، حسن الصفار، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

١٨. الزاهر في معاني كلمات الناس: أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، ت ٣٢٨هـ، تحقيق: الدكتور حاتم صالح الضامن، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

١٩. سنن البيهقي الكبرى والصغرى: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، ت ٤٥٨هـ، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٢٠. شرح نهج البلاغة: محمد عبده، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، مصر، د. ت.

٢١. الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية (الصحاح): اسماعيل بن حماد الجوهري، ت ٣٩٨هـ، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م.

٢٢. صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، ت ٢٥٦هـ، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٢٣. صحيح مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، ت ٢٦١هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٤. صوت الإمام علي في نهج البلاغة، السيد حسن علي القبانجي، مؤسسة إحياء التراث الشيعي، النجف، ط١، ١٤٢٦هـ.

٢٥. العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي، ت ١٧٥هـ، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي، والدكتور إبراهيم السامرائي. منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٨٠م - ١٩٨٥م.

٢٦. الفروق اللغوية: أبو هلال الحسن بن عبدالله العسكري، ت ٣٩٥هـ، نشر مكتبة القدس، القاهرة، ١٣٥٣هـ.

٢٧. فقه الأخلاق: السيد الشهيد محمد الصدر، مراجعة وتصحيح رياض كامل الدباغ الناشر: أنوار الهدى، مطبعة مهر، إيران، الطبعة الثانية، ١٣٨٢هـ. ش.
٢٨. في رحاب نهج البلاغة: مرتضى المطهري، الدراسات الإسلامية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.
٢٩. كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ط١، ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م.
٣٠. كشاف اصطلاحات الفنون: محمد بن علي الفارقي التهانوي، ت بعد ١١١٩هـ، تحقيق الدكتور لطفي عبد البديع، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢م.
٣١. كنز العرفان في فقه القرآن: أبو عبدالله جمال الدين المقداد بن عبدالله التستري ت٨٢٦هـ، بإشراف سماحة آية الله الشيخ واعظ زادة الخراساني، تحقيق السيد محمد القاضي، نشر: المجمع العلمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، مطبعة مؤسسة النشر الإسلامي، إيران، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
٣٢. لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور، ت ٧١١هـ، دار صادر للطباعة، ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لا. ت.
٣٣. المباحث الدلالية في شروح نهج البلاغة المطبوعة دراسة موازنة، ناظم جنان الدليمي، أطروحة دكتوراه، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، ٢٠٠٩م.
٣٤. المثلث: ابن السيد البطليوسي، ت ٥٢١هـ، تحقيق ودراسة، الدكتور صلاح مهدي الفرطوسي، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١.
٣٥. المخصص: ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي، ت ٤٥٨هـ، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.
٣٦. مصادر نهج البلاغة وأسانيده، السيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب، دار الأضواء، بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.
٣٧. المصطلحات الأربعة في القرآن: أبو علي المودودي، تعريب محمد كاظم سباق، دار العلم، الكويت، الطبعة الخامسة، ١٩٧١م.
٣٨. معارج نهج البلاغة: علي بن زيد البيهقي فريد خراسان (ت٥٥٢هـ)، حققه وقدّم له: محمد تقي دافش، إشراف السيد محمود المرعشي، قم، ط١، ١٣٠٩هـ.
٣٩. معاني الأخبار: الشيخ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق، ت ٣٨١هـ، حققه علي أكبر الغفاري، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.
٤٠. مفردات ألفاظ القرآن: الحسين بن محمد، الراغب الأصفهاني (ت٤٢٥هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، منشورات ذوي القربي، مطبعة كيميا، قم، إيران، ١٤٢٥هـ.
٤١. مواهب الرحمن في تفسير القرآن: السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري، مطبعة الديوان، بغداد، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.
٤٢. نهج البلاغة: صبحي الصالح، مطبعة وفا، قم، ١٤٢٩هـ
٤٣. ينابيع المودة: سلمان الحنفي (ت٢٩٤هـ)، تحقيق: سيد علي جمال، دار الأسوة، طهران، ٢٠٠١م.

وحدة الذات بين النبي (ص) والإمام علي (ع)

السيد عباس علي الموسوي (لبنان)

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين

الحديث عن عليٍ (ع) فيه إشباع لتطلّعاتِ الإنسان - كلِ إنسان - فإن كان الإنسان متألّهاً وجد علياً في طليعة المتألّهين بل هو الذي أوجد الطريق ورسمها للسالكين والعارفين وإن كان الإنسان زاهداً وجد علياً إمام الزهد ومن وضع للزاهدين قواعدَ السلامةِ والنجاةِ وإن كان الإنسان عالماً متطلّعاً إلى العلم والمعرفة وجد علياً باب مدينة العلوم النبويّة ومنها يدخل كلُّ طالب علم وإن كان الإنسان يطلب القيادة الرشيدة المؤهّلة لقيادة الأمة كان عليّ قبلته وفيه تتحقق رغبته وهكذا إلى آخر قائمة الفضائل التي يمكن أن يصل إليها الرقُم القياسي في الكمال والسمو حتى جاء عليّ مظهراً من مظاهر كمالِ الله المتجسّد في بشرٍ بحسب قابلية الممكن وقدرته لبلوغ أعلى المراتب الممكنة.

أنّى لكلام بشر أن يطالَ شموخَ تلك الشخصية أو يدركَ عظمتَها أو يلمَّ بشأنها أو يبلغَ شأوها؟! كيف ومئات الكتبُ قد وضِعَت في هذا الرجل من مسلمين ونصارى وممّن لا دين لهم حيث رأى الجميع فيه الشخصية الإنسانية التي انتهى إليه الكمال..

إنّ علياً هو عليّ وأؤكد أيضاً أراد الله إظهار كماله فكان علي المصداق الأجلى لذلك الكمال.

عليّ بن أبي طالب شخصية أتتْ بعد النبوَّة مباشرةً لا يفصلها عنها إلا خيط رقيق رفيع لا يكاد يُرى بالعين المجرّدة ولرقّته ضلّت فيه أُمّة من الناس فرفعته حتى تجاوزت النبوّة إلى مرحلة الألوهية وحديثي هنا سيكون ضمن محاور متدرجة ومتتابعة بعضها يأخذ بأعناق بعض حتى نصل إلى المحور الأساسي.

المحور الأول: وحدة الذات بين النبي (ص) والإمام علي (ع)

قد يبدو هذا الكلام عند بعضهم غريباً يستحقُ التوقفَ عنده والتأمل فيه ولكن الحقيقة أقوى من كل توقف أو تأمل إذا دُعّمت بالأدلة القطعية من الكتاب والسنّة والكلمات الصادقة ولست هنا بصدد استعراض كل الأدلة وإنما سأسرد من كل مصدر شاهداً يكفي لإثبات ما أريد وما أقول فمن الكتاب العزيز يقول سبحانه:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (آل عمران: ٥٩، ٦٠ و٦١).

فالمراد بـ"أنفسنا" في الآية هو الإمام علي لأن النبي لم يُخرج معه إلا علي وفاطمة والحسن والحسين وعليه فالإمام هو نفس محمد ويأخذ كل خصائصه ما عدا النبوّة حيث قال له النبي (ص): "أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي".

وينقل الرازي في تفسيره الكبير وهو يستعرض تفسير الآية المباركة، أن رجلاً من أهل الري اسمه محمود بن الحسن الحمصي وكان معلم الاثني عشرية وكان يزعم أن علياً (رضي الله عنه) أفضل من جميع الأنبياء سوى محمد (ص) قال: والذي يدلّ عليه قوله ﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ وليس المراد بقوله "وأنفسنا" نفس النبي (ص) لأن الإنسان لا يدعو نفسه بل المراد به غيره وأجمعوا على أن ذلك الغير كان علي بن أبي طالب (ع) فدلّت الآية على أن نفس علي (ع) هي نفس محمد ولا يمكن أن يكون المراد منه أن هذه النفس هي عين تلك النفس فالمراد أن هذه النفس مثل تلك النفس وذلك يقتضي الاستواء في جميع الوجوه تُرك العملُ بهذا العموم في حقّ النبوّة وفي حق الفضل بقيام الدلائل على أن محمداً كان أفضل من علي (رضي الله عنه) فيبقى فيما وراءه معمولاً به ثم أن الإجماع دلّ على أن محمداً كان أفضل من سائر الأنبياء فيلزم أن يكون علي أفضل من سائر الأنبياء فهذا الاستدلال بظاهر هذه الآية.

ثم قال: ويؤيد الاستدلال بهذه الآية الحديث المقبول عند الموافق والمخالف وهو قوله (ص): "من أراد أن يرى آدم في علمه ونوحاً في طاعته وإبراهيم في خلّته وموسى في هيبته وعيسى في صفوته، فلينظر إلى عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه)" الحديث دلّ على أنه اجتمع فيه ما كان متفرقاً فيهم وذلك يدل على أن علياً (رضي الله عنه) أفضل من جميع الأنبياء سوى محمد (ص).

لم يناقش الرازي فيما نقل وسرد إلا في أفضلية الإمام على جميع الأنبياء مدعياً بإجماع – إجماع الأمة – على أفضلية محمد والأنبياء – على عليّ – ولكن هذا الإجماع مخروق بمخالفة الشيعة التي بدونها يسقط الإجماع – وأيضاً بأن الإجماع – كما يقول الأصوليون – دليل لبي يقتصر على وضع اليقين – وموضع اليقين هو أن محمداً أفضل من علي فحسب فيبقى على أفضل الأنبياء الباقين على أن ما ذهب إليه الرازي من الاستثناء حيث قال: إن الإجماع انعقد على أن النبي أفضل ممن ليس نبي – هذا ليس صحيحاً إذ يمكن الاستثناء فيه أيضاً ونقول: كل نبي أفضل من كل أحد غير نبي إلا الإمام علي.

وحدة الذات في الحديث النبوي:

يأتي حديث النبي على كل حديث آخر فهو المفصل والفيصل والفاصل وإليه ينتهي القول وعنده يتوقف الحديث وهنا لا أنقل ما ورد من طرقنا وما هو موجود عندنا وإن كان متن الحديث واحد ولكن أنقل ما ورد في كتب القوم ومن طرقهم وقد اعتمدت على شرح النهج لابن أبي الحديد حيث ينقل أربعة وعشرين حديثاً في فضائل الإمام علي عنهم ومن طرقهم وفي كتبهم اقتصر منها على حديثين – لئلا نخرج عن الموضوع الذي نريده ونتطلّع إليه.

الأول: قال النبي (ص) لوفد ثقيف: لُتسلِمُن أو لأبعثن إليكم رجلاً مني – أو قال: عديل نفسي – فليضربنّ أعناقكم وليسبينّ ذراريكم وليأخذن أموالكم" قال عمر: فما تمنّيت الإمارة إلا يومئذٍ وجعلتُ أنصِب له صدري رجاء أن يقول: هو هذا. فالتفتُ فأخذ بيد علي وقال: "هو هذا" مرتين (رواه أحمد في "المسند") ورواه في كتاب "فضائل علي" أنه قال: "لتنتُهنّ يا بني وليعة، أو لأبعثن إليكم رجلاً كنفسي يُمضي فيكم أمري. يقتل المقاتلة ويسبي الذريّة" قال أبو ذر: فما راعني إلا برْد كفّ عُمَر في حُجْزتي – الحجزة موضع الإزار – من خلفي يقول: مَنْ تراه يعني؟ فقلت: إنه لا يعنيك وإنما يعني خاصف النعل، وأنه قال: "هو هذا".

الحديث الثاني: "كنتُ أنا وعلي نوراً بين يدي الله عزَّ وجلّ قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف سنة فلما خَلقَ آدم قسّم ذلك فيه وجعله جزئين فجزء أنا وجزء علي" رواه أحمد في المسند – وفي كتاب "فضائل علي (ع)". وذكره صاحب كتاب الفردوس وزاد فيه: "ثم انتقلنا حتى صرنا في عبد المطلب فكان لي النبوّة ولعلي الوصية..".

وأستعير كلاماً لابن أبي الحديد بعد نقله لهذه الأحاديث الأربعة والعشرين حيث يقول: "فأردنا بإيراد هذه الأخبار هاهنا عند تفسير قوله: "نحن الشعار والأصحاب ونحن الخزنة والأبواب" أن ننبّه على عِظَم منزلته عند الرسول (ص) وإن من قيل في حقّه ما قيل لو رقَى إلى السماء وعرَجَ في الهواء وفخر على الملائكة والأنبياء تعظّماً وتبجّحاً لم يكن ملوماً بل كان بذلك جديراً وهو لم يسلك قط مسلك التعظيم والتكبّر في شيء من أقواله ولا من أفعاله وكان ألطف البشر خُلُقاً وأكرمهم طبعاً وأشدّهم تواضعاً وأكثرهم احتمالاً وأحسنهم بشراً وأطلقهم وجهاً".

علي من رسول الله ـ من كلام علي:

يقول الإمام وهو بصدد الحديث عن مسؤوليته كأمير للمؤمنين ومسؤول عن رعيته يقول: ألا وإن الشجرةَ البريّةَ أصلبُ عوداً والروائع الخضرة أرقُّ جلوداً والنباتات العذْبة أقوى وقوداً وأبطأ خموداً وأنا من رسول الله كالضوء من الضوء وكالذراع من العَضُد.. إلى آخره"[1]. محمد هو الضوء الأول وعلي هو الضوء الثاني من ضوء محمد. يقول ابن أبي الحديد: شبّه (ع) نفسه بالضوء الثاني وشبّه رسول الله (ص) بالضوء الأول وشبّه منبع الأضواء والأنوار سبحانه وجلّت أسماؤه بالشمس التي توجب الضوء الأول ثم الضوء الأول يوجب الضوء الثاني.

وشبّه نفسه بالنسبة إلى رسول الله بالذراع الذي العضد أصله وأسّه والمراد من هذا التشبيه الإبانة عن شدّة الامتزاج والاتحاد والقرب بينهما. فإن لضوء الثاني شبيه بالضوء الأول والذراع متصل بالعضد اتصالاً بيّناً وهذه المنزلة قد أعطاه إياها رسول الله (ص) في مقامات

---

(١) نهج البلاغة. من الكتاب ٤٥.

كثيرة نحو قوله (ص) في قصة براءة: "قد أُمرت ألاّ يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني" وقوله (ص): "لتنتهين يا بني وليعة أولاً بعثن إليكم رجلاً مني" أو قال: "عديل نفسي" وقد سماه الكتاب العزيز "نفسه" ﴿وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ وقد قال له: "لحمك مختلط بلحمي ودمك مسوط بدمي وشبرك وشبري واحد". انتهى.

وقال الإمام وهو يتحدّثُ عن قريش وعدوانها عليه وسلبها حقّه المفروض له قال: "فإنهم قد أجمعوا على حربي كإجماعهم على حرب رسول الله (ص) قبلي فجزت قريش عني الجوازي فقد قطعوا رحمي وسلبوني سلطان ابن أمي"[1].

وهذه الوحدة تَمْهَّد لها من خلال إعداد الإمام إعداداً إلهياً على عين النبوة حيث انتقل الإمام إلى بيت رسول الله (ص) وهو طفل صغير في ظروف كلّنا نعرفها بتفاصيلها وقد وقفنا عليها من خلال أصدق المصادر من سيرة النبي (ص) وكتب التاريخ...

وهذا الانتقال إلى بيت النبي (ص) ساعد لتخريج علي ليكون الامتداد لرسول الله والحامل لأهدافه وغاياته يقول الإمام: "وقد علمتم موضعي من رسول الله (ص) بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة وضعني في حجره وأنا ولدُ يضمني إلى صدره ويكنُفُني إلى فراشه ويُمِسُّني جسدَه ويُشِمُّني عَرْفَه وكان يَمْضَغُ الشيء ثم يُلقمُنيه ما وجد لي كذبةً في قول ولا خَطْلَةً في فعل ولقد قرن الله به (ص) من لدُن أن كان فطيماً أعظمَ مَلَكٍ من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسنَ أخلاقِ العالَم ليلَه ونهارَه، ولقد كنتُ أتَّبعُهُ اتّباعَ الفصيلِ أثر أمه يرفعُ لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمُرني بالاقتداء به ولقد كان يجاورُ في كل سنةٍ بحِراء فأراه ولا يراه غيري ولم يجمع بيتُ واحدُ يومئذٍ في الإسلام غيرَ رسول الله (ص)، وخديجةَ وأنا ثالثهما أرى نور الوحي والرسالة وأشمُّ ريحَ النبوّة ولقد سمعت رنَّة الشيطانِ حين نزلَ الوحيُ عليه (ص) فقلت: يا رسول الله ما هذه الرنّة؟ فقال: هذا الشيطانُ أيسَ من عبادته، إنك تسمعُ ما أسمعُ وترى ما أرى إلا أنَّك لستَ بنبيّ ولكنك لوزيرُ وإنك لعلى خير."[2].

عليّ في الفقه العقدي:

بناء على ما سبق واعتماداً عليه ترتّب في منظومة العقيدة أن علياً هو خليفة رسول الله (ص) بعده مباشرة وبدون فاصل وقد تكفّل ببيان ذلك الكتاب والسنّة - كما يذهب إليه الإمامية على أقل تقدير - وإن كان يذهب إلى ذلك جملة من غيرهم - كالمعتزلة - الذين يقولون بأولوية علي في الخلافة لنصوص كثيرة متوافرة ولاستجماع شخصية الإمام من الفضائل والمواصفات ما يؤهله ليكون الأولى بذلك وعلى كل حال فقد قدّم من قدّم علياً

---

(١) من كتاب له (ع)، الكتاب ٤٥.

(٢) نهج البلاغة، من خطبة ١٩٢.

وعيّنه ليكون الخليفة بأدلة أذكر منها نموذجاً - وأنتم على معرفة بها - ولكن أذكرها لضرورة البحث التي تستدعي ذلك.

من الكتاب العزيز، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ... ﴾ (النساء: ٥٩).

أمر سبحانه بطاعة - أولي الأمر وقَرَنَ طاعتهم بطاعة رسول الله (ص) وأطلق وجوب الطاعة ولم يقيّدها بقيد ونحن نعرف أن طاعة الرسول تجب في كل الأحوال والظروف والمقامات لأنه معصوم فيجب أن يكون - أولي الأمر - بنفس الدرجة من هذه الملكة لإطلاق الأمر بالطاعة.

وهذا ما فهمه الرازي في تفسيره حيث قال وهو بصدد تفسير الآية قال: "والدليل على ذلك أن الله تعالى أمر بطاعة أُولي الأمر على سبيل الجزم في هذه الآية ومن أمر الله بطاعته على سبيل الجزم والقطع لا بُدَّ وأن يكون معصوماً عن الخطأ إذ لو لم يكن معصوماً عن الخطأ كان بتقدير إقدامه على الخطأ يكون قد أمر الله بمتابعته فيكون ذلك أمراً بفعل ذلك الخطأ والخطأ لكونه خطأً منهي عنه فهذا يفضي إلى اجتماع الأمر والنهي في الفعل الواحد بالاعتبار الواحد وأنه محال فثبت أن الله تعالى أمر بطاعة "أولي الأمر" على سبيل الجزم وثبت أن كل من أمر الله بطاعته على سبيل الجزم وجب أن يكون معصوماً عن الخطأ فثبت قطعاً أن "أولي الأمر" المذكور في هذه الآية لا بد وأن يكون معصوماً..".

وهذا القول من الرازي يجري على مقتضى الأصول ومما تتوافق عليه العقول وهذا ينسف جميع الأقوال التي فسرت أولي الأمر - بالعلماء أو الأمراء أو الخلفاء - حتى الراشدين منهم - وحتى الإجماع لا ينفع - إذا خلا من المعصوم - لأن كل أولئك لم يكونوا معصومين ولم يدّع أحد العصمة لهم.. فيبقى ما ذهب إليه الشيعة من تعيين المعصوم بالإمام هو السليم الموافق للأصول مع النصوص الأخرى التي تعيّن الإمام باسمه وشخصه وصفاته ومواصفاته...

علم عليّ من علم رسول الله (ص):

تخرّج علي (ع) من مدرسة النبوّة بامتياز بحيث تحوّل إلى باب مدينة علم النبي (ص) وإلى أقضى الأمة وأعلمها فإن استعصت مسألة فعند عليّ حلّها وإذا توقفت الصحابة في قضيّة فإلى عليّ ترتحل الأفكار وعنده تجد العدل وفصل القضاء وهذا كله ببركة النبي (ص) الذي كان يغدق عليه من علومه حتى قال عليّ في ذلك: "علّمني رسولُ الله ألفَ باب من العلم ينفتح لي من كل باب ألف باب... وقد خاف (ع) على أصحابه وطلاب العلم لديه أن يكفروا بالنبيّ (ص) إن أخبرهم بما عنده يقول (ع): والله لو شئتُ أن أُخبر كلَّ رجل منكم بمخْرَجه ومولجه وجميع شأنه لفعلت ولكن أخاف أن تكفروا فيَّ برسول الله (ص) ألا وإني مفضيه

إلى الخاصة ممن يُؤمن ذلك منه والذي بعثه بالحق واصطفاه على الخلق ما أنطق إلا صادقاً وقد عَهِدَ إليَّ بذلك كُلّه وبمهلك مَنْ يهلِك ومنجى مَنْ ينجو ومآل هذا الأمر وما أبقى شيئاً يمرُّ على رأسي إلا أفرغه في أُذني وأفضى به إليَّ" (خطبة: ١٧٥).

ويقول (ع): "فوالذي فلق الحبةَ وبرأ النسمة إن الذي أنبئكم به عن النبي الأُمي (ص) ما كذبَ المبلّغ ولا جهل السامع" (خطبة: ١٠١).

وأيضاً يقول الإمام لمن قاله له: لقد أُعْطيتَ يا أمير المؤمنين علم الغيب، يقول له: "ذلك فعِلْمُ علّمه اللّهُ نبيَّه فعلّمنيه ودعا لي بأن يعيَه صدري وتضْطَم - تجمعه - عليه جوانحي.." (خطبة: ١٢٨).

أثره من علم عليّ (ع):

أثره في القضاء:

كان الإمام مرجعية أخيرة في القضاء لا يستأنف عليه ولا ينقض له حكم، كان إذا أعيا القومَ قضيّةٌ عادوا إليه وقبلوا منه في كل ما يقول وأحكام قضائه في أيام حكم من سبقه مدوّنة في أوثق المصادر وأهمّ المراجع فمن أرادها فليطلبها من محالّها.

أثره في التشريع:

كان الإمام يحمل فكراً تشريعياً في أرقى ما يمكن أن يصل إليه فكر - ولا غرابة فهو تلميذ النبوّة - والامتداد لهذه النبوّة ويكفي أن نرمي ببصرنا إلى عهده الذي كتبه إلى مالك الأشتر الذي تضمن أروع التشريعات لحكمٍ عادٍ ينشده الإمام.

ويقول الشافعي: "لولا عليّ لما عُرِفَ شيء من أحكام أهل البغي" ويقول ابن أبي الحديد في ذلك: لم يكن المسلمون قبل حرب الجمل يعرفون كيفية قتال أهل القبلة وإنما تعلموا فقه ذلك من أمير المؤمنين". (ابن أبي الحديد، ج٩ ص٣٣١).

وبالجملة فكل فقه في الإسلام يرجع إليه - كما يقول ابن أبي الحديد في شرحه (ج١، ص١٨)، وقال: وكان إذا أُشكلت عليه - على عمر مسألة وعلى غيره من الصحابة - كانوا يرجعون إليه وقوله - قول عمر غير مرّة: لولا علي لهلك عمر وقوله لا بقيتُ لمعضلة ليس لها أبو الحسن وقوله: لا يُفتين أحد في المسجد وعلي حاضر ويستمر ابن أبي الحديد فيقول: وقد روت الخاصة والعامة قوله قول النبي (ص): "أقضاكم علي".

وروى الكل أيضاً أنه قال له النبي (ص) وقد بعثه إلى اليمن قاضياً: "اللهم اهدِ قلبه وثبّت لسانه" قال عليّ: "فما شككت بعدها في قضاء بين اثنين وهو الذي أفتى في المرأة التي وضعت لستة أشهر وهو الذي أفتى في الحامل الزانية.. وهو الذي قال في المنبرية: صار ثمنها تسعاً وهذه المسألة لو فكّر الفرضي فيها طويلاً لاستحسن منه بعد طول النظر هذا الجواب فما ظنك بمن قاله بديهة واقتضبه ارتجالاً...".

إذا أردنا أن نقف على شطر قليل مما تركه الإمام على المستوى التشريعي الفكري فما علينا إلا أن نضرب بنظرنا نحو نهج البلاغة فإنه يحمل إلينا كنوزاً لا تزال مخبأة حتى الآن يستطيع المحققون أن يستخلصوا منها التشريعات السامية والأفكار الرائدة والعقائد الصافية.

علي وعلم التوحيد:

وهذا العلم أول من طرق بابه هو الإمام علي (ع) وإذا أردنا عيّنة من ذلك فاقرأ أول خطبة في النهج: أوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُه وكَمَالُ مَعْرِفَتِه التَّصْدِيقُ به، وكَمَالُ التَّصْدِيقِ به تَوْحِيدُه، وكَمَالُ تَوْحِيدِه الإِخْلاصُ لَه، وكَمَالُ الإِخْلاصِ لَه نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْه، لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ الْمَوْصُوفِ، وشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّه غَيْرُ الصِّفَةِ، فَمَنْ وَصَفَ اللَّه سُبْحَانَه فَقَدْ قَرَنَه، ومَنْ قَرَنَه فَقَدْ ثَنَّاه ومَنْ ثَنَّاه فَقَدْ جَزَّأَه، ومَنْ جَزَّأَه فَقَدْ جَهِلَه ومَنْ جَهِلَه فَقَدْ أَشَارَ إليه، ومَنْ أَشَارَ إليه فَقَدْ حَدَّه ومَنْ حَدَّه فَقَدْ عَدَّه، ومَنْ قَالَ فِيمَ فَقَدْ ضَمَّنَه، ومَنْ قَالَ عَلامَ فَقَدْ أَخْلَى مِنْه: كَائِنٌ لا عَنْ حَدَثٍ... إلى آخره... فهذا الكلام في علم الكلام الإلهي يكون علي قد فتح بابه وأوضح صوابه ولم يكن أحد من المسلمين على دراية به أو معرفة فيه ولم يؤثر عن أحد من الصحابة عشر ما جاء عن علي بل لم نعثر على كلام أحد منهم وأنّى لهم ذلك ولم يتصوّروه في أذهانهم أو يخطر ببالهم فكيف يأتون بمثله أو بجزء منه...

وفي نهج البلاغة: سيرة علي في السياسة – وكيف يجب أن يتصرف صاحب الحق إذا لم يقدر على استرجاع حقّهِ ويدور الأمر بين السلطة وبين الحفاظ على الإسلام ووحدة المسلمين وهو في سيرته يقدّم الدرس العملي لكي يقتدي به المسلمون ففي الوقت الذي يسجّل معارضته لمن اغتصبَ حقّه لا يشهرُ سلاحاً ولا يعلن حرباً ولا يشقُّ وحدة المسلمين بل يكون همّه الإسلام وكيف يحفظُه ولا يرى فيه ثلماً أو هدَفاً يقول (ع): فلمّا مضى النبي (ص) تنازع المسلمون الأمر من بعده فوالله ما كان يُلقى في رُوعي ولا يخطر ببالي أن العرب تزعج هذا الأمر من بعد (ص) عن أهل بيته ولا أنهم منحّوه عني من بعده فما راعني إلا انثيال الناس على فلان يبايعونه فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد (ص) فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدفاً تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم التي إنما هي متاع أيام قلائل..." (خطبة ٦٢).

ويقول في مورد آخر: "ولقد علمتم أني أحق الناس بها – بالخلافة – من غيري والله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلا علي خاصة..." (خطبة: ٧٣).

ومن كتاب له إلى أبي موسى الأشعري يقول: "وليس رجل – فاعلم – احرص على جماعة أمة محمد (ص) والفتها مني – أبتغي بذلك حُسنَ الثواب وكرَمَ المآب..." (كتاب: ٧٨). ❖

أثر الرسول محمّد (ص) في منهج أمير المؤمنين (ع) في عهده لمالك الأشتر ـ أنموذجاً

د. نوري كاظم الساعدي

جامعة بغداد ـ كلية التربية (ابن رشد)

الحمدُ لله الذي انحسرتِ الأوصافُ عن كنهِ معرفتهِ، وردَعتْ عظمتُه العقولَ، فلم تجدْ مساغاً إلى بلوغِ غايةِ ملكوتهِ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله الطيبين الطاهرين. أهل الدين وعماد اليقين، مصابيح الدّجى، لا يخفى فضلهم على مؤمن، ضرب الحق بهم مثلاً فقال فيهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (إبراهيم: ٢٤ - ٢٥). وهم أهل بيت الرسول عِدلُ القرآن، وأهله، وترجمانه، وعنوان الهدى، ولا ريب أنْ نرى ثمة وشائج تجمع بينهما، فهما باتساقهم مع كتاب الله، القرآن الكريم، يؤلفان كُلاً واحداً، لا تنفصم عراه. فهم أوتاد الإيمان، وثقله مع كتاب الله، تركهما رسول الله (ص) من بعده. فهُم خلفاؤه اثنا عشر إماماً، قال أمير المؤمنين (ع): (سمعتُ رسول الله يقول: أنا سيد ولد آدم، وأنت يا علي والأئمة من بعدك سادة أُمتي، مَن أحبنا فقد أحبّ الله، ومن أبغضنا فقد أبغض الله، ومن والانا فقد والى الله، ومن عادانا فقد عادى الله، ومن أطاعنا فقد أطاع الله، ومن عصانا فقد عصى الله)[1].

وبعد:

جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ الحكّام أمناء على خلقه، فالخلق عيال الله، أوجب مراعاتهم، والنظر في حقوقهم، وإنجاز العدالة الاجتماعية بينهم، ووجود الدولة يعدُّ عنصراً رئيسا في تحقيق تلك العدالة التي نادى بها الإسلام؛ لأنّها تتولى توزيع الموارد، وتخطط لمستقبل البلاد السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي، وتقيم علاقاتها مع الدول الأخرى حتى يتحقق العدل الاجتماعي في جميع أنحاء الأرض. وارتباط مصالح الأفراد في المجتمع، يوجب حضور القوانين التي تنظم حياتهم وتحفظ مصالحهم؛ فالتخطيط لمستقبل البلاد من أهم واجبات الدولة الإسلامية. من هنا كان عهد الإمام علي أمير المؤمنين (ع) لمالك الأشتر، يرسم أنموذجاً متقدماً لتخطيط الدولة، وتوجيه معطيات النظام الاجتماعي نحو الاتساق، والكمال. لأنّ عدالة الدولة عنصر رئيس في حفظ النظام الاجتماعي. فبوساطته يتم توزيع الموارد الاقتصادية على نحو سليم، والمحافظة على أمن الأفراد، وإشباع حقوقهم المشروعة، مما يهيئ السبيل لهؤلاء الأفراد في النهوض بدورهم الإنساني في التآزر، والانعتاق من رق عبودية الإنسان،

والاتجاه إلى عبودية الخالق عزّ وجلّ. وهذا الأمر على درجة كبيرة من الأهمية، لأن وجود الدولة الظالمة لا يحقق العدالة والمساواة لجميع الأفراد في النظام الاجتماعي. وعندما تغيب العدالة عن المجتمع، حينئذ تختفي المعايير التي، يمكن أن تقوِّم أداء الأفراد، ومن ثمّ تضيع الحقوق وتُنتهك الحرمات.

وهذا العهد يتضمّن مجموعة من الأسس، التي تتجاوز حدود الزمان، والمكان، ويمكن الأخذ بها، واتخاذها دليل عمل للمجتمع الإنساني، فهي تعلّم الإنسان - قبل كلّ شيء - الخلق الكريم، والأدب الرفيع علاوة على حُسن سياسة الناس، وإقامة العدالة الاجتماعية: لأنّها بمجملها، تعتمد على مبادئ القرآن الكريم، ومنهج الرسول الكريم الرسول (ص) وهي تمثل أصولا للنظرية الإسلامية في الإدارة، فرسول الله (ص): يقول فيه: (علي مع القرآن والقرآن مع علي). وشخصية الإمام علي (ع) التي نهلت من معين النبوة العذب، علماً، وفقهاً، وبياناً، فصاغته، أداء، ومنهجاً، فرضت تجلياتها على المجتمع الإسلامي على نحو عام، وأهل بيته (ع) والخلص من مريديه على نحو خاص، فوجدناه، قد تفوق بعلمه، وبفقهه على من عاصره كونه وارث علم النبيين، فقال عن نفسه: (سَلوني عَن كتابِ اللّهِ فإنّهُ ليسَ مِن آيةٍ إلاّ وَقدْ عَرفتُ بليلٍ نَزَلَتْ أمْ بنهارٍ فِي سَهلٍ أمْ في جَبلٍ واللّهِ مَا نَزلت آيةٌ إلاّ وَقدْ عَلِمتُ فيمَا نَزلتْ وأينَ نَزلت وَعَلى مَن نَزلت. إنّ رَبي وَهَبَ لِي قلباً عَقولاً وَلساناً طَلِقاً). من أجل هذا، وغيره، نكون على بينة من قول رسول الله (ص): (علي باب علمي ومبَيّن لأُمتي ما أُرسلت به). ونجد تلك المعرفة التي توافرت لرسول الله، كانت حاضرة عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأهل بيته (ع) بعد رسول الله، ولم تتوافر لغيرهم.

إنّ عهد الإمام (ع) بلاغة، وفقه، ودستور في الإدارة، أفضى إلى موقف، يتسق مع الأصول المعرفية التي كانت حاضرة عنده (ع)، وصُبّها في نسيج، مادته اللغة: ببيانها، والفقه: بأحكامه. وهي باتساقها مع بعضها الآخر؛ كوّنت مادة العهد، وهذا النهج ليس ببعيد عن الإمام (ع)، يقول أبو الفرج الأصفهاني في شأنه: (وفضائله (ع) أكثر من أن تحصى... فأمير المؤمنين (ع) بإجماع المخالف والممالي، والمضاد والموالي، على ما لا يمكن غمطه، ولا ينساغ ستره من فضائله المشهورة في العامة لا المكتوبة عند الخاصة تغني عن تفضيله بقول والاستشهاد عليه برواية)[٢].

ومن أجل إستكناه أثر الرسول (ص) في منهج أمير المؤمنين (ع) اتجه البحث تلقاء عهده لمالك الأشتر، متخذا من تحليل المضمون، أداة لقراءة نصوص العهد تارة، وتارة أخرى محللاً لها، ومحافظاً على ترتيبها بحسب تسلسلها، فبيّن - بداءة - منزلة أهل البيت (ع) عند الله - سبحانه وتعالى - ومفهوم العهد، ثم اتجه تلقاء مستهل العهد، فيما سماه البحث: مستهل العهد (الأسس)، وبعد ذلك كان الحديث عن المهام الإدارية وبيان أثر المدرسة الفكرية التي ينتمي إليها الإمام (ع) وظهرت عنده في القرآن الكريم، وأقوال رسول الله (ص). وبعد ذلك أتى

البحث إلى الخصائص الواجب توافرها في الإداري الناجح، ثم التفت البحث إلى الشروط الواجب توافرها لمن يسهم في إدارة الدولة، فأجملها في:

أولاً ـ شروط المستشار. ثانياً ـ شروط اختيار الوزير. ثالثاً ـ شروط مواصلة بناء الدولة. رابعاً ـ شروط اختيار القضاة، وأسلوب التعامل معهم. خامساً ـ شروط تعيين الإداريين (الأعوان)، وأسلوب التعامل معهم. سادساً ـ شروط العمل الاقتصادي (الزراعة). سابعاً ـ شروط عمل التجّار، والصناعيين. ثامناً ـ شروط الرعاية الاجتماعية.

وتلك الشروط بمجملها، لابدّ من معايير لتأخذ مجالاً في التطبيق، فكان في: التقوى، وإقامة الفرائض، وفي الوصايا العامة التي ذكرها الإمام (ع) في عهده، وقدّم في أثنائه أنموذجا متقدما للدولة، يمكن العمل به في كل زمان ومكان. ومن الجدير بالذكر، فإنّ البحث لم يلتفت إلى كلّ ما جاء في العهد من أسس، تمثل بمجملها غرس رسول الله (ص).

وأخيراً، هذا ما خطته يدي، فإن كان صواباً فمن الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وإن كان خطأ فمن نفسي، أسال الله ـ سبحانه وتعالى ـ، العفو والمغفرة، أنّه سميع الدعاء. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين، وصلّى الله على محمّد وآله الطيبين الطاهرين، وأصحابه المنتجبين.

منزلة أهل البيت (ع):

أشار الإمام فخر الدين محمّد بن عمر الرازي (ت٦٠٦هـ) في كتابه: عجائب القرآن إلى منزلة أهل البيت (ع) عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ عندما جعلهم الحقّ مساوين للنبي (ص) في عدد من الأمور، منها:

الأول: في المحبّة، في قوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران: ٣١). وقال تعالى في حقّ أهل بيت النبيّ(ع): ﴿قُل لَّا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾(الشورى: ٢٣).

والثاني: في تحريم الصدقة عندما قال الرسول الكريم (ص): (حُرِمت الصدقةُ عليَّ وعلى آل بيتي).

والثالث: في الطُهر، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٣).

والرابع: في السلام، يقال: (السلام عليك أيُّها النبيُّ) وقال في أهل بيته: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾ (الصافات: ١٣٠). وقد (قال ابن عباس: آل ياسين آل مُحمّد (ص)، وياسين من أسمائهِ).

والخامس: في الصلاة على الرسول وآله، كما في التشهد[٣]، وهذا الأمر لم يشارك الرسول الكريم فيه أحد إلاّ أهل بيته.

يُزاد على ذلك كله، فإنّ القرآن الكريم المعجزة الكبرى للرسول (ص) والمعجزة دليل تصديقه في ما يدعو إليه، وكان هذا السبيل شأن أهل البيت (عليهم السلام) في آية المباهلة في قول الحقّ تبارك وتعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (آل عمران: ٦١).

فاشتركوا مع كتاب الله في هذا الأمر من دون الناس، عندما جعلهم الله - عزّ وجلّ - دليل تصديق الرسول في ما يدعو إليه، من أجل ذلك، لا ريب في تجلي عطاءُ الخالق عليهم - ظاهراً وباطناً - في سورة الإنسان في أكثر من سبيل.

مفهوم العهد:

ورد في نهج البلاغة مسمى (عهد) للكتاب الذي وجهه أمير المؤمنين الإمام علي (ع) إلى عامله مالك بن الحارث الأشتر النَّخَعي لمّا ولاه على مصر، وهو أطول عهد كتبه (ع) والعهد في اللغة: جاء في أساس البلاغة، أنّ لمادة (عهد) دلالات متعددة، منها: عهد إليه، واستعهد منه إذا وصّاه وشرط عليه. والرجل العهد: المحب للولايات والعهود. والعهد: المدّة. ويقول أهل الحجاز: أبيعك البيعة التي انملست منها سالماً لا تبعة منها عليّ.

وقال تعالى: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ (طه: ٨٦). وبينهما عهد، أي موثق، ومالي عهدٌ بكذا. وإنه لقريب العهد به. وهذا عهيدك أي معاهدك. ويقال: عليك في هذا عهدة لا يُتفصّى منها أي تبعَة. وكانوا يقولون: إياكم والدخول تحت العهد والأمانات. وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ (الإسراء: ٣٤). أي أوفوا بحفظ الإيمان، وقال تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة: ١٢٤). أي لا أجعل عهدي لمن كان ظالماً، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ١١١). وعهد فلان إلى فلان يعهد أي ألقى إليه العهد وأوصاه بحفظه، وللتفقد قيل للمطر عهد، وعهاد، وروضة معهودة: أصابها العهاد[٤].

العهد في الاصطلاح:

جاء في التعريفات: (العهد: حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال، هذا أصله، ثم استعمل في الموثق الذي تلزم مراعاته، وهو المراد. والعهد الخارجي: هو الذي يذكر قبله شيء، والعهد الذهني: هو الذي لم يذكر قبله شيء)[٥].

أمّا المُعهد إليه: فهو مالك بن الحارث الأشتر النَّخَعي، الذي لا يمكن أن تخفى مكانته عند الإمام (ع) فهو ذو رأي سديد، ومن رجاله الأشداء الخلص الذين كانوا معه في السراء والضرّاء، فكان معه في واقعة الجمل، وفي مقاتلة معاوية بن أبي سفيان[٦].

مستهل العهد (الأسس):

يستهل أمير المؤمنين (ع) عهده بالإقرار بالعبودية لله - سبحانه وتعالى - حين يقول: (هذا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ عَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الأَشْتَرَ فِي عَهْدِهِ إليه، حِينَ وَلاَّهُ مِصْرَ)[٧]. ويظهر في ذلك عدد من المعطيات: الأول: أمرُ عَبْد اللَّهِ، واجب الطاعة، علي أمير الْمُؤْمِنِينَ (ع) خليفة رسول الله (ص) ووصيه، فهو نهل من فيض النبوة، عِلماً، وفقهاً، وبياناً، فصاغه، أداء، ومنهجاً، وهذا النهج، كان حاضراً في وصيته لكميل بن

زياد، عندما قال: (إنّ رسول الله (ص) أدبه الله، وهو (ع) أدبني، وأنا أؤدّب المؤمنين. وأورِّث الآداب المكرمين)[٨].

والآخر: دلالة المكان: مصر. ومع أنّ الأمصار الإسلامية، ينظر إليها أمير المؤمنين (ع) بعين واحدة، لكنّ مِصر لها دلالة تختص بها من دون الأمصار، فهي مهد الحضارات، تحتاج إلى نمط دقيق من الإدارة، بعد أن سُبق مَالِكَ الأَشْتَرَ بولاة، لم يحسنوا الإدارة، زمن عثمان بن عفان، وأساءوا إلى أهل مِصر، فيقول له: (أَنِّي قَدْ وَجَّهْتُكَ إلى بِلاَدٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُوَلٌ قَبْلَكَ، مِنْ عَدْلٍ وَجَوْرٍ، وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمورِ الْوُلاَةِ قَبْلَكَ، وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ إِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي اللهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسُنِ عِبَادِهِ. فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ)[٩].

وكانت مكانة أهل مصر، بدت في موضع آخر في عهده لمحمد بن أبي بكر، عندما ولاه عليهم، عندما يقول له: (وَاعْلَمْ ـ يَا مُحَمَّدُ بْنَ أبي بَكْرٍ ـ أَنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ أَعْظَمَ أَجْنَادِي فِي نفسي أهل مِصْرَ)[١٠].

المهام الإدارية:

وهي من الواجبات الرئيسة، التي يجب أن يُعمل بها، أجملها الإمام في قوله: (جِبَايَةَ خَرَاجِهَا، وَجِهَادَ عَدُوِّهَا، وَاسْتِصْلاَحَ أَهْلِهَا، وَعِمَارَةَ بِلاَدِهَا)[١١]. فجِبَايَةُ الخَرَاجِ، مما يختص بالجانب الاقتصادي، الذي تعتمد عليه الدولة، وهي تمهد السبيل لجِهَادِ العدو في الحرب، فقد قال الحقُّ تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (الأنفال: ٦٠).

وهذا الأمر له علاقة بحضور الجانب الاقتصادي، الذي يفرض أثره في اسْتِصْلاَحِ أهل البلاد، ونمو معايشهم، وصلاحهم، مما يُسهم في عِمَارَةِ البِلاَدِ، وهو مظهر من مظاهر التطور، والازدهار. وتلك المهام لم يدعها غفلا من دون معياراً، فكان تَقْوَى اللهِ، أس العمل، عندما يأمره: (بِتَقْوَى اللهِ، وَإِيثَارِ طَاعَتِهِ، وَاتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ: مِنْ فَرَائِضِهِ وَسُنَنِهِ، الَّتِي لاَ يَسْعَدُ أَحَدٌ إِلاَّ بِاتِّبَاعِهَا، وَلاَ يَشْقَى إِلاَّ مَعَ جُحُودِهَا وَإِضَاعَتِهَا، وَأَنْ يَنْصُرَ اللهَ سُبْحَانَهُ بِيَدِهِ وَقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ، فَإِنَّهُ، جَلَّ اسْمُهُ، قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ، وإعزاز مَنْ أَعَزَّهُ. وَأَمَرَهُ أَنْ يَكْسِرَ نَفْسَهُ مِنْ الشَّهَوَاتِ، وَيَزَعَهَا عِنْدَ الْجَمَحَاتِ، فَإِنَّ النَّفْسَ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ، إِلاَّ مَا رَحِمَ اللهُ)[١٢].

ومن الجدير بالذكر أنّ النظام الإسلامي، يعدُّ النظام الوحيد الذي أكد في نظريته الاقتصادية على وجود رابطة متينة بين الاقتصاد، والأخلاق، فهو لا يفصل الجوانب الاقتصادية عن منظومة القيم الأخلاقية، ويرى الإسلام أن الأساس الأول للاقتصاد، العمل، والمال، من أجل هذا، نجده، يسبغ عليهما أخلاقياته، وقيمه، فكان للعمل، والمال في الإسلام فلسفتهما النابعة من تعاليمه، التي يختلف فيها عن غيره من نظم اقتصادية أخرى[١٣].

وكان للمدرسة الفكرية التي ينتمي إليها الإمام (ع) أثر فاعل في عهده وظهرت في توظيفه القرآن الكريم، ومضامينه، وأقوال رسول الله (ص).

ويظهر النص القرآني فاعلاً في عهد الإمام (ع)، شأنه في ذلك شأن خطبه، ومواعظه، ورسائله التي تتسم بالفصاحة والبلاغة، فتكون الآيات القرآنية الكريمة، شاخصة في أثناء كلمات الإمام (ع)، وأنّ لها آثارا بارزة المعالم بوصفها كلاماً غير ذاك الكلام. لكنّها ترتبط بأمشاج، تجعل من النص القرآني الكريم أداة فاعلة في مقولاته، وهو نهج أسلوبي، يحقق الوحدة والاتساق، وظفه في نهج البلاغة في خطبه، ومواعظه، ورسائله، ولا ريب أن نرى هذا الأمر، فقد جاء في وصيته (ع) للمؤمنين لمّا حضرته الوفاة (الله الله: في القرآن فلا يسبقنّكم إلى العمل به غيرُكم)[١٤]. فهو يدعو إلى التمسك بكتاب الله قولاً وعملاً. ونراه يعزز الآيات الكريمة ضمن هذا النهج بحضور المفردة القرآنية في أغلب أقواله. ومن التفاتاته التي لها علاقة بآي الذكر الحكيم، التي أتى إلى ذكرها في عهده، وهو عهد لا يساويه عهد، ذكره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾(يوسف: ٥٣). فإنّ ربط القرآن الكريم بالإمام (ع) يضفي المشروعية على كل خطوات الإمام ومواقفه. فإنّه من أهل البيت (ع) الذين هم عِدل القرآن وترجمانه، وقد اختير من الذي لا ينطِقُ عن الهوى، الرسول الكريم (ص) (ليكون مفسراً له، والمعبر عنه والناطق بالحق).

الخصائص الواجب توافرها في الإداري الناجح:

ثمة خصال لابد أن تكون حاضرة في نفس الإداري (الحاكم، والموظف) لكي يستقيم عمله، أشار إليها الإمام تنضوي تحت ما سماه (العمل الصالح): في قوله: (فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ)[١٥] فإنّ أداء الفرد يتوقف على القائمين على الإدارة، وأسلوبهم في توجيه سلوك الأفراد. فقد نادى كثير من العلماء بأهمية تهيئة الظروف المناسبة للعمل لأنّها تؤثر في أدائه[١٦]. ويمكن إيجاز تلك الخصائص على النحو الآتي:

أولها: ضبط النفس، والسيطرة على أفعالها:

أي يجب أن لا يميل مع هوى نفسه حيثما مالت، ويظهر ذلك في قوله (ع): (فَامْلِكْ هَوَاكَ، وَشُحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لاَ يَحِلُّ لَكَ، فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ الإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحْبَبْتَ وَكَرِهْتَ)[١٧].

ثانيها: الرحمة:

يجب أن تكون الرحمة حاضرة في قلب من يتولى أمر الناس، و (هي إرادة إيصال الخير)[١٨]. ولها عدد من المظاهر، تبدأ من استحضارها في القلب، ومن ثم إبداؤها للناس، في سلوك عنوانه المحبة التي تبدو باللُّطْفِ بهِمْ، وفي هذا يقول الإمام (ع): (وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَلاَ تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ)[١٩].

فتقوم الإدارة الناجحة على الرحمة في إظهار الإيمان بكرامة الفرد. ومن يتولى الإدارة، يجب أن يُظهر قدرته على تفعيل العلاقات الإنسانية، فهو مسؤول على نحو خاص عن نمو أواصر العلاقات الحسنة في محيطه.

ومن مظاهر الرحمة ـ أيضاً ـ النظر إلى الناس بمعيار واحد، مهما كانت مللهم: (فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمَّا نَظِيرٌ لَك فِي الْخَلْقِ)[٢٠]. فيحترم البشر كلهم، ويلتفت إلى تفردهم وأصالتهم، ولتفعيل العلاقات الإنسانية أهمية كبيرة في تحقيق ذلك. ولا ريب أن يصدر هذا عن الإمام (ع)، ويبين الإمام محمد الباقر (ع) مصدر تلك الرحمة حين يقول: (لأنّه أول من آمن برسول الله (ص)، وصلّى معه، وصدّق بما جاء من الله، وسارع إلى مرضاة الله ومرضاة رسول الله (ص)، وصبر على البأساء والضرّاء، في كلّ شدّة وعسر، وكان أكثر أصحابه نصحاً له، وأكثرهم مواساة بنفسه وذات يده له، وكان وكان ممّا مَنّ الله به على أمير المؤمنين (ع) في دلائله، واختصه بفضائله، ومنحه من الكرامة، والحباء، وشرّفه بسوابق الزلفى، أنّه كان في حِجر رسول الله (ص) (قبل مبعثه، يغذوه بما يغدو به نفسه)[٢١].

ثالثها: العدالة:

إنّ تحقيق العدالة عنصر رئيس في حفظ النظام الاجتماعي؛ لأن وجود الدولة الظالمة لا يحقق العدالة والمساواة لجميع الأفراد في ذلك النظام. وعندما تغيب العدالة عن المجتمع، حينئذ تختفي المعايير التي يمكن أن تقوّم أداء الأفراد، ومن ثم تضيع الحقوق وتنتهك الحرمات. من هنا، نرى أمير المؤمنين (ع) يوجه عامله، بالتزام العدل، على وفق معطيات واضحة، حين يقول: (أَنْصِفِ اللّهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ، وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ، وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوًى مِنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّكَ إِلا تَفْعَلْ تَظْلِمْ، وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللّهِ كَانَ اللّهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللّهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ، وَكَانَ للّه حَرْباً حَتَّى يَنْزِعَ وَيَتُوبَ. وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللّهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَةٍ عَلَى ظُلْمٍ، فَإِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِينَ، وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ. وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ، وَأَعَمُّهَا فِي الْعَدْلِ، وَأَجْمَعُهَا لِرِضَى الرَّعِيَّةِ، فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَى الْخَاصَّةِ، وَإِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى الْعَامَّةِ)[٢٢]. وعلى هذا فإنّ تحقيق العدالة الاجتماعية، ينجز في النظام الاجتماعي الذي يعتمد على ثلاثة معطيات، أولها: بناء الفرد على نحو يجعله مرتبطاً بالله سبحانه وتعالى، وثانيها: تمكين الفرد من تأدية تكاليفه الشرعية، وثالثها: تمكين الفرد من إشباع حاجاته المهمة.

ويكون تحقيق العدالة الاجتماعية بين جميع الأفراد من دون النظر إلى طبقة الفرد، أو ماله، أو لونه وهذا ما أشار إليه الحق في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

رابعها: العفو:

هو القصد لتناول الشيء، وعفوت عنه قصدت إزالة ذنبه صارفاً عنه، والتجافي عن الذنب، قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (الشورى: ٤٠). وقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ (الأعراف: ١٩٩). أي ما يسهل قصده وتناوله، وقيل معناه تعاطى العفو عن الناس[٢٣]. وهذا المفهوم القرآني حاضر في قول أمير المؤمنين (ع): (فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلِ الَّذِي تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيَكَ اللَّهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ، وَوَالِي الأمر عَلَيْكَ فَوْقَكَ، وَاللَّهُ فَوْقَ مَنْ وَلَّاكَ، وَقَدِ اسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ، وَابْتَلَاكَ بِهِمْ)[٢٤].

خامسها: الابتعاد عن الخيلاء:

يشير الإمام (ع)إلى وجوب نأي القائمين على أمر البلاد والعباد عن الكِبر؛ لأنّ هذا الأمر يفضي إلى فساد القلب، وإضعاف للدين، ويسهم في حوادث الدهر، فيقول: (وَلَا تَقُولَنَّ: إِنِّي مُؤَمَّرٌ آمُرُ فَأُطَاعُ، فَإِنَّ ذلِكَ إِدْغَالٌ فِي الْقَلْبِ، وَمَنْهَكَةٌ لِلدِّينِ، وَتَقَرُّبٌ مِنَ الْغِيَرِ)[٢٥]. وما لاشك فيه أنّ اجتماع تلك الأمور يعجل في زوال الدول. من أجل هذا. لابد لمن يتولى أمور الناس من عاصم، يكبح به جماح نفسه، وهو تقوى الله، ومخافته، حين يقول: (وَإِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أُبَّهَةً أو مَخِيلَةً، فَانْظُرْ إلى عِظَمِ مُلْكِ اللَّهِ فَوْقَكَ، وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّ ذلِكَ يُطَامِنِ إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ، وَيَكُفُّ عَنْكَ مِنْ غَرْبِكَ، وَيَفِيءُ إِلَيْكَ بِمَا عَزَبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ. إِيَّاكَ وَمُسَامَاةَ اللَّهِ فِي عَظَمَتِهِ، وَالتَّشَبُّهَ بِهِ فِي جَبَرُوتِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ، وَيُهِينُ كُلَّ مُخْتَالٍ)[٢٦].

الشروط الواجب توافرها لمن يسهم في إدارة الدولة:

التفت أمير المؤمنين (ع) إلى أهمية وجود القوانين التي تنظم حياة المجتمع وتحفظ مصالحه: وتلك القوانين مستمدة من الشريعة الإسلامية، وقد (وضع الفكر الإسلامي شروطاً فيمن يتولى وظائف الدولة، منها شروط عامة، يجب توافرها في جميع الوظائف، وعلى جميع المستويات، ومنها شروط خاصة، يجب توافرها في بعض الوظائف. وتشمل الشروط العامة: القوة، والأمانة، والكفاءة، في كلّ الوظائف سواء منها العليا أو الإشرافية، أو التنفيذية مع تفاوت أهميتها النسبية)[٢٧]. وعند إمعان النظر في عهد الإمام (ع) لمالك الأشتر، نراه أفاض القول في أسس الإدارة، على نحو دقيق، وتفصيلي، يمكن الإشارة إليها على النحو الآتي:

أولا - شروط المستشار:

بوصف المستشار على مقربة من أصحاب القرار، فهو من المؤتمنين، من أجل هذا لابد أن يتسم بعدد من السمات النفسية، هي:

١- أن لا يكون بخيلاً، لأنه سيكون سبباً في منع الخير، ومن ثم وصوله لأهله.

٢- أن لا يكون جباناً، لأنه سيكون سبباً في تقييد حركة الحاكم، ومن ثم انكفاء الدولة على نفسها.

٣- أن لا يكون حريصاً شرهاً، لأنه سيكون سبباً في تزيين الظلم.

وقد أجملها أمير المؤمنين (ع) في قوله: (وَلاَ تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلاً يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ، وَيَعِدُكَ الْفَقْرَ، وَلا جَبَاناً يُضعِّفُكَ عَنِ الأُمُورِ، وَلا حَرِيصاً يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَهَ بِالْجَوْرِ. فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللّهِ)[٢٨].

ثانياً ـ شروط اختيار الوزير:

وضع الإمام (ع) شروطاً لاختيار الوزير، يمكن أجمالها على النحو الآتي:

١) أن لا يكون الوزير، قد تسلم منصب الوزارة من قبلُ، عند حاكم ظالم، لأنّه كان عوناً له في ظلمه.

٢) أن يكون الوزير من أهل الورع، والصدق.

٣) أن لا يكون الوزير ممن عُرف بالتملق.

٤) أن يكون التعامل مع الوزير كل بحسب عمله في الإحسان أو الإساءة.

وهذا بدا في قوله: (إنّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيراً، وَمَنْ شَرِكَهُمْ فِي الآثَامِ، فَلاَ يَكُونَنَّ لَكَ بِطَانَةً، فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الأَثَمَةِ، وَإِخْوَانُ الظَّلَمَةِ، ... وَالْصَقْ بِأَهْلِ الْوَرَعِ وَالصِّدْقِ، ثُمَّ رُضْهُمْ عَلَى أَلا يُطْرُوكَ وَلا يُبَجِّحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الإِطْرَاءِ تُحْدِثُ الزَّهْوَ، وَتُدْنِي مِنَ الْعِزَّةِ. وَلا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ: فَإِنَّ فِي ذلِكَ تَزْهِيداً لأَهْلِ الإِحْسَانِ فِي الإِحْسَانِ وَتَدْرِيباً لأَهْلِ الإِسَاءَةِ عَلَى الإِسَاءَةِ، وَأَلْزِمْ كُلاًّ مِنْهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ)[٢٩].

ومع هذا فإنّ الإمام (ع) عدّ حُسْن الظَّنِّ معياراً رئيساً في التعامل مع أفراد المجتمع، لأنّه سيسهل على الحاكم وقتاً، وجهداً كبيرين، حين يقول: (وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إِلى حُسْنِ ظَنِّ وَالٍ بِرَعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وَتَخْفِيفِهِ الْمَؤُونَاتِ عَلَيْهِمْ، وَتَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ قِبَلَهُمْ، فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِي ذلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ بِرَعِيَّتِكَ، فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَباً طَوِيلاً، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بَلاؤُكَ عِنْدَهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بَلاؤُكَ عِنْدَهُ)[٣٠]. ويرى (ع) أن من مظاهر حُسْن الظَّنِّ الإحسان إلى أفراد المجتمع، ورفع عنهم كل ما يثقل كاهلهم، وأن لا يحملهم على أمور لم تكن معروفة عندهم من قبل، فيتخذ موقفاً منهم غير صائب. ويمكن القول أنّ حُسْن الظَّنِّ شرط ينضو تحته جميع أفراد المجتمع، ومنهم الوزراء.

ثالثاً ـ شروط مواصلة بناء الدولة:

تعتمد الدولة في مسيرتها على مبدأ التراكم المعرفي في مختلف النشاطات، السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، ويجب على الحاكم أو الإداري أنّ لا ينقض ذلك التراكم؛ لأنّ

آمور أفراد المجتمع لن تستقيم، فعندما ينجز بناء ما، ويأتي من ينقضه بعد حين، ومن أجل بناء الدولة، يجب إدامة ما بدأه الآخرون، وتطويره بالاعتماد على ذوي الاختصاص من علماء وحكماء، ومراجعة المُنجز. وجاء هذا المفهوم في قول الإمام (ع): (وَلاَ تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هذِهِ الأمة، وَاجْتَمَعَتْ بِهَا الأُلْفَةُ، وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ، وَلا تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ بِشَيءٍ مِنْ مَاضِي تِلْكَ السُّنَنِ، فَيَكُونَ الأَجْرُ لِمَنْ سَنَّهَا، وَالْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا. وَأَكْثِرْ مُدَارَسَةَ الْعُلَمَاءِ، وَمُنَافَثَةَ (مجالسة) الْحُكَمَاءِ، فِي تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ بِلاَدِكَ، وَإِقَامَةِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ)[٣١].

ويتجه أمير المؤمنين (ع) إلى التذكير بالله - سبحانه وتعالى - ورسوله الكريم (ص) في أثناء عهده، فيجعل من الرجوع إلى الله - سبحانه وتعالى - ورسول لله (ص) وأهل بيته (عليهم السلام) الذين هم ضمن سنن الرسول الجامعة، أساساً عقائدياً، يجب الأخذ به، عادا من النص القرآني، معياراً، يركن إليه، عندما يفسر قوله الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ (النساء: ٥٩). وهذا يظهر في قول الإمام (ع): (وَارْدُدْ إِلى اللهِ وَرَسُولِهِ مَا يُضْلِعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ، وَيَشْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ الأُمُورِ، فَقَدْ قَالَ اللهُ سبحانه لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأمر مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلى اللهِ وَالرَّسُولِ، فَالرَّدُّ إِلى اللهِ: الأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ، وَالرَّدُّ إِلى الرَّسُولِ: الأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُفَرِّقَةِ)[٣٢].

رابعاً - شروط اختيار القضاة، وأسلوب التعامل معهم:

مؤسسة القضاء من المؤسسات المهمة في الإسلام، فهي مظهر من مظاهر تحقيق العدل في المجتمع، من أجل هذا، نرى أمير المؤمنين (ع) أولاها عنايته، بعد أن خَبَر القضاء ومارسه من قبل، فذكر عدداً من الشروط، نوجزها على النحو الآتي:

١) أن يكون من يتولى أمر القضاء من خيار القوم.
٢) واسع العلم والدراية ببواطن الأمور.
٣) غير لجوج، تجعله الخصوم ما حقاً لجوجاً.
٤) ممن لا يصر على الخطأ، إذا وقع فيه.
٥) أن يكون مفوها. ينطق بالحق، فيقنع الخصوم بحكمه.
٦) غني النفس غير دنيء.
٧) ليس بملول في متابعة الخصوم.
٨) كثير الصبر في الكشف عن الحقائق.
٩) قاطعاً في أحكامه غير متردد فيها بعد اتضاح الأمور عنده.
١٠) لا يتأثر بالإطراء، والإغراء.

وكانت تلك الشروط في قول الإمام (ع): (ثُمَّ اخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أفضل رَعِيَّتِك فِي نَفْسِكَ، مِمَّنْ لا تَضِيقُ بِهِ الأُمُورُ، وَلا تُمَحِّكُهُ الْخُصُومُ، وَلا يَتَمادَى فِي الزَّلَّةِ، وَلا يَحْصَرُ مِن الْفَيْءِ إلى الْحَقِّ إذا عَرَفَهُ، وَلا تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ، وَلا يَكْتَفِي بِأَدْنَى فَهْمٍ دُونَ أَقصَاهُ. وَأَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ، وَآخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ، وَأَقَلَّهُمْ تَبَرُّماً بِمُرَاجَعَةِ الْخَصْمِ، وَأَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكَشُّفِ الأُمُورِ، وَأَصْرَمَهُمْ عِنْدَ اتِّضَاحِ الْحُكْمِ، مِمَّنْ لا يَزْدَهِيهِ إطْرَاءٌ، وَلا يَسْتَمِيلُهُ إغْرَاءٌ، وَأُولئِكَ قَلِيلٌ)[٣٣].

ويطلب من الحاكم متابعة أحكام القاضي، وأن يزيد في عطائه، مما يجعله بعيداً عن الفساد، والحاجة للناس، ويرفع من مكانته حتى لا يخضع لذوي النفوذ. وهذا ظهر في قول الإمام (ع): (ثُمَّ أكثر تَعَاهُدَ قَضَائِهِ، وافْسَحْ لَهُ فِي الْبَذْلِ مَا يُزِيلُ عِلَّتَهُ، وَتَقِلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إلى النَّاسِ، وَأَعْطِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ مَا لا يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ، لِيَأْمَنَ بِذلِكَ اغْتِيَالَ الرِّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ)[٣٤].

خامساً - شروط تعيين الإداريين (الأعوان)، وأسلوب التعامل معهم:

والتفت الإمام (ع) إلى مَن ينهض بمساعدة الإداري أو الوالي، ويسميهم بالأعوان، ويجب توافر عدد من الشروط فيهم، هي:

١) يتم التعيين بعد إجراء الاختبار، بعيداً عن المحاباة.

٢) يكون المُعين من ذوي التجربة، والحياء.

٣) يكون المُعين من ذوي الخلق الكريم.

٤) يكون المُعيّن من السابقين في الإسلام.

أنّ تلك الأمور التي ذكرها الإمام (ع)، تيسر سبل العمل على نحو كبير، لأنّ الاختيار كان على وفق أسس موضوعية، راعت الخلق الكريم، وهكذا نهج ستكون نتائجه مثمرة في الإدارة، وتظهر تلك الشروط، في قوله (ع): (ثمَّ انْظُرْ فِي أُمُورِ عُمَّالِكَ، فَاسْتَعْمِلْهُمُ اخْتِبَاراً، وَلا تُوَلِّهِمْ مُحَابَاةً وأَثَرَةً، فَإِنَّهُمَا جِمَاعٌ مِنْ شُعَبِ الْجَوْرِ وَالْخِيَانَةِ. وَتَوَخَّ مِنْهُمْ أهل التَّجْرِبَةِ وَالْحَيَاءِ، مِنْ أهل الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ، وَالْقَدَمِ فِي الإسلام الْمُتَقَدِّمَةِ، فَإِنَّهُمْ أَكْرَمُ أَخْلاقاً، وَأَصَحُّ أَعْرَاضاً، وَأَقَلُّ فِي الْمَطَامِعِ إشْرَافاً، وَأَبْلَغُ فِي عَوَاقِبِ الأُمُورِ نَظَراً)[٣٥].

وعندما يتم تعيين الإداريين، كان لابد من اتخاذ عدد من الإجراءات، تهيئ السبيل لهم، ليؤدوا عملهم على نحو أفضل، وتبدو في قوله (ع): (ثُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِمُ الأَرْزَاقَ، فَإِنَّ ذلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِصْلاحِ أَنْفُسِهِمْ، وَغِنىً لَهُمْ عَنْ تَنَاوُلِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ، وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ إنْ خَالَفُوا أَمْرَكَ أو ثَلَمُوا أَمَانَتَكَ. ثُمَّ تَفَقَّدْ أَعْمَالَهُمْ، وَابْعَثِ الْعُيُونَ مِنْ أهل الصِّدْقِ وَالوَفَاءِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ فِي السِّرِّ لأمورهم حَدْوَةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِعْمَالِ الأَمَانَةِ، وَالرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ. وَتَحَفَّظْ مِنَ الأَعْوَانِ، فَإِنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَسَطَ يَدَهُ إلى خِيَانَةٍ اجْتَمَعَتْ بِهَا عَلَيْهِ عِنْدَكَ أَخْبَارُ عُيُونِكَ، اكْتَفَيْتَ

بذلِكَ شَاهِداً، فَبَسَطْتَ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ فِي بَدَنِهِ، وَأَخَذْتَهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ عَمَلِهِ، ثُمَّ نَصَبْتَهُ بِمَقَامِ الْمَذَلَّةِ، وَوَسَمْتَهُ بِالْخِيانَةِ، وَقَلَّدْتَهُ عَارَ التُّهَمَةِ)[٣٦].

فالعطاء الجزيل للإداريين سيعصمهم من الانحراف، وسيكون هذا العطاء حجة عليهم في حالة ضعفهم، فلا مسوغ لهم - حينئذ - في خيانة الأمانة، بعد الذي نالوه من عطاء، يزاد على ذلك، فإنهم يجب أن لا يتركوا من دون متابعة عملهم مباشرة من الحاكم، أو على نحو غير مباشر عن طريق أناس يرتضيهم الحاكم، يعرفون بالصدق والوفاء.

وعندما يخرج الإداري عن جادة الأمانة، فيسلك سبيل الخيانة، فعلى الحاكم اتخاذ الإجراءات، وتطبيق القوانين عليه، فينال ما يستحق من عقوبات. وهكذا سبيل يدعو إليه الإمام (ع) نوع من أنواع المراقبة، و (المراقبة بمفهومها العام: هي إحدى مكونات العملية الإدارية، وهي إحدى وظائف الإدارة، ترتبط بأوجه النشاط الإداري المختلفة من تخطيط، وتنظيم، واتخاذ للقرارات، وتنفيذها. وهي عملية متابعة دائمة ومستمرة تقوم بها السلطة بنفسها أو بتكليف غيرها، للتأكد من أنّ ما يجري عليه العمل، يسير وفقاً للخطط الموضوعة والسياسات المرسومة والبرامج المُعدّة لذلك، في حدود القوانين، والنظم، والتعليمات المعمول بها، لتحقيق أهداف معينة، مع دراسة الانحراف في التنفيذ لمعالجته ومنع تكرار وقوعه)[٣٧].

سادساً - شروط العمل الاقتصادي (الزراعة):

يقدم الإمام (ع)، نظرية في الاقتصاد، تشير إلى أنه قد سبق عصره بعدد من المراحل فامتلك فكراً اقتصادياً خلاّقاً، وتلك صفة كانت حاضرة فيه، على نحو خاص، صيرت منه قائدا نبويّا، جاء ليؤدي دوره بعد الرسول عندما جعله وصيا، ويذكرنا بنبي الله يوسف (ع) الذي قدّم نظرية اقتصادية متكاملة، لأهل مِصر بدت في قول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ (يوسف: ٤٧). ولعل أهل مصر موعودون بتلك النظريات الاقتصادية المثمرة، فإنّ النشاط الاقتصادي في الإسلام ينبع من الإيمان بوصفه طاقة محركة للمسلم، ويؤدي إلى كل عمل صالح، لأنّ الإسلام ينظر إلى الإنسان على أنّه كلّ متكامل، لا يمكن إشباع جانب منه على حساب جانب آخر[٣٨]. ويرى الإمام (ع)، أن رأس المال يتحصل عن طريقين، هما: (عِمَارَةَ الأَرْضِ)، و (الْخَرَاجِ) وبلغة معاصرة (الزراعة)، و (الضرائب) الخراج تعني في أصلها الضريبة[٣٩]. بيد أنّ الإمام، يرى أنّ (عِمَارَةَ الأرض)، أحق بالعناية من (اسْتِجْلاَبِ الْخَرَاجِ) ولفظة (اسْتِجْلاَبِ) تشير إلى أنّ الحصول عليه، لا ينجز بيسر، وإنّما بعد جهد وعناء، ولو صُرف ذلك الجهد، وخراجه تلقاء (عمارة الأرض)، لكان أكثر منفعة لأهل المصر، ويجب توجيه الخراج، وموارده لعمارة الأرض. وعندما يشكو أهل البلاد من تردي وضعهم الاقتصادي، أو انقطاع المياه، والأمطار، فعلى الوالي أن يبادر إلى ما يخفف وطأته عليهم. كلُّ تلك المفاهيم بدت في قوله: (وَلْيَكُنْ

نَظَـرُكَ فِـي عِمَـارَةِ الأَرْضِ أَبْلَـغَ مِـنْ نَظَـرِكَ فِـي اسْـتِجْلاَبِ الْـخَرَاجِ، لأَنَّ ذلِـكَ لا يُـدْرَكُ إِلَّـا بِالْعِمَارَةِ)[٤٠].

سابعاً ـ شروط عمل التجّار، والصناعيين:

مع أن عمل التجّار، والصناعيين، ينضوي تحت شروط العمل الاقتصادي، فإنّ الإمام فصّل القول فيه، على نحو مستقل، من أجل هذا ارتأى الباحث السير على نهج الإمام في ذلك.

إنّ للمهارات الإنسانية علاقة بالطريقة التي يستطيع بها رجال الإدارة التعامل على نحو سليم من التعامل مع الآخرين، مما يجعلهم يتعاونون معه، ويخلصون في العمل، ويزيدون من قدرتهم على الإنتاج. وتتضمن المهارات الإنسانية مقدار كفاءة رجل الإدارة في التعرّف على متطلبات العمل مع الناس أفراداً ومجموعات، فالمهارة الإنسانية الجيدة، تجعل الإداري يحترم شخصية الآخرين، وهذا السبيل. يدفعهم إلى الحماس في العمل، ويحقق لهم الرضا والاحترام المتبادل بتداخل عوامل الظروف المادية للعمل مع الظروف الاجتماعية وحاجات الفرد مع بعضها الآخر، وهذه العوامل لها تأثير كبير على سلوك الأفراد[٤١].

وثمة شروط لها علاقة بعمل التجّار، والصناعيين، ذكرها أمير المؤمنين (ع) في عهده، استهلها، بأن أوصى بهم خيرا، وهم ثلاث فئات، الأولى: مستقرة في البلاد، والثانية: تتنقل بالمال بين البلدان، والثالثة: تتكسب رزقها بالعمل ببدنها. وجميعهم عنصر من عناصر الاقتصاد، ومن الواجب متابعة نشاطاتهم، حيث يقول فيهم: (ثُمَّ اسْتَوْصِ بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصِّنَاعَاتِ، وَأَوْصِ بِهِمْ خَيْراً: الْمُقِيمِ مِنْهُمْ، وَالْمُضْطَرِبِ بِمَالِهِ، وَالْمُتَرَفِّقِ بِبَدَنِهِ، فَإِنَّهُمْ مَوَادُّ الْمَنَافِعِ، وَأَسْبَابُ الْمَرَافِقِ، وَجُلاَّبُهَا مِنَ الْمَبَاعِدِ وَالْمَطَارِحِ، فِي بَرِّكَ وَبَحْرِكَ، وَسَهْلِكَ وَجَبَلِكَ، وَحَيْثُ لا يَلْتَئِمُ النَّاسُ لِمَوَاضِعِهَا، وَلا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْهَا، فَإِنَّهُمْ سِلْمٌ لا تُخَافُ بَائِقَتُهُ، وَصُلْحٌ لا تُخْشَى غَائِلَتُهُ، وَتَفَقَّدْ أُمُورَهُمْ بِحَضْرَتِكَ وَفِي حَوَاشِي بِلادِكَ)[٤٢]. لأنّ تأثيرهم في الاقتصاد، لا يسوغ أن تكون المبادرة بأيديهم، فمنهم من يكون صدره ضيقاً في معاملته لأفراد المجتمع، وشديد البخل، ومحتكراً للتجارات، والصناعات، يوجهها حيث شاء، وهذا الأمر مما يضرُّ بالاقتصاد، ويعدُّ خللا في عمل الحاكم، فعليه أن يمنع الاحتكار، على نحو يتسق مع مبادئ الشريعة، وهنا يظهر (أنّ دراسة الفكر الاقتصادي الإسلامي، لا تتم منفصلة عن عقيدة الإسلام، وشريعته، ومن ثم، فهي ترتبط بالإسلام ككل، ولهذا لابد أنْ يكونَ للنشاط الاقتصادي في الإسلام طابع تعبدي، وأنْ تكونَ الرقابة على ممارسة هذا النشاط رقابة ذاتية في الأصل)[٤٣]. وقد بدا ذلك في قوله (ع): (وَاعْلَمْ ـ مَعَ ذلِكَ ـ أَنَّ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ ضِيقاً فَاحِشاً، وَشُحّاً قَبِيحاً، وَاحْتِكَاراً لِلْمَنَافِعِ، وَتَحَكُّماً فِي الْبِيَاعَاتِ، وَذلِكَ بَابُ مَضَرَّةٍ لِلْعَامَّةِ، وَعَيْبٌ عَلَى الْوُلاَةِ، فَامْنَعْ مِنَ الاحْتِكَارِ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ (ص) مَنَعَ مِنْهُ)[٤٤].

ورأى أن البيع، يجب أن يكون العدلُ حاضرا فيه عن طريق: الموازين، ومراعاة الأسعار لكلٍّ من البائع والمشتري، ويتم توجيه الإنذار للمحتكر، فإن لم يرتدع حينئذ يُعاقب على

نحو معتدل، وفي هذا يقول: (وَلْيَكُنِ الْبَيْعُ بَيْعاً سَمْحاً: بِمَوَازِينِ عَدْلٍ، وَأَسْعَارٍ لا تُجْحِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْبَائِعِ وَالْمُبْتَاعِ، فَمَنْ قَارَفَ حُكْرَةً بَعْدَ نَهْيِكَ إِيَّاهُ فَنَكِّلْ بِهِ، وَعَاقِبْ فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ)[٤٥].

ثامناً - شروط الرعاية الاجتماعية:

للرعاية الاجتماعية نصيب في عهد الإمام (ع) سعياً منه في معالجة الفوارق بين الطبقات الاجتماعية، فيوصي خيراً بالطبقة الدنيا ذات الدخل المحدود، والمساكين، والمحتاجين، والمرضى، ويرى أنّ منهم من يسأل حاجته، ومنهم المتعرّض للعطاء من دون سؤال. وهؤلاء لهم حقوق فرضها الله - سبحانه وتعالى - في بيت المال، وفي إنتاج صوافي الإسلام: الأرض التي لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب. ويدعو إلى مساواة القريب منهم، والبعيد في العطاء. ويجب أن يكونوا موضع الاهتمام عن طريق متابعة حقوقهم، وعدم الانشغال عنهم، والتكبر عليهم، وقد لا يصل منهم إلى الحاكم من ساء منظره، تزدريه النفوس، فيجب أن يوكل أمرهم إلى من يخشى الله، ومعروف بالتواضع حتى يصل إلى الحاكم ما انقطع من حقوقهم. وهذه المفاهيم بدت في قوله (ع): (ثُمَّ اللَّهَ اللَّهَ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنَ الَّذِينَ لا حِيلَةَ لَهُمْ، وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُحْتَاجِينَ وَأَهْلِ الْبُؤْسَى وَالزَّمْنَى، فَإِنَّ فِي هذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعاً ومُعْتَرّاً، وَاحْفَظْ لِلَّهِ مَا اسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ، وَاجْعَلْ لَهُمْ قِسماً مِنْ بَيْتِ مَالِكَ، وَقِسماً مِنْ غَلاَّتِ صَوَافِي الإسلام فِي كُلِّ بَلَدٍ)[٤٦].

وهكذا قول ليس ببعيد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأهل البيت (عليهم السلام) الذين نزل فيهم قول الحق - تبارك وتعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ (الإنسان: ٨ - ١٠). ذلك قول الحقّ فيهم[٤٧]. ولا ريب في أنّ مَن اتسم بتلك الصفات، فإنّ عطاءَهُ عند الله غير منقوص، من أجل هذا وغيره، فإنّ النظر إليهم بمعيار الله يُسوِّغ المكانة التي، يتقدمون بها على سواهم، وأنهم يسعون إلى تحقيق التكافل الاجتماعي، ووجدنا أمير المؤمنين (ع)، يوصي خيرا بالمستضعفين، ومنهم: الأيتام، وكبار السنّ، عندما يقول: (وَتَعَهَّدْ أهل الْيُتْمِ، وَذَوِي الرِّقَّةِ فِي السِّنِّ مِمَّنْ لا حِيلَةَ لَهُ، وَلا يَنْصِبُ لِلْمَسْأَلَةِ نَفْسَهُ، وَذلِكَ عَلَى الْوُلاَةِ ثَقِيلٌ، وَالْحَقُّ كُلُّهُ ثَقِيلٌ، وَقَدْ يُخَفِّفُهُ اللَّهُ عَلَى أَقْوَامٍ طَلَبُوا الْعَاقِبَةَ فَصَبَرُوا أَنْفُسَهُمْ، وَوَثِقُوا بِصِدْقِ مَوْعُودِ اللَّهِ لَهُمْ. وَاجْعَلْ لِذَوِي الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْماً تُفَرِّغُ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ، وَتَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِساً عَامّاً، فَتَتَوَاضَعُ فِيهِ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَكَ، وَتُقْعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَشُرَطِكَ، حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَعْتَعٍ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ: «لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لا يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ الْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَعْتَعٍ». ثُمَّ احْتَمِلِ الْخُرْقَ مِنْهُمْ وَالْعِيَّ، وَنَحِّ عَنْكَ الضِّيقَ وَالأَنَفَ، يَبْسُطِ اللَّهُ عَلَيْكَ بِذلِكَ أَكْنَافَ رَحْمَتِهِ، وَيُوجِبْ لَكَ ثَوَابَ طَاعَتِهِ، وَأَعْطِ مَا أَعْطَيْتَ هَنِيئاً، وَامْنَعْ فِي إِجْمَالٍ وَإِعْذَارٍ)[٤٨]. يزاد على ذلك، فإن من يتولى الإدارة، عليه أنّ

لا يجعل أبوابه موصدة أمام المستضعفين، ويحتمل كلّ ما يبدر منهم، واسع الصدر، ويأخذ لهم حقهم طاعة لرسول الله (ص) الذي أمر بأخذ حق الضعيف من القوي من غير تردد، وأن يكون للتواضع نصيب عنده، وعندما يمنح فإنّ عطاءه، يكون من غير منةٍ، وإن شح فيجب أن يقدم العذر. كلّ هذا يشير إلى أن الإمام قدم منظومة متكاملة لمن أراد أن يلتزم بالسلوك الإنساني الحق في تعامله مع أفراد المجتمع. ولا ريب أن يصدر هكذا منهج من الإمام، وفي هذا يقول المستشار عبد الحليم الجندي: (لم يكد أمير المؤمنين، يتلقى البيعة حتى أطلق كلماته كالصواعق رجوماً للمنحرفين. أو كالبوارق المتألقة بآمال المصلحين. في منهاجه السياسي، والاجتماعي والاقتصادي الجامع)[٤٩].

التقوى، وإقامة الفرائض:

إنّ كل ما تقدم، يشير إلى أن ما ذكره الإمام من أسس يخص الدين، والدنيا، وهما يرتبطان مع بعضهما بأمشاج لا تنفصم عراها، فعلى سبيل المثال (حين نؤمن نفقات الجهاد والحرب مع العدو، فإنّ دفع هذه النفقات مشاركة في الجهاد، وهو من العبادات أيضاً، وهناك تصنيف فقهي بهذا الشأن يخصص فصلاً للعبادات المالية إضافة للعبادات الجسدية، والخُمس، والزكاة شكلان من أشكال الإنفاق المحدد دفعهما من قِبل كلّ مسلم تتوافر فيه الشروط اللازمة بشأنهما)[٥٠]. من أجل هذا، نجد الإمام، يحث على أداء الفرائض في قوله (وَلْيَكُنْ فِي خاصَّةِ مَا تُخْلِصُ لِلّهِ بِهِ دِينَكَ: إِقَامَةُ فَرَائِضِهِ الّتي هِيَ لَهُ خاصَّةً، فَأَعْطِ اللّهَ مِن بَدَنِكَ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ، وَوَفِّ مَا تَقَرَّبْتَ بِهِ إلى اللّهِ مِنْ ذلِكَ كَامِلاً غَيْرَ مَثْلُومٍ وَلا مَنْقُوصٍ، بَالِغاً مِنْ بَدَنِكَ مَا بَلَغَ. وَإِذَا قُمْتَ فِي صلاتِكَ لِلنَّاسِ، فَلاَ تَكُونَنَّ مُنَفِّراً وَلا مُضَيِّعاً، فَإِنَّ فِي النَّاسِ مَنْ بِهِ الْعِلَّةُ وَلَهُ الْحَاجَةُ. وَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللّهِ (ص) (حِينَ وَجَّهَنِي إلى الْيَمَنِ: كَيْفَ أُصَلِّي بِهِمْ؟ فَقَالَ: «صَلِّ بِهِمْ كَصَلاَةِ أَضْعَفِهِمْ، وَكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً»)[٥١].

وصايا عامّة:

يمكن إجمال عدد من الأمور على نحو سريع ذكرها أمير المؤمنين (ع) لها علاقة بمضامين العهد مع ملاحظة أن جلّ ما ورد في العهد له صلة وثيقة بالإنسان وحقوقه، وهي على النحو الآتي:

١) حِفظ دماء الناس، ولا يتم تثبيت سلطة الدولة بإراقة الدماء[٥٢].

٢) على من يتولى الإدارة، أن لا يعجب بنفسه، (وَحُبَّ الإِطْرَاءِ: فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرَصِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ، لِيَمْحَقَ مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ الْمُحْسِنِينَ)[٥٣].

٣) عدم المن على الناس، أو المبالغة في العمل، أو الالتزام بالوعود المقطوعة (فَإِنَّ الْمَنَّ يُبْطِلُ الإِحْسَانَ، وَالتَّزَيُّدَ يَذْهَبُ بِنُورِ الْحَقِّ، وَالخُلْفَ يُوجِبُ الْمَقْتَ عِنْدَ اللّهِ وَالنَّاسِ، قَالَ اللّهُ سبحانه: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾)[٥٤].

٤) ترك الاستعجال في اتخاذ القرارات[٥٥].

٥) عدم الاستئثار، وطلب ما في أيدي الناس، باستغلال السلطة وسطوتها[٥٦].

٦) الاقتداء بسنن الصالحين، وما أثر عن رسول الله (ص)، أو ما جاء في القرآن الكريم في العمل. حين يقول: (وَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَذَكَّرَ مَا مَضَى لِمَنْ تَقَدَّمَكَ: مِنْ حُكُومَةٍ عَادِلَةٍ، أو سُنَّةٍ فَاضِلَةٍ، أو أَثَرٍ عَنْ نَبِيِّنَا (ص) أو فَرِيضَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ، فَتَقْتَدِيَ بِمَا شَاهَدْتَ مِمَّا عَمِلْنَا بِهِ فِيهَا، وَتَجْتَهِدَ لِنَفْسِكَ فِي اتِّبَاعِ مَا عَهِدْتُ إِلَيْكَ فِي عَهْدِي هذَا، وَاسْتَوْثَقْتُ بِهِ مِنَ الْحُجَّةِ لِنَفْسِي عَلَيْكَ، لِكَيْلاَ تَكُونَ لَكَ عِلَّةٌ عِنْدَ تَسَرُّعِ نَفْسِكَ إلى هَوَاهَا)[٥٧].

إنّ كلّ ما تقدّم يشير إلى أنّ أمير المؤمنين (ع) سار على نهج رسول الله (ص) في تأسيسه للدولة الإسلامية (الدولة التي تقوم على أساس الإسلام، وتستمد منه تشريعاتها، وهي دولة فكرية قانونية، تقوم على أساس سيادة القانون الإلهي، وقيم الحق والعدل واحترام حقوق الإنسان)[٥٨].

مسك ختام العهد:

يقدم أمير المؤمنين (ع) في ختام العهد ابتهالا مفعما بالدعاء إلى الله سبحانه وتعالى، وكأنه في محراب صلاته، فيقول: (وَأَنَا أَسْأَلُ اللهَ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَلَى إِعْطَاءِ كُلِّ رَغْبَةٍ، أَنْ يُوَفِّقَنِي وَإِيَّاكَ لِمَا فِيهِ رِضَاهُ مِنَ الإِقَامَةِ عَلَى الْعُذْرِ الْوَاضِحِ إليه وَإِلَى خَلْقِهِ، مَعَ حُسْنِ الثَّنَاءِ فِي الْعِبَادِ، وَجَمِيلِ الأَثَرِ فِي الْبِلاَدِ، وَتَمَامِ النِّعْمَةِ، وَتَضْعِيفِ الْكَرَامَةِ، وَأَنْ يَخْتِمَ لِي وَلَكَ بِالسَّعَادَةِ وَالشَّهَادَةِ، إِنَّا إليه رَاجِعونَ، وَالسَّلاَمُ عَلَى رَسُولِ اللهِ (ص) (الطيبين الطاهرين، وسلّم تسليما كثيراً، والسلام)[٥٩].

الخاتمة:

بعد أنْ عرض البحث - بفضل الله وعونه - لأثر الرسول(ص) في منهج أمير المؤمنين (ع) في عهده لمالك الأشتر، على وفق المنهج الذي ارتضاه الباحث سبيلا لاستكناه مضامين ذلك الأثر، ظهرت ثمة نتائج، أشارت إلى مواضع الجدة والاجتهاد في نهج الإمام (ع) يمكن إيجازها على النحو الآتي:

- بدا في أثناء البحث منطلقات الإمام (ع) في عهده، وكانت من القرآن الكريم، ومنهج الرسول الكريم (ص)، وظهرُ صوته في أثنائها، فأسلوبه في التفكير ظهر في النهج الذي اختطّهُ وسار عليه، يزيد على ذلك المادةُ الموظفة في مناقشة الموضوع وطريقة تنظيمه لها، معززاً بالغاية منها، وكلُّ ذلك اكتسب شرعيته من التراكم المعرفي، الذي كان مآله الذي يركن إليه.
- بين البحث أنّ نهج الإمام في عهده، نهج بكْرٌ، لغة، ومنهجاً، عندما وظف منظومة متكاملة في الإدارة، لم يلتفت إليه الإداريون والحكام من قبل.

مما تقدم، يتبين لنا بعض من شخصية الإمام (ع) ومكانته، وأثره الذي لا يقاس به أحد. عندما اتخذ من مبادئ السماء منهاج عمل، داعيا إلى الأخذ به، لمن أراد ولوج سبل النجاة في الدارين. ومع أنّ من الباحثين المعاصرين ممن كتبوا في الإدارة، والاقتصاد الإسلامي، لم يلتفتوا إلى مقولات الإمام (ع) واتجهوا إلى مَن جاء من بعده بستة قرون، أو سبعة، فعدوا مقولات الماوردي، أو ابن تيمية، علامات مضيئة في الفكر الإسلامي، وهو نوع من التمويه على حقيقة الإسلام الذي يمثله، الإمام (ع) وارث علم رَسُولِ الله (ص) حين أنهم لو أنصفوا الحق والإنسانية، لاتجهوا تلقاءه ولوجدوا ـ حينئذ ـ أنّ ثمة بوناً شاسعاً بينه، وبين غيره، فالحزب الأموي وأنصاره، سعوا جاهدين للنيل من كل مَن آمن بالرسول الكريم (ص) وجاهد معه، ووصيه، ولكن خاب سعي الطلقاء، وأبنائهم، فالحق ـ سبحانه، أنجز وعده، فقال في كتابه العزيز: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ (غافر/٥١).

الهوامش:

(١) أمالي الصدوق: ٣٨٤/١٦.

(٢) مقاتل الطالبيين: ٤٢.

(٣) عجائب القرآن: ١٠٥ ـ ١٠٦. وينظر: مجمع البيان: ٨/ ١٧٧. والتفسير المبين: ٥٩٤.

(٤) ينظر: المفردات: ٤٦٢ ـ ٤٦٣. وأساس البلاغة: ٣١٥.

(٥) التعريفات: ١٦١.

(٦) ينظر: الأخبار الطِوال: ١٢٠، ١٤٣، ١٤٧، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٦، ١٦٧، ١٧٧، ١٨٢، ١٩٠.

(٧) نهج البلاغة: ٤٢٦ ـ ٤٢٧.

(٨) تحف العقول: ١١٩.

(٩) نهج البلاغة: ٤٢٧.

(١٠) نهج البلاغة: ٣٨٤. وتحف العقول: ١٢٥.

(١١) نهج البلاغة: ٤٢٧.

(١٢) نهج البلاغة: ٤٢٧.

(١٣) ينظر: القيم الإسلامية في السلوك الاقتصادي: ١٠٠.

(١٤) تحف العقول: ١٣٨.

(١٥) نهج البلاغة: ٤٢٧.

(١٦) ينظر: إدارة الأفراد والعلاقات الإنسانية: ٢٦.

(١٧) نهج البلاغة: ٤٢٧.

(١٨) التعريفات: ١١٣.

(١٩) نهج البلاغة: ٤٢٧.

(٢٠) نهج البلاغة: ٤٢٧.

(٢١) إثبات الوصية: ١٣٤.

(٢٢) نهج البلاغة: ٤٢٨ ـ ٤٢٩.

(٢٣) المفردات: ٤٤٧ - ٤٤٨.

(٢٤) نهج البلاغة: ٤٢٨.

(٢٥) نهج البلاغة: ٤٢٨. إِدْغَالٌ: فساد، الْغِيَرِ: حوادث الدهر.

(٢٦) نهج البلاغة: ٤٢٨. يُطَامِن: يخفض، طِمَاحِكَ: جماحك، مُسَامَاةَ: السموّ.

(٢٧) الفكر الإسلامي والإدارة المالية للدولة: ٥٢.

(٢٨) نهج البلاغة: ٤٣٠.

(٢٩) نهج البلاغة: ٤٣٠ - ٤٣١. رُضْهُمْ: عوّدهم، الْعِزَّة: الكِبْر.

(٣٠) نهج البلاغة: ٤٣١.

(٣١) نهج البلاغة: ٤٣١. مُنَافَثَةَ: مجالسة.

(٣٢) نهج البلاغة: ٤٣٤.

(٣٣) نهج البلاغة: ٤٣٤ - ٤٣٥.

(٣٤) نهج البلاغة: ٤٣٥.

(٣٥) نهج البلاغة: ٤٣٥.

(٣٦) نهج البلاغة: ٤٣٥ - ٤٣٦. حَدْوَةٌ: حثّ.

(٣٧) الفكر الإسلامي والإدارة المالية للدولة: ١٣٩.

(٣٨) ينظر: القيم الإسلامية في السلوك الاقتصادي: ٨١.

(٣٩) ينظر: الاقتصاد الإسلامي: ١٢٧.

(٤٠) نهج البلاغة: ٤٣٥ - ٤٣٦. إِعْوَاز: الحاجة.

(٤١) ينظر: إدارة الأفراد والعلاقات الإنسانية: ٢٦.

(٤٢) نهج البلاغة: ٤٣٨. الْمُضْطَرِب بِمَالِهِ: المتردّد به بين البلدان. الْمُتَرَفِّقِ: المكتسب. الْمَرَافِقِ: ما ينتفع به من الأدوات والآنية. بَائِقَتُهُ: البائقة، الداهية.

(٤٣) ينظر: الإسلام والاقتصاد: ١٥.

(٤٤) نهج البلاغة: ٤٣٨.

(٤٥) نهج البلاغة: ٤٣٨.

(٤٦) نهج البلاغة: ٤٣٨ - ٤٣٩. تَقْتَحِمُهُ الْعُيُونُ: تزدريه النفوس.

(٤٧) ينظر: الكشاف: ٤ /٥١٥ - ٥١٦، وينظر: مجمع البيان: ١٠: /١١٤.

(٤٨) نهج البلاغة: ٤٣٩ - ٤٤٠. الْخُرْقَ: الجهل.

(٤٩) الإمام جعفر الصادق: ٣١٢.

(٥٠) الاقتصاد الإسلامي: ١٢٦.

(٥١) نهج البلاغة: ٤٤٠.

(٥٢) نهج البلاغة: ٤٤٣.

(٥٣) نهج البلاغة: ٤٤٣ - ٤٤٤.

(٥٤) نهج البلاغة: ٤٤٤.

(٥٥) نهج البلاغة: ٤٤٤.

(٥٦) نهج البلاغة: ٤٤٤.

(٥٧) نهج البلاغة: ٤٤٥.

(٥٨) محمّد رسول الله (ص): ١٣٢.

(٥٩) نهج البلاغة: ٤٤٥.

روافد البحث:

- القرآن الكريم.
- **إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب:** المسعودي، علي بن الحسين بن علي الهذلي (ت٣٤٦هـ)، ط٢، مؤسسة أنصاريان، قم ـ جمهورية إيران الإسلامية، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.
- **الأخبار الطوال:** أبو حنيفة الدينوري، أحمد بن داود (ت٢٨٢هـ)، تحقيق: عبدالمنعم عامر، ط١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٠م.
- **إدارة الأفراد والعلاقات الإنسانية:** عادل حسن، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ـ مصر، ١٩٩٨.
- **أساس البلاغة:** الزمخشري، محمود بن عمر (ت: ٥٣٨هـ) تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان ١٣٩٩هـ.
- **الإسلام والاقتصاد:** د. عبدالهادي علي النجار، عالم المعرفة (٦٣) الكويت، ١٩٨٣م.
- **الاقتصاد الإسلامي:** د. محمد حسين بهشتي، دار التعارف للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، ١٤٠٨ ـ ١٩٨٨م.
- **أمالي الصدوق:** الصدوق القُمّي، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه (ت٣٨١هـ) منشورات مؤسسة الأعلمي ـ بيروت ط٥.
- **الإمام جعفر الصادق:** المستشار عبدالحليم الجندي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٧م.
- **تحف العقول عن آل الرسول:** الحرّاني، الحسن بن علي بن الحسين بن شُعبة (من أعلام القرن الرابع الهجري)، قدّم له وعلّق عليه: الشيخ حسين الأعلمي، ط٦، بيروت، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.
- **التعريفات:** الشريف الجرجاني، علي بن محمّد بن علي (ت٨١٦هـ) تحقيق: محمّد باسل عيون السود، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان ٢٠٠٩م.
- **التفسير المبين:** محمّد جواد، ط٢، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي.
- **عجائب القرآن:** الرازي، فخر الدين محمّد بن عمر بن الحسين (ت٦٠٦هـ)، ط ١، دار الكتب العلمية. بيروت – لبنان، ١٩٨٤م.
- **الفكر الإسلامي والإدارة المالية للدولة:** د. شوقي عبده الساهي، ط١، مكتبة النهضة المصرية، ١٤١١هـ.
- **القيم الإسلامية في السلوك الاقتصادي:** د. أحمد يوسف، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤١٠هـ.
- **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل:** الزمخشري، جارالله محمود بن عمر (ت٥٣٨هـ)، شرح وضبط: يوسف الحمّادي، مكتبة مصر، الفجالة، مصر.
- **مجمع البيان في تفسير القرآن:** الطبرسي، أمين الإسلام الفضل بن الحسن (ت٥٨٤ هـ)، ط ١، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٨م.
- **محمّد رسول الله وآله (ص) سيرته:** لجنة التأليف، ط٥، مؤسسة البلاغ، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.
- **المفردات في غريب القرآن:** الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد (ت٥٠٢هـ) تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ط١، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤٣٠ ـ ٢٠٠٩م.
- **مقاتل الطالبيين:** أبو الفرج الأصفهاني (ت٣٥٦هـ)، شرح وتحقيق: السيد أحمد صقر، ط١، انتشارات سعيد بن جبير، طهران، ١٤٢٥هـ.
- **نهج البلاغة:** (وهو مجموع ما اختاره الشريف الرضي محمد بن الحسين بن موسى (ت٤٠٦هـ) من كلام أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب) تعليق: د. صبحي الصالح، ط٢، انتشارات أنوار الهدى، إيران، ١٤٢٤هـ. ❖

أدبُ الحِـوار
مِن وَحي الغَدير وذاكِرة المجالِس

د. أسامة رشيد الصفّار

كلية التربية - ابن رشد - جامعة بغداد

الحَمْدُ للّهِ على ما مَنَّ به من الإيمان، ونِعمَةِ اللسان، الذي نزل به القرآن، والصلاة على نبيه الداعي إلى دار الرضوان، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان، وبعد؛

قبلَ عقدين مِنَ الزمان، أو أقلّ، جرَت مُناظرة في جامع الخُلفاء ببغداد، لم تشتهر كثيراً، ولم يأتِ على توثيقها أحد، غير ما حفظته البقية الصالحة في ذاكِرتِها مِنها، وكنتُ مِمَن شَهِد أحداثها مع والدي المرحوم رشيد الصفّار، إذ كانت رحى الخِلاف قد دارت بينه وبين الشيخ جلال الدين الحنفي، ليبتكر الأخير حديثه بشيءٍ قادَ الصفّار إلى الخوض في فِقْه الصلاة، فتَساوَرَه الحنفيّ، وكان قد شَهِد له بعلو الكعب في الحديث، وأخبار الرجال، فضلاً عن شهادته له بالحافظة العجيبة التي أسرت ألباب الناس برواية الشعر وأخبار العرب، فسَمّاه الحنفيّ لِذلِك براويةِ العراقِ الأول، وكانَ من جُملةِ ما دارَ عليه الخِلاف مسألتان، (إحداهما): في بُطلان التأمين في الصلاة، و (الأخرى): عن أهميّة القنوت فيها، ولا يزال يذكر تلك المُناظرة وما انتهت إليه مَنْ حَضرَها مِن الثقات الأحياء، إذ ذهبَ الحنفيّ إلى تأييد راوية الصفّار، فقال: كأنّ ما ذكرته لي قد مرّ بي ولم أتعهّده بالعناية، أو أنّي أغفلتُه بغير قصد، فعلِمتُ مِن يومها، أنّه - رحمه الله - مُقيمٌ صلاتَه في جامع الخُلفاء، إذ كان في حينها خطيباً يؤمُّ الناسَ في الجُمعة، فترقّبتُ ما سيحصل بفارغ الصبر على شاشة التلفاز، فإذا بالحنفي يرفعُ يديه قانِتاً، ولم يُؤمِّن، والمُصلّين مِن وَرائِه تفعل مِثلَما يَفعَل، وقد علَتْ وجوه أكثرهِم أماراتُ الاستغراب، فنُمي أمرُه إلى جهاز الرقابة آنذاك، وأُعفِيَ من إمامةِ الناس، ومِن ارتقاء المِنبَر، فظلّ على هذه الحال إلى أن مات. فأحبَبتُ أن تكون تلك الحادِثة مُنطلَقاً لِتَرسِيخ أبجديات أدب الحِوار في المُناظرات التي تجري أحداثُها في "شبكات التواصل الاجتماعيّ: "Facebook" و"Twitter" و"Skype" وغير ذلك. إذ حَملتني ذاكرة المجلس المذكور على ضرورة قبول الآخرين، ومُصانَعتِهم، والصبر على أذاهم مهما بلغَ مداه، فالعقيدة لا تُحمَل إلى الناس بالسيف، فضلاً عن أنّ نهج الإقناع مُتلبّبٌ، شديدُ الالتواء، وأرى أنّ تلك الشّدة تعود إلى ما وَقَرَ في ذاكرة الناس على طول السنين مِن أوهام (الفلكلور) وقَداسَة موروث الآباء، وما آل مِنه إلى خَلَفهِم، جيلاً بعد جيل. فاجتمع عَلَيَّ وحيُ الغدير، ووحيُ ذلِك المجلس، فألهماني الكتابة في أدب الحوار وضوابطه، والتذكير بسجايا علي، ومناقبه (ع) فإن كُنتُ وفيت بعضَ حقّه؛

فذلك الفضلُ من الله، ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾[١]، وإنْ قصَّرت: فإنّما هي نفسي، وأستغفر الله..

وليس بمُستَخفٍ على أحد رؤية طُوفان الخلاف العَقَديّ، كيف غزا مرافق الحياة المُختلفة، بعد ثورة تكنولوجيا الاتصالات، وشبكات التواصل الاجتماعيّ، إذ وصَلَ ذلك الطُوفان حَدّاً لا يُمكن تصوّره، على أنّ مُستخلصات تجاربي الصغيرة التي مَررتُ بها في أيام الصِبا، ظلّت حيّةً تتجدَّدُ بتجارب الحَداثة الحاضِرة اليوم بوسائلها المُتطوِّرة، فأخذتُ على عاتقي مُحاورة أعتى المُعاندين، لأُثنيه عن خطأ ما يعتقد به إذا كان مُخطئاً، وذلِك بالاعتماد على ما تجود به قريحتي على سبيل الإنصاف ما استطعت إلى ذلك سبيلا.

ويتلخَّص أدبُ الخطاب، بحسب ما توصّلتُ إليه من فَيضِ الدروس المُستفادة من سيرة الرسول (ص) وسِيَرِ أعلام النُبلاء المَعصُومين، وأخبارهم في الآتي:

• أنّك لا تستطيع حملَ الناس على ما تعتقد برفع العقيرة، وإنّما بالرِّفقِ والمُلاطفَة، ففي الحُسنى واللين تدريب للآخر على قبول النتائج بلا عنت، قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[٢].

• على المُناظر أن يُراعي في المُخاطَبِ وَعيَه وإدراكَه، فيتلمّس إليه الوسيلة في حدود ما يعيه ويفهمه، قال علي (ع): "حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُه؟!"[٣]. فينبغي أن تحتجّ على المُعانِد بما يقرأ مِن مصادر لا يرى الصحة في غيرها.

• تَرْكُ مُناظرة المُلاحي؛ لأنّ تَرْكَه أرفع لِمقامِك عن المجاوبة، وأرفق لِمكانتِك عن المُجادَلة، خلا مَن ترى فيه الاستعداد ورَجاحة العقل، فليكُن مبدؤك منه، لِتُوكِلَ إليه أمرَ مَن يُناصِره إليه، فإنّهُم يَستَمِعُون إليه، ولا يَستمِعُون إليك، ومَثَلُ المُعاندين في ذلك مَنْ أنكرَ ما تعارَفَتْ عليه الناس من مأنوس الأشياء، إذ سأل عاقلٌ بعضَ المُعاندين:

أترى ذلك الطير؟.

فقال المُعانِدُ: بل أرى نعجة. !!

فقال العاقِلُ: كأنّك لا تعرِفُ الطَّير؟!

فقال المُعانِد: بل أعرف، ولكنّه مِنكَ نعجة، ولو طار بألف جناح. !!

فمِثل هذا أحقّ بتَرْك؛ لأنّ الحوار معه لا يُجدي، قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[٤] قال القُرطُبيّ: قوله تعالى: "وأعرِض عن الجاهِلين" أي إذا أقمتَ عَليهِم الحُجّة وأمرتَهُم بالمعروف فجهلوا عليك، فأعرض عنهم؛ صيانةً له عليهم،

---

(١) سورة النحل، الآية: ٥٣.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٣) صحيح البخاري، كتاب العلم. ص٣١٢.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩.

ورفعاً لقدرِهِ عن مُجاوبَتِهم[١]. "فقليلُ الفقه خيرٌ من كثيرِ العبادة، وكفى بالمرء فقهاً إذا عبدَ اللّه، وكفى بالمرء جهلاً إذا أُعجِبَ برأيه، وإنّما الناسُ رجلان: مُؤمِنٌ، وجاهِل، فلا تؤذِ المُؤمن، ولا تُحاوِرُ الجاهِل"[٢].

• لا تَستثِرْ نظيرَكَ بما يكره مِنَ الكُنى والألقاب الفاحِشة، فلا تنعته بالوهابيّ، إذا نعتك بالرافضيّ.. ذلِك أدعى إلى تحويل الحوار من جدل عقيم إلى نقاشٍ مَوضُوعِيٍّ هادئ، فإنّي قد رأيتُ الناس مُختلِفين.. مِنهُم مَن يهوى الإبعاط في السَّوْم والغُلُوَ في المَرام، ومِنهُم من يهوى الجَدَل مِن أجل الجَدَل، والناسُ بين الفريقين خَبطَ عشواء، فعزفتُ زمناً عن المُجادلة، مع أنّي ألَمتُ بتحصيل ملكتها بالمران والتدريب، فإنّ الجدلَ فنٌ صعب، لا يقوى عليه غير معصومٍ، ولا يُمسكُ بأزِمَّتِهِ غيرُ نبي، ولِذا: كنتُ أفرّ منه احتياطاً، أو خوفاً، أو صوناً للنفس مِن المُلاحاة[٣]، وأنّ مَظان النُصح والفضائل مَوفُورةٌ في المصادر والدراسات، والحمدُ للّه، لكِنّني لمّا رأيتُ المُنكِرين قد تكاثروا هذه الأيام، ولاسيّما المُشكِّكين بحقيقة "غدير خُم"، مع أنّها أشهر مِنَ الشمس في رائعة السماء، وأوضح الواضحات عند ذوي الأبصار، ولا يُنكِرها إلاّ مَن جَهِل أو أرادَ التجاهُل - لأنّهم معذورون بالإرث المَشبُوه الذي سَبَقَت الإشارة إليه - رغبتُ في مُواصلة تسجيل ما دارَ في المجالس التي كُنتُ أحضرُها، وما كنتُ أقرَؤُهُ في مصادر المُحدّثين، والمُتقدّمين؛ مَشفوعةً بتوقيعات أقلام كِبارهِم مِمّن استحوذَتْ كتاباتُهُم على اهتمام المُثقّفين في مَشارِقِ الأرض ومَغارِبها، وذلِك لِبيان فضل من نُسِبَ إليه الفضل على سائر العالمين، بشهادة الرسول العظيم محمد (ص):

• قال الدكتور طه حسين: "كان الفرق بين علي (ع) ومعاوية عظيماً في السيرة والسياسة، فقد كان علي مُؤمِناً بالخِلافة، ويرى أنّ من الحق عليه أن يُقيم العدل بأوسع معانيه بين الناس، وأمّا معاوية؛ فإنه لا يجد في ذلك بأساً ولا جُناحاً، فكان الطامِعون يجدون عنده ما يريدون، وكان الزاهِدون يَجِدون عند علي ما يُحِبُّون[٤].

• وقال جُبران خليل جبران: "إنّ علي بن أبي طالب (ع) كلام اللّه الناطق، وقلب اللّه الواعي، نسبته إلى مَن عداه من الأصحاب شبه المعقول إلى المَحسوس، وذاته من شِدّة الاقتراب ممسوس في ذات اللّه"[٥].

---

(١) تفسير القرطبي. الجزء ٧، سورة الأعراف، الآية: ١٩٩

(٢) الجامع الصغير. لجلال الدين السيوطي. المجلد الرابع، حرف القاف، ح: ٦١٥٠ وأورده الطبراني في المعجم الكبير عن ابن عمر، والتخريج نقلاً عن الإمام المناوي في شرح الجامع الصغير المعروف بـ(فيض القدير)، ورقم الحديث موافق لما في فيض القدير.

(٣) في الحديث: "نُهيتُ عن مُلاحَاة الرِّجال"، أي مُقاوَلَتِهم ومُخاصَمَتِهم. يُنظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير. المجلد الرابع، حرف اللاّم، باب اللام مع الحاء.

(٤) علي وبنوه: الدكتور طه حسين. دار المعارف، ج٢، الفتنة الكُبرى، ط١٢، ص٥٩.

(٥) حاشية الشفاء. باب الخليفة والإمام. ص٥٦٦.

• ولازلتُ مأخوذاً بما ذكره ميخائيل نعيمة، إذ قال مُعلّقاً: "وأما فضائله (ع) فإنّها قد بلغت من العظم والجلال والانتشار والاشتهار مبلغاً يَسمُج معه التعرض لذكرها، والتصدي لِتَفصيلِها، فصارت كما قال أبو العيناء لعبيد الله بن يحيى بن خاقان، وزير المُتوكّل والمعتمد: "رأيتني فيما أتعاطى من وصف فضلك كالمُخبرِ عن ضوء النهار الباهِر والقَمرِ الزاهِر، الذي لا يخفى على الناظر، فأيقنت أنّي حيث انتهى بي القول منسوب إلى العجز، مُقصِّرٌ عن الغاية، فانصرفت عن الثناء عليك إلى الدعاء لك، ووكلت الإخبار عنك إلى علم الناس بك"[١].

• وقال الدكتور السعادة: قد أجمَعَ المُؤرِّخون، ورُواةُ السِّيَر على أنّ علي بن أبي طالب (ع) كان مُمتازاً بمُميِّزاتٍ كُبرى، لم تجتمع لِغيرِهِ، هو أمّةٌ في رجل[٢].

• وقال الدكتور مهدي محبوبة: "أحاط عليٌّ بالمعرفة دون أن تُحيط به، وأدرَكَها دُونَ أن تُدرِكَهُ"[٣].

• وقال العلاّمة الشيخ محمد جواد مغنية (رحمه الله): "قال أعداء محمد (ص) وجاحِدو رسالته ونُبُوتِهِ: إنّ القرآن من وَضْعِهِ، لا مِن وحي الخالِق (جلّ وعَلا) وقال أعداء علي (ع) وجاحِدو إمامته وَوِلايته: إنّ نهج البلاغة - كلّه أو جُلّه - من تأليف الشريف الرضي، لا مِن أقوال الإمام (ع)"[٤]. وقال أيضاً: "ولو نُسِبَ نهجُ البلاغة لِمُعاوية بن أبي سفيان؛ لكانت النسبة حقّاً وصِدقاً، ولكان أبو يزيد المصدر الأول للفلسفة، والحضارة الإسلامية، ولكنّه نُسِب إلى إمام المُتّقين، وحبيب المؤمنين، وعدو المُنافِقين، فأصبحَ موضع الريب والتشكيك!"[٥].

• وجاء في مُقدِّمة المناقب للخوارزمي عن بعض الكُبراء، وقد سُئِل عن فضائل علي، فقال: "ما أقول في شخص أخفى أعداؤه فضائلَه حَسَداً، وأخفى أولياؤه فضائلَه خوفاً وحَذَراً، وظهر فيما بين هذين ما طبقت الشرق والغرب"[٦].

• وقال العلاّمة السيد الرضيّ: "كَان أميرُ المؤمنين (ع) مُشرِّعَ الفَصاحَةَ ومُوردَها، ومُنشِئَ البَلاغةِ ومُولِدَها، ومنه (ع) ظهر مَكنونُها، وعنه أُخذِت قوانينُها، وعلى أمثلتِه حذا كلّ قائل خطيب، وبكلامه استعان كلّ واعظ بليغ، ومع ذلك: قد سَبَقَ فَقَصَرُوا، وتقَدَّمَ فتَأَخَّرُوا: لأنّ كلامه (ع) الكلام الذي عليه مسحة من العلم الإلهي، وفيه عبقة من الكلام

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد، ط الحلبي: ١٦/١.

(٢) مقدمة الإمام، علي، للدكتور السعادة.

(٣) عبقرية الإمام، للدكتور مهدى محبوبة، ص١٣٨.

(٤) فضائل الإمام علي (ع) محمد جواد مغنية، الطبعة الأولى، ١٣٩٧ هجرية/١٩٧٧ ميلادية، دار التعارف، بيروت - لبنان، ص٧١.

(٥) فضائل الإمام على، ص٧٤.

(٦) المناقب. المُوفّق بن أحمد بن محمد المكي الخوارزمي المتوفى سنة ٥٦٨ هجرية، بتحقيق الشيخ مالك المحمودي، ص٨.

النبويّ، ومِن عجائبه (ع) التي انفرد بها، وأمن المُشاركة فيها، أنَّ كلامَهُ الوارد في الزُهد والمواعظ، والتذكير والزواجر، إذا تأمَّلَه المُتأمِّلُ، وفكَّر فيه المُتَفَكِّرُ... لم يعترضه الشك في أنّه مِن كلام مَنْ لا حَظَّ له في غير الزهادة، ولا شُغلَ له بغير العبادة، قَد قبع في كسر بيت، أو انقَطَعَ إلى سَفحِ جبل، لا يَسمَعُ إلا حِسَّهُ، ولا يَرى إلا نَفسَهُ، ولا يكاد يوقن بأنّه كلام مَن ينغمس في الحرب مُصلتاً سيفه، فَيَقُطُّ الرِّقَابَ ويجدلُ الأبطال، ويعود به ينطف دماً، ويقطر مهجا. وهو مع تِلكَ الحال زاهِدَ الزُهّاد، وبدل الأبدال، وهذه من فضائلِه العجيبة، وخصائصِه اللطيفة، التي جمع بها الأضداد، وألَّفَ بين الأشتات"[١].

• وعن هارون الحضرميّ، أنّه قال: سَمِعت أحمد بن حنبل يقول: ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله (ص) من الفضائل ما جاء لعلي بن أبي طالب (ع)[٢].

• وقال الخليل بن أحمد الفراهيديّ (رحِمَهُ الله): احتياج الكل إليه - أي إلى علي (ع) - واستغناؤه عن الكل، دليل على أنّه إمام الكل، فسُئِلَ: ما هو الدليل على أنّ عليّاً (ع) إمام الكلّ في الكلّ؟ فقال: احتياج الكلّ إليه وغناه عن الكلّ.. يقول الفخر الرازي (ت٦٠٦هـ) في تفسيره سورة الفاتحة: وقوله بالجهر وإقامة الأدلّة على ذلك: "فالدليل السابع: أنّ الدلائل العقليّة موافقة لنا، وعمل عليّ بن أبي طالب (ع) معنا، ومَنْ اتّخذ عليّاً إماماً لدينه فقد استمسك بالعروة الوثقى في دينه"[٣].

• وقال الجاحِظ: سَمِعتُ النظام يقول: "علي بن أبي طالب (ع) مِحنةٌ لِلمُتكلّم، إنْ وَفى حقه غلا، وإنْ بخسه حقه أساء، والمنزلة الوسطى دقيقة الوزن، حادّة اللسان، صعبة الترقّي، إلاّ على الحاذق الذكي[٤].

• وجاء في التفسير الكبير، أنّ علي بن أبي طالب (ع) كان يجهر بالتسمية[٥]، قالَ الرازي: فقد ثبت بالتواتر، ومن اقتدى في دينه بعلي بن أبي طالب (ع) فقد اهتدى، والدليل عليه قوله (ع): اللهم أدِر الحقّ مع علي حيث دار[٦].

• وقال ابن أبي الحديد: "ما أقولُ في رَجُلٍ تُحِبُّه أهل الذِمّة على تكذيبهم بالنبوة، وتُعظِّمُه الفلاسفة على مُعاندتهم لأهل المِلّة، وتصور ملوك الفرنج والروم صورته في بيعها وبيوت عباداتها، وتصور ملوك الترك والديلم صورته على أسيافها، وما أقول في رجل أقرّ له أعداؤه وخصومه بالفضل، ولم يمكنهم جحد مناقبه ولا كِتمان فضائله، فقد علمت أنّه

---

(١) مُقدمة نهج البلاغة.

(٢) فرائد السمطين، لإبراهيم بن محمد الجويني، ٧٩/١.

(٣) يُنظر: عبقرية الإمام، ص١٣٨، وتفسير الرازي، سورة الإسراء، الآية: ١١٠، ١٨٨/١.

(٤) سفينة البحار: ١٤٦/١ [جحظ].

(٥) أي في الصلاة، والخلاف في الجهر بالتسمية فيها.

(٦) التفسير الكبير: ٢٠٥/١، ٢٠٧.

استولى بنو أمية على سُلطان الإسلام في شرق الأرض وغربها، واجتهدوا بكل حيلة في إطفاء نوره والتحريف عليه ووضع المعايب والمثالب له، ولَعنُوه على جميع المَنابر، وتَوعَّدوا مادِحِيه. بل حَبَسُوهُم وقتلوهُم، ومنعوا من رواية حديث يتضمن له فضيلة أو يرفع له ذِكراً، حتى حظروا أن يُسمّى أحدٌ باسمه، فما زاده ذلك إلاّ رِفعَةً وسُمُوّاً، وكان كالمِسك كُلّما سُتِر انتشر عَرفُه، وكُلّما كُتِم تضوّع نشرُه، وكالشمس لا تُستَرُ بالراح، وكضوءِ النهار إنْ حُجِبَت عنه عينا واحدة أدركته عيون كثيرة، وما أقول في رجل تُعزى إليه كل فضيلة، وتنتهي إليه كلّ فِرقَة، وتتجاذبه كلّ طائفة، فهو رئيس الفضائل وينبوعها وأبو عذرها"[١].

• وقال ابن أبي الحديد أيضاً: "أنظر إلى الفصاحة كيف تعطي هذا الرجل قيادها، وتملكه زمامها، فسبحان الله من منح هذا الرجل هذه المزايا النفيسة، والخصائص الشريفة، أن يكون غلام من أبناء عرب مكة لم يخالط الحكماء، وخرج أعرف بالحكمة من أفلاطون وأرسطو، ولم يُعاشِر أرباب الحكم الخلقية، وخرج أعرف بهذا الباب من سُقراط، ولم يرب بين الشجعان؛ لأنّ أهل مكة كانوا ذوي تجارة، وخرج أشجع من كلّ بشر مشى على الأرض"[٢]. وذكر أيضاً: وإنّي لأطيلُ التعجب مِن رجُلٍ يخطب في الحرب بكلام يدلّ على أنّ طبعه مُناسِبٌ لِطِباعِ الأسود، ثم يخطب في ذلك الموقف بعينه إذا أراد الموعظة بكلام يدلّ على أنّ طبعه مُشاكِلٌ لِطباع الرُهبان الذين لم يأكلوا لَحماً ولم يريقوا دماً، فتارة يكون في صورة بسطام بن قيس (الشُجَاع)، وتارةً يكون في صورة سُقراط والمسيح بن مريم (ع) وأُقسِمُ بما تُقسِم الأمم كلّها به، لقد قرأتُ هذه الخُطبة مُنذ خمسين سنة وإلى الآن أكثر من ألف مرة، ما قرأتُها قطّ إلاّ وأحدثت عندي روعة وخوفا وعظة، ولا تأملتُها إلاّ وذَكرْتُ الموتى من أهلي وأقاربي وأرباب ودي، وخيلت في نفسي أنّي أنا ذلك الشخص الذي وصف الإمام (ع)[٣].

• وقال محمد بن إسحاق الواقِديّ: إنّ علياً كان مِن مُعجزات النبي (ص) كالعصا لموسى (ع) وإحياء الموتى لعيسى (ع)[٤].

• وقال الفخرُ الرازيّ: "ومَن اتخذ علياً إماماً لدينه؛ فقد استمسك بالعروة الوثقى في دينه ونفسه"[٥].

• وقالَ عامر الشعبيّ: تكلّم أمير المؤمنين (ع) بتسع كلمات ارتجلهن ارتجالاً، ففقأن عيون البلاغة، وأيتَمْنَ جواهِرَ الحِكمة، وقطعن جميع الأنام عن اللحاق بواحدة مِنهنّ، تلاث

---

(١) شرح نهج البلاغة، ٢٩/١، ١٧.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٤٧/١٦.

(٣) يُنظر: شرح نهج البلاغة، ١٥٠/١١.

(٤) الفهرست، للنديم، ط رضا تجدد، ص١١١.

(٥) التفسير الكبير: ٢٠٥/١، ٢٠٧.

منها في المُناجاة، وثلاث منها في الحكمة، وثلاث منها في الأدب، فأمّا اللاتي في المُناجاة: فقال (ع): إلهي كفى بي عزاً أن أكون لك عبداً، وكفى بي فخراً أن تكون لي رباً، أنت كما أحب فاجعلني كما تحب، وأمّا اللاتي في الحكمة؛ فقال (ع): قيمة كل امرئٍ ما يُحسنه، وما هلك امرئٌ عرف قدره، والمرء مخبوء تحت لسانه. وأمّا اللاتي في الأدب: فقال (ع): امنن على من شئت تكن أميره، واستغن عمّن شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره[١].

• وقال بعضُهُم: "هل كان علي (ع) مِن عُظماء الدنيا ليحقّ للعظماء أن يتحدثوا عنه؟!، أم مَلَكُوتِيّاً ليحقّ للمَلكُوتِيين أن يفهموا منزلته؟!... ما فهمه العظماء والعرفاء والفلاسفة بكل ما لديهم من فضائل وعلوم سامية، إنّما فهموه من خلال وجودهم ومرآة نفوسهم المحدودة، وعلي (ع) غير ذلك"[٢].

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- التفسير الكبير. أو مفاتِحُ الغيب. الإمام الرازي، دار إحياء التراث العربي. ط٣. د. ت.
- الجامع لأحكام القرآن. الإمام القرطبيّ، تح: نخبة من كبار العلماء، نسخة عالية الضبط والإخراج، م. ط. والكتاب مذيل بالحواشي. دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣ م.
- سفينة البحار ومدينة الحِكَمِ والآثار، الشيخ عبّاس القُمّي، دار الأسوة للطباعة، ١٤١٦.
- شرح الجامع الصغير المعروف بـ (فيض القدير). الإمام المناوي. المُحدِّث، سورية، إصدار: ٨. ٦٣. ١٩٩٩م.
- صحيح البخاري. دار صادر. بيروت. د. ت.
- علي وبنوه: الدكتور طه حسين. دار المعارف، ج٢، الفتنة الكُبرى، ط١٣.
- فرائد السمطين، إبراهيم بن محمد الجويني الخراساني، مؤسسة المحمودي للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ.
- فضائل الإمام علي (ع) الطبعة الأولى، ١٣٩٧ هجرية/ ١٩٧٧ ميلادية، دار التعارف، بيروت.
- الفهرست. ابن النديم. ط رضا تجدد. دت.
- المُعجم الكبير، الطبراني، تح: حمدي عبد المجيد السلفي، بغداد، ١٩٧٨م-١٩٨٠م.
- المناقب. المُوفّق بن أحمد بن محمد المكي الخوارزمي المتوفى سنة ٥٦٨ هجرية، بتحقيق الشيخ مالك المحمودي. د. ت. م.
- النهاية في غريب الحديث والأثر. الإمام ابن الأثير. تح: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- نهج البلاغة، شرح ابن أبي الحديد. بيروت. د. ت. ❖

---

(١) سفينة البحار: ١/ ١٢٣.

(٢) يُنظر: الإمام علي بن أبي طالب (ع). لأحمد الرحماني الهمداني، ص١٤٠.

سر الإبداع اللغوي عند الإمام علي (ع)

د. عباس علي الفحام (جامعة الكوفة)

لا ريب في أن البحث في هذا الموضوع واسع وشائك فضلاً عن الكتابة فيه بمقال يكاد لا يصل إلى بدايات شواطئه، ولكن لا بأس من مساس نقطة معينة تكون مرتكزاً لهذه الأسرار، وسنجعل من بعض التساؤلات منطلق المحاولة في هذا الكشف، فمتى يمكن للأديب أن يبدع؟ وكيف يتميز على الرغم من أن اللغة موروث مشترك؟

ببساطة تتركز مادة الإبداع اللغوي في ثلاثة عناصر لا انفصال بينها البتة هي: المعاني والألفاظ وأدوات التأثير اللغوية، ومن حسن الإجادة في تركيب هذه العناصر يتميز الكلام المبدع عن الكلام الاعتيادي فيغدو فناً.

من هذا المدخل، ما حصة الإمام علي (ع) من هذا الإبداع؟ وكيف تمكن من الفرادة عن غيره من أبناء زمانه، على الرغم من امتلاكهم لكثير من نواصي اللغة بخاصة وهم في لباب الفطرة السليمة للغة، أين يكمن السر؟

كان أكثر ما انماز به الإمام في كلامه هو حضور النص القرآني في ذهنه وقدرته على اجتلاب صوره وتمثل معانيه، وليس ذلك بالأمر الهين اليسير، لأن المعاني القرآنية جديدة كل الجدة على العقلية العربية والثقافة السائدة وقتذاك مثل موضوع الذات المقدسة وصفاتها وقضايا المعاد والثواب والعقاب والعالم الآخر والجنة والنار وقضايا التشريع الأخرى، ولست أشك في أنها تشغل ذهن المتكلم الذي ينشد الفن والتأثير لأنها ليست ذائبة في نفسه ولا يستطيع تمثلها بالنفس القرآني ذاته، ولأنه لا يزال بعد منشداً إلى الثقافة الجاهلية القديمة والتي هي بالوقت نفسه ليست ببعيدة العهد عنه، فمشكلة الأديب في عصر النبوة وما تلاه أنه أراد تأدية المعاني الإسلامية الجديدة تأدية فنية بالموروثات اللغوية الجاهلية ذاتها التي أجاد بها في الطلل وبكاء الحبيبة والتغني بالبطولة والحماسة، وهنا كمن سر إخفاق الأديب العربي في هذه المدة من عمر الإبداع اللغوي غير المتناسب وعظمة التأثير القرآني، وهنا أيضاً بان سر عظيم من القدرة الإبداعية المتميزة لكلام أمير المؤمنين (ع).

لم يستطع الأديب العربي في عصر النبوة شاعراً أو ناثراً أن يصل بالفن الأدبي إلى مستوى يبذ به العصر الذي سبقه أو يساويه على الأقل بسبب عدم القدرة على تمثل التعبير

القرآني صياغة ودلالة، وأعني به عدم اقتفاء البناء اللغوي المتكامل للنص القرآني القائم على نظام من العلاقات التركيبية التي تعمقت فيها الدلالة بوسائط لغوية انمزج فيها الصوت بالصورة من غير أن يسمى شعراً. وإذا كنا نلتمس للأديب العربي المنشئ بعض العذر في كون الدعوة الجديدة بكل مفاهيمها العظيمة لازالت بكراً على العقل العربي، وأنها لا بد أن تصدم الثقافة العربية بشيء من الذهول أو التوقف لاستيعاب هذا البناء اللغوي المعجز وهضمه وتمثله - أقول إذا كنا نلتمس له العذر في كل ذلك - فما التبرير لأن ينكفئ الأدب مرة أخرى ويعود جاهلياً بأشد مما كانت عليه الجاهلية ذاتها في العصر الأموي فتكثر الوقفات الجاهلية وأسماء مواضع الطلل ورحلات الصيد الموغلة بالابتعاد عن لغة القرآن متناسين عمداً أو سهواً اللغة الجديدة التي نزل بها القرآن الكريم والتي كان يمكن لو آمعن النقاد والشعراء معاً في الوقوف عليها واحتذائها ولفت الانتباه إليها ابتكار معلقات إسلامية - إذا صح الكلام - في عصر صدر الإسلام وما بعده بدلاً من تقليد الموروث الجاهلي بأشد مما عليه الجاهليون أنفسهم، لأن الفرصة كانت مواتية والفطرة السليمة لازالت بكراً في فهم النص القرآني المعجز والاقتداء به وحل رموز علاقاته التركيبية، يقول الأستاذ المرحوم طه أحمد إبراهيم: (ولو أنهم تمعنوه لوجدوا فيه أساليب من القول، وضروباً من الفن الأدبي، كان يسيراً عليهم أن يحتذوها. في القرآن مثلاً الأسلوب القصصي. وتاريخ الأقدمين، وقصص الأنبياء، وتلك أمور تزيد في روحية الأدب وتمد الشعراء بالأخيلة والإلهام)[1]، وكان يمكن أن يكون النص القرآني مثالهم للانفلات من أسر تقليد النص الجاهلي، لذلك لم نر أديباً في العصر النبوي وما تلاه أجاد في المعاني الإسلامية الجديدة إجادة الأديب الجاهلي لمعانيه، لأنه لا يمكن التعبير فنياً عن المعنى الإسلامي الجديد بلغة الجاهلية القديمة، فعليه التخلي عن الثقافة اللغوية الموروثة القديمة والانصهار في الثقافة القرآنية الجديدة، فقد وفرت الصياغات القرآنية زخماً عالياً من الثراء اللغوي وكان على الأديب في عصر النبوة التنبه إليه واقتفاء أثره واستثماره بشكل كلي وليس الوقوف عند حد اقتباس اللفظة أو الجملة من القرآن.

بلى، كان التأثير الحقيقي للإبداع اللغوي القرآني المعجز في الكلام العربي يتمثل في النبي الأعظم محمد بن عبد الله (ص) وابن عمه علي بن أبي طالب (ع) في الخطابة والإيجاز بشهادة كل الدارسين للبلاغة العربية، وكلامهما - لاشك - أرفع من صفة

---

(١) طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي: ١٠٧.

الأدباء، لذلك كانت خطب الرسول (ص) على الرغم من قلة ما وصل إلينا منها - وأحاديثه وابتكاره لأوضاع تركيبية جديدة في الكلام العربي[١] وخطب الإمام علي ورسائله وأقواله العلامة الفارقة في جبين الأدب العربي فكان أن انتظمت شروحاً مميزة ينتهل منها الأدباء قديماً وحديثاً مثل كتاب (المجازات النبوية) مثلاً للحديث النبوي الشريف، و (نهج البلاغة) الذي جمع فيه الشريف الرضي مختارات من كلام الإمام علي (ع) وهما مثل للمصنفات القديمة، وكتاب (الإعجاز القرآني والبلاغة النبوية) للرافعي مثلاً للمصنفات الحديثة.

وكل ذلك تأتى من فهم طبيعة اللغة القرآنية التي يدركها العربي بفطرته ولكنه لا يحسن التعبير عنها لجدة مضامينها ولأن عليه الانصهار بروح القرآن والذوبان في مضامينه لتغدو اللغة حينئذ صورة سريعة للمعنى فلا ينشغل الذهن في أدائه ولا يكد في استجلاب الألفاظ المناسبة لتجليته. ولذلك كان الإمام علي (ع) أول من عالج فن الخطابة معالجة الأديب، وأول من أضفى عليها صبغة الإنشاء الذي يقتدى به في الأساليب كما يقول العقاد.

لقد كان الأثر الحقيقي المبكر للقرآن في الكلام العربي على لسان علي (ع) فما وصلنا من كلامه المجموع في (نهج البلاغة) يعد من أظهر تجليات الأثر القرآني في الأدب العربي لسبب واضح هو أن المعاني الإسلامية ذائبة في نفس علي (ع) وهي بعد جديدة على غيره فقد كان (مما أنعم الله على علي بن أبي طالب (ع) أنه كان في حجر رسول الله (ص) قبل الإسلام)[٢]، إذ رباه الرسول (ص) بعد أن مست الضراء بيت أبيه أبي طالب إثر القحط الذي ضرب قريشا، فاستخلصه النبي (ص) لنفسه وكانت تلك بداية علاقة الإمام (ع) بالقرآن لأنه كان لا يفارق ابن عمه حتى في تأملاته في غار حراء، وقد صور الإمام علي (ع) نفسه هذه المرحلة من حياته مع رسول الله (ص) فقال من خطبة له: (وَ لَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ، فَأَرَاهُ ولا يَرَاهُ غَيْرِي، ولَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الإسلام، غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ (ص) وخَدِيجَةَ وأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ والرِّسَالَةِ وأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ)[٣]. لهذا نشأ الإمام (ع) حافظاً للقرآن واعياً لآياته يعرف باطنها مثلما يعرف

---

(١) ظ. الجاحظ، البيان والتبيين: ١٦/٢.

(٢) الطبري، تاريخ الطبري: ٢١٣/٢.

(٣) الإمام علي (ع)، نهج البلاغة: ٢٣٨/٢.

ظاهرها وهو ما أكده النبي (ص) بأحاديثه في فضل علي (ع)[١]. قال ابن أبي الحديد (ت٦٥٦هـ): (وقد اتفق الكل على أنه كان يحفظ القرآن على عهد الرسول (ص) ولم يكن غيره يحفظه، ثم هو أول من جمعه)[٢].

إذن فقد كان النص القرآني حاضراً في ذهن الإمام يستدعيه من ذاكرته كيفما يشاء فكان قوله وسلوكه تعبيراً حقيقياً عن روح القرآن ولغته، وكان يسعى إلى وجوب إحلال هذه الثقافة في النفوس واستبدال البناء اللغوي الجاهلي بآخر جديد معجز في بنائه حتى في المعاني التي كان العربي يعتقد أن الشعر الموروث وحده القادر على التعبير عنها والإجادة فيها مثل التعبير عن الطلل وعبر الذكريات، فقد جاء في كتاب (وقعة صفين) أن الإمام علياً (ع) لما سار بجيشه إلى صفين مر بمدينة بهرسير[٣]، وإذا رجل من أصحابه يقال له حر بن سهم بن طريف من بني ربيعة بن مالك ينظر إلى آثار كسرى ويتمثل بقول الشاعر الجاهلي الأسود بن يعفر[٤]:

جرت الرياح على محل ديارهم فكأنهم كانوا على ميعاد

فقال له (ع): (أفلا قلت: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾[٥] إن هؤلاء كانوا وارثين فأصبحوا مورثين، ولم يشكروا النعمة، فسلبوا دنياهم بالمعصية، إياكم وكفر النعم لا تحل بكم النقم، انزلوا بهذه النجوة)[٦].

وعلى الرغم من أن الإمام (ع) إنما نهى عن ذكر هذا الشاعر خاصة لأنه من كبار شعراء قريش الذين عارضوا الإسلام وأعلنوا وثنيتهم كما في قوله[٧]:

---

(١) ظ. النساتي، خصائص أمير المؤمنين: ١٣١.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٨/١.

(٣) من نواحي سواد بغداد في غربي دجلة وهي إحدى المدائن السبع التي سميت بها المدائن ظ. ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٥١٥/١. البلاذري، فتوح البلدان: ٣٢٢/٢.

(٤) تنظر ترجمته في الشعر والشعراء لابن قتيبة: ٢٥٥. البغدادي، خزانة الأدب: ٣٨٩/١. الزركلي، الأعلام: ٣٣٠/١.

(٥) الدخان: ٢٥ - ٢٩.

(٦) نصر بن مزاحم، وقعة صفين: ١٤٢.

(٧) تنظر الأبيات في بعض كتب التفسير والأدب - لأنها ليست موجودة في ديوانه - في آيات تحريم الخمرة مثل: الطبري، جامع البيان: ٤٩٢/٢. الطباطبائي، الميزان: ١٣٢/٦. الثعلبي، تفسير الثعلبي: ١٤٢/٢. الأبشيهي، المستطرف: ٢٢٩/٢.

أيوعدنا ابن كبشة أن سنحيى وكيف حياة أصداء وهام

ألا من مبلغ الرحمن عني بأني تارك شهر الصيام

فقل لله يمنعني شرابي وقل لله يمنعني طعامي

بيد أن التطابق الجديد بين الأداء والمضمون على أروع ما تكون صورته. فهذا التخير للشاهد القرآني في مثل هذه المعاني لم يألفه العربي من قبل وربما لم يتصور أن غير الشعر يمكن أن يؤثر فيه، ولا ريب في أن إيرادها يعد تطبيقاً حياً ينقل النظرية إلى التطبيق ويوحي بوجوب الإفادة من الوقوف على آثار الماضين وهو كله ينبئ عن ذوبان الإمام (ع) في القرآن، ولذلك نجد في كلامه (ع) ما يشبه الإحجام عن ثقافة الشعر الجاهلي فليس في كلامه ظلالها، فهو مقل على كثرة خطبه ورسائله من الاستشهاد بالشعر الجاهلي، وإن تمثل ببيت منه فهو يتخيره من الحكم التي تجري أمثالا سائرة، ولا يمكن تفسير قلة تمثل الإمام (ع) بالشعر الجاهلي بعدم معرفته به أو خلو حافظته منه، بل يدل استشهاده وتخيره لأبيات منه على دراية واسعة بمضامينه ومناسباتها وقائليها، وهذا التخير يعني أنه يحفظه ويحسن استثماره في كلامه، ولكنه لم يتأثر به أسلوباً ولم يتبع صياغاته أو يستعر صوره ولم يتفق معه إلا من خلال الأبيات التي تجري مجرى المثل السائر، فجل عدد الأبيات التي تمثل بها في كلامه الواصل إلينا في (نهج البلاغة) أثنا عشر بيتاً أكثرها من أنصاف الأبيات[1].

أليس ذلك دليلاً على عدم تأثره بالأدب الجاهلي على علو كعبه؟.

وماذا يصنع علي (ع) بأدب لا يمس قيمه ولا يمثل الفكر الذي آمن به؟، ولا يعني ذلك غضا من شأن الشعر الجاهلي ولكنه (ع) متأثر بشكل كلي بأدب القرآن وصوره وأساليبه، ومن (قصد البحر استقل السواقيا) كما يقول المتنبي.

إذن الإمام (ع) انبعث في سلوكه من ثقافة قرآنية وعاها وذاب في معانيها فجسدها في عمله مثلما جرت على لسانه بياناً وإبداعاً، لأن لغة الإمام تطابق صادق بين الإيمان والعمل وبين المعنى والأداء اللفظي، وهذا سر بلاغته وتفرده عن أبناء عصره.

❖ ❖ ❖

(١) ظ. صبحي الصالح، نهج البلاغة (فهارس الشعر): ٨١٨.

الأبنية الصرفية في خطبة غدير خم

د. حسن عبد المجيد عباس الشاعر
قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الكوفة

المقدمة:

الحمد لله على إكمال الدين، وإتمام النعمة، ورضوان الإسلام لنا ديناً، والصلاة والسلام على من بعثه رحمة للعالمين المصطفى محمد وآل بيته أعلام الهدى وسفن النجاة، ومن شايعهم إلى يوم الدين.

وبعد، فإن الله تعالى بعث أنبياءه ورسله، لإنقاذ الناس من الشرك والضلالة، وجعل المصطفى حبيبه خاتمهم، فاستحق منا المحبة والسمع والطاعة، واتباع نهجه القويم بالقول والفعل، فناجز المشركين وأعداء الدين ووصّى بآل بيته، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، وجعلهم قادة العباد من بعده، فحري بالمسلمين أن يقدموهم ولا يتقدموا عليهم تطبيقاً لإيصاء الرسول بهم، وهو لا ينطق عن الهوى.

ويروى أن النبي المصطفى (ص) بعد أن خطب خطبته المشهورة في حجة الوداع في السنة العاشرة بعد الهجرة الشريفة، وهو في طريق العودة استوقفه الوحي في مفترق طرق الحجيج عند غدير خم، وهو غيضة تصب فيها عين ماء وحولها شجر كثير ملتف، وهو على بعد ثلاثة أميال من الجحفة من الجانب الأيسر[1] منزلاً عليه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (المائدة: ٦٧). فهتف الرسول صادحاً بخطبته العظيمة التي أوجبها الله تعالى عليه، وهي خطبة غدير خم، أو خطبة الولاية.

وربما كان أشد ما يحزن الرسول العظيم (ص) أمران هما: اختيار الوصي، الذي يقود الأمة الإسلامية من بعده، ويسير بهم على هدي القرآن وسنته السمحاء، واكتمال الدين الإسلامي ورضا الرب الجليل به دينا تختم به الأديان السماوية كافة. فتكفلت السماء بهذين الأمرين، وأذهب الله الحزن عن قلب رسوله المصطفى فاكتمل الدين، ورضي به للناس كافة. واختير الوصي من بعده، وهو أمير المؤمنين علي (ع) ودل على هذا الخبر القاصي والداني من جمهور المسلمين.

وسأقوم بعون الله تعالى بدراسة الأبنية الصرفية في خطبة غدير خم ودلالاتها، وذلك بعد إحصائها، وتصنيفها، وتلمس موجبات استعمال كلمات دون غيرها، والاستشهاد

بالنصوص التي تدعم ذلك، وكتب اللغة والصرف التي يعوّل عليها في البحث العلمي راجياً من الله سبحانه أن يوفقني في عملي وجميع العاملين لخدمة الدين القويم، والنبي الصادق الأمين، وعترته المعصومين المطهرين.

خطبة الرسول العظيم في غدير خم:

تعد خطبة الرسول العظيم محمد (ص) في غدير خم مشهورة بحيث لا يشك فيها شاك، ولا ينكرها منكر، وقد تناقلها الرواة، القاصي منهم والداني، أشار إليها المؤرخ محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)[٢]. وذكرها من علمائنا المحققين الشيخ عبد الحسين الأميني (قد) في كتاب الغدير كاملة[٣] في حين ذكرها العلامة المجلسي (قد) موجزة في كتابه بحار الأنوار[٤]. وسأذكر الخطبه بحسب ما هي عليه في كتاب الغدير:

(الحمد لله ونستعينه ونؤمن به، ونتوكل عليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا الذي لا هادي لمن ضلّ، ولا مضلّ لمن هدى، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله ـ أما بعد ـ: أيها الناس قد نبأني اللطيف الخبير أنه لم يعمّر نبي إلا مثل نصف عمر الذي قبله، وغني أوشك أن أدعى فأجبت، وإني مسؤول وأنتم مسؤولون، فماذا انتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلّغت ونصحت وجهدت فجزاك الله خيراً، قال: ألستم تشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمد وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وان الله يبعث من في القبور؟ قالوا: بلى نشهد بذلك، قال: اللهم اشهد، ثم قال: أيها الناس ألا تسمعون؟ قالوا: نعم. قال: فإني فرط على الحوض، وأنتم واردون عليَّ الحوض، وأن عرضه ما بين صنعاء وبصرى، فيه أقداح عدد النجوم من فضة فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين. فنادى مناد: وما الثقلان يا رسول الله؟ قال: الثقل الأكبر كتاب الله طرف بيد الله عزّ وجلّ وطرف بأيديكم فتمسكوا به لا تضلوا، والآخر الأصغر عترتي، وإن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، فسألت ذلك لهما ربّي، فلا تَقدَّموهما فتهلكوا، ولا تقصّروا عنهما فتهلكوا، ثم أخذ بيد عليّ فرفعها حتى رؤي بياض آباطهما وعرفه القوم أجمعون، فقال: أيها الناس من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: إن الله مولاي وأنا نولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم فمن كنت مولاه فعليّ مولاه، ثم قال: اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره، وأخذل من خذله، وادر الحق معه حيث دار، ألا فيبلغ الشاهد الغايب). ولم يتفرق المسلمون حتى نزل قوله تعالى: ﴿... ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المائدة: ٣)، ثم قال صلى الله عليه وآله: (الله أكبر على إكمال الدين، وإتمام النعمة، ورضا الربّ برسالتي، والولاية لعليّ من بعدي).

أبنية الأسماء:

استعمل الرسول العظيم خمسة وعشرين اسماً بأوزان مختلفة، وقد توزعت بحسب كثرة استعمالها أو قلته على النحو الآتي:

١- لفظ الجلالة (الله) إحدى عشرة مرة.

٢- الحقّ بخلاف الباطل ثلاث مرات، وهو في الأصل مصدر، أي: حدث مجرد من الزمان والمكان في الذهن، ولكن ذيوعه وانتشاره بين الناس أديا به إلى الانتقال إلى العلمية.

٣- الحوض ثلاث مرات، وإنما استعمله الرسول (ص) رغبة في تمسك الناس بكلامه، وعدم مخالفة أوامره، وهو مآل الناس في الحشر حيث العطش الشديد، فمن شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً، وإنما أتى به الرسول مع ذكر الثقلين من باب المقابلة، دليلاً على أن من يتمسك بالثقلين لا يضل أبدا.

٤- الثقل بفتح الثاء والعين ثلاث مرات، وهو في اللغة كل شيء خطير ومصون، وأصله بيض النعام المصون[٥]، وقد بيّن الرسول العظيم معنى الثقلين الذي ورد في التثنية في خطبته، وهما كتاب الله، وعترته الأئمة المعصومين (عليهم السلام).

٥- عَلِيٌّ أمير المؤمنين ثلاث مرات، وإنما ورد بهذا القدر تأكيداً لأمرين: الأول أن في الخطبة شيء يخصه بل أن الخطبة كلها عرضت على المسلمين من أجله، والثاني أنه يشكل الثالوث المقدس، الذي إذا اعتقد به الناس نجوا من النار، واستحقوا الجنة.

٦- الربّ، الصفة المنتقلة إلى العلمية مرتين، اتصل في واحدة منهما بياء المتكلم دلالة على القرب من الربّ الجليل، ولم يتصل بشيء في المرة الأخرى.

٧- العبد مرتين، وهو في الأصل صفة انتقل إلى العلمية لشهرته وذيوعه بين الناس، فيما يخص الرسول العظيم، وقد اتصل بالضمير (الهاء) العائد على (الله)، دلالة على أنه لم يعبد قط غيره.

٨- الطرَف مرتين، ليتناسب مع الثقلين، وما بين الطرفين حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعلى الناس أن تتمسك بالطرف المعلّق بالأرض لتبلغ الطرف المعلق في السماء.

٩- الإله مرتين، الذي قيل: إنه أصل لفظ الجلالة، أي: إن إله بمعنى مألوه، أي: معبود، دخلت عليه الألف واللام، ثم حذفت الهمزة تخفيفاً لكثرته في الكلام[٦]، والرأي الصائب ربما يكون أن هذا اللفظ من الألفاظ القديمة التي تعلّمها الناس كلهم باختلاف أديانهم، وأنها من الأسماء التي علّمها الله تعالى لأبينا آدم (ع).

١٠- محمد رسول الله (ص) مرتين، وهو في الأصل صفة (اسم مفعول) انتقل إلى العلمية.

١١- العرض بخلاف الطول مرة واحدة في بيان سعة الجنة للمسلمين، وإنما ذكر العرض من دون الطول دليلاً على سعتها فضلاً عن أن ألفاظ الرسول العظيم هي ألفاظ القرآن الكريم إذ استعمل القرآن الكريم لفظة العرض في بيان سعة الجنة، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ

مَّغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمـــران: ١٣٣). وقال: ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (الحديد: ٢١).

١٢- الموت بخلاف الحياة مرة واحدة، وهو في الأصل مصدر، انتقل إلى العلمية.

١٣- الخير مرة واحدة.

١٤- اليد مرة واحدة، وقد أضيف إلى لفظ الجلالة كناية عن القوة، والبسط، والقدرة.

١٥- العدد مرة واحدة، وهو مقدار ما يعدّ.

١٦- الجنَّة مرة واحدة، نقيض النار، وقد اتصلت بالضمير (الهاء) العائد على (الله) دلالة على أن كل جنة نعيم زائل إلا ما وعد الله سبحانه به عباده المتقين.

١٧- الساعة مرة واحدة، والمراد بها يوم القيامة.

١٨- الدين مرة واحدة، وهو في الأصل مصدر، انتقل إلى العلمية.

١٩- العُمْر مرة واحدة.

٢٠- النِّصْف مرة واحدة.

٢١- الكتاب مرة واحدة، وقد أضيف إلى لفظ الجلالة كناية عن القرآن الكريم.

٢٢- الرسالة مرة واحدة، وقد أضيفت إلى ياء المتكلم العائدة على الرسول العظيم. وهي في الأصل صفة رسالة بمعنى مرسلة، وانتقلت من الوصفية إلى العلمية لانتشارها بين الناس. ولا سيما إذا وصفت فيما يخص المسلمين (الرسالة المحمدية).

٢٣- الولاية مرة واحدة، وهي في الأصل مصدر قياسي لفَعَلَ إذا دلّ على حرفة أو ولاية الولاية وشبهها كالخلافة، والإمارة، والسفارة، والخياطة، والقصابة، والحياكة [٧].

٢٤- صنعاء البلد مرة واحدة.

٢٥- بُصرى البلد مرة واحدة.

وقد ذكرهما الرسول الكريم في بيان تحديد سعة الجنة للمسلمين، وربما عدل الرسول عن التحديد القرآني لسعتها لأمرين هما: أولاً، أنه يريد أن يتواضع أمام التعبير القرآني، وثانياً، أن المخاطبين في تلك المدة كانوا يصفون البعد بما وصلوه من البلاد القاصية شمالاً وجنوباً، وقد وصفوا البعد بما بين أذرعات في بلاد الشام، ويثرب، ولكن التعبير القرآني باق ما بقيت السموات والأرض، والله تعالى عالم غيب السموات والأرض، وهو يعلم في الأزل أن الناس سيملؤون الأرض كلها، ثم سيجوبون السماء فشبّه سعة عرض الجنة بسعة عرض السموات والأرض، اللذين لم نعرفهما بعد.

أبنية المصادر:

استعمل الرسول العظيم في خطبته ستة مصادر ثلاثية فحسب، انقسمت على قسمين مجردة، ومزيدة بواقع ثلاثة مصادر لكل واحد منهما:

أ - مصادر أبنية الأفعال الثلاثية المجردة:

١- الحمد، وهو مصدر قياسي للفعل الثلاثي المجرد المتعدي حَمِدَ من الباب الرابع.

٢- الريب، وهو مصدر قياسي للفعل الثلاثي المجرد المتعدي راب أصله رَيَبَ من الباب الثاني.

٣- الرضا، وهو مصدر سماعي للفعل الثلاثي المجرد المتعدي بحرف الجر الباء رَضِيَ من الباب الرابع. وذكر الرضي (ت٦٨٦هـ) أن فِعَل قليل، وهو لم يأت مصدراً لفعل مفتوح العين إلا منقوصاً كالشرى، والقرى، والقلى[٨].

ب - مصادر أبنية الأفعال الثلاثية المزيدة:

١- النعمة، وهي اسم مصدر من الفعل الثلاثي المزيد بالهمزة أنعم.

٢- الإكمال، وهو مصدر قياسي للفعل الثلاثي المزيد بالهمزة أكرم.

٣- الإتمام، وهو مصدر قياسي للفعل الثلاثي المزيد بالهمزة أتمّ أصله أتمم.

أبنية الصفات:

استعمل الرسول العظيم من أبنية الصفات في خطبته اسم الفاعل، والصفة المشبهة به، واسم المفعول، واسم التفضيل، وذلك على النحو الآتي:

١- اسم الفاعل: يدل اسم الفاعل على الصفات المنتقلة فيما إذا اختصت بالبشر، ودلالته الزمنية الحال والاستقبال، وقد يدل على الماضي بقرائن مختلفة، ولا تكون كذلك إذا اختصت بالله سبحانه، لأن صفاته عين ذاته، وهي حقيقية[٩]، ودلالتها الزمنية مستمرة.

أ- الأبنية المجردة: الهادي لله، والمولى لله مرة واحدة بمعنى الرب، ومرتين للرسول، ومرة واحدة لأمير المؤمنين علي بمعنى من يلي أمور المسلمين - وهي تستعمل في كلام العرب في معان شتى، ولكن الرسول العظيم وضعها موضعاً جديداً هو الخلافة وولاية أمور المسلمين، وهذا الوضع الجديد تندرج فيه المعاني التي تدل عليها هذه الكلمة، والقائل، والآتية للساعة، والوارد، والشاهد، والغايب إشارة إلى تسهيل الهمز، وهي لغة أهل الحجاز[١٠].

ب- الأبنية المزيدة: المضلّ، والمؤمن مرتين، والمنادي.

٢- الصفة المشبهة به: اللطيف مرتين، والخبير مرتين، والنبي، والفَرَط بمعنى الفارط، وهو السابق المتقدم يكون للواحد والجمع، وورد في خطبة الرسول العظيم للواحد، وهو أبلغ من اسم الفاعل، لأنه يدل على الثبوت.

٣- اسم المفعول: يشتق اسم المفعول من الفعل المبني للمفعول، فدلالته الزمنية بحسبان هذا الأمر الماضي، وهو يوحي إما إلى حدوث الفعل في الزمان الماضي، أو استمراريته.

أ- الأبنية المجردة: المسؤول مرتين.

ب- الأبنية المزيدة: الرسول بمعنى المرسل أربع مرات من الفعل أرسل.

٤- اسم التفضيل: الأكبر مرتين، والآخر، والأصغر، والأولى مرتين، والأعلم.

أبنية الجموع:

استعمل الرسول العظيم من أبنية الجموع جمع التكسير، والجمع السالم، واسم الجمع، واسم الجنس الإفرادي، وذلك على النحو الآتي:

أ- جمع التكسير:

١- فُعول: استعمل على هذا الوزن ثلاث كلمات هي الشرور جمع شَرّ، والقبور جمع قَبْر، والنجوم جمع نَجْم، ويلاحظ أنه ورد جمعا لفَعْل الاسم، وهو مما اطرد جمعه على فُعول[١١].

٢- أفْعُل: استعمل على هذا الوزن كلمتان هما أنفس جمع نَفْس ثلاث مرات، وأيدي جمع يد، وأصلها يَدْي، واشترط في جمع الأسماء على زنة أفْعُل فيما يخص الثلاثي المجرد منها أن تكون صحيحة العين واللام، وغير مضعفة[١٢]، ويلاحظ أن الجمع الأول قياسي مطرد، والثاني سماعي غير مطرد. وربما في اختيار الرسول الجمع أنفس بدلا من نفوس نكتة، وهي محاكاته ألفاظ القرآن الكريم والسياق الذي وردت فيه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (البقرة: ١٥٥)، فالجمع كان غفيراً، ولكن علم الرسول بالمغيبات التي أطلعه الله عليها، وهي بيان حال المسلمين بعد رحيله إلى الرفيق الأعلى، وتفرّقهم عما دعاهم إليه، ألزمه بمراعاة ما سيكون.

٣- أفْعال: استعمل على هذا الوزن كلمتان هما أعمال جمع عَمَل، وأقداح جمع قَدَح، ويلاحظ أنه ورد جمعا لفَعَل الاسم، وهو مما اطرد جمعه على أفْعال[١٣].

ب- الجمع السالم: استعملت خمس كلمات هي السيئات جمع سيئة، وهي جمع مؤنث سالما، والمؤمنون مرتين، والمسؤولون مرة واحدة، والقائلون مرة واحدة، والواردون مرة واحدة، وهي جمع مذكر سالماً.

ت- اسم الجمع: استعملت كلمتان في حال اسم الجمع هما الناس أربع مرات، والعترة مرة واحدة.

ث- اسم الجنس الإفرادي: استعملت كلمة واحدة هي الفضة مرة واحدة.

أبنية الأفعال ودلالاتها:

استعمل الرسول العظيم الفعل الثلاثي المجرد والمزيد فحسب، وذلك على النحو الآتي:

أ- أبنية الأفعال الثلاثية المجردة ودلالاتها: أبنية الأفعال الثلاثية المجردة كثيرة في كلام العرب، لأن الكلمات كلما قل عدد أحرفها خفّت على الألسنة، وكثر التداول بها في لامجتمع، ولا سيما إذا اعتورت أحرفها الأصول الثلاثة الفتحة فحسب، فهو، أي: فَعَلَ، كثير في كلامهم، وبحسبان هذا الأمر لم يحص أهل اللغة، ولا الصرفيون دلالاته[١٤].

وتصنف دلالاته بحسب ما قام به الباحثون المعاصرون من خلال العودة إلى المعجم العربي، ولحظ شيئين، الأول دلالته المعجمية، والثاني صلته بالأوزان الأخرى[١٥].

١- التكلّم: دل على هذه الدلالة الفعلان سأل، ودعا، وقال، الذي استعمل إحدى عشرة مرة، وفاعله ضمير الغائب تارة، والغائبين تارة، والمخاطبين تارة دلالة على حضور الجمع الغفير، وقيام الخطبة بتمام عناصرها.

٢- الخلق: دل على هذه الدلالة الفعل بعث.

٣- دل على هذه الدلالة الفعل

٤- السمع: دل على هذه الدلالة الفعل سمع.

٥- النظر: دل على هذه الدلالة الفعل نظر.

والغاية في ذكر هذين الفعلين من باب تأكيد الأوامر بالسمع والنظر.

٦- الاجتهاد: دل على هذه الدلالة الفعلان جهد، ونصر، الذي استعمل مرتين.

٧- اللجوء: دل على هذه الدلالة الفعل عاذ.

٨- الاهتداء: دل على هذه الدلالة الفعل هدى، ونصح.

٩- الضلالة: دل على هذه الدلالة الفعل ضلّ، الذي استعمل مرتين بخلاف الفعل هدى، الذي استعمل مرة واحدة، دلالة على الزيادة في الإنذار.

١٠- الخلافة: دل على هذه الدلالة الفعل خلف.

١١- القوة والعظمة: دل على هذه الدلالة الفعلان عزّ، وجلّ.

١٢- الهلاك: دل على هذه الدلالة الفعل هلك.

١٣- الجزاء: دل على هذه الدلالة الفعل جزى.

١٤- الدوران: دل على هذه الدلالة الفعل دار.

١٥- الورود: دل على هذه الدلالة الفعل ورد.

١٦- التمسك بالشيء: دل على هذه الدلالة الفعل أخذ.

١٧- الرفع: دل على هذه الدلالة الفعل رفع.

١٨- الترك: دل على هذه الدلالة الفعل خذل، الذي استعمل مرتين.

ب- أبنية الأفعال الثلاثية المزيدة ودلالاتها: تصنّف دلالات أبنية الأفعال الثلاثية المزيدة بحسبان دلالاتها التي ذكرها علماء اللغة، والمختصون بالتصريف، إذ ذكروا ما اطرد منها في كلام العرب، وذلك بلحظ دلالاتها في السياق الذي وردت فيه، وصلتها بالأوزان الأخرى سواء أكانت مجردة أم مزيدة بالاستعانة بالمعجم العربي[١٦].

١- الأفعال الثلاثية المزيدة بحرف:

أ- أفعلَ: دلّ هذا البناء على الدلالات الآتية:

١- التعدية: دل على هذه الدلالة الأفعال أحبّ، وأبغض، وأدار.

٢- المبالغة: دلّ على هذه الدلالة الفعل آمن.

٣- ما لم يكن له نظير في المعنى: دل على هذه الدلالة الفعل أجاب.

ب- فعّل: دلّ هذا البناء على الدلالتين الآتيتين:

١- مبالغة أفعلَ: دل على هذه الدلالة الفعلان نبّأ، وبلّغ، وذكر أنهما يشتركان في إتيانهما بمعنى واحد سواء دلا على التعدية أم لا[١٧]، ولكن فعّل المضعف يكون أبلغ من أفعل، وهيأ له هذا الشأن التضعيف.

٢- مبالغة فَعل المجرد: دل على هذه الدلالة الفعل قصّر بمعنى كفّ وعجز.

٣- التعدية: دل على هذه الدلالة الفعل عمّر.

ت- فاعَلَ: دلّ هذا البناء على الدلالتين الآتيتين:

١- المشاركة: دلّ على هذه الدلالة الفعلان نادى، وعادى، الذي استعمل مرتين.

٢- الموالاة: دل على هذه الدلالة الفعل والى، الذي استعمل مرتين.

٢- الأفعال الثلاثية المزيدة بحرفين:

أ- افتعل: دلّ هذا البناء على دلالة واحدة هي التدرّج، التي دلّ عليها الفعل افترق، وهي متأتية من إتيانه بمعنى تفرّق.

ب- تفعّل: دلّ هذا البناء على الدلالتين الآتيتين:

١- التدرّج: دل على هذه الدلالة الفعلان توكّل، وتقدّم.

٢- المبالغة: دل على هذه الدلالة الفعل تمسّك، وهو في الأصل بمعنى استمسك، ولكن الزيادة في تمسّك مع التضعيف هيأ له أن يكون أبلغ من استمسك، ودعوة الرسول العظيم إلى التمسك بالثقلين، وهو أمر عظيم، يستلزم اختيار البناء الأبلغ.

٣- الأفعال الثلاثية المزيدة بثلاثة أحرف: استعمل منها استفعل، وهو أشهرها في كلام العرب، وأكثرها تنوعاً في الدلالات، جاء منه الفعل استعان فحسب دالاً على أشهر دلالات هذا البناء، وهي الطلب، إذ قام الرسول العظيم في أول خطبته بحمد الله سبحانه ثم طلب الاستعانة به، وقال (ص): نستعينه بدلاً من نستعين به دلالة على قربه منه تعالى.

الخاتمة:

يطيب لي بعد فراغي من البحث أن أبيّن ما تمخض عنه، وهو:

١- إن الرسول العظيم (ص) ابن البيئة العربية، التي نشأ فيها، والأبنية التي استعملها هي أبنيتهم التي كانت دائرة على ألسنتهم، فلم يكن ما تكلم به غريباً عليهم فلا يفهموه.

٢- نوّع الرسول العظيم (ص) في الأبنية، فاستعمل أبنية الأسماء، وأبنية المصادر، وأبنية الصفات، وأبنية الجموع، وأبنية الأفعال، وكان يميل إلى استعمال أبنية الأسماء والأفعال.

٣- لم يستعمل الرسول العظيم في خطبته أي بناء رباعي، فكان ميله الشديد إلى الأبنية الثلاثية مجردها، ومزيدها.

٤- كان الرسول العظيم محمد (ص) يستعمل كلماته استعمال القرآن الكريم تارة، فتجري على لسانه مجرى بحسب استعمال القرآن الكريم إياها. وفي بعض المواضع كان يتواضع أمام استعمالاته، ولا سيما إذا دخل اللفظ في ميدان علم الغيب.

٥- كان في تكرير الرسول العظيم كلمة ما من دون غيرها غاية، وربما يكشف عن أشياء ما كانت على بال المسلمين في حينها.

٦- كثر في خطبة الرسول العظيم (ص) استعمال لفظ الجلالة، والألفاظ الدالة على الشهادة، وهذه الألفاظ الخطيرة لا تستعمل إلا للأمور الخطيرة، ولا سيما إذا كان الأمر تنصيب الخليفة من بعده.

٧- وضع الرسول العظيم لفظة المولى في موضع جديد ما كان العرب يضعونها فيه، فقد أعطاها معنى الخليفة، الذي يلي أمور المسلمين، وهذا المعنى تندرج فيه كل المعاني التي تدل عليها هذه اللفظة.

الهوامش:

(١) ظ. معجم ما استعجم، البكري الأندلسي: ٢/٣٦٨.

(٢) تأريخ الأمم والملوك: ٢/٤٢٩.

(٣) الغدير في الكتاب والسنة والأدب: ١/١٠ ـ ١١.

(٤) بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: ٢١/٣٧٨.

(٥) ظ. لسان العرب، ابن منظور (ثقل): ١١/٨٨، وتاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي (ثقل): ١٤/٨٥.

(٦) ظ. الصحاح، الجوهري (أله): ٦/٢٢٢٣.

(٧) ظ. الكتاب، سيبويه، تحـ: عبد السلام محمد هارون: ٤/١١، وشرح شافية ابن الحاجب، الرضي الاستراباذي، تحـ: محمد نور الحسن، ومحمد الزفزاف، ومحمد محيي الدين: ١/١٥٣، وشرح الأشموني، تحـ: محمد محيي الدين: ٤/٩٤، وشذا العرف، الشيخ أحمد الحملاوي: ٧٢.

(٨) ظ. شرح الرضي على الشافية: ١/١٥٨.

(٩) ظ. البيان في تفسير القرآن، السيد الخوئي: ٤٣٣.

(١٠) ظ. في الأصوات اللغوية: ٧٩.

(١١) ظ. المقتضب، المبرد، تحـ: محمد عبد الخالق عضيمة: ٢/٢٠٠، وتسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، ابن مالك، تحـ: محمد كامل بركات: ٢٧٣.٢٧٤، وشرح ابن عقيل، تحـ: محمد محيي عبد الحميد: ٢/٤٦٦.

(١٢) ظ. الكتاب: ٣/٥٦٧، والمقتضب: ٢/١٩٥، وشرح المفصل، ابن يعيش: ٥/١٤ ـ ٢١، والتسهيل: ٢٦٩، وشرح الرضي على الشافية: ٢/٩٠.٩١، وشرح ابن عقيل: ٢/٤٥٤، وشذا العرف: ١٠٧ ـ ١٠٨، والفيصل في ألوان الجموع، عباس أبو السعود: ٣٣.٣٦.

(١٣) ظ. شذا العرف: ١٠٨.

(١٤) ظ. شرح الرضي على الشافية: ١/٧٠.

(١٥) الكتاب: ٤/١٢ ـ ٣٢، ٥٦، ٥٨، ٦٠، وشرح المفصل: ٧/١٥٦ ـ ١٥٧، والتسهيل: ١٩٦ ـ ١٩٧، وتكملة في التصريف في آخر كتاب شرح ابن عقيل، محمد محيي الدين: ٢/٦٠٠، وأبنية الصرف في كتاب سيبويه، د. خديجة الحديثي: ٣٨١ ـ ٣٨٧.

(١٦) ظ. شذا العرف: ٤١.٤٨.

(١٧) الأبنية الصرفية عند شعراء أسد في العصر الجاهلي، رسالة دكتوراه، الباحث: ٣٨٧.

المصادر والمراجع:

ـ القرآن الكريم

١ ـ أبنية الصرف في كتاب سيبويه، د. خديجة الحديثي، ط١، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٥م.

٢ ـ الأبنية الصرفية عند شعراء أسد في العصر الجاهلي (رسالة دكتوراه)، حسن عبد المجيد الشاعر. كلية الآداب، جامعة الكوفة، ٢٠٠٨م.

٣ ـ بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ط٢، مؤسسة الوفاء، بيروت – لبنان، ١٩٨٣م.

٤ ـ البيان في تفسير القرآن، السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي (ت١٩٩١م)، ط٤، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان.

٥ ـ تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي (ت١٢٠٥هـ)، تحـ: علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٤م.

٦ ـ تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري (٣٣٢ ـ ٣٩٣هـ)، تحـ: أحمد عبد الغفور عطار، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧م.

٧ ـ تأريخ الأمم والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، مراجعة نخبة من العلماء، طبعة مقابلة بطبعة ليدن في سنة ١٩٧٩م.

٨ ـ تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، لمحمد بن مالك (ت٦٧٢هـ)، تحـ: محمد كامل بركات، د. ط، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٧م.

٩ ـ شذا العرف في فن الصرف، الشيخ أحمد الحملاوي (ت١٣١٥هـ)، ط١٦، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٦٥م.

١٠ ـ شرح ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله بن عقيل المصري (ت٧٦٩هـ)، تحـ: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٢٠، دار مصر للطباعة، القاهرة، ١٩٨٠م.

١١ ـ شرح الأشموني على ألفية ابن مالك المسمى بمنهج السالك إلى ألفية ابن مالك، علي بن محمد (ت٩٢٩ هـ)، تحـ: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٣، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٤٦م.

١٢ ـ شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي (ت٦٨٦ هـ)، تحـ: محمد نور الحسن، ومحمد الزفزاف، ومحمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ١٩٧٥م.

١٣ ـ شرح المفصل، موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش النحوي (ت٦٤٣هـ)، عالم الكتب، بيروت.

١٤ ـ الغدير في الكتاب والسنة والأدب، الشيخ عبد الحسين أحمد الأميني النجفي، نشره: الحاج حسن إيراني، ط٤، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ١٩٧٧م.

١٥ ـ في الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، ط٤، مكتبة الأنجلو مصرية بالقاهرة، ١٩٧١م.

١٦ ـ الفيصل في ألوان الجموع، عباس أبو السعود، مطابع دار المعارف، بمصر، ١٩٧١م.

١٧ ـ كتاب سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت١٨٠هـ)، تحـ: عبد السلام محمد هارون، ط٢، دار الجيل للطباعة، مصر، ١٩٨٢م.

١٨ ـ لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت٧١١هـ)، نشر أدب الحوزة، قم – طهران، ١٤٠٥هـ.

١٩ ـ معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي (ت٤٨٧هـ)، تحـ: مصطفى السقا، ط٣، عالم الكتب – بيروت، ١٩٨٣م.

٢٠ ـ المقتضب، أبو العباس محمد يزيد المبرد، تحـ: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت. ❖

الرعـايـة الصـحيـة
في فكر الإمام علي (ع)

أ. د. عطا سلمان جاسم
م. د. محمد حسين السويطي
قسم التاريخ، كلية التربية،
جامعة واسط، جمهورية العراق

المقدمة:

الإمام علي بن أبي طالب (ع) هو أبو الأئمة المعصومين (عليهم السلام أجمعين)، إمام فذ يقتدى به، ويستضاء بسيرته العطرة، فحياته مدرسة للأجيال، وسيرته المباركة تجسيد لأمل الشرائع والحضارات، وواجب على كل مسلم أن يستوحي من سيرته، ويختط عليه طريقه في العلم والعمل في مجالات الحياة كافة، ومنها جانب الرعاية الصحية.

لقد أولى الإمام علي (ع) عناية كبيرة بصحة الإنسان ورعايتها، منطلقاً من رؤية وضحها بقوله: "**الصحة أفضل النعم**"[1]، فأكد موضوع البيئة المحيطة بالإنسان، وشدد على عدم تلويثها بما يؤدي إلى الإخلال بصحة الإنسان والمجتمع، وسائر المخلوقات الأخرى، وحرص على التعامل مع أغلب الجوانب الصحية في حياة الفرد، ووصف أسباب الأمراض وحوافزها ومناخاتها وعوامل انتشارها، وأرشد إلى آليات الحد من تفشيها، ومنها: الاهتمام بنظافة البيئة، والعناية بالنظافة الشخصية البدنية منها والروحية، والابتعاد عن تناول الأكلات التي حرمها القرآن الكريم.

ولم يكن اختيارنا لموضوع البحث الموسوم (**الرعاية الصحية في فكر الإمام علي - ع -**) جزافاً، أو محض مصادفة، وإنما كان طموحاً طالما تمنينا تحقيقه، لأسباب عديدة، في طليعتها رغبتنا الشخصية في الاطلاع على مناقب هذه الشخصية العملاقة وجانب من آثارها العلمية القيمة، فضلاً عن قصور الدراسات الأكاديمية والبحثية في ميدان أئمة أهل البيت (عليهم السلام) في الجامعات العراقية، وحاجتنا الماسة إلى فهم الفكر الإسلامي الأصيل الذي مثله الإمام علي (ع)، مما يمكننا الإفادة منه في حل الكثير من الإشكالات والتحديات التي تواجه المجتمعات الإنسانية في الوقت الحاضر. ولأجل ذلك بحثنا في بطون مصادر التراث الإسلامي عن كل ما يرفد الموضوع من معلومات ذات صلة، فما أروع أن ينسب هذا الحقل العلمي الحديث (**الرعاية الصحية**) إلى من به وبشفاعته ترتجى العافية.

---

(١) الواسطي، عيون الحكم، ص٢٣.

وقد اقتضت ضرورة البحث أن نقسمه على مبحثين، مصدرة بمقدمة وضحت فكرة البحث ومسوغات اختياره، فاستعرضنا في المبحث الأول أقوال الإمام علي (ع) وإجراءاته في مجال تعزيز الصحة النفسية والعقلية للمجتمع من خلال نصحه باحترام نفسية الإنسان وعدم شرب الخمر وتعاطي المسكرات والاهتمام بذوي المتطلبات الخاصة، وبينا في المبحث الثاني أقواله (ع) وأفعاله في مجال تنظيم الغذاء والشراب وكيفية الوقاية من الأمراض والاهتمام بالنظافة الخاصة والعامة، ورعاية البيئة التي هي مصدر رئيس لصحة الإنسان، وختمنا البحث بموجز لأهم الاستنتاجات، وقائمة لمصادره ومراجعه.

ختاماً نسأل الله تعالى أن نكون قد وفقنا في إعطاء موضوع الدراسة قيمته العلمية التي يستحقها، ويبقى عملنا هذا من صنع البشر، فما كنا فيه من صواب فذلك بفضل الله وبتوفيق منه، وان تسربت إليه الهفوات فالإنسان خطاء ما عاش، والكمال لله وحده.

المبحث الأول

رعاية الصحة النفسية والعقلية

تطبيقاً لتعاليم الدين السمحاء، أولى أمير المؤمنين الإمام علي (ع) عناية كبيرة بصحة الإنسان النفسية والعقلية، فشدد على احترام النفس الإنسانية، وأكد محاربة كل ما يؤثر في سلامتها العقلية والنفسية، وفيما يلي محاولة لتشخيص الكيفية التي تعامل بها في هذا الجانب.

في مجال رعاية الصحة النفسية، عد الإمام علي (ع) (الهَمُّ) تحدياً نفسياً مؤثراً في صحة أفراد المجتمع النفسية، قد يصل إلى إصابة صاحبه بالعمى وفقدان التوازن النفسي والاختلال العقلي[١]، وهو ما يفهم من قوله (ع): "**الهَم يذيب الجسد... والحزن يهدم الجسد**"[٢]، واعتباره "**الهَم نصف الهَرَم**"[٣]؛ لذلك دعا (ع) إلى تذليله وتقويضه كما في وصيته: "**يا ابن آدم لا تحمل هم يومك الذي لم يأتك علي يومك الذي قد أتاك، فانه إن يك من عمرك يأت الله به برزقك**"[٤]، ووصف (ع) لأجل ذلك بعض العلاجات والأطعمة المفيدة اللازمة للوقاية منه، كالزيت، "**فأنه يطيب النفس ويذهب بالغم**"[٥].

وفي المجال نفسه، شدد الإمام علي (ع) على تحريم شرب الخمر، لأضراره الجسيمة بصحة الإنسان البدنية منها والنفسية، فهو يؤدي إلى زوال العقل وفساده، وبالنتيجة إلحاق

---

(١) البغدادي، نهاية الأفكار، ص١٢٢ ـ ص١٢٣.

(٢) الواسطي، عيون الحكم، ص٣٢.

(٣) الإمام علي (ع)، نهج البلاغة، ج٤/ص٣٤؛ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٤/ص٤١٦.

(٤) الإمام علي (ع)، نهج البلاغة، ج٤/ص٦٤؛ الرضي، خصائص الأئمة، ص١١٥.

(٥) الطبرسي، مكارم الأخلاق، ص١٩؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٦٣/ص١٧٩.

ضرر كبير بصحة المجتمع وتركيبته الاجتماعية والاقتصادية[١]، وقد أثبت العلم الحديث أن للخمر آثاراً سلبية في أعصاب القلب وسلامة الكليتين وإصابة الجسم بالالتهابات وتلف الأعصاب والشرايين وبالتالي ضعف مقاومة الجسم ومناعته[٢]؛ ووصل مدى تشدده (ع) إلى إضرامه النيران بقرية زرارة في الكوفة؛ لأنها كانت مركزاً لصناعة الخمور وبيعها[٣].

ولم تكن رعاية ذوي المتطلبات الخاصة، بوصفها أحد التحديات النفسية المهمة لأفراد المجتمع، ببعيدة عن فكر أمير المؤمنين وتطبيقاته، بل جعلها من أولويات منهجه في رعاية صحة الإنسان النفسية والعقلية، فحدد إطاراً عاماً لكيفية التعامل معهم، ومنحهم حقوقاً وقدمهم على غيرهم، بسبب ما يعانونه من أوضاع تختلف عن غيرهم من الناس الاعتياديين، ولم يقف عند هذا الحد فحسب، بل سعى للتخلص من الإعاقات غير الدائمة والحد منها، بتأكيده - على سبيل المثال لا الحصر - على تنمية حدائق المنازل وتزيينها بأنواع الورود والرياحين، لأن الرائحة الزكية الصادرة منها لها أثر في تحجيم الكثير من حالات العوق، تمثل ذلك بقوله: "**النرجس ولو في اليوم مرة واحدة، ولو في الشهر مرة واحدة، فان في القلب حبة من الجنون والبرص لا يقلعها إلا شم النرجس**"[٤]، ووصاياه الطبية، كوصيته التي وجه بها إلى استعمال الحناء لأنها "**أمان من الجذام والبرص**"[٥].

ولما وصل الإمام علي (ع) إلى الخلافة، وضع نصب عينيه ذوي المتطلبات الخاصة، فعاملهم معاملة خاصة مستندة إلى تعاليم الدين السمحة، فشرع قانوناً رسمياً من الدولة لرعايتهم، وذلك من خلال العهد الذي كتبه إلى مالك الأشتر[٦] حين ولاه إمارة مصر، حيث رسم له السياسة الواجب إتباعها معهم والخطوط العامة لرعايتهم، إذ أوصاه بهم خيراً، وأمره

---

(١) ينظر: الطبري، جامع البيان، ج٢/ص٤٨٥؛ الطباطبائي، الميزان، ج٢/ص١٩١ - ص١٩٦؛ العبدلي، نظرة علمية للكتب السماوية، ج١/ص٣٥ - ٣٨؛ الفنجرى، الطب الوقائي في الإسلام، ص٢٥٩ - ص٢٨٩.

(٢) ينظر: فراج، الإسلام والوقاية من الأمراض، ص٦٧ - ص٧٠؛ البنا، الإسلام والتربية الصحية، ص٧٩ - ص٨٨.

(٣) ابن سلام، الأموال، ص١٠٥.

(٤) الطريحي، مجمع البحرين، ج٤/ص٢٩٢؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٥٩/ص٢٩٩.

(٥) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج١/ص١٢١؛ الطبرسي، مكارم الأخلاق، ص٦٢.

(٦) هو مالك بن الحارث بن عبد يغوث النخعي، المعروف بالأشتر، كان من الرجال الشجعان، قاتل تحت راية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) في معارك عدة، منها: معركتا الجمل وصفين، كلفه الإمام علي (ع) أيام خلافته بولاية مصر، وقد مات وهو متوجه إليها سنة (٣٧هـ/٦٥٧م)، فقال فيه الإمام(ع): رحم الله مالكاً فلقد كان لي كما كنت لرسول الله. ابن سعد، الطبقات، ج٦/ص٢١٣؛ الزركلي، الأعلام، ج٥/ص٢٥٩.

بصرف رواتب لهم من بيت المال، وتقديم مواد عينية لهم من غلات أراضي الصوافي[١]، وكان (ع) يوصي كل شخص يكلفه بمسؤولية بقوله: **"وانظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفه إلى من قبلك من ذوي العيال والمجاعة"**[٢].

وأدرك الإمام علي (ع) قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة أثر استقرار الحالة النفسية في فاعلية العلاج في جسم المريض، وان هناك أمراضاً جسدية ناتجة عن الحالة النفسية والتوهم والتخوف، لذلك أوصى بترك الشكوى من المرض بحدود معينة، بغية عدم نشر الذعر بين أبناء المجتمع من الأمراض التي تصيب بعض أفراده، مما يشكل تحدياً نفسياً كبيراً لهم. وعدم السخط أو الانزعاج من المرض، والرضى بقضاء الله وقدره، بنصحه أبناء المجتمع الإنساني بالالتزام بوصية رسول الله (ص) ونصها: **"أنين المؤمن تسبيح، وصياحه تهليل، ونومه على الفراش عبادة، وتقلبه من جنب إلى جنب جهاد في سبيل الله، فان عوفي مشى في الناس وما عليه من ذنب"**[٣].

كما أوصى أمير المؤمنين (ع) في المجال نفسه بالتخفيف من وطأة المرض على المريض والحد من شده العصبي والارتباك الذهني الناتجين عن ظرفه، بغية تحجيم المرض وزيادة فاعلية العلاج، وبالنتيجة ارتفاع نسبة الأمل في التماثل للشفاء؛ لذلك أوصى أفراد المجتمع بزيارة المريض ورعايته وتطييب خاطره بحلو الكلام، فقال (ع): **"سمعت رسول الله يقول: ما من مسلم يعود مسلماً غدوة إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي، وإذا عاده مساء صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح..."**[٤].

المبحث الثاني

رعاية الصحة الجسدية للمجتمع

لم تقتصر عناية الإمام علي (ع) على صحة الإنسان النفسية والعقلية، بل شملت كذلك صحة الإنسان الجسدية، فكان شديد الحرص على التعامل مع أغلب جوانب الصحة الجسدية في حياة الفرد، وفيما يلي محاولة لتشخيص الكيفية التي تعامل بها في هذا الجانب.

في مجال العناية بنظافة الغذاء والشراب والاهتمام بنوعيتهما، اقتفى أمير المؤمنين (ع) أثر قوله تعالى: ﴿...وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[٥]، فعد (ع) تنظيم تناول

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١٧/ص٨٥؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٣٣/ص٦٠٧.

(٢) الإمام علي(ع)، نهج البلاغة، ج٢/ص١٢٨؛

(٣) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٤/ص٣٦٤؛ الطبرسي، مكارم الأخلاق، ص٤٢٩.

(٤) الطوسي، الأمالي، ص٦٣٥؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٨٩/ص٣٣٢.

(٥) سورة الأعراف: آية ٣١.

الغذاء والشراب أحد أهم أسباب السعادة الإنسانية؛ لذلك ترك جملة وصايا في هذا المجال، كوصيته (ع): **"من أراد أن لا يضره طعام، فلا يأكل حتى يجوع، فإذا أكل، فليقل: بسم الله وبالله، وليجد المضغ، وليكف عن الطعام وهو يشتهيه، وليدعه وهو يحتاج إليه"**[١].

وبناءً على فهم أمير المؤمنين (ع) العميق لمبادئ الإسلام طبق مفهوم الآية السابقة في أرض الواقع، فربط بين الإفراط بالأكل وتفاقم المرض، فعد الإدمان على كثرة تناول الطعام سبباً رئيساً لمعظم الأمراض التي تصيب الإنسان، تمثل ذلك بوصاياه الكثيرة في هذا المجال، ومنها: **"من قل طعامه قلت آلامه"**[٢]، ولما سأله رجل عن أمراض كثيرة أصيب بها وكيف يمكن له أن يتخلص منها، أجابه (ع) بالقول: **"إياك والبطنة فمن لزمها كثرت أسقامه"**[٣]، لأن **"من غرس في نفسه محبة أنواع الطعام، أجتني ثمار فنون الأسقام"**[٤]، وقد كرس (ع) أقواله ونصائحه تلك في وصيته لولده الإمام الحسن (ع)، التي جاء فيها: **"بني ألا أعلمك أربع كلمات تستغني بها عن الطب؟ فقال: بلى يا أمير المؤمنين، قال الإمام (ع): لا تجلس على الطعام إلا وأنت جائع، ولا تقم عنه إلا وأنت تشتهيه، وجود المضغ، وأعرض نفسك على الخلاء إذا نمت، فإذا استعملت هذه استغنيت عن الطب"**[٥].

وتنفيذاً لتوجيهات الإسلام الصحية في تحريم بعض المأكولات، لما لها من أثر فاعل في إضعاف مناعة الإنسان وجعله عرضة للإصابة بالأمراض، كقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ...﴾[٦]، شدد الإمام علي (ع) في تحريم الكثير من الأغذية الضارة، وحث على أكل ما له قيمة غذائية، مدركاً أثر نوعية التغذية في بناء مجتمع صحيح عقلاً وجسداً، سابقاً بذلك الطب الحديث الذي شخص أثر ذلك في مقاومة الجسم للأمراض بأنواعها[٧]،

---

(١) الزيات، طب الأئمة، ص٢٩ وص٦٠؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٦٣/ص٣٨٠.

(٢) الواسطي، عيون الحكم والمواعظ، ص٤٥٥.

(٣) الواسطي، عيون الحكم، ص٩٦؛ النوري، مستدرك الوسائل، ج١٦/ص٢٢١.

(٤) الواسطي، عيون الحكم، ص٤٢٦.

(٥) الزيات، طب الأئمة، ص٣؛ الصدوق، الخصال، ص٢٢٩.

(٦) سورة المائدة: الآية ٣. ومن المفيد ذكره هنا إن الآية القرآنية المباركة حرمت أكل الميتة والدم ولحم الخنزير، وما ذبح على اسم غير الله تبارك وتعالى والميتة خنقاً، فضلاً عن تحريم أكل (الموقوذة) وتعني المقتولة ضرباً، و(المتردية) وتعني الميتة من جراء السقوط من علو، و(النطيحة) وتعني المقتولة بنطح أخرى لها وما أكل السبع منه. ينظر: الطبري، جامع البيان، ج٦/ص٩٠ ـ ص٩٦؛ الطبرسي، مجمع البيان، ج٣/ص٢٦٨ ـ ص٢٧٢؛ السيوطي، تفسير الجلالين، ص١٣٤؛ الطباطبائي، الميزان، ج٥/ص١٦٥ ـ ص١٦٧.

(٧) ينظر: العاني، الظواهر الصحية والطبية، ص١١٧؛ بيرم، الأمراض المعدية، ص٦؛ فراج، الإسلام والوقاية من الأمراض، ص٤٢ ـ ص٤٦.

لذلك نهى عن أكل أي شيء دون معرفة خصائصه ونوعيته وجودته، وضرب مثلاً لأبناء جلدته على نفسه، فقال: **"لا أحب أن يدخل بطني شيء لا أعرف سبيله"**[١].

ومن جملة الأغذية النافعة التي حث على تناولها أمير المؤمنين (ع) التمر، الذي قال في فائدته: **"من أكل كل يوم سبع تمرات عجوة قتلت كل داء في بطنه"**[٢]، ولأهميته التي ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز بقوله الكريم: ﴿...يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣]، نصح (ع) أبناء جلدته بتناول العسل بقوله: **"لعق العسل شفاء من كل داء"**[٤]، سابقاً بذلك العلم الحديث الذي أثبت فائدة العسل الغذائية والصحية[٥]، وأكد كذلك أهمية الزيت، فقال (ع): **"ادهنوا بالزيت وأتدموا به، فإنه دهنة الأخيار وأدام المصطفين مسحت بالقدس مرتين بوركت مقبلة وبوركت مدبرة لا يضر معها داء"**[٦].

ولم تقتصر توجيهات الإمام علي (ع) ونصائحه في هذا المجال على أنواع الأطعمة المفيدة فحسب، بل تعداها إلى أبعد من ذلك بعرضه الطريقة الأمثل في تناول بعض الأطعمة والثمار، بغية الإفادة من كل مكوناتها الغذائية، كالرمان الذي قال في طريقة تناوله: **"إذا أكلتم الرمان فكلوه بشحمه فانه دباغ المعدة"**[٧]، وهو ما توصل إليه العلماء في العصر الحديث بوجود مواد غذائية في قشور الرمان تساعد على تهدئة آلام المعدة وتزيد من قدرتها على عملية الهضم.

ولأن اللحم أحد أهم الوجبات الغذائية الرئيسة للإنسان، نصح الإمام علي (ع) بعدم النفخ في الذبيحة عند سلخها، فقال: **"لا تنفخوا اللحم"**، مدركاً انه يمكن أن يكون أحد القصابين مصاب بأمراض معينة تؤدي إلى تلويث اللحم وفساده عند نفخه فيه، ومن ثم يتم بيعه للناس دون علمهم أن هذا اللحم فاسد مما يترتب نتيجة أكلهم لهذا اللحم للناس أمراض خطيرة أبرزها التسمم الغذائي.

---

(١) الحلي، منتهى المطلب، ج٢/ص٦٢٤؛ البحراني، الحدائق الناظرة، ج١٣/ص٤٣٥.

(٢) البرقي، المحاسن، ج٢/ص٥٣٢؛ الكليني، الكافي، ج٦/ص٣٤٩.

(٣) سورة النحل: الآية ٦٩.

(٤) البرقي، المحاسن، ج٢/ص٤٩٨؛ الكليني، الكافي، ج٦/ص٣٣٢.

(٥) أثبتت الأبحاث العلمية الحديثة احتواء العسل على أكثر من مائتي مادة غذائية، أهمها: محلول سكري مركز يتكون أساساً من السكر والماء والأملاح المعدنية والفيتامينات وبعض المواد البروتينية والإنزيمات ومركبات كيمائية ذات صفات دوائية، فضلاً عن كونه مادة قاتلة للجراثيم. ينظر: حجازي، كفاءة الأعسال، ص٦٤ وص٦٧ ـ ص٦٨؛ أسماء، معجزة الاستشفاء بالعسل، ص١٤٨.

(٦) البرقي، المحاسن، ج٢/ص٤٨٤؛ الكليني، الكافي، ج٦/ص٣٣١.

(٧) الهندي، كنز العمال، ج١٤/ص١٨٧.

واستناداً لأحاديث الرسول (ص) بشرب الإنسان الماء على دفعتين أو ثلاث، لأنه أخف على المعدة والجهاز الهضمي، مثل حديثه (ص): **"لا تشربوا واحداً... ولكن أشربوا مثنى وثلاثاً وسموا إذا أنتم شربتم"**[١]، نهى الإمام علي (ع) عن شرب الماء عبة واحدة، فقال: **"ثلاثاً أو اثنتين"**[٢]: ولأجل الحفاظ على مصادر المياه ونشر ثقافة الاستخدام الصحيح لها، برز (ع) قيمته وفضله على بقية الأشربة، بقوله: **"الماء سيد الشراب في الدنيا والآخرة"**[٣]، ولضمان نقاوته، مما يكون له تداعيات صحية خطرة على أفراد المجتمع، شدد (ع) على نظافة مصادره، لاسيما مياه الأنهار والآبار، وتجنب تلويثها بإلقاء النفايات فيها، ونهى نهياً تاماً عن التبرز أو التبول في الماء أو على شواطئه، وفي ذلك قال: **"لايتغوطن أحدكم... في ماء جار، فمن فعل ذلك فأصابه شيء فلا يلومن إلا نفسه"**[٤].

وفي مجال الوقاية والتداوي من الأمراض التي تُعد من الخطوات المتقدمة في صحة المجتمع، ترك أمير المؤمنين (ع) جملة وصايا وقائية، منها: **"توقوا البرد في أوله، وتلقوه في آخره، فانه يفعل في الأبدان كفعله في الأشجار: أوله يحرق وآخره يورق"**[٥].

وأكد العلم الحديث فاعلية الدواء في الشفاء من الأمراض، إلا انه في الوقت نفسه أوصى بتجنب استعمالها قدر الإمكان دون حاجة أو وصفة الطبيب المختص، لضررها المباشر في صحة الإنسان وعافيته، وقد وضح هذه الفكرة أمير المؤمنين ودعا إلى نشر ثقافتها بين أفراد المجتمع، فقال (ع): **"اجتنب الدواء ما احتمل بدنك الداء، فإذا لم يحتمل الداء فالدواء"**، وفسر ذلك (ع) بقوله: **"ليس من دواء إلا ويهيج داءاً، وليس شيء في البدن من إمساك... إلا عما يحتاج إليه"**[٦].

وسار الإمام علي (ع) في مجال النظافة الخاصة، التي تُعد من أبرز الإجراءات الوقائية لحفظ الصحة العامة للمجتمعات الإنسانية. على نهج القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فاعتبرها من سنن الإسلام الرئيسة، ولأجل نشر هذه الثقافة الصحية ترك جملة من الأقوال والأفعال، ففي نظافة البدن، قال (ع): **"نتف الإبط ينفي الرائحة المنكرة، وهو طهور وسنة"**[٧]، ولأن الأيدي سبيلاً مهماً لنقل الجراثيم ومرتع خصب لها، لاسيما ما بين اللحم

---

(١) الترمذي، سنن الترمذي، ج٤/ص٣٠٢: الهندي، كنز العمال، ج١٥/ص١٢٥.

(٢) الطبرسي. الأكل والشرب والشفاء، ص٨٢.

(٣) الكليني، الكافي، ج٦/ص٣٨ وص٣٨١: البرقي، المحاسن، ج٢/ص٥٧٠؛ العاملي، الفصول المهمة، ج٢/ص٤٤٦.

(٤) الصدوق. الخصال، ص٦١٣: الحراني، تحف العقول، ص١٠٢.

(٥) الإمام علي (ع)، نهج البلاغة، ج٤/ص٣٠: الرضي، خصائص الأئمة، ص١٠١.

(٦) الزيات. طب الأئمة، ص٤: الكليني، الكافي، ج٨/ص٢٧٣.

(٧) الصدوق. الخصال. ص٦١٢: الحراني، تحف العقول، ص١٠١: المجلسي، بحار الأنوار، ج١٠/ص٩٠.

والأظفار، قال (ع): "**من غسل يده قبل الطعام وبعده، بورك له في أول الطعام وآخره، وعاش ما عاش في سعة، وعوفي من بلوى في جسده**"(١)، وبين أن سبب تأكيد غسل الأيدي إدراكه إنها سبيل مهم لنقل الجراثيم والأمراض، كما في قوله: "**غسل اليدين قبل الطعام وبعده، زيادة في العمر، وإماطة للغمر عن الثياب، ويجلو البصر**"(٢).

ووجه الإمام علي (ع) بالاهتمام بنظافة أجزاء الجسد التي تكون عرضة للتلوث المباشر، ومنها: الأسنان باعتماد السواك، لإزالة بقايا الطعام وعدم بلعها، لان في ذلك خطراً على صحة الإنسان وسلامته، فقال: "**خمس يذهبن بالنسيان ويزدن في الحفظ ويذهبن بالبلغم: السواك والصيام وقراءة القرآن والعسل واللبان**"(٣)، وفي موضع آخر قال (ع): "**عليكم بالسواك فإنه يطيب رائحة الفم، وعليكم بالكحل فإنه يجلو البصر**"(٤)، وقد أثبت الطب الحديث أن معظم الأمراض التي تصيب الإنسان سببها بقايا الطعام الموجود في الفم، وإن خير وسيلة لمقاومتها تنظيف الأسنان بصورة مستمرة(٥)؛ ولأن الأظفار أحد أجزاء جسم الإنسان المهمة، وعدم الاهتمام بنظافتها يؤدي إلى نمو الجراثيم تحتها مما يشكل خطراً على حياة الإنسان وصحته، حذر (ع) من إهمال تنظيفها، فقال: "**تقليم الأظفار يوم الجمعة يمنع كل داء، وتقليمها يوم الخميس يدر الرزق دراً**"(٦)، وقال أيضاً: "**تقليم الأظافر يمنع الداء ويجلب الرزق ويدره**"(٧).

وفي مجال رعاية الأمومة والطفولة ولحاجة الأم إلى الغذاء المركز الذي تتولد عنه طاقة تتقوى بها على مشقة الولادة ثم الرضاعة، أكد أمير المؤمنين (ع) نوعية غذائها في أشهر حملها وولادتها، فوصف الرطب غذاءً ودواءً للأم في أشهر حملها، فقال (ع): "**ما تأكل**

---

(١) الكليني، الكافي، ج٦/ص٢٩٠؛ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٣/ص٣٥٨؛ الطبرسي، مكارم الأخلاق، ص١٤٠.

(٢) البرقي، المحاسن، ج٢/ص٤٢٤؛ الكليني، الكافي، ج٦/ص٢٩٠.

(٣) الطبرسي، مكارم الأخلاق، ص١٦٦؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٦٣/ص٢٩٠.

(٤) الطبرسي، مكارم الأخلاق، ص٧٤؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٣/ص٣٩٦.

(٥) أثبت العلم الحديث إن اللثة هي موطن الأمراض وحاضنة أسبابها، واحتواء نبات الأراك الذي يكون من ساقه أو جذره السواك على مادة الفلور والسليكون والكالسيوم والبوتاسيوم وغيرها من المواد التي تساعد على الاحتفاظ باللثة بصحة جيدة، ويضفي على الأسنان بياضاً ناصعاً، وانه يضم اثنان وعشرون مادة طبية من أملاح وزيوت عطرية وكالسيوم وبوتاسيوم وغيرها تساعد على تطهير الفم وتطييب رائحته وقتل الجراثيم الموجودة في داخله. ينظر: الأزرق، تسهيل المنافع، ص٧٨؛ البنا، الإسلام والتربية الصحية، ص٣٢ ـ ص٣٦؛ العاني، الظواهر الصحية والطبية، ص١١٣.

(٦) الزيات، طب الأئمة، ص١٣٨؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٣/ص١٢١.

(٧) الزيات، طب الأئمة، ص١٣٨؛ الكليني، الكافي، ج٦/ص٤٩٠؛ الحراني، تحف العقول، ص١٠١.

الحامل من شيء، ولا تتداوى به أفضل من الرطب"[١]، ووصفه لها أيضاً في شهر نفاسها، قائلاً: "**اطعموا المرأة في شهرها الذي تلد فيه التمر، فان ولدها يكون حليماً نقياً**"[٢]، مستنداً (ع) في أقواله تلك إلى فهمه العميق للقرآن الكريم، حين وصف الله تبارك وتعالى الرطب غذاءً للسيدة مريم (عليها السلام) في أيام حملها، قائلاً جل في علاه: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾[٣]، وهي أقوال علمية سبقت العلم الحديث الذي أثبت فائدة التمر للمرأة الحامل والنفساء؛ لاحتوائه على عناصر غذائية مركزة تفيد في غسل الكلى وتنظيف الكبد، والى غير ذلك من الفوائد التي لا تقتصر على الأم فحسب وإنما تشمل مولودها أيضاً، إذ تزيد هذه العناصر الغذائية من وزن الطفل وتحفظ رطوبة عينيه وبريقها وتقوي عظامه[٤].

وفي مجال رعاية الطفولة وتماشياً مع الإسلام منح الطفل أهمية كبيرة حتى قبل أن يُشكل في بطن أمه، منطلقاً من أن ولادته بصورة سليمة وتربيته بطريقة حسنة تؤدي إلى خلق مجتمع سليم، ويكمن ذلك بتأكيداته ووصاياه، فلما أراد (ع) الزواج بعد وفاة فاطمة الزهراء (عليها السلام) قال لأخيه (عقيل بن أبي طالب)، وكان نسابة عالماً بأنساب العرب وأخبارهم: "**أنظر لي امرأة قد ولدتها الفحول من العرب لأتزوجها فتلد لي غلاماً فارساً**" فأجابه (عقيل) قائلاً: "**تزوج فاطمة بنت حزام الكلابية فانه ليس في العرب أشجع من آبائها**"، فتم ذلك وولدت له العباس المعروف بقوة جسده وشجاعته وخلقه الكريم[٥].

وسرت وصايا أمير المؤمنين (ع) مع إلزام الإسلام الأم برضاعة طفلها، كما في قوله عز وجل: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾[٦]، وبين من خلالها أهمية فائدة حليب الأم في بناء جسم طفلها وسلامته الصحية، كقوله: "**ما من لبن يرضع به الصبي أعظم بركة عليه من لبن أمه**"[٧]، وفي حالة مرض الأم أو وفاتها نصح (ع) باختيار

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج١٠/ص١١٥.

(٢) المصدر نفسه، ج٦٣/ص١٤١.

(٣) سورة مريم: الآيات ٢٥ - ٢٦.

(٤) أثبت العلم الحديث احتواء التمر على عناصر غذائية عديدة، منها: فيتامين (أ) الذي يقوي الأعصاب البصرية ويساعد على النمو والتكامل، وفيتامينات (ب١) و(ب٢) و(ب. ب)، وهي مجموعة تقوي الأعصاب وتلين الأوعية الدموية، وترطب الأمعاء فتحفظها من الالتهاب والوهن، كما يحتوي على الكالسيوم والحديد الذي يتقوى به البدن، والمغنزيوم الذي هو خير وسيلة للوقاية من السرطان، وعلى أنواع من السكريات(سكاروز، ليفولوز، غليكوز). ينظر: أحمد، إعجاز التمر في الشفاء، ص١٦٥ - ص١٦٧؛ عبد المنان. طب الإمام علي (ع)، ص١٢ - ص١٥.

(٥) ابن عنبة، عمدة الطالب، ص٣٢٧؛ وينظر: الزبيدي، العباس بن علي، ص١٢ - ص١٣.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢٣٣.

(٧) الكليني. الكافي، ج٦/ص٤٠؛ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٣/ص٤٧٥.

النسوة الجيدات في سلوكهن لعملية إرضاع الطفل في حالة عجز والدته عن ذلك: لأن حليب المرضعة أساس سلوك الإنسان وطبائعه، فقال (ع): **"تخيروا للرضاع كما تتخيرون للنكاح، فإن الرضاع يغير الطباع"**[١]، وحذر في الوقت نفسه من رضاعة النسوة غير السويات في سلوكهن: لأن ذلك سينعكس سلباً على طباع الأطفال، فقال (ع): **"توقوا على أولادكم لبن البغية والمجنونة، فأن اللبن يعدي"**[٢]، كما قال: **"لا تسترضعوا الحمقاء فان اللبن يغلب الطباع"**[٣]. وسبب تأكيد مدة رضاعة الطفل لعامين[٤] هو لإتمام الفائدة المرجوة من الرضاعة الطبيعية، مما ينعكس إيجاباً على بنية الطفل ويسهم في خلق مجتمع قوي خال من الأمراض، وهذا يتماشى تماماً مع وصايا العلم الحديث التي برهنت على أن حليب الأم هو أهم وأفضل غذاء للطفل[٥].

ولأجل وقاية الطفل من الأمراض أكد الإسلام موضوع نظافة الطفل، وشدد (ع) في ذلك، فجعل الختان الذي ينبغي أن يكون بوقت مبكر من عمر الطفل شرطاً أساساً لطهارته، لما في ذلك من أثر في تدعيم صحته وعافيته[٦]؛ لذلك أوصى أبناء جلدته قائلاً: **"اختنوا أولادكم يوم السابع، ولا يمنعكم حر ولا برد، فأنه طهر للجسد"**[٧]. كما أكد على

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج١٠٠/ص٣٢٣.

(٢) الطبرسي، مكارم الأخلاق، ص٢٢٣؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج١٠١/ص٩٦.

(٣) الكليني، الكافي، ج٦/ص٤٣؛ الطبرسي، مكارم الأخلاق، ص٢٣٧.

(٤) إن أمر الرضاعة غير ملزم لجميع الأمهات، إذ يستثنى منهن غير القادرات على هذا الأمر. كما أن مدة الرضاعة قابلة للزيادة والنقصان وبحسب مدة الحمل، فإذا كان الحمل سبعة أشهر فرضاعته ثلاث وعشرين شهر وإذا مكث ثمانية أشهر فرضاعته اثنان وعشرين شهراً، فإذا مكث تسعة أشهر فرضاعته إحدى وعشرين شهراً، استناداً لقوله تعالى {وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً}، الطبرسي، مجمع البيان، ج٢/ص١١٣ ـ ص١١٤؛ القرطبي، الجامع، ج٢/ص١٣٦.

(٥) أثبتت الأبحاث العلمية الحديثة ان حليب الأم ويحتوي على العناصر الغذائية التي تلزم المولود من البروتينات والأملاح والدهنيات والسكريات، وتمنحه نموّاً طبيعيّاً، وتمنع عنه الكثير من أمراض أجهزته الحيوية واضطرابها؛ لما يحتويه من مضادات لكثير من الأمراض، إلى غير ذلك من الفوائد عظيمة النفع للطفل. ينظر: العبدلي، نظرة علمية للكتب السماوية، ج١/ص٢٨ ـ ٢٩؛ فراج، الإسلام والوقاية من الأمراض، ص١٩ ـ ص٣٣؛ السرجاني، قصة العلوم الطبية، ص٦٥ ـ ص٦٦.

(٦) البخاري، صحيح البخاري، ج٥/ص٢٢٠٩؛ مسلم، صحيح مسلم، ج١/ص٢٢١، ص٢٢٣؛ ابن ماجة، سنن ابن ماجة، ج١/ص١٠٧.

(٧) الكليني، الكافي، ج٦/ص٣٥؛ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٣/ص٤٨٨؛ الحراني، تحف العقول، ص١٢٤.

تغذية الطفل تغذية جيدة، لما في ذلك من أثر ايجابي في تكامل عملية بناء جسمه، كما في قوله: "**أطعموا صبيانكم الرمان، فإنه مسرع لألسنتهم**"[١].

ولم يكن الأطباء والبياطرة، ببعيدين عن فكر الإمام علي (ع)، بوصفهم أحد أهم أركان المنظومة الصحية للمجتمع الإنساني، فقد أكد عدم مزاولة مهنة الطب الا لمن هو مؤهل لذلك، وحذر من الأخطاء الطبية والفنية للطبيب، بقوله: "**يامعشر الأطباء البياطرة والمتطببين من عالج منكم إنساناً أو دابة فليأخذ لنفسه البراءة، فانه إن عالج شيئاً ولم يأخذ لنفسه البراءة فعطب فهو ضامن**"[٢].

ومما تقدم من توصيات وتوجيهات صحية تتطابق بإجمالها مع ما وصل إليه الطب الحديث، وبهذا سبق فكر الإمام علي (ع) العلم الحديث في تأسيس منظومة وقائية - علاجية للمريض يمكن باعتمادها الإسراع بشفائه وتخليصه من أمراضه.

الخاتمة (خلاصة البحث وأهم الاستنتاجات)

١ - شخص الإمام علي (ع) الخطوط العريضة لصحة الإنسان، وأسباب عدم استقرار حالته النفسية، ووضع المبادئ العامة للعلاجات اللازمة لهذه الحالات، التي تمثلت بدعوته إلى نشر ثقافة التراحم والمودة بين أفراد المجتمع الإنساني.

٢ - حارب الإمام علي (ع) شرب الخمر، لإدراكه أثره السلبي في تدهور صحة الإنسان الجسدية والعقلية.

٣ - تنبه الإمام علي (ع) إلى ذوي المتطلبات الخاصة، فطرح سبلاً عديدة لتحجيم قضية العوق في المجتمع الإسلامي ومقاومتها، ومنها: اعتماد الأدوية الوقائية والعلاجية، والتركيز على نوعية الغذاء.

٤ - شخص الإمام علي (ع) ضرر الإسراف في الطعام والشراب بأنه يؤدي إلى جملة مشاكل صحية، ولأجل ذلك دعا إلى اعتماد الحمية بوصفها سبيلاً للوقاية من الأمراض، والى تنظيم الوجبات الغذائية الرئيسة.

٥ - حث الإمام علي (ع) على النظافة الخاصة، التي اعتبرها من ابرز الإجراءات الوقائية لحفظ الصحة العامة للمجتمعات الإنسانية، وعالج أدق الأمور في هذا المجال، ولاسيما نظافة الجسد والثياب والأواني والأثاث.

٦ - دعا الإمام علي (ع) إلى الاهتمام بالمناطق الخضراء وتوسيعها، فضلاً عن الاهتمام بنظافتها ورعايتها. ❖

---

(١) البرقي، المحاسن، ج٢/ص٥٤٦؛ الطوسي، الأمالي، ص٣٦٢؛ الطبرسي، مكارم الأخلاق، ص١٧١.

(٢) الصنعاني، المصنف، ج٩/ص٤٧١.

المواد الفلكية والكونية عند الإمام علي (ع)

السيد عبد الأمير المؤمن

الكوفة
Kufa Academy

أكاديمية الكوفة
هولندا

الفصل الأول
خلق الكون وفناؤه

الفصل الثاني
سماء الكون

الفصل الثالث
الجاذبية الكونية

الفصل الرابع
النجوم والمجرّات

الفصل الخامس
الشمس الأم

الفصل السادس
قمر الأرض

الفصل السابع
الكرة الأرضية

الفصل الثامن
كواكب النظام الشمسي

الفصل التاسع
الشهب السماوية

المواد الفلكية والكونية عند الإمام علي (ع)

قبل الدخول إلى (كون) الإمام (ع):

قبل أن ندخل في صميم الموضوعات والمواد الفلكية والكونية التي تناولها الإمام أمير المؤمنين عليّ (ع)، في خطبه وأحاديثه وأقواله وكلامه، دعونا نحدد طبيعة هذه المواد ومدى شموليتها لامتداد الكون الهائل، دعونا ننتزع ذلك من خلال عدد من التَساؤلات:

فهل تناول الإمام علي (ع) كل مواد الكون ومفرداته وظواهره ليمكن انتزاع صورة محددة للكون من ذلك التناول؟

هل دَخل الإمام (ع) في تفصيلات هذه المواد وخفاياها وأسرارها؟

كيف تناولها الإمام (ع)؟ هل تحدث بلغة المصطلحات ولغة العلم الحديثة وحديث المتخصصين بالفلك والكون؟

من البديهي أن يستطيع الباحث في المواد الفلكية والكونية عند الإمام انتزاع صورة إجمالية للكون أو ملامح صورة من خلال المواد الفلكية والكونية والطبيعية والمعلومات التي تناولها الإمام، فهي مواد جمّة ومتنوعة.

فهناك الحديث عن البداية والنشوء والنهاية، وفي امتداد ذلك تناول الإمام النجوم والكواكب والشمس والقمر والأرض والشهب والأحياء السماوية، إضافة إلى الإشارة إلى الطاقة والمادة والجاذبية والأصل الزوجي ومواد وأفكار أخرى كافية لِرسم صورة ممكنة للكون.

ولا شك أن كل ما أورده الإمام علي (ع)، أورده على الطريقة القرآنية الخالدة، أورد مادة كونية وفلكية إجمالية عامة، بعيدة عن التفاصيل والأمور الفرعية والخفايا والزوايا الجزئية (إلا إذا اقتضى المقام وهو أمر محدود).

لقد نهج الإمام (ع) نهج القرآن الكريم في تناوله المادة العلمية عامة والفلكية خاصة، فليس القرآن المجيد كتاباً فلكياً تخصصياً حتى يورد لنا التفاصيل الفرعية لعلم الفلك والكون، وكذلك الإمام (ع)، ليس فلكياً متخصصاً يورد لنا الأمور الفرعية والجزئية في علم الفلك والكون.

إن المواد الفلكية الأساسية والأفكار العامة والأصول والقوانين هي التي خلّدت تلك المواد والأفكار وجعلتها صالحة لكل زمان ومكان.

وتبعاً لذلك لم يورد الإمام (ع) الخصوصيات الفلكية والكونية الصغيرة ولا المصطلحات الفلكية والكونية، وإنما انتظرت لحين ظهور ونشوء علم الفلك المستقل والتفصيلي على الأرض.

ثم هناك نقطة جديرة بالذكر، تلك هي الأخذ بنظر الاعتبار طبيعة المرحلة والزمن والمجتمع، فالذي يحمل مادة علمية وفكرية ذات مستوى عال لا يمكن أن يلقيها في أوساط مجتمع بسيط لا يملك من الثقافة شيئاً مهماً.

ولذلك ينبغي لهذا الإنسان الحامل للأفكار العلمية والعالية أن يكلم الناس بما يفهمونه ويدركونه. وهكذا كان الرسول الأكرم (ص) وتلميذه الإمام علي (ع)، وقد ورد عن الرسول (ص): (إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم)[١].

إن ما ذكره القرآن الكريم وما قاله النبي الأكرم (ص) والإمام علي (ع) (السالم من التحريف) من مادة علمية أو كونية أو فلكية هي في الحقيقة فوق التخصص والمهنية الضيقة، وفوق مستوى علم العلماء الأرضيين، لأن علم القرآن وعلم النبي والإمام هو علم من الوحي، من الله سبحانه وتعالى فحين يتحدث الإمام علي (ع) عن العلم الذي في صدره يقول: (... فعلم علّمه الله نبيه فعلمنيه، ودعا لي بأن يعيه صدري، وتُضم عليه جوانحي)[٢].

لقد كان الفلك والكون عند الإمام (ع) حالة حياتية وسلوكية تجري ضمن حياته وسلوكه وخطاباته وأقواله وأحاديثه، فكثيراً ما يشرح مادة فلكية ضمن حديث عام أو اجتماعي أو عسكري أو غير ذلك، وكثيراً ما يستشهد بمادة فلكية وكونية، ضمن إيراد الأدلة على وجود الله سبحانه وتعالى، وهكذا فهي مادة فلكية وكونية فطرية عفوية انسيابية كما القرآن تماماً.

وهنا تكمن العظمة، وتكمن الفطرة التي لا تخالف الواقع العلمي والفلكي أبداً.

---

(١) أصول الكافي، الكليني: ج١ ص٧١.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٢٨: ص١٨٦.

الفصل الأول
خلق الكون وفناؤه

فكرة بداية الكون ونشأته وتطوره ثم فنائه هي فكرة قديمة مزمنة، فكّر بها الإنسان منذ فجر تفكيره وإدراكه لما حوله.

فهناك من قال بأزلية الكون، أي لا بداية له، وإنما هو هكذا منذ الأزل.

وهناك مَنْ قال بولادة الكون بعد إن لم يكن، أي قال ببداية محدّدة له، جاءت بعد أن كان عدماً.

وهناك من بقي حائراً بين هذا وذاك. أما الأديان السماوية التي أستمدت أفكارها وتعاليمها من الله الخالق، فقد قالت - وبشكل واضح وصريح - ببداية الكون وولادته بعد أن لم يكن. أي الكون حادث وليس قديماً أزلياً.

وفي العصر الحديث جاء العلم الحديث بمعطيات علمية وفكرية جديدة لتؤكد بداية الكون وولادته بانفجار عظيم مهول Big Bang، وبذلك قطع كثيراً من الجدل.

ونظرية الانفجار العظيم هي فكرة إيمانية تقول ببداية الكون بعد أن لم يكن، بدأ الكون بما فيه من مادة وطاقة وزمان ومكان بانفجار عظيم ضخم لا يمكن تصوره.

والانفجار العظيم مازال نظرية منذ اقتراحه في العشرينات من القرن العشرين ولم يتحول إلى حقيقة علمية ثابتة.

لكنها نظرية واسعة الانتشار استطاعت أن تفسّر البداية الأولى للكون تفسيراً معقولاً لم تنافسها نظرية مادية أخرى على الرغم من ظهور عدد من العيوب والانتقادات التي وُجهت لها.

ومجمل النظرية: منذ نحو ١٥ بليون سنة (١٥ مليار سنة) كانت كل مادة الكون وطاقته مركزتين في نقطة صغيرة أطلق عليها العلماء البيضة الكونية cosmic egg، وكانت مضغوطة للغاية وشديدة الحرارة للغاية أيضاً، وفي ظروف غير معروفة حدث انفجار ضخم مهول لا يمكن تصوّره فتناثرت محتويات النقطة الأولى إلى كل الاتجاهات، وبدأ الزمان والمكان والكون كله.

وبعد الانفجار والتوسع وانخفاض درجة الحرارة تشكلت المادة ثم تلا ذلك تشكل المجرّات والنجوم داخلها واستمرت المادة الكونية في الاندفاع في كل فضاء الكون، ومازالت إلى اليوم منطلقة بعيداً عن مركز الانفجار بقوة ذلك الانفجار الأول.

أدخل عدد من التعديلات على هذه النظرية باستمرار لتصبح هي النظرية الأهم في علم الفلك، وهي نظرية وليست حقيقة علمية، قابلة للنقض والانتقاد، ولكنها إيمانية تؤكد حدوث الكون وولادته بعد أن لم يكن[1].

---

(١) انظر: تفصيل ذلك في: الكون نظرة تراثية ومعاصرة، عبد الأمير المؤمن: ص١٠٧ وما بعدها.

وفي مقابل نظرية الانفجار الكبير ظهرت (نظرية حالة الاستقرار) وهي نظرية إلحاديّة غير إيمانيّة لا تؤمن بحدوث الكون بعد إن لم يكن، وقد جاءت هذه النظرية في مقابل نظرية الانفجار الكبير الشهيرة، وتقول هذه النظرية إن الكون لا بداية له ولا نهاية وإنه وجود دائم يشبه ما نحن عليه اليوم.

وقد جاءت هذه النظرية حين وجد بعض العلماء تناقضاً ظاهرياً في نظرية الانفجار العظيم في بداية ظهورها. فقد أعلن بوندي وغولد معاً وهويل مستقلاً سنة ١٩٤٨م أن الكون أزليٌّ أبدي لا متناه في الزمان والمكان، وفي حالة استقرار حركي دائم مقتنعين في الوقت نفسه بقانون التمدد الكوني الدائم الذي قال به العالم الفلكي هابل.

وقد اقترحوا تعويضاً للفراغات التي يولدها ابتعاد المجرّات بعضها عن بعض فكرة الخلق المستمر، حيث تتوالد في هذه الفراغات ذرات الهيدروجين من العدم لتتشكل في النهاية مجرات حديثة لتملأها[1].

وهذه نظرية تخالف الدين الذي يقول بحدوث الكون وبدايته وتخالف العلم الذي أكّد حدوث الكون بالأدلة العلمية، وبذلك رفضت من قبل الدين والعلم ولم تعش أبداً.

ومثلما تحدث العلم عن ولادة الكون تحدث عن موت الكون وفنائه فهو ككل مخلوقات الله سبحانه وتعالى الصغيرة منها والكبيرة لابد وأن يطالها الموت والفناء.

وقد تناول علماء الفلك والكون هذه الفكرة علمياً، نتيجة توافر الحقائق والنظريات والقوانين التي أفرزتها العلوم الفيزيائية والكيميائية وغيرها في القرن التاسع عشر والعشرين وما بعده، وهي الفكرة المكملة لنظرية ولادة الكون من العدم أو الانفجار العظيم ونشوئه وتطوّره، فالذي يولد ينمو ثم ينكمش ويضعف ثم يموت وينتهي، وهي سنّة كونية نص عليها القرآن، وهذه الفكرة والسنّة تجري على كل المستويات.

وإذا كان الموت على مستوى الصغار صغيراً كبعض الجسيمات دون الذرية التي لا تبقى سوى أجزاء من الثانية، ومتوسطاً على مستوى الكائنات الحية كالبشر والشجر، فإن الموت على مستوى النجوم والمجرّات كبير كبر النجوم والمجرّات، وأما على مستوى الكون كله فهو أكبر بكثير.

وقد وضع علماء الكون فرضيات عديدة في ضوء المعطيات العلمية الموجودة، تفاوتت في القوة والضعف، ولكنها مازالت قابلة للتغيّر والتطور.

ومن الفرضيات مثلاً: إن الانتشار والتوسع الذي أفرزه الانفجار العظيم سوف يستمر ويتحول الكون في النهاية إلى قطع متناثرة نتيجة لضعف الجاذبية الكونية.

---

(١) انظر: قاموس دار العلم الفلكي، عبد الأمير المؤمن: ص٥١٧، مادة (نظرية حالة الاستقرار)، وص١٨٩، مادة (الخلق المستمر)، وص١٢٨، مادة (تمدد الكون).

ومن الفرضيات الأخرى: انهيار المادة الكونية، كأن تتكدس الكتروناتها وبروتوناتها في نواها، وبالتالي ينتهي كل فراغ داخل الذرة لتصبح ثقيلة جداً، كما هي الحال في النجوم المعروفة بالثقوب السوداء black holes وحينها يعود الكون إلى نقطة صغيرة جداً لا يعرف مداها إلا الله سبحانه وتعالى.

وهناك من يحتمل أن يفنى الكون بكون مضاد له لا نعْرف مكانه. وهناك اقتراحات أخرى، وكلها تصب في فكرة النهاية الكبرى، وهي أمر متفق عليه في الدين والعلم[١].

١ - خلق الكون وفناؤه في القرآن الكريم:

تحدث القرآن الكريم عن مفردات فلكية وظواهر كونية متنوعة دون أن يورد صورة محددة للكون أو (العالم) ولا حتى لفظة (الكون) وإنما ورد (الكون) من خلال جملة المواد الفلكية والكونية المكونة لهذا الكون، وكذلك من العدد الكبير من السنن الإلهية التي تحكم الكون وتديره.

والكون في القرآن الكريم حادث أو مخلوق، وقد حدث بأمر إلهي عظيم لا نعرف سره، حدث من خلال تلك القدرة التي عبَّر عنها القرآن بعبارة ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، قال تعالى: ﴿... إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٢].

هذه هي نقطة البداية في الكون، ومن ثم كان وكانت النجوم والمجرّات والكواكب السيّارة والأجرام والظواهر الكونية المختلفة، والتي من مجموعها عرفنا الكون وعرفنا بعض أسراره.

وهو كون دقيق ومحكم كما يشهد الوجدان على ذلك ويؤكد القرآن من خلال آياته الشريفة، فلا تفاوت ولا نقص، قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ۝٤﴾[٣].

وهو كون متقن ومتكامل قال سبحانه وتعالى: ﴿... صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ ...﴾[٤]، وعلى أحسن ما يرام، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ...﴾[٥]، ومقدر على أدق التقدير، قال عز وجل: ﴿... وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾[٦]، وعلى وفق إحصاءات دقيقة، قال تعالى: ﴿...وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدٗا﴾[٧].

---

(١) للمزيد عن النهاية الكبرى انظر البحث: نهاية العالم متى... كيف... لماذا؟ لهيلين جيوليموت، مجلة الثقافة العالمية، العدد ١٢١، سنة ٢٠٠٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤٧.

(٣) سورة الملك، الآيتان: ٣، ٤.

(٤) سورة النمل، الآية: ٨٨.

(٥) سورة السجدة، الآية: ٧.

(٦) سورة الفرقان، الآية: ٢.

(٧) سورة الجن، الآية: ٢٨.

وصنع الكون وإبداعه أو ولادته، من الثوابت القرآنية التي لا تقبل الجدال، فهي معرفة علمية قرآنية مقطوع بها في القرآن الكريم، والآيات القرآنية الشريفة صريحة في خلق الكون وولادته من العدم، وبعبارات وكلمات قرآنية مختلفة: بديع، خالق، فاطر، بارئ وأخرى مقاربة.

وقد وردت كلمة (بديع) في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴾[١].

ووردت كلمة (خلق) في قوله تعالى: ﴿ ... خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ... ﴾[٢].

ووردت كلمة (فاطر) في قوله عز وجل: ﴿ ... فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴾[٣].

ووردت كلمة (البارئ) في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ... ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ... ﴾[٤].

وآيات أخرى تدل على خلقه الكون لا مجال لذكرها.

والحقيقة نحن نجهل تمام الجهل تفاصيل بداية الكون وحدوثه سوى ما ذكر القرآن من (الأمر) الوارد في الآية الكريمة: ﴿ ... إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[٥]، وأمثالها، وقد مرّت بنا آنفاً.

لم يذكر القرآن الكريم تفاصيل البداية الكونية، ولم يشرحها كما تعودنا في الكتب العلمية التخصصية، وإنما وردت في القرآن إشارات وتلميحات ذات دلالات يمكن أن نفهم منها أن السماوات والأرض كانتا كتلة واحدة ثم انفتقت هذه الكتلة ليتكون منها الكون.

إضافة إلى ذلك يذكر القرآن الكريم أن البداية الكونية الأولى للانفصال بين السماء والأرض كانت من (دخان) فالدخان أو ما يشبه الدخان هو الأصل الأول للكون.

والآيتان اللتان حملتا تلك الإشارات هي:

١ - التي ذكرت (الرتق والفتق) قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ... ﴾[٦].

٢ - التي ذكرت (الدخان) قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ... ﴾[٧].

ويمكن أن نضيف آية ثالثة تشير إلى توسع الكون، وهي قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْىدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[٨].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

(٣) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٤) سورة الحشر، الآية: ٢٤.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٤٧.

(٦) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

(٧) سورة فصلت، الآية: ١١.

(٨) سورة الذاريات، الآية: ٤٧.

وبهذا يمكن أن نقترب من تصور بداية محددة للكون، وهي ـ لا شك ـ فهم بشري محدود، ويمكن أن يكون غيره والعلم عند الله.

أما موت الكون ونهايته فهي كذلك قطعية من خلال الكثير من الآيات والمعاني القرآنية.

فكما ذكر القرآن الكريم بداية خلق الكون بعد إن لم يكن، ذكر معها نهاية الكون وموته وانتهاء كل شيء فيه، فالكون وما فيه سائرون باتجاه الموت والنهاية الكبرى. ولم يبق سوى الخالق سبحانه وتعالى وحده، وقوله عز وجل صريح وواضح يقول: ﴿... كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ... ﴾[١]، أي كل شيء زائل ميت إلا ذاته سبحانه وتعالى.

والنهاية الحقيقية الشاملة هي الموت على مستوى مفردات أو مكونات الكون الكبيرة، على مستوى السماء والنجوم والكواكب والشمس والقمر والأرض ومختلف الظواهر الكونية الأخرى، وبالتالي على مستوى الكون كله، فإذا ماتت هذه المستويات الكبيرة من الكون مات الكون كله وانتهى كل شيء.

وقد وردت آيات قرآنية عديدة في هذا المجال مقترنة بقيام الساعة، وهي النهاية الحقيقية الكبرى للكون الذي نعرفه.

فالشمس ستكوّر، قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾[٢]، أي سيذهب ضوؤها.

وستجمع الشمس والقمر، قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾[٣].

والنجوم ستنكدر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴾[٤].

وستطمس أيضاً، قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾[٥].

والسماء ستنشق، قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾[٦].

وستمور أيضاً، قال عز وجل: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾[٧].

وستكون كالمهل، قال سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴾[٨].

وستكون الأرض هباءً، قال تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾[٩].

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨٨.

(٢) سورة التكوير، الآية: ١.

(٣) سورة القيامة، الآيات: ٧ ـ ٩.

(٤) سورة التكوير، الآية: ٢.

(٥) سورة المرسلات، الآية: ٨.

(٦) سورة الانشقاق، الآية: ١.

(٧) سورة الطور، الآية: ٩.

(٨) سورة المعارج، الآية: ٨.

(٩) سورة الواقعة، الآيات: ٤ ـ ٦.

وستطوى السماء، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ... ﴾[١].

وبذلك الطي ينتهي الكون، ولم يبق إلا وجهه (ذاته) فهو الأول قبل الكون والآخر بعد الكون. وصدق الله تعالى بقوله: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ ... ﴾[٢].

٢ ـ خلق الكون وفناؤه عند الإمام (ع):

حين يكون المنبع الأصلي للعلم والمعرفة والسلوك صافياً ونقياً وسليماً (القرآن والسنة) أي إلهياً، ويكون الحامل لمجراه الإمام علي (ع) صافياً ونقياً وسليماً أيضاً، ستكون النتيجة صافية ونقية وسليمة بالضرورة.

هكذا كان علم الإمام أمير المؤمنين علي (ع)، هكذا كان ما عند الإمام من علم ومعرفة وكنوز من المعلومات المختلفة.

وعلى هذا الأساس فان ما جادت به قريحة الإمام (ع) من علم ومعرفة عن بدء الخلق والكون والطبيعة كان مصدراً معرفياً وفكرياً أساسياً من مصادر معرفتنا عن بدء الكون والطبيعة، وخاصة حين لم يستطع علماء الفلك والكون والطبيعة تقديم المعلومة الصحيحة أو الكافية، لأنها بعيدة المنال عن أدواتهم العلمية والتكنولوجية المحدودة بحدود الإنسان. فالبداية الكونية بالنسبة لعلماء الفلك والكون (غيب)، وإنْ استطاعوا سبر أعماق الكون والطبيعة إلى حد بعيد!!

لقد آمن الإمام علي (ع) إيماناً راسخاً بحدوث الكون وولادته وخلقه من العدم، بعد أن لم يكن. فَخَلْقُ الكون والطبيعة مسألة قرآنية إلهية أساسية استوعبها الإمام (ع)، وأدرك معناها ومغزاها إدراكاً تاماً من خلال الآيات القرآنية الشريفة المتنوعة المذكورة آنفاً كقوله تعالى: ﴿ ... ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ... ﴾[٣]، وقوله أيضاً: ﴿ ... فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴾[٤]، وقوله سبحانه: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴾[٥] وغيرها. إضافة إلى أحاديث الرسول في ذلك كقوله (ص) حول حدوث الكون في بعض خطبه: (الحمد لله الذي كان في أزليته وحدانياً ـ إلى قوله ـ ابتدع ما ابتدع وانشأ ما خلق على غير مثال كان قد سبق لشيء مما خلق، ربنا القديم بلطف ربوبيته وبعلم خبره فتق، وبإحكام قدرته خلق جميع ما خلق)[٦].

وعلى خطى القرآن الكريم وخطى الرسول الأكرم (ص) سار الإمام علي (ع)، فتحدث عن الكون وبدايته ونشوئه وخلق السماء والأرض والأجرام السماوية والظواهر الكونية المختلفة.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٣.

(٣) سورة الرعد، الآية: ١٦.

(٤) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١١٧.

(٦) بحار الأنوار، المجلسي: ج٥٤ ص٤٥.

تحدث في ذلك حديث الخبير العالم، كأنه شهد تلك البداية والخلق، وإن كان حديثه إجمالياً عاماً. تحدث بذلك في أكثر من مناسبة ومكان، في خطبه وأقواله وأحاديثه.

ففي الخطبة الأولى من نهج البلاغة، تحدث الإمام علي (ع)، حديثاً مهماً عن بداية الكون ونشوئه وبعض محتوياته، حيث قال بالحرف الواحد والصحيح بحدوث الكون وولادته من العدم، فتحت عنوان (خَلْق العالم) أي خلق الكون: قال (ع) في حق الخالق والمخلوق: (انشأ الخلق إنشاءً وابتدأه ابتداءً، بلا روية اجالها ولا تجربة استفادها ولا حركة أحدثها...)[١].

وقال أيضاً: (ثم انشأ ـ سبحانه ـ فتق الأجواء، وشق الأرجاء، وسكائك الهواء...)[٢].

وقال أيضاً: (ثم انشأ سبحانه ريحاً اعتقم مهبها، وأدام مربها، وأعصف مجراها وأبعد منشأها...)[٣].

ثم قال (ع): (فسوى منه سبع سماوات، جعل سفلاهن موجاً مكفوفاً، وعلياهن سقفاً محفوظاً وسمكاً مرفوعاً، بغير عمد يدعمها، ولا دسار ينظمها)[٤].

ثم قال أيضاً: (ثم زينها بزينة الكواكب وضياء الثواقب، وأجرى فيها سراجاً مستطيراً وقمراً منيراً في فلك دائر...)[٥].

لوحة جميلة وعميقة رسم فيها الإمام (ع) الكون وبدايته ونشوءه وأموراً كونية أخرى[٦].

وقد هدف الإمام (ع) من أقواله هذه قدرة الخالق المبدع وعظمته من خلال عظمة المخلوق: خلق الكون والطبيعة والسماء والأرض والأشياء الكونية الأخرى.

وهو كون متين وجميل ومتناسق ومثير، ويدل على هذه المتانة والجمال والإثارة، المشاهدات العادية التي يدركها كل إنسان، والملاحظات والأرصاد العلمية التي يرصدها علماء الفلك والكون في السماء والأجرام والظواهر الكونية المختلفة.

وإذا كان الكون المخلوق على هذه الصورة المتينة والجميلة والمثيرة، فكيف بمتانة وقوة وعظمة خالقه الذي أبدعه من العدم؟!

---

(١) نهج البلاغة، للإمام علي (ع)، الخطبة الأولى: ص٤٠.

(٢) المرجع السابق: ص٤٠.

(٣) نهج البلاغة، للإمام علي (ع)، الخطبة الأولى: ص٤٠.

(٤) المرجع السابق: ص٤١.

(٥) المرجع السابق: ص٤١.

(٦) انظر: الخطبة الأولى كاملة في نهج البلاغة: ص٣٩ ـ ٤٥.

وهذا الأسلوب استخدمه القرآن الكريم طريقاً للإيمان بخالق قوي ومبدع لهذا الكون كما في كثير من الآيات القرآنية.

لقد ذكر الإمام علي (ع) في هذه النصّوص أو بعض هذه النصّوص: بداية خلق الكون ونشوءه كوناً سوياً مدهشاً ومثيراً للعقل والفكر، ذكر معالمه المتينة والقوية والمثيرة، ذكر خلقه وإبداعه من العدم دون أن يبذل مبدعه وصانعه أي جهد أو فكر في إبداعه وصنعه، فلا أعمال فكر، ولا تردد في إيجاده ولا أي استعانة بتجربة سابقة، ولا أي شيء يمكن أن يتصوره متصور في صنع المصنوعات، لأن الله سبحانه وتعالى فوق كل شيء. وفي كل ما خلق من الخلق كان الخالق مبدعاً، في خلق الأجواء والفضاء والسماوات السبع القائمة بدون عمد، والمكونات الكونية الأخرى.

ثم ذكر الإمام (ع) جمال الكواكب والنجوم الساطعة في السماء، والشمس المضيئة والقمر المنير، التي تدور في أفلاك خاصة بها.

وفي نص آخر تحدث الإمام علي (ع) عن ابتداع عموم الخلق بقوله: (الذي ابتدع الخلق على غير مثال امتثله، ولا مقدار احتذى عليه، من خالق معبود كان قبله)[١].

فالخَلْق أو الكون هنا هو عملية إبداعية كاملة، أبدعه مبدعه أو خالقه من العدم، وعلى غير مثال سابق، لم يحاكِ فيه أحداً أبداً، وهذا قمة الخلق والإبداع.

وفي نص آخر أيضاً، أُرجع الإمام علي (ع) السماوات إلى أصلها الأول (الدخان)، يقول الإمام (ع) ضمن خطبة يصف فيها السماء بقوله: (وناداها بعد إذ هي دخان فالتحمت عرى أشراجها)[٢].

وفي هذا النص وصف للسماء قبل ان تكون سماءً، أي حين كانت دخاناً (أي شبيهة بالدخان)، لتلتحم وتتماسك سماوات سوية كالتي نراها فوق رؤوسنا.

والدخان مادة غير متماسكة تشبه (السديم) nebula، المكون أساساً من غاز وغبار[٣] والذي انطلق بعد الانفجار العظيم الأول الذي بدأ به الكون بسماواته وأرضه وزمانه ومكانه.

وهناك نصوص وأحاديث وأقوال للإمام عليّ (ع)، وردت بين ثنايا خطبه وأحاديثه تؤكد هذا الخلق وتلك البداية والنشأة، مما يدل على أن فكرة البداية الكونية واضحة في ذهنه وتجري في دمه.

ولم يحدثنا الإمام (ع) عن بداية الكون ونشأتهِ ويتركنا دون أن يتم القصة قصة الكون وموته ونهايته. فالنهاية في ذهن الإمام وفكره واضحة كالبداية، وَقد نهج نهج القرآن

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٩١: ص١٢٦.

(٢) المصدر السابق، الخطبة ٩١: ص١٢٨.

(٣) حول السدم انظر: (السدم الكونية) في كتاب: الكون نظرة تراثية ومعاصرة، عبد الأمير المؤمن: ص١٧٧ - ١٨٢.

الكريم في الاعتقاد بها. فـ ﴿... كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ...﴾[١] أي ذاته، وسار على خطى الرسول الأكرم الذي كان يؤكد مراراً وتكراراً فكرة النهاية العظمى والقيامة الكبرى، ففي دعاء له (ص) حول تلك النهاية قال مخاطباً خالقه: (وباسمك الذي في الحجاب عندك لا يضام حجاب عرشك، وبالاسم الذي تطوي به السماوات كطي السجل للكتاب، وبأسمك الذي تقبل به التوبة عن عبادك، وتعفو عن السيئات، وبوجهك الكريم أكرم الوجوه، وبما تواترت به الحجب من نورك، وبما استقل به العرش من بهائك)[٢].

وفي نص إمامي عميق، يتحدث الإمام علي (ع) عن هذه النهاية بقوله: (حتى إذا بلغ الكتاب أجله، والأمر مقاديره، وأُلحق آخر الخلق بأوله، وجاء من أمر الله ما يريده من تجديد خلقه، أماد السماء وفطرها، وأرجَّ الأرض وأرجفها، وقلع جبالها ونسفها، ودك بعضها بعضاً، من هيبة جلالته ومخوف سطوته، وأخرج من فيها، فجددهم بعد إخلاقهم، وجمعهم بعد تفرقهم، ثم ميّزهم لما يريده من مسألتهم عن خفايا الأعمال وخبايا الأفعال)[٣].

وفي هذا النص حديث صريح وواضح عن النهاية الكونية الكبرى، وهي نهاية على مستوى الكون وأجرامه وكائناته المختلفة وأرضه وسمائه وكل شيء ما عدا خالقه.

وفي نص آخر يتحدث الإمام عن النهاية الكبرى من خلال نهاية السماوات فتطوى كطي السجل للكتب، يقول (ع): (فهم يعدون سراعاً إلى مواقف الحشر يساقون سوقاً، فالسماوات مطويات بيمينه كطي السجل للكتب، والعباد على الصراط وجلت قلوبهم، يظنون أنهم لا يسلمون، ولا يؤذن لهم فيتكلمون)[٤].

وفي كل ما ورد من أحاديث وكلمات حول البداية والنهاية، يمزج فيها الإمام (ع) البلاغة بالعلم بالروح بالمادة بالإبداع في صورة مثيرة وعميقة ليربط في المحصلة النهائية الواقع الطبيعي بالمطلق الفوقي وما أروعه من ربط.

وأخيراً:

المدهش في الصورة ككل أن رجلاً من أبناء القرن الأول للهجرة يستطيع أن يتحدث بهذا الشكل العميق عن بداية الكون ونشوئه ونهايته.

هل يمكن ان تتصور أنَّ القرن الأول الهجري المرتبط بالعصر الجاهلي يستطيع أن يغوصَ في موضوع كوني على هذا المستوى من العمق الكوني، أليس الإمام علي (ع) معجزة إلهية كونية من معاجز الله التي لا تحصى؟!

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨٨.

(٢) بحار الأنوار، المجلسي: ج٩٢ ص٣٧٢.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٠٩: ص١٦١.

(٤) بحار الأنوار، المجلسي: ج٧ ص٩٩.

الفصل الثاني

سماء الكون

السماء، هذا الفضاء الذي فوق رؤوسنا، وذلك الفضاء الذي يقع في الجانب الآخر من الكرة الأرضية. أو هذا الفضاء الشاسع المحيط بالكرة الأرضية من كل جانب.

أو (هذه الكرة السماوية التي تحتوي على مختلف الأجرام السماوية، النجوم والشمس والكواكب والأقمار والمذنبات والنيازك، والظواهر السماوية الأخرى)[١].

والسماء في اللغة العربية هي العلو وسماء كل شيء أعلاه، يقول الفيومي في مصباحه: (سما يسمو سمواً علا ومنه يقال سَمتْ همته إلى معالي الأمور إذا طلب العز والشرف. والسماء المطلة للأرض قال ابن الأنباري تُذكر وتؤنث، وقال الفَراء التذكير وهو قليل على معنى السقف وكأنه جمع سماوة مثل سحاب وسحابة، وجمعت على سماوات)[٢].

ومن خلال هذا النظر الحسي الفطري المجرد اعتقدت الأقوام القديمة أنَّ الكرة الأرضية مركز ساكن للعالم أو الكون، وإن السماء بما تحتوي من نجوم وكواكب وشمس وقمر وظواهر كونية متنوعة تحيط بهذه الكرة الأرضية وتدور حولها.

وبتطور العلم والتكنولوجيا في العصر الحديث أدرك علماء الفلك والكون أن دوران السماء ومحتوياتها حول الكرة الأرضية هو دوران ظاهري لها، جاء نتيجةً لدوران الكرة الأرضية حول نفسها يومياً.

أمّا في العصر الحاضر فنحن نعْرف تماماً أنَّ السماء أكبر من تلك القبة السماوية الصغيرة أو الكبيرة التي تصورها القدماء. السماء هي ذلك الامتداد (اللانهائي) الذي يحتضن كل الأجرام السماوية، ومنها أرضنا الصغيرة جداً قياساً بالكواكب والنجوم والمساحات الهائلة من السدم الكونية.

ونحن نعرف أيضاً أنَّ هذه الزرقة السماوية الجميلة التي نراها نهاراً ليست السماء الكونية الحقيقية، وإنما هي الغلاف الغازي الجوّي الذي يحيط بالكرة الأرضية من كل جوانبها. وهذا الغلاف الجوّي وحده هو الأزرق أو القريب من الأزرق، ويرجع هذا اللون إلى تشتت موجات الضوء من خلال حبيبات الغبار والبخار فتمر الموجات الطويلة بينما تتشتت الموجات القصيرة الزرقاء في الجو، وكلما صغرت الحبيبات قلت كمية الأشعة المشتتة وأصبح اللون أزرق صافياً. أما الحبيبات الكبيرة فتقوم بتشتيت موجات أخرى إلى جانب اللون الأزرق فتبدو السماء ضبابية أو بيضاء.

---

(١) قاموس دار العلم الفلكي، عبد الأمير المؤمن: ص٢٦١.

(٢) المصباح المنير، الفيومي: ص٢٩٠.

أما الامتداد السماوي الحقيقي فهو أسود فاحم حالك السواد، كسماء الليل تماماً أو هو سماء الليل. وهو امتداد لا نعرف إلى أين ينتهي.

ويمكن أن نسمي السماء القريبة من الكرة الأرضية (أي جوّ الأرض) (سماء الأرض).

والسماء القريبة من كواكب النظام الشمسي الأخرى (سماء الكواكب).

والسماء القريبة من النجوم والمجرّات الكونية (السماء المجرية أو السماء الكونية).

وباستثناء السماء أو السماوات القريبة من الأجرام ذات الأجواء الغازية والسدم الكونية، فالسماء فراغ مظلم موحش بكل ما تحمل كلمة الوحشة من معنى.

والسماء مصطلح قديم ورد في القرآن الكريم والتراث العلمي والفكري في الحضارة الإسلامية. وقد اعتبرها القدماء مادةً اثيرية أو عنصراً خامساً (كما يسميه أرسطو)، وكانت ثابتة الطبيعة، غير قابلة للكون والفساد[1]، وتقع في مقابل الأرض ذات الطبيعة العنصرية القابلة للكون والفساد أي التغيّر والتبدل.

لكن تطور العلم والتكنولوجيا وعلم الفلك في العصر الحديث ألغى الفرق المزعوم بين طبيعة السماء وطبيعة الأرض، الفرق الذي اعتقد به القدماء. فالاثنان ينتميان إلى العناصر الكونية الطبيعية المعروفة (٩٢ عنصراً طبيعياً)، والفرق في اختلاف النسب الموجودة فيهما.

واليوم قلَّ استخدام مصطلح (السماء) (sky) في حقل علم الفلك وانتقل إلى العلوم الدينية والفكرية، وحلَّ محله مصطلح (الفضاء) space وخاصة بعد دخول عصر الفضاء space age[2] واستخدام الأقمار الصناعية والمركبات الفضائية والأجهزة الفلكية والفضائية المتنوعة في النصف الثاني من القرن العشرين الماضي.

١ ـ سماء الكون في القرآن الكريم:

من اللافت للانتباه أن لفظ السماء والسماوات ورد بعدد كبير بين الألفاظ الفلكية والكونية الواردة في القرآن الكريم، فكلمة (السماء) وردت ١٢٠ مرة وفي معان متعددة وسياقات مختلفة، وكلمة (السماوات) جمعاً للسماء وردت ١٩٠ مرة وفي معان وسياقات مختلفة أيضاً، ومجموع ما ورد من السماء والسماوات هو ٣١٠ مرات، وهو عدد كبير يدل ضمن ما يدل على اهتمام القرآن الكريم بالسماء والكون اهتماماً كبيراً.

ومن معاني السماء في القرآن الكريم المعنى اللغوي المعروف: العلو والسمو، قال عز وجل في كتابه الكريم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ...﴾[3].

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم: ص١٤٨ وما بعدها.

(٢) انظر: عصر الفضاء، قاموس دار العلم الفلكي، عبد الأمير المؤمن: ص٣١٠.

(٣) سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٤، ٢٥.

ومن معانيها أيضاً: (السحاب) قال سبحانه وتعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ ... ﴾[١].

ومن معانيها كذلك: (المطر) قال تعالى: ﴿ ... يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ... ﴾[٢].

ومن المعاني القرآنية العديدة للسماء: المعنى الفلكي والكوني، وهي ذلك الامتداد الفوقاني المقابل للأرض، المرصع بالنجوم والكواكب والظواهر الكونية المختلفة، والذي اقترن بالأرض والأجرام السماوية في عدد من الآيات القرآنية الشريفة. قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾[٣]. وقال تعالى أيضاً: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[٤].

والسماء في القرآن الكريم مخلوقة حادثة بعد أن لم تكن، خلقها الله تعالى بالقوة الإلهية المطلقة التي لا نعْرف مداها، قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْىدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[٥]، وهذا البناء شديد قوي أشد من خلق الإنسان وأقوى، قال تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴾[٦].

والسماء - كما نعرف - هي محل للنجوم والكواكب والأجرام السماوية المتنوعة.

وهي في النظرة العفوية العادية جمال وزينة ومتعة طبيعية مجانية كبيرة للناظرين، وميدان علمي للراصدين والعلماء والباحثين في الوقت نفسه.

وقد وصفها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾[٧].

وبقوله تعالى أيضاً: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾[٨].

وفي الوقت نفسه ذكرها الله سبحانه وتعالى مجالاً للتأمل والتفكر، لقد صنعَها وأحكم أجرامها. وبالتالي عظمة مَنْ خلقها وأبدعها من العدم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[٩].

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٧.

(٢) سورة نوح، الآية: ١١.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٦.

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٦١.

(٥) سورة الذاريات، الآية: ٤٧.

(٦) سورة النازعات، الآيتان: ٢٧، ٢٨.

(٧) سورة الحجر، الآية: ١٦.

(٨) سورة الصافات، الآية: ٦.

(٩) سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٠، ١٩١.

وعلى هذا جمع القرآن المجيد بين النظرة العفوية العادية للسماء والنظرة التأملية العلمية، والكل يصبّ في الإيمان بقدرة قادر مبدع، وهو هدف أساسي للقرآن العظيم.

ووردت السماء في القرآن الكريم مفردة (السماء) وجمعاً (السماوات)، ووردت في الوقت نفسه مقترنة بالعدد سبعة (سبع سماوات) أو (السماوات السبع) أو ما يدل على ذلك. ومن تلك الآيات الكريمة:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿... ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ... ﴾[1].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ ...﴾[2].

وقوله أيضاً: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾[3].

وهذه الآيات الكريمة تدل على أن عدد السماوات سبع وليست واحدة كما في النظرة الفطرية العفوية، وقد اختلف المفسرون والباحثون في هذا الرقم، ولم يصلوا إلى معنى قاطع فيه.

والسماء في القرآن الكريم أكبر بكثير من هذا البحث الموجز. ولا يسعنا التفصيل هنا لأنه ليس البحث الأصل[4].

٢ ـ سماء الكون عند الإمام (ع):

ومثلما لفت القرآن الكريم أنظارنا إلى وجود عدد كبير من ألفاظ (السماء) و (السماوات) بين آياته الشريفة (٣١٠ مرات) كما ذكرنا آنفاً، كذلك لفتت خطب وأقوال الإمام علي (ع) في نهج البلاغة أنظارنا إلى وجود عدد كبير نسبياً من ألفاظ (السماء) و (السماوات) فيها.

فقد وردت ألفاظ السماء والسماوات في نهج البلاغة بكثرة واضحة (٤٨ مَرَّة)، وردت بمعانٍ عديدة، من بينها المعنى الفلكي والكوني، وهي مجملة عامة كما وردت في القرآن الكريم، ولو أردنا إحصاء ما ورد عن الإمام (ع) من هذه الألفاظ في المصادر الأخرى لكان الرقم أكبر من المذكور بكثير.

وماذا تدلّ هذه الكثرة مع ما تتضمن من معان، عندما تنطلق من شخصية علمية إلهية كشخصية الإمام علي (ع)، الذي لم يكن فلكياً متخصصاً، كالفلكيين الأرضيين؟

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٨٦.

(٣) سورة النبأ، الآية: ١٢.

(٤) كتبنا بحثاً مفصلاً تحت عنوان: (السماء في القرآن)، في كتابنا: الفلك في القرآن الكريم، (تحت الطبع).

ألا تدل هذه الكثرة على وجود علم جم في صدر الإمام (ع) وفكره؟ ألا يؤكد تصريحه الفلكي الكوني الشهير: (سلوني قبل أن تفقدوني، فلأنا بطرق السماء أعلم منّي بطرق الأرض)[١].

ألا يدلّ هذا التصريح على قدرته الفلكية والكونية الفائقة، التي تفوق قدرة عصره ومجتمعه الذي كان فيه؟ نحن نَعْرف أنَّ معرفة العلوم التي على الأرض أقرب تناولاً للإنسان أو الباحث من علوم الفلك والكون والسماء، وذلك للتماس المباشر مع الأولى (علوم الأرض) والبعد المسافي مع الثانية (علوم السماء).

لكن الإمام (ع)، قالها صراحة، وبصدق الشخصية الإلهية التي صاغها القرآن الكريم والرسول الأكرم. أنه أعلم بالعلم الأبعد، وإذا كان الإمام أعلم بالعلم الأبعد تناولاً، فكيف سيكون علمه بالعلم الأقرب تناولاً المتوافر على الأرض.

إذن كم تملك هذه الشخصية الإلهية من العلم؟ وكم هي درجة هذا العلم؟ لا يسعنا إلا أن نقول الله أعلم، وهو أعلم فعلاً من مخلوقاته المحدودة.

إنَّ الإمام علياً (ع) هو سابقة علمية لا مثيل لها، وخاصة في عصره ومجتمعه الجاهل بأبسط أمور الأرض والسماء، فتصوّر كم قدرته كبيرة حين يتناول الحديث عن السماء وما فيها.

إن سماء الإمام (ع) هي سماء علمية، لا تشوبها خرافات المنجمين ولا أوهام الجهلاء ولا شكوك الفلاسفة والحكماء. فسماؤه لها بداية، حادثة، مخلوقة لله سبحانه وتعالى، فهو خالق كل شيء، خالق الكون كله وما فيه، خلق السماوات بعد إن لم تكن. قال (ع): (فمن شواهد خلقه خلق السماوات موطدات بلا عمد قائمات بلا سند)[٢]. ومحكومة بالحق وعلى وفق الحكمة وليست خلقاً عشوائياً أبداً. قال (ع): (ولا خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً)[٣]. والسماء والأرض وكل أجرام السماء وظواهرها مطيعات كامل الإطاعة لله سبحانه وتعالى دون منازع. قال الإمام (ع): (الا وان الأرض التي تقلكم والسماء التي تظلكم مطيعتان لربكم)[٤].

وقال أيضاً: (دعاهن فأجبن طائعات مذعنات)[٥].

وهي سماء حقيقية واضحة تمتلئ بالأجرام السماوية والظواهر الكونية المختلفة تنتشر في كل نقطة منها، مؤدية وظائفها العلمية على حسب القوانين التي وضعها الله تعالى لها. قال

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٩: ص٢٨٠.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٢: ص٢٦١.

(٣) المرجع السابق، قصار الحكم ٧٨: ص٤٨١.

(٤) المرجع السابق، الخطبة ١٤٣: ص١٩٩.

(٥) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٢: ص٢٦١.

علي (ع) في محتويات السماء: (ثم زينها (أي السماء) بزينة الكواكب وضياء الثواقب، وأجرى فيها سراجاً مستطيراً (أي الشمس) وقمراً منيراً في فلك دائر وسقف سائر...) [١].

فالسماء التي ذكرها الإمام علي (ع) هي السماء العلمية الحقيقة المليئة بالأجرام السماوية المتنوعة، وقد ذكرها الإمام صفحة فوقية أو فضاء يمتلئ بالنجوم والكواكب والشمس والقمر وما يلحق ذلك، وليست سماء المنجمين والمشعوذين التي تمتلئ بالطباع والأمزجة والأوهام، التي تحكم الأرض ومن عليها.

وذكر الإمام (ع) السماء بالمفرد (واحدة) وبالجمع (عديدة) (السماء والسماوات) وهي سبع سماوات. قال الإمام علي ذاكراً السماوات السبع بقوله (ع): (فسوى منه سبع سماوات جعل سفلاهن موجاً مكفوفاً وعلياهن سقفاً محفوظاً وسمكاً مرفوعاً) [٢].

وهذه السماوات السبع خلقها الله سبحانه وتعالى على شكل أطباق، قال (ع): (ثم فطر منه أطباقاً، ففتقها سبع سماوات بعد ارتتاقها)[٣]. قال الإمام ذلك مقتفياً بالقرآن الكريم في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ... ﴾[٤]. وقد أدرك الإمام علي (ع) تماماً ان هذه السماء وما فيها من أجرام سماوية وظواهر كونية ستموت وستنتهي في يوم ما، وسينتهي كل شيء، ولا يبقى إلا الله سبحانه وتعالى.

قال الإمام علي (ع) في نهاية السماء وفنائها: (أماد السماء وفطرها وأرجَّ الأرض وأرجفها)[٥].

وقال (ع) أيضاً: (فالسماوات مطويات بيمينه كطي السجل للكتب، والعباد على الصراط وجلت قلوبهم)[٦].

وأخيراً فسماء الإمام علي (ع) العلمية بما تحتوي من أجرام فلكية وكونية حقيقية تستحق أن تورث، تستحق أن يرثها علم الفلك الإسلامي منهجاً قوياً متيناً تقوم عليه الدراسات الفلكية الإسلامية اللاحقة.

لتكون هذه الدراسات الفلكية ذات طرفين، طرق الارتباط بالله الخالق سبحانه وتعالى الذي خلقها ووضع قوانينها، وطرف الارتباط بالمخلوق الذي جهد لتطوير ما وَفَّره الله تعالى للإنسان.

---

(١) المرجع السابق، الخطبة ١: ص٤١.

(٢) المرجع السابق، الخطبة ١: ص٤١.

(٣) المرجع السابق، الخطبة ٢١١: ص٣٢٨.

(٤) سورة الملك، الآية: ٣.

(٥) نهج البلاغة، الخطبة ١٠٩: ص١٦١.

(٦) بحار الأنوار، المجلسي: ج٧ ص٩٩.

الفصل الثالث

الجاذبية الكونية

الجاذبية قوة أو حالة كونية خفيّة ارتبطت بالكون منذ بدايته، فعندما ولد الكون ولدت معه عناصر بنائه وبقائه كالمادة والطاقة، والزمان والمكان وغيرها. ومن تلك العناصر القوة الجاذبة أو الجاذبية الكونية gravitation.

والجاذبية هي قوة كامنة في المادة، مقدَّرة تقديراً دقيقاً ومثيراً، فلو زادت قليلاً عن حدّها لتكدَّس الكون في نقطة واحدة متراصة، ولو قلّت قليلاً لانفرط الكون وتشتت شظايا هائمة لا حدود لها.

والجاذبية حالة كونية لا تدرك بشكل مباشر، وإنما استنتجناها استنتاجاً من خلال سحب الأرض للأشياء أو جذب المواد بعضها بعضاً.

وقد عرفت الجاذبية قديماً، أدركها الإنسان بشكل من الأشكال دون ان يعرف معناها ومغزاها، وأدركها بعده العلماء، ولم تنتظم في قانون عام إلا في العصر الحديث، على الرغم من المضامين القرآنية والحديثية الشريفة التي أشارت إليها - كما سنرى - وإشارات العلماء المسلمين إليها قبل قانونها بقرون طويلة. فالجاذبية في العصر العلمي الحديث هي قانون عام معروف على الرغم من فكرتها القديمة.

يذكر التاريخ الحديث أنَّ العالم الإنجليزي إسحاق نيوتن المتوفى سنة ١٧٢٧م كان مضطجعاً على الأرض تحت شجرة تفاح فسقطت تفاحة على الأرض على مقربة منه، وهذا ما جعله يُفكّر في سبب سقوطها وسقوط الأشياء الأخرى على الأرض.

وعلى الرغم من أن الذي حدث للعالم نيوتن هو حالة عادية تحصل لكل واحد منا، إلا أن نيوتن اكتشف أمراً عظيماً من هذا السقوط.

فنيوتن هذا يعدّ أول من قال: بأنَّ الجذب متبادل بين الأرض وما عليها من مواد، فالأرض تجذب التفاحة، وفي الوقت نفسه تجذب التفاحة الأرض، وهذه الحالة لم يدركها أحد من قبل، ولأن كتلة الأرض أكبر من كتلة التفاحة وجدنا أنَّ التفاحة هي التي اتجهت نحو الأرض.

وقوة الجذب ليست موجودة بين الأرض وما عليها من مواد وحسب، وإنما هي موجودة بين كل الأجرام السماوية، وبين أية كتلة وأخرى في هذا الكون الكبير.

فالكرة الأرضية والكواكب يجذب بعضها بعضاً، وتجذب الأرض الشمس إليها، الشمس بدورها تجذب الكرة الأرضية والكواكب السيارة والكويكبات، وهكذا على مستوى كل موجودات الكون الكبير.

هذه المشاهدات والملاحظات والاستنتاجات والتفكير المتواصل أدت بالعالم الفيزيائي نيوتن إلى استنتاج قانونه الشهير في الجاذبية الكونية الشاملة، وهو كقانون لا كفكرة ظهر مع العالم نيوتن (المتوفى سنة ١٧٢٧) لأول مرة في التاريخ.

لقد كانت فكرة الجاذبية في الحقيقة قبل نيوتن، ذكرها عدد من علماء وحكماء الحضارة الإسلامية، منهم ثابت بن قرّة المتوفى سنة ٢٨٨ هجرية، وإخوان الصفا من القرن الرابع الهجري، وأبو الريحان البيروني المتوفى سنة ٤٤٠ هجرية، وعبد الرحمن الخازني المتوفى سنة ٥٥٠ هجرية، وابن ملكا البغدادي المتوفى سنة ٥٦٠ هجرية، وآخرون غيرهم.

لقد ذكروها ملاحظة عابرة أو حالة غريبة دون أن يستطيعوا وضع تلك الملاحظة في قانون علمي كما استطاع إسحاق نيوتن فيما بعدهم بقرون[١]. لقد وضع نيوتن فكرة الجاذبية في قانون علمي شامل، وينص هذا القانون على أن جميع الأجسام يجذب بعضها بعضاً جذباً متبادلاً، وقوة الجذب بين جسمين تتناسب تناسباً طردياً مع حاصل ضرب الكتلتين، وعكسياً مع مربع المسافة بين مركزيهما[٢].

أما الجاذبية الأرضية فهي قوة جذب الأرض للأجسام، وهي التي تعطي الأجسام وزناً، وقوة جذب الأرض للغرام الواحد تساوي ٩٨٠ داينا تقريباً، وهي تختلف من مكان إلى آخر على سطح الكرة الأرضية.

لقد كانت جاذبية نيوتن مساعداً كبيراً على تفسير حركات الكواكب السيارة في مداراتها، وكانت أساساً مهماً من أسس علم الفلك الحديث، ساعدت على تطوره.

١ ـ الجاذبية الكونية في القرآن الكريم:

الهدف الأول والأساس في القرآن الكريم هو الهداية والرحمة وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ... ﴾[٣]، وضمن هذا الهدف الكريم، جاء عدد كبير من الموضوعات والأفكار والتعاليم والمواد العلمية والمعرفية المتنوعة، جاء بشكل مباشر وواضح وصريح، أو بشكل غير مباشر، عبر إشارات ولمحات وشواهد وأمثلة أو استنتاجات.

فعلى مستوى الفلك والكون ذكر القرآن الكريم مفردات ومواد كونية محددة كالنجوم والكواكب والشمس والقمر وظواهر كونية أخرى، وإضافة إلى هذه المواد

---

(١) مكانة الفلك والتنجيم في تراثنا العلمي، عبد الأمير المؤمن: ص٢١٥.

(٢) انظر: قاموس دار العلم الفلكي، عبد الأمير المؤمن، قانون الجاذبية: ص٢٦١.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ١.

الكونية المحدَّدة أشار القرآن إلى عددٍ من الأفكار والقوانين والسنن الكونية، ويمكن أن نذكر من تلك السنن فكرة الجاذبية الكونية.

لكن القرآن المجيد لم يذكر مصطلح الجاذبية بالاسم، وإنما وردت في إشارات وكلمات عديدة وضمن سياقات وآيات متنوعة. ومن مجموعها نعرف تلك القوة الكبيرة الهائلة التي أمسكت بالكون وما فيه من الانفراط والتشتت. فذكر القرآن مثلاً لفظة: (البناء)، (الرفع)، (الإمساك)، (عدم الزوال)، (عدم الوقوع)، (العمد)، ذكرها مقومات وعناصر أساسية لحفظ السماء.

فذكر القرآن الكريم كلمة (بنيناها) للسماء في الآية الكريمة: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾[١].

وذكر تعالى أيضاً كلمة (رفعها) - أي السماء - في الآية الشريفة: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾[٢].

وذكر سبحانه وتعالى كلمة (يمسك) في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ... ﴾[٣].

وذكر تعالى أيضاً عدم الوقوع بقوله: ﴿ ... وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[٤].

وذكر القرآن الكريم عبارة (بغير عمد ترونها) في آيتين كريمتين.

ففي الآية الكريمة التالية قال عز وجل: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ... ﴾[٥]، وفي آية كريمة أخرى قال عز من قائل: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ... ﴾[٦].

هذه آيات كريمة وأخرى مشابهة أو مقاربة تضع قارئ القرآن على صورة سماوات متماسكة، تتساند أجزاؤها في كتلة كونية قوية محكمة مترابطة، فالبناء الوارد في الآية أعلاه يدل على التماسك والترابط بين الأجزاء. والرفع وعدم الزوال وعدم الوقوع الواردة في الآيات المذكورة آنفاً تدل كذلك على دقة البناء وإحكامه ومتانته.

وهذا البناء وهذه السماوات وما تحتوي من أجرام وظواهر كونية متنوعة هائلة لم تقم أصلاً على عمد، كالذي نعرف من البناء الأرضي، البناء الذي يعتمد على أعمدة، ودونها لم

---

(١) سورة ق، الآية: ٦.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٧.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٤١.

(٤) سورة الحج، الآية: ٦٥.

(٥) سورة لقمان، الآية: ١٠.

(٦) سورة الرعد، الآية: ٢.

يقف بناء. إن الحالة السماوية هي حالة أخرى، حالة فوقية، قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

لقد أبدع الخالق سبحانه وتعالى السماوات وما تحتوي من أجرام على وفق هندسة متينة، أقامها بدون عمد وبدون أركان، فأما أنها بدون عمد تماماً، أو بعمد ولكن لا نراها. يقول الطبري: (واختلف أهل التأويل، فقال بعضهم: بعمد لا ترونها، وقال ابن عباس: بعمد ولكن لا ترونها، وقال آخرون: بل هي مرفوعة بغير عمد، وعن إياس بن معاوية في قوله: ﴿ ...رَفَعَ ٱلسَّمَوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ... ﴾، قال السماء مقببة على الأرض مثل القبة)[2].

وهناك آيات أخرى تشير إلى القوى الماسكة لأجزاء السماء، ولكن دون أن تذكر البناء أو الرفع أو العمد أو عدم الزوال أو عدم الوقوع، إنما تدل وبشكل واضح على متانة البناء والتنظيم المثير الذي يمسك هذه الأجرام والظواهر الكونية، فكل جرم سماوي يجري في فلكه أو مداره الذي حدده الله تعالى له، فلا تتداخل الأفلاك والمدارات ولا تضطرب مهما تعددت وكثرت وتداخلت، قال عز وجل: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[3].

ومن كل تلك الآيات وأخرى مشابهة نفهم أن القرآن الكريم أشار أو لمحَّ إلى الجاذبية الكونية وان لم يذكرها بالاسم والمصطلح.

٢ ـ الجاذبية الكونية عند الإمام (ع):

تحدث الإمام أمير المؤمنين علي (ع) عن عدد من المواد السماوية، منها تلك الشهيرة كالسماء والشمس والنجوم وغيرها، داخلاً في بعض خصائصها وتفصيلاتها وخفاياها أحياناً. تحدث الإمام كلاماً صريحاً واضحاً ومباشراً لا يحتاج القارئ والباحث إلى مزيد من العناء والجهد لتحديد ما قرأ ومعرفة المعلومات الأساسية عنها.

لكن هناك مواد وقوى وظواهر كونية وفلكية وطبيعية أخرى لم يتحدث الإمام (ع) عنها بشكل صريح، لم يتحدث عنها مستقلة، وإنما جاءت ضمنية ومكملة لتلك المواد الكونية والفلكية الصريحة، داخلة في ثناياها.

ومن تلك المواد إشارات ولمحات إلى بعض القوى الداخلة في بناء الكون وبنيته، ومن أشهر تلك القوى الكونية: (الجاذبية الكونية العامة) حيث وردت فكرتها الضمنية في بعض خطب وكلمات الإمام علي (ع).

---

(١) سورة غافر، الآية: ٥٧.

(٢) جامع البيان في تفسير الميزان، الطبري: مج٧ ج١٣ ص٦١-٦٢.

(٣) سورة يس، الآية: ٤٠.

لم يذكر الإمام علي (ع) (الجاذبية) أو (القوة الجاذبة) الداخلة في المواد والأشياء بالاسم أو المصطلح، ولم يتحدث عنها قوة كونية معروفة لها هويتها العلمية وخصائصها الخاصة بها وحدودها كما يتحدث المتخصصون بالكون وقوى الكون المختلفة.

وإنما وردت فكرة الجاذبية ضمن الحديث عن الكون وبناء الكون وتماسك الكون كوحدة وجودية متكاملة. ودون أي شك أن الإمام علياً (ع) العالمَ أدرك معنى الكون الحقيقي، الكون المتكامل القائم على عدد من الأسس والقوانين والسنن الإلهية، أدركه من خلال القرآن الكريم وأحاديث الرسول الأكرم أستاذه الأول، وهما المصدران الأساسيان لعلم ومعارف الإمام (ع) عن الكون الحقيقي المتكامل، كما ذكرنا آنفاً. ولا شك أيضاً أن من يدرك الكون بهذا المعنى العلمي العميق (الإلهي) لا يمكن ان يغفل القوة الكبيرة الماسكة للكون (الجاذبية العامة).

إن (كون) الإمام علي (ع) هو كون علمي قوي متماسك يبهر من يسمع به من خلال خطبه وأحاديثه وكلماته وإشاراته ولمحاته، ويثير من يتأمل في معانيه العميقة. وكون بهذا العمق والدقة لا يمكن أن يخلو من الجاذبية إحدى القوى الأساسية الأربعة في الكون[1]، وبدونها لا يسمى الكون كوناً أبداً وإنما هو فوضى كما يقول العلماء.

لقد أدرك الإمام علي (الكون) إدراكاً عميقاً متكاملاً، فهو مزيج من المادة والطاقة والزمان والمكان، ولم يقتصر على المفردات الفلكية والكونية الأساسية المعروفة كالشمس والقمر والنجوم والأجرام السماوية الأخرى أبداً. ولو كان كذلك لكان كوناً باهتاً أو لم يكن كوناً متيناً كالذي عرفناه من خلال خطبه وأحاديثه الكريمة.

لقد تحدث الإمام (ع) عن سماء مبنية متينة قوية، قال الإمام (ع): (إنها (أي الأمانة) عُرضت على السماوات المبنية والأرضين المدحوة...)[2]، والبناء يعني ضمن ما يعني التكامل والقوة والاستقرار وخاصة إذا كان البناء إلهياً كالسماء.

ويمكن أن نَلْمح هذه القوة الجاذبة أكثر فأكثر من خلال بعض نصوص الإمام علي (ع).

---

(١) (القوى الطبيعية الأربع مصطلح يشير إلى قوتين خارج النواة، وهما الجاذبية والقوة الكهرومغناطيسية، وقوتين داخل النواة وهما القوة النووية الشديدة والقوة النووية الضعيفة) قاموس دار العلم الفلكي، عبد الأمير المؤمن: ص٤٢.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٩: ص٣١٧.

فقد وردت كلمات: (بلا عمد) (قائمات بلا سند) وصفاً للسماوات في بعض كلامه قال الإمام (ع): (فمن شواهد خلقه خلق السماوات موطدات بلا عمد قائمات بلا سند)[١].

ووردت كلمات (السقف) و (الرفع) و (الحفظ) و (العَمَد) و (الدسار) ـ أي المسمار ـ في بعض خطب الإمام علي (ع) قال: (فسوى منه سبع سماوات جعل سفلاهن موجاً مكفوفاً، وعلياهن سقفاً محفوظاً وسمكاً مرفوعاً، بغير عمد يدعمها ولا دسار ينظمها، ثم زينها بزينة الكواكب، وضياء الثواقب، وأجرى فيها سراجاً مستطيرا، وقمراً منيرا، في فلك دائر وسقف سائر ورقيم مائر)[٢].

إنه وصف دقيق لسماء مرفوعة ومحفوظة لا يمكن أن تكون دون قوة تحفظها، وأجرام سماوية تجري في أفلاك أو مدارات دائرة لا يمكن أن تكون إلا بقوة جاذبة وأخرى دافعة وهذه هي فكرة الجاذبية الكونية.

ووردت كلمة (التعليق) و (الإمساك) و (عدم المور) أي الاضطراب في بعض خطبه، قال (ع) في حمد الله: (فمن فرّغ قلبه، وأعمل فكره ليعلم كيف أقمت عرشك، وكيف ذرأت خلقك، وكيف علقت في الهواء سماواتك، وكيف مددت على مور الماء أرضك، رجع طرفه حسيراً وعقله مبهوراً وسمعه والهاً وفكره حائراً)[٣].

وفي خطبة أخرى قال الإمام (ع): (وفتق بعد الارتتاق صوامت أبوابها، وأقام رصداً من الشهب الثواقب على نقابها، وأمسكها من أن تمور في خرق الهواء بأيده، وأمرها أن تقف مستسلمة لأمره)[٤].

فعبارة: (علقت في الهواء سماواتك) التعليق لا يمكن أن يكون هنا إلا من خلال القوة، وما أقوى من الجاذبية على مستوى السماء.

وعبارة: (فأمسكها من أن تمور في خرق الهواء بأيده) الإمساك بأيده هنا يعني حفظها من الاضطراب بقوة قوية.

أليست قوة الجاذبية من القوى القوية؟ أليست هذه القوة داخلة ضمن الكون الذي حدثنا عنه الإمام أمير المؤمنين علي (ع)؟!. ألا يعني ذلك أن (كون) الإمام كون علمي لا عشوائي؟!

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٢: ص٢٦١.

(٢) المرجع السابق، الخطبة ١: ص٤١.

(٣) المرجع السابق، الخطبة ١٦٠: ص٢٢٥.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة ٩١: ص١٢٨.

الفصل الرابع

النجوم والمجرّات

يقوم بناء الكون أساساً على لبنات أساسية أو أحجار أولية كبيرة الحجم تعرف عادة باسم (النجوم) جمع (النجم).

ويقوم هذا البناء الكبير في الوقت نفسه على أحجار أكبر أو وحدات كونية كبيرة تعرف باسم (المجرّات) جمع مجرّة، والمجرّات تنتمي إلى وحْدة كونية أكبر تعرف باسم (عنقود المجرّات) cluster of galaxies (وهو مجموعة مجرات سماوية). وهناك وحدة كونية أكبر من الجميع تعرف بـ (العنقود الأعظم) super cluster وهو مجموعة عناقيد مجرية، أكبر وحدة كونية في الكون على الإطلاق، ويتخلل هذه الأحجار الكونية (أي النجوم) والوحدات الكونية المختلفة الصغيرة والكبيرة والكبيرة جداً، عدد من الأجرام الصغيرة نسبياً كالكواكب والأقمار والمذنبات والكويكبات والظواهر الكونية الأخرى.

لكن حجر البناء الأساس في السماء أو الكون هو النجم وجمعه النجوم.

والنجوم هي أجرام سماوية مستديرة الشكل كبيرة الحجم في الغالب، تتكون في الأساس من غازات ملتهبة متماسكة شديدة الحرارة.

تتوزع النجوم في السماء على امتداد البصر، إلا أن الراصد العادي لا يشاهد منها بالعين المجردة سوى خمسة آلاف نجم تقريباً. لكن التلسكوبات الفلكية تكشف آلاف البلايين من النجوم، وتبقيها نقاطاً ساطعة غير واضحة المعالم والتفاصيل.

أدرك الفلك الحديث أنَّ النجوم أجرام نووية مشتعلة تبث ضوءاً وناراً، مكوَّنة أساساً من الهيدروجين والهليوم، محولة غاز الهيدروجين إلى هليوم (أو عمليات نووية أعقد).

وأدرك الفلك الحديث أيضاً أن شمسنا التي ندور حولها نموذج مثالي قريب للنجوم السماوية البعيدة. قَرُبت منا فأصبحت بهذا الحجم الكبير والسطوع الهائل.

درسها علماء الفلك والكون ليعرفوا من خلال تفاصيلها تفاصيل النجوم الأخرى. وأدركوا أنها نجم متوسط ومعتدل في أغلب الجوانب، تشاركها أغلب النجوم السماوية في التركيب الكيميائي وتختلف عنها في جوانب أخرى.

وللنجوم ألوان مختلفة تتراوح بين الأبيض والأزرق والأصفر والبرتقالي والأحمر وما بين تلك الألوان. وتختلف في أحجامها. فمنها الأصغر من الشمس كثيراً ومنها الأكبر من الشمس كثيراً وتختلف في كثافاتها أيضاً.

أمّا مسافاتها فمتفاوتة أيضاً، فهناك نجوم قريبة نسبياً، منها النجم (ألفا قنطورس) Alpha centauri ويبعد عنا نحو ٤. ٣ سنة ضوئية وهو أقرب نجم إلى كرتنا الأرضية، وهناك نجوم الكوازارات quasars وتبعد عنا بلايين السنين الضوئية، وتقع على أطراف الكون.

ومن النجوم ما هو ساطع كنجم الشِعرى اليمانية Sirius ومنها الخافت جداً، ومنها الشديد الحرارة، ومنها المنخفض الحرارة.

وهناك نجوم وليدة وفتية وأخرى عجوزة هرمة، وهناك ما يعيش منفرداً وأخرى تعيش ضمن رفيق لها أو أكثر من رفيق، وهناك ما تتكتل على شكل عناقيد نجمية متنوعة.

وهناك أحجام نجمية صغيرة، نجوم قزمة كثيفة نيوترونية neutron stars، وهناك نجوم أكثف، وتُعرف بالثقوب السوداء black hole، وفي المقابل توجد نجوم مخلخلة وأخرى نجوم متغيّرة variable stars وأخرى متفجِّرة supernova وأنواع أخرى.

والنجوم تتولد من غازات سديمية تتكثف من خلال جاذبياتها المولدة للضغط والحرارة لتنطلق بعد ذلك نجوماً تبث ضوءاً وحرارة.

وللنجوم نهاية، تموت غازاً وغباراً راجعةً إلى حالتها قبل نشوئها.

ومن تكتل النجوم تتشكل المجرة وهي نظام نجومي كوني يتكون من مليارات النجوم إضافة إلى كميات كبيرة من السدم والغاز والغبار يأخذ شكل كتلة كونية متماسكة تجمع بينها الجاذبية الكونية، والكون ككل يتكون من أعداد هائلة من المجرّات، تتشكل في وحدات كبيرة متفاوتة الحجم ـ كما ذكرنا ـ.

يقدر علماء الفلك عدد المجرّات في الكون بأكثر من مليار مجرّة بين صغيرة وكبيرة ومنتظمة وغير منتظمة، وقد قسمها علماء الكون إلى ثلاثة أشكال رئيسة:

١ ـ المجرّات اللولبية وهي مجرات ذات أذرع تلتف لولبياً نحو الخارج.

٢ ـ المجرّات الاهليلجية.

٣ ـ المجرّات غير المنتظمة وهي متنوعة.

وأشهر المجرّات في الكون هي مجرتنا درب التبّانة، ومجرة المرأة المسلسلة، وسحابتا ماجلان، وهذه المجرّات الثلاث ترى بالعين المجردة ولا ترى غيرها.

والجدير بالذكر أنه لم تعرف طبيعة المجرّات وأعدادها ومواقعها وتفاصيلها إلا في بداية القرن العشرين.

لقد عرفنا أن لهذا الكم الهائل من المجرّات حركات متعددة، فكل مجرات الكون تدور حول مراكزها. فمجرتنا (درب التبانة) تدور حول مركزها عكس اتجاه عقارب الساعة ومعها أذرعها إذا نظر إليها من فوق، وتختلف سرعة دوران النجوم حول المركز، فالنجوم الأقرب إلى المركز أسرع من تلك الأبعد، وتقدر سرعة دوران نظامنا الشمسي الذي ينتمي إلى (درب التبانة) حول مركز المجرة بنحو ٢٥٠ كيلومتراً في الثانية، وتكمل دورتها حول مركزها في حدود ٢٥ مليون سنة، وتعرف هذه السنة بالسنة الكونية.

ثم أن المجرّات في الكون يبتعد بعضها عن بعض نتيجة الانفجار الأول، فيتمدد الكون. وقد أكد هذا التمدد أو التوسع العالم أدوين هابل المتوفى سنة ١٩٥٣. أكده في العشرينات من القرن العشرين من خلال دراسته أطياف المجرّات ليضعَ قانونه الشهير (قانون هابل للتمدد) ومفاده: أن سرعة ابتعاد المجرّات بعضها عن بعض تتناسب طردياً مع المسافة بين هذه المجرّات[١].

وهناك المزيد من المعلومات عن النجوم والمجرّات لا يستوعبها هذا الموجز[٢].

١ ـ النجوم السماوية في القرآن الكريم:

إذا ما قارنا كلمات (النجم والنجوم) الواردة في القرآن الكريم مع المواد الفلكية الأخرى ككلمات السماء والأرض والشمس والقمر، وجدنا أن كلمات (النجم والنجوم) وردت أقل عدداً من تلك (المواد الأخرى) المذكورة.

فقد وردت كلمة النجم أربع مرات، وجمعه (النجوم) تسع مرات، والمجموع ثلاث عشرة مرة. وحتى لو أضفنا الكلمات المقاربة والدالة على معنى النجم والنجوم كالكوكب والكواكب وغيرها، فلا يرقى العدد إلى المواد الكونية الأخرى المذكورة آنفاً.

على أن ما ورد من كلمات النجم والنجوم لا يدل بالضرورة على النجوم السماوية الحقيقية التي نقرؤها هنا، فقد تدل على عموم الأجرام السماوية أو تدل على الشهب أو النبات أو مواد أخرى.

فمثلاً: كلمة النجم الواردة في الآية القرآنية ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾[٣]، تدل ـ كما يقول المفسرون ـ على ما أنجمت الأرض، وهو كل نبت لا يقوم على ساق، والشجر ما يقوم على الساق[٤]، وهناك أمثلة أخرى.

لكن غالب ما ورد عن هذا الجرم السماوي (النجم) في القرآن الكريم وردَ مادة فلكية علمية ضمن المادة العلمية الكونية الكثيرة في القرآن، وهو كتلة سماوية مضيئة، والنجوم تنتشر على امتداد السماء وفي كل نقاط الكون.

والنجوم السماوية في القرآن الكريم مادة علمية يمكن قراءتها قراءة رصدية منهجية منظمة ومفصلة، وليست مادة تنجيمية خرافية تدخل في شعوذات المنجمين والدجالين وأعمالهم غير العلمية وغير المنهجية.

---

(١) انظر: قانون هابل، قاموس دار العلم الفلكي، عبد الأمير المؤمن: ص٣٦٢.

(٢) وللمزيد عن المجرات والنجوم انظر: الفصل الرابع والخامس من كتابنا: الكون نظرة تراثية ومعاصرة: ص١٣٥ ـ ٢٥٦.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٦.

(٤) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، الفيروزآبادي: ص٥٨٤، وغيره.

فهي ليست آلهة مقدسة ولا قادرة على فعل شيء لأهل الأرض كما يعتقد المنجمون أو بعضهم، وإنما هي مخلوقة لله كسائر المخلوقات، مطيعة لأمره تعالى تسجد له وتسبح بحمده.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ... ﴾[1].

وتسبح بحمد الله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ... ﴾[2].

والنجوم السماوية مسخرات بأمر الله تعالى، ومسخرة لخدمة عباد الله، قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[3].

ولا شك أننا نجهل طريقة سجود وتسبيح النجوم لله خالقها وخالق كل شيء ولكننا لا نجهل فوائدها وخدماتها لأهل الأرض أو بعض فوائدها على الأقل، ومن ذلك مثلاً: جعلها الله سبحانه وتعالى علامات يهتدي بها عباد الله تعالى في طرقهم البرية والبحرية في الليالي المظلمة السوداء، قال عز وجل: ﴿ وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[4]. وقال تعالى أيضاً: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ... ﴾[5].

لقد وردت النجوم في القرآن مواد كونية حقيقية ذات مواصفات وإمكانات محدّدة، ومن ذلك، ذكر القرآن تعبير (مواقع النجوم) بقوله تعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾[6]، وهو قسم غير عادي يدل على العظمة والهيبة ويشعر فيه القارئ أن هذه المواقع غير عادية.

وهو قسم مثير بين الآيات الشريفة التي أقسمت بمخلوقات الله تعالى، فهو الوحيد الذي وصفه تعالى بأنه عظيم. ويبدو أن المعنى الأبعد للآية الشريفة يشير إلى مواقع النجوم الحقيقية التي لم يدركها إنسان العصور الإسلامية القديمة، في حين أدرك الإنسان المعاصر هذه الأبعاد السحيقة من خلال الأجهزة العلمية الحديثة، والتي تقدر بمئات الآلاف من السنين الضوئية.

---

(١) سورة الحج، الآية: ١٨.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٢.

(٤) سورة النحل، الآية: ١٦.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ٩٧.

(٦) سورة الواقعة، الآيتان: ٧٥، ٧٦.

ومن مواصفات وإمكانات النجوم، ورد أن الكواكب (وتعني عموم النجوم) هي زينة وجمال للسماء الدنيا، أي هذه السماء القريبة التي يراها الناس، قال تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾[١]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ... ﴾[٢]، وتدل كلمة (بمصابيح) على (النجوم والكواكب).

وورد أيضاً ذكر لنجوم محددة أو موصوفة، فقد أورد القرآن نجم الشعرى اليمانية المعروف، ففي معرض مخلوقيته لله تعالى وان الله هو ربه ورب كل النجوم وكل شيء، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴾[٣].

وورد نجم وُصف بالطارق والثاقب، قال عز وجل: ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ② النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾[٤].

واختلف من المقصود بالطارق، لكن الأصفهاني يقول: (وعبر عن النجم بالطارق لاختصاص ظهوره بالليل)[٥]، وهناك تفسيرات أخرى.

وسوف تنطفئ النجوم وتموت في النهاية، وهذا ما أكده العلم لاحقاً.

وقد ورد أكثر من آية شريفة في هذه النهاية النجمية الحتمية، فالنجوم ستنكدر، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾[٦].

وستنطمس، قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾[٧].

والكواكب (أي النجوم) ستنتثر، قال تعالى: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ① وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴾[٨]، وهكذا بقية مكونات الكون.

٢ ـ النجوم والمجرّات عند الإمام (ع):

لقد تناول الإمام أمير المؤمنين (النجوم) في عدد من خطبه وأقواله تناولها تناول الخبير العالم بالكون والفلك والتنجيم، مفرقاً بين المادة الفلكية العلمية وبين المادة الفلكية غير العلمية (التنجيمية) تناولها في عصر لم يكن الفرق واضحاً بين العلمين أو المادتين الفلكية

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٦.

(٢) سورة الملك، الآية: ٥.

(٣) سورة النجم، الآية: ٤٩.

(٤) سورة الطارق، الآيات: ١-٣.

(٥) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني: ص٣٠٣.

(٦) سورة التكوير، الآية: ٢.

(٧) سورة المرسلات، الآية: ٨.

(٨) سورة الانفطار، الآيتان: ١، ٢.

والتنجيمية. حيث كانت كلمة (النجوم) أو (علم النجوم) تدل على المادتين أو الموضوعين معاً، وكان الفلك والتنجيم متداخلين متشابكين تماماً.

لقد استخدم الإمام علي (ع) كلمة (النجوم) في مواضع كثيرة من خطبه وأقواله، بمعناها العلمي الفلكي، وفي أحيان قليلة استخدم كلمة (النجوم) بمعناها التنجيمي، مفرقاً كل الفرق بين العلمين. وهذا إدراك علمي دقيق للعلم والموضوعات العلمية والمعرفية، بل هو المنهج العلمي الصحيح في دراسة الأشياء والحديث عنها.

ولنقرأ النص الإمامي التالي، قال الإمام علي (ع) في بعض كلامه: (إياكم وتعلم النجوم[1]، إلا ما يهتدى به في بر أو بحر)[2].

أليس في النص جانبان، جانب يدل على عدم شرعية العلم وهو (علم النجوم أو التنجيم) وجانب يدل على شرعية العلم وهو (علم الفلك) (ما يُهتدى به).

لقد ذكر الإمام علي (ع) كلمة (النجم والنجوم) في عدد من خطبه وأقواله وأحاديثه، وفي نهج البلاغة وحده، وردت كلمة (النجم) مفردة ٤ مرات، وكلمة (النجوم) جمعاً للنجم ٦ مرات، والمجموع ١٠ مرات هذا عدا ما ورد خارج نهج البلاغة.

لقد ورد معنى (النجم والنجوم) في خطب الإمام وأقواله وأحاديثه بألفاظ مختلفة، فإضافة إلى لفظة (النجم والنجوم)، وردت ألفاظ (الكوكب والكواكب) و (الدراري) و (المصابيح) و (الثواقب) وهناك معان تدلّ عليها.

وكل ما ورد في كلام الإمام علي (ع) عن مادة النجم هو مادة علمية قابلة للدرس والبحث والرصد والتقصي، ولا مجال للتخيّل والتصور العشوائي عند الإمام.

فالنجوم ومثلها الأجرام السماوية الأخرى هي مخلوقات كونية أمرنا الله سبحانه وتعالى أن ننظر إليها ونتفكر فيها. وهي أجرام ذات هويات محددة ولها مواقع معينة ومعلومة في السماء، ويمكن استخدامها أدلة وعلامات أساسية في الصحاري المظلمة في الليل البهيم الخالي من العلائم والإشارات كما هي حال صحراء جزيرة العرب. قال الإمام علي (ع) في إحدى خطبه: (جعل نجومها ـ أي السماوات ـ أعلاماً يستدل بها الحيران في مختلف فجاج الأقطار، لم يمنع ضوء نورها ادلهمام سجف الليل المظلم، ولا استطاعت جلابيب سواد الحنادس أن ترد ما شاع في السماوات من تلألؤ نور القمر)[3].

---

(١) انظر الفصل الحادي عشر: (الإمام علي (ع) الحرب على الأوهام والتنجيم).

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٧٩: ص١٠٥.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٢: ص٢٦١.

وهي (أي النجوم) أجرام ذات حركات علمية، وليست عشوائية هائمة في السماء، لها شروق وغروب أو طلوع وأفول، وقد ذكر الإمام (ع) ذلك في بعض أحاديثه: (الحمد لله كلما وقب ليل وغسق، والحمد لله كلما لاح نجم وخفق)[١]، وخفق أي غاب...

وقال أيضاً: (إن مثل آل محمد (ص) كمثل نجوم السماء إذا خوى نجم طلع نجم...)[٢]، وخوى تعني غاب أيضاً، وهو معنى يقارب النص السابق.

والنجوم والكواكب والشمس والقمر والأجرام السماوية الأخرى. خلقها الله سبحانه وتعالى زينة للسماء تنورها بأضوائها الثاقبة ليتمتع بها أهل الأرض. ففي خطبة له (ع) قال الإمام علي: (ثم زينها - أي السماوات - بزينة الكواكب، وضياء الثواقب، وأجرى فيها سراجاً مستطيراً وقمراً منيراً، في فلك دائر وسقف سائر ورقيم مائر)[٣].

وقد وصف الإمام (ع) بعض الأجرام والنجوم بالدراري وأخرى بالمصابيح، فقال (ع) في بعض خطبه: (ثم علق في جوها فلكها، وناط بها زينتها من خفيات دراريها، ومصابيح كواكبها)[٤].

ويمكن أن يلمح الباحث والقارئ في هذا النص الإمامي الفرق بين النجوم الموصوفة بالمصابيح (وهي على ما يبدو عموم النجوم) والنجوم الدراري جمع دريّ (ذات الإضاءة الثاقبة).

وفي الإشارة إلى كثرة النجوم وعددها الهائل، ذكر الإمام علي (ع) ما يدل على هذه الكثرة والعدد الكبير، ففي معرض ذكر صفات الله سبحانه وتعالى ومطلقيته، قال الإمام (ع): (لا يشغله شأن، ولا يغيّره زمان ولا يحويه مكان، ولا يصفه لسان، ولا يعزب عنه عدد قطر الماء ولا نجوم السماء ولا سوافي الريح في الهواء)[٥].

إضافة إلى ذلك ذكر الإمام (ع) أسماء نجوم بعينها، فقد ذكر نجم الجدي الذي يهتدي به أهل البر والبحر، قال (ع): قال الرسول الأكرم: (وبالنجم هم يهتدون هو (الجَدْي) لأنه نجم لا يزول وعليه بناء القبلة وبه يهتدي أهل البر والبحر)[٦].

---

(١) المرجع السابق، الخطبة ٤٨: ٨٧.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٠٠: ص١٤٦.

(٣) المرجع السابق، الخطبة ١: ص٤١.

(٤) المرجع السابق، الخطبة ٩١: ١٢٨.

(٥) المرجع السابق، الخطبة ١٧٨: ص٢٥٦.

(٦) بحار الأنوار، المجلسي: ج٨٤ ص٦٦.

وذكر الإمام (ع) أيضاً النجم الطارق الوارد في القرآن الكريم بقوله: (هو أحسن نجم في السماء وليس تعرفه الناس، وإنما سمي الطارق لأنه يطرق نوره سماءً سماءً إلى سبع سماوات، ثم يطرق راجعاً، حتى يرجع إلى مكانه)[١].

ولم يتحدث الإمام علي (ع) عن هذه الكثرة الهائلة من النجوم ويتركها على حالها، وإنما ورد في بعض نصوصه ذكر (المجرّة) بالاسم، بل وتجاوزها إلى الإشارة أو التلميح إلى وجود عدد كبير من المجرّات في السماء، فقد ذكر مدائن من النجوم في السماء كما المدائن في الأرض. قال (ع): (هذه النجوم التي في السماء مدائن مثل المدائن التي في الأرض مربوطة كل مدينة إلى عمود من نور، طول ذلك العمود في السماء مسيرة مائتين وخمسين سنة)[٢].

ولا يسعني إلا أن أقف أمام هذا النص الفلكي المثير وقفة إجلال وإكبار وانحناء، فإذا عرفت الحضارة الإسلامية (المجرة) (مجرة درب التبّانة) وأشاروا ـ إضافة إليها ـ إلى مجرتين أخريين: (المرأة المسلسلة وسحابتي ماجلان) (ولكن مشاهدة عابرة غير علمية ولا تخصصية. لقد التقطتها عيونهم كسحابات عادية دون إدراك طبيعة ما شاهدوه، دون أن يعرفوا أنهما مجرات مكونة من ملايين النجوم. إن هذا الإدراك احتاج إلى قرون من الزمان ليتحقق واقعاً عملياً)[٣].

فإذا عرفت الحضارة الإسلامية ذلك، فإن الإمام علياً (ع) ذكر مسألة مهمة، ذكر مدائن من النجوم، أي ذكر مجاميع نجمية عديدة وربطها بالنور (عمود من نور) وهو ربط له معناه ومغزاه في الفلك الحديث، فالنور هو جزء من الطاقة أو هو الطاقة عينها التي هي أحد مكونات الكون الأساسية. ومدائن النجوم في المحصلة النهائية مجرّات ولا معنى لاحتمال غير ذلك على ما يبدو.

والقارئ لتاريخ الفلك يعرف تماماً أنَّ عالم المجرّات العلمي لم يكتشف إلا في أوائل القرن العشرين، حيث درس الفلكي الأمريكي أدوين هابل المجرّات دراسة علمية وتبيّن له أن هناك مجرات ومجرات غير مجرة درب التبانة المعروفة قديماً[٤]. ومن ذلك التاريخ عرف أن الكون مكون أساساً من شبكة من المجرّات.

فكيف أدرك الإمام أمير المؤمنين علي (ع) هذه المدائن النجمية قبل أكثر من أربعة عشر قرناً؟ إنه لأمر مثير حقاً!! أترك الجواب للقارئ ليعيد قراءة حياة الإمام ونشأته مرة أخرى، ففيها الجواب.

---

(١) علل الشرايع، الصدوق: ص٥٧٧.

(٢) بحار الأنوار، المجلسي: ج٥٥ ص٩١.

(٣) الكون، نظرة تراثية ومعاصرة، عبد الأمير المؤمن: ص١٤٦.

(٤) المرجع السابق: ص١٤٩.

الفصل الخامس

الشمس الأم

تمثل الشمس في منظومتنا الشمسية مكانة الأُم لعدد من الأبناء والأحفاد، فهي الحاضنة الأساسية الرؤوم للأرض وأهل الأرض والكواكب السيارة الأخرى (الأبناء) والأقمار التابعة لها (الأحفاد) وما تناثر من أجرام المنظومة الشمسية.

ولولا هذه الأم الكبيرة الحنون لهرب الأبناء والأحفاد وغيرهم إلى غير رجعة، ولانفرطت المنظومة أي انفراط، فجاذبية الأم القوية أمسكت الأبناء والأحفاد من الهرب والشذوذ في مجاهيل الكون المتباعدة.

والشمس جرم سماوي غازي مشتعل، أو هي نجم كوني متوسط بين نجوم السماء. تقع على مسافة نحو ١٩٢,٠٠٠,٠٠٠ كيلومتر من الأرض، ولقربها هذا بانت بهذا الحجم الكبير، وحين صورتها المركبة الفضائية فوياجير من خارج المنظومة الشمسية بانت لنا بحجم النجوم السماوية.

ولدت الشمس منذ نحو خمسة مليارات سنة من سحابة غازية محدّدة ضمن عدد كبير من السحب المنتشرة في الكون والتي نعرفها باسم السدم، خلقها الله تعالى من سديمة كانت تدور حول مركزها، ثم تجمعت في بؤرة وتكاثفت بفعل الجاذبية المودعة في الغاز والغبار المكونين لها، ثم تكدست أكثر فأكثر لتندمج فيها ذرات الهيدروجين وتتحول إلى هليوم ومعها النار والنور اللذان يمدان الحياة بالنشاط والحيوية.

والشمس اليوم هي نجم في عمر الشباب، في منتصف عمرها، وأمامها نحو خمسة مليارات من السنين لتصبح هرمة. وهي نجم أصفر بين ألوان النجوم كالأبيض والأزرق والبرتقالي والأحمر، وصفرتها هذه دليل على فتوتها ووسطيتها وشبابها ومناسبتها للحياة على الأرض. ولو كانت الشمس أقرب إلى الأرض من قربها الحالي لاستحالت الحياة من فرط الحرارة والإشعاعات ولو كانت أبعد من بعدها الحالي لتجمدت الأرض واستحال فيها كل شكل من أشكال الحياة، ولو كانت نجماً غير مستقر أو متغيراً أو متفجراً لما كنا ولما كان أيّ نوع من أنواع الحياة.

وعلى الرغم من توسط حجمها بين أحجام النجوم، إلا أنها كبيرة قياساً بحجم الأرض، فقطرها يبلغ نحو ١,٣٩٢,٠٠٠ كيلومتر، أي قدر قطر الأرض نحو ١٠٩ مرات، أما حجمها فهو أكبر من الأرض بنحو ١,٣٠٠,٠٠٠ مرة، وكتلتها مثل كتلة الأرض بنحو ٣٣٣,٠٠٠ مرة، وتبعاً لكتلتها الكبيرة ازدادت جاذبيتها فهي أكبر من جاذبية الأرض بنحو ٢٧ مرة، أمّا كثافتها فهي أقل من كثافة الأرض وتساوي نحو ربع كثافة الأرض.

تقع الشمس في الثلث الأخير ضمن امتداد مجرة (درب التبّانة)، ولها أكثر من حركة، فهي تدور حول نفسها كما تدور بقية الأجرام السماوية، ولكنها لا تدور كتلة واحدة

متماسكة كما تدور الكواكب السيّارة المتحلقة حولها، وإنما يختلف دورانها في نقاطها المختلفة، فهي في دورانها عند قطبيها أبطأ من دورانها عند خط استوائها، أي أن يومها عند القطبين أطول من يومها عند خط الاستواء، ويساوي نحو ٣٥ يوماً، في حين لا يتجاوز يومها عند خط الاستواء الشمسي ٢٧ يوماً من أيام الأرض.

وتدور الشمس ومعها أبناؤها دورة أخرى حول مركز المجرة مكملة دورتها في ٢٢٠ مليون سنة، وتجري أيضاً ضمن جريان المجرة نفسها متباعدة عن أخواتها المجرّات الأخرى.

والشمس ليست هي المظهر الخارجي الذهبي فقط، وإنما هي كرة غازية ضخمة، يقع في مركزها القلب المحرّك (النواة) حيث هي المعمل الضخم الذي يولد الحرارة الهائلة والضوء الساطع، وتليها منطقة متوسطة يتم من خلالها إشعاع الطاقة الصادرة من المركز بشكل بطيء، تليها منطقة التيارات الحملية في الثلث الخارجي من الشمس، ويتم فيها تدوير تيارات الغازات الساخنة الحاملة للطاقة إلى سطح الشمس، وبعدها تأتي طبقة السطح المرئية، وتسمى الكرة الضوئية أو القرص النيّر الذي تنطلق منه إشعاعات الشمس، ويقدر العلماء درجة حرارة سطح الشمس بنحو ٥.٥٠٠ درجة مئوية، ومن خلال التلسكوب يرى السطح وكأنه مكون من حبيبات براقة متحركة.

وعند السطح الخارجي للشمس تشاهد الصياخد الشمسية اللامعة، وتشاهد أيضاً بقعاً داكنة قياساً بما يجاورها من مساحات براقة، تعرف بالبقع الشمسية، وهي ظاهرة عرفت قديماً، وترتبط بحقول مغناطيسية شمسية.

والشمس هذه الشعلة الغازية النارية الهائلة سيأتي يوم تنتهي فيه أسباب حياتها، فتستهلك كل وقودها وتنهار وتنتهي وتذهب القوة والجمال والعطاء.

ويقدر علماء الفلك والكون أن أمام الشمس خمسة مليارات من السنين لتنتفخ وتصبح عملاقاً أحمر أكبر من حجمها الحالي بنحو مئة مرة وحينها ستبتلع عُطارد والزهرة وربما الأرض، وينتهي كل حي على الأرض[1].

١ ـ الشمس في القرآن الكريم:

من الكلمات الفلكية والكونية الواضحة والصريحة التي وردت في القرآن الكريم (الشمس) ومثلها في الوضوح (القمر) كما سنرى لاحقاً.

فقد وردت كلمة الشمس في القرآن واضحة محددة دالة على هذا الجرم الساطع المضيء في نهار الأرض، في عموم ما وردت.

---

(١) للمزيد من التفصيلات عن الشمس، انظر كتابنا: المنظومة الشمسية، تراث تأسيسي وحاضر مثير، موضوع: (الشمس أمنا الكبيرة): ص٩٩ ـ ١١٥. وانظر أيضاً كتابنا: قاموس دار العلم الفلكي، مادة الشمس: ص٢٨١.

ذكر القرآن الكريم الشمس ٣٣ مرة، وأغلب ما ذكر مقترنة بالقمر (الشمس والقمر)، ولعل هذا الاقتران يرجع إلى الحجمين الظاهريين للجرمين، فهما كما نعرف أكبر الأحجام الفلكية الظاهرية في السماء القريبة، وإن كان الفارق الحقيقي كبيراً بينهما، ويرجع كذلك إلى المنافع الكبيرة التي تقدمها الشمس والقمر لأهل الأرض قياساً بمنافع الأجرام الأخرى.

والشمس في القرآن الكريم مادة علمية فلكية كونية لها مواصفات وخصائص مُحدّدة ومتنوعة، لا تتقاطع في أيّ منها مع المواصفات العلمية التي ذكرها علماء الفلك عند دراستهم للشمس، وبالأصح لا تتقاطع الدراسات الفلكية الشمسية مع الشمس القرآنية أبداً، في حين تتقاطع (شمس القرآن) مع شمس المنجمين والعرافين ذات الخصائص الخرافية والوهمية.

وردت الشمس مجملة على طريقة القرآن الكريم في ذكره للمواد العلمية والمعرفية، حيث لم ترد مادة تخصصية، وإنما جاءت لتصب في الهدف القرآني الكبير الدعوة إلى الله تعالى وهداية الناس.

وشمس القرآن كائن سماوي مخلوق، خلقها الله سبحانه وتعالى بعد إن لم تكن، وستنتهي كما تنتهي سائر مخلوقات الله تعالى، قال وتعالى في هذا الخلق: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ... ﴾[1]

وقال تعالى أيضاً مشيراً إلى مخلوقيتها وعدم جواز عبادتها: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[2].

والشمس مسخّرة للبلاد والعباد، لها دور كبير في استمرار الحياة وبقائها، وبانتهائها تنتهي البلاد والعباد، قال تعالى: ﴿ ... وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[3].

وهي في الوقت نفسه جرم سماوي مطيع لله تعالى تسجد له وتسبح كسائر المخلوقات، بطريقتها الخاصة التي لا ندركها، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ... ﴾[4].

وقال أيضاً: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ... ﴾[5].

والشمس في القرآن جرم سماوي ناري يسطع ضوءاً قوياً وليس نوراً هادئاً كنور القمر المكتسب. وقد وصفها القرآن بالسراج الوهاج. قال تعالى: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٣.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٧.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

(٤) سورة الحج، الآية: ١٨.

(٥) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾[١]، وقال أيضاً: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾[٢].

والسراج الوهاج يدل دلالة واضحة وصريحة على نارية الشمس الحارقة لا النور الهادئ الانسيابي كنور القمر.

وفي التفريق بين ضوء الشمس ونور القمر ذكر القرآن الكريم أكثر من آية شريفة، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ... ﴾[٣]، ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾[٤].

والشمس تتحرك وتجري أو تدور كما تدور الأجرام السماوية الأخرى في أفلاكها أو مداراتها، فهي ضمن الآية الشريفة التي ذكرت أن كل جرم يسبح في فلك محدد لا يصطدم الواحد بالآخر ولا يسبقه ولا يتخلف عنه ولا ينافسه في فلكه، وإلا كانت الفوضى، وحاش الله أن يصنع كوناً فوضوياً مضطرباً، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[٥].

والحركة والجريان سُنّة كونية عامة، ويمكن أن يَكون الجريان ظاهرياً عادياً، كما نرى حركة الشمس اليومية من المشرق إلى المغرب، ويمكن أن يكون الجريان علمياً خفي الإدراك، وعلى هذا فالشمس تجري عدة جريانات، فهي تدور حول محورها مكونة يوماً شمسياً يبلغ بين ٢٥ ـ ٣٥ يوماً أرضياً.

وهناك حركة الشمس ومعها أبناؤها وأحفادها وتوابعها حول مركز المجرّة مجرّة درب التبانة، وتكملها في نحو ٢٢٠ مليون سنة. وهناك حركة الشمس داخل المجرّة نحو كوكبة الجاثي على ركبته (هِرَقل).

وهذه حركات شمسية أدركها العلم الحديث ولم تكن معروفة قديماً.

والشمس في النهاية لا تشذ عن مخلوقات الله تعالى الأخرى المنتشرة في أرجاء الكون، فكما للشمس بداية ونمو لها أفول ونهاية.

فستتكور الشمس قال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾[٦]، وكوْر الشيء إدارته وضمّ بعضه إلى بعض ككور العمامة[٧].

---

(١) سورة النبأ، الآيتان: ١٢، ١٣.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦١.

(٣) سورة يونس، الآية: ٥.

(٤) سورة نوح، الآية: ١٦.

(٥) سورة يس، الآيات: ٣٨ـ٤٠.

(٦) سورة التكوير، الآية: ١.

(٧) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني: ص٤٤٣.

وستنطمس ضمن انطماس النجوم، قال تعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾[١]، والطمس إزالة الأثر بالمحو[٢].

وستنكدر ضمن انكدار النجوم، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾[٣]، والإنكدار تغيّر من انتثار الشيء[٤].

وسيجمع الشمس والقمر وينتهي كل شيء قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾[٥].

٢ ـ الشمس عند الإمام (ع):

مثلما الشمس حاضرة في سماء النهار، كانت حاضرة في خطب الإمام أمير المؤمنين عليّ (ع) وأحاديثه وأقواله، ومثلما هي حيّة نشطة في النهار، كانت الشمس حيةً نشطة في كلام الإمام علي (ع).

كانت شمس الإمام علي (ع) شمساً حقيقية علمية فلكية تشعُّ ضوءاً ويمكن رصدها ودراستها وقراءتها قراءة علمية منهجية. وقد وردت في كتاب (نهج البلاغة) للإمام عليّ، وحده خمس عشرة مرّة، ووردت في المصادر الأخرى عدداً آخر. وإضافة إلى ورودها شمساً علمية حقيقية، وردت شمساً أدبية بلاغية من جنس كلام الإمام علي (ع) سيد الأدباء والبلغاء[٦].

والشمس في كلام الإمام علي (ع) شمس علماء الفلك والكون وليست شمس المنجمين والمشعوذين والدجالين، ناهجاً في ذلك نهج القرآن الكريم وروحه، مردداً في أحيان كثيرة ألفاظ القرآن وتعابيره كما في المواد الفلكية والكونية الأخرى.

والشمس عند الإمام علي (ع) أولاً وقبل كل شيء مخلوق من مخلوقات الله سبحانه وتعالى الكثيرة. وهي مطيعة له، خلقها وجعلها آية مبصرة لنهارها، قال الإمام (ع): (وجعل شمسها ـ أي السماء ـ آية مبصرة لنهارها)[٧]، أي جعل شمس هذه الأجرام السماوية مضيئة يبصر بضوئها مدة النهار كله دائماً.

ومن خلال التزام الإمام (ع) بالمنهج العلمي الواضح في قراءة المواد والأشياء، دعا إلى النظر الميداني المباشر إلى مخلوقات الله سبحانه وتعالى، وعلى مستوى المواد الفلكية والكونية دعا للنظر إلى الشمس والقمر والمواد السماوية الأخرى. قال الإمام (ع): (فانظر إلى

---

(١) سورة المرسلات، الآية: ٨.

(٢) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني: ص٣٠٧.

(٣) سورة التكوير، الآية: ٢.

(٤) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني: ص٤٢٧.

(٥) سورة القيامة، الآيات: ٧ ـ ٩.

(٦) ومن ذلك مثلاً: قوله (ع): (فإذا ألقت الشمس قناعها وبدت أوضاح نهارها)، نهج البلاغة، الخطبة ١٥٥: ص٢١٧.

(٧) نهج البلاغة، الخطبة ٩١: ص١٢٨.

الشمس والقمر والنبات والشجر والماء والحجر واختلاف هذا الليل والنهار وتفجر هذه البحار وكثرة هذه الجبال، وطول هذه القلال...)[١].

فالنظر المباشر إلى المخلوقات، وخاصة الكونية منها ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ...﴾[٢]، من الأدلة القوية الدامغة على ما وراء الكون من قوة وإبداع، وبالتالي إلى الإيمان الخالص بقدرة خالق مطلق لهذا الكون، وخاصة إذا كان النظر على مستوى الشمس القريبة ذات الآثار الواضحة على الأرض وأهل الأرض.

وبهذه الدعوة وهذا النظر العلمي ينقذ الإمام (ع) المواد الكونية من لعب المنجمين والمشعوذين والدجالين.

ووردت الشمس في خطب وأحاديث الإمام علي (ع) جرماً كونياً علمياً أو كتلة نارية وضوئية، تنشر الحرارة والضوء مثل السراج الوهاج الذي يبث الضوء والحرارة، وهما يختلفان عن النور الانسيابي الهادئ الذي يبثه القمر العاكس للضوء الشمسي الحار.

قال الإمام (ع) في إحدى خطبهِ: (ثم زينها - أي السماء - بزينة الكواكب، وضياء الثواقب، وأجرى فيها سراجاً مستطيراً وقمراً منيراً في فلك دائر وسقف سائر ورقيم مائر)[٣].

مفرقاً بين ضوء الشمس السراجي والنور القمري، كما فرّق القرآن الكريم بين ضوء الشمس ونور القمر.

وقد عبر الإمام علي (ع) في أكثر من مكان عن الأشعة التي تنشرها الشمس بالضوء ومشتقاته (ضوء الشمس) (الشمس المضيئة) قال (ع) واصفاً العبد الذي يحبه الله تعالى: (فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس قد نصب نفسه لله سبحانه في أرفع الأمور)[٤]، وقال (ع) أيضاً: (وكيف عشيتْ أعينها من أن تستمد من الشمس المضيئة نوراً تهتدي به في مذاهبها)[٥].

ووردت الشمس في خطب الإمام علي (ع) وأحاديثه جِرماً كونياً متحركاً يجري في السماء كما تجري الأجرام السماوية الأخرى، تجري في أفلاك أو مدارات محدّدة، وجريان أو حركات الأجرام السماوية سُنّة كونية لا يشذ عنها جرم، فكل الأجرام تجري في أفلاك، ولكل جِرم فلكه الخاص به المحدّد له، دون أيّ اضطراب ولا تخلخل في مسيره، وصدق الله تعالى حين قال في قرآنه الكريم: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[٦].

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٥: ص٢٧١.

(٢) سورة غافر، الآية: ٥٧.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١: ص٤١.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة ٨٧: ص١١٨.

(٥) المرجع السابق، الخطبة ١٥٥: ص٢١٧.

(٦) سورة يس، الآية: ٤٠.

فقد ذكر الإمام (ع) حركة الشمس في أكثر من حديث تحدث به الإمام، ومن ذلك ما ذكرنا آنفاً قوله (ع): (وأجرى فيها سراجاً مستطيراً وقمراً منيراً في فلك دائر وسقف سائر)[١].

وذكر (ع) أيضاً: (وجعلهما (أي الشمس والقمر) يجريان في الفلك)[٢].

وقال (ع) أيضاً في معرض دعائه: (اللهم رب السقف المرفوع والجو المكفوف الذي جعلته مغيضاً لليل والنهار ومجرى للشمس والقمر ومختلفاً للنجوم السيّارة)[٣].

وعبارات: (في فلك دائر) و (يجريان في الفلك) و (مجرى للشمس والقمر) تعني الجريان داخل الفلك لا مع الفلك، وهي دليل على الاستقلالية في الجريان والمسير في فضاء محدّد، خلافاً للذين يعتقدون خطأً أن الفلك جسم بلوري يقع الجرم داخله كالفص بالخاتم، أي يدور الخاتم ومعه الفص، وهو اعتقاد أو تصور ثبتَ خطؤه وبطلانه علمياً، فالفلك هو المدار orbit وهو فضاء يسير فيه الجرم وليس مادة[٤].

وهذا الجريان في الفلك المحدد هو امتثال وإطاعة لأمر الله سبحانه وتعالى ومرضاته قال (ع): (والشمس والقمر دائبان في مرضاته، يبليان كل جديد ويقربان كل بعيد)[٥].

وقد وردت الشمس في خطب وأقوال وأحاديث أخرى للإمام عليّ (ع)، مشابهة للتي ذكرناها، أو في سياقات أخرى لا تخرج عن طبيعتها الحقيقية. وإذا لم يذكر الإمام تفصيلات وافية عن الشمس، فحديثه لا يخرج عن حقائقها العلمية والفلكية الصحيحة، فحين سُئل الإمام علي (ع): (كم بين المشرق والمغرب؟ فقال (ع): مسيرة يوم للشمس)[٦]، والمقصود بمسيرة يوم للشمس هنا هو المسيرة الظاهرية للشمس، وهو كلام علمي وإن لم يذكر أرقاماً.

ويمكن أن يتصور الباحث في حركة الشمس تصورين:

١ - حركة الشمس الظاهرية.

٢ - حركة الشمس الحقيقية، والذي نرى من حركة الشمس يومياً: طلوعها من المشرق وصعودها إلى كبد السماء وغروبها في المغرب فهي حركة ظاهرية.

أما حركة الشمس الحقيقية أو العلمية، فللشمس أكثر من حركة في مساحة الكون الواسعة، ومن تلك الحركات حركتها حول محورها مكونة يومها الخاص بها، وحركتها حول محور المجرة مجرة درب التبّانة مع أجرام المجرّة الأخرى، وحركة ثالثة داخل المجرة باتجاه كوكبة الجاثي على ركبته[٧]، وحركة أخرى ضمن حركات المجرّات المتباعدة الواحدة عن الأخرى (تمدد الكون)، وقد أشرنا إلى ذلك آنفاً.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١: ص٤١.

(٢) بحار الأنوار، المجلسي: ج٥٤ ص٩٣.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٧١: ص٢٤٥.

(٤) فمثلا يقول نصير الدين الطوسي: (الفلك جسم كري يحيط به سطحان متوازيان مركزهما واحد)، التذكرة في علم الهيئة، نصير الدين الطوسي: ص١١٥.

(٥) نهج البلاغة، الخطبة ٩٠: ص١٢٣.

(٦) مناقب آل أبي طالب، ابن شهرآشوب: ج٢ ص٤٢٦.

(٧) (الجاثي على ركبته أو هرَقل كوكبة سماوية شمالية كبيرة ذات نجوم خافتة)، انظر: قاموس دار العلم الفلكي، عبد الأمير المؤمن: ص١٥٣.

الفصل السادس

قمر الأرض

القمر ابن الأرض الحنون، خرج من رحمها، فهو جزء منها أسير حبها، يدور حولها دون كلل ولا ملل، كما الأرض أسيرة الشمس تدور حولها دون كلل ولا ملل، تماماً.

وحب القمر لأمه الأرض بدأ منذ انفصل منها، منذ نشر النور الأول على ربوعها، وجماله وخدماته على أهلها، عارضاً جمال وجهه بعد احتجاب طوراً طوراً، يبدأ هلالاً أنيقاً ثم يكبر ليصبح بدراً كاملاً يبهر العيون ويفتح القلوب ويذكي الليل بالنور الهادئ ليحضن من يحبه ويريده.

والقمر جرم سماوي صغير قياساً بأقمار الكواكب السيّارة الأخرى أو قريب من بعضها، وكبير أيضاً بالنسبة للكويكبات والأحجار النيزكية، لكنه يبدو كبيراً لقربه الشديد من الأرض، فيبلغ بعده عنها نحو ٣٨٤.٠٠٠ كيلومتر. ويبلغ قطره نحو ٣٤٧٠ كيلومتراً، أي ربع قطر الأرض وحجمه نحو ١/ ٥٠ من حجم الأرض.

والقمر في علم الفلك الحديث جرم فلكي صخري يستمد نوره من ضوء الشمس، فهو تابع لتابع أكبر هو الأرض التي تتبع الشمس، والشمس تتبع مجرة درب التبّانة، وهذه المجرّة واحدة من ألف مليون مجرّة تنتشر في أرجاء الكون المختلفة.

وللقمر عدة دورانات فهو يدور حول محوره كما تدور الأرض حول محورها، ويستغرق دورانه حول محوره نحو ٢٧.٣ يوماً، وهو الوقت نفسه الذي يستغرقه للدوران حول الأرض، ولذلك فالجانب القريب من القمر هو الذي يواجهنا دائماً، أما الجانب الآخر البعيد فلم يشاهده أحد حتى صَوَّرته الأجهزة الفضائية حديثاً. والمقدار الذي نشاهده من القمر والمعروف بالوجه مرتبط بالمقدار المعرّض لأشعة الشمس من الجانب القريب.

اهتم الفلكيون بالقمر أكثر من كل الأجرام السماوية، وذلك لقربه من الأرض، وقد رسمت له خرائط تفصيلية عديدة للجانب القريب من الأرض، وفي الستينات من القرن العشرين أرسل إليه عدد من السوابر الفضائية، ووصلت قمة دراسة القمر حين هبط الإنسان على سطحه سنة ١٩٦٩م وقرأه قراءة مباشرة، وتوافرت للإنسان معلومات كثيرة كشفت الكثير من أسراره وخباياه، وقلبت الكثير من المفاهيم السائدة.

ومن تلك الرحلات والأرصاد المتتابعة نستطيع اليوم تقديم معلومات جيدة ودقيقة وموثقة، وهي في الحقيقة حصيلة كل جهود الراصدين له، وكل مرحلة قدمت ما استطاعت أن تقدم حسب تطورها، لكن المرحلة الحديثة وبفضل تطور العلم والتكنولوجيا من أقمار صناعية ومركبات فضائية استطاعت أن تقدم الكثير الكثير من الإنجازات العلمية للقمر.

والقمر لا يملك غلافاً جوياً، ودرجة حرارته تختلف من المنطقة التي تواجه الشمس إلى منطقة الظل، ففي المنطقة الأولى تصل الحرارة إلى ١١٠ درجات مئوية نهاراً، وتصل منطقة

الظل نحو ١٨٠ درجة مئوية تحت الصفر ليلاً، وسبب الفارق بين الحرارة والبرودة يرجع إلى وصول حرارة الشمس إلى سطح القمر نهاراً دون أي حجاب جوي، فتتبدد سريعاً في الليل ليصبح في النهاية ليلاً بارداً جداً.

ولأن كتلة القمر صغيرة صارت جاذبيته ضعيفة قياساً بجاذبية الأرض فهي سدس جاذبية الأرض، والذي يزن على سطح الأرض ٦٠ كليوغراماً يزن على سطح القمر ١٠ كيلوغرامات. وبذلك لا يستطيع الكائن الحي المشي بسهولة كما يمشي على الأرض، وقد احتاج رواد الفضاء الذين نزلوا على سطحه نوعاً خاصاً من الأحذية.

أما سرعة الإفلات من جاذبية القمر فهي في حدود ٢.٤ كيلومترات في الثانية الواحدة، وهذا الضعف الجاذبي أدى إلى هروب الغلاف الجوي القمري، وعدم وجود الغلاف الغازي عرَّض القمر إلى جميع أنواع الإشعاعات والصدمات النيزكية.

يتكون سطح القمر من تكوينات متنوعة، وقد كشفت لنا المركبات الفضائية أن سطح القمر كثير الغبار يحتوي على هضاب مغطاة بالفوهات الناشئة عن صدمات الأحجار النيزكية، ومنخفضات تمتلئ فوهاتها الكبيرة بالحمم البركانية المتصلّبة مُشكّلة مناطق داكنة تُسمّى اصطلاحاً (البحار) وهي ليست بحاراً، وتوجد البحار بشكل رئيسي في الجانب القريب (المرئي) من القمر، والذي يتميز عن الجانب البعيد غير المرئي بقشرة أرق، يحيط بالعديد من الفوهات سلاسل جبلية كالجدران لها ويصل ارتفاع بعضها إلى آلاف الأمتار.

وهناك معلومات أخرى كشفت عنها الأجهزة الفضائية المتطورة لا مجال لذكرها هنا[1].

١ - القمر في القرآن الكريم:

يحتل القمر (قمر الأرض) في القرآن الكريم مكانة خاصة، لم تنلها المواد السماوية الأخرى أو تقرب منه.

مكانة لم تنلها حتى الشمس التوأم الظاهري للقمر، فعلى الرغم من الأهمية الكبيرة التي يوليها القرآن الكريم للشمس، ووروردها ٣٣ مرة فيه إلا أن القمر نافسها في حضوره بالقرآن، فقد ورد ٢٧ مرة، لكنه زاد على الشمس بارتباطه المباشر بعددٍ أكبر من المسائل الشرعية والحياتية، ومن ذلك مثلاً: ورود القمر أساساً للتقويم الهجري أو الإسلامي الذي اعتمده الإسلام في عدد من أحكامه وأموره. وقد ترتب على ذلك ذكر القرآن لبعض شهوره وأهلّته المرتبطة بالحج والصوم وأمور أخرى، وهذا ما لم تَحظَ به الشمس.

---

(١) للمزيد من التفصيلات عن القمر، انظر كتابنا: المنظومة الشمسية تراث تأسيسي وحاضر مثير، موضوع: القمر أقرب التوابع: ص١٦٧ - ١٨٠. وانظر أيضاً كتابنا: قاموس دار العلم الفلكي، مادة القمر: ص٣٧١.

لقد ورد القمر في القرآن الكريم مادة فلكية كونية وبمواصفات وخصائص وحالات علمية متنوعة، وفي كل ما ورد لا يتقاطع مع الدراسات الفلكية القمرية العلمية، والأصح لا تتقاطع هي معه أبداً.

لقد ذكر القرآن الكريم هذا الجرم السماوي الوديع قمراً علمياً واضحاً قابلاً للدراسة والبحث والرصد، يتحرك في مدار أو فلك سماوي محدد كسائر الأجرام الأخرى، بل هو أسهل ملاحظة ورصداً لقربه من أمه الأرض. وليس معبوداً ولا إلهاً ولا مقدساً ولا موضوعاً من موضوعات التنجيم والخرافات يستخدمه المنجمون لتحديد أعمار الناس والبلدان والممالك. إنه جرم سماوي عادي يمكن التعامل معه تعاملاً علمياً ومعرفياً على كثير من الدقة والوضوح كسائر مخلوقات الله الواضحة.

والقمر مخلوق سماوي كسائر المخلوقات السماوية أو الأرضية خلقه الله تعالى بعد أن لم يكن، وله أجل محدد وسينتهي في وقت محدد أيضاً، وقد ذكر القرآن الكريم هذا الخلق بقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[1].

وإذا كان مخلوقاً فلا تجوز عبادته، فالله سبحانه وتعالى خالقه، ويجب السجود لله تعالى، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[2].

وهو جرم كوني سخره الله سبحانه وتعالى كما سخر الشمس والنجوم ومخلوقاته الأخرى. سخره لعباده ولأغراض عديدة، ولولا هذا التسخير لحدث خلل في الحياة البشرية. قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[3].

وهو مطيع لربه يسجد له كما تسجد له المخلوقات الأخرى، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ... ﴾[4].

وهو يسبّح لله كما تسبح له المخلوقات الأخرى، قال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ... ﴾[5].

ومن منافع تسخيره لخدمة عباد الله تعالى على الأرض أن جعل الله تعالى إشعاع القمر نوراً هادئاً انسيابياً ينسجم وطبيعة الليل الهادئ، خلافاً لضوء الشمس السراجي الناري الوهاج الذي ينسجم وطبيعة النهار.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٣.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٧.
(٣) سورة النحل، الآية: ١٢.
(٤) سورة الحج، الآية: ١٨.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

فقد ذكر القرآن الكريم أنَّ الشمس ضياء وسراج وهاج والقمر نور وليس سراجاً ولا وهاجاً، مفرقاً بين ما تبثه الشمس من ضوء وما يبثه القمر من نور. وفي الفرق بين ضوء الشمس ونور القمر قال تعالى: ﴿... وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾[١]، وقد ذكرنا ذلك آنفاً[٢].

ومن منافع القمر أيضاً معرفة حساب الزمن وتنظيم التقويم، فمن خلال وضوح القمر وحركاته، يحسب أهل الأرض أيامهم وشهورهم وسنتهم، فالقمر يجري في فلك محدد دون أيّ تداخل وتصادم مع الأفلاك الأخرى، أي يدور حول الكرة الأرضية في مدار خاص به، وفي الوقت نفسه يدور مع الأرض في مدار آخر حول الشمس. وقد ذكر القرآن الكريم حركة القمر وجريانه في فلكه الخاص بقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[٣].

ومن حركة أو جريان القمر في السماء واقترانه بالأرض والشمس يظهر القمر على شكل أهلّة، يبدأ بهلال ضعيف ثم يصبح نصف كرة ثم كرة كاملة (بدراً) ثم يعود نصف كرة ثم هلالاً من جديد ليتمّم (شهراً قمرياً) واحداً.

ومن جمع اثنتي عشرة دورة للقمر حول الأرض تتكون السنة (السنة القمرية)، وهي التي أكدها القرآن الكريم من خلال أكثر من آية قرآنية.

قال سبحانه وتعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ...﴾[٤].

وقال تعالى أيضاً: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ...﴾[٥].

وذكر القرآن الكريم النهاية المحتومة للقمر، فهو مخلوق له بداية ونهاية كسائر المخلوقات، وستقع ضمن الانهيارات الكونية الكبرى: السماء والنجوم والشمس والقمر والأرض. وقد ذكر القرآن تلك النهاية في أكثر من آية قال تعالى: ﴿... وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ...﴾[٦].

ولا نعرف متى سيكون هذا الأجل المسمى (المحدد) الذي قدّره الله تعالى للقمر وغيره من الأجرام السماوية المتنوعة.

وفي ذلك الوقت (يوم القيامة) سينخسف القمر ويذهب نوره وتُجمع الشمس والقمر، ولا مفر من ذلك. قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾[٧].

---

(١) سورة الفرقان، الآية ٦١.

(٢) انظر: الشمس في القرآن الكريم (الفصل الخامس).

(٣) سورة يس، الآيات: ٣٨ ـ ٤٠.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

(٦) سورة فاطر، الآية: ١٣.

(٧) سورة القيامة، الآيات: ٧ ـ ١٠.

٢ ـ القمر عند الإمام (ع):

ومثل حضور الشمس في خطب وأحاديث الإمام أمير المؤمنين عليّ (ع)، كان القمر الأرضي حاضراً في خطبه وأحاديثه، وإذا كان حضور القمر في سماء الليل فقط، كان قمر الإمام (ع) حاضراً في النهار والليل، كان حاضراً في خطبه وأحاديثه وأقواله أينما كان الإمام وفي أي وقت من الأوقات.

وقد ورد القمر الأرضي عند الإمام علي (ع) في نهج البلاغة وحده ثماني مرات، وفي المصادر والمراجع الأخرى عدداً آخر من المرّات، وفي كل ما ورد، ورد قمراً علمياً حقيقياً، بعيداً عن أفكار المنجمين والمشعوذين والدجالين، وفي الوقت نفسه ورد مادة أدبية بلاغية من جنس بلاغة الإمام الغنية عن التعريف[١].

والقمر في خطب الإمام وأحاديثه وأقواله مادة فلكية حقيقية، فهو جرم سماوي له خصائصه وفرادته في سماء الليل، كما هو قمر علماء الفلك والكون تماماً، وليس كقمر المنجمين الذين يتخذون من مواقعه واقتراناته وطبيعته المزعومة مادة للتكسب بها.

ولذلك فرق الإمام (ع) بين القمر السماوي الحقيقي الذي ذكره القرآن وذكره في خطبه وأحاديثه وأقواله، وبين قمر المنجمين والمتنبئين وأشباههم. فحين (وقيل لعليّ (ع) لا تحاربهم اليوم، فإن القمر في العقرب[٢]، فقال: قمرنا أم قمرهم)[٣]. وهو كلام واضح يؤكد الفرق بين فكرة القمر عند الإمام (ع) وفكرة القمر عند الآخرين، وخاصة قمر المنجمين والمتنبئين.

وعلى أساس فهم الإمام (ع) العلمي للقمر دعا للنظر الميداني المباشر إليه، كما دعا إلى الأجرام السماوية الأخرى. والنظر الميداني المباشر إلى جرم سماوي واضح كالقمر يزيد المعرفة بالسماء والكون، وخاصة إذا كان الجرم السماوي المرصود قريباً من الراصد أو الناظر، قال الإمام علي (ع): (فانظروا إلى الشمس والقمر...)[٤]، وهذه قراءة علمية صحيحة للأجرام السماوية.

وحين يتحدث الإمام علي (ع) عن قمر الأرض لا يصفه بالسراج الوهاج المشتعل والمضيء كما في وصف الشمس السراجية وإنما هو جرم منير ينساب نوره انسياباً، قال (ع): (وأجرى فيها ـ أي في السماء ـ سراجاً مستطيراً وقمراً منيراً)[٥].

وعند حديثنا عن الشمس عند الإمام علي (ع) ذكرنا معنى السراج المشتعل الذي يبث حرارة وضوءاً ساطعاً، والقمر ليس كذلك، وإنما يسيل نوره هادئاً انسيابياً ينسجم وطبيعة الليل الهادئ والساكن، ولا ينسجم مع طبيعة النهار الصاخب ولذلك لا يرى فيه.

---

(١) ومن ذلك مثلاً: قوله (ع): (ولا استطاعت جلابيب سواد الحنادس أن ترد ما شاع في السماوات من تلألؤ نور القمر)، نهج البلاغة، الخطبة ١٨٢: ص٢٦١.

(٢) أي برج العقرب، وهو أحد أبراج دائرة البروج الاثني عشر.

(٣) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج١٩ ص٢٢٣.

(٤) المرجع السابق، الخطبة ١٨٥: ص٢٧١.

(٥) المرجع السابق، الخطبة ١: ص٤١.

وقد ذكر الإمام علي نورية القمر وانسيابيته وهدوءه في عدد من كلماته منها: قوله (ع): (يتفيأ عليه القمر المنير)[١]، وقوله أيضاً: (تلألؤ نور القمر)[٢]، إضافة إلى النص السابق (وقمراً منيراً) وغيرها في أماكن أخرى، واصفاً القمر بالإنارة كما القرآن تماماً.

وقمر الإمام علي (ع) يجري في السماء في فلك خاص به، كما تجري الأجرام السماوية الأخرى، وهو في الحسابات الفلكية القديمة أقرب الأفلاك إلى الأرض المركز في ذلك الزمن القديم، وأقرب الأجرام السماوية إلى الكرة الأرضية أيضاً في الفلك الحديث، لا يحيد عن جريانه ولا يضطرب في حركته حول الأرض، كما قال سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ ...﴾[٣].

وقد ذكر الإمام علي (ع) أيضاً حركة القمر أو جريانه في فلكه أو مداره بقوله: (اللهم رب السقف المرفوع والجو المكفوف الذي جعلته مغيضاً لليل والنهار ومجرى للشمس والقمر...)[٤].

وقوله أيضاً: (وجعلهما - أي الشمس والقمر - يجريان في الفلك)[٥]، وكلمة يجريان في الفلك لا مع الفلك دليل على الاستقلالية في الجريان والسير، خلافاً للقائلين بأن الجرم يجري مع الفلك كما أشرنا آنفاً.

وحين يجري القمر في السماء دون توقف، دون كلل ولا ملل، يجري امتثالاً لأمر الله تعالى، وإطاعة لمرضاته سبحانه وتعالى، قال الإمام (ع): (والشمس والقمر دائبان في مرضاته)[٦].

وفي إحدى خطب الإمام علي (ع)، ذكر الظلمة التي في وجه القمر بقوله: (وقمرها آية ممحوة من ليلها)[٧]، أي يمحى ضوؤها في بعض أطراف الليل في أوقات من الشهر، وفي جميع الليل أياماً منه.

وحين قال القائل للإمام علي (ع): (فحدثني عن هذا المحق الذي في القمر ما هو؟ قال: قال الله: ﴿... فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ...﴾[٨]. كان ضوء القمر مثل ضوء الشمس فمحاه الله)[٩].

وهناك إشارات قمرية علمية أخرى يمكن أن يلتقطها الباحث من خلال أحاديث الإمام علي (ع).

---

(١) المرجع السابق، الخطبة ١٦٣: ص٢٣٣.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٢: ص٢٦١.

(٣) سورة يس، الآية: ٤٠.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة ١٧١: ص٢٤٥.

(٥) بحار الأنوار، المجلسي: ج٥٤ ص٩٣.

(٦) نهج البلاغة، الخطبة ٩٠: ص١٢٣.

(٧) نهج البلاغة، الخطبة ٩١: ص١٢٨.

(٨) سورة الإسراء، الآية: ١٢.

(٩) المعيار والموازنة، أبو جعفر الاسكافي: ص ٢٩٩ - ٣٠٠.

الفصل السابع
الكرة الأرضية

الأرض أو الكرة الأرضية مهد الإنسان يترعرع فيها ويكبر ثم يموت بين ثناياها، مودعاً كل ما فيها، تاركاً كل شيء، ليذهب إلى حيث يريد ربه.

والأرض مادة علمية يمكن أن يقرأها الباحث من جوانب مختلفة، يقرؤها مادة جغرافية أو جيولوجية أو اقتصادية أو فلكية أو غير ذلك، كل حسب اختصاصه.

وعندما يقرؤها الباحث أو العالم كرةً سماويةً ضمن الكرات أو الأجرام السماوية المنتشرة في أرجاء السماء يقرؤها قراءة فلكية كونية وهي في حساب علم الفلك والكون جرم سماوي تابع لتابع (تابع للشمس والشمس تابعة للمجرة).

والأرض جرم صغير قياساً بالكواكب السيّارة الكبيرة، وسائر نجوم السماء، وكبيرة بالنسبة لنا أهل الأرض وأشياء الأرض الأخرى.

وهي كوكب سيّار ضمن الكواكب السيّارة التسعة أو الثمانية، تدور حول أمها الشمس. والأرض ذات خصائص فريدة لا توجد في غيرها، ومن أهمها وجود الماء والهواء الضروريين لإمكان الحياة على سطحها.

والأرض كرة سماوية زرقاء ساطعة جميلة المنظر للناظر إليها من الفضاء، تعكس نحو ثلث ضوء الشمس الساقط عليها، وتبدو كتل اليابسة البنية بوضوح، وكذلك المحيطات الزرقاء التي تغطي نحو ٧٠٪ من سطح الأرض، كما يمكن مشاهدة سحب كثيرة في غلافها الجوي.

والكرة الأرضية ثالث الكواكب بُعداً عن الشمس، وأكبر الكواكب الصخرية، يبلغ قطرها نحو ١٢.٧٥٦ كيلومتراً، ومتوسط بعدها عن الشمس نحو ١٤٩.٦٠٠.٠٠٠ كيلومتر، وسرعتها المدارية حول الشمس نحو ٢٩.٧٩ كيلومتراً في الثانية، ومدة دورتها حول الشمس يبلغ ٣٦٥.٢٦ يوماً (سنتها). أما دورتها حو ل نفسها (يومها) فيبلغ ٢٣ ساعة و٥٦ دقيقة.

يلف الأرض غلاف غازي فريد من نوعه يسمح بوجود الحياة على سطحها، ويتكون أساساً من ٧٧٪ من النيتروجين و٢١٪ من الأوكسجين بالإضافة إلى غازات أخرى وغبار وبخار.

وجوّ الأرض رقيق بالمقارنة مع جو كوكب الزهرة الكثيف جداً، بحيث يخترقه ضوء الشمس، لكنه في الوقت نفسه سميك بما فيه الكفاية ليحجب إشعاعات الشمس الأخرى المؤذية، فمعظم الأشعة فوق البنفسجية الخطرة على حياة البشر ترشح عبره، وَيُبطئ جو الأرض سرعة الأحجار النيزكية الصخرية الصغيرة ويبخرها.

أما بنية الأرض فتتكون في الأساس من الحديد الثقيل في الباطن، وهو النواة الصلبة، يحيط بها دثار صخري مائع، ثم يأتي الغلاف الصخري (الوشاح) لتعلوها الصخور الأخف منها في القشرة الخارجية.

والكرة الأرضية جرم نشط، سطحه دائم التغيّر، فقشرة الأرض تتكون من ألواح هائلة متحركة، تحدث البراكين والهزات الأرضية عندما تتصادم هذه الألواح أو يحتك بعضها مع بعض أو ينزلق بعضها تحت بعض، ويلازم ذلك عادة تدفق المادة المنصهرة نحو السطح الخارجي، وبذلك تجدد القشرة نفسها على الدوام.

والمادة الأساسية للكرة الأرضية هي من مادة السماء والكون والأجرام السماوية الأخرى فهي مؤلفة من العناصر المعروفة الموجودة في الكون، وإن اختلفت النسب بين الأجرام المختلفة، فمثلاً يكثر الهيدروجين في الشمس والنجوم، ويقل في الأرض.

وتقع الكرة الأرضية ضمن النظام الشمسي (بيتنا الكبير) وهي وهذا النظام المكون من الشمس والكواكب السيّارة والأجرام الثانوية يقعون في إحدى أذرع مجرة درب التبانة (بيتنا الأكبر) - في ذراع الجبار - وتدور الأرض مع أخواتها الكواكب وأمها الشمس حول مركز المجرة، والتي هي كذلك تجري في السماء متباعدة عن أخواتها المجرّات الأخرى، ولا نعرف أين تقع الآن إلا من خلال المجرّات الأخرى.

١ - الكرة الأرضية في القرآن الكريم:

الأرض جز من الكون، والأرض والسماء وما بينهما هي كل الكون على ما ورد في القرآن الكريم، وحين نقرأ الأرض في القرآن يُمكن أن نقرأها من جوانب مختلفة. وحيث إن دراستنا هي الأرض من جانبها الفلكي، فسنحاول أن نقرأ موجز ما ورد عن الكرة الأرضية في القرآن الكريم.

وقد وردت الأرض بكثرة واضحة، ٤٦١ مرة، أغلبها بالألف واللام وقليل منها بدون ألف ولام. وفي كل ما وردت كانت مادة علمية يمكن دراستها وسبر أغوارها ومعرفة جوانبها المتعددة.

وردت الأرض مادة كونية دقيقة موصوفة بأدق الأوصاف، ومن خلال القرآن عرفنا أنها مدورة مكورة ومتحركة وحاملة جبالها رواسي عليها لتثبيتها، ومواصفات أخرى، وإن كانت معرفة بعض مواصفاتها غير متاحة للجميع.

والأرض في القرآن الكريم أولاً هي مخلوق من مخلوقات الله سبحانه وتعالى الهائلة، خلقها الله بعد إن لم تكن، وقد ورد هذا الخلق بعبارات: خلق، فطر، أبدع أو مشتقاتها أو ما يقارب ذلك. ومن الآيات التي ذكرت خلقها قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ...﴾[2].

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٤.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١١.

وقوله سبحانه تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[١].

وبهذه الآيات وأمثالها قطع القرآن الشك باليَقين منهياً الجدل الطويل حول أزلية الكون (السماوات والأرض).

ومن اهتمام القرآن الكريم بالأرض أكد النظر إليها والسير في أرجائها والتفكر فيها لمعرفة أسرارها والمزيد من أخبارها وخباياها. قال عز وجل: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾[٢].

وقال أيضاً: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ... ﴾[٣].

وقال تعالى أيضاً: ﴿ ...وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ ... ﴾[٤].

والأرض قرار ومستقر للإنسان ليقوم بأعماله فيها وينجز إنجازاته طيلة حياته قال سبحانه وتعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا ... ﴾[٥]، وهي قائمة بأمر الله سبحانه وتعالى أو قوانينه، وليست على قرن ثور أو على سلحفاة وما إلى ذلك مما تصوره الأساطير القديمة. قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾[٦].

وقد ثبَّتت الجبال الرواسي الكرة الأرضية عن المَيدان والاضطراب، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ... ﴾[٧].

وفي القرآن الكريم أكثر من إشارة إلى كروية الأرض، ويمكن للقارئ أو الباحث أن يقرأ شكل الأرض من جانبين، الجانب الفطري العادي، والجانب العلمي. فمن خلال الجانب الفطري يرى الإنسان الأرض مسطحة ممدودة على شكل فِراش قال تعالى: ﴿ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾[٨]، وقال تعالى أيضاً: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ ... ﴾[٩]، وقال أيضاً: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ... ﴾[١٠].

هذا هو النظر الفطري الحسي، وهو نظر صحيح يعيشه كل إنسان، عالماً كان أم جاهلاً، فنحن على سطحها لا نحس بكرويتها، والجسم الكروي كالأرض وأمثالها عندما

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٧.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٢٠.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٢٠.

(٤) سورة آل عمران، الآية ١٩١.

(٥) سورة النمل، الآية: ٦١.

(٦) سورة الروم، الآية: ٢٥.

(٧) سورة النحل، الآية: ١٥.

(٨) سورة الغاشية، الآية: ٢٠.

(٩) سورة الرعد، الآية: ٣.

(١٠) سورة البقرة، الآية: ٢٢.

يكبر لا يمكن ملاحظة الاستدارة والانحناء على سطحه وذلك لا يعارض الجانب العلمي، كرويتها واستدارتها الحقيقية.

وقد أوَّلَ الفيلسوف صدر الدين الشيرازي المتوفى سنة ١٠٥٩ هـ وغيره من الحكماء والمفسرين كلمة الفراش الواردة في الآية: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ... ﴾ المذكورة آنفاً، على وفق كروية الأرض العلمية. يقول: (وليس من ضرورات الافتراش أن يكون مسطحاً مستوياً بل يسهل الافتراش على سطح الكرة إذا عظم جرمها وتباعدت أطرافها)[١].

ومع هذا الجانب الفطري العادي نستطيع العثور على الجانب العلمي الخفي في قراءة الأرض. ففي القرآن الكريم أكثر من إشارة إلى كروية الأرض، فالآية الشريفة التالية تدل أو يمكن أن تدل على كروية الأرض، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ ... يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ... ﴾[٢].

وفي هذه الآية الشريفة ما يشير إلى كروية الأرض بكروية جوّها وغلافها الخارجي، الذي يشغله ويتناوبه الليل والنهار على التجدد في كل بقعة من بقاع الكرة الأرضية.

فالتكوير يعني لف الشيء على آخر في اتجاه مستدير[٣]، وانتشار ضوء النهار على مكان الليل انتشار بشكل مستدير، ومثله انتشار الظلام على النهار. وعلى هذا فالتكوير لا يكتمل معناه إلا مع كروية الأرض.

ومن الآيات الكريمة الأخرى التي تدل على كروية الأرض ولو بشكل غير مباشر، قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴾[٤].

إن كثرة المشارق والمغارب للأرض له دلالة على كروية الأرض. فالأرض المسطحة والمنبسطة لا مشارق فيها ولا مغارب. وإنما تشرق الشمس عليها دفعة واحدة.

وفي القرآن الكريم إشارات أو تلميحات إلى حركتي الأرض الانتقالية والوضعية، فحول الحركة الانتقالية (أي دورانها في فلك) أشار القرآن إلى أن كل جرم في هذا الكون له فلك خاص به، يقول تعالى: ﴿ ... كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[٥]. وإذا كان الكل يسبح في فلك فلماذا نخرج الأرض من هذا الكل؟ يقول الفخر الرازي في تفسير (كلّ) في الآية (وعند قولك (كلّ) تُثبت الأمر على العموم وتتركه عليه)[٦].

---

(١) الحكمة المتعالية، صدر الدين الشيرازي: ج٢ من السفر الثالث: ص١٣٤-١٣٥.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٥.

(٣) المصباح المنير، الفيومي: ص٥٤٣.

(٤) سورة المعارج، الآية: ٤٠.

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٣٣.

(٦) تفسير الفخر الرازي، الرازي: مج١٣ ج٢٦ ص٧٤.

أما الحركة الوضعية (حول نفسها) فيمكن التقاطها من الآية الشريفة التالية: ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ... ﴾[١].

فمن دقة ونعُومة دوران الأرض حول نفسها نحْسب الجبال ومعالم الأرض الأخرى جامدة، إضافة إلى ذلك أن الأرض وهي تتحرك حول نفسها لا تترك السحب والغيوم ثابتة من حيث هي، وإنما هي وكل ما في الجو الأرضي يلحقها، أي يلحق الجبال أثناء مسيرها. هذا ما يمكن فهمه من الآية الشريفة.

وهنا آيات أخرى تدل من بعيد أو قريب على حركة الأرض.

وسيأتي الفناء على الأرض في وقت ما، مقولة قالها القرآن صريحة في عدد من آياته الشريفة، فناء ضمن الفناءات الكونية العامة.

قال تعالى: ﴿... حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ... ﴾[٢].

وقال أيضاً: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ... ﴾[٣].

وقال تعالى أيضاً: ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ﴾[٤].

٢ ـ الكرة الأرضية عند الإمام (ع):

كان الإمام أمير المؤمنين علي (ع) عالماً بالأرض كما كان عالماً بالسماء، وان كان بالسماء أعلم منه بالأرض كما في كلمته الشهيرة: (فلأنا بطرق السماء أعلم منّي بطرق الأرض) المذكورة آنفاً.

ومن خلال كلام الإمام علي (ع) وموسوعيته العلمية والفكرية كان علمه بالأرض وأهل الأرض عريضاً وعلى مختلف مستوياتها وجوانبها، فقد تحدث عن جانبها الجغرافي والطبيعي والزراعي والحيواني والبشري وما إلى ذلك.

وعن جانبها الفلكي وصف الإمام (ع) الأرض جرماً كونياً مخلوقاً مطيعاً لله سبحانه وتعالى معلقاً في الهواء ومتحركاً، وله نهاية كسائر مخلوقات الله تعالى.

فأرض الإمام علي (ع) مادة علمية طبيعية جغرافية جيولوجية كونية ذات جبال وسهول، قال الإمام علي (ع): (فَأَنْهِدَ جبالها عن سهولها)[٥]، ولها طول وعرض، قال الإمام (ع): (من الأرض ذات الطول والعرض)[٦]، ولها مواصفات طبيعية أخرى، وتخضع لكل ما تخضع له مواد الطبيعة الأخرى.

---

(١) سورة النمل، الآية: ٨٨.
(٢) سورة يونس، الآية: ٢٤.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.
(٤) سورة الواقعة، الآيات: ٤ـ٦.
(٥) نهج البلاغة، الخطبة ٢١١: ص٣٢٨.
(٦) المرجع السابق، الخطبة ٨٣: ص١١٤.

جعلها الله سبحانه وتعالى مستقراً لحياة الإنسان ومسيرته الحضارية والدينية، وأمره أن ينظر إلى جوانبها المختلفة، كيف بدأت، كيف احتضنت الحضارات والأمم؟

والأرض مخلوق من مخلوقات الله الكثيرة، ففي كثير من أحاديث وأقوال الإمام علي (ع) ذكر مخلوقية الأرض، وان الله سبحانه وتعالى خلقها بالحق، كما هي حال المخلوقات الأخرى، لم تكن ثم كانت، قال الإمام (ع): (ولم يُنزل الكتابَ للعباد عبثاً، ولا خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً)[١]. فالله تعالى هو الذي خلقها وأنشأها إنشاءً، قال الإمام (ع): (وأنشأ الأرض فأمسكها من غير اشتغال...)[٢]، وقال أيضاً: (ورب هذه الأرض التي جعلتها قراراً للأنام)[٣]. لقد خلقها لعباده لتكون مستقراً وقراراً في هذه الحياة.

وذكر إطاعة الأرض لربها بقوله (ع): (ألا وان الأرض التي تُقلكم والسماء التي تظلكم مطيعتان لربكم)[٤].

لقد تحدث الإمام علي (ع) عن الأرض حديثاً علمياً دقيقاً لا تشم منه أيّ رائحة للخرافات والأوهام والأقوال التافهة كالأفكار الخطأ التي تقول إن الأرض قائمة على قرن ثور وما شابه ذلك من الأوهام والأقوال غير العلمية.

فالأرض عند الإمام علي (ع) جرم كوني واقعي له مواصفاته وخصائصه، أرساها الله سبحانه وتعالى على غير قرار وأقامها دون قوائم، ورفعها بغير دعائم وأعمدة، وصانها من الاعوجاج والالتواء، ومنعها من السقوط والانشقاق، وماسكها وثبتها بالجبال الرواسي، وهي في كل حالاتها مادة طبيعية محكمة الصنع تحت رعاية خالقها المطلق وعينه التي لا تنام.

وقد جمع الإمام علي (ع) مواصفات وحالات الأرض هذه في نص علمي بلاغي قال الإمام: (وأنشأ الأرض فأمسكها من غير اشتغال، وأرساها على غير قرار، وأقامها بغير قوائم، ورفعها بغير دعائم، وحصنها من الأود والاعوجاج، ومنعها من التهافت والانفراج. أرسى أوتادها وضرب أسدادها، واستفاض عيونها وخدّ أوديتها، فلم يهن ما بناه ولا ضعف ما قوّاه، هو الظاهر عليها بسلطانه وعظمته، وهو الباطن لها بعلمه ومعرفته، والعالي على كل شيء منها بجلاله وعزته)[٥].

---

(١) نهج البلاغة، الحكم ٧٨: ص٤٨١.

(٢) المرجع السابق، الخطبة ١٨٦: ص٢٧٤.

(٣) المرجع السابق، الخطبة ١٧١: ص٢٤٥.

(٤) المرجع السابق، الخطبة ١٤٣: ص١٩٩.

(٥) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٦: ص٢٧٤ - ٢٧٥.

وإضافة إلى ما ذكر الإمام علي (ع) من مواصفات وخصائص صريحة للأرض، أشار من قريب أو بعيد إلى كروية الأرض، في بعض كلامه، ومن تلك الإشارات إيمانه بوجود عدد من المشارق والمغارب للأرض، كما القرآن تماماً، وهذا يدل على معرفة الإمام بكروية الأرض.

قال الإمام (ع): (وظلاله (أي عيسى) في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها)[١]. إن تعدد المشارق والمغارب دليل أو أدلة على كروية الأرض. فالأرض المسطحة المنبسطة لا مشارق فيها ولا مغارب، وإنما تشرق الشمس عليها دفعة واحدة وتغرب عنها دفعة واحدة أيضاً كما ذكرنا ذلك.

وذكر الإمام علي (ع) حركة الأرض أو الكرة الأرضية أو حركاتها كما هي في حقيقتها العلمية والفلكية، ذكر ذلك في أكثر من موضع في كلماته وأقواله (ع)، ويمكن أن نذكر من ذلك (حركتها).

بقوله (ع): (فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها، أو تسيخ بحملها، أو تزول عن مواضعها، فسبحان من أمسكها بعد موجان مياهها، وأجمدها بعد رطوبة أكنافها فجعلها لخلقه مهاداً)[٢].

وقوله (ع) في (حركاتها): (وعدّل حركاتها بالراسيات من جلاميدها، وذوات الشناخيب الشم من صياخيدها، فسكنت من الميدان لرسوب الجبال في قطع أديمها)[٣].

وفي هذين النصين ذكر الإمام (ع) متانة الأرض وانتظامها وانسيابها في حركاتها، ثم ذكر دور الجبال الرواسي في ثبات الأرض واستقرارها وانتظامها.

وفي موضع آخر من أقواله يؤكد الإمام (ع) دور الجبال هذا بقوله: (ورب الجبال الرواسي التي جعلتها للأرض أوتاداً)[٤].

وقوله أيضاً: (وجعلها للأرض عماداً وأرّزها فيها أوتاداً)[٥].

والأرض بعد ذلك كله فانية زائلة ستنتهي وينتهي كل الكون...

قال الإمام (ع): (حتى إذا بلغ الكتاب أجله والأمر مقاديره وأُلحق آخر الخلق بأوله، وجاء من أمر الله ما يريده من تجديد خلقه، أماد السماء وفطرها وارجَّ الأرض وارجفها وقلع جبالها ونسفها، ودك بعضها بعضاً من هيبة جلالته ومخوف سطوته...)[٦].

---

(١) المرجع السابق، الخطبة ١٦٠: ص٢٢٧.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٢١١: ٣٢٨.

(٣) المرجع السابق، الخطبة ٩١: ص١٣٢.

(٤) المرجع السابق، الخطبة ١٧١: ص٢٤٥.

(٥) المرجع السابق، الخطبة ٢١١: ص٣٢٨.

(٦) المرجع السابق، الخطبة ١٠٩: ١٦١.

الفصل الثامن

كواكب النظام الشمسي

يضم النظام الشمسي solar system عدداً متنوعاً من الأجرام السماوية، تدور حول محور أساسي يقع في وسط هذا النظام تقريباً، يعرف هذا المحور بالشمس، وهي الأم أو كالأم التي تجمع أبناءها حولها، دائرين خاضعين لقوتها يجرون دون توقف.

والشمس الأم تنتمي إلى النجوم السماوية، فهي كتلة غازية نارية تحول الهيدروجين إلى هليوم منتجة ناراً وضوءاً وإشعاعات مختلفة (وقد تحدثنا عنها آنفاً).

والأبناء متنوعون: كواكب سيّارة، أقمار تابعة كويكبات أحجار نيزكية مذنبات ومواد كونية أخرى، وهم من غير جنس الشمس الأم لا ينتمون إلى الأم النارية.

والكواكب أو الكواكب السيّارة planet هي أهم أبناء أو أعضاء النظام الشمسي، وعددها تسعة كواكب وهي بالتسلسل من الأقرب إلى الأبعد، عُطارد، الزهرة، الأرض، المريخ، المشتري، زحل، اورانوس، نبتون، بلوتو.

والكوكب السيّار جرم سماوي صخري أو غازي أو شبه غازي يكتسب نوره من جرم مضيء بذاته كالشمس أو النجوم السماوية ثم يعكسه.

والكواكب السيارة هي أهم الأجرام السماوية - بعد الشمس والقمر - بالنسبة إلى أهل الأرض، فهي الأقرب والأوضح، وهي الجارات القريبة لنا، إذا ما قارناها بالنجوم البعيدة، وقد أدرك الإنسان ذلك منذ القدم، منذ لاحظها أول مرة في التاريخ.

وفي التراث الإسلامي اهتم الفلكيون المسلمون بالكواكب السيارة الخمسة المعروفة لديهم (عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل) وميّزوها بشكل دقيق وواضح عن النجوم الثابتة، من خلال حركاتها المنفردة بين النجوم، وأضوائها الثابتة قياساً بأضواء النجوم المتلألئة.

وقد وردت كلمة (الكوكب والنجم) في تراثنا العلمي للدلالة على النجوم السماوية التي اصطلحوا عليها (النجوم الثابتة) ولم تشع كلمة الكوكب على الكوكب السيّار كما في الوقت الحالي. وكان يطلق على الكوكب السيار قديماً مصطلح: (سيار) أو (سيارات)، أو (نجوم سيارة) أو (كواكب سيارة) أحياناً أو (الكواكب المتحيرة) أو (النجوم المتحيرة) لتحيرها بين النجوم الثابتة التي تملأ السماء.

وفي البداية لم نكن نعرف أن النظام الشمسي له كيان مستقل معزول في نقطة معينة من الكون كما نعرف اليوم، ولم نعرف أن الكواكب السيارة تسعة، تدور حول الشمس، وكل ما نعرف أن هناك سبعة أفلاك تدور حول الأرض - المركز - ولكل فلك كوكب مغروس فيه كغرس الفص بالخاتم كما يقول القدماء. وهذه الأفلاك تتضمن الشمس والقمر، وخمسة كواكب سيارة، هي بالترتيب من الأدنى إلى الأرض كوكب عطارد، الزهرة، المريخ، المشتري، وزحل، وفوق الجميع النجوم.

وبدخول العصر الحديث والانقلاب الفلكي الذي فجرّه الفلكي البولندي كوبرنيكوس المتوفى سنة ١٥٤٣م بإحلال الشمس في مركز الكون ثم في مركز النظام الشمسي، وتطور الدراسات الفلكية، اكتشفت ثلاثة كواكب سيارة جديدة، هي: أورانوس، ونبتون، وبلوتو، اكتشفت ما وراء فلك زُحل، وكان اكتشافها بالتلسكوبات والحسابات الفلكية.

وباكتشاف هذه الكواكب الثلاثة الجديدة أصبحت الكواكبُ السيارة تسعة كواكب بدلاً من خمسة، تبتدئ بعطارد ثم الزهرة فالأرض فالمريخ فالمشتري فزُحل فاورانوس فنبتون فبلوتو[1]. كما ذكرنا آنفاً.

وهذه الكواكب التسعة تدور حول الشمس في مدارات اهليليجية، وفي الوقت نفسه تدور حول محاورها، والشمس وكواكبها وموادها الكونية الأخرى تعرْف بالنظام الشمسي. وهو نظام كوني مستقل يقع في نقطة ما في الكون وكواكبه اليوم مادة كونية معروفة علمياً، فهي أجرام صلبة أو شبه صلبة ويلتف حول بعضها أغلفة غازية، ولها جاذبيات محددة تتناسب وكتلها ولبعضها حلقات غازية، وهناك معلومات علمية وفرتها الأجهزة الفضائية[2].

١ ـ كواكب النظام الشمسي في القرآن الكريم:

لم يذكر القرآن الكريم النظام الشمسي أو المجموعة الشمسية بالاسم والمصطلح، ولا الكواكب السيّارة المكونات الأساسية لهذا النظام بأسمائها. وإنما ذكر القرآن بعضاً من عناصر هذا النظام الشمسي مما له علاقة بالهدف القرآني أو الأهداف القرآنية الإلهية.

فذكر الشمس والقمر والأرض وغيرها، وهي أدلة طبيعية قوية على وجود صانع مطلق أبدعها من العدم، وقد أتينا على ذكرها آنفاً.

وإذا لم يذكر القرآن الكريم أسماءها صراحة، فقد ورد ما يشير إليها أو يدل عليها، على ما يقول المفسرون.

وإذا ما ذكر القرآن الكريم كلمة الكوكب أو الكواكب بشكل صريح كما في بعض الآيات الشريفة فهي لم ترد بمعنى (الكوكب السيّار) الذي نريده في هذا البحث[3]، وإنما وردت بالمعنى العربي القديم الذي يدل على النجم السماوي كالشعرى والدبران

---

(١) الجدير بالذكر أن بلوتو أخرج من صفته كوكباً سياراً في آب سنة ٢٠٠٦م.

(٢) للمزيد راجع: المنظومة الشمسية تراث تأسيسي وحاضر مثير، عبد الأمير المؤمن، وفيه تفصيل وافٍ عن كل كوكب.

(٣) انظر: مادة الكوكب، قاموس دار العلم الفلكي، عبد الأمير المؤمن: ص٣٩٩.

والسماك الرامح وغيرها[١] من النجوم السماوية، إلا إذا قيّد (الكوكب) بالسيار أو المتحيّر وما شابه ذلك، وفي العموم يطلق على (الكواكب السيّارة) مصطلح (السيارات)[٢].

(وفي العصر الحديث تستعمل كلمة نجم أو نجمة للدلالة على جِرم سماوي كبير مضيء بنفسه، بينما تدل كلمة كوكب على جسم سماوي سيّار، أصغر حجماً من النجمة يدور حول نجمة ويتلقى منها النور. أما الأجسام الصغيرة التي تدور حول الكوكب فتسمى بالأقمار)[٣].

لقد وردت كلمة (الكوكب) و (الكواكب) في خمس آيات قرآنية، ثلاث مرات مفردة وهي قوله تعالى: ﴿...كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ...﴾[٤]، وقوله أيضاً: ﴿...إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا...﴾[٥]. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ...﴾[٦].

ووردت الكلمة جمعاً مرتين: قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾[٧]، وقال أيضاً: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾[٨].

هذا كل ما ورد عن لفظة (الكوكب والكواكب) في القرآن الكريم، ويظهر أن اللفظة جاءت بمعناها العام المعروف في التراث الفلكي الشامل (للنجوم والكواكب) أو النجوم وحدها.

وإذا لم نستطع أن نؤكد ورود (الكواكب السيّارة) في القرآن الكريم من خلال ألفاظ (الكوكب والكواكب) الواردة في القرآن، فقد ذكر لنا عموم المفسرين القدماء أن السيّارات (الكواكب السيّارة) وردت من خلال (الخُنَّس والكُنَّس) الواردتين في الآيتين الشريفتين من سورة التكوير: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾[٩].

فأهل اللغة القدماء يرون أن الخُنَّس هي عموم النجوم أو السيارات الخمسة المعروفة قديماً وهي: عطارد، الزهرة، المريخ، المشتري، زحل، فهي تخنس في مجاريها أي تغيب،

---

(١) انظر مادة الشعرى اليمانية: ص٢٧٨، والدبران: ص١٩٥، والسماك الرامح: ص٢٦٣، قاموس دار العلم الفلكي.

(٢) انظر مادة سيّارة، قاموس دار العلم الفلكي: ص٢٧٠.

(٣) موسوعة تاريخ العلوم العربية، إشراف رشدي راشد: ج١ ص٢٦.

(٤) سورة النور، الآية: ٣٥.

(٥) سورة يوسف، الآية: ٤.

(٦) سورة الإنعام، الآية: ٧٦.

(٧) سورة الصافات، الآية: ٦.

(٨) سورة الانفطار، الآية: ٢.

(٩) سورة التكوير، الآيتان: ١٥، ١٦.

وتكنس أي تتواري في بروجها كما تتواري الظباء في كناسها. يقول الفيروزآبادي في الخنس: (والخنس كركّع: الكواكب كلها أو السيارة أو النجوم الخمسة: زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد. وخنوسها: أنها تغيب كما يخنس الشيطان إذا ذكر الله عز وجل)[١].

ويقول في الكُنَّس: (كُنَس وكُنّس كركع والجواري الكُنَّس هي الخُنس لأنها تكنِس في المغيب، كالظباء في الكُنُس أو هي كل النجوم لأنها تبدو ليلاً وتختفي نهاراً)[٢].

ويقول الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ هجرية في تفسيره: (الخُنَّس الرواجع، بينما ترى النجم في آخر البرج إذا كرَّ راجعاً إلى أوله (والجوار) السيّارة، و (الكُنَّس) الغيب من كنس الوحشي إذا دخل كناسه. قيل: هي الدراري الخمسة: بهرام (أي المريخ) وزحل وعُطارد والزهرة والمشتري، تجري مع الشمس والقمر، وترجع حتى تختفي تحت ضوء الشمس، فخنوسها: رجوعها: وكنوسها: اختفاؤها تحت ضوء الشمس. وقيل: هي جميع الكواكب، تخنس بالنهار فتغيب عن العيون، وتكنس بالليل: أي تطلع في أماكنها، كالوحش في كنسها)[٣].

ويقول الطبرسي المتوفى سنة ٥٤٨ هـ في تفسيره: (بالخنس وهي النجوم تخنس بالنهار وتبدو بالليل، والجواري صفة لها لأنها تجري في أفلاكها (الكُنَّس) من صفتها أيضاً لأنها تكنس أي تتوارى في بروجها كما تتوارى الظباء في كناسها وهي خمسة أنجم: زُحل والمُشتري والمرِّيخ والزُهرة وعُطارد عن علي (ع)، وقيل معناه أنها تخنس بالنهار فتختفي ولا ترى، وتكنس في وقت غروبها فهذا خنوسها)[٤].

٢ ـ كواكب النظام الشمسي عند الإمام (ع):

لم يقتصر الإمام أمير المؤمنين عليّ (ع) على أساسيات علم الفلك ومواد الكون، وإنما كان اهتمامه الفلكي والكوني شاملاً لكل عناصر ومفردات الطبيعة والفلك التي يمكن تناولها والحديث عنها.

ومن يقرأ خطب الإمام وأحاديثه وأقواله وكلماته التي قالها هنا وهناك يجد شمولية واضحة لما يمكن الحديث عنه في الفلك والكون، يجد الموضوعات الفلكية والكونية الأساسية، ويجد الموضوعات الجانبية والفرعية والخفية أحياناً.

---

(١) القاموس المحيط، الفيروزآبادي: ص٥٤٢.

(٢) المرجع السابق: ص٥٧١.

(٣) الكشاف، الزمخشري، ج٤ ص٧١٠،٧١١.

(٤) مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، ج١٠ ص٦٧٧.

وإذا اعتبرنا مواد كونية كالسماء والنجوم والشمس والقمر والأرض مواد أساسية، فيمكن اعتبار (الكواكب السيّارة) وأقمارها وتوابعها مواد كونية ثانوية أو جانبية على مستوى الكون. فكواكبنا السيّارة تتبع الشمس، والكواكب الأخرى المحتملة خارج النظام الشمسي تتبع النجوم الأخرى. وهناك مواد فلكية جانبية أو فرعية أخرى كالشهب والأحجار النيزكية والمذنبات وغيرها من المواد الفلكية، وردت صريحة أو على شكل إشارات وتلميحات في خطب الإمام علي (ع) وأحاديثه وأقواله كما يظهر لقارئ كلام الإمام.

وإذا ما ورد في القرآن الكريم ما يدل على (الكواكب السيّارة) دون أن يذكرها صريحة بالاسم، ففي خطب وأحاديث الإمام علي (ع) توسع وشرح وبعض التفصيل لما ورد في القرآن الكريم.

ففي تفسير الآية الشريفة: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾[1]، أشار الإمام علي إلى الكواكب السيّارة الخمسة المعروفة قديماً بالاسم، فهي: (بهرام) أو (المريخ) وزحل وعطارد والزهرة والمشتري، أشار إليها مع بيان أوضاعها ومجاريها في الليل والنهار في سماء الكون.

فقد ورد أن رجلاً من مراد قال للإمام عليّ (ع): (ما الخُنَّس الجوار الكُنَّس؟ قال: هي الكواكب تخنس بالنهار فلا ترى وتكنس بالليل فتأوي إلى مجاريها، وهي بهرام وزحل وعطار والزهرة والمشتري)[2].

وإذا وردت في هذه الرواية كلمة (الكواكب) (هي الكواكب)، ففي رواية أخرى وردت كلمة (أنجم) (خمسة أنجم). قال الطبرسي: (بالخنَّس) وهي النجوم تخنس بالنهار وتبدو بالليل، و (الجواري) صفة لها لأنها تجري في أفلاكها (الكُنّس) من صفتها أيضاً لأنها تكنس أي تتوارى في بروجها كما تتوارى الظباء في كناسها وهي خمسة أنجم: زُحل والمُشتري والمرِّيخ والزُهرة وعُطارد، عن علي (ع)[3].

والمقصود واحد هو (الكواكب السيّارة) المعروفة بدليل ذكرها الصريح مع أسمائها المعروفة بها قديماً، وهي الأجرام المميّزة بين نجوم السماء الكثيرة، أي غير سائر النجوم السماوية التي تنتشر في أرجاء السماء المختلفة. وفي كتاب الأنواء لابن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٧٦ هجرية، يذكر الكواكب السيّارة بمصطلح (الكواكب الخُنَّس). ففي عنوان: (ذكر الكواكب الخنّس) يقول ابن قتيبة: (قال الله جلّ ثناؤه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ وهي زُحل والمشتري والمريخ وعُطارد والزُهرة. وهذه سيّارة في البروج كما تسير

---

(١) سورة التكوير، الآيتان: ١٥، ١٦.

(٢) الكشف والبيان، أبو إسحاق الثعلبي: ج١٠ ص١٤١.

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، ج١٠ ص٦٧٧. وانظر: الدر المنثور: ج٨ ص٣٩٥.

الشمس والقمر، غير أن بعضها أبطأ سيراً من بعض، وكل ما كان منها فوق الشمس فهو أبطأ من الشمس، وما كان دون الشمس فهو أسرع من الشمس، ويقال إنَّ زُحل أعلاها ثم المشتري ثم المريخ ثم الشمس، ودون الشمس الزُهرة ودون الزُهرة عُطارد ودون عُطارد القمر فالشمس متوسطة لها ثلاثة فوقها وثلاثة تحتها)[١].

وفي نهج البلاغة للإمام عليّ (ع) وردت كلمة (الكوكب وجمعها الكواكب) أربع مرات، ثلاث منها (كواكب) بالجمع ومرة واحدة (كوكب) مفردة. وردت في أكثر من خطبة وحديث، وكلها جاءت بمعنى النجم حسب ما نعتقد.

لكن ورد في إحدى خطب الإمام علي (ع) عبارة (النجوم السيارة) وهي عبارة صريحة تدل على (الكواكب السيارة) فكلمة السيّار إذا وصف بها جرم سماوي نجم أو كوكب أو غير ذلك فله دلالة على مصطلح (الكوكب السيّار) الذي نتحدث عنه.

قال الإمام علي (ع): (اللهم رب السقف المرفوع والجو المكفوف، الذي جعلته مغيضاً لليل والنهار، ومجرىً للشمس والقمر، ومختلفاً للنجوم السيارة...)[٢].

ويمكن أن يستنتج الباحث من عبارة (ومُخْتَلفاً للنجوم السيّارة) طبيعة سير هذه (النجوم السيارة) أو (الكواكب السيارة) بين سائر النجوم السماوية. فالكواكب السيّارة عادة لا تجري كما تجري النجوم صورة واحدة أو كتلة واحدة، وإنما تجري فرادى بين عموم النجوم، وكأنها سريعة في السير، ولذلك سميت (الكواكب السريعة السير)، وفي النظر المباشر الظاهري يشعر الراصد وكأنها لا تجري على نسق واحد، فهي مرة سائرة في طريقها، ومرة راجعة ومرة واقفة، ولذلك أطلق عليها القدماء (الكواكب المتحيرة)[٣].

ثم أن كلمة (ومُختَلَفاً) مناسبة جداً لطبيعة مجرى هذه الكواكب أو النجوم السيارة. لما فيها من معنى التردد الظاهري، أي ذهاباً وإياباً كما يراها الراصد في حركاتها الظاهرية.

---

(١) الأنواء، ابن قتيبة، ص١٣٠.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٧١: ص٢٤٥.

(٣) يقول البيروني:

(تسمى متحيّرة لأن السير نحو المشرق على توالي البروج وان عمّها، فان الخمسة التي هي: عُطارد والزُهرة والمرّيخ والمُشتري وزُحل وُجدت في بعض الاحايين مرتدة عن وجهتها راجعة في سيرها إلى خلاف التوالي: وفي بعضها مقيمة في أمكنتها واقفة غير سائرة، ووقوف السائر ورجوعه من لوازم التحيّر والدهش. ولذلك لقبت الخمسة بهذا اللقب)، القانون المسعودي، البيروني: ج٣ ص٩٨٧.

الفصل التاسع

الشهب السماوية

من منا لم يلفت انتباهه شهاب سماوي مرق فوق رأسه أو وابل من الشهب تساقطت من السماء في وقت من الأوقات أو أوقات محددة من السنة؟!

الشهاب وجمعه الشهب من الظواهر السماوية اللافتة للأنظار، والتي لا يمكن أن تخفى على أحد لسطوعها الشديد وسرعة حركتها.

الشهب هي في الحقيقة منبهات ضوئية سماوية شائعة يعرفها الناس أجمع أو كل ذي عينين يستطيعان النظر إلى السماء، وإذا غفل عنها أحد فلسبب شغله عنها وذهله عن رؤيتها.

والشهب مادة سماوية معروفة منذ القديم، ذكرتها كتب اللغة العربية، يقول الجوهري في صحاحه: (والشهاب شعلة نار ساطعة، وان فلاناً لشهاب حرب إذا كان ماضياً فيها، والجمع شُهب وشُهبان أيضاً)[1].

وذكرته مصادر التراث العربي الإسلامي باسم (الكواكب المنقضّة) أو (النجوم المنقضّة) والشهب وغيرها وسجلت عدداً كبيراً منها.

والشهب في الفلك الحديث هي مادة سماوية معروفة ومدروسة دراسة

علمية وميدانية مفصّلة بأدوات علمية وتكنولوجية متطورة، وذلك لقربها من الأرض ووضوحها ومعرفة مصادرها ومنابعها الأصلية.

والشهب شعل نارية سماوية جميلة تحدث نتيجة لدخول بعض الرمال والقطع الحصوية الصغيرة إلى جوّ الكرة الأرضية، فتحترق في الهواء نتيجة الاحتكاك وتنطلق على أشكال كتل نارية أو العاب نارية ممتعة كبيرة أو صغيرة ما تلبث أن تنتهي بعد لحظات أو أكثر.

ويتوقف حجم الشهاب وشدّة سطوعه وفترة بقائه على حجم وكتلة وسرعة القطع الأصلية، وعادة ما تحدث هذه الظاهرة الفلكية الضوئية على ارتفاع نحو ٨٠ كيلومتراً عن سطح الكرة الأرضية.

والشهب على عمومها ظاهرة سماوية كثيرة الحدوث، فيُقَدِّر علماء الفلك أنَّ عدد الشهب التي تدخل جوّ الأرض تصل إلى مئات الملايين في ٢٤ ساعة، وان ما يقارب العشرة آلاف طن من المادة الشهابية تصل إلى سطح الأرض في اليوم الواحد، لكنها لا ترى بالعين، لأنها تسقط على أشكال جسيمات صغيرة تصعب ملاحظتها في الحياة الاعتيادية.

ويعتقد علماء الفلك أنَّ تراكم هذه الكميات الكبيرة من المخلّفات الشهابية على سطح الأرض قد يؤثر - على المدى البعيد - على سُرعة دوران الكرة الأرضية حول الشمس.

---

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري: ج١ ص١٥٩.

إن أصول الشهب (وهي الأجرام الصغيرة قبل احتكاكها واحتراقها في الجوّ) لا يُمكن رؤيتها قبل وصولها إلى الغلاف الجوّي الأرضي، لكنها حين تدخل الجوّ الأرضي تصبح واقعاً مُشاهداً فهي كالسهام الضوئية نراها كل ليلة أو بعض الليالي.

والشهب السماوية على نوعين أساسيين:

أ ـ **الشهب المفردة:** وهي تلك الخطوط الضوئية السريعة جداً التي تُشاهد كل ليلة، وإذا ما حاول المشاهد متابعتها، فيمكن أن يشاهد في الليلة الواحدة أكثر من شهاب في هذه الجهة السماوية أو تلك.

ب ـ **الزخات الشُهبية:** وهو اتجاه عدد كبير من الشهب على شكل زخّات نحو الأرض، يَحدث ذلك نتيجة التقاء مدار الأرض بمدار التيار الشهبي أو مخلفات المذنبات. وللزخّات الشهبية مواعيد محددة من كل سنة أو مواعيد دورية أحياناً كما في شهب الأسد Leonids التي تطلع بكثافة كل ٣٣ سنة مرَّة.

١ ـ الشهب السماوية في القرآن الكريم:

من المواد السماوية الكثيرة التي وردت في القرآن الكريم، ظاهرة الشهب السماوية، وردت مفردة (شهاب) وجمعاً (شهب)، وردت في عدة آيات قرآنية كريمة، فقد ذكر القرآن المجيد (الشهاب) مفرداً أربع مرات، وذكره جمعاً مرة واحدة، ومجموع ما ذكره خمس مرات.

والشهب السماوية وردت في القرآن الكريم مادة فلكية علمية واضحة[١]، فتارة باسمها الصريح (شهاب وشهب)، وتارة أخرى بما يدل عليها أو يشير إليها كالرجوم والشواظ، أو من خلال السياق كما في الآية الشريفة: ﴿ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾[٢]، (أي بالشهب).

وكل الذي ذكره القرآن عن الشهب، سواء ما ورد باسمها الصريح أو بما يدل عليها لم يرد مفصّلاً ومشروحاً، وإنما جاء بمعناه اللغوي الموجز، وهو يتطابق مع معناه العلمي، فالشهاب في اللغة ـ كما ذكرنا ـ (شعلة نار ساطعة)[٣]، ويؤكد المفسرون هذا المعنى أيضاً: يقول الطبرسي المتوفى سنة ٥٤٨ هجرية: (والشهب وهو جمع شهاب وهو نور يمتد من

---

(١) إلا أنَّ الآية الشريفة التي وردت في قصة موسى في القرآن الكريم: {إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ} النمل: ٧. تدل على أن موسى(ع) رأى ناراً في الطريق، أي ليست ناراً سماوية فلكية. انظر الكشاف، الزمخشري: ج٣ ص٣٥٤. وانظر أيضاً: الميزان. الطباطبائي: ج١٥ ص٣٤٣.

(٢) سورة الصافات، الآية: ٨.

(٣) الصحاح، الجوهري: ج١ ص١٥٩.

السماء كالنار)[١]، ويقول الفخر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هجرية: (والشهاب شعلة من نار ساطعة)[٢].

أما ما ورد من تفاصيل قليلة وقرائن وما تضمنته السياقات فلا يعدو الوصف الخارجي المميز لها عن غيرها من الأجرام والظواهر السماوية الأخرى.

ولا شك أن الآيات القرآنية الشريفة التي ذكرت هذه الظاهرة، ذكرت مادة فلكية سماوية يمكن دراستها وقراءتها قراءة علمية، بعيدة عن الأوهام والخرافات.

ومما ورد في هذه الظاهرة السماوية قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾[٣].

والشهاب المبين هنا، هو الشهاب السماوي الواضح، هو تلك الشعلة النارّية الظاهرة البيّنة لكل من يشاهدها، وهي مادة سماوية من المواد الفلكية السماوية المنتشرة في الكون.

ومما ورد أيضاً قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾[٤].

والشهاب الثاقب هنا هو الشهاب السماوي المضيء المحرق الذي يثقب السماء بضوئه الشديد.

ومما ورد أيضاً قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾[٥].

وهذه الآية الشريفة تذكر الشهاب موصوفاً بالرصد، ويذكر القرطبي من معاني الرصد هنا: (الرصد هو الشهاب أي شهاباً قد ارصد له ليرجم به، فهو فعل بمعنى مفعول كالخَبط والنَّفض)[٦].

وهذه آية قرآنية أخرى تذكر أن السماء مليئة بالشهب، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾[٧].

إضافة إلى هذه الآيات القرآنية الشريفة التي ذكرت الشهاب والشهب بشكل صريح وواضح، هناك آيات أخرى ذكرت هذه الظاهرة لا بمصطلح الشهاب والشهب وإنما بمعانيها وأوصافها وحالاتها منها مثلاً (الرجوم) التي وردت في الآية الكريمة التالية: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ...﴾[٨].

---

(١) مجمع البيان، الطبرسي: ج١٠ ص٥٥٦.

(٢) التفسير الكبير، الفخر الرازي: مج١٠ ج١٩ ص١٧٣.

(٣) سورة الحجر، الآيات: ١٦ - ١٨.

(٤) سورة الصافات، الآية: ١٠.

(٥) سورة الجن، الآية: ٩.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ج١٩ ص١٤.

(٧) سورة الجن، الآية: ٨.

(٨) سورة الملك، الآية: ٥.

فالرجوم في هذه الآية تعني ما يُرجم به، يقول الفخر الرازي: (إن الرجوم جمع رجم، وهو مصدر سمي به ما يرجم به)[١]. ويعني بذلك الشهب السماوية، ويقول أيضاً: (يجوز أن ينفصل من الكواكب شعل ترمى الشياطين بها وتلك الشعل هي الشهب)[٢].

وفي آية شريفة أخرى وردت كلمة (الشواظ) يقول سبحانه وتعالى: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾[٣]، والشواظ: (اللهب الخالص)[٤]، ويقول الفخر الرازي: (لهب النار وهو لسانه)[٥]، وهي معان تدل على الشهاب السماوي.

وهناك آيات ومعان أخرى تدل على هذه الظاهرة، وكل ما ورد لا يخرج عن المعنى العلمي الطبيعي.

٢ ـ الشهب السماوية عند الإمام (ع):

إذا ما قارنت أحجام الشهب السماوية، تلك السهام الضوئية الخاطفة التي تخطف العيون على حين غرّة، إذا ما قارنتها بأحجام المواد السماوية الأخرى كالنجوم والكواكب والأقمار وحتى الكويكبات والأحجار النيزكية، فستجدها صغيرة ضئيلة جداً قياساً بأحجام المواد السماوية الأخرى.

لكن الشهب ـ دون أيّ شك ـ ظواهر سماوية ذات قيمة علمية وفلكية مهمة، فمن خلال سطوعها وانتشارها في جو الأرض، وقربها من أدوات علماء الفلك والكون توافرت لدى هؤلاء العلماء معلومات علمية وفلكية قيمة عن طبيعة النظام الشمسي وغيره من مواد الكون.

لم تفت هذه الظاهرة الفلكية الكونية العلمية الجميلة (الشهب) الإمام أمير المؤمنين علي (ع)، لم تغفلها خطبه وأحاديثه وأقواله، فقد كانت حاضرة فيها كحضور المواد الكونية الكبيرة، حاضرة بعلميتها وكونيتها ومخلوقيتها لله سبحانه وتعالى. وهذا يعني أن مجمل الكون كان حاضراً في فكر الإمام (ع) وان كان حضوراً عاماً.

لقد ذكر الإمام (ع) شهب السماء بأسمائها مفردة: (شهاب) وجمعاً (شهب)، ذكرها مادةً علمية فلكية مضيئة شديدة الإضاءة، ساطعة تثقب السماء بنورها وتنشره على مساحة واسعة من السماء السوداء، متميزة عن غيرها من المواد السماوية المتنوعة. ذكرها الإمام بعيدة كل البعد عن الأفكار الخرافية التي قالتها الحضارات والأمم القديمة في حقها.

---

(١) التفسير الكبير، الفخر الرازي: مج١٥ ج٣٠ ص٥٩.

(٢) المرجع السابق: مج١٥ ج٣٠ ص٥٩.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٣٥.

(٤) الكشاف، الزمخشري: ج٤ ص٤٤٨.

(٥) التفسير الكبير، الفخر الرازي: مج١٥ ج٣٠ ص٥٩.

إن شهب الإمام علي (ع) هي شعل ضوئية سماوية حقيقية، من جنس الشهب السماوية التي يدرسها علماء الفلك الحقيقيون في دراساتهم الفلكية والكونية.

ففي خطبة للإمام علي (ع) وصف فيها النبي الأكرم محمد عليه الصلاة والسلام بالشهاب الساطع، قال الإمام: (فهو إمام من اتقى وبصيرة من اهتدى سراج لمع ضوؤه، وشهاب سطع نوره، وزند برق لمعه)[١].

وهذا وصف علمي فلكي لشهاب السماء، فهو نور ساطع، لمن ينظر إلى السماء أثناء سطوع شهاب أو عدة شهب.

وفي خطبة أخرى للإمام علي (ع)، وصف فيها السماء وما فيها من أجرام سماوية وظواهر كونية، ومن بينها الشهب الثواقب، قال الإمام (ع): (وفتق بعد الارتتاق صوامت أبوابها، وأقام رصداً من الشهب الثواقب على نقابها، وأمسكها من أن تمور)[٢].

وفي الخطبة نفسها ذكر الإمام (ع) الشهب الثواقب بتعبير آخر: (ثواقب الشهب) وهو المعنى الأول نفسه، قال (ع) في وصف السماء: (وناط بها زينتها من خفيات دراريها ومصابيح كواكبها ورمى مسترقي السمع بثواقب شهبها...)[٣].

(والشهب الثواقب) و (ثواقب الشهب) تعني الشهب السماوية ذات النور الشديد الذي يثقب الغلاف الهوائي الجوي ليصل إلى سكان الأرض، وهي الشهب العلمية المعروفة وليست حالة أخرى غير طبيعية.

فالإمام علي (ع) وإن لم يُفصِّل في موضوع الشهاب والشهب إلا أن حديثه عنها كان علمياً بعيداً عن آراء وأفكار القدماء الخطأ في تفسير هذه الظاهرة (الشهب) كقول اليونانيين - مثلاً - إن الشهب هي من الظواهر الجوية التي تحدث في جوّ الكرة الأرضية وليست مادة سماوية[٤]. والشهب لم تكن كذلك أبداً، الشهب هي قطع صغيرة من ذلك النثار الصخري والرملي المتفاوت في الأحجام والكتل والذي ينتشر داخل المنظومة الشمسية بمدارات محددة[٥].

❖ ❖ ❖

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٩٤: ص١٣٩.

(٢) المرجع السابق، الخطبة ٩١: ص١٢٨.

(٣) المرجع السابق، الخطبة ٩١: ص١٢٨.

(٤) الظواهر الكونية الغريبة، عبد الأمير المؤمن: ص١٤٢.

(٥) الظواهر الكونية الغريبة، الفصل الرابع، الشهب: ص ١٣٣ - ١٦٠.

الأبعاد الإنسانية في عهد الإمام علي (ع) لمالك الأشتر

أ. د. عبد الكاظم محسن الياسري

المقدمة:

الإمام علي (ع) سيد الوصيين وإمام المتقين ومعدن البلاغة والفصاحة ووارث علم الرسول وباب مدينة العلم وقائد الغر المحجلين وأمير المؤمنين ولهذه المهمة كتب عهده لمالك الأشتر لأنه هو المسؤول عن قيادة الأمة وحماية مبادئ الدين الحنيف وإقامة المجتمع الإسلامي المنشود وإفشاء العدل بين الرعية ورد المظالم عن الناس وإعطاء كل ذي حق حقه ورد الباطل من أي جهة أتى والوقوف بوجه الظالمين أياً كانوا مادام في هذا رضا الله سبحانه وحماية دماء المسلمين والحفاظ على بلادهم. ومن هذه المهمات العظيمة وغيرها مما يتصل بإدارة الدولة جاء عهد الإمام (ع) لمالك الأشتر حين ولاه مصر بعد استشهاد محمد بن أبي بكر واضطراب البلاد وأراد أن يكون هذا العهد دستوراً يعمل به الولاة في جميع أمصار الدولة الإسلامية ويفيد منه المحدثون كما أفاد منه القدامى لأنه من وضع الإمام علي (ع) وهو وصي رسول رب العالمين وهكذا كان فلا يزال المنظرون في حقوق الإنسان يستفيدون من كثير مما ورد في هذا العهد.

ومالك الأشتر صحابي جليل عاش مع الإمام علي وشارك في فتوح البلاد الإسلامية وكان فارساً شجاعاً ومهيباً في القتال ترتجف نفوس الأعداء لهيبته وقد جعله الإمام علي ساعده الأيمن حين تولى الخلافة واعتمد عليه في كل المعارك التي خاضها من أجل الحق والدين وكان له الأثر الكبير في الانتصارات التي حققها جيش الإمام في الجمل وصفين والنهروان وأصبحت له رهبة في نفوس الأعداء وهو قائد جيوش الإمام. ومن هنا جاء اختياره لتولي مهمة الإدارة في مصر وإقامة العدل فيها وحمايتها من الأعداء والدفاع عن أهلها ونشر العدل بينهم وقد وضع له الإمام كل الأسس التي يمكن أن يفيد منها في إدارة البلاد وأوضح المناهج التي يسير عليها في التعامل مع الرعية في عهد من أطول النصوص في نهج البلاغة وقد صاغه الإمام بأسلوبه الرائع وضمنه كل فنون البلاغة والفصاحة مع كونه وثيقة رسمية لإدارة بلاد مضطربة. ولكن الأمور سارت بغير ما أراد الإمام واستشهد هذا الرجل العظيم وهو في طريقه إلى مصر بفعل أعمال الأعداء وقد حزن الإمام كثيراً لفقده ووصفه بأنه كان له كما كان هو لرسول الله وهو وصف عظيم لم يحظ به أحد من المسلمين. ورحل مالك ولكن العهد بقي وثيقة اجتماعية وسياسية ودينية أفاد منها ويفيد منها الماضون واللاحقون. في

هذا البحث محاولة لبيان رؤية الإمام (ع) لبناء مجتمع الإسلامي المنشود من خلال بيان أو تضمنه هذا العهد من أبعاد إنسانية لا تقتصر على عصر ولا يحدها زمان.

سلام عليك أمير المؤمنين ورحمك الله أبا إبراهيم والحمد لله رب العالمين وهو ولي التوفيق والسداد.

الإبعاد الإنسانية في عهد الإمام علي (ع) لمالك الأشتر:

الإمام علي ابن أبي طالب (ع) وصي رسول الله (ص) وباب مدينة علمه ووراث كل شيء عنه وهو الذي قال عنه رسول الله (أنا مدينة العلم وعلي بابها)[١] وخاطبه قائلاً (أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا انه لا نبي من بعدي)[٢]. وقد قام دين الإسلام بعلي وأهل بيته وهو ليس قائداً عسكرياً حسب وإنما هو سياسي من الطراز الأول ومصلح اجتماعي لا يجاريه احد وهو إمام البلغاء وسيد الفصحاء وقد تمثل كتاب الله وسنة رسوله فأتقن ما فيهما وأفاد منهما في بناء المجتمع الإسلامي الذي ينشده الدين الإسلامي ومن هنا جاءت أقواله ووصاياه وما تركه من ثروة لغوية جمعت في نهج البلاغة لتمثل دستور عمل للدولة الإسلامية وهي صالحة لكل زمان ومكان وليست مرحلية مثل غيرها من النصوص. وقد تضمنت معارف كثيرة شملت جميع ما يتصل بحياة المجتمع الإسلامي المنشود.

إن الناظر في هذا الكتاب يجد فيه كل ما يتصل بمناحي الحياة وبناء المجتمعات الإنسانية بدءاً من قدرة الله وعجائب خلقه وانتهاءً بالوصايا والعهود ومحاورة الأعداء والحكم والمواعظ. وفي عهده لمالك الأشتر حين عهد إليه بولاية مصر نجد كل ما يلزم الحاكم من توجيهات وقواعد وإحكام تخص إدارة الولايات وهو ليس عهداً خاصاً لمالك الأشتر ومصر وإنما هو دستور دائم يتضمن كل قواعد التعامل والإصلاح الاجتماعي وهو صالح لكل مكان وزمان ويفيد منه القدامى والمحدثون على حد سواء ممن يتولى إدارة الدول والولايات في بلدان العالم الإسلامي فهو بهذه الصفة دستور عمل لكل العاملين في إدارة المدن والولايات والمنظمات الإسلامية والعالمية ومثل ما أفاد منه العرب يفيد منه غير العرب أيضاً وقد عملت بعض المنظمات على ترجمة هذا العهد إلى لغات أخرى غير العربية وقد أجمعت الدراسات التي عنيت بهذا العهد على انه يمثل دستوراً متكاملاً للحكم الإسلامي وهو وثيقة في الإصلاح الاجتماعي يستفاد منها في بناء المجتمعات الصالحة ويضم جميع المبادئ والأسس التي جاء بها الدين الإسلامي الحنيف مستمداً الأفكار التي وردت فيه من القرآن الكريم وسنه الرسول (ص) ويعد هذا العهد وثيقة دستورية لتنظيم الحياة السياسية والدينية والاجتماعية سبقت بقرون جهود المنظرين للسياسة والاجتماع وحقوق الإنسان في العالم المتمدن ولقد رسم الإمام في هذا العهد الخطوط العامة لمن يتولى إمارة البلاد. وهو خطة عمل متكاملة الجوانب تتضمن كل ما يمارسه الوالي في إدارته البلاد وعلى من يتولى أمور المسلمين أن يلتزم بما ورد في هذا العهد من أوامر وتوجيهات ووصايا، وقد تضمن العهد تحديداً دقيقاً للواجبات والحقوق في

المجتمع الإسلامي وحدد ما يترتب على الوالي اتباعه في تعامله مع الرعية وقد مثل ذلك الأسس التي بني عليها هذا العهد. وانطلاقاً من مبدأ اجتماعي مشهور هو إن المجتمع الإنساني لا يمكن أن يكون طبقة واحدة يمكن التعامل معها وإنما يتألف كل مجتمع من عدد من الطبقات تتعايش في بيئة واحدة وتتكامل مع بعضها في بناء هذا المجتمع فأن طبيعة التعامل مع كل طبقة تختلف عن طبيعة التعامل مع الطبقة الأخرى وقد وضع الإمام في هذا العهد تقسيماً فريداً للطبقات الاجتماعية التي يمكن أن يتعامل معها الوالي وحدد أسلوب التعامل مع كل طبقة.

قسم الإمام المجتمع في مصر التي سوف يتولى مالك الأشتر أمرها على عدة طبقات وقد بني هذا التقسيم على أساس علمي دقيق هو أن هذه الطبقات وإن اختلفت في ما بينها ألا أنها في المحصلة تؤلف مجتمعاً واحداً وهي ترتبط مع بعضها ارتباطاً وثيقاً ولا يصلح بعضها ألا ببعض ولا يستغني بعضها عن بعض يقول (واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها ألا ببعض ولا غنى ببعضها عن بعض)[٣] وهذا النص يعني إن هذه الطبقات تمثل وحدة متكاملة من الناس ترتبط برباط وثيق يوحد في ما بينها ولا يمكن لأي منها أن تمارس دورها بعيداً عن الطبقات الأخرى وإنما تكون ممارستها من خلال التكامل فيما بينها وحاجة كل منها إلى الأخرى.

والطبقات التي حددها الإمام في هذا العهد وبين طبيعة التعامل مع كل واحدة منها هي:

١ - **طبقة الجنود:** يقصد الإمام بهذه الطبقة الرجال المدافعين عن الدين والبلاد وقد وصف الإمام رجال هذه الطبقة بأنهم حصن الرعية وزين الولاة وعز الدين وسبيل الأمن ولا تقوم الرعية إلا بهم[١]. الناظر في هذه الصفات التي ربط الإمام بينها بحرف العطف الواو وحذف منها المبتدأ للدلالة على قوة الترابط بين هذه الصفات لكي ترسم لنا صورة هؤلاء الرجال فهم عماد بناء الدولة والدفاع عنها وهم زينة الوالي التي يفتخر بها ويبين قوته وهيبته أمام الأعداء وهم حفظة البلاد والعباد فهم سور البلد الحصين. ولكي يؤدوا هذا الواجب على أتم وجه من واجب الوالي أن يوفر لهم حاجاتهم من المال الذي يأتي من موارد الدولة ليواجهوا به عدوهم ويعتمدوا عليه في إصلاح أمورهم وسداد حاجاتهم. وفي ضوء هذا ولأهمية الدور الذي يؤديه رجال هذه الطبقة يحدد الإمام لكل من يتولى أمور البلاد واجبات هذه الطبقة وحقوقها ويبين تكاملها مع الطبقات الأخرى[٢] إن هذه الطبقة لا تعمل بمعزل عن الطبقات الأخرى إنما بها حاجة إلى الطبقات الأخرى التي يتألف منها المجتمع الإسلامي.

٢ - **طبقة كتاب العامة والخاصة:** تمثل هذه الطبقة طائفة الموظفين الذين يعتمد عليهم الوالي في إدارة شؤون الولاية وإدارة المراسلات العامة والخاصة مع حكام الولايات وقادة

الجيوش وكبار المسؤولين وتقع على عاتق هذه الطبقة مهمة جباية واردات الدولة والأمارة وجمعها والتي تمثل العماد الاقتصادي وتدفع منها رواتب العاملين والجنود وتنفذ المشاريع وتقدم الخدمات وتدعم بيت المال بما يحتاج إليه لدفع المعونات والهبات لمن يستحقها. وتمثل هذه الطبقة الأساس الاقتصادي الذي تبنى عليه الدولة ولها أهمية كبيرة لذا نجد الإمام يلفت نضر من يتولى أمور المسلمين إلى الدقة في اختيار العاملين في هذه الطبقة ومراقبة أعمالهم بدقة لأنهم يمثلون القوة الاقتصادية والإدارية التي تقوم عليها أمور الولاية.

٣ - **طبقة القضاة:** وتمثل هذه الطبقة وما يتصل بها من عاملين في ميدان القضاء أساس العدل في الولاية والفصل بين الناس في المنازعات والحكم في القضايا الخاصة والعامة. ولا بد أن تحظى هذه الطبقة باهتمام الوالي وأن يحسن الوالي اختيار العاملين فيها لأن هؤلاء هم أساس العدل وإعادة الحقوق إلى نصابها ومن هنا حظي رجال هذا المسلك باهتمام الحكومات قديماً وحديثاً لان إشاعة العدل أساس الملك ومن هنا نجد الإمام يحدد في عهده مواصفات من يتولى مهمة الحكم بين الناس لمن يتولى أمور البلاد وفي ضوء هذه الصفات يقوم الوالي باختيار القضاة.

يقول (ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادى في الزلة ولا يحصر عن الفيء إلى الحق إذا عرفه....)[٤] إن اختيار القضاة للفصل بين الناس من مهمات الوالي ومن هنا نجد الإمام يحدد المعايير التي يتم بموجبها اختيار هؤلاء القضاة ويوجب على الوالي أن يهيئ لهؤلاء القضاة ما يحتاجونه لمداومة حياتهم بعيداً عن المؤثرات التي قد تجعلهم يحيدون عن طريق العدل ويبتعدون عن الحق. إن حسن الاختيار وسد الحاجة يجنب هؤلاء كثيراً من المزالق التي قد تقود إليها النفس الأمّارة بالسوء. وفي ضوء هذا يمكن تفسير ما توليه الحكومات الحديثة لطبقة القضاة والحكام.

٤ - **طبقة التجار وأهل الصناعات:** ويمثل أهل هذه الطبقة عماد البلاد في الجانب الاقتصادي وهم الذين يعتمد عليهم الناس في توريد ما يحتاجونه من مختلف المواد اللازمة لإدامة الحياة ويمثلون الوجه الآخر للولاية من خلال اتصالهم وتعاملهم مع تجار الولايات الأخرى وقد أوصى الإمام في عهده الولاة بهذه الشريحة من المجتمع وجعلهم محط عنايتهم قال (استوص بالتجار وذوي الصناعات خيراً سواءً المقيم منهم والمضطرب بماله فإنهم مواد المنافع وأسباب المرافق وجلابها من المباعد والمطارح)[٥].

إن هذا النص يدلنا على أن الإمام يركز في توجيهاته على كل ما فيه صلاح المجتمع الإنساني وسد ما تحتاجه الرعية من موارد الغذاء والصناعات وهي مهمة يتكفل بها التجار وأرباب الحرف ولذا نجد الإمام يوصي بهم ويدعو إلى مراعاة ظروفهم لأن الحياة

سوف تتوقف إذا لم يقم هؤلاء بواجباتهم فإنهم عماد الحياة في الولاية والعاملون على توفير حاجة السكان من مواد الغذاء والبناء.

٥ - **أهل الذمة:** وهذه الطائفة تمثل الأقوام غير المسلمين والذين يدفعون الجزية للدولة. ووصية الإمام بهؤلاء دليل على اهتمام الإمام بجميع شرائح المجتمع من مسلمين وغيرهم ممن يدفعون الخراج للدولة. وهو مبدأ يمثل العدالة في الدين الإسلامي. ويركز الإمام في وصيته إلى الولاة على الاهتمام بإعمار الأرض وإصلاح أهل البلاد قبل أن يطلبون منه دفع الخراج ذلك إن صلاح الدولة يبدأ بصلاح أمور أهلها قال (ومن طلب الخراج بغير عماره أخرب البلاد وأهلك العباد)[٦] إن الإمام يربط بين الوضع الاقتصادي للفرد وبين ما يطلب كمخ فلا يريد تكليف هذه الطبقة فوق ما يطيقون وتحميلهم ما لا يستطيعون. هنا تتمثل عدالة الإمام في مراعاة الناس على مختلف طبقاتهم ومعتقداتهم وهكذا هو الإنسان إما أخ لك في الدين أو مماثل لك في الخلق.

٦ - **عامة الناس من ذوي الحاجات:** وتمثل هذه الطبقة عامة الناس من الفقراء وذوي الحاجات الذين يعيشون في هذه البلاد أو غيرها ممن يتولى أمرها الولاة. وقد بين الإمام أن الله سبحانه قد قسم لكل من هؤلاء نصيبه ووضع حده فريضة وهو يشير إلى التشريعات التي حددها الدين الإسلامي وما نزل به القرآن الكريم وما فرضه من حقوق لمثل هؤلاء المتمثلة في الزكاة وغيرها.

وقد نبه الإمام من يتولى أمور المسلمين على أهمية رعاية هذه الشريحة مستعملاً أسلوب الإغراء والحث يقول (ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤس فأن في هذه الطبقة قانعاً ومعتراً واحفظ لله ما سنحفظك من حقوقهم واجعل لهم قسماً من بيت مالك)[٧] إن هذا النص يدل على دعوة الإمام الولاة إلى رعاية أبناء هذه الطبقة وتخصيص ما يحتاجونه من بيت المال لان الله جعل الوالي وصياً على حقوق هؤلاء الناس فالواجب يملي عليه أن يحافظ على ما استحفظه الله عليه من حقوق هؤلاء. إن ما تقدم يمثل الطبقات الاجتماعية التي حددها الإمام في عهده لمالك الأشتر وبين طرق التعامل مع كل واحده من هذه الطبقات.

واجبات الولاة:

لا ريب في أن الإمام أراد أن يكون هذا العهد شاملاً لكل ما يتصل بإدارة الدولة أو الولاية وأراد من خلاله تحديد الواجبات التي على الوالي في أي مكان الالتزام بها وتنفيذها فهو بعد أن بين طبيعة التعامل مع الطبقات التي يتألف منها المجتمع عرج على الإشارة إلى أهم الواجبات التي على من يتولى أمور البلاد أن يلتزم بها وينفذها مستعملاً طائفة من صيغ الأمر المعروفة في اللغة. لقد أشار الإمام في بداية ما أوصى به مالكاً إلى الواجبات التي ألزمه القيام بها مستعملاً صيغة المصدر للدلالة على الأمر. والأمر بالمصدر أقوى من الأمر بالفعل أو غيره

من صيغ الأمر الأخرى لأن الأمر بالمصدر يتصف بقوة التوكيد على التنفيذ والالتزام لذا قال تعالى ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (الإسراء: ٢٣). ومن هذه الواجبات:

١ - **الدفاع عن البلد:** قال الإمام (هذا ما أمر به عبد الله علي أمير المؤمنين مالك بن الحارث الأشتر في عهده إليه وحين ولاه مصر: جباية خراجها وجهاد عدوها واستصلاح أهلها وعمارة بلادها)[٨].

تضمن هذا النص أكثر من مصدر استعمله الإمام لبيان واجبات الوالي سواء أكان مالكاً أم غيره ومن بينها جهاد العدو والدفاع عن الأرض. إن من أكبر الواجبات والمسؤوليات التي يجب على الوالي تحملها مسؤولية الدفاع عن الأرض وحماية الحدود والوقوف بوجه الأعداء والطامعين لأن هذا المبدأ يمثل قوة سلطان الوالي وعزته فهو المسؤول عن تهيئة مستلزمات الدفاع عن البلاد وإعداد المقاتلين وتجهيزهم للوقوف في وجه من يحاول الاعتداء على البلاد أو إلحاق الأذى بأهلها. ويمثل هذا المهمة الكبرى للوالي ولذا نجد الإمام (ع) يتألم كثيراً جين يسمع بأذى يلحق بمدينة من المدن التي تحت ولايته كما حدث في مدينة الأنبار حين غزاها بسر بن أرطأة والي معاوية وقتل واليها وسلب نساءها وقد بين الإمام ذلك في خطبة مشهورة دعا فيها إلى الجهاد.

٢ - **جباية الخراج:** يمثل الخراج الأساس الاقتصادي لبناء الولاية لأن من خلاله تتوفر الأموال اللازمة لبناء الجيش وإعداد المقاتلين وتوفير مستلزمات إدارة الدولة ودفع الرواتب للعاملين في إدارة الولاية واستيراد ما يلزم من مواد البناء والغذاء ومن هنا تأتي أهمية تحصيل الخراج لأنه يمثل المورد الاقتصادي للولاية وقد حدد الإمام أسلوب تحصيل هذه الضريبة وربطها بأعمار الأرض وبالاستطاعة. وقد أناط الإمام مهمة جمع الخراج والإشراف عليه بالولاة لأهميته في بناء الدولة.

٣ - **إصلاح أهلها:** إن صلاح أهل البلد من أكثر الأمور أهمية وهو الذي يعين الوالي في إدارته البلاد ويساعده في أداء مهماته وتنفيذ ما يراد منه لأن سكان البلاد على مختلف طبقاتهم هم أداة التنفيذ التي يعتمدها الولاة ولكن كيف يقوم الولاة باستصلاح أهل البلاد التي يتولون إدارتها. لقد حدد ذلك أمير المؤمنين بالعدل والمساواة وإعطاء كل ذي حق حقه وإنصاف المظلوم وإدانة الظالم وإبعاد المفسدين واختيار الحاشية والنظر في أمور الناس هذه وغيرها تجعل أهل البلد يداً واحدة وعقلاً واحداً في التصدي لما يواجه بلدهم من مخاطر وبخلافه يتفرق الناس شيعاً يقتل بعضهم بعضاً ولا يستطيع الولاة عمل شيء يعيد الأمور إلى نصابها.

٤ - **عمارة بلادها:** كل وال خطته وطريقته في إعمار البلاد التي يتولى أمرها ولذا ترك الإمام الأمر مطلقاً ولم يحدده إنما يخضع لاجتهاد الولاة ونشاطهم وهي مهمة ينهض بها المسؤولون عن إدارة البلاد فيضعون الخطط لمشاريع الإعمار من استصلاح الأرض وبناء الصناعات وتوفير المواد الأولية للعمل وشق الأنهار وبناء المعامل لصناعة السلاح وتصدير ما يفيض عن الحاجة وهذا كله يمثل إنعاش الحال الاقتصادي لأبناء تلك البلاد ولذا ربط الإمام بينه وبين الخراج فلا خراج بدون إعمار. وهذه المهمة من المهمات الكبيرة التي يضطلع بها الولاة وتقاس عمارة البلاد بقدرة الوالي ونشاطه. وهذا ما نجده الآن ماثلاً في إدارة المدن والمحافظات. لقد ربط الإمام كل هذه الأسس والواجبات بتقوى الله فإنها من أهم الواجبات عند الإمام (ع) وبدون تقوى الله لا يمكن للوالي أن ينهض بهذه المهمات لأنها الأساس في كل حير وتوفيق ودرء كل شر وفشل ومن توكل على الله وأطاعه ظفر ومن عصاه خسر. وحين ننظر إلى هذه الأسس نجدها مترابطة مع بعضها ويكمل بعضها بعضاً وهي تمثل الصورة المشرقة لكل والٍ في كل زمان ومكان وليس مالك الأشتر فقط وهو ما أراده الإمام من هذا العهد. وقد جعل الإمام هذه الأسس بمجموعها من أهم الأهداف التي يسعى الولاة للوصول إليها.

الأبعاد التي حددها الإمام في عهده:

إن ما ورد في هذا العهد وثيقة عمل لبناء مجتمع ينشده الدين الإسلامي ومقيد بالقرآن الكريم والسنة النبوية فلا غرابة أن يستمد الإمام ما ورد في عهده لمالك الأشتر من هذين الموردين وأن يتأثر بهما أيما تأثير لذا نجده يبدأ هذا العهد بالأمر بتقوى الله وطاعته والتوكل عليه في كل الأمور وهو ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية. ثم حدد الإمام طبيعة البلاد التي سوف يتولى مالك الأشتر أمرها قال: (ثم اعلم يا مالك إني وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول من قبلك من عدل وجور وإن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم)[٩] في النص الذي تقدم ذكره تشخيص دقيق لحال البلاد التي سوف يتولى أمرها مالك الأشتر. وفيه بيان لما تعاقب عليها من ولاة وفيهم العادل والجائر وقال فيهم أبناء البلاد ما قالوا وقد طلب الإمام من مالك أن يجعل نفسه معياراً لتحديد موقف الناس من الولاة فيعمل على تطبيق ما كان يرتضيه من أعمالهم ويبتعد عما لا يرتضيه منهم وفي ضوء هذا كان لا بد للإمام أن يحدد في هذا العهد الأبعاد التي ترتكز عليها طبيعة التعامل مع أبناء هذا البلد وتتمثل هذه الأبعاد في الآتي:

١ - **البعد الديني:** دأب الإمام علي (ع) في كل وصاياه وكتبه وليس في هذا العهد فحسب أن يذكر من يخاطبهم بتقوى الله ويوصيهم بطاعته والالتزام بأوامره ونواهيه كما وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية ومراعاة تعاليم الدين الحنيف في التعامل مع الناس لأن هذه الأمور هي المعيار الحقيقي لإقامة العدل والمساواة ومعرفة الحقوق والواجبات في المجتمع

الإسلامي المنشود وبخلاف ذلك سوف لا يستطيع الناس العيش بحياة حرة كريمة ومن هنا كانت البداية في هذه العهد (أمره بتقوى الله وإيثار طاعاته وأتباع ما أمر به في كتابه ومن فرائضه وسننه التي لا يسعد أحدٌ إلا باتباعها ولا يشقى أحد إلا بجحودها)[١٠]. إن معيار السعادة والشقاء في هذا النص هو القرب والبعد عن أوامر الله ونواهيه فالسعيد من اتقى الله وأطاع أوامره ونواهيه والشقي من جحدها وأنكرها. ولكن ماذا يترتب على هذا المعيار؟

إن أول ما يترتب على هذا هو كبح النفس لأنها إمارة بالسوء ولذا نجد الإمام يحذر من الاندفاع وراء رغبات النفس الإنسانية ويقول (وأمره أن يكسر نفسه من الشهوات ويزعها عند الجمحات فإن النفس أمارة بالسوء ألا ما رحم ربي)[١١] ويبدو في هذا النص أثر القرآن الكريم واضحاً في كلام الإمام (ع) ومما يتصل بهذا الجانب يؤكد الإمام أن على الوالي مهما كانت قوته وسلطته أن يتواضع أمام إرادة الله وقدرته ولا يجوز لأي كان أن يطاول الله في عظمته والتشبه به في جبروته يقول محذراً (وإياك ومسامات الله في عظمته والتشبه به في جبروته فأن الله يذل كل جبار ويهين كل مختال)[١٢] إنه درس يقدمه أمير المؤمنين في الطاعة والتواضع أمام قدرة الله وعظمته لأنه هو الخالق وهو الرزاق وهو القادر على كل شيء وما على العباد سوى إطاعة أوامره والالتزام بنواهيه واتباع ما ورد في كتابه من سنن وقواعد وإن على الوالي أن يلتزم بما هو صالح من السنن التي سبقته وسار عليها السابقون وتألفت عليها صدور الأمة ويقول (ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور الأمة واجتمعت بها الألفة وصلحت عليها الرعية)[١٣] في هذا النص تأكيد على أن الولاية الجديدة لا تلغي الصالح من أعمال الولاية السابقة مما تألفت عليه قلوب الرعية واتفق مع شرائع الإسلام السمحة لقد جعل الإمام نجاح الوالي مرتبطاً بإقامة فرائض الله كاملة غير منقوصة مهما كان الجهد الذي يبذل فيها، لأن صلاح الملك مرتبط بطاعة الله وتوفيقه.

٢ - **البعد السياسي**: أخذ هذا الجانب مساحة واسعة من هذا العهد وكان من أهم المرتكزات التي تحدث عنها الإمام في هذا النص ولا غرابة في ذلك لأن هذا العهد يتصل بولاية بلاد اضطربت فيها الأمور وتكاثرت فيها الأحداث وتألبت عليها الأعداء ويمكن أن نلحظ جوانب عدة تتصل بالبعد السياسي والغرض منها إنصاف الناس وحماية البلاد من التفرق وصد الأعداء الطامعين وتتمثل هذه الجوانب بالآتي:

أ - **إنصاف الناس على اختلاف طبقاتهم** من نفسه أولاً ومن المقربين إليه ثانياً. ويمثل هذا مبدأ من أعظم مبادئ العدالة الإنسانية ومن أهمها في إدارة البلاد لأن فيه تركيزاً على أن يبتعد الوالي ومن يحيط به من البطانة عن استغلال مناصبهم في ظلم الرعية وإنزال الظلم بالآخرين لأن في هذا غضب الله سبحانه يقول (انصف الله وانصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده... وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من أقامه على ظلم)[١٤].

العدل من أهم مرتكزات الحكم لأن فيه رضا الله وأول عدل يمارسه الوالي هو إنصاف الناس من نفسه وحاشيته لأن هؤلاء هم الأقرب إلى ظلم الناس واستغلال مكانتهم وتوظيفها لظلم الناس لقد كان الإمام دقيقاً في تشخيص هذا الخلل الذي كثيراً ما يقع فيه الولاة أنفسهم أو تستغل حاشيتهم ضعفهم وتعدو على الرعية ظلماً ومن هنا نجد الإمام يربط بين عدالة الوالي ودوام حكمه وبين ظلم الوالي وزوال حكمه.

ب - **اتباع سبيل الحق** فيما يعرض له من أمور وليكن أحب الأمور حين الاختيار أوسطها في الحق وأعمها في العدل واجمعها لرضا الرعية. ويؤكد الإمام من خلال ما ذكره على أن الوالي عليه أن يكسب رضا العامة التي تمثل الأكثرية الغالبة من الرعية وهذا هو الأساس في الحكم العادل والذي يحيد عنه كثير من الولاة فيقلبون طرفي المعادلة ويحرصون على رضا خاصتهم وبطانتهم أولاً ولا يعنيهم رضا الكثرة الغالبة من أبناء الشعب يقول (فإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة)[١٥]. الإمام (ع) يضع أمام الوالي طرفين: الأول عامة الناس وهو الأكثر، والثاني خاصة الوالي والمقربين منه. وعلى الوالي أن يوازن بين طرفي المعادلة وأن يهتم برضا عامة الناس دون خاصتهم لأنهم الأكثر والأغلب وحين يفقد الوالي رضاهم عنه تحدث الاضطرابات والإشكالات التي تقض مضجعه وتفشل إدارته، إنها الدقة العظيمة في التشخيص لكل ما يواجه الوالي في عمله.

ج - **إبرام العهود والمواثيق:** كل الولاة يتعاملون مع أقوام أخرى مجاورة لبلادهم ويرتبطون بعلاقات حسنة أو سيئة مع هذه الأقوام وقد تتعرض بلادهم إلى غزو الأعداء وينشب القتال وتحتدم المعارك وقد تنتهي هذه المعارك بالنصر لأحد طرفي النزاع أو تؤول إلى عقد الصلح والتراضي بينهما والإمام يطلب من ولاته قبول الصلح حين يعرضه العدو عليهم ويستعمل في ذلك صيغة التوكيد للدلالة على أهمية هذا الأمر لأن استمرار القتال ليس فيه فائدة. يقول: (ولا تدفعن صلحاً دعاك إليه عدوك ولله فيه رضا فإن في الصلح دعة لجنودك وراحة من همومك وأمناً لبلادك)[١٦] لكن الإمام لم يترك الأمر على إطلاقه وإنما قرن ذلك القبول بالحذر كل الحذر من هذا العدو بعد الصلح ربما كان هذا العدو يبيت وراء ما طلبه من الصلح شراً ويريد أن يستغل مثل هذا الصلح ليتغفل المقابل فيغدر به وقد كانت للإمام تجربة في مثل هذا في معركة صفين حين طلب أهل الشام الصلح وكان الإمام يعرف ما يريدون فقال كلمته المشهورة (كلمة حق يراد بها باطل) وكانت النتيجة المعروفة لهذا الصلح. ولم يهمل الإمام التنبيه على أهمية الالتزام والوفاء بكل ما ورد في الصلح حين عقده لان العرب تعظم الوفاء بالعهد حتى قبل مجيء الإسلام لأن الوفاء بالعهد سمة من سمات العرب. وهم يلتزمون بها مهما كانت النتائج.

د - **حسن الاختيار:** وهو جانب مهم من جوانب العمل السياسي لأن الوالي لا يستطيع إدارة الولاية بمفرده وإنما يعتمد على أشخاص يقومون بإدارة البلاد ويساعدون الوالي في إدارة

البلاد وعلى هؤلاء الأشخاص يتوقف صلاح البلاد وفسادها لذا نجد الإمام (ع) يفرد مساحة واسعة للحديث عن اختيار هؤلاء من كتاب وقضاة وقادة وفي ضوء هذا يحدد الإمام المواصفات التي يريدها وأهمها:

١ - أن لا يكون من الباحثين عن عيوب الناس والوشاية بهم عند الولاة وتعظيم ما هو صغير قصد الانتقام.

٢ - أن لا يكون ممن يثيرون الأحقاد والضغائن بين الرعية ويحاولون نشرها بين الناس من أجل خلق الإشكالات.

٣ - أن لا يكون من البخلاء فيقف في وجه كل خير يريد الوالي إعطاءه ولا جباناً يضعف العزائم ويحد من قوة الوالي في اتخاذه القرار في الأمور الصعبة لأن الجبن والحرص والبخل غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله.

٤ - أن يكون من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والقائلين بالحق ولو على أنفسهم لأن ذلك أساس العدل ودوام الملك.

هـ - **رجال القضاء:** القضاء مفصل من أهم المفاصل التي ترتبط بسياسة الدولة وهذه المهمة لا يمكن أن ينهض بها إلا من كانت له مواصفات خاصة لذا كان العرب يحرصون كثيراً على اختيار القضاة الذين يتولون الفصل في المنازعات. وقد وضع الإمام في عهده طائفة من الصفات التي يجب توافرها فيمن يتم اختياره للقضاء يقول (ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادى في الزلة ولا يحصر في الفيء إلى الحق إذا عرفه ولا تشرف نفسه على طمع ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه، وأوقفهم في الشبهات وآخذهم بالحجج وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم. وأصبرهم على تكشف الأمور وأصرمهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدهيه إطراء ولا يتسميله إغراء)[١٧].

صفات تكاد تنبض بالحياة وترسم صورة رائعة للقاضي الذي يمثل سلطة الدولة وليس من اليسير أن نجد شخصاً تتوافر فيه كل هذه الصفات ومن هنا تبدو مهمة اختيار القضاة صعبةً جداً. ولكن لماذا يريد الإمام كل هذه الصفات في القضاة؟ لأن القضاة هم أساس العدل والإنصاف وهما من أهم المرتكزات التي تقوم عليها سياسة الدول قديماً وحديثاً.

٣ - **البعد الاجتماعي:** الإمام علي (ع) مصلح اجتماعي من الطراز الأول وما ورد في عهده لمالك الأشتر يمثل دستوراً لبناء مجتمع إسلامي مثالي يقوم على أحدث الأسس التي تبنى عليها المجتمعات الإنسانية المتطورة وأول عمل بدأ به الإمام في هذا الاتجاه هو تقسيم المجتمع الإنساني على طبقات تقدمت الإشارة إليها وقد حدد الإمام الترابط الوثيق بين هذه الطبقات بحيث لا يمكن أن تستغني إحداها عن الأخرى وقد تمثلت هذه الطبقات بطبقة الجنود وطبقة الكتاب العامة والخاصة.

وطبقة القضاة وطبقة التجار وأهل الصناعات وطبقة أهل الذمة وطبقة العامة من ذوي الاحتياجات. إن هذه الطبقات مثلت تقسيماً دقيقاً للوجود الإنساني في هذه الولاية. ولم تكن هذه الطبقات بمعزل عن بعضها وإنما كانت تتكامل في ما بينها لبناء المجتمع المصري وهي ترتبط مع بعضها بروابط اجتماعية واقتصادية ودينية وخدمية وسياسية مما يجعلها وحدة متماسكة تمثل هذا المجتمع الذي يتولى مالك الأشتر إدارته ومن هنا جاء توجيه الإمام إلى الولاة بصورة عامة ومالك بصورة خاصة برعاية هذه الطبقات ومراعاة الأحوال والظروف التي يعيشون فيها وإفشاء العدالة في ما بينها والابتعاد عن الظلم وسفك الدماء. يقول: (إياك والدماء وسفكها بغير حلها فإنه ليس شيءٌ أدعى لنقمة ولا أعظم لتبعه ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مدة من سفك الدماء بغير حقها)[١٨].

إنها حرمة الدم التي أمر بها الله سبحانه وتعالى فلا يحل لمسلم أن يسفك دماً في غير محله وتمثل حرمة الدم ظاهرةً دينية واجتماعية وعلى المسلمين الالتزام بما أمر به الله سبحانه وتعالى فلا يحل لمسلم قتل أخيه المسلم لأن ذلك مدعاة لغضب الله وزوال النعمة ومن هنا جاء تحذير الإمام للولاة من الإسراف في سفك الدماء في غير محلها لأنها تكون سبباً في زوال النعمة والملك، ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً وقد تمثلت مظاهر البعد الاجتماعي في عهد الإمام علي لمالك الأشتر بالآتي:

أ - أن يتذكر الوالي الفضل للمتقدم من حكومة عادلة وقيادة مخلصة وأن يسلك الطريق نفسه ما دام فيه صلاح الأمة وفي هذا يعلمنا الإمام الخلق الرفيع والأدب العظيم وهو درس عظيم في الأخلاق.

ب - التواضع أمام الناس مهما يكن مستواهم وصنفهم فلا يحق للوالي أن يكون مزهواً بمنصبه ومعجباً بشخصيته وقدرته وكلما دعته نفسه إلى ذلك عليه أن يتذكر قدرة الله عليه وقدرة من ولاه. انه درس في عدالة الوالي.

ج - التواضع أمام الناس مهما يكن مستواهم لأن التواضع من سمات العظام من الرجال وهو صفة من الصفات التي ذكرها القرآن الكريم ومن خصائص الإسلام العظيم قال تعالى ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (لقمان: ١٨). فالوالي في نظر الإمام ينبغي أن يكون بعيداً عن التكبر على الناس، وأن لا يأخذه الزهو والإعجاب بما فيه من منصب، وأن يكون إحسانه شاملاً لعموم الرعية، وأن يكون صادقاً مع رعيته فلا يخلف لهم موعداً ولا يستعجل الأمور قبل أوانها. قال: (وإياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك فيها وحب الإطراء فإن ذلك أوثق فرص الشيطان في نفسه ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين)[١٩]. إن الإمام استعمل في هذا النص أسلوب التحذير لينبه إلى مرض خطير يصيب الولاة ويحذر منه لأنه من حبائل الشيطان التي يريد من خلالها تشويه صورة الدين الإسلامي. وخلاصة ما يمكن قوله في هذا العهد الكبير

إنه يمثل دستور عمل للدولة الإسلامية التي جاء بها الرسول الأعظم (ص) وهو ورقة دائمة يستفيد منها المحدثون كما أفاد منها القدامى في إدارة الدولة الإسلامية. وليس بخافٍ على أحد من الدارسين أن هذا العهد قد أفاد منه كثير من المنظمات الإنسانية وترجم إلى أكثر من لغة لما فيه من أبعاد تنظم الحياة الإنسانية في المجتمعات المختلفة ولم يكن آثر هذا العهد مرحلياً أو ملائماً لنوع محدد من المجتمعات. وإنما كان أثره مرافقاً للحياة في مراحل تطورها المختلفة ويمكن تطبيقه على كل مجتمع سواء أكان ذلك في العالم الإسلامي أم في غيره، لأنه يمثل وثيقة صالحة لكل عصر وزمان وما فيه من أبعاد ينطبق على كل مجتمع مهما كان مكانه أو زمانه وقد ضمنه الإمام خبرته في ميادين الحياة كافة في سياسة ودينية واجتماعية ليكون دستور عمل لكل من يتولى أمور شريحة أو ولاية من الولايات الإسلامية بصورة خاصة والعالمية بصورة عامة.

إن الإمام علي (ع) هو باب مدينة العلم ووصي الرسول وقائد المؤمنين وضع لنا هذه التحفة الأدبية بما هو معهود لديه من بلاغة القول ورصانة الأسلوب وبيان المعنى ليفيد منها العالم كله في إدارة شؤون البلاد والعباد. واسأل الله التوفيق في ما أقدمت عليه.

الهوامش:

(١) الكافي الكليني ٢/١٣٠.

(٢) بحار الأنوار المجلسي ٤/١١٥.

(٣) نهج البلاغة /٥٠٥.

(٤) نهج البلاغة / ٥٠٨.

(٥) نهج البلاغة / ٥١٢.

(٦) نهج البلاغة / ٥١٠.

(٧) نهج البلاغة / ٥١٤.

(٨) نهج البلاغة /٥٠٠.

(٩) نهج البلاغة /٥٠٠.

(١٠) نهج البلاغة /٥٠٠.

(١١) نهج البلاغة /٥٠٠.

(١٢) نهج البلاغة /٥٠٢.

(١٣) نهج البلاغة /٥٠٥.

(١٤) نهج البلاغة /٥٠٢.

(١٥) نهج البلاغة /٥٠٢.

(١٦) نهج البلاغة /٥١٨.

(١٧) نهج البلاغة /٥٠٨.

(١٨) نهج البلاغة /٥١٩.

(١٩) نهج البلاغة /٥٢٠. ❖

« الآخـــــر »
في خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)

د. بشار نديم أحمد الباججي
الكلية التقنية الهندسية، الموصل، هيئة التعليم التقني

الإحساس بالهوية، أو الوعى بالذات، يشكل محور الوعى بصورة الإنسان عن نفسه، أو تصوره لنفسه، وعلاقة ذلك بمفهوم الغيرية، أى الوعى بوجود الآخر المغاير، ومعرفة السمات المميزة، والحدود الفاصلة بين "الأنا والآخر"، والذى يطرح بدوره وبصورة مباشرة، مسألة آليات التشكل الداخلى للوعى بالذات، وديناميات صيرورتها المستمرة، ومن ثم طرق مقاربتها للآخر ونظرتها إليه، وهذا الوعى بالعلاقة بين "الأنا والآخر" من أقدم وأرسخ وأوضح حقائق الوجود البشرى.

وقضية العلاقة بين "الأنا والآخر" سلباً أو إيجاباً، بغضاً وصراعاً، أو محبةً وتواصلاً، قضية قديمة قدم الوجود البشرى نفسه، وقد تمت معالجتها من خلال مقاربات أدبية عديدة، ومن زوايا نظر ومضامين شتى: فلسفية، وسياسية، وأنثروبولوجية، وسوسيولوجية، وتاريخية، وما إلى ذلك من المنطلقات المختلفة لشتى العلوم الإنسانية.

والعلاقة بين "الأنا والآخر" لا يمكن صياغتها في شكل ثابت فهى علاقة تتغير باستمرار مثلما تتغير علاقتنا بالـ"أنا" خلال مراحل العمر المختلفة، وهى مرتبطة بمجمل الظروف والتغيرات المختلفة التى نعيشها، وهذا التنوع يمكن ملاحظته حين تتعدد مصطلحات الحالة الواحدة فالـ "أنا" هى الذات أو الهوية عند المناطقة وهى النفس عند المتصوفة والفقهاء، و"الآخر" هو "الغير" أو "السوى" عند المتصوفة.

وتشكلت في خطب أمير المؤمنين على بن أبى طالب (رضى الله عنه) صورٌ من العلاقات المتشابكة مع أنماط وتنوعات من الآخر عبَّر عنها في خُطبه الرائعة التى جمعها الشريف الرضى في نهج البلاغة.

وقد حَملتْ خطبة لأمير المؤمنين تقسيما دقيقا لأصناف الناس حيث بيَّن أنَّ "الناس على أربعة أصناف منهم من لا يمنعهُ الفسادُ في الأرض إلاَّ مهانةَ نفسهِ، وكلالةُ حدِّهِ... ومنهم المُصلِتُ بسفهِهِ، والمُعلِنُ بشرهِ، والمُجلِبُ بخيلِهِ ورَجلِهِ... ومنهم من أقعَدَهُ عن طَلَبِ المُلكِ ضؤولةُ نفسِهِ، وانقطاعُ سببِهِ... وبقىَ رجالٌ غضَّ أبصارَهم ذِكرُ المَرجِعِ، وأراقَ دُموعَهم خوفَ المحشَرِ..." هذا التصنيف الدقيق لأشكال الـ"آخر" يُشير إلى وعى بثقل المسؤولية التى يحملها الرساليون، وهناك من "الآخر" من وقف أمير المؤمنين بوجهه وجالده بسيفه ولسانه، لأنه رأى فيه عائقاً أمام نهجه الرسالى فمن ذلك خطبته التى قالها بعد مقتل طلحة والزبير حيث يقول: "ما زلتُ أنتظرُ بكم عواقبَ الغدر، وأتوسمُكُم بحليةِ المُغترين، حتى سترنى عنكم جلباب الدين، وبصَّرَنيكُم صدقُ النيَّة، أقمتُ لكم على سَنَنِ الحقَ في جوادِ المَضلَّةِ، حيثُ تلتقون

ولا دليل، وتحتفِرون ولا تُميهونَ.." فهذه الكلمات تُشير إلى إدراك أمير المؤمنين لطريقة التعامل مع هذا الصنف من البشر الذين تشربوا الغدر والخيانة فلجأ إلى تمييز الذات وتشكلها بعيداً عن هذه البيئة الحافلة بأشكال التناقضات السلبية.

واللجوء إلى تميز الذات عن "الآخر" شكلٌ من أشكال الحفاظ على الهُوية فهى تدافع عن خصوصيتها حين لجوئها إلى تنميط "الآخر" حتى تميز نفسها عنه، هذا الشعور بالتميز أنتج حالة اغترابية حين كان الإمام يستشعر الهُوة العميقة التى تفصله عن الكثير من النفعيين والانتهازيين الذين لا يفقهون شيئاً من دوافع الإمام العقائدية التى كانت تحركه.

إنَّ هؤلاء يشكلون الوجه السلبى للعلاقة الشائكة مع "الآخر" لكنّ وجهاً مشرقاً يبرز بين طيّات العديد من خُطبه التى تشير إلى نظرةٍ مُقاربةٍ وتواصلٍ يتبناها أمير المؤمنين في وعيه لتنوع العلاقة بين الـ"أنا" والـ"الآخر" وتشير إلى أنه كان يتخذ موقفاً مرناً من هذا المفهوم، بمعنى أنه كان يعتقد، بأنَّ العلاقات الإنسانية ليست شيئاً جامداً، بكل مُشخصاتها ومحدداتها إلى الأبد، بل هى شىء قابل للتغيير وللتبدل، فالباب مفتوح للتواصل وللحوار وللتفاعل الإيجابى حتى مع من يعدون أنهم "الآخرون" المخالفون لنا، أو حتى المعادون لنا ولهويتنا. وذلك بسبب التأثير والتأثر الحتمى بين البشر متى ما التقوا وتفاعلوا بعضهم مع البعض الآخر كيفما كانت طبيعة ذلك اللقاء. تُقدم خُطبُ أمير المؤمنين صورة لتفاعل الـ "أنا" مع "الآخر" يصلُ حدَّ التماهى، وتُقدم صورة هذا التماهى بتجربة حيَّة تُقدمها بكل صدقها وعفويتها، فالذاتُ في حركةٍ دائمة نحو الآخر. ولكى تبلغ الذات "الآخر" لابد من أنْ تتجاوز نفسها.

إنَّ تنوع العلائق التى عبَّر عنها الإمام في خُطبه يُشير إلى أنّه كان قد وضع لنفسه هدفاً محوريا لا يمكنه أن يتجاوزه وهو حمل أعباء الرسالة الإسلامية، ونشر مبادئها العظيمة التى تلقاها من صاحب الرسالة الرسول الأعظم (ص)، وأنَّ العلاقات مهما كانت شائكة ومتوترة مع أصنافٍ من الناس فلا يمكنها بحالة من الأحوال أن تُنسيه هدفه الأسمى، ويُمكننا إدراك أهمية هذا الهدف ومحوريته من ملاحظة خُطبه التى حوتْ في معظمها إشارات وتنبيهات إلى القيم والعقائد الإسلامية كالإيمان بالله واليوم الآخر ونبوة محمد (ص) والعدل والوقوف بوجه الظلم والتحذير من الطغيان والترف والغلو.

إنَّ شخصية أمير المؤمنين تسير في نهجين متوازيين: النهج الأول نهج السماحة المنفتح للحوار مع الآخر حين يَرى أنَّ ذلك يسير وفق رؤيته الرسالية، وهنا لا يرى أميرُ المؤمنين مانعاً في التنازل عن كثيرٍ من حقوقه وحقوق آل بيته الطاهرين حين يؤدى ذلك إلى تقريب وجهات النظر، وكسب المخالفين، والنهج الآخر: نهج صُلبٌ شديدٌ حين يتعلق الأمر بموقف عقائدى لا يمكن التهاون فيه. وهو أمر يُشير أيضاً إلى شخصيةٍ متوازنةٍ قد صقلتها التجارب والشدائد وهذه سمة من سمات الشخصية القيادية الناجحة.

وخُطبه حملت بين جنباتها قدرتها التأثيرية في المتلقى، وما ذاك إلا لكونها خُطبٌ معجونةٌ بالمحن والتجارب، وتُشير أيضاً إلى مقدرةٍ لغوية فائقة تشكلت من بيئة الإمام الذى تربَّى في حِجر النبى الأعظم (ص) الذى هو أفصح العرب. ❖

الإمـام عـلـي (ع)
وفـن التعامـل مـع النـاس

د. رزاق عبد الأمير مهدي الطيَّار ـ د. سهاد كاظم الموسوي
جامعة الكوفة، كلية التربية الأساسية ـ وزارة حقوق الإنسان

مقدمة:

الحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على سيد خلقه محمد النبي الأمين وعلى آل بيته الكرام المنتخبين الأئمة الهداة المعصومين وعلى صحبه الميامين ومن تبع شرعه إلى يوم الدين.

لم يزل أمير المؤمنين عليٌّ (ع) مثالاً يَقتدي به الطامحون لتحقيق الإنجازات الدنيوية والأخروية، فكل من يروم النجاح في حقل من الحقول لا يعدم أن يجد في تراث علي (ع) وسيرته العطرة نموذجا للتمييز والنجاح، وحق للإنسانية أن تفخر بأعظم عظمائها بعد النبي محمد (ص) وأن تنهل من سيرته الطيبة والمميزة رحيقاً يمدها بالحياة، ويوصلها للفوز بالآخرة، وما يميز سيرته (ع) أنها تحقق الغرضين الدنيوي والأخروي، فالتقدم والتمييز حاصل لا محالة لمن ينتهج سبيله في الدنيا، ورضا الله مضمون في الآخرة.

يُعدُّ التعامل مع الناس من أصعب الممارسات الاجتماعية التي يمارسها البشر ضمن مجتمعاتهم: وذلك لكثرة المتغيرات في النفس البشرية، وتمثل عملية التعامل بين البشر احتكاكا بين نفسيتين مختلفتين أو نفسيات متعددة، ولكل نفس إنسانية خصائصها المتقلبة والمتغيرة من هنا تأتي صعوبة هذه الممارسة، ويشكل (فن التعامل مع الناس) اليوم واحدا من أسس نجاح الأشخاص والقادة والمتصدين للعمل الاجتماعي، وكلما اكتسب الشخص مهارات التعامل مع الناس وأجاد استعمالها حقق لنفسه ولمؤسسته النجاح والتقدم والفرادة. ويعد هذا الفن من أهم مقومات (إدارة الذات) وتحاول أدبيات الإدارة العامة وضع أسسه العريضة، ولكنه يبقى فنا يتميز به كل شخص بطريقته الخاصة بما يحقق ذاته المتفردة، ولا تخفى أهمية هذا الفن في العمل المؤسساتي في وقتنا الراهن لتحقيق مقومات النجاح والإنجاز الفعلي لعمارة الأرض واستعمارها وتحقيق معنى الخلافة الإلهية للبشر.

إن تتبع أسس هذا الفن عند أمير المؤمنين (ع) يقدم لنا قواعد رصينة وآمنة، يمكن السير في هداها باطمئنان، لأنها تحقق لنا الغايتين الدنيوية والأخروية. ويحاول هذا البحث رصد أهم أسس النجاح في (فن التعامل مع الناس) من خلال استقراء تراث الإمام علي (ع)، وسينقسم البحث على أربعة مباحث رئيسة تسبقها توطئة من نقطتين، الأولى بعنوان: (حياةُ عليٍ (ع) مِثالٌ للإنسانية ومَنارٌ للحُريَّة)، والثانية منهما بعنوان: (مفهوم فن التعامل مع الناس)

وأهميته)، وهما بمثابة تمهيد أولي لما يأتي من مباحث، ثم يأتي المبحث الأول الذي يُعنى بـ(مهارات الفهم والتواصل)، ثم المبحث الثاني (مهارات الجذب والتأثير) ثم المبحث الثالث (مهارات الحث والتحفيز)، ثم المبحث الرابع (مهارات بناء العلاقات الناجحة)، وبعدها لخصنا (نتائج البحث والتوصيات) ذكرنا في كل مبحث بعض الوصايا التي يمكن للفرد الإفادة منها متمثلين حياة أمير المؤمنين علي (ع) وأقواله الحكمية المستقاة من كتاب (نهج البلاغة) وكتب التراث المعتبرة الأخرى، ولكن مما يؤسف له أن البحث محددٌ بعشرين صفحة بحسب ضوابط المؤتمر، وهذا التحديد ضيق علينا ذكر كثير من قواعد هذا الفن، وضيق عينا التوسع في بيان الأمثلة، فكان البحث بمثابة إنارة للموضوع أمام الباحثين ليكتب فيه المختصون رسائل جامعية، أو كتبا متخصصة، وقد نعود نحن للبحث ونتوسع فيه بحسب ما يقتضي الموضوع لاحقا لنخرجه في كتاب إن وفقنا الله تعالى لذلك.

ويشرفنا أن نكتب هذه الوريقات ونتقدم بها على خجل في حضرة أمير المؤمنين وساحته الرحبة ضمن مؤتمر الغدير الذي تقيمه (العتبة العلوية المشرفة) احتفالاً بمهرجان الغدير الأول هذا العام راجياً من مولانا القبول وسائلين الله تعالى أن التوفيق، إنه سميع مجيب.

توطئة:

أولاً ـ حياةُ عليٍّ (ع) مِثالٌ للإنسانية ومَنارٌ للحُريَّة:

لقد جسدت حياة أمير المؤمنين علي (ع) الإرادة الإلهية الحقَّة، ومثلت نموذجاً حيَّاً واضحاً لمعنى خلافة الله في أرضه، فكان (ع) مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1]، فهو عَدلُ الله في أرضه، ورَحمتُه بين عباده، وكبرياؤه التي يمنحها للمؤمنين، وقوته التي يمد بها المتوكلين، كانت حياة علي (ع) نبراساً للمتوسمين، وهديا للصالحين، كانت حياته (ع) عبادة العابدين، وزهد الزاهدين، وكفاح المشتغلين، وولهه العاشقين، وجهاد المجاهدين، وصبر الصابرين.

تمثل الإعجاز والتسديد الإلهي منذ يوم ولادته، حين استجارت فاطمة بنت أسد بالبيت العتيق، بيت أبيهم إبراهيم (ع)، ودَعَتْ رَبَّها، وناجته بسرٍ تعلمه جيداً، طلبت منه أن يفرج عنها[2]، فاستجاب لها ربُّها، فولدت في محراب الدين نوراً إلهياً، وطيفاً قدسياً، وروحاً علوية، فكانت تلك أولى ميزاته، التي لم يشاركه فيها أحدٌ من البرية أجمعين، وتستمر حياتُه (ع) منذ تلك اللحظة في عبادة خالصة، وعبودية محققة، لخالقها وبارئها، لم تشغله الدنيا طرفة عين، ولم تُلهِهِ ملذاتها بُرهة من الدهر، أرضعته يَدُ السماء وغَذَّتْهُ، وأعدته الإرادة الإلهية وربته، لم تكن ملازمته للنبي محمد (ص) من أول يوم صدفة، ولم يصطحبه النبي معه عبثاً،

---

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) ينظر: الأمالي للصدوق: ١٩٢، وينظر مصادر الرواية كاملة: الغدير: ٦/ ٢١.

بل كان يصطنعه بعين الله، ويُعده لينجز ما وعد الله من النصرة لدينه ونبيه والدفاع عنهما، ولم يقف المدد الإلهي عنه في لحظة ما، حتى يوم وفاته في محرابه بمسجد بالكوفة.

وأيُّ عناية ورعاية إلهية أكبر من أنَّ خاتم الأنبياء (ص) كان يمضغ الشيء ثم يلقمه لفتاه[1]، ولم يكن ذلك (الشيء) الطعام فحسب، بل لاشكَّ أنه الإيمان، والعلم، والتقى، والهداية، والمكارم الربانية، والأخلاق السماوية، كان النبي (ص) يتلقاها عن السماء، فيمضغها ويلقمها عليا (ع) في كل حين.

ولقد أشرت في بحث سابق[2] أن تلك الخصائص النفسية، والصفات الجسدية، والسمات الروحانية، عند عليٍّ (ع) كانت هي نفسها صفات النبي محمد (ص)، وخصائصه وسجاياه، ومصدرها عند الاثنين (النبي محمد والإمام علي (عليهما السلام) ذلك النور الإلهي الذي تخيره الله سبحانه وتعالى في عليائه، وأودعه صلب آدم (ع)، ولم يزل ينتقل ويتنزل بين الأصلاب الطاهرة، والأرحام المطهرة من سلاله الأنبياء، وأولادهم، بخُطَّةٍ إلهيةٍ حتى وَصَلَ إليهما، فقد روى الشيخ الصدوق (ت٣٨١هـ) عن النبي محمد (ص) قال: (**قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) كُنْتُ أَنَا وعَلِيٌّ نُوراً بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ بِأَرْبَعَةِ آلافِ عَامٍ فَلَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ سَلَكَ ذَلِكَ النُّورَ فِي صُلْبِهِ فَلَمْ يَزَلِ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ يَنْقُلُهُ مِنْ صُلْبٍ إِلى صُلْبٍ حَتَّى أَقَرَّهُ فِي صُلْبِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ثُمَّ أَخْرَجَهُ مِنْ صُلْبِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَسَمَهُ قِسْمَيْنِ فَصَيَّرَ قِسْمِي فِي صُلْبِ عَبْدِ اللَّهِ وقِسْمَ عَلِيٍّ فِي صُلْبِ أَبِي طَالِبٍ فَعَلِيٌّ مِنِّي وأَنَا مِنْ عَلِيٍّ لَحْمُهُ مِنْ لَحْمِي ودَمُهُ مِنْ دَمِي، ...**)[3]، نتلمس في هذا الحديث النبوي الشريف دقة الوصف، وكيف أن الإرادة الربانية شاءت أن تكون نفس النبي محمد (ص) ونفس الإمام علي (ع) من سنخ واحد ومن صنف واحد، إذ كانت جيناتهما الوراثية وحدة واحدة (كروموسوم يحمل صفات نقية)، تنتقل من الآباء الطاهرين إلى البناء المطهرين من ذرية آدم، حتى وصلت إلى صلب عبد المطلب، فانشطرت نسختين متماثلتين، ذهبت واحدة منهما في صلب عبد الله، والثانية في صلب أبي طالب، فخُلِقَ

---

(١) قال أمير المؤمنين (ع): (وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (ص) بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلى صَدْرِهِ وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ وَلا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ (ص) مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ وَمَحَاسِنَ أَخْلاقِ الْعَالَمِ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلاقِهِ عَلَماً وَيَأْمُرُنِي بِالاقْتِدَاءِ بِهِ وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ وَلا يَرَاهُ غَيْرِي وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الإِسْلامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ (ص) وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ وَأَشَمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ) نهج البلاغة: (محمد عبده) ٢/١٧٥، شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد: ١٣/١٩٧.

(٢) ينظر: الأثر الأدبي للإمام علي(ع) في حِكَمِ الإمامين الكاظم والجواد (عليهما السلام) (بحث): ٤ - ٦.

(٣) الخصال: الصدوق: ٤٦٠ وللاطلاع على مزيد من الروايات في هذا الشأن ينظر: الأثر الأدبي للإمام علي(ع) في حكم الإمامين الكاظم والجواد (عليهما السلام): ٤ - ٦.

من تلك خاتمُ الأنبياء، وخُلِقَ من هذه سيدُ الأوصياء، ويؤكد النبي (ص) في ختام حديثة الشريف أن لحمهما واحد، ودمهما واحد، متماثل تماماً في الخواص الجينية. إن التفسير العلمي لهذه الرواية ومثيلاتها متسق تماماً مع ما انتهى إليه العلم الحديث في أن مورثات الفرد تنتقل إليه من الأسلاف وإن علت، وإن الجينات قد تبقى تحمل مورثات نقية (جينات لصفات سائدة ليست هجينة) إذا حافظ الأفراد على نمط معين من التناسل والتناسب.

إن التماثل بين خاتم الأنبياء (ص) وسيد الأوصياء (ع) لم يكن في الشكل واللون والسحمة فحسب، بل كان ذلك التماثل في الصفات النفسية الفريدة، والسجايا الكريمة والخصال الحميدة، والأخلاق الفاضلة، وحتى وإن كانت هذه الخصال تتأثر تأثراً كبيراً بالبيئة والتجربة الشخصية، والاستعداد الذاتي مما يجعل فوارق فرديه بين الأفراد العاديين، إلا أن النبي الأكرم والوصي الأعظم تماثلت صفاتهما الكريمة كلها؛ لأن بيئتهما كانت واحدة، لم تفترق طرفة عين، فَمُذْ وُلِدَ عليٌّ (ع) كان في كَنَفِ سيد الكائنات فقد أشرف (ص) على تربيته، ورعايته، وتنمية مواهبه، وصقل أخلاقه، وكان أمير المؤمنين (ع) يتبع النبي (ص) إتباع الفصيل أثر أمه. حتى شهد له الخلق بأنه كان: (أقربهم من رسول الله (ص))، أشبههم به هدياً وخلقاً وسمتاً وفعلاً)[1].

وهكذا كانت حياة عليٍّ (ع) مثالاً للإيمان كله، الإيمان الذي تريده السماء، وكان عليٌّ القرآن الناطق، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكانت حياته الشريفة، نموذجاً للسماحة والعدل والاعتدال، كان للمؤمنين عمداً وحصناً، وكهفاً وقنة راسية، وعلى الكافرين عذاباً صباً ونهباً، وغلظة وغيضاً، شديداً في ذات الله بالمؤمنين رؤوف رحيم.

إن الكاتب ليعجز عن وصف حياة عليٍّ (ع) وسيرته العطرة المنيفة، وأنّى يحيط العاجزون أمثالُنا بوصف أكثر صفحات الإنسانية إشراقا وبهاء، وما عسانا نقول في وصفها في صفحتين أو ثلاث، وقد عجزت عن الإحاطة بدقائقها عشرات الآلاف من الصفحات التي تزاحمت في ذكر أخبار معاليه، وفضائله، ومكارمه، ومعاجزه، وقد بذل في محاولة الإلمام بها جهابذة العصور، وعظماء المحققين، وفطاحل المؤرخين، وكبار الأدباء والمبدعين، من المسلمين وغير المسلمين كل الجهد والوسع والطاقة، لكنهم يعترفون جميعاً أن في حياته بقية للقول، وأن فضائله أكثر من أن تحصيها الأوراق، وتحيط بها العنوانات، ليكون ذلك الجهد الضخم على مر العصور برهاناً ساطعاً أن حياة عليٍّ (ع) لم تكن حكراً على دِينٍ دونَ آخرٍ، ولا على فئة دون سواها، ولا على جماعة مخصوصة، أو شيعة محدودة، وإنما كانت مثالاً للإنسانية كلها.

أختم هذا الإيجاز بقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[2] لقد أمرنا الله تعالى أن نتأسّى بالنبي محمد (ص)، وأول التأسي به

---

(١) من لا يحضره الفقيه: الصدوق: ٢/٥٩٤.

(٢) الأحزاب: ٢١.

إتّباعُ أخلاقه الكريمة الطيبة، التي امتدحه الله تعالى بها قائلاً: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[١] تلك الأخلاق التي كانت سبباً في قبول كثير من الناس دعوته الكريمة للدين الحنيف، وما أخلاق عليٍّ (ع) وسيرته العطرة ببعيدة عن خلق سيد لكائنات، بل هي نفسها حَذو القذة بالقذة، فليس لنا اليوم لعلاج كثير من أزماتنا الاجتماعية ـ وأولها أزمتنا الأخلاقية ـ إلا إتّباعَ سيرتيهما العطرة، والاقتداء بهما، فهما مثالنا الأول للرقي بالقيم الإنسانية، وصلاح مجتمعاتنا المتردية، لعلنا ننهض بواقع أفضل لأبنائنا وأحفادنا، ولقد أمَرنا النبيُّ الأكرم (ص) بأن نأخذ بعليٍّ والأئمة المعصومين من آل بيته في أكثر من موضع، لعل أوضحها حديث الثقلين المتواتر[٢].

ثانياً ـ مفهوم (فن التعامل مع الناس) وأهميته:

العمل في اللغة هو الفعل[٣]، وزعم بعض أئمة اللغة أن العمل أخص من الفعل لأن العمل تصاحبه مشقةٌ، لذا لا ينسب لله تعالى، وقيل أيضاً هو ما يصدر بقصد[٤]: والتعامل: هو المعاملة[٥]، وهو على وزن (تفاعل) وتدل هذه الصيغة في العربية على المشاركة في إيقاع الفعل بين طرفين، **أي يشترك في إنجاز الفعل فاعلان في وقت واحد ولا يقع من فاعل واحد**[٦].

لم أجد فيما وقع بين يدي من أدبيات علم (الإدارة) من يخص مصطلح (التعامل) بتعريف اصطلاحي مختص، ومع ذلك يمكن أن أعرفه ضمن مفهوم (التعامل بين الناس) بأنه: **عملية إنجاز التواصل الناجح بين فردين من أفراد البشر على الأقل أو مجموعة أفراد لتحقيق أهداف معينة**، ويقصد بالتواصل معناه الأعم أي التوافق الإيجابي والاستمرار في إجراء فعل ما سواء أكان هذا الفعل قولياً (حديث أو نقاش معين) أو عضلياً أو عقلياً.

ولما كان الإنسان كائناً اجتماعياً بالطبع يعيش في تجمعات منظمة لا منفرداً ويخدم بعضه بعضا، صار لزاماً عليه أن يتعامل مع أفراد آخرين من أبناء جنسه، فهو يتعامل مع أفراد عائلته بمراتب مختلفة، ويتعامل مع أقرانه بشكل مختلف، ويتعامل مع زملائه في العمل بشكل ثالث، ويتعامل مع الباعة في الأسواق بشكل رابع، هكذا تتنوع أنماط التعامل بين أفراد البشر لكنها كلها تؤدي إلى إنجاز تواصل معين بينهم، وتحقق لهم أهدافاً محددة، قد تكون عاطفية أو اقتصادية أو علمية أو تنظيمية أو غيرها. وكلما زاد نشاط الإنسان في مجتمعه زاد حاجته إلى التعامل مع أفراد جنسه.

---

(١) القلم: ٤.

(٢) ينظر في شأن حديث الثقلين وتفاصيل أسانيده وتحقيق شروط تواتره: الغدير: ١٧٥/٧، عبقات الأنوار: النيسابوري مجلد: ١، ٢، وما أدراك ما علي: الفرطوسي: ٤٠٩/١ ـ ٤٢٣.

(٣) لسان العرب: مادة (عمل) ٤٧٥/١١.

(٤) ينظر: تاج العروس: مادة (عمل) ٥٢١/١٥.

(٥) ينظر: نفسه: ٥٢٤/١٥.

(٦) ينظر: العين: مادة (طعن) ١٥/٢، شرح شافية ابن الحاجب: ١٠٠/١.

إن تركيبة النفس الإنسانية شيء معقد جداً إذ تتحكم بها مجموعة كبيرة من العوامل التي تجعلها متقلبة الأوضاع، غير مستقرة الميول، متغيرة الاتجاهات، بين حين وآخر، بعض هذه العوامل المؤثرة في النفس الإنسانية قد تكون وراثية، يكتسبها الفرد من أسلافه، وبعضها قد يكون كسبياً، يحوزه الفرد من بيئته التي يترعرع فيها، وبعضها يعود للآخر، ولها تأثر ما على تصرفات الفرد، وهكذا يتبين أن التعامل مع الناس أمر معقد جداً وليس يسيراً: وذلك لأن النفس الإنسانية معقدة بشكل كبير: إذ هي ليست نظاماً آلياً منطقياً تحكمه القواعد الرياضية الثابتة مثل جهاز الحاسوب أو غيره لنتحكم بها ونتعامل معها بشكل ثابت ومستقر، إن النفس الإنسانية مزيج من: العواطف الرقيقة، والكبرياء، والعنفوان، والأنا، والحب، والبغض، والغضب، والجشع، وبعض الظلم، وعناصر أخرى كثيرة. وتختلف نسب هذه المكونات عند كل فرد من أفراد البشر، ولا يمكن أن نجد فردين متماثلين تماماً في صفاتهما النفسية والوراثية مطلقاً، وهكذا فلن نتمكن من إجراء تعامل متماثل تماماً مع فردين من أفراد البشر، بل يجب علينا أن نتعامل كل فرد بشكل مناسب، تعاملاً منسجماً مع نفسيته، ويحقق لنا أهدافنا الاجتماعية.

لقد أولى خبراء الإدارة هذا الجانب (التعامل مع الناس) عناية خاصة، وجعلوه قسماً مهما من أقسام (إدارة الذات) التي تشمل أيضاً: إدارة العقل، وإدارة الوقت، وأشياء أخرى، وتبينت لهم أهمية تنظيم قواعد عامة يُنصح بها الأفراد عند (التعامل مع الناس)، إن كل فرد من أفراد البشرية يمكنه أن يفيد كثيراً من معرفة هذه القواعد وتطبيقها، وأكثر من تكون به حاجة لإتقان هذه المهارات هم الإداريون والقادة في المؤسسات أو الشركات العامة والخاصة: إذ يرتبط جزء مهم من عمل الإداري أو القائد بالتعامل مع الناس مِنْ حَولِهِ: التعامل مع الأنداد والتعامل مع الرؤساء والتعامل مع الأتباع، والتعامل مع الزبائن، وغيرهم.

إن القيادة هي فن إدارة الناس وتوجيههم نحو الهدف، وإدارة الناس مرتبطة بالتعامل معهم بأسلوب يقنعهم بالتعاون مع القائد، والسير خلفه نحو هدف واحد، ويقول بيلفر شتاين في هذا المجال: (يظن كثير من رجال الإدارة أن العلاقات الإنسانية فصل في كتاب (تنظيم العمل). وهم مخطئون في هذا، فالعلاقات الإنسانية هي كل الكتاب)[١]. يتطلب التعامل مع الناس مهارات مختلفة ومتعددة، لا يستطيع المرء بدونها أن يطور نفسه، أو يجمع الناس من حوله، وقد وجدت الأبحاث العلمية الحديثة أن نجاح الإنسان في القيادة مرهون بقدرته على إتقان مهارات التعامل، وأن ٨٥٪ من النجاح في القيادة يعزى إلى مهارات التعامل[٢].

وعلى الرغم من الجهد الكبير الذي يبذله خبراء الإدارة في وصف القواعد العامة التي يمكن لها أن تدير تعامل الأفراد، وتحقق التواصل الناجح بينهم، إلاَّ أن هذه القواعد تبقى رهناً

---

(١) التعامل مع الناس (الفهم والاتصال): د. طارق السويدان: (بحث إلكتروني).

(٢) ينظر: نفسه.

بمستعمليها، فهي قواعد عريضة يتفنن في تطبيقها الأفراد، كلٌّ بحسب خبرته وقدراته النفسية والعقلية، وتجاربه الفردية، فلكل فرد أسلوبه الخاص بتطبيق تلك القواعد والوصايا العامة، لذلك سميت (مهارات التعامل مع الناس)، ويتضمن معنى المهارة الإشارة إلى الذاتية الفردية عند مستعملها، والإشارة أيضاً إلى الخبرة الشخصية المتكررة والمختزنة، نتيجة الاستعمالات الكثيرة، والتجارب العديدة، إن سمة الفردية في استعمال تلك النصائح والوصايا جعلت منها نوعاً من أنواع الفنون التي يجيدها الفرد، فكل فرد يستعمل تلك المهارات بشكل مميز عن الآخر. بشكل يماثل تماماً فنانين يرسمان منظراً واحداً، كل منهما يرسمه بانطباع خاص به، ولا يمكن أن يقلده فيه الآخرون، من هنا أطلق عليها (فن التعامل مع الناس).

المبحث الأول
مهارات الفهم والتواصل

أولاً - حُسن الاستماع:

تمثل اللغة أفضل وسائل الاتصال والتواصل بين أفراد البشر، وهي الوسيلة الأكثر فاعلية لتحقيق حوار ناجح بين طرفين، والحوار صفة بشرية، من شأنه جذب العقول المباينة، وتقريب النفوس المتنافرة، وترويضها، وكبح جماحها، وإخضاعها لأهداف الجماعة ومعاييرها، ويقوم الحوار الناجح على ميزة مهمة وهي **حُسن الاستماع**، والإصغاء لشريكنا في الحوار: إذ يشعر الطرف الآخر أنك جاد في التعامل معه باحترام، وأن غايتك من التواصل معه حل المشكلة، والاقتراب من وجهة نظره بجد.

وقد وصف الله تعالى ذاته المقدسة بأنه (سميع) في أكثر من موضع[1]، وهي صيغة مبالغة تدل على كثرة السمع، و (السميع) واحدٌ من أسمائه المقدسة. وأمرنا تعالى بالسمع والإنصات للقرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[2]، ليدلنا سبحانه على أهمية (السمع والإنصات) في العلاقات البشرية والحوار الإنساني الهادف.

وقد جسد أميرُ المؤمنين عليّ (ع) هذا الخلق السماوي على أكمل وجه، فكان (ع) يستمع للكبير والصغير، للمخالف والمؤالف، وينصت إليهم باهتمام، حتى إذا أتم المتكلم كلامه أبدي له من الجواب أرفقه، وأحسنه مقاماً، وأفضله منفعة، وقد جرت في حياته الكريمة حوارات كثيرة وطويلة مع أتباعه وأعدائه، مع المسلمين وغير المسلمين وفي كل ذلك الحوار كانت سمته حُسنُ الاستماع من شريكه في الحوار والحديث، ولا يقطع على متكلم حديثه حتى يتمه؛ لأن من حق المتكلم أن يتم حديثه ليعرب عما في نفسه.

---

(١) ينظر: { إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً } النساء: ٥٨، والنساء: ١٣٤، النساء: ١٤٨.
(٢) الأعراف: ٢٠٤.

من ذلك أن الخليفة عثمان لما حُوصر في داره واشتد الموقف عليه استعان بأكثر من شخص ممن كان يعتقد بهم أنهم ينقذوه، فلم يجبه أحد منهم أحدٌ، فبعث لعليٍّ (ع) أن يقدم عليه، بعدما كان قد طلب منه أن يترك المدينة، قبل ذلك، وقد استجاب (ع) لطلبه، وعاد إلى المدينة لما علم أن الثائرين عليه يوشكون على الفتك به، ويروي لنا قنبر مولى علي (ع) هذا الخبر: (**قَالَ دَخَلْتُ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلامُ عَلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ فَأَحَبَّ الْخَلْوَةَ وَأَوْمَى إِلَيَّ عَلِيٌّ (ع) بِالتَّنَحِّي، فَتَنَحَّيْتُ غَيْرَ بَعِيدٍ، فَجَعَلَ عُثْمَانُ يُعَاتِبُ عَلِيّاً (ع) وَعَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلامُ مُطْرِقٌ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ عُثْمَانُ، فَقَالَ مَا لَكَ لا تَقُولُ. فَقَالَ إِنْ قُلْتُ لَمْ أَقُلْ إِلا مَا تَكْرَهُ، وَلَيْسَ لَكَ عِنْدِي إِلا مَا تُحِبُّ**)[1]، نرى من هذه الرواية أن الإمام علي (ع) مع شدة الموقف وحرجه استمع من عثمان مقالته، ولم يقطع عليه حديثه، مع أن له ملاحظات وتعقيبات ومداخلات على حديث عثمان وسياسته في إدارة البلاد والعباد، وكان مطرقاً حتى تعجَّبَ عثمان مم سكوت الإمام؟ فطلب منه أن يقول شيئاً في جوابه، فرأى الإمام أن الموقف الساعة لا يحتمل الرد على العتاب، الساعةُ ساعةَ قرار لإنقاذ نفس بشرية فقال له (**إن قلت لم أقل إلا ما تكره**) لأن الحقيقية التي سيواجهه بها ستكون ثقيلة عليه، وكان سينصحه بما يصعب عليه فعله، فآثر الإمام أن يستمع منه ولا يرد عليه، إلا بدفع الضرر المحدق به ساعته تلك، وقد دفع عنه فعلاً.

وكان عليٌّ (ع) يأمر ولاته على المدن أن يستمعوا إلى عامة الناس، وفقرائهم، ولا يَحُولنَّ الحجابُ بينهم وبين الرعيَّة، جاء في عهده لمالك الأشتر حين ولاه مصر: (**وَاجْعَلْ لِذَوِي الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْماً تُفَرِّغُ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ وَتَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِساً عَامّاً فَتَتَوَاضَعُ فِيهِ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَكَ وَتُقْعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَشُرَطِكَ حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ص) يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ (لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لا يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ الْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ) ثُمَّ احْتَمِلِ الْخُرْقَ مِنْهُمْ وَالْعِيَّ وَنَحِّ عَنْهُمُ الضِّيقَ وَالأَنَفَ يَبْسُطِ اللَّهُ عَلَيْكَ بِذَلِكَ أَكْنَافَ رَحْمَتِهِ وَيُوجِبْ لَكَ ثَوَابَ طَاعَتِهِ**)[2]. يتضح جلياً من هذا العهد أن أمير المؤمنين (ع) يوجب على ولاته أن يستمعوا وينصتوا بإمعان لعامة الناس، وأن لا يرهبوهم بالشرطة والحجاب والحمايات، حتى يتكلم الناس بحوائجهم بدون خوف أو رهبة من الحاكم، بل أمرهم أن يحتملوا من عامة الناس الخُرقَ، وهو العُنفُ في القول، والعيَّ وهو عُسرُ الكلام، وأن يكون صدرهم رحباً لهم، يمنحونهم ما يكفي من الوقت للكلام وعرض حالهم بما يريدون.

ولابد أن يرافق حُسنَ الاستماع سعةُ الصدرِ، وقد قال (ع) في غير موضع: (**آلَةُ الرِّيَاسَةِ سَعَةُ الصَّدْرِ**)[3] ولا بد أن يرافقَ حُسنَ الاستماع عدمُ الأنف من الناس والرحمةُ والرفقُ بهم، ثم

---

(١) معاني الأخبار: الصدوق: ٣٠٨ ـ ٣٠٩، وينظر معه: شرح نهج البلاغة: ١٤/٩، تاريخ مدينة دمشق: ابن عساكر: ٣٦٤/٣٩.

(٢) تحف العقول: ١٤٢ ـ ١٤٣، وينظر معه: نهج البلاغة: ٤٣٠.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٤٠٦/١٨.

إن من يُحسِنُ الاستماعَ يكون قادرا على فهم الكلام على وجهه الصحيح ولا يَخطئ بتفسيره لتعجله بسماعه على شكل غير سليم، ويكون قادراً على موازنة الأمور أثناء استغراقه بالسماع الجيد والإنصات للمتكلم، والمستمع الجيد يُشعرُ الآخرين بالاهتمام بهم، وهو أقلُّ عُرضَةً لزلّة اللسان، وأقل تصادماً مع الناس في النقاشات أو المشادات الكلامية، وبمقدار إجادتنا للاستماع والإنصات يكون نجاحنا في الحوار وتميزنا في تواصلنا مع الآخرين.

ثانياً ـ فهم النفسية الإنسانية:

تتجاذب النفس الإنسانية عوامل عدة بعضها غريزي وبعضها يكتسبه الإنسان من بيئته، ونصف تلك العوامل يعدُّ في علم الأخلاق سلبياً، والنصف الآخر إيجابيٌّ، وهكذا صار على الحكماء تهذيب النفس الإنسانية لتسير بين الخوف والأمن، والزهد والطمع، والقناعة والجشع والأقدام والإحجام، والعدل والظلم، والكرم والبخل ومثل ذلك عشرات الصفات التي يسعى الروحانيون إلى تنميتها عن الفرد لتهذيب المجتمعات والرقي بها في طريق السمو الأخلاقي.

وإذا أراد الإنسان التواصل الناجح والفعال مع الآخرين عليه أن يفهم النفس البشرية وما فيها من ضيق قد يلم بها وعليه أن يعي تماماً تلك النزعات السلبية السفلية التي تجذبها نحو الشُّح والبخل والخوف والطمع والجشع، عليه أن يراعي أننا نتعامل مع بشر لا ملائكة.

كانت وصايا الإمام علي (ع) تراعي النفس الإنسانية دوماً وتطلب منا التعامل مع الناس بما فيهم من سلبيات وأخطاء، وأن يكون تعاملنا مبنياً على أسس أخلاقية سامية وصحيحة، ولا نغفل طبيعة النفس الإنسانية. فلا نلوم الناس على حب الدنيا فقد جبل الإنسان على ذلك قال أمير المؤمنين (ع): (**النَّاسُ أَبْنَاءُ الدُّنْيَا ولا يُلامُ الرَّجُلُ عَلَى حُبِّ أُمِّهِ**)[1] ففي تواصلنا يجب أن نراعي أن كل فرد يحب أن يكون له من هذه الدنيا حظ كبير، وأن تحقيق المنافع المادية شيء مشروع للأفراد، ومثلما نريد تحقيق مصالحنا الذاتية يجب أن نتيح للآخرين فرصة كريمة لتحقيق مصالحهم أيضاً، ونبه إمامنا (ع) قائلاً: (**مَنْهُومَانِ لا يَشْبَعَانِ طَالِبُ عِلْمٍ وطَالِبُ دُنْيَا**)[2] فطلب الدنيا قد يصاحبه النَهَمُ وهو الإفراط في الشهوة[3]، وهنا تبلغ المباحات حد الخطر، فقد يظلم الإنسان، وقد يجور في طلب ما ليس له به حق، وعندها يقع في المحرم، ومن يجيد التعامل الناجح مع الآخرين عليه تلمس ذلك الخيط الفاصل بين المشروع من حب الدنيا وطلبها والتجاوز على حقوق الآخرين وأخذها منهم باطلاً. ومتى ما راعى الإنسان حصول الآخرين على حقوقهم كان أثيراً عندهم ومحبوباً لديهم. وقد أوصى أمامنا عليّ (ع) ابنه

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٢٠٩/١٩، نهج البلاغة: ٧٣/٤.

(٢) الكافي: ٤٦/١، نهج البلاغة: ١٠٥/٤، شرح نهج البلاغة: ١٧٤/٢٠.

(٣) ينظر لسان العرب: مادة (نهم): ٥٩٣/١٢.

الحسن بهذه الوصية قائلاً: (يَا بُنَيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا وَلا تَظْلِمْ كَمَا لا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ)[١] إن فهم نفسية الآخر والتفكير فيما يحبه الآخرون طريق ناجح وفعال للوصول إلى تواصل ناجح معهم[٢].

ومن صفات النفس البشرية الجهل والمحدودية، فالإنسان قاصرٌ ومحدودٌ وليس له أن يحيط إلا بما وسعه جَهده، لكن هذه النفس تأبى أن تكشف عن جهلها ومحدوديتها، فقد يسعى الفرد إلى محاربة ما لا يعلم لأنه جاهل به ليس إلاّ، قال أمير المؤمنين (ع): (النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا)[٣] والعلة في ذلك أن الفرد قد يخشى من بيان نقصه أو تقريعه بعدم معرفته بأمر ما فيعاديه، وأكثر ما يكون ذلك إذا كان في محفل ما فتراه يعادي الحقيقة أو ينكرها، وقد يذهب به عداؤه إلى الإفراط أو التفريط قال عليٌّ (ع): (لا تَرَى الْجَاهِلَ إِلاَّ مُفْرِطاً أو مُفَرِّطاً)[٤] وعندها سيقع في الخطأ الأكبر، إذ سينكشف جهله بين الناس لأنه سيكون ممن يصارعون الحق، وقد قال أمير المؤمنين (ع): (من صَارَعَ الحقَّ صَرَعَهُ)[٥]، فإذا أردنا تواصلاً ناجحاً مع الآخرين علينا مراعاة هذه الصفة من صفات النفس فنبتعد عن كشف جهل الآخرين أو جرهم إلى العناد ثم الابتعاد عن الحقيقة. أما إذا كُنَّا نحن نجهل شيئاً فعلينا أن نجنب أنفسنا الخوض فيه فينكشف جهلنا ويصغر مقامنا، وينبه أمير المؤمنين (ع) ابنه الحسن (ع) على ذلك يقوله له في وصية له: (ولا تقلْ ما لا تعلم وإن قلَّ ما تعلمُ، ولا تقلْ ما لا تُحب أن يُقالَ لك)[٦]، فالقول بما لا نعلم خصلة مُهلكة للفرد قال أمامنا (ع): (من ترك قول (لا أدري) أُصيبت مَقاتلهُ)[٧].

إن نجاح تعاملنا مع الناس رهنٌ بتواصلنا الفعال معهم ولابد لنا لتحقيق تواصل ناجز أن نراعي صفات النفس البشرية فنفهم ما لها وما عليها، وهناك العشرات من صفات النفس الإنسانية يجب التنبه لها ومراعاتها عند تعاملنا معهم، وقد كانت لأمير المؤمنين (ع) وصايا قيمة في مراعاتها وتنظيمه ولكن ضيق المقام هنا يجبرنا على الاقتصار على مثال أو مثالين لكل عنوان.

---

(١) نهج البلاغة: ٣/٤٥ ـ ٤٦، شرح نهج البلاغة: ١٦/٨٤.

(٢) ينظر: فن التعامل مع الناس: دايل كارنيغي: ٣٥ ـ ٤١.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١٨/٤٠٣، نهج البلاغة: ٤/٤٢.

(٤) شرح نهج البلاغة: ١٨/٢١٦، نهج البلاغة: ٤/١٥، لسان العرب مادة (فرط): ٧/٣٦٨.

(٥) شرح نهج البلاغة: ٢٠/٤٥، نهج البلاغة: ٤/٩٥ وينظر معهما: الإرشاد: المفيد: ١/٣٠٠.

(٦) نهج البلاغة: ٣/٤٥ ـ ٤٦، شرح نهج البلاغة: ١٦/٨٤.

(٧) نهج البلاغة: ١٤/١٩، وينظر: المحاسن: البرقي: ١/٢٠٥.

ثالثاً ـ ترك (الأنا):

الاعتزاز بالنفس شيء مشروع، ولابد للفرد أن يكون معتزاً بنفسه وشخصه وهي سمة من سمات النفس الإنسانية، ولكن هذا الاعتزاز بالنفس قد يزيد عن الحد الطبيعي فينقلب (أنانية) وعُجْبًا من المرء بنفسه، ويتخيل أنه ليس بين الناس مثله، وليس منهم من يدانيه، قال أمير المؤمنين (ع): (**عُجْبُ المرء بنفسه أحدُ حُسَّادُ عقله**)[١]. وحذر منه ولاته، قال في عهده لمالك الأشتر: (**وَإِيَّاكَ وَالإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ وَالثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا وَحُبَّ الإِطْرَاءِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرَصِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ لِيَمْحَقَ مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ الْمُحْسِنِينَ**)[٢]، وهذه آفة تصيب المرء فتمنعه من التواصل مع الآخرين: إذ يأخذ الفرد بالاهتمام بنفسه، ولا يراعي الآخرين، حتى وإن كانوا شركائه، ولقد أجرت شركة اتصالات أمريكية دراسة في نيويورك لمعرفة أكثر الكلمات استعمالاً في الاتصالات الهاتفية، فكانت تلك الكلمة ضمير المتكلم (أنا): إذ وردت ٣٩٩٠ مرة في ٥٠٠ مكالمة فقط[٣] أي بمعدل ٨ مرات تقريباً في كل مكالمة، ويظهر من هذه النتيجة مدى إعجاب الفرد بنفسه، هذا الإعجاب الذي يولد الغرور يدفع الفرد إلى الاستبداد بالرأي، وترك مشاورة الآخرين، مما يعرضه للتهلكة قال أمير المؤمنين (ع): (**مَنِ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ هَلَكَ وَمَنْ شَاوَرَ الرِّجَالَ شَارَكَهَا فِي عُقُولِهَا**)[٤]، إن الإنسان الناجح في تعامله مع الآخرين عليه أن يترك (الأنا) ويهتم بأخيه الإنسان قبل الاهتمام بنفسه (إن الشخص الذي لا يهتم بأخيه الإنسان يعاني من مصاعب جمةً في الحياة، وفي مثل هذا الشخص يتجلى الفشل الإنساني في مختلف صوره)[٥] ومتى ما أراد الفرد أن يكون ناجحاً في تواصله مع أبناء جنسه عليه أن يظهر الاهتمام بمشاكلهم أولاً، ويترك العُجْبَ و (الأنا).

رابعاً ـ طِيبُ لُغَةِ الخطابِ وحُسْنُ استعمالِ الكَلِم:

لقد سنَّ الإسلام قواعد الأخلاق النبيلة من أول يوم لنزوله، وبدأ بالكلام، فالكلم الطيب يؤتي ثماره كل حين قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[٦]، وأوصى نبينا المصطفى (ص) أبا ذر الغفاري بالكلمة الطيبة فقال (ص): (**الكلمةُ الطيبةُ صدقةٌ**)[٧]، وذهبت هذه القولة مثلاً، لترسم للإنسان طريق التواصل الناجح

---

(١) نهج البلاغة: ٤/٤٩، شرح نهج البلاغة: ١٩/٣٣، وسائل الشيعة: ١/١٠٥.

(٢) تحف العقول: ١٤٥، نهج البلاغة: ٣/١٠٨، شرح نهج البلاغة: ١٧/١٠٣.

(٣) فن التعامل مع الناس: دايل كارنيغي: ٤٦.

(٤) نهج البلاغة: ٤/٤١، شرح نهج البلاغة: ١٨/٣٨٢، وسائل الشيعة: ١٢/٤٠.

(٥) فن التعامل مع الناس: دايل كارنيغي: ٤٧.

(٦) إبراهيم ٢٤ ـ ٢٥.

(٧) مسند أحمد: ٢/٣١٦، صحيح البخاري: ٧/٨٠، بحار الأنوار: ٧٤/٨٥، وسائل الشيعة: ٥/٢٣٤.

مع أبناء جلدته، فيختار لهم من الكلم أطيبه منطقاً، وأعذبه مسمعاً، وأحلاه في نفوسهم، وأن الله تعالى يحتسب ذلك بمثل ما يحتسب إنفاق الأموال في سبيله.

وهكذا كان خُلقُ نبينا محمد المصطفى (ص)، ومثله تماماً خُلُقُ أميرِ المؤمنين (ع)، فتلك سيرته العطرة وكلماته البهية التي حفظتها أكثر صفحات الإنسانية روعة وجمالاً، وخطتها بمداد الخلود تشهد له بذلك وتُذكرنا دوما بالكلمة الطيبة التي كان يفتح بها أميرُ المؤمنين (ع) مغاليق النفوس الشريرة، ويُنزلُ بها الطمأنينة والسكون على ضعفاء الناس وفقرائهم، كان (ع) يتلطف لهم بالقول، ويترفق بهم في الفعل، حتى كان أباً رحيماً لهم، يتفقد منهم ما يتفقده الوالد من ولده، لم يُسمعْ (ع) أحداً منهم خشناً من القول أو غليظاً، بل كلُّ كلامه عذوبةٌ ورقةٌ.

وقد حثَّ (ع) في وصاياه وحكمه على أن يكون كلامُ المرء طيباً حسناً: لأن الكلام صورة لعقل الإنسان قال (ع): (**رسولك ترجمان عقلك، وكتابك أبلغ ما ينطق عنك**)[١] وقال أيضاً: (**تكلموا تعرفوا فإن المرء مخبوء تحت طَيِّ لسانه**)[٢]، وإذا كان الكلام عنوان عقل الرجل، فيجب عليه أن يُحسن اختيار الكلمات التي سيرسلها إلى الآخرين، ليَنْفُذَ بها إلى عقولهم وضمائرهم، ثم إنَّ أمير المؤمنين (ع) يُحذِّرُ من التَعَجُّل بالكلام، فيقول: (**لسانُ العاقل وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه**)[٣]، فالتأني بالكلام دليلٌ على التفكُّر به قبل أن يُرسله المتكلم: وسبب ذلك التأني أن: (**اللسان سَبُعٌ إنْ خُلِّيَ عنه عَقَر**)[٤]، وقال في وصيته لابنه محمد بن الحنفية: (**واعلم أن اللسان كلبٌ عقورٌ إن خليته عَقَر، ورُبَّ كلمةٍ سلبت نعمةً، فاخزن لسانك، كما تخزنُ ذهبك وورقك**)[٥]، فكم من موقف قال فيه القائل قولاً قد يندم عليه بعد حين.

إذا رامَ المرءُ النجاحَ في تواصله مع الآخرين فما له إلاّ أن يلتزم وصايا عليٍّ (ع)، ولا يُكثر من الكلام، وأنْ يكون كلامه بمقدار ما به من حاجة إليه، فليس على المرء أن يُفرغ ما في جُعبته، وقد أوصى أمير المؤمنين (ع) بذلك إذ يقول: (**لا تَقُلْ ما لا تعلم، بل لا تقل كل ما تعلم، فإن الله فرض على جوارحك فرائضَ يَحتجُ بها عليك يوم القيامة**)[٦]، ويعدُّ أمير المؤمنين (ع) قِلّة الكلام من سمات تمام العقل، فيقول (ع): (**إذا تمّ العقل نقص الكلام**)[٧]،

---

(١) نهج البلاغة: ٤/٧٢.

(٢) نهج البلاغة: ٤/٩٣.

(٣) نهج البلاغة: ٤/١١.

(٤) نهج البلاغة: ٤/٩١ - ٩٢.

(٥) الاختصاص: المفيد: ٢٢٩ .

(٦) نهج البلاغة: ٤/٩١ - ٩٢.

(٧) نهج البلاغة: ٤/١٥.

ولكن إذا جدت ساعة الحق يجب على المرء أن يقول قولة الحق، وقد يكون القول عندها أمضى من السلاح قال (ع): (**رُبَّ قولٍ أنفذ من صولٍ**)[١] وقال: (**لا خير في الصمت عن الحكم، كما أنه لا خير في لا قول بالجهل**)[٢].

مما سبق ذكره يرسم لنا أميرُ المؤمنين عليٌّ (ع) الطريق الواضح والناجح في تحقيق التواصل والتفاهم بيننا، وإذا أراد المرء أن يحقق تقدما في تعامله مع الآخرين فحسبه العمل بتلك النصائح، وما أكثرها ولكن ضيق المقام يمنعنا من الإطالة والإكثار ويلجئنا إلى الإشارة والاختصار.

المبحث الثاني
مهارات الجذب والتأثير

سنذكر في هذا المبحث بعض المهارات التي يجب أن يتحلى بها الأفراد القياديون، ومن يتصدون للتعامل مع الناس بصورة مباشرة أكثر من غيرهم، وهذه المهارات تكفل لهم التأثير في المقابل، وجذب الآخر إلى ساحتهم لتحقق لهم النجاح في عملهم والتقدم في مؤسساتهم، منها:

أولاً ـ الاهتمام بالآخرين والإحساس الصادق بمشاعرهم:

لقد كرم الله تعالى الإنسان بما هو إنسان قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[٣]، فرزقُ اللهِ يصلُ المؤمنَ وغيرَ المؤمنِ يجودُ عليهم المنَّانُ برزقه، ويهبهم من الطيبات، وقد حثنا ديننا على التعامل مع الناس بوصفهم بشرٌ من خلق الله وأن نكرمهم لإنسانيتهم، فنهتم بهم، ونراعي مشاعرهم، ونواسيهم بصدق، وإذا أردنا أن نتلمس تلك المواساة والمساواة الصادقة، فحسبنا بسيرة أمير المؤمنين مثالاً: وهو يأمر مالكا الأشتر أن يرفق بالرعية قائلاً: (**وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ وَاللُّطْفَ بِهِمْ وَلا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ يَفْرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَلُ وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ وَيُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ وَالخطأ فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلِ الَّذِي تُحِبُّ وَتَرْضَى أَنْ يُعْطِيَكَ اللَّهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ**)[٤].

ولا يدلك على معنى الرحمة والرفق بالرعية، مثلُ هذا العهد الذي وثق به أمير المؤمنين ولاته يأمرهم بالقسط والمحبة الصادقة للرعية كلهم، لم يخص منهم المسلم دون سواه، فإن لم يكن مسلماً فهو إنسان، مثلك تماماً، وقد كرم الله تعالى بني آدم، فلا يحق لك أن تمتهن كرامته، وأي عدل أكثر من هذا؟ وأي كرامة يريدها الناس غير هذه؟

---

(١) نهج البلاغة: ٤/٩٤.

(٢) نهج البلاغة: ٤/٤٣.

(٣) الإسراء: ٧٠.

(٤) نهج البلاغة: ٣/٨٤.

لم يقف عليٌّ (ع) عند التنظير بل كان في سيرته العطرة مثالاً للشعور بهموم الرعية وحاجاتهم فقد (مَرَّ شَيْخٌ مَكْفُوفٌ كَبِيرٌ يَسْأَلُ فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (ع) مَا هَذَا فَقَالُوا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَصْرَانِيٌّ، قَالَ فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (ع) اسْتَعْمَلْتُمُوهُ حَتَّى إِذَا كَبِرَ وَعَجَزَ مَنَعْتُمُوهُ أَنْفِقُوا عَلَيْهِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ)[1] إنَّ دولة يرأسها عليٌّ (ع) يأمن فيها الفقراء، ويشبع بعدلها الجياع.

ومن يتصفح سيرةَ عليٍّ (ع) يجد في كل صفحة منها مواساة للفقراء، ورحمة بهم وحسبنا تلك الرسالة التي أنفذها لعثمان بن حنيف عامله على البصرة بعد أن نما إليه نبأ الوليمة التي أُعدت له، ومما جاء فيها: (أَمَّا بَعْدُ يَا ابْنَ حُنَيْفٍ فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلاً مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَأْدُبَةٍ فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا تُسْتَطَابُ لَكَ الأَلْوَانُ وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ عَائِلُهُمْ مَجْفُوٌّ وَغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ، (إلى أن يقول)، أَلا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ، أَلا وَإِنَّكُمْ لا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ، فَوَاللَّهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً، وَلا ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْراً، وَلا أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْراً، وَلا حُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْراً، (إلى أن يقول)، وَلَوْ شِئْتُ لاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ إِلَى مُصَفَّى هَذَا الْعَسَلِ، وَلُبَابِ هَذَا الْقَمْحِ، وَنَسَائِجِ هَذَا الْقَزِّ، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي إِلَى تَخَيُّرِ الأَطْعِمَةِ، وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أو الْيَمَامَةِ مَنْ لا طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ، وَلا عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ، أو أَبِيتَ مِبْطَاناً وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَى وَأَكْبَادٌ حَرَّى، أو أَكُونَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ ... وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إِلَى الْقِدِّ

أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ: هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ أو أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ...)[2].

إني لأجد الكلماتَ عاجزةً عن وصف هذا الكتاب، الذي أنفذه عليٌّ إلى عامله، وشحنه بألوان العتاب المر، لأن عامله لم يواسي الفقراء في بلده، ولم يتأس بسيرة خليفة الله في أرضه، ووصيه على عباده، ولنا أن نسأل:

كيف لا يدخل حبُّ عليٍّ قلبَ كلَّ فقير وهو لسانهم والمدافع عنهم؟

كيف لا يدخل حبُّ عليٍّ قلب كل إنسان وهو يشعر أنه يحترمه لكونه إنسانا، نظيره في الخلق؟

لم يبتعد حبُّ عليٍّ إلا عن قلوب غير الأسوياء والشذاذ من البشر، ممن أعمى الطمع والجشع والظلم قلوبهم، فلم يبصروا إلى إخوانهم، ولم يستشعروا الرحمة للبشرية.

---

(١) تهذيب الحكام: الطوسي: ٢٩٢/٦، وسائل الشيعة: ٦٦/١٥.

(٢) نهج البلاغة: ٧٠/٣، شرح نهج البلاغة: ٢٨٧/١٦.

ثانياً ـ الإقناع والمشاورة:

إذا أردت أن تجذب الآخرين إلى ساحتك فعليك أن تقنعهم برأيك، وإذا أردت ذلك فيمكن أن تبدأ معهم بالمشتركات، التي تتفقون عليها، فإنها تجنبك الخلاف، وتبعد كلمة (لا) عن ساحة النقاش، ثم يمكن استدراج الآخر إلى قول (نعم) إلى أن تصل به إلى ساحتك، فيقول بقولك. وهذه هي طريق سقراط الحكيم، (إنَّ كلمة (لا) هي معضلة يصعب التغلب عليها فحين يقول الشخص (لا) لا يتراجع عنها بل يظل مصراً عليها، وحتى لو شعر فيما بعد أن (لا) هي الجواب الخاطئ؛ لأن كبريائه يمنعه عن الاستسلام للرأي الآخر)[١]، ومن يُجيدُ فن التعامل مع الناس عليه أن يحصل على أكبر قدر من الأجوبة الإيجابية من خصمه، ليكون مناخ النقاش كله ايجابياً، وتكون الغاية منه الوصول إلى الحقيقة.

وإذا أردنا أن نذكر مثالاً للإقناع من سيرة عليٍّ ـ والمُثُلُ كثيرةٌ ـ فحسبنا بأوضحها، وهو حديث الجاثليق الذي قدم المدينة بعد وفاة النبي (ص) يرأس مئة من كبار علماء النصارى، وقد أوفدهم ملك الروم، لتحري أمر نبوة محمد (ص)، فقد أجاب الإمام علي عن مسائلهم المعقدة والمتشعبة، بإجابات مقنعة لم يتمكن الجاثليق من ردها، وكان عليٌّ (ع) يبدأ معه بالثوابت المشتركة التي يقرون بها، فيلزمهم بها، ثم يتسلسل معهم إلى أن يلزمهم الحجة تلو الحجة، حتى أذعن لحججه الوفد كله فآمنوا لقوله، والحديث مشهورٌ وطويلٌ، لا مجال لسرده[٢].

أما المشاورة فكان (ع) يقول: **(مَنِ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ هَلَكَ وَمَنْ شَاوَرَ الرِّجَالَ شَارَكَهَا فِي عُقُولِهَا)**[٣] ويقول (ع): **(مَنِ اسْتَقْبَلَ وُجُوهَ الآرَاءِ عَرَفَ مَوَاقِعَ الْخَطَأ)**[٤]، فالمشاورة تقي الفرد من الخطأ؛ لأنه سيجمع لعقله مجموعة من عقول الرجال، فتصوب له ما خفي عنه، وتسدد رأيه، وأمر إمامنا (ع) مالكاً الأشتر بمشاورة العلماء قائلاً له: **(وَأَكْثِرْ مُدَارَسَةَ الْعُلَمَاءِ، وَمُنَاقَشَةَ الْحُكَمَاءِ فِي تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ بِلادِكَ، وَإِقَامَةِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَك)**[٥]، وفي الوقت نفسه، أمره أن يُبعدَ من مجال مشورته مَنْ تَشحُّ نفسُهُ بالخير قائلاً: **(وَلا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلاً يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ، وَيَعِدُكَ الْفَقْرَ، وَلا جَبَاناً يُضْعِفُكَ عَنِ الأمور، وَلا حَرِيصاً يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَهَ بِالْجَوْرِ، فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّه)**[٦] وهكذا يربي الإمام عليّ (ع) ولاته وعماله على السخاء والجود وأن تكون

---

(١) فن التعامل مع الناس: دايل كارنيغي: ٩١.

(٢) للاطلاع على حديث الجاثليق وتفاصيله ينظر: الكافي:١/١٢٩، التوحيد: الصدوق: ١٨٢، ٢٨٦، الأمالي: الطوسي: ٢١٨، بحار الأنوار: ١٠/٥٤.

(٣) نهج البلاغة: ٤/٤١، شرح نهج البلاغة: ١٨/٣٨٢.

(٤) نهج البلاغة: ٤/٤٢، شرح نهج البلاغة: ١٨/٤٠٤.

(٥) نهج البلاغة: ٣/٨٧، شرح نهج البلاغة: ١٧/٣٦.

(٦) نهج البلاغة: ٤/٤٢، شرح نهج البلاغة: ١٨/٤٠٤.

مشاورتهم في أمور الرعية للعلماء والمختصين في كل مجال، وأن يكون المستشارين من الكِرَام لا من اللِئَام. وإذا كان القائد يتبع سبيل الإقناع والمشاورة، فسيكون أكثر تأثيراً في أتباعه، ويستجيب الآخرون لقراراته، ويؤيدون مواقفه، لأنهم سيشعرون أنها قراراتهم، وهم شركاء فيها، وليست هي قرارات القائد والمدير لوحده.

ثالثاً - الوفاء:

الوفاء: خلق أصيل في النفس البشرية السوية، يدل على سُموٍّ في النفس، وعُلو في الهمة، وهو من أعمدة منظومة الأخلاق الإسلامية، وقد أمرنا الله تعالى بالوفاء بالعهود في أكثر من موضع في كتابه العزيز، منها قوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾[١]، وقوله عَزَّ وجل: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾[٢]، وعاتب أُمَما سالفة؛ أنها لم تلتزم بعهودها، وتتخلف عن الوفاء بها[٣]، وتظهر الحاجة ملحة للوفاء بالعهد وقت الشدائد والأزمات، وقد أمر النبى (ص) بالوفاء بالعهود حتى ما عقد منها في الجاهلية، روى الترمذى في سننه **(أن رسول الله (ص) قال في خطبته: (أوفوا بحلف الجاهلية فإنه لا يزيده يعنى الإسلام إلا شِدَّةً، ...)**[٤].

أما أمير المؤمنين علىّ (ع) فنراه يشدد على الوفاء بالعهود يقول في خطبة له: **(أوفوا بالعهود إذا عاهدتم. فما زالت نعمة عن قوم، ولا عيش، إلا بذنوب اجترحوها، إن الله ليس بظلام للعبيد)**[٥]، ونراه يحذر مالكاً الأشتر بشدة عن الخُلفْ في العهد فيقول: **(وَإِيَّاكَ وَالْمَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ، أو التَّزَيُّدَ فِيمَا كَانَ مِنْ فِعْلِكَ، أو أَنْ تَعِدَهُمْ، فَتُتْبِعَ مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ، فَإِنَّ الْمَنَّ يُبْطِلُ الإِحْسَانَ، وَالتَّزَيُّدَ يَذْهَبُ بِنُورِ الْحَقِّ، وَالْخُلْفَ يُوجِبُ الْمَقْتَ عِنْدَ اللَّهِ وَالنَّاس، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾)**[٦]، وهكذا يُهذِّبُ أميرُ المؤمنين أتباعه على الوفاءِ، الوفاءُ بكل أنواعه: الوفاء بالعهد، والوفاء بالعقود، والوفاء للأخ، والوفاء للصديق، قال (ع): **(لا يَكُونُ الصَّدِيقُ صَدِيقاً حَتَّى يَحْفَظَ أَخَاهُ فِي ثَلاثٍ: فِي نَكْبَتِهِ وَغَيْبَتِهِ وَوَفَاتِه)**[٧] وقال أيضاً: **(مَنْ أَطَاعَ النَّوَانِيَ ضَيَّعَ الْحُقُوقَ وَمَنْ أَطَاعَ الْوَاشِيَ ضَيَّعَ الصَّدِيق)**[٨]، فمن الوفاء للصديق أنك لا تسمع فيه وشاية واش، ولا قول قائل. ومن الوفاء له أن تتعاهده إذا أصابته مصيبة من مصائب الدهر، وترعى عياله إذا سافر، بل تحفظه في عياله

---

(١) النحل: ٩١.

(٢) الإسراء: ٣٤.

(٣) ينظر: البقرة: ٤٠، الأعراف: ٨٥، هود: ٨٥.

(٤) سنن الترمذي: ٣/٧٣.

(٥) تحف العقول: ١١٤.

(٦) تحف العقول: ١٤٧، نهج البلاغة: ٣/١٠٩، شرح نهج البلاغة: ١٧/ ٩٧.

(٧) نهج البلاغة: ٤/٣٣، شرح نهج البلاغة: ١٨/ ٣٣٠.

(٨) نهج البلاغة: ٤/١٨٩، شرح نهج البلاغة: ١٩/ ٧٠.

إذا رحل من هذه الدنيا. وهذه هى أوقات الشدائد التى يكون الفرد بأمس الحاجة فيها للوفاء من أصدقائه وأهله ومجتمعه ومؤسسته التى قد يكون قضّى فيها عمره كله يخدم ويطور ويحقق النجاح لها، فإذا ما مرَّ بمحنة، فمن الوفاء أن تبادر له بالعون والرعاية، وخير مثال على ذلك من سيرة علىٍ (ع) تفقده لذلك الرجل النصرانى العجوز، فما أن رآه يتكفف ما في أيدى الناس، حتى أمر له بالرعاية من بيت مال المسلمين، وهذا بعض الوفاء لفرد من أفراد المجتمع خدم فيه بعض عمره، فلابد أن يكرمه المجتمع في نكبته.

وإنّا على يقين أن من يتولى التعامل المباشر مع الناس كلما أظهر قدراً كبيراً من الوفاء للآخرين زاد حبهم لهم، وتفاعلهم معه، وحقق لنفسه ولمؤسسته التميز والنجاح.

رابعاً ـ الرقة واللين:

امتدح الله تعالى نبيه محمد المصطفي (ص) باللين والرقة، فقال عز وجل: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[1]، ومع شدة العرب وبداوتهم في ذلك الوقت إلاّ أن النبي الأكرم (ص) كان بغاية اللين واللطف معهم

وهذا عليٌّ (ع) يوصي ابنه الحسن (ع) باللين قائلاً: **(ولِنْ لِمَنْ غَالَظَكَ فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَك)**[2]، ويقول (ع): **(مَنْ لانَ عُودُهُ كَثُفَتْ أَغْصَانُه)**[3] وهذا تجسيد لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾[4]، وقد قالت العرب: (إذا عزَّ أخوك فهُنْ)[5] فإن مُياسرتك لأخيك وصديقك والعاملين معك ليس من الهوان، بل من مُدارة الناس، وقد قال أمير المؤمنين (ع): **(مُقَارَبَةُ النَّاسِ فِي أَخْلاقِهِمْ أَمْنٌ مِنْ غَوَائِلِهِم)**[6].

وكلما كثر تعامل الشخص مع الآخرين كان لزاماً عليه أن يرفق بهم، ويرق لهم، ولا يشدد عليهم، ويخفف عنهم ما تمكن من ذلك سبيلا، ولنمعن النظر في وصية أمير المؤمنين لمالك الأشتر ونأخذ منها العبرة، إذ يوصيه في أن تكون الغاية من أخذ الخراج من مستحقيه إصلاح المجتمع ولا تكون الغاية جمع الثروة للدولة والحاكم على حساب الإضرار

---

(١) آل عمران: ١٥٩.

(٢) تحف العقول: ٨٢، نهج البلاغة: ٣/ ٥١، شرح نهج البلاغة: ١٦/ ٩٦.

(٣) تحف العقول: ١٤٧، نهج البلاغة: ٣/ ١٠٩، شرح نهج البلاغة: ١٧/ ٩٧.

(٤) فصلت: ٣٤.

(٥) هذا مثل من الأمثال الشائعة، يعني: إذا عاسرك صديقك فياسره، فإن مياسرتك إياه ليست بضيم يركبك منه، إنما هو حسن خلق وتفضل عليه، ويقال إن أول من قال ذلك الهذيل بن هبيرة أخو بني ثعلبة التغلبي. وكان أغار على بني ضبة، فغَنِمَ فأقبل بالغنائم، فقال له أصحابه: أقسمها بيننا، فقال: إني أخاف إن تشاغلتم بالاقتسام أن يدركم الطلب، فأبوا، فعندها قال: إذا عز أخوك فهن، ثم نزل فقسم بينهم الغنائم.، ينظر: مجمع الأمثال: الميداني: ١/ ٢٤.

(٦) نهج البلاغة: ٤/ ٢٣٠، شرح نهج البلاغة: ٢٠/ ٣.

بالمجتمع، يقول (ع): (وَتَفَقَّدْ أَمْرَ الْخَرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ، فَإِنَّ فِي صَلاحِهِ وصَلاحِهِمْ صَلاحاً لِمَنْ سِوَاهُمْ، وَلا صَلاحَ لِمَنْ سِوَاهُمْ إِلاَّ بِهِمْ؛ لأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَى الْخَرَاجِ وَأَهْلِهِ، وَلْيَكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ الأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي اسْتِجْلابِ الْخَرَاجِ؛ لأَنَّ ذَلِكَ لا يُدْرَكُ إِلاَّ بِالْعِمَارَةِ، وَمَنْ طَلَبَ الْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ الْبِلادَ، وَأَهْلَكَ الْعِبَادَ، وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلاَّ قَلِيلاً، فَإِنْ شَكَوْا ثِقَلاً أو عِلَّةً أو انْقِطَاعَ شِرْبٍ أو بَالَّةٍ أو إِحَالَةَ أَرْضٍ اغْتَمَرَهَا غَرَقٌ أو أَجْحَفَ بِهَا عَطَشٌ خَفَّفْتَ عَنْهُمْ بِمَا تَرْجُو أَنْ يَصْلُحَ بِهِ أَمْرُهُمْ، وَلا يَثْقُلَنَّ عَلَيْكَ شَيْءٌ خَفَّفْتَ بِهِ الْمَئُونَةَ عَنْهُمْ، فَإِنَّهُ ذُخْرٌ يَعُودُونَ بِهِ عَلَيْكَ فِي عِمَارَةِ بِلادِكَ، وتَزْيِينِ وِلايَتِكَ، مَعَ اسْتِجْلابِكَ حُسْنَ ثَنَائِهِمْ، ...، وَإِنَّمَا يُؤْتَى خَرَابُ الأَرْضِ مِنْ إِعْوَازِ)[1]، إنّ هذه الوصية تعقد موازنة دقيقة بين أمور يبنى بعضها على بعض وتأتي في الأهمية في المنظور الإسلامي على النحو الآتي: عمارة الأرض أولا ولا تتحقق مع العوز الذي يصيب أهلها، لذا يجب التخفيف عنهم في الأوقات غير الطبيعية أو الحالات غير الطبيعية، وليس هناك حد لهذا التخفيف بل تحكمه الغاية التخفيف حتى لا يصيب أصحاب الأرض العوز الذي يمنعهم من استصلاح أرضهم وزراعتها ثانية، بعد ذلك يأتي الخراج، ومع أهميته في تكوين خزينة الدولة ومعاش الجند وموظفي الخدمة العامة الآخرين إلا أنّه يجب أن لا يلحق الضرر بمن يؤخذ منه.

ويوصي الإمام علي (ع) مالكا باللين حتى في العبادات العامة، إذ يقول: (وَإِذَا قُمْتَ فِي صَلاتِكَ لِلنَّاسِ فَلا تَكُونَنَّ مُنَفِّراً، وَلا مُضَيِّعاً، فَإِنَّ فِي النَّاسِ مَنْ بِهِ الْعِلَّةُ، وَلَهُ الْحَاجَةُ، وَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ص) حِينَ وَجَّهَنِي إِلَى الْيَمَنِ: كَيْفَ أُصَلِّي بِهِمْ؟ فَقَالَ: صَلِّ بِهِمْ كَصَلاةِ أَضْعَفِهِمْ، وَكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً)[2]، إن الإثقال في العبادات على الناس عند اجتماعهم، قد يسبب نتائج سلبية عندهم، فقد يكون فيهم ضعافا أضر بهم المرض، أو تقدم السن، فعلى الإمام يرحمهم ولا ينفرهم، وقد يكون في المصلين من يرتبط بعمل، أو أجيراً في مؤسسة ما، وإن إطالة وقت الصلاة قد تضر بهؤلاء؛ لذا على الإمام أن يتنبه لحاجات الناس، وأن يصلي بهم صلاة لينة، كصلاة أضعفهم. وقد يتحسس الموظفون في الدائر والمعامل إلى أهمية هذه الوصية، التي تكفل لهم أداء العبادات وعدم الإضرار بأعمالهم.

خامساً - التواضع والألفة:

التواضعُ صفة المتقين قال (ع): (فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ، مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمُ الاقْتِصَادُ، وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ)[3]، وقد دلت التجارب البشرية أنَّ التواضعَ عاملُ جذبٍ ترقُ له أكثر النفوسِ عُنجهيةً وقسوة، ومن يريد التأثير بالناس فلا بدَّ له من التواضع، وحتى

(١) تحف العقول: ١٣٨، نهج البلاغة: ٣/٩٧، شرح نهج البلاغة: ١٧/ ٧١.

(٢) تحف العقول: ١٤٤، نهج البلاغة: ٣/١٠١، شرح نهج البلاغة: ١٧/ ٨٩.

(٣) نهج البلاغة: ٢/١٦٠، شرح نهج البلاغة: ١٣/ ١٤٧.

إذا كان الموقف يتطلب الحزم والقطع والقرار الصعب، فإن ذلك لا يمنع من التواضع، وقد كتب الإمام علي (ع) إلى محمد بن الحنفية حين ولاه مصر كتاباً جاء فيه: (**وَاخْلِطِ الشِّدَّةَ بِضِغْثٍ مِنَ اللِّينِ وَارْفُقْ مَا كَانَ الرِّفْقُ أَرْفَقَ، وَاعْتَزِمْ بِالشِّدَّةِ حِينَ لا تُغْنِي عَنْكَ إِلاَّ الشِّدَّةُ، وَاخْفِضْ لِلرَّعِيَّةِ جَنَاحَكَ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ، وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ، وَالنَّظْرَةِ وَالإِشَارَةِ وَالتَّحِيَّةِ، حَتَّى لا يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ، وَلا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ، وَالسَّلام**)[١]، إذا هناك موازنة دقيقة بين اللين والشدة وبين التهاون والحزم، ولكن التواضع يمكن له أن يؤطر تلك العلاقة بين كل رئيس ومرؤوس وكل قائد وأتباعه وكل مدير وموظفيه.

وأوصى مالكاً الأشتر بالتواضع لرعيته وخصوصاً الفقراء منهم، قائلاً: (**ولا تُصَعِّرْ خدكَ لَهُم، وتَواضَعْ لله يَرفَعك اللهُ، واخفِضْ جَنَاحَكَ للضُّعَفاءِ**)[٢]، فحري بمن يكون مديراً أو قائدا أو متصديا لعمل اجتماعي أن يتواضع، وأن لا تغره الدنيا إذ أقبلت عليه، ليطمع بعدله ضعفاء الناس وفقرائهم؛ إذ يُخشى عليهم أن تضيعَ حقوقهم، ويفرط عليهم الأقوياء أو يبخسوهم أموالهم، إذا كان قائدهم متكبراً.

لقد ضَمَّن الإمامُ (ع) كتبه وعهوده إلى عماله مجموعة من الوصايا التي تحضهم على التواضع، وخفض الجناح لمن يعملون معهم، أو يقعون تحت رعايتهم، وإن أحسن الفردُ تطبيق تلك الوصايا، فإنها كفيلة له بحب الناس وطاعتهم، وضمانة لتحقيق الرخاء في البلاد، إنها مهارات لجذب الناس والتأثير فيهم، قال (ع): (**مَنْ لانَ عُودُهُ كَثُفَتْ أَغْصَانُهُ**)[٣]، وما أحوجنا اليوم إلى نبذ الشِّدَّةِ والعُنفِ؛ لأنهما سبيل التنافر والفرقة، والتوسل باللين والتواضع: لأنهما سبيل التوحد والاجتماع قال أمير المؤمنين (ع): (**قُلُوبُ الرِّجَالِ وَحْشِيَّةٌ فَمَنْ تَأَلَّفَهَا أَقْبَلَتْ عَلَيْه**)[٤]، ولا يكون هذا التألُّف إلا بالتواضع واللين، فهما عاملان لجذب الناس والتأثير فيهم.

سادساً ـ الصبر:

لقد عرض القرآن الكريم للصبر في أكثر من ستة وعشرين موضعاً[٥]، فقد حثت الآيات الكريمة على الصبر، وامتدح الله الصابرين، وشرفهم، وأخبر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٦]، ثم توج الله تعالى الصابرين بحبه، قائلاً: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٧]، وكان النبي المصطفى (ص)

---

(١) نهج البلاغة: ٣/٧٥، شرح نهج البلاغة: ١٧/ ٣.
(٢) تحف العقول: ١٤١، نهج البلاغة: ٣/٧٥.
(٣) نهج البلاغة: ٤/١٨٥، شرح نهج البلاغة: ١٩/ ٣٥.
(٤) نهج البلاغة: ٤/١٥٠، شرح نهج البلاغة: ١٨/ ١٨٠.
(٥) البقرة:١٥٣، ١٥٥، ١٧٧، ٢٤٩، آل عمران: ١٧، ١٤٢، ١٤٦، الأنفال: ٤٦، ٦٦، الأنبياء: ٨٥، الحج: ١٣٥، الأحزاب: ١٣٥، الصافات: ١٠٢، محمد: ٣١، القصص: ٨٠، الزمر: ١٠.
(٦) البقرة: ١٥٣.
(٧) آل عمران: ١٤٦.

مثالاً للصبر، صابراً صبوراً محتسباً، وقد قال (ص): (**ما أوذي نبيٌّ مثل ما أوذيتُ**)[١]، ومع شديد الأذى الذي تعرض له من قومه كان يدعو ربه قائلاً: (**اللهمَ اغفِرْ لِقَومِيَ، فإنَّهُم لا يَعلَمُون**)[٢]، ولم يُعَجِّل بالدعاء على قومه أو أعدائه، بل صَبَرَ على أذاهم، فكانت العاقبة الحميدة للنبي (ص)، فقد ساد العرب والعجم، وانتشرت دعوته، وعمت آفاق الأرض، بفضل خلقه الكريم، وهذا شأن الصابرين قال عليٌّ (ع): (**لا يَعْدَمُ الصَّبُورُ الظَّفَرَ وَإِنْ طَالَ بِهِ الزَّمَانُ**)[٣]، فالظفر ونيل المراد يُتَحَصَّلُ بالصبر.

أما عليٌّ (ع) فلم يكن خُلقهُ إلاَّ نسخة من خلق النبي الأعظم (ص) وقد بينا ذلك آنفاً، وإذا أردنا أن نتذكر ما لقيه عليٌّ في سبيل دين الله نجده أذىً لا يقلُّ عن أذى النبي محمد (ص) وخاصة بعد رحيل المصطفى (ص)، فصبر على تلك المصائب كلها: صبر على دفعه عن حقه في خلافة النبي الخاتم (ص)، بعد إقرارهم له بذلك، ومبايعتهم إياه بالخلافة وبإمرة المؤمنين يوم غدير خم بحضور النبي (ص) عند عودتهم من حجة الوداع، وقال (ع): (**فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذًى وَفِي الْحَلْقِ شَجاً أَرَى تُرَاثِي نَهْبا، ...**)[٤]، وصبر على أخذهم (فدكا) التي نحلها النبي لابنته فاطمة الزهراء (ع)، قال (ع): (**بَلَى كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكٌ مِنْ كُلِّ مَا أَظَلَّتْهُ السَّمَاءُ فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ وسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ ونِعْمَ الْحَكَمُ اللَّه، ...**)[٥] وصبر على رد شهادته وشهادة الحسنين (ع) وشهادة أم أيمن[٦]، وصبر على تحكيم الحكمين، الذي أباه وارتضاه القوم، وصبر على قتال المارقين والخارجين والقاسطين[٧]، وصبر وصبر وصبر، وكانت العلة في طول صبره (ع) الحفاظ على دين الله قائما، وأن لا يرتد الناس إلى الجاهلية بعد رحيل النبي (ص).

أما إذا أردنا أن نتتبع أقواله في الصبر، فقد أحصيت (٢٢) اثنين وعشرين مورداً عرض فيها أمير المؤمنين للصبر في كلامه المجموع في (نهج البلاغة)، ويدل هذا على أن الصبر ركن متين الأخلاق الإسلامية، وسأذكر بعض تلك المواضع قال (ع): (**رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ حُكْماً فَوَعَى وَدُعِيَ إِلَى رَشَادٍ فَدَنَا، ...، جَعَلَ الصَّبْرَ مَطِيَّةَ نَجَاتِهِ وَالتَّقْوَى عُدَّةَ وَفَاتِهِ**)[٨]، فيصف لنا أمير المؤمنين (ع) الصبر بأنه مطية النجاة والنجاة هنا الدنيوية والأخروية فمن ركب الصبر نال

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ابن شهر آشوب: ٤٢/٣، بحار الأنوار: ٥٦/٣٩.

(٢) إقبال الأعمال: ابن طاووس: ٣٨٥/١، بحار الأنوار: ١٦٧/٩٥، مسند أحمد: ٤٤١/١، صحيح البخاري: ١٥١/٤، صحيح مسلم: ١٧٩/٥.

(٣) نهج البلاغة: ٤٠/٤، شرح نهج البلاغة: ٣٦٦/١٨.

(٤) نهج البلاغة: ٣١/١.

(٥) نهج البلاغة: ٧٠/٣.

(٦) ينظر: تقريب المعارف أبو الصلاح الحلبي: ٣٣٨.

(٧) ينظر: كتاب الغدير: الأميني: ١٩٦/١ وما بعدها.

(٨) نهج البلاغة: ١٢٥/١.

ما يريد، ومن لم يصبر فسرعان ما يهلكه الجزع قال (ع): (مَنْ لَمْ يُنَجِّهِ الصَّبْرُ أَهْلَكَهُ الْجَزَعُ)[١]، ويصف (ع) الصبر بوصف عظيم قائلاً: (وَعَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ، فَإِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الإِيمَانِ كَالرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ، وَلا خَيْرَ فِي جَسَدٍ لا رَأْسَ مَعَهُ، وَلا فِي إِيمَانٍ لا صَبْرَ مَعَهُ)[٢]، ويبين لنا هذا الوصف مكانة الصبر في الإسلام، فهو من شرائط الإيمان ومتمماته، بل هو رأسه، وليس الصبر علامة خَوفٍ أو جُبْنٍ يقول أمير المؤمنين (ع): (الْعَجْزُ آفَةٌ، وَالصَّبْرُ شَجَاعَةٌ، وَالزُّهْدُ ثَرْوَةٌ، وَالْوَرَعُ جُنَّةٌ)[٣]، فالصابر قادر على الفعل ولكن حلمه يمنعه من العجلة، وهذه شيمة الكرماء وسمة الحكماء، وإذا كانت كذلك فلاشكَّ أن من يكثر تعامله مع الناس يكون ناجحا بقدر ما يمتلك من الصبر، وإلا فالعجلة ستكون الآفة التي تقضي عليه.

هذه بعض المهارات التي يجب أن يتحلى بها القادة والمدراء والعاملين على مباشرة الناس بأعمالهم وليست هي كل ما يمكن أن يقال في هذا الباب ولكن هذا ما سمح به المقام ووسعه الوقت.

المبحث الثالث
مهارات الحث والحفز

يتمتع القادة والمدراء الناجحون بمجموعة من المهارات التي يتوسلون بها لتحقيق أهدافهم، وتبرز أهمية حكمة القائد وحنكته أثناء أوقات الأزمات، والأوقات الحرجة، وهنا يعتمد قادة المجتمعات، ومدراء المؤسسات على خبرتهم في التفاعل مع الأحداث، وتحويل النقاط الحرجة إلى عناصر إيجابية، يمكن أن تخدم المصالح الإستراتيجية لمجتمعهم أو مؤسساتهم، وكلما كان هؤلاء الأشخاص متدربين، ويمتلكون خبرة عالية في التعامل مع الآخرين تمكنوا من حثهم، وحفزهم لتحقيق أفضل الانجازات، وعلى المستويات كلها، وهناك الكثير من المهارات التي لها شأن في حث الآخرين وحفزهم، نذكر منها:

أولاً - بث الطاقة الإيجابية والتفاؤل في لحظات الضعف:

لابدَّ للقائد من أن يدفع الناس نحو الأمل والتفاؤل في أوقات الرخاء، وأوقات البلاء، بل حتى في أشد اللحظات صعوبة، كأوقات الهزيمة والألم، وفي المحن والشدائد، وليفعل ذلك يجب أن يمتلك رؤية واضحة ودقيقة وأن يكون مؤمناً بها، وأن يشعر أتباعه بذلك.

ولقد تعاهد الله تعالى أنبياءه في أوقات الشدائد والمحن، وأنزل عليهم السكينة والطمأنينة، ورفع من معنوياتهم، مثال ذلك ما حدث بعد معركة أحد وقتل حمزة وتمثيلهم بجسده وأثر تلك الأفعال الشنيعة على نفس النبي الأكرم (ص) فأنزل الله تعالى على نبيه قوله

---

(١) نهج البلاغة: ٤/١٧٩.

(٢) نهج البلاغة: ٤/١٥٤.

(٣) نهج البلاغة: ٤/١٣٩.

تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾[1]، فأمر الله نبيه بالصبر، وأخبره بأنه تعالى شنه قد مدَّ نبيه بطاقة نفسية إلهية تمكنه من تحمل تلك الضغوط النفسية، وأن ذلك كله في سبيل الله وبعينه ورعايته، ثم رفع من عزيمته وأمره أن لا يحزن من فعل الكافرين، وأن يرفع عن صدره الضيق مما يمكرون، وهناك كثير من الآيات التي تبشر نبيه بالنصر، وأن الله تعالى يدافع عن الذين آمنوا، وأن الله ينصر من ينصره، وغيرها[2]، كان لها الأثر الأكبر في رفع معنويات المسلمين الأوائل وحفزهم لتحقيق نشر الدين الجديد.

ويستعمل النبي الأكرم هذه الطريقة في هجرته إلى المدينة وهما في الغار وكان صاحبه يرتعد من الخوف، فما كان من النبي إلا أن طمأنه: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[3]، إن استشراف المستقبل ينفع في رفع معنويات الأشخاص ويحفزهم لتحمل الصعاب والمتاعب مهما كبُر حجمها.

ولقد استعمل أمير المؤمنين (ع) هذه الطريقة مع أتباعه في معركة النهروان التي قاتل فيها الخوارج انتشر الإشاعات بين جيش الإمام أن الأعداء قد عبروا نهر النهروان وقد وأخبروا الإمام بهذا الخبر أكثر من مرَّة ولكن الإمام (ع) كان على بصيرة من أمره فيقول لهم: **(مَصَارِعُهُمْ دُونَ النُّطْفَةِ، وَاللَّهِ لا يُفْلِتُ مِنْهُمْ عَشَرَةٌ وَلا يَهْلِكُ مِنْكُمْ عَشَرَةٌ)**[4]، فلما انتهت المعركة كان كما قال (ع) فلم يقتل من جيش الإمام إلا ثمانية ولم يفلت منهم إلا تسعة رجال[5]، ولم يعبروا النهر، لقد كانت كلمات الإمام عاملاً إيجابياً حث المقاتلين على النيل من عدوهم وتحقيق النصر بأفضل الصور. والمثل في هذا الباب كثيرة لكن المقام يمنعنا من الإطالة.

ثانياً - شعور الأتباع بالأمن والاطمئنان للحق:

أكثر ما يحفز الأفراد إلى العمل بجدٍّ شعورهم بحب قائدهم أو مديرهم لهم، وعلمهم بذلك الحب، واستشعارهم لهم، وبعد ذلك ثقتهم بعلمه وحكمته، وخير مثال على ذلك ما حدث في حرب عليٍّ (ع) في صفين، فكان في الجيشين مَنْ يُقاتل وفي قلبه شَكٌّ أهو على الحق أم على الباطل؟ ولكن رجلاً مثل عمار بن ياسر كان يقاتل على بصيرة من أمره، ثقته

---

(١) النحل: ١٢٧.

(٢) ينظر: غافر: ٥١، الحشر: ١١، الحج: ١٥، ٤٠، الحديد: ٢٥.

(٣) التوبة: ٤٠.

(٤) قال الرضي رحمه الله يعني بالنطفة ماء النهر، و هي أفصح كناية عن الماء وإن كان كثيراً جماً، ينظر: شرح نهج البلاغة: ٣/٥.

(٥) ينظر: نهج البلاغة: ١/١٠٧ - ١٠٨.

بقائده راسخة، وعمله به نافذٌ، وروى ابن عساكر عن عبد الله بن سلمة ذلك قائلاً: (**رأيت عماراً يوم صفين شيخاً كبيراً، آدم طوالاً، آخذ الحربة بيده، ويده ترعد، فقال: والذي نفسي بيده، لقد قاتلت بهذه الراية مع رسول الله (ص) ثلاث مرات، وهذه الرابعة، والذي نفسي بيده، لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعرفت أن مصلحتنا على الحق، وأنهم على الضلالة**)[١] إن شعور عمار بالأمن والاطمئنان كونه مع عليٍّ (ع) جعله يخوض الحرب وهو شيخ كبير بعزم وقوة إرادة لا نظير لها، بل كان معياراً للحق يقول وروى الطبري عن أبي عبد الرحمن السلمي قوله: (**رأيت عماراً لا يأخذ وادياً من أودية صفين إلاّ تبعه من كان هناك من أصحاب محمد**)[٢]، وهكذا كان أصحاب النبي تهفو نفوسهم إلى إتباع عمار: لأنهم على يقين أن عمار تقتله الفئة الباغية، فما كان منهم إلا إتباعه، قال البلاذري: (**شهد خزيمة الجمل، فلم يسل سيفاً، وشهد صفين فقال: لا أقاتل أبداً حتى يقتل عمار، فانظر من يقتله، فإني سمعت رسول الله (ص) يقول: (تقتله الفئة الباغية)، قال: فلما قُتل عمار، قال خزيمة: قد أبانت الضلالة. ثم اقترب فقاتل حتى قتل**)[٣]، وهكذا نرى أن الفرد متى ما شعر بالأمن والطمأنينة، فعل ما يقتضيه منه الموقف وإن كان الفعل الإقدام على الموت في المعركة فإنه سيقدم بكل شجاعة، ويقاتل ببسالة لثقته بقائده وقضيته.

إن على القادة أن يشعروا الأتباع بالأمن والطمأنينة وعلى المدراء أن يوفروا مناخاً آمناً للعمل في مؤسساتهم؛ لأن النتيجة الإيجابية التي سيحصلون عليها من تلك الأجواء تحقق لهم التقدم والنجاح والتميز في مؤسساتهم، وهذا عليٌّ يأمر مالكاً الأشتر بذلك قائلاً: (**وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَلا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً، تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ**)[٤]، إن هذه الكلمات تشعر الناس بالانجذاب والاطمئنان، وتحفزهم على الطاعة والعمل بإخلاص مهما كان العمل صعباً وشاقاً، ولقد كان جنود نابليون يثقون بأنه لا يقودهم إلا إلى الانتصارات فيقولون: إن بإمكانه أن يأخذنا معه إلى نهاية العالم[٥].

ثالثاً ـ منح الآخرين الصلاحيات:

من سمات القائد الناجح أن يكون قادراً على رسم الخطط الإستراتيجية، وتحديد الأهداف المستقبلية، وتخطيط الطرق العامة لتنفيذ ما يرمي إليه، وأن يخلق طبقة من المدراء الناجحين، اللذين يتولون تنفيذ تلك الخطط، ويزداد نجاحه كلما كان مؤثراً فيهم

---

(١) تاريخ مدينة دمشق: ٣٦٢/٤٣ ـ ٣٦٣.

(٢) تاريخ الطبري ٣٠٥/٤.

(٣) أنساب الأشراف: ٣١٣ ـ ٣١٤.

(٤) نهج البلاغة: ٨٢/٣.

(٥) ينظر: فن التعامل مع الآخرين ـ تحفيز الإنسان د. طارق السويدان: (بحث إلكتروني).

فيكونوا قادرين على إدارة الأمور وتنفيذها بطرقهم الخاصة وعلى القادة إعطاء معاونيهم حرية أداء أعمالهم بالطريقة التي يرونها مناسبة، بتعبير آخر منحهم الصلاحيات التامة التي تمكنهم من تنفيذ سياساتهم في إنجاز الأعمال الموكلة بهم، أما إذا كان القائد متحكماً في كل شيء فسينفر منه العاملون معه، وسيفشل سريعاً لأنه محدود الطاقة والجهد ومتابعة الأعمال كلها في وقت واحد مربك لمن يتصدى لها، لذا منح الصلاحيات للآخرين تجعلهم أكثر إبداعاً في إنجاز الأعمال الموكل بهم وسينفذون تلك الأعمال بطاقة وحماس وبروح مبادرة عالية.

وهكذا كان منهج عليٍّ (ع) مع عماله وولاته على البلاد الإسلامية، فهو يختار الشخص المناسب ويمنحه الصلاحيات التامة، ويرسم له الطريق، ويحدد له الأهداف، ويتركه ينفذ العمل بطاقاته الخاصة، فيحفز بالآخرين الجد والاجتهاد، وليميز المبدع من غيره، وإذا نظرنا في كتبه إلى عماله مثل (محمد بن الحنفية) أو عهده إلى (مالك الأشتر) أو بعض كتبه إلى عمال الخراج نرى بوضوح سعة الصلاحيات التي يمنحها لهم، فمن تلك الصلاحيات[1]:

١- منح العفو في العقوبات التي ليس بها حدٌّ محدود بموجب الشريعة.
٢- اختيار المستشارين والوزراء.
٣- منح الشكر بحسب ما يراه مناسباً للعمل الذي يقوم به الأفراد.
٤- تعيين قادة الجند.
٥- تعيين القضاة ورواتبهم.
٦- تحديد الأرزاق والمعاشات للجند والموظفين العموميين
٧- تعيين جهاز رقابة نزيه لمراقبة ضعاف النفوس.
٨- تخفيف الخراج عن أصحابه بما يضمن عدم إلحاق الحيف بهم أو بأراضيهم.
٩- تعيين الكُتاب وكبار موظفي الدولة وتحديد هيكل الإدارة في البلد الموكل بإدارته.
١٠- إنزال العقوبة بالمفسدين والمحتكرين.
١١- تحديد قسم من بيت المال للفقراء والمساكين والمحتاجين.
١٢- عقد الصلح أو إعلان الحرب بحسب المصلحة بما يحقق عز الإسلام والرخاء للبلاد.

لقد رسم أمير المؤمنين (ع) خارطة واضحة للحكم في البلاد الإسلامية، من خلال ذلك العهد الذي كتبه لمالك الأشتر، إن الالتزام ببنوده كفيلٌ بتحقيق النجاح لكل مدير، في أي مؤسسة، مهما كان حجمها، أو عدد العاملين فيها، ومع سعة هذه الصلاحيات التي فوضها أمير المؤمنين (ع) لبعض عماله، فإنه يبقى مراقباً لأمورهم، ولا يغفل عن متابعة أداء كل فرد منهم، حتى إذا نما إليه خبرٌ عن زلة، أو فعل غير مرضي، أسرع إلى عامله بكتاب، ينبهه فيه على الخطأ، أو يعاتبه على ما لا يَحُسن أن يقوم به، أو قد يعزله، إذا كان الأمر فاحشاً أو

(١) ينظر: نهج البلاغة: ٣/٨٢ - ١١١.

خطيراً، وحسبنا كتابه إلى (عثمان بن حنيف) مثالاً[١]، إن أي مدير يخول كل هذه الصلاحيات سيشعر بثقة عالية ممن كلفه بالعمل، ولابدَّ أنه سيجتهد في عمله، ويعمل بفريق يجتهد كثيراً في اختياره، يسعى معه لتحقيق النجاح في مهامه.

رابعاً ـ الحلم وعدم تعجيل المحاسبة:

قرن الله تعالى الحلم بالغفران في وصف ذاته المقدسة في أكثر من خمسة مواضع[٢] في القرآن الكريم، منها قوله عزّ وجل: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[٣]، وكذلك قرن الحلم بالعلم في أكثر من موضع[٤]، منها: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾[٥]، وقرن الحلم بالغنى. قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾[٦]، وقرنه بالشكر أيضاً في قوله: ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾[٧]، والحلم: الأناة والعقل، وهو ضد السفه[٨]، ومن حِلمِ الله تعالى أنه يغفر ذنوب العباد مع علمه بها، وإنما يغفر ما صدر من العباد من الذنوب؛ لكونه الغني المطلق، رقاب الخلق بيده، وأرزاقهم من عندهم، لا تضره معصية العاصين، ولا تنفعه عبادة العابدين، ومن كان هذا شأنه، فلِمَ يعجل؟ و **(إنما يعجل من يخاف الفوت، وإنما يحتاج إلى الظلم الضعيف)**[٩].

على الفرد إذا أراد الارتقاء في سلم الأخلاق ويُحْسِنَ تعامله مع الآخرين أن يكون حليماً، فلا يعاجلهم بالعقوبة، ولا يبادرهم بالمحاسبة، بل يقبل منهم كل عذر ممكن، ويجد لهم كل مخرج، حتى وإن كان الحق له، قال عليٌّ (ع): **(لا يُعَابُ الْمَرْءُ بِتَأْخِيرِ حَقِّهِ، إِنَّمَا يُعَابُ مَنْ أَخَذَ مَا لَيْسَ لَه)**[١٠]، فالحليم لا يُلام بسبب التأني والروية، ومن هنا نرى أمير المؤمنين (ع) صبر على حقوق له أُخذت بغير وجه حق، مثل حقه في خلافة النبي (ص) وحق الزهراء في (فدك) وغيرهما، فلم يستعمل القوة، لإنقاذ تلك الحقوق، بل تركها بيد غيره، عسى أن يتبين لهم الحق، فيعيدوها لهم.

وقال (ع): **(الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ تَوْأَمَانِ يُنْتِجُهُمَا عُلُوُّ الْهِمَّةِ)**[١١]، إذا كلما تصدر الشخص للمناصب، وأصبح أكثر عرضة للتعامل مع الناس، وجب عليه أن يتحلى بالحلم، والروية،

---

(١) نهج البلاغة: ٣/٧٠، شرح نهج البلاغة: ١٦/٢٨٧.

(٢) البقرة: ٢٢٥، ٢٣٥، آل عمران: ١٥٥، المائدة:١٠١، الإسراء: ٤٤، فاطر: ٤١.

(٣) البقرة: ٢٣٥.

(٤) النساء: ١٢، الحج: ١٩، الأحزاب: ٥١.

(٥) النساء: ١٢.

(٦) البقرة: ٢٦٣.

(٧) التغابن: ١٧.

(٨) ينظر: العين مادة (حلم): ٣/٢٤٦، لسان العرب: مادة (حلم): ١٢/١٤٥.

(٩) من لا يحضره الفقيه: ١/٤٩١.

(١٠) نهج البلاغة: ٤/٤١.

(١١) نهج البلاغة: ٤/١٠٥.

وعدم العجلة، وكل سمة من هذه السمات ستحفز الآخرين على حُسن التعامل معه، وتجبرهم إلى الانقياد للحليم، وَقَالَ (ع) (**أَوَّلُ عِوَضِ الْحَلِيمِ مِنْ حِلْمِهِ أَنَّ النَّاسَ أَنصَارُهُ عَلَى الْجَاهِلِ**)[١]، لأن الجاهل والمتسرع سرعان ما سيقع في الخطأ، ويظهر فحش عمله أو قوله، ويفضح أمره بين الآخرين، في حين الحليم سيفكر بتأنٍ ويصل إلى القرار السليم.

وقال (ع): (**الْحِلْمُ غِطَاءٌ سَاتِرٌ وَالْعَقْلُ حُسَامٌ قَاطِعٌ فَاسْتُرْ خَلَلَ خُلُقِكَ بِحِلْمِكَ وَقَاتِلْ هَوَاكَ بِعَقْلِكَ**)[٢]، وقال: (**الْجُودُ حَارِسُ الأَعْرَاضِ، وَالْحِلْمُ فِدَامُ السَّفِيهِ، وَالْعَفْوُ زَكَاةُ الظَّفَرِ**)[٣]، فجود الإنسان يغطي كل عيب ويحرس عرضه من أن يتناوله المعيبون، أما الفدام فهو خرقة توضع في فوهة الإبريق لتصفي ما يخرج منه وتمنع القذى من الكأس، فإذا كان الإنسان حليماً فسيصفي كلامه وأفعاله من القذى، وبذلك يقل الخطأ عنده ويحفز الآخرين على الالتفاف حوله وإنجاز الأهداف المشتركة الجامعة لهم.

بعد ذلك فالحليم يجب عليه ن يعفو عن الآخرين، وأن يتغافل عما يصدر من سوء كلما كان ذلك ممكناً، قال (ع): (**مِنْ أَشْرَفِ أَعْمَالِ الْكَرِيمِ غَفْلَتُهُ عَمَّا يَعْلَمُ**)[٤]، وينصح أمير المؤمنين (ع) من يتعاملون مع الناس بأن يكونوا أكثر مرونة، فيحملوا كلام الناس على المحمل الحسن، ولا يتربصون بهم ويتصيدون كلامهم، لينكلوا بهم، أو ينزلوا بهم العقوبة، قال (ع): (**لا تَظُنَّنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ أَحَدٍ سُوءاً وَأَنتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ مُحْتَمَلاً**)، إذا على المرء أن يكون مرناً في تقبل الكلام وأن ينظر إلى الناحية الإيجابية منه ولا يميل إلى تفسيره السلبي.

وكان من ضمن نصائحه (ع) لمالك الأشتر في عهده له قوله (ع): (**وَلْيَكُنْ أَبْعَدَ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ، وَأَشْنَأَهُمْ عِنْدَكَ، أَطْلَبُهُمْ لِمَعَايِبِ النَّاسِ؛ فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوباً، الْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا، فَلا تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ، وَاللَّهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ، فَاسْتُرِ الْعَوْرَةَ مَا اسْتَطَعْتَ، يَسْتُرِ اللَّهُ مِنْكَ مَا تُحِبُّ سَتْرَهُ مِنْ رَعِيَّتِكَ، أَطْلِقْ عَنِ النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حِقْدٍ، وَاقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وِتْرٍ، وَتَغَابَ عَنْ كُلِّ مَا لا يَضِحُ لَكَ**)[٥]، يرسم الإمام لواليه على مصر الخطوط الدقيقة التي تكفل له حب رعيته، وتحفزهم للعمل الصالح، وتدفع ولايته للرخاء والاستقرار، إن العمل بهذه الوصية موصل للنجاح وكل من يحتك بالناس في عمله عليه أن يلتزم نهج أمير المؤمنين (ع).

---

(١) نهج البلاغة: ٤/١٨٣.

(٢) نهج البلاغة: ٤/٩٩.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٩/٣١.

(٤) نهج البلاغة: ٤/٨٤، شرح نهج البلاغة: ١٩/٤٤.

(٥) نهج البلاغة: ٣/٨٢، شرح نهج البلاغة: ١٧/٣٠.

وليس العفو عن المذنبين والخاطئين إمارة ضعف وعلامة وهن، بل هي شيمة الكرام وإنما يكون العفو، بعد الإمكان والظفر، قال أمير المؤمنين (ع): (**أَوْلَى النَّاسِ بِالْعَفْوِ أَقْدَرُهُمْ عَلَى الْعُقُوبَةِ**)[١]، فكلما كان الفرد متمكنا من العقوبة، كان العفو من أجمل، وهذا شأن الله تعالى، فهو القادر المقتدر القدير على عباده، وهو العفو والمتجاوز عنهم، فحري بكل مدير لمؤسسة أم رئيس لدائرة، أو قائد لمجموعة أن يتحلى بآداب السماء، وأن يكون عالي الهمة سامي النفس، يعفو عمن يصدر منهم الخطأ بلا قصد، أو عندما يظهروا التوبة والندم.

ولا يشمل العفو الأصدقاء والمقربين فحسب، بل أجمل العفو ما كان مع الأعداء أو المنافسين لنا في العمل، قال عليٌّ: (**إذا قَدَرْتَ عَلَى عَدُوِّكَ، فَاجْعَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ شُكْراً لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ**)[٢]، هذه شيمة كرام الناس، ومن يريد النجاح في حياته العملية والاجتماعية، فالطريق أمامه واضح رسمه له أمير المؤمنين (ع) بأقواله ،أفعاله الكريمة.

خامساً ـ الشكر والثناء:

الشكر طريق من الطرق التي تحث الإنسان لكل فعل جميل وتبعده عن كل قبيح، وقد ركز القرآن الكريم على هذا المبدأ ووعد الله بثوابهم في قوله تعالى: ﴿وَسَيَجْزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[٣]، وقد قال أمير المؤمنين (ع): (**إذا وَصَلَتْ إِلَيْكُمْ أَطْرَافُ النِّعَمِ فَلا تُنَفِّرُوا أَقْصَاهَا بِقِلَّةِ الشُّكْرِ**)[٤]، ولما كانت طاعة الناس نعمة واستجابتهم لك نعمة، فيجب عليك أن تشكر لهم ذلك، وكلما أحسن المدير والقائد شكرَ الناس، حصل منهم على الطاعة، والمزيد من العمل الصالح.

ويجب على المدراء والقادة والولاة أن يجيدوا تقديم الشكر لأتباعهم والعاملين معهم، فلا ينتظرون منهم المطالبة بالشكر، أو يطيلوا عليهم الانتظار، وأن تكون نفوسهم سخية بالخير، قال عليٌّ (ع): (**السَّخَاءُ مَا كَانَ ابْتِدَاءً فَأَمَّا مَا كَانَ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَحَيَاءٌ وَتَدَمُّمٌ**)[٥]، إن الكلمة الطيبة قد تفعل بالنفوس ما لا تفعله الأموال، وإن من نفوس الناس من تتوق إلى تكريمهم أمام زملائهم بكلمة طيبة فمن يتعامل مع الناس بكثرة يجب أن يحسن استعمال كلمة الشكر في الوقت المناسب وأن يجود بها في كل مكان لمن معه ولا يستصغرها معتقداً

---

(١) نهج البلاغة: ٤/١٤، شرح نهج البلاغة: ١٨/١٨٣.

(٢) نهج البلاغة: ٤/١٤٠، شرح نهج البلاغة: ١٨/١٠٩.

(٣) آل عمران: ١٤٤.

(٤) نهج البلاغة: ٤/١٤١.

(٥) نهج البلاغة: ٤/١٤، شرح نهج البلاغة: ١٤/١٨٤.

إنها قليلة الأثر، قال (ع): (**لا تَسْتَحِ مِنْ إِعْطَاءِ الْقَلِيلِ، فَإِنَّ الْحِرْمَانَ أَقَلُّ مِنْهُ**)[١]، وقد تكون كلمة الشكر أكثر نفعاً في حث الآخرين للعمل الصالح والجاد من كثير من العلاقات الإنسانية الأخرى بما فيها صلة الرحم، قال عليٌّ (ع): (**الْكَرَمُ أَعْطَفُ مِنَ الرَّحِمِ**)[٢]، فإذا أكرمت بعض الناس بشكرهم فقد تنال منهم من الاستجابة أكثر مما تناله من استجابة بعض أرحامك.

وأوصى عليٌّ مالكاً الأشتر بقوله: (**ولا يَكُونُ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَزْهِيداً لأَهْلِ الإِحْسَانِ فِي الإِحْسَانِ، وَتَدْرِيباً لأَهْلِ الإِسَاءَةِ عَلَى الإِسَاءَةِ، وَأَلْزِمْ كُلاًّ مِنْهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَه**)[٣]، إن التفريق بين المحسن والمسيء فيه إحقاق للحق، وحث للأفراد على فعل الخير، والجد والاجتهاد، وأبسط صور التفريق بين المحسن والمسيء أن تشكر المحسن على فعله، وقد تعاقب المسيء على فعله.

وقد يكون الشكر نفسه طريقاً نافعاً لمعاقبة المسيء، يقول سيد الحكماء عليُّ بن أبي طالب (ع): (**إِزْجُرِ الْمُسِيءَ بِثَوَابِ الْمُحْسِنِ**)[٤]، فإذا أثاب المدير أو القائد المحسن ففيه حث وتحفيز للمسيء بأن يترك الإساءة طمعاً في الثواب، ولعل هذه الطريقة تكون أكثر نفعاً في حفز بعض الأفراد للعمل الصالح، فنفوس البشر تختلف منهم من لا تردعه إلا العقوبة الشديدة، ومنهم من يرجع ويؤوب إذا شكرت زميله المحسن فسيحز ذلك في نفسه ويحثه للعمل الطيب.

ويجب على المدراء أيضاً التنبه إلى أمر خطير أشار إليه أمير المؤمنين (ع) بقوله: (**الثَّنَاءُ بِأَكْثَرَ مِنَ الاسْتِحْقَاقِ مَلَقٌ، وَالتَّقْصِيرُ عَنِ الاسْتِحْقَاقِ عِيٌّ وَحَسَدٌ**)[٥]، إذا هناك موازنة دقيقة بين الشكر وأمرين خطيرين، فالزيادة فيه قد تكون تملقاً، والنقصان منه قد يكون عيٌّ وهو عدم القدرة على النطق، أو قد يكون حسداً لما يقوم به الآخر من فعل جميل، ولا الحسد من شيم الكرام، ولا العيُّ من صفات القادة الجيدين، فيجب أن يوزن الأمور بموازينها الصحيحة، ويكمن نجاح القائد بين أتباعه، أو المدير في مؤسسته في إجادته لاستعمال هذه المهارة.

ولا ينتظر القائد أو المدير أو الشخص الناجح أن يكال له الشكر والثناء ليفعل المعروف، بل يجب عليه فعل ما تقتضيه المروءة منه في كل حين سواء تنبه لحُسن عمله الآخرون أو لم يتنبهوا شكروه على ذلك أو لم يشكروه يقول عليٌّ: (**لا يُزَهِّدَنَّكَ فِي الْمَعْرُوفِ**

---

(١) نهج البلاغة: ٤/١٤١.

(٢) نهج البلاغة: ٤/٥٤.

(٣) نهج البلاغة: ٣/٨٧، شرح نهج البلاغة: ١٧/٣٦.

(٤) نهج البلاغة: ٤/٤٢.

(٥) نهج البلاغة: ٤/٨١ شرح نهج البلاغة: ١٩/٢٦٢.

مَنْ لا يَشْكُرُهُ لَكَ، فَقَدْ يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ مَنْ لا يَسْتَمْتِعُ بِشَيْءٍ مِنْهُ، وَقَدْ تُدْرِكُ مِنْ شُكْرِ الشَّاكِرِ أكثر مِمَّا أَضَاعَ الْكَافِرُ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)[1]، فنجاح المرء يحصل بالعمل الصالح وبعمل المعروف، وسيحصل على ثمرة أعماله تلك عاجلاً أم آجلاً.

في ختام هذه الصفحات نقول: إن ما ذكرناه من مسائل في كل مبحث من المباحث لم تستوف حقه وليس هي كل المهارات التي يجب أن يحوزها من يريدون إتقان فن التعامل مع الناس بل هناك الكثير غيرها مما يمكن أن يقال في كل مبحث، وليست هذه المباحث الثلاث هي كل ما يمكن أن يقال في فن التعامل مع الناس بل يمكن إضافة مباحث أخرى مثل مبحث (مهارات بناء العلاقات الناجحة) وغيره من المباحث، وليس ما ذكرناه من أمثلة لأقوال الإمام علي (ع) أو مواقف عملية هي كل ما موجود في حياته الشريفة، بل لا يمثل ما ذكرناه من أمثلة إلا نزراً يسيراً جداً، والمُثل وافرة كثيرة لمن أراد التوسع في الموضوع، وقد ذكرنا ما سمح به المقام، وتحديد عدد الصفحات، وهذا عذرنا إذا ما كنا قصرنا في جانب من جوانب الموضوع.

النتائج:

١- تمثل حياة الإمام علي (ع) وسيرته العطرة مثالاً للطامحين نحو تحقيق حياة إنسانية عادلة.

٢- التعامل مع الناس فن يحتج إلى أن يحوز الفرد مهارات عديدة منها مهارات للفهم والتواصل مع الآخرين، ومهارات لجذبهم والتأثير فيهم ومهارات لحثهم وحفزهم، ومهارات لبناء العلاقات الناجحة معهم.

٣- ترك لنا الإمام علي (ع) مجموعة كبيرة من المهارات التي يمكن مراعاتهما لتحقيق تواصل ناجز مع الآخرين من أهمها: حُسنُ الاستماع لهم، وفهم النفسية الإنسانية، وترك (الأنا)، واختيار الطيب من الكلام وحُسْنُ استعمالِ اللغة.

٤- أما مهارات الجذب والتأثير، فيمكن أن نحدد فيها المهارات الآتي: الاهتمام بالآخرين والإحساس الصادق بمشاعرهم، والإقناع والمشاورة، والوفاء، والرقة واللين، والتواضع والألفة، والصبر.

٥- ومهارات الحث والحفز، فأهمها: بث الطاقة الإيجابية والتفاؤل في لحظات الضعف، وشعور الأتباع بالأمن والاطمئنان للحق، ومنح الآخرين الصلاحيات، والحلم وعدم تعجيل المحاسبة، والشكر والثناء.

---

(١) نهج البلاغة: ١٨٢/٤، شرح نهج البلاغة: ٢٤/١٩.

التوصيات:

يوصي البحث كل القادة ومدراء المؤسسات ومن يتعاملون بشكل مباشر مع الآخرين، بإتباع منهج أمير المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب واكتساب المهارات اللازمة لذلك، مما ورد ذكر بعضها في البحث؛ لتحقيق النجاح في تعاملهم مع الآخرين، وتحقيق المكتسبات العملية لمجتمعاتهم ومؤسساتهم، وتحقيق التقدم في سيرتهم العلمية والاجتماعية.

ويوصي البحث الباحثين بالتوسع في الموضوع واستقصاء جوانبه البحثية بالشكل الذي يستحقه، إذ يصلح أن يكتب فيه دراسات أكاديمية متخصصة.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- الأثر الأدبي للإمام علي (ع) في حِكَمِ الإمامين الكاظم والجواد (عليهما السلام)، د. رزاق عبد الأمير الطيار، بحث مشارك في مؤتمر العتبة الكاظمية الثالث ٢٠١٢.
- الاختصاص، محمد بن محمد بن النعمان البغدادي المفيد (ت٤١٣هـ)، تحقيق: علي أكبر غفاري، دار المفيد، بيروت لبنان، ط٢، ١٩٩٣م.
- الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، محمد بن محمد بن النعمان البغدادي المفيد (ت٤١٣هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت، دار المفيد، بيروت لبنان، ط٢، ١٩٩٣م.
- الأمالي، آبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بان بابويه القمي الشيخ الصدوق (ت٣٨١هـ)، تحقيق: مؤسسة البعثة، قم، إيران، ط١، ١٤١٧هـ.
- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي (ت١١١١هـ)، مؤسسة الوفاء، بيروت لبنان، ط٢، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- تاج العروس، مرتضى الزبيدي، تحقيق علي شيري، دار الفكر، ١٩٩٣ - ١٩٩٤.
- تاريخ الطبري (تاريخ المم والملوك)، محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، مؤسسة الأعلمي، بيروت - لبنان، ط٤، ١٩٨٣.
- تاريخ مدينة دمشق: ابن عساكر، ابن عساكر (ت٥٧١هـ)، تحقيق: علي شيري، دار الفر، بيروت لبنان، ١٤١٥ - ١٩٩٥.
- تحف العقول عن آل الرسول: أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني، عني بتصحيحه والتعليق عليه علي أكبر الغفاري، الطبعة الثانية ١٣٦٣ - ش ١٤٠٤ ق مؤسسة النشر الإسلامي (التابعة) لجماعة المدرسين بقم المشرفة (إيران).
- التعامل مع الناس (الفهم والاتصال): د. طارق السويدان: (بحث إلكتروني).
- التوحيد، آبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بان بابويه القمي الشيخ الصدوق (ت٣٨١هـ)، تحقيق: هاشم الحسيني الطهراني، منشورات جماعة المدرسين قم المقدسة - إيران.
- الخصال للصدوق آبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت٣٨١هـ) صححه وعلق عليه علي أكبر الغفاري منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم.
- سنن الترمذي: الجامع الصحيح للإمام الحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (٢٠٩ - ٢٧٩هـ)، حققه عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر للطباعة والنشر.

- شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين الأستراباذي (ت٦٨٦هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد وآخرون. دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ١٣٩٥ ـ ١٩٧٥.
- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مؤسسة إسماعيليان، لطباعة والنشر والتوزيع.
- صحيح البخاري الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة بن بردزبة البخاري الجعفي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م.
- صحيح مسلم: الجامع الصحيح للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج ابن مسلم القشيري النيسابوري، دار الفكر بيروت ـ لبنان.
- عبقات الأنوار: النيسابوري.
- العين، الخليل بن حمد الفراهيدي، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، ط٢، ١٤١٠.
- الغدير، عبد الحسين أحمد الأميني، دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان، ط٤، ١٣٩٧ ـ ١٩٧٧.
- فن التعامل مع الناس: دايل كارنيغي.
- الكافي، أبو جعفر محمد بن يعقب بن اسحق الكليني (ت٣٢٩هـ)، تحقيق: علي أكبر غفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط٣، ١٣٨٨هـ.
- لسان العرب:للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري (ت٩١١هـ)، نشر أدب الحوزة قم ـ إيران (١٤٠٥ هـ).
- مجمع الأمثال: الميداني، دار الفكر، بيروت ـ لبنان.
- المحاسن، أحمد بن محمد البرقي، تصحيح: السيد جلال الدين الحسيني، دار الكتب العلمية الإسلامية، طهران ١٣٧٩.
- مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ)، دار صادر، بيروت ـ لبنان.
- معاني الأخبار: للشيخ الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت٣٨١هـ) صححه وعلق عليه علي أكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة
- من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت٣٨١هـ) صححه وعلق عليه علي أكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة.
- مناقب آل أبي طالب، محمد بن علي ابن شهر آشوب (ت ٥٨٨هـ)، تحقيق: لجنة من أساتذة النجف الأشرف، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٦م.
- نهج البلاغة: اختاره الشريف الرضي من كلام سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) شرح الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان.
- وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة: الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي (١١٠٤ هـ)، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، مطبعة مهر ـ قم، إيران، الطبعة الثانية (١٤١٤ هـ)

وما أدراك ما علي، د. صلاح الفرطوسي، منشورات العتبة العلوية، ٢٠١٢. ❖

الإمام علي (ع) في الموروث الإنساني

د. حسن الزين

إذا كان في الموروث الإنساني من عطاء علي بن أبي طالب (ع) الكثير المتصل بجميع أو أبرز ما يميز هذا الموروث الثقافي والاقتصادي والسياسي والأخلاقي وغيره مما دفع بعجلة الحضارة العالمية نحو التقدم والازدهار ومما لا يتسع له هذا المقام وهذا المقال فإن بحثنا سوف يقتصر على الفقه السياسي للإمام علي بن أبي طالب (ع) أي على قسم من فكره الاجتماعي والتشريعي الذي يشمل ما توصل إليه العالم الحديث في مجال حقوق الإنسان والمواطن، ويجد الباحث في فكر الإمام الاجتماعي والتشريعي وفي تصرفاته وفي تفسيره لأحكام الشرع الإسلامي، يجد في كل ذلك أسساً لعطاء فكري وفقهي كبيرين، عطاء يحيط بأكثر ما قدمته عصور النهضة العالمية الحديثة من مفاهيم ومبادئ لاسيما في مجال حقوق الإنسان وحرياته وأنظمته السياسية. ويتجاوز هذا العطاء كل ذلك أحياناً في تصديه لما هو أبعد مدى في مجال تلك الحريات والحقوق مما سوف تدرك قيمته وقيمه الأجيال القادمة (من بطون الغيب) كما يقول طه حسين بعد أن تكون تجربة النظم الديمقراطية قد اكتملت فصولاً واستطاع منظروها أن يميزوا الخيط الأبيض من الخيط الأسود إن صح التعبير.

وخلاصة القول أنه بقي في فكر الإمام علي (ع) وسيرته ما قدم للأجيال التالية الصورة الصحيحة والتطبيق القويم لكل القيم والمبادئ التي حملتها الشريعة الإسلامية السمحاء.

إذن الكلام عن حقوق الإنسان في نهج البلاغة أو في الفقه السياسي للإمام علي بن أبي طالب يكتسب أهميته من كونه يطرح استطراداً موضوع موقف النظام الإسلامي من هذه الحقوق. ومن هذا المنطلق يمكن القول إن حديثنا يتصل بما هو مطروح في مجال الإعلام العالمي من تناقض ذلك الموقف مع معطيات النظام الديمقراطي. وبعبارة أوضح فإن الإسلام متهم في هذه الأيام من قبل جهات كثيرة من الرأي العالم الغربي بأنه يحمل نظاماً استبدادياً يخطط للقضاء على النظام الديمقراطي! وهنا يطرح السؤال: إذا كانت حقوق الإنسان كما فصلتها الشرعة المنسوبة إليها هي الوجه البارز للديمقراطية وللنظم السياسية المنتمية إليها فما هو موقف نهج البلاغة أو الإمام علي (ع) ومن ثم النظام السياسي الإسلامي إن صح التعبير من كل ما ذكرنا؟

جميع دساتير الدول الديمقراطية الحديثة تنص على المساواة بين المواطنين دون تمييز في اللون أو الدين أو الطبقة أو العرق في ظل باب هام يدور حول حقوق الإنسان وأبرز هذه الحقوق كما تشير تلك الدساتير هي حق الحياة والحق بالحرية الشخصية وحق الملكية الفردية وهي

تشمل حرية الرأي والقول والكتابة والاجتماع والحق بالمحاكمة العادلة والوقاية من أي قيد على الحرية الشخصية وعدم الحبس الظالم عن طريق الاعتداء على الحريات وأن لا جريمة ولا عقاب إلا بناء على نص القانون.

جميع هذه الحقوق لم تقر ولم يعترف بها إلا في عصور متأخرة من التاريخ الإنساني وبعد فترات من الظلم والقهر وبعد ثورات من الشعوب رافقتها إراقة دماء لا حصر لها. فالدستور الأميركي صدر عام ١٧٨٧م وأقدم وثيقة لحقوق الإنسان في أوروبا صدرت عام ١٢١٥م وكانت في الأساس لحماية حقوق الأشراف واللوردات في إنكلترا في مواجهة الملك ولم يشمل هذا العهد الذي يفخر به الإنكليز حقوق عامة الشعب أي فلاحي الإقطاع. فلم ينل المواطن العادي هذه الحقوق إلا بعد خمسة قرون على الأقل من ذلك التاريخ.

ومن هنا ومن هذه المنطلقات كلها سوف نحرص على توضيح موقف الإمام علي بن أبي طالب (ع) في هذا المجال من خلال ما سجل في نهج البلاغة من قول وعمل.

١ ـ حق الحياة:

هذا الحق يعني في مفهومنا الحدي ث أن يصبح الإنسان آمنا على حياته من أي تهديد ويقابله في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[١] أما عند علي بن أبي طالب (ع) فيأخذ تفسير الآية بعده الحقيقي الصحيح في ظل تطبيق ينأى به عن تأثير المطامع والعصبيات لأن القاتل يتحمل وزراً كبيراً فتطاله يد العدالة مهما بلغ به النسب والنفوذ، دون أي تمييز، ولنا في موقفه من مقتل الهرمزان مثال ساطع لأن القاتل هو عبيد الله بن عمر بن الخطاب والقتل تم انتقاماً للخليفة نفسه بعد أن قتله أبو لؤلؤة مولى المغيرة بن شعبة. ولكن الهرمزان لا تربطه بالقاتل غير رابطة الدين وهو بريء من دم الخليفة وللقضاء وحده حق الفصل في هذه الجريمة. وهكذا فإنه أصر على تحميل عبيد الله بن عمر بن الخطاب المسؤولية قائلاً: لأقتلنه بالهرمزان. وعندما التقاء في صفين قال له: (أنت تطالب بدم عثمان والله يطالبك بدم الهرمزان)[٢].

لقد كان يوصي ولاته بحماية حق الحياة بقوله: إياك وسفك الدماء بغير حقها ولا عذر لك عند الله وعندي بقتل العمد[٣].

لم يكن يبدأ حروبه بقتال وكان يوصي جنوده بقوله: (لا تقاتلوهم حتى يبدأوكم ولا تقتلوا مدبرا ولا تصيبوا معوراً ولا تجهزوا على جريح)[٤] ولكن أبرز ما يوضح حرصه على

---

(١) المائدة: الآية ٣٢.

(٢) مروج الذهب للمسعودي الجزء الثاني، ص٣٨٠ ـ ٣٨١.

(٣) نهج البلاغة: ص ٥٣٧ ط. دار الأندلس ١٩٦٥م.

(٤) نهج البلاغة: ص ٤٥٣.

حماية هذا الحق تجلى في موقفه من قاتله ابن ملجم. لقد كان فيه من المصداقية ما ربما عجزت عن تفصيله جميع متون أو شروح القانون. فقد أوصى أن لا يقتل ابن ملجم قبل ثبوت جريمة القتل! "بوفاة الإمام" ثم قال: (إن أبقى حياً فأنا ولي دمي)[١]. وفي هذا السياق وحرصاً منه على حماية حق الحياة وعدم المس به بدون وجه حق حمل وصيته إلى ولديه الحسن والحسين (ع) ما يلي: يا بني عبد المطلب لألفينكم تخوضون في دماء المسلمين خوضاً. تقولون قتل أمير المؤمنين ألا لا يقتلن بي إلا قاتلي... انظروا إذا مت من ضربته هذه فاضربوه ضربة بضربة ولا يمثل بالرجل... فإنني سمعت رسول الله (ص) يقول: (إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور)[٢] لقد خاف أن يعتدي على حياة رجل آخر غير القاتل بعد وفاته كما حصل بعد مقتل الخليفة عمر بن الخطاب كما خاف أن يمثل بالقاتل خلافاً لنص حديث الرسول (ص) ولكن في كلامه أيضاً إشارة إلى ضرورة التحقق من سبب الوفاة قبل إنزال العقوبة حيث يقول: (إذا مت من ضربته) لأن الوفاة قد تحصل بسبب عامل آخر (كموت الفجاءة) وعندئذٍ يتغير نوع العقوبة. ألا يذكرنا ذلك بكل ما يعتمد القضاء في ظل الأنظمة الديمقراطية الحديثة في أيامنا هذه من أجل تقرير العقاب العادل!؟

٢ ـ حق الحرية الشخصية:

أما مفهومه لحق الإنسان بالحرية الشخصية فإنه يظهر في الرؤية التي يقدمها نهج البلاغة على درجة كبيرة من الأهمية في عدد من المواقف التي يعبر عنها كلامه بصراحة ووضوح، وأبرزها كانت مواقفه من معارضيه من الخوارج ومن محاربيه في موقعة الجمل كما في معركة صفين: قيل له عن قوم من جند الكوفة هموا باللحاق بالخوارج فرفض التعرض لهم لمنعهم من ترك جيشه والالتحاق بأعدائه، وتحداه ابن الكواء في المسجد أثناء الصلاة بما يشير إلى تكفيره فلم يتعرض له بأذى وقيل له عن ذلك الخارجي الذي كان يخطط لقتله ويسبه فقال: (إنما هو سب بسب أو عفو عن ذنب) رغم شدة كلام الخارجي الذي قال: (قاتله الله كافراً ما أفقهه)[٣] وهكذا يتأكد من مجريات الأمور في عهد الإمام علي بن أبي طالب (ع) ومن كلامه أنه يرى لمعارضيه حقوقاً لا تسمح أحكام الشرع بتجاوزها. وضمن هذا المنطق كان موقفه من جيش معاوية في موقعة صفين بعد أن قام هذا الأخير بمنع جيش الإمام من ورود الماء وعندما أجلى الإمام معاوية عن الماء بالقوة سمح لهم بوروده[٤]. وفي سياق مبدأ الحق بالحرية الشخصية الذي حمى الإمام صحة تطبيقه حتى الرمق

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٥٩.

(٢) نهج البلاغة: ص ٥١٢.

(٣) عبقرية الإمام علي لعباس محمود العقاد ص ٢٣ ـ المطبعة العصرية ـ صيدا.

(٤) نهج البلاغة: ص ٦٥١.

الأخير تندرج وقائع كثيرة نجمت عن قوله وعمله: لقد قيل له أن رجالاً من جيشه يتسللون من المدينة إلى معاوية فكتب إلى عامله على المدينة سهل بن حنيف يقول: (فقد بلغني أن رجالاً من قبلك يتسللون إلى معاوية فلا تأسف على ما يفوتك من عددهم...)[١] لقد كان باستطاعته منعهم. وقد كان يرفض مبدأ التجسس على الناس لما فيه من حد لحريتهم الشخصية. ومن أجل التوضيح نذكر مما كتبه لواليه على مصر هذا الكلام: (إن في الناس عيوباً الوالي أحق من سترها)[٢] ونرى ما يشابه هذا التصرف في قوانين الجزاء الحديثة التي تمنع استعمال التجسس في وسائل الإثبات أمام المحاكم حماية لمبدأ الحرية الشخصية أو حقها!

ومن هذا المنطلق جاء في كلام الإمام إلى أحد ولاته: (ولا تعجلن إلى تصديق ساع فإن الساعي غاش ولو تشبه بالناصحين)[٣]. ويشمل هذا الحق بالحرية الشخصية حرية الرأي والاجتماع كما سوف نرى في هذا البحث.

٣ ـ حق الملكية الفردية:

أما حق الملكية الفردية فكان فيه لرؤية الإمام ما يمنح له الحماية والالتزام ولكن لهذا الحق حدودا أو قيوداً تظهر بوضوح كلما تعرضت حقوق الناس الاقتصادية للخطر أو تعرض المجتمع لمواجهة تناقضات الفقر والغنى أو التخمة والجوع فينعكس كل ذلك على حق الملكية الفردية إلى درجة تقزيمه كما يبدو من هذا القول: (إن الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء فما جاع فقير إلا بما متع به غني والله تعالى سائلهم عن ذلك)[٤]. فإذا أضفنا إلى هذا الكلام قولاً شهيراً لأبي ذر الغفاري جاء فيه: (عجبت لمن لا يجد القوت في بيته كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه)، أمكن لنا أن نتصور الموقف الإسلامي من حق الملكية الفردية. وهكذا فان الإمام يقول عن وضع مغاير كان يسود المجتمع الذي عاصره، يقول مستنكراً: (اضرب بطرفك فهل ترى إلا فقيراً يكابد فقراً أو غنياً بدل نعمة الله كفرا...)[٥] كما يقول: (أوترجو أن يعطيك الله وأنت متمرغ في النعيم تمنعه اليتيم والأرملة..)[٦] وهنا تجدر الإشارة إلى أن حماية حق الملكية الفردية كغيره من الحقوق تشمل جميع فئات المجتمع لا فرق في ذلك بين مسلم وغير مسلم. وفي هذا يقول الإمام (ع): (ولا تمسن مال أحد من الناس مصل ولا معاهد)[٧] إن حماية هذا الحق واجب

---

(١) نهج البلاغة: ص ٥٥٨.

(٢) نهج البلاغة: ص ٥٢٠.

(٣) المرجع السابق.

(٤) نهج البلاغة: ص ٦٣٢.

(٥) المرجع السابق، ص ٣٤٠.

(٦) نهج البلاغة: ص ٤٥٨.

(٧) المرجع السابق، ص ٥١٥ ـ ٥١٦.

يفرض على الجميع وللتوضيح نورد كلاماً قاله الإمام (ع) عندما بلغه نبأ غزو جيش معاوية للأنبار واعتداءات هذا الجيش على ممتلكات الناس من مسلمين ومعاهدين (نصارى) حيث يقول: (ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة فينتزع حجلها وقلبها ورعثها ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام) ثم يستغرب عدم قيام الناس بواجب التصدي لهذا الاعتداء متابعاً القول: (ثم انصرفوا وافرين ما نال رجلاً كلم ولا أريق لهم دم!)[١].

٤ ـ التعددية السياسية أو حق المعارضة السياسية:

إن موقف الإمام من مبدأ التعددية السياسية يبدو من خلال نهج البلاغة متناقضاً مع جميع مظاهر الحكم في عهد الخليفة الثالث عثمان لأنه يتخذ شكلاً يتجاوز ذلك العصر من الوجهتين الفكرية والعملية باعتباره حقاً طبيعياً لجميع أفراد الرعية عندما يقول: (لا تقاتلوا، الخوارج بعدي فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه) ومن منطلق هذا الكلام يمكن إلقاء الأضواء على موقف الإمام (ع) من المعارضة السياسية كواقع كان يواجهه ومن حقوق المعارضين بحيث يعتبر أنهم يتمتعون بحقوق المواطن (أحد أفراد الرعية) كاملة من دون تمييز. لقد كان يعتبر أخصامه من الخوارج الذين كفروه (طلاب حق ضلوا) ولكن نظرته هذه تبقى هي نفسها بالنسبة لسائر معارضي حكمه من الذين يعتقدون عن حسن نية أنهم مع الحق يحاربون من أجله ويعارضون، فقد سأله أحد أصحابه في هذا السياق (ما يكون أمر الذين يقتلون في صفوف أعدائه منهم أن كانت حرب؟ فأجابه قائلاً: (من قاتل وهو صادق النية في نصر الحق مبتغياً وجه الله ورضاه فمصيره مصير الشهداء!).

هذه الموضوعية المطلقة في التعامل جعلت من المعارضة السياسية مؤسسة قائمة بالفعل في عصر الإمام علي بن أبي طالب. ومن هذا الاتجاه وهذا السياق قال (ع) مشيراً إلى مكفريه من الخوارج: (لهم علينا ثلاث: أن لا نمنعهم المساجد أن يذكروا الله فيها وأن لا تمنعهم الفيء ما دامت أيديهم مع أيدينا وأن لا نقاتلهم حتى يقاتلونا)[٢] وفي هذا يقول أو عبيد بن سلام: إن علياً رأى للخوارج الحق من الفيء ما لم يظهروا الخروج على الناس وهو مع ذلك يعلم أنهم يسبونه ويبلغون منه أكثر من السب إلا أنهم كانوا مع المسلمين في أمورهم وحاضرهم حتى صاروا إلى الخروج فيما بعد). لقد استنفد مع جميع أخصامه جميع طرق الحوار المتكافئ لأنه اعترف لهم بجميع حقوقهم خلال هذا الحوار فلم يعتد على أي منهم وكان قادراً. لم يمنع معاوية وجيشه عن الماء ولم يتعرض لأخصامه من جرحى قادة موقعة الجمل حيث كانوا

---

(١) نهج البلاغة: ص ٧٦.

(٢) نهج البلاغة: ص ١١٥.

يتداوون. حاور الجميع ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ولم يبدأ أحداً بقتال! لقد ظهر اعترافه الصريح بحقوق معارضيه منذ بداية حكمه عندما نهى عن (بيع المضطرين) تقيداً بالسنة الشريفة!

طبق الإمام كل هذه المبادئ بمصداقية بعيدة عن أي حقد أو إكراه فأموال معارضيه كانت تتمتع بحماية السلطة مثل أموال الموالين له.

هذا ما حصل في موقعة الجمل وصفين وفي النهروان فكان المنتصرون من أصحابه يمرون على الذهب والفضة دون أن يكون لهم سبيل للحصول على شيء منه. وهنا تجدر الإشارة إلى مسألة التعددية الدينية التي حماها الإسلام لأن لها وجها سياسياً في ظل نظام كان يستمد شرائعه من أحكام الدين! ومن هذا المنطلق تساوت حقوق غير المسلمين مع حقوق المسلمين. من هنا كان كلام الإمام يبدو شديد التعبير عندما يقول: (دم المسلم كدم الذمي حرام) أو عندما يوصي أحد ولاته بقوله: (ولا تمسن مال أحد من الناس مصل أو معاهد) إلى ما هنالك مما لا يتسع المقام والمقال لذكره.

٥ ـ مبدأ المساواة:

أما الحق بالمساواة أمام القانون وأمام المال العام فنكتفي منه بذكر بعض كلامه لأحد ولاته: إلزم الحقل من لزمه من القريب والبعيد واقعاً ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع... وإياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة) كما نذكر كلامه لصاحبه سهل بن حنيف عندما اعترض هذا الأخير على مساواته بغلامه قائلاً: (هذا غلامي بالأمس وقد أعتقته اليوم) فقال الإمام (ع): (ونعطيك كما نعطيه...) وهنا لا بد من الإشارة إلى قوله (ع): (إني نظرت في كتاب الله فلم أجد لولد إسماعيل على ولد اسحق فضلاً)[١]. لقد رفض التمييز في كل أشكاله استناداً إلى سنة الرسول (ص) وعندما عوتب في المساواة بين أشراف العرب والصحابة والسابقين إلى الإسلام والموالي والمعاهدين (النصارى واليهود) وغيرهم أجاب: أما القسم والأسوة فذلك أمر لم أحكم به بادئ ذي بدء وقديماً سبق إلى الإسلام قوم ونصروه بسيوفهم ورماحهم فلم يفضلهم رسول لله (ص) ولا آثرهم في السبق...[٢].

لقد رفض التمييز في العطاء بجميع أشكاله مهما بلغت أخطاء من شملتهم المساواة حتى ولو كانت بين زان غير محصن من جهة ومؤمن من جهة أخرى، وقد أيد كل ذلك بقوله: (إن الرسول (ص) قطع يد السارق وجلد الزاني غير المحصن ثم قسم عليهما من الفيء... فأخذهم رسول الله بذنوبهم... ولم يمنعهم سهمهم من الإسلام ولم يخرج أسماءهم من بين أهله...).

---

(١) الروضة من الكافي المجلد الثامن من صفحة: ٦٩.

(٢) نهج البلاغة: ص ٢٣١.

إن شمولية مبدأ المساواة كما تبدو من خلال رؤية الإمام تطال جميع فئات وطبقات المجتمع فالخليفة يتساوى فيها مع أي مواطن آخر في حقه تجاه بيت مال المسلمين كما في سائر الحقوق. ومن هذا المنطلق يخسر الإمام (ع) دعواه أمام من سرق درعه لأنه لم يتمكن من تقديم البينة وهي على المدعي وهو الخليفة وهو ملزم بتقديمها كغيره من سائر المواطنين. وغير المسلم يتساوى مع المسلم في الحقوق لاسيما حق الحياة وفي ذلك يقول الإمام (ع): (دماؤهم كدمائنا) و (دم المسلم كدم الذمي حرام)[١]. وتتساوى جميع الفئات أمام القانون (أحكام الشرع) ومن ثم أمام المال العام حيث يوزع هذا المال بالتساوي بين الموالين والمعارضين والأشراف والموالي والمعاهدين. هذا ما تم بعد البيعة مباشرة وبعد موقعة الجمل ورفض الإمام في ذلك أية مساومة لصالح المعارضين عندما قال: لو كان المال لي لسويت بينهم ولكن المال مال (الله)[٢]. انه يعرف ان هذا الأمر ينطلق من أحكام الشرع وهو من هذه الناحية حق لا يلغيه التقادم وكل ما يوزع من بيت المال خلافاً لأحكامه باطل ويجب أن يستعاد. وفي هذا السياق جاء قول الإمام (ع): (لو وجدته وقد تزوج به النساء وملك به الإماء لرددته فإن في العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق)[٣] وجاء على لسان ابن عباس أن علي بن أبي طالب (ع) خطب في اليوم الأول للبيعة في أتباعه فقال: (ألا إن كل قطيعة اقطعها عثمان وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال فإن الحق القديم لا يبطله شيء)[٤] هذا الحق يتمثل في أن اعتماد مبدأ المساواة والعدالة كان خلال كل فترة حكمه يؤلف أساس هذا الحكم، فإذا ما تعارض مع أي أمر آخر كان تمسك الإمام علي به شديد الوضوح مهما كانت العقبات!! وهل كان يعنيه من أمر الحكم إلا أن يقيم حقاً ويدفع باطلاً؟

قال ابن عباس: دخلت على أمير المؤمنين علي (ع) وهو يخصف نعله فقال لي: ما قيمة هذا النعل، فقلت لا قيمة به، فقال والله لهو أحب إلي من أمرتكم إلا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً)[٥].

٦ ـ حق الحماية من العقاب:

كان من أبرز ما قدمته شرعة حقوق الإنسان في العصور الحديثة مسألة حق الحماية من العقاب فجاءت مقولة (أن لا عقوبة بدون نص) وعدم الحكم إلا بعد سماع أقوال الطرفين وبراءة المتهم حتى تثبت إدانته. وفي هذا السياق يأتي كلام علي بن أبي طالب (ع) شديد التعبير في قوله لأحد ولاته: (ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك ممن لا تضيق به الأمور

---

(١) المراجع السابق، ص ٥١٥.

(٢) نهج البلاغة: ص ٢٣٦.

(٣) نهج البلاغة: ص ٥٥.

(٤) المرجع السابق.

(٥) نهج البلاغة: ص ٨٨ ـ ٨٩.

ولا تمحكه الخصوم... ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه وأوقفهم في الشبهات وآخذهم بالحجج وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم وأصبرهم على تكشف الأمور[١]. ومن هذا الاتجاه امتنع عن تسليم معاوية من طلب ممن ادعى أنهم قتلة عثمان فأنبأه انه لا يعرف لعثمان قاتلاً بعينه بعد أن بحث واستقصى وأنه لا يستطيع أن يسلم إليه من اتهمهم وظن بهم الظنون (لأن أمور الحد لا تستقيم إلا على المحاجة والمقاضاة وإحضار البينة)[٢] وقد جاء في كتاب له إلى معاوية ما يلي: (أما ما سألت من دفع قتلة عثمان إليك فاني نظرت في هذا الأمر فلم أر أنه يسعني دفعهم إليك ولا إلى غيرك)[٣].

لقد حقق الإمام في مقتل عثمان لكنه لم يتمكن من إكمال التحقيق بسبب الحرب كما انه لم يتبين له صحة كون محمد بن أبي بكر صاحبه هو القاتل وهو متهم من قبل معاوية. ثبت ذلك من خلال شهادة نائلة زوجة عثمان. ومن هذا المنطلق كان يمتنع عن إنزال العقاب بالخوارج قبل أن يقوموا بما يسمى في العصر الحديث (بدء تنفيذ الجريمة) تطبيقاً لمبدأ براءة المتهم حتى تثبت إدانته. وفي هذا السياق جاء قوله لمن اخبره عن شخص يتآمر على قتله حيث أجاب: لا اقتل من لم يقتلني) شديد التعبير في هذا المجال لأن البينة هي الأساس لأحكام القضاء في نظره. وقبل ظهورها يمتنع إنزال العقاب. وعندما خرجت الخوارج من المسجد فحكمت قيل له: انهم خارجون عليك فقال: لا أقاتلهم حتى يقاتلوني وسيفعلون[٤].

أليس في هذه الحماية من العقاب ما يؤكد تطبيق الإمام (ع) لمبدأ براءة المتهم حتى تثبت إدانته وإقامة الدليل كما هي الحال اليوم في ظل الأنظمة الديمقراطية الحالية. والدليل في هذه الحال هو (بدء التنفيذ) لجريمة الثورة المسلحة.

٧ ـ حماية حقوق الإنسان:

المفكرون الذين واكبوا الثورة الفرنسية الكبرى كانوا يرون في سلطات الدولة خطراً يهدد حقوق الإنسان ويتأتى من خلال طغيان رجال الحكم في ظل الصلاحيات الاستنسابية التي كانوا يتمتعون بها قبل الثورة.

لذلك فان الصياغة التي تناولت حقوق الإنسان التقليدية في القرون المنصرمة في أوروبا، كانت تتجه نحو الحد من سلطة الدولة.

فليس للدولة دون مبرر أن تفرض الضرائب أو تعتقل إنساناً أو تنزع ملكيته أو أن تحكم عليه بالإعدام[٥].

---

(١) نهج البلاغة: ص ٥٢٦.

(٢) علي وبنوه لطه حسين ص ٨٨٨.

(٣) نهج البلاغة: ص ٤٤٩.

(٤) الكامل للمبرد الجزء الثاني ص ١٥٦ مكتبة المعارف ـ بيروت.

(٥) الإسلام كبديل لهوفمان ص ١٨٩ صدر عام ١٩٩٣ عن مؤسسة بافاريا في ميونخ وعن مجلة النور في الكويت.

وهنا يطرح السؤال: هل يمكن أن نستقرئ موقفاً لعلي بن أبي طالب (ع) من جميع هذه الأمور عبر قوله وعمله كما يظهران من خلال نهج البلاغة؟

لقد كان (ع) يعتبر أن أعمال السلطة التي يمثلها الخليفة تخضع لسيادة القانون بصورة مطلقة وأنه لا يحق لهذه السلطة أن تتجاوز القانون (أحكام الشرع) قيد أنملة ولا نستطيع بغير ذلك أن نفسر موقفه من أخيه عقيل حين لم يستطع أن يعطيه من بيت المال ما يسد حاجته الماسة وحاجة أطفاله أو موقفه من النصائح التي قدمت إليه من أجل تثبيت حكمه وفيها ما يخالف أحكام الشرع؟ أما لجهة الضرائب فلم يكن يرى أن بإمكانه أن يزيدها أو يغير في مضامينها التي حددتها نصوص الشرع وأحكامه ومن هنا كانت وصيته لعماله على الخراج شديدة الوضوح في هذا المجال حيث جاء فيها: (ولا تبيعن للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا تضربن أحداً سواطاً في مكان درهم ولا تمسن مال احد من الناس مصل ولا معاهد) وعندما يجيب عامله قائلاً: (إذن أعود إليك كما ذهبت) يقول (ع) وإن رجعت ويحك إنا أمرنا أن نأخذ منهم العفو[1] ويبقى السؤال الذي يدور حول القيم الفكرية والحقوقية التي ظهرت في عصر النهضة في أوروبا ومن أبرزها (أنه ليس للدولة أن تعتقل إنساناً دون الاستناد إلى نص قانوني) وهنا يبدو موقف الإمام أشد وضوحاً لأنه لم يكن يرضى أن يعتقل إنساناً بدون وجه حق وبينة تقوم عليه ومحاكمة عادلة يواجهها. ومن هذا المنطلق لم يتمكن أو لم يرضان يعتقل الشخص الذي قيل له أنه يخطط لقتله لأن البينة لم تظهر وبدء تنفيذ الجريمة لم يتحقق فكان جوابه لمن أخبره (لا أقتل من لم يقتلني) ولكنه لم يقدم حتى على اعتقال المتهم. ألأمثلة على ما يشابه هذه المواقف كثيرة سواء في مواجهته للخوارج أو لغيرهم من أخصامه ومحاربيه وناكثي بيعته كما سبق القول. أما مسألة عدم تمكن الدولة من انتزاع ملكية الأموال وغيرها فله فيها أمثلة متعددة وإن كان أبرزها منع أصحابه من الاعتداء على أموال محاربيهم وممتلكاتهم بعد انتصاره عليهم في موقعة الجمل فقد أمر بجمع كل ما تركوه في جبهة القتال ونقله إلى المسجد ليستعيد كل منهم أمواله وهكذا كان[2]. كما أن مسألة الحكم بالإعدام على أحد من الناس دون وجه حق كانت أشد ما استرعى اهتمامه، ومن أجل هذا فإنه لم يستطع بل لم يقبل الحكم على قاتله بالإعدام قبل توفر البينة على جريمة القتل بوفاة الإمام (ع)!؟

أليس (ع) هو القائل لأحد ولاته على الأمصار محذراً "فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام.. ولا عذر لك عند الله ولا عندي في قتل العمد لأن فيه قود البدن"[3]. ❖

---

(١) نهج البلاغة: ص ٥١٥ وكتاب الخراج ليحيى بن آدم القرشي ٢٣٤ - ٢٣٦ فقرة ٢٣٤ - ٢٣٦.

(٢) نهج البلاغة: ص ٥١٥.

(٣) المرجع السابق، ص ٥٣٧.

الإمـام عـلـي
معـجـزة الإسـلام

الشيخ محمد رضا المظفر (١٣٢٢-١٣٨٣هـ)

إن رجلاً كان في حياته وأطوارها معجزة الكون وخارقاً لما عرفه البشر، واعتاده من عبقريات ونبوغ

حقيق به أن يكون أعجوبة القرون وما نسلت ومهوى قلوب الملايين وما انطوت وما حبنا لهذا الرجل إلا حب من رأى فيه الإنسان الكامل فعشق فيه كماله الإنساني ودرس في تأريخه الإمام العادل فهام في عدل إمامته.

إنه الحق الصراح في كل ما لهذه الكاملة من معنى فجدير بعشاق الحق أن يصحروا لتمجيده ويصرخوا في تقديمه.

إنه المعجز في كل حياته وأطوارها لا ينحصر إعجازه في ناحية من نواحيه، إنه المعجز في نشأته إذ يشب على الإسلام فيعتنقه من بين الرجال اعتناق المتفاني المستهين بالموت وهو يافع مترعرع والإسلام محارب حتى من أهله وعشيرته وقومه، وكل واحد يعرف عظيم أثر ذلك على الناشئ إنه المعجز في شجاعته التي لم يحدث تأريخ البشر الطويل عن مثلها يافعاً وشاباً وكهلاً وشيخاً يقهر كل خصم يصاوله ويهزم كل شجاع يقاتله.

إنه المعجز في فصاحته وبلاغته ولم يحفظ الإنسان غيره من خطب وكلمات بما حوت من أرقى ما يصله العقل البشر.

إنه المعجز في دينه وعقيدته وتصلبه وكم ضرب لها مثلاً رائعاً رفيعاً بما ضحى بالدنيا وما فيها من اعتبارات في سبيل لا يتهاون بكلمة حق وإن ظن الناس في اعتباراتهم أنها صغيرة ولكنه لا يرى الدنيا بما فيها يقابل خطرها إنه المعجز في زهده وتقشفه وقد رفع مدرعته حتى استحيي من راقعها ولم يتخذ لبالي ثوبه طمراً وهو يومئذ ملك العالم والسيد المطلق لبلاد أقبلت الدنيا عليها بحذافيرها.

إنه المعجز في عبادته وتهجده ولم يفته أن يؤدي ورده من صلاة الليل في ساحة الحرب بين الصفين.

إنه المعجز في عدله وحكمه مساوي في العطاء والحكم بين القريب والبعيد، والشريف والوضيع والصديق والعدو.

إنه المعجز وقد جاد بفنون من العلم ودقائق الفلسفة بما لا يمكن أن يأتي به شخص عاش في بادية جرداء قاحلة من العلم والمعرفة والبحث والنظر ولو جاء أحد بما جاء به من جبابرة العقل الذين تربوا في بحبوحة العلم وأكبر جامعات العالم لكان مثاراً للإكبار والتعظيم.

وأعظم معجزاته في نظري تجلي أنواره وتعلق الستار بقدسيته كلما تقدم الزمن وانتشرت المعارف والعلوم لاسيما في هذا العصر الذي افتتن أهله بالعدل الاجتماعي وافتتن الحق والحرية والإخلاص للمبدأ فإن هذا العصر يجد فيه المثل الأعلى الذي يستحق أن يكون معبوداً للجماهير.

وعقيدتي أن علي بن أبي طالب (ع) هو نفسه أكبر معجزة خالدة للدين الإسلامي إذا تجاوزنا القرآن الكريم فإن رجلا جمع بين الذكاء النادر والعلم والمعرفة اللتين بلغ بهما الدرجة القصوى في صفوف البشر إلى الشجاعة النادرة التي لا يهاب بها أحداً سوى الله تعالى إلى الجرأة الأدبية التي لا تأخذه معها لومة لائم أبداً مهما عظمت، ثم بعد ذلك يكون له هذا الإيمان المطلق بالله ورسوله هذا الإيمان الذي لا يشوبه شك ولا يدانيه ريب، وهذا الإخلاص والتفاني اللذان معهما صغر كل شيء في الدنيا مهما جل وكبر.

إن مثل هذا الرجل لا يمكن أن نفرض فيه عدم التمييز بين الحق والباطل في الدين الإسلامي بما له من عقل جبار ومرافقة للرسول (ص) من طفولته إلى أن شب ووراه في ملحودة قبره ولا يمكن أن يفرض فيه الاعتقاد الزائف أو الرياء الكاذب والتظاهر المنافق.

ولا يمكن أن يفرض فيه الجبن والخوف من إظهار عقيدته لو كان لا يؤمن بالرسالة ولا يمكن أن يفرض فيه الطمع وحب الدنيا.

إن هذا الرجل بمجموع خصاله تكشف حياته كشفاً قاطعاً لصالح السريرة عن صحة العقيدة الإسلامية ورسالة نبيها الأكرم (ص) إن موقفاً واحداً منه لو درسناه حق دراسته لكفانا اعتقاداً بأنه عبد الحق والأخلاق الإلهية عبودية مطلقة لا تشوبها مساهلة ولا يقلل منها تلكؤ عن أداة وظائفها على أكمل ما يفرضه إنسان لإنسان.

وكفى أن نتمثل موقفه في الشورى حينما طلب منه أن يبايع على شرط سيرة الشيخين فأبى أن يعد بما لا يرى الالتزام به وأصر على الامتناع كل الإصرار وترك أعظم منصب في العالم في سبيل أن لا يعمل خلاف الحق أو يعد فلا يفي بوعده.

وكفى أيضاً أن نشهد موقفه في مبارزة عمرو بن العاص وبسر بن أرطاة لما كشفا عن سوأتيهما هرباً منه فعفا عنهما لكرامة الدين وحدها، وهما من ألد أعدائه والمؤلبين وكان يسعه أن يغض النظر ويفتك بهما ولكنه أبى إلا الكرامة والخلق الرفيع والنبيل الإنساني أما هما فأبيا إلا الصفاقة المخزية والفعلة الوضيمة.

وكفى أيضاً أن نقرأ موقفه المشرف مع معاوية وجنده لما احتجزوا النهر وأرادوا أن يقضوا على معسكره عطشاً وحينما كشفهم بحد السيف أبى إلا الترفع عن الدنيئة ومعاملة الأنذال بنوع ما يرتكبون فأباحه لهم شهامة ونبلاً وبرهاناً على حسن نواياه الطيبة حتى مع أعدائه فسلام عليك يا أمير المؤمنين خالداً نما بقيت الدنيا ومعجزة للإسلام ما طرفت عين ونطقت بنت شفه، سلام عليك وعلى الحق الذي أنت معه وهو معك. ❖

الإمام علي والديمقراطية(*)

الشيخ عبد الحسين صادق
إمام مدينة النبطية

الديمقراطية لغة كلمة مؤلفة من Demos أي الشعب وkratos أي السلطة وتعني سلطة الشعب أي حكم الشعب نفسه بنفسه.

وفي المصطلح السياسي باتت هذه الكلمة عروسة المفردات وجميلة الجميلات يخطب كل الساسة وأرباب الحكم على اختلاف مشاربهم ودّها ويدّعي أنه عشيقها الولهان حتى بلغوا بها ثلاثمائة معنى!

وهي تعني نظام الحكم البرلماني ويعود ابتكاره في الأشهَر إلى مدينة أثينا الإغريقية... مارسته ردحاً من الزمن بحدود ضيقة حتى أطفأت جذوته عسكرياً شقيقتها اليونانية الأخرى إسبارطة عام ٤٠٤ م.

ورغم قسوة نظام الرق في دولتهم تابع الرومان تجربتها ضمن قوانينهم الخاصة. ثم غرقت التجربة في ظلام عصور أوروبا الوسطى لتستيقظ بعد ما يزيد عن ألف عام على وثيقة "الماكناكرتا" البريطانية التي فرضها فريق من النبلاء على الملك المستبد جون والتي أسست لنظام برلماني عمل على توسيع صلاحياته مع الأيام حتى تحول التاج البريطاني في عهد الملكة فيكتوريا إلى مجرد رمز ولوحة تراثية!

ومن الثورة البريطانية ونظيرتها الأميركية والفكر الإصلاحي الذي أطلقته أقلام جون لوك ومونتسكيو وجان - جاك روسو لا سيما في كتابه "العقد الاجتماعي" تفجرت الثورة الفرنسية رافعة إلى العالم الحديث مشروع حقوق الإنسان الذي يعتبر رائد النظام الديمقراطي في العصر الحديث. وهو اليوم يعم معظم دول العالم وتتطلع إليه كل شعوبها بغض النظر عن هيكلية هذا النظام الفكرية ومدى صدقيته وترجمته على أرض الواقع على أيدي الحكام.

وواضح من هذه النبذة العاجلة أن الديمقراطية جاءت ثمرة نضال طويل ومرير للشعوب خاضته ضد نظام حكم الفرد السلطوي. وأهم البنود التي يرتكز عليها هذا النظام:

١ - إناطة السلطتين التشريعية والتنفيذية بالشعب عبر الأكثرية البرلمانية التي ينتخبها أبناؤه.

٢ - استقلالية القضاء وفصله عن السلطتين المذكورتين.

٣ - تداول السلطة سلمياً بين الأكثرية والأقلية.

٤ - إطلاق الحريات للشعب.

(*) كلمة في ذكرى ولادة الإمام علي بن أبي طالب (ع).

ولا يسع المرء وهو يقارن بين نظام الفرد ملكياً أو رئاسياً فردياً أو شمولياً، والنظام الديمقراطي الذي يحكم فيه الشعب نفسه بنفسه، سوى أن ينحاز بسرعة وتعاطف إلى الأخير لخطورة ربط مقدرات شعب بكامله برجل واحد قد ينزلق به مزاجه تحت وطأة ظروف الحكم وحساسياته إلى اتخاذ قرارات انفعالية تعود بعواقب سيئة وربما كارثية على شعبه وبلاده. وأمثلة حاكم كهذا كثيرة إن في تاريخ الغرب أو الشرق.

نعم قدّم التاريخ قبل أربعة عشر قرناً نموذجاً لحكومة الفرد، وبالعظم المفارقة، تمتع في ظلها الشعب بديمقراطية تفوق ديمقراطية العصر الحديث حتى باتت حلماً ورديا للشعوب وغنوة عذبة على شفاه الكثير من أدباء ومفكري القرن العشرين بينهم مفكرون وأدباء لبنانيون كجبران ونعيمة وجرداق وبولس سلامة ونصري سلهب وجورج شكور وغسان مطر وسواهم الكثير.

والسرّ يكمن في وجهي الديمقراطية كليهما، التشريعي منهما والتنفيذي. ففي الجانب الأول، لئن أرجع النظام الديمقراطي التشريع إلى الشعب ليكون هو حاكم نفسه يقرّ أو يرفض من القوانين ما يراه موافقاً لمصالحه، فإن عليّاً حين يلتزم التشريع الإلهي ويجعله المصدر الوحيد لنظام حكمه، ليس للعقل البشري أدنى دخل في اشتراع قانون يعارض نصوصه أو يخرج عن قواعده إلا ضمن دائرة الاجتهاد التي يحدد التشريع الإلهي نفسه مساحتها، فإنه بذلك نزل عند رغبة وإرادة شعبه الذي أقبلت عليه جموعه تطالبه بحماسة ملتهبة بتسلم أمانة الحكم، وبذلك هو لم يختلف في الجوهر عن النظام الديمقراطي في اعتبار الشعب هو المرجع في تحديد شكل النظام الذي يرتضيه. فالحرية لا تحتم على الشعب أن يصوغ قوانينه كلها بنفسه وإنما تحتم أن يختار ما يحبه ويرتضيه لنفسه، وبملء إرادته.

ثم ها هو الجانب التشريعي في حكومة علي كما النظام الديمقراطي يطلق للشعب كل الحريات التي يتطلع إليها: من حرية المعتقد والرأي، وحرية العمل والتملك، وحرية التنقل والاتصال، وغيرها من الحريات ولكن بضوابط تنظم ولا تقمع، وتشذب ولا تصادر.

نعم يمتاز تشريعه من جهة بتقييده الحرية الشخصية بقائمة من المحظورات أطلق لها النظام الديمقراطي العنان فتحكمت الغرائز والشهوات بالشعوب، وصيرتهم عبيدا لها فكان بتقييده هذه الحرية وندائه شعبه على الدوام: "من ترك الشهوات كان حراً"[1] نصيراً لحريتهم وامتلاك إنسانيتهم وكان النظام الديمقراطي بإطلاق هذه الحرية إلى أبعد مداها داعية لاستعبادهم وامتهان كرامتهم.

ومن جهة أخرى فان تشريعه لم يقف في تقويم الأعمال ومباركتها عند صورتها الخارجية كما هو الحال في التشريع الديمقراطي بل ينفذ لتقويمها وإصداره الحكم عليها إلى داخل القلوب والضمائر ليضمن بذلك صون القوانين والآداب داخل الدولة. فكم من أعمال ظاهرها الإحسان والخدمات الاجتماعية هي فخوخ لمآرب ومناصب ووجاهات دنيوية؟! وكم من جرائم ومكايد ينام عنها القانون ولا يراها في عتمة الليل سوى الضمير؟!

وأما على الصعيد التنفيذي، فمن المحال لمن تتبع سير الحكام والرؤساء والملوك عبر التاريخ أن يجد لعلي بن أبي طالب (ع) نظيراً. يقول شبلي شميّل: "الإمام علي بن أبي طالب عظيم العظماء: نسخة مفردة لم ير لها الشرق ولا الغرب صورة طبق الأصل لا قديماً ولا حديثاً"[٢].

ولا غرو فعليّ حين دعا إلى حرية الدين والمعتقد قال مراراً، وهو في دولة غالبية شعبها تدين بالإسلام: "من آذى ذمياً فقد آذاني[٣] ومن آذى انجيليا فقد آذاني"[٤]. وعامل غير المسلم في دولته على الصعيد الإنساني معاملة المسلم.

وحين دعا إلى حرية الرأي منح كل خصومه ومنهم الخوارج الذين دأبوا على التظاهر ضده والتجرؤ عليه بقارص الكلام وحياكة المؤامرات وخرّ في نهاية المطاف بسيف مؤامراتهم، أوسع هامش من الحرية قائلاً لهم ذات يوم: "لكم عندنا ثلاث خصال: أن لا نمنعكم مساجد الله أن تصلوا فيها ولا نمنعكم الفيء ما كانت أيديكم مع أيدينا ولا نبدؤكم بحرب حتى تبدؤونا"[٥].

وحين دعا إلى العدالة جلس وهو حاكم البلاد، مع خصمه اليهودي أمام قاضي الدولة وقبل حكمَه الذي جاء ضده، وابتسامة الرضا على شفتيه، قبل أن يشهر المدعي اليهودي إسلامه لرقي المشهد ونزاهة العدل في دولة علي (ع).. هو في الوقت ذاته مشهد قطعي على استقلال القضاء في دولته وفصله بصدق وعملانية عن السلطتين التشريعية والتنفيذية، مشهد تعزّ رؤيته في نظام من الأنظمة الديمقراطية اليوم.

وساوى بين الناس جميعاً حين دعا إلى المساواة وكاد أن يكوي يد أخيه عقيل يوماً بحديدة أحماها ليعظه حين طلب منه وقد أضناه وأولاده الفقر، أن يؤثره بصاع من القمح على باقي المسلمين.

وساوى نفسه وخزينة المال طوع يده بخادمه قنبر وبضعفة الناس "كي لا يتبيغ (أي يهيج) بالفقير فقره"[٦].

وحين يستنهض همم شعبه إلى الجهاد يخرج في مقدمهم ويزج بولده في لهوات الحروب.

وحين رفع شعار "الحاكم أبي الرعية" حمل أجربة الطعام على ظهره يعس في الليل متفقدا بيوت اليتامى والمساكين والعجز يطعمهم بيده ويلطف خواطرهم.

ولأحد أن يقول: إن حكم علي ينطلق سلفاً من أيديولوجية دينية في وطن غالبية شعبه تدين بها وكلامنا إنما هو حول شكل الحكم والنظام في وطن ليست فيه هذه الغالبية بل يتوزع أبناؤه على ديانات ومذاهب متعددة وقد يضم شرائح علمانية لا تنتمي إلى فكر ديني أصلاً ولعل جُلّ أوطان العالم اليوم يسودها هذا الواقع ومنها وطننا لبنان ذو الثماني عشرة طائفة ومذهبا فماذا يا ترى سيكون موقف علي (ع)؟

من موقفه الرائد الذي اتخذه عقب إقصائه عن الخلافة معلناً: "لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يبق جور إلا علي خاصة"[٧] نقدر أن علياً (ع) كان سينأى يقيناً بنفسه عن المسؤولية الرسمية ويتحول إلى داعية خير وسلام يروّج مبادئه العقيدية والإنسانية ويعمل بعزم وإخلاص بالغين على نشرها، وما كان ليخطو خطوة واحدة باتجاه الحكم لفرض مشروعه وغالبية الشعب منقسمة على نفسها.

فالحكم عند علي (ع) ما هو إلا وسيلة لخدمة العقيدة والقيم والأخلاق وخدمة الشعب والناس وليس العكس. وهو بالتالي لن يضحي بقطرة دم واحدة من أجل الحكم كموقع. ومثل هذا الموقف رأينا أعلام الإسلام ممن اتفقت الأمة على ريادتهم الدينية والعلمية والإنسانية انتهجوه واقتفوا أثره في عصورهم كالإمام الصادق (ع) أستاذ أئمة المذاهب الأربعة.

وتضحية الحسين الخالدة لم تكن طلباً للحكم بل صوناً ودفاعاً عن العقيدة المهددة وحرية الإنسان المسحوقة من السلطة الظالمة، وقد استرشد الفقهاء والمنتمون إلى مدرسة علي وأبنائه بهذا الموقف حيال الحكم والسلطة ولم يعرف عنهم رغم صلابتهم ضد الظالمين والطغاة والحكام أنهم سعوا إلى الحكم. وثورة السيد الخميني (قده) إنما جاءت وفق مبناه في ولاية الفقيه أولاً، وعلى خلفية غالبية شعبية ثانياً ملتاعة من ظلم المحاكم وموحدة في العقيدة والمذهب يقل معها احتمال الانقسام والتناحر داخل البلاد.

وبما يحمله الفقه الإسلامي من طابع منفتح، شواهده كثيرة كمبدأ الشورى وقانون حفظ النظام في المجتمع واحترام الحريات وحقوق الإنسان واعتماد الحوار والموعظة الحسنة وسيلة للتفاهم مع الآخر وحظره استخدام العنف والسلاح للوصول إلى السلطة ومراكز الحكم والمسؤولية، تجده حكما سيلتقي مع النظام الديمقراطي كأفضل شكل متاح من أشكال الحكم توصلت إليه المسيرة البشرية حتى الآن يدير حياة الناس ويلبي تطلعاتهم في غياب شروط قيام الحكم الإسلامي الأمثل محتفظاً وهو في حاضنة النظام الديمقراطي بالأمل الموعود في حكم نموذجي سيرعى يوماً المجتمع البشري كافة.

وإنك لتجد في كلام العديد من الفقهاء ما يؤكد هذه الحقيقة كالشيخ النائيني "قده" أحد أكابر فقهاء القرن الماضي وصولاً إلى مواقف وتصاريح مرجع الأمة العام لهذا العصر السيد السيستاني "دام ظله الشريف" من رفضه الشامخ لظلم الاحتلال بعد ظلم الديكتاتور إلى تدخله المعلن وإصراره على الرجوع إلى الشعب في صياغة الدستور، وحثه أبناء الشعب العراقي على اختيار مرشحيهم للبرلمان، وإبداء رأيه السديد لصالح الشعب العراقي ككل في جميع الأزمات والمنعطفات الهامة التي مرت ولا تزال تمر بها البلاد[٨].

غير أن تسالم الشعوب على أرجحية النظام الديمقراطي قياساً إلى النظام الأحادي الديكتاتوري أو الفئوي الشمولي لا يعني خلو هذا النظام من العيوب بل ربما كشفت التجربة الميدانية لهذا النظام مع الأيام عيوباً كثيرة وأحياناً مخاطر فادحة، فكم هي بادئاً صدقية

هذا النظام في إناطة السلطة بالشعب، حين تحكم أكثرية برلمانية في أية دولة من الدول، قد لا تزيد في حجمها التمثيلي عن الأقلية، إلا ببضعة أصوات وقد تكون بصوت واحد وكل يحمل مشروعاً مناهضاً لمشروع الآخر... ثم هل الأكثرية المنتخبة هذه أكثرية واقعية جسدت فعلاً إرادة الشعب الحقيقية أم صنعها يا ترى أو شارك في صنعها المال والإعلام يرافقهما أحياناً ضغط نفسي قد يسلب الناخب خياره ولو انفرد خلف ستارة الاقتراع؟! وكم هي جديرة هذه الأكثرية وليدة المال والإعلام وغيلان الشركات بالتشريع لحياة حرة فاضلة تضمن للمواطنين حقوقهم وكراماتهم وتتعاطى مع الدول والشعوب الأخرى على قواعد الاحترام والمصالح المتبادلة والمبادئ الإنسانية؟ أما شرّعت - على سبيل المثال - أكثرية البرلمان البريطاني الزواج المثلي عام ١٩٧٣[٩]، والبرلمان الكندي لاحقاً[١٠]، وهولندا مقاهي الحشيش وما يسمى المخدرات المخففة والبغاء العلني ونوادي القمار فباتت ساحة الضوء الأحمر في أمستردام محمية بتشريع بلادها الديمقراطي، لا تترك للخيال شيئاً؟[١١]. وإذا كابرت بعض الآراء واعتبرت مثل هذه القوانين نصراً للحرية أوليس من سمات الحياة الديمقراطية اليوم ذلك التفاوت الفظيع في مستوى العيش بين أبناء الشعب الواحد تتمركز ثروات البلاد العامة لدى عدد من أمراء المال وأصحاب الشركات العملاقة ويقبع الملايين تحت خط الفقر؟

وما الكارثة الاقتصادية العالمية التي تجتاح العالم اليوم والتي خلفت ولا تزال أسوأ الآثار إلا وليدة القوانين المتعاقبة التي اتخذها الكونغرس الأميركي بشقيه منذ عهد الرئيس ريغان حتى نهاية عهد بوش الثاني لصالح الشركات الكبرى وأمراء المال كما يوضح ذلك تفصيلا أحد كبار الاقتصاديين الأميركيين سيمون جوهسون في مقالته "الانقلاب الصامت" أجمله بقوله: "القطاع المصرفي استولى عملياً على الحكومة"[١٢].

والتمييز العنصري بأبشع ألوانه أليس سمة أخرى للحياة الاجتماعية داخل هذه الأنظمة كأميركا وبريطانيا وألمانيا وفرنسا وجنوب إفريقيا وعلى رأسها الكيان الصهيوني.

ثم أجمل وأغلى ما يمتلك بنو البشر عنيت الأواصر والعلاقات الاجتماعية والمشاعر الإنسانية... أما جفّت ونراها إلى زوال في ظل هذه الأنظمة التي تقوّم الإنسان بما يمتلك من مال أو قوة لا بما يمتلك من قيم ومبادئ؟! حتى التجأ الكثير من الناس فيها إلى مصادقة الكلاب والقطط بعد تقطع هذه العلاقات والأواصر في ما بينهم داخل الأسرة وخارجها؟!

وكم تطالعنا وسائل الإعلام بفضائح الحكام وكبار المسؤولين العاملين في مؤسسات هذه الأنظمة آخرها على سبيل المثال فضائح مالية لجملة من ممثلي الشعب في مجلس العموم البريطاني[١٣].

ناهيك بالسياسة الخارجية المبنية على الاستعلاء والتدخل السافر في شؤون الدول الأخرى جنيا للمكاسب ونهبا لثروات البلدان المغلوبة على أمرها مستخدمة كل الوسائل المتاحة بدءاً من بدعة حق الفيتو وسياسة الكيل بمكيالين بل بمكاييل إلى اغتيال

الشخصيات الوطنية وحياكة المؤامرات لقلب الأنظمة غير المرغوب فيها والتحالف مع الحكومات المحلية ودعمها ضد إرادة شعوبها بل تسخير الجيوش الجرارة وباسم الديمقراطية أحياناً كما فعلت أميركا عام ٢٠٠٣م بغزوها العراق مستندة إلى غالبية ساحقة من أصوات الكونغرس[١٤]... سياسة يختزلها جورج كانو كبير المخططين الليبراليين في الخارجية الأميركية بقوله: "يتحتم علينا التعامل مع العالم على أساس مبادئ القوة وأن لا تعيقنا الأفكار المثالية"[١٥] لما يرسم لهذه السياسة الخرقاء وجهاً مرعباً في عيون الشعوب يبرر للعديد من الأدباء والسياسيين نقدَهم اللاذع لتمثال الحرية المرفوع في سماء نيويورك!

نعم – وبعيداً عن الوجه الآثم البشع للسياسة الخارجية التي مارستها أكبر الأنظمة الديمقراطية تجاه الشعوب الأخرى، فالعيوب المشار إليها لا تحجب العين عن الانجازات الكثيرة الهامة بل المبهرة في كثير من مجالات الحياة التي وفرتها لشعوبها بل لشعوب العالم عن طريق العلم فكان تشرشل رئيس الوزراء البريطاني موضوعياً بالتالي حين قدّم النظام الديمقراطي بقوله: "إن الديمقراطية هي أسوأ نظام أو شكل من أشكال الحكم عدا أشكال الحكم الأخرى التي جُرّبت من وقت لوقت[١٦] أي بكلمة أخرى أفضل الأنظمة السيئة التي مرت بها الشعوب".

وبهذه الانجازات الكثيرة الهامة التي حققتها الأنظمة الديمقراطية تألق النظام الديمقراطي في الساحة العالمية فعمدت أكثر الدول تحت ضغوط شعوبها ومنها دولنا العربية والإسلامية حتى الملكية والشمولية منها إلى تبني شكل من أشكال النظام الديمقراطي لكنها جاءت جميعها شكلية لا تخرج شعوبنا فيها عن طوع الحاكم وسطوته: إن تظاهر قمع وزُجّ الأحرار في السجون وان أخلد إلى السكينة تابع الحكام سياساتهم البعيدة عن قناعات ووجدان شعوبهم، وموقفهم المتخاذل المزري اليوم أمام عنصرية وتحدي حكومة اليمين في إسرائيل شاهد ساطع على ذلك.

ولعل النظام اللبناني هو أقرب الأنظمة العربية والإسلامية إلى النظام الديمقراطي العالمي ولئن أثار ذلك فينا مشاعر الاعتزاز لكنه حكماً يثير في نفوس الكثير من اللبنانيين مشاعر الخيبة والإحباط... فرغم قرابة سبعة عقود من الزمن على تجربته الديمقراطية لم يستطع نظامه البرلماني أن ينجز أبسط وأهم ثمار النظام الديمقراطي: من بطاقة الضمان الصحي ومجانية التعليم وحماية المدرسة الرسمية وتطويرها وإنصاف أستاذها الكادح المستهدف ونشر الصروح الجامعية والمختبرات ومراكز البحوث في ربوع البلاد واحتضان المواهب والمهارات واحترام الكفايات وتوحيد الكتاب المدرسي الذي تجده عجباً كتاباً موحدا في فرنسا على سبيل المثال حتى في مدارسها خارج الحدود ومختلفاً بل متناقضا أحياناً في مدرستين لحي واحد في مدينة لبنانية ما يربك حكماً ثقافة الشعب الواحد، وتأمين الشريان الحيوي الأول للبلاد تيارها الكهربائي وتحريره من غيلان الليل، وتوفير فرص العمل

لأجيال الشباب والحد من نزف هجرتهم وإنماء سائر المناطق بعقلية إعمار الوطن وإثرائه، ونفض الغبار عن مشاريع ينهض وينتعش بها الوطن كمشروع الليطاني في الجنوب وترميم القلعة الرمز فيه، قلعة الشقيف وتحويلها معلما سياحيا له دلالاته العديدة ومنها شموخ الصمود والمقاومة في الجنوب والوقوف بجد وعزم أمام الهدر والفساد الإداري الذي هز اقتصاد البلاد وأغرقها في ديون خيالية.

كان يسعد اللبنانيين لو أن نظامهم الديمقراطي هذا نجح في انجاز ولو اليسير من هذه المطالب والمشاريع نجاحه السريع الباهر – على سبيل المثال – في تشريع وإقرار وتنفيذ قانون المداخيل السخية للسادة النواب بمفاعيله الرجعية.

ولا أمل حقيقياً لدى شعوبنا من دون العزم والتصميم الجاد على التحلي بمثل هذه الثقافة لبناء وطن ديمقراطي على أرض الواقع لا على الجدران واللافتات وشاشات التلفزة... وطن يقبل الآخر ويحتضن التعددية بل يحولها إلى تنوع راق وجميل، أولى خطاه إلغاء الطائفية السياسية. وإن تراثنا العريق بأخلاقه وجانبه الروحي لأجدر بتزويدنا وترويض نفوسنا وتربية شعوبنا على مفاهيم الديمقراطية من تلك الأنظمة التي خرجت لتوها من ظلمات القرون الوسطى، وعلى جسر حضارتنا العربية والإسلامية.

انظر إلى أمير هذه الذكرى كيف يحدد ملامح الحرية بما يصلح أن يشكل ثقافة حقيقية بل مثالية للنظام الديمقراطي في العالم. فـ جمال الحر – عند علي – تجنبُ العار[١٧] ومنه الثورة على عار العبودية والقهر، جمال زان جنوبنا الحبيب بأجمل تاج حين غسل بدماء شهدائه عار الاحتلال الصهيوني.

ومن سمات الحر في ثقافة علي (ع) تمرده وترفعه عن الشهوات على اختلافها ومنها شهوة الحكم والرياسة وهي أعتى الشهوات!

واكتسابه المال من حله فمن امتدت يده إلى مال غيره أو إلى خزينة الدولة من المسؤولين فهو خائن وليس بحرّ.

ومن سجايا الحر عنده الحياء والعفة والسخاء ومواساة الصديق وحسن البشر وطلاقة الوجه. والحر في ثقافته يقبل الآخر ولو خالفه الرأي ليس من خلقه الجفاء والقطيعة والمعاداة "فمن أوحش الناس تبرأ من الحرية" كما قال (ع)[١٨].

والحرية عند علي، كما النور والهواء والغذاء، حق للجميع لا تقوم ولا تستقيم حياة بدونها وليس لشخص أو فريق أن يصادرها من آخر بالإغراء والصفقات تارة والتهويل والتخويف أخرى وبأقلام تستأجر في هذه الصحيفة أو تلك المجلة أو بإشاعة تتلوها أخرى من مطبخ محترف معدّ خصيصاً لهذا الغرض الشريف. فالحرية عند علي (ع) كما قال: "منزّهة من الغلّ والمكر"[١٩].

وأخيراً إذا كانت سيرة وتعاليم علي جديرة بتثقيف أمته الثقافة الديمقراطية وقيادتها إلى حياة حرة عزيزة وراغدة، فهي كذلك جديرة بعلاج العيوب الفادحة التي أثقلت النظم

الديمقراطية في عصرنا القائم وتركت شعوبها وشعوب العالم الأخرى تئن من ويلاتها. يقول جورج جرداق: "فليس من أساس بوثيقة حقوق الإنسان التي نشرتها الأمم المتحدة إلا وتجد له مثيلا في دستور ابن أبي طالب ثم تجد في دستوره ما يعلو ويزيد". وإذا كان في دستور علي (ع) ما يفوق دستور النظام الديمقراطي المعاصر في مجال حقوق الإنسان فكذلك ليس لابن أبي طالب كحاكم مثيل في احترام الدستور وحرصه الشديد على تطبيقه في أرض الواقع قبل مطالبة شعبه بذلك "إني والله ما أحثكم على طاعة إلا وأسبقكم إليها ولا أنهاكم عن معصية إلا وأتناهى قبلكم عنها"[٢٠].

ما يجعل ذلك كله من الإمام علي (ع) الرمز الأمثل للديمقراطية عبر كل العصور والإنسان الذي لا يجد الأحرار والمضطهدون والمعذبون في الأرض أنّى التفتوا من يحتضنهم مثله إلى صدره الشفوق. يقول الدكتور علي الوردي: "ولعلنا لا نغالي إذا قلنا أن ديمقراطية هذا الرجل وصلت إلى درجة يعجز عن الوصول إليها كثير من حكام القرن العشرين"[٢١].

بل كل الحكام في كل عصر وزمان!

الهوامش:

(١) تحف العقول، ص٩٩، وميزان الحكمة ج١ ص٥٨٣.

(٢) الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، جرداق ج١ ص٣٥.

(٣) نهج البلاغة، ابن أبي طالب ج١٧ ص١٤٧.

(٤) إحقاق الحق، التستري، ج٣٧ ص٧.

(٥) ميزان الحكم، ج١ ص٢٨٠ وراجع تاريخ الطبري ج٤ ص٥٣.

(٦) نهج البلاغة، ص١٨٨.

(٧) نهج البلاغة، ص١٧٤.

(٨) كتاب "النصوص الصادرة عن سماحة السيستاني في المسألة العراقية" حامد الخفاف.

(٩) فلسفات إسلامية، مغنية، ص٨٦٨.

(١٠) ٢٨ حزيران ٢٠٠٥م.

(١١) Red light District in Amesterdam.

(١٢) موقع The Atlantic. com، أيار ٢٠٠٩ م.

(١٣) صحيفة اللواء ١٦ آيار م، ص ١.

(١٤) صحيفة "النيويورك تايمس"، ١١ تشرين الأول ٢٠٠٢م.

(١٥) ماذا يريد العم سام، ص١٠، Noam Chomsey.

(١٦) ونستون تشرشل، من خطاب له في مجلس العموم البريطاني، ١٩٤٧/١١/١١م.

(١٧) غرر الحكم ٤٧٤٥، ميزان الحكم، ج١ ص٤١٦.

(١٨) غرر الحكم ٢٧٢٨، ميزان الحكم، ج١ ص٥٨٤.

(١٩) غرر الحكم ٨٧٢١، ميزان الحكم، ج١ ص٥٨٣.

(٢٠) نهج البلاغة، ص٩٠.

(٢١) الديمقراطية في الإسلام، الدكتور علي الوردي. ❖

الحس الأمني
عند الإمام علي (رض)
ودوره في إيصال أبي ذر (رض) لرسول الله (ص)

د. مصطفى العوض

إن من معالم المرحلة المكية، الكتمان والسرية، حتى عن أقرب الناس، وكانت الأوامر النبوية على وجوب المحافظة على السرية واضحة وصارمة، وقد قام علي (رضي الله عنه) بدور عظيم في أخذ أبي ذر إلى مقر رسول الله (ص)، فقد كان (رضي الله عنه) منكراً لحال الجاهلية، ويأبى عبادة الأصنام، وينكر على من يشرك بالله، وكان يصلى لله قبل إسلامه بثلاث سنوات، دون أن يخص قبلة بعينها بالتوجه، ويظهر أنه كان على نهج الأحناف، ولما سمع بالنبي (ص) قدم إلى مكة، وكره أن يسأل عنه، حتى أدركه الليل، فاضطجع فرآه علي (رضي الله عنه)، فعرف أنه غريب، فاستضافه ولم يسأل عن شيء، ثم غادر صباحا إلى المسجد الحرام، فمكث حتى أمسى فرآه علي فاستضافه لليلة ثانية، وحدث مثل ذلك الليلة الثالثة، ثم سأله عن سبب قدومه، فلما استوثق منه أبو ذر أخبره بأنه يريد مقابلة الرسول (ص)، فقال له علي: انه حق، وهو رسول الله، فإذا أصبحت فاتبعني، فإني إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأني أريق الماء، فإن مضيت فاتبعني، فتبعه وقابل الرسول (ص)، واستمع إلى قوله، فأسلم، فقال النبي (ص): (ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري)، فقال: والذي نفسي بيده لأصرخن بين ظهرانيهم فخرج حتى إذا أتى المسجد فنادى بأعلى صوته: أشهد وأن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله، فثار القوم حتى أضجعوه فأتى العباس بن عبد المطلب، فحذرهم من انتقام غفار والتعرض لتجارتهم، التي تمر بديارهم إلى الشام، فأنقذه منهم[1]. وكان أبو ذر قبل مجيئه قد أرسل أخاه، ليعلم له علم النبي (ص) ويسمع من قوله ثم يأتيه، فانطلق الأخ حتى قدمه، وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر، فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلاما ماهو بالشعر، فقال: ما أزلت عني همي مما أردت، وعزم على الذهاب بنفسه لرسول الله (ص)، فقال أخوه له: كن على حذر من أهل مكة فإنهم قد شنفوا له وتجهموا[2].

---

(١) صحيح البخاري (فتح الباري)، ١٧٣/٧.

(٢) صحيح مسلم، ١٩٢٣/٤، رقم (٢٤٧٣).

الدروس والعبر من هذه الحادثة:

١ - التأني والتريث في الحصول على المعلومة، حيث يعرف أبو ذر (رضى الله عنه) كراهية قريش لكل من يخاطب الرسول (ص)، وهذا التأني تصرف أمني، تقتضيه حساسية الموقف، فلو سأله عنه لعلمت به قريش، وبالتالي قد يتعرض للأذى والطرد ويخسر الوصول إلى هدفه الذي من أجله ترك مضارب قومه وتحمل في سبيله مصاعب ومشاق السفر.

٢ - الاحتياط والحذر قبل النطق بالمعلومة: حين سأل علي (رضي الله عنه) أبا ذر (رضي الله عنه) عن أمر وسبب مجيئه إلى مكة، لم يخبره بالرغم من أنه استضافه ثلاثة أيام إمعاناً في الحذر، فاشترط عليه قبل أن يخبره أن يكتم عنه، وفي الوقت ذاته يرشده، فهذا غاية في الاحتياط وتم ما أراد.

٣ - التغطية الأمنية للتحرك: الاتفاق بين علي وأبي ذر (رضي الله عنهما) على إشارة، أو حركة معينة، كأنه يصلح نعله، أو كأنه يريق الماء، وذلك عندما يرى علي (رضي الله عنه) من يترصدهما أو يراقبهما، فهذه تغطية أمنية لتحركهم تجاه المقر (دار الأرقم)، هذا إلى أن أبا ذر كان يسير على مسافة من علي فيعد هذا الموقف احتياطاً، وتحسباً لكل طارئ قد يحدث أثناء الحركة.

٤ - هذه الإشارات الأمنية العابرة تدل على تفوق الصحابة (رضي الله عنهم) في الجوانب الأمنية، وعلى مدى توافر الحس الأمني لديهم، وتغلغله في نفوسهم، حتى أصبح سمة مميزة لكل تصرف من تصرفاتهم الخاصة والعامة، فأتت تحركاتهم منظمة ومدروسة، فما أحوجنا لمثل هذا الحس الذي كان عند الصحابة، بعد أن أصبح للأمن في عصرنا أهمية بالغة في زوال واستمرار الدول والحضارات، وضعف وقوة الأمم والشعوب، والجماعات والمؤسسات والمنظمات، وأصبحت له مدارسه الخاصة وتقنياته المتقدمة، وأساليبه ووسائله المتطورة، وأجهزته المستقلة، وميزانياته ذات الأرقام الكبيرة، وأضحت المعلومات عامة، والمعلومات الأمنية تباع بأغلى الأثمان، ويضحى في سبيل الحصول عليها بالنفس إذا لزم الأمر، ومادام الأمر كذلك فعلى المسلمين الاهتمام بالنواحي الأمنية حتى لا تصبح قضايانا مستباحة للأعداء، وأسرارنا في متناول اليد[1].

❖ ❖ ❖

(١) دروس في الكتمان، محمود شيت خطاب، ص٩.

الحضور في الغياب

دراسة مقارنة لحركتي الإمام علي والإمام المهدي (عليهما السلام) زمن لغيابهما عن الحكم الظاهر

د. أمجد حميد عبد الله الفاضل
جامعة بغداد ـ كلية ابن رشد

قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ (الرعد: ٧) صدق الله العلي العظيم وصدق رسوله الكريم ونحن على ذلك من الشاهدين، وبعد:

فإن الله سبحانه قد أفاض علينا من نعمه ظاهرة وباطنة، وكان من نعمه أن عرفنا إمام زماننا وجعلنا من الشاهدين على كونه القائم بالحق، ولما منحنا سبحانه القدرة على البحث والتأليف، كان من الواجب تقديم المستطاع خدمة لقضية الإمام المهدي (ع)، الآخذ بالثأر من طواغيت العصر، الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً، وكان مما وجدت وأنا أقرأ السيرة الشريفة للناحية المقدسة، أن هناك تشابها بين إمامة كل من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) والحجة المهدي (ع)، من حيث الغياب عن الحكم الظاهر رغم الاستحقاق، والعمل بالإمامة زمن الغيبة، وأحوال الناس، وتسلم زمام الحكومة والرئاسة وما مهد له من ظروف، ولعل زمن تسلم الحكم هو أيضاً مما يظهر متناغماً متشابهاً بين الإمامين المعصومين عليهما السلام، ولكني أفردت هذا البحث لمعنى حضورهما إمامين زمن غيابهما رئيسين قائدين، وأسميته (الحضور في الغياب)، مقارناً بين مدتي غيابهما عليهما السلام عن الحكم الظاهر، لعلنا نجد في مدتي الغياب لكل من الإمامين عليهما السلام ما يقودنا إلى معرفة السبل الكفيلة بتعجيل الفرج وإتمام ما على الناس من مهمة ما زالت عالقة ينبغي إنجازها تمهيداً للظهور المبارك، إذ ما دامت أسباب الغياب هي نفسها، فلابد أن تكون أسباب القيام نفسها أيضاً.

وهذه الدراسة التي تمثل فصلاً من فصول البحث الأصلي الذي مازلت أعمل لإنجازه، توزعت على ثلاثة مباحث، رصدت في الأول دواعي الحضور، وفي الثاني أسباب الغياب، وفي الثالث مظاهر الحضور في الغياب، وإني لأرجو بهذا العمل أن يوفقني الباري سبحانه لنصرة إمامي محمد بن الحسن المهدي الموعود عجل الله تعالى فرجه وسهل مخرجه ولعن عدوه، ونفعنا به، وجعلنا من أنصاره والمستشهدين بين يديه، إن الله بالغ أمره، وهو ولي التوفيق، وأسأله سبحانه أن يحفظ القائمين على خدمة قضية الإمامة لأمير المؤمنين (ع) وما ارتبط بها

من لوازم لنظم أمر الأمة، ومن ذلك قضية نصرة المظلومين والمستضعفين في الأرض، قضية الإمام المهدي سلام الله عليه، ويسددهم لما فيه مرضاته وصلاح المسلمين، إنه نعم المولى ونعم النصير، ولله الحمد من قبل ومن بعد.

المبحث الأول
دواعي الحضور

لقد أرسل الباري سبحانه رسوله بالحق من عنده، وجعله منذراً، وجعل من أهل بيته من يتولى الهداية: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٖ ﴾ (الرعد: ٧) وقد نصب الرسول الأعظم (ص) أخاه وابن عمه وصهره الإمام علي بن أبي طالب (ع) هادياً خليفة من بعده وأخذ له البيعة من آلاف المسلمين الحاضرين في حجة الوداع عند غدير خم، على أنه أمير المؤمنين لا تنبغي لأحد غيره من بعده، حتى أن الباري سبحانه تعهد لرسوله الكريم (ص) بأن يعصمه من الناس المعاندين لإرادة الله ورسوله إذ أن الرسول (ص) أشفق منهم خيفة على مشروع الهداية العلوية، ولكن الباري سبحانه قد ربط بين تبليغ وجوب أمرة المؤمنين لعلي بن أبي طالب (ع) وبين تبليغ رسالة الإسلام السماوية وهذا يوضح جلالة قدر أمير المؤمنين (ع) من جهة، وعظمة دوره وخطره في تكوين العالم الإسلامي، وهذا ما وضحته الآية الكريمة التي نزلت لتأمر الرسول (ص) بالتبليغ في حجة الوداع: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (المائدة: ٦٧). ونجد أن نبي الرحمة (ص) قد تعهد تبليغ رسالة أخرى لا تقل خطورة عن هذه، إنها بشارة الأنبياء والرسل، بشارة آل محمد، بشارة الصالحين والمظلومين والفقراء والمستضعفين، وأعني بذلك دولة قائم آل محمد (ص)، الذي يملؤها قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً، روى أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله (ص): "لا تقوم الساعة حتى تمتلئ الأرض ظلماً وعدواناً، قال ثم يخرج رجل من عترتي أو من أهل بيتي، يملؤها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلما وعدواناً"[1]، وهناك أحاديث كثيرة تستفيض بها الروايات بشأن البشارة بظهور القائم بالأمر (ع)، وفي ذلك مصداق لآي الذكر الحكيم، قال تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴾ (القصص: ٥).

هذا ما ترتب عليه أن يكون حضور أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) وحضور ولده الداعي بالحق الآخذ بالثار أمراً واجباً لدواعي مهمة وملحة نذكر منها:

---

(١) ينظر: مسند أحمد: ٣/٣٦، ومثله أبو يعلى: ٢/٢٧٤، وابن حبان: ٨/٢٩٠-٢٩١، والحاكم: ٤/٥٥٧، ويراجع: المعجم الموضوعي لأحاديث الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف، علي الكوراني العاملي، ط١، قم، ٢٠٠٦م: ١٧٥.

١. تصديق النصّ:

لقد نصّ القرآن الكريم على ضرورة عقد إمرة المؤمنين لعلي (ع) وأخذ البيعة له من المسلمين عامة في حياة النبي (ص)، ومعلوم أن النص القرآني المقدس يمثل أعلى نص تشريعي في الإسلام وهو ملزم بأحكامه للمسلمين جميعاً، وقد كان النص على أمير المؤمنين سلام الله عليه مجملاً ومفصلاً، فمن حيث الإجمال نجد النصوص الدالة على جليل قدره وضرورة توليه شؤون المسلمين من أجل حفظ بيضة الإسلام، ونسبة الكفر إلى من يمتنع عن الاهتداء بهديه (ع) ونجد ذلك في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (المائدة: ٦٧)، كما نجد ذلك في الآيات التي تخص ذكر المؤمنين بالتقديم، وإذا كان المؤمنون مقدمين في هذه الآيات فإن أولاهم بالتقديم هو إمامهم وسيدهم وأميرهم علي بن أبي طالب (ع)، لذلك فإن كل آية تتحدث عن المؤمنين هي تشير أول ما تشير إلى الإمام علي (ع) أمير المؤمنين وقائدهم وسيدهم: وبذلك فهو أولى الناس بإبراهيم (ع) بقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: ٦٨)، وإن جهنم مصير من يتبع سبيلا غير سبيله (ع) بقول الله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ (النساء: ١١٥)، وهو موكل من الله سبحانه لنصرة رسوله الكريم (ص) وتأييده بقول الله تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(الأنفال: ٦٢)، والله سبحانه يدعو رسوله الأعظم إلى عدم الحرج أو الضيق أو الحزن لقلة المؤمنين، ويخبره أن في الله وفي علي كفاية فلا حاجة إلى الآخرين بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنفال: ٦٤)، وهو من الرسول والرسول منه فحين يتطلب من الله سبحانه إنزال السكينة تثبيتا للرسول (ص) فإن علياً حاضر مشارك فيها بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (التوبة: ٢٦)، وقد اشترى منه الله سبحانه كل ما لديه مقابل الجنة فهو مخلص لله بأمر الله وتقديره ومشيئته بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (التوبة: ١١١)، وهو ظهير من الله للرسول (ص) حتى على أزواجه فهو صالح المؤمنين في قوله تعالى: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ (التحريم: ٤).

إن النص على إمامة علي (ع) قد أتى مفصلاً أيضاً من قبيل بسط الحديث في القرآن الكريم بشأن صفاته وفضائله وأخلاقه ومكانته وهمته، مما يدلل على ضرورة حضوره

إماما في العالم الإسلامي من أجل حل المشكلات الكبرى التي يواجهها، والتي لا تحل إلا بمثل تلك الفضائل، وتلك الصفات والأخلاق، وتلك المكانة الرفيعة والهمة العالية، وما أحوجنا اليوم إلى إمامنا علي (ع) ليشع نوره على ظلمات الواقع المرير، ومن تلك النصوص القرآنية المباركة نجد قوله تعالى الدال على كرم هذا الإمام العظيم: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ (الإنسان: ٨ ـ ٩)، ونجد شجاعته الباسلة التي جعلت الباري سبحانه يكفي بها المؤمنين القتال يوم الأحزاب: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ (الأحزاب: ٢٥)، وهو عند الله عزيز مقرّب له مكانته العليا السامية، حتى أنه موصوف بأنه (نفس النبي) في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (آل عمران: ٦١)، وهذا القرب من الرسول الأعظم (ص) يدل على قربه من الله سبحانه، ومن الآيات الدالة عليه بصفة الهداية للارتباط بالله سبحانه، وفيها توبيخ شديد اللهجة لمن يعدل إلى غيره، أو يتخذ إماما هاديا غيره في زمنه، قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ۚ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (يونس: ٣٥)، وهذا التفصيل في الذكر المباشر لبعض الجوانب التي اختصت بها شخصية الإمام (ع) مع التنويه إلى وجود عدد آخر من الآيات التي جاءت مباشرة، ووجود عدد كبير منها جاءت تذكر صفات الإمام بصورة غير مباشرة، إنما هو من أجل إبلاغ الحجة على الناس أن الله سبحانه قد اختار لكم إماماً هذه صفاته، وفيها كل ما يلزم لسعادتكم ونجاتكم وفوزكم، في هذه الحياة الدنيا، وفي منازل الآخرة وصولاً إلى حيث المستقر في جنة الخلد التي وعد المتقون.

أما فيما يتعلق بنص الحديث النبوي على إمامة علي (ع) وضرورة حضوره في الساحة العالمية للإسلام، فهي كثيرة أكثر من أن تحصى، أهمها وأشهرها وأكثرها خطورة كان حديث الغدير الذي سمي بذلك نسبة إلى مكان غدير اسمه (خم) حضره عشرات الآلاف من الحجيج في حجة وداع الرسول (ص)، إذ أوصى إلى ابن عمه وصهره أمير المؤمنين علي (ع) بالخلافة من بعده، وأخذ له البيعة في حياته من عشرات الآلاف من المسلمين الحاضرين[1]، وكان يوم الغدير عيد الله الأكبر، إذ لم يبق مجال للفرقة والاختلاف بين المسلمين، وعنده نزلت آية التبليغ المعروفة ثم بعدها نزلت آية إكمال الدين: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ۚ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المائدة: ٣)، وهكذا يكون حضور الإمام (ع) بداعي تصديق النصّ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو الصادر عن الحقّ جلّ وعلا.

---

(١) ينظر: الكافي: ١: ٥٢٩. وتراجع موسوعة الغدير للعلامة الأميني (رض) ففيها ما يستغنى به قوة وكثرة.

وفيما يتعلق بالنص الوارد بشأن الإمام الحجة عجل الله تعالى فرجه وسهل مخرجه، فقد روي عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله (ع) وروي عن النعماني عنه (ع) أن آية: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (النور: ٥٥)، نزلت في علي وأولاده عليهم السلام، وأنها في ظهور القائم (ع)[١]، وكذلك الآية الكريمة: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ (الحج: ٤١) هي في المهدي (ع) وأصحابه، يملكهم الله مشارق الأرض ومغاربها ويظهر الدين ويميت البدع ولا يبقي أثراً للظلم، كما روي عن أبي الجارود عن أبي جعفر (ع)[٢]، وكذلك الآية الكريمة: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ (القصص: ٥) فقد روي عن أمير المؤمنين (ع) أنه قال في معنى الذين استضعفوا: هم آل محمد يبعث الله مهديهم بعد جهدهم فيعزهم ويذل عدوهم[٣]، وهناك عدد آخر من الآيات الأخرى الدالة على ضرورة خروجه (ع) لإحياء الدين ونصرة المؤمنين، ولابد من حضوره سلام الله عليه تصديقاً للنص القرآني المقدس.

وأما أهم نصوص الأحاديث الواردة في ضرورة إمامة المهدي (ع) فمما روي عنه (ص) في مسند أحمد عن أبي سعيد الخدري: "لا تقوم الساعة حتى تمتلئ الأرض ظلماً وعدواناً، قال ثم يخرج رجل من عترتي أو من أهل بيتي يملؤها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وعدواناً"[٤]، والأحاديث بهذا الشأن كثيرة ومنقولة في كتب الفريقين من رواة الحديث[٥]، ولاسيما ما ترويه كتب الخاصة، ومما نقلته كتب العامة نذكره للفائدة رغم الإطالة:

في غاية المرام عن أبي سعيد عن النبي (ص): يكون في أمتي المهدي (ع) إن قصر عمره فسبع وإلا فثمان وإلا فتسع، تتنعم أمتي في زمانه نعيماً لم يتنعم مثله قط البر والفاجر، ترسل السماء مدراراً ولا تدخر الأرض شيئاً من نبات. : يخرج المهدي (عج) وعلى رأسه غمامة فيها ملك ينادي هذا خليفة الله المهدي فاتبعوه. وفي الفصول المهمة لابن صباغ عن النبي (ص): سيكون بعدي الخلفاء ومن بعد الخلفاء أمراء ومن بعد الأمراء ملوك جبابرة، ثم يخرج المهدي (ع) من أهل بيتي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً. (وفيه) عن هارون العبدي قال: أتيت أبا سعيد الخدري فقلت له: هل شهدت بدراً؟ قال: نعم، قلت: أفلا تحدثني بما سمعت من رسول الله (ص)

---

(١) ينظر: الكافي: ١: ١٩٣. وإثبات الهداة: ١: ٨١. وتأويل الآيات: ١: ٣٦٨.

(٢) ينظر: بحار الأنوار: ٢٤: ١٦٥. والمحجة: ١٤٣، وتفسير القمي: ٥١: ٤٧.

(٣) ينظر: بحار الأنوار: ٥١: ٥٤. وغيبة الطوسي: ١١٣.

(٤) مسند أحمد: ٣: ٣٦. وينظر: أبو يعلى: ٢: ٢٧٤. والحاكم: ٤: ٥٥٧.

(٥) ينظر لمزيد من التوسع في البحث: المعجم الموضوعي لأحاديث الإمام المهدي: ١٧٥ وما بعدها.

في علي (ع) وفضله؟ قال: بلى أخبرك أن رسول الله (ص) مرض مرضه الذي فقد منها، فدخلت عليه فاطمة (عليها السلام) وأنا جالس عن يمين النبي (ص)، فلما رأت فاطمة (عليها السلام) ما برسول الله من الضعف خنقتها العبرة حتى بدت دموعها على خدها فقال لها رسول الله (ص): ما يبكيك يا فاطمة؟ قالت: أخشى الضيعة يا رسول الله. فقال رسول الله (ص): يا فاطمة إن الله اطلع على الأرض إطلاعة على خلقه فاختار منهم أباك فبعثه نبياً، ثم اطلع ثانية فاختار منهم بعلك فأوحى إلي أن أنكحه فاطمة فأنكحته إياك واتخذته وصياً، أما علمت أنك بكرامة الله إياك زوجك أغزرهم علما وأكثرهم حلماً وأقومهم سلماً فاستبشرت، فأراد رسول الله (ص) أن يزيدها عن مزيد الخير الذي قسمه الله تعالى لمحمد (ص) فقال لها: يا فاطمة، ولعلي ثمانية أضراس يعني مناقب: إيمانه بالله ورسوله وحكمته وزوجته وسبطاه الحسن والحسين وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر. يا فاطمة إنا أهل بيت أعطينا ست خصال لم يعطها أحد من الأولين، ولم يدركها أحد من الآخرين غيرنا، نبينا خير الأنبياء ووصينا خير الأوصياء وهو بعلك، وشهيدنا خير الشهداء وهو عم أبيك، ومنا من له جناحان يطير بهما في الجنة حيث يشاء وهو جعفر، ومنا سبطا هذه الأمة وهما ابناك، ومنا مهدي [هذه] الأمة الذي يصلي خلفه عيسى ابن مريم (ع)، ثم ضرب على منكب الحسين وقال: من هذا مهدي هذه الأمة. وعن الحمويني عن ابن عباس: قال رسول الله: إن علي بن أبي طالب إمام أمتي وخليفتي عليها بعدي، ومن ولده القائم المنتظر الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، والذي بعثني بالحق بشيراً ونذيراً الثابتون على القول بإمامته في زمان غيبته لأعز من الكبريت الأحمر. فقام إليه جابر بن عبد الله الأنصاري فقال: يا رسول الله وللقائم من ولدك غيبة؟ قال: إي وربي ليمحص الذين آمنوا ويمحق الكافرين، يا جابر إن هذا الأمر من أمر الله وسر من سر الله علته مطوية عن عباده فإياك والشك، فإن الشك في أمر الله عز وجل كفر. وعنه أيضاً عن حسن بن خالد عن علي بن موسى الرضا (ع): لا دين لمن لا ورع له، ولا إيمان لمن لا تقية له، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم، أي أعملكم بالتقية، فقيل: إلى متى يا بن رسول الله؟ قال: إلى يوم الوقت المعلوم، وهو يوم خروج قائمنا، فمن ترك التقية قبل خروج قائمنا فليس منا. فقيل له: يا بن رسول الله ومن القائم منكم أهل البيت؟ قال: الرابع من ولدي، ابن سيدة الإماء، يطهر الله به الأرض من كل جور ويقدسها من كل ظلم، وهو الذي يشك الناس في ولادته، وهو صاحب الغيبة قبل خروجه، فإذا خرج أشرقت الأرض بنوره ووضع ميزان العدل بين الناس فلا يظلم أحد أحداً، وهو الذي تطوى له الأرض ولا يكون له ظل، وهو الذي ينادي مناد من السماء يسمعه جميع أهل الأرض للدعاء إليه يقول: ألا إن حجة الله قد ظهر عند بيت الله فاتبعوه فإن الحق فيه ومعه، وهو قول الله: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ (الشعراء: ٤)، وعن تفسير الثعلبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (الزخرف: ٦١)، قال: ذاك

عيسى ابن مريم. وروى ذلك جماعة. قال: وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وقتادة ومالك بن دينار وضحاك: وإنه لعلم للساعة، أي أمارة وعلامة. في الحديث: أن عيسى ينزل بثوبين مهرودين أو مصبوغين بالهرد وهو الزعفران[1].

إن تضافر النصوص القرآنية والأحاديث النبوية على ضرورة إمامة كل من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والحجة المهدي المنتظر عليهما السلام يؤكد دون أدنى شك عظمة الدور الموكول إلى كل منهما، فأمير المؤمنين هو المؤسس لدولة الهدى، والمهدي هو القائم بأمر هذه الدولة، وكثيرا ما قرنت بينهما الأحاديث النبوية الشريفة، مما يستدعي العناية بهذه النصوص باعتبار أنها نصوص مقدسة تنقل إلينا الحقائق التي لا تعتورها الشكوك مما يوجب التعبد بهذه النصوص، وأعني بالتعبد بها أي جعلها موضع طاعة وامتثال لما جاء فيها من حقائق وأوامر ونواهي، ومن ذلك أنها نصوص توجب على كل من الإمامين والمجتمع المسلم في عصريهما الحضور الفاعل لإتمام دولة الإسلام، دولة الوعد الإلهي بالقسط والعدل، فضلاً عن أن وجود مثل هذه النصوص المؤكدة لحقيقة الإمامة لعلي (ع) وأولاده المعصومين من بعده هي أمر عقلائي لازم لنفي العبث عن الواجب المقدس، فشريعة تمنى بكل هذه الأمثلة الفاشلة للدول التي أخرجتها، والقيادات التي أنتجتها هي بالتأكيد شريعة منحرفة عن الخط الإلهي، وإلا لكانت حققت مراميها في العدل والنجاة والفوز لكل الناس في الدنيا والآخرة، وهذا ما لم يتحقق بعد، فيستلزم ذلك وجود خط الإمامة، ووجود القائم بالحق ضرورة لإقامة العدل، تعالى الله عن الظلم وأهله علواً كبيراً.

٢. ضرورة إقامة العدل:

إن من أهم الدواعي إلى حضور الإمامين في ساحة العمل المجتمعي هو داعي إقامة العدل، بل لعله أكثر الأسباب الموجبة للحضور، وأشهرها وأوسعها انتشاراً واشتهاراً، لأنه منصوص عليه بالذات.

إذ يروى عن الرسول الأعظم (ص) قوله: "لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لبعث الله رجلاً من أهل بيتي، يملؤها عدلا كما ملئت جوراً"[2]، ومعظم الأحاديث المروية عنه وعن آل بيته صلى الله عليه وعليهم تنص على مهمة نشر العدل ومحق الظلم، ففيما يتعلق بزمن أمير المؤمنين (ع) فقد بلغ الظلم في الناس بعد الرسول الأعظم أنهم اختلطت عليهم سنن الله بسنن البشر، وبلغت بهم الفتنة قتل رؤسائهم وقتل بعضهم بعضاً، حتى إذا جاء معاوية بن أبي سفيان ففعل ما فعل من فضائع الأمور وكبريات الجرائم المنافية للإسلام وباسم الإسلام!.. فقد اغتال الإمام الحسن (ع) مستعملاً السم، بوساطة جعدة بنت الأشعث بن قيس التي كانت زوجة

---

(١) يراجع: إلزام الناصب في إثبات الحجة الغائب، الشيخ علي اليزدي الحائري، قم: ١٤٩ وما بعدها.

(٢) ابن أبي شيبة: ١٥: ١٩٨. وينظر: مسند أحمد: ١: ٩٩.

الإمام الحسن (ع)[١]، على الرغم من علمه أنه سيد شباب أهل الجنة بنص الرسول الأعظم (ص)، كما عمد معاوية بن أبي سفيان إلى قتل كل محب لعلي بن أبي طالب (ع)، إذ "دعا بسر بن أبي أرطأة وكان قاسي القلب فظا سفاكا للدماء لا رأفة عنده ولا رحمة، فأمره أن يأخذ طريق الحجاز والمدينة ومكة حتى ينتهي إلى اليمن، وقال له: لا تنزل على بلد أهله على طاعة علي إلا بسطت عليهم لسانك حتى يروا أنهم لا نجاء لهم وأنك محيط بهم، ثم اكفف عنهم وادعهم إلى البيعة لي، فمن أبى فاقتله، واقتل شيعة علي حيث كانوا"[٢]، ثم أنه أحرق دار أبي أيوب الأنصاري[٣]، وقتل الصحابي الجليل عمرو بن الحمق[٤]، وقد جمع بين قبور المسلمين واليهود في مقبرة واحدة[٥]، وقد مارس سياسة التجويع ضد المسلمين عامة والصحابة المؤمنين خاصة فيما يشبه بالإبادة الجماعية عبر الحصار الاقتصادي الشديد[٦]، وممن قتلهم معاوية بغير السم ظلماً وعدواناً وهم من الصحابة مما يظهر حجم الظلم والفساد الذي انتشر في زمنه: عبد الرحمن بن أبي بكر بن أبي قحافة، ومحمد بن أبي بكر بن أبي قحافة، ومحمد بن أبي حذيفة، وعبد الرحمن بن عديس البلوي[٧]، وتترى الجرائم الكبرى التي ارتكبها معاوية ضد الأئمة من أهل بيت النبوة (عليهم السلام) وأصحابهم وتابعيهم، وتتوالى الجرائم ضد الإنسانية وجرائم الإبادة الجماعية التي أمر بها وأوقعها بالمسلمين عامة، من أجل أن يحتفظ هو ومن معه من عقبه بالرئاسة ظلماً وعدواناً، ومن أجل أن يحقق رغباته راح يسعى فساداً في الأرض، فهذا ديدنه وديدن آبائه، وهكذا فقد وضع معاوية ومن أعانه على الرئاسة عدداً من السنن الظالمة التي أسست للظلم والعدوان والفساد في الأرض، وأصبح قتل المؤمنين من محبي الرسول الأعظم وآله صلى الله عليهم وسلم أجمعين سنة متبعة لطواغيت الأرض في كل العصور إلى يومنا هذا، وليس أدل على ذلك من جرائم الذبح التي يمارسها خوارج هذا العصر بحق زوار أبي عبد الله الحسين (ع)، أفليس من الضروري بعد كل هذا أن يقوم الإمام بالأمر؟... أليس حضور الإمامة واجباً في مثل هذه الأحوال من أجل إبطال الفساد وأهله ونصرة الحق وأهله؟...، ولذلك فقد وجب حضور كل من أمير المؤمنين والمهدي عليهما السلام لنشر القسط والعدل، بعد أن انتشر الظلم والجور.

---

(١) ينظر: النزاع والتخاصم للمقريزي: ٣٦، ولابن كثير: البداية والنهاية: ٨: ٤٧، والمنتظم لابن الجوزي: ٥: ٢٢١.

(٢) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي: ٢: ٦.

(٣) م. ن. : ٢: ١٠.

(٤) ينظر: الاشتقاق للزجاج: ٤٧٤، والنزاع والتخاصم للمقريزي: ٥٦.

(٥) ينظر: البداية والنهاية لابن كثير: ٧: ٢١٤.

(٦) ينظر: معاوية، عبد الباقي الجزائري: ٢٣٨.

(٧) للتوسع ينظر: معاوية، عبد الباقي الجزائري: وما بعدها ٢٣٩.

٣. ضرورة الهداية لإتمام الحجة على الناس:

إن داعي الهداية من الدواعي المهمة لحضور الإمامين في ساحة العمل الإسلامي لاسيما بعد تكاثر الفتن وتواترها، وقد وردت آيات قرآنية عديدة تحذر من الفتنة والانقلاب على الأعقاب، قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٤)، وهذا يقتضي أن يخلف الرسول الأعظم من يكون أميناً على الرسالة الإسلامية عالماً مقتدراً مسدداً، فالفتن قادمة ليس من داخل الأمة الإسلامية فقط بل من خارجها أيضاً، قال تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (البقرة: ١٢٠)، والهداية تقتضي من الأئمة حضورهم وتقتضي من المسلمين اتباعهم وجوباً، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (النساء: ١١٥)، وليس هنالك هدى إلا هدى الله ومن نصبه للهداية، وأما من يدعونها كذباً وزوراً فليس لهم طاعة على الناس بدليل قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام: ٧١)، ونحن نلاحظ أن دين الله لم ينتشر بعد في الأرض كلها، بل إن أدياناً كثيرة منتشرة أكثر منه، ومنها ديانات شرك وضلالة، على الرغم من قوله تعالى ـ وقوله الحق ـ: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣٣)، ونجد أن الوعد بإحباط أعمال الذين كفروا مقيد بسين الاستقبال في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (محمد: ٣٢)، وحين نعود إلى قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ (الرعد: ٧)، نجد أن الآية الكريمة تؤكد مهمة الإنذار للرسول الأعظم محمد (ص)، ومهمة الهداية موكولة للهداة الذين توضح الآية ارتباطهم بكل قوم مما يعني تعدد أدوار ووحدة هدف، وهذا ما نجده حين نتمعن في إمامة أهل البيت (عليهم السلام) وحضورهم امتداداً لحضور الإمام علي (ع) امتثالاً لأمر نبي الرحمة عليه وآله الصلاة والسلام.

هذه أهم دواعي الحضور التي لا يمكن إغفالها، وهي كما رأينا تجعل من حضور الإمام ضرورة لابد منها. إن دواعي الحضور تجعلنا نطمئن إلى الحضور الكامل الفعال للإمامين عليهما السلام، ولكن الحقيقة التاريخية التي نعيش تداعياتها تؤكد أن كلاً من أمير المؤمنين والمهدي (عليهما السلام) غاب عن الحضور الفعلي في رأس السلطة ابتداء، ولكل منهما مدة غياب، الأولى معروفة والثانية مجهولة، ويمكن التعرف على النتائج الناجمة عن غيابهما بوساطة النظر العميق والتحليل الدقيق، سواء من خلال النظر إلى دواعي الحضور، أو

إلى أحداث التاريخ المؤلمة وما حفلت به من فجائع مدمرة وفتن مهلكة ومؤامرات مضلة، وهذا يجعلنا نبحث في دواعي الغياب وأسبابه على الرغم من أهمية الحضور للتعرف على الحكمة من ورأء ذلك.

المبحث الثاني
أسباب الغياب

إن الله سبحانه خلق الإنسان ليعمر الأرض وينشر الصلاح، وبذلك يحقق عبادته التي تقتضي الخير كل الخير لبني الإنسان، ولأن هناك من بني الإنسان من جحدوا ولاية الله وأبوا أن يطيعوه في تحقيق العدالة وتنفيذ حقوق الإنسان، وواجباته التي شرعها الباري سبحانه لمنفعة الإنسان، فقد أوجب تعالى شأنه إمامة الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، للقيام بمهمة قيادة الأمة نحو الصلاح والإصلاح، "لأن طبيعة البشر تهوي به إلى أسفل ولا يكفيها وجود شريعة محفوظة في الأسفار، بل لابد من تجسيد تلك الشريعة في إنسان يتمتع بتفوق تشريعي يعطيه صلاحية تطبيق الشريعة على الناس، إذ لابد لكل قانون من مطبّق نافذ الكلمة وإلا عاد القانون حبرا على ورق"[١]، ولكن عددا من الأسباب دعت إلى غياب الأئمة عن القيام بأعباء الإدارة المباشرة لشؤون الحياة، متمثلاً بالغياب عن الحكم الظاهر، ومن هذه الأسباب:

١. غلبة أهل الباطل:

لم تكن الإمامة منصباً رئاسياً، وهي ليست ملكاً ولا عطاء دنيويا يراد منه إغناء المنصَّب ملكاً، ولذلك لم تكن الإمامة مفروضة بالقهر ابتداء، إذ "كما لم يشأ الله أن يكره الناس على الهدى في عهد الرسول إبقاء لهم على النعمة الكبرى الموهوبة لهم وهي نعمة الحرية، فكذلك لم يشأ أن يجبرهم على إتّباع الإمام جبراً.

وهكذا أبقى على الإمام الأخير صاحب الزمان عجل الله فرجه، إتماماً لحجته على خلقه وتوفيرا لمنتهى ما يمكنهم أن يبلغوه من سعادة الدنيا والآخرة، غير أن الحكام شرّدوا الأئمة عليهم السلام وقتلوهم وأزالوهم عن مراتبهم ولم يستفيدوا من علومهم وكفاءاتهم، فكان مثل الأئمة بينهم كمثل سراج يطفئه طاغية فلا يستفيد منه الناس"[٢].

وقد شاء الباري سبحانه أن تكون الدنيا دار بلاء يعمل فيها الناس بحريتهم تماماً كما أن كثيراً من الأنبياء عليهم السلام لم يرد الله إجبار أممهم على إتباعهم، فكان أن غلب أهل الباطل بكثرة عددهم وكثرة أموالهم على أهل الحق، ثم إن في أهل الباطل جرأة على الله ورسوله بحيث هم مستعدون لفعل أية جريمة مهما كانت بشعة في سبيل الرئاسة والملك، في حين أن أهل الحق ينأون بأنفسهم عن الشبهات، ولا يقربون الحرمات، ويمتنعون عن خوض

---

(١) الفكر الإسلامي مواجهة حضارية، محمد تقي المدرسي: ٢٦٧.
(٢) م.ن.: ٢٦٧ – ٢٦٨.

الفتن، بل إن من صفات الإمام الحق قطع دابر الفتنة، وتوضيح الشبهات، وتبيان سبيل الحق، وهذا ما يجعل الإمام مبتعداً عن سفك الدماء مثلاً للحصول على القيادة، وإن حقن دماء المسلمين لما يسرّ أهل الحق ولو كانت دونه الظلامة المؤلمة، وهذا ما شهده التاريخ فيما سجله من حوادث بدءاً بأحوال المسلمين ساعة رحيل الرسول الأعظم (ص) إلى بارئه سبحانه وما تلا ذلك، فلولا رغبة الإمام علي (ع) في حقن دماء المسلمين، ولولا تكالب أهل الدنيا عليها واستعدادهم لسفك الدماء من أجلها، لما غاب سلام الله عليه عن الحكم الظاهر بعد الرسول (ص) مباشرة، وهو خير من يعبّر عن هذه القضية بقوله واصفاً ضعف أنصاره وقلتهم وكثرة أهل الباطل وقوتهم وإيثاره للصبر ابتغاء مرضاة الله، من خطبة له تسمى الشقشقية إذ يقول سلام الله عليه: "فطفقت أرتئي بين أن أصول بيد جذاء أو أصبر على طخية عمياء يشيب فيها الصغير ويهرم فيها الكبير ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه، فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى، فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجا، أرى تراثي نهبا"[1]، فقد مثل (ع) قلة أنصار الحق باليد الجذّاء (المقطوعة) التي لا تمكن صاحبها من الصولة، أو إذا صال فإنه لا يحقق مراده، ومثل خياره الآخر بالصبر على داهية عظيمة تصيب الناس وتعميهم عن سبيل الحق، حتى أنها ليشيب فيها الصغير ويهرم الكبير من هولها وخطر أمرها، ويكدح فيها مؤمن ـ ولعله أشار إلى نفسه (ع) ـ، حتى يلقى ربه، والكدح العمل المنهك شديد الوطأة، فكان خياره (ع) الصبر ولكنه صبر يرافقه قذى العين، وتوسط الشجا (عظمة طائر دقيقة مدببة الطرفين) في الحلق، وهي صورة صعبة الاحتمال، شديدة الألم، ولكنه اختار هذا المنحى لأنه أحجى، أي أقرب إلى الحجى (وهو العقل والحكمة)، وهذا من مقتضيات العدالة التي يتمتع بها سلام الله عليه، ولعلنا اهتدينا إلى نور هذه الحكمة فنوجزه بهذه الفائدة: لقد جنّب أمير المؤمنين (ع) أبناء الأمة اختباراً كانوا لاشكّ من الخاسرين فيه، وهو اختبار المواجهة مع الحق، ومحكّ الاختيار بين عليّ الذي يدور معه الحق حيث دار، وبين سواه، وهل سوى الحق إلا الضلال؟!، ولم يشأ سلام الله عليه أن يعرّض الناس للمواجهة معه، ويقينا لو شاء ذلك لأرغم الأنوف بسيفه، ولكسّر أصنام البشر كما كسّر أصنام الحجارة بعزمه، ولبسط يده على طول الدولة وعرضها بحنكته وحكمته وخبرته وعلمه، ولما استطاع أن ينجو أحد من حد سيفه إلا بالرضوخ له والإذعان بين يديه، ولكن حكمته اقتضت أن يتحمّل الظلامة هو وزوجه وولدُه من بعده، بدلاً من أن يشقى الناس بما لا يقدرون عليه من الصبر على البلاء ومكاره أنواع الابتلاء، فأية رحمة اتسع لها قلبك سيدي يا أمير المؤمنين؟..، وبأي ظلم جازتك الأمة بجهلها وشقائها!.

إن أمير المؤمنين (ع) لم يتمكن من تحشيد من يعينه لينهض بأمر القيادة والحكم الظاهر، ولم تكن الغاية أن يتولى الأمر فحسب، ولكن الأهم هو أن تعي الناس أهمية هذا

---

(١) نهج البلاغة: ج١: الخطبة المعروفة بالشقشقية: ١٠.

التولي، والاعتقاد الثابت الراسخ بهذه الولاية، ومن ثم السير بهدى هذا الإمام، وهذا ما لم يتحقق، فكانت النتيجة أن تولي الحكم الظاهر لم يتحقق أيضاً، فحركة المجتمع امتثالاً لأوامر الله سبحانه الصادرة مع حججه الباهرة ودلائله الواضحة هي التي تستوجب الرحمة وتحققها، وعصيانهم مع علمهم هو الذي يجلب لهم النقمة، ويخطأ من يظن أن سنة الله سبحانه وتعالى غير ذلك، إذ يقول جلّ وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ (الرعد: ١١)، فغاب أمير المؤمنين عن الحكم الظاهر والقيادة المباشرة بسبب قلة الناصر، ولم تجدِ كلُّ محاولاته لتجديد ما طمس من معالم الدين الإسلامي بسبب جهل القيادات وطغيانها، تلك التي تسلمت الحكم بالقوة والمكر بعد الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه وآله، وابتعاد الناس عن الهمّة في تنفيذ أمر الله، وهذا أيضاً ما كان من سبب رئيس في غياب الحجة المهدي سلام الله عليه إذ لابد للحق من أنصار، عملاً بسنة الله سبحانه وتعالى في التغيير، التي تعرضها الآية الكريمة.

لقد عانى الإمام المهدي سلام الله عليه من غلبة أهل الباطل على أهل الحق، فقد كان الطاغوت متحكماً في أهواء الناس وتصرفاتهم، فقد تبنى الطاغوت تسمية الإسلام، ولكنه طرح مفاهيمه الخاصة تحت هذه التسمية، ولا أعتقد أن أحداً سيجد شيئاً ذا بال إذا نحينا عن الطرح الطاغوتي لمعنى الإسلام نوازع الجاهلية وعداوة أهل بيت النبي عليهم صلوات الله وسلامه، فهما ركيزتان أساسيتان اعتمدتا لجعل الناس يؤمنون بالطاغوت على أنه الممثل الشرعي لحكم الله في الأرض، ثم بعد ذلك حصلت للناس الولاية للطاغوت متمثلة بالانصياع التام لأوامره، بل لقد بلغ الطاغوت الحاكم لدى بعض الناس مراحل متسافلة في الضلالة مثل الاحتكام إلى الطاغوت بشأن أولياء الله!، أو حتى عبادة الطاغوت حتى قتال أولياء الله من أجله!..[1]، وإذا كان الطاغوت قد بلغ هذه المرحلة من الناس الذين ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٩٣)، زمن أمير المؤمنين (ع) فإن ذلك مازال جارياً زمن الإمام المهدي سلام الله عليه، فقد تكالب الأعداء على الأئمة وشددوا الخناق والتضييق عليهم وعلى أتباعهم، وأصبحت قضية الإمام الحسين (ع) قضية المظلومين والمضطهدين، وأصبح كل من يذكرها يعد عدواً للسلطان أموياً كان أم عباسياً أم غير ذلك ممن تبعهم، و"عندما اقترب تسلسل أئمة العترة عليهم السلام من الثاني عشر، تفاقم خوف السلطة العباسية ولهذا أجبروا الإمام علي الهادي وولده الإمام الحسن (عليهما السلام) على الإقامة في العاصمة سامراء (سرّ من رأى) التي كانت تسمى العسكر، فعرفا بلقب العسكريين، ثم بدا للخليفة العباسي أن يقتل الإمام الهادي (ع) وشدد الرقابة على ولده الإمام الحسن العسكري (ع)، ثم قرر الخليفة بعده أن يقتله ليستريح منه ويمنع ولادة الإمام الثاني عشر

---

(١) ينظر: مراحل الطاغوت، حاتم الحسني، مجلة سبيل: عدد ٩، ٢٠٠٨ م.

الموعود حتى لا يكون زوال ملكهم على يده!، وليس بعيداً أن تكون السلطة هددت الإمام العسكري (ع) بالقتل إن هو تزوج، وكانوا يتصورون أنه سيتزوج امرأة قرشية ليكون أولاده منها كما يفعل شخصيات قريش، لأن ابن الجارية ليس له تلك المكانة، لكن الإمام (ع) أعتق جاريته نرجس الرومية وتزوجها، وشاء الله أن يكون ولده المهدي (ع) منها"[1]، وهذه صورة من صور التضييق السلطوي، وهي كفيلة بأن تظهر لنا غلبة أهل الباطل زمن الإمام المهدي (ع) مما أوجب عليه الغياب عن الحكم الظاهر ومازال حتى كتابة هذه السطور ينتظر الفرج ونحن معه من المنتظرين نرجو الله له بالتعجيل والنصرة، ونسأل الله سبحانه أن يوفقنا لامتثال أوامره والانتهاء عن نواهيه، والالتحاق بركب سفينة النجاة.

إن غلبة أهل الباطل على أهل الحق، جعلت الغياب ضرورة عن الحكم الظاهر، من أجل أن يتم وعد الله سبحانه، بوجوب أن يكون التغيير نابعاً من الناس أنفسهم بهمة تحركها القناعة التامة والإيمان الراسخ، فليس من العدالة في شيء قيادة الناس إلى الحق قسراً، لاسيما أنهم سيحاسبون على أعمالهم فيثابون ويعاقبون، وهذا يتطلب أن يكون عملهم حراً من دون إجبار الجهة التي ستحاسبهم فيما بعد، وهي جهة الله سبحانه وتعالى، ولابد أن يرى الناس عواقب أعمالهم في الدنيا قبل الآخرة، حتى إذا أيقنوا أن لا نجاة إلا مع آل محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين، توجهوا بأنفسهم وأموالهم لنصرة القائم بالحق، وتكون حينئذ دولة الحق استحقاقا واجبا للناس، وبذلك يتم الوعد الإلهي.

٢. مضلات الفتن:

لقد كانت صورة الحال واضحة للمسلمين بعد أن أتم الله نعمته وأكمل دينه بتولية أمير المؤمنين وأخذ البيعة له من المسلمين عقيب حجة الوداع.

ولكن الدسائس والمكائد التي بيتها الحزب القرشي، كانت كفيلة بحرف الناس عن جادة الحق واستمالتهم إلى أولئك الذين أسلموا لما لم يجدوا بداً من الإسلام وسيلة للعودة إلى السلطة مجدداً، والإفادة مما قد توفره عقيدة الإسلام من تنظيم للناس وانتشار وتوسع، وسيطرة على الخلق، فقد "عرض النبي (ص) وهو على فراش المرض على أمته كنزاً لم يعرضه نبي على أمته أبدا!: أن تطيعه فيكتب لها عهداً وبرنامجاً، ويضمن لها أن تكون على الهدى ولا تضل أبداً، وأن تكون سيدة الأمم إلى يوم القيامة! فواجهه عمر بن الخطاب ورفض ذلك، وأيده طلقاء قريش وكانوا كثروا في المدينة وصاحوا القول ما قاله عمر! لا تقرّبوا له دواة ولا قرطاساً، حسبنا كتاب الله، أي نرفض سنته ولا نريد أن يكتب لنا عهداً!، وقد دافع أتباع الخلافة عن موقف عمر ضد النبي (ص) وما زالوا إلى اليوم! وقد رواه البخاري في ست مواضع من كتابه!، ومع أن الأمة رفضت أن تدخل في التأمين الإلهي لمستقبلها ووضعت نفسها عن علم

---

(١) المعجم الموضوعي لأحاديث الإمام المهدي (ع): ٧٨٨ – ٧٨٩.

وعمد وسبق إصرار في وسط رياح الضلال والفتن، فقد حرص النبي الرؤوف بأمته (ص) على تحذيرها من الصراع وسفك الدماء على السلطة، كالحديث الذي رواه الطبراني في الكبير: ٦٩/٢٢، ومسند الشاميين: ١٢٤/٣، عن واثلة ابن الأسقع قال: سمعت رسول الله (ص) يقول: تزعمون أني آخركم موتا! وإني أولكم ذهاباً، ثم تأتون من بعدي أفناداً! يقتل بعضكم بعضاً"[١]، ونجد أن أمير المؤمنين سلام الله عليه يعبر عن هذه الفتن المضلة بقوله: "لقد تقمصها مني ابن أبي قحافة وإنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى، ينحدر عني السيل ولا يرقى إليّ الطير، فسدلت دونها ثوباً وطويت عنها كشحاً، وطفقت أرتئي بين أن أصول بيد جذاء، أو أصبر على طخية عمياء يشيب فيها الصغير ويهرم فيها الكبير ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه"[٢]، ويقول (ع) واصفاً ما مُني الناس به من مضلات الفتن أيام ثاني خلفاء قريش: "فصيرها في حوزة خشناء يغلظ كلامها ويخشن مسها ويكثر العثار فيها والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبة إن أشنق لها خرم وإن أسلس تقحم، حتى لقد مني الناس بتلون واعتراض وتخبط وشماس"[٣]، ثم إنه يُسأَل عن قتل ثالث خلفاء قريش بعد ثورة الصحابة عليه ودفنه في مقبرة لليهود فيقول: "لو أمرت به لكنت قاتلاً، ولو نهيت عنه لكنت ناصراً، غير أن من خذله لا يستطيع أن يقول نصره من هو خير مني، ومن نصره لا يستطيع أن يقول خذله من أنا خير منه، ولكني جامع لكم أمره: استأثر فأساء الأثرة، وجزعتم فأسأتم الجزع، ولله حكم واقع في المستأثر والجازع"[٤]، وهذا يؤكد أن قتلة عثمان والمتخاذلين عنه خير من أنصاره، ويوضح حجم الفتن والضلالات التي محقت الأمة وأزلتها عن مكانتها السامية التي أرادها لها الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه وآله، فكانت تلك الفتن المضلة سبباً في ابتعاد الإمام علي (ع) عن القيادة وغيابه عن الحكم الظاهر، حتى أنه بقي كذلك إلى أن أيقن الناس بخلاصهم معه، ونجاتهم باتباعه، فتوجهوا إليه باختيارهم ومحض إرادتهم، وقد وصف حركتهم تلك بقوله: "فما راعني إلا والناس كعرف الضبع إلي ينثالون علي من كل جانب حتى لقد وطئ الحسنان وشق عطفاي مجتمعين حولي كربيضة الغنم، فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة ومرقت أخرى وقسط آخرون"[٥]، فكم كانت الفتن عاصفة بأهواء الناس!، وما على الإمام قيام إلا بشروط ومقدمات سيأتي ذكرها إن شاء الله في متن هذا البحث.

أما حين نأتي إلى زمن غياب الإمام المهدي سلام الله عليه، فنجد أن الفتن قد تناسلت وازدادت وضجت بالناس، حتى لقد ملئت الأرض ظلماً وجوراً لفرط البعد، عن الرسالة

---

(١) لمعجم الموضوعي لأحاديث الإمام المهدي (ع): ١٣١ – ١٣٢.
(٢) نهج البلاغة: الشقشقية.
(٣) م. ن.
(٤) نهج البلاغة: الشقشقية.
(٥) م. ن.

السماوية المتعلقة بالقرآن الكريم من جهة وبالعترة النبوية الطاهرة من جهة أخرى، وقد "اتفقت مصادر المسلمين كلها على أن مهمة الإمام المهدي (ع) أن يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن تكون ملئت ظلماً وجوراً، وهذا بنفسه دليل على أن ظهوره (ع) يكون بعد فتنة عامة وأن الجبابرة قبله يملؤون الأرض ظلماً وجوراً، وامتلاء الأرض بالظلم مفهوم عرفي يصدق على أكثر عصور الأرض، فقد قال الله تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الروم: ٤١)، أما في عصرنا فقد ظهر الفساد في البر والبحر والجو وامتلأت الأرض بالجور حتى غصت!"[١]، ومن الروايات الثابتة بشأن الفتن آخر الزمان - وهي كثيرة - نجد: "عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله (ص): أبشركم بالمهدي يبعث في أمتي على اختلاف من الناس وزلازل فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً"[٢]، وهنا نلفت إلى واحدة من الفتن التي أفاد منها بعض الصحابة لتحقيق مآربهم، وصارت فيما بعد ملجأ للطواغيت إذ يرومون تسيير أهواء الناس حيث شاؤوا، إذ "لاشك أن النبي (ص) حذّر أمته من الفتن الآتية بعده، فقد أجمع المسلمون على ذلك ورووا أحاديثها، لكن جاء بعض الصحابة والرواة وطبقوها على رأيهم، وبذلك صارت أحاديث الفتن من الفتن!، وصار علينا أن نبحث عن رأي أهل البيت (عليهم السلام) للنجاة منها! فأبو موسى الأشعري أخذ يثبط أهل الكوفة عن الانضمام إلى أمير المؤمنين (ع) في حرب الجمل مع طلحة والزبير وعائشة.

والنعمان بن بشير الأنصاري والضحاك بن قيس الفهري وهما وزيرا معاوية، اختلفا مع بني أمية بعد موت يزيد بن معاوية، وبايعا ابن الزبير وحشدا جيشاً لمحاربة الأمويين، وكان الضحاك واليا على دمشق والنعمان على حمص، فحاربهما مروان وقبائل كلب الشامية وقتلوهما واستعادوا السيطرة على الشام!.

وأبو هريرة الذي كان مع معاوية ضد علي (ع) ثم مع بني مروان حتى غضبوا عليه في آخر عمره فكان يروي لعن النبي (ص) لهم وتحذيره من فتنة أغيلمة قريش وحكم الصبيان!"[٣]، وقد استمرت الفتن المضلة تعصف بالمسلمين حتى لقد استغل كثيرون أحاديث الإمام المهدي، وادعوا المهدوية ومازالوا يفعلون، مما يؤكد أن الناس ليسوا على هدى، وليس عندهم إيمان بالحق الذي أفاض في توضيحه الله ورسوله وأهل البيت عليهم الصلاة والسلام، وأنهم مازالوا مولعين بالسلطة، ومستعدين لسفك الدماء من أجلها، وتتصل الفتن المضلة بزمن الإمام المهدي (ع)، ويروى في ذلك "عن أبي سعيد الخدري قال: ذكر رسول الله (ص) بلاء يصيب هذه الأمة حتى لا يجد

---

(١) المعجم الموضوعي لأحاديث الإمام المهدي (ع): ١٣٤.

(٢) مسند أحمد: ٣: ٣٧.

(٣) المعجم الموضوعي لأحاديث الإمام المهدي (ع): ١٣٥ - ١٣٦.

الرجل ملجأ يلجأ إليه من الظلم، فيبعث الله رجلا من عترتي من أهل بيتي فيملأ به الأرض قسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً، يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض"[١].

إن سلسلة الفتن والاضطرابات كفيلة بجعل الناس يؤمنون بأنهم غير قادرين على النجاة إن هم اعتمدوا على غير الهداة المهديين من أهل البيت عليهم السلام، ولن تنتهي تلك الفتن ولن تهدأ الاضطرابات ولن تتبدد الضلالات إلا بتوجه الناس إلى إمامهم المنتظر بقلوب صادقة وبأعمال صالحة، فإنه ينتظر كما هم منتظرون، هو ينتظر الإذن الإلهي بالقيام، وهم ينتظرون طلعته البهية، ولكن سنن التاريخ تستوجب حصول الحراك الواعي اللازم من جهة المنتظرين لإنجاز الأمر.

المبحث الثالث
مظاهر الحضور في الغياب

إن غياب كل من الإمام علي (ع) أكثر من عقدين ونصف، والإمام المهدي (ع) أكثر من أحد عشر قرناً من الزمان، عن الحكم الظاهر لم يمنعهما من مزاولة نشاطات الإمامة ومهمات الهداية، وفعل الخيرات، ومساعدة الناس، على الرغم من ظلامة ضياع الحق وغصب الحكم، وقلة الناصر، وضيق الحال، واشتداد العداوات، وقد كثرت الروايات بإجماع المسلمين على أن عليا (ع) كان أيام غيابه عن الحكم الظاهر علماً هادياً، وعالماً قاضياً، وحكيماً ناصحاً ووليا مرشداً، ومن تلك النشاطات التي أوجبتها مسؤولية الإمامة:

١. الهداية وإسداء النصيحة:

ليس من عادة أهل البيت (عليهم السلام) وهم الكرماء أن يبخلوا على محتاج بما عندهم، فكيف بهم والعطاء الذي تحتاجه الأمة هو ما عندهم من العلم والحكمة، والنصح والهدى؟.

لذلك فقد عمل كل من الإمامين عليهما السلام في سنوات غيابهما عن الحكم الظاهر على هداية الناس وإسداء النصيحة، وممارسة القيادة الروحية والأخلاقية للأمة حتى لا تتعطل حدود الله، وحتى لا ينتشر الفساد، وذلك بقدر ما أتيح من فرصة، لأن السلطان الحاكم لم يكن يسمح بذلك إلا في حدود ضيقة، لئلا يفتضح أمره وينكشف عجزه، ومن ذلك أنه في زمن ثاني خلفاء قريش: "أتي بحامل قد زنت، فأمر الخليفة برجمها، فقال أمير المؤمنين (ع): هب أن لك سبيلاً عليها، أي سبيل لك على ما في بطنها؟، والله تعالى يقول: ألاّ تزر وازرة وزر أخرى، فقال عمر: لا عشت لمعضلة لا يكون لها أبو الحسن، ثم قال: ما أصنع بها؟، قال (ع): احتط عليها حتى تلد، فإذا ولدت ووجدت لولدها من يكفله فأقم عليها الحد"[٢]، ولم يتردد أمير المؤمنين في إسداء النصيحة حتى لأعدائه من أجل أن ينتفع بالنصيحة الناس وتقام العدالة، ومن ذلك "أن معاوية بن

---

(١) م. ن. : ١٥٣.

(٢) الإرشاد للمفيد: ٩٧ – ٩٨، وبحار الأنوار للمجلسي: ٤٠: ٢٥١.

أبي سفيان كتب إلى أبي موسى الأشعري أن ابن أبي الجسري وجد على بطن امرأته رجلاً فقتله، وقد أشكل حكم ذلك على القضاة، فسأل أبو موسى عليا (ع)، فقال: والله ما هذا في هذه البلاد - يعني الكوفة وما يليها - وما هذا بحضرتي، فمن أين جاء هذا؟، قال: كتب إلي معاوية أن ابن أبي الجسري وجد مع امرأته رجلا فقتله، وقد أشكل ذلك على القضاة، ... فقال علي (ع): إن جاء بأربعة يشهدون على ما شهد وإلا دفع برمته"[1]، وهذا يؤكد - وأخبار كثيرة أخرى تروى - أن الهداية الحقيقية إلى النجاة، إلى العدالة، إلى الحق، هي مع الإمام المنصب من الله سبحانه، المفترض الطاعة، المعصوم عن الزلل والخطأ، وأنه يؤدي دوره حاضرا بإمامته، وإن كان غائباً عن منصب الرئاسة.

أما عن الإمام المهدي سلام الله عليه فإنه لم يكن يوجه الهدى والنصيحة إلى الحاكمين الذين اطمأن رؤوس القوم ومن أعانهم من الناس إلى طغيانهم وتبعوا ضلالتهم من دون رادع يمضي في أنفسهم لردعها عن الانحراف، ولكنه سلام الله عليه كان يوجه نصحه إلى سفرائه وعلماء شيعته ورواة حديثه، وهناك من الروايات الموثوقة ما يؤكد نصحه (ع) للناس مباشرة، فيما تقتضيه عدالة السماء وللمهمات من الأمور التي يعجز غيره عن تقديم المساعدة فيها، ومن ذلك توقيعاته الشريفة التي كان يقدمها لسفرائه الأربعة في غيبته الصغرى، وفيها من النصح والإرشاد والحكمة ما لا يخفى، ومن ذلك ما يروى من أجوبته على عدد من المسائل الشائكة والفتاوى الصعبة، وبها تبين الحق من الباطل، والهدى من الضلالة[2]. وهو وإن كان غائبا في الظاهر، إلا أن له فائدة عظيمة للناس، وهدى لهم من الضلال، يروى "عن أبي عبد الله (ع): أقرب ما يكون العبيد إلى الله عز وجل وأرضى ما يكون عنه إذا افتقدوا حجة الله فلم يظهر لهم، وحجب عنهم فلم يعلموا بمكانه، وهم في ذلك يعلمون أنه لم تبطل حجج الله ولا بيناته، فعندها فليتوقعوا الفرج صباحاً ومساء. وإن أشد ما يكون غضباً على أعدائه إذا أفقدهم حجته فلم يظهر لهم، وقد علم أن أولياءه لا يرتابون ولو علم أنهم يرتابون ما أفقدهم حجته طرفة عين. وفيه: عن جابر الجعفي عن جابر الأنصاري أنه سأل النبي (ص): هل ينتفع الشيعة بالقائم (عج) في غيبته؟ فقال (ص): إي والذي بعثني بالنبوة إنهم لينتفعون به، ويستضيئون بنور ولايته في غيبته كانتفاع الناس بالشمس وإن جللها السحاب. أقول: التشبيه بالشمس المجللة بالسحاب يومئ إلى أمور كما يستفاد من كلمات العلامة المجلسي (رحمه الله). الأول: أن نور الوجود والعلم والهداية يصل إلى الخلق بتوسطه (ع)، إذ ثبت بالأخبار المستفيضة أنهم العلل الغائية لإيجاد الخلق، فلولاهم لم يصل نور الوجود إلى غيرهم، وببركتهم والاستشفاع بهم والتوسل إليهم يظهر العلوم والمعارف على الخلق، ويكشف البلايا عنهم، فلولاهم لاستحق الخلق بقبائح أعمالهم أنواع العذاب، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا

---

(١) قضاء أمير المؤمنين للتستري: ٥١.

(٢) ينظر: المعجم الموضوعي لأحاديث الإمام المهدي (ع): ٨٦٥ وما بعدها.

﴿ كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (الأنفال: ٣٣)، ولقد جربنا مراراً لا نحصيها أنه عند انغلاق الأمور وإعضال المسائل والبعد عن جناب الحق تعالى وانسداد أبواب الفيض لما استشفعنا بهم وتوسلنا بأنوارهم، فبقدر ما يحصل الارتباط المعنوي بهم في ذلك الوقت تنكشف تلك الأمور الصعبة، وهذا معاين لمن أكحل الله عين قلبه بنور الإيمان. الثاني: كما أن الشمس المحجوبة بالسحاب مع انتفاع الناس بها، ينتظرون في كل آن انكشاف السحاب عنها وظهورها ليكون انتفاعهم بها أكثر، فكذلك في أيام غيبته ينتظر المخلصون من شيعته خروجه وظهوره في كل وقت وزمان ولا ييأسون منه. الثالث: أن منكر وجوده مع وفور ظهور آثاره، كمنكر وجود الشمس إذا غيبها السحاب عن الأبصار. الرابع: أن الشمس قد تكون غيبتها في السحاب أصلح للعباد من ظهورها لهم بغير حجاب، فكذلك غيبته (عج) أصلح لهم في تلك الأزمان، فلذا غاب عنهم. الخامس: أن الناظر إلى الشمس لا يمكنه النظر إليها بارزة عن السحاب، وربما عمي بالنظر إليها لضعف الباصرة عن الإحاطة بها، فكذلك شمس ذاته المقدسة ربما يكون ظهوره أضر لبصائرهم، ويكون سبباً لعماهم عن الحق، وتحتمل بصائرهم الإيمان به في غيبته كما ينظر الإنسان إلى الشمس من تحت السحاب ولا يتضرر بذلك. السادس: أن الشمس قد تخرج من السحاب وينظر إليها واحد دون واحد، فكذلك يمكن أن يظهر (ع) في أيام غيبته لبعض الخلق دون بعض. السابع: أنهم كالشمس في عموم النفع وإنما لا ينتفع بهم من كان أعمى، كما فسر به في الأخبار قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (الإسراء: ٧٢)، الثامن: أن الشمس كما أن شعاعها يدخل البيوت بقدر ما فيها من الروازن والشبابيك، وبقدر ما يرتفع عنها من الموانع، فكذلك الخلق إنما ينتفعون بأنوار هدايتهم بقدر ما يرفعون الموانع عن حواسهم ومشاعرهم التي هي روازن قلوبهم من الشهوات النفسانية والعلائق الجسمانية، وبقدر ما يدفعون عن قلوبهم من الغواشي الكثيفة الهيولانية، إلى أن ينتهي الأمر إلى حيث يكون بمنزلة من هو تحت السماء يحيط به شعاع الشمس من جميع جوانبه بغير حجاب. فقد فتحت لك من هذه الجنة الروحانية ثمانية أبواب، ولقد فتح الله عني بفضله ثمانية أخرى تضيق العبارة عن ذكرها، عسى الله أن يفتح علينا وعليك في معرفتهم ألف باب، يفتح من كل باب ألف باب. عن ابن عمير عمن ذكره عن أبي عبد الله (ع) قلت له: ما بال أمير المؤمنين (ع) لم يقاتل مخالفيه في الأول؟ قال: لآية في كتاب الله عز وجل ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الفتح: ٢٥)، قال: قلت: وما يعني بتزيلهم؟ قال: ودايع مؤمنون في أصلاب قوم كافرين، [ومنافقين فلم يكن علي (ع) ليقتل الآباء حتى يخرج الودايع فلما خرج ظهر على من ظهر. وقتله] فكذلك القائم لن يظهر أبداً حتى تخرج ودايع الله عز وجل، فإذا خرجت ظهر على من ظهر من أعداء الله عز وجل جلاله فقتلهم"[1].

---

(١) إلزام الناصب بإثبات الحجة الغائب: ٢٧٨.

٢. قضاء حوائج الناس وحفظ حقوقهم:

إن واحدا من مقتضيات الإمامة قضاء حوائج الناس وحفظ حقوقهم، حتى وإن لم يكن الإمام هو السلطان، وهذا يتطلب أن يكون المستفيد من قضاء الحاجة من علق قلبه بمودة أهل البيت عليهم السلام، وصفت نيته بالتقرب إلى الله بحبهم وطاعتهم.

وحين نأتي إلى أمير المؤمنين (ع) نجد أنه كان يقوم بالكثير من الأعمال زمن غيبته دون أن يستحقر عملاً أو يضنّ بمساعدة، فقد عمل أمير المؤمنين (ع) على حفر الآبار لاستصلاح الأراضي للزراعة، نافعاً الناس بعلمه عن أماكن المياه الجوفية الصالحة وكيفية استخراجها، فضلاً عن قوته اللازمة لحفر تلك الآبار، كما أنه يتصدق على المحتاجين بما يستطيع من أموال ومقتنيات، فضلاً عن حكمه التي يعلم بها الناس منافعهم، ومن ذلك أنه يحث على العمل والكسب الحلال، إذ يقول سلام الله عليه: "من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه"[١]، كما أنه سلام الله عليه سنّ عددا من القوانين التي ضمنت العدالة وحفظ حقوق الناس والدفاع عنهم، ومن ذلك ما روي أنه سلام الله عليه أسقط الحدّ عن سارق الطعام في عام المجاعة إذ روي أنه قال: "لا يقطع السارق في أيام المجاعة"[٢]، ومن أبرز أعماله كذلك مقدار كبير من الأحكام التي أصدرها في زمن غيبته عن الحكم الظاهر عرفت بـ (قضاء علي (ع))، وكثيراً ما ردد ثاني خلفاء قريش: لولا علي لهلك عمر! فإن همّ الإمام هو مساعدة المحتاجين وحفظ حقوق الناس وإقامة شريعة العدل والإنصاف بينهم تحقيقا لسعادة الإنسان بطاعة الباري سبحانه وتعالى.

أما الإمام المهدي سلام الله عليه فقد تركزت أعماله – فضلاً عن تولي قبض الزكاة والخمس وتوزيعهما– على الإفتاء في مسائل مستجدة زمنه، وأخرى سابقة مختلف فيها، كما تولى عملية الحفاظ على العلاقة بين ناحية الإمامة والناس عبر شدّ عزيمة المؤمنين والثناء عليهم، وفضح المنافقين وكشف خداعهم، وقد تولى سلام الله عليه محاربة الفتن وكشف الضلالات وتذكير الناس بأيام الله سبحانه، وإعدادهم ليوم الفرج والإذن بظهور الحق على الباطل بوساطة بث الأمل بقيام دولة الحق والتهيئة لنصرتها، وكان من توقيعاته سلام الله عليه: "عن إسحاق بن يعقوب قال: سألت محمد بن عثمان العمري (رضي الله عنه) أن يوصل لي كتابا قد سألت فيه عن مسائل أشكلت عليّ فوردت في التوقيع بخط مولانا صاحب الزمان (ع): أما ما سألت عنه أرشدك الله وثبتك من أمر المنكرين لي من أهل بيتنا وبني عمنا فاعلم أنه ليس بين الله عز وجل وبين أحد قرابة، ومن أنكرني فليس مني وسبيله سبيل ابن نوح (ع)، أما سبيل عمي جعفر وولده فسبيل إخوة يوسف (ع)، وأما الفقاع فشربه حرام

---

(١) نهج البلاغة: قصار الحكم.

(٢) الوسائل للحر العاملي: باب حد السرقة: الحديث ٣.

ولا بأس بالشلماب، وأما أموالكم فلا نقبلها إلا لتطهروا فمن شاء فليصل ومن شاء فليقطع، فما آتاني الله خير مما آتاكم. وأما ظهور الفرج فإنه إلى الله تعالى ذكره وكذب الوقاتون. وأما قول من زعم أن الحسين (ع) لم يقتل فكفر وتكذيب وضلال. وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله عليهم، وأما محمد بن عثمان العمري رضي الله عنه وعن أبيه من قبل فإنه ثقتي وكتابه كتابي. وأما محمد بن علي بن مهزيار الأهوازي فسيصلح الله له قلبه ويزيل عنه شكه، وأما ما وصلتنا به فلا قبول عندنا إلا لما طاب وطهر، وثمن المغنية حرام، وأما محمد بن شاذان بن نعيم فهو رجل من شيعتنا أهل البيت، وأما أبو الخطاب محمد بن أبي زينب الأجدع فملعون وأصحابه ملعونون فلا تجالس أهل مقالتهم فإني منهم بريء وآبائي عليهم السلام منهم براء. وأما المتلبسون بأموالنا فمن استحل فيها شيئاً فأكله فإنما يأكل النيران. وأما الخمس فقد أبيح لشيعتنا وجعلوا منه في حل إلى وقت ظهور أمرنا لتطيب ولادتهم ولا تخبث. وأما ندامة قوم قد شكوا في دين الله عز وجل على ما وصلونا به فقد أقلنا من استقال ولا حاجة في صلة الشاكين. وأما ما وقع من الغيبة فإن الله عز وجل يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ (المائدة: ١٠١)، إنه لم يكن أحد من آبائي عليهم السلام إلا وقد وقعت في عنقه بيعة لطاغية زمانه، وإني أخرج حين أخرج ولا بيعة لأحد من الطواغيت في عنقي. وأما وجه الانتفاع بي في غيبتي فكالانتفاع بالشمس إذا غيبها عن الأبصار السحاب، وإني لأمان لأهل الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء، فأغلقوا باب السؤال عما لا يعنيكم، ولا تتكلفوا علم ما قد كفيتم، وأكثروا الدعاء بتعجيل الفرج فإن ذلك فرجكم. والسلام عليك يا إسحاق بن يعقوب وعلى من اتبع الهدى"[1]، ثم إنه بعد ذلك (ع) تولى ويتولى الكثير من الأعمال التي فيها قضاء لحوائج الفقراء والمساكين مادياً ومعنوياً، ولكل بقدر ما يحتاج ويستحق، وفي ذلك من الروايات السالفة والقصص الحاضرة المعاصرة الكثير مما ينقله الثقات، ويحصل له الاطمئنان.

إن هذه بعض مظاهر حضور الإمامة في الواقع الحياتي المعيش للناس، مع غياب الرئاسة وتسنم مقاليد السلطة، وغيرها الكثير مما أثبتته كتب الحديث والأخبار، مما لا مجال لحصره، ولقد علم الناس في كل زمان أن لهم إماماً مفترض الطاعة تجب موالاته، ومن مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية، ومن نعم الباري سبحانه على العالمين أنه جعل لهم أئمة يهدون إلى الحق وبه يحكمون وفرض طاعتهم وأوجب مودتهم ليعلم الناس لمن الفضل، وفيمن الهدى، وحسبنا الله على الحق كفيلاً، وكفى بالعواقب حجة ودليلاً، والحمد لله رب العالمين. ❖

---

(١) كمال الدين: ٢: ٤٨٣. وينظر: إعلام الورى: ٤٢٣، والاحتجاج: ٢: ٤٦٩، وغيرها من كتب الأخبار والحديث.

قصيدة الأشباه للشاعر المفجع البصري (ت ٣٢٧هـ)

دراسة تحليلية

ا. م. د. حسن عبد عودة الخاقاني
ا. م. د. حسين عبد حسين الوطيفي
جامعة الكوفة، كلية الآداب

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين، وبعد.

لقد عرف الأدب العربي قديماً وحديثاً الكثير من الشعراء الذين كان لهم دور كبير في إرساء صرح الرسالة المحمدية، والوقوف إلى جانب أهل البيت (ع) لتبيان حقهم والدفاع عنهم ضد مناوئيهم، فكان نصيبهم خمول الذكر والنسيان في طي الزمان، وإهمال شعرهم انسجاماً مع توجهات السلطة الحاكمة التي ترى ضرورة خنق الأدب المعارض وتزييفه.

ويعد المفجع البصري أحد هؤلاء الشعراء الذين عمدت أقلام بعض الكتاب إلى تشويه أشعارهم ومحاولة محو ذكرهم، بسبب من أن التعصب للبيت العباسي كان قد بلغ ذروته في القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجريين، وأن ملاحقة العلويين ومن تشيّع لهم وناصرهم كان من الأمور التي تشغل بال الخليفة وتقض مضجعه.

الشاعر:

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله الكاتب النحوي البصري، شاعر مفلق ولغوي بارع، ولد في مدينة البصرة، فكان شاعرها وأديبها، قضى فيها حياته حتى وفاته[1].

عُرِفَ عنه حب أهل البيت (ع) ومديحهم ورثائهم، وبالغ في رثائهم حتى لقب (بالمفجّع)، وهو لقب أطلقه عليه خصومه استهزاء به، فراح الشاعر يرد عليهم بتأكيد ما قالوا فيه، وإثبات صحة تفجعه على أهل البيت (ع) دون سواهم، وقد أشار النجاشي إلى ذلك بقوله: (وله شعر كثير في أهل البيت يذكر فيه أسماء الأئمة، ويتفجّع على قتلهم، حتى سمي المفجّع، وقد قال في بعض شعره:

إن يكن قيل لي المفجّع نبزا ... فلعمري أنا المفجّع همّا[2]

---

(١) ظ: الفهرست: ١٢٣، معجم الأدباء: ١٧/ ١٩٠ ـ ٢٠٥، المحمدون من الشعراء: ٣٠ ـ ٣٩، معجم الشعراء: ٤٩٦، العصر العباسي الثاني: ٣٩٦ ـ ٣٩٩.

(٢) رجال النجاشي: ٢٨٩، وظ: الغدير: ٣/ ٤٩٣.

تباينت المصادر في سنة وفاته لكن الراجح أنه قد توفي سنة ٣٢٧هـ بسبب من خصومة وقعت بينه وبين أحد قضاة البصرة.

قصيدة الأشباه:

لعل أشهر ما قاله الشاعر في مدح أهل البيت (ع) هي قصيدة الأشباه أو ذات الأشباه وفيها يمدح أمير المؤمنين الإمام علي (ع) ويعدد فضائله ومناقبه، ويتطرق إلى الأحاديث الشريفة بحقه، مظهراً أوجه الشبه بين الإمام علي (ع) وسائر الأنبياء.

تقع القصيدة في (١٦٠ بيتاً)، وقد سميت بهذا الاسم استناداً إلى حديث مشهور عن النبي (ص) قاله في محفل من أصحابه: من أراد أن ينظر إلى آدم في علمه، وإلى نوح في فهمه، وإلى إبراهيم في خلقه، وإلى موسى في مناجاته، وإلى عيسى في سننه، وإلى محمد في هديه وحلمه، فلينظر إلى هذا الرجل المقبل، فتطاول الناس فإذا هو علي بن أبي طالب (ع)[١]، من هنا نظم المفجّع قصيدته.

عرض تحليلي موجز للخصائص الموضوعية:

بنيت القصيدة على مبدأ الشبه أو التشابه، وهو يعني أنها معنية بهذا الأمر الذي يبدأ من قوله:

أشْبَهَ الأنبياء كَهْلا وَزَوْلا ... وفَطِيما وراضِعا وغَذيّا

كان في عِلْمِهِ كآدمَ إذ عُلّم شَرْحَ الأسماء والمكْنيّا[٢]

فهو يستقصي هذه التشابهات بدءاً من النبي آدم (ع) في صفة العلم استناداً إلى قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[٣]، فهو يعلم الأسماء ما ظهر منها وما بطن، وهكذا كان الإمام علي (ع) لما علمه رسول الله (ص) ففاق غيره.

ثم يعقد الشاعر الشبه مع النبي نوح (ع) في صفة الخلاص والنجاة من الغرق، بحمل المخلوقات في الفلك المشحون، ذلك الفلك الذي غدا رمزاً للنجاة من الضلالة إلى الهدى، فيقول:

وكنوحٍ نجّى من الهُلكِ من ... سيّر في الفُلكِ إذ علا الجوديّا[٤]

---

(١) روي هذا الحديث في مصادر كثير مع اختلاف في بعض الألفاظ: البداية والنهاية: ٣٥٦/٧، معجم الأدباء: ٢٠/١٧، كفاية الطالب: ١٤٥.

(٢) الديوان: ١٢١، الزول: الغلام الظريف، الشجاع، الجواد.

(٣) البقرة: ٣١.

(٤) الديوان: ١٢١، الجودي: جبل بآمد وقيل بالجزيرة قرب الموصل، والمراد به الموضع الذي استوت عليه سفينة نوح (ع).

وكذلك كان الإمام فهو رأس أهل البيت الذين جعلهم النبي (ص) كسفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق[١].

ويثير البيت السادس مشكلة من مشكلات انسجام النص، فيقول الشاعر:

وعليّ لمّا دعاه أخُوهُ ... سبقَ الحاضرينَ والبدويّا[٢]

إذ يبدو هذا البيت مفاجئاً في محتواه، ولا يكاد يستقيم حضوره في النص إلا بالانضمام إلى الأبيات الثلاثة التي أسقطها المحقق من القصيدة، بوصفها من المنحول الذي قد دخلها[٣]: إذ نجد أن هناك اختلالاً في النسق الفكري بادعاء كفر أبي طالب والد الإمام، ولا نكاد نجد حلاً مقبولاً لهذا الإشكال إلا بإلحاق هذا البيت بالأبيات الثلاثة، أي يجري عليه حكم الإسقاط حفاظاً على مبدأ الانسجام الذي ذكرناه آنفاً.

ويستغرق الشبه بين الإمام وجده النبي إسماعيل (ع) تسعة أبيات بدءاً من قوله:

وله من أبيه ذي الآيدي إسما ... عيل شِبْهٌ ما كان عني خفيّا
إنه عاونَ الخليلَ على الكعـ ... ـبةِ إذ شاد رُكْنها المبنيّا
ولقد عاونَ الوصيُّ حبيبَ ... الله إذ يغْسِلانِ منها الصُفيّا
رامَ حملَ النّبيَّ كي يقلعَ ... الأصْنامَ من سَطْحها المُثُولَ الجثيّا
فحناهُ ثِقْلُ النّبوَّة حتى ... كادَ ينآدُ تحتهُ مثْنيّا
فارتقى مَنْكِبَ النّبيِّ عليٌّ ... صِنْوُهُ ما أجل ذاك الرّقيّا
فأماط الأوثانَ عن طاية الكعـ ... ـبةِ ينفي الأرجاسَ عنها نفيّا
ولو أنّ الوصيّ حاولَ مسّ النـ ... ـجْمَ بالكفِ لم يَجدْهُ قَصيّا
أفَهَلْ تعرفون غيرَ عليٍّ ... وابنهِ استرْحَلَ النّبيَّ مطيّا[٤]

---

(١) يقول النبي (ص): (مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجا، ومن تعلق بها فاز، ومن تخلف عنها غرق): ينابيع المودة: ٢٧.

(٢) الديوان: ١٢٢.

(٣) وهذه الأبيات هي:

وجفا في رضا الإله أباه ... واجتواه وعدّه أجنبيّا
كاعتزال الخليل آزر في ا ... لله وهجرانه أباه مليّا
ودعا قومه فآمن لوط ... أقرب الناس منه رحما وريّا

ظ: الديوان: ١٢١.

ومن الواضح أن هذه الأبيات قد زيدت على القصيدة؛ لأنها تتنافى ومذهب الشاعر وعقيدته. ويبدو أن الهدف منها التعريض بأبي طالب وتكفيره، ومن ثم الطعن بشخصية الإمام علي (ع). على أن هناك مصادر كثيرة قد أثبتت إيمان أبي طالب وردت افتراءات المدعين. ظ: أبو طالب الرجل المفترى عليه، أبو طالب سيد المؤمنين، شعر أبي طالب ـ دراسة أدبية: ١٦ ـ ٣٠.

(٤) الديوان: ١٢٢ ـ ١٢٣، الصّفي: الحجر الصلد الضخم، ينآد: يلتوي، طاية الكعبة: سطحها أو ظاهرها.

فإسماعيل أعان أباه إبراهيم (ع) ببناء الكعبة، والإمام علي (ع) قد أعان الرسول محمد (ص) بتطهير الكعبة من رجس الأوثان، وهنا ينفتح النص لذكر حوادث يوردها الشاعر بوصفها فضائل شريفة للإمام لم يشركه أحد فيها، فهو إن عجز عن حمل ثقل النبوة على منكبيه القويين فذلك لعظم مقام النبوة الشريفة، وهو إن ارتقى ظهر النبي الكريم، فذلك تشريف، بل شرف عظيم قرنه الشاعر بمس النجوم، وهذه إشارة فنية ناجحة لتعظيم الحادثة من طرفيها: النبي والإمام معاً، وهو مأخوذ من قول الإمام في ذلك المقام: (إنه يخيل إليّ أني لو شئت لنلت أفق السماء)[1].

ثم يوجه الشاعر خطابه إلى مستمعيه المفترضين بصيغة الجمع: أفهل تعرفون؟ لكنه يضيف إليه في فضيلة ارتقاء منكب النبي (ص) ابنه، أو ابنيه الحسن والحسين (ع)، وهما طفلان صغيران كان النبي (ص) يحبهما حباً شديداً ويأنس بهما فيرقيهما على ظهره الشريف، وهي من الحوادث التي أفاض في ذكرها المؤرخون والشعراء.

ويقف الشاعر عند شبه الإمام (ع) بالنبي يعقوب (ع) من ناحية الأسباط، قائلاً:

ولـــه مـــن نعـــوتِ يعقـــوبَ نعـــتٌ ... لم أكـــن فيـــه ذا شَـــكُوكٍ غبيّـــا
كـــان أســـباطُهُ كأســـباطِ يعقـــو ... بَ وإنْ كـــان نجْـــرُهُمْ نبويّـــا
أشـــبَهوهُم في العلـــمِ والبـــأسِ والعُـــدّ ... ةِ فـــافْهَم إنْ كُنْـــتَ فهْمـــا ذكيّـــا
كُلّهـــم فاضـــلٌ وحـــازَ حـــسينٌ ... وأخـــوهُ بالـــسبْقِ فـــضلاً ســـنيّا[2]

وهو ما يعطي النص صفة التماسك موضوعياً؛ إذ انتقل الشاعر إلى قصة الأسباط هذه من القطعة السابقة التي اختصت بارتقاء الإمام وابنه - وهو سبط - ظهر النبي الشريف، وهنا يمتد بهذه القطعة نحو استقصاء صفة هؤلاء الأسباط ذوي الأصل النبوي الطاهر، حتى يأتي على ذكر الإمامين الحسن والحسين (ع)، بتسمية (الحسين) وذكر أخيه بالصفة.

ويعزز الشاعر صفة التماسك في نصه أيضاً عندما ينتقل إلى قضية الذبح والفداء المتعلقة بالأبناء أيضاً؛ قائلاً:

ولـــه مـــن صـــفات إســـحاقَ حـــالٌ ... صـــارَ فَـــضْلهَا لإســـحاقَ سِـــيّا
صـــبْرُهُ إذْ يُتَـــلُّ للـــذبْحِ حتـــى ... ظَـــلّ بـــالكبشِ عنـــدها مفْـــديّا
وكـــذا استـــسلم الوصـــيُّ لأســـيا ... فِ قـــريشٍ إذ بيّتُـــوه عَـــشيّا
فـــوقى ليلـــةَ الفـــراشِ أخـــاهُ ... بـــأبي ذاك واقيـــا ووقِيّـــا
كـــان مثـــلَ الـــذّبيحِ في الـــصّبْرِ والتّـــسْ ... ـــليمِ سَـــمْحا بـــالنفسِ ثُـــمّ سَـــخيّا[3]

---

(١) كفاية الطالب: ١٢٨.

(٢) الديوان: ١٢٣ - ١٢٤، السبط: ولد الولد أو ولد الابن أو الابنة، النّجر: الأصل والحسب.

(٣) م. ن: ١٢٤ - ١٢٥.

فالمعروف أن النبي إبراهيم (ع) امتحن بالرؤيا التي دعته إلى ذبح ابنه إسماعيل فداء، ولكن الله قد افتداه بذبح عظيم حين صدّق إبراهيم الرؤيا، ولكن الشاعر ـ وهما منه ـ أو انطلاقاً من رواية ما، يحيل القضية إلى إسحاق (ع) وليس إسماعيل كما هو المشهور[١]، لينطلق من ذلك إلى فداء الإمام النّبيّ في الليلة التي بيّتت فيها قريش أمر قتله، فنام الإمام في فراشه وقاية له بنفسه من عدوه[٢]، فهو في هذا مثل الذبيح صبراً وتسليماً، وفداء بالنفس للنبي (ص).

ويستقصي الشاعر أبناء يعقوب وأشهرهم يوسف (ع) الذي ذكره الشاعر باسم (ابن راحيل) زوج يعقوب، قائلاً:

وابنُ راحيلَ يوسفَ وأخوهُ ... فضلاً القومَ ناشِئا وفَتيّا
ومقالُ النّبيِّ في ابنيه يحْكي ... في ابن راحيلَ قولهُ المرويّا
إنّ ذاك الكريمَ وابنيهِ سادُوا ... كُلَّ من حلّ في الجَنانِ نَجيّا[٣]

مفيداً بذلك من قول الرسول (ص) في الحسن والحسين بوصفهما سيدي شباب أهل الجنة، وكذا أبوهما قطعاً[٤].

ويعرج الشاعر على ذكر شبه الإمام بالنبي داود (ع)، ثم سليمان (ع)، قائلاً:

كان داودُ سيْفَ طالوتَ حتى ... هزّمَ الخيلَ واستباحَ العَديّا
وعليٌّ سيفُ النّبيِّ بسَلْعٍ ... يومَ أهوى بعمْرُو المَشْرَفيّا
فتولّى الأحزابُ عنه وخلّوا ... كبْشَهم ساقطا يَخالُ كَدِيّا
أنبأ الوحيُ أنّ داودَ قد كا ... ن بكفّيهِ صانِعا هَالِكيّا
وعليٌّ من كسبِ كفّيه قد أعْـ ... ـتقَ ألفا بذاك كانَ حَريّا
وله الحكمُ من سليمانَ إذ كا ... نَ عليٌّ مُوفّقا ألمَعيّا
كسُليمانَ في الغُنيماتِ والحَرْ ... ثِ بفهمٍ أمضى به المقْضيّا[٥]

---

(١) المشهور بين المفسرين أن قصة الذبح تتعلق بإسماعيل (ع) وليس إسحاق (ع)، والدليل على ذلك أن قوله تعالى: (وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ) (الصافات: ١١٢)، إنما جاءت بعد حادثة السعي والرؤيا للذبح. ظ: الميزان: ٢١٥/٧.

(٢) وفيه نزل قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ) (البقرة: ٢٠٧)، وظ: البداية والنهاية: ١٧٦/٣.

(٣) الديوان: ١٢٥.

(٤) روي عن النبي (ص) قوله: الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، وكذلك قوله: يا علي أنت سيد شباب أهل الجنة. ظ: كفاية الطالب: ١٩٨.

(٥) الديوان: ١٢٥ ـ ١٢٦، السلع: موضع قرب المدينة، وقيل جبل بالمدينة، دارت قربه معركة الخندق، الهالكي: الدّرع.

فمن داود يأخذ صفة القتال بين يدي النبي محمد (ص) كما فعل داود حين قتل جالوت بين يدي طالوت، وعلي هو الذي فرق الأحزاب الذين أحاطوا بالمدينة بقتله فارسهم عمرو بن عبدود العامري، فضلاً عن أن داود كان يصنع الدروع بيديه، وقد كان الإمام يكسب قوته بيديه أيضاً.

أما سليمان (ع) فقد أخذ الشاعر منه صفة الإصابة في الحكم، ليصل بها إلى شهرة الإمام بإصابة القضاء الذي وفقه الله إليه بدعاء النبي (ص)، ففاق فيه غيره من الصحابة.

ولعل أكثر المواطن التي وقف عندها الشاعر في موضوع الشبه إنما كانت بين الإمام علي والنبي موسى وأخيه هارون (عليهم السلام)؛ وذلك لغنى حياة هذا النبي الكريم الذي كلمه الله، وقد استغرقت قصته من القرآن الكريم ما فاق قصص الأنبياء الآخرين[1]، وتكررت تفصيلاتها في سور مختلفة، ثم أنه قريب العهد من نبوة محمد (ص)، وعلمه ما زال متداولاً لدى اليهود الذين يجدون اسم النبي الأمي مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل.

كان فيه من الكليمِ خِلالٌ ... لم يكنْ عنكَ عِلْمُها مَطْويّا
كلّمَ اللهُ ليلةَ الطورِ موسى ... واصطفاهُ على الأنامِ نَجيّا
وأبان النّبيُّ في ليلةِ الطا ... ئفِ أنّ الإله ناجى عليّا[2]

تبدأ صفة التشابه الأولى بتكليم الله موسى (ع)، وفي التكليم معنى النجوى، وهو المعنى الذي انصرف إليه جهد الشاعر؛ ذلك أن الله لم يكلم علياً، ولكن النبي انتجاه في ليلة الطائف ليبشره بما أخبر الله به من المقام الرفيع للإمام، والقرب من الله في الدنيا والآخرة، وبهذا وجد الشاعر وجه الشبه بين تكليم الله موسى مباشرة، وتكليم النبي محمد (ص) بشأن علي بطريق النجوى، أي بالطريق غير المباشر.

أما الصفة الأخرى فهي تزويج النبي شعيب (ع) إحدى ابنتيه موسى بعد أن استأجره بضع سنين، فأتم أبعد الأجلين وهو عشر.

وكما آجرَ الكليمَ شُعيْبا ... نفسهُ فاصْطفى فتىً عبقريّا
أجْرَهُ أنْ يزُفّ إنْ تمّمَ الميـ ... ـقات إحدى ابنتيه منهُ هديّا
فوفى بالأتم من أجليهِ ... ورآه بها مليّا وفيّا
وكذاك الإمامُ كان مُذ الهجـ ... ـرةِ مُستاجرا أخاهُ عليّا
فوفى في سنينِ عشرٍ بما وا ... عدَ عفوا ولمْ يَجدْهُ عصيّا
فحباهُ في خِيرةِ النّسـ ... ـوانِ عرسا وجُنّة وصفيّا[3]

(١) ظ: النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين: ١٢٦ - ٣١١.
(٢) الديوان: ١٢٦ - ١٢٧.
(٣) م. ن: ١٢٧، مليّاً: طويلاً أو بعيداً.

أما الإمام فقد حظي بتزويجه من فاطمة بنت الرسول (ص) بعد أن كان مستأجراً للنبي بصفة المؤاخاة التي عقدها النبي له منذ الهجرة، ويبدو أن في قول الشاعر: (وكذاك الإمام كان مذ الهجرة مستأجراً أخاه علياً) إشكالاً، ولعل الصواب أن يقول: (وكذاك النبي...) فيكون مستأجِراً (بكسر الجيم) اسم فاعل مفعوله (أخاه علياً) ليستقيم المعنى من دون لبس.

ويثير قول الشاعر: (فوفى في سنين عشر...) إشكالاً تاريخياً؛ إذ جعل الشاعر تزويج الإمام بعد أن وفى بعشر سنين منذ الهجرة، في حين كان تزويج الإمام أول الهجرة لا يجاوز سنتها الثانية.

ينتقل الشاعر بعد ذلك إلى ميدان جهاد الإمام ـ ولاسيما من بعد الخلافة ـ بدءاً بالخوارج، مخالفاً بذلك التسلسل التاريخي، مشيراً فيها إلى فعل هؤلاء الذين مرقوا من الدين، مصداقاً لما ورد فيهم من حديث النبي[1]، وقتلهم المسلمين الأبرياء، ثم يشير إلى واقعة النهر فيذكر بعض أعلامهم الذين كان قتلهم مصداقاً لما أخبر به النبي علياً وأصحابه من قبل بما سيكون، ومن هؤلاء عبد الله بن وهب الراسبي، وذو الثدية الذي كان قتله آية صدق الإمام، جعلت الأصحاب يبحثون عنه بين القتلى، فلم يجدوه حتى استخرجه الإمام بنفسه، فكبر وهو يقول: والله ما كَذَبت ولا كُذِّبت[2]، وشهد له الصحابة بذلك.

ولهُ منهُ أنهُ قتلَ المُـ ـرّاقَ إذ خالفوا الطّريقَ السويّا
وكذاكَ الإمامُ بالنّهْرِ أفنى من عصاهُ وطاوعَ الرّاسبيّا
فأبادَ السُّراةَ طعناً وضرباً والشّقِي الذي استناط الثديّا
ولهُ منهُ عَفْوهُ عن أُناسٍ عكفوا يعبدونَ عِجْلاً حَليّا
حَرَقَ العِجْلَ ثمّ منّ عليهم إذ أنابوا وامْهَلَ السّامريّا
وعليٌّ فقد عفا عن أناسٍ شَرَعوا نحوهُ القنا الزّاعبيّا
يومَ ساروا إليهِ بالجَملِ الأو رقِ قد جلّلَ الضُبى والقنيّا
ففناهُم بسيفهِ ثم نالوا صفْحهُ بعدْ عقْرِهِ الأرْحَبيّا
وعفا عَنْهم وقالَ نُصِرْنا ورعى الآخرونَ مَرْعىً وَبيّا[3]

---

(١) روى سعيد الخدري أن رسول الله (ص) أمرنا بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، فقلنا يا رسول الله أمرتنا بقتال هؤلاء، فمع من نقاتل؟ قال: مع علي بن أبي طالب خاصة. ظ: أسد الغابة: ٣٣/٤.

(٢) ظ: كفاية الطالب: ٧٤.

(٣) الديوان: ١٢٨ ـ ١٣٠، القنا الزاعبي: نوع من الرماح تنسب إلى رجل من الخزرج يقال له زاعب كان يعمل الأسنة، الأورق من الإبل: أطيبها لحماً وأقلها شدة على العمل والسير، الأرحبي: منسوب إلى أرحب وهو فحل إبل مشهور.

ثم يناظر الشاعر من بين أحداث واقعة الجمل بين الجمل الأورق الذي استمات الناس من حوله، وبين العجل الذي صنعه السامري لأصحاب موسى في أثناء غيابه فعبدوه، وكان له خوار كما كان للجمل الأورق ذلك الخوار، وكأن تاريخ الناكثين يكرر نفسه.

لكن الشاعر يلتفت إلى نقطة أخرى في هذا السياق، هي صفة العفو الذي أصدره الإمام بحق هؤلاء الناكثين الذين شهروا سيف القتال بوجهه، مكتفياً بنصره بعد إسقاط ذلك الجمل اللعين، وتفرق الناس من حوله، وكان يمكن أن يوقع بهؤلاء حتى يقضي عليهم قضاء مبرما.

ويقف الشاعر عند إحدى مناقب علي ومكرماته تلك التي تشبه في ناحية منها ما جرى لموسى من قبل، وهي معجزة أنباط الماء من جوف الصحراء القاحلة، فالآية الكريمة التي تشير بوضوح إلى هذه المحطة من سيرة موسى مع قومه هي قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾[1]، أما الحادثة مع علي فقد جرت في أثناء مسيره إلى صفين وسط الصحراء من جهة سواد الكوفة؛ إذ عطش الناس فأمرهم الإمام بقلب صخرة أفاضت عليهم بالماء حتى اكتفوا، وحين بعد بهم المسير أعاد علي بعضهم إلى المكان فلم يجدوا له أثراً، غير أنهم قد سألوا أهل دير قريب منه،وهؤلاء قد استدلوا على وصاية علي (ع)؛ إذ لا يقلب الصخرة عندهم إلا نبي أو وصي نبي، حتى نزل الراهب من ديره ليؤمن بالإسلام ديناً.

ولـه منـه إذ عـلا الحَجَـرَ الصَلْـ ـدَ بـضربٍ فـانبط المـاءَ ريّـا
فجـرى بـالعيونِ عـشرا وثنتيـ ـنِ وأنّـى لكُـلّ عَـيْنٍ أتيّـا
وأخـو المـصطفى الـذي قلـبَ الصّخـ ـرةَ عـن مَـشْربٍ رَاوهُ رَوِيّـا
بعـد أنْ رامَ قَلْبهـا الجـيشُ جَمْعـا فـرأوْهُ صَـعْبا عـليهم أبِيّـا
يـوْمَ نـادى يـا راهـبَ القـاعِ بالـشا هـقِ هـلْ مَـشْربٌ فقـالَ بَـدِيّا
مـن لنـا بالمياهِ مـن بطـنِ قـاعٍ قرَقـوْسٍ مَـرْتٍ تجَـاورَ فِيّـا
لـيس مـن دون فرسـخينِ شـرابٌ فـاتبعوا الـنّصَ خيْفَقـا خيْطَفِيّـا
فـاجتلى الـصخرةَ الإمـامُ فكانـت كُـرَةَ الـصّولجانِ تُدْحـى دَحِيّـا
فـسقى الجـيشَ ثـمّ عـادتْ كـأنْ لمْ تـرَ عَـيْنٌ بِقُرْبِـها إنـسيّا
فأتـاه مـن قوْسِـهِ القـسُ يحكـي هاويـا صَـقَرَ قـانِصٍ مَـضْرَحِيّا
قـائلاً للّـتي تَبيّنْـتُ فـي الإنْـ ـجيلِ إذْ كُنْـتُ راهِبـا ذِمّيّـا

---

(١) الأعراف: ١٦٠.

إنهـا الـصّخْرةَ الـتي لا تَـرى العَيـ ـنُ مُطيقـا لِقلْبِـها آدَميّـا
غَيْـرَ مـن كـانَ في الأنـامِ نَبيّـا أو وَصِـيّا في العِلْـمِ يقفُـو النّبيّـا
وأراك الإمـامَ فابْـسِطْ لـيَ الكَـ ـفّ أكُـنْ مُـسْلِما حَنيفـا تقيّـا
فـهداهُ بمنّـةِ اللهِ للحَـقّ وقـد كـانَ هادِيـا مَهْـديّا
وحـديثُ الفـراتِ والبحـرِ قـد حـا زَ لـهُ الـشّبه خالِـصا وأصِـيّا
إذ أتتـهُ حِيتانُـهُ شُـرّعا تـدْ عـو إلـهَ الـوَرَى العلـيمَ العَليّـا[1]

ويبدو أن هذه القصة قد حظيت باهتمام كبير، فهي معجزة واضحة شهدها أناس كثر، بل جيش كبير، وقادت إلى ترك الراهب صومعته لما وجده عنده مكتوباً، وكان الفعل مصداقاً لذلك المكتوب، وما دام الأمر متعلقاً بمعجزة موضوعها الماء، فإن الشاعر يسير به تداعي الأفكار وحسن الربط بينهما إلى معجزة أخرى تلتقي مع ما كان لموسى (ع) أيضاً وهي جنوح حيتان النهر والبحر؛ إذ تأتي إليه شرعاً.

ثم يعرج الشاعر على الشبه بين هارون أخي موسى والإمام علي من وجوه عدة أولها: السكنى في المسجد وفيه مكرمة إبقاء باب علي مشرعاً حين أمر النبي بسد أبواب غيره، فضلاً عن النداء السماوي يوم بدر[2].

ولـهُ مـن أخيـهِ هـارونَ نعْـتٌ حـازَ فَخْـرا بـفـضْلِهِ شَـرْمَخيّا
حـازَ شِـبْها لـه بِـسُكْناهُ في المَـسْـ ـجدِ حتْمـا مِـنْ رَبّـه مَقْـضيّا
بابُـهُ في شُـرُوعِ بـابِ رَسُـولِ اللهِ إذْ كـانَ مُسْتخِـصّا حَـضِيّا
حِـيْنَ سُـدّتْ أبـوابُهُم وهـو يَغْـشَى بابَـهُ شارِعَـا مُنِيفـا مَهِيّـا
مـا حبـا اللهُ أهـلَ بَـدْرٍ وأحْـدٍ مِـثلَ هـذا ولا حَبَـا عَبْقرِيّـا[3]

أما الثاني: فخلافة هارون موسى، وكذلك خلافة علي النبي، وقد صنع القوم بعلي ما صنعوه بهارون؛ إذ بيتوا أمر قتله، ولكن الله أنجاه وأخزاهم.

إنّ هـارونَ كـان يخلِـفُ مُوسـى وكـذا اسْـتَخْلَفَ الـنّبيُّ الوَصِـيّا

---

(١) الديوان: ١٣٠ ـ ١٣٢، البدي: العجب، وقد تكون الأرض المفتقرة إلى الماء، قرقوس: الأرض الجرداء المقفرة، المرت: الأرض القاحلة، النص: زيادة المسير، الخيفق والخيطف: السريع، المضرحي: الصقر أو النسر. آصي: من الأصاة، وتعني الرزانة.

(٢) من الفضائل التي خصّ بها الله الإمام علي (ع) يوم بدر، هو النداء الذي سمعه كل من في العسكر، قائلاً:
لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتـى إلا علـي
ظ: البداية والنهاية: ٣١٧/٧.

(٣) الديوان: ١٣٣ ـ ١٣٤، الشرمخي: القوي والطويل.

وكمـــا اسْتـــضْعَفَ القبائـــلُ هـــارُو ... نَ ورامُـــوا لـــهُ الحِمَـــامَ الوَحِـــيّا
نَـــصَبُوا للوَصِـــيِّ كـــي يَقْتُلُـــوهُ ... ولقـــدْ كـــانَ ذا مَحَـــالٍ قَـــوِيّا
لم يَعِـــبْ مـــا أتَـــى أولئِـــكَ هـــارُو ... نَ ولا هَـــؤلاءِ عـــابُوا الوَصِـــيّا
إنّمـــا العَيْـــبُ للـــذي تَـــرَكَ الحـــ ... ـــقّ عِنَـــادا وكـــانَ عنْـــهُ بَطِيّـــا[1]

والوجه الثالث هو أخوة موسى لهارون وأخوة النبي لعلي، فهي أخوة صادقة لا ادعاء فيها، ومن هذا ينطلق الشاعر إلى أسماء أولاد الإمام: شُبَّر وشُبيْر ومُشْبَر وهي أسماء أولاد هارون، غير أن النبي قد نقلها إلى اللسان العربي فكانت: حسناً، وحسيناً، ومحسناً الذي أسقط جنينا فاستشهد.

وأخُـــو المُـــصْطفى كمـــا كـــانَ هـــارُونَ ... أخـــــا لابْـــنِ أُمّـــهِ لا دَعِيّـــا
وكـــــذاكَ ولْـــدُهُ لأوْلادِ هـــــارُو ... نَ شَـــقيقِ الكَلِـــيمِ كـــانوا سَـــمِيّا
لا يـــحِلُّ اســـمِ شـــبّرٍ وشُـــبَيْرٍ ... وأخِـــيْهِم مُـــشْبَرٍ ظَهْـــرِيّا[2]

ويأخذ الشاعر من النبي شعيب (ع) صفة الخطابة، فقد كان علي خطيب فهر بل العرب جميعاً في ماضيها وحاضرها، قائلاً:

وَشُـــعيْبٌ كـــانَ الخَطيـــبَ إذا مـــا ... حَـــضَرَ القـــوْمُ مَحْـــفَلا أو نَـــدِيّا
وعلـــيٌّ خَطيْـــبُ فِهْـــرٍ إذا المَنْـــ ... ـــطِقُ أعْيَـــى المُفَـــوّه اللـــوذَعِيّا
مِـــصْقَعٌ ذُو كَياسَـــةٍ يَكْـــشِفُ الهَـــمّ ... إذا الأمْـــرُ جـــاءَهُم صَـــيْلَمِيّا
يرْشِـــفونَ الثّمَـــادَ مـــن نُطَـــفِ العِلْـــ ... ـــمِ ويَـــمْتاح بَحْـــرَهُ اللّجِّـــيّا
يُجْتَنَـــى العِلْـــمُ منـــهُ في كـــلِّ حِـــينٍ ... دانِيـــا مُجْـــتَناهُ غَـــضّا جَنِيّـــا
بَـــدّ فَـــضْلَ المُهـــاجرينَ جَـــميعا ... مِثلمـــا بَـــدّتِ البِحَـــارُ الـــسَّرِيّا[3]

وصفة الخطابة هنا لا تقتصر على القدرة على تدبيج الكلام وحده - كما هو شأن بعض الخطباء المشهورين - ولكن تنتظم في سلك العلم الذي حُبي به الإمام ففاق غيره من مهاجرين وأنصار وغلبهم في هذا المضمار[4]، وهو ما يركز عليه الشاعر، فيشبه فضل الإمام على غيره بفضل البحار على النهر الصغير.

---

(١) م. ن: ١٣٤ - ١٣٥.

(٢) م. ن: ١٣٤ - ١٣٥.

(٣) م. ن: ١٣٥ - ١٣٧، المفوّه: المتكلم، اللوذعي: الحديد الفؤاد، واللسان الظريف، المِصقع: البليغ، الصّيلم: الداهية، أو الأمر العظيم، الثماد: الثمد هو الماء القليل، أو الحفر يكون فيها الماء قليلاً.

(٤) وصف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) بأنه إمام الفصحاء وسيد البلغاء، وفي كلامه قيل: إنه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق.

أما التقاء الإمام بيوشع (ع) فيأتي من باب السبق إلى الإيمان والصلاة خلف النبي (ص): إذ لم يصلّ أحد قبله أو معه، قائلاً:

ولـهُ مـن صِـفاتِ يُـوْشَعَ عنـدي ... رُتَـبٌ لـم أكُـنْ لـهُنّ نَـسِيّا
كـان هـذا لمـا دعـا النـاسَ مُوسـى ... سَـابِقا قادِحـا زِنَـادا وَرِيّـا
وعـلـيٌّ قبـل البَرِيّـةِ صَـلّى ... خاضِـعا حَيْـثُ لا يُعَـايَنُ رَيّـا
كـان سِـبْقا مَـعَ الـنّبيّ يـصلّي ... ثانِـيَ اثـنينِ لـيس يخْـشى ثوِيّـا[1]

وهي صلاة تضم إلى جانب السبق الزمني عنصر التحدي والتعرض للهلاك؛ ولذلك يشير الشاعر إلى هذه المخاطرة المقترنة بفضل السبق والفوز به من دون الآخرين.

وأما فضيلة ردّ الشمس للإمام بعد غروبها فمستخلصة من الشبه لما جرى لذي النون (يونس) صاحب الحوت الذي شغل بقتال عدوه حتى فاته وقت الصلاة، فتفضل عليه الله برد الشمس إكراماً.

وابْـنُ نـونٍ لمّـا تـشاغَـلَ بالقتـ ... ـلِ لمـن كـان جاحِـدا ثِنْويّـا
رُدّتِ الـشّمسُ بعْـدَما حازَهـا الغَـرْ ... بُ فـألفى وقْـتَ الـصّلاة خَـليّا
وعلـيٌّ إذ نـال رأسَ رَسُـولِ اللهِ ... مِـنْ حِجْـرِهِ وِسـادا طيّـا
إذ يَخَـالُ الـنّبيَّ لمّـا أتـاهُ الـ ... ـوحْيُ مُغْمـىً عـليه مَغْـشيّا
فتراخَـتْ عنـهُ الـصّلاةُ ولم يُـو ... قِـضْهُ إذ كـانَ سُـخْطُهُ مَخْـشيّا
فـرآهُ لِفوْتِهـا قَـلِقَ القلْـ ... ـبِ كعـانٍ في الأسْـرِ يُزْجـى سَـبيّا
فدعـا ربّـهُ فـأنْجَزَهُ الميْـ ... ـعادَ مَـنْ كـانَ وعْـدُهُ مأتيّـا
قـال هـذا أخِـي بِحاجَـةِ بـيّ ... لـم يَـزَلْ شَـطْرُ يوْمِـهِ معنيّـا
فـارْدُدِ الـشّمْسَ كـي يُـصلّي في الوقـ ... ـتِ فعـادَ العَـشِيّ بعـد مُـضيّا[2]

وهكذا كان الأمر مع علي حين أغفى النبي الكريم في حجره كأنه مغشي عليه: إذ كان يتلقى الوحي حتى فات وقت صلاة العصر، فدعا النبي (ص) ربه فرد الشمس إكراماً لعلي، ولكن الشاعر يقتصر على هذه المرّة في رد الشمس ولم يشر إلى المرّة الأخرى التي وقعت في أثناء خلافته بمدينة بابل.

ويقرن الشاعر بين الإمام وياسين صاحب عيسى في صفة حفظ العهد والأمانة للنبي وهو النهج الذي التزمه الإمام في سائر حياته مع النبي وبعد وفاته.

---

(١) م. ن: ١٣٧ ـ ١٣٨، الوري: المتقد، الثوي: الموت والهلاك.

(٢) م. ن: ١٣٨ ـ ١٣٩، تراخت: توارت.

وَهْـــوَ فِي ســـبقهِ كـــصاحبِ ياسيـــ ... ـــنَ لعيـــسى وقـــد حَـــداهُ حَـــدِيّا
لـــم يُـــضيّعْ عهـــد الـــنّبيّ ولكـــنْ ... كـــانَ بَـــتْلا بِذِمّتيْـــهِ حَـــمِيّا
وكـــما قـــامَ بالأمانـــةِ ذو الكِفْـــ ... ـــلِ وَجَدْنـــا إمامَـــنا الهاشِـــميّا
لـــم يُـــضيّعْ عهـــد الـــنّبيّ ولكـــنْ ... كـــانَ بَتْـــلا بِذمّتيْـــهِ حميّـــا[1]

وهنا يأتي ذكر النبي ذي الكفل في السياق نفسه، مع ملاحظة تكرار البيت (لم يضيّعْ عهد النبيّ...) ولعله من أخطاء الطباعة.

ويقتصر الشاعر على صفتين من صفات زكريا (ع) أشبهه الإمام فيهما وهما: كفالة مريم وقد حبا الله الإمام بالزهراء؛ إذ ارتضاه لها وارتضاها له، أما الأخرى فرؤيته رزق الله عندها كلما دخل عليها المحراب، فقال: من أين لك هذا؟ قالت: هو من عند الله، وفي قصة الرزق عند الزهراء ما حباها الله به من طعام الجنة بعد جدب ومسغبة.

ولـــه خلّتـــانِ مـــن زَكَـــريّا ... فَهُمـــا غاضـــتا الحـــسودَ الغـــويّا
كفّـــل اللهُ ذاكَ مـــريمَ إذ كـــا ... نَ تقيّـــا وكـــانَ بَـــرّا صَـــفِيّا
ورأى عنـــدها وقـــد دخـــلَ المِحْـــ ... ـــرَابَ مـــن ذي الجَـــلالِ رِزْقـــا هَنِيّـــا
وكـــذا كفّـــلَ الإلـــهُ عليّـــا ... خِـــيرَةَ اللهِ وارْتَـــضـــاهُ كَفِيّـــا
ورأى جَفْنَـــةً تفـــورُ لَـــديْها ... مـــن طعـــامِ الجِنّـــانَ لَحْمـــا طَـــرِيّا
خِيْـــرَةٌ بِنْـــتُ خِـــيرَةٍ رضـــيَ الّـــ ... ـــهُ لهـــا الخَيْـــرَ والإمـــامَ رَضِـــيّا[2]

كما يشير الشاعر إلى النبي يحيى (ع) من ناحية مصرعه وشأن المرأة فيه، ليعرج إلى ذكر مصرع الإمام.

ولـــه مِـــنْ صِـــفاتِ يَحْيـــى مَحَـــلٌّ ... لـــم أُغـــادِرْهُ مُهْمَـــلا مَنْـــسِيّا
إنّ رِجْـــسا مـــن النّـــساء بغَيـــا ... كفَلَـــتْ قتـــلَهُ كَـــفُورا شَـــقِيّا
وكـــذاكَ ابْـــنَ مُلْجَـــمٍ فـــرَضَ الّـــ ... ـــهُ لـــهُ اللعْـــنَ بـــكْرة وعَـــشِيّا
قتـــلَ الـــسّيّدَ الإمـــامَ قـــسيمَ الـــ ... ـــنارِ خَـــتلا كيمـــا يَنـــالُ بَغِيّـــا
فَتَنَتْـــهُ قَطَـــامُ أبْـــعَدَهُ الّـــ ... ـــهُ فأمْـــسى في النّـــارِ يَهْـــوى هَوِيّـــا[3]

---

(١) م. ن: ١٤٠، حداه حدياً: من حدا بالمكان أي لزمه، وحدا الشيء تبعه، البتل: القطع، أي عهداً مقطوعاً، الحمي: يقال رجل حمي أي لا يحتمل الضيم.

(٢) م. ن: ١٤١ - ١٤٢، خيرة الله: يُقصد بها سيدة النساء فاطمة (عليها السلام)، الجفنة: القصعة الكبيرة.

(٣) م. ن: ١٤٢ - ١٤٣، الختل: من ختله أي خدعه عن غفلة.

فإذا كان للبغي الفعل المؤثر في مقتل النبي يحيى (ع) على يد جبار شقي، فإن مصرع الإمام كذلك كان على يد أشقى الناس (ابن ملجم)، وقد كان للمرأة (قطام) شأن لا ينكر في هذه الجريمة.

ومن النبي أيوب الصابر المحتسب ينطلق الشاعر إلى ذكر ما قاساه الإمام من كثرة الجراحات والطعن في حياته في المعارك التي خاضها متصلة.

ولـــه مـــن عَـــزَاءِ أيّـــوبَ والـــصَّبْـ ـــرَ نَـــصِيبٌ مـــا كـــانَ نـــزْرا رَزِيّـــا
كـــان للطَعْـــنِ والجراحـــاتِ في اللّـــ ـــهِ صَـــبورا وفي الحُـــرُوبِ جَرِيّـــا
كلّمـــا قَـــاسَ ضـــربةُ منـــه آسٍ كـــانَ مِحْرافُـــه لأُخْـــرَى حريّـــا[1]

فشبّه ما تعرض له الإمام من تلك الطعنات والضربات والجراحات الكثيرة بما قاساه أيوب (ع) صابراً حتى أكرمه الله في الدنيا والآخرة.

ويقف الشاعر عند أوجه الشبه بين النبي عيسى (ع) والإمام علي (ع) وذلك من جهة اختلاف الناس فيهما بين غالٍ وقالٍ.

ولـــه مـــن مراتـــبِ الـــرّوحِ عيـــسى رُتَـــبٌ زادَتِ الوَصِـــيَّ مزيّـــا
ضَـــلّ فيـــهِ ضَـــرْبانِ غـــالٍ وقـــالٍ لم يَـــسِيرا لـــهُ الطريـــقَ الـــسّويّا
مثلمـــا ضَـــلّ في ابـــنِ مـــريمَ ضَـــرْبا نِ مـــن المُـــسْرفينَ جَهْـــلا وغيّـــا
قـــال قـــومٌ هـــو الإلـــه وقـــومٌ جَعَلـــوهُ مُفَـــضّلا مقْـــصيّا
هلـــكَ المُفرِطـــانِ فيـــه عـــدُوٌّ ومُحِـــبٌّ يُـــصيبُـــهُ غلْويّـــا
ولقـــد قالهـــا لمـــولاي قَـــوْمٌ ورأوا نَـــارَهُ عليهـــا صِـــليّا
إذ دعـــا قنـــبرا بـــأنْ أجّـــجِ الـــ ـــنّارَ فـــأنّي سَـــمِعْتُ نُكْـــرَا فَرِيّـــا[2]

فكما ألّه أناس عيسى أو قالوا: هو ابن الله جهلاً وكفراً، كذلك غلا قوم بالإمام فأسرفوا في حبه حتى قالوا بإلوهيته، فعاقبهم بالإحراق بالنار، فما زادهم ذلك إلا إسرافاً وكفراً، فقالوا: لا يحرق بالنار إلا إله.

وبمقابل هؤلاء الغلاة ظهر القالون الذين خفضوا من شأن الإمام علي، بل نصبوا له العدوان بغضاً وحسداً، وكلا الفريقين قد جانب الحق فيما فعل.

ثم يختم الشاعر أوجه الشبه التي بدأها بآدم، بالنبي محمد (ص) كما هو شأن الرسالة؛ إذ نراه يرصد الصفات الجامعة بين النبي والإمام، ولا غرابة في هذا؛ إذ هما من شجر

---

(١) م. ن: ١٤٤، آس: آسا الجرح داواه وعالجه، والآسي، الطبيب، المحراف: الميل الذي تقاس به الجراحات.

(٢) م. ن: ١٤٥ ـ ١٤٦، المقصي: المبعد، الصلي: الإحراق الشديد.

واحد، فرعا شجرة باسقة هي شجرة النبوة التي غرسها الله ببعثه آدم (ع)، وظلت جذورها ضاربة إلى عهد خاتم المرسلين.

كانَ مثلَ النّبيّ زُهْدا وعِلْما ... وسَريعا إلى الوغا أحْوَذيّا
فَرعُ عُودهِ أغصَانُه حسناه ... زاكِيا غَرْسُ أصْلِهِ أبطحيّا
كانَ للأمّةِ الضعيفةِ كَهْفا ... كافِلا إنْ ضَاعَ رَاعٍ رَعِيّا
حَربا في صَلاحِها وسِواهُ ... في سَمُودٍ يُروّضُ الأرحَبيّا
كانَ في السّلمِ عابدا ذا اجْتهادٍ ... ولدى الحَرْبِ ضَيْغَما قَسْوَريّا
لا فخورٌ يجرُّ أرْدِيَةَ الخا ... لِ ولا عاجِزا ولا جَبْريّا
كان صدّيقَها وفاروقَها الأعْـ ... ـظمِ حقّا والسابقَ الأوّليّا
وأميرا للمؤمنينَ ويَعْسُوبا ... لهُمْ يَنْهَجُ الصّراطَ السّويّا
كانَ للهِ والرسولِ مُحِبّا ... وحَبيبا يُعدّ خِصّيصيّا
وهو الحِبْرُ والفقيهُ لدى الفُـ ... ـيا ويومَ الهَياجِ يفري الفَريّا
من وقاه فرارهُ فهو الكـ ... ـرّارُ إنْ كافحَ الكميّ الكَميّا
نَسَخَ السّابقينَ إذ سارَ بالرا ... يةِ في يَوْمِ خيبرٍ تَقْدُميّا[1]

وهنا يأتي التشبيه صريحاً بقوله: كان مثل النبي زهداً وعلماً، وهو حصن الأمة وكهفها كما كان النبي لها، ويجمع من صفات النبي جلها إلا النبوة التي حصرها في محمد (ص) دون سواه، وبذلك فاق الإمام أقرانه فهو فاروق الأمة وصدّيقها الأكبر.

ولا شك في أن استقصاء الشبه بين الأنبياء والإمام لم يكن كافياً ليأتي الشاعر على كل خصال الإمام وفضائله ومناقبه؛ لذلك احتاج الأمر لديه إلى أبيات أخر ليوفي هذه الحاجة حقها ومنها: عهد النبي بالموالاة يوم (غدير خمّ) في اجتماع المسلمين المشهور في ذلك المقام بعد رجوعهم من الحج.

لم يكُنْ أمرُهُ بدوحاتِ خمٍّ ... مُشْكِلا عن سبيلهِ مَلويّا
إنّ عَهْدَ النّبيّ في ثَقَليْهِ ... حُجّةٌ كُنتَ عن سِواها غنيّا
نَصَبَ المرتضى لهم في مقامٍ ... لم يكن حاملاً هُناك دَنيّا
علَمَا قائِما كما صَدَعَ البد ... رُ لِتَمٍّ دجنّةٍ أو دَجِيّا
قال هذا مولىً لمن كُنْتُ مولا ... هُ جِهارا يقولُها جَهْوَريّا

(١) م. ن: ١٤٦، ١٥٠. الأحوذي: المشمر في الأمور القاهر لها، الذي يغلب في الحرب، سمود: اللهو، أو الغفلة، يفري الفريّا: يوقع بالأعداء ما يثير الدهشة والعجب. ورد قول الشاعر (وهو الحبر والفقيه لدى الفيا) والصواب: لدى الفتيا، ولعله من أخطاء الطباعة.

والِ يـــا ربِّ مـــنْ يواليـــه وانـــصُرْ ... هُ وعـــادِ الـــذي يُـــعادي الوصـــيّا
إنّ هـــذا الـــدُّعا لمـــن يتعَـــدّى ... راعيـــاً في الأنـــامِ أمْ مَرْعيّـــا
لا يُبـــالي أمـــاتَ مـــوْتَ يـــهودٍ ... مـــنْ قـــلاهُ أو مـــاتَ نـــصْرانيّا[1]

لقد عرج الشاعر على بيان تلك الواقعة، مشيراً إلى تفصيلاتها، وما جرى فيها من تنصيب الإمام أميراً للمؤمنين وخليفة لرسول ربّ العالمين، ثم ما ورد في ذكرها من أحاديث تؤكد فحوى تلك الواقعة ولاسيما حديث: من كنت مولاه...، وحديث: إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما...، فضلاً عن إجماع المسلمين على التسليم بما شهدوه في وقته.

على أن الشاعر لا يكتفي بما أورده من مناقب الإمام علي؛ لذا يورد حادثة الطائر المشوي الذي أنزله الله تعالى على نبيه في المسجد، فدعا النبي ربه أن يشركه في أكله أحب الناس إليه فكان علي (ع).

كـــان سُـــؤالُ الـــنّبيّ لمّـــا تمنـــى ... حِـــيْنَ أهـــدوهُ طـــائِرا مَـــشويّا
إذ دعـــا اللّهَ أنْ يـــسوقَ أحـــبّ الـــ ... ـــخلْقَ طُـــرّا إليـــهِ سَـــوْقا وَحَـــيّا
فـــإذا بالوَصـــيّ قـــد قـــرَعَ البـــا ... بَ يُريـــدُ الـــسّلامَ ربّـــانيّا
فثنـــاهُ عـــن الـــدُّخُولِ مـــِرارا ... (أنـــسٌ) حـــين لم يكـــنْ خزْرَجيّـــا
وَدّ خَيْـــرا لقومـــهِ وأبـــى الرّحـــ ... ـــمانُ إلا إمامَنـــا الطّالبيّـــا[2]

وبعد هذا يأتي الشاعر إلى بيان مقام الإمام الرفيع في الأمة، قائلاً:

كـــان كالعـــالم الـــذي أدّ موســـى ... عِلْمـــهُ إذ رأى البيـــانَ ضَـــويّا[3]

فنراه يشبهه بعالم بني إسرائيل الذي لم يستطع موسى معه صبراً، مستنداً في ذلك إلى حديث ابن عباس[4].

وتستمر الأبيات الأخيرة في بيان فضائل الإمام ومناقبه.

كـــانَ للمـــؤمنينَ حـــقاً أمِـــيراً ... لـــو أطـــاعُوا نبينـــا الأميّـــا
قَتَـــلَ الناكِـــثَ المُجـــازِفَ والقـــا ... سِـــطَ جَهْـــرا والمـــارِقَ الخارجيّـــا[5]

---

(١) م. ن: ١٥٠ ـ ١٥٢.
(٢) م. ن: ١٥٣ ـ ١٥٥، طراً: جميعاً.
(٣) م. ن: ١٥٦.
(٤) ذكر ابن عباس أن رجلاً قد سأله عن من قتله الإمام علي (ع)، فقال له: إن علم العالم صعب لا يحتمله ولا يقرّ به القلوب الصديه، وقد كان علي بن أبي طالب (ع) مثله في هذه الأمة كمثل موسى والعالم (عليهما السلام)؛ إذ إن العالم قد أتى بأفعال هي في الأصل رضي لله تعالى، ولكن موسى لم يرتض تلك الأفعال ولم يطق صبراً على صحبته ولا علمه، وكذلك كان علي بن أبي طالب (ع) لم يقتل إلا من كان قتله لله رضى ولأهل الجهالة من الناس سخط. ظ: المحاسن والمساوئ: ١/ ٣٠.
(٥) الديوان: ١٥٧.

كما يعرج الشاعر إلى ذكر حادثة الكساء الذي ضمّ النبي وآل بيته وهم: علي وفاطمة وابنيهما، وبهم بأهل النبي نصارى نجران، ثم يختم الشاعر قصيدته بالسلام والتحية.

وإذا ارْتَاشَ والبتولِ ونَجْلا ... هُ مع المُصْطفى الكِسا الحَضْرميّا
وبهمْ باهَلَ النّبيُّ فحازوا ... شَرَفا يتْرك الرّقابَ حنيّا
فعليهمْ أزْكى وأذكى صَلاةٍ ... وسلامٍ يَقْفُوْ الزكيّا الذكيّا
فعليه السلام ما غنّتِ الطيـ ... ـر وناحتْ على الغُصُونِ بُكيّا[1]

عرض تحليلي موجز للخصائص الفنية:

اعتمد الشعر العربي منذ نشأته أدوات فنية أمكنته من التعبير المؤثر في متلقيه[2]، فلم يقتصر في ذلك التأثير على خواص الموضوع وحده، مهما كان هذا الموضوع سامياً في محتواه، أو خيراً في غايته؛ بسبب من عرض الموضوع وحده من دون إحاطته بمقومات الأداء الفني المحكم لن يكون مهماً إلا إذا اقترن بما يمكّن له من التأثير والتمكن من نفوس المتلقين، وذلك هو الأداء الفني الذي يمكن رصد أبرز سماته في قصيدة المفجّع البصري بالنقاط الآتية:

١ ـ تجنب الشاعر إتباع أنماط البناء التقليدي للقصيدة العربية التي انقسمت في بنائها على أقسام معروفة هي: المقدمة بأنواعها المختلفة (طللية، غزلية،....)، والرحلة، ثم الغرض الرئيس مدحاً أو رثاء أو سواهما[3]. فقد بدأ الشاعر قصيدته بتوجيه الخطاب إلى لائم مفترض، أو حقيقي، هو مجموع المناوئين لحب آل البيت (ع) مهما تعددت درجات عدائهم.

إن طريقة توجيه الخطاب إلى لائم مفترض هي طريقة تقليدية أيضاً قد عرفتها القصيدة العربية، ويمكن أن نجد لها نماذج واضحة لدى بعض الشعراء الصعاليك[4]، وكذلك لدى الشعراء الفرسان، والشعراء الأجواد مثل حاتم الطائي المعروف بجوده وكرمه؛ إذ نراه يجرد من خياله ـ وربما حقيقة أحياناً ـ امرأة تأخذ دور اللائمة على كثرة الإنفاق، ليجعلها وسيلة تعبيرية فنية يمرر من خلالها أفكاره في حكمة الجود والكرم[5]، فضلاً عن

---

(١) م. ن: ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٢) يقول الدكتور إبراهيم أنيس: (إن الشاعر أياً كان نوع شعره،...، يهدف بنظم الشعر إلى إشباع الرغبة الفنية في نفسه أولاً، ثم إرضاء جمهوره ونيل إعجابهم به). موسيقى الشعر: ١٨٧، وظ: استقبال النص عند العرب: ٩١، النص الأدبي والمتلقي (بحث): ٢٥ ـ ٤٠.

(٣) ظ: الشعر والشعراء: ١/ ٧٤ ـ ٧٥، بناء القصيدة في النقد العربي القديم: ٢٨، دراسات نقدية: ١٠.

(٤) ظ: ديوان الصعاليك (عروة بن الورد): ٨١ ـ ٨٢، ٩٣.

(٥) هناك نمط يتخذ فيه الشاعر من المرأة العاذلة – سواءُ أكانت حقيقية أم متخيلة – أداة لإظهار الفخر الشخصي، إذا ما افتقده في ميدان الحرب، أو المفاخرة، أو الخصومة، ولا سيما قصائد الأجواد والفرسان الذين يحاولون أن يجودوا بأموالهم وأنفسهم، فتشخص تلك العاذلة لتمنعهم من ذلك. ظ: دراسات نقدية: ٢٤ ـ ٢٧.

إظهار حبه وتفوقه على سواه في هذه الخصلة الكريمة التي تمده بشعور تفوق الذات وحضورها المتميز في مجتمع يقدر هذه الخصلة هو المجتمع البدوي.

أما المفجّع البصري فقد جرد لائماً، وهذا أمر يفي بغرض الشاعر: لأنه في موقع الحجاج والمكافحة الفكرية ضد من ينصب لآل البيت ومحبيهم العداء، ولم يستغرق ذلك منه سوى البيتين الأولين، بدأ شطرهما الأول بالخطاب: أيها، والشطر الثاني من البيت نفسه بفعل الأمر: قم، والشطر الأول من البيت الثاني بالاستفهام الإنكاري، والشطر الثاني من البيت نفسه ـ وإن كان مدوراً ـ بالدعاء بالسلب، ليتفرغ بعدها إلى الشأن الذي نظمت من أجله القصيدة، وهو يرد بأسلوب الإخبار باستعمال الفعل (أشبه)، وفيه يستغرق مراحل حياة الإمام علي (ع) تنازلياً من الكهولة إلى الطفولة (أشبه الأنبياء كهلاً وزولاً...).

٢ ـ جعل الشاعر من قصيدته قطعة واحدة متماسكة من حيث الفكرة والأسلوب والبناء، وليس فيها إلا الانتقال من استقصاء تشابه صفات نبي إلى آخر مع الإمام، متبعاً في الوقت نفسه تسلسلاً تاريخياً نازلاً من آدم أول الأنبياء والبشر إلى محمد خاتم الأنبياء وسيد البشر، وهذا ما منح القصيدة نوعاً من الوحدة الموضوعية والتماسك والانسجام على مستوى النص، مما يجعل القارئ يعيش في لحظة فكرية واحدة مرجعيتها الرئيسة صفات الإمام وخصاله وفضائله ومناقبه التي نجد لها أثراً في مسيرة النبوة على مدى تاريخ البشرية، ليخلص الشاعر من ذلك إلى مدى عظم هذه الشخصية التي استجمعت خصال تلك المسيرة الطويلة، بل زادت عليها، وهذا ما تفسره الأبيات الأخيرة من القصيدة.

٣ ـ اعتماد القصيدة مبدأ الحجاج الفكري: فقد كان شأن القصيدة أن تورد صفات التشابه مع الأنبياء لغرض إبراز هذه الصفات ومن ثم جعلها مقدمة فكرية قاطعة، مستندة إلى مصادر لا يمكن دحضها أو التعريض بمصداقيتها.

وإذا كان اعتماد الفكر في القصيدة يبعد عنها هيمنة العاطفة التي عرف بها أغلب الشعر العربي، فإن الحاجة هي التي دفعت لذلك، فالسياق العام الذي أحاط بالشاعر وقصيدته هو سياق قائم على الجدل الفكري، واستعمال أدوات علم الكلام في بيئة علمية فكرية، ساد فيها هذا النمط من إبراز الحجة ونقيضها؛ ولذلك تبدو العاطفة وحدها غير قادرة على أداء مهمة إثبات القوة للدليل والحجة، على أن مجال العاطفة له أثره أيضاً؛ إذ لا يمكن للشاعر أن يتخلى عنها في أية لحظة، فالعاطفة مخفية في نسق القصيدة المضمر، وإلا فما الدافع ليكد الشاعر ذهنه ويبذل كلّ هذا الجهد إن لم يكن قد اتجه عاطفياً وفكرياً نحو قضيته.

٤ ـ اعتماد فكرة التشابه: إن اعتماد القصيدة فكرة التشابه والتشبيه هي بحد ذاتها فكرة جريئة لا نكاد نظن أن شاعراً ما قد سبق إليها المفجّع البصري بمثل هذا التفصيل،

ولا يقتصر الأمر في هذه الجرأة على الحصيلة العلمية وضبط مكوناتها بإحصاء أوجه الشبه التي تدل على علم واطلاع غزيرين حسب، ولكن على الجوانب الفنية ذات الإمكانات النظمية العالية التي أحالت ذلك الموضوع العلمي الرصين، وتلك الأفكار الجدلية الناتئة إلى سياق النظم الشعري الفني الذي امتلك صفات القوة والرصانة من حيث الانسجام اللغوي عامة، ومن حيث طرائق التركيب والتحول بين الصفات والأسماء والشخصيات.

لقد استعمل الشاعر في إحكام بناء قصيدته مبدأ (تداعي المعاني) الذي يمهد بذكر كلمة أو شخصية إلى ذكر غيرها ثم ينتقل إلى التفصيل فيها، كما صنع مع كلمة (الأسباط) مثلاً.

٥ ـ **اعتماد الأسلوب الإخباري**: ونعني به عرض أخبار الماضين، فالأنبياء الذين بحث الشاعر عن صفاتهم هم من الماضين السابقين، وعرض أخبارهم يأتي بصيغة الزمن الماضي الذي غلب عليه الفعل (كان)، وهنا علينا أن نميز بين أسلوب الخبر الذي اعتمده الشاعر، وبين الأسلوب السردي الذي تجنبه الشاعر؛ لأنه لا يخدم غرضه الفكري: إذ يكتفي بالإشارة وليس التفصيل: إذ لا يسع المقام ذلك، ويفترض هذا الأسلوب من الشاعر الدقة والفحص والتحري، وفي الوقت نفسه البحث عن المشهور من أخبار الأنبياء، لكي لا تكون محل جدل أو رد فكري، ولكي تفعل فعلها في التأثير من حيث إقامة الحجة القاطعة التي لا يتسرب إلى فحواها الشك.

٦ ـ **النواحي الإيقاعية**: استعمل الشاعر بحر الخفيف وزناً لقصيدته لأسباب منها: خفة هذا البحر في الأسماع، وكثرة حركاته[1]، والقدرة في النظم عليه؛ إذ إن الشاعر أمام كم من الأسماء والصفات التي قد يصعب إدراجها في أبحر أخرى، ففي هذا البحر سهولة ومطاوعة للنظم تمكن الشاعر من الاستمرار في بناء قصيدة طويلة كهذه التي بلغت مئة وستين بيتاً.

كذلك استعمل التنويع في التفعيلات بشكل واضح مفيداً في ذلك من إمكان تفعيلتي الخفيف: فاعلاتن ومستفعلن في صورتيهما الأصليتين، وفي ما يطرأ عليهما من تنويعات نغمية مختلفة، لتحمل ذلك التنويع الذي يعطي أبعاداً نغْمية مختلفة تقلل من هيمنة الرتابة التي تجلبها غلبة النزعة الفكرية في الشعر.

أما القافية فقد ختمها بحرف روي هو الياء، وهو حرف سهل الاستعمال يجري مع القصيدة الطويلة بسهولة واضحة، وإذا كان الياء حرف علة ضعيف التأثير إن كان وحده، فقد قواه الشاعر بوسيلتين هما: التضعيف حيث جعله مشدداً، ثم أسبغ عليه ألف الإطلاق لتعطيه امتداداً موسيقياً كبيراً يترك أثره بقوة في ذهن المتلقي وسمعه، وهو صنيع موفق في مثل هذا السياق سياق البرهان والمحاججة الفكرية التي أجادها المفجّع البصري.

---

(١) ظ: الوافي في العروض والقوافي: ١٣٩.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
- أبو طالب الرجل المفترى عليه، عقيل الخطيب، التعارف، بيروت ـ لبنان، ١٤١٩هـ ـ ١٩١٩م.
- أبو طالب سيد المؤمنين، عبد الحليم مرزة، الفياض، النجف، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.
- استقبال النص عند العرب، د. محمد المبارك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت، ط١، ١٩٩٩م.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الجوزي (عز الدين بن الأثير أبو الحسن علي بن محمد ت ٦٣٠ هـ)، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العالمية، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.
- البداية والنهاية في التاريخ، ابن كثير (أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ن ٧٧٤هـ)، السعادة ـ مصر، ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م.
- بناء القصيدة في النقد العربي القديم (في ضوء النقد الحديث)، د. يوسف حسين بكار. دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٩٨٥م.
- دراسات نقدية في الأدب العربي، د. محمود عبد الله الجادر، مطبعة دار الحكمة للطباعة والنشر ـ الموصل، ١٩٩٠م.
- ديوان الصعاليك، شرح: د. يوسف شكري فرحات، دار الجيل ـ بيروت، ٢٠٠٤م.
- شاعر العقيدة المفجّع البصري (محمد بن أحمد بن عبد الله ت ٣٢٧هـ)، جمعه وحققه وعلق عليه: عبد الرسول الغفار، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.
- شعر أبي طالب دراسة أدبية، د. هناء عباس عليوي كشكول، مكتبة الروضة الحيدرية، ط١، ١٤٢٩هـ.
- الشعر والشعراء، ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف ـ مصر، ط٢، (د. ت).
- العصر العباسي الثاني، د. شوقي ضيف، دار المعارف ـ مصر، ط٢، ١٩٧٥م.
- الغدير في الكتاب والسنة والأدب، الأميني (عبد الحسين بن أحمد ١٣٩٠هـ)، الزهراء ـ النجف، ١٣٦٩هـ.
- الفهرست، ابن النديم (أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب ت ٣٨٠ هـ)، ضبط وشرح: د. يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.
- كتاب الرجال، النجاشي (أحمد بن علي ت ٤٥٠هـ)، المطبعة الأميرية ـ بولاق، ١٣٦٨هـ.
- كفاية الطالب في مناقب آل أبي طالب، الشافعي (أبو عبد الله محمد بن يوسف)، تحقيق: محمد هادي الأميني، الحيدرية ـ النجف الأشرف، ط٢، ١٣٩٠هـ.
- المحاسن والمساوئ، البيهقي (إبراهيم بن محمد)، مطبعة السعادة ـ مصر، ١٩٠٦م.
- المحمدون من الشعراء، القفطي (جمال الدين أبو الحسن)، دائرة المعارف العثمانية ـ الهند، ط١، ١٩٦٦م.
- معجم الأدباء، الحموي (أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله ت ٦٢٦هـ)، تحقيق: د. أحمد فريد الرفاعي، دار المأمون ـ مصر (د. ت).
- معجم الشعراء، المرزباني (أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى ت ٣٨٤هـ)، تحقيق: د. فاروق اسليم، دار صادر ـ بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م.
- موسيقى الشعر، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، مطبعة لجنة البيان العربي ـ مصر، ط٣، ١٩٦٥م.
- الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي (محمد حسين) مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.
- النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين، الجزائري (نعمة الله)، مطبعة المكتبة العربية ـ دمشق، ط٢، ١٩٦١م.
- الوافي في العروض والقوافي، الخطيب التبريزي، تمهيد: عمر يحيى، تحقيق: د. فخر الين قباوة، دار الفكر، دمشق ـ سورية، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.
- ينابيع المودة، القندوزي (سليمان بن إبراهيم الحنفي)، طهران، ١٣٩٣هـ. ❖

الإمـام عـلـي (ع) في مرويات أبي ذر الغفاري (رض)

د. جبّار محمد هاشم الموسوي
جامعة الكوفة، كلية الآداب

د. أمل سـهيل عبد الحسيني
جامعة كربلاء، كلية العلوم الإسلامية

المقدمة:

كلمة العظيم لا تكفي لبيان عظمة أمير المؤمنين (ع)، لاسيما بعد أن استعملت هذه الكلمة في الكثير ممن يستحق أو لا يستحق، مع العلم أن العظمة تتفاوت من حيث القلة والكثرة، والضعف والشدة، وكذلك سائر الصفات الحميدة التي يعبر عنها بالفضائل وينعت بها الرجال.

ولا أجد في قانون اللغة العربية ألفاظاً كافية في التعبير عن شخصيته المباركة، واشهد الله إني لا لم أكتب هذا بقلم العاطفة والغلو، ولا طمعاً في ربح أو جائزة دنيوية، بل بقلم الواقع والحقيقة.

فنحن عندما نريد ان نكتب عن أمير المؤمنين (ع) لا نقول انه ولد يوم الجمعة في الثالث عشر من شهر رجب، بعد عام الفيل بثلاثين عام، وانه قد استشهد في ٢١ رمضان في السنة الأربعين من الهجرة المباركة متأثراً بضربة ابن ملجم المرادي (لعنه الله) ليلة التاسع عشر من ليلة الأربعاء من شهر رمضان فقط، فهذه أمور صار يعرفها القاصي والداني، بل سوف نكتب عن علي الذي قال فيه رسول الله (ص): (يا علي لا يعرفك إلا الله وأنا)، ومعنى هذا أننا سوف لن نصل إلى مكمن الأسرار الإلهية، ومنطلق الأنوار الربانية التي تكمن فيه، بل سوف نكتب الشيء القليل والقليل جداً، وان الكتابة عنه غيض من فيض، وقطرة من بحر.

نكتب عن علي بن أبي طالب الذي احتار الناس فيه، فصاروا بذلك فريقين، فريق في الجنة، وفريق في السعير، وكان أبو ذر الغفاري واحداً من صحابة رسول الله (ص) الذين ثبتوا على المبدأ والعقيدة الصحيحة، فكان بذلك مدرسة مثالية غنية بالعطائين، الفكري والروحي، ومليئة بالعظات والعبر. وقد تشيع أبو ذر (رض) للإمام علي (ع) وأهل بيته تشيعاً ليس عاطفياً يقتصر على حبهم فحسب، بل تشيعاً مبدئياً، ينادي بأحقية علي (ع) في الخلافة بعد رسول الله (ص) بلا فصل، استناداً إلى ما سمعه هو وبقية الصحابة منه (ص) في ذلك كحديث الغدير وغيره.

فكان ممن ثبت على المبدأ، فدافع عنه، وفي مواطن عدة، ودعا المسلمين إليه بكل جرأة وصراحة، حتى آخر لحظة في حياته. ففي مكة، كان لسانه يلهج بذلك، وفي المدينة، كما في الشام، وحتى في منفاه الأخير في الربذة، لم يتوان ولم يتلكأ في تأدية الأمانة. ونحن

إذ نختار أبا ذر في هذا المقام إنما أردنا أن نبين للناس مَن من الصحابة كان مع علي (ع) وأية صفة كانوا يحملون، كذلك ما لهذه الشخصية من الأثر الكبير في حياتنا الدينية والذي يتصل بحياته، ومقدمه إلى الشام، وسكناه في منطقة جبل عامل مدة طويلة من الزمن أتاحت له الفرصة في نشر التشيع (لمذهب أهل البيت)؛ لان المشهور بين سكان هذه المنطقة أن أبا ذر هو صاحب الفضل في ذلك.

المبحث الأول

بين يدي العنوان

المطلب الأول: الإمام علي (ع)

علي علا عند الله وعند رسوله، ومن في العلا كعلي؟

والحديث عنه حديث عن أمة قائمة لله وبالله، فلا والله ما أفلحت الأمة وإن عدلت عن الوصي الرضي، ولا سعدت البرية أن تولت بعد النبي (ص) غير علي أولاً، ولا علت قيادة إنسانية إن اتخذت سوى ذو الفقار راية.

وما الكلام هنا يا سيدي الإمام، من محض عاطفة، بل العقل في غاية التفاعل والنشاط، والقلب معهما في اطمئنان جم.

إن الحديث عن سيرة الإمام أمير المؤمنين (ع) حديث عن روح الإسلام، حديث عن أصالة الدين؛ وذلك لأنها تقدم النموذج الأسمى للإنسان المرتبط بربه، المرتفع عن الإنشداد البهيمي بالمال والمتاع. والحديث عنه حديث عن القيم والمبادئ والأخلاق؛ لأن هذا الرجل العظيم قد ألقى نظرة على هذا الكون (فوعى وعياً عميقاً ما في أجزائه من تكافؤ وتكامل، وأدرك أن الموجودات المجزأة في ظاهرها متفاعلة متكاملة موحدة في جوهرها، وأن ما تباعد منها في الزمن الآني مضموم في وحدة طرفاها الأزل والأبد، وإن عناصر الكون جميعاً مترابطة متساندة، وإن حقوق افترضت لبعضها على بعض، فهزه ما رأى وعادى، ومشى في كيانه، فتحركت شفتاه بما جاش في أعماقه وقال: (ألا وإنه بالحق قامت السماوات والأرض، وأما وجوه الحق الذي يشير إليه، فهو ما رآه في نواميس الكون من صدق وعدل وثبات)[1].

هذا هو علي بن أبي طالب الذي نريد الحديث عنه، الذي عرف الله وخافه فقال: (لو علمت أن كل أهل الأرض يدخلون الجنة إلا واحداً، لخشيت أن أكون ذلك، ولو علمت أن كل أهل الأرض يدخلون النار إلا واحداً لرجوت أن أكون ذلك)[2].

فجره خوفه من الله إلى القول: (فو الله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت، وإن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها)[3]، كذلك هو القائل: (فو الله ما كنزت من دنياكم تبراً، ولا ادخرت من غنائمها وفراً، ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً، هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى

تخير الأطعمة، ولعل بالحجاز في الحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع، أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى وأكباد حرى، أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش)[٤].

كذلك هو القائل في مناسبة أخرى: (والله لئن أبيت على حسك السعدان مسهداً أو أجر في الأغلال مصفدا أحب إليَّ من أن ألقى الله ورسوله (ص) يوم القيامة ظالماً لبعض العباد، وغاصباً لشيء من الحطام)[٥].

يقول هذا في وقت غصب حقه، وأبيح إرثه، وضربت زوجته البتول الطاهرة أمام عينيه صابراً محتسباً، ناظراً إليها بعين الحسرة والألم لأنه (موصى) كما قال بعضهم: (فإن الرجل موصى)[٦] تاركاً إمارتهم التي تكالبوا عليها وجروا خلفها جري الوحوش: لأنها لا تساوي عنده شيء، فقد دخل عليه ابن عباس يوماً بذي قار والإمام يخصف نعله، فسأله الإمام (ع) عن قيمة هذا النعل؟ فقال ابن عباس: لا قيمة لها يا أمير المؤمنين.

فقال الإمام (ع): (والله لهي أحب إليَّ من إمارتكم إلا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً)[٧].

عندما نتحدث عن الإمام علي (ع) إنما نتحدث عن ذلك البطل المغوار الذي عرفه المشرق والمغرب وعرفه العربي والأعجمي، وعرفه المسلم والمسيحي!!.

نعم فقد عرف المسيحيون علياً وكتبوا عنه الكثير، فكان هو جوهر العديد من مؤلفاتهم، من أمثال بولس سلامة وخليل فرحات وجورج جرداق وسليمان كتاني، وروكس بن زايد العزيزي، وعبد المسيح الأنطاكي وجبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، ونصري سلهب، والفيلسوف الألماني يوهان ثمونه، والمستشرق الفرنسي هنري كوربان والفيلسوف الايرلندي توماس كاريل، وغيرهم من مسيحيي الشرق والغرب، بعد أن درسوا التاريخ وغاصوا في كتبه وفي مؤلفات الرواة، وحتى في الكثير من دواوين الشعر العربي – باعتبار أن الشعر ديوان العرب – ثم اعملوا فكرهم واستخدموا نور بصائرهم إلى جانب نور أبصارهم في تدقيق وتمحيص الأحاديث والروايات عن أهم وأدق الأحداث المفصلية في تاريخ الرسالة الإسلامية، فاستطاعوا بعد أن (اجلسوا العقل على كرسي القاضي واخرجوا العاطفة من محكمة العقل، أن يميزوا الأحاديث التي قالها الرسول المصطفى (ص) حقاً من الأحاديث التي وضعت على لسانه في عهد المحنة الإسلامية الثانية، محنة استلام الأمويين للحكم وتحكمهم بالعباد، وتسلطهم على الرقاب، وهي المحنة الثانية التي أعقبت محنة الإسلام الأولى، ونقصد بذلك الاجتماع في سقيفة بني ساعدة الذي أدى حرف الإسلام الذي جاء به المصطفى (ص) عن مساره الصحيح وعن غاياته الإلهية المنشودة، وبعد أن انتهى أولئك المفكرون المسيحيون من عملية التحقيق والتدقيق وسمحوا للعقل بالنطق بالحكم، وقف ذلك العقل المسيحي المحايد ليطلق حكمه قائلاً: (إذا كان مفهوم الإسلام قد ارتبط بالتصديق بمحمد (ص)، فإن مفهوم الإيمان قد ارتبط بولاية الإمام علي (ع)[٨].

فعلى سبيل المثال لا الحصر، (ماذا سيقول الباحث المسيحي عندما يقرأ ما نقله أبو سعيد الخدري عن رسول الله (ص) في علي (ع): (حبك إيمان، وبغضك نفاق، وأول من يدخل الجنة محبك وأول، من يدخل النار مبغضك)[٩].

وماذا سيقول أيضاً عندما يقرأ ما نقله أنس بن مالك عن رسول الله (ص) عندما قال أمام أصحابه: (عنوان صحيفة المؤمن حب علي بن أبي طالب. بل، ما هو الموقف الذي سيتخذه عندما يقرأ عشرات الأحاديث النبوية الشريفة التي قيلت في أهل البيت (عليهم السلام) عموماً، وفي علي آمير المؤمنين خصوصاً)[١٠].

نعم إنه ابن أبي طالب الذي اعترض على البيعة في سقيفة بني ساعدة رافضاً الاستجابة للمطالبين له بالبيعة، وكانت معارضته سلمية، حيث بين فيها وجهة نظره طبقاً للموازين والمعايير المساعدة لهذا الاعتراض، وهي مقبولة عرفاً، وكان من ضمن اعتراضه على الخليفة الأول انه قال: (أنا أحق بهذا الأمر منكم لا أبايعكم وانتم أولى بالبيعة لي، أخذتم هذا الأمر من الأنصار، واحتججتم عليهم بالقرابة من النبي (ص) وتأخذونه منا أهل البيت غصباً، وأنا احتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار)[١١].

وقد كان (ع) في جميع موارد ومواقع الاعتراض محافظاً على القواعد والأسس الشرعية في أدب الاعتراض والحوار والنقاش، وكان موقفه سلمياً لا يتعدى تبيان حقه بالخلافة، فمما جاء في هذا المقام قوله لأبي بكر: (كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقاً، فاستبددتم به علينا) ثم ذكر قرابته من رسول الله (ص) وحقهم على المسلمين، فلم يزل يتكلم في ذلك حتى بكى أبو بكر)[١٢].

ولكنه عندما رأى أن وحدة الإسلام والمسلمين فوق الكل ضرب المثل العليا في الحرص على الوحدة الإسلامية وعلى المصلحة الإسلامية الكبرى حتى قال: (وأيم الله لولا مخافة الفرقة بين المسلمين، وأن يعود الكفر ويبور الدين، لكنا على غير ما كنا لهم عليه)[١٣].

(إنه الإنسان العظيم الذي تعودنا أن نحبه منذ الصغر وحفظنا عنه كلماته الجليلة، وما زالت قلوبنا تخفق بحبه)[١٤]، هذا ما قاله الكاتب المصري عبد الرحمن الشرقاوي في كتابه (علي إمام المتقين)، فقد عرفه الشرقاوي كما عرفه الملايين من أبناء السُنة الذين تعودوا حين يذكرونه يقولون: (علي كرم الله وجهه)، نعم لقد كرم الله وجهه وتكفل رسول الله (ص) بزقه العلم زقاً، فالحديث عن علمه (ع) يشبه الإبحار في اليم المتلاطم الذي لا تدرك سواحله ولا يحاط بآفاقه، ولعل الحديث الذي رواه ابن عباس عن رسول الله (ص) يكشف جانباً من سعة علمه حيث يقول: (ومن أراد منكم أن ينظر إلى آدم في علمه، وإلى نوح في حكمته، وإلى إبراهيم في حلمه، فلينظر إلى علي بن أبي طالب).

عن هذا يقول صاحب (كفاية الطالب): (تشبيهه لعلي (ع) بآدم في علمه لان الله علم ادم صفة كل شيء كما قال عزّ وجل: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ (البقرة: ٣١) فما من

شيء ولا حادثة ولا واقعة إلا وعند علي (ع) فيها علم، وله في استنباط معناها فهم، وشبهه بنوح في حكمنه، أو في رواية في حكمه، وكأنه اصح؛لان علياً (ع) كان شديداً على الكافرين رؤوفاً بالمؤمنين)[١٥].

أما هو فقد قال: (كنت أدخل على رسول الله ليلاً ونهاراً، فكنت إذا سألته أجابني، وإن سكت ابتدأني، وما نزلت عليه آية إلا قرأتها، وعلمت تفسيرها وتأويلها ودعا الله لي أن لا أنسى شيئاً علمني إياه، فما نسيته من حرام وحلال، وأمر ونهي، وطاعة ومعصية، وأنه وضع يده على صدري وقال: (اللهم املأ قلبه علماً وحكماً ونوراً) ثم قال لي: (اخبرني ربي عزّ وجل أنه قد استجاب لي فيك)[١٦].

وقد وصف (ع) علمه بقوله: (بل اندمجت على مكنون علم لو بحت به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوى البعيدة)[١٧].

هذا هو علم علي كما عرفه الخلفاء الغاصبون لحقه، فأبو بكر يقول: (أقيلوني فإن علياً أحق مني بهذا الأمر)[١٨].

وكذلك قال ثلاثاً: (أقيلوني أقيلوني فاني لست بخير منكم وعلي فيكم)[١٩].

وهذا الخليفة الثاني يقول: (لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن)[٢٠]، وقال أيضاً: (لولا علي لهلك عمر)[٢١].

وهذا عثمان بن عفان يحد النظر إلى وجه علي (ع) فلما سأله أمير المؤمنين عن سبب ذلك قال: (سمعت رسول الله (ص) يقول: النظر إلى وجه علي عبادة)[٢٢].

وهذا معاوية هو الآخر لا يستطيع وئد الحقيقة، رغم أن إعلامه حاول طمس فضائل علي (ع)، ورغم أنه كان لا يسمح بذكر منقبة من مناقبه (ع) إلا أن الحق نطق على لسانه حينما سأله رجل عن مسالة، فأجابه: (اسأل عنها علياً فهو اعلم) فقال: يا أمير المؤمنين، جوابك فيها أحب إليَّ من جواب علي، فيقول له معاوية: بئس ما قلت، لقد كرهت رجلاً كان رسول الله (ص) يغره بالعلم غراً، ولقد قال له: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، وكان عمر إذا أشكل عليه شيء اخذ منه، ثم قال له: قم لا أقام الله رجليك[٢٣].

يقول صاحب فيض القدير: (ذكر الزمخشري عن ابن العربي: (أن علياً إذا برز قال الناس: لا إله إلا الله، ما أشرف هذا الفتى؟!! اله إلا الله ما أشجع هذا الفتى؟!!، لا إله إلا الله ما أعلم هذا الفتى؟ لا إله إلا الله ما أعلم هذا الفتى؟!!)[٢٤].

- كرروها مرتين - لأجل كل هذا وذاك حسد علي وأقصي عن ما رسمته له السماء، وبتت به حينما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (المائدة: ٥٥)، وحينما هدد المولى تعالى رسوله الأعظم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة: ٦٧) فمن أجل ذلك انقسم فيه الصحابة فريقين، فريق اتبع الشيطان وسولت له نفسه

ما سولت، فخرج عن الطريق ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (الزخرف: ٤٠)، وفريق اتبع الهدى طريقاً رسمته السماء للعباد، فتميز من بين هؤلاء أركان أربعة كانوا أوتاداً لخيمة التشيع هم: سلمان الفارسي، وعمار بن ياسر، والمقداد بن الأسود الكندي، وأبو ذر الغفاري راوي روايات هذه المساهمة المباركة.

المطلب الثاني: من هو أبو ذر الغفاري؟

١- حياته:

هو أبو ذر وأبو ذرة، جندب بن جنادة بن سفيان بن عبيد بن حزام بن عفار بن مليل بن ضمرة بن بكر بن عبد مناف بن كنانة الغفاري، الحجازي، وأمه رملة بنت الرفيقة الغفارية)[٢٥].

هو (رمز اليقظة في الضمير الإنساني المتعب، كما هو في الضمير الإسلامي... أراد أن يخرج من حدود الزمان والمكان ويرقى إلى قمة الحرية، حرية الكلمة، وحرية التعبير، فكان منبر الإسلام في فترة من فترات الحكم)[٢٦].

كان رضوان الله عليه من خيرة أصحاب النبي (ص) وكان راسخ الإيمان بالله، فاضلاً، فقيهاً، جليل القدر، مثالاً للزهد والتقى والصدق، كان من السابقين الأوائل إلى الإسلام، وكان قبل إسلامه يعبد الله ولم يشرك به، وقد عذب نتيجة اعتناقه الإسلام، وكان مجاهراً لإسلامه أمام الناس[٢٧].

لا تأخذه في الله لومة لائم، فقد كان منطيقاً قوالاً للحق، اتخذه رسول الله (ص) أحد حواريه؛ وذلك لعظمة شأنه، وجلالة قدره، ومن الأربعة الذين أمر الله نبيه (ص) بحبهم، وأول من حيّا النبي (ص) بتحية الإسلام[٢٨].

من أوائل من والى واخلص لعلي أمير المؤمنين (ع) قولاً وعملاً؛ فكان أول من لقب بالشيعي في عهد النبي (ص)، وكان من النفر القليل الذين حضروا تشييع جنازة فاطمة الزهراء عليها السلام وصلوا عليها[٢٩].

قال فيه رسول الله (ص) كلاماً ما قاله في غيره من الصحابة، من ذلك قوله (ص): (ما أضلت الخضراء ولا أقلت الغبراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر ومن سره أن ينظر إلى تواضع عيسى بن مريم فلينظر إلى أبي ذر[٣٠]. وقد صدّق الإمام الصادق (ع) هذا الحديث بعدما سأله احد أصحابه عن مدى صحته، يقول الرجل: قلت لأبي عبد الله (ع): أليس قال رسول الله (ص) في أبي ذر - رحمة الله عليه - ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء.....) الحديث.

قال: بلى.

قال: قلت: فأين رسول الله، وأمير المؤمنين؟ وأين الحسن والحسين.

قال فقال لي: كم السنة شهرا؟

قلت: اثنا عشر شهراً.

قال: كم منها حرم؟

قلت: أربعة أشهر.

قال: فشهر رمضان منها؟

قال: قلت: لا.

قال (ع): إن في شهر رمضان ليلة أفضل من ألف شهر إنا أهل بيت لا يقاس بنا أحد[٣١].

وقال رسول الله (ص): (أبو ذر صديق هذه الأمة)[٣٢] فضرب المثل بصدقه وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى الرعاية والاهتمام اللذين حضي بهما أبو ذر من لدن رسول الله (ص)، فقد كان رسول الله (ص) يبتدئه بالسؤال والكلام إذا حضر، ويسأل عنه إذا غاب.

فعن أبي الدرداء قوله: (كان النبي (ص) يبتدئ أبا ذر إذا حضر ويفتقده إذا غاب)[٣٣].

وبالرغم من أنه (ص) قليل المزاح، إلا أنه كان يمازح أبا ذر، فقد روي أنه قدم إلى المدينة، فلما رآه النبي قال له: (أنت أبو نمله) قال: أنا أبو ذر[٣٤].

وقد عده رسول الله (ص) من أهل البيت، وهذا ما نقله لنا هو حيث قال: (دخلت يوم في صدر نهار على رسول الله (ص) في مسجده، فلم أر في المسجد أحداً من الناس إلا رسول الله (ص) وعلي (ع) إلى جانبه جالس، فاغتنمت خلوة المسجد، فقلت: يا رسول الله بابي أنت وأمي أوصني بوصية ينفعني الله بها. فقال (ص) أنعم وأكرم بك يا أبا ذر، انك منا أهل البيت وإني موصيك بوصية، فأحفظها، فإنها جامعة لطرق الخير وسبله، فإنك إن تحفظها كان لك بها كفل...)[٣٥].

أما أمير المؤمنين علي (ع) فقد قال فيه أشياء وأشياء نقتطف منها هذه الدرر: (ضاقت الأرض بسعة، بهم ترزقون وبهم تنصرون، وبهم تمطرون...) منهم سلمان الفارسي والمقداد وأبو ذر وعمار وحذيفة، رحمهم الله تعالى وكان علي (ع) يقول: وأنا إمامهم وهم الذين صلوا على فاطمة (عليها السلام)[٣٦].

وقال عنه أيضاً: (وعى أبو ذر علماً عجز الناس عنه، ثم أوكأ عليه، فلم يخرج شيء منه، وإنما أوكأ أبو ذر على ذلك العلم، ومنعه عن الناس لأنه لا تحتمله عقولهم)[٣٧].

وفي رواية أخرى عنه (ع): (وعى علماً عجز فيه، وكان شحيحاً حريصاً على دينه، حريصاً على العلم، وكان يكثر السؤال، فيعطى ويمنع، أما أن قد مليء في وعائه حتى امتلأ)[٣٨].

هذه الالتفاتة من أمير المؤمنين، تتحدث عن علمه الذي اكتسبه عن رسول الله (ص) وعن أمير المؤمنين أيضاً، فقد كان (رض) حريصاً على اقتباس العلوم فكان يغتنم الفرصة في ذلك، عن ذلك حدثنا هو بنفسه قائلاً: (لقد سالت النبي (ص) عن كل شيء حتى سألته عن مس الحصى (في الصلاة)، فقال: مسَّه مرة، أودع[٣٩].

وقال أيضاً: لقد تركنا رسول الله (ص) وما يحرك طائر جناحيه في السماء، إلا ذكرنا منه علماً)[٤٠].

وقد قيل عنه أنه كان رضي الله تعالى عنه، (للرسول (ص) ملازماً جليساً، وعلى مسائلته والاقتباس منه حريصاً، وللقيام على ما استفاد منه أنيساً، سأله عن الأصول والفروع،

وسأله عن الإيمان والإحسان، وسأله عن رؤية ربه تعالى، وسأله عن أحب الكلام إلى الله تعالى، وسأله عن ليلة القدر، أترفع مع الأنبياء أم تبقى؟، وسأله عن كل شيء حتى مس الحصى في الصلاة)[٤١]، ومن هذا العلم الذي اكتسبه منهم استحق أن يمنحه النبي (ص) والإمام علي (ع) الأوسمة العظيمة من الكلمات التي قالوها بحقه (رض)، وكان أعظم هذه الأوسمة ما ذكره القمي إذ قال: (كان أبو ذر تخلف عن رسول الله (ص) ثلاثة أيام، وذلك أن جمله كان أعجف، فلحق به بعد ثلاثة أيام ووقف عليه جمله في بعض الطريق، فتركه وحمل ثيابه على ظهره، فلما ارتفع النهار نظر المسلمون إلى شخص مقبل فقال رسول الله (ص): كن أبا ذر فقالوا: هو أبو ذر، فقال رسول الله (ص): أدركوه بالماء فإنه عطشان، فأدركوه بالماء، ووافى أبو ذر رسول الله (ص) ومعه أداؤه فيها ماء، فقال رسول الله (ص): يا أبا ذر معك ماء وعطشت، فقال: نعم يا رسول الله بأبي أنت وأمي انتهيت إلى صخرة وعليها ماء السماء فذقته فإذا هو عذب وبارد فقلت: لا أشربه حتى يشربه حبيبي رسول الله، فقال رسول الله (ص): يا أبا ذر رحمك الله تعيش وحدك وتموت وحدك وتبعث وحدك وتدخل الجنة وحدك ويسعد بك قوم يتولون غسلك وتجهيزك ودفنك)[٤٢].

بعد موت أبي بكر بن قحافة انتقل إلى الشام واستوطنها فلم يزل بها حتى أيام حكومة عثمان بن عفان، فوقف فيه موقف المعارض، وأخذ ينهاه عن قبائح أعماله، ويحتج على تصرفاته المشينة والمخالفة للإسلام، فأبعده عثمان إلى الربذة[٤٣].

وأمر الناس أن يتحاموه ويتجافوه، وأن لا يجالسوه ومنعه من الفتيا، لكنه لم يعبأ لذلك، ففي تذكرة الحفاظ بسنده عنه (رض): إن رجلاً أتاه فقال: (إن مصدقي عثمان ازدادوا علينا أنغيب عنهم بقدر ما ازدادوا علينا؟ فقال: لا قف مالك وقل ما كان لكم من حق فخذوه، وما كان باطلاً فذروه، فما تعدوا عليك جعل في ميزانك يوم القيامة، وعلى رأسه فتى من قريش، فقال: أما نهاك أمير المؤمنين عن الفتيا؟ فقال: أرقيب أنتَ عليَّ، فوالذي نفسي بيده لو وضعتم الصمصامة هاهنا، ثم ظننت إني منفذ كلمة سمعتها من رسول الله (ص) قبل أن تحتزوا لأنفذتها)[٤٤].

وعند خروجه من المدينة إلى الربذة جعل عثمان مروان بن الحكم مراقباً عليه، حتى لا يودعه الناس، فعلم أمير المؤمنين علي (ع) بإبعاده، جاء ومعه الحسنان (عليهما السلام) وجماعة من المسلمين لتوديعه، فاعترضهم مروان قائلاً: يا علي إن أمير المؤمنين قد نهى الناس أن يصحبوا أبا ذر في سيره ويشيعوه، فإن كنت لم تدر بذلك فقد أعلمتك، فحمل عليه أمير المؤمنين (ع) بالسوط وضرب بين أذني ناقة مروان وقال (ع) تنح نحاك الله إلى النار، ثم مضى مع أبي ذر مشيعاً له، ثم ودعه وانصرف[٤٥].

ولم يزل في منفاه الربذة حتى توفي في شهر ذي الحجة سنة ٣٢هـ، وقيل ٣١ هـ، وصلى عليه عبد الله بن مسعود ودفن بها[٤٦].

ما نزل فيه من القرآن:

نقل أصحاب التفاسير جمله من الآيات القرآنية النازلة في أبي ذر الغفاري ونحن إذ ننقلها، إنما نريد أن يطلع العالم على الصنف الراقي من البشر الذين اتبعوا علياً (ع)، فعلياً قد نال حبَ الصحابة المنتجبين فقط، أما مَن مردوا على النفاق فقد كانوا في الجهة الأخرى، فكان نصيبه - حسب ما نقل المفسرون - عدة آيات كان واحداً من مصاديقها وهي:

أولاً - قوله تعالى: ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾ (البقرة: ٨٥).

نقل الحويزي عن علي بن إبراهيم قوله: أنها نزلت في أبي ذر (رض) وعثمان بن عفان، وكان سبب ذلك لما أمر عثمان بنفي أبي ذر (رض) إلى الربذة دخل عليه أبو ذر (رض) وكان عليلاً متوكئاً على عصاه، وبين يدي عثمان مائة ألف درهم قد حملت إليه من بعض النواحي.....[٤٧].

وهذه من الإرهاصات القرآنية، إذ قد ينزل من القرآن شيء لم يفسر إلا بعد عصر الوحي.

ثانياً - قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (البقرة: ٢٠٧).

نقل الطوسي عن عكرمة قوله: نزلت في أبي ذر الغفاري: جندب بن السكن، وصهيب بن سهان: لأن أهل أبي ذر أخذوا أبا ذر، فانفلت منهم، فقدم على النبي (ص)، فلما رجع مهاجراً عرضوا له، فانفلت حتى نزل على النبي (ص).

ثالثاً - قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (المائدة: ٨٧).

نقل الطبرسي في سبب نزول هذه الآية: (إن عشرة من الصحابة اجتمعوا في بيت عثمان بن مظعون وهم: علي وأبو بكر وعبد الله بن مسعود وأبو ذر الغفاري.... وقرروا الصيام نهاراً وقيام الليل، وأن لا يناموا على الفرش، ولا يأكلوا اللحم وغيره من الطيبات ويذهبوا، فبلغ ذلك النبي (ص) فجمعهم وقال: إني لم أؤمر بذلك، إن لأنفسكم عليكم حق....)[٤٩].

قيل أنها نزلت في قوم فقراء كان يجالسهم رسول الله (ص) كان أبو ذر منهم[٥٠].

رابعاً - قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ (التوبة: ١١٧). نزلت فيه وفي جماعة تخلفوا عن غزوة تبوك مع النبي (ص) ثم التحقوا بالمسلمين وشاركوهم في الغزوة[٥١].

خامساً - قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (الكهف: ٢٨).

قال الطبرسي: (نزلت في سلمان وأبي ذر وصهيب وعمار وخباب وهم فقراء أصحاب النبي....)[٥٢].

سادساً ـ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ (محمد: ٢) نقل الحويزي إنها نزلت في أبي ذر وسلمان وعمار والمقداد لم ينقضوا العهد وآمنوا بما نزل على محمد (ص) أي ثبتوا على الولاية التي انزلها الله وهو الحق يعني أمير المؤمنين (ع)[٥٣].

المبحث الثاني

مروياته في أمير المؤمنين (ع)

نعم لقد أحب أبا ذر علياً، ونادى في كل الأماكن وفي كل المناسبات بأحقيته في الخلافة استناداً إلى ما سمعه هو، وبقية الصحابة من الرسول (ص) في ذلك، كحديث الغدير.

وتشيع لعلي (ع) مع ثلة مؤمنة من الصحابة، يقول السجستاني: (إن لفظ الشيعة على عهد رسول الله (ص) كان لقب أربعة من الصحابة... سلمان الفارسي، أبو ذر الغفاري، المقداد بن الأسود الكندي وعمار بن ياسر)[٥٤].

وقال المفيد متحدثاً عن إمامة أمير المؤمنين (ع): (فاختلفت الأمة في إمامته يوم وفاة النبي (ص) فقالت شيعته، وهم: بنو هاشم كافة، وسلمان، وعمار، وأبو ذر)[٥٥].

وقال اليعقوبي: (وتخلف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين ومن الأنصار ومالوا مع علي بن أبي طالب، منهم: العباس بن عبد المطلب إلى أن قال: وأبو ذر الغفاري وعمار بن ياسر...)[٥٦].

فقد دعا بولاية علي (ع) في كل مناسبة من باب ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات: ٥٥).

ففي مكة كان ينادي بولايته في مواسم الحج، من ذلك:

١- عن عباية بن ربعي أنه قال: بينما عبد الله بن عباس، جالس على شفير زمزم (يقول: قال رسول الله (ص)، إذ أقبل رجل متعمم بعمامة) فجعل ابن عباس لا يقول قال رسول الله (ص)، إلا قال الرجل: قال رسول الله (ص) فقال ابن عباس: سألتك بالله مَن أنت؟

قال: فكشف العمامة عن وجهه، وقال: يا أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومَن لم يعرفني، فأنا جندب بن جنادة، البدري، أبو ذر الغفاري، سمعت رسول الله (ص) بهاتين، وإلا صمتا ورأيته بهاتين، وإلا فعميتا.

يقول: علي قائد البررة، وقاتل الكفرة، منصور من نصره، مخذول من خذله.

أما إني صليت مع رسول الله (ص) يوماً من الأيام صلاة الظهر، فسأل سائل في المسجد، فلم يعطه أحد، فرفع السائل يده إلى السماء وقال: (اللهم) أشهد إني قد سالت في مسجد رسول الله (ص) فلم يعطني أحد شيئاً، وعلي (ع) كان راكعاً، فأومأ بخنصره اليمنى - وكان يتختم فيها - فاقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره، وذلك بعين رسول الله (ص)،

فلما فرغ النبي (ص) من صلاته، ورفع رأسه إلى السماء، وقال: اللهم إن أخي موسى سالك فقال: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴾ (طه: ٢٥ ـ ٣٢) فأنزلت عليه قرآناً ناطقاً ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ (القصص: ٣٤) اللهم، وأنا محمد نبيك وصفيك، اللهم اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واجعل لي وزيراً من أهلي، علياً أخي، أشدد به ظهري.

قال أبو ذر: فو الله ما استتم رسول الله (ص) الكلمة، حتى نزل عليه جبرائيل من عند الله، فقال يا محمد اقرأ: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾ (المائدة: ٥٥)[٥٧].

٢- كذلك أيضاً بسنده عن الحافظ أبي بكر، بسنده عن كديرة الهجري.

القول: إن أبا ذر اسند ظهره إلى الكعبة فقال: (أيها الناس، هلموا أحدّثكم عن نبيكم (ص)، سمعت رسول الله (ص) يقول لعلي ثلاثاً، لئن يكون لي واحدة منهن أحب إلي من الدنيا وما فيها.

سمعت رسول الله (ص) يقول لعلي (ع): اللهم أعنه واستعن به، اللهم انصره وانتصر به، فإنه عبدك وأخو رسولك)[٥٨].

٣- وفي المستدرك، عن حنش الكناني، أنه قال: سمعت أبا ذر يقول - وهو آخذ بباب الكعبة: (يا أيها الناس، من عرفني، فأنا من عرفتم، ومن أنكرني، فأنا أبو ذر سمعت رسول الله (ص) يقول: ألا أن مثل أهل بيتي فيكم، مثل سفينة نوح من قومه، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق)[٥٩].

هذا بالنسبة لدوره في مكة، أما في المدينة، فإنه مارس نفس الدور ورغم المراقبة الشديدة المفروضة من قبل الأمويين، قد وقف على باب مسجد عاصمة العالم الإسلامي، ومقر الخلافة الإسلامية، صادعاً بأحقية أمير المؤمنين علي (ع) بالخلافة، فقد نقل اليعقوبي في تاريخه: بلغ عثمان أن أبا ذر يقعد في مسجد رسول الله (ص) ويجتمع إليه الناس، فيُحدّث بما فيه الطعن عليه، وأنه وقف بباب المسجد، فقال: أيها الناس، من عرفني فقد عرفني، ومَن لم يعرفني، فأنا أبو ذر الغفاري، جندب بن جنادة الربذي: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤).

محمد الصفوة من نوح، فالأول من إبراهيم، والسلالة من إسماعيل والعترة الهادية من محمد، إنه شرف شرفهم واستحقوا الفضل في قوم (قومهم) هم فينا كالسماء المرفوعة، وكالكعبة المستورة، أو كالقبلة المنصوبة، أو كالشمس الضاحية، أو كالقمر الساري، أو كالنجوم الهادية، (أو كالشجرة الزيتونة) أضاء زيتها، وبورك زبدها ومحمد وارث علم آدم، وما فضّل به النبيون، وعلي بن أبي طالب وصي محمد ووارث علمه.

(أيتها الأمة المتحيرة، أما لو قدّمتم من قدَّم الله، وأخّرتم من أخّر الله، وأقررتم الولاية والوراثة في أهل بيت نبيكم، لأكلتم من فوق رؤوسكم، ومن تحت أقدامكم، ولما عالَ ولي الله، ولا طاش سهم من فرائض الله، ولا اختلف اثنان في حكم الله، وإلا وجدتم علم ذلك عنده، من كتاب الله وسنة نبيه، فأما إذا فعلتم ما فعلتم، فذوقوا وبال أمركم وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)[٦٠].

أشار رضوان الله عليه إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦).

حيث أنه تعالى رفع عنا البركات بسبب جحود حقوق أهل بيت نبيه (ص).

أما في الشام مركز ومقر التشيع الأموي وعاصمته، فلم يخش أبو ذر لومة لائم، فكان يسلك نفس المسلك مع من يجتمع إليه من الناس ويحدثهم بمثل ذلك.

اليعقوبي أيضاً قال: (وكان يجلس في المسجد - يعني في الشام - فيقول كما كان يقول في المدينة ويجتمع إليه الناس، حتى كثُر من يجتمع إليه ويسمع منه)[٦١].

أما بعد منفاه في الربذة، فلم تشغله آلامه وهمومه عن إكمال مسيرته التي بدأت خطاها في عهد النبي (ص) فظل متمسكاً بمبدئه هذا، منادياً به حين تسنح له الفرصة من ذلك، فرصة اللقاء بمن يستمع إليه، ويأخذ منه، - رغم قلة سالكي طريق الربذة إلا في أحيان صعبة - ففي شرح النهج عن أبي رافع قال: (أتيت أبا ذر بالربذة أودعه، فلما أردت الانصراف قال لي ولا ناس معي: ستكون فتنة فاتقوا الله وعليكم بالشيخ: علي ابن أبي طالب، فاتبعوه)[٦٢].

وفي كشف الغمة عن أحمد بن مردويه في كتاب المناقب عن محمد بن علي بن رحيم عن الحسن بن الحكم الخبري عن سعد بن عثمان الخزاز عن أبي مريم عن داوود ابن أبي عوف عن معاوية بن ثعلبة الليثي، قال: (ألا أحدثك بحديث لم يختلط؟ قلت: بلى! قال: مرِض أبو ذر فأوصى إلى علي (ع) فقال بعض من يعوده لو أوصيت إلى أمير المؤمنين عثمان كان أجمل لوصيتك من علي، قال: والله لقد أوصيت إلى أمير المؤمنين حق أمير المؤمنين: والله إنه الربيع الذي يُسكن إليه ولو قد فارقكم، لقد أنكرتم الناس وأنكرتم الأرض، قال: قلت: يا أبا ذر إنا لنعلم أن أحبهم إلى رسول (ص) أحبهم إليك، قال: أجل، قلنا: فأيهم أحب إليك؟ قال: هذا الشيخ المظلوم المضطهد حقه، يعني علي بن أبي طالب)[٦٣] هذه هي المثالية في المواقف، فقد ضرب بموقفه هذا مثلاً في التشيع الصحيح تحتذي به الأجيال جسّم فيه كل معاني الثبات والصمود، فما كان لتلين له عريكة، ولا لتميل له قناة، لقد كان صلباً قوياً، متفانياً في سبيل الحق، وكأنه في موقفه هذا يفسر لنا بيعته لرسول الله (ص): أن لا تأخذه في الله لومة لائم، وأن يقول الحق ولو كان مُراً.

هذا الرسوخ في العقيدة والثبات لم يكن من لاشيء وإنما كان من كثرة ما سمعه من رسول الله (ص) في علي وأهل بيته (عليهم السلام)، فقرر أن يضع روحه على راحته، وأن

يدافع عن عقيدته هذه مهما كلفه الثمن، حتى وإن كانت نفسه هي الثمن، نقف على ما كان له الشرف في روايته عن رسول الله (ص) في علي (ع) من ذلك:

١- حديث المنزلة: نقله صاحب كنز العمال عن أبي ذر قوله (ص): (ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)[٦٤].

٢- نقل صاحب ينابيع المودة عنه (رض) قول رسول الله (ص): (يا علي أنت الصديق الأكبر، وأنت الفاروق الذي يفرق بين الحق والباطل، وأنت يعسوب المؤمنين)[٦٥].

٣- نقل صاحب مجمع الزوائد، عن أبي ذر وسلمان قالا: أخذ النبي (ص) بيد علي (ع) فقال: (إن هذا أول من آمن بي وهذا أول من يصافحني يوم القيامة...)[٦٦].

٤- وفي المناقب، عن أبي ذر قال: قال رسول الله (ص): (إن الملائكة صلت عليَّ وعلى علي سبع سنين قبل أن يُسلِم البشر)[٦٧].

٥- وعن أبي ذر أن النبي (ص) قال: (يا أبا ذر علي أخي وصهري وعضدي أن الله لا يقبل فريضة إلا بحب علي بن أبي طالب، يا أبا ذر لما أسري بي إلى السماء مررت بملك جالس على سرير من نور على رأسه تاج من نور إحدى رجليه في المشرق والأخرى في المغرب، وبين يديه لوح ينظر إليه والدنيا كلها بين عينيه، والخلق بين ركبتيه، ويده تبلغ المشرق والمغرب، فقلت: يا جبرائيل من هذا؟ فما رأيت من ملائكة ربي جل جلاله أعظم خلقاً منه؟ قال: هذا عزرائيل ملك الموت، إدنُ فسلّم عليه، فدنوت منه فقلت: سلام عليك حبيبي ملك الموت، فقال: وعليك السلام يا أحمد ما فعل ابن عمك علي بن أبي طالب؟ فقلت: وهل تعرف ابن عمي؟ قال: وكيف لا أعرفه وإن الله جل جلاله وكلني بقبض أرواح الخلائق ما خلا روحك وروح علي بن أبي طالب فان الله يتوفاكما بمشيئته)[٦٨].

٦- وروى (رض) قال: سمعت رسول الله (ص) يقول: (كنت أنا وعلي نوراً عن يمين العرش، يسبح الله ذلك النور، ويقدسه قبل أن يخلق الله آدم بأربعة عشر ألف عام، فلم أزل أنا وعلي في شيء واحد حتى افترقنا في صلب عبد المطلب)[٦٩].

٧- عن أبي ذر (رض) قال: قال رسول الله (ص): (من ناصب علياً الخلافة بعدي فهو كافر، وقد حارب الله ورسوله، ومن شك في علي فهو كافر)[٧٠].

٨- عن أبي ذر (رض) قال: نظر النبي (ص) إلى علي (ع) وقال: هذا خير الأولين وخير الآخرين من أهل السماوات والأرضين وإمام المتقين، هذا سيد الصديقين وسيد الوصيين وقائد الغر المحجلين، إذا كان يوم القيامة جاء على ناقة من الجنة، قد أضاءت القيامة من ضوءها على رأسه تاج من الزبرجد مرصع بالدر والياقوت فيقول الملائكة: هذا ملك مقرب؟! ويقول النبيون هذا نبي مرسل؟! فينادي منادٍ من تحت العرش، هذا الصديق الأكبر، هذا وصي حبيب الله، هذا علي ابن أبي طالب. فيقف على شفير جهنم، فيُخرج من يحب ويُدخل فيها من يحب ويأتي باباً فيُدخل أوليائه بغير حساب)[٧١].

٩- عن أبي ذر الغفاري قال: قال رسول الله (ص) مثل علي في هذه الأمة كمثل الكعبة، النظر إليها عبادة، والحج إليها فريضة[٧٢].

١٠- عن أبي ذر (رض): قال بينما أنا بين يدي رسول الله إذ قام ثم ركع وسجد شكراً لله تعالى، ثم قال يا جندب من أراد أن ينظر إلى آدم في علمه وإلى نوح في فهمه وإبراهيم في خلته وموسى في مناجاته وعيسى في سماته وأيوب في صبره ببلائه فلينظر إلى هذا الرجل المقبل الذي هو الشمس والقمر الساري والكوكب الدري أشجع الناس قلباً وأسخاهم كفاً فعلى مبغضه لعنة الله تعالى. قال: فالتفت الناس لينظروا من هو المقبل وإذا بعلي بن أبي طالب (ع)[٧٣].

١١- عن أبي ذر: إن كنت تخاف فألزم كتاب الله وعلي بن أبي طالب فاشهد على رسول الله (ص) أني سمعته وهو يقول: (علي أول من آمن بي وأول من يصافحني وهو الصديق الأكبر (وهو الفارق بين الحق والباطل)[٧٤].

١٢- عن أبي ذر قال: قال رسول الله (ص) لعلي: من أطاعني فقد أطاع الله ومن أطاعك أطاعني ومن عصاني عصا الله ومن عصاك عصاني[٧٥].

١٣- عن أبي ذر (رض) قال: قال رسول الله (ص): لا تضادوا بعليٍ أحداً فتكفروا، ولا تفضلوا عليه أحداً فترتدوا[٧٦].

١٤- عن أبي ذر (رض) قال: سمعت رسول الله (ص) يقول: من أنكر فضل علي بن أبي طالب وجحد ولايته فقد نزع ربقة الإسلام من عنقه، أيها الناس: أنزِلوا آل محمد منكم منزلة الرأس من البدن ومنزلة العينين من الرأس، إنما مثلهم فيكم مثل سفينة نوح (ع) من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك[٧٧].

هذا بالإضافة إلى أحاديث أخرى بالمئات أعرضنا عن ذكرها؛ لأنها تصب في مصبٍ واحد، ألا وهو وجوب ولاية علي بن أبي طالب (ع) وأهل بيته الكرام؛ لأحقيتهم بالخلافة بعد الرسول (ص)؛ لأنهم أولي الأمر الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين وصلى الله على محمدٍ وآله الطاهرين.

الخاتمة وأهم النتائج:

بعد هذه الإطلالة السريعة واللمحة الخاطفة والاغتراف من المنهل العذب المتمثل في الرحاب الطاهر من فكر أمير المؤمنين وسيد الموحدين الإمام علي بن أبي طالب (ع) والذي جاد به فذ من أفذاذ الإسلام وعلم من أعلامه الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري (رضي الله عنه) نرى أن نختم هذا العمل الضئيل بما توصلنا إليه من نتائج:

١ ـ ثبت أن صحابة رسول الله (ص) انقسموا بعده إلى طائفتين، طائفة انقلبت على أعقابها وتناست ما كان يوصي به الرسول (ص) بالمبادئ الإلهية والوصايا الربانية، وطائفة ثبتت على المبادئ والقيم السماوية، وما سار عليه النبي (ص). فكان أبو ذر واحداً من الذين حافظوا على تلك السنن الإلهية والمبادئ الرسالية.

٢ ـ اتضح أن أبا ذر الغفاري شكل مع مجموعة من الصحابة الموالين المبدئيين تجمهرا قاده بنفسه، أطلق عليه (شيعة علي) كرد واضح على الطرف الآخر الذي تنكر للوصي (ع).

٣ ـ اشتهرت مواجهة أبي ذر لجاحدي الحق ومنكري الحقائق والذين حرفوا المسيرة عن مسارها الصحيح، فكان الصوت المدوي واللسان الثائر ضد الطغمة الحاكمة، مما أدى إلى أن يتحمل تبعات ذلك، دافعاً الثمن الباهظ حتى استسلامه لأجَله. فكانت حياته كلها جهداً من أجل تبيين الحق وإظهاره.

٤- كان للفكر الثاقب الذي حمله أبو ذر الغفاري الأثر الكبير في تثبيت قواعد الرسالة ورواسي النبوة، بعدما كادت المؤامرات والدسائس تأخذ طريقها في التآمر على الإسلام. فكان (رضي الله عنه) يبث علمه ويثري فكره في المسلمين في إيضاح حقيقة الوصية وأحقية أمير المؤمنين (ع) في ولاية المسلمين من أجل أن يسير بهم السيرة الصحيحة ويحملهم على الجادة الواضحة، وهو ما أراده الله ورسوله.

الهوامش:

خير ما نبدأ به القرآن الكريم:

(١) مقطع من كلمة ألقاها الكاتب جورج جرداق في مهرجان الإمام علي بن أبي طالب (ع) الذي أقيم برعاية مركز الفردوس للثقافة والإعلام في السيدة زينب (عليها السلام)، مجلة النبأ العدد٦٣، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م، ص١٧١.

(٢) شرح نهج البلاغة: ابن ميثم البحراني، كمال الدين، ميثم بن علي (ت: ٦٦٩هـ)، ٨٤/٤، مكتب الإعلام الإسلامي، قم، ط١.

(٣) شرح نهج البلاغة: ابن ميثم البحراني، ٥/ ١٠٠.

(٤) م. ن ٨٣/٤.

(٥) م. ن ٤/ ٨٤.

(٦) السقيفة أم الفتن: جواد جعفر الجليلي، ١١٠، دار الإرشاد.

(٧) شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد، ١٨٥/٢، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط١. ١٩٥٩ م.

(٨) الإمام علي (ع) في الفكر المسيحي المعاصر، راجي أنور هيفا، ص٥٣ ـ ٥٤، دار العلوم، بيروت ـ لبنان، ط٣، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠.

(٩) الإمام علي بن أبي طالب: توفيق أبو علم، ص٧١، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٨٦م.

(١٠) م. ن ص٧٥.

(١١) الإمامة والسياسة: ابن قتيبة الدنيوري أبي محمد عبد الله بن مسلم، (ت: ٢٧٦هـ)، ص٣٠ تح: علي شيري، دار الأضواء – بيروت ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

(١٢) تاريخ الطبري: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ) ٢/ ٢٢٦، الأميرة للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

(١٣) شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد، ١/ ٢٠٧ (مصدر سابق).

(١٤) علي إمام المتقين: عبد الرحمن الشرقاوي ص٧، مطبوعات دار الأندلس، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٣٠ ـ ٢٠٠٩م.

(١٥) كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب (ع) أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد القرشي الكنجي الشافعي (ت: ٦٥٨هـ)، ص١٢٢ تح: محمد هادي الأميني، المطبعة الحيدرية ـ النجف، ط٢، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م.

(١٦) بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: المجلسي، محمد باقر (ت: ١١١١هـ)، ٣٦/ ٢٥٧. تح محمد باقر البهبودي، دار احياء التراث العربي –بيروت، ط٣، ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٦م.

(١٧) م. ن ١٤١/٢٩.

(١٨ ـ ١٩) الإمامة والسياسة: ابن قتيبة ١/ ٣١ (مصدر سابق).

(٢٠) مناقب آل أبي طالب: ابن شهر أشوب، مشير الدين، أبو عبد الله محمد بن علي (ت: ٥٨٨هـ)، ٣١١/١. المطبعة الحيدرية ـ النجف، ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٦م.

(٢١) م. ن ١/ ٣١١

(٢٢) البداية والنهاية: ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ) ٣١٠/٧، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠١ ـ ١٤٢٢.

(٢٣) فضائل الصحابة: أحمد بن محمد بن حنبل (ت: ٤١هـ) ص٦٧٥، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣.

(٢٤) فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير: المناوي، محمد عبد الرؤوف، ٣٨٨/٦، دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان، ط٣، ٢٠٠٦ ـ ١٤٢٧.

(٢٥) انظر: أبو ذر الغفاري الصحابي المجاهد /محسن الأمين ص٥ ـ ٩، دار المرتضى، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٣ ـ ٢٠٠٣.

(٢٦) أبو ذر الغفاري: محمد جواد آل الفقيه ص٢١، دار التعارف للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، ط سنة ١٤١٢ ـ ١٩٩٢.

(٢٧) انظر: م. ن ص٣١ ـ ٣٧.

(٢٨) انظر: أبو ذر الغفاري، محسن الأمين ص٩ ـ ٢٠.

(٢٩) انظر: أبو ذر الغفاري: محمد جواد آل الفقيه ص٥٤ ـ ٦١.

(٣٠) بحار الأنوار: المجلسي ٢٢/ ٤٢٠ (مصدر سابق).

(٣١) معاني الأخبار: الصدوق /أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه (ت: ٢٨١هـ) ص١٧٩، تح: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ١٣٧٩.

(٣٢) عيون أخبار الرضا (ع): الصدوق ٧/١، تح: حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي ـ بيروت، ط١، ١٤٠٤ ـ ١٩٨٤.

(٣٣) تاريخ مدينة دمشق: ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسين (ت: ٥٧١هـ) ٦٦، ١٨٧، تح: علي شيري، دار الفكر، بيروتط١، ١٤١٩ ـ ١٩٨٨.

(٣٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله (ت: ٤٦٣هـ)، ١٦٥٤، تح: علي محمد البيجاوي، دار الجبل، بيروت، ط١، ١٤١٢.

(٣٥) الأمالي: الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن (ت: ٤٦٠هـ) ص٥٢٥ دار الثقافة، قم، ط١، ١٤١٤هـ.

(٣٦) بحار الأنوار: المجلسي، ٢٢/ ٣٥١ مصدر سابق.

(٣٧) بحار الأنوار: المجلسي، ٢٢/ ٤٢٠ مصدر سابق.

(٣٨) الغدير في الكتاب والسنة والأدب: الأميني عبد الحسين أحمد (ت: ١٣٩٢هـ)٣١١/٨٠، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط٤١، ١٣٩٧ ـ ١٩٧٧.

(٣٩) م. ن، ٣١٢/٨عن مسند أحمد.

(٤٠) الغدير: الأميني، ٨/ ٣١٢ مصدر سابق.

(٤١) م. ن، ٨/ ٣١٢ مصدر سابق.

(٤٢) تفسير القمي: القمي أبو الحسن علي بن إبراهيم (ت: ق٤هـ) تح: طيب الموسوي، دار الكتاب قم، ط٣، ١٤٠٤.

(٤٣) هي قرية من قرى المدينة، بحار الأنوار: المجلسي، ١٣٢/٣٢مصدر سابق.

(٤٤) تذكرة الحفاظ: الذهبي أبو عبد الله شمس الدين (٧٤٨هـ)٣٤٥/١ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

(٤٥) بحار الأنوار: المجلسي ١٨٢/٣١ مصدر سابق.
(٤٦) أعيان الشيعة: محسن الأمين (ت: ١٣٧١هـ) دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٤٠٣.
(٤٧) تفسير نور الثقلين: عبد علي بن جمعه الغروي الحويزي ١/ ٩٤. إسماعليان - قم المقدسة ط٤، ١٤١٥.
(٤٨) التبيان في تفسير القرآن: الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن (ت: ٤٦٠هـ)، ١٨٣/٢ تح: أحمد قصير، دار إحياء التراث العربي.
(٤٩) مجمع البيان: الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن (ت: ٥٠٢)، ٣/ ٣٦٤، دار المعرفة - بيروت - ط١، ١٤٠٦ - ١٩٨٦.
(٥٠) نور الثقلين: الحويزي، ٧٢٠/١ مصدر سابق.
(٥١) الكشاف: الزمخشري، محمود بن عمر (ت: ٥٣٨هـ)، ٢/ ٣٠٤، دار إحياء التراث العربي - مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٧ - ١٩٩٧.
(٥٢) مجمع البيان: الطبرسي، ٦/ ٧١٧ - ٧١٨، مصدر سابق.
(٥٣) تفسير نور الثقلين: الحويزي، ٥/ ٢٧ مصدر سابق.
(٥٤) الشيعة في الميزان: محمد جواد مغنيه (ص١٠٢) دار التعارف، بيروت، ط١، ١٣٩٩ - ١٩٧٩.
(٥٥) الإرشاد: المفيد، أبو عبد الله محمد بن النعمان العكبري (ت: ٤١٣هـ)١م٦، تح: مؤسسة آل البيت عليهم السلام، دار المفيد، ط٢، ١٤١٤ - ١٩٩٣.
(٥٦) تاريخ اليعقوبي: اليعقوبي، أحمد بن يعقوب (ت: ٢٨٤هـ) ٢/ ١٢٤، دار صادر - بيروت.
(٥٧) مجمع البيان: الطبرسي ٣/ ٣٦٢ مصدر سابق.
(٥٨) م. ن، ٦٨.
(٥٩) المستدرك على الصحيحين: الحاكم النيسابوري أبو عبد الله (ت: ٤٠٥هـ)، ١١٥/٣، تح: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت.
(٦٠) تاريخ اليعقوبي: اليعقوبي، ٢/ ١٧٢.
(٦١ و ٦٢ و ٦٣) شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد، ٦٣/٣
(٦٤) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: المتقي الهندي، علاء الدين بن حسام الدين (ت: ٩٧٥هـ) تح: بكري حياني.
(٦٥) ينابيع المودة لذوي القربى: سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي (ت: ٢٩٤هـ) تح: علي جمال اشرف، ١٤٤/٢، دار الأسوة، ط١، ١٤١٦.
(٦٦) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: الهيثمي، علي بن أبي بكر (ت: ٨٠٧هـ) ٩/ ١٠٢، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٨ - ١٩٨٨.
(٦٧) مناقب آل أبي طالب: بن شهر أشوب ١/ ٢١٩ مصدر سابق.
(٦٨) م. ن ٢/ ٧٥.
(٦٩) العمدة، عيون صحاح الأخبار في مناقب إمام الأبرار: ابن البطريق، يحيى بن الحسن الأسدي الحلي (ت: ٦٠٠هـ) ٨٩، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤٠٧.
(٧٠) م. ن ٩١.
(٧١) التحصين: السيد ابن طاووس (ت: ٦٦٤هـ) ٦٠٥، مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، قم، إيران.
(٧٢) الروضة في فضائل أمير المؤمنين: شاذان بن جبريل القمي (ت: ٦٦)٦٣. دار المعرفة، بيروت.
(٧٣) روضة الواعظين: الفتال النيسابوري، محمد بن الفتال (ت: ٥٠٨هـ) ص١٢٨ منشورات الرضي، قم.
(٧٤) مناقب أمير المؤمنين: محمد بن سليمان الكوفي، ج٥٣٥/٢، ح٣٠، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، قم المقدسة.
(٧٥) م. ن: ٦٠٩/٢.
(٧٦) الأمالي: الطوسي، ص١٥٤، (مصدر سابق).
(٧٧) شرح الأخبار: القاضي النعمان المغربي (ت: ٣٦٣هـ)، ٢٦٨/٢، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين. قم المقدسة. ❖

الإمـام علـي (ع)
غدير لا ينضب

عبد الحسين الخزاعي (النجف الأشرف)

المبحث الأول
الولادة والمنزلة

بعد أن حدثت المعجزة الربانية بولادة الإمام علي (ع) الميمونة بانشقاق جدار بيت الله لأمه حتى يولد في جوف الكعبة المشرفة[١] ويفتح عينيه ويبصر الحياة، كان (ع) محاطاً برعاية إلهية خاصة كفلتها السماء متمثلة بنبي الرحمة وبدأت حياته بغذائه من ريق النبي (ص) كما ذكر أهل السير (إن النبي (ص) تولى تغذيته من ريقه المبارك بمص لسانه فما زال يمص حتى نام، فلما كان من الغد طلبنا له مرضعة، فلم يقبل ثدي أحد، فدعونا له محمداً (ص) فألقمه لسانه فنام، فكان كذلك ما شاء الله)[٢]، ويقول (ع) من تلك النشئة (وضعني (ص) في حجره، وأنا ولد يضمني إلى صدره.... وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه)[٣]، ولأنه تربى هكذا تربية ونشأة كان (ص) يقول عنه: (صاحب سري علي بن أبي طالب "ع")، ولهذا فانه (ع) اكتسب من الصفات والخصال الحميدة ما جعلته يرتقي بها إلى مصاف الرسول (ص) نصرة للحق وملازمته له، وحب الخير والعفو والرحمة والصفح والحلم والسخاء والشجاعة والتواضع وسائر الشمائل والفضائل التي تحلى بها قدوته ومربيه النبي الأكرم (ص) حتى أثرت به وبتكوينه الشخصي تأثيراً بدا عليه واضحاً إلى آخر يوم في حياته، وهذا ما سوف نعرضه خلال هذا البحث فيقول (ع) عن تلك الحياة المحمدية (ولقد كنت اتبعه اتباع الفصيل (ولد الناقة) أثر أمه يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالاقتداء به)[٤].

---

(١) قد اشتهر حد التواتر واتفق معظم الرواة والمؤرخون على أن ولادة الإمام علي بن أبي طالب تمت في جوف الكعبة المشرفة، نذكر منهم: الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين، دار الفكر، ١٩٧٨، ج٣، ص٤٨٣، وقد قال (فقد تواترت الأخبار أن فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) في جوف الكعبة. ومثله أيضاً العلامة سبط بن الجوزي في تذكرة الخواص ١٩٨١ بيروت ص٢٠، ومن المتأخرين، الكاتب المصري عباس محمود العقاد، كتاب عبقرية الإمام علي، بدون سنة طبع، بيروت، ص٣٨. والدكتور محمد بكر إسماعيل أصناف التفسير، جامعة الأزهر، قوله (والمشهور عند أهل السنة انه ولد في الكعبة) والمذكور في كتابه فقيه الأمة ومرجع الأئمة علي بن أبي طالب، ط١، ٢٠٠٦، قم المقدسة، ص٣٧.

(٢) انظر: الحلبي، السيرة الحلبية، تحقيق عبد الرحمن الخليلي، ط٢، ٢٠٠٦، بيروت، ج١، ص٣٨٢.

(٣) محمد عبده، نهج البلاغة، تحقيق فاتن اللبون، ط١، بدون سنة طبع، بيروت، خطبة ٩١، ص٣٢٧.

(٤) ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق، تحقيق ابن غرامة، ط١، ١٩٩٦، بيروت، ج٤، ص٣١٧، ترجمة الإمام علي بن أبي طالب، ومحمد عبده، النهج، السابق، خطبة ١٩١، ص٣٢٧.

وعن منزلته يقول (ع): (وأنا من رسول الله كالصنو من الصنو، والذراع من العضد)[١]. ولأنه كذلك كان يقول (ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء (جبل بمكة) فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع في بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله (ص) وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ريح النبوة)[٢]، ولأنه (ع) كان يتمتع بهذه المنزلة العظيمة كان يقول (لقد سمعت رنة الشيطان حين نزول الوحي عليه (ص) فقلت يا رسول الله ما هذه الرنة؟ فقال (ص) هذا الشيطان آيس من عبادته)[٣]، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن عصمته (ع) مقرونة بعصمة النبي، وهذا معنى قوله (ص) له (إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى، إلا أنك لست بنبي، ولكنك وزير، وإنك لعلى خير)[٤]، ولو ربطنا هذا القول الأخير بحق الإمام في بداية الدعوة (بجبل حراء) مع حديث المنزلة الذي قال (ص) بعد مدة طويلة من البعثة النبوية، وهو قوله (ص) (أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي)[٥]، فعملياً ومنطقياً نجد أن المسافة بين القولين أمد طويل إلا أنهما في الوقت نفسه لا يخرجان عن كونه (ص) ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[٦]، وتأسيساً على ما تقدم فإن كل ما لنبي الله هارون من موسى كالوزارة وشد أزره به وإشراكه في أمره وخلافته عنه، وفرض طاعته، وهذا ما سأله موسى ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِى ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾[٧]، وقد استجاب الله تعالى لموسى بقوله ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[٨].

واستناداً على ما تقدم سيكون تحصيل حاصل إن كل ما لهارون من موسى من منزلة ومكانة في السماء هو لعلي (ع) من محمد (ص) إلا النبوة كما أخبر بذلك النبي الأكرم (ص) ولذلك كان (ص) يقول لعلي (ع): (أنت مني وأنا منك)[٩]، وقوله (ص) (علي مني وأنا من علي، ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي)[١٠]، وما يؤيد ويثبت هذه البعضية بين علي ومحمد

---

(١) محمد عبده (السابق) من كتاب له (ع) إلى عثمان بن حنيف، عامله على البصرة، ص٤٤٩.

(٢) السابق، خطبة ١٩١ الخطبة القاصعة، ص٣٢٧.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه.

(٥) ينظر: البخاري، صحيح، بدون سنة طبع، دار صادر بيروت، كتاب فضائل أصحاب النبي (ص) باب مناقب علي بن أبي طالب، ص٦٥٥، وكذلك مسلم في صحيحه ٢٠٠٣ بيروت، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب، ص٩٣٩.

(٦) سورة النجم، الآية ٣ و٤.

(٧) سورة طه، الآية ٢٩.

(٨) سورة طه، الآية ٣٦.

(٩) ذكره البخاري في صحيحه (مصدر سابق) كتاب فضائل أصحاب التجارب، باب مناقب علي بن أبي طالب، ص٦٥٥.

(١٠) رواه ابن ماجة في السنن، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بدون سنة طبع، القاهرة، في باب فضل علي بن أبي طالب، ج١، ص٤٤، ومثله الترمذي في السنن، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، طبعة دار الحديث، بدون سنة طبع، القاهرة، ج٥، ص٣٣٦، وكذلك ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق، (السابق)، ج٤٢، ص٣٤٦.

وفضلاً عن كتاب الله وما سجلته لنا كتب التاريخ والسيرة من أحداث تؤيد ذلك نذكر هنا أقوال الإمام بما يثير تلك المنزلة الكبيرة من رسول الله إذ يقول (ولقد قبض رسول الله (ص) وإن رأسه لعلى صدري ولقد سالت نفسه في كفي، فأمررتها على وجهي، ولقد وليت غسله (ص) والملائكة أعواني فضجت الدار والأفنية ملأ يهبط وملأ يعرج وما فارقت سمعي هيمنة (الصوت الخفي) منهم يصلون عليه، حتى ورأيناه في ضريحه)[١]، وهكذا تحقق ما كان يقوله النبي (ص) في علي (ع) عن تلك اللحظات بقوله (ص): (أعطاني ربي عز وجل به في الدنيا انه مغمضي وغاسلي ودافني)[٢]، أما عن مكانته في الآخرة فكان (ص) يقول عنه (وأعطاني به في الآخرة انه صاحب لواء الحمد يقدمني به، وأعطاني به أنه متكأي في طول الجسر (أي على الصراط) يوم القيامة وأعطاني به انه عون لي على حمل مفاتيح الجنة)[٣].

ولم تنته منزلته (ع) إلى هذا الحد من مربيه الأول بل ارتقى (ع) لتكون نفسه كنفس حبيبه محمد (ص) وهذا ما أخبر به القرآن الكريم كما في قوله تعالى ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[٤]، فالأبناء الحسن والحسين (ع) والنساء فاطمة الزهراء (ع) والنفس علي بن أبي طالب[٥] (ع) ولأنه (ع) كان كمحمد النبي (ص) في كل شيء إلا النبوة فإنه كان يقول عن عظم منزلته تلك وبتواضع معهود منه (والله ما أسمعهم الرسول (ص) شيئاً إلا وها أنا مسمعكموه)[٦]، وهكذا كان (ع) كالنبي (ص) في كل شيء إلا النبوة فكان بحق هو غدير النبي المتدفق من بعده (ص) فإن حياته وسيرته كما كان نبي الرحمة سيرة وأخلاقاً واستحق بكل جدارة أن يكون وصيه وخليفته على الأمة من بعده فكان بحق وحقيقة هو (ع) عطاء النبي (ص) المتدفق وانه الامتداد الطبيعي للنبي ورسالات السماء إلى يوم الدين.

---

(١) محمد عبده، السابق، خطبة ١٩٦، ص٣٣٨.

(٢) ابن عساكر، السابق، ج٤٢، ص٣٣١.

(٣) المتقدم نفسه، فتأمل.

(٤) سورة آل عمران، الآية ٦١.

(٥) عدد كبير من حفاظ وعلماء مدرسة الصحابة ممن أخرج هذه الآية الكريمة بحق علي وفاطمة وولديهما(ع) نذكر منهم: مسلم، صحيح (السابق)، في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب، ص٩٤٠، الحاكم الحسكاني، شواهد التنزيل، تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي، ط٢، ١٩٨٠، بيروت، ج١، ص١٢٢، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ط١، ١٩٨٨، بيروت، ج١، ص٣٧١، محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ط٢، بدون سنة طبع، بيروت، ج٣، ص٣٢٢، جلال الدين السيوطي، تفسير الدر المنثور، ط١، ١٩٩٠، بيروت، ج٢، ص٢٤٦، الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيح (السابق) ج٣، ص١٥٠، الزمخشري، تفسير الكشاف، طبعة دار عالم المعرفة، بدون سنة طبع، ج١، ص١٩٢، ابن الجوزي، تذكرة الخواص (السابق) ص١٩٣، المحب الطبري في ذخائر العقل، ١٩٨١، بيروت، ص٢٥، وغير ما ذكر أكثر فراجع.

(٦) محمد عبده، (السابق)، خطبة ٨٩، ص١٤٠.

المبحث الثاني

علمه (ع)

كان العلم ولا يزال لا يحسب لأحد ولا ينحصر في دين أو حضارة بقدر ما يخدم الإنسانية جمعاء، وهكذا كان علم علي (ع) وأهل بيته إذ قال الإمام علي (ع) عن علمهم (نحن شجرة النبوة ومحط الرسالة ومختلف الملائكة (أي ورودهم واحد بعد آخر)، ومعادن العلم)[١]، أو قوله (ع) بحقهم (عندنا أهل البيت أبواب الحكم وضياء الأمر)[٢]، وقوله (ع) بحق علمه الذي أراده للكل كما في قوله (أيها الناس سلوني قبل أن تفقدوني فلاناً بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض)[٣]، فكان علمهم (ع) مسخر للإنسانية كافة، كما هو الحال مثلاً علم الكيمياء والرياضيات والفلك فأساس هذه العلوم وباعتراف الجميع هو حفيد الإمام علي الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) ولو عدنا إلى كلمة (سلوني) التي كان يرددها من على منبر الكوفة مرات ومرات فإنها إن دلت على شيء فإنما تدل على علم جم في صدر هذا الرجل من ناحية، وان هدفه كان نشر هذا العلم وانه لم يكن حكراً عليه أو على أية فئة من جهة أخرى، خاصة (وإنه لم يكن أحد من صحابة النبي (ص) كان يقولها غيره)[٤]، ومقولته هذه لم تأت من فراغ وإنما جاءت من تراكم العلوم التي توفر عليها (ع) من العلوم التي سبقته كما في قوله (ع): (تالله لقد علمت تبليغ الرسالات، وإتمام العدات (العهود) وتمام الكلمات، من أخذ بها لحق ومن وقف عنها ضل وندم)[٥].

فعلمه هذا وأخباره به ما هو إلا تحصيل حاصل لتلك النشئة المباركة والرفقة الأزلية مع النبي (ص) منذ نعومة أظافره وصباه، فكان يقول (وليس كل أصحاب رسول الله (ص) من كان يسأله ويستفهمه حتى إن كانوا ليحبون أن يجيء الإعرابي والطارئ فيسأله حتى يسمعه وكان لا يمر بي من ذلك شيء إلا سألته (ص) وحفظته)[٦]، فكان (ع) أكثر الصحابة علماً كما في قوله (ص) لفاطمة الزهراء (عليها السلام) عند زواجها منه (أما ترضين أني زوجتك أشرفهم حسباً، وأكرمهم منصباً وأكثرهم علماً...)[٧].

---

(١) محمد عبده، نهج البلاغة (السابق) خطبة ١٠٩، ص١٨٩.

(٢) نفسه. خطبة ١٢٠، ص٢٠١.

(٣) نفسه. خطبة ١٨٨، ص٣٠٧.

(٤) ذكر ذلك: جلال الدين السيوطي، في تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ١٩٨٨، بيروت، ص٢١٨ ومثله ابن حجر في الصواعق المحرقة، ط٢، ١٩٦٥، القاهرة، ص١٢٧، ابن سعد في الطبقات الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر، ط١، ١٩٩٠، بيروت، ج٢، ص٢٠٧، المتقي الهندي، منتخب كنز العمال بهامش مسند الإمام أحمد بن حنبل، طبعه دار الفكر، بدون سنة طبع، بيروت، ج٥، ص٤٨١ فراجع.

(٥) محمد عبده، السابق، خطبة ١٢٠، ص٢٠٠.

(٦) نفسه. خطبة ٢٠٩، ص٣٥٣.

(٧) الحاكم النيسابوري (السابق)، ج٣، ص١٢٢، وابن عساكر (السابق) ج٤٢، ص١٣٢ والمتقي الهندي (السابق)، ج٥، ص٣١.

أو ما ذكره ابن مسعود (أن أفرض أهل المدينة وأقضاها علي بن أبي طالب[١]، أو قول عائشة عندما ذكر عندها علي (ع) فقالت (أما انه أعلم الناس بالسنة)[٢]، وان كل هذه الأحاديث والأقوال حدت بمعلمه الأول أن يلخصها بحديث واحد يجمع كل فنون العلم والمعرفة ليكون الإمام (ع) هو المدخل لتلك الآفاق الرحبة فقال (ص) حديثه المشهور بحق علي (ع) (أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد العلم فليأت الباب)[٣].

ولأنه (ع) باب مدينة علم النبي فإنه (ع) كان يقول (نحن الشعار (بطانة النبي) والأصحاب والخزنة والأبواب ولا تؤتى البيوت إلا من أبوابها فمن أتاها من غير أبوابها سمي سارقاً)[٤]. ولأنه بتلك المنزلة العلمية فانه بكل تأكيد يعني انه باب ومدخل الوحي فانه كان يقول (ع): (والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت وأين نزلت إن ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً صادقاً ناطقاً)[٥] وهو القائل (سلوني عن كتاب الله فإنه ليس من آية إلا وقد علمت بليل نزلت أم بنهار وفي سهل أم جبل)[٦]، أو ما قاله ابن مسعود عنه (ع) (إن القرآن أنزل على سبعة أحرف ما منها حرف ظهر وبطن)، وعلي بن أبي طالب عنده علم الظاهر والباطن)[٧]، إضافة إلى قول الرسول (ص) بحقه (ع): (أنا دار الحكمة وعلي بابها)[٨] أو قوله (ع) بحق نفسه (كنت إذا

---

(١) ابن عساكر، (السابق)، ج٤٢، ص٤٠٤، السيوطي، تاريخ (السابق)، ص٢٠٣، ابن حجر، الصواعق، (السابق) ص١٢٧، والمحب الطبري، ذخائر العقى، (السابق)، وغيرهم فراجع.

(٢) ذكره ابن عساكر (السابق)، ج٤٢، ص٤٠٨، السيوطي، تاريخ الخلفاء (السابق) ص٢٠٣، ابن حجر، الصواعق (السابق)، ص١٢٧، والمحب الطبري في ذخائر العقبى (السابق)، ص٧٨.

(٣) لقد تواتر على نقل هذا الحديث عدد كبير من الحفاظ والعلماء والمؤرخين منهم: الحاكم النيسابوري (السابق)، ج٣، ص١٢٦، ابن عساكر، (السابق) ج٤٢، ص٣٧٩، المتقي الهندي (السابق) ج٢، ص٣٠، ابن الجوزي (السابق) ص٥١، ابن حجر، الصواعق (السابق) ص٢٢ والشوكاني في تفسير فتح القدير طبعة دار إحياء التراث العربي، بدون سنة طبع، بيروت، ج٣، ص٤٦.

(٤) محمد عبده، نهج البلاغة (السابق) خطبة ١٥٣، ص٢٤١.

(٥) ذكر ذلك: السيوطي في تاريخ (السابق)، ص٢١٨، ابن سعد، الطبقات (السابق)، ج٢، ص٢٥٧؛ المتقي الهندي، منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد بن حنبل، دار الفكر، بدون سنة طبع، بيروت، ج٥، ص٤٨، ابن حجر، الصواعق، (السابق) ص١٢٧، المحب الطبري، ذخائر العقى (السابق) ص٧٨.

(٦) السيوطي في تاريخه (السابق) ص٢٠٣، ابن حجر في صواعقه (السابق) ص٢١٨، ابن عساكر في تاريخه (السابق) ج٤٢، ص٣٩٨، المحب الطبري في ذخائره (السابق) ص٩٣.

(٧) جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١ ١٩٨٨، بيروت، ج٢، ص٢٠٣، ابن عساكر، (السابق)، ج٤٢، ص٣٨٠.

(٨) الترمذي (السابق)، ج٥، ص٦٣٧، ومثله ابن كثير في البداية والنهاية، حققه الدكتور أحمد ملحم وآخرون، ط١، ١٩٦٦، بيروت، ج٧، ص٣٧٩، المتقي الهندي (السابق) ج٥، ص٣٠، ابن عساكر (السابق) ج٤٢، ص٣٧٩.

سألت رسول الله (ص) أعطاني وإذا سكت ابتداني)[١]، وقوله (علمني رسول اله (ص) ألف باب كل باب يفتح لي ألف باب)[٢]، ومما لاشك فيه أن علمه (ع) ما هو إلا علماً من العلوم التي امتاز بها أهل البيت عليهم السلام والذي كان يقول عن علمهم (أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا كذباً وبغياً علينا أن رفعنا الله ووضعهم وأعطانا وحرمهم وأدخلنا وأخرجهم، بنا يستعطى الهدى ويستجلى العمى)[٣].

وكان يقول (ع) عن دوره بالقضاء (فوالذي فلق الحبة ما شككت في قضاء بين اثنين)[٤] أو قوله (ع) (ما شككت في الحق منذ رأيته)[٥]، أو أقوال الخليفة عمر بن الخطاب بحقه (ع) في هذا المجال، وهي كثيرة منها قوله (علي أقضانا)[٦] وقوله (لولا علي لهلك عمر)[٧]، ولهذا كان (ع) يقول (وان معي بصيرتي ما لبست على نفسي ولا لبس علي)[٨]، وكان يحدث (ع) صاحبه كميل بن زياد عن علمه المكنون قائلاً (إن هاهنا لعلماً جماً (وأشار إلى صدره) لو أصبت له حملة (أي وجدت له حاملين)[٩].

ولأنه على تلك الدرجة من العلم والقضاء فانه ومثلما قال العقاد (يصح أن يقال أن علياً (رض) أبو علم الكلام في الإسلام لأن المتكلمين أقاموا مذاهبهم على أساسه)[١٠]، وما يعزز مكانته العلمية (ع) ويقوي حجة اتباعه فيه ارتكاز هذه العلية على القرآن الكريم فضلاً عن

---

(١) الترمذي (السابق) ج٥، ص٦٤٠، الحاكم النيسابوري النسائي، خصائص أمير المؤمنين، ١٩٨٧، بيروت، ص٣٨.

(٢) المتقي الهندي، منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد (السابق) ج٥، ص٤٣.

(٣) محمد عبده، (السابق) خطبة ١٤٣، ص٢٢٨.

(٤) أحمد بن حنبل، مسند (السابق) ج١، ص٨٣ وص١١١، ابن عساكر، تاريخه (السابق) ج٤٢، ص٤٠٦، النسائي، خصائص، (السابق)، ص١٦، السيوطي، تاريخه (السابق) ص٢٠٢، ابن حجر، صواعق (السابق) ص١٢٣، ابن الجوزي في تذكرته (السابق) ص٤٩، ابن المغازلي الشافعي، مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، بدون سنة طبع، بيروت، ص١٦٤، والشبلنجي، نور الأبصار، ط١، ١٩٨٥، بيروت، ص١٣٩، المحب الطبري (السابق)، ص٨٤.

(٥) محمد عبده، النهج، (السابق) خطبة٤، ص٢٠.

(٦) الحاكم النيسابوري، المستدرك (السابق) ج٣، ص٣٠٥، ابن سعد، الطبقات (السابق) ج٢، ص٢٥٩؛ ابن عساكر (السابق)، ج٤٢، ص٤٠٥؛ السيوطي، تاريخه، السابق، ص٢٠٢.

(٧) القندوزي الحنفي، ينابيع المودة، مؤسسة الأعلمي، بدون سنة طبع، بيروت، ج١، ص٧٤، وابن الجوزي (السابق) ص١٣٧.، وابن الصباغ المالكي، الفصول المهمة، بدون سنة طبع، النجف، ص٣٥، ابن عساكر (السابق) ج٤٢، ص٤٠٧.

(٨) محمد عبده، (السابق) خطبة ١٠، ص٤٤.

(٩) نفسه. القصار من كلماته وحكمه، حكمة ١٤٧، ص٥٣٣، ويقول لكميل عن مكانة العلم كاملة في الصفحة نفسها (يا كميل العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، يا كميل معرفة العلم دين بدأت به يكسب الإنسان الطاعة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد وفاته، فراجع ذلك).

(١٠) هذا رأي عباس محمود العقاد في كتابه عبقرية الإمام علي (السابق) ص٤٠، فراجع.

السنة النبوية وأحاديثه الشخصية بهذا الخصوص فيذكر السيوطي وغيره بتفاسيرهم في قوله تعالى ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾[١].

قول رسول الله (ص) عند نزول هذه الآية (سألت ربي أن يجعلها إذن علي)[٢] وكان علي (ع) يقول (ما سمعت من رسول الله (ص) شيئاً فنسيته[٣]، أو قوله (ع) حينها (فما نسيت شيئاً بعد ذلك وما كان لي أن أنسى)[٤]، كل هذا العلم وعدم النسيان، إنما هو من بركات قوله (ص) لعلي (إن الله أمرني أن أدنيك ولا أقصيك وأن أعلمك ولا أجفوك فحق علي أن أعلمك، وحق عليك أن تعي فنزلت وتعيها إذن واعية[٥]، وقوله (ص) بحقه (اللهم املأ قلبه علماً وفهماً وحكماً ونوراً)[٦]، أو قوله (ص) (هنيئاً لك العلم أبا حسن فقد شربت العلم شرباً وثاقبت ثقباً ولخص (ع) علمه، عندما أخبر ذات مرة بأحوال المستقبل وقال له أحد أصحابه وهو من كلاب (لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب؟ فتبسم (ع) وقال يا أخا كلب ليس هو بعلم غيب وإنما هو تعلم من ذي علم وإنما علم الغيب علم الساعة وما عدده بقوله سبحانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾[٧]، وما سوى ذلك فعلم علمه الله نبيه فعلمنيه ودعا لي بان يعيه صدري وتضم (تنظم) عليه جوانحي)[٨]، ولهذا كان حبر الأمة ابن عباس يقول (كنا نتحدث إن النبي (ص) عهد إلى علي سبعين عهداً لم يعهدها غيره)[٩]، وبكل تأكيد مثلما كان (ص) قد عهد إليه (ع) بالعلم والقضاء كما عرفنا فإنه عهد إليه بقيادة الأمة من بعده وهذا ما تجلى بأحاديثه النبوية الشريفة كالدار والمنزلة وأخيراً توجها بحديث الغدير وكذلك فان عهد الأخلاق والمثل العليا والقيم السماوية كلها كانت مناقب نبوية في علي (ع) هي توأم تلك الأحاديث والعهود وكل هذا يتجلى في عطاء الغدير الذي لا ينضب من جهة وأنه لا يخص فئة معينة من ناحية أخرى، وهكذا كان الإمام علي (ع) هو شخص الحضارة الإسلامية الأول من بعد رسول الله (ص) وهو الغدير المتدفق للإنسانية جمعاء.

---

(١) سورة الحاقة، الآية ١٢.

(٢) أقوال للرسول (ص) والإمام علي ذكرها كل من جلال الدين السيوطي في تفسير الدر المنثور (السابق) ج٦، ص٢٨٦، وكذلك مثله القرطبي، تفسير طبعة القاهرة، بدون سنة طبع، الزمخشري، تفسير الكشاف (السابق) وذلك في شرحهما للآية ١٢ من سورة الحاقة، فراجع.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه.

(٥) ابن عساكر، في تاريخه (السابق) ج٤٢، ص٣٦١.

(٦) نفسه، ج٤٢، ص٣٨٦.

(٧) سورة لقمان، الآية ٣٤.

(٨) محمد عبده، نهج البلاغة (السابق) من كلام له (ع) فيما يخبر به من الملاحم بالبصرة، ص٢١٣ ـ ٢١٤.

(٩) ابن عساكر (السابق) ج٤٢، ص٤٠٠.

المبحث الثالث

شجاعته (ع)

لقد كانت شجاعة الإمام علي بن أبي طالب (ع) شجاعة شهد بها العدو قبل الصديق شجاعة وفتوة نادت بها جنود السماء (الملائكة) قبل أهل الأرض فكان نداء السماء المشهور والمتواتر على ألسنة المسلمين: (لا فتى إلا علي لا سيف إلا ذو الفقار)[١].

قوة كان يقول عنها بكل ثقة وشجاعة (والله لو تضافرت العرب على قتالي لما وليت عنها)[٢]، وحتى قريش ومع كرهها له (ع) وحقدها عليه قالت (إن ابن أبي طالب رجل شجاع لكن لا علم له بالحرب)، أما هو (ع) فانه ردهم بقوله (لله أبوهم وهل أحد منهم أشد لها مراساً وأقدم فيها مقاماً مني)[٣]، (لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين وها أنا ذا قد ذرفت على الستين)[٤]، وكان يقول واصفاً قريش الكافرة الصنم (مالي ولقريش والله لقد قاتلتهم كافرين ولأقاتلنهم مفتونين)[٥]، ولهذا كان يقول (فوالله ما أبالي أدخلت إلى الموت أو خرج الموت إلي)[٦]، وهو القائل (إني وضعت في الصغر بكلاكل (صدور) العرب وكسرت نواجم (أشراف) قرون ربيعة ومضر)[٧].

إن ثقته العالية بشجاعته الشخصية هذه لم تكن في يوم ما من حياته لأجل التباهي وإظهار العضلات أو مجرد كلام وإنما كانت شجاعة قوي مؤمن بحق وحقيقة تدل على الإيمان الراسخ بالله ورسوله (ص) والدعوة لدينه منذ بدايات الدعوة الإسلامية وأنه (ع) كان يقول (إن أكرم الموت القتل، والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف أهون عليّ من ميتة على الفراش في غير طاعة الله)[٨].

---

(١) عدد كبير من حفاظ ومؤرخي أهل السنة ممن ذكر نداء السماء هذا في غزوة أحد، نذكر منهم: الطبري في تاريخه، الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بدون سنة طبع، دار التراث، بيروت، ج٢ من أحداث سنة ٣هـ ٥١٤، الشبلنجي، نور الأبصار، ١٩٨٥، بيروت، ص٨٠، سبط ابن الجوزي، تذكرة الخواص (السابق) ص٣٢، ابن المغازلي في المناقب (السابق) ص١٤٠؛ ابن الصباغ المالكي، الفصول المهمة، بدون سنة طبع، النجف ص٥٦، ونصر بن مزاحم في وقعة صفين، ١٩٢١، بيروت، ص٣٥٠.

(٢) محمد عبده، نهج البلاغة (السابق)، من كتاب له (ع) إلى عامله على البصرة، ص٤٤٩.

(٣) السابق، خطبة ٢٧، ص٦٦.

(٤) المتقدم نفسه.

(٥) السابق، خطبة ٢٣، ص٧٦.

(٦) نفسه، خطبة ٥٥، ص٩٥.

(٧) نفسه، خطبة ١٩١، ص٣٢٦.

(٨) نفسه، خطبة ١٢٣، من كلام له قاله لأصحابه في ساحة الحرب، ص٢٠٧.

فلا أحد ينكر ما كان يقوم به أبي طالب والده (ع) وانه كان يخاف على النبي (ص) الأعداء والغدر به، فعند الليل كان يوقظ النبي (ص) ويضجع ابنه علياً مكانه مضحياً به من أجل سلامة النبي (ص)[١].

وكان امتثال الإمام لأمر أبيه دليل على سمو أخلاقه ورفعتها من جهة فضلاً عن تضحيته بشجاعة من أجل حياة النبي (ص) من ناحية أخرى وبعد مرور فترة طويلة من تلك السنة الحسنة التي كان يعمل بها أبي طالب يأتي اليوم الذي يهاجر به النبي (ص) إلى غار حراء وتشاء الحكمة الإلهية أن تتجدد سنة أبي طالب فيبات الإمام علي (ع) مكان النبي (ص) لينجو (ص) من كيد الأعداء وينزل الله تعالى بحق علي قرآناً قال عنه ابن عباس: أول من شرى (باع) نفسه ابتغاء مرضاة الله علي بن أبي طالب ولبس ثوب النبي (ص) ثم نام مكانه وهذا معنى قوله تعالى (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله علي بن أبي طالب)[٢].

أما هو (ع) فكان يقول عن مثل هكذا مواقف تضحويه من أجل النبي (ص) (ولقد علم المستحفظون من أصحاب محمد (ص) أني لم أرد على الله ولا على رسوله ساعة قط، ولقد واسيته بنفسي في المواطن التي تنكص بها الأبطال وتتأخر فيها الأقدام نجده أكرمني الله بها)[٣]، وكل هذا يثبت قوله (ع) (ما ضعفت ولا جبنت...)[٤]، وموقفه (ع) وموقف الرسول (ص) منه في معركة خيبر لأكبر وأقوى دليل على أن قتاله وتضحياته طيلة حياته إنما هي من أجل الرسالة ورسولها الكريم (ص) وبحسب البخاري فقط، إن النبي الكريم (ص) قال (لأعطين الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله يفتح الله على يديه فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله (ص) كلهم يرجوا أن يعطاها فقال (ص) أين علي بن أبي طالب، فأرسلوا إليه وكان به رمد فلما جاء بصق في عينيه ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية فقال علي: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال (ص) أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام واخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه فوالله لن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم، ففتح الله عليه)[٥].

---

(١) يراجع في ذلك ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، طبعة إحياء التراث العربي، بدون سنة طبع، بيروت، المجلد الثاني، ص٣١٤، وقد ذكر ذلك مطولاً.

(٢) عدد كبير من أهل السنة روى أن هذه الآية نزلت بحق علي وبسبب تلك الحادثة منهم الحاكم النيسابوري في شواهد التنزيل (السابق)، ج١، ص٩٦ ـ ١٠٢، ابن الجوزي، تذكرة الخواص (السابق) ص٤١، ابن عساكر، تاريخ (السابق)، ج٤٢، ص١١٥، الشبلنجي، نور الأبصار (السابق) ص١٥٢ الكنجي الشافعي، كفاية الطالب، تحقيق محمد هادي الأميني، ط٣، ١٤٠٤هـ، إيران، ص٢٩٣، وابن الصباغ المالكي (السابق) ص٤٩، وغيرهم أكثر ذكر ذلك عند ذكرهم الآية ٢٠٧ من سورة البقرة فراجع.

(٣) محمد عبده (السابق) خطبة ١٩٦، ص٣٣٨.

(٤) السابق، خطبة ٣٣، ص٧٦.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (السابق) كتاب فضائل أصحاب النبي (ص) باب مناقب علي بن أبي طالب، ص٦٥٥؛ وقد كرره في أكثر من موقع كما في ص٥٢٨ في كتاب الجهاد وص٧٤١ من كتاب المغازي فراجع ذلك.

وعلى هذا الأساس وانطلاقاً من حبه لله ورسوله وحبهم له كانت هداية الناس هدفه الأول والأخير، وهذا معنى قوله (ع) (ما دفعت الحرب يوماً، إلا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بيّ وتعشوا إلى ضوئي وذلك أحب ألي من اقتلها على ضلالها)[١].

وكان سيفه وضربته تثمل الحق وعدالة السماء فكان يقول عن سيفه (سيفي الذي ما ضربت به أحد إلا دخل النار)[٢].

أخلاقه مع خصومه وأعدائه:

بعد أن عرفنا شجاعة الإمام علي بن أبي طالب وكونها كانت فريدة من نوعها وهي مضرب الأمثال، وإنها نابعة من إيمانه الأسبق في الإسلام، ويقينه الثابت القوي بالرسالة والرسول، فإن توأم هذه الشجاعة كانت أخلاقه وتعامله مع خصمه مهما يكن، لاعتبار أن الشجاعة المجردة من الأخلاق لا تعتبر شجاعة وإنما تهور وغرور[٣]، وكذلك نجده انه يوصي عسكره قبل لقاء العدو بوصايا لا تنم إلا عن شجاع مقتدر كامل الأخلاق فاسمعه يقول: (لا تقاتلوهم حتى يبدأوكم، لا تقتلوا مدبراً، لا تصبوا معسوراً، لا تجهزوا على جريح، لا تصيبوا النساء بأذى، وان شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم)[٤]، فهذه الوصايا التي أوصى بها الإمام (ع) قبل مئات السنين هي اليوم محط أنظار دساتير العالم المتحضر والأمم المتحدة وحقوق الإنسان وما يدعوا له دعاة العولمة في يومنا هذا.

ومن أخلاقه مع خصومه يذكر لنا المؤرخون إنه (لما وقف علي على جثة طلحة بكى أحر بكاء، وجعل يمسح التراب عن وجهه وهو يقول: عزيز علي أن أراك أبا محمد مجندلاً تحت نجوم السماء)[٥]، ومثله موقفه (ع) مع الزبير في واقعة الجمل (فخرج علي حاسراً (بدون درع) ولا سلاح ونادى: يا زبير أخرج أليّ... فخرج إليه شاكاً في السلام وسمعت السيدة عائشة فصاحت واحرباه... إذ كان خصم علي مقضياً عليه بالموت كائناً ما كان حظه من الشجاعة والخبرة فلما تقابل علي والزبير اعتنقا وعاد علي يسأله: ويحك يا زبير ما الذي أخرجك؟ قال: دم عثمان، قال: قتل الله أولانا بدم عثمان، وجع يذكر عهوده وعهود رسول

---

(١) محمد عبده، النهج (السابق) خطبة ٥٥، ص٩٥.

(٢) السابق، من كتاب له (ع) إلى بعض عماله، ص٤٤٣.

(٣) مع كل شجاعته (ع) وقوته المعهودة إلا أنه وعند مبارزته عمر بن ود بعد تهجمه على المسلمين بقوله أين جنتكم التي زعمتم أنكم داخلوها، وعندما كان يهم (ع) لمبارزته وجدناه يمتثل لأمر النبي (ص) عندما يقول له (ص) اجلس إنه عمرو، كما يدون ذلك أهل التاريخ والسير عند ذكرهم معركة الخندق، فراجع وسترى قمة أخلاقه (ع).

(٤) انظر عباس محمود العقاد في كتابه عبقرية الإمام علي (السابق) ص١٢٠.

(٥) المتقدم نفسه.

الله ومنها مقالة النبي والله ستقاتله وأنت له ظالم. فاستغفر الزبير وقال لو ذكرتها ما خرجت)[١].

كيف لا يكون (ع) بهذه الدرجة من المروءة والخلق الشجاع وهو القائل (قدر الرجل على قدر همته وصدقه على صدق مروءته وشجاعته، على قدر أنفته وعفته على قدر غيرته)[٢]، ويذكر آخر (عندما حال جند معاوية بينه وبين الماء في معركة صفين، وهم يقولون له: ولا قطرة حتى تموت عطشاً، ولما حمل عليهم وأجلاهم عنه أباح لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده)[٣].

ويذكر المؤرخون أيضاً قمة أخلاقه ومروءته وذلك بتعامله مع السيدة عائشة بعد واقعة الجمل، يروى (لما أرادت (عائشة) الخروج من البصرة بعثه إليها علي (رض) بكل ما ينبغي من مركب وزاد ومتاع، وغير ذلك وأذن لمن نجا من جاء في الجيش معها أن يرجع إلا أن يحب المقام، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات وسير معها أخاها محمد بن أبي بكر فلما كان اليوم الذي ارتحلت فيه جاء علي فوقف على الباب وحضر الناس وخرجت من الدار في الهودج فودعت الناس وسار علي معها مودعاً ومشيعاً أميالاً وسرح بنيه معها بقية ذلك اليوم)[٤].

وبقيت نبل أخلاقه التي هي توأم شجاعته إلى آخر يوم من حياته فأوصى بحق قاتله قائلاً (ع): (يا بني عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين خوضاً تقولون قتل أمير المؤمنين ألا لا تقتلن بي إلا قاتلي انظروا إذا أنا مت من ضربته هذه فاضربوه ضربة بضربة ولا يمثل بالرجل فأني سمعت رسول الله (ص) قول إياكم والمثلة بالكلب العقور)[٥]، ولم ينته به الحد (ع) إلى هذا التعامل مع قاتله، بل قال (ع) أيضاً (أحسنوا إليه وألينوا له فراشه)[٦].

وهكذا كانت شجاعة الإمام علي (ع) كلها أخلاق ومروءة لأن الشجاعة المجردة من الأخلاق تكون قوة مغرورة ومتهورة لا تجلب لصاحبها إلا العار، في حين أن شجاعة الإمام كانت قوة عقل وسلامة قلب.

---

(١) محمد عبده، نهج البلاغة (السابق) القصار من كلماته وحكمه، حكمه ٤٧، ص٥١٢.

(٢) انظر عباس محمود العقاد في كتابه عبقرية الإمام (السابق) ص١٢٠؛ وقد نقله عن محمد عبده، النهج، (السابق) من وصية له (ع) لعسكره قبل لقاء العدو بصفين، ص٤٠١.

(٣) عباس محمود العقاد (السابق) ص١٢٠.

(٤) انظر ابن كثير في البداية والنهاية، (السابق) مسير علي بن أبي طالب من المدينة إلى البصرة، ج٧، ص٢٥٧ ومثله ابن الجوزي في تذكرة الخواص (السابق) ص٧٩ فراجع.

(٥) محمد عبده، نهج البلاغة (السابق) من وصية له (ع) لما ضربه ابن ملجم، ص٤٥٢.

(٦) أخرجه الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين (السابق) ج٣، ص١٤٤.

المبحث الرابع

علي وأخلاق الأنبياء

إذا كان القرآن الكريم يطلب ويحث المسلمين على التأسي بأخلاق وسيرة رسولنا الكريم (ص) وهو خاتم الأنبياء وسيرهم كما في قوله تعالى ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾[١]، وإذا كانت كتب الحديث والسيرة قد ملئت بأخلاق من بعثه الله رحمة للعالمين كيف لا وهو (ص) القائل (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) حتى كان (ص) شخصية كاملة متكاملة الأخلاق بحكم السماء ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[٢].

فإن الإمام علي (ع) وهو ربيب تلك الأخلاق فإنه لم ينته (ع) عند مربيه الأول (ص) وإنما يمر بسيرة أنبياء آخرين بعد أن يبدأ برسول الإنسانية فاسمعه يقول (ع) (ولقد كان في رسول الله (ص) كاف لك في الأسوة (القدوة) ودليلك على ذم الدنيا وعيبها وكثرة مخازيها ومساويها إذ قبضت عنه أطرافها ووطئت لغيره أكنافها (جوانبها) وفطم عن رضاعها وزوي (قبض) عن زخارفها.

وإن شئت ثنيت بموسى كليم الله إذ يقول ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾[٣]، والله ما سأله إلا خبزاً يأكله لأنه كان يأكل بقلة الأرض ولقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف ضفاف (جلدة) بطنه لهزاله وتشذب لحمه - وبعد هذا الدرس الأخلاق ينتقل (ع) لنبي آخر - إذ يقول (ع) وإن شئت ثلثت بداود صاحب المزامير وقارئ أهل الجنة فلقد كان يعمل سفائف الخوص بيده ويقول لجلسائه أيكم يكفيني بيعها؟ ويأكل قرص الشعير من ثمنها - ثم ينتقل (ع) لأخلاق نبي آخر - فاسمعه يقول (ع) وإن شئت قلت في عيسى بن مريم (ع) فلقد كان يتوسد الحجر ويلبس الخشن ويأكل الخشب وكان أدامه الجوع وسراجه بالليل القمر وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها وفاكهته وريحانه ما تنبت الأرض للبهائم ولم تكن له زوجة تفتنه ولا ولد يحزنه ولا مال يلفته، ولا طمع يذله، ودأبه رجلاه، وخادمه يداه.

فتأسى (اقتد) بنبيك الأطهر (ص) فان فيه أسوة لمن تأسى وعزاء لمن تعزى وأحب العباد إلى الله المتأسي بنبيه والمقتص لأثره قضم الدنيا قضماً[٤] ولم يعر طرفاً أهضم أهل الدنيا كشحاً وأخمصهم (أخلاهم) من الدنيا بطنا عرضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها إلى أن يقول لقد كان (ص) يأكل على الأرض ويجلس جلسة العبد ويخصف بيده نعله ويرفع بيده ثوبه ويركب الحمار العاري ويردف خلفه... فاعرض عن الدنيا بقلبه وأمات ذكرهما من نفسه وأحب أن تغيب زينتها عن عينه لكيلا يتخذ منها رياشاً (لباساً فاخراً).... ولقد كان في رسول الله (ص) ما يدلك على مساوئ الدنيا وعيوبها فلينظر ناظر بعقله أكرم الله محمداً بذلك أم أهانه؟

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٢١.

(٢) سورة القلم، الآية ٤.

(٣) سورة القصص، الآية ٢٤.

(٤) القضم: الأكل بأطراف الأسنان، كأنه لم يتناول منها إلا على أطراف أسنانه ولم يملأ منها فمه.

فإن قال: أهانه فقد كذب والله بالأفك العظيم حيث بسط الدنيا له وزواها (أبعدها) عن أقرب الناس منه فتأسى متأس بنبيه واقتص أثره وولج مولجه وإلا فلا يأمن الهلكة فان الله جعل محمداً (ص) علماً للساعة ومبشراً بالجنة ومنذراً بالعقوبة خرج من الدنيا جميعها خالي البطن وورد الآخرة سليماً لم يضع حجراً على حجر حتى مضى لسبيله وأجاب داعي ربه فما أعظم منة الله عندنا حين انعم علينا به سلفاً نتبعه وقائداً نطأ عقبه (تقفوه خطوة خطوة) حتى كأننا نطأ مؤخر قدمه، إلى أن يختم خطبته الأخلاقية هذه بتطبيق عملي في اتباع خلق الأنبياء فيقول (ع) والله لقد رقعت مدركتي (ثوب من الصوف) حتى استحيت من راقعها ولقد قال لي قائل ألا تنبذها عنك؟ فقلت اغرب (اعرض) عني فعند الصباح يحمد القوم السرى[١].

ومع هذا الوصف الأخلاقي الجميل فإنه يقول عن أخلاقهم قول لا يليق إلا برسل السماء فعن نوف البكالي قال (رأيت أمير المؤمنين (ع) ذات ليلة وقد خرج من فراشه فنظر في النجوم فقال لي: يا نوف أراقد أنت أم رامق؟ فقلت أجل رامق (منتبه العين) يا أمير المؤمنين قال يا نوف طوبى للزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطاً وترابها فراشاً وماءها طيباً والقرآن شعار[٢] والدعاء دثاراً ثم قرضوا قرضاً على منهاج المسيح يا نوف: إن داود (ع) قام في مثل هذه الساعة من الليل فقال: إنها ساعة لا يدعو فيها عبد إلا أستجيب له إلا أن يكون عشاراً (من يأخذ أعشار الأموال) أو عريفاً (المتجسس على أحوال الناس وأسرارهم أو شرطياً (عون الحاكم) أو صاحب عرطبة (طبلة) أو صاحب كوبه (طنبور)[٣].

علة التآسي بالأنبياء:

بعد أن عرفنا وصف أمير المؤمنين (ع) لسلوك بعض الأنبياء الأخلاقية ونظرتهم للدنيا فانه يذكر (ع) في خطبة أخرى له سبب التأسي والاقتداء بالأنبياء ويبين هل أن سبب هذا الاقتداء والتأسي بهم لأنهم أنبياء الله ورسله؟ فيجيب (ع) قائلاً: (لو كانت الأنبياء أهل قوة لا ترام وعزة لا تضام، وملك تمتد نحوه أعناق الرجال وتشد إليه عقد الرحال لكان ذلك أهون على الخلق في الاعتبار وأبعد لهم في الاستكبار وللآمنو عن رهبة قاهرة لهم أو رغبة مائلة بهم فكانت النيات مشتركة والحسنات مقتسمة ولكن الله سبحانه أراد أن يكون الاتباع لرسله والتصديق بكتبه والخشوع لوجهه والاستكانة لأمره، والاستسلام لطاعته، أموراً له خاصة لا تشوبها من غيرها شائبة وكلما كانت البلوى والاختبار أعظم كانت المثوبة والجزاء أجزل[٤].

---

(١) انظر محمد عبده، نهج البلاغة (السابق) خطبة ١٥٩، ص٢٥٢، ومعنى المثل: إذا أصبح السارون وقد وصلوا إلى مقاصدهم حمدوا سراهم وإن كان شاقاً.

(٢) شعاراً: يقرأون سراً للاعتبار بمواعظه والتفكر في دقائقه والدعاء دثاراً: يجهدون به إظهاراً للذلة والخضوع له وقرضوا الدنيا مزقوها كما يمزق الثوب.

(٣) محمد عبده، السابق، القصار من كلماته وحكمه، حكمة ١٠٥، ص٥٢٢، فراجع.

(٤) محمد عبده، السابق، خطبة ١٩١، ص٣١٩.

إذا كان هذا هو سبب اقتداء الإمام علي (ع) بالأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، وإن على قدر المشقة الثواب فإننا وبكل تأكيد نجد أن هذه القاعدة التي أرساها الإمام (ع) وهي العلة الحقيقية للتآسي بالأنبياء فإنها وبكل تأكيد تنطبق أيضاً على أئمة أهل البيت (ع) باعتبارهم الامتداد الطبيعي للنبوة بصورة عامة خاصة وانه يصف من يتبعهم أدق وصف إذ يقول (إن أمرنا صعب مستصعب لا يحمله إلا عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان، ولا يعي حديثنا إلا صدور أمينة، وأحلام (عقول) زينة)[١]، كيف لا يكون أمرهم كذلك وهم أئمة الحق وخلفاء النبي الخاتم (ص) ممثلين عدالة السماء في الأرض ومطبقين سنته (ص) أكمل تطبيق كونهم الثقل المواز للقرآن الكريم.

ومثلما كان الإمام علي (ع) يتأسى ويقتدي بالأنبياء فانه يريد من المؤمنين أن يقتدوا ويتأسوا به وهذا هو معنى قوله (ورئي عليه إزاء خلق (بائد) مرقوع فقيل له في ذلك فقال يخشع له القلب وتذل به النفس ويقتدي به المؤمنون)[٢]، أو ما روي أن (قيل له لو لبست ثياباً خيراً من هذه فقال كان لباسي هذا ابعد لي من الكبر وأجدر أن يقتدي به المسلمون)[٣].

إن وصف الإمام علي (ع) لخلق الأنبياء وتأسيه بهم ورغبته في أن يتأسى به المؤمنون كل هذا لم يأت من فراغ أو نزوة شخصية، وإنما هو من الواقع الذي كان يعيشه (ع) من جهة وما كان يحظى به من مكانة عند الله ورسوله (ص) من ناحية أخرى فكان (ص) يقول واصفاً علاقته (ع) بالأنبياء وخلقهم (من أراد أن ينظر إلى آدم في علمه وإلى نوح في فهمه وإلى إبراهيم في حلمه وإلى عيسى بن مريم في زهده وإلى موسى بن عمران في فطنته، فلينظر إلى علي بن أبي طالب)[٤].

أو قوله (ص) لعلي (ع) (فيك مثل من عيسى بن مريم أبغضته اليهود حتى بهتوا أمه، وأحبه النصارى حتى أنزلوه بالمنزل الذي ليس به)[٥] ولأنه (ع) كان بتلك المنزلة العظيمة والرفعة الرفيعة قال (ع) بكل ثقة واطمئنان (سيهلك فيّ صنفان: محب مفرط يذهب به الحب

---

(١) نفسه، خطبة١٨٨، ص٣٠٧.

(٢) السابق، القصار من كلماته وحكمه، حكمة١٠٣، ص٥٢٢.

(٣) رواه الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين (السابق)، ج٣، ص١٤٣ فراجع.

(٤) ذكر ذلك، ابن عساكر في تاريخه (السابق) ج٢، ص٣١٧؛ القندوزي الحنفي، ينابيع المودة، (السابق)، ج٢، باب٥٦، ص٨، الحاكم الجسكاني، شواهد التنزيل (السابق) ج١، ص٧٨، ابن المغازلي، مناقب، بدون سنة طبع، بيروت، حديث٢٥٦، ص١٤٧، والمحب الطبري في ذخائر العظمى (السابق) ص٩٣ وابن الصباغ المالكي، الفصول المهمة (السابق) ص١٢٣.

(٥) ابن عساكر، تاريخ (السابق) ج٤٢، ص٢٩٤، الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين (السابق) ج٣، ص١٢٣، ابن المغازلي، مناقب (السابق) حديث١٠٤، ص٤٦، ابن حجر، الصواعق (السابق)، ص١٢٣، السيوطي، تاريخ الخلفاء (السابق) ص٢٠٥، المتقي الهندي في منتخب كنز العمال (السابق) ج٥، ص٥٦، الشبلنجي، نور الأبصار (السابق) ص١٤١ والمحب الطبري، ذخائر (السابق) ص٩٢، الحاكم الحسكاني، شواهد التنزيل (السابق) ج٢، ص١٦٢.

إلى غير الحق ومبغض مفرط، يذهب به البغض إلى غير الحق، وخير الناس في حالاً النمط الأوسط فألزموه)[١].

وفي ختام مبحث علاقة الإمام بالأنبياء لابد من ذكر أن وظيفته كانت كمهمتهم وهذا معنى قوله (أيها الناس أني قد بثثت لكم المواعظ التي وعظ الأنبياء بها أممهم وأديت إليكم ما أدت الأوصياء إلى من بعدهم وأدبتكم بسوطي)[٢].

المبحث الخامس

مفهوم الأخلاق عند الإمام (ع)

بعد أن عرفنا في المبحث السابق نظرة الإمام علي (ع) وكيف لخص لنا أخلاق الأنبياء والدرس المستخلص من تلك السيرة الأخلاقية للأنبياء كما وصفها الإمام علي بنفسه سنعرض هنا مفهوم الأخلاق عند الإمام (ع) من خلال عدد من أقواله (ع) والتي جاءت كصدى لسلوكه وترفاته والتي يمكن اعتبارها الأساس والخطوط العريضة لتعامل الناس فيما بينهم من جهة ومحاسبة الفرد لذاته من ناحية أخرى وهذه الأساسيات والحكم الأخلاقية قد قالها (ع) بمناسبات ومواقف مختلفة ذكرت في نهج البلاغة وفيما يلي بعضاً منها بما يتلائم وبحثنا هذا وهي كالتالي:

أولاً: قوله (ع): (عود نفسك التصبر على المكروه، ونعم الخلق التصبر، وألجئ نفسك في الأمور كلها إلى إلهك، فانك تلجأها إلى كهف حريز)[٣]، يفهم من هذا القول بان الصبر قمة الأخلاق كونه اعتراف بقدرة الخالق الغيبية وحسن تدبيره وهذا يؤدي إلى قوله (ينزل الصبر على قدر المصيبة، ومن ضرب يده على فخذه عن مصيبة حبط عمله)[٤]، وكما يقول الحكماء الصبر جميل وانه مفتاح الفرج ومن صبر ظفر وإذا كان الخلق هو الصبر بعينه عند الإمام (ع) فلابد أن يكون الخلوق صاحب حظ عظيم في الدنيا والمعنى الذي قصده الإمام بهذا المفهوم ما هو إلا ترجمان حقيقي حقيقي لقوله تعالى ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[٥] وبالتالي فان الأمر سيكون مضاعفاً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾[٦] ولهذا كان (ع) يقول (من لم ينجه الصبر أهلكه الجزع)[٧].

---

(١) محمد عبده، نهج البلاغة (السابق) خطبة ١٢٦، من كلام له (ع) للخوارج، ص٢١٢.

(٢) السابق، خطبة ١٨١، ص٢٩١.

(٣) محمد عبده، نهج البلاغة (السابق) من وصية له (ع) للحسن بن علي، ص٤٢٢.

(٤) السابق، نهج البلاغة من كلماته وحكمه، حكمة ١٤٤، ص٥٣٢.

(٥) سورة فصلت، الآية ٣٥.

(٦) سورة القصص، الآية ٥٤.

(٧) محمد عبده، (السابق)، القصار من كلماته وحكمه، حكمة ١٨٩، ص٥٤١.

ثانياً: قوله (ع): (زنوا أنفسكم من قبل أن توزنوا وحاسبوها من قبل أن تحاسبوا وتنفسوا قبل ضيق الخناق واعلموا انه من لم يعن على نفسه حتى يكون له منها واعظ وزاجر لم يكن له من غيرها زاجر ولا واعظ)[١] إنه (ع) يضع مفهوماً أخلاقياً كبيراً أساسه ترويض النفس ومحاربة أهوائها وهو خطاب موجه لعامة الناس فمن لم يساعد نفسه ويعينها حتى يكون لها من وجدانها منبه ووازع لم ينفعه تنبيه غيره، أي انقادوا يا من تسمعون علياً (ع) إلى ما يطلب منكم بالحث الرقيق اللين لاعن طريق العنف الشديد والقسوة والكراهية وهذه هي بطبيعة الحال تعاليم القرآن.

ثالثاً: قوله (ع): (إياكم وتهزيع الأخلاق وتصريفها واجعلوا اللسان واحداً وليخزن الرجل لسانه فان هذا اللسان جموح بصاحبه والله ما أرى عبداً يتقي تقوى تنفعه حتى يخزن لسانه، وان لسان المؤمن من وراء قلبه)[٢]، إن محور هذا المفهوم هو اللسان وهو ينهى عن النفاق والتلون في الأخلاق وهذا معنى أن يكون اللسان واحداً، لأن عقل المرء وفضله يظهر بما يصدر عن لسانه كأنه قد خبئ تحت لسانه فإذا تحدث اللسان انكشف صاحبه وهذا معنى قوله (ع) (تكلموا تعرفوا فان المرء مخبوء تحت لسان)[٣].

رابعاً: قوله (ع) (يا بني احفظ عني أربعاً وأربعاً لا يضرك ما عملت معهن أغنى الغنى العقل، وأكبر الفقر الحمق، وأوحش العرش العجب وأكرم الحب حسن الخلق: يا بني إياك ومصادقة الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك وإياك ومصادقة البخيل فانه يبعد عنك أحوج ما تكون إليه وإياك ومصادقة الفاجر فانه يبيعك بالتافه (القليل) وإياك ومصادقة الكذاب فإنه كالسراب يقرب عليك البعيد ويبعد عنك القريب[٤]، إنه مفهوم أخلاقي متنوع يقدمه الإمام للمجتمع عامة عن طريق نصائح لابنه الإمام الحسن (ع) هو في غنى عنها بقدر ما تكون ذات فائدة عظيمة لأبناء المجتمع ككل.

خامساً: قوله (ع) (كفاك أدباً لنفسك اجتناب ما تكرهه من غيرك)[٥]، مفهوم أخلاقي آخر يقدمه الإمام ليعتمد فيه المرء على نفسه في استنباطه فتكون عينه بصيرته التي يرى فيها ويشخص في الوقت نفسه ما يراه من منكر وقبيح سينعكس على قلبه وعقله وبالتالي سيشخصه ويحدده بجوارحه ليعكسه في القلب كأن يكتب فيه وكل هذا لا يخرج عن معنى قوله المتمم لقوله الأول (القلب مصحف البصر)[٦] وإن (التقى رئيس الأخلاق)[٧].

---

(١) محمد عبده، (السابق) خطبة٩٠، ص١٤١.

(٢) السابق، خطبة ١٧٥، ص٢٨٠.

(٣) السابق، القصار من كلماته وحكمه، حكمة٣٥٠، ص٥٨٤.

(٤) نفسه، حكمة ٣٨، ص٥١٠.

(٥) محمد عبده، نهج البلاغة (السابق) القصار من كلماته وحكمه، حكمة ٤٠٦، ص٥٨٦.

(٦) نفسه، حكمة ٤٠٣.

(٧) نفسه، حكمة ٤٠٤.

سادساً: قوله (ع) (فالله الله في نفسك فإن الله ما تبصر من عمى ولا تعلم من جهل وإن الطرق لواضحة وإن أعلام الدين لقائمة)[١]، إن مقولة الإمام (ع) وهي موجه للخليفة عثمان بن عفان واضحة لا تحتاج إلى تفسير خاصة وإنه (ع) يتممها بقوله (فاعلم إن أفضل عباد الله أمام عادل هدي وهدى فأقام سنة معلومة وأمات بدعة مجهولة)[٢]، لأن الإمام يعتقد جازماً إن شر الناس عند الله إمام جائر ضل وضل به فأمات سنة مأخوذة وأحيا بدعة متروكة وهنا يقول (ع) (وإني سمعت رسول الله (ص) يقول: يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نيراً ولا عاذر فيلقى في جهنم فيدور فيها كما تدور الرحى ثم يرتبط في قعرها)[٣].

سابعاً: قوله (ع) (الحلم عشيرة)[٤]، جاءت أهمية خلق الحلم باعتباره يولي صاحبة محبة الناس فيكون اجتماعهم حوله كالعشيرة وهذا المفهوم كقوله (ع) (مقاربة الناس في أخلاقهم آمن من غوائلهم)[٥]، لاعتبار أن المنافرة في الأخلاق والمباعدة فيها مجلبة للعداوات، ومن عاداه الناس وقع في غوائلهم، لكن هذه المقاربة والمداراة الحافظة للمودة لا تكن في غير الحق لأنه يقول بتفضيل الموت على الذل والنفاق كما في قوله (المنية ولا الدنية والتقلل ولا التوسل)[٦].

ثامناً: قوله (ع) (احمل نفسك من أخيك عند صرمه على الصلة وعند صدوره على اللطف والمقاربة أو عند جموده على البذل وعند تباعده على الدنو وعند شدته على اللين وعند جرمه على العذر حتى كأنك له عبد وكأنه ذو نعمة عليك وإياك أن تضع ذلك في غير موضعه، أو أن تفعله بغير أهله لا تتحدث عدو صديقك صديقاً فتعادي صديقك وامحض أخاك النصيحة حسنة كانت أو قبيحة)[٧]، مفهوم أخلاقي واضح يقدمه الإمام علي (ع) من خلال وصية لابنه الإمام الحسن (ع) ونحن أحوج إليه في تعاملنا اليومي الاجتماعي أكثر من الإمام الحسن (ع) وهو الإمام المعصوم وسيد شباب أهل الجنة وسبط الرسول (ص) الأكبر.

تاسعاً: قوله (ع) (يا بني اجعل نفسك ميزاناً في ما بينك وبين غيرك فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك واكره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم وأحسن كما تحب أن يحسن إليك)[٨].

إنه مفهوم أخلاقي اجتماعي كسابقه إذا ما طبق كما أراده الإمام (ع) سيعيش أبناء المجتمع بعيداً عن التناحر والتباغض وستسود الألفة والمحبة والوئام ختاماً أراد الإمام من هذه

---

(١) نفسه، خطبة ١٦٣، ص٢٦٠.
(٢) السابق نفسه، ص٢٦١.
(٣) السابق نفسه.
(٤) نفسه، حكمة٤١٣، ص٥٨٨.
(٥) نفسه، حكمة ٣٩٥، ص٥٨٥.
(٦) المتقدم، حكمة ٣٩٤، ص٥٨٤.
(٧) محمد عبده، النهج (السابق) من وصيته لابنه الحسن (ع) ص٤٣٢.
(٨) نفسه، ص٤٢٦.

المفاهيم وفضلاً عن منزلته عند الله ورسوله كان كما كان رسول الله (ص) الذي كان علة بعثته إتمام مكارم الأخلاق فقال (ع) عن نفسه (وأدبتكم بسوطي أتتوقعون إماماً غيري يطأ بكم الطريق ويرشدكم السبيل)[1].

النتائج والتوصيات:

إذا كانت علة بعثة الأنبياء جميعاً هي إرساء وإفشاء مكارم الأخلاق في المجتمعات من خلال تغير الفرد والمجتمع وانتقال الإنسان من حضيض الجهالة والظلم إلى أوج الكمال والسعادة والدعوة إلى الحياة العليا والطيبة التي يسودها الإيمان الراسخ والعمل الصالح وبمناسبة يوم الغدير الأغر وما لهذا اليوم من شان كبير في السماء والأرض جاء هذا البحث ليجيب على التساؤل الذي يستفهم عن مدى علاقة الإمام علي بن أبي طالب (ع) أخلاقياً بالأنبياء لاسيما منهم خاتمهم وسيدهم نبينا محمد (ص) وقد توصلنا إلى نتائج كثيرة أهمها:

أولاً: إن شجاعة الإمام علي (ع) والتي كانت مضرب الأمثال والأقوال وأقرتها السماء حتى شهد بها العدو قبل الصديق لم تكن في يوم ما شجاعة شخصية يراد منها تحقيق مصلحة خاصة وإنما كانت شجاعة مسخرة من أجل الإسلام ونبيه (ص) وكانت الأخلاق بكل معانيها هي توأم هذه الشجاعة ليحقق هدف الإسلام السامي في الانتشار.

ثانياً: كما كان علم النبي (ص) علم رباني لدني مسخراً لكل الإنسانية فانه (ص) علمه وخص به الإمام علي (ع) الذي قام بنشره وبثه بين الناس وأدى بذلك مهمة الأنبياء وكلمة (سلوني) التي أطلقها لدليل على تلك الأعلمية من جهة ونشره بين الناس من ناحية أخرى.

ثالثاً: إن المنزلة التي حظي بها الإمام علي (ع) عند الله ورسوله جعلت منه أن يرتقي لتكون نفسه كنفس النبي الأكرم وهو دليل لأن تكون أخلاقه كأخلاق مربيه ومعلمه الأول النبي (ص) ويكون (ع) أيضاً كالنبي (على خلق عظيم).

رابعاً: إن شجاعة الإمام (ع) وعلمه ومنزلته وخلقه الرفيع وكل المناقب التي توفر عليها الإمام علي (ع) تجسدت بمقولة الرسول الربانية (من كنت مولاه فهذا علي مولاه) فكان (ع) شخصية كاملة متكاملة كمربيه النبي (ص) سيرة وأخلاقاً أهلته أن يكون خليفة ووصياً للنبي الخاتم وأن يكون غديره متدفقاً ونهجه امتداداً لبعثة النبي (ص) فكان بحق (غدير الأخلاق الذي لا ينضب).

التوصيات:

في الوقت الذي نثني فيه على مبادرة الأمانة العامة للعتبة العلوية بإقامتها مهرجان الغدير العالمي الأول، نتمنى أن يتكرر هذا المحفل الغديري في كل عام حتى لا تنسى الأجيال مكانة هذا اليوم من جهة وحتى نغترف لترتوي الأمة من المنبع الأصلي والمتدفق للجميع دون استثناء.

---

(١) محمد عبده (السابق) خطبة١٨١، ص٢٩١.

مصادر ومراجع البحث:

١- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، ١٩٨٨، بيروت.
٢- البداية والنهاية، الحافظ ابن كثير الدمشقي، المتوفى سنة ٧٧٤هـ، دقق أصوله وحققه الدكتور أحمد أبو ملحم والدكتور علي مجيب عطوي وآخرون، ط١، ١٩٦٦، بيروت.
٣- تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد صبحي الدين عبد الحميد، ١٩٨٨، بيروت.
٤- تاريخ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، محمد عبد جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بدون سنة طبع، دار التراث، بيروت.
٥- تاريخ مدينة دمشق، ترجمة الإمام علي بن أبي طالب، ابن عساكر، تحقيق مجد الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العموري، ط١، دار الفكر، ١٩٩٦، بيروت.
٦- تذكرة الخواص، العلامة سبط بن الجوزي، المتوفى سنة ٦٥هـ/١٩٨٠، بيروت.
٧- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير الدمشقي، ط١، ١٩٨٨، بيروت.
٨- تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، بدون سنة طبع، القاهرة.
٩- تفسير القرآن الحكيم، الشهير بتفسير المنار، محمد رشيد رضا، بدون سنة طبع، بيروت.
١٠- الدر المنثور في التفسير المأثور، جلال الدين السيوطي، ط١، ١٩٩٠، بيروت.
١١- خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، أحمد بن شعيب النسائي، ١٩٨٧، بيروت.
١٢- ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، الحافظ محب الدين أحمد بن عبد الله الطبري، ١٩٨١، بيروت.
١٣- سنن ابن ماجة، محمد بن يزيد (٢٠٧ ـ ٢٧٥هـ) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بدون سنة طبع، القاهرة.
١٤- سنن الترمذي، وهو الجامع الصحيح، محمد بن عيسى، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، بدون سنة طبع، القاهرة.
١٥- السيرة الحلبية، العلامة أبي الفرج نور الدين بن علي بن إبراهيم الحلبي الشافعي، المتوفى سنة ١٠٤٤، ط٢، ٢٠٠٦، بيروت.
١٦- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ١٩٨٩، بيروت.
١٧- شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني، ط١، تحقيق الشيخ محمد باقر المحمود، ط١، ١٩٧٤، بيروت.
١٨- صحيح البخاري، طبع دار صادر، بدون سنة طبع، بيروت.
١٩- صحيح مسلم، ط٢، ٢٠٠٣، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٠- الصواعق المحرقة، أحمد بن حجر الهيثمي، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، ط٢، ١٩٦٥، القاهرة.
٢١- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط١، ١٩٩٠، بيروت.
٢٢- عبقرية الإمام علي بن أبي طالب، عباس محمود العقاد، طبع المكتبة العصرية، بدون سنة طبع، بيروت.
٢٣- فتح القدير، الجامع بين فني الرواية والدراسة في علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠هـ بدون سنة طبع، بيروت.
٢٤- فقيه الأمة ومرجع الأئمة علي بن أبي طالب، الدكتور محمد بكر إسماعيل، ط١، ٢٠٠٦، إيران.
٢٥- الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة، علي بن محمد بن أحمد المالكي، الشهير بابن الصباغ المتوفى سنة ٨٥٥، بدون سنة طبع، مطبعة العدل، النجف الأشرف.
٢٦- كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب، الحافظ محمد بن يوسف الكنجي الشافعي، تحقيق محمد هادي الامين، ط٣، ١٤٠٤هـ، ايران.
٢٧- الكشاف، تفسير، جار الله الزمخشري (٤٦٧ ـ ٥٣٨هـ) بدون سنة طبع، بيروت.
٢٨- مسند الإمام أحمد بن حنبل وبهامشه منتخب كنز العمال، بدون سنة طبع، بيروت.
٢٩- المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، طبع دار الفكر، ١٩٧٨، بيروت.
٣٠- مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، علي بن محمد الشافعي، الشهير بابن المغازلي بدون سنة طبع، بيروت.
٣١- نور الأبصار في مناقب آل البيت المختار، الشيخ الشبلنجي، ط١، ١٩٨٥، بيروت.
٣٢- نهج البلاغة، شرح محمد عبده، حققه فاتن محمد خليل اللبون، ط١، بدون سنة طبع، بيروت.
٣٣- وقعة صفين، نصر بن مزاحم، المطبعة العباسية، ١٩٢١، بيروت.
٣٤- ينابيع المودة، القندوزي الحنفي، بدون سنة طبع، مؤسسة الأعلمي، بيروت. ❖

التفكير اللساني والوعي الديني

(التفكير اللساني لدى الإمام علي (ع) أنموذجاً)

أ. د. محمد كاظم البكّاء

لابدّ من التأكيد على أثر اللغة في وعينا الديني، فالمتكلّم باللغة الإنكليزية قد يعبّر عن الله تعالى بكلمة (لورد)، وهي تعني (الربّ) وكذلك تعني (النبيل، والسيد، والمولى، والحاكم)، وكلّها معان على سمت واحد، فالربّ هو النبيل، والسيد ونحوه، ومنها قولهم (مجلس اللوردات البريطاني)، فلم يدلّ هذا اللفظ على المعنى الإلهي المطلوب. وهذا القصور في اللغة الإنكليزية عن الإحاطة بالمعاني الإسلامية قد أدّى إلى الإساءة في ترجمة المعاني القرآنية، فالإنكليزي يقول:

في ترجمة قوله تعالى: "الله نور... " God is a light.

ونحن كذلك في لساننا العربي الفصيح يختلف وعينا لفهم حقيقة الله تعالى حين نلفظ (الله) وفي تقديرنا أنّها من (ألِهَ) بمعنى (عَبَدَ) وفيه معنى العبودية والخضوع، وهو يغاير قطعاً فهمنا لو كان التقدير من (وَلِهَ)، أي: حار حَيْرَةً؛ فهو موضع الحَيْرة، فقد احتارت به العقول، وتناولته الظنون، قال الزمخشري في (الله): "وصيغة قولهم (ألِهَ) إذا تحيّر، ومن أخواته دلِهَ، وعلِهَ، ينتظمها معنى التحيّر والدهشة، وذلك أنّ الأوهام تتحيّر في معرفة المعبود، وتدهش الفطن، ولذلك كثر الضلال، وفشا الباطل، وقلّ النظر الصحيح" (أساس البلاغة، الزمخشري، ٢٦).

ومن تأثير اللغة في وعينا العقائدي اعتقادنا الجازم أنّ الله تعالى هو (الأعلى)، بتأثير أدبياتنا الدينية، ومنها قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ (الأعلى: ١)، ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ (الليل: ٢٠)، واعتقادنا كذلك أنّه تعالى (فوق كلّ شيء)، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (الأنعام: ١٨)، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ (الأنعام: ٦١) ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (النحل: ٥٠)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (الفتح: ١٠)، وهكذا كرّس الحس اللغوي لدينا مفهوم العلو والفوقية لله تعالى، فكان تأثيره واضحاً في وعينا الديني، فأيدينا تمتد إلى الله تعالى عالياً، وتنظر الأعين إلى السماء خشوعاً، وذلك ليس من الصواب، والصحيح أن تنخفض تذللاً؛ لأنّ الخشوع معناه الانخفاض،

خشعَ رأسه أي أخفضَ رأسه، وحنى رأسه، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ (الغاشية: ١ ـ ٢)، فالخشوع هو انخفاض الرأس، إمّا لِذلٍ، أو لشعورٍ بالنقص، أو لشعورٍ بالذنبِ، أو ما شاكلَ ذلك، وذلك ما نريد تحقيقه لولا شعورنا الباطني بسبب اللغة أنّ الله تعالى في موضع القداسة العلوية غير واعين لإحاطته بالعالم كلّه وغير واعين لقربه منا ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (المجادلة: ٧)، قال (ع): "سبق في العلو فلا شيء أعلا منه، وقرب في الدنو فلاشيء أقرب منه" (نهج البلاغة، الخطبة ٤٩).

وفي موضوع التوجه بالدعاء وقفت على ما نصّه في زيارة الإمام الحسين (ع): "وأقلّ ما يزار به (ع) أن يصعد الزائر سطحاً مرتفعاً، فينظر يمنة ويسرة، ثم **يرفع رأسه** إلى السماء، فيزوره بهذه الكلمات" (مفاتيح الجنان، زيارة الإمام الحسين (ع) في ليلة النصف من شعبان)، وفي رواية عن حنان بن سدير عن أبيه قال لي الصادق (ع): يا سدير تزور قبر الحسين (ع) في كلّ يوم؟ وأخيراً قال له: وما عليك يا سدير أن تزور قبر الحسين (ع) في كلّ جمعة خمس مرات، وفي كلّ يوم مرّة، قلت ـ أي: سدير ـ: جعلت فداك إنّ بيننا وبينه فراسخ كثيرة، فقال: تصعد فوق سطحك، ثم تلتفت يمنة ويسرة، ثم **ترفع رأسك** إلى السماء، ثم تتحول نحو قبر الحسين (ع) ثم تقول: السلام عليك... إلخ (مفاتيح الجنان، زيارة الإمام الحسين (ع) في زيارة الأربعين) وفي رواية ثالثة ترجع إلى مائتين وعشرين على المشهور في بغداد زمن المعتصم بالله العباسي أنّ الإمام محمد بن علي التقي (ع) والده الإمام الرضا (ع) بن موسى الرضا (عليهم السلام) الذي سمّه المعتصم العباسي، كان كلّما رجع من الجامع يوم الجمعة **رفع يديه إلى السماء** وهو عرقان مغبرّ فيقول: إلهي إن كان فرجي في موتي فعجّل وفاتي لساعتي، حتى قضى نحبه (مفاتيح الجنان، اليوم الأخير من شهر ذي القعدة). فهذه الروايات تذكر رفع الرأس إلى السماء مرّة ورفع اليدين إلى السماء مرّة أخرى، وهي جميعاً في مواقف الخضوع والخشوع الذي لازمه حني الرأس وطأطأته. وفي تقديري أنّ ما روي منها برفع الرأس هو رواية بالمعنى، والصحيح رفع اليدين إلى السماء، وهو لا يتنافى مع حني الرأس وطأطأته خشوعا، والله أعلم.

والمواطن اليماني يعبّر عن الإرادة وفعل الشيء بكلمة (آشتي)، أي: أشتهي، بمعنى (يريد)، وبمعنى (أبغي) في اللهجة السعودية، فهو يقول: أشتي دخول المستشفى، وأشتي ترك الدراسة؛ فليس في الكلمة لديه معنى اللذة والرغبة، وربما يقول: (إنّما يشتهي الله ليعذّبهم) في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (التوبة: ٥٥). تلك من

عاداتهم اللغوية في حين يراد بالفعل (شها) لغةً ما كان فيه اللذة والرغبة تحديداً، ومنه: طعام شهيّ، وتمنّى وتشهّى.

وتفسير ذلك أنّ الكلام هو الفكر، ونحن نتحدث بجمل واللغة هي الفكر بصوت مسموع، والتفكير هو اللغة بصوت غير مسموع، تلك علاقة الجدل بين اللغة والفكر. وعندما نتحدّث عن التفكير اللساني عند الإمام علي (ع) نبدأ بالكلام على الثقلين كتاب الله تعالى وعلم أهل بيته (عليهم السلام)، وقد كان الإمام علي باب مدينة العلم، وقد أودع علمه في جمع القرآن الكريم وتدوينه، وفي نهج البلاغة وأساليبها، ومروياته في المصادر الأخرى: ومقتضى البحث أن يكون الكلام على التفكير اللساني في مبحثين مستقلين، هما القرآن الكريم، ونهج البلاغة، ولكن يتعذر فك التداخل الفكري بينهما لكونهما يصدران من مصدر فكري واحد هو رسالة السماء، فهما لن يفترقا فكرياً كما القرآن الكريم والعترة الطاهرة لن يفترقا حتى يردا عليه الحوض. فالقرآن الكريم منهل تفكيره (ع)، والقرآن هدى سيرته، فهو مصداقه، وهو القرآن يمشي على الأرض ومن المناسب الكلام على حقيقة التفكير اللساني عند الإمام علي (ع) من حيث المنطق، فهو في الحقيقة علم (بديهي)، أي: لا يحتاج في حصوله إلى كسب ونظر وفكر، فهو ليس تفكيراً يتحرك فيه الذهن بين المعلوم والمجهول: فهو علم لدنيّ؛ والعلم نور يقذفه الله تعالى في قلب من يشاء. والتكييف المنطقي لذلك أنّ الله تعالى جبل الإنسان على التفكير، فلدينا علم حسيّ فطري تناله الحواس الخمس منذ الخلق، ويتدرج العلم لدى الإنسان بقوّة الخيال والوهم - وهي موضع افتراق الإنسان عن الحيوان - ثم تتكامل لديه قدرته العقلية والفكرية، وقد يتلقى الإنسان هذه القدرة بفيض إلهي لا يمتنع إمكانه عقلاً، فالله تعالى هو الذي منحه ابتداء المدركات الحسية التي تنالها الحواس بالفطرة منذ خلق الإنسان.

وحقيقة أخرى هي أنّ هذه الملكة في التفكير اللساني عند علي (ع) تكاملية اتسعت للعلوم كافة.

وتلك المزايا للتفكير اللساني للإمام علي (ع) سيرتفع بها مستوى الوعي لديه عما تناله مستويات الفكر لدى الناس عامة في فهم مسألة الوجود الإلهي والوعي الديني.

وسنختار تفسير بعض النصوص من القرآن الكريم بلسان الإمام علي (ع) لندرك مدى التفاوت في الفهم وتدبر المعاني بسبب قصور وعينا اللغوي وتفكيرنا اللساني عنه:

١ - قال تعالى في التعبير عن القدرة: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (البقرة: ١١٧)، وتكرر هذا التعبير ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ في تسع آيات كريمات.

إنّ المعنى المتبادر من هذه العبارة أنّ الله تعالى (يقول) ويخاطب شيئاً موجوداً (له)، والأمر هو (كن)، والنتيجة صيرورة الشيء واقعا (يكون)، وتطبيقه في قوله تعالى مثلاً: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران: ٥٩) فثمة (قول) للتراب، وهو المخاطب (له)، والنتيجة (خلق عيسى) وهي الكينونة (يكون). وهكذا يتضح لنا القول على مستوى التمثيل كقولك لزيد: اكتب شعراً، فأنت (تقول)، و (زيد) هو المخاطب بأن يفعل (كن)، وعندئذ تحدث كينونة الشعر فوراً (يكون). وهذا الفهم اللغوي الساذج لدى المتلقي ينطوي على إشكاليات عديدة هي:

- إنّ الله تعالى يخاطب شيئاً بقول "قال".
- إنّ ثمة مخاطباً ماثلاً في الواقع (له) وهو ههنا (التراب).
- كينونة الشيء (عيسى) بفكر وروية، وتجربة سابقة، وحركة حادثة.

ولكنّ الذي يجري على مستوى القدرة الإلهية أدركه الإمام علي (ع)، ولم يخطر على بال أحد من قبل، فليس ثمة (قول)، ولا (خطاب)؛ إذ ليس ثمة مخاطب أصلاً قبل خلق الكون جميعاً، فالخلق هو الذي ابتدعه، وهذه (الكينونة) هي من غير تجربة سابقة، ولا فكرة تجول في الذهن، ولا همامة تضطرب بها النفس، ولا حركة تحدث. تلك عظمة القدرة الإلهية، وتلك حقيقة التفكير اللساني التي أدركها الإمام (ع)، قال الإمام علي (ع): "أنشأ الخلق إنشاء، وابتدأه ابتداء بلا روية أجالها، ولا تجربة استفادها، ولا حركة أحدثها، ولا همامة نفس اضطرب فيها".

وقال (ع): "يقول لما أراد كونه (كن فيكون) لا بصوت يقرع، ولا نداء يسمع، وإنّما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه، ومثله لم يكن من قبل ذلك كائنا، ولو كان قديما لكان إلهاً ثانياً" (نهج البلاغة، الخطبة ١٨٦).

٢- وقال تعالى في بيان بعض صفاته تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ (التوبة: ٤٠).

وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ (ص: ٧٢).

وقال تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ (طه: ٥).

الآيتان السابقتان من الآيات التي تدلّ على كونه تعالى معنا، وأنّه فينا. وليس من السهل تصور ذلك، وقد أدرك الإمام علي (ع) هذه (المعيّة)، فقال: "مع كلّ شيء بلا مقارنة"، فهو تعالى مع كلّ شيء ولكن لا يقترن بها، وهو تعالى غير الأشياء وفي علو عنها، ولكنّه قريب منها ولا يفارقها ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٦).

وفي الآية الثالثة، وفيها أنّ الله تعالى على العرش، وهذه "الغيرية والعلو" ليست مكانية، وإنّما تعني على وفق كلام الإمام علي (ع) أنّه "غيرُ كلّ شيء بلا مزايلة".

٣- وقال تعالى في أسرار خلقه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٩) قال الإمام علي (ع) في تفسيره: "وسميّت السماء سماء؛ لأنّها وسم، يعني: معدن الماء" (تفسير القرآن الكريم برواية الإمام علي (ع)، علي عاشور، ٥؛ انظر علل الشرائع، ١/ ب ١ ح١). وهذا المعنى لم أجده في معاجم اللغة، ولكنّها أوضحت أنّ الوسم هو العلامة والأثر جاء في (لسان العرب): "الوَسْمُ أَثرُ الكَيّ والجمع وُسومٌ... وقد وسَمَه وَسْماً وسِمةً إذا أَثَّر فيه بسِمةٍ وكيٍّ"، وفي (القاموس المحيط): "الوَسْمُ أثرُ الكَيِّ ج وُسومٌ، وسَمَه يَسِمُه وَسْماً وَسِمَةً فاتَّسَمَ". وعندما وقفت على كلام الإمام علي (ع) في خلق الكون والسماء أدركت المعنى لكون حقيقة السماء من الماء، فهي من آثاره ووسمه وعلاماته، وفي معنى الكيّ استعمال الحرارة، وكذلك فورة المياه المتلاطمة، فحقيقة السماء من الغازات التي نتجت عن الماء بتلاطمه وتحليله كهربائياً بفعل الموج إلى غازاته وهي الأوكسجين والهيدروجين، قال الإمام علي (ع): "ثم أنشأ سبحانه ريحاً... فأمرها بتصفيق الماء الزخّار، وإثارة موج البحار، وعصفت به عصفها بالفضاء... حتى عبّ عبابه، ورمى بالزبد ركامه، فرفعه في هواء منفتق وجوّ منفهق فسوّى منه سبع سماوات". وهكذا يعمّق لنا هذا المعنى الذي تفرّد به الإمام علي (ع) وعينا الديني وفهمنا اللغوي للقرآن الكريم.

٤ ـ قال الإمام علي (ع): "فطر الخلائق بقدرته، ونشر الرياح برحمته، ووتّد بالصخور ميدان أرضه" يمثل كلامه (ع) وعياً كاملاً بالقدرة الإلهية بسبب تفكيره اللساني الذي يعلو به عن مستوى تفكيرنا اللغوي مستخدماً التعريف بالمثال، فهذه القدرة تمتلك الحركة ومثالها نشر الرياح، وتمتلك السكون بثبوت الأرض؛ فهي قدرة متكاملة. ومثل هذا التعبير تتوضح فيه القدرة الإلهية متكاملة في التصرف، فهو فطر الرياح ونشرها، وأنشأ الأرض وثبتها. ولعلّك لا تجد تعبيراً قادراً على توضيح هذه القدرة على سمت هذا التعبير.

❖ ❖ ❖

الغدير بين نظريتين

السيد صدر الدين القبانجي
إمام جمعة النجف الأشرف

هناك عدة مجالات لبحث قضية الغدير وحديث الغدير:

المجال الأول: دلالة النص النبوي في يوم الغدير

القائل (من كنت مولاه فعلي مولاه) ما إذا كان دالاً على الإمامة والولاية العامة أم كان مفاده وجوب الحب والنصرة والمودة كما هو مدلول آية المودة.

والبحث في هذا المجال قد تناولته كتب علمائنا بما لا مزيد عليه، ويمكن في ذلك الإشارة إلى كتاب المراجعات للسيد شرف الدين (قدس) فقد استوعب هذا البحث بأفضل عرض وأدقه.

المجال الثاني: حكاية النص عن موقف ذاتي أم قرار الهي

فهل كان الرسول الأكرم (ص) يُقدم موقفاً شخصياً في حديث الغدير، أم أنه يحكي عن إرادة الله تبارك وتعالى وأمره؟

والبحث في هذا المجال أيضاً ليس ما نهدف إليه، فهو بحث قد تناولته كتب علمائنا الأعلام، وقدموا الدليل الواضح على أن الرسول الأكرم (ص) كان ينطق بأمر الله تعالى، ستشهدين على ذلك بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[1]. وهنا يمكن مراجعة المصادر العقيدية والبحوث الكلامية لعلماء الطائفة ويكفي أن نشير إلى كتاب (المراجعات) للسيد شرف الدين، فقد أتى بما لا مزيد عليه.

المجال الثالث: القيمة التشريعية للنص

إذا كان النص تعبيراً عن إرادة شخصية وموقف ذاتي لرسول الله (ص) فهل يمتلك يمتلك قدرة الإلزام وحق الطاعة؟؟

هذا البحث هو ما يسجّله الحداثيون الجدد، حيث يجردوا السنّة النبوية عن سلطتها التشريعية وهو ما نعبر عنه في المصطلح الأصولي بـ (الحجية). ويستندون في ذلك إلى أن الرسول (ص) قد قال (أنتم أعلم بأمور دنياكم) و (إني بشراً خطي وأصيب فإذا أمرتكم بشيء فاعرضوه على كتاب الله فما وافق فخذوه وما خالف فدعوه).

---

(١) المائدة: ٦٧.

هذا البحث هو أيضاً مما لا نهدف إليه في دراستنا هذه، والحقيقة إن الموقف الحداثي هذا هو تشكيك معلن بالسنة النبوية واعتبارها وحجيتها، معتبرين الإمام الشافعي هو أول من أعطى للسنة النبوية موقعها واعتبارها وقدسيتها فيما لم تكن قبل ذاك كذلك.

يمكن هنا أن نقرأ بشكل واضح كتابات نصر حامد أبو زيد في (الإمام الشافعي وتأسيس الأيدلوجية الوسطية) وكتابات جورج طرابيشي في (من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث نشأة مستأنفة).

البحث في هذا الموضوع طبعاً لا يختص بحديث الغدير بل يعم السنة النبوية كلها وحتى ما كان منها بصدد التشريع، فهي في جميع الأحوال وبحسب هذا الرأي الحداثي مواقف شخصية لرسول الله (ص) لا تعبر عن إلزام شرعي!! وإذا أردنا أن نستذكر التاريخ فإن هذه الرؤية تأخذ منابعها من مقولة (حسبنا كتاب الله) والتي عمدت إلى هدم أهم مصدر من مصادر التشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم وهو السنة النبوية.

ولما كان حديث الغدير لا يعبّر عن موقف شخصي لرسول الله (ص) بل هو امتثال للأمر الإلهي كما هو موضوع البحث في المجال الثاني مما أشرنا إليه.

إذن لم نكن هنا في مواجهة هذه الشبهة لأن هذه الشبهة إنما تتناول الواقف الشخصية للنبي (ص)، أما إذا كان نص الغدير حكاية عن قرار إلهي فلم يعد مجال للتشكيك بما يتمتع به من إلزام.

ولكن موضوع بحثنا إنما هو في المجال الرابع.

المجال الرابع: هل يتمتع القرار الإلهي بالصفة الإطلاقية أم هو قرار مرحلي؟

نحن نواجه في هذا البحث شبهة جديدة يثيرها الحداثيون في عموم أحكام الشريعة الإسلامية وبالأخص في تلك الأحكام التي تتعلق شؤون السلطة والسياسة كما هو في قضية الغدير.

وربما كان طه حسين في كتابه (في الأدب الجاهلي) ومصطفى عبد الرازق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) هما أول من أثار هذه الشبهة في الوسط الإسلامي تأثراً واقتباساً من الفكر الغربي وطريقة تعامله مع النبوات الإلهية.

واستمرت أقلام في الوسط العربي وغيره لتدعيم هذه الشبهة وامتدت إلى الوسط الشيعي أيضاً حيث أصبحنا نشهد من يدعو إلى نظرية (تاريخانية أحكام الشريعة الإسلامية) بمعنى أنها لا تتمتع بالإطلاق الزماني بل هي خاصة بظروفها التاريخية.

في ضوء هذه الرؤية سيقع حديث الغدير بين نظريتين:

النظرية الأولى: اعتباره حكماً إلهياً مطلقاً يعبر حدود الزمان والمكان.

النظرية الثانية: اعتباره حكماً إلهياً مرحلياً جاء لمعالجة واقع معين لا يمكن إسقاطه على الواقع الإسلامي المتجدد بعد رسول الله (ص) وإلى يومنا هذا.

هذه النظرية الثانية قد نلمس جذورها أيضاً في الصدر الإسلامي الأول حينما قالوا (إن قريش لا ترضى أن تجتمع النبوة والإمامة في بيت واحد). فهذا واقع اجتماعي وثقافي وسياسي لا يسمح بتفعيل القرار الإلهي الذي نزل على قلب الرسول الأكرم (ص) في قصة الغدير، ويجب أن نتعامل مع الواقعيات بما تستحق حتى إذا فرضت الخروج على القرار الإلهي!!.

هذه الفكرة نفسها وجدناها أيضاً في مقولة من قال (إن علياً أولاكم بهذا الأمر لولا أن فيه دعابة)!! فهي مقولة تريد أن تفرض القراءة البشرية على النص والقرار الإلهي.

إن تلك المقولات التي فتحت باب (الاجتهاد في مقابل النص) كانت هي النواة التي انبتت ما يسمى اليوم بـ (القراءة التاريخانية) للدين حيث تعتبر أحكام الدين والنصوص القرآنية عموماً تعبيراً عن حلول مؤقتة ومعالجات آنية لواقع اجتماعي في شبه الجزيرة العربية لا يمكن تعميمه لواقع اجتماعي آخر يختلف عنه.

على أساس ذلك يتم تفسير نص الغدير، وحتى على افتراض إلهيته على أساس أنه معالجة لواقع سياسي معين مشروط بشروطه ومحدود بحدوده، وبالتالي فإن نظرية (النص والتعيين) التي يؤمن بها الشيعة في الإمامة بعد رسول الله (ص) هي نظرية سوف تفقد مبرراتها وشرعيتها -حسب القراءة التاريخانية - حينما نعيش نمطاً آخر من الحياة والثقافة الاجتماعية والسياسية.

هذه الرؤية هي التي نريد مناقشتها في هذا البحث.

إن دراسة حديث الغدير تقع في دائرة النظرية السياسية في الإسلام، ما هو موقع الأنبياء ومسؤوليتهم، وما هو موقع القادة الدينيين، وكذلك موقع الأمة ومسؤوليتها.

فلاشك أن قضية الغدير تعتمد على رؤية خاصة في مجال الحكم والسياسة تقول بأن الأنبياء والأئمة (عليهم السلام) مهمتهم قيادة المجتمع وبناء النظام السياسي الصحيح وهذا على خلاف الرؤية الحداثية التي تقول إن الضرورة هي التي فرضت على رسول الله (ص) أن يتصدى لقيادة مجتمع المدينة المنورة ولم يكن ذلك بالأصل جزءاً من مهماته.

إن حديث الغدير وتنصيب الإمام علي (ع) إماماً للمسلمين يعني أن رسول الله (ص) يمارس دوره في شأن الحكم والسياسة بوصفه قائداً للأمة الإسلامية ومسؤولاً عن حماية تجربتها من الضياع والانحراف. وهو لأجل ذلك يرسم لهم الطريق الصحيح وينصب لهم الأعلام الهادية والمؤشرات الواضحة من بعده وحتى نهاية المسيرة البشرية كما بشر به رسول الله (ص) (يخرج رجلٌ من ولدي يملؤها قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً).

لم يكن ذلك خروجاً عن المهمة الرسالية التي قام بها النبي (ص) بل هو جزء منها.

إن بناء المجتمع الصالح وقيادته وحماية تجربته والإمساك بزمامها هو جزء لا يتجزأ من مهمات الأنبياء وفي صلب مسؤولياتهم وليس في هامشها. وعلى أساس ذلك جاء حديث الغدير بأمر الله تعالى قائلاً ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾[1] وعلى أساس ذلك قال رسول الله (ص) عند

(١) المائدة: ٦٧.

وفاته (آتوني بدواة وكتف أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعدي أبداً) فالرسول (ص) يرى نفسه مسؤولاً عن حماية هذه الأمة وهذه التجربة الحضارية التي أسسها وقادها.

معطيات حديث الغدير بين النظريتين:

إن حديث الغدير وفقاً للنظرية الأولى له عدة معطيات ومداليل:

فهو من ناحية يؤكد أن (الإمامة) هي منصب الهي كالنبوة، وإن الله تعالى هو الذي يتولى تفويض هذا المنصب لمن يشاء. وإذا كان النبي (ص) أولى بالمؤمنين من أنفسهم فإن الإمام أيضاً أولى بالمؤمنين من أنفسهم ولاشك أن هذا الموقع المتميز ما كان يمكن تفويضه للإمام إذ لم تكن الإمامة بالأصل منصب الهي والله تعالى هو مالك الأبدان والنفوس وهو الولي المتعال. هذا هو المعطى الأول الذي يكشفه حديث الغدير.

والمعطى الثاني الذي يكشفه حديث الغدير هو أن موقع الأمة هو موقع الطاعة والاتباع ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1] فهي صاحبة الموقف في شؤونها الدنيوية ولكنها ليست صاحبة الموقف ولا مالكة الاختيار حينما يرتبط الأمر بشأن الإمامة طالما كان شأناً إلهياً.

والمعطى الثالث لحديث الغدير هو وحدة الإمامة الدينية والإمامة السياسية، بمعنى أن الإمام في الشؤون الفقهية والعقائدية هو نفسه الإمام في الشؤون السياسية فلا تعددّ في المجالين، بل تجتمع الإمامتان في شخص واحد.

والمعطى الرابع لحديث الغدير وفقاً للنظرية الأولى أن تعيين الإمام إذا كان حقاً إلهياً فإن هذا الحق سيمتد إلى تعيين الأئمة واحداً بعد واحد. وستمتع دائرته لتعيين الوكلاء والنواب للإمام نفسه وسيكون لهم نفس الموقع الذي للإمام من حيث وجوب الطاعة والانقياد لهم وأخذ معالم الدين منهم، وذلك هو ما جاءت أحاديث أهل البيت السلام لتأكيده في وعي الأمة حينما قالوا كما عن الإمام الصادق (ع) (من كان منكم قد روى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا فليرضوا به حكما فاني قد جعلته عليكم حاكما)[2].

وسوف يتعمق هذا المفهوم ويتسّع لتنبثق عنه نظرية (ولاية الفقيه) أو (حاكمية الفقهاء) في عصر غيبة الإمام المعصوم،وهي النظرية التي تمثل مساراً كبيراً اختطه شيعة أهل البيت (عليهم السلام)، واعتبر أحد امتيازاتهم عن المذاهب الإسلامية الأخرى. هذا كله وفقاً للنظرية الأولى.

أما وفقاً للنظرية الثانية فإنها ترى الإمامة شاناً من شؤون الأمة، وحقاً من حقوق الناس ومنصباً بشرياً وليس منصباً إلهياً، وفي هذا الضوء فإن التعيين الإلهي الذي جاء في واقعة الغدير لم يكن تعبيراً عن رؤية للنظام السياسي، ومنهجاً في إدارة الأمة بمقدار ما يعبر عن

---

(١) النساء: ٥٩.

(٢) وسائل الشيعة، كتاب القضاء، باب١١، ج١، ص٩٩.

تدخل آني غير مفلسف ولا مؤدلج، وهو كمثل ما نزل في القرآن الكريم من تدخلات ومعالجات إلهية في شؤون شخصية للغاية مثل ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾[1]، ومثل قوله ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾[2].

فهي إطلالات إلهية على الشأن البشري لكنها لا تحكي عن أيديولوجية خاصة أو نظاماً فلسفياً أو سياسياً معيناً.

الإمامة في هذه القراءة الحداثية هي حق الأمة وليس حق الله، والحاكمية هي حاكمية الأمة وليست حاكمية الله، فالتدخل الإلهي في قصة الغدير لم يكن أكثر من اقتراح وترشيح قدمته السماء للأرض، والله للإنسان، كما هو في أي موقف عسكري كان يمارسه النبي (ص) من منظور عسكري وليس من منظور نبوي، ومن موقع بشري وليس من موقع إلهي.

على أساس ذلك فإن الإمامة السياسية هي قضية مفصولة بالأساس عن الإمامة الدينية وإدارة البلاد ويجب أن تخضع لآليات وسياقات وشروط غير ما تخضع له إدارة العملية الدينية، وهذه هي نظرية (ماله له وما لقيصر لقيصر) وهي النظرية التي أزاحت الدين في أوروبا عن موقعه الرائد في بناء الإنسان والمجتمع وقيادة تجربته على الأرض لوضعه في زاوية من زوايا التجربة كمثل أي مؤسسة أخرى من مؤسسات المجتمع المدني.

وعلى أساس هذه النظرية الحداثية أيضاً فإن الأئمة الأطهار (ع) الذين كانوا بتعيين الله ووحي السماء حسب النظرية الشيعية هم في ضوء النظرية الحداثية ليسوا أكثر من علماء أبرار صالحين يجري عليهم وفيهم ما يجري على سائر البشر إن في الشأن الديني أو في الشأن الشخصي أو الشأن السياسي. وأن ما أُضفي عليهم من حالة تقديسية إنما هو نسيج حاكته أيادي الغلو الطائفي كمثل ما يصنعه التاريخ من أساطير الأبطال القوميين!!.

لا معنى إذن للعصمة ولا التعليم الإلهي اللدني ولا غير ذلك مما تنسبه وتحكيه النظرية الأولى عن الأئمة باعتبارهم مصطفون من قبل الله تعالى ولديهم من ما لدى الأنبياء من علوم ومعارف.

مبررات النظرية الحداثية:

لقد رفض الحداثيون أن يكون شأن الحكم والسلطة من مهمات الأنبياء والأديان الإلهية، ولأجل ذلك رفضوا أن يكون للإسلام نظرية في الشأن السياسي، ولأجل ذلك أيضاً رفضوا أن تكون النصوص الدينية الواردة في هذا الشان مثل حديث الغدير، وحديث

---

(١) المجادلة: ١.

(٢) المسد: ١و٢و٣.

السفينة، تعبيراً عن مواقف مطلقة ثابتة، وتشريعاً إسلامياً أبدياً، بل هي معالجات آنية قام بها الرسول (ص) لواقع اجتماعي وسياسي معين فرض على رسول الله (ص) أن يقول كلمته فيه دون أن يكون ذلك من اختصاصه ومهماته. وهذا ما يسمى بالنظرية التاريخانية لأحكام الشريعة الإسلامية.

والسؤال الآن: لماذا ذهب الحداثيون إلى ذلك؟ وما هي مبرراتهم؟ ولماذا لا تكون أحكام الإسلام مطلقة لكل زمان ومكان؟

لقد ذكر الحداثيون لهذا الرفض مبررين:

المبرر الأول: إن الواقع الاجتماعي والثقافي واقع متحرك ومتغير ولا يمكن إخضاعه لأحكام ونظم ومناهج سياسية ثابتة عبر مئات السنين. ولأجل ذلك وجب أن يترك شأن الحكم والسياسة للأمة وطرائقها السياسية المتغيرة في إدارة العملية السياسية.

وهذا الكلام نفسه يقوله الحداثيون في المجال الاقتصادي والاجتماعي وحتى السلوك الشخصي أيضاً حيث لا يمكن للدين أن يفرض نمطاً ثابتاً من النظام الاقتصادي والاجتماعي وحتى الشخصي والأسري لواقع اجتماعي متحرك ومتغير عبر الزمان والمكان.

المبرر الثاني: إن النصوص القرآنية حينما تدرس في سياقاتها فإنها لا تحمل دلالة إطلاقية لا وسع من ظروفها التاريخية التي نزلت فيها.

فحينما يتحدث عن ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[١] أو ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٢] أو ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾[٣] أو ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾[٤] أو ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾[٥] أو ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[٦].

فإن جميع هذه النصوص يجب إخضاعها للمناخات الفكرية والاجتماعية التي نزلت فيها ولا يمكن فرضها على دوائر أوسع من تلك المناخات حيث أن السياق هو الذي يحدد دلالة النص وليس المنطوق اللغوي وحده.

على أساس ذلك فان نظرية التعيين في شأن الإمامة والقيادة السياسية هي نظرية جاءت في سياقات معينة وحتى إذا كان القرآن الكريم قد وجّه أمراً لرسول الله (ص) بتنصيب الإمام علي (ع) فإن ذلك يجب أن يدرس ويوضع في حدوده الزمانية والمكانية.

---

(١) النساء: ٣٤.

(٢) النساء: ٥٩.

(٣) الأنفال: ٧٢.

(٤) النور: ٣١.

(٥) التوبة: ٣٦.

(٦) البقرة: ٢٧٥.

نقد المبررات الحداثية:

هذه هي أهم المبررات الحداثية لسلب الإطلاق الزماني والمكاني عن أحكام الشريعة الإسلامية عموماً وفي المجال السياسي خصوصاً.

لكن الرؤية الحداثية لم تقدم أيّ برهان على أن تجربة الرسول الأكرم (ص) في المدينة المنورة كانت فعلاً عابراً وهامشياً، إنها حاولت أن تفسّر ذلك كذلك لكن لم تستطع أن تقدم أي دليل على هذه الرؤية، فلماذا كانت تجربة سياسية رائدة في المدينة المنورة ولمدة عشر سنوات خارجه عن مهم النبي ودوره وما هو الدليل على ذلك؟

الحقيقة أننا أمام ثلاث شواهد تاريخية:

الشاهد الأول: هو تجربة الرسول (ص) في المدينة المنورة والتي أسس فيها نظاماً سياسياً يمتلك مقومات ومعالم خاصة.

الشاهد الثاني: هو وصية الرسول الأكرم (ص) لما بعد وفاته، فقد كان حريصاً ـ على الأقل في ضوء رؤية الشيعة ـ على أن لا يترك هذه التجربة بدون قيادة، وبدون معالم في الطريق، وخصائص للنظام السياسي الذي يحكم الأمة.

الشاهد الثالث: هو تجربة الإمام علي (ع) أيام خلافته، والتي مارس فيها دور القائد السياسي والعسكري وضمن مناهج عمل خاصة ومبادىء محدّدة.

أمام هذه الشواهد الثلاثة ماذا تمتلك الرؤية الحداثية من دليل على اعتبارها ممارسات وفعاليات خارجة عن جسم المهمة النبوية الرسالية.

إنها مجرد فرضية لا يمكن قبولها علمياً وهي بالضبط تحاكي الفرضية التي كان يتحدث عنها سبينوزا وهو يقول: (أن الوحي ينزل بالشكل النفسي والسلوكي للنبي، فإذا كان قروياً فان الوحي سيتحدث بآيات الزراعة والطين والماء، وإذا كان عسكرياً فإن الوحي سينزل بآيات القتال والجيش، وإذا كان صناعياً فإن الوحي سينزل بآيات الصناعة وأدواتها وهكذا).

هذا الكلام هو فرضية طرحها المفكرون الغربيون وهم يقدمون تحليلاً مادياً سيكولوجياً للدين، لكن حينما نكون قد آمنا بالأنبياء،وبعثتهم عن الله تعالى، فإنه لا مجال حينئذ لتحميل مذاقاتنا وفروضنا على الدين بعيداً عن الدليل العلمي.

فالسؤال المهم إذن هو: ماذا قدّمت الحداثة من دليل على هذه الفرضية التي يشهد الواقع التاريخي لتجربة النبي (ص) ووصيته، ثم تجربة الإمام علي (ع) على خلافها؟.

هذه إذن الملاحظة الأولى.

كما أن الرؤية الحداثية تمنح لنفسها الحق في الخروج على النص الديني الثابت سواء في المجال السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي وحتى في مجال الأحوال الشخصية، حيث يفترض الحداثيون أن المقاصد والأهداف هي الأصل وأما التشريعات التي جاء بها القرآن أو جاءت على لسان النبي (ص) فهي عوارض وقشور لا تمتلك إلزاماً ولا تمثل قانوناً.

من حقنا أن نسأل من أين امتلكت الحداثة هذه السلطة في إسقاط النص القرآني والنبوي؟

ربما يكون لهم أسوة بأولئك الذين خرجوا على النص القرآني والنبوي أيام الرسول (ص) وبعده في عشرات الموارد، ولكن هذا الخروج لا يمثل موقفاً شرعياً لدى شيعة أهل البيت (ع) ولا يعبّر عن سلوك صحيح أمام رسول الله (ص) فلا يصح اتخاذه نموذجا للاحتذاء به.

ما هو الدليل على أن وصية الرسول (ص) في حجة الوداع وهو يدعو في ذاك الهجير وحرّ الظهير وقد تفرق المسلمون إلى محالهم فأمر بجمعهم وقد زادوا على المائة ألف فخطبهم وشرح أصول الإسلام وذكّرهم بها ثم عرّج من ذلك كله إلى قضية الإمامة قائلاً (ومن كنت مولاه، فهذا علي مولاه) وقد أخذ بيد علي ورفعها حتى بان أبطيهما للناس، لم يكتف بذلك حتى قال (اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره واخذل من خذله) فهل كان ذلك كله مجرد ترشيح وتوصية ونصيحة اجتماعية خارجة عن أصل المهمة النبوية؟

ثم كيف نفسّر قوله تعالى ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾[1] فهل يتسق ذلك مع قضية هامشية خارجة عن متن التجربة النبوية ومهماتها الأساسية؟ هل ذلك هو الفهم العربي للنص؟ أم أننا نفرض رأينا على النص القرآني ونلوي عنقه كما كان يقول نصر حامد أبو زيد والعياذ بالله.

ولنعد الآن إلى نقد المبررات الحداثية.

أما المبرر الأول: الذي يستند إلى أن الواقع الاجتماعي متحرك فلا يمكن أن نفرض عليه نظماً اجتماعية واقتصادية وسياسية ثابتة.

هذا الكلام هو استغفال واضح ونظرة غير مستوعبة للواقع الاجتماعي البشري، ورؤية المشهد من زاوية واحدة وليس من جميع الزوايا.

ذلك أن الواقع الاجتماعي للإنسان فيه ثوابت وفيه متحركات، والنظم الإسلامية تهدف لتقديم معالجات ثابتة تتناسب مع تلك الثوابت الاجتماعية والإنسانية، وبينما تفتح الباب للحلول والمعالجات المتحركة المتناسبة مع الواقعيات المتحركة.

إن قيم العدالة والكرامة والمساواة هي ثوابت وليست متحركات. كما أن حاجة المجتمع إلى إدارة وقيادة وسلطة قضائية وتنفيذية وتشريعية لحل المنازعات والحدّ من ظاهرة الفوضى والعبثية هي ثوابت إنسانية اجتماعية وليست متحركات متغيّرة وآنية.

كما أن الصراع والنزاع وتعدد الآراء واختلاف الأهواء وعجز الثروات الطبيعية عن إشباع كل الطموحات البشرية هي حقائق ثابتة على مرّ العصور والدهور وسوف لن يشهد المجتمع البشري مادام بشرياً حالة لا توجد فيها نزاعات وتضارب مصالح، أو اصطدام آراء، رغم أن الماركسية وحدها قد افترضت ذلك، لا إن الجميع يرى أنها فرضيات طوبائية لا نصيب لها من الصحة.

---

(١) المائدة: ٦٧.

في ضوء هذه الواقعيات البشرية الثابتة نحن بحاجة إذن إلى أطروحات تتناسب مع ثبات تلك الواقعيات، وتقف على رأس تلك الأطروحات الثوابت قضية (الإمامة) بما تعنيه بالاصطلاح المعاصر السلطة بكل مؤسساتها ومجالاتها. وهذا ما تؤكده النظرية الدينية وكما كان يقول الإمام علي (ع): (انه لابد للناس من أمير بر أو فاجر) في الرد على من قال (لا حكم إلا لله) فقد أجاب بأنها (كلمة حق يراد بها باطل) بما يعني أن حاجة الأمة إلى إمام والى نظام سياسي واحد هي من الثوابت التي لا تتغير عبر تغيّر المجتمعات.

نفس هذا الكلام يجري في سائر الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والأسرية وحتى الفردية فهناك حاجات ثوابت لدى الإنسان، كالحاجة إلى بناء الأسرة، والنزعة للتناسل، وحب التكاثر وأمثال ذلك، فهي حاجات لا تتغير في الواقع البشري مهما اختلفت الأشكال والصور، ومن هنا فقد وضع الإسلام معالجات وتلبيات ثابتة أيضاً..

ولكن هذه الثوابت التشريعية نفسها تتمتع بمرونة تمكنها من التواصل والتفاعل والتكيّف مع أشكال الواقع الاجتماعي المتحرك والمتغيّر، وذلك من خلال نظرية (الاجتهاد) في فهم أحكام الشريعة واستنباطها وهو ما يلتزم به مذهب أهل البيت عليهم السلام.

والحقيقة أن النظرية الحداثية تكون صحيحة لو كنا نتعامل مع تشريع بشري يصنعه الإنسان ضمن خبراته وتجاربه ومعارفه المحدودة، لكننا حين نتعامل مع تشريع إلهي كما هو في الأديان الإلهية، فإن الله تعالى هو وحده المحيط بثوابت هذا الإنسان وتحركاته وماضيه وحاضره ومستقبله، ونزعاته الذاتية والعرضية، والدائمية والمؤقتة، واندفاعاته الفطريّة الصحيحة أو المرضيّة، وحينئذ فلا توجد ثمة مشكلة في أن يضع الله تعالى المحيط علماً بكل شيء وهو خالق الإنسان و ﴿يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾[1] نظاما تشريعياً منسجماً مع ثوابته ومتحركاته، جواهره وأعراضه.

لكن التفسير البشري للدين كما يؤمن به الحداثيون هو الذي لم يسمح لهم بقبول النظم التشريعية الثابتة والمطلقة زماناً ومكاناً.

أما المبرر الثاني: الذي يستند إلى رؤية في دلالة النص اعتماداً على سياقاته التاريخية التي ورد فيها، فهذا المبرر هو ما يمكن أيضاً مناقشته بالقول:

إن تأثير السياق في دلالة النص هي مسألة قد فرغ عن صحتها والالتزام بها علماء الإسلام، وحين نقرأ لهم كتب التفسير فإننا سنجدها مليئة بالاستناد إلى دلالة السياق في دلالة النص وموقع النص في ظروفه المحيطة به، وتأثير القرائن الحالية والمقالية، ولا أعتقد أن الحداثيين قد أتوا بجديد في هذا الشأن.

فلنتفق إذن على أن مدلول النص لا يحدده الوضع اللغوي للكلمة في معناها وإنما يحدده أيضاً طبيعة السياق الذي جاء فيه، فقد تكون الجملة لغويا دالة على التخيير ولكنها

---

(١) الأعلى: ٧.

حينما توضع في سياقاتها تكون دالة على النهي والحرمة مثل ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾[١] وقد تكون داله على الوجوب ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[٢] أو ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾[٣] بينما هي بحسب الوضع اللغوي تدل على التخيير والحرية وهكذا يتضح دور السياق في المعطى النهائي للجملة.

وعلى أساس ذلك من الحق أن نراجع النص القرآني والنبوي لننظر ما إذا كانت دلالته خاصة بظرفه الزماني والمكاني أم هي مطلقة تستوعب امتداد الزمان والمكان.

هذه مسالة لا يمكن إصدار حكم مطلق فيها كما يصنع الحداثيون، بل يجب إخضاعها لطبيعة النص وسياقاته المحيطة به وحينئذ قد نكتشف اختصاصه بواقعه معينه وقد نكتشف إطلاقه وعمومه، وهنا يأتي دور المفسّر والمجتهد الفقيه في اكتشاف ذلك.

إن قوله تعالى مثلاً ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾[٤] لا علاقة له بالظرف الزماني والمكاني الذي نزل فيه النص بل هو ذو دلالة عامة ومطلقة، ومثل ذلك حين نقرا النص القرآني القائل ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾[٥] فإن ذلك لا علاقة له بالمناخ الثقافي والسلوكي الذي نزل فيه النص بل هو يتحدث عن تشريع أبدي واضح المعالم والأبعاد.

في هذا الصدد كيف نقرأ نص (الغدير) ومعطياته الآنفة الذكر؟

هل تصح فيه القراءة التاريخانية أم نكتشف منه نظرية مطلقة في الحكم والسياسة؟

ذلك ما تقوله القراءة الإسلامية وبالخصوص نظرية أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم.

فنص الغدير يكشف عن نظرية هي العمق الأيديولوجي للنص حيث تؤمن هذه النظرية بأن الإمامة هي كالنبوة منصب الهي، وان مهمة القيادة والسياسة هي من صلب مهمات الأنبياء وليست مهمة عرضية طارئة. وأن الأمة لم ولن تستغني يوماً عن الإمام وإن دور الأمة وفي كل ظروفها ومستوياتها هو دور الطاعة للإمام سواءً في فرض الإمام المعصوم أو الإمام غير المعصوم كما هو في ظروف غيبة الإمام المعصوم بحسب نظرية شيعة أهل البيت (عليهم السلام).

كما أن نص الغدير فيه دلالة واضحة على أن الأمة ليس لها أمام قرار النبي أو الإمام بالأصالة أو بالنيابة إلا الطاعة والالتزام وهذا هو معنى (فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله) والراد عليه راد علينا وهو على حد الشرك باله، كما جاء في أحاديث أهل البيت عليهم السلام بشأن الرجوع إلى الفقهاء والطاعة لهم[٦]. ❖

---

(١) فصلت ٤٠

(٢) الكهف ٢٩

(٣) التكوير ٢٨

(٤) الأعراف ٣١

(٥) الإسراء ٣٢

(٦) راجع في ذلك وسائل الشيعة، كتاب القضاء، الباب ١١.

العدالة الاجتماعية في فكر الإمام علي (ع)
منهجاً وتطبيقاً

م. د. سامي جودة الزيدي
م. م حيدر حسين جلود

ليس جديداً البحث في شخصية الإمام علي (ع) فقد كتبت أقلاماً كثيرة، حتى نفد مدادها وما نفذ معين علي الإنساني، فكل يوم يمر وأثر الإمام يتجدد عطاء زاخراً بمعانيه ويتحرك مع حركة المجتمع وكأن أحداثه واقعة آنية، لم يتقادم عليها الزمن، بل أن إنتاجها لم يستطع أن ينتجه الحكام للبشرية فظل حياً ليناً رطباً يلامس الإحساس ويتدفق جرياناً يتغذى منه المحرومون أملاً، ويحمله الثائرين شعاراً، أنتج عطاء الإمام مجتمع يحلم بالحرية، يحلم بالأمن والسلام في التعايش السلمي.

لم يكن الإمام بعيداً عن الواقع فقد كان جزءاً من ذلك الواقع يتحسس آلامه ومعاناته ويحمل همه، لم يحط نفسه بأسيجة التعالي والترفع السلطوي على الناس، كان واحداً منهم يمر عليه ما يمر عليهم، يشعر فقر فقيرهم وجوع الجائع فيهم، لم يغادر المحيط الاجتماعي تعايش معه بروح الأبوة وإحساس المسؤول الذي يخشى على أبناءه عاديات الزمن، لذا سجل مظهر الإمام وسلوكه وفعله تلك المعاناة والمحرومية كجزء من هم اجتماعي مشترك بين الرئيس ومرؤوسيه، تجربة لم تتكرر بعد لذا شكلت بحق عنوان للعدالة الاجتماعية، وتجربة اشترك فيها الواقع والمثال، صورة حية تتحرك في كل زمان ومكان وتصلح شعاراً وتجربة وثورة بوجه الظلمة والمستبدين، هي مدرسة في السلوك البشري ومنهج لتدريب الحكام على إتقان فن الحكم وإدارة الحكومة الأبوية، وليس التسلطية الاستبدادية التي يكون الشعب فيها عبداً كله، والحاكم حراً لوحده.

لم نأتي بالجديد، إنما الجديد إننا سوف نتجول معاً في مدرسة الإمام علي (ع) نستق منها معاني الإنسانية لنتحسس جوهر الوجود الذي حرمنا منه (آنا) الحكام والظلمة، الجديد إننا سوف نشعر بإنسانيتنا بوجودنا بأهمية الوجود، سوف نشاهد مسرحاً إنسانياً حياً يدير بطولة أدواره شخصية عجز الكل عن أن يكونوا مثله، ليس لأنه خلق هكذا، ولكنه كان مثالياً بحق جرد نفسه من تعاليها واستطاع أن يروضها على طاعته، فانقادت له، ولم ينقاد لها، لذا تبعته صاغرة بعد أن فرض عليها شرطه وأعلنه عليها صراحة فرضت به فكان علي (ع) لا تتصارع فيه الأضداد بين أن يسلك الحق أو الباطل في مواقفه، ففي كل المواقف مثالياً لأن في يده مقود نفسه، دربها على إتقان منهج الحق فما كانت ملذات الدنيا تشكل لديه هماً، وهو العالم بنهاية الأمور بعين اليقين لذا كان منهجه الأول في

التعامل بين نفسه ومحيطه بقوله: (**والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهداً، أو أجر في الأغلال مصفداً، أحب إلي من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالما لبعض العباد، وغاصباً لشيء من الحطام. وكيف أظلم أحدا لنفس يسرع إلى البلى قفولها، ويطول في الثرى حلولها؟**)[١].

عنون الإمام حياته بعناوين الإنسانية، وروض النفس على تقبل العطاء دون الأخذ، وطلق الملذات من حوله ليتفرغ لمسؤوليته الجسيمة التي ما تركت الإمام (ع) يهنئ براحة الحياة كيف يكون ذلك وهي طليقته: (**يا دنيا يا دنيا إليك عني، أبي تعرضت، أم إلي تشوقت: لا حان حينك هيهات غري غيري. لا حاجة لي فيك. قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها. فعيشك قصير، وخطرك يسير، وأملك حقير، آه من قلة الزاد، وطول الطريق، وبعد السفر، وعظيم المورد**)[٢] هذه كانت تأوهات الإمام (ع) لأنه يعلم خطورة المسؤولية وثقل حمله، مسؤولية تحتاج إلى المخلص الذي يطلق الدنيا بما فيها كي يتخطى وعورة الطريق الطويل وقلة الصالحات وعظم المسؤولية، التي ما قدر عظمها إلا الإمام (ع).

ركز الإمام (ع) على تحقيق العدالة الاجتماعية وأعطى لها الأولوية في التنفيذ إذا كان يعلم أن العدالة مفتاح لدخول الحقوق الأخرى فلو انعدمت العدالة في المجتمع لانعدم ما دونها لذا شدد على تحقيقها منطلقا من كون الناس جميعاً أحراراً يولدون ويموتون، وليس من حق أي كان أن يسلبهم هذا الحق فقد قال: (**أيها الناس! إن آدم لم يلد عبداً ولا أمة، وإن الناس كلهم أحراراً**)[٣] وشدد على أن يكون الناس أحراراً في عبادتهم، كما شدد على قضية مهمة هو انجرار الناس إلى بعضهم حتى يصل بعضهم إلى أن يتنازل عن حريته إلى آخر فيكون في موضع العبودية، فيفقد غاية وجوده ليتحول إلى مسلوب الإرادة، وقد يتمثل ذلك في خضوع الناس إلى الحكام الظلمة الذين يسلبون الناس حرياتهم ويحولونهم إلى عبيد وجواري، ليصبحوا هم أسياداً وأحراراً بينما يعاني الناس الذل والهوان، وكل ما تقادم الزمن كلما رضخ المجتمع وتسيد الحكام وذلت الرقاب وخنعت النفوس وفقدت معنى وجودها لتتحول إلى قطيع يسوقه الجبابرة إلى الذبح والتضحية به في ساحات صراعها الذي لا ينتهي لأنه مبنى على الأنا المتفردة الرافضة لغيرها، فنجد الإمام (ع) يحذر من وقوع الإنسان في موقع العبودية لغير الله: (**لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً**)[٤].

الحرية التي نشدها الإمام للناس هي حرية كاملة ليست منقوصة في بعض أجزاءها فالحر من يستطيع أن يرى الحق ويتبعه، ويرى الباطل ويتجنبه أو يصارعه ليحوله إلى الحق، حرية يجد الإنسان أنه إنساناً له موقفاً وله معنى وجودي ينبغي له تحقيقه، وليست الحرية، ممارسات فوضوية خالية من المعاني والمفاهيم أو عبثية محيطها اللهو وضياع الغاية، هي إنجاب لمعاني وثبات لمبادئ، هي تفاعل اجتماعي وتعايش وحدوي هي هم مشترك وايلاد

معنوي لحياة كريمة يسودها الحق والعدالة، وإلا كانت عبودية صرفة وإن كان صاحبها حراً في تصرفاته، انطلاقاً من هذه المعاني كان خطاب الإمام عليه السلام للناس: (**بعد سماعه لأمر الحكمين -: أف لكم! لقد لقيت منكم برحاً يوماً أناديكم، ويوماً أناجيكم؛ فلا أحرار صدق عند النداء، ولا إخوان ثقة عند النجاء**)[٥]. وقال في موضع آخر: (**من قام بشرائط العبودية أهل للعتق. من قصر عن أحكام الحرية أعيد إلى الرق**)[٦] فللحرية في منظور الإمام أحكامها وللعبودية شروطها، وينبغي للإنسان اتباع الأحكام والشروط هم نقيضين فالتقصير في أحكام الحرية يحول الإنسان إلى النقيض، وإتقان الشرط في العبودية يحوله إلى الحرية، معادلة اجتماعية يطرحها الإمام ليرسم من خلالها عنواناً كبيراً لمتبعي الحق، والأحرار الذين يرفضون العبودية بأشكالها وألوانها الباهتة، ليختاروا ألوان الطيف الأبهى ألوان الخلاص من قيود النفس أولاً وقيود الناس ثانياً.

لقد شكلت العدالة في منظور الإمام هاجساً حيّاً يتفاعل معه، ويسعى إلى تحقيقه ويشدد على المشتغلين معه في اتباع العدالة وتنشيط مفاصلها، يوجههم في ذلك ويراقبهم عليه، يعزلهم إذا قصروا، ويشيد بهم إذا تتبعوا منهج الحق في ذلك، لذا لم ينشغل فكر الإمام في شيء بقدر انشغاله في موضوع العدل والإنصاف وتطبيق برنامج المساواة، فالناس في منظوره متساوون في الحقوق والواجبات، أحراراً ولدوا ويموتون وليس من حق أحد استعباد أحد أو سلب كرامته، فالعدل ميزان تستقيم عليه المساواة وتتساوى فيه الناس، هذا كان منهج الإمام (ع) في التشدد على الحكام والولاة الذين كانوا في دائرة نفوذه والمشتغلين على برنامجه الإنساني في تطبيق العدل الاجتماعي، في عهده إلى مالك الأشتر -: (**وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق، وأعمها في العدل، وأجمعها لرضى الرعية... إن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد، وظهور مودة الرعية**)[٧].

إن إقامة العدل تستوجب وجود أئمة عدل وحكام يطبقون مبادئ العدل، يبتعدون عن هوى النفس، والانجرار إلى شباكها التي ما إن أمسكت بشخص إلا ألقته فريسة لملذاتها، فيهون أمامه كل شيء، يضيع الحق ويختلط عليه التمييز، لضياع التركيز، لأنه غادر دائرة العدالة إلى دائرة الظلم، التي يعشو داخلها، فليس غير لون ورائحة الذات المنتفخة على الآخرين، لا يميز هناك بين صوت المترفين وانين الجائعين، لذا كان الإمام (ع) يراقب عماله حارصاً على عدم مغادرة أحدهم دائرة العدل ليقع فريسة لنفسه الأمارة بالسوء، كان ينبههم الهوى، ويحذرهم الظلم، في كتابه إلى الأسود بن قطبة صاحب جند حلوان -: (**أما بعد، فإن الوالي إذا اختلف هواه منعه ذلك كثيراً من العدل، فليكن أمر الناس عندك في الحق سواء؛ فإنه ليس في الجور عوض من العدل، فاجتنب ما تنكر أمثاله**)[٨].

ولكي تطبق العدالة لابد أن يتساوى الناس في الحقوق، لكن منظور الإمام لتطبيق العدالة ينطلق من كون المساواة لا تتحدد بالمساواة في المعيشة والرزق فحسب إنما يتعداه إلى إنصاف الناس في كل شيء من قبل الحكام لأن الحاكم العادل لابد أن يكون مجتمعه عادلاً، لأنها انعكاساً لتصرفاته في أمور رعيته، شدد الإمام انطلاقاً من هذا المفهوم والمعنى على تطبيق المساواة في كل شيء كي يشعر الناس بالعدل ويسود المجتمع مظاهر الحق والعدل والمساواة، فقد كتب الإمام عهداً إلى محمد بن أبي بكر حين قلده مصر هو بمثابة برنامج عمل لتطبيق مبدأ العدالة الإنسانية: (**فاخفض لهم جناحك، وألن لهم جانبك، وابسط لهم وجهك، وآس بينهم في اللحظة والنظرة، حتى لا يطمع العظماء في حيفك لهم، ولا ييأس الضعفاء من عدلك عليهم...**)[٩]. هذا المفهوم الاجتماعي في العدالة مارسه الإمام قولاً وعملاً ولم يدخر قوة في تحقيقه فكان مشروعة في المساواة مشروعاً إنسانياً، لأنه اعتبر الميل عن السوية جوراً وانحرافاً عن الحق، وقد تجسد ذلك بقوله لما عوتب على التسوية في العطاء -: (**أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه!... لو كان المال لي لسويت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله**)[١٠].

وضع الإمام مبادئ مهمة لسياسة الرعية على الحاكم أن يطبقها ليصل بها إلى تطبيق العدل وتحقيق الاستقرار الذي ينشده الجميع، ولذا نجده يرسم الخطوط الواضحة لعماله في سياسة الناس، إذ أشار إلى أن الحاكم أكثر مسؤولية من غيره، لذا وجب عليه أن يكون أحرصهم، على أن يستشعر فقرهم وآلمهم، فيكون ملبسه وطعامه بمستوى أفقرهم في رعيته وهذا المعنى نجده في قوله (ع): (**إن الله تعالى فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقره**)[١١]. وكان (ع) يرفض أن يسكن دار الإمارة وإنما سكن داراً بقربها من الطين، وكان يرد على من يسأله عن ذلك بقوله: (**أأبيت مبطاناً وحولي أكباد غرثى، وبطون حرى، أأقنع من نفسي أن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم مكاره الدهر**)[١٢].

لم يقف تطبيق العدالة عند هذا الحد إنما تعداه إلى أمور أخرى قد يغض النظر عنها، لكن الإمام (ع) كان يعتبرها جوهرية في حفظ الحقوق، فلم يكن المحسن والمسيء في منزلة واحدة عند الإمام إنما حرص على التفريق بينهم وحث ولاته على التمييز بينهم، حيث يثاب المحسن ويعاقب المسيء لأن في ذلك حفاظاً للحقوق، ولكي لا يتمادى في تكرارها فتهدم حقوق الناس ويتجاوز على كرامتها، لذا تجسد هذا المعنى في وصايا الإمام إلى ولاته: (**لا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة، وإلزام كل منهم ما ألزم نفسه**)[١٣]. وأشار إلى ولاته بوجوب الإنصاف وعدم التعدي على حقوق الناس والتجاوز على حرياتهم واستخدام السلطة استخدام غير عادل والانحراف بها عن مبادئ الشريعة الإسلامية فقد جاء في عهده

لعماله: (**أنصف الله، وأنصف الناس من نفسك، ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيتك فإنك ألا تفعل تظلم**)[١٤].

هذه الوصية لم تكن مجرد وصية يبعث بها الإمام إلى ولاته إنما كان يتابعها بنفسه ويحث على تطبيقها ويعزل من لم يتحلى بهذه الصفات إذ أنها شروط العامل العادل الذي يسعى الإمام إلى إيجاده ووضعه في موضعه، لذا كان نفسه السباق إلى تطبيق هذه المبادئ العادلة، فلم يكن يفرق في الحق بين من معه ومن عليه، غايته إحقاق الحق وتطبيق العدالة والجميع متساوون في حكومة الإمام، ليس معيار قياسه أنت معي وذاك علي، إنما القياس أنت مع الحق، وذاك على الباطل والحق والباطل في منظوره، ليس القرب منه أو الابتعاد عنه، إنما حفظ حقوق الناس وعدم التعدي عليها جاء جعدة بن هبيرة إلى علي فقال: يا أمير المؤمنين، يأتيك الرجلان إن أنت أحب إلى أحدهما من نفسه - أو من أهله وماله - والآخر لو يستطيع أن يذبحك لذبحك، فتقضي لهذا على هذا؟ قال فلهزه علي وقال: إن هذا شيء لو كان لي فعلت، ولكن إنما ذا شيء لله[١٥].

نظر الإمام إلى الجميع نظرة الأبوة التي لا تفرق بين الأولاد مع انه حريص على تغير سلوك المنحرف منهم، وإرجاعه إلى جادة الصواب فان نجح في إعادته دون ضرر فعل وإن وجب أن يعاقبه حرصاً عليه فعل. لذا كان منهج الإمام الحرص على عدم الظلم وتوخي الحذر في التطبيق، فلم يسمح الإمام لنفسه بالظلم وإن كان ذلك بسيطاً لا يستوجب ضرراً لكنه يدخل دائرة الظلم، قد تتسع يوماً فلا يدري الظالم أن ذاك ظلماً لأنه تطبع عليه وصار جبلة له وسلوكاً، يشعر من خلاله أن الناس تظلمه لذا يدفع ظلمهم له بظلمه لهم. كان الإمام حريصاً على حفظ الحقوق وإن تكن بسيطة ليست ذات أهمية تذكر لكنها حقوق واجبة الحفظ والرعاية: (**والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها، على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته، وإن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها، ما لعلي ولنعيم يفنى، ولذة لا تبقى**)[١٦].

لم يفرق الإمام (ع) بين رعيته على أساس الانتماء والعقيدة فقد شكلت المواطنة غايته في سياسة الناس فلم يكن الاختلاف يزعج الإمام ما دامت المواطنة جامعاً كلياً للأمة، فكل ما عداها يدخل دائرة الجزئية والفرعية المحددة التي لا يمكن لها أن تكون مقياسا لوجودية الإنسان على الأرض، فالناس في منظوره متساوون على أساس العطاء والتفاعل الإنساني فمقدار ما يقدمه الإنسان للأمة يكون مقدار لاحترامه وحفظ وجوده على أساس التعايش السلمي وهذا المعنى يجسده في عهده لمالك الأشتر عندما ولاه مصر قائلاً: (**وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم؛ فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخلق**)[١٧]. إن

التوحش صفة لازمت الحكام في تاريخنا ولعلها كانت ظاهرة مميزة، فالنادر أن نجد من كان يشعر قلبه رحمة للناس وعطفاً عليهم، لذا أراد الإمام أن يضع منهجاً للحكام إن الرعية وإن اختلفت انتماءاتهم وعقائدهم فإن الجامع الإنساني يجعلهم في الأمة أخوة ينشأ بينهم التعايش والتفاعل، فإن كان النظام عادلاً سادت العدالة وانتشر الحق وتقلص الظلم حتى يختفي، لذا أكد الإمام على عدالة الحاكم وأن لا يكون جائراً سبعاً ضارياً يتحين الفرص برعيته لينقض عليهم انقضاض الوحش على فريسته، حاول من خلال ذلك أنسنة المجتمع وتحويله إلى مجتمع يسوده الحب والخير والجمال.

حرص الإمام على تطبيق مبدأ العدالة بين الناس من خلال محاربة الظلم وأخذ الحق من الظالمين وإرجاعه إلى أصحابه، لذا لم يترك مناسبة إلا وأعلن فيها أنه يسعى إلى تطبيق مبدأ إحقاق الحق وإن أنكره عليه الناس لأن الحق طريق موحش وعر يتطلب من سالكيه الصبر والتحمل، كما يتطلب من الناس إعانة الإمام على تنفيذ العدالة لان تطبيق العدالة هم مشترك فالظلم الاجتماع يلحق الجميع لا يميز بين إنسان وآخر لذا قال (ع): (**أيها الناس! أعينوني على أنفسكم، وأيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه، ولأقودن الظالم بخزامته، حتى أورده منهل الحق وإن كان كارها**)[١٨].

الظلم شغل شاغل في فكر الإمام إذ أن الخلاص من الظلم يعني تحقيقي مستوى عال من العدالة، والظلم لا يتحقق إلا بسلطتي القوة والغنى فهما وحدهما القادران على سلب الحقوق، لذا حرص الإمام على تسوية هذا الأمر، معلناً أن القوة والضعف تعتمد على الحق، فالذليل عزيز مادام مسلوب الحق حتى يعاد الحق إليه، والقوي ضعيفاً مادام سالباً للحق حتى يعاد الحق منه (**الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه**)[١٩]. الواضح أن الحق هو الفيصل في الحكم على القوة والضعف ولم يشخصن الإمام الظالم، إنما حدد موقفاً يكون فيه الظالم ظالماً، وقد يكون يوماً مظلوماً إن سلب منه الحق.

لقد عمل الإمام في دائرة مهمة لطالما تركها الحكام هي دائرة الفقراء والمحرومين لذا كان الإمام ينظر إليهم نظرة الحريص على تضييق مساحة الفقر، ورفع مستواهم المعيشي، لأنه يعلم أن الفقر يمكن أن يسبب تدهوراً أخلاقياً وانحطاطاً نفسياً، لذا عمل منذ الساعات الأولى من تسلمه الخلافة على إيقاف تضخم الثروات بسبب التمييز في توزيع الثروة الذي سبب فوارق طبقية بين أبناء المجتمع، فصارت طبقة تملك المال الذي يكسر بالفؤوس، وطبقة لا تملك ثوباً تلبسه. لذا كان الإمام من الوهلة الأولى يعلن القسمة بالسوية، وإن الناس متساوون في الثروة لا يمكن لأحد أن يحصل على أكثر من غيره في العطاء مادام الجميع يخضعون لقانون المواطنة، لذا حرص على إعادة الثروة إلى أصحابها، تلك الثروة التي استولى

عليها البعض بسلطة القرابة والمحسوبية وان تفرقت وتقادم عليها الزمن، فقد أعلن الإمام برنامجه الأول لمحاربة الفساد المالي وإعادة الحق إلى أصحابه: (**ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان، وكل مال أعطاه من مال الله، فهو مردود في بيت المال، فإن الحق القديم لا يبطله شيء، ولو وجدته وقد تزوج به النساء، وفرق في البلدان، لرددته إلى حاله، فإن في العدل سعة، ومن ضاق عنه الحق فالجور عليه أضيق**)[٢٠].

لم يكتف الإمام بهذه المعالجة إنما أراد علاجاً جذرياً للفقر من خلال إنصافهم والصرف عليهم من بيت المال ومتابعة اليتامى والأرامل منهم، لأنهم أهل بؤس وشقاء لذا توجب على الحكومة توفير معاشهم ومراعاة ظروفهم، فكان (ع) يعهد لعماله بذلك فقد أوصاهم بذلك قائلاً: (**ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم، من المساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزمنى، فإن في هذه الطبقة قانعاً ومعترّاً. واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل لهم قسماً من بيت مالك وقسماً من غلات صوافي الإسلام في كل بلد، فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى، وكلٌّ قد استرعيت حقه، ولا يشغلنك عنهم بطر، فإنك لا تعذر بتضييع التافه لإحكامك الكثير المهم. فلا تشخص همك عنهم ولا تصعّر خدك لهم، وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم، ممّن تقحمه العيون وتحقره الرجال. ففرّغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع فليرفع إليك أمورهم، ثم أعمل فيهم بالإعذار إلى الله سبحانه يوم تلقاه، فإن هؤلاء، من بين الرعية، أحوج إلى الإنصاف من غيرهم... وتعهّد أهل اليتم وذوي الرقة في السن، ممن لا حيلة له ولا ينصب للمسألة نفسه**)[٢١]. أراد الإمام أن يتجاوز الخطاب الإعلامي إلى التطبيق العملي لتغير الواقع بالإمكانيات المتاحة لأن الفقير عندما يجد أمامه الضمانات الواقعية والقانونية، سوف يستشعر الوجود لذاته ويطمأن ضميره، وسوف لن يكون في حاجة إلى الهتافات الإعلامية، وقد لمس واقعاً متجسداً بعدالة المساواة في الحقوق، مما سوف يدفعه مستقبلاً إلى عدم الرضوخ إذا عاد به الزمن إلى التفاوت في العطاء. كما أن الغني سوف يستشعر العدالة فيما بعد لوجود الضمانات التي تدفع عنه الظلم والجور وتحفظ له الحقوق. فقد قال: (**لا يقولن رجال منكم غداً قد غمرتهم الدنيا، فاتخذوا العقار، وفجروا الأنهار، وركبوا الخيول الفارهة، واتخذوا الوصائف الروقة، فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً إن لم يغفر لهم الغفار، إذا منعوا ما كانوا فيه، وصيروا إلى حقوقهم التي يعلمون، يقولون: حرمنا ابن أبي طالب، وظلمنا حقوقنا، ونستعين بالله ونستغفره، وأما من كان له فضل وسابقة منكم، فإنما أجره فيه على الله، فمن استجاب لله ولرسوله ودخل في ديننا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده**)[٢٢].

جاء علي ليرد التصور الإسلامي للحكم إلى نفوس الحكام ونفوس الناس. جاء ليأكل الشعير تطحنه امرأته بيديها، ويختم هو على جراب الشعير ويقول: (لا أحب أن

يدخل بطني إلا ما أعلم). وربما باع سيفه ليشتري بثمنه الكساء والطعام، وكره أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة مؤثراً عليه الخصاص التي يسكنها الفقراء[٢٣]. جاء ليعيش كما روى عنه النضر ابن منصور عن عقبة بن علقمة قال: دخلت على علي (ع)، فإذا بين يديه لبن حامض، آذتني حموضته؛ وكسر يابسة. فقلت: (يا أمير المؤمنين! أتأكل مثل هذا؟ فقال لي: يا أبا الجنوب! كان رسول الله يأكل ايبس من هذا ويلبس أخشن من هذا - وأشار إلى ثيابه - فإن لم آخذ بما أخذ به خفت إلا الحق به)[٢٤] أو كما روى عنه هارون بن عنترة عن أبيه قال: دخلت على علي بالخورنق، وهو فصل شتاء، وعليه خلق قطيفة، وهو يرعد فيه، فقلت يا أمير المؤمنين! إن الله قد جعل لك ولأهلك في هذه المال نصيباً، وأنت تفعل هذا بنفسك؟ فقال: (**والله ما أرزؤكم شيئاً، وما هي إلا قطيفتي التي أخرجتها من المدينة**)[٢٥].

لقد شكل حفظ الحقوق هاجساً عند الإمام حتى أنه لم يكن يأخذ حقه من بيت مال المسلمين ولذا نرى أنه يبع سيفه ليلبس ويأكل، مع أن له الحق فيه كما لغيره لكنه كان يأثر المسلمين على نفسه، وكان يعتبر خروجه من الكوفة بغير ما دخل إليها خيانة يحاسبه الله عليه فقد قال: (**يا أهل الكوفة إذا أنا خرجت من عندكم بغير رحلي وراحلتي وغلامي فأنا خائن**)[٢٦] وكانت نفقته تأتيه من غلته بالمدينة من ينبع وكان يطعم الناس الخبز واللحم ويأكل من الثريد بالزيت ويكللها بالتمر من العجوة، وكان ذلك طعامه وكان يقسم ما في بيت المال فلا يأتي الجمعة وفي بيت المال شيء، ويأمر ببيت المال في كل عشية خميس فينضح بالماء ثم يصلي فيه ركعتين وأنه كان يقول ويضع يده على بطنه: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لا تنطوي ثميلتي على قلة من خيانة، ولأخرجن منها خميصاً[٢٧].

وضع الإمام علي (ع) برنامجاً اجتماعياً ضخماً لسياسة الأمة فكان رائداً للعدالة الاجتماعية، بما انطوى عليه برنامجه من تحقيق العدالة، والتي انعكست على الأمة فكانت معطياتها إيجابية وتحولاتها إنسانية، أدت بالأمة إلى فهم أدوارها، وتعين مركزها، وعدم التسامح عند ضياع حقوقها والتهاون في سلب كرامتها. لم يفرق بين رعيته فكان الجميع على خط واحد من الحقوق فقد روي، إن امرأتين أتتا عليا (ع) عند القسمة إحداهما من العرب والأخرى من الموالي، فأعطى كل واحدة خمسة وعشرين درهماً وكراً من طعام، فقالت العربية: يا أمير المؤمنين إني امرأة من العرب وهذه امرأة من العجم؟! فقال (ع) والله لا أجد لبني إسماعيل في هذا الفيء فضلاً على بني إسحاق[٢٨].

العدل سهل في العبارات والإنشاءات اللفظية، كذلك هو سهل في بعض التطبيقات المحدودة. إنما هو صعب، بالغ الصعوبة، في التطبيق المتكامل. فقد يعرف الإنسان قيمة

العدل لصالح نفسه، لا عليها. وقد يعرفها في الحدود الفردية، لا في الحلول الاجتماعية. وهكذا ظلت قضية العدل أصعب القضايا على مستوى التطبيق، على النفس وعلى الآخرين سواسية.

وعدل علي بن أبي طالب النابع من صلب العدل المحمدي، هو المثال الإنساني الخالد في التعبير عن (كليَة العدل) ووحدة فروعه: في الأفكار، وفي الممارسة، وفي العلاقة، على الصعيدين الفردي والجماعي[٢٩].

لم تكن السلطة شغل الإمام الشاغل، بقدر كونها أداة ينطلق من خلالها إلى تدارك وضع الأمة وتصحيح شأنها وحل مشكلاتها وتجاوز نكباتها وقد استطاع الإمام التخلص من ضغط السلطة وجبروتها وطغيانها، إذ صار مركز للأمة ومحوراً لقضاياها وهمومها، وكان يرى ضرورة أن يكون الماسك بالسلطة، يتبنى مشروع العدل وإحقاق الحق وإن كان على نفسه أو اقرب الناس إليه، فقد سأله ابن أخيه عبد الله بن جعفر: يا أمير المؤمنين لو أمرت لي بمعونة أو نفقة، فو الله مالي نفقة إلا أن أبيع دابتي، فأجابه (ع) لا والله ما لك شيئاً إلا أن تأمر عمك أن يسرق فيعطيك[٣٠].

مثل العدل في منظور الإمام الجوهر الذي يسعى الوصول إليه، لأن العدل غاية ومقصود، لذا سعى الإمام إلى تشكيل السلطة العادلة، التي من أولوياته العدل المتكامل، لذا ركز الإمام على أحداث تغير اجتماعي، ونعني بها تطبيق العدالة بين طبقات المجتمع، وتحسين مستوى المعيشي، الذي ينعكس بدوره إلى تحقيق الرفاه الاجتماعي، لم يكن غايته خزن المال والمجتمع يعاني الفقر فقد كان يوزع العطاء على الناس كلما وصلت له أموال، إذ وزع على الناس في عام واحد ثلاثة أعطية ثم قدم عليه خراج أصفهان فقال: أيها الناس اغدوا فخذوا فو الله ما أنا لكم بخازن، ثم أمر ببيت المال فكنس ونضح، فصلى فيه ركعتين ثم قال: يا دنيا غري غيري، ثم خرج فإذا هو بحبال على باب المسجد فقال: ما هذه الحبال؟ ـ فقيل: جيء بها من أرض كسرى، فقال: اقسموها بين المسلمين[٣١].

وفوق ذلك كله يقرر الإمام علي بأن هناك حداً أدنى لمستوى المعيشة يلزم توفيره للإنسان، فلا يجوز الاستيلاء على شيء منه وفاء بدين أو خراج مستحق للدولة عند المواطنين، وهذا الحد الأدنى يتمثل في: كسوة الإنسان، صيفاً وشتاءً، وأدوات عمله في الأرض، بما فيها الدواب والعبيد... ثم يعلن تحريم العقوبات البدنية ويمنع استخدامها كوسيلة للكشف عن الأموال التي يعتقد عمال الخراج إنها مخبأة ومستورة لدى الناس.. ويقرر منع المصادرات على الإطلاق، سواء كان المواطن مسلماً أم غير مسلم، اللهم إلا إذا تعلق الأمر بأدوات القتال يستخدمها البعض في الاعتداء على الإسلام والمسلمين[٣٢].

كان اهتمام الإمام (ع) بالعدالة جعله يراقب تطبيقها وإنصاف المظلومين، وقد وضع آليات كثيرة لمراقبة سير العدالة وعدم تعرض الناس للظلم، ناظراً بعين الاعتبار إلى أن البعض يخشى أن يصرح بظلمه خوفاً من الحكام وجورهم، لذا وضع الإمام، لذا اتخذ الإمام (ع) ما يعرف ببيت القصص، وهو مكان ترمى فيه قصص أهل الظلامات، إذ يكتب الناس الرقاع بمن ظلمهم من الولاة ويلقوها في هذا البيت[٣٣]، ثم يخرجها الإمام ويتم معالجة المشكلات، ولعل هذا النظام من الأنظمة التي لم تصل إليها الدول إلا في وقت متأخر، وتدل على أن العدل كان من ضروريات بناء المجتمع الذي أراد الإمام علي (ع) بناءه والتأكيد على استمراره. كما كان حريصاً على حفظ كرامة الناس وصيانتها من المسألة، لذا كان يقول: (**من كانت له إلي منكم حاجة، فليرفعها في كتاب؛ لأصون وجوهكم عن المسألة**)[٣٤].

لم تكن العدالة عند علي (ع) شعاراً يطرحه للحصول على مكاسب أو مغانم، كما هو ديدن الكثير من الأحزاب والمنظمات، أو الوصول من خلاله إلى السلطة وكسب ود الناس، مع غياب القصدية في التطبيق، فالعدل سهلاً في العبارات، والإنشاءات اللفظية، وكذلك هو سهل في بعض التطبيقات المحدودة، إنما هو صعب، بالغ الصعوبة، في التطبيق المتكامل، فقد يعرف الإنسان قيمة العدل لصالح نفسه، لا عليها. وقد يعرفها في الحلول الفردية، لا في الحلول الاجتماعية. وهكذا ظلت قضية العدل أصعب القضايا، على مستوى التطبيق: على النفس وعلى الآخرين سواسية[٣٥] لذا اهتم الإمام بالتطبيق وأولاه الأهمية واشرف بنفسه على ذلك، فقد رآه سعيد بن القيس الهمداني يوما في شدة الحر في فناء حائط، فقال: يا أمير المؤمنين! بهذه الساعة؟ قال: (ما خرجت إلا لأعين مظلوماً أو أغيث ملهوفا)[٣٦].

استطاع الإمام علي (ع) أن يمزج الواقع بالمثال وان يبتعد في تطبيقاته عن حدود المنافع المادية، فلم تخدعه المنافع المادية والسياسية الزائلة، استطاع بفطرته السليمة، وعقله الساعي إلى العدل أن يؤسس لمجتمع سليم لا ينخدع بمغريات الحياة وتفاهتها، لأنه كان على علم أن الابتعاد عن العدل، يعني الوقوع في شرك الاستغلال والتحاسد والتباغض والتمايز والتقاتل، وخلق الطبقيات والفوارق بين الناس، وقد لمست الأمة مشروع الإمام (ع) وتفاعلت معه وتكونت نواة التغيير وبدأ واضحاً أن العدل صار منهج في حياة الناس، وليس مجرد شعارات يطلقها الحكام لإفساد مفهومها وتشويه صورتها، وهذا نجده واضحاً عند استشهاد الإمام (ع) كيف اضطربت الناس وماجت أحوالها وكيف بدت عليهم مظاهر الخوف من ضياع مشروع العدل الذي أسسه أمير المؤمنين (ع) فعندما أعلن خبر وفاة الإمام (ع) جاء رجل باكياً وهو مسرع مسترجع وهو يقول: (**اليوم انقطعت خلافة النبوة،**

حتى وقف على باب البيت الذي فيه أمير المؤمنين (ع) فقال: رحمك الله يا أبا الحسن، كنت أول القوم إسلاماً وأخلصهم إيماناً... الضعيف الذليل عندك قوي عزيز حتى تأخذ له بحقه، والقوي العزيز عندك ضعيف ذليل حتى تأخذ منه الحق، والقريب والبعيد عندك في ذلك سواء)[٣٧]. لقد لخص الرجل سياسة العدل التي لمسها من تطبيقات الإمام العادلة، والتي هي صلب العدالة أن يجد الضعيف انه قوي وان حقه مصان، ويشعر القوي وأياً كانت قوته إنه ضعيف ويسترد منه حق الآخرين. فلا يتعدى القوي على الضعيف، ولا يطمع الغني بسلب رغيف الفقير، ولا ييأس الضعيف من النصرة، ولا يخشى الفقير سلب رغيفه، معادلة في خلق مجتمع يسوده الخير والصلاح ويتعايش فيه الناس بمختلف انتماءاتهم وأديانهم وألوانهم، لأنه مجتمع السلام والحب والجمال، الذي تخلقه العدالة.

لم يكن مشروع الإمام (ع) في تطبيق العدالة، خاضعاً لنوازع شخصية، يريد أن يحقق ذاته من خلاله، ليسد نقصاً اجتماعياً، أو هو طموح التسلط والحصول على المنافع، التي يحاول الحكام من خلالها رفع شعارات العدالة في الوصول إلى غاياتهم ومراميهم، لقد نظر الإمام إلى العدالة على أنها ضرورة من ضرورات الحياة وغاية يسعى الحكام إلى تحقيقها إذ أن الحاكم الذي ليس له برنامج إصلاحياً، تكون العدالة من أولوياته، إنما هو حاكم ظالم لا يمكن للأمة قبوله. فنجده يلخص لنا الغاية من السلطة في أمرين مهمين، ودونهما تصبح السلطة غاية بذاتها، لا وسيلة لتحقيق غايات أوجدت السلطة من أجلها، إذا قال لابن عباس حين دخل عليه وكان الإمام (ع) يخصف نعله: **(ما قيمة هذا النعل؟ فقال ابن عباس لا قيمة له، فقال (ع) لهي أحب إلي من أمرتكم إلا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً...)**[٣٨].

يتضح مما سبق أن الإمام علي (ع) طرح مشروع العدالة الاجتماعية في كافة صورها، واختار الولاة العاملين على تحقيقها، كما فعل هو في برنامجه، ولم تكن شعارات ترفعها السلطة، لتحقيق غايات معينه، وقد كان الإمام علي (ع) على يقين بأن التغيير يحدث بعد أن يشعر الناس بضمان حقوقهم وأن القوة والضعف مرهون بقدرة السلطة على حفظ حقوق مواطنيها بعيداً عن المحسوبية والمحاباة، أو على أساس الانتماء أو التمايز الطبقي، والاختلاف المذهبي أو العرقي، غاية الدولة الوصول بمواطنيها إلى التعايش السلمي، والتسامح والشعور بالمسؤولية، بعد أن يلمس المواطن العدالة تطبيقاً واقعيا، لا شعارات سلطوية. لذا جسد الإمام (ع) انطلاقاً من إيمانه بضرورة أن يكون الإنسان كريماً عزيزاً، محترم الحقوق ملتزماً بالواجبات، أن يشيع العدالة الاجتماعية منهجاً وتطبيقاً.

الهوامش:

(١) الإمام علي (ع)، نهج البلاغة، تحق: محمد عبده، ج٢، ص٢١٧.

(٢) ابن عبد البر، الاستيعاب، ج٣، ص١١٠٨.

(٣) الكليني، الكافي، ج٨، ص٦٩.

(٤) الإمام علي (ع) نهج البلاغة، ج٣، ص٥١.

(٥) المصدر نفسه، ج٢، ص٦.

(٦) الليثي، عيون الحكم والمواعظ، ص٤٥٠.

(٧) الإمام علي (ع)، نهج البلاغة، ج٣، ص٩٣.

(٨) ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١٧، ص١٤٥.

(٩) الإمام علي (ع)، نهج البلاغة، ج٣، ص٦٧.

(١٠) ابن ابي الحديد، نهج البلاغة، ج٢، ص٢٠٣.

(١١) نهج البلاغة، ج٢، ص١٨٨؛ الكليني، الكافي، ج١، ص٤١١.

(١٢) نهج البلاغة، ج٣، ص٧٢.

(١٣) ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١٧، ص٤٤.

(١٤) نهج البلاغة، ج٣، ص٨٥.

(١٥) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٤٢، ص٤٨٩.

(١٦) نهج البلاغة، ج٢، ص٢١٨.

(١٧) المصدر نفسه، ج٣، ص٨٤؛ الحراني، تحف العقول، ص١٢٦.

(١٨) ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٣، ص٣١.

(١٩) نهج البلاغة، ج١، ص٨٩.

(٢٠) القاضي النعمان، شرح الأخبار، ج١، ص٣٧٣؛ ابن أبي الحديد، ج١، ص٢٦٩.

(٢١) ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج١٧، ص٨٥.

(٢٢) الطوسي، الأمالي، ص٧٢٩.

(٢٣) سيد قطب، ص١٦١.

(٢٤) الثقفي، الغارات، ج١، ص٨٣.

(٢٥) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج٣، ص٣٩٩.

(٢٦) الغارات، ج١، ص٦٩.

(٢٧) المصدر نفسه.

(٢٨) المصدر نفسه، ص٧٠.

(٢٩) عزيز السيد جاسم، علي بن أبي طالب سلطة الحق، ص٢١٦ - ٢١٧.

(٣٠) . ابن أبي الحديد، ج٢، ص٢٠٠.

(٣١) الغارات، ج١، ص٨٣.

(٣٢) محمد عمارة، الفكر الاجتماعي لعلي بن أبي طالب، ص٣٨ - ٣٩.

(٣٣) العسكري، الأوائل، ص١٤٢؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص١٢٧.

(٣٤) المناوي، فيض القدير، ج٥، ص٤٣٠.

(٣٥) عزيز السيد جاسم، ص٢١٦.

(٣٦) المجلسي، بحار الأنوار، ج٤٠، ص١١٣.

(٣٧) الكليني، الكافي، ج١، ص٤٥٤ ـ ٤٥٥.

(٣٨) نهج البلاغة، ج١، ص٨٠.

المصادر والمراجع:

- ابن الأثير، عز الدين ابن الحسن بن أبي كرم (ت٦٣٠هـ).

١ ـ الكامل في التاريخ، دار صادر (بيروت ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م).

- الثقفي، أبو إسحاق محمد الكوفي (ت٢٨٣هـ).

٢ ـ الغارات، تحقق جلال الدين المحدث (إيران، د. ت).

- ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله بن محمد (ت٦٥٥هـ).

٣ ـ شرح نهج البلاغة، تحق محمد أبو الفضل إبراهيم، البابي الحلبي (مصر ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م).

- الحراني، ابن شعبة الحسن بن علي بن الحسين (تق٤ هـ).

٤ ـ تحف العقول، تحق علي اكبر غفاري، جماعة المدرسين (قم ١٤٠٤هـ)، ط٢.

- الطوسي، أبو جعفر بن محمد بن الحسن (ت٤٦٠هـ).

٥ ـ الأمالي، دار الثقافة (قم، ١٤١٤هـ).

- ابن عبد البر، محمد بن أحمد الأندلسي (ت٤٦٣هـ).

٦ ـ الاستيعاب، تحق محمد علي محمد البجاوي، دار الجيل (بيروت ١٤١٢هـ).

- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت٥٧١هـ).

٧ ـ تاريخ مدينة دمشق، تحق علي شبري، دار الفكر (بيروت ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م).

- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله (ت٣٩٥هـ).

٨ ـ الأوائل، دار البشير، (طنطا، ١٤٠٨).

- الإمام علي (ع).

٩ ـ نهج البلاغة، تحق محمد عبده، دار النهضة (قم، ١٤١٢هـ).

- القاضي النعمان، ابو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور (ت٣٦٣هـ).

١٠ ـ شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، النشر الإسلامي (قم، ١٤١٤هـ) ط٢.

- القلقشندي، أبي العباس أحمد.

١١ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب المصرية (القاهرة، ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م).

- الليثي، علي بن محمد الواسطي (تق٦).

١٢ ـ عيون الحكم والمواعظ، تحقيق السيخ حسين الحسيني، دار الحديث (د. ت).

- الكليني، أبو جعفر محمد بن يعقوب (ت٣٢٩هـ).

١٣ ـ الكافي، تحق علي أكبر غفاري، دار الكتب الإسلامية (طهران، ١٣٦٣هـ) ط٥.

- المجلسي، محمد باقر (١١١١هـ).

١٤ ـ بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، تحق: السيد إبراهيم الميناجي ومحمد الباقر البهبوي، مؤسسة الوفاء (بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

- المناوي، محمد عبد الرؤوف (ت١٠٣١هـ).

١٥ ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير، تحق: أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية. ❖

الدلالة الشرعية واللغوية في خطاب الإمام علي (ع) من لسان العرب

د. حسين حاتم حسين
د. يعقوب حسن عبد
الجامعة العراقية، كلية التربية

المقدمة:

المعاجم العربية أسهمت إسهاماً كبيراً في حفظ اللغة العربية، وتفهم طبيعتها وبيان مرادها الشرعي واللغوي، ولسان العرب من بين هذه المعاجم، فقد حوا مادة وفيرة في التفسير واللغة والحديث والتاريخ والسير، فجهد المتقدمين ثروة لا غنى عنها، والاعتماد عليها يجب أن يكون هو المرتكز في الأخذ والتلقي.

وخطابات الإمام علي (ع) رافد من روافد الشريعة واللغة، ولها شأن كبير في إغناء العربية من لسان العرب، طالعناها بقدر الاستطاعة، واختصرناها في بحث موجز، كشف لنا عسجدان اللغة في خطاباته، ثم عارضناها بين كتب المعاجم والشريعة والسير والتاريخ، وتجنبنا الكثير من الاستطرادات من أقوال السلف والخلف وأئمة اللغة وتعليلاتهم فقد اكتفينا بالأكثر شهرة. وقد بينا بعض مدلولات كلام الإمام علي (ع) وأزلنا بعض الغموض من بعض المرويات من أجزاء متعددة من اللسان ووجهناها من الناحية الشرعية واللغوية وقد استقر عنوان البحث (الدلالة الشرعية واللغوية في خطاب الإمام علي (ع) من لسان العرب) وقد أملى علينا منهج البحث أن يقسم إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة نسال الله أن يكون خالصاً لوجهه الكريم الإمام على بن أبى طالب (ع) هو أعرف من أن يعرف لقد اجتمعت فيه من المحاسن الطيبة التي تفرقت في أصحاب رسول الله الكرام فهو عليّ بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم. أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم. وهو ابن عم النبي (ص)، وزوج ابنته فاطمة الزهراء. رزق منها ثلاثة من الذكور هم: الحسن، والحسين، ومحسن وبنتين هما: زينب وأم كلثوم. ولد في مكة سنة ٦٠١ م، وهو أوّل من أسلم من الصبيان ولم يسجد لصنم[١]. كان له الدور الكبير في نشر الإسلام والدعوة إليه امتثالاً لقول الرسول الكريم له (لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك من حمر النعم)[٢].

وعلي كرم الله وجهه هو إمامنا في كل ميادين الحياة بعد رسول الله (ص) فهو إمامنا في اللغة وإمامنا في التفسير والفقه فقد كان من مشاهير الصحابة الذين شاركوا مشاركة

---

(١) ينظر الطبقات الكبرى لابن سعد.

(٢) صحيح البخاري: أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري: ١٠٩٣/٣.

طيبة في تفسير القرآن الكريم ورواية الحديث والفقه كما أرخت له كتب التفسير والحديث وإمامنا في الغيرة على الدين والإعراض فقد خاطب السوك قائلاً:

قضيت يا عود الأراكب ثغرها أم أخفت يا عود الأراك أراكا

لو كنت من أهل القتال قتلتك ما فاز مني يا سواك سواكا

عشرة النساء للنسائي محقق أو مشروحاً (١/٢٨).

وكذلك كتب الصحاح والتراجم.

ابن منظور (اسمه ونسبه):

محمد بن مكرّم بن علي بن أحمد بن جلال الدين بن نجيب الدين، أبي الحسن علي بن أبي القاسم بن حبقة بن محمد بن منظور بن معافى بن خمير بن ريم بن سلطان بن كامل بن سرحان بن جابر بن رفاعة بن جابر بن رويفع[١] بن ثابت بن عدي بن حارثة الأنصاري من بني مالك النجار. ذلك هو النسب الذي خطه بيمينه جده نجيب الدين، والد المكرم علي بن القاسم، وقد أثبته ابن منظور لنفسه في معجمه الكبير (لسان العرب) ولم يترك مجالاً لاختلاف الباحثين فيه فكان المصدر الأول الذي يركن إليه المؤرخون لحياته[٢] واختلف في سنة ولادته، والراجح أنه ولد سنة ثلاثين وستمائة للهجرة.

عاش ابن منظور في القرن السابع الهجري، وهو عصر علم عامر بالفضلاء والأدباء والمؤلفين ترعرع في بيت علم وأدب يكثر فيه تردد طلاب العلم والمعرفة، على والده، يطلبون العلم ويدرسونه على يديه[٣] وقد أشار إلى ذلك في مقدمة كتابه نثار الإزهار (كنت في أيام الوالد، رحمه الله أرى تردد العقلاء إليه وتهافت الأدباء عليه)[٤] وتتلمذ على ابن النقير، ومرتضى بن حاتم، وعبدالرحمن بن الطفيل وغيرهم، ألف مصنفات كثيرة منها المعجم الكبير لسان العرب، وله كتاب في أخبار أبي نواس، ويعتبر من أوفى المراجع لسيرة أبي نواس ونوادره وشعره ومجونه. أما مختصراته فأهمها: مختصر كتاب الأغاني الذي سماه مختار الأغاني في الأخبار والتهاني، ومختصر كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسّام الأندلسي وسماه لطائف الذخيرة، ومختصر كتاب فصل الخطاب لأحمد بن يوسف التيفاشي، وقد سماه سرور النفس بمدارك الحواس الخمس[٥].

---

(١) رويفع: صحابي توفي سنة ٥٦هـ وهو الجد الأعلى لابن منظور. ينظر: الأعلام ٣/٢٦١.

(٢) ينظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لعبد الحي بن أحمد العكري: ٦/٢٦ معجم المؤلفين، عمر كحاله: ١٢/٤٦.

(٣) ينظر: الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة لشهاب الدين أحمد العسقلاني ٤/٢٦٢ معجم المؤلفين ١٢/٤٦.

(٤) كشف الظنون لحاجي خليفة ١/٢٩٤.

(٥) ينظر لسان العرب لابن منظور ١/٩.

خدم في ديوان الإنشاء. ثم ولي قضاء طرابلس الغرب، وعاد إلى مصر حيث عاش بقية حياته، وتوفي بها وقد ترك بخطه نحو خمسمائة مجلد، وقد كُفَّ بصره في آخر عمره.

وصفه ابن حجر بقوله: كان مُغرماً باختصار كتب الأدب المطولة، وقال الصفدي: لا أعرف في كتب الأدب شيئاً إلا وقد اختصره. كان صبوراً متواضعاً معتدلاً في تدينه، لطيفاً في معشره، مكرماً لذوي العلم والتقوى وأصحاب الحكمة. ترك نثراً فنياً جميلاً، يهيمن عليه البديع كسائر منثورات زمانه، إلا أن نثره يمتاز بالرقة وخفة الظل، لكن البديع يختفي تماماً إذا شرع في شرح الألفاظ، وتعليل المعاني، خاصة ما اشتملت عليه مادة كتابه لسان العرب أو كتابه الآخر أخبار أبي نواس، ويعود الفضل في طواعية نثره وجماله لوظيفتي الإنشاء والقضاء اللتين شغلهما معظم حياته، فكلا الوظيفتين تتطلب عمقاً في الثقافة، ومراساً في الكتابة.

أما شعره فعلى قلة ما ورد منه يدل على قريحة جيدة، ولغة عذبة رقيقة.

اشتهر ابن منظور بمصنفه الكبير لسان العرب، وهو معجم جامع لخمسة معاجم هي: تهذيب اللغة للأزهري، والمحكم لابن سِيْده، والصحاح للجوهري، وحاشية الصحاح لابن بري، والنهاية لابن الأثير. وقد حوى هذا المعجم كثير من الرويات التاريخية والادبية. وذاع صيت المعجم حتى بلغ الأفاق وخلده العلماء، وممن قَرّضه وأثنى عليه وعلى صاحبه، أثير الدين بقصيدته أوردها الصفدي[1] نذكر منها:

وشاهدت مجموعا حوى العلم كله ... بأول مكتوب وثان وثالث

فيا حسنه من جامع لفضائل ... جليل على نيل المعارف باعث

وحاز لسان العرب اجمع فاغتدى ... نهاية مرتاد ومطلب باحث

فتى ثقيف:

ذكر ابن منظور في لسانه رواية عن علي كرم الله وجهه، وهو يذم بعضاً من أهل الكوفة فقال وهو على منبر الكوفة (اللهم إني قد مَلِلْتُهم ومَلُّوني وسَئِمْتُهم وسَئِمُوني فسلّط عليهم فَتَى ثقيفٍ الذَّيَّالَ المَنَّانَ يَلْبَسُ فَرْوَتَها ويأْكل خَضِرَتَها)[2].

وفي رواية أخرى (اللهم كما ائتمنتهم فخانوني ونصحت لهم ففشوني فسلط عليهم فتى ثقيف الذيال الميال يأكل خضرتها ويلبس فروتها ويحكم فيها بحكم الجاهلية)[3] وقد وردت كلمة الذيال على عدة معان. وعلى لسان عليّ (ع) أن فتى ثقيف الذي ولي على العراق ويتوسَّع في فَيْء المسلمين. وقد ولد في هذه السنة التي دعا فيها عليّ (ع) بهذا الدعاء وهذا من الكَوائِن التي أنبأ بها النبي (ص). فقد ذكر الترمذي في سننه.

---

(١) أعيان العصر لصلاح الصفدي ٥/٢٧٣.

(٢) لسان العرب ٦/٢٧٨.

(٣) دلائل النبوة للبيهقي ٦/٢٧٨.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُصْمٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) (فِي ثَقِيفٍ كَذَّابٌ وَمُبِيرٌ)[١]. وقد قدم الحجاج مكة سنة إحدى وسبعين وحاصر ابن الزبير ثم قتل ابن الزبير سنة ثلاث وسبعين وتوفي سنة خمس وتسعين من بعده.

وقيل معناه يَتَمَتَّعُ بِنِعْمَتِها لُبْساً وأَكلاً وقال الزمخشري معناه يلبس الدَّيْفِيَ اللَّيِّنَ من ثيابها. والذبال أمير المصرين يلبس فروتها ويأكل خضرتها ويقتل أشراف أهلها يشتد منه الفرق ويكثر منه الأرق يسلطه الله على شيعته[٢].

ليقال له يوم القيامة أكفنا زاوية من زوايا جهنم رجل يملك عشرين أو بضعاً وعشرين سنة لا يدع لله معصية إلا ارتكبها حتى لو لم تبق إلا معصية واحدة وكان بينه وبينها باب مغلق لكسره حتى يرتكبه يقتل بمن أطاعه من عصاه[٣] وقد وردت عبارات وألفاظ في سياق كلام الإمام علي (ص) تحتاج إلى بيان وإيضاح لمقصدها الشرعي واللغوي ومنها لفظة: (سئمتهم) قد وردت عبارات وألفاظ في سياق كلام الإمام علي (ع) تحتاج إلى بيان وإيضاح لمقصدها الشرعي واللغوي ومنها هذه اللفظة فقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم في سورة فصلت في قوله تعالى ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ (فصلت: ٤٩).

وفي كلام العرب الموزون[٤] على لسان زهير بن أبي سلمى:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم

وهي بمعنى الضجر والملل.

ويتبين لنا من كلام علي (ع) الحالة التي وصل إليها من أهل الكوفة حتى يستعمل أسلوب الدعاء لما لمسه منهم من عدم الطاعة وحب الدنيا[٥] الذيال: اسم من أسماء الذئب، وبطن منبطون العرب[٦] وقيل هو المتبختر في مشيه وقيل هو الذي يستكثر العطاء[٧].

هجرته إلى المدينة:

ذكر ابن منظور في لسانه حديث علي (ع) لَمَّا خرج مُهاجِراً بعد النبيّ (ص) (فَجَعَلْتُ أَتَّبِعُ مآخِذَ رسولِ اللّه (ص) فأَطَأُ ذِكْرَه حتى انتَهَيْتُ إلى العَرْجِ)[٨] (أراد إني كنتُ أُغَطِّي خَبَرَه

---

(١) سنن الترمذي ١٥٨/٨.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٢٧٩/٦.

(٣) ينظر النهاية في غريب الأثر لبوا لسعادات المبارك محمد الجزري ٢٨٥/٣.

(٤) ينظر تاج العروس من جواهر القاموس: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني ٣٣٣/٢٤.

(٥) ينظر الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ٦٤٦/٤.

(٦) ينظر جمهرة اللغة لابن دريد ٧٠٢/٢.

(٧) ينظر تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري ١٧٣/١٥ المعجم الوسيط لإبراهيم مصطفى وآخرون ٣١٨/١.

(٨) لسان العرب: ١٥١/١٥.

من أَوَّل خُروجِي إلى أَن بَلَغْتُ العَرْجَ وهو موضع بين مكة والمدينة فَكَنَى عن التَّغْطِيةِ والإيهام بالوَطْءِ الذي هو أَبلغ في الإِخْفاءِ والسَّتْر وقد استوطأ).

وقد استخدم الإمام علي (ع) في كلامه مفردة عميقة المعنى والدلالة، تدل على سعة مخزونه الثقافي واللغوي قال (فأَطَأُ ذِكْرَه) وهذه المفردة استعملت في كلام العرب في عدة معان منها (أطا الله الإسلام) أي مكنه وبسطه وأعلاه وثبته وأرساه[١].

(وأطا ذكره) أغطي خبره، كناية عن الإخفاء والستر[٢].

وقد أراد علي (ع) هذا المعنى الدلالي لأنه موقف هجرة ويحتاج إلى عبارة تدل على التغطية والإيهام عن الآخرين استخلافه على المدينة في معركة تبوك.

نقل ابن منظور كلاماً لعلي (ع) مع النبي (ص) عندما استخلفه في معركة تبوك حيث قال (يا رسول الله يَزْعم المنافقون أنك اسْتَثْقَلْتَني وتخَفَّفْتَ مني) قالها لما استخلفه في أهله ولم يمضِ به إلى تلك الغَزوةِ معنى تخففت مني أي طلبت الخفة بتخليفِك إياي وترك اسْتصْحابي)[٣].

تبوك: اسم ارض، في الأردن وسميت غزوة تبوك، بالعين التي أمر النبي الناس أن لا يحسوا من مائها شيئاً فسبق إليها رجلان وهي تبض بشيء من ماء فجعلا يدخلان فيها سهمين ليكثر ماؤها فسبهما رسول الله وقال لهما فيما ذكر القتبي ما زلتما تبوكانها منذ اليوم قال القتبي فبذلك سميت العين تبوك[٤].

والتبوك كالنقش والحفر في الشيء ويرد هذا ما رواه مسلم[٥].

«إِنَّكُمْ سَتَأْتُونَ غَداً إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَيْنَ تَبُوكَ وَإِنَّكُمْ لَنْ تَأْتُوهَا حَتَّى يُضْحِيَ النَّهَارُ فَمَنْ جَاءَهَا مِنْكُمْ فَلاَ يَمَسَّ مِنْ مَائِهَا شيئاً حَتَّى آتِيَ». فَجِئْنَاهَا وَقَدْ سَبَقَنَا إليها رَجُلاَنِ وَالْعَيْنُ مِثْلُ الشِّرَاكِ تَبِضُّ بشيء مِنْ مَاءٍ - قَالَ - فَسَأَلَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ (ص) «هَلْ مَسَسْتُمَا مِنْ مَائِهَا شيئاً». قَالاَ نَعَمْ. فَسَبَّهُمَا النَّبِيُّ (ص) وَقَالَ لَهُمَا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ - قَالَ - ثُمَّ غَرَفُوا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْعَيْنِ قَلِيلاً قَلِيلاً حَتَّى اجْتَمَعَ فيشيء - قَالَ - وَغَسَلَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) فِيهِ يَدَيْهِ وَوَجْهَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ فِيهَا فَجَرَتِ الْعَيْنُ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ أو قَالَ غَزِيرٍ - شَكَّ أَبُو عَلِيٍّ أَيُّهُمَا قَالَ - حَتَّى اسْتَقَى النَّاسُ ثُمَّ قَالَ «يُوشِكُ يَا مُعَاذُ إِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ أَنْ تَرَى مَا هَا هُنَا قَدْ مُلِئَ جِنَاناً». فهذا رسول الله سماها تبوك.

والزعم: مفردة مستعملة ومشهورة عند العرب وهي في الأصل تستخدم للحق وللباطل[٦] وهنا جاءت للباطل لأنها أسندت للمنافقين واستعملت بمعنى الكذب[٧] وقوله (إنك استثقلتني) أي طلبت الخفة بترك استصحابي معك وأراد الثقل المعنوي في المجلس والضر وغير ذلك[٨].

---

(١) النهاية في غريب الحديث ٥٣/١.

(٢) تاج العروس ٤٩٨/١.

(٣) لسان العرب ٧٩/٩.

(٤) عمدة القارئ، شرح صحيح البخاري لبدر الدين العتبي ٣١٠/٢٦.

(٥) صحصح مسلم للنيسابوري ٦٠/٧.

(٦) ينظر تهذيب اللغة ٩٢/٢.

(٧) ينظر الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري ١٩٤٢/٥.

(٨) ينظر لسان العرب ٨٠/٩.

توجيهه للقراءات القرآنية:

أورد ابن منظور في لسانه قراءة للإمام علي (ع) في قوله تعالى ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ (الصافات: ١٢) بضم التاء وأراد بها عجبت من إنكارهم البعث وقد أخذ هذا التوجيه من قوله تعالى ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (الرعد: ٥) وهذه القراءة إخبار عن الله (جل جلاله). والعجب من لله خلاف العجب من الآدميين كما قال الحق تعالى ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ (الأنفال: ٣٠) وقوله تعالى ﴿ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (التوبة: ٧٩) وهو خلاف ما عند البشر وصل العجب في اللغة إنكار ما يقع. وإن أسند إلى الله فليس معناه من الله، كمعناه من العباد. وقد قرء بها بعد الإمام علي حمزة والكسائي[١] وقوله تعالى ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (الأنعام: ٣٣) فقد رُوي عن الإمام علي (ع) إنه قرء قوله تعالى ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ بضم الياء وتسكين الكاف على معنى لا يُكَذِّبُونَ الذي جئتَ به إنما يَجْحدون بآيات اللّه ويَتَعَرَّضُون لعُقوبته.

شجاعته وعدالته:

الإمام علي لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يشفع في حد من حدود الله، ومنه قول عليّ بن أبي طالب (ع) (ما تَنْقِمُ الحَرْبُ العَوانُ مِنِّي بازِل عامَيْنِ فَتِيّ سِنِّي) وفي الحديث أنه ما انتَقَم لنفسِه قَطّ إلا أن تُنتَهَكَ مَحارِمُ الله أي ما عاقبَ أَحداً على مكروهٍ أتاه من قِبَله فقد ذكر ابن منظور أن الإمام علي (ع) لما طلب إليه أَهل الطائف أَن يكتب لهم الأَمانَ على تحليل الزنا والخمر فامتنع قاموا ولهم تَغَدْمُرٌ وبَرْبَرةٌ البَرْبَرَةُ التخليط في الكلام مع غضب ونفور. كذلك جلد من شرب الخمر. وروي عن عليّ (ع) أَن الحسن قال له في مَخْرجه إِلى العراق إِنه غير صواب فقالوا لله لا أَكون مثل الضَّبُع تسمع اللَّدْمَ فتخرُجُ فتُصادو ذلك أَن الصَّيّاد يجيء إِلى جحرها فيضرب بحجَر أَو بيده فتخرج وتَحْسبه شيئاً تَصِيده لتأْخذَه فيأْخذها وهي من أَحمق الدَّوابّ أَراد أَني لا أُخْدَعكم أَتُخْدعُ الضبع باللدْم ويُسمَّى الضرْبُ لَدْماً ولَدَمْتُ أَلْدِمُ لَدْماً فأَنا لادِمٌ وقوم لَدَمٌ مثل خادِمٍ وخَدَمٍ وأُمُّمِ لْدَم الحُمَّى الليث أُمّمِ لدَم كنية الحُمَّى[٢].

موقفه من مقتل عثمان (رض):

أورد ابن منظور حديثاً عن علي كرم الله وجهه يبرئ فيه علياً من مقتل عثمان (رض) قال فيه (واللّه ما قَتَلْتُ عُثمانَ ولا مالأْت على قتله أَي ما ساعَدْتُ ولا عاوَنْتُ)[٣] وقول علي (ع)

---

(١) حجة القراءات: ٦٠٨/١.

(٢) لسان العرب: ١٥٧/١.

(٣) لسان العرب: ١٥٨/١.

(مالأت) أي لم اجتمع على قتله ولا ساعدت ولا ظاهرت ولا عاونت، ومفردة مالأت مأخوذة من الملأ وهي الجماعة، والملأ الخلق[١]. وقد كتب عثمان (رض) إلى علي (ع) ليعلمه بأمره فقال (أما بعد فقد بلغ الحزام الطبين، وبلغ السيل الزبى، وبلغ الأمر فوق قدره، وطمع في الأمر من لا يدفع عن نفسه: فإن كنت مأكولاً فكن خير... آكلو إلا فأدركني ولما أمزق)[٢].

وهذا دليل على براءة علي مما قيل فيه عن عثمان (رض).

عن قيس بن عباد قال: سمعت عليا رضي الله عنه يوم الجمل يقول: (اللهم إني أبرأ له إني لأستحي من الله أن أبايع قوماً قتلوا رجلاً قال له رسول الله (ص): "ألا أستحي ممن تستحي منه الملائكة"، وإني لأستحي من الله أن أبايع وعثمان قتيل على الأرض لم يدفن بعد. فانصرفوا، فلما دفن رجع الناس فسألوني البيعة، فقلت: اللهم إني مشفق مما أقدم عليه، ثم جاءت عزيمة فبايعت، فلقد قالوا: يا أمير المؤمنين، فكأنما صدع قلبين، وقلت: اللهم خذ مني لعثمان حتى ترضى)[٣].

يوم الجمل:

أورد ابن منظور في لسانه قول علي (ع) (إنه أمر يوم الجمل أن لا يتبع مدبر، ولا يقتل أسير، ولا يذف جريح)[٤] والمدبر في كلام العرب: إذا ولى عن الحرب وتراجع إلى الخلف.

ولأسير: مأخوذ من الأسر: وهو الشدة، فسمي أسير لانهمك انو يشدونه بالقيد لئلا يفلت[٥] ولا يذف جريح: استعملت كلمت الذف لعدة معان ومنها الإجهاز: ذففت على الرجل: أجهزت عليه[٦] والذف: سرعة القتل[٧] والذف: الإمكان والتهيؤ[٨] وقيل هو وضع السم في الجرح في المعركة.

قال ابن منظور راويا عن علي (ع) أنه طاف ليلة وقعة الجمل على القَتْلى مع مَوْلاه قَنْبَر فوقف على طلحةَ بن عبيدالله وهو صَريع فبكى ثم قال (عز عليّ أَبا محمد أَن أَراك مُعَفَّراً تحت نجوم السماء إلى الله أَشكو عجري وبُجَري والله لوددت أني كنت مت قبل لهذا اليوم بعشرين سنة)[٩] معناه همومي وأَحزاني وقيل ما أُبْدِي وأُخْفِي[١٠].

---

(١) ينظر مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي ٢٩٧/١.
(٢) ينظر السيرة النبوية لشمس الدين بن عثمان الذهبي ٣٦١/٣.
(٣) المستدرك على الصحيحين للحاكم: ١٧٥/٤.
(٤) لسان العرب: ١١٠/٩.
(٥) ينظر الزاهر في معاني كلام الناس لأبو بكر محمد الأنباري ٧٧/٢.
ينظر العين ١٧٧/٨.
(٦) ينظر العين لأحمد بن خليل الفراهيدي ١٧٧/٨.
(٧) ينظر المحكم المحيط ٥٢/١٠.
(٨) ينظر تاج العروس ٣١٩/٢٣.
(٩) لسان العرب: ٥٤٢/٤.
(١٠) ينظر تهذيب اللغة: ٢٣٠/١.

وقال ابن الأثير أصل العجزة نفخة في الظهر فإذا كانت في البطن فهي بجرة ثم استعملت في الكناية عن الهموم والأحزان أي أراد أن يشكو همه وحزنه في أموره كلها إلى الله[١] وقد أخذ (رض) هذا المعنى من قول الحق تعالى ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (يوسف: ٨٦) وقد جمع الإمام علي بين المنقول الحسي أي المرض العضوي إلى المعنوي وهي أمراض القلوب. وقد أوكل الأمر إلى الله بعد أن رأى الفتنة التي حلت بالمسلمين حيث لم يكن رضي الله عنه قادراً على تنفيذ القصاص في قتلة عثمان رضي الله عنه لعدم علمه بأعيانهم، ولاختلاط هؤلاء الخوارج بجيشه، مع كثرتهم واستعدادهم للقتال، وقد بلغ عددهم ألفي مقاتلو كان كثير من الصحابة خارج المدينة في ذلك الوقت، ومنهم أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، لانشغال الجميع بالحجو قد أرسل علي (ع) القعقاع بن عمرو إلى طلحة والزبير يدعوهما إلى الألفة والجماعة، فبدأ بعائشة رضي الله عنها فقال: أي أماه، ما أقدمك هذا البلد؟ فقالت: أي بني الإصلاح بين الناس، فرجع إلى علي فأخبره، فأعجبه ذلك، وأشرف القوم على الصلح، كره ذلك من كرهه، ورضيه من رضيه، وأرسلت عائشة إلى علي تعلمه أنها إنما جاءت للصلح، ففرح هؤلاء وهؤلاء، وقام علي في الناس خطيباً، فذكر الجاهلية وشقاءها وأعمالها، وذكر الإسلام وسعادة أهله بالألفة والجماعة، وأن الله جمعهم بعد نبيه (ص) على الخليفة أبي بكر الصديق، ثم بعده على عمر بن الخطاب، ثم على عثمان، ثم حدث هذا الحدث الذي جرى على الأمة، أقوام طلبوا الدنيا وحسدوا من أنعم الله عليه بها، وعلى الفضيلة التي منَّ الله بها، وأرادوا رد الإسلام والأشياء على أدبارها، والله بالغ أمره، ثم قال: ألا إني مرتحل غدا فارتحلوا، ولا يرتحل معي أحد أعان على قتل عثمان بشيء من أمور الناس كل هذه الأمور التي حدثت والتي حذر منها الرسول الكريم (ص) وحرص الإمام علي على دماء المسلمين ووحدتهم جعله يتوجه إلى الله بهذه الهموم ليفرها عن هذه الأمة.

سجن المخيس:

ذكر بن منظور كلاماً عن علي كرم الله وجهه أنه بنى حبساً وسماه المخيس[٢] وهو سِجْنٌ كان بالعراق والمُخَيَّسُ السجن لأنه يُخَيِّسُ المحبوسين وهو موضع التذليل[٣] بناه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه بالكوفة وفي حديث علي أنه بنى حَبْساً وسماه المُخَيَّسَ وقال أما تَراني كَيِّساً مكيسا بَنَيْتُ بعد نافعٍ مُخَيَّسا باباً كبيراً وأَمِيناً كُيِّسا نافع

(١) ينظر النهاية في غريب الحديث: ١٨٥/٣.

(٢) ينظر لسان العرب: ٧٤/٦.

(٣) المخصص لابن سيده: ٣٣٧/٢.

سجن بالكوفة كان غير مستوثق البناء وكان من قَصَب فكان المحبوسون يَهْرُبُون منه وقيل إنه نقب وأُفْلِتَ منه المحبوسون فهدمه علي رضي اللّه عنه وبنى المُخَيَّسُ لهم من مَدَرٍ. واصل الكيس حسن التأني للأمور فيقال رجل كيس، وهو خلاف الحمق[١]. والكيس الفقيه الفطن العاقل[٢].

والحبس مشروع بالكتاب لأنه المراد بالنفي المذكور في قوله تعالى ﴿أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ (المائدة: ٣٣) وبالسنة على ما سلف أنه (ص) حبس رجلاً في تهمة وذكر أن ناساً من أهل الحجاز اقتتلوا فقتل بينهم قتيلاً فبعث إليهم رسول الله (ص) فحبسهم ولم يكن في عهده صلى الله عليه وسلم وأبي بكر سجن إنما كان يحبس في المسجد أو الدهليز حتى اشترى عمر رض داراً بمكة بأربعة آلاف درهم واتخذه محبسا وقيل بل لم يكن في زمن عمر ولا عثمان أيضاً إلى زمن علي فبناه وهو أول سجن بني في الإسلام حيث أن عليا (ع) بنى سجناً من قصب فسماه نافعاً فنقبه اللصوص وتسيب الناس منه ثم بنى سجنا من مدر فسمى محبساً أو المخيس موضع التخييس وهو التذليل والمحبوس في الدين لا يخرج لصوم رمضان ولا لعيد ولا لجمعة ولا لصلاة جماعة ولا لحج فريضة ولا لحضور جنازة بعض أهله ولو أعطى كفيلاً بنفسه لأنه يشرع لتضجر قلبه فيسارع لقضاء ولهذا قالوا ينبغي أن يكون موضعاً خشناً ولا يبسط له فراش ولا وطأ ولا يدخل له أحد يستأنس به[٣].

أهل العراق:

ذكر ابن منظور قول علي كرم الله وجهه في أهل العراق وهم مائة ألف أو يزيدون (لَوَدِدْتُ لو أَنَّ لي منكم مائَتَيْ رجلٍ من بَني فِراسِ بنِ غَنْمٍ لا أُبالي مَنْ لَقِيتُ بهم)[٤].

أراد بقوله (ع) (بني فراس) هم قبيلة كنانة وفراس بن غنم جد جاهلي، عرف بنوه بالشجاعة[٥].

وقد كان أهل العراق مشهود لهم بالشجاعة وقوة البأس وكان (رض) عارف بأحوال الرجال وخاصة رجال العراق في الحرب فقد وصفهم بأهل القتال حيث قال (الأَبْدالُ بالشام والنُّجَباءُ بمِصْرَ والعَصائبُ بالعِراق)[٦]. أَراد أَن التَّجَمُّعَ للحُروب يكون بالعِراقِ.

---

(١) ينظر الصحاح: ٩٧٣/٣.

(٢) ينظر النهاية في غريب الحديث: ٢١٨/٤.

(٣) ينظر شرح سنن ابن ماجه: للسيوطي: ١٧٥/١ - فتح القدير: لابن همام: ١٧١/١٦.

(٤) لسان العرب: ١٦/١٥.

(٥) ينظر الأعلام: ١٣٩/٥.

(٦) لسان العرب: ٦٠٢/١.

يوم بدر:

روى ابن منظور في لسانه عن علي (ع) قولاً "في يوم بدر ما تَنْقِمُ الحَرْبُ العَوانُ مِنِّي بازِل عامَيْنِ فَتِيّ سِنِّي وقد سمع هذا القول سعد بن أبي وقاص (رض) يوم بدر"[١].

قوله تنقم: من النقمة: أي العقوبة[٢] وقوله الحرب العوان: هي التي كانت قبلها حرب، وعني أنه محنك وأنه يذهب في السن[٣] وقوله بازل: أراد بهذه المفردة البعير الذي تمت له عشر سنين ودخل الحادية عشرة فبلغ نهاية في القوة[٤] والمعنى أنه (ع) قد استكمل قوته مع حداثة سنه.

لقد كانت معركة بدر معركة فاصلة حقاً، لأنها غيرت مجرى الأحداث بعدها أيما تغيير، وتركت آثارها البعيدة بل الحاسمة في قريش وفي المدينة، وفي قبائل العرب ولاسيما المحيطة بها، وناهيك بآثارها في مستقبل العالم كله. وقد أظهرت الشجعان من المسلمين ومنه البطل. وكانت معركة بدر ضربة موجعة مفاجئة لقريش، هزتها من الناحية النفسية هزاً عنيفاً وأشعرتها أن المسلمين أصبحوا قوة غالبة وأنهم مؤيدون بقوة أخرى لا يستطيعون حيالها شيئاً، وجعل بعضهم يعتذر بهذه القوة عن هزيمتهم وقد ناحوا على قتلاهم، وقطعت النساء شعورهن، وعقرت خيول كثيرة ورواحل[٥] وكان يؤتى براحلة الرجل منهم أو بفرسه فيجتمع الناس حولها ويأخذون في البكاء[٦] ثم تناهوا عن البكاء كيلا يسمع ببكائهم المسلمون فيشمتوا بهم، كما تناهوا عن السعي في فداء أسراهم كيلا يأرب المسلمون في فدائهم هم... فكان إمساكهم عن البكاء، وبقاء أسراهم في أيدي المسلمين مما زاد في عذابهم المعنوي حتى كادت أكبادهم تنصدع، لأن البكاء على الميت مما يبل فؤاد الحزين، وكذلك عودة الأسرى مما يخفف المصاب. ويرجع هذا النصر إلى أمور منها: شوق المسلمين إلى الشهادة في سبيل الله، وطلبهم الجنة ببذل الطارق والتليد في مرضاة الله البارئ عز وجل مما يورث روحاً معنوية لا تبارى، وليس بخاف أثر الروح المعنوية في تحقيق النصر. شدة انضباط المسلمين، وتنفيذهم تعليمات قائدهم (ص) بكل رغبة وإخلاص. وصدق القيادة، وحكمتها، وكونها قيادة من خلال مشاركة الجنود في تحمل مختلف ألوان الأعباء. ولقد طلع النبي (ص) على الأعداء بأسلوب جديد في القتال. وهو أسلوب الصف، فكان له أثره في تحقيق النصر، والتاريخ الحربي يشهد بأن تطبيق القادة العظام أساليب جديدة غير معروفة في القتال كان له أثره في الانتصارات التي أحرزوها.

---

(١) ينظر تاج العروس: ٢/٤٣١.

(٢) لسان العرب: ١٢/٩٥.

(٣) ينظر العين: ٢/٢٥٤.

(٤) ينظر الفائق في غريب الحديث: ١/١٠٦.

(٥) ينظر البداية والنهاية لابن كثير: ٣٠٨ - ٣٠٩.

(٦) ينظر الواقدي: ٩١.

الفتن والملاحم:

وفي حديث علي (ع) ذكرَ فِتْنةً فقال لعمّارٍ (واللّهِ لتَشْحُوَن فيها شَحْواً لا يُدْرِكُك الرجلُ السريعُ).

الفتن جمع فتنة، يقال: فتن المعدن إذا صهره بالنار ليختبره، وفلان فتن فلاناً ليحوله عن رأيه أو دينه. وفي التنزيل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ (البروج: ١٠).

(الشَّحْوُ) سَعَةُ الخَطْوِ يريد بذلك تَسْعى فيها وتتَقَدَّم ومنه حديث كعب يصف فتنة قال ويَكونُ فيها فَتىً من قُرَيْشٍ يَشْحُو فيها شَحْواً كَثيراً أَي يُمْعِنُ فيها ويتَوسَّعُ ويقال ناقةٌ شَحْوى أَي واسِعَةُ الخَطْو ومنه أَنه كان للنبي (ص) فرس يقال لها الشَّحَاءُ[١] مأخوذ من قولهم فرس بعيد الشحوة أي بعيد الخطوة، وجاءت الخيل شواحي فاتحات أفواهها، وشحا فاه يشحو شحوا إذا انفتح[٢] وقد استعمل علي (ع) مفرة (تشحون) وهو يصف الفتن والابتلاء والنوازل التي ستصيب المسلمين وقد استعمل (رض) مفردات جزلة مؤثرة في السامع تحمل معاني كثيرة ومختلفة الدلالات وهذا دليل على خوفه على عمار خاصة وعلى المسلمين عامة لأنه يستذكر قول الرسول (ص) لعمار (تقتلك الفئة الباغية)[٣].

ومن أنواع الفتن التي يجب على المسلم أن يفر منها فتنة الغربة والفتنة في العقيدة وفتنة المعاصي وترك إنكارها وفتنة الدنيا وزخرفها وفتنة الاختلاف والفرقة بين المسلمين والفتنة بالعلم وفتنة المصائب والمكاره وفتنة المسيح الدجال وفتنة الممات. لأن الفتن شرور مستطيرة لا ينبغي للمسلم إثارتها أو الخوض فيها أو التعرض لها. وعلى المسلمين إذا ظهرت فتنة أن يلتزم كل منهم عمله وموقعه؛ يجتهد فيه بعيداً عن المشاركة في الفتنة. ونبذ العنف وأدواته، وترك السلاح وكسر حدِّه. وتأدية الحقوق لأصحابها، والصبر على ما للمرء من حقوق عند غيره، ويسأل اللّه تعالى أن يجنبه الوقوع فيها، ويلتزم توجيهات سيد الأخيار نبينا محمد (ص) للنجاة والخروج من الفتن والأزمات، وعلى المسلمين الموحدين أن ينعموا في ظل توجيهاته عليه الصلاة والسلام، وهذا فيما إذا كانت الفتنة في أرض المسلمين فيما بينهم. وقد وصف الرسول الكريم (ص) السعيد من المسلمين من يجنب الفتن. فعَنْ الْمِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ قَالَ أَيْمُ اللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ص) يَقُولُ: (إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنِ إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ وَلَمَنْ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ فَوَاهاً)[٤].

---

(١) لسان العرب: ١٤/٤٢٤.

(٢) ينظر النهاية في غريب الأثر: ٢/٤٥٠.

(٣) صحيح مسلم: ٨/١٦٨.

(٤) سنن أبي داود: ٤/١٦٤ رقم الحديث ٤٢٦٥.

الخاتمة والنتائج:

بعد هذه الجولة في دراستنا للمرويات التاريخية الإمام علي (ع) في لسان العرب بانت لنا النتائج الآتية:

- كشف البحث أن ابن منظور المصري، لم يكن عالما باللغة والمعاجم، وإنما كان عالما بالحديث والتأريخ والتفسير والفقه وغيرها من العلوم الأخرى.
- ظهر البحث شخصية علمية فريدة من الأئمة الأفذاذ والصحابة الكرام هو الإمام علي (ع) من خلال مروياته في أمات الكتب الشرعية واللغوية.
- استعمل الإمام علي طائفة من العبارات والألفاظ في دلالات شرعية ولغوية شتى أوردناها كما أثبتها في مروياته.
- وجدنا لسان العرب كتاب موسوعي يحوي مادة جمة في كثير من العلوم اللغوية والشرعية.
- تبين لنا إن الإمام علي (ع) ذا شخصية متميزة في التفكير العلمي وهو يكشف عن مروياته يؤمن بالمأثور اللغوي ليثبت لنا تصورات جديدة لا تتعارض مع المعطى القرآني.
- حوت مرويات الإمام علي (ع) مفردات عميقة المعنى وألفاظ جزيلة ومعاني مبتكرة بغية الوصول إلى دلالاته المختارة في موضعها ومقصدها.
- في اللسان زوايا علمية مختلفة غير الزاوية التي نظرنا منها كأن يكون الفكر البلاغي أو الفقهي عند الإمام علي درسا علميا من خلال لسان العرب.
- اعتمد البحث على منهج الموازنة والتحليل للكشف عن المفردات الغامضة غير المألوفة في مرويات هذا الصحابي الجليل والإمام القدير والعسجد المصفى.

المصادر:

١. أعيان العصر وأعوان النصر لصلاح الصفدي تحقيق طائفة من المحققين دار الفكر للطباعة والنشر ١٩٩٨.

٢. الأعلام: خير الدين الزر كلي.

٣. البداية والنهاية البداية والنهاية للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ٧٧٤ هـ. حققه ودقق أصوله وعلق حواشيه علي شيري دار إحياء التراث العربي.

٤. تاج العروس من جواهر القاموس لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي تحقيق مجموعة من المحققين الناشر دار الهداية.

٥. تهذيب اللغة تهذيب اللغة أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري: دار إحياء التراث العربي - بيروت - ٢٠٠١م.

٦. جمهرة اللغة: أبو بكر محمد بن حسن بن دريد الأزدي.

٧. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة - أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني - تحقيق محمد عبد المعيد – دائرة المعارف العثمانية - ١٩٧٢.

٨. دلائل النبوة دلائل النبوة - وثق أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه: الدكتور عبد المعطى دار الكتب العلمية - ودار الريان للتراث الطبعة الأولى.

٩. الزاهر في معاني كلمات الناس، أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٢ هـ - الطبعة: الأولى تحقيق: د. حاتم صالح الضامن.
١٠. سنن أبي داود للحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني المتوفى تحقيق وتعليق سعيد محمد اللحام دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
١١. سنن الترمذي - أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي - دار الفكر للطباعة والنشر.
١٢. السيرة النبوية لشمس الدين ابو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي مؤسسة الرسالة - بيروت.
١٣. شرح سنن ابن ماجة عبد الغني فخر الحسن الدهلوي - قديمي كتب خانة - كراتشي.
١٤. شذرات الذهب في أخبار من ذهب لعبد الحي بن أحمد العكري الدمشقي - دار الكتب العلمية.
١٥. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية إسماعيل بن حماد الجوهري - تحقيق أحمد عبد الغفور عطار الجزء الاول دار العلم للملايين - بيروت.
١٦. صحيح مسلم للامام ابى الحسين مسلم بن الحجاج ابن مسلم القشيرى النيسابوري تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار الفكر للطباعة.
١٧. عمدة القارئ شرح صحيح البخاري للعلامة بدر الدين العيني - دار الكتب العلمية.
١٨. العين: للخليل بن أحمد الفراهيدي دار الفكر للطباعة والنشر.
١٩. فتح القدير في شرح الهداية كمال الدين محمد بن عبد الواحد المعروف بابن الهمام - دار الفكر العلمية.
٢٠. الفائق في غريب الحديث والأثر - العلامة جار الله محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٨٣ هـ. وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين الأول دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
٢١. الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل جارالله محمود بن عمر الزمخشري تحقيق: عبد الرزاق مهدي، دار إحياء التراث العربي.
٢٢. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون - لمصطفى بن عبدالله كاتب المشهور بحاجي خليفة - دار الكتب العلمية.
٢٣. لسان العرب - محمد بن مكرم بن منظور - دار صادر - بيروت.
٢٤. المحكم المحيط الأعظم لعلي بن إسماعيل بن سيده دار الكتب العلمية.
٢٥. مختار الصحاح للإمام محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازي ضبطه وصححه أحمد شمس الدين دار الكتب العلمية - بيروت.
٢٦. المخصص أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده تحقيق: خليل إبراهيم جفال دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٤١٧هـ ١٩٩٦م - الطبعة الأولى.
٢٧. المستدرك على الصحيحين للإمام الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله تحقيق شمس الدين الذهبي - دار الكتب العلمية بيروت.
٢٨. معجم المؤلفين عمر رضا كحالة الناشر مكتبة المثنى - بيروت دار إحياء التراث العربي بيروت.
٢٩. المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى - أحمد الزيات - حامد عبد القادر - محمد النجار دار النشر: دار الدعوة.
٣٠. مغازي الواقدي أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي دار الكتب العلمية.
٣١. النهاية في غريب الأثر مجد الدين أبو السعادات المبارك محمد الجزري ابن الأثير تحقيق طاهر أحمد - محمود الطناحي المكتبة العلمية - بيروت ١٩٧٩ . ❖

التنمية الاقتصادية عند الإمام علي (ع)

علاء فالح آل خلف

المبحث الأول

مفهوم التنمية والعمارة

المطلب الأول: مفهوم التنمية والعمارة ومدى التطابق بينهما

الفرع الأول: مفهوم التنمية في اللغة والاصطلاح

تعرّف التنمية في اللغة: نما ينمو، زاد وكثر[١].

وفي الاصطلاح: "عملية استخدام الموارد الاقتصادية المتاحة للمجتمع لتحقيق زيادة مستمرة في الدخل القومي توفق معدلات النمو السكاني، مما يؤدي إلى زيادة حقيقية في متوسط نصيب الفرد من الدخل[٢]، وعرفها آخرون بأنها "تدخلاً إدارياً من الدولة في الحياة الاقتصادية، لرفع عجلتها لنحو النمو العادل أسرع من معدل النمو الطبيعي، عن طريق الخطط والبرامج التي تنفذها الدولة لأجراء تغيرات واسعة في هيكل الاقتصاد ومكوناته"[٣]، ومن علماء الاقتصاد الوضعي من يعرف التنمية، بأن لها مدلول عام يشمل تنمية قطاع الدولة الاقتصادي بزيادة الإنتاج، وبتنمية القطاع الاجتماعي من خلال التوزيع العادل للدخل على أفراد المجتمع[٤].

تعريف التنمية في الإسلام: عرفها بعض العلماء المعاصرين بأنها: "عملية نمو مستمر في الإنتاج، مصحوبة بعدالة التوزيع تهدف إلى تنمية الإنسان وتقدمه في المجالين المادي والروحي"[٥].

الفرع الثاني: مفهوم العمارة وحكمها

يقول أبن منظور في تعريفها لغة "أعمرت الأرض وجدتها عامرة وعمرت الخراب، أعمر عمارة فهو عامر أي معمور، مثل دافق أي مدفوق"[٦].

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج١٥، ص٣٤١.

(٢) محمد عبد المنعم عفر، التخطيط والتنمية الاقتصادية، دار البيان العربي، جدة، ١٩٨٥، ص٢٢.

(٣) عبد السلام العبادي، التنمية من منظور إسلامي، بحوث المجتمع الملكي لبحوث الحضارة، وثائق الندوة التي عقدت في عمان ٢٧ ـ ٣٠ ذي الحجة ١٤١١هـ، ٩ ـ ١٢ تموز ١٩٩١، ٢٧، ج٢، ص٦٦١.

(4) MALHOTRA, Proted, Economi Development. Jalandhar city, India, P2. (1993).

(٥) خيري مجد الدين عمر، التنمية من منظور الإسلام، المجتمع الملكي لبحوث الحضارة، عمان ٢٧ ـ ٣٠ ذي الحجة ١٤١١، ٩ ـ ١٢ تموز ١٩٩١، ج١، ص٢٧١.

(٦) ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ص٦٠٤.

أما في الاصطلاح فيظهر معنى العمارة من خلال تفسير العلماء لقوله تعالى ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[١] إذ يقول القرطبي في ذلك "استعمركم أي أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه فيها من بناء مساكن وغرس أشجار، وقيل المعنى ألهمكم عمارتها من الحرث والغرس وحفر الأنهار وغيرها"[٢].

حكمها: يقول الجصاص في تفسير هذه الآية ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾: يعني أمركم بعمارتها بما تحتاجون إليه، وفيه دلالة على وجوب عمارة الأرض للزراعة والغرس والأبنية. وطلب منكم عمارتها والكشف عما فيها من طاقات وكنوز وخامات وتحويرها وتبديلها[٣] وقال بعض علماء الشافعية "الاستعمار طلب العمارة، والطلب المطلق من الله يحمل على الوجوب"[٤].

المطلب الثاني: مفهوم التنمية والعمارة

يتحدد مفهوم العمارة عند الإمام علي (ع) من منطلق المفهوم الإسلامي للتنمية ففي مقدمة عهده للأشتر النخعي، حين عينه علي ولاية مصر، أكد على التنمية الشاملة لكل من الإنسان والأرض، والدليل على ذلك أنه خص العمارة بالأرض مرة، ومرة أخرى خصها بالبلاد لتشمل التنمية الاقتصادية والاجتماعية وتحقيق الرفاهية للأفراد، يقول: "هذا ما أمر به عبد الله أمير المؤمنين، مالك بن الحارث الأشتر، في عهده إليه حين ولاه مصر، جباية خراجها وجهاد عدوها واستصلاح أهلا وعمارة بلادها"[٥] ففي هذه المقدمة يحدد الإمام (ع) وظائف الدولة، والتي من ضمنها عمارة البلاد، فعمارة البلاد أمر واجب على الدولة، ومهمة أساسية من مهامها، انطلاقاً من قوله تعالى:

"واستعمركم فيها" والأمر الآخر الذي يتحدد فيه مفهوم العمارة عند الإمام (ع)، تعالى ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾[٦] والتمكين هنا وإن كان يعني "جعلناها لكم قراراً مهاداً، وهيأنها لكم فيها أسبابا المعيشة"[٧] فإنه يعني أيضاً "بذل الإنسان أقصى جهد، وما أعطي من عزيمة وعقل مدبر لاستثماره أقصى ما أمكن من الخيرات المسخرة من باطن الأرض، لإقامة أفضل ما يستطاع من العمارة المزدهرة، بالجد والخلق الفاضل[٨]، ويعبر الإمام (ع) عن هذا المعنى بقوله عن واقع المتقين في الدنيا "سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت،

---

(١) هود: ٦١.

(٢) القرطبي، أحكام القرآن، ج٥، ص٣٠٩.

(٣) الجصاص، أحكام القرآن، ج٣، ص١٦٥.

(٤) القرطبي، أحكام القرآن، ج٩، ص٥٦.

(٥) محمد عبده، نهج البلاغة، ج٣، ص٥٩٩.

(٦) الأعراف، آية ١٠.

(٧) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن الكريم، ج٧، ص١٦٧.

(٨) البهي الخولي، الثروة في ظل الإسلام، دار الاعتصام، القاهرة سنة ١٩٧٨، ط٣، ص٦٧.

وأكلوها بأفضل ما أكلت، وشاركوا أهل الدنيا في دنياهم، وركبوا أفضل ما يركبون[١].

وإن تحقيق هذه الأمور من المأكل الحسن والملبس الحسن ووسيلة النقل الحسنة لا يتحقق إلا بتحقيق المفهوم الثاني للتمكين، وبذل الإنسان أقصى جهده لاستثمار أقصى ما يمكن من الخيرات في الأرض من خلال الاهتمام بالزراعة والصناعة والتجارة من هنا دعا الإمام علي (ع) إلى الاهتمام بهذه القطاعات وفي ذلك يقول: "وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج"[٢] ويقول أيضاً: "ولا قوام لهم جميعاً إلى بالتجار وذوي الصناعات"[٣].

وعلى ذلك فالعمارة عند الإمام (ع) تعني رفع المستوى الإنتاج إلى أقصى حد، من خلال الاهتمام بقطاعات الاقتصاد الثلاثة الزراعة والصناعة والتجارة. وتتطلب العمارة إلى جانب ذلك ـ عند الإمام (ع) ـ مستوى الاستهلاك المرتفع لجميع الأفراد في المجتمع، سواء منهم من لدية القدرة على تحقيق ذلك لنفسه أم من يعجز عن ذلك، فإن على الدولة أن تقوم بتحقيق هذا المستوى للصنف الثاني من الناس يقول الإمام (ع) "ما جاع فقيراً إلا بما متع به غني"[٤].

مما سبق يتبين لنا أن العمارة عند الإمام علي (ع) هو واجب ملقى على عاتق الدولة من خلال سعيها المتواصل لبذل أقصى الجهود في استثمار خيرات الأرض ومكتنزاتها من جهة ورفع مستوى الاستهلاك لأفراد المجتمع من جهة أخرى.

التطابق بين مضمون التنمية والعمارة:

يظهر مدى التطابق بين مضمون التنمية والعمارة في الأمور التالية:

١. زيادة الثروة للأمة حيث أن كلاً من مفهوم العمارة والتنمية هدفه ذلك، وبناء على ما سبق فإنه من الممكن الاستعانة بنظريات التنمية الحديثة التي تدعو إلى زيادة الإنتاج إذا كان ذلك لا يتعارض شكلاً وجوهراً مع الأحكام الشرعية المستمدة من الكتاب الكريم والسنة المطهرة.

٢. نلحظ من خلال تعريف التنمية أنه يحق للدولة أن تتدخل في الحياة الاقتصادية لدفع عجلتها نحو النمو، وهذا متطابق مع مفهوم العمارة عند الإمام علي (ع) من حيث أنه من مسؤوليات الدولة وواجبات ولي الأمر[٥].

٣. ويتطابق مفهوم التنمية والعمارة من خلال المدلول العامة للتنمية الاقتصادية بأنها: تشمل القطاع الاقتصادي والاجتماعي، وهذا تضمنته العمارة من وجهة نظر الإمام علي (ع):

---

(١) محمد عبده، نهج البلاغة، ج٢، ص١٧٣ ـ ١٧٤.

(٢) صبحي الصالح، نهج البلاغة، ص٤٣٨.

(٣) نفس المرجع.

(٤) محمد عبده، نهج البلاغة، ج٤، ص٣٨، وانظر:

- يوسف إبراهيم، المنهج الإسلامي في التنمية الاقتصادية، ١٩٨٧، ص١٥٦.

(٥) انظر هذا التعريف، ص٦٠.

ما جاع فقيرٌ إلا بما منع به غني إذ يستشف من هذه النص: إن الإمام علي (ع) يرى النقص في المستوى الذي يصاب به فقير، هو الوجه الآخر لشخص متخم استخدم من متاع الدنيا فوق احتياجاته أو على الأقل فوق حقه في موارد المجتمع - تلك الموارد التي يرى الإمام (ع) أن بها الكفاية أسد حاجات الناس انطلاقاً[١] من قوله تعالى ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾[٢] وأن وجود هذا الوضع، فقير يجوع وغني يتمتع، علامة على سوء التوزيع في المجتمع، وأن الله سبحانه وتعالى سيحاسب على سوء التوزيع هذا، ومن ثم تجب إزالته اتقاء لعدم قيام الحجة للمجتمع عند الله تعالى، يقول الإمام (ع): **"وكل فأعذر إلى الله في تأدية حقه إليه"**[٣].

المبحث الثاني
وسائل تحقيق التنمية عند الإمام علي (ع)

بعد بيان مدى الارتباط بين مفهوم التنمية المعاصر ومصطلح العمارة الذي كان شائعاً في عصر الإمام علي (ع) أرى من المناسب والمفيد أن أعرض للخطوط العريضة التي رسمها الإمام علي (ع) لعماله وولاته لتحقيق العمارة، فقد نهج منهجين أثنين لتحقيق هذه التنمية:

المنهج الأول: الأسلوب غير المباشر لتحقيق التنمية.

المنهج الثاني: الأسلوب المباشر لتحقيق التنمية

المطلب الأول: الأسلوب غير المباشر لتحقيق التنمية

حدد الإمام على (ع) شروطاً للأسلوب الغير المباشر في التنمية يجب توافرها وتحقيها قبل البدء بالأسلوب المباشر لتكون تمهيداً لنجاح التنمية وفيما يلي بعض هذه الشروط:

الفرع الأول: تحقيق الأمن والاستقرار

ازدهار اقتصاديات الأمم يقوم على استقلالها بنفسها، من حيث إدارة أمورها، والتصرف في مواردها فالدولة القوية يكون اقتصادها مزدهراً فيعم الرخاء للبلاد والعباد[٤]. وقوة الدولة تتحقق في عدة أمور أهمها:

أولاً: القوة العسكرية: السياسة المالية الإسلامية تفرض وتوجب الإنفاق على المجال الحربي[٥] ولذلك تعفي بعض الإجراءات والوسائل الحربية الأساسية من أي التزام مالي يفرض

---

(١) المرجع السابق، ص١٥٦.

(٢) سورة إبراهيم، آية ٣٤.

(٣) محمد عبده، نهج البلاغة، ج٣، ص١٠١.

(٤) انظر: محمود بابللي، الاقتصاد في ضوء الشريعة الإسلامية، ص١٦٥.

(٥) انظر: قاعدة الإنفاق العام، منوط بالمصلحة العامة، في الفصل الأول من الرسالة.

عليه كالزكاة وغيرها من المسائل المالية، مثل ذلك ما رواه أبو هريرة عن النبي (ص) أن قال: "ليس على المسلم في فرسه صدقة"[١] وقد وضع الإمام علي (ع) الزكاة عن الخيل والرقيق، من أجل القوة العسكرية فقال "ألا قد عفوت عن زكاة الخيل والرقيق"[٢].

ومعلوم أن الخيل كانت الوسيلة الأساسية للجهاد في صدر الإسلام، فاقتضت الحكمة إعفاءها من الزكاة.

وقد اهتم الإمام علي (ع) بالجنود، الذين يحافظون على الأمن، فبين الإمام (ع) أنهم "الحصون الرعية، وزين الولاة، وعز الدين"[٣]، ومن هنا قال الإمام (ع)، "ولا تقوم الرعية إلا بهم" وجاء اهتمامه (ع) بالجنود كونهم عصب القوة العسكرية ولأن قوة الدولة هي التي تعطي القوة لاقتصادها قال تعالى ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ...﴾[٤]. وهذه الآية بينت "المراد بالقوة هنا وهو ما يكون سبباً لحصولها وذكروا فيه وجوهاً: الأول المراد من القوة أنواع الأسلحة وروي أنه (ص) قرأ هذه الآية على المنبر وقال: "ألا أن القوة هي الرمي"[٥] قال بعضهم القوة هي الحصون. وقال الرازي "الأولى أن يقال هذا عام في كل ما يتقوى به على حرب العدو، وكل ما هو آلة للغزو والجهاد فهو من جملة القول"[٦] ويظهر لي أن هذا القول هو الراجح لأنه عام يواكب كل عصر.

ويتجلى موقف الإمام (ع) من ضرورة الاهتمام بالقوة العسكرية بقوله "هذا ما أمر به عبد الله أمير المؤمنين جباية خرجها وجهاد عدوها - وعمارة بلادها"[٧]، نلمس من هذا النص أن ازدهار البلاد وعمارتها يعتمد على جهاد الأعداء "إذ العمارة معطوفة على الجهاد"، لأنه لا يمكن لدولة أن تتمتع بالرفاه الاقتصادي، وهي عرضة لغارات أعدائها أو مستسلمة لهم، فيبين الإمام (ع) في هذا النص المناخ الملائم للتنمية وهو تحقيق الاستقرار في الدولة برد الاعتداءات الخارجية، وأن حالة عدم الاستقرار تؤدي إلى عدم تشجيع الاستثمار، ومن ثم إعانة النمو الاقتصادي، مما يترتب عليه أن أصحاب رؤوس الأموال سيمتنعون ويخشون من استثمار أموالهم، لذلك كلما كان البلد أكثر استقراراً وأماناً في الوقت الحاضر وفي المستقبل كان تكوين رأس المال أكبر[٨].

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الزكاة، باب ما جاء في زكاة الخيل والرقيق، رقم ٦٢٨، وقال عنه حسن صحيح، ج٣، ص٢٤.

(٢) ابن حزم، المحلي ٥، ٢٢٨، النووي، المجموع، ج٥، ص٣٠٧.

(٣) صبحي الصالح، نهج البلاغة، ص٤٣٢.

(٤) الأنفال: ٦٠.

(٥) رواه الترمذي في السنن، كتاب التفسير، حديث رقم ٥٠٧٨، وقال عنه الترمذي حسن صحيح، ج٤، ص٣٣٤.

(٦) الفخر الرازي، التفسير الكبير، ط٣، دار أحياء التراث، ج١٥، ص١٨٥.

(٧) محمد عبده، نهج البلاغة، ج٣، ص١٦٣.

(٨) سالم توفيق النجفي، مقدمة اقتصاد التنمية، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، ١٩٨٨، ص٤٢.

ثانياً: تحقيق الأمن والاستقرار داخل الدولة: لم يقصد الإمام علي (ع) باستقلال الدولة بمنع الاعتداء الخارجي عليها، بل اهتم بالاستقرار الداخلي وبمعاقبة الخارجين على النظام، وقد وجدت بعض النصوص التي ربطت بين الأمن والاستقرار، وبين قضية التنمية التي أستقى منها الإمام (ع) سياسته الاقتصادية مثل قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾[١] يقول الرازي في تفسير هذه الآية:

روى أن أحد الكفار، قال لرسول الله (ص): إنا لنعلم أن الذي تقوله حق، ولكن يمنعنا من ذلك تخطفنا من أرضنا، أي يجتمعون على محاربتنا ويخرجونا من أرضنا فأجاب الله تعالى عنها بوجوه، الأول: أولم نمكن لهم حرماً آمناً "أي أعطيناكم مسكناً لا خوف لكم فيه، أما قوله (يجبى إليه ثمرات كل شيء) أي كلما كان ذلك الموضع خالياً من المخاوف والآفات تظهر كثرة التنعم فيه"[٢] فالمقصود هنا أن من مستلزمات توفر النعم والخيرات في البلاد، توفر الأمن والطمأنينة، من هنا فقد جاءت هذه الآية في معرض المنة على أهل مكة، بما أنعم الله عليهم من الأمن والطمأنينة، في ديارهم الأمر الذي مكن لهم الحصول على سائر التجارة من البقاع المجاورة، وكذلك تدفق التجارة التي توفر لهم حاجتهم، فلم يكونوا عالة على غيرهم[٣]، فقد روى البخاري بسنده عن عدي بن حاتم "أنه كان عند النبي (ص) إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال الرسول (ص) يا عدي هل رأيت الحيرة؟ قال: لم أرها قال: إن طالت بك حياة الناس لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله"[٤] فالحديث بين شكوى الفاقة والحاجة، يصاحبها شكوى قطع الطريق وتهديد الأمن، وكأن الرسول (ص) أجاب عن من شكا قطع الطريق بأن الأمن سيستتب، عندما يفتح المسلمون الأرض، فيتحقق بذلك الأمن والأمان لكل أفراد المجتمع، وإن اتساع رقعة الدولة الإسلامية بالفتوحات سيزيد من ثروات المسلمين، ويصبح لكل فرد من أفراد الدولة الإسلامية ما يكفيه ويزيد على حاجته، وقد تحقق ذلك في عهد علي بن أبي طالب (ع) وظهر حصر الإمام علي (ع) على تحقيق المن الداخلي في المجتمع من خلال ما يأتي:

١. أنه يعاقب كل من تسول له نفسه الخروج على الأمن والنظام داخل المجتمع بقوله "وألزم كل منهم ما ألزم نفسه"[٥].

---

(١) القصص: ٥٧.

(٢) الرازي، التفسير الكبير، ج٢٥، ص٣.

(٣) انظر: محمد الجنيدي، قواعد التنمية الاقتصادية، دار النهضة، القاهرة، مطبعة القاهرة، ١٩٨٥، ص١١٥.

(٤) صحيح البخاري، بشرح الفتح، كتاب مناقب الأنصار، باب ما لقي النبي وأصحابه من المشركين بمكة، حديث رقم ٣٨٥٢، ج٧، ص٥٥٤.

(٥) صبحي الصالح، نهج البلاغة، ص٤١٠.

٢. ذكره حفظ الأمن والنظام في أول فئات الأمة التي تحقق العمارة والتنمية في المجتمع، بقوله "فالجنود بإذن الله سبل الأمن"[١].

٣. قوله تعالى في بداية عهده للأشتر "هذا ما أمر عبد الله علي أمير المؤمنين مالك بن الحارث الأشتر في عهده إليه حين ولاء مصر، ..... جباية خراجها، وجهاد عدوها، واستصلاح أهلها"[٢] واستصلاح حال المواطنين يشمل الأمن والثقافة والصحة ووظائف الدولة والخدمات، وما إلى ذلك من الشؤون الاجتماعية"[٣].

الفرع الثاني: التعاون والتماسك الاجتماعي

التعاون اشتراك شخصين أو أكثر في أداء عمل ما، بحيث يعمل الفرد لمصلحة الجماعة وتعمل الجماعة لمصلحة الفرد، ويفيد الواحد من عمل الجماعة، وتفيد الجماعة من الواحد، وذلك لجمع موارد كل فرد وقدرته مع موارد وقدرة الآخرين وتنسيقها، لتصبح مجهوداً واحداً بغية الوصول إلى نتائج يسعى إليها مجموعها[٤]. يقول تعالى ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[٥]. فقد أمر الله عباده المؤمنين بالتعاون لتحقيق الخير ومنه إمكانية زيادة الإنتاج استمراراً للحياة من حيث العمارة والعبادة[٦]، وقد مدح الرسول (ص) الأشعريين حين ذكر له تعاونهم وتضامنهم وتقاسمهم الطعام عند الحاجة، كسني القحط فقال "أنا منهم وهم مني"[٧] وقال (ص) "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعي له سائر الجسد بالحمى والسهر"[٨].

ومن منطلق الفهم الصحيح لكتاب الله وسنة رسوله (ص)، دعا الإمام (ع) إلى التعاون دعوة صريحة في عبارة نبيلة، حيث قال حين ودع المجاهدين في سبيل الله: "وأي امرئ منكم أحسن من نفسه رباطه جأش[٩] عند اللقاء، وإن رأى من أخوانه فشلاً ما ليذب عن أخيه بفضل نجدته التي فضل بها عليه، كما يذب عن نفسه، فلو شاء الله لجعله مثله[١٠]".

---

(١) المرجع السابق.

(٢) نفس المرجع.

(٣) محمد جواد مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ج٤، ص٤٧.

(٤) على، مراد محمد، التعاونية في الإسلام، مؤسسة سعيد للطباعة، ١٩٨٧، ص٩.

(٥) المائدة: ٢.

(٦) محمد الجنيدي، قواعد التنمية الاقتصادية في القانون الدولي، دار النهضة العربية بالقاهرة، ص١٢١.

(٧) الجزري، الجامع لأصول، رقم ٥٤١٢، ج٣، ص٦١٣.

(٨) رواه مسلم في كتاب الأدب، ج١٥، ص١٤٠.

(٩) رابط الجأش: يربط نفسه عن الفرار ويكفها لجرأته وشجاعته (انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج٦، ص٢٦٩).

(١٠) صبحي الصالح، نهج البلاغة، ص٣١٧.

وما أوصى به الإمام (ع) جنده ينبغي أن يستوصي به جنود الحياة في جميع المجالات، فالغني لو دب عن الفقير بفضل ماله الذي فضل عليه، والعالم لو دب عن الجاهل بفضل علمه الذي فضل به عليه لانتصر جيشهم على معوقات الحياة الاقتصادية والاجتماعية ولتحقق معنى التعاون، حيث مصلحة الفرد كمصلحة الجماعة، والإمام (ع) لا يزال يلح في دعوته إلى التعاون، وأنه ليسوقها هنا في منطق واضح، وحجة لازمة[١]: "أيها الناس أنه لا يستغني الرجل، وإن كان ذا مال عن عشيرته ودفاعهم عنه بأيديهم وألسنتهم، ألا لا يعدلن أحدكم عن القرابة ويرى فيها الخصاصة[٢] أن يسدها بالذي لا يزيده إن أمسكه، ولا ينقصه أن أهلكه ومن يقبض يده عن عشيرته، فإنما تقبض عنه أيد كثيرة"[٣]، ويقول أيضاً "والذي وسع سمعه الأصوات، ما من أحد أودع قلباً سرور إلا وخلق الله من ذلك السرور لطفاً فإذا نزلت به نائبة جرى إلهي كالماء في انحداره، حتى يطردها عنه كما تطرد عبر الأبل"[٤].

ويقول أيضاً (ع) "الله الله في جيرانكم، فإنها وصية نبيكم ما زال يوصي بهم حتى ظننا أنه سيورثهم"[٥].

من النصوص السابقة تبين لنا إن الإمام علياً (ع) يبرز دور الإنسان في التنمية الاقتصادية من خلال إسهامه في التكافل الاجتماعي، بتقديم العون المادي إلى أقاربه وإلى جيرانه، وإلى المحتاجين في المجتمع، ولا شك أن حث الأفراد على التعاون فيما يبنهم، يحولهم قادرين على تحمل المسؤولية، والنهوض بتبعاتها في تحقيق العمارة.

وإن الإمام علياً (ع) في معرض حديثه عن تعاون الأفراد في المجتمع، يجعلهم وسيلة وغاية للتنمية، فدعوته ذي الفضل م المال لتحرير ذي الحاجات من الفقر، يجعلهم عنصراً إنتاجياً في المجتمع، من ناحية وزيادة إنفاقهم الاستهلاكي من ناحية أخرى، وهذا يحقق جهازاً تمويلياً للتنمية، يتمثل في صورة تحقيق التعاون بين أفراد المجتمع، بإنفاق الفضل من المال الذي لاحق للفرد باكتنازه بل يجب عليه أن يتلمس به مصالح الجماعة، ويبدو هذا الأمر جلياً من مواقف الإمام علي (ع) من كنز المال، حيث نص على أن أربعة آلاف درهم نفقة وما دونها كنز[٦]، ولا يتحقق منع الكنز بإخراج المال للفقراء والمساكين فحسب، وإنما ببناء الفرد مصنعاً من فضل ماله فيكون قد أنفق هذا الفضل كما لو قدمه للدولة فتنفقه على الفقراء[٧].

---

(١) انظر: محمد الجنيدي، قواعد التنمية الاقتصادية، ص٢٨.

(٢) الخصاصة: أصلها الفقر. أنظر: ابن منظور، لسان العرب، ج٧، ص٢٥.

(٣) صبحي الصالح، نهج البلاغة، خطية ٢٣.

(٤) أويس كريم محمد، المعجم الموضوعي لنهج البلاغة، ٣٠٥.

(٥) محمد عبده، نهج البلاغة، ج٢، ص٣٠.

(٦) انظر تفصيل رأي الإمام في كنز المال، قاعدة الحكومة ليست تاجراً(الفصل الأول من الرسالة).

(٧) يوسف إبراهيم، منهج الإسلام في تحقيق التنمية، ص٣٥٢.

ومن صور التعاون التي حض الإمام على (ع) الناس على تحقيقها في المجتمع، الإقراض، عملاً بقوله تعالى ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا....﴾[١] يقول الإمام (ع) "وأغتنم من استقرضك في حال غناك، لجعل قضاء ذلك في يوم عسرتك"[٢].

١- **الاستعانة بالتعاونيات بعامة والإنتاجية بخاصة** للتنمية الاقتصادية بين الفلاحين في القطاع الريفي[٣]. والاستعانة ببعض الخبراء في مجال الأساليب الإنتاجية، لإنشاء جمعية تعاونية لحفظ حقوق المتعاونين، وتوزيع المسؤوليات والمكتسبات بينهم، ولا شك أن هذا يوحد الجهود والطاقات ويوجهها لتحقيق هدف مشترك بتكاليف قليلة، وبكفاءة متميزة بما يزيد من مستوى الإنتاجية في المجتمع المحلي ومما يحسن من مستوى الحياة وظروفها بالنسبة للأسر والأفراد[٤].

٢- **التعاون التلقائي:** وهو يتم عادة في نطاق الأسرة أو العشيرة وبخاصة في المجتمعات الريفية، كأن يجتمع الأقوياء في العشيرة. يعملون سوياً لمساعدة فرد منهم على بناء بيت مثلاً أو عند جني المحصول، ويستخدم الريفيون هذا الأسلوب ويطلقون عليه مصطلح (العونة) للإشارة إلى مثل هذا النوع من التعاون، ولا شك أن لمثل هذا التعاون وظيفة اقتصادية مهمة للفرد وللمجتمع، إذا أنه يعمل على زيادة الإنتاج، وتقليل التكاليف مما ينعكس إيجاباً على مستوى حياة الأفراد والجماعات[٥].

الفرع الثالث: الموازنة بين الزهد والعمل

قد شاع عن الإسلام أنه يحبب في الزهد بمفهومه السائد، الذي هو ترك المباحات تقرباً إلى الله، ويترتب على هذا القول أن يعيش الناس على الكفاف فقط، أما التمتع بما زاد على ذلك فهو خلاف الأفضل لأنه مناف للزهد هو ترك المباحات واحتقار الدنيا وعدم امتلاك الأموال، والتمتع بما خلق الله إرضاء لله تعالى بالآيات الكريمات[٦] كقوله تعالى:

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[٧]

---

(١) البقرة: ٢٤٥.

(٢) صبحي الصالح، نهج البلاغة، ص٣٩٨.

(٣) مجيد مسعود، موضوعات في التخطيط والتنمية، دار بن خلدون، بيروت، ١٩٨، ص١٤٥.

(٤) عز الدين خيري، أثر العادات والقيم السائدة لدى المسلمين على التنمية، ندوة من منظور إسلامي، ١٢/تموز/١٩٩١، المجمع الملكي لبحوث الحضارة، ج١، ص٢٧٨.

(٥) يوجد في الأردن مثل هذه الجمعيات، حيث تقوم الدولة بتشجيع أثارها وقل ازداد عددها من ٣٥٥ عام ١٩٨٥ إلى ٤١٢ عام ١٩٧٨ "المملكة الأردنية الهاشمية، دائرة الإحصاءات العامة، النشرة الإحصائية السنوية ١٩٩٧، العدد ٣٨، حدود رقم ٢٤٨.

(٦) انظر: شوقي أحمد دنيا، التنمية الاقتصادية، ط١، ٩٧٩، ص٣٢١.

(٧) سورة الأعلى، آية ١٦ - ١٧.

﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾[١]
وقال ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾[٢].

ومن أمعن نظره في هذه الآيات يتبين له أن تفسيرها يغاير ما ذهب إليه أولئك القوم، فالذم الذي جاء في الآيات إنما ينصب على الدنيا التي تشغل الناس عن الآخرة، ولا ينصب على الدنيا التي تكون طريقاً للآخرة يقول القرطبي في تفسير آية ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ﴾ إنها نزلت في أناس كثر حديثهم عن الدنيا وملذاتها، فعن أنس قال: كنا مع أبي موسى في مسير، والناس يتكلمون ويذكرون الدنيا.

قال أبو موسى: يا أنس، هؤلاء يكاد أحدهم يفري الأديم بلسانه فرياً، فقال فلنذكر ربنا ساعة[٣]. والقرآن دعا إلى إعمار الأرض بقوله ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾، وأمر ببذل غاية الجهد في الكسب والعمل للانتفاع بما في الأرض من الموارد الطبيعية وغيرها لاستخدامها في سائر وجوه الانتفاع.

فترك الاستفادة من الدنيا وشكر الله عليها، يضع الإنسان في موضع السؤال لم تركت تناول ذلك؟ يقول تعالى ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[٤] ويقول ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾[٥].

أما السنة النبوية فبينت بشكل لا لبس فيه معنى الزهد وذلك بدعوتها إلى العمل وإعمار هذا الكون، أخرج الطبراني عن كعب بن عجرة عنه أنه قال: مر علي النبي (ص) رجل فرأى أصحاب رسول الله، من جلده ونشاطه. فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله، فقال رسول الله: إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعضها فهو في سبيل الله[٦].

أما التبتل والرهبنة والابتعاد عن المباحات فقد بينه (ص) حينما "ذهب قوم إلى بيوت رسول الله يسالون عن عبادته، فلما خبروا بها كأنهم تناقلوها فقالوا: وأين لنا من رسول الله وقد غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فقال أحدهم أنا أصوم الدهر كله. وقال الآخر: وأنا أقوم الليل كله وقال الثالث: أنا لا أتزوج النساء فلما أخبر الرسول بذلك، قال: ما بال أقوام

---

(١) سورة النساء، آية ٧٧.

(٢) سورة غافر، آية ٣٩.

(٣) القرطبي، أحكام القرآن، ج٢٠، ص٢٣.

(٤) سورة الأعراف، آية ٣١.

(٥) سورة الأعراف، آية ٣٢.

(٦) رواه الطبراني وقال رجاله رجال الصحيح، المنذري، عبد العظيم بن عبد القوي، الترغيب والترهيب، مطبعة السعادة، مصر، ط١، ١٩٦١، ج٤، ص٥.

يقولون كذا، أما والله إن لأخوفكم الله واتقاكم ولكن أصوم وافطر، وأقوم وأرقد، وأتزوج النساء وهذه سنتي، ونم رغب عن سنتي فليس مني"[١].

رأي الإمام (ع) في مسألة الزهد:

إما الإمام علي (ع) فيعرف الزهد بقوله "الزهد كله بالتفريق بين كلمتين قال سبحانه ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾[٢] ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي، فقد أخذ الزهد بطرفيه[٣] فالإمام ينظر إلى الزهد على أنه تمتع بالطيبات ضمن القيود الشرعية، والزهد في نظره هو عدم التعلق بالدنيا فإذا كانت الدنيا بين يدي المؤمن، وليست في قلبه فهو زهد، وإن كان غنياً ومتمتعاً بنعم الله، وإذا دخلت الدنيا إلى قلبه، فليس بزاهد وإن كان فقيراً. ويعرف التعلق بالدنيا، بالفرح الشديد على إقبالها، وبالحزن الشديد على إدبارها"[٤].

موقفه من الزهد والرهبنة:

يفرق الإمام (ع) بين الزاهد والراهب، في الحادثة التي رواها العلاء بن زياد الحارث بالبصرة، إذ دهب إلى أحد أصحابه يعوده فلما رأى سعة داره قال: ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا، وأنت إليه في الآخرة أحوج؟ فرفع ذلك إلى الإمام علي (ع) فقال له: إن شئت بلغت الآخرة بها، فتقري بها الضيف وتصل فيها الرحم وتطلع منها الحقوق مطالعها، فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة فقال العلاء: يا أمير المؤمنين اشكوا إليك أخي عاصم أبن زيادة قال: وماله؟ قال: لبس العباءة وتخلى عن الدنيا، قال عليّ به فلما جاءه قال: يا عدي نفسه: لقد استهام بك الخبيث: أما رحمت أهلك وولدك، أتق الله الذي أحل لك الطيبات. قال يا أمير المؤمنين (ع): هذا أنت في خشونة ملبسك وفتونة مأكلك! قال ويحك إني لست كأنت، إن الله فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس، كيلا يتبيغ بالفقير فقره"[٥] أي يهيج به الألم فيهلكه.

أما موقف الإمام علي (ع) من الزهد والرهبة فيظهر من قراءته لقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾[٦] فقال

---

(١) رواه مسلم، كتاب النكاح، باب استجواب النكاح، حديث رقم ١٤٠١، أنظر: موسوعة الكتب الستة. صحيح مسلم، دار الدعوة، ط٢، ج٥، ص١٠٢٠.

(٢) سورة الحديد، آية: ٢٣.

(٣) ابن أبي الحديد، الألف المختارة في نهج البلاغة، ص٢٥٤.

(٤) حمد بن عبد الرحمن الجنيدل، مناهج الباحثين في الاقتصاد الإسلامي، شركة العبيكان للطباعة والنشر، جدة ١٤٠٦هـ، ج٢، ص٢٧٢.

(٥) صبحي الصالح، نهج البلاغة، ص٢٢٤.

(٦) الأعراف: ٣٢.

"أعملوا عباد الله، أن المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا، وآجل الآخرة، فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم، ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم، سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت، وأكلوها بأفضل ما أكلت فحظوا من الدنيا بما حظي به المترفون، وأخذوا منها ما أخذه الجبابرة المتكبرون"[١]. فالإمام فسر هذه الآية ببيان أن الدنيا بما فيها من خيرات وما فيها من موارد، هي للذين آمنوا ولغيرهم،

ولكنها في الآخرة خالصة لهم، لأنهم لم يتمتعوا بها إلا بطاعة الله، لئلا يتحقق فيهم قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ .....﴾.

ونلمس من الإمام (ع) أنه ينكر على الذين يبتعدون عن المجتمع ومسؤولياته، وعن العمارة والسعي على أرزاق من يعولون باللجوء إلى الصوامع والأديرة.

وإن الزاهد عند الإمام (ع) هو خير وسيلة لتعهد المسؤوليات على الوجه الأكمل، بخلاف الراهب الذي ينقطع عن الحياة الدنيا ومسؤولياته تجاه المجتمع، بحجة العبادة[٢]. فإنه – الزاهد – وإن أعرض عن التنعم والتجمل بلذائذ الحياة وكمالياتها المادية الإضافية! لكنه في نفس الوقت له علاقات اجتماعية وروابط حيوية، تنبع من المسؤولية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، لأن من واجبه تطبيق تعاليم الإسلام التي تشمل جميع جوانب الحياة.

الفرع الرابع: الاهتمام بالعلم

التعليم عند خبراء التنمية في العصر الحاضر، من العوامل المهمة التي تلعب دوراً حيوياً في إنجاز التقدم الاقتصادي، حيث إن جمهور العلماء في العصر الحديث، عدوا التعليم هو المسؤول الأساسي عن إنجاز التنمية[٣]، وإذا سلمنا أن التعليم يؤدي دوره الأساسي في عملية التنمية، فإنه ينبغي التركيز على نوعية التعليم المطلوب. ويرى خبراء التنمية أن ينبغي أن تعطي للأفراد جرعات من الثقافة والمعرفة، تكون في البداية مهمتها إظهار مواهب الفرد وقدرته، ثم يعقب ذلك التركيز عل التعليم الفني والتقني و (التكنولوجي)، حيث أثره المباشرة في التنمية[٤].

وأشار العديد من رجال الاقتصاد، بأن تقدم الفنون الإنتاجية يعتبر من أبرز العوامل المؤثرة في التنمية الاقتصادية، سواء بطريق مباشر أم بغير مباشر، فظن الاقتصاديون من المدرسة الكلاسيكية مثلاً، بأن تقدم الفنون الإنتاجية يؤثر بشكل مباشر في الأرباح، ومن ثم في معدلات الادخار والاستثمار، وظن بعضهم الآخر أن التقدم الفني المستمر، يعتبر المحرك الأصلي لعملية النمو الاقتصادي، حيث أنه بإدخال تقنيات جديدة في الإنتاج وبطرائق

---

(١) محمد عبده، نهج البلاغة، ج٣، ص٢٣.

(٢) انظر: هادي اليوسفي، في رحاب نهج البلاغة، بيروت، لبنان ١٩٧٨، ص١٦٩.

(٣) صلاح الدين نامق، محددات التنمية، ص١٨.

(٤) شوقي أحمد دنيا، الإسلام والتنمية الاقتصادية، ص٢٩.

جديدة في العمل، والتفكير يغير البنية الاقتصادية والاجتماعية، ويسهم في تحقيق التنمية الاقتصادية[١].

ومن تأمل في كلام الإمام علي (ع) وجده قد حفل بكثير من الدرر التي تحض على العلم وطلبه، ومن ذلك:

١- أنه خاطب كميلاً بن زياد بقوله: يا كميل: العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، وصنيع المال يزول بزواله، يا كميل: العلم دين يدان به، به يكسب الإنسان الطاعة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد وفاته، والعلم حاكم، والمال محكوم عليه"[٢].

٢- ويقول: "العلم أنيس في الوحشة، وسلاح على الأعداء"[٣].

٣- "إن العالم العامل بغير علمه، كالجاهل الذي يستفيق من جهله، وما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا، حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا[٤].

٤- "العلم ضالة المؤمن، فخذوه ولو من أيدي المشركين"[٥].

وإن كان اهتمام الإمام علي (ع) بالعلم لا ينصب على التنمية الاقتصادية بشكل مباشر، إلا أن في نصائحه وخطبه ما يدعو إلى الاهتمام بالعلم قبل الاهتمام بجمع المال، لأن الأمة المسلمة، متى نهجت نهج التفكير العلمي الصحيح، فإنا ستبتكر وتكشف عن طرق ووسائل متقدمة في الإنتاج، عندئذ تتحقق البيئة المتكاملة للتنمية الاقتصادية، فبالنظر والتفكير العلمي والبحث، ويكتشف الكثير من الحقائق التي تمكن من استغلال الموارد والقوى الطبيعية والانتفاع بها نحو تحسين وسائل العمل والإنتاج اللازم لإشباع حاجات الإنسان من السلع والخدمات[٦]. ومن ثم تزداد الثروة، وبهذا يكون الاهتمام بالعلم وسيلة لزيادة المال ونموه.

كما أن دعوة الإمام (ع) إلى أخذ العلم من أيدي المشركين يتوافق مع مفهوم علم الاقتصاد الحديث، فلا مانع من الاستعانة بما توصل إليه علماء الاقتصاد الوضعي، لتحقيق إنتاج أفضل، لأن الشرع ترك إنتاج أمر المال إلى الناس، ينتجونه حسب خبرتهم في الصناعة، ومعرفتهم بأمور الإبداع العقلي للبشرية، وبما يتوصل إليه الناس من تقدم تقني (تكنولوجي) وعلمي من مخترعات واكتشافات في كل زمان ومكان[٧] ويؤكد هذا أن الرسول (ص) أرسل أثنين من المسلمين إلى جرش اليمن يتعلمان صناعة الأسلحة[٨].

---

(١) انظر: تيسير الداودي، التنمية الاقتصادية، مديرية الكتب والمطبوعات، حلب ١٩٨٥، ص١٦٤

(٢) صبحي الصالح، نهج البلاغة، ص٤٩٦.

(٣) الهادي كاشف الغطاء، مسندات نهج البلاغة، مكتبة الأندلس، بيروت، ١٥٩.

(٤) محمد عبده، نهج البلاغة، ج٤، ص١٣.

(٥) أويس كريم محمد، المعجم الموضوعي لنهج البلاغة، ص٢٣.

(٦) انظر: حمزة الحميصي، عوامل الإنتاج في الاقتصاد الإسلامي، ط١، ١٩٨٥، ص٩٥.

(٧) انظر: اقتصادنا، محمد الباقر الصدر، ص٣٥٨.

(٨) ابن هشام، أبو محمد عبد الملك، سيرة النبي (ص)، دار الصحابة للتراث، طنطا، ط١، ١٩٩٥، ج٤، ص١٣١.

المطلب الثاني: الأسلوب المباشر لتحقيق التنمية

عرض الباحث في المطلب الأول للأسلوب غير المباشر لتحقيق التنمية، وكشف عن أبرز جوانبه من حيث: الأمن والنظام والاهتمام بالعلم وغير ذلك، بما يبرهن عن ضرورة توافر هذه العناصر لتكون تقدمة وتهيئة للأسلوب المباشرة للتنمية.

ومن خلال استقراء كلام الإمام علي (ع) في السياسة الاقتصادية، يتبين لنا أن الإمام (ع) استخدم عدة وسائل لتحقيق التنمية الاقتصادية، ومن أشهرها السياسة الزراعية والتجارية والصناعية والسعرية، وسياسة تقسم العمل ونظام الحوافز، وإليكم بعضاً من هذه السياسات التي حفل الإمام (ع) بها لتحقيق العمارة.

الفرع الأول: السياسة الزراعية

تعد الزراعة من أشهر حقول الإنتاج لكل عصر ومصر، لارتباطها بالأرض وما تنبته من غذاء وبنات يحتاجه الإنسان والحيوان، ولأهمية الزراعة تطورت أساليبها حتى غدت لها سياسة وبرامج إنتاجية جديرة بالبحث. وقد عرف النجفي السياسة الزراعية بأنها عبارة عن العملية التي تقوم بها الدولة، وتتضمن مجمعة مختارة من الوسائل الأساليب الإصلاحية الزراعية، التي يمكن بموجبها الوصول إلى أقصى رفاهية، للعاملين في القطاع الزراعي[١].

وتشمل السياسة الزراعية مجموعة من السياسات الفرعية منها:

أولاً: السياسة الإنتاجية الزراعية: تقوم السياسة الزراعية الإنتاجية على الإنتاج الزراعي وتسلك طريقين أثنين هما:

أ) طريق التعميق: بأن تجري المحاولات لزيادة إنتاج الأرض، ويبرز اهتمام الإمام علي (ع) بزيادة إنتاج الأرض، إذ كان يدعو صاحب الأرض ليستثمرها بنفسه، أو بغيره إجارة أو مزارعة فإن لم يفعل شيئاً من هذا وعطلها حتى خربت، فإن علياً (ع) كان يبيح لأي فرد في دولة الإسلام أن يحييها، قال رجل لعلي (ع) أتيت أرضاً قد خربت فعجز عنها أهلها فكريت أنهارها وزرعتها قال علي (ع): "كل هنيئاً وأنت مصلح غير مفسد، معمر غير مخرب"[٢].

وفي العصر الحاضر يمكن أن تسهم الدولة في تحقيق زيادة الإنتاج الزراعي، باستعمال المواد الكيماوية التي لا تؤثر على الصحة والبيئة، وانتشار الأساليب الحديثة بين المزارعين، العناية بتوفير البذار وتحسينه، وتعطي الدولة المال اللازم للعاجزين هبة، وليس قروضاً من أجل شراء ما يلزمهم من الآلات والبذار والمواد الكيماوية لزيادة الإنتاج[٣].

---

(١) انظر سالم توفيق النجفي وجميل القدو، التخطيط والسياسة الزراعية، جامعة الموصل، ص١٨.

(٢) القرشين يحيى بن آدم، الخراج، ص٦٣.

(٣) انظر: عبد الرحمن المالكي، السياسة الاقتصادية المثلى، ص١٨.

ب) **طريق التوسيع**: ويحصل بتشجيع أحياء الأرض الموات وتحجيرها، وبإقطاع الدولة أراضي للقادرين على الزراعة ممن لا يملكون أرضاً، أو يملكون مساحات قليلة، وذلك مما يقع تحت يدها من الأراضي، وكان الإمام علي (ع) يشجع أحياء الأرض، يقول "من أحيا أرضاً مواتاً فهي له"[١].

ومن حرص الإمام علي (ع) التوسع في استصلاح الأراضي الزراعية فإنه كان يحيز المزارعة محتجاً بأن الرسول (ص) عامل أهل خيبر بالشطر، يقول صاحب المغني "كان الإمام علي يتعامل بها – أي المزارعة – فقد جاء رجل إلى علي فوشى برجل وقال أنه أخذا أرضاً يصنع بها كذا وكذا، فقال الرجل: أخذتها بالنصف أكري في أنهارها وأصلحها وأعمرها فقال علي لا بأس"[٢].

هذه خلاصة القول في الطريقتين لتحقيق السياسة الإنتاجية الزراعية حري بالدول أن تفيد منها لزيادة إنتاجها الزراعي.

ثانياً: السياسة الضريبية للأنشطة الزراعية: وتكون بالعمل على خفض التكاليف الزراعية ومستلزماتها، بإعفائها من الضرائب أو بتخفيضها [٣].

ويتضمن نهج الإمام علي (ع) في سياسة الخراج أمرين أساسين هما:

أ)**جعل الخراج وسيلة مهمة للإصلاح الزراعي**: يقول الإمام علي (ع) للأشتر والي مصر: وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله" [٤] أي بما يصلح القطاع الزراعي، ويزيد من إنتاجيته إذ هو عند الإمام (ع) القاعدة الأساسية لإنتاج المجتمع، وجميع القطاعات الأخرى تقوم عليه، وإذا تفقدت الدولة القطاع الزراعي بغير الطريق الذي ألمع إليه الإمام علي (ع) وذلك باعتصاره وامتصاص الفائض منه دون العناية بشئونه، فقد عملت على خراب القطاع الزراعي [٥].

ومن هنا ينبغي تطبيق هذه القاعدة على الضرائب التي تجبيها الدولة من المزارعين لإصلاح شأنهم.

ب) **تخفيف الأعباء الضريبية عن المزارعين**: "يقول الإمام (ع) يثقلن عليك شيء خففت به المؤونة عليهم، فإنه ذخر، (أي ادخار يعودون به عليه، يستثمرونه في أرضهم) فيعود عليك في عمارة بلدك"[٦] في هذه الفقرة يقرر الإمام (ع) أن تخفيض الأعباء على القطاع الزراعي،

---

(١) ابن حزم، المحي، ج٨، ص٢٣٨.

(٢) انظر: المرجع السابق، ج٨، ص٢٣٨.

- عبد الرزاق، المصنف، ج٨، ص٩٩

(٣) انظر: محمد عبد المنعم عفر، السياسات الاقتصادية، ص٢٩٢.

- سالم توفيق النجفي، التخطيط والسياسة الزراعية، ص١٩

(٤) صبحي الصالح، نهج البلاغة، ص٤٣٤.

(٥) محمد بسيوني، الحرية الاقتصادية، ص٤٤٨.

(٦) صبحي الصالح، نهج البلاغة، ٤٣٤.

إنما هو استثمار في هذا القطاع يعقب الادخار الذي يقومون به، عندما تزداد دخولهم، بسبب تخفيض الأعباء عنهم، ويقومون باستخدامه في تحسين أراضيهم، وتمويل الاستثمارات اللازمة له، وينعكس ذلك في تحقيق التنمية الاقتصادية، بتوسيع الموارد التي يملكها المجتمع[١].

ويمضي الإمام (ع) مبيناً العناية بالقطاع الزراعي، وتخفيف الأعباء عن الناس، بأن الدولة تستطيع أن تعتمد عليهم في الظروف الطارئة، فتجدهم قطاعاً قوياً، يمكن أن يمد المجتمع بحاجاته، بعكس ما لو كانت الدولة قد اعتصرت قواهم من قبل، فإنها لن تستطيع أن تعتمد عليهم في أي ظرف طارئ[٢]، يقول الإمام (ع) "فربما حدث من الأمور ما عولت به عليه من بعد، احتملوه طيبة أنفسهم به فإن العمران محتمل ما حملته، إنما يؤتى خراب الأرض من أعواز أهلها لأشراف الولاة على الجمع"[٣].

يتبين من كلام الإمام (ع) أن خراب القطاع الزراعي إنما يكون من أعواز أهله، فإن كانوا معوزين فقراء، فلن يكون بأيديهم ما يقيمون به من الاستثمارات المطلوبة لرفع إنتاجية القطاع. ثم بين الإمام (ع) السبب الرئيسي لأعواز المزارعين فيقول: "أن تطلع الدولة واستشرافها لجمع المال وتحميل القطاع الزراعي بما يستنزف كل إمكانياته، فلا يبقى بأيدي أهله ما يمكنهم من بناء استثمارات جديدة، فتتدهور قدراته الإنتاجية، ويحدث به الخراب، أي التخلف الاقتصادي"[٤] فلا يجوز أن يكون هم الدولة جمع الضرائب، بل يجب أن يكون همها تهيئة الظروف للناس، حتى يتمكنوا من عمارة أراضيهم لتحقق إنتاجاً وفيراً، ثم بعدها تفرض الضرائب، وإذا كان صاحب الأرض لي عنده فضل من حاجة يستطيع أن يستعملها لغايات الاستثمار والاستصلاح نتيجة ارتفاع الضريبة أو ظلم الحياة، فإن هذا بالتأكيد سيؤدي إلى قلة الإنتاج، وارتفاع الأسعار والاعتماد على الاستيراد، وبالتالي استنزاف مبالغ كبيرة خارج الدولة.

وفي الاقتصاد المعاصر، نصت بعض النظريات الاقتصادية، على حماية القطاع الزراعي للقيام بدوره في التنمية الاقتصادية، بإقامة نظام لحماية الزراعة المحلية، بفرض قيود على استيراد المنتجات الزراعية من دول أخرى، لتشجيع الزراعة المحلية، كما يتضمن تسهيل استيراد المعدات ووسائل الزراعة الحديثة، بهدف تطوير الزراعة بإعفائها من الضريبة كما وجدت وسائل تشجع على الصادرات، بدعم التصدير وتنظيمه مع الدول المستوردة، من خلال وزارة الزراعة ومؤسسات التسويق الزراعية في الدولة، التي تعمل على تنظيم القيود الجمركية مع الدول الأخرى.

---

(١) يوسف إبراهيم، التنمية الاقتصادية، ص١٦٧.

(٢) محمد بسيوني، الحرية الاقتصادية، ص٤٤٨.

(٣) صبحي الصالح، نهج البلاغة، ص٤٣٦.

(٤) يوسف إبراهيم، التنمية الاقتصادية، ص١٦٧.

ومما جاءت بن النظريات الزراعية الحديثة، في تخفيف الأعباء عن المزارعين، أن تقوم الدولة من خلال مؤسساتها الإرشادية الزراعية، بتقديم برامج للتسليف الموجه، بتزويد الفلاحين بمدخلات الإنتاج الحديثة، بأسعار تكون في الغالب أقل من سعر التكلفة على الدولة، أي بأسعار مدعومة، بهدف تشجيع الفلاحين على زراعة محصول واحد أو عدة محاصيل، عن طريق استخدام مدخلات الإنتاج الحديثة [١].

وقد عزا بعض الاقتصاديين المحدثيين إخفاق القطاع الزراعي في تحقيق أهدافه التنموية مع قدرته على ذلك إلى سوء استخدام السياسة الضريبية في الزراعة[٢]، وإن نجاح السياسة الضريبية الزراعية يعد المؤشر الرئيس لنجاح خطة التنمية الاقتصادية، ومن هؤلاء الاقتصاديين د. حامد عبد المجيد الذي تناول هذا الموضوع في كتابه (إصلاح الضريبة الزراعية أساس التنمية الاقتصادية، في مصر) فقد أجرى دراسة على ضريبة الأطيان الزراعية في مصر، وتوصل إلى أن السياسة الضريبية بتخفيفها العبء الضريبي ن القطاع الزراعي يوفر للقطاع الزراعي حوافز إنتاجية، وأنه لابد من استخدام العبء الضريبي لإحداث اثر إيجابي على الإنتاج الزراعي[٣].

الفرع الثاني: السياسة التجارية

تعرّف **السياسة التجارية**: "إنها مجموعة الإجراءات التي تباشرها الدولة على المستوى الداخلي، أو في علاقات الدولة الاقتصادية، مع الدول الأخرى شاملة لكل من التبادل السلعي والخدمي، وأسعار الصرف، والاستثمار، بقصد تحقيق أهداف معينة تفق مع باقي أهداف السياسات الاقتصادية، والسياسة العامة للمجتمع [٤].

وتشتمل السياسة التجارية على تنظيم التجارة الداخلية للدولة، التي تتضمن عمليات البيع والشراء، والصرف – مبادلة المال بالمال – في الولايات التي تخضع لسلطان الدولة، كما تنظم التجارة الخارجية، وهي المبادلات التي تجري في البلاد غير الخاضعة لسلطان الدولة، وقد عبر الإمام علي (ع) عن التجارة الداخلية والخارجية بقوله "منهم – التجار – المقيم المستقر بماله وتجارته، ومنهم المتجول المضطرب بماله بين البلدان يرصد حاجة كل بلد، فيتجر فيه بالسلعة التي يفتقر إليها [٥].

وكان للإمام علي سياستان تجاريتان، داخلية وخارجية، أعرض فيما يلي أبرز مسائلها:

---

(١) سالم النجفي، إسماعيل عبيد حمادي، الاقتصاد الزراعي، وزارة التعليم العالي، الموصل، ١٩٩٠، ص١٦٠.
(٢) أساس التنمية الاقتصادية في مصر، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٧٦، ص٢١١.
(٣) حامد عبد المجيد، إصلاح الضريبة الزراعية أساس التنمية في مصر، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٧٦، ص٢١١.
(٤) عبد المنعم عفر، السياسات الاقتصادية، ص٢٩٦.
(٥) صبحي الصالح، نهج البلاغة، ص٤٣٨.

أولاً: السياسة التجارية الداخلية عند الإمام علي (ع):

ترتكز السياسة التجارية الداخلية عند الإمام علي عدة أمور، وأهمها:

أ) الاهتمام بالتجار: تشكل طبقة التجار وحدة اجتماعية عظيمة القيمة، بعيدة الأثر في الكيان الاجتماعي، ولو أن اضطراباً ألمّ بنشاط هذه الطبقة لأضطرب المجتمع كله، فتحدث المجاعات في بعض الأطراف، بينما تتكدس المواد الغذائية في أطراف أخرى، وتوجد في بعض المناطق سلع كثيرة للاستهلاك، ويوجد في مناطق أخرى نقص في سلع الاستهلاك، يقول الإمام (ع): ثم استوصي بالتجار وذوي الصناعات وأوصي بهم خيراً، المقيم منهم، والمضطرب بماله، والمترق ببدنه، فإنهم مواد المنافع، وأسباب المرافق وجلابها من المباعد والمطارح"[١] وإن الخير الذي أراده الإمام (ع) للتجار، يشمل تسهيل مهمتهم، ليؤدوا خدماتهم للمجتمع على الوجه الأكمل، فلا يجوز أن تكون المكوس والضرائب باهظة تستضفي الربح كله، أو تبقى منه شيئاً لا يسد الحاجة، ولا يحمل صاحبه على المخاطرة لأن ذلك يلجئه إلى أن يجمد ماله لا ينميه بالتجارة، ويلحق بالمجتمع من ذلك ضرر كبير فينشأ عنه توقف حركة العرض والطلب، التي ينجم عنها هبوط المستوى الاقتصادي.

ويجب أن تكون الطرق التجارية التي يسلكها التجار صالحة في جميع أنحاء البلاد، لتيسر لهم التنقل بين أطرف البلاد، ليتمكنوا من تلبية الرغبات في جميع الأنحاء، بنقل فائض الإنتاج من منطقة إلى منطقة أخرى تعاني نقصاً فيه، وأنه لابد من استتباب الأمن، لئلا يمسكهم الخوف عن التنقل بين الولايات[٢].

وسياسة الإمام علي (ع) بالتجار تظهر برعاية شؤونهم، وتفقد أحوالهم، وفسح المجال ليتسنى لهم أن يسهموا في رفع مستوى الإنتاج، وإنماء الحياة الاقتصادية، والمتأمل في قوله: "فإنهم سلم لا تخاف بائقته[٣]، وصلح لا تخشى غائلته"[٤] فإنه يؤكد فيه وجوب العناية والرعاية بهم، لأنهم لا يخشى منهم شر، فطبيعة عملهم والوجدان الذي يدفعهم إلى هذا العمل فيها خير المجتمع ورفاهه. وتبدو هذه العناية والرعاية بهم جلية أنه كان لا يأخذ على بيوت السوق كراء[٥] حيث جعل مهمة بناء الأسواق من قبل الدولة وتوفيرها للتجار دون مقابل تشجيعاً لازدهار التجارة الداخلية وتنميتها.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) محمد شمس الدين، دراسات في نهج البلاغة، دار الزهراء، بيروت، لبنان، ص٩١.

(٣) بواتق: شره وظلمه (انظر: أبن منظور، لسان العرب، ج١٠، ص٣٠).

(٤) غائلته: أمراً منكراً داهياً – المرجع السابق، ج١١، ص٥٠٧.

(٥) العاملي. جعفر مرتضى، السوق في ظل الدولة الإسلامية، الدار الإسلامية، لبنان، ط١، ص٣٧، نقلاً عن المطوسي. التهذيب، طبعة النجف الأشرف، ج٦، ص٣٨٣.

وأما قوله (ع) "وتفقد أمورهم بحضرتك وهي حواشي بلادك"[١] بعد أن أمره وأمر عماله برعايتهم، فأنه يشبه أن يكون أمراً بإنشاء دائرة خاصة، تعنى بشؤون التجار في الوقت الحاضر.

وإذا كان الإمام علي (ع) قد اعترف بأن طبقة التجار يعود نشاطها على المجتمع بالخير، فإنه يعترف أيضاً إنها تصيب في بعض الأحيان إلى نشاط عدواني يضر بالمجتمع، عندما تستحكم العقلية التجارية في التاجر، إلى حد أنها تدفع بهما إلى التماس الثروة من أقرب الطرق، وذلك بالاحتكار والتوصل به إلى السيطرة على الأسواق، والتحكم بالأسعار، والتطفيف في الموازين، وبالغش وبيع الأصناف الرديئة، وبكل طريق يضمن ربحاً وفيراً مقابل رأسمال قليل.

وقد انتهج الإمام علي (ع) في منع التجار من ارتكاب المخالفات الشرعية في عمليات البيع والشراء أربعة أساليب:

أولاهما: وجوب تعلم أحكام التجارة، فقد كان (ع) ويجب على من يريد الاتجار تعلم أحكام التجارة، قبل أن يخوض غمارها، فقد أتاه رجل فقال: "يا أمير المؤمنين إني أريد التجارة فأدع الله لي فقال: أفقهت في دين الله؟ قال أو يكون بعض ذلك؟ قال علي "ويحك" الفقه ثم التجر إن من باع واشترى ولم يسأل في دين الله، ارتطم بالربا ثم ارتطم"[٢].

ثانيهما: مراقبة التجار لئلا ينحرفوا انحرافاً يضر بالشعب، باحتكارهم لأقوات الناس يقول الإمام (ع) مخاطباً واليه "وأعلم أ، فيهم صنيعاً فاحشاً، وشحاً قبيحاً، واحتكاراً للنافع"[٣].

ثالثهما: معاقبة التجار الذين ينحرفون عن أحكام الشريعة في التجارة، وذلك بأن يعطي للوالي سلطة باتخاذ إجراء عملي لمنعهم فيقول: "فأمنع الاحتكار فإن رسول الله منع منه"[٤].

رابعهما: كما أنه تولى بنفسه مراقبة الأسعار، لما روى أن الإمام (ع) كان بشطر الكلأ يسأل عن الأسعار[٥] وروى عنه أنه قال "لا يباع في سوقنا سمك طافٍ[٦].. والسمك الطافي هو الذي مات في الماء دون معرفة سبب موته، وقد يكن لمرض أو ما شابه ذلك، وذلك من الغش إذا جمع مع السمك الذي استخرج حياً ثم مات. وقد حرّم الإسلام الغش قال رسول الله (ص) "من غشنا فليس منا"[٧].

---

(١) صبحي الصالح، نهج البلاغة، ص٤٣٨.

(٢) الصنعاني، الروض التفسير، ج٣، ص٢٠٩.

(٣) صبحي الصالح، نهج البلاغة، ص٤٣٨.

(٤) نفس المرجع، ص٤٣٨.

(٥) العالمي، جعفر مرتضى، السوق ظل الدولة الإسلامية ص٣٧، الدار الإسلامية، لبنان، ط١، عن كتاب إحقاق الحق للمرعشي، النجفي، ط، إيران، قم، ص٢٨٠.

(٦) انظر: الهندي، كنز العمال، ج١٥، ص١٩٧.

(٧) رواه مسلم في الصحيح، كتاب الإيمان، باب قول النبي من غشنا ليس منا، حديث رقم ١٧٤، ج٢، ص٢٩١.

ج) تنوع صور التجارة داخل الدولة عند الإمام (ع): نص الإمام (ع) على عدة صور، يتم بموجبها زيادة النشاط التجاري منها:

المرابحة: تتلخص صورة هذا البيع بقول الشافعي في الأم: "إذا رأى الرجل الرجل السلعة فقال: اشتر هذه وأربحك فيها كذا فاشتراها، فالشراء جائز، والذي قال أربحك فيها بالخيار، إن شاء أحدث فيها بيعاً وإن شاء تركه"[١].

ويعد هذا النوع من البيع مشروعاً – من وجهة نظر الإمام (ع) – فقد روى عن أحد أصحاب الإمام علي (ع) قال: "رأيت على عليّ إزاراً غليظاً فقال: اشتريته بخمسة دراهم، فمن أربحني فيه درهماً بعته إياه"[٢].

وفي العصر الحاضر أصبحت البنوك الإسلامية، تعمل بهذا النوع من النوع من البيع كأداة من أدوات التنمية الاقتصادية، وفق صورة وصيغة محددة[٣] ويعد بيع المرابحة الذي تجريه البنوك الإسلامية ذا أثر فعال على الحياة الاقتصادية، فالمال قوة فعالة يجب أن تعمل عملها في الحياة، وإلا أصيبت بالتجمد والجمود وانعكس جمودها ليس على صاحبها فحسب، ولكن على سائر أفراد المجتمع، وعلى مجالات تمويل الاستثمارات بمختلف أشكالها ولا شك أنه ليس بمقدور جميع الأفراد ممن يملكون أموالاً القدرة على استثمارها، فوجود البنك وعمله بهذه الصيغة من البيع يؤدي إلى تنشيط حركة التجارة، وتحقيق أرباح للبنك مما يؤدي إلى فتح مشاريع استثمارية قوية هذا بالنسبة لأثر بيع المرابحة على البنك.

أما بالنسبة لأثره على الأفراد الراغبين في تمويل مشترياتهم عن طريق أسلوب المرابحة، فإنهم يستفيدون من هذا التمويل قبل توافر الثمن المطلوب لديهم، وهذه الميزة لها انعكاسات كبيرة على الأفراد بحيث تمثل هذه الصيغة الفجوة التي يمكن للأفراد أن ينتفعوا من خلالها، وأن يوظفوا جهودهم، وإمكاناتهم في استغلال المعدات أو السلع استغلالاً مثالياً حتى يستطيعوا الاستفادة منها وزيادة الدخول أو العوائد وترشيد الإنفاق ليتمكنوا من دفع الأقساط المتبقية عليهم من رأس المال[٤].

بيع السلم: في اصطلاح الفقهاء "بيع شيء موصوف بالذمة، أو بيع أجل بعاجل وهو رأس المال وقيل شراء أجل بعاجل"[٥].

---

(١) الشافعي، أبو عبد الله محمد بن أدريس، الأم، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٧٣.

(٢) البيهقي، السنن، ج٥، ص٢٣٠.

(٣) انظر: صيغة هذا البيع: موسى شحادة، تجربة البنك الإسلامي الأردي، المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب. البنك الإسلامي للتنمية، جدة، ١٩٨٧، ص١٩.

(٤) الطيب النداوي، تمويل التنمية الاقتصادية من منظور إسلامي، ١٩٩٠، ص١٦٥.

(٥) انظر: ابن عابدين، محمد أمين، حاشية المختار، مصطفى البابي الحلبي بمصر، ١٩٩٦، ط٢، ج٥، ص٢٠٩.

وقد روى عن الإمام علي (ع) أنه يجيز السلم في الطعام والحيوان بقوله (ع): "من أسلف في الطعام إلى أجل ولم يجد عند صاحبه ذلك الطعام فقال: خذ مني غيره بسعر يومه لم يكن له أن يأخذ إلا الطعام الذي أسلف فيه أو رأسماله وليس له أن يأخذ نوعاً من الطعام غير ذلك النوع"[١].

ولبيع السلم دور مهم في مجال التنمية الاقتصادية ونراه مكملاً لصيغ المرابحة، وتتجلى أهميته في كون هذه الصيغة التمويلية تهتم بالطبقة الفقيرة ذات الدخل المحدود من طبقات المجتمع، وهذه الطبقة منتشرة بكثرة في المجتمع، لذلك فإن تمكين هؤلاء الأفراد تمويل مشاريعهم المختلفة بتوفير رأس المال لهم، يؤدي إلى تنشيط هذه الفئة وإعطائها المقدرة على التفال داخل النشاط الاقتصادي، ومنها زيادة الإنتاج من ناحية وزيادة الدخول من الناحية الأخرى[٢].

كما أن بيع السلم يسهم في تكوين وحدات إنتاجية جديدة، وذلك عن طريق تحويل بعض العاملين لدى الغير إلى أصحاب أعمال، يعملون لحساب أنفسهم، فهناك كثير من الحرفيين الذي يقبلون العمل لدى الغير لعدم توافر التمويل اللازم للحصول على معدات ومستلزمات الإنتاج، ولصعوبة الحصول على ذلك بواسطة القروض، التي تطلب ضمانات عينية وممتلكات خاصة، لا تتوافر لدى الكثير منهم، ومن هنا يمكن التعاقد معهم سلماً لتوفير المعدات والمستلزمات مقابل الحصول على جزء من منتجاتهم، وبذلك يتحولون إلى وحدات إنتاجية مستقلة، تضاف إلى قدرة الاقتصاد القومي، ذلك أن الإنسان يعمل لحساب نفسه عادة بطاقة أكبر من العمل لدى الغير[٣].

وقد جاء نص الإمام علي (ع) بيع السلم بالطعام والحيوان لكونهم القطاعين الاقتصاديين المنتشرين في ذلك العهد، أما في العصر الحاضر، أصبحت الصناعة هي القطاع الاقتصادي الذي تقاس به قوة الدولة الاقتصادية، لذلك يرى الباحث أنه لا بأس بتطبيق عقد السلم في الصنعة، مستنداً في ذلك إلى رأي المالكية الذي أوردوا السلم في الصناعة في باب سلم المصنوع في أصله، وسلم الأصل في المصنوع منه، أو سلم الشيء فيما يخرج منه، بناءً على رأيهم أن علة الربا في غير الطعام والنقدين في الجنس الواحد هي اتفاق أو تقارب المنافع، أما إذا اختلفت منافع الجنس الواحد، إما خلقه أو بالصنعة، فيجوز سلم بعضه في بعض[٤]. مثال ذلك إذا كان رأس مال السلم خامة واحدة تدخل في صناعة المنتج فيه، وتمثل كل المنتج،

---

(١) الصنعائي، الروض التفسير، ج٣، ص٣٣٢.

(٢) انظر: الطبيب الداوودي، تمويل التنمية الاقتصادية من منظور إسلامي، ص١٧٠.

(٣) انظر: محمد عبد الحليم عمر، الإطار الشرعي والاقتصادي وإعلامي لبيع السلم، جامعة أم القرى، ص٧٧٢.

(٤) انظر: تفصيلات ذلك: الحطاب، أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن المالكي(٩٥٢هـ)، مواهب الجليل، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٧٨، ج٤، ص٥٤٠.

كتسليم قطن في غزل قطن، أو غزل قطن في نسيج قطن، وهو ما ينسجم مع تفعيل القطاع الصناعي في عصرنا الحاضر لتنمية الاقتصاد وموارده.

ثانياً: السياسة التجارية الخارجية عند الإمام علي (ع)

بعد تناول سياسة الإمام (ع) التجارية على الصعيد الداخلي وضبطها، أعرض تالياً للتجارة الخارجية وحرصه على تشجيعها يقول (ع): "... فإنهم - أي التجار - مواد المنافع، وجلابها من المباعد والمطارح"[١] أي من الدول الخارجية والمناطق البعيدة عن الدولة.

وسأتناول فيما يلي بعض المفاهيم التي لها صلة بالتجارة الخارجية:

أ) فكرة التجارة الخارجية: تقوم التجارة على مبدأ التخصص، وتقسيم العمل الدولي القائم في أي اقتصاد سواء أكان مجتمعاً بدائياً أم متقدماً لأنه لا يمكن أن تعيش أية دولة بمفردها أو بمعزل عن غيرها، كما هو الحال بالنسبة للأفراد، من حيث أنها لا تستطيع إنتاج كل شيء يستلزمه أفرادها للاستهلاك، لذلك فهي تتخصص في إنتاج سلعة أو مجموعة من السلع، على أن تقوم بتصدير فائض إنتاجها، ومبادلته مع فائض الدول الأخرى من السلع المختلفة، التي لا يمكنها أن تنتجها بنفسها، أو يمكنها إنتاجها ولكن بتكاليف أعلى من حصولها من الغير[٢]. وهذا هو أساس قيام التجارة الخارجية في الأنظمة الوضعية.

وقد عزا عدد من الاقتصاديين التقليديين والمحدثين، التنمية في الدول المتقدمة إلى قيام التجارة الخارجية، حيث تسهم إسهاماً ملحوظاً في تنمية الدولة، إذ لم تعد التجارة مجرد وسيلة لتحقيق الكفاية الإنتاجية فحسب، وإنما هي آلة للنمو[٣]، ذلك لأن المحرك للاستثمار يقوي إذا ما تحقق غلة متزايدة في الأسواق الأكثر اتساعاً التي توفرها التجارة الخارجية، وإن فرص الاستثمار المنتج لرأس المال تكون أكبر مما قد تكون عليه، إذا كان السوق مقصوراً على الحجم الصغير للسوق المحلية[٤].

ب) مفهوم السياسة التجارية الخارجية: كنا قد بينا في تعريف السياسة التجارية إنها تشمل إجراءات تتخذها الدولة في الداخل، كما أن هناك إجراءات تتخذها الدولة مع دول العالم الأخرى ضمن سياستها التجارية: وقد رأى علماء الاقتصاد الوضعي أن من بين هذه الإجراءات، التعريفة الجمركية بين مجموعة من الدول اشتركت في اتفاقية تجارية، فإنه يمكن الإسراع بعجلة التنمية في الدول الأعضاء من خلال زيادة المكاسب من التجارة، وإن النهوض بالكفاية الفنية في الصناعات القائمة هو سبب زيادة المنافسة بين الدول الأعضاء، وإن إزالة التعرفة الجمركية بين الدول، يشجع على إقامة صناعة جديدة، وهو ما تتوصل إليه

---

(١) صبحي صالح، نهج البلاغة، ص٤٣٨.

(٢) انظر: مصطفى محمد عزل العربي، النظرية البحتة في التجارة الخارجية، الدار المصرية اللبنانية، ص١٨.

(٣) انظر: صلاح نامق، التجارة الدولية والتنمية، دار النهضة، مصر، القاهرة، ص١٥٠، ١٥٧.

(٤) نفس المرجع، ص١٥٧.

في اتفاقية (الجات)، وهي اتفاقية متعددة الأطراف، الهدف منها وضع قواعد لتنظيم السياسة التجارية بين الدول المتعاقدة، وحل الخلافات الناشئة بين الدول الأعضاء في المسائل التجارية، بالإضافة إلى كونها المؤسسة المعنية بالمفاوضات وتخفيض التعرفة الجمركية بين الدول المساهمة فيها[١].

ومن أبرز المبادئ التي تقوم عليها هذه الاتفاقية، أنه لا يحق لأي دولة عضو في الاتفاقية أن تميز ممن حيث فرض الضرائب والإجراءات الأخرى بين السلع المستوردة وتلك المنتجة محلياً، كما لا يحق لها أن تفرض قوانين على المستوردات تختلف عن تلك المطبقة في السلع المحلية المشابهة، كما تنص على أن الدول الأعضاء يجب أن تمنح بعضها البعض تخفيضات في التعريفات الجمركية، لا تقل عن تلك الممنوحة لأي دولة أخرى[٢].

موقف الإمام علي (ع) من الضرائب في التجارة الخارجية:

كان موقف الإمام علي (ع) من التجارة الذميين الذين يدخلون الدولة الإسلامية، كموقف عمر بن الخطاب فقد "آثر على الإبقاء على النظام الذي وضعه عمر في العشور[٣]، كما أن الإمام علياً (ع) كان يوفر الأمن للتجار الذي يجلبون الأرزاق إلى الدولة، وفي هذا تشجيع نشاط الحركة التجارية في الدولة، وروى أنه رد بعض العشور التي كانت تؤخذ زمن عثمان بن عفان من التجار الذميين[٤]، والراجح أن هؤلاء التجار كانوا يجلبون إلى المدينة الأقوات من السلع التي لم تتوافر في أسواق المدينة، ويؤيد هذا أنه حث الولاة على مراعاة التجار الذي يجلبون الأقوات من المناطق البعيدة "فإنهم أي التجار جلاب المنافع من المباعد والمطارح".

وموقف عمر في العشور الذي بتناه الإمام علي (ع) رواه أبو يوسف في كتابة الخراج "أن أهل منهج قوم من أهل الحرب، وراء البحر كتبوا إلى عمر بن الخطاب دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشرنا قال: فشاور عمر أصحاب رسول الله (ص) في ذلك فأشاروا عليه به، فكانوا أول من عشر من أهل الحرب، وكتب أبو موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب أن تجاراً من قبلنا يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر، قال فكتب إلي عمر "خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين"[٥].

ويرى الباحث أن موقف عمر بن الخطاب في معاملة أهل الحرب بالمثل، والذي أخذ به الإمام علي (ع) عندما آلت الخلافة إليه، وتوفير الأمان للتجار الذي يجلبون الأرزاق في عهد

---

(١) انظر: تأثير اتفاقية الجات على القطاع المصرفي، النشرة التحليلية، دورية تصدر عن البنك العربي، ع٢، السنة الثالثة، حزيران، ١٩٩٦، ص٣.

(٢) نفس المرجع.

(٣) ابن قدامة، المغني والشرح الكبير، بيروت، ج١٠، ص٥٩٨.

(٤) ابن أبي شيبة، المصنف، ج١١، ص١١٤.

(٥) أبو يوسف، الخراج، ص١٣٥.

يمكن أن يستأنس به في بيان حكم التحالفات التجارية بين الدول كاتفاقية الجات، التي بينان أن من مبادئها توحيد التعرفة الجمركية بين الدول الأعضاء بمعنى أن تعامل الدول الأعضاء، بعضها بعضاً في القيود الجمركية مثلاً بمثل، ونلمس هذا المعنى من موقف عمر في خطابه لأبي موسى الأشعري "خذ أنت منهم كما يأخذون منك" وتوفير الأمان للتجار من أهل الذمة والحرب الذي دعا إليه الإمام علي (ع) يمكن أن يتم في ظل قيام الدولة الإسلامية في العصر الحاضر من خلال (الفيَزْ) أو تصاريح لدخول البضائع إلى الدولة الإسلامية من الدول الأخرى.

وأخيراً يتراءى للباحث أنه لا مانع من دخول الدول الإسلامية في اتفاقيات جمركية مع دول أخرى على أن يكون تبادل السلع مقيداً بما أحله الشرع، يقول د. محمد عبد المنعم عفر "فأن للدولة الإسلامية أن تشترك في كافة المنظمات والهيئات الدولة التي تنظم التعاون الفني والتبادل العلمي والاقتصادي بشرط عدم الالتزام بأية قواعد أو معاملات تخالف الشريعة الإسلامية[١].

الفرع الثالث: السياسة الصناعية

يأتي اهتمام الإمام علي (ع) بالصناعة في كتابه الذي وجهه إلى واليه على مصر بقوله "فأستوص بذوي الصناعات وأوص بهم خيراً"[٢] فالصناعة على الرغم من بدايتها في عهده، إلا أنها لقيت منه هذه العناية، نظراً لما لمحه بفكره الثاقب من الدور المهم الذي تقوم به، والمتمثل في: أن الصناع يبلغون من الرفق بالشيء وصناعته درجة لا يبلغها غيرهم، وهذا راجع إلى تخصصهم بالطبع، فهم يوفرون على المواطنين هذه المهمة، ويقدمون لهم سلعاً وخدمات لا يستطيع غير الصانع أن يوفرها لنفسه بالمستوى الذي يقدمه الصانع، ومن أجل هذا، وتحقيقاً لهذا المنافع للمجتمع، ويجب على الدولة أن تهتم بشئونهم وتعتني بأحوالهم، ولذلك سلك الإمام (ع) في أهل الصناعات مع التجار دعوته إلى تنظيم التجارة[٣].

أولاً: أساس السياسة الصناعية وصلتها بالتنمية

تعمل الدولة التي تريد جعل البلاد صناعية على إيجاد صناعة الآلات أولاً، ومن ثم توجد باقي الصناعات، أي أن يباشر أولاً بإيجاد المصانع التي تصنع الآلات، وبالاهتمام بالصناعات الثقيلة أو الرأسمالية، لأن وجود صناعة ثقيلة في الدولة من شأنه إيجاد الآلات التي تقوم بكافة الصناعات الاستهلاكية الأخرى[٤].

---

(١) محمد عبد المنعم عفر، تطبيقات في الاقتصاد، دار البيان العربي، جدة، السعودية، ط١، ١٩٨٥، ج٢، ص٢٧٦.

(٢) محمد عبده، نهج البلاغة، ج٣، ٦١٦.

(٣) انظر: يوسف إبراهيم، المنهج الإسلامي في تحقيق التنمية، ص١٧٢.

(٤) عبد الرحمن المالكي، السياسة الاقتصادية المثلى، ص١٩٩.

وتعد الصناعة بعامة والثقيلة بخاصة مركزاً متميزاً في إطار العمل من أجل تحقيق التنمية الاقتصادية، وتلعب بذلك دوراً رئيساً ومهماً في إطار هذه العملية، لذلك يشير أحد الكتاب إلى أن التصنيع يعد حجر الزاوية في التنمية الاقتصادية، كما يشير إلى أن عملية التصنيع تعتبر محور عملية التنمية الاقتصادية، إذا أن الصناعة تدعم الاستقلال الاقتصادي الذي أصبح ضرورة لا غنى عنها لتعزيز الاستقلال السياسي في عالم اليوم، الذي تتقارب فيه المصالح، والذي توجد فيه العديد من مراكز القوى التي تحاول الضغط على هذا البلد أو ذاك، كما أن السياسة الصناعية المثلى، تسهم في معالجة اختلال الهيكل الاقتصادي الناشئ عن اعتماد الاقتصاد النامي على أنواع محدودة من النشاطات، التي يتضمنها قطاع أو قطاعات محدودة تسهم في تكوين الناتج القومي[١]، ومن حدد سياسة لصناعته أفاد التنمية الاقتصادية وأثرى المجتمع، ومن لم يفعل ظل يتخبط على غير هدى ويظل اقتصاده في تذبذب لا يعرف الاستقرار.

ثانياً: السياسة الصناعة عند الإمام علي (ع)

تتضمن السياسة الاقتصادية عند الإمام علي (ع) عدة أمور من شأنها أن تنمي وتنظم الصناع في الدولة منها:

أ) الاهتمام بأصحاب الصناعات: أصحاب الصناعات هم عصب الصناعة ولذلك استوصى بقوله "ثم استوصي بالتجار وذوي الصناعات خيراً".

إن هذه العبارة بمفهومها المعاصر، من قبل الإمام (ع) تشير إلى إمكانية إنشاء غرف صناعية، توفر لذوي المهن المختلفة المعلومات اللازمة لزيادة استثماراتهم، والحاجة إلى السلع الجديدة وأثمانها[٢] وهذا له فوائد تتمثل في زيادة فرص أهل الصناعة في الاستثمار بما يتفق والشريعة الإسلامية، وتحتمل هذه العبارة إيجاد طرق لتدريس الراغبين مباشرة هذه الأعمال، مما يقلل تكاليف الإنتاج ومن ثم تزدهر الصناعة في الدولة.

ب) تنظيم الصناعة: حرص الإمام علي (ع) على السياسة الصناعية لتكون وفق مقتضيات التنمية، فإن من مقتضياتها رفع المستوى الإنتاجي وتميزه، وهذا لا يتم إلا بضابط يضبط أصحاب الصناعات، لتحسين إنتاجهم وليحقق الإمام (ع) هذا الأمر، ضمن الصناع وأصحاب المهن أن وقع منهم إهمال. روى عنه أنه قال: "كل عامل مشترك إذا أفسد فهو ضامن، كما أنه ضمن الخياط والصباغ والسياح"[٣]، والتضمين الذي فرضه الإمام علي (ع) عام، والعام يبقى على عمومه ما لم يأت نص يخصصه، وإذا كانت هذه العبارة عامة من قبل الإمام (ع)، فإنه يمكن حملها في العصر الحاضر على تضمين أصحاب المصانع إذا كانت

---

(١) انظر: فليح حسن الخلف، التنمية الاقتصادية، ص١٩٨.

(٢) يوجد مثل هذه المؤسسات في الأردن تسمى دائرة الاستثمار والتي أسست عام ١٩٩٥. أنظر: مؤسسة تشجيع الاستثمار قانون رقم (١٦) لعام ١٩٩٥.

(٣) عبد الرزاق، المصنف، ج٨، ص٢١٧.

صناعاتهم ليست مطابقة لمواصفات، ومقاييس تحددها الدولة بواسطة أجهزة معينة[١]، ويكون تضمينهم لها، بمنعها من التداول في الأسواق وإتلافها، وفي هذا علاج وقائي لأصحاب المصانع من عدم إتقان صناعاتهم، لأنه لو لم يتم مراقبة الصناعات لأدى ذلك إلى ضرب التجارة الخارجية للدولة وكسادها إن لم تكن وفق مواصفات عالمية، لأن الصناعة في الدولة المتقدمة تعتمد بشكل أساسي على السوق الخارجية.

ج) **تمويل المشاريع الصناعية**: تقوم المشاريع الصناعية عند الإمام علي (ع) على تمويل الصناعات بصيغ شرعية، هي المضاربة، وذلك بأن يكون رأس المال من طرف والجهد من طرف آخر، كأن يكون عاملاً أو صاحب مهنة، ويكون اقتسام الربح بينهما حسب الاتفاق، يقول الإمام (ع): "الوضيعة على المال والربح على ما اصطلحا عليه"[٢]. ويبدو أثر تمويل المشروعات الصناعية مهماً في تحقيق التنمية الاقتصادية، إذ أن المضاربة تعتبر تفاعلاً بين أهم عنصرين من عناصر الإنتاج في المنهج الاقتصادي الإسلامي هما: عنصر رأس المال وعنصر العمل، هذا التفاعل بإمكانه أن يحقق مزيداً من الصناعات المحلية في الدولة على أن يتم من صاحب المهنة أو الصنعة الجهد والعمل، ومن الطرف الآخر رأس المال، ويرى الباحث أنه من الممكن تجميع الأموال من مصادر متعددة واستثمارها في مصنع من قبل المختصين في مجال الصناعة وممن تتوفر لديهم الخبرة في مجالها، ولا شك أن الأفراد الذي يملكون الأموال – عندما يشعرون بأن كسبهم سيكون حلالاً طيباً، يدفعهم إلى دفع أموالهم – مهما كانت صغيرة أو كبيرة إلى مجال الاستثمار، الأمر الذي يحقق أهم عنصر من عناصر التنمية الاقتصادية، وهو عنصر رأس المال هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن من يقوم باستثمار هذا المال بصورة مشروعة تتوفر لديه الخبرة في الجدوى الاقتصادية من المشاريع التي يقوم بها ومتابعتها ومراقبتها، وهذا يقلل من مخاطر تعرض الاستثمارات للخسارة[٣].

د) **دعوة الإمام (ع) بأخذ العلم من غير المسلمين**: دعا الإمام علي (ع) لأخذ العلم من غير المسلمين[٤]، يمكن توظيف هذا المفهوم في مجال السياسة الصناعية، بالإفادة من الخبرات التي تتميز بها الأمم الأخرى في الصناعة، إذا كانت لا تتعارض مع نظام الإسلام الاقتصادي، نظراً لما يشهده العالم من تطور متصاعد في فنون الإنتاج، فإن مسألة نقل فنون الإنتاج الحديثة عن المجتمعات الأخرى الأكثر تقدماً، يعد من المسائل المهمة والحيوية في عمليات التنمية المختلفة.

هـ) **تحريم الإمام علي (ع) صناعة المواد التي حرمها الشارع**: تميزت السياسة الصناعية للإمام علي (ع) بضبط الصناعة بما أحله الشارع، ولذلك أحرق قرية كان يصنع فيه الخمر[٥].

---

(١) هذه الأجهزة تسمى في الأردن بدائرة المواصفات والمقاييس.

(٢) ابن أبي شيبة، المصنف، ج١، ص٢٧١.

(٣) انظر: حسن الأمين، المضاربة الشرعية، النيل الإسلامي للتنمية، جدة، المملكة العربية السعودية، ص٢٣.

(٤) انظر: المبحث الثاني، فرع الاهتمام بالعلم، الفصل الأول من الرسالة.

(٥) انظر: التمهيد.

الفرع الرابع: السياسة السعرية عند الإمام علي (ع):

اختلف الفقهاء في حكم التسعير والمسألة مبسوطة في كتب المطولات، ومن تأمل سياسة الإمام علي (ع) الاقتصادية وجده قد حدد سياسة سعرية يفيد منها الاقتصاديون، وأعرض تالياً أبرز المسائل في سياسة الإمام علي (ع) السعرية.

أولاً: مفهوم السياسة السعرية:

للسياسة السعرية مفهومان:

١. مفهوم الإجراءات التي تتخذها الدولة لضمان ترك قوى العرض والطلب، للتفاعل في الأسواق بحرية، لتحديد الأسعار، والتدخل لتوفير هذه الحرية، إذا ما حدث انحراف عنها، وذلك لتتحدد أنواع النشاط الاقتصادي، وقدر هذا النشاط وفقاً لحاجة المجتمع[١] هذا بالنسبة للاقتصاد الحر.

٢. كما تعني تدخل الدولة ممثلة في وزارة التموين، أو التجارة أو الغرفة التجارية أو أي هيئة مختصة في وضع أسعار محددة لسلع معينة، أو لكل السلع وتكون ملزمة للتجار، ليس لهم تجاوزها وإلا كانوا عرضة للعقاب[٢]. وهو ما نلاحظه في اقتصاديات كثير من الدول المعاصرة.

ثانياً: السياسة السعرية وصلتها بالتنمية

استخدمت السياسة السعرية كأسلوب مناسب لتطوير العملية التنموية[٣]، بإتاحة الفرصة للجهاز السعري "لأن يقوم بتخصيص الموارد بين الاستعمالات المختلفة"[٤] والمقصود بتخصيص الموارد، هو توزيع وسائل الإنتاج المختلفة على القطاعات الرئيسة، ثم تخصيص الكميات التي ستستخدمها كل صناعة، أو كل مشروع، ولهذا عد علماء التنمية هذا الأمر من مستلزمات التنمية، فالأسعار في النظام الرأسمالي تعتبر الموجه الأساسي لعملية تخصيص الموارد، فإذا كان سعر أية سلعة مرتفعاً بالنسبة إلى مجال إنتاجها، فإن المستثمرين يتجهون إلى إنتاج هذه السلعة ويستمر في الانتقال حتى ينخفض الربح المحقق نتيجة لانخفاض سعر السلعة بسبب زيادة عرضها وبسبب ارتفاع نفقات إنتاجها الناجم عن زيادة أسعار خدمات عوامل الإنتاج المستخدمة بزيادة الطلب عليها أما إذا كان سعر السلعة منخفضاً بالنسبة إلى نفقات إنتاجها المتوسطة، فنجد أن الموارد تخرج من ميدان إنتاج هذه السلعة سعياً وراء تحقيق عائد أكبر في مجال آخر[٥].

---

(١) محمد عبد المنعم عفر، الاقتصادي الكلي الإسلامي، دار البيان العربي، جدة، ص٣٢٢.

(٢) د. محمد بن أحمد الصالح، مجلة البحوث الإسلامية والتسعير في نظر الشريعة، المجلد الأول، العدد الرابع، ص٢٠٤.

(٣) محمد بن عبد المنعم عفر، التخطيط والتنمية، دار البيان العربي، ١٩٨٥، جدة، ص٢١٦.

(٤) سلوى علي سليمان، السياسة الاقتصادية، وكالة المطبوعات، الكويت، ص٣٤٢.

(٥) محمد سلطان أبو علي، الأسعار وتخصص الموارد، دار الجامعات المصرية، ١٩٧٢، ص٣٨٨، ٣٨٩.

ثالثاً: سياسة الإمام (ع) السعرية

تنبع السياسة السعرية للإمام علي (ع) من فهمه للسنة النبوية، فعن أنس بن مالك أنه قال: "غلا السعر في عهد رسول اله (ص) فقالوا يا رسول الله سعر لنا فقال: "أن الله هو المسعر، القابض، الباسط الرازق، وأني لأرجو أن ألقى الله عزّ وجل، وليس أحد منكم يطلبني بمظلمة في دم ولا مال"[١] ووجه الدلالة من هذا الحديث عدم جواز التسعير، ولو كان التسعير جائزاً لأجابهم إليه، كما أنه (ص) علل امتناعه عن التسعير بكونه مظلمة، والظلم حرام فعليه يكون التسعير حراماً "[٢].

ويظهر رأي الإمام علي (ع) في الأسعار، بتفسير مجمل هذا الحديث فقد سئل الإمام جعفر الصادق (ع) عن التسعير، فقال: ما سعر أمير المؤمنين علي (ع)، على أحد، ولكن من نقص عن بيع الناس قيل له: بع، كما يبيع الناس، وإلا فأرفع من السوق"[٣] يقول أيضاً وليكن البيع سمحاً بموازين عدل وأسعار عدل، لا تجحف بالفريقين البائع والمبتاع"[٤].

فالإمام (ع) يفسر الظلم الذي نص عليه الرسول (ص) في حديث التسعير، بأنه الظلم الذي قد يلحق بالبائع والمشتري، ومنعاً لهذا الظلم يجب أن يتم البيع بثمن عادل، فرأي الإمام علي (ع) في الثمن العادل يأخذ بعين الاعتبار مصلحة المنتج والمستهلك ويوائم بينهما، حيث لا يكون هناك جور على العارضين للسلع أو الطالبين لها من منتجين ومستهلكين، فلا يجوز تبعاً للمعيار الإسلامي إلحاق الضرر بالمنتج أو البائع بانخفاض الثمن إلى درجة تكون فيها الخسارة، كما أنه لا يجوز إلحاق الضرر بالمستهلك بارتفاع الثمن إلى درجة الظلم، فالإمام (ع) يعتبر الثمن عدلاً إذا كان لا يلحق ضرراً بالمنتج والمستهلك معاً ويحقق العدالة بينهما[٥]، كما أن مفهوم الثمن العادل عند الإمام علي (ع) يتحدد من خلال القاعدة الشرعية "لا ضرر ولا ضرار" ومن الضرر الأضرار بالمنتج أو البائع عن طريق بخس الثمن سواء كان بفعل المستهلك أو الدولة حالة تحديد الأسعار تحديداً دون مناسبة له، فالمستهلك هو المهم لنفاق السلعة وخلوصها من السوق التجاري، فإن امتنع المشتري فترة دون أن يشتري بصد الأضرار بالمنتج، وخاصة ما يسرع إليه الفساد كالخضروات والفواكه ونحوها وذلك رغبة من المشترين الحط من السعر للسلعة، فيتجه صاحبها خشية كسادها إلى بيعها بأبخس ثمن، وهذا لا يحل لهم وهو ظلم، يأباه الشرع الإسلامي وهو ضرر واضح في حق البائع المنتج، الأمر الذي قد يؤدي به إلى أن يتوقف عن الإنتاج، وتبدأ تخف الزراعة، ويفتقر الإنتاج الصناعي، وتقل حركة السوق التجاري بفعل تصرف المستهلك السيئ، وكان عليه أن يستقبل

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، مسند الإمام أحمد، ج٣، ص١٥٦ ـ ٢٨٦.

(٢) ابن قدامة، المغني، ج٤، ص٢٤٠.

(٣) القاضي النعمان، دعائم الإسلام، ط١، دار المعارف بمصر، سنة ١٣٨٣هـ، ج٢، ص٣٦.

(٤) صبحي الصالح، نهج البلاغة، ص٤٣٨.

(٥) انظر: حسن حسين أحمد الحمود، رقابة الدولة على سوق السلع والخدمات في الإسلام، الجامعة الأردنية، ص١٤٥، ١٩٨٩.

السلع ويحفز البائع والمنتج كليهما على الاستمرار في حركة الإنتاج وفي هذا المجال يبين الرسول (ص) إن المشتري يجب أن يكون سمحاً يقول (ص) "رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى"[١] فسماحة الإسلام تظهر واضحة حيث أشار على المسلمين أن يميلوا إلى السهولة في بيعهم وشرائهم والتبادل بعدم الإجحاف بالمنتج، أما بالنسبة للمشتري فإن الإمام (ع) **يمنع الإجحاف به بطريقتين:**

(أولاهما) منع الاحتكار: فالإمام (ع) يدعو إلى عدم الاحتكار، ويفهم هذا من كلامه أنه سبب غلاء الأسعار، وعدم تحقق الثمن العادل، والاحتكار إذا حدث يشكل خطراً على الشعب ورخائه واستقراره، ويشكل عبئاً على الحكومة المسؤولة عن رخاء شعبها وعن توفير سبل العيش لجميع أفراده، لذا على الحكومة أن تبادر إلى القيام بالتزاماتها، فتمنع الاحتكار وتعاقب عليه، يقول الإمام (ع): "وأعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقاً فاحشاً واحتكاراً للمنافع فأمنع الاحتكار.... فمن قارف مكرة بعد نهيك إياه فنكل به وعاقب في غير إسراف"[٢]، وقد ذكر الإمام (ع) هنا احتكار المنافع، واحتكار المنافع يعني به الاحتكار بجميع أنواعه، سوءا كان احتكاراً للمواد أو الخامات[٣]، واحتكار المنافع والخدمات قد يكون من قبل جماعة تشترك في مهنة معينة كالمهندسين والبنائين والخياطين والفلاحين، وبحصر العمل بأفرادها، لتحصل على الأرباح التي تريديها[٤]، وقد نص الحنابلة على ما وصي بتحريم هذا النوع، يقول أبن تيمية "إن احتاج الناس إلى فلاحة قوم أو نساجتهم أو بنائهم، صار هذا العمل واجباً يجبرهم ولي الأمر عليه بعوض المثل إذا امتنعوا عنه، ولا يمكنهم من مطالبة الناس بزيادة عن عوض المثل، ولا يجوز للناس ظلمهم بأن يعطوهم دون حقهم"[٥].

ثانيهما: منع التحكم في البيع: يقول الإمام علي (ع) "وأعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقاً وتحكماً في البياعات، وذلك باب مضرة للعامة، وليكن البيع سمحاً، وبأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمباع" والظاهر أن المراد من التحم في البيع، نتيجة الاحتكار وهو ما نلمسه في الوقت الحاضر، للتكتلات التجارية والصناعية وذلك بفرض أسعار عالية، للإضرار بالناس فيرى الإمام علي (ع) أن من واجب ولي الأمر إزالة كل ما من شأنه أن يلحق الضرر بالناس.

ويتراءى للباحث أن الإمام علياً (ع) رأى أن تحديد السعر من قبل الدولة من شأنه أن يؤدي إلى التدخل في الملكية الخاصة للأفراد، التي جعلت وسيلة من وسائل الإسلام في تحقيق

---

(١) رواه البخاري في الصحيح، شرح الفتح، كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع، حديث رقم ٢٠٧٦، ج٥، ص٢٧.

(٢) محمد عبده، نهج البلاغة، ج٣، ص٦٥٠.

(٣) محمد مهدي شمس الدين، شرح عبد الأشتر، ص٩٦.

(٤) قحطان عبد الرحمن الدوري، الاحتكار وآثاره في الفقه الإسلامي، مطبعة الأمة، بغداد، ١٩٧٤، ص٤٩.

(٥) أبن تيمية تقي الدين أبو العباس، أحمد بن عبد الحليم، تحقيق سيد بن محمد بن أبي سعدة، مكتبة دار الأرقم، الكويت، ١٩٨٣، ص٢٧.

التنمية، حيث إن التمنية الاقتصادية وعمارة الأرض، ليست عملية فنية يكتفى بها بمجرد إعداد خطة التنمية، ولا مجرد متابعة تنفيذها لدى القطاع الخاص أو العام، بل لابد من تعبئة المواطنين لها بحيث يكون مطلباً ملحاً يسعى إليه كل فرد، ويدرك أن الحقوق لا تنال إلا بقدر مشاركة المجتمع، وإذا كانت مشكلة التأخر الاقتصادي هي من أولى المشكلات التي تواجه الشعوب المسلمة، فلا بد من تعبئة كل القوى والطاقات لأعمار الأرض زراعياً وصناعياً، وإشعار القطاع الخاص بأهمية دوره في إنجاح الخطط التنموية للدولة، وإن الملكية الخاصة تجعل الأفراد يعملون بكل جد وتضحية في سبيل إشعارهم بقيمة ما يملكون[١]، وما يعود عليهم من خير ونفع، وهذا ينطلق بهم إلى اختيار فرص العمل التي لم تطرق ويحتاجها الناس ومن ثم يتدفق العطاء والإنتاج ليحقق الخير للبشرية[٢].

وتحقيق المنافسة العادلة بواسطة الثمن العادل في السوق، مطلب مهم في الحياة الاقتصادية، إذ إنها توزع الأنشطة الاقتصادية بين أفراد المجتمع ومؤسساتها، وتنتج له مزيداً من الفرص التي تعمل على تحقيق التعادل بين أنشطة القطاعات الاقتصادية المختلفة[٣]، كما تعين على إيجاد نشاط مستمر في دائرة كل قطاع، ففي القطاع الزراعي مثلاً، ينافس المنتجون فيما بينهم على تحسين إنتاجهم وتسويقه بطريقة تحقق أكبر قدر من الرفاهية للمستهلكين من حيث السعر، ومواءمة السلعة لرغباتهم بشكل مستمر، لأن المنتج لا يستطيع الصمود طويلاً ما لم يعمل على تحسين الإنتاج، فالعاملون في كل قطاع يتنافسون داخل قطاعهم تنافساً داخلياً، ومحصلة هذا كله أن توجه الموارد والقدرات الإبداعية نحو القطاعات الناجحة، مما يوفر حافزاً كافياً لبث روح التطور والتقدم في جميع الأنشطة الاقتصادية[٤].

ومن أبرز الأمور التي أثمرت عنها سياسة الإمام علي (ع) في إقرار الثمن العادل وإطلاق الحرية الاقتصادية المنضبطة – إن وفرت للناس الحوافز على العمل والإنتاج، وإزالة العوائق التي تحول دون ذلك، وهذا أدى إلى نمو التجارة، ونمو التجارة أدى إلى زيادة حصيلة الدخل الخاضع للزكاة[٥]، وهذا يؤدي بدوره إلى زيادة الزكاة، التي ترفع مستوى الطبقات الفقيرة وتزيد من استهلاكها، وبالتالي زيادة الطلب على السلع والخدمات، وزيادة الاستثمار الذي يعد عاملاً مهماً في انتعاش الاقتصاد وارتفاع مستوى المعيشة في الدولة.

---

(١) والتسعير، تسلط على أموال الناس وما يملكون من قبيل التدخل في الملكية الخاصة وهذا يؤدي إلى حرج العاملين بالتجارة وكساد السوق الذي يترتب عليه إلحاق الضرر الكبير بقطاع التجارة الذي كما بينا في السابق يعتبر عنصراً هاماً من عناصر التنمية، كما أنه يؤدي إلى تعطيل سبل المعاش والتنمية.

(٢) حسن حسين أحمد الحمود، رقابة الدولة على سوق السلع والخدمات في الإسلام، الجامعة الأردنية، ١٩٨٩، ص٤٧.

(٣) نفس المرجع.

(٤) عبد الله المحسن الطريفي، الاقتصاد الإسلامي أسس ومبادئ وأهداف، ط٢، ص١٤٠.

(٥) والدليل على أن المال الخاضع للزكاة زاد في زن علي أن أو كل إخراج الزكاة في الأموال الباطنة إلى أصحابها فكان يقول "لا تأخذ منكم ولكن ضعوها أنتم مواضعها" أنظر: عبد الرزاق، المصنف، ج٤، ص١٨.

ويخلص الباحث إلى أن الإمام علياً (ع) منع التسعير ما دامت الأمور في السوق الإسلامي تسير سيراً حسناً من حيث عدم وجود احتكارات أو تحكم في البيع من بعض التجار. فإذا حصل شيء من الاحتكار أو التحكم تعين على الدولة التدخل، لمنع مثل هذه التصرفات، عملاً بحديث الرسول (ص) "من دخل في شيء من أسعار المسلمين ليغليه عليه كان حقاً على الله أن يقعده بعظم من النار يوم القيامة"[1].

السمات الأساسية لسياسة الإمام (ع) الاقتصادية

أولاً: السياسة الاقتصادية والمالية العامة

١. لعبت سياسة الإنفاق العام عند الإمام علي (ع) دوراً مهماً في التنمية الاقتصادية للبلاد الإسلامية وكان لها آثار مباشرة على الأمة الإسلامية، وكان لكتاب الإمام علي (ع) إلى الأشتر النخعي منهجية تبين سياسة الإنفاق العام التي تبناها والتي تؤدي إلى التنمية الاقتصادية، وتوجيه الاقتصاد ذاتياً لمنع الكساد ومن ثم تحقيق الاستقرار الذي يساعد بدوره على التنمية.

٢. حدد الإمام علي (ع) الغرض من فرض التكاليف للإصلاح الاقتصادي، في مجال توزيع الثروة وفي تشجيع الإنتاج، ولحماية أمن الدولة.

٣. في مجال فرض الضرائب، بين الإمام علي (ع) أصول الجباية التي يجب أن تراعى عند فرض الضريبة، من حيث: اختيار الزمان والمكان الأهون على المكلف عند إخراجه الضريبة، فقد دعا الجباة إلى مراعاة ظروف الممول فلا يطالب إلا في وقت يساره ونتاج موسمه وبيع مصنوعاته.

٤. فرض الإمام علي (ع) ملكية المال ووسائل الإنتاج قيوداً، تتمثل في إلزام المالك باستثمار ماله وتنميته بالطرق المشروعة، يظهر هذا من خلال اجتهاده في "مسألة كنز المال"، حيث اعتبر أن أربعة آلاف درهم نفقة وما دونها كنز.

ثانياً: التنمية الاقتصادية

تناولت التنمية الاقتصادية في مبحثين، تحدث المبحث الأول عن مفهوم التنمية ومدى التطابق بينها وبين العمارة، حيث توصل الباحث توصل الباحث إلى أن مفهوم التنمية الحديث، يتوافق مع مفهوم العمارة الذي نص عليه الإمام علي (ع).

وأما المبحث الثاني فعرض وسائل تحقيق التنمية، ودعا الإمام علي (ع) إلى عدة سبل من شأنها أن تنهض في التنمية الاقتصادية للدولة.

وتوصل الباحث إلى أن هذه السبل منها ما هو غير مباشر، كالموازنة بين الزهد والعمل، حيث كشفت الدراسة أن للزهد عند الإمام علي (ع) مفهوماً حقيقياً يجمع بين

---

(١) رواه الحاكم، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، في المستدرك، دار الكتاب العربي، بيروت، ج٢، ص١٢، ج٥.

العبادة والعمل، فقد بين الإمام علي (ع) أن الطيبات والموارد التي أودعها الله في هذه الأرض، يجب استخدامها والاستفادة منها بما يحقق الرفاهية للإنسان.

أما بالنسبة للوسائل المباشرة فمن أبرزها مسألة التسعير، حيث إن الإمام علي (ع) منع التسعير ما دامت الأمور تسير في السوق الإسلامي سيراً صحيحاً عند عدم وجود الاحتكارات أو التحكم في البياعات.

ولاشك أن تحقيق الثمن العادل بعدم إلزام سعر على البائع أو المشتري يعين على إيجاد نشاط مستمر في دائرة كل قطاع، ففي كل قطاع من القطاعات الاقتصادية يتنافس المنتجون فيما بينهم على تحسين إنتاجهم، وفي هذا تحقيق للتنمية الاقتصادية للدولة.

وكان للإمام علي (ع) اهتمام بارز في التجارة والصناعة، حيث أنه أمر بالاهتمام بالتجار والصناع واستوصى بهم خيراً، كما أنه دعا إلى مراقبتهم، حيث قضى بمعاقبة التجار إذا ظهر منهم احتكار، وبتضمين الصناع إذا كانت صناعاتهم غير مطابقة للمواصفات المتفق عليها.

ثالثاً: التوزيع

اتسمت سياسة الإمام علي (ع) في التوزيع بسمة بارزة هي التسوية في العطاء، فقد لجا الإمام علي (ع) إلى هذا المجال بعد مرحلة تميزت بالتفاوت في العطاء الذي ترتب عليه نتائج اقتصادية عملت على خلق طبقات اقتصادية متسعة الأفق.

ويرى الباحث أن سياسة الإمام علي (ع) في تسوية العطاء جاءت استكمالاً لسياسة عمر بن الخطاب، إذا أدرك في أواخر خلافته أهمية هذا المجال وفكر في تغير نظام العطاء والعودة إلى نظام التسوية، ونستشهد بقوله "لئن بقيت إلى العام المقبل لألحقن آخر الناس بأولهم ولأجملنهم رجلاً واحداً"[1].

رابعاً: السياسة الاقتصادية في مجال التوازن

يتضمن التوازن عند الإمام علي (ع) عدة مجالات كالموازنة بين قطاعات الاقتصاد الثلاثة من تجارة وزراعة وصناعة، ومن النقاط البارزة في سياسة تحقيق هذا التوازن أن جعل أراضي السواد لخدمة أغراض التوازن الاجتماعي، وذلك بعدم تمليكها للفاتحين وإنما تبقى هذه الأراضي موقوفة للمسلمين جميعاً يتوارثونها جيلاً بعد جيل ويمكن تطبيق هذه الصورة في الوقت الراهن، بأن تقوم الدولة بتخصيص جزء من ناتج بعض المشروعات العامة للإنفاق منها على أغراض التوازن الاجتماعي إضافة إلى الإنفاقات العامة الأخرى.

تلك أبرز نتائج هذه الدراسة الاقتصادية التي تبرهن على أن الإمام علي (ع) قد بلغ شأواً بعيداً في سياسة حكيمة، وخطة محكمة، لو قدر الله له الاستمرار بالخلافة لسنوات لظهرت بصماته الاقتصادية. ❖

---

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٢٠٢، أبو يوسف، الخراج، ص٥٠.

المحتوى المثبت في كتاب علي (ع)

د. وفقان محسن خضير الكعبي

التوطئة:

كتاب علي (ع) فيه أحكام كثيرة ومتنوعة ومتعددة، ولم تذكر الروايات كل المحتوى التفصيلي لهذا الكتاب بالاسم، بل أشارت إلى عناوين محتواه إضافة إلى بعض التفصيلات التي بينت في بعض منها.

وأورد في مصادر الحديث روايات كثيرة عن هذا الكتاب من طرق أهل البيت (عليهم السلام)[١].

وتأكد مجموعة هذه الأخبار على سعة أطراف هذا الكتاب وشموله واحتوائه لمواضيع متعددة من أحكام فقهية: (الطهارة، العبادات على اختلاف عناوينها من الصلاة، والصوم والزكاة والحج والدعاء وغيرها والمعاملات، والقضاء، والشهادات، والفرائض والميراث والحدود والديات)[٢].

ويمكن ترتيب أسماء الكتب الفقهية والعلمية وما نقل من كتاب علي (ع) من العلم وباقي الأبواب الفقهية ـ العلم ـ وحتى أسماء أصحاب القائم[٣].

وفيه مواضيع الأخلاقية، والعقائدية[٤] وسنن الأنبياء والأمم السابقة ونحوها، كما سيأتي عرض بعض منها في مطاوي البحث.

المطلب الأول: قرأت في كتاب علي (ع)

فضل العلم:

ورد فضل العلم والمعرفة بأنواعها المختلفة وخصوصاً المعرفة بأصول الدين، ولا يبقى الإنسان جاهلاً وغير متعلم، فقد قرأ هذه الحقيقة الإمام الصادق (ع) في كتاب علي (ع) وسمعها الراوي عنه ونقلها.

روي الكليني بسنده، محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن محمد بن إسماعيل بن بزيع، عن منصور بن حازم[٥]، عن طلحة بن زيد عن أبي عبد الله (ع) قال:

---

(١) بصائر الدرجات: ١٤٤، ١٤٥، ١٦٥ وغيرها.

(٢) تدوين السنة: ٧٠.

(٣) كتاب علي (ع): ٢/٢٠٥.

(٤) كتاب علي: ٢/٢٠٣.

(٥) طريق الرواية موثق. هامش أصول الكافي: ١: ٩١.

(قرأت في كتاب علي (ع): (إن الله تعالى لم يأخذ على الجهال عهداً بطلب العلم حتى أخذ على العلماء عهدا ببذل العلم للجهال؛ لأن العلم كان قبل الجهل)[١].

❖ طريق سند الرواية:

(محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن محمد بن إسماعيل بن بزيع، عن منصور بن حازم، عن طلحة بن زيد) عامي المذهب.

ونقل عن الشيخ الطوسي أنه بتري. إلا أن كتابه معتمد[٢]. سند الخبر معتبر.

❖ المفردات اللغوية:

العهد الميثاق، الموثق والميثاق. الذي يوثق بين الطرفين.

حتى أخذ على العلماء عهدا ببذل العلم للجهال، في بذل العلم منافع كثيرة:

منها: التشبه بالأنبياء، لأنهم إنما بعثوا للتعليم.

ومنها: الفوز بشرف الهداية والإرشاد.

ومنها: الظفر بمرتبة الرئاسة الدينية والدنيوية التي هي الخلافة الكبرى.

ومنها: إحياء النفس، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[٣].

وفي منع العلم وتركه، مضرة عظيمة ومفاسد كثيرة غير خفية على ذوي البصائر، ولذلك قال سيد الوصيين: (لا خير في علم لا ينفع)[٤]، أي لا ينفع صاحبه غيره.

وقال (ص): (من سئل عن علم ثم كتمه الجم يوم القيامة بلجام من نار)[٥]، ويعني عقوبة في الحياة الأخرى على كتمان العلم وعدم نشره. ومعناه حرمة كتمان العلم.

وهذا العهد إما وقع بمقتضى العقل، وحكمه، أو وقع في وقت الفطرة أو في وقت أخذ[٦].

وأخذ العهد على العالم ببذل العلم سبق أخذ العهد على الجاهل بالتعلم:

- طبيعة العلم عند الله متقدمة على طبيعة الجهل.
- وإن العلم غاية الخلق والغاية متقدمة على ذي الغاية؛ لأنها سبب له.
- والعلم أشرف فتقدمه على الجهل بالشرف والرتبة[٧].

الوصية بحسن الجوار:

يؤكد حقيقة حسن الجوار وعلاقة المؤمن بمن يجاوره حتى تشمل العلاقات الدولية بين الدول والشعوب فقد قرأ الإمام الباقر هذه الوصية بحسن الجوار، وأنها كالنفس من كتاب علي (ع).

---

(١) أصول الكافي: ١/ ٩٠ باب بذل العلم ح١؛ منية المريد: ٧٣؛ بحار الأنوار: ٢/ ٦٧.

(٢) كتاب علي: ٢٠٥.

(٣) سورة المائدة: ٣٢.

(٤) شرح أصول الكافي: ٢/ ١١٥؛ الوافي: ١/ ٤٧.

(٥) شرح أصول الكافي: ٢/ ١١٥؛ الوافي: ١/ ٤٧.

(٦) شرح أصول الكافي: ٢/ ١١٥؛ الوافي: ١/ ٤٧.

(٧) مرآة العقول: ١/ ١٣٣؛ الوافي: ١/ ٦٧.

كان (الإمام الباقر) يوصيهم (أصحابه) بحسن الجوار... ويقول **قرأت في كتاب علي** (ع)، إن رسول الله (ص) كتب: أن الجار كالنفس[١].

وهناك روايات أخرى وردت في مضامين متعددة بعنوان قرأت نبين منها في ما تقدم.

إرث ابن الأخ مع الجد:

ومن موارد الاستثناء من القاعدة (الأقرب يمنع الأبعد) لدلالة النص عليها هو كون ابن الأخ يرث مع الجد الذي هو أقرب منه للميت.

روي الطوسي، عن أحمد بن محمد، عن علي بن الحكم، عن أبي أيوب عن محمد بن مسلم، قال: نظرت إلى صحيفة ينظر فيها أبو جعفر (ع) قال:

(**فقرأت فيها مكتوباً**: ابن أخ وجد المال بينهما سواء قال: فقلت لأبي جعفر (ع) إن من عندنا لا يقضي بهذا القضاء لا يجعلون لابن الأخ مع الجد شيئاً، فقال أبو جعفر (ع): انه إملاء رسول الله (ص) وخط علي (ع)، من فيه بيده)[٢]. وقد نقلت روايات أخرى بهذا المضمون كثيرة.

سهام لا تعول:

روى الطوسي، عن يونس بن عبد الرحمن، عن عمر بن أذينة، عن محمد بن مسلم، قال: (**أقرأني أبو جعفر** (ع) **صحيفة كتاب الفرائض** التي هي إملاء رسول الله (ص) وخط علي (ع) بيده فإذا فيها إن السهام لا تعول)[٣].

فقد قرأ محمد بن مسلم الثقفي كتاب علي (ع) وصحيفة الفرائض في الإرث وليس فيها العول، وهي من إملاء النبي (ص) وخط علي (ع).

حرمة بعض اسماك البحر:

محمد بن يعقوب، عن عدة من أصحابنا، عن سهل بن زياد، وعن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد جميعاً، عن ابن محبوب وأحمد بن محمد بن أبي نصر جميعاً، عن العلا، عن محمد ابن مسلم، قال:

(**أقرأني أبو جعفر** (ع) **شيئاً من كتاب على** (ع)، فإذا فيه: أنها كم عن الجرى والزمير والمار ما هي والطافي والطحال، قال: يا ابن رسول الله (ص)، يرحمك الله إنا نؤتي بالسمك ليس له قشر، فقال: كل ما له قشر، وما ليس له قشر فلا تأكله) ـ الحديث[٤].

---

(١) وثيقة المدينة: ١٣؛ أصول الكافي: ٦٣٢/٢؛ الإمام الصادق والمذاهب الأربعة: ٤٥٨؛أثر وثيقة المدينة ببعض الأحكام ـ المؤلف: ٢٣.

(٢) تهذيب الأحكام: ٣٠٨/٩ باب ميراث من علا من الآباء ح١١٠٤؛ الكافي: ١١٣/٧ باب ابن أخ وجد مع الجد ح١ ـ ٥؛ دعائم الإسلام: ٣٧٦/٢ ح١٣٤٨.

(٣) تهذيب الأحكام: ٢٤٧/٩ ح٩٥٩ باب ٢١ إبطال العول.

(٤) الكافي ٦: ٢١٩/ح١ صيد السمك؛ تهذيب الأحكام: ٩: ١/٢؛ وسائل الشيعة: ١٣٠/٢٤ ح٣٠١٥٥.

ميراث الزوج:

قرأ محمد بن مسلم صحيفة تقسيم الميراث عند الإمام الباقر وقد أملاها رسول الله وخطها علي بيده.

وروى الكليني، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، ومحمد بن عيسى، عن يونس جميعاً، عن عمر بن أذينة، عن محمد بن مسلم: (أن أبا جعفر (ع) **أقرأه صحيفة الفرائض التي أملاها رسول الله (ص) وخط علي (ع) بيده** فقرأت فيها امرأة تركت زوجها وأبويها فللزوج النصف ثلاثة أسهم وللأم سهمان الثلث تاماً وللأب السدس سهم)[١].

والشواهد كثيرة بهذا العنوان وما يقرب منه (قرأت في كتاب علي) (ع) في النصوص المأثورة عنهم وسيبين البحث بعض منها تباعاً.

المطلب الثاني: وجدنا في كتاب علي (ع)

جاءت مادة وجد أو وجدنا أو وجدناه أو وجدت وما يشتق منها في مجموعة من الروايات بمواقع مختلفة.

حسن الظن بالله:

ومن الأحكام الشرعية التي تثبت في كتاب علي (ع) حرمة الاغتياب، وذكر المؤمن بعيب ينقصه، ويخفيه أمام الناس. وهناك آداب وأخلاق اجتماعية مهمة على العبد المؤمن الالتفات إليها والاهتمام بها في حياته الدنيا حسن ظنه بالله، ويمنع أذاه عن الناس ونحوها.

المفيد رفعه إلى الباقر (ع) أنه قال:

(**وجدنا في كتاب علي (ع)** أن رسول الله (ص) قال على المنبر: والله الذي لا إله إلا هو، ما أعطي مؤمن قط خير الدنيا والآخرة، إلا بحسن ظنه بالله عز وجل، والكف عن اغتياب المؤمن، والله الذي لا إله إلا هو، لا يعذب الله عز وجل مؤمنا بعد التوبة والاستغفار إلا بسوء (بالله عز وجل) ظنه واغتيابه للمؤمنين)[٢].

وهناك روايات أخرى في حرمة الغيبة[٣]، وردت في مصادرها صحيحة السند واضحة الدلالة.

صحيح الكليني، عن عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد عن (ابن محبوب، عن جميل بن صالح، عن بريد بن معاوية)، عن أبي جعفر (ع) قال:

(**وجدنا في كتاب علي (ع)** أن رسول الله (ص) قال - وهو على منبره - والذي لا إله إلا هو ما أعطي مؤمن قط خير الدنيا والآخرة إلا بحسن ظنه بالله ورجائه له، وحسن خلقه،

---

(١) الفروع: ١٠٧/٧ باب ٥٩ ميراث الأبوين مع الزوج ح٣؛ تهذيب الأحكام: ٢٦/٩ باب ميراث الوالدين مع الزوج ح٢؛ الاستبصار: ٨٩/٤ باب ميراث الوالدين ح٣؛ من لا يحضره الفقيه: ١٣٩/٤ باب ميراث الأبوين: ح١.

(٢) الاختصاص: ٢٢٧؛ مستدرك الوسائل: ١١٥/٩؛ بحار الأنوار: ١٦ ص ١٨٩؛ ٢٥٩/٢٧.

(٣) أصول الكافي: ٣٤٢/٢.

والكف عن اغتياب المؤمنين، والذي لا إله إلا هو لا يعذب الله مؤمنا بعد التوبة والاستغفار إلا بسوء ظنه بالله وتقصيره من رجائه وسوء خلقه واغتيابه للمؤمنين.

والذي لا إله إلا هو لا يحسن ظن عبد مؤمن بالله إلا كان الله عند ظن عبده المؤمن، لان الله كريم، بيده الخيرات يستحيي أن يكون عبده المؤمن قد أحسن به الظن ثم يخلف ظنه ورجاءه، فأحسنوا بالله الظن وارغبوا إليه)[1].

ونسأل من الله تعالى أن يوفقنا لحسن الظن بالله تعالى وعدم التعرض لعيوب الناس والاهتمام بإصلاح أنفسنا.

إحياء الأرض:

والكليني، بإسناده محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن ابن محبوب، عن هشام بن سالم، عن أبي خالد الكابلي قال: (قال أبو جعفر (ع):

وجدنا في كتاب علي (ع): أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، أنا وأهل بيتي الذين أورثنا الأرض ونحن المتقون والأرض كلها لنا فمن أحيا أرضاً من المسلمين فيعمرها وليؤد خراجها إلى الإمام من أهل بيتي، وله ما أكل منها، فإن تركها أو أخربها فأخذها رجل من المسلمين من بعده فعمرها، وأحياها فهو أحق بها من الذي تركها فليؤد خراجها إلى الإمام من أهل بيتي وله ما أكل منها.

حتى يظهر القائم (ع) [من أهل بيتي] بالسيف، فيحويها، ويخرجهم عنها كما حواها رسول الله (ص)، إلا ما كان في أيدي شيعتنا فإنه يقاطعهم على ما في أيديهم، ويترك الأرض في أيديهم)[2].

وقد بين الفقهاء على أن الأرض الموات من الأنفال ملك الإمام (ع) لا يملكه أحد وقمم الجبال والأهواز، ومن أذن له الإمام من مواليه بالإحياء يملكه المحي.

ومثلها حكم الأرض المفتوحة عنوة إذا كانت مواتا وقت الفتح، وكذا كل أرض لم يجر عليها ملك مسلم، أو لم يكن لها مالك معروف.

وكذا كل أرض جلا عنها أهلها، ولم يوجف عليها بخيل ولا ركاب، وفي عصر الغيبة وعدم حضور إمام العصر، لو أحيا المسلم موات الأرض كان المحي أحق بهذه الأرض ما دام قائما بخدمتها وعمارتها.

فلو تركها فبارت آثارها فأحياها غيره، ومع ظهوره الإمام عجل فرجه فهو المالك الأصلي[3].

---

(١) أصول الكافي: ٢/ ٧١ح٢؛ بحار الأنوار: ٦٧/ ٣٦٥.

(٢) الكافي: ٥/ ٢٨٤ ح٥؛ تهذيب الأحكام: ٧/ ١٣٨ باب أحكام الأرضيين/ح٢٣؛ الاستبصار: ٣/ ٧٢ باب من أحيا أرضاً ح ٥؛ بحار الأنوار: ٥٢/ ٣٩٠؛ وسائل الشيعة: ١٧/ ٣٢٩ باب إحياء الموات: ٣ ح٢؛ تفسير العياشي: ٢/ ٢٥ ح٦٦.

(٣) الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية: ٧/ ١٣٨، الزبدة الفقهية: ٨/ ١٥٥؛ جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام: ٣٨/ ٥٧.

قصة أصحاب السبت:

علي بن إبراهيم القمي، عن أبيه، عن الحسن بن محبوب، عن علي بن رئاب، عن أبي عبيدة، عن أبي جعفر (ع) قال:

(وجدنا في كتاب علي (ع)، أن قوما من أهل أيلة[١] من قوم ثمود، وإن الحيتان كانت سيقت إليهم يوم السبت، ليختبر الله طاعتهم في ذلك، فشرعت إليهم يوم سبتهم في نادیهم وقدام أبوابهم في أنهارهم وسواقيهم، فبادروا إليها، فأخذوا يصطادونها، ـ ويأكلونها ـ فلبثوا في ذلك ما شاء الله لا ينهاهم الأحبار.

ولا يمنعهم العلماء عن صيدها، ثم أن الشيطان أوحى إلى طائفة منهم: إنما نهيتم عن أكلها يوم السبت، ولم تنهوا عن صيدها، فاصطادوها يوم السبت وأكلوها في ما سوى ذلك من الأيام.

فقالت طائفة منهم: الآن نصطادها، فعتت، وانحازت طائفة أخرى منهم ذات اليمين، فقالوا: ننهاكم عن عقوبة الله أن تتعرضوا لخلاف أمره واعتزلت طائفة منهم ذات اليسار، فسكتت، ولم تعظهم، فقالت للطائفة التي وعظتهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾[٢].

فقالت الطائفة التي وعظتهم: ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[٣]، فقال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾[٤] يعني لما تركوا ما وعظوا به مضوا على الخطيئة.

فقالت الطائفة التي وعظتهم: لا والله لا نجامعكم ولا نبايتكم الليلة في مدينتكم هذه التي عصيتم الله فيها مخافة أن ينزل بكم البلاء فيعمنا معكم.

قال: فخرجوا عنهم من المدينة مخافة أن يصيبهم البلاء فنزلوا قريباً من المدينة، فباتوا تحت السماء، فلما أصبح أولياء الله المطيعون لأمر الله غدوا لينظروا ما حال أهل المعصية، فاتوا باب المدينة فإذا هو مصمت، فدقوه فلم يجابوا ولم يسمعوا منها خبر واحد فوضعوا سلماً على سور المدينة ثم اصعدوا رجلاً منهم فأشرف على المدينة فنظر فإذا هو بالقوم قردة يتعاونون، فقال الرجل لأصحابه يا قوم أرى والله عجبا.

قالوا: وما ترى قال: أرى القوم قد صاروا قردة يتعاونون ولها أذناب فكسروا الباب قال: فعرفت القردة أنسابها من الأنس، ولم تعرف الأنس أنسابها من القردة.

---

(١) اللفظة مصحفة في المصادر: أبلة ـ أيكة ـ وكلاهما مصحفان، والأصح (أيله)، قال الخموي: (آيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم ـ البحر الأحمر ـ مما يلي الشام، وقيل: هي آخر الحجاز وأول الشام، قال أبو زيد: أيلة مدينة صغيرة عامرة بها زرع يسير، وهي مدينة لليهود الذين حرم الله عليهم صيد السمك يوم السبت فخالفوا فمسخوا قردة وخنازير) معجم البلدان: ٢٩٢/١.

(٢) سورة الأعراف: ١٦٤.

(٣) سورة الأعراف: ١٦٤.

(٤) سورة الأنعام: ٤٤.

فقال: القوم للقردة ألم ننهكم فقال علي (ع): والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إني لأعرف أنسابها من هذه الأمة لا ينكرون ولا يغيرون، بل تركوا ما أمروا به فتفرقوا وقد قال الله عز وجل: ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1] فقال الله: ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[2].

طرق الإسناد في تفسير القمي معتبر، وكذلك الصدوق، وهذه الحرمة لصيد يوم السبت من سنن الأنبياء بني إسرائيل قبل الإسلام وهي من السنن في الأمم السابقة، ونسخت في الإسلام.

وأما في أمة الإسلام فيجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد واللسان على من قدر، وأما من عجز أو خاف على نفسه فيكفيه الغضب في قلبه والإنكار على العاصي ولا يجب مفارقة مساكن الدور والقرى العاصية إلا إذا خاف وخشي الانحراف معهم[3].

كثرة العبادة زيادة أجر:

مما حثت وندبت إليه الشريعة الغراء، كثرة الصلاة والصوم في أيام متعددة وإتيان الصلوات المستحبة.

روي الصفار، حدثنا محمد بن الحسين، عن عبد الرحمن بن أبي هاشم، عن عنبسة بن نجاد (بجاد) العابد، قال: (سمعت جعفر بن محمد (ع) وذكرت عنده الصلاة.

فقال: إن في كتاب علي الذي إملاء رسول الله أن الله تبارك وتعالى لا يعذب على كثرة الصلاة والصيام ولكن يزده جزاء)[4]. وطرق سند هذه الرواية معتبر فإن عبد الرحمن هو بن محمد بن أبي هاشم الثقة.

عدم أرث الزوجة من الأرض:

إذا توفي الزوج وكان عنده أرض أو عقار فالزوجة لا ترث منه، وهذا الحكم الدال على حجب الزوجة من بعض الإرث كان من الأحكام الثابتة في كتاب علي (ع).

نقل الصفار، حدثنا محمد بن الحسين، عن جعفر بن بشير، عن الحسين، عن أبي مخلد، عن عبد الملك، قال: (دعا أبو جعفر (ع) بكتاب علي (ع) فجاء به جعفر (ع) مثل فخذ الرجل مطوى (مطوياً).

---

(١) سورة المؤمنون: ٤١.

(٢) تفسير القمي: ٢٢٦ ـ ٢٢٨ في تفسير سورة الأعراف؛ تفسير العياشي: ٢/٣٣ح٩٣؛ الميزان: ٨/٣٠١؛ سعد السعود: ١١٨؛ قصص الأنبياء: ١٠٤ ح٩٣؛ بحار الأنوار: ١٤/٥٢.

(٣) كتاب علي: ٢٧٨.

(٤) بصار الدرجات: ١٦٥؛ (يزيده خيراً) نسخة بدل؛ وسائل الشيعة: ٣/٧٦ باب ٣٢ أعداد الفرائض ح٤؛ ٧/٢٩٧ الصوم المندوب ح٤٢.

فإذا فيه: أن النساء ليس لهن من عقار الرجل إذا هو توفى عنها (عنهن) شيء.

فقال أبو جعفر: **هذا والله خط علي (ع) بيده**، وإملاء رسول الله (ص)[١].

عبد الملك غير متميز بين رجال الحديث، والسراج لا يعرف إلا بكنيته ولم يوثق صريحاً إلا أنه روى عنه صفوان وابن أبي عمير وفتوى الفقهاء بمضمون الخبر[٢].

الروايات بذلك كثيرة ومتعددة ومختلفة المضمون والسند[٣]، بل الفتوى من الفقهاء بمنع الزوجة من الأرض لا تأخذ منها حصة في الأرض ويقوم لها البناء[٤].

فيه الخلفاء والملوك:

ومن شمولية الكتاب وسعة معارفه أن فيه أسماء الملوك والخلفاء في هذه الأمة، بل ما يجري في هذه الأمة من خلفاء جور والأنبياء، والرسل والأئمة والأولياء والعلماء والأتقياء وما تكون من حوادث.

روي الصفار، حدثنا محمد بن الحسين، عن عبد الرحمن ابن أبي هاشم وجعفر بن بشير، عن عنبسة، عن المعلى بن خنيس، قال:

(كنت عنه أبى عبد الله (ع) إذ اقبل محمد بن عبد الله بن الحسن فسلم.

ثم ذهب، ورق له أبو عبد الله ودمعت عينه.

فقلت له: لقد رأيتك صنعت به ما لم تكن تصنع.

قال: رققت له لأنه ينسب في أمر ليس له **لم أجده في كتاب على من خلفاء هذه الأمة ولا ملوكها**)[٥].

نقل الصفار، حدثنا يعقوب بن يزيد، عن ابن عمير، عن عمر بن أذينة، عن جماعة (سمعوا أبا عبد الله (ع) يقول: وقد سئل عن محمد فقال: **إن عندي لكتابين** فيهما اسم كل نبي، وكل مالك يملك، والله ما محمد بن عبد الله في أحدهما)[٦].

مشروعية نكاح المتعة:

من العلاقات الزوجية وتنظيم الأسرة المسلمة، وجعل حياة الزوجين طيبة في التعامل مع الطرفين مشروعية العقد المنقطع وبعد انتهاء الأجل تجديده بعقد آخر.

---

(١) بصار الدرجات: ١٦٥؛ وسائل الشيعة: ٥٢٢/١٧؛ بحار الأنوار: ٢٤٦/١٠٤؛ ٥١/٢٦.

(٢) كتاب علي: ٣٢٧.

(٣) وسائل الشيعة: ٥٢٠/١٧.

(٤) جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام: ٢١٢/٣٩.

(٥) بصائر الدرجات: ١٦٩.

(٦) بصائر الدرجات: ١٦٩؛ الكافي: ٤٥٢/٥ ح١ باب يجب أن يكف عنها من كان مستغنيا؛ نوادر الأشعري: ٧٨/ح١٩٩؛ بحار الأنوار: ٣١٠/١٠٣.

روي الكليني، علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن علي بن يقطين قال: (سألت أبا الحسن موسى (ع) عن المتعة، فقال: وما أنت وذاك، فقد أغناك الله عنها، قلت: إنما أردت أن أعلمها؟، فقال: **هي في كتاب علي (ع)**، فقلت: نزيدها وتزداد؟ فقال: وهل يطيبه إلا ذاك)[1].

أي هل يطيب المستغني بالتزويج إلا استغناؤه به أو يقال: معناه هل يطيب من أراد أن يعلمها إلا كونها في كتاب على (ع) أي يكفيه هذا.

(كذا في هامش المطبوع): (وهل يطيبه) الضمير راجع إلى عقد المتعة ومراد السائل أنه يجوز لنا بعد انقضاء المدة أن نزيدها في المهر وتزداد المرأة في المدة أي تزويجها بمهر آخر مدة أخرى من غير عدة وتربص فقال (ع): المتعة في طيب المتعة وحسنها هو ذلك فإنه ليس مثل الدائم بحيث يكون لازما له كلما عليه بل يتمتعها مدة فان وأفقه يزيدها وإلا يتركها.

وعلى هذا يحتمل أن يكون ضمير يطيبه راجعا إلى الرجل أي هذا سبب لطيب نفس الرجل وسروره بهذا العقد ويحتمل أن يكون المعنى لا يحل ولا يطيب ذلك العقد إلا ذكر هذا الشرط فيه كما ورد في خبر الأحول (في شروطها فان بدا لي زدتك وزدتني ويكون محمولاً على استحباب)[1].

فكراهة الإمام ذلك، واستغناء المؤمنين عنها لظروف معينة لا يريد المعصوم البيان لها: لأنها واقع حال معين.

المتعة مستحبة مطلقاً، واستثناء المستغي في كلام الإمام تقية سلامة لعلي بن يقطين من أذى الآخرين[2].

الطلاق في العدة:

إذا طلق الزوج زوجته ثلاث مرات تحرم عليه حتى تنكح زوجاً غيره. ولكن بعد توفر شروط معينة.

روى الطوسي، عن محمد بن أحمد بن يحيى، عن محمد بن الحسين، عن محمد ابن مسلم، عن أبي جعفر (ع) قال:

(سألته عن رجل طلق امرأته تطليقة على طهر ثم أمسكها في منزله حتى حاضت حيضتين وطهرت، ثم طلقها تطليقة على طهر.

قال: هذه إذا حاضت ثلاث حيض من يوم طلقها التطليقة الأولى فقد حلت للرجال، ولكن كيف اصنع أو أقول هذا؟!

وفي كتاب علي بن أبي طالب (ع) إن امرأة أتت رسول الله (ص) فقالت: يا رسول الله أفتني في نفسي فقال: لها فيما أفتيك؟

---

(١) هامش الكافي: ٤٥٢/٥.

(٢) كتاب علي: ٣١٠.

قالت: إن زوجي طلقني وأنا طاهر ثم أمسكني لا يمسني حتى إذا طمثت وطهرت طلقني تطليقة أخرى، ثم أمسكني لا يمسني إلا أنه يستخدمني ويرى شعري ونحري وجسدي حتى إذا طمثت وطهرت الثالثة طلقني التطليقة الثالثة.

قال: فقال لها رسول الله (ص): أيتها المرأة لا تزوجي حتى تحيضي ثلاث حيض مستأنفات فإن الثلاث حيض التي حضتيها وأنت في منزله إنما حضتيها وأنت في حباله)[١].

عيوب فسخ النكاح:

إذا تزوج الرجل امرأة وبعد النكاح تبين فيها عيب يوجب فسخ عقد النكاح فيثبت للزوجة المهر، ويضمن من دلس العيب ذلك.

روى الطوسي، عن الحسين بن سعيد، عن فضالة، عن القاسم بن بريد، عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر (ع) قال: (في كتاب علي (ع) من زوج امرأة فيها عيب دلسته، ولم تبين ذلك لزوجها فإنه يكون لها الصداق بما استحل من فرجها، ويكون الذي ساق الرجل إليها على الذي زوجها ولم يبين)[٢].

يختلف السند وبعض الألفاظ لهذه الرواية في المصادر الحديثية.

نفقة الوالد من مال الولد:

روى الطوسي، بالأسانيد المتفرقة، عن الحسن بن محبوب، عن العلا بن رزين، عن محمد بن مسلم، عن أبي عبد الله (ع) قال: (سألته عن الرجل يحتاج إلى مال ابنه قال: يأكل منه ما شاء من غير سرف، وقال (ع):

في كتاب علي (ع): إن الولد لا يأخذ من مال والده شيئاً إلا بإذنه والوالد يأخذ من مال ابنه ما شاء، وله أن يقع على جارية ابنه إذا لم يكن الابن وقع عليها، وذكر إن رسول الله (ص) قال لرجل: أنت ومالك لأبيك)[٣].

فجوز المشرع أخذ الوالد من مال ولده لنفقته وحجه الواجب عليه بمقدار ما يسد حاجته.

أحكام الوصية:

من أحكام الوصية إذا تعلقت بشيء ولم يعرف وكان مبهما لدى الوصي، فقد حددت الروايات ورفعت هذا الإبهام.

مثلاً لو أوصى بشيء ولم يبين معناه، فلإمام علي (ع) فسر الشيء بواحد من ستة.

---

(١) الاستبصار: ٢٨٣/٣ باب ١٦٧ المواقعة بعد الرجعة ح١٠٠٢؛ تهذيب الأحكام: ٨١/٨ح٢٧٨ ـ ١٩٧.

(٢) تهذيب الأحكام: ٤٣٢/٧ باب من تزوج امرأة على أنها حرة ح٣٤ ـ ١٧٢٣؛ نوادر الأشعري: ٧٩/ح١٧٤؛ بحار الانوار: ٣٦٥/١٠٣.

(٣) تهذيب الأحكام: ٣٤٣/٦ باب المكاسب ٩٣ ح٩٦١.

روى الكليني، عدة من أصحابنا، عن أحمد بن أبي عبد الله، عن محمد بن عمرو، عن جميل، عن أبان، عن علي بن الحسين عليهما السلام (أنه سئل عن رجل أوصى بشيء من ماله، فقال: الشيء في **كتاب علي** (ع) واحد من ستة)[١].

محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن ابن فضال أو غيره، عن جميل، عن أبان، عن علي بن الحسين عليهما السلام قال:

(سئل عن رجل أوصى بشئ من ماله قال: الشيء في **كتاب علي** (ع) من ستة)[٢].

روى أبان بن تغلب، عن علي بن الحسين (عليهما السلام) (أنه سئل عن رجل أوصى بشيء من ماله، فقال: الشيء في كتاب على (ع) واحد من ستة)[٣].

روى الصدوق، عن أبي ـ رحمه الله ـ قال: حدثنا محمد بن يحيى العطار، عن محمد بن أحمد، عن علي بن السندي، عن محمد بن عمرو بن سعيد، عن جميل، عن أبان بن تغلب، عن أبي حمزة، عن علي بن الحسين صلوات الله عليهما، قال: (قلت له: رجل أوصى بشيء من ماله؟

فقال لي: في **كتاب علي** (ع): الشيء من ماله واحد من ستة)[٤].

قال المجلسي ـ رحمه الله ـ: عليه الفتوى، ولا أعلم فيه مخالفاً.

رواه الكليني بسنده المعروف عن السكوني، ويدل على أن السهم ينصرف إلى الثمن كما هو المشهور بين الأصحاب، وذهب الشيخ في أحد قوليه إلى أنه السدس[٥].

النفقات:

يجوز للوالد أن يأخذ من مال ولده يحج به، ولنفقته، واستشهد بحديث النبي (ص).

روى الطوسي، عن الحسن بن محبوب، عن العلا بن رزين، عن محمد بن مسلم، عن أبي عبد الله (ع) قال: (سألته عن الرجل يحتاج إلى مال ابنه قال: يأكل منه ما شاء من غير سرف.

وقال (ع): في **كتاب علي** (ع): إن الولد لا يأخذ من مال والده شيئاً إلا بإذنه والوالد يأخذ من مال ابنه ما شاء، وله أن يقع على جارية ابنه إذا لم يكن الابن وقع عليها، وذكر إن رسول الله (ص) قال لرجل: أنت ومالك لأبيك)[٦].

غسل الجنابة لا وضوء بعده:

أمر الشارع بالطهارة قبل العبادات الشرعية من الغسل والوضوء والتيمم، والغسل من الجنابة، يسقط بعده الوضوء، بل لا يشرع.

---

(١) الكافي: ٧/ ٤٠باب من أوصى بشيء من ماله ح١.

(٢) الكافي: ٧/ ٤٠باب من أوصى بشيء من ماله ح٢؛ تهذيب الأحكام: ٩/ ٢١١ باب الوصية المبهمة ح٨٣٦.

(٣) من لا يحضره الفقيه: ٤/ ٢٠٤ح٥٤٧٣.

(٤) معاني الأخبار: ٢١٧.

(٥) بحار الأنوار: ١٠٠/ ٢١٠.

(٦) تهذيب الأحكام: ٦/ ٣٤٣ح٩٦١ باب ٩٣ المكاسب.

ورد الأمر بالطهارة والوضوء منه (ع) قبل غسل الجنابة إلا إنها محمولة على التقية لموافقتها العامة ومخالفتها للكتاب والسنة فان العامة ذهبوا إلى لزوم الوضوء قبل غسل الجنابة.

بل، وفي بعض الأخبار، وبإسناده عن محمد بن الحسن الصفار، عن إبراهيم بن هاشم، عن يعقوب بن شعيب، عن حريز، أو[١] عمن رواه، ورواية محمد بن مسلم، قال: قلت لأبي جعفر (ع): (أن أهل الكوفة يروون عن علي (ع) انه كان يأمر بالوضوء قبل الغسل من الجنابة. قال: كذبوا على علي (ع) **ما وجدوا ذلك في كتاب علي**) (ع) قال الله تعالى: ﴿... وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ...﴾[٢] [٣]. والرواية ضعيفة السند بالإرسال.

هذا على أن الحكم متسالم عليها بينهم[٤]؛ لأن الأمر بالوضوء مع الجنابة قبلها وبعدها بدعة، وهذه الرواية أمر الأمام بكونها كذب، بل قصور سنده بإرسال، وموافقته مذاهب الجمهور إذ هم بين من أوجب الوضوء مع الجنابة وآخر لديه مستحب، فيحمل على التقية بمقتضى القواعد المقررة عن أئمتنا (عليهم السلام)[٥].

المطلب الثالث: نظرت في كتاب علي (ع)

من أهم من نظر لهذا الكتاب وقرأ ما فيه هو الإمام الباقر (ع)، ونقل لنا قيمة المرء وقدره بالعلم والمعرفة والإدراك، وهكذا الحساب والعقاب بمقدار تلك المعرفة في الدنيا.

ويمكن معرفة مجموعة من الرواة الذين فازوا بشرف الرؤية لهذا الكتاب – كتاب علي (ع) وشرف قراءته ونقل الروايات عنه.

نلخص هؤلاء عاجلاً: (أبو بصير، يحيى بن شبل، محمد بن مسلم، زرارة بن أعين، عبد الملك بن أعين، معتب مولى أبي عبد الله، عذافير الصيرفي والحكم بن عينية، الفضل بن كثير، وغيرهم)[٦] بل يمكن أن نعرف بعض الرواة الذين نقلوا هذا الكتاب وأسماءهم ومن أخبروا عنه[٧].

قيمة المرء:

روي الصدوق، عن أبيه، قال: حدثنا علي بن إبراهيم بن هاشم، عن محمد بن عيسى، عن محمد بن أبي عمير، عن زيد الزراد[٨]، عن أبي عبد الله (ع)، قال: قال أبو جعفر (ع):

---

(١) الترديد من الراوي.

(٢) سورة المائدة: ٦.

(٣) تهذيب الأحكام: ١٦٦/١، الاستبصار: ١٢٥/١؛ وسائل الشيعة: ٥١٦/١.

(٤) فقه السيد الخوئي: ٥٠٨/٧؛ فقه السيد الخميني: ١٤٩/١.

(٥) رياض المسائل: ١٩٧/١.

(٦) كتاب علي: ١٨٦/١.

(٧) المصدر نفسه: ١٨٦.

(٨) ترجم كتابه في خاتمة المستدرك: ٤٧/١ والاختلاف في اسمه بين (بريد الرزاز، يزيد الرزاز وهما من سهو النساخ).

(يا بني اعرف منازل الشيعة على قدر روايتهم ومعرفتهم، فإن المعرفة هي الدراية للرواية، وبالدرايات للروايات يعلو المؤمن إلى أقصى درجات الإيمان، **إني نظرت في كتاب علي (ع)** فوجدت في الكتاب أن قيمة كل امرئ وقدره معرفته، إن لله تبارك وتعالى يحاسب الناس على قدر ما آتاهم من العقول في دار الدنيا)[١].

صلة الرحم:

ومن الأحكام الأخلاقية التي شرعت في كتاب علي (ع) صلة الرحم وما لها من آثار دنيوية وأخروية والاجتماعية.

صحيح أبي حمزة عن أبي جعفر (ع): (قال: **وجدنا في كتاب رسول الله (ص)**: وإذا قطعوا الأرحام جعلت الأموال في أيدي الأشرار...)[٢].

روى الكليني بسنده، عن أحمد، عن الحسن بن محبوب، عن مالك بن عطية، عن أبي عبيدة عن أبي جعفر (ع) قال: (**في كتاب علي (ع)** ثلاث خصال: لا يموت صاحبهن أبدا حتى يرى وبالهن: البغي، وقطيعة الرحم، واليمين الكاذبة يبارز الله بها، وإن أعجل الطاعة ثواباً لصلة الرحم، وإن القوم ليكونون فجاراً فيتواصلون فتنمى أموالهم ويثرون، وإن اليمين الكاذبة وقطيعة الرحم لتذران الديار بلاقع من أهلها وتنقل الرحم وإن نقل الرحم انقطاع النسل)[٣].

ونقلت الرواية بطرق متعددة وأسانيد مختلفة أكثرها صحيحة السند[٤].

اختلاف النسخ في ألفاظ الحديث بين تثقل وثقل أو تنقل ونقل الرحم وهو من تصحيف الألفاظ.

يثرون: من الثروة وهي كثرة المال.

بلاقع: جمع بلقع وبلقعة وهي الأرض القفر التي لا شيء بها.

سنن الأنبياء:

روي القمي، علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن الحسن بن محبوب عن ابن أبي عمير عن أبي عبيدة عن أبي جعفر (ع) قال: (**وجدنا في كتاب علي (ع)** أن قوماً من أهل إيلة من قوم ثمود، وإن الحيتان كانت سيقت إليهم يوم السبت ليختبر الله طاعتهم في ذلك فشرعت إليهم يوم سبتهم في ناديهم وقدام أبوابهم.....)[٥].

---

(١) معاني الأخبار: ١؛ خاتمة المستدرك ـ النوري: ٤٧/١؛بحار الأنوار: ١٠٦/١؛١٨٤/٢.

(٢) الكافي: ٣٤٧/٢، ح٤ باب قطيعة الرحم.

(٣) الكافي: ٣٤٧/٢، ح٤ باب قطيعة الرحم (تثقل الرحم) اختلاف النسخة؛ ثواب الأعمال: ٢٢٧.

(٤) الأمالي: م١١، ص٩٨ ح٨؛ الخصال: باب الثلاثة: ص١٢٤ ح١١٩؛ بحار الأنوار: ١٣٤/٧١ ح١٠٤.

(٥) تفسير القمي: ٢٢٦/١ ـ ٢٢٨؛ تفسير الميزان: ٣٠١/٨؛ بحار الأنوار: ٥٢/١٤.

الكبائر سبعة:

الذنوب الكبائر التي أوعد الله عليها بالنار اختلفت الأخبار في تعدادها بين القلة والكثرة، ولكن في كتاب علي (ع) التأكيد على سبعة منها مهمة، وهذا لا يعني إنكار غيرها.

نقل الكليني، علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن عبد الرحمن بن الحجاج عن عبيد بن زرارة قال: (سألت أبا عبد الله (ع) عن الكبائر، فقال: **هن في كتاب علي (ع) سبع:**

الكفر بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين، وأكل الربا بعد البينة، وأكل مال اليتيم ظلما، والفرار من الزحف، والتعرب بعد الهجرة.

قال: فقلت: فهذا أكبر المعاصي؟

قال: نعم.

قلت: فأكل درهم من مال اليتيم ظلما أكبر أم ترك الصلاة؟

قال: ترك الصلاة، قلت: فما عددت ترك الصلاة في الكبائر؟

فقال: أي شيء أول ما قلت لك؟ قال قلت: الكفر، قال: فإن تارك الصلاة كافر. يعني من غير علة)[1].

والحديث معتبر السند في نقله.

وكلمة يعني في آخر الرواية يحتم أن تكون (من كلام المؤلف أو بعض الرواة وكونه من كلامه (ع) على سبيل الالتفات بعيد جداً)[2].

وفي مقبولة الصدوق، من أجل إرسال ابن أبي عمير؛لأنه لا يرسل إلا عن ثقة، كون الكبائر خمسة وليست سبعة، مع الاختلاف بين الشرك والكفر بالله تعالى.

حدثنا محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد رحمه الله، قال: حدثنا محمد ابن الحسن الصفار، عن أيوب بن نوح، وإبراهيم بن هاشم، عن محمد بن أبي عمير، عن بعض أصحابه، عن أبي عبد الله (ع) قال: (**وجدنا في كتاب علي (ع)** الكبائر خمسة: الشرك، وعقوق الوالدين، واكل الربا بعد البينة، والفرار من الزحف، والتعرب بعد الهجرة)[3].

المطلب الرابع: عندنا كتاب علي (ع)

وجود كتاب علي (ع) وبقية الكتب عند كل إمام وردت الأخبار على تناقلهم هذه الكتب وحفظهم لها مع تراث الأنبياء، حسب مبدأ وراثة الإمام لكتب وعلم الإمام الذي يسبقه، وفي ثنايا البحث يظهر تناقل هذا الكتاب من الإمام إلى من بعده واحداً بعد واحدٍ[4].

---

(١) الكافي: ٢/٢٧٨، ح٨.

(٢) هامش ـ الكافي: ٢/٢٧٨، ح٨.

(٣) علل الشرائع: ٢/باب٢٢٣ العلة التي من أجلها أوجب الله على أهل الكبائر النار ح٢؛ ص٤٧٥.

(٤) بصائر الدرجات: ٤٦٥ ج٩ باب٢٠ ح٦.

محمد بن العباس، عن أحمد بن هوذة، عن إبراهيم بن إسحاق، عن عبد الله بن حماد، عن عمرو بن شمر، عن أبي مخنف، عن يعقوب بن ميثم، أنه **وجد في كتب أبيه أن علياً** (ع) قال: (سمعت رسول الله (ص) يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾)[١].

ثم التفت إلي فقال: هم أنت يا علي وشيعتك وميعادك وميعادهم الحوض تأتون غراً محجلين متوجين، قال يعقوب: فحدثت به أبا جعفر (ع) فقال: هكذا هو **عندنا في كتاب علي** (ع)[٢].

روي للحويزي، وبإسناده إلى يعقوب بن ميثم التمار مولى علي بن الحسين قال: (دخلت على أبي جعفر فقلت له: جعلت فداك يا بن رسول الله أني **وجدت في كتب أبي أن عليا**.

قال: لأبي ميثم أحبب حبيب آل محمد، وإن كان فاسقاً زانياً، وابغض مبغض آل محمد وإن كان صواماً قواماً، فاني سمعت رسول الله (ص) وهو يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾[٣].

ثم التفت إلى، وقال: هم والله أنت وشيعتك يا على، وميعادك وميعادهم الحوض غدا غراً محجلين متوجين، فقال أبو جعفر: هكذا هو عيان في كتاب على)[٤].

وقد ذكرت مجموعة من المصادر هذه الرواية في تفسير الآية المباركة [٥].

ويضيف التستري[٦] مجموعة أخرى من المصادر التي جمعت في تفسير الآية الكريمة بفضل موالي علي (ع) وشيعته وهم خير البرية.

رواه جماعة من أعلام القوم: منهم العلامة العيني الحيدر آبادي في (مناقب علي (ع) ص٣٢ ط اعلم).

---

(١) سورة البينة: ٧.

(٢) الدر المنثور: ٦/٣٧٩؛ أمالي الطوسي: ٤٠٥؛ كنز الفوائد: ٤٠٠؛ بحار الأنوار: ٢٣/٣٩٠؛ الغدير: ٢/٥٧؛ ملحقات الإحقاق: ٣٠/٩٢؛ ج٣/٢٨٧؛ ١٤/٢٥٨؛ ٢٠/٢٦.

(٣) سورة البينة: ٧.

(٤) تفسير نور الثقلين: ٥/٦٤٤؛ أصل الشيعة ـ لكاشف الغطاء: ١٨٤.

(٥) ١ ـ شواهد التنزيل: ٢/٤٥٩ ـ ٤٦٦.

٢ ـ ينابيع المودة، القندوزي: ٢/٣٥٧/٤٥٢؛ ١/١٩٧.

٣ ـ الصواعق المحرقة: ١٦١، الآية الحادية عشر.

٤ ـ جواهر العقدين، الجزء الأول، القسم الثاني: ١٧٨.

٥ ـ فرائد السمطين: ١/١٥٥/١١٨.

٦ ـ كفاية الطالب: ٢٤٦.

٧ ـ الدر المنثور: ٨/٥٨٩.

٨ ـ فضائل الخمسة: ١/٣٢٤.

٩ ـ المناقب: ٢٦٥ ـ ٢٦٦، ح ٢٤٧.

١٠ ـ تذكرة الخواص: ٢٧.

(٦) إحقاق الحق للتستري: ١٥/٢٧٦.

روى من طريق أبي نعيم وابن مردويه والديلمي عن ابن عباس عن النبي جاء: (خير البرية أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين).

ومنهم العلامة السيد صديق حسن خان[١].

روى من طريق ابن مردويه عن ابن عباس قال: (لما نزلت هذه الآية قال رسول الله (ص) لعلي: هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين).

وروى من طريق الضياء مرفوعا نحوه عن علي.

وروى من طريق ابن عدي وابن عساكر عن أبي سعيد قال رسول الله (ص): (علي خير البرية).

الحديث الثاني حديث أبي سعيد رواه جماعة من أعلام القوم: منهم العلامة أحمد بن حجر العسقلاني[٢]....

حدثنا الحسن بن علي ألأهوازي، ثنا معمر بن سهل، ثنا أحمد، ثنا شريك، عن الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد (رض) مرفوعا: (علي خير البرية).

ومنهم العلامة الأمر تسري)[٣]. روى الحديث من طريق ابن عدي، عن أبي سعيد)[٤].

وبعد هذا نعرف من محتوى كتاب علي (ع) يدون أسماء الأئمة وخلفاء الحق بعد النبي (ص).

ويعين أصعب قضية، وهي الإمامة في العقائد مما يخالف ما وجد في الواقع العلمي للأمة الإسلامية.

وهذا لا يرضي جمهور وأغلب المجتمع منذ عصر الرسول (ص) وإلى يومنا الحاضر.

دية الأسنان:

الاعتداء على الأسنان له دية مقدرة شرعية على عددها ومكانها.

روي الكليني، محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، وعلي بن إبراهيم، عن أبيه جميعاً، عن الحسن بن محبوب، عن هشام بن سالم، عن زياد بن سوقة، عن الحكم بن عتيبة قال: قلت لأبي جعفر (ع):

(أصلحك الله، إن بعض الناس له في فمه اثنان وثلاثون سنا، وبعضهم له ثمانية وعشرون، فعلى كم تقسم دية الأسنان؟

فقال: الخلقة إنما هي ثمانية وعشرون سنا: اثنا عشر في مقاديم الفم، وستة عشر سنا في مؤاخيره، فعلى هذا قسمت دية الأسنان.

---

(١) تفسير فتح البيان: ١٠/٣٢٣.

(٢) لسان الميزان: ١/١٧٥.

(٣) أرجح المطالب: ٦٩ ط لاهور.

(٤) إحقاق الحق: ٣/٢٨٥؛ ١٥/٢٧٦؛ ملحقات الإحقاق للمرعشي: ٢١/٦٦٨؛ بحار الأنوار: ٢٢/٤٥٨؛ ٦٥/٧٠.

فدية كل سن من المقاديم إذا كسرت حتى يذهب، فإن ديتها خمسمائة درهم وهي اثنا عشر سنا، فديتها كلها ستة آلاف درهم، ودية كل سن من الأضراس حتى يذهب على النصف من دية المقاديم، ففي كل سن كسر حتى يذهب فإن ديته مائتان وخمسون درهما.

وهي ستة عشر ضرساً، فديتها كلها أربعة آلاف درهم، فجميع دية المقاديم والمؤاخير من الأسنان عشرة آلاف درهم، وإنما وضعت الدية على هذا، فما زاد على ثمانية وعشرون سناً فلا دية له، وما نقص فلا دية له وهكذا **وجدناه في كتاب علي**، قال الحكم:

فقلت: إن الديات إنما كان تؤخذ قبل اليوم من الإبل والغنم؟.

قال: فقال: إنما كان ذلك في البوادي قبل الإسلام، فلما ظهر الإسلام وكثرت الورق[1] في الناس قسمها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) على الورق.

قال الحكم: فقلت له: أرأيت من كان من أهل البوادي، ما الذي يؤخذ منه في الدية اليوم، الإبل أو ورق؟

قال: فقال: الإبل اليوم مثل الورق، بل هي أفضل من الورق في الدية، إنهم إنما كان يؤخذ منهم في دية الخطأ مائة من الإبل، يحسب لكل بعير مائة درهم، فذلك عشرة آلاف درهم، قلت له: فما أسنان المائة البعير؟

قال: فقال: ما حال عليه الحول ذكران كلها)[2]، قال الحكم: فسألته ما تقول في العمد والخطأ في القتل والجراحات؟

قال: فقال: ليس الخطأ مثل العمد، العمد في القتل والجراحات فيها القصاص والخطأ في القتل والجراحات فيها الديات قال:

ثم قال: يا حكم إذا كان لخطأ من القاتل أو الجارح وكان بدويا "فدية ما جنى البدوي من الخطأ على أوليائه من البدويين. قال: وإذا كان القاتل أو الجارح قروياً" فإن دية ما جنى من الخطأ على أوليائه القرويين)[3].

وفي الرواية جوانب من البحث بين العلماء نشير لبعض منها باختصار في فقه الرواية:

- اشتراط الحول في الإبل، في هذه الرواية وهو خلاف الفتوى المشهورة بين العلماء والروايات المطلقة وقد نبه عليه المجلسي (ولم ير قائلاً به من الفقهاء)[4].

---

(١) الورق: الدراهم المضروبة من الفضة، ويفسرها بعض اللغويين بالفضة، مضروبة دراهم أو غير مضروبة. العملة الورقية في كل وقت.

(٢) الفروع من الكافي: ٣٦٤/٧ باب ٢٠٨ ح١؛ التهذيب: ٢٩٤/١٠ ح٣٧ دية الأعضاء:١٠/٢٣٦ح٣٨؛ الاستبصار: ٣٠١/٤ باب١٧٢ح١، من لا يحضره الفقيه: ٩٨/٤ باب٣١ دية الأسنان ح١٢وسائل الشيعة: ٢٦٢/١٩ح٢ باب٣٨ دية الأعضاء.

(٣) الاختصاص: ٢٥٤؛ بحار الأنوار: ٥٠/٢٤.

(٤) هامش الفقيه: ٩٩/٤.

- هناك بحث عند الفقهاء في السن الزائدة هل لها دية أم لا؟ المشهور أن الزائدة إذا قلعت منضمة إلى البواقي لا دية لها كما في الرواية، وإن قلعت منفردة ففيها ثلث الدية. والرواية نصت لا دية فيها. وهنا تفصيل للفقهاء[١].
- أن علماء الحديث نقلوا النص بدون الزيادة التي ذكرت في الاختصاص للمفيد، وهم قد أشاروا لوجود زيادة في الخبر، وهذا ما يصطلح عليه بالتقطيع في الروايات.

وفي روايات أخرى، إن في كتاب علي (ع) وفي بعض أخر أخرج كتاب علي (ع) وتارة أخرى أراني كتاب علي ونشر عندي كتاب علي، وأخذ كتاب علي، وما إلى غير ذلك مما دل على هذه المادة.

مثل الدنيا كالحية:

فالدنيا وشهواتها يحذرها العاقل ويحبها الجاهل، الذي لا يعرف عواقبها، كالصبي الجاهل.

روى الكليني، علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن عبد الله بن المغيرة، عن غياث بن إبراهيم عن أبي عبد الله (ع) قال: (إن في كتاب علي (ع): إنما مثل الدنيا كمثل الحية ما ألين مسها وفي جوفها السم الناقع، يحذرها الرجل العاقل، ويهوى إليها الصبي الجاهل)[٢].

المطلب الخامس: مقدار كتاب علي (ع) وحجمه

هذا الكتاب نوهت الروايات إلى حجمه وكبره ومقدار ما فيه من الروايات.

وفي ضوء ضخامة حجم الكتاب، إذ عبر في بعض الروايات (مدروجاً عظيماً)، (ومثل فخذ البعير، وكتاب غليظ، أو طوله سبعون ذراعا[٣].

وعبر عنها الشهيد زيد بن علي (ع) بـ(كتب علي)، وأنها كانت عند الإمام الصادق (ع).

وهذا الأسلوب يوصل إلى ضخامة هذا الكتاب وبطلان القول بكونه صحيفة صغيرة أو مجرد ورقة واحدة.

ويمكن أطلاق مجموعة من الأسماء عليه، وإن اختلف مضمونها (الصحيفة وكتاب علي والجفر والجامعة أو مصحف علي). وسيأتي توضيح الروايات عليها[٤].

ليس من المستبعد أن تكون كلها تشير لكتاب علي (ع).

وإطلاق الصحيفة الجامعة باعتبار أنها تجمع كل شيء يحتاج إليه المعصوم.

---

(١) المختلف: ٩/٣٧٤: شرائع الإسلام: ٤/٢٦٦.

(٢) الكافي: ٢/١٣٦ ح٢٢: بحار الأنوار: ٧٠/٧٥.

(٣) أعيان الشيعة: ١/٣٣٠: تدوين السنة: ٧٠.

(٤) الإرشاد: ٢٧٤: الذريعة: ٥/١١٨: أعيان الشيعة: ج١ ق١/٣٣٠.

عن محمد بن مسلم عن الإمام الباقر والإمام الصادق (إن عندنا لصحيفة من كتاب علي، أو مصحف علي، طولها سبعون ذراعاً، فنحن نتبع ما فيها فلا نعدوها)[١].

في مقام بيان العلوم عند أهل البيت نقل المفيد عند السؤال عنها:

فسئل عن تفسير هذا الكلام فقال: (أما الغابر فالعلم بما يكون، وأما المزبور، فالعلم بما كان، وأما النكت في القلوب فهو الإلهام، والنقر في الإسماع حديث الملائكة، نسمع كلامهم ولا نرى أشخاصهم.

وأما الجفر الأحمر فوعاء فيه سلاح رسول الله (ص) ولن يظهر حتى يقوم قائمنا أهل البيت.

وأما الجفر الأبيض فوعاء فمه توراة موسى وإنجيل عيسى وزبور داود وكتب الله الأولى.

وأما مصحف فاطمة عليها السلام ففيه ما يكون من حادث وأسماء كل من يملك إلى أن تقوم الساعة.

وأما الجامعة، فهي كتاب طوله سبعون ذراعا، إملاء رسول الله (ص) من فلق فيه وخط علي بن أبي طالب (ع) بيده، فيه ـ والله ـ جميع ما يحتاج الناس إليه إلى يوم القيامة، حتى أن فيه أرش الخدش والجلدة ونصف الجلدة)[٢].

قال محسن الأمين العاملي: (من مؤلفات أمير المؤمنين (ع)[٣].

الجامعة: وهي كتاب طوله سبعون ذراعاً من إملاء رسول الله (ص) وخط علي (ع) مكتوب على الجلد المسمى بالرق.

وكان غالب الكتابة عليه في ذلك العصر لقلة الورق في عرض الجلد جمعت الجلود بعضها إلى بعض حتى بلغ طولها سبعين ذراعاً بذراع اليد الذي هو من المرفق إلى رؤوس الأصابع، وعدها من مؤلفات علي (ع) باعتبار أنه كتبها ورتبها من قول رسول الله ص وإملائه.

وهي أول كتاب جمع فيه العلم على عهد رسول الله (ص) وتكرر ذكرها في أخبار الأئمة عموما وأخبار المواريث خصوصاً.

وكانت عند الإمام أبي جعفر محمد الباقر (ع)، وابنه الإمام أبي عبد الله جعفر الصادق (ع) رآها عندهما ثقات أصحابهما وتوارثها الأئمة من بعدهم.

والظاهر أنها هي المعبر عنها في جملة من الأخبار الآتية بكتاب علي (ع) وبالكتاب الذي بإملاء النبي (ص)، وخط علي (ع) وبكتاب علي (ع) الذي هو سبعون ذراعاً، وبالصحيفة

---

(١) بصائر الدرجات: ١٤٦؛ بحار الأنوار: ٥٣/٢٦.

(٢) الإرشاد ـ المفيد: ١٨٦/٢؛ أعلام الورى: ٥٣٥/١؛ الاحتجاج ٢: ٣٧٢، روضة الواعظين ٢١٠، كشف الغمة ٢: ٧٠٥ وباختلاف يسير في: الكافي ١: ٣٠٧/٣.

(٣) أعيان الشيعة: ٩٤/١.

التي طولها سبعون ذراعاً وبالصحيفة التي فيها ما يحتاج إليه حتى أرش الخدش وبالصحيفة العتيقة من صحف علي (ع) وشبه ذلك.

فممن رأى الجامعة عند الباقر (ع) سويد بن أيوب، وأبو بصير، ومحمد بن مسلم، وزرارة بن أعين، مشاهدة هذا الكتاب[١].

روى محمد بن الحسن الصفار، حدثنا عن علي بن إسماعيل، عن علي بن النعمان، عن سويد بن أيوب[٢]، عن أبي جعفر (ع) قال: كنت عنده فدعا **بالجامعة** فنظر فيها أبو جعفر (ع) فإذا فيها المرأة تموت وتترك زوجها ليس لها وارث غيره قال: فله المال كله) الحديث[٣].

الصفار، حدثنا أحمد بن محمد، عن علي بن الحكم، عن علي بن أبي حمزة عن أبي بصير عن أبي جعفر (ع) قال: (أخرج إلي أبو جعفر (ع) صحيفة فيها الحلال والحرام والفرائض.

قلت: ما هذه، قال، هذه إملاء رسول الله ص وخط علي بيده، قال: فقلت: فما تبلى قال، فما يبليها، قلت: وما تدرس قال وما يدرسها قال: هي الجامعة أو من الجامعة)[٤].

وممن رأى الجامعة عند الصادق (ع) أبو بصير.

روى الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي عن الحسين بن سعيد عن النضر عن يحيى الحلبي عن أيوب بن الحر عن أبي بصير قال: (كنت عند أبي عبد الله (ع) فدعا بالجامعة فنظر فيها) الحديث.

الحسن بن محبوب عن علي بن رئاب عن أبي بصير قال: (سألت أبا عبد الله (ع) عن شيء من الفرائض فقال لي: ألا اخرج لك كتاب علي (ع).

فقلت: كتاب علي (ع) لم يدرس؟! فقال: يا أبا محمد إن كتا ب علي (ع) لا يندرس، فأخرجه فإذا كتاب جليل فإذا فيه رجل مات وترك عمه وخاله قال: للعم الثلثان وللخال الثلث)[٥].

ما ورد في كتاب علي عن الباقر (ع):

روى الصفار، عن إبراهيم بن هاشم عن جعفر بن محمد، عن عبد الله بن ميمون القداح، عن أبي عبد الله، عن أبيه (ع) (قال: في كتاب علي كل شيء يحتاج إليه حتى أرش الخدش والأرش)[٦].

ما ورد في كتاب علي عن الصادق (ع).

---

(١) مكاتيب الرسول: ٧١، ينابيع، العدد ١٧ سنة ١٤٢٨هـ بحث حسن الربيعي، الجامعة: ٩٦.

(٢) عن أبي أيوب عن أبي بصير. بصائر الدرجات: ١٤٥.

(٣) بصائر الدرجات: ١٤٥.

(٤) بصائر الدرجات: ١٤٤.

(٥) الفروع: ١١٩/٧، ح١؛ تهذيب الأحكام: ٣٢٤/٩، ح١؛ وسائل الشيعة: ١٨٦/٢٦ ح٣٢٧٨٧؛ حقيقة الجفر: ٧٦.

(٦) بصائر الدرجات: ١٤٨ ح٦.

روى الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي بإسناده عن علي بن الحسن بن فضال، عن محمد بن عبد الله بن زرارة، عن محمد بن مسلم، عن يونس، عن القاسم بن سليمان، قال حدثني أبو عبد الله (ع) قال: (إن في كتاب علي (ع) إن الإخوة من الأم) الحديث.

وبإسناده عن الحسن بن محمد بن سماعة عن الحسن بن محبوب عن أبي أيوب عن أبي عبد الله (ع) قال: (إن في كتاب إن العمة بمنزلة الأب الحديث.

وروى الكليني عن عدة من أصحابنا عن سهل بن زياد.

وعن محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد جميعاً عن ابن محبوب عن عبد الرحمن بن الحجاج قال: سالت أبا عبد الله (ع)، وذكر حديثا، ثم قال: كذلك هو في كتاب علي (ع).

وفي رواية أخرى: كذلك وجدناه في كتاب علي وروى محمد بن علي بن الحسين بن بابوية القمي المعروف بالصدوق بإسناد عن الحسن بن محبوب عن خالد بن جرير عن أبي عبد الله (ع) في الجد مع الإخوة لأم قال: إن في كتاب علي (ع) إن الإخوة من الأم يرثون مع الجد الثلث.

المراد بكتاب علي (ع) في هذه الأخبار هو الجامعة، ويحتمل على بعد أن يراد به هنا صحيفة الفرائض الآتية.

رؤية كتاب علي عند الباقر (ع) مثل فخذ الرجل.

روى الصفار، عن محمد بن الحسين، عن جعفر بن بشير، عن الحسين بن أبي مخلد، عن عبد الملك قال: (دعا أبو جعفر (ع) بكتاب علي (ع) فجاء به جعفر (ع) مثل فخذ الرجل مطويا، إذا فيه أن النساء ليس لهن من عقار الرجل إذا هو توفى عنها (عنهن) شيء، فقال أبو جعفر: هذا والله خط علي بيده وإملاء رسول الله (ص)...)[1].

ما ورد عن الصادق في كتاب علي (ع) إنه سبعون ذراعاً.

روى الصفار، عن علي بن الحسن، عن أبيه، عن إبراهيم بن محمد، عن مروان قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: (عندنا كتاب علي (ع) سبعون ذراعا)[2].

ما ورد عن الصادق في الصحيفة العتيقة من صحف علي (ع).

روى الصفار، حدثنا محمد بن عبد الحميد، عن يونس بن يعقوب، عن معتب قال: قال: (أخرج إلينا أبو عبد الله (ع) صحيفة عتيقة من صحف علي (ع) فإذا فيها ما نقول: إذا جلسنا لنتشهد)[3].

ما ورد عن الباقر (ع) في الصحيفة التي طولها سبعون ذراعاً.

روى الصفار، حدثنا يعقوب بن يزيد، عن ابن أبي عمير، عن إبراهيم بن عبد الحميد، وأبي المعزا، عن حمران بن أعين، عن أبي جعفر (ع) إنه أشار إلى بيت كبير، وقال: (يا حمران إن

---

(١) بصائر الدرجات: ١٦٥ح١٤.

(٢) بصائر الدرجات: ١٤٧/باب١٢ ح٢.

(٣) بصائر الدرجات: ١٤٥ ح١٤.

في هذا البيت صحيفة طولها سبعون ذراعاً بخط علي وإملاء رسول الله (ص) ولو ولينا الناس لحكمنا بينهم بما انزل الله لم نعد ما في هذه الصحيفة) الحديث[١].

بعض ما ورد عن الصادق (ع) في الصحيفة التي طولها سبعون ذراعاً.

روى الصفار، حدثنا عن محمد بن عبد الحميد، عن يونس بن يعقوب، عن منصور بن حازم، عن أبي عبد الله (ع) قال: (قلت: إن الناس يذكرون إن عندكم صحيفة طولها سبعون ذراعا فيها ما يحتاج إليه الناس، وإن هذا لهو العلم، فقال أبو عبد الله (ع): إنما هو أثر عن رسول الله (ص) إن العلم الذي يحدث في كل يوم وليلة). الحديث[٢].

فظهر من ملاحظة مجموع هذه الأخبار، وضم بعضها إلى بعض أن الجامعة، وكتاب علي (على) الإطلاق، والذي طوله سبعون ذراعاً والكتاب الذي بإملاء رسول الله (ص) وخط علي (ع)، والصحيفة التي طولها سبعون ذراعاً، والجلد الذي هو سبعون ذراعاً، والصحيفة العتيقة كلها يراد بها كتاب واحد[٣].

الرواية من كتاب علي (ع) لقد صاحب علي (ع) رسول الله (ص) في فترة بعثته كلها، ولهذا استطاع أن يحفظ ويدون قدراً عظيماً من أحاديث رسول الله (ص) في كتاب.

(وفي الحقيقة كان ذلك الكتاب من إملاء رسول الله (ص) وكتابة علي (ع).

ولقد ذكرت خصوصيات هذا الكتاب الذي صار بعد استشهاد الإمام علي (ع) إلى أهل بيته في أحاديث أهل البيت (عليهم السلام).

يقول الإمام الصادق عن هذا الكتاب: "طوله سبعون ذراعاً، إملاء رسول الله (ص) قاله من فلق فيه، وخط علي بن أبي طالب (ع) بيده، فيه والله جميع ما تحتاج إليه الناس إلى يوم القيامة"[٤].

ومن الجدير بالذكر أن هذا الكتاب بقي عند أهل البيت يتوارثه إمام من إمام، وقد نقل الإمام الباقر، والإمام الصادق (ع) روايات عديدة منه، وربما أطلعوا بعض شيعتهم عليه.

ويوجد قسم كبير من أحاديثه الآن في المجاميع الحديثية الشيعية وبالأخص كتاب "وسائل الشيعة".

إذ قال الحر العاملي: (وكان (ص) يبالغ في الاهتمام بشأنه، والاعتناء بتعليمه وتربيته من بين أصحابه، فيقرأ عليه ما أوحي إليه من الكتاب فيكتب، ويفسر له مجملاته ومتشابهاته ويبين له ناسخه ومنسوخه فيحفظ، فأملى عليه من نواميس الإسلام، وأحكامه وسننه وفروضه، ما يحتاج الناس إليه في معاشهم ومعادهم، فدون (ع) بخط يده في

---

(١) بصائر الدرجات: ١٤٣ ح٤.

(٢) بصائر الدرجات: ١٤٦ ح٢١.

(٣) أعيان الشيعة: ٩٤/١.

(٤) بحار الأنوار: ١٨/٢٦ ـ ٦٦.

حياته (ص) مما أملى عليه كتاب الأحكام والسنن، فيه كل حلال وحرام، حتى أرش الخدش، وهو المسمى بالصحيفة الجامعة.

وصنف كتاباً في الديات يسمى بالصحيفة وكتاب الفرائض، كان يعلقه بقراب سيفه.

وقد نقل البخاري عنه في صحيحه[١]، أورده الصدوق بتمامه في كتاب من لا يحضره الفقيه[٢]، وشيخ الطائفة في كتاب الديات من التهذيب[٣] وأدرجه ثقة الإسلام الكليني كثيراً منه في أبواب الديات من كتابه الكافي[٤]، وهو المسمى بديات (أو أصل) ظريف ابن ناصح، وسمي باسمه لكونه في طريق روايته.

وكتب (ع) أيضاً ما يلقى على فاطمة عليها سلام الله المسمى بصحيفة فاطمة)[٥].

كان رسول الله (ص) أول ناشر للكتابة في الإسلام في مدينته المنورة وبين أصحابه المسلمين.

بل كان جماعة في عهده (ص) يحفظون القرآن، وهو عندهم مكتوب، كما يروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) وعبد الله بن مسعود.

وهذا الأمر يتناقض مع ما ذهب إليه القائلون بالنهي عن تدوين الحديث ونسبة ذلك النهي إلى رسول الله صلى اله عليه وآله، فإنا نقول حتى وإن صح نهي النبي (ص) عن تدوين حديثه الذي هو وحي يوحى، وتفسير ما غمض وتفصيل ما أجمل من القرآن الكريم.

فيمكننا أن نحمل هذا النهي على أوائل البعثة النبوية خوفا من التباس القرآن بغيره، إلا إنه ـ وهذا مما لاشك فيه ـ إن العرب وبعد فترة قليلة عرفوا بذوقهم اللغوي كلام القرآن الذي يعلو كل كلام.

وكيف ما كان فقد سمح رسول الله (ص) لأصحابه بكتابة حديثه في حياته، بل كانت له (ص) صحيفة كتبت بإشرافه المباشر، معلقة بقراب سيفه، وهي التي أعطاها (ص) لعلي (ع) فاشتهرت باسم صحيفة علي بن أبي طالب (ع). وقد روى عنها الشيعة والسنة أحاديث.

وهذه الصحيفة صغيرة فيها العقل ومقادير الديات وأحكام فكاك الأسير، وغير ذلك وقد أخرج عنها من العامة: البخاري في صحيحه في كتاب الديات[٦] وباب الدية على العاقلة وابن ماجة في سننه[٧] وأحمد في مسنده[٨].

---

(١) صحيح البخاري: ١١٩/١؛ الموافقات: ٣٧٢/٣.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٢٠٩/٣.

(٣) تهذيب الأحكام: ٣٤٥/٩.

(٤) الكافي: ١٦٣/٨.

(٥) وسائل الشيعة: ٥/١.

(٦) صحيح البخاري: الديات: ١٩٦/٤.

(٧) سنن ابن ماجة ٢: ٢٦٥٨/٨٨٧.

(٨) مسند أحمد ١: ٧٩.

وكتب في عهده (ص) صحائف أخرى، منها:

١ - صحيفة علي بن أبي طالب، وهي كتاب ضخم، أفصح الأئمة الأطهار (عليهم السلام) عن ضخامة حجمها فقالوا: إنها صحيفة طولها سبعون ذراعا، أملاها رسول الله (ص) على علي (ع)، فكتبها علي بخطه.

وهو أول كتاب جمع فيه العلم عن رسول الله (ص)[١].

٢ - صحيفة أبي رافع المدني (٣٥هـ) مولى رسول الله (ص) وقال النجاشي: لأبي رافع كتاب السنن والأحكام والقضايا[٢].

وكان ابن عباس يأتي أبا رافع فيقول: ما صنع رسول الله (ص) يوم كذا؟ ما صنع رسول الله (ص) يوم كذا؟ ومع ابن عباس ألواح يكتب فيها[٣].

٣ - صحيفة سعد بن عبادة الأنصاري (ت: ١٥هـ)، جمع هذا الصحابي مجموعة من الأحاديث التي سمعها من الرسول (ص) في صحيفته، وروى الترمذي عنها[٤]، والبخاري[٥]، ويشير الدكتور صبحي صالح إلى أن ابن الصحابي سعد بن عبادة الأنصاري كان يروي صحيفة أبيه[٦].

خبر صحيفة علي (ع) مشهور:

ولعل هذا الكتاب أو قسما منه، نقل من إملاء النبي (ص) وخط علي وكتابته في روايات العامة.

ومما يؤكد وجود الصحيفة الجامعة هو ما نقله علماء الحديث من الفريقين عنها.

وهي صحيفة تشتمل على مقادير الديات وفدية الأسير وأحكام أخرى.

ما نقله البخاري (ت: ٢٥٦هـ) عن كتاب علي (ع) أو صحيفة الإمام التي كان يكتب فيها. باب كتابة العلم.

حدثنا ابن سلام قال أخبرنا وكيع، عن سفيان، عن مطرف، عن الشعبي، عن أبي جحيفة، قال: قلت: لعلي هل عندكم كتاب؟

قال: لا، إلا كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل مسلم، أو ما في هذه الصحيفة.

قال: قلت: وما في هذه الصحيفة؟

قال: العقل، وفكاك الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر)[٧].

---

(١) وسائل الشيعة: ٥/١.

(٢) رجال النجاشي: ٤ ترجمة ١: مذاهب الإسلاميين: ٦٤.

(٣) طبقات ابن سعد ٢: ٣٧١: والإصابة ٢: ٣٣٢.

(٤) الجامع: ٦٢٧/٣.

(٥) إرشاد الساري: ١٢٢/٥: مذاهب الإسلاميين: ٦٤.

(٦) أصول الحديث: ١٩٥.

(٧) صحيح البخاري: ٣٢/١: سنن ابن ماجه: ٨٨٧/٢ح٢٦٥٨ح جامع بيان العلم: ٧١/١.

ويعرف من هذه الرواية أنه كتب بعض آثار الرسول (ص) وما فهمه، من أحكام الديات والفداء الأسير، واحترام دم المسلم.

ونص عبارة البخاري في كتاب الجهاد هكذا: "حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا زهير، حدثنا مطرف، أن عامراً حدثهم عن أبي جحيفة ـ رضى الله عنه ـ قال: قلت لعلي (ع):

(هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟

ـ قال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أعلمه إلا فهما يعطيه الله رجلا في القرآن، وما في هذه الصحيفة.

قلت: وما في الصحيفة؟ ـ قال: "العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر")[1].

وفى سائر الموارد المشار إليها ذكره بألفاظ متفاوتة وإسناد مختلفة لكن المعنى في جميعها محفوظ لا يتغير.

ونقله أحمد بن حنبل قال: حدثنا عبد الله، حدثني أبي، حدثنا سفيان، عن مطرف عن الشعبي عن أبي جحيفة قال: (سألنا عليا (ع) هل عندكم من رسول الله (ص) شيء بعد القرآن؟ قال: "لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهم يؤتيه الله عز وجل رجلاً في القرآن أو ما في الصحيفة قلت: وما في الصحيفة؟ ـ قال: العقل وفكاك الأسير ولا يقتل مسلم بكافر")[2].

ونقله من عاهد ثم غدر بلفظ.

حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي عن أبيه، عن علي قال: (ما كتبنا عن النبي (ص) إلا القرآن، وما في هذه الصحيفة: قال النبي (ص): المدينة حرام ما بين عائر إلى كذا فمن أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل، وذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلما فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل، ومن والى قوما بغير إذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل)[3].

باب إثم من تبرأ من مواليه:

حدثنا قتيبة ابن سعيد، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، قال: قال: علي رضي الله عنه (ما عندنا كتاب نقرؤه إلا كتاب الله غير هذه الصحيفة، قال: فأخرجها، فإذا فيها أشياء من الجراحات وأسنان الإبل، قال:

وفيها، المدينة حرم ما بين عير إلى ثور فمن أحدث فيها حدثا أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل، ومن والى قوما بغير إذن مواليه.

---

(١) صحيح البخاري: ١٧٨/٢.

(٢) مسند أحمد بن حنبل: ٧٩/١/طبعة دار صادر ـ بيروت.

(٣) صحيح البخاري: ٢٠٥/٢ باب إثم من عاهد ثم غدر ح٢.

فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل، وذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم فمن أخفر مسلما فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل)[١].

باب العاقلة:

حدثنا صدقة بن الفضل، أخبرنا ابن عيينة، حدثنا مطرف، قال: سمعت الشعبي قال: سمعت أبا جحيفة قال: (سألت عليا رضي الله عنه هل عندكم شيء ما ليس في القرآن، وقال: مرة ما ليس عند الناس فقال: والذي فلق الحب وبرأ النسمة ما عندنا إلا ما في القرآن إلا فهما يعطى رجل في كتابه وما في الصحيفة، قلت: وما في الصحيفة، قال: العقل، وفكاك الأسير، وان لا يقتل مسلم بكافر)[٢].

باب لا يقتل المسلم بالكافر:

حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا زهير، حدثنا مطرف، أن عامرا حدثهم، عن أبي جحيفة، قال: قلت: لعلي، وحدثنا صدقة بن الفضل، أخبرنا ابن عيينة حدثنا مطرف، قال: سمعت الشعبي يحدث قال سمعت أبا جحيفة قال: (سألت عليا رضي الله عنه هل عندكم شيء مما ليس في القرآن، وقال: ابن عيينة مرة ما ليس عند الناس.

فقال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما عندنا إلا ما في القرآن إلا فهما يعطى رجل في كتابه، وما في الصحيفة قلت وما في الصحيفة قال: العقل، وفكاك الأسير، وان لا يقتل مسلم بكافر)[٣].

فهذه الروايات أشارت إلى صحيفة الإمام علي (ع) وهي كتابه الذي أملاه الرسول (ص). وهذه تعتبر من علامات الإمامة.

ورد نبأ هذه الصحيفة في مصادر الأخبار أخرى عند الجمهور[٤].

وهذه الصحيفة سواء كانت في سيف الرسول (ص) كما في بعض الروايات وهي من تراثه وأن الرسول (ص) أعطاها لعلي وورثها إياه، وكانت عنده.

وهذه الصحيفة عند علي (ع) أما وراثة من سيد الكائنات أو إملاء من على علي (ع) وكتب علي بيده ويحتمل تعدد كل ذلك[٥].

علي بن موسى الرضا (ع)، بإسناده قال: حدثني أبي علي بن أبي طالب (ع) فقال: (ورثت عن رسول الله (ص) كتابين: كتاب الله عز وجل، وكتابا في قراب سيفي).

---

(١) صحيح البخاري: ١٦٩/٤.

(٢) صحيح البخاري: ١٩٣/٤باب الديات.

(٣) صحيح البخاري: ١٩٤/٤باب الديات .

(٤) مسند أحمد: ١٠٦/١؛ وفتح الباري: ١٨٣/١. .

(٥) صحيفة علي بن أبي طالب (ع): ٤١.

(قيل: يا أمير المؤمنين، وما الكتاب الذي في قراب سيفك؟)

قال: (من قتل غير قاتله، أو ضرب غير ضاربه، فعليه لعنة الله)[١].

رواه الشيخ الصدوق... عن الإمام جعفر بن محمد (ص) قال: (وجد في قراب سيف رسول الله (ص) من قتل غير قاتله أو ضرب غير ضاربه أو آوى محدثا فلا يقبل الله من حرفا ولا عدلا ومن تولى غير مواليه فهو كافر بما انزل الله على رسوله...)[٢].

المهم، أن وجود هذه الصحيفة دليل على تدوين الحديث في عصر الرسالة وكان النبي (ص) يحافظ عليه، فهذه الصحيفة مختصرة، ومقتصر على الجمل بينما الكتاب، واسع ومفصل جدا، ويمكن أن تكون جزءا منه بل نفسه كما نوضحه.

وعن أم سلمه زوج رسول (ص): قالت: دعا رسول الله (ص) بأديم، وعلي بن أبي طالب عنده، فلم يزل رسول الله (ص) يملي، وعلي يكتب، حتى ملأ بطن الأديم، وظهره، وأكارعه[٣].

روى الصفار، حدثنا عمران بن موسى، عن محمد بن الحسين، عن محمد بن عبد الله بن زرارة، عن عيسى بن عبد الله، عن أبيه، عن جده، عن عمر بن أبي سلمة، عن أمه، أم سلمة قال: قالت: (اقعد رسول الله عليا (ع) في بيتي.

ثم دعا بجلد شاة فكتب فيه حتى ملأ أكارعه.

ثم دفعه إلى، وقال: من جاءك من بعدي بآية كذا وكذا فادفعيه إليه فأقامت أم سلمة حتى توفى رسول الله (ص) وولى أبو بكر أمر الناس بعثتني فقالت: اذهب وانظر ما صنع هذا الرجل فجئت فجلست في الناس حتى خطب أبو بكر.

ثم نزل فدخل بيته فجئت فأخبرتها فأقامت حتى إذا ولى عمر بعثتني فصنع مثل ما صنع صاحبه فجئت فأخبرتها ثم أقامت حتى ولى عثمان فبعثتني فصنع مثل ما صنع صاحباه فأخبرتها ثم أقامت حتى ولى على فأرسلتني فقالت انظر ماذا يصنع هذا الرجل فجئت فجلست في المسجد فلما خطب على نزل فرآني في الناس.

فقال: اذهب فاستأذن على أمك، قال فخرجت حتى جئتها فأخبرتها وقلت قال لي استأذن لي على أمك وهو خلفي يريدك.

قالت: وأنا والله أريده فاستأذن على فدخل فقال لها أعطيني الكتب الذي دفع إليك بآية كذا وكذا كأني انظر إلى أمي حتى قامت إلى تابوت لها في جوفها تابوت صغير فاستخرجت من جوفه كتاباً فدفعته إلى علي ثم قالت لي أمي يا بني ألزمه فلا والله ما رأيت بعد نبيك إماماً غيره)[٤].

---

(١) صحيفة الإمام الرضا(ع): ٧١، ح١٣٩؛ عيون أخبار الرضا (ع) ٢/ ٤٠ ح١٢٢.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) أدب الإملاء والاستملاء ـ السمعاني: ١٢ ـ ١٣؛ تدوين السنة: ٧٣.

(٤) بصائر الدرجات: ١٦٣ ج٤ ح٤.

ولهذه الرواية سند آخر، ويختلف ببعض الألفاظ في المصادر[١].

والإمام علي (ع) قد كتب كتاباً واسعاً بعنوان (كتاب علي "ع") الذي عقد البحث حوله[٢].

ويعتبر من علامات الإمامة، ويحفظ الوثائق والأحاديث عن النبي (ص).

وروي في الطبرسي عند الحديث عن علامات الإمامة، وبين منها كتاب علي (ع) والصحيفة التي جمع فيها الروايات التي يحتاج عند السؤال عنها:

(وروي عن الحسن بن علي بن فضال عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا (ع): أنه قال: للإمام علامات: يكون أعلم الناس، وأحكم الناس، وأتقى الناس، وأشجع الناس، وأسخى الناس، وأعبد الناس، ويولد مختوناً، ويكون مطهراً ويرى من خلفه كما يرى من بين يديه، ولا يكون له ظل، وإذا وقع إلى الأرض من بطن أمه وقع على راحتيه رافعاً صوته بالشهادتين، ولا يحتلم، ولا ينام عينه ولا ينام قلبه، ويكون محدثاً ويستوي عليه درع رسول الله (ص)، ولا يرى له بول ولا غائط، لأن الله قد وكل الأرض بابتلاع ما يخرج منه، وتكون رائحته أطيب من رائحة المسك، ويكون أولى الناس منهم بأنفسهم، وأشفق عليهم من آبائهم وأمهاتهم، ويكون أشد الناس تواضعا لله عز وجل، ويكون آخذ الناس بما يأمر به وأكف الناس عما ينهى عنه، ويكون دعاؤه مستجابا، حتى أنه لو دعى على صخرة لانشقت بنصفين، أو يكون عنده سلاح رسول الله وسيفه ذو الفقار، وتكون عنده صحيفة فيها أسماء شيعته إلى يوم القيامة، **وصحيفة فيها أسماء أعدائه إلى يوم القيامة ويكون عنده الجامعة، وهي صحيفة فيها سبعون ذراعاً، فيها جميع ما يحتاج إليه ولد آدم**، ويكون عنده الجفر الأكبر والأصغر، وهو أهاب كبش فيها جميع العلوم حتى أرش الخدش، حتى الجلدة ونصف الجلدة وثلث الجلدة، ويكون عنده مصحف فاطمة عليها السلام)[٣].

معنى الجفر في الحديث: (أملى رسول الله (ص) على أمير المؤمنين (ع) الجفر والجامعة).

وفسراً في الحديث باهاب ماعز وأهاب كبش فيهما جميع العلوم حتى أرش الخدشة والجلدة ونصف الجلدة[٤].

ونقل عن المحقق الشريف الإيجي: (إن الجفر والجامعة كتابان لعلي (ع) قد ذكر فيهما على طريقة علم الحروف الحوادث إلى انقراض العالم.

وكان الأئمة المعروفون من أولاده يعرفونهما ويحكمون بهما)[٥].

---

(١) الإمامة والتبصرة من الحيرة: ١٧٤ ح٢٨.

(٢) تدوين السنة: ٦١.

(٣) الاحتجاج: ٤٤٨/٢.

(٤) مجمع البحرين: ٢٤٨/٣.

(٥) شرح المواقف للإيجي: ٢٢/٥.

وقال الفيروز آبادي: (الجفر من أولاد الشاء: ما عظم واستكرش، وبلغ أربعة أشهر)[١].

وفي الجوهري: (الجفر من أولاد المعز ما بلغ أربعة أشهر وجفر جنباه وفصل عن أمه والأنثى جفرة)[٢].

فالجفر في الحديث على حذف مضاف أي جلد الجفر ولعله صار كالعلم على جلد مخصوص لثور أو شاة لكثرة الاستعمال.

ويبين الطهراني وجه التناسب بين إطلاق الاسم الجفر على جلد الشاة وبين ما كتبه علي (ع) عليه حتى أطلق عليه ذلك.

قائلاً: (الجفر " الجفر من أولاد المعز ما بلغ أربعة أشهر واستكرش واستغنى عن أمه، والجفرة الأنثى منها، روى حديث جفرة ظهرت للنبي (ص) على جبل أحد فأمر (ص) علياً بذبحها وسلخها من قبل الرقبة وبعد قلب الجلد؟

وجده مدبوغاً، فكان جبرائيل يوحى إلى النبي (ص) بالأخبار والحوادث من الأولين والآخرين، والنبي يمليها على علي (ع) وهو يكتبها في ذلك الجلد بمداد أخضر أتى بها جبرائيل.

يبقى الجلد ويبقى المداد لا يأكله الأرض - إلى قوله - فمن هذا الكتاب استخرجت أحاديث الملاحم كله

فيظهر أن وجه تسمية هذا العلم بالجفر إنما هو لكونه مكتوبا أولاً في الجفر[٣] وسيأتي التعرض له مفصلاً في الفصل الثالث من البحث.

وقال الشيخ البهائي: (قد تضافرت الأخبار بأن النبي ص أملى على على (ع) كتابي الجفر والجامعة، وان فيهما علم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة)[٤].

قال ابن خلدون: (إن كتاب الجفر كان أصله أن هارون بن سعيد العجلي وهو رأس الزيدية كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق (ع) وفيه علم ما سيقع لأهل البيت على العموم وبعض الأشخاص منهم على الخصوص)[٥].

وقال ابن قتيبة: (الجفر - جلد جفر كتب فيه الإمام الصادق لآل البيت كل ما يحتاجون إلى علمه)[٦].

بالجملة توافقت كلمات العامة والخاصة في نسبة تدوين علم يسمى بالجفر إلى أمير المؤمنين (ع) في جلد جفر عن إملاء رسول الله (ص).

---

(١) القاموس المحيط: ٣٩٢/١.

(٢) الصحاح: ٦١٥/٢.

(٣) الذريعة: ١١٩/٥؛ البحار: ٢٨١/٧.

(٤) شرح الأربعين: ٨٧.

(٥) مقدمة ابن خلدون: ٩٨.

(٦) تأويل مختلف الحديث: ٧٠ - ٧١.

وإما كتاب الجفر الذي كتبه الإمام الصادق (ع) كما ذكره ابن قتيبة في "أدب الكاتب" وقال: (وفيه كل ما يحتاجون إلى علمه إلى يوم القيمة) فلعله نقله عن خط جده أمير المؤمنين (ع)، أو أن مراده أن هذا الجفر كان عند الصادق (ع) كما أخبر (ع) بكونه عنده في الخبر المروى في "الكافي" في باب الجفر والجامعة بإسناده إلى الحسين بن أبي العلاء عنه (ع) أنه قال عندي "الجفر الأبيض" فقال له الحسين بن أبي العلاء. وأي شيء فيه.

فقال فيه زبور داود وتوراة موسى، وإنجيل عيسى، وصحف إبراهيم، والحلال والحرام، ومصحف فاطمة، وفيه ما يحتاج الناس إلينا، ولا نحتاج إلى أحد - إلى قوله (ع) - وعندي الجفر الأحمر. فقال ابن أبي العلاء فأي شيء فيه.

فقال (ع) السلاح وذلك انما يفتح للدم. يفتحه صاحب السيف للقتل.

يمكن أن يكون مراده بالسلاح، هو سلاح رسول الله ص ومراده من الجفر الأبيض هو ما كتبه أمير المؤمنين (ع) في جلد الجفر بإملائه (ص) وكلاهما من ودائع النبوة كانا عند علي (ع) وتداولهما الأئمة واحدا بعد واحد)[1].

وما أملاه النبي (ص) على الإمام علي (ع) ودونه بيمينه نقل في الروايات الواردة عنهم بعناوين مختلفة تؤكد كتابة علي (ص) للحديث والسنة في عصر الرسالة الأولى.

والأخبار الواردة في الجفر فيها بعض الاختلاف ونحن نشير إليها وإلى الجمع بينها فمنها ما يدل عليه بوجه الإجمال مع احتماله لجلد البعير وجلد الشاة[2].

وما زال العلماء يواكبون على نقل مقدار هذه الصحيفة وأهميتها حسب ما أخبر بها الأئمة عن أجدادهم الأطهار.

قال: (الصادق (ع) علم رسول الله عليا (ع) ألف باب... فإن عندنا الجامعة... صحيفة طولها سبعون ذراعا بذراع رسول الله (ص) وإملائه في فلق فيه وخط على بيمينه فيها... حتى الأرش في الخدش... وإن عندنا الجفر وعاء من آدم فيه علم النبيين والوصيين... وإن عندنا لمصحف فاطمة... فيه مثل قرآنكم... والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد... قال: العلم ما يحدث بالليل والنهار...)[3].

والنبي (ص) وهو الهادي والمرشد والحافظ لعلم أمته حث الإمام علي (ع) على كتابة ما يتحدث به وما يقوله في حياته.

ولذا قال النوري: (فأودع رسول الله (ص) عليا (ع) نواميس الإسلام وأحكامه، وسننه وفروضه وما يحتاجه الناس في معاشهم ومعادهم، فدون (ع) - مما دون - بخط يده، في حياة

---

(١) هامش الذريعة: ١١٩/٥.

(٢) أعيان الشيعة: ٩٦/١.

(٣) حق اليقين للسيد عبد الله شبر: ٨٢/١.

الرسول، مما أملى عليه، كتاب الأحكام والسنن، فيه كل حلال وحرام حتى أرش الخدش، وهو المسمى بالصحيفة الجامعة[١].

وأخرج الحمويني، بسنده عن الباقر، عن أبيه، عن جده أمير المؤمنين (ع)، قال: (قال رسول الله (ص): (يا علي اكتب ما أملي عليك، قلت: يا رسول الله أتخاف علي النسيان؟).

قال: لا، وقد دعوت الله عز وجل أن يجعلك حافظاً، ولكن اكتب لشركائك الأئمة من ولدك بهم تسقى أمتي الغيث، وبهم يستجاب دعاؤهم وبهم يصرف الله عن الناس البلاء، وبهم تنزل الرحمة من السماء، وهذا أولهم وأشار إلى الحسن (ع) ثم قال: وهذا ثانيهم وأشار إلى الحسين، قال: والأئمة من ولده)[٢].

وعن أبي عبد الله (ع) قال: سمعته يقول: (إن عندنا جلدا سبعون ذراعا إملاء رسول الله (ص) وخط علي (ع)، وإن فيه جميع ما يحتاجون إليه حتى أرش الخدش)[٣].

ويظهر أن الإمامين الباقر والصادق (عليهما السلام) قد رأيا ذلك، وهي معروفة عند أعلام العامة كغياث بن إبراهيم، وطلحة بن زيد، والسكوني، وسفيان بن عيينة، والحكم بن عيينة، ويحيى بن سعيد.

إن اهتمام الأئمة المعصومين بتدوين الحديث، كان العامل الحساس والأساسي في حفظ تلك الآثار الخالدة والكتب القيمة والأحاديث الهامة، بالرغم من المتناقضات التي كانت تتحكم آنذاك بين المسلمين، فبعض يرى تدوين الحديث، وآخرون يرون خلافه.

ومن أهم تلك الآثار: عهد الإمام أمير المؤمنين (ع) لمالك الأشتر، الذي يحتوي على أهل القواعد والأصول التي تتعلق بالقضاء والقضاة، وإدارة الحكم في الإسلام، وقانون التضامن والضمان الاجتماعي، وكل شيء من حسن الإدارة والسياسة، وتنظيم الجيش، وكيفية المعاملات.

ورسالة الحقوق للإمام زين العابدين (ع)، وهي بحق هي بحق إحدى أعظم الموسوعات الحقوقية المدونة في القرن الأول، وتحتوي على خمسين فصلاً[٤].

ومسند زيد ومدونته الفقهية، حيث جمع فيه الحديث عن آبائه، وأخيه الباقر (ع)، وهو أحد الكتب المعتمدة المعول عليها والمنقول عنها، كما في مفتاح كنوز السنة.

هذا وقد ازدهر العلم في الحياة الإمام الباقر (ع)، وانتعش انتعاشا وقتيا، واتجهت إليه الأفئدة، تتطلع للاغتراف من معينه الذي لا ينضب والانتهال من غديره الفياض.

---

(١) إرشاد المفيد: ٢٩٢؛ إعلام الورى: ١٦٦.

(٢) ينابيع المودة: ٢٠.

(٣) الكافي (الأصول): ١٨٦/١ ح ١؛ بصائر الدرجات: ١٦٧ ح ٥ الباب ١٣.

(٤) شرح رسالة الحقوق: ١: ٣٠.

ويعد تلميذه هشام بن الحكم المتوفى عام (١٧٩) هجرية، واضع علم الأصول، قبل الشافعي المتوفى عام (٢٠٤) هجرية.

وأفرد الحافظ أبو العباس أحمد بن محمد بن عقدة، المتوفى سنة ٢٣٠ هجرية، كتاباً فيمن روى عن الإمام الصادق (ع) ذكر فيه أربعة آلاف رجل رووا عنه، ذكر منهم الشيخ الطوسي المتوفى عام ٤٦٠ هجرية، ما يزيد على الثلاثة آلاف[١].

وأكد المجلسي، مقدار هذا الكتاب وما يحتوي من أحكام يحتاج إليها المؤمنين بل مطلق الناس تستفيد منها.

(في أن عندهم الجفر الأحمر والأبيض ومصحف فاطمة عليها السلام والجامعة... في أن الجامعة صحيفة طولها سبعون ذراعا وفيها كل حلال وحرام وكل شيء يحتاج إليه الناس حتى الأرش في الخد، وهي إملاء رسول الله (ص) وخط علي (ع) وهي عند الإمام واحدا بعد واحد)[٢].

بل هناك وسائل لمعرفة علوم أهل البيت (ع) التي تنتقل من واحد آخر منهم منها الكتب المحفوظة عندهم.

(ما عندهم من الجفر، والجامعة، ومصحف فاطمة، وما يحدث بالليل والنهار، وهذه إحدى المنابع لعلومهم الزاخرة، وقد أنبأت هذه الطائفة عن بيان هذه المنابع)[٣].

فإن أبا بصير يقول: دخلت على أبي عبد الله (ع).

(فقلت: جعلت فداك: إني أسألك عن مسألة: ها هنا أحد يسمع كلامي؟ فرفع أبو عبد الله سترا بينه وبين بيت آخر فاطلع فيه ثم قال: يا أبا محمد سل عما بدا لك. قال: جعلت فداك إن شيعتك يتحدثون أن رسول الله (ص) علم عليا (ع) ألف باب يفت له من كل باب ألف باب؟

فقال أبو عبد الله: يا أبا محمد علم رسول الله (ص) عليا (ع) ألف باب يفتح له من كل باب ألف باب. قال أبو بصير فقلت: هذا والله العلم)[٤].

ثم إن الصادق (ع) لما رأى استعظام أبي بصير هذا المنبع العزيز صار ينبئه بأن لهم منابع أخرى أغزر مادة وأسح فيضا، فذكر له أن عندهم الجامعة، وإنها سبعون ذراعا بذراع رسول الله (ص) وإملائه من فلق فيه وخط على بيمينه فيها كل حلال وحرام، وكل شيء يحتاج إليه الناس، حتى الأرش في الخدش.

ثم ذكر، إن عندهم الجفر، وأنه وعاء من أدم فيه علم النبيين والوصيين وعلم العلماء الذين مضوا من بني إسرائيل.

---

(١) مستدرك الوسائل: ١/٢٥ ـ ٢٧.

(٢) بحار الأنوار: ١٠٨/٣٦٠.

(٣) علم الإمام ـ المظفر: ٥٣.

(٤) الكافي: باب ما عندهم من آيات الأنبياء عليهم السلام: ١/٢٣٤.

ثم ذكر إن عندهم مصحف فاطمة، وإنه مثل القرآن ثلاث مرات ثم قال (ع): إن عندنا علم ما كان وعلم ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة.

وفي كل هذا يقول أبو بصير مبتهراً ومستعظما: هذا والله العلم، والصادق (ع) يقول: إنه لعلم وليس بذلك، فقاله أبو بصير: جعلت فداك فأي شيء العلم؟ قال (ع): ما يحدث بالليل والنهار، الأمر بعد الأمر، والشئ بعد الشئ إلى يوم القيامة[1].

إننا وإن لم ندرك حقيقة هذه المنابع، وقدر هذه المواد، إلا أننا نفهم من هذا البيان أنهم رزقوا من العلم ما لا مزيد عليه إلى ما شاء الله جل شأنه وأنه لو يسمح لنا البيان بأن نعرفه بأكثر من الحضوري، وأوسع من الحصولي، لوسمناه به.

هل بعد هذا يصح أن يقال في علمهم: إنه مبني على الإشاءة، وموقوف على الإرادة؟ وأما إشرافه (ع) على البيت ورفع الستر في هذه الرواية لا ليعلم هل فيه أحد، فيكون منافيا للحضوري، بل ليطمئن أبو بصير بخلو البيت من السامع.

ولقد أوجزنا بنقل الأحاديث التي دلت على سعة علومهم.

وحضورها لديهم، لأننا لا نريد استقصاء ما جاء عنهم في هذا الباب، فإن الغرض الأوحد أن نعرف ما كانوا عليه من العلم، ولا نعرفه عن طريق النقل، إلا بما عرفوه لنا وأبانوه من ذلك المكنون في أوعية صدورهم.

وبما أوردناه يحصل الغرض المطلوب والضالة والمنشودة.

وإن كان ما أوردناه قطرة من غيث وغرفة من بحر، مما جاء عنهم في ذلك من الأخبار وظهر من الآثار[2].

وبعد هذه الكلمات من العلماء في تحديد مقدار هذا الكتاب على اختلاف الأقوال فيه، فيكون (٣٥) متراً طوله. وهذا الحجم المادي لكتاب علي (ع).

ومن المحتمل أن النصوص الواردة في هذه الأقوال حول حجم الكتاب وتحديده سبعون ذراعا، تشير إلى التعبير بالكناية والمجاز إلى سعة العلوم والأحكام التي يحويها هذا الكتاب على اختلاف أسمائه ومسمياته.

فلا يراد من الرقم سبعون إلا الكناية عن الكثرة والسعة والشمول وانضمام مجموعة كبيرة جدا مما تحتاج إليه البشرية، وعلى هذا قرائن مشابهة في الاستعمال اللغوي والعلمي والإعجازي، فيأتي الرقم سبعين وهو يرمز إلى الكثرة دون أن تكون له خصوصية.

قال تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[3].

---

(١) الكافي: باب فيه ذكر الصحيفة والجفر والجامعة ومصحف فاطمة عليها السلام: ١.

(٢) علم الإمام: ٥٣.

(٣) سورة التوبة: ٨٠.

فالرقم سبعين مرة لا يعطي خصوصية إذ لو زاد عليه قد يوجب الغفران الإلهي لهم من قبل دعاء المصطفى لهم بل كناية عن الكثرة والقلة لا تنفع معهم.

ونضيف هنا أن علماء أصول الفقه بينوا أن الجملة التي يكون فيها مفهوم العدد لا مفهوم لها، ولا تعطي ما يلزم منها[١].

ومن الروايات التي أكدت الطول لهذا الكتاب، ولم تبين العرض ولا لون الكتابة ولا باقي الخصوصيات المعينة للكتاب.

روي الصفار، محمد بن عيسى عن الأهوازي، عن فضالة، عن قاسم بن يزيد، عن محمد، عن أحدهما (عليهما السلام) قال: (إن عندنا صحيفة من كتاب علي (ع) أو مصحف علي (ع) طولها سبعون ذراعا فنحن نتبع ما فيها فلا نعدوها... إلى أن قال: إن عليا (ع) كتب العلم كله القضاء والفرائض والحديث)[٢].

نقل الصفار، محمد بن عيسى، عن يونس، عن حماد، عن عمرو بن أبي المقدام، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله (ع) قال: (سمعته يقول: وذكر ابن شبرمة في فتيا أفتى بها: أين هو من الجامعة إملاء رسول الله (ص) بخط علي (ع) فيها جميع الحلال والحرام حتى أرش الخدش)[٣].

روي الصفار، محمد بن عيسى عن فضالة عن أبان عن أبي شيبة قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: (ضل علم ابن شبرمة عند الجامعة، إن الجامعة لم تدع لأحد كلاماً فيها علم الحلال والحرام، إن أصحاب القياس طلبوا العمل بالقياس فلم يزدهم من الحق إلا بعداً، وإن دين الله لا يصاب بالقياس)[٤].

روي الصفار، محمد بن الحسين عن موسى بن سعدان، عن عبد الله بن القاسم، عن عبد الله بن سنان، قال: (سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: إن جبرائيل أتى رسول الله (ص) بصحيفة مختومة بسبع خواتيم من ذهب، وأمر إذا حضره اجله أن يدفعها إلى علي بن أبي طالب فيعمل بما فيه، ولا يجوزه إلى غيره، وان يأمر كل وصي من بعده أن يفك خاتمه، ويعمل بما فيه، ولا يجوز غيره)[٥].

روي الصفار، أحمد بن محمد عن الحسن بن علي عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله (ع) قال: (سمعته يقول: إن عندنا جلدا سبعون ذراعا أملى رسول الله (ص) وخطه علي (ع) بيده، وإن فيه جميع ما يحتاجون إليه حتى أرش الخدش)[٦].

---

(١) أثر القرآن الكريم في علم الأصول: ٨٧.

(٢) بصائر الدرجات: ١٤٦، ب/٣٤؛ بحار الأنوار: ٦٧/٢٦.

(٣) بصائر الدرجات: ١٤٦؛ بحار الأنوار: ٧٠/٢٦.

(٤) بصائر الدرجات: ١٤٦؛ بحار الأنوار: ٣٥/٢٦.

(٥) بصائر الدرجات: ١٤٦؛ بحار الأنوار: ٣٥/٢٦.

(٦) بصائر الدرجات: ١٤٣؛ بحار الأنوار: ٣٥/٢٦.

روي الصفار، إبراهيم بن هاشم عن جعفر بن محمد عن عبد الله بن ميمون القداح عن أبي عبد الله عن أبيه (عليهما السلام) قال:

(في كتاب علي (ع) كل شيء يحتاج إليه حتى أرش الخدش والأرش)[١].

آثار منع الزكاة:

في الصحيح، عن محمد بن يعقوب، عن محمد بن يحيى، عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن الحسن بن محبوب، عن مالك بن عطية، عن أبي حمزة (الثمالي)، عن أبي جعفر (ع) (قال: وجدنا في كتاب علي (ع) قال رسول الله (ص): إذا منعوا الزكاة منعت الأرض بركاتها)[٢].

والرواية وردت بطرق مختلفة وألفاظ متعددة في المصادر إلا أنها نقلت عن كتاب علي (ع)[٣].

ما ورد في كتاب علي (ع) عن الصادق (ع)، ومنها:

روى الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي بإسناده عن علي بن الحسن بن فضال عن محمد بن عبد الله بن زرارة عن محمد بن مسلم عن يونس عن القاسم بن سليمان، قال حدثني أبو عبد الله (ع) قال: (إن في كتاب علي (ع) إن الإخوة من الأم) الحديث. وسيأتي بيان ذلك مفصلاً.

وبإسناده عن الحسن بن محمد بن سماعة عن الحسن بن محبوب عن أبي أيوب عن أبي عبد الله (ع) قال: (إن في كتاب علي (ع) أن العمة بمنزلة الأب) الحديث. وروى الكليني عن عدة من أصحابنا عن سهل بن زياد.

وعن محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد جميعاً عن ابن محبوب عن عبد الرحمن بن الحجاج قال: سالت أبا عبد الله (ع)، وذكر حديثاً، ثم قال: كذلك هو في كتاب علي (ع).

وفي رواية أخرى: كذلك وجدناه في كتاب علي وروى محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالصدوق بإسناد عن الحسن بن محبوب عن خالد بن جرير عن أبي عبد الله (ع) في الجد مع الإخوة لأم قال: (إن في كتاب علي (ع) إن الإخوة من الأم يرثون مع الجد الثلث)[٤].

فالأئمة عندهم كتاب علي (ع)، بل هم أصحاب هذا التراث، والعلم لا ينكره أحد، وهذا ما أثبته الإمام الصادق (ع) لأحد لأصحابه، بأن موسى بن جعفر (ع) أحد خزان هذا العلم.

---

(١) بصائر الدرجات: ١٤٣؛ بحار الأنوار: ٣٥/٢٦.

(٢) الفروع: ٥٠٥/٣؛ وسائل الشيعة: ١٤/٦.

(٣) أمالي – الصدوق: مجلس٥١: ٣٨٤ ح٢؛ ثواب الأعمال: ٢٥٢؛ علل الشرائع: ٥٨٤/٢، ح٢٦؛ بحار الأنوار: ٣٧٢/٧٠؛ ١٥/٩٩.

(٤) أعيان الشيعة: ٩٤/١.

روي النعماني، عن عبد الواحد، عن أحمد بن محمد بن رباح، عن أحمد بن علي الحميري، عن الحسن بن أيوب، عن عبد الكريم بن عمر والخثعمي، عن حماد الصائغ قال: سمعت المفضل بن عمر يسأل أبا عبد الله (ع):

هل يفرض الله طاعة عبد ثم يكنه خبر السماء؟

فقال له أبو عبد الله (ع): الله أجل وأكرم وأرأف بعباده، وأرحم من أن يفرض طاعة عبد ثم يكنه خبر السماء، صباحاً ومساءً.

قال: ثم طلع أبو الحسن موسى (ع)، فقال له أبو عبد الله (ع): يسرك أن تنظر إلى صاحب كتاب علي؟

[فقال له المفضل: وأي شيء يسرني إذا أعظم من ذلك؟

فقال: هو هذا، صاحب كتاب علي][1] الكتاب المكنون الذي قال الله عز وجل ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾[2].

يكنه أي يستر عنه العلم، ولا يخفيه ما يحتاج إليه من جواب ما يسأل عنه.

خلاصة وتقييم:

نستنتج مما تقدم من مجموع هذا الروايات الكريمة والمختلفة الطرق ومتنوعة في مضمونها وما بين فيها أن كتاب علي (ع) أملاه عليه الرسول (ص) ودونه بخطه الشريف المبارك.

وهذا الكتاب يحتوي على الأحكام الشرعية من الحلال والحرام والسنن والحكم وأسماء الخلفاء والملوك بل ما يحتاج إليه الإمام عندما يسأل من قبل أفراد الأمة.

ومقدار حجمه سبعون ذراعاً وهو كناية عن السعة والشمول لمعلومات كثيرة. وتعين كتاب علي (ع) لا يعني إطلاقا تحديد نشاطه بهذا فقط، أو حصر آثاره الجملة المتعددة الكثيرة بل ما قيل هو جزء يسير من تلك الجهود والعلوم وما استفاد منه الصحابة وأولاده ومواليه من علومه.

ولا شك في أن نصوص هذا الكتاب الواردة والمنقولة من عدة طرق توصل إلى قناعة البحث الكافية على وجودها، وكانت مصادر الحديث المتنوعة أشارت إليه، وهذا المصادر بجوانب معرفية مختلفة من كتب الحديث والفقه والتأريخ والسيرة.

وتؤكد المصادر أنها أقدم الكتب التي دونت منذ عصر الرسالة، وحفظت عند أهلها المعصومين[3]. ❖

---

(١) الغيبة – النعماني: ١٧٨؛ بحار الأنوار: ٢٢/٤٨.

(٢) سورة الواقعة: ٧٩.

(٣) مذاهب الإسلاميين: ٦٤.

مفاهيم فيزياوية في تراث الإمام (ع)

مفهوم (النسبية) في القرآن ونهج البلاغة

حسين عبيد الفريجي

جاء في محكم التنزيل العزيز قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

لعل هذه الآية الكريمة هي أكثر الآيات دلالة على مفهوم (النسبية) وأبلغها تعبيراً عن تلك المفاهيم الكونية العظمى التي حاولت (نظرية النسبية) التي جاء بها (البرت اينشتاين) في أوائل القرن العشرين أن تجد لها بعض الحلول وتعالج بعض المشكلات، فلا غرو أنها تعد فتحاً جديداً في دنيا العلم والعرفان.

سوف لن ندخل في متاهات النسبية وقوانينها الصعبة ومعادلاتها المعقدة.. فلا يعنينا الآن موضوع انكماش الطول ولا زيادة الكتلة بتزايد السرعة، ولن نتعرض إلى موضوع العلاقة بين الطاقة والكتلة الذي كان له دور كبير في إنتاج الأسلحة الذرية.

وما يهمنا الآن في بحثنا هو مسألة الزمان ونسبية الزمان.. إذ المعروف ـ قبل عصر أينشتاين ـ إن أبعاد المادة وأبعاد الكون هي ثلاثة فقط: **الطول والعرض والارتفاع**.

وجاءت نظرية (النسبية) لتضيف إليها بعداً جديداً رابعاً ألا وهو (الزمان) فالزمان عند أينشتاين من أبعاد الكون المادي، ولكنه في الحقيقة ليس بُعداً ملموساً كالأبعاد الثلاثة الأخرى وإلا لكان معروفاً من قبل.. بل النسبية هي التي اكتشفت علاقة الزمان بالمادة.. أو علاقة الزمان بالمكان.. حتى كان أحدهما ناتج عن الآخر.. وهذا ما اصطلح على تسميته (بالزمكان).

فأصبحنا ندرك أن الزمان ليس في الواقع إلا مجرد أثر لحركة المادة.. أو إذا شئت لحركة الكواكب.. أليست هي أجساماً مادية تتحرك في هذا الكون؟ أليس الأرض والشمس والقمر من الأجسام المادية أيضاً وتنطبق عليها قوانين المادة المعروفة؟

أليس تعاقب الليل والنهار هو اثر لحركة الأرض ودورانها حول نفسها كل يوم؟

أليس الحساب الشهري القمري هو نتيجة حركة القمر وتنقله في منازله المعروفة؟

وبالنتيجة: أليس حركة الشمس والقمر والأرض هي التي تهدينا إلى حساب الأيام والشهور والسنين؟ وما أعظم الآية القرآنية التي تقول: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ (يونس: ٥).

وإذا عدنا إلى مفاهيم (الزمان) في نظرية (النسبية) وجدنا أينشتاين لا يكتفي بإضافة (الزمان) كبعد رابع للكون.. فنراه يقرر أن هذا البعد الرابع – الزمان – موجود بأبعاده

الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل.. وإن كل نقطة من نقاطه ماثلة على امتداد خطه الوهمي المفترض.

فأنت عندما تقطع مسافة من (المكان) فإنك - في ذات الوقت - تقطع مسافة من (الزمان). فإذا بدا لك أن تستمر في رحلتك مسافرا في أبعاد الزمان والمكان.. ثم أخذت تضاعف من سرعتك حتى تصل إلى سرعة الضوء (وهي أكبر سرعة في الكون حسب نظرية النسبية) فان جسمك يأخذ في الانكماش والتلاشي قليلاً قليلاً حتى يختفي عن الأنظار.. وعندئذ تجد نفسك في مجال آخر.. أو في زمان آخر.. في الزمان الماضي مثلاً أو في المستقبل وقد يبدو لنا هذا الأمر غريباً حقاً.. لكن يجب أن لا يغيب عن بالنا أن هذا الأمر ما يزال في دور الافتراض النظري.. فتخطي الزمن أمر ممكن فكرياً ونظرياً.. وهذا ما يطالعنا به المتنبئون والمنجمون والعرافون الذين يخبرون ويتنبئون أحياناً بأمور تحدث في المستقبل.. بوسائل يعرفونها: كرصد الكواكب وحساب النجوم والأبراج وقراءة الطالع.. فما دام الماضي والمستقبل كلاهما موجوداً (كما تقول النسبية) فإن كل موجود يمكن معرفته أو بلوغه بطريقة من الطرق. ولكن.. هل يمكن أن يعبر الإنسان جسر الزمان أو يخترق حاجز الزمان؟

ذلك ليس في الإمكان إلا إذا عبر جسر الحياة الدنيوية إلى الحياة الأخرى أو العالم الآخر.. أي أنه - بعبارة أخرى - لا بد من مرور بمرحلة (الموت) ليصل إلى شاطيء الأبدية.. بعد أن يتحول إلى طاقة روحية.

ولدي الآن دليل هائل يعزز ما أقوله بصدد هذا الأمر الذي يكاد يدخل في باب المستحيلات.. هذا الدليل يتمثل في تلك التجربة السرية المثيرة التي سميت في وقتها بـ (تجربة فيلادلفيا).

ونرويها هنا بإيجاز كما وردت في كتاب (أسرار مثلث برمودا):

التجربة السرية في الاختفاء واختراق حاجز الزمن:

لقد كانت تلك التجربة فريدة من نوعها حقا.. وقد أجرتها البحرية الأمريكية سنة ١٩٤٣ في فيلادلفيا بالبحر.. وكان الغرض منها اختبار تأثير مجال مغناطيسي قوي على سفينة تحمل بشراً على سطحها.. حيث ولدت مولدات مغناطيسية نابضة وليست نابضة مجالاً مغناطيسياً على حوض السفينة وحولها. وكانت نتائج هذه التجربة مذهلة أكثر من أهميتها على الرغم من تأثيراتها السيئة التي ظهرت بعدئذ على البحارة.

عند انجلاء تأثير التجربة ظهر ضوء ضبابي مخضر وواضح.. ويشبه إلى حد كبير ذلك الضوء الذي ورد ذكره في تقارير الذين نجوا من حوادث (مثلث برمودا) وفي الحال.. ملأ الضباب الأخضر جميع جوانب المدمرة والبحارة الذين فوق سطحها ثم بدأت تختفي عن النظر.. ولم يبق شيء مرئياً منها سوى خط الماء الملاصق لسطحها.. واستمرت المدمرة بالاختفاء والظهور دون تسليط مجال مغناطيسي عليها وفي أمكنة عديدة.

وسبب ذلك هو أن لتجربة (الاختفاء) علاقة بظاهرة (انعطاف الزمن) وعندما زيدت شدة المجال اخذ بعض البحارة (بالاختفاء).. وكان على البقية اكتشافهم بتحسسهم باللمس وإعادتهم مرة أخرى إلى (العالم المنظور) بطريقة تكتيكية خاصة باستخدام اليدين.

وفي الحقيقة.. إن الذين (اختفوا) أثناء التجربة عولجوا في المستشفيات وبعضهم فارق الحياة (وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من أن الإنسان لا يمكن أن يخترق الزمن إلا إذا عبر جسر الحياة إلى الموت).

أما المدمرة فقد شب فيها حريق مرتين وبصورة فجائية.. وعند أخذها إلى السواحل انتهى مستقبلها بفاجعة[1].

الدليل الأعظم.. المعراج النبوي:

لندع الآن هذه التجربة الغريبة فلدينا دليل أكبر.. وحدث أعظم في معجزة المعراج الشريف للرسول الأعظم محمد (ص).

ولا عجب.. فهو سيد البشر وفخر الكائنات الذي أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

لقد قطع النبي في هذه الرحلة الكونية المباركة مسافات في أعماق الكون لا يمكن أن يتصورها العقل البشري.. فقد كشف الله له عن التتابع الزماني - المكاني (الزمكاني) مخترقاً الحواجز الفضائية والطبيعية فاستطاع أن يغوص في الماضي البعيد.. مكشوفة له الأسرار والأستار وحجب السماوات السبع بإذن ربه العلي القدير حتى استطاع أن يرى أنبياء الله الأولين وأن يقابلهم ويكلمهم.. ثم غاص في أعماق المستقبل البعيد.. مرفوعة عنه حجب الدنيا والآخرة.. فرأى مشاهد القيامة وصورها.. رأى صور النعيم في الجنان.. كما رأى صور العذاب في النيران.. بل رأى ما لا عين رأت.. ولا أذن سمعت.. ولا خطر على قلب بشر. وما المعجزة إلا خرق للقانون الطبيعي.. وتجاوز كل ممكن وغير ممكن. هي أمر لا يخضع لتفسير.. ولا يقبل تأويلا.. هي صنع المستحيل بأمر العلي القدير.

ومنذ عاد النبي (ص) من تلك الرحلة المثيرة والمدعون المتحذلقون في كل عصر وأوان لا ينون يتساءلون: أين الزمان؟ وكيف انحسر عن الكيان المحمدي؟ وغاض مجراه عن طريقه؟ وانعطف مساره بعيداً عنه، وأية قوة جبارة هذه التي جعلت محمداً يطوي الزمان والمكان ويقطع تلك المسافات المهولة الشاسعة والآماد الزمانية التي يقصر دونها الخيال، ثم يعود منها في ليلة واحدة من ليالي الدنيا؟

أما علموا أن الأزمنة والأمكنة الكونية ليس بمستطاعها أن تحد من انطلاق هذا النبي العظيم إلى أي مدى يريد إذا أتت ساعة صفائه مع ربه، واقترب زمن الشوق العظيم إلى

---

(١) أسرار مثلث برمودا: د. طالب ناهي الخفاجي.

بارئه، وحلت لحظة الجذبة الرحمانية من الرحمن الرحيم رب الأزمنة والأمكنة، فإن هذه الجذبة إذا حلت لحظتها تساقطت إزاءها الأزمنة والأمكنة، وتعطل قوانين الجاذبية التي تحكم الكون، وتضبط مساراته.. وأي زمان.. وأي مكان.. يمكن أن يسع هذا النبي في تلك الساعة المشحونة بألطاف اللطيف الخبير والتي قال عنها (ص): (لي ساعة مع ربي لا يسعني فيها شيء سواه)، وقد حلت تلك الساعة في معراجه، فانكفأت الدنيا دونه، وتلاشى العالم دونه، وتصاغر الوجود بأسره إزاء ناظريه، فأدار للكل ظهره، واتجه بكيانه كله نحو ربه ليجد في سعته الملاذ والملجأ والمنجى، فحاضرته العناية الإلهية - من هذا القرب - بأسرار الرسالة التي بعث بها إلى العالمين، وحملته أمانة تكاليفها.. ثم عاد من الحق إلى الخلق ليستأنف دعوته مبشراً ومنذراً ومعلماً وهادياً.

فهو الآن يحدث حديث من رأى وسمع ولمس ما كان يحدث عنه الناس غيباً - قبل معراجه - من شؤون الآخرة، وأبدية زمانها، وجمال جنانها، وهول نيرانها، فما كان غيباً بات عنده الآن مشهوداً قائماً ملموساً، فقد أحس في تلك الرحلة المثيرة (بالأزمنة وهي تتقارب، وينفذ بعضها في بعض، وينضم الأدنى منها إلى الأبعد، حتى غدت زماناً واحداً فيه شيء غير قليل من خواص أيام الأبدية، ومن لطائفها وأسرارها، لا تعرف الأرض زماناً مثله ولمس تداخل الأمكنة والظروف، والتحام بعضها في البعض الآخر، فلم يعد أمام ناظريه (ص) ثمة فوق أو تحت، شمال أو يمين، أو أمام أو وراء أو قريب أو بعيد، فاختفت الظروف والجهات، وتبادلت فيما بينها الصفات فالقريب بعيد، والبعيد قريب، والفوق تحت، والتحت فوق، وعرف حقيقة قربه تعالى وبعده، فهو قريب وبعيد، أقرب كل شيء إلى كل شيء، إلا أن كل شيء بعيد عنه بعداً مطلقاً، كالشمس - ولا مشاحة في المثال - يمس ضوءها كل شيء، فتوهم كل شيء قربها منه، بيد أنها بعيدة عنه بعداً مطلقاً.

ويبين هذا الباحث اللبيب معقولية المعراج الحسي للرسول (ص) والمسألة الزمانية فيه، فيقول موضحاً ذلك بالأمثال:

(ويرد على البال أيضاً: أنك تقول: أنه محال عقلا قطع مسافة ألوف السنين في بضع دقائق؟ ونحن نقول: إن الحركات فيما صنعه الصانع الجليل في غاية الاختلاف، فمثلاً: إن مدى اختلاف سرعة الصوت والضوء والكهرباء والروح والخيال معلوم لدينا، فسرعة الكواكب السيارة أيضاً - كما هو معلوم علمياً - فيها من الاختلاف ما يحير العقول.

فيا ترى إن جسمه اللطيف الذي اكتسب - بالعروج - سرعة، فتبع روحه السامية، كيف تبدو حركته بسرعة الروح مخالفة للعقل؟

فأنت بنفسك إذا نمت عشر دقائق تتعرض إلى حالات قد لا تتعرض إليها في اليقظة في سنة، حتى أن ما يراه الإنسان في الرؤيا في دقيقة واحدة.. وما يسمع فيها من كلام، وما ينطق به من أقوال إذا ما جمع وضم بعضه إلى بعض فانه يلزمه مدة يوم أو أكثر في عالم اليقظة.

فالزمان الواحد إذن – بالنسبة لشخصين – يمكن أن يكون في حكم يوم واحد لأحدهما.. وسنة واحدة للآخر.

فانظر – الآن – إلى هذا المعنى بمنظار هذا المثال: لنفرض وجود ساعة لقياس سرعة حركات الإنسان، وسرعة الطلقة والصوت والضوء والكهرباء، وسرعة الروح والخيال..

وفي هذه الساعة هناك: عقرب يعد الساعات، وآخر يعد الدقائق في دائرة أوسع من الأولى بستين مرة، وآخر يعد الثوالث في دائرة أوسع من هذه بستين مرة.. وهكذا عقارب الروابع والخوامس والسوادس والسوابع والثوامن والتواسع والعواشر (العاشرات)..

أي تكون للساعة عقارب عجيبة كل منها يدور في دائرة أوسع من التي قبلها بستين ضعفاً.

فلو كانت دائرة العقرب العاد للساعات بقدر ساعاتنا اليدوية الصغيرة فيلزم أن تكون دائرة العقرب العاد للعواشر بمقدار المدار السنوي للأرض أو أكبر منه. والآن لنفرض أن هناك شخصين:

أحدهما: كان قد ركب عقرب الساعات، فهو يراقب ويتفرج على ما حوله.

والآخر: قد ركب عقرب العواشر ويشاهد ما حوله.

فالفرق بين ما يشاهده الشخصان من أشياء في زمان واحد، هو بنسبة الفرق بين ساعاتنا اليدوية ومدار الأرض السنوي.. أي أن الفرق هائل جداً..

وهكذا.. فلأن الزمان هو عبارة عن لون من ألوان الحركة وصبغتها أو شريط لها، فالحكم الجاري في الحركات جارٍ أيضاً في الزمان، إذ أننا نشاهد في ساعة واحدة بقدر ما يشاهد الراكب ذو الشعور على عقرب الساعات، وما ينسلخ من عمره هو بقدر الساعة نفسها.. إلا أن الرسول (ص) في الزمان نفسه ـ كالراكب على عقرب العواشر ـ وفي تلك الساعة المعنية يركب براق التوفيق الإلهي ويقطع جميع دوائر الممكنات – كالبرق – ويرى آيات الملك والملكوت، ويرتقي إلى نقطة دائرة الوجوب، ويتشرف باللقاء والكلام، ويحظى برؤية الجمال الإلهي، ويتلقى العهد والأمر الإلهي لأداء وظيفته، ثم يعود، وقد عاد فعلاً.. وهو كذلك)[1].

والآن.. وقد عرفنا شيئاً عن فكرة (النسبية) في الزمان والمكان فليس من العسير علينا أن نعترف أو نصدق بوجود أزمنة وأمكنة أخرى وعوالم أخرى في أعماق الكون البعيد المترامي الأطراف.. ولعلنا نقترب الآن أكثر من فهم الآية الكريمة التي بدأنا بها الحديث عن فكرة النسبية في القرآن ونهج البلاغة.

إن الألف سنة من حياتنا الدنيا هذه لا تعد شيئاً مذكوراً (يوماً واحداً) إزاء الخلود أو الزمان الأبدي المطلق. فالألف سنة والمليون سنة كلها أعداد معدودة لها نهايات معلومة ككل

---

(١) المعراج النبوي: سعيد النورسي – ترجمة إحسان قاسم الصالحي ـ مطبعة الزهراء ١٩٨٨.

شيء في هذه الحياة الدنيوية المحدودة.. إذ كل شيء (نسبي) هو دنيوي زائل أو متغير لا محالة ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ يومئذ يتلاشى الزمان والمكان والأعداد والنسبية وتصبح الدنيا كلها في خبر كان ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾.

والسؤال الذي يطرح الآن هو: ماذا سوف يحدث بعد ذلك؟

ما هو التغيير الكبير الذي سوف يحصل؟ ما هو مصير الزمان والمكان والنسبية؟

الجواب في نهج البلاغة:

لقد وجدت الإجابة عن هذه التساؤلات الكبيرة على صفحات (نهج البلاغة) في إحدى تلك الخطب العلمية الفلسفية.. التي حوت من أصول العلم والفلسفة ما لا تجمعه خطبة أو كلام.

يقول أمير المؤمنين (ع) في هذا الصدد: (وليس فناء الدنيا بعد ابتدائها بأعجب من إنشائها واختراعها) إلى أن يقول: (ثم هو يفنيها بعد تكوينها.. ثم يعيدها بعد الفناء من غير حاجة منه إليها. وإن الله سبحانه يعود بعد فناء الدنيا وحده.. لا شيء معه.. كما كان قبل ابتدائها، كذلك يكون بعد فنائها.. بلا وقت ولا مكان.. ولا حين ولا زمان، عُدمت عند ذلك الآجال والأوقات.. وزالت السنون والساعات، فلا شيء إلا الواحد القهار الذي إليه مصير جميع الأمور)[1].

هذه السطور من نهج البلاغة تدعو إلى مزيد من البحث والتأمل ولا ينبغي أن يمر بها الباحث مرور الكرام.. فهي تحمل بين طياتها علماً جماً ومعرفة شاملة بأسرار الكون وخفايا الوجود.. وإدراكاً لطبيعة الزمان والمكان مما لم يدركه العلماء منذ أربعة عشر قرناً من الزمان حتى ظهور نظرية (النسبية) في أوائل القرن العشرين على يد البرت أينشتاين - كما أسلفنا - فالإمام (ع) قد سبق أينشتاين وغيره في موضوع (نسبية الزمان).

والذي نفهمه من كلامه (ع) إن الله سبحانه خلق مادة الكون وخلق معه الزمان الذي ما هو إلا أثر لحركة المادة والكواكب، فوجود الزمان إذن رهن بوجود المادة. حتى إذا زالت الدنيا وفنيت بأمر خالقها.. عندئذ يتلاشى الزمان والمكان والأعداد.. وكل شيء نسبي سوف يزول.. تمهيداً لخلق جديد ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾. ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

ثم هو يعيدها بعد الفناء خلقاً جديداً وكوناً جديداً.. تنتهي عنده الأوقات وتزول السنون والساعات.. عندئذ نطرق باب الخلود.. باب الحياة الأبدية التي أعدها الله لعباده المتقين.. وعندها نفهم معنى قول أمير المؤمنين (ع): (كأنك بالدنيا لم تكن وكأنك بالآخرة لم تزل).

---

(١) نهج البلاغة.

الزمن واللازمن:

تطرق الإمام في نهج البلاغة إلى أحوال الموتى الذين فارقوا الدنيا ورحلوا عنها وأصبحوا في مرحلة (عالم البرزخ) ما وراء الموت.

وقد وردت عنه (ع) إشارات تخص أحوالهم في هذه المرحلة. هذه الإشارات تنبئ بانتهاء مفهوم (الزمن) عندهم، وانقطاعهم عنه، وعدم الإحساس به، وذلك لأن مفهوم الزمن مفهوم نسبي – كما قلنا – أي أنه مفهوم نفسي أو عقلي يرتبط بالإحساس.

فكل شخص – وفي كل لحظة من زمانه الخاص به – يقتطع لنفسه – على نحو ما – قطعة من الكون ويقسمها إلى زمان ومكان ثم يقيس زمانه ومكانه (هو). هي إذن مسألة تعقل وإدراك وإحساس.

أما المقيمون في العوالم الروحية فهم مقيمون في الزمان السرمدي أو ما يطلق عليه مصطلح (اللازمن).. لا يتعارفون فيه صباحاً بعد ليل ولا مساء بعد نهار كما يصفهم أمير المؤمنين (ع) في خطبة من جلائل خطبه الحكيمة البليغة.. يقول (ع): (ولكنهم سقوا كأساً بدلتهم بالنطق خرساً وبالسمع صمماً وبالحركات سكوناً فكأنهم في ارتجال الصفة صرعى سبات جيران لا يتأنسون وأحباء لا يتزاورون.. بليت بينهم عرى التعارف وانقطعت منهم أسباب الإخاء فكلهم وحيد وهم جميع.. وبجانب الهجر وهم إخلاء..

وتأمل فيما قاله (ع) بعد ذلك: (لا يتعارفون لليل صباحاً ولا لنهار مساء، أي الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سرمدا).

ويفسر لنا (ع) هذا (السرمد) في موضع آخر بقوله: (لا تستبطئ المدة الآتية عليك بعد الموت.. فإنه لا يفرق بين عودك بعد سنة أو ألف سنة.. ثم قرأ الآية الكريمة: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾.

نسبية الزمان في قصة العزير:

ومن اقرب الأمثلة التي تأتي في هذا السياق هي فيما حكاه لنا القرآن الكريم في قصة (العزير) الذي أماته الله تعالى مائة عام ثم بعثه (وهو يظن انه لم يلبث إلا يوماً أو بعض يوم..) وفي ذلك تقول آيات القرآن الكريم: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

ذكر جماعة من أهل العلم أن ابن الكوا سأل عليا (ع): من هو الولد الذي أكبر من أبيه في الدنيا؟

فأجابه (ع): نعم. ذلك ولد العزير حيث مر على قرية خربة تحته حمار، ومعه طعام من لبن وكوز فيه عصير فقال: (إني يحيي هذه الله بعد موتها؟ فأماته الله مائة عام) فكبر ولده وتناسلوا ولذلك كان الابن أكبر من أبيه.

وفي حديث آخر عنه (ع): (إن عزيراً خرج من أهله وامرأته في شهرها وله من العمر يومئذ خمسون سنة فلما ابتلاه الله عز وجل بذنبه "أماته الله مائة سنة ثم بعثه". فرجع إلى أهله وهو ابن خمسين سنة فاستقبله ابنه وهو ابن مائة سنة)[1].

عاد العزير إلى أهله بعد رقاده الطويل.. فقد أمضى مائة عام بأكملها - قرناً من الزمان - وهو يحسب أنه لم يمض عليه غير يوم أو بعض يوم.. لأنه لم يكن في الزمن.. كان في مرحلة يمكن أن نسميها (اللازمن). كان معزولاً عن البعد الزمني مدة مائة عام.

لقد خرج من أهله وعمره خمسون عاماً كما علمنا.. يضاف إليها مائة عام في الرقاد.. إذن فقد أصبح عمره الآن مائة وخمسين عاماً.

حقيقة عجيبة غريبة على أي حال.. لم يكد يستوعبها عقله وفكره وكانت الصدمة الكبرى حين استقبله ابنه بأعوامه المائة.. بينما عمره هو يقف الآن على الخمسين عاماً، والسبب في كل ذلك هو أنه كان خارج نطاق الزمن.

نسبية الزمان في قصة أهل الكهف:

نفس المفاهيم العلمية التي تضمنتها هذه القصة يمكن أن تنطبق أيضاً على قصة أصحاب الكهف والرقيم الذين وصفهم الله تعالى بأنهم ﴿كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا﴾.

لجأ هؤلاء الفتية الصالحون إلى الكهف هرباً من بطش ملكهم الظالم.. ورقدوا في الكهف رقدة طويلة دامت ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً.. إذن.. فقد مر عليهم أكثر من ثلاثة قرون وهم راقدون فترة طويلة من الزمن لا يستهان بها.. فقد تغيرت خلالها الدنيا والحياة التي عاشوها وعرفوها من قبل.

وقاموا من رقدتهم.. وبزغت الشمس.. فنظروا إلى عين الماء فوجدوا أنها قد غارت.. والأشجار قد يبست.. وعجبوا: أيحصل هذا في ليلة واحدة؟ وتساءلوا بينهم: كم لبثتم؟

قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم.

ومسهم الجوع فقالوا: ابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحداً. وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وإن الساعة لا ريب فيها.

والقصة معروفة.. رواها القرآن الكريم في سورة الكهف.. وتجدها مفصلة في كتب التفسير وقصص الأنبياء.

---

(١) قصص الأنبياء: نعمة الله الجزائري ط ٨ - بيروت - ١٩٧٨ - ص ٤٨٢.

إنما الذي يهمنا في بحثنا الآن هو مفهوم الزمن.. فهم قد مرت عليهم ثلاثة قرون وهم يحسبونها يوماً أو بعض يوم لأنهم خارج الزمن وقوانين الزمن فلا يشعرون بمر السنين والقرون.

طي الأرض والزمان لعلي بن أبي طالب:

سلام الله عليك يا أمير المؤمنين..

سلام عليك يا من طويت له الأرض والزمان بأمر العزيز الديان.

قلنا في مسألة المعراج إن النبي الأعظم محمداً (ص) قطع في رحلته الكونية العظيمة مسافات لا يمكن أن يتصورها العقل البشري وقد كشف الله له عن التتابع الزماني المكاني (الزمكان) مخترقاً الحواجز الفضائية والطبيعية مكشوفة له الحجب والأستار حتى وصل إلى ما لم يصل إليه بشر من قبل ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾.

أما وصية علي بن أبي طالب فقد أكرمه الله بطي الأرض له عندما جاء من المدينة المنورة إلى (المدائن) في العراق لتجهيز ودفن الصحابي الجليل سلمان الفارسي الذي قال عنه الرسول (سلمان منا أهل البيت).

وقد قطع الإمام (ع) تلك المسافة الطويلة بين المدينة والمدائن في ليلة واحدة طويت له خلالها المسافات والأبعاد المكانية والزمانية متجاوزاً كل القوانين المادية والطبيعية.

وقد لاحظت أن المؤرخين والباحثين القدامى عندما يذكرون هذه الفضيلة أو الكرامة العظيمة لسيدنا أمير المؤمنين (ع) فإنهم يكتفون بقولهم: (طويت له الأرض) دون أن يتعرض أحد لذكر الزمان وذلك لأن الزمان لم يكن معروفاً كبعد رابع قبل عصر النسبية.. فلما جاءت نظرية (النسبية).. أضافت بُعد (الزمان) إلى الأبعاد الثلاثة الأخرى كما أسلفنا.

وأصبحنا ندرك أن الزمان ملازم للمادة وأنه مجرد أثر للحركة المادية وعلى هذا يصح أن نطلق على هذه الكرامة العلوية تعبير (طي الزمكان).

كان الزمن منذ القدم يعتبر أنه يسير بمعدل واحد بالنسبة لكل شيء وكل إنسان في هذا الكون.. فهو كالنهر الكبير العريض الذي يجري تياره في كل بقعة منه بالمعدل نفسه، ولا تجري منه قطرة بأسرع مما تجري به أية قطرة أخرى. لكن نظرية (أينشتاين) ترى رأياً يختلف عن هذا اختلافاً كلياً.

ففي التشبيه نفسه ترى أن الزمن كنهر عريض (يختلف) جريان كل بقعة فيه عن البقعة الأخرى.. وذلك حسب السرعة النسبية للمشاهد)[1].

طي الأرض في مسألة نقل عرش بلقيس:

ومسألة (طي الأرض) لعلي بن أبي طالب شبيهة بمسألة طي الأرض في نقل عرش بلقيس إلى مقام النبي سليمان بن داود (ع).

---

(١) الكون الأحدب: ص ١٤٧.

وقد تحققت هذه المعجزة على يد وزيره (آصف بن برخيا) الذي تفوق بعلمه على العفريت وجرى بينهما التحدي: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ (النمل: ٣٩ - ٤٠).

ويفهم من هذه الآيات الكريمة إن سرعة (آصف بن برخيا) تفوق سرعة العفريت الذي تطوع لإحضار العرش.

(آصف) يملك سرعة تمكنه من إحضار عرش بلقيس من اليمن إلى حضرة النبي سليمان بن داود في فلسطين في أسرع من لمح البصر: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾.

أرأيت.. ؟ آصف عنده علم (من الكتاب) كما عبر القرآن.

أي جزء من الكتاب لأن (من) تفيد التبعيض والتجزئة.

ولم يكن عنده (علم الكتاب) كله، ومع ذلك قطع هذه المسافة الطويلة أكثر من ألفي كيلومتر بأسرع من ارتداد الطرف.

لكن مولانا أمير المؤمنين (ع) يتفوق على العفريت وعلى أصف بن برخيا الذي عنده (علم من الكتاب).

علي بن أبي طالب عنده (علم الكتاب) كله بنص القرآن الكريم: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (الرعد: ٤٣)، فالإمام علي بن أبي طالب هو الشهيد على هذه الأمة على صدق نبوة الرسول الأعظم محمد (ص) وهو الذي عنده علم الكتاب.

رجوع الزمن لعلي في معجزة رد الشمس:

أثناء فترة إعداد هذا الكتاب وتأليفه كنت أتردد على (مكتبة الجوادين) في الكاظمية المقدسة. وأثناء البحث والتنقيب في المصادر وقع في يدي كتيب صغير قديم كتب على غلافه (معجزتا رد الشمس وانشقاق القمر).

وكان مؤلفه يتحدث عن المعجزتين بموضوعية العالم الخبير ويرد على المشككين بهما بأسلوب علمي صريح. وها أنا انقل إليك بعض ما جاء في هذا الكتيب القيم مما له علاقة بموضوع بحثنا الآن مع تصرف يسير:

المشهور المتواتر على السنة الفريقين (إن الشمس ردت لعلي مرتين) مرة في زمن النبي (ص) وأخرى في خلافته (ع).، فهل كان رجوع الشمس خاصاً به وبأصحابه؟ أم كان عاماً شوهد في جميع أرجاء العالم؟

ولِمَ لمْ تعترف به الأمم الأخرى باعتباره حادثاً من الحوادث المهمة في التاريخ؟

ثم... من آي محل وقع رجوع الشمس؟

وهل ردت لأحد قبله من الأنبياء والأوصياء؟

وهل يتعارض ذلك مع القواعد العلمية؟

طرح الكتاب هذه التساؤلات الكثيرة عن هذا الموضوع، ثم أجاب بما يلي:

علل علم الفلك الحديث نظم السيارات ونظم الشمس بعضها مع بعض في ملايين من المنظومات الشمسية في هذا الفضاء الذي لا ندرك نهايته بوجود (القوة الجاذبة العامة) بين الكواكب والشموس.

ثم اختلف علماء الفلك في هذه القوة.. فمنهم من قال: إنها قوة طبيعية، فاقدة الاختيار والشعور في محلها كسائر القوى الطبيعية ومنهم من أصر على: أن هذه القوة فاعلة بالاختيار والشعور والإدراك، أما الشرع فقد اعترف بوجود هذه القوة وسماها (أمر الله) في سورة الروم وعدها من آياته بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

وتلك الجاذبية الكونية التي تنتظم الأجرام والكواكب سماها أمير المؤمنين علي (ع) (عمودا من نور) إذ قال في حديث مشهور: (هذه النجوم التي في السماء مدائن كمدائنكم مربوطة مع بعضها بعمود من نور)[1].

والآيات والأحاديث دلت على أن هذه القوة خلق عظيم من خلق الله، يفعل بإدراك وشعور واختيار، يحفظ السماء والأرض وكل الأجرام بأمر الله.. حتى إذا إذن الله بتبديل هذه العوالم سكن عن عمله، واصطدمت الأجرام السماوية وضرب بعضها بعضاً وكانت هباء منبثاً، في صيحة عظيمة ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

بعد هذه المقدمة العلمية يذكر لنا حديث الشمس بعد غروبها نقلاً عن كتاب الإرشاد:

إن أم سلمة وأسماء بنت عميس وجابر بن عبد الله وأبا سعيد الخدري وغيرهم من الصحابة (رضوان الله عليهم) قالوا: إن رسول الله كان في منزل، فلما تغشاه الوحي توسد فخذ علي (ع) فلم يرفع رأسه حتى غابت الشمس وصلى (علي) صلاة العصر بالإيماء.

فلما أفاق (ص) قال: اللهم اردد الشمس لعلي.

فردت عليه الشمس حتى صارت في السماء وقت العصر فصلى (علي) العصر ثم غربت فأنشأ حسان بن ثابت شاعر الرسول:

يا قوم من مثل علي وقد ... ردت عليه الشمس من غائب

اخو رسول الله بل صهره ... والأخ لا يعدل بالصاحب

إذن.. فقد ردت الشمس لعلي في المرة الأولى على عهد رسول الله.

أما المرة الثانية التي ردت له فيها الشمس فكانت في أيام خلافته (ع). روي عن أبي جعفر الباقر عن أبيه عن جده الحسين (ع).. قال: لما رجع أبي من قتال النهروان سار في أرض

---

(١) ذكرنا هذا الحديث في كتابنا (الإمام علي والعلم الحديث) وشرحناه وفق معطيات العلم الحديث.

(بابل) وحضرت صلاة العصر فقال (ع): هذه أرض مخسوفة وقد خسفها الله ثلاثاً، ولا يحل لوصي نبي أن يصلي فيها.

قال جويربة بن مسهر العبدي صاحب أمير المؤمنين: صلى قوم هنا وتبعت بمائة فارس أمير المؤمنين (ع) إلى أن قطعنا أرض (بابل) والشمس غربت فنزل وقال: ائتني بالماء، فأتيته بالماء فتوضأ وقال: يا جويربة أذّنْ للعصر.

فقلت في نفسي: كيف نصلي العصر وقد غربت الشمس. فأذنت.

وقال لي: أقم. فأقمت. وبينما أنا في الإقامة إذ تحركت شفتاه.. وإذا بالشمس قد رجعت وصلينا وراءه، فلما فرغنا من الصلاة غابت بسرعة كأنها سراج رفعت في طشت ماء، واشتبكت النجوم.

والتفت إلي وقال لي: أذن للمغرب يا ضعيف اليقين.

قيل لابن عباس: ما تقول في شأن علي بن أبي طالب؟

فقال: والله هو احد الثقلين، وهو أبو السبطين الحسن والحسين (وردت عليه الشمس مرتين) فمثله في الأمة مثل ذي القرنين وهو مولاي ومولى الثقلين.

أما السؤال: هل كان رجوع الشمس لعلي خاصاً به وبأصحابه؟

أم كان عاماً شوهد في جميع أنحاء العالم؟

ولمَ لمْ تعترف به الأمم الأخرى باعتباره حادثاً مهماً من حوادث التاريخ؟

فجوابه بين واضح وهو: إن أهل الأرض حين ردت الشمس لعلي كانوا مختلفين:

فمنهم من كانوا في ليل، وهؤلاء لم يشعروا برد الشمس، وهذا أمر طبيعي.

ومنهم من كان في سائر أوقات النهار من الصبح إلى قبيل الغروب، وهؤلاء كذلك لم يشعروا برد الشمس لأن الشمس كانت عندهم.

فانحصر الذي يشعر به عند رد الشمس لعلي (ع) مقدار عشر دقائق أو اقل.. لأداء صلاة العصر بمن كان في محل رد الشمس إلا فراسخ يسيرة فضلاً عن أنهم لم يكونوا أهل تحقيق في الفلكيات، فإن أهل الحجاز كانوا أميين ولم يشعر برد الشمس إلا قليل منهم، على أنهم لم يكونوا راصدين للشمس فإذا رأوا ظلاماً، ثم رأوا الشمس بعده فإنهم يفرضونه حادثاً من حوادث الظلمة التي تحدث أثناء النهار في مدة أطول بكثير من مدة أداء الصلاة.. ويتضح ذلك لمن فتح (الراديو) في هذا العصر.

فإن الفاصل الزمني بيننا وبين (طهران) مثلاً نصف ساعة.. فإذا ردت الشمس عندنا مقدار عشر دقائق لا يشعر بها أهل (طهران) بل لا يشعر به أهل الموصل لأن الفاصل بيننا وبينهم أكثر من زمن أداء الصلاة وأهل مصر بطريق أولى لأن الفاصل بيننا وبينهم مقدار ساعة.

وأولى منهم أهل (لندن) حيث الفاصل الزمني بيننا وبينهم ثلاث ساعات. وبعض بلاد (أمريكا) والبلاد القطبية في ليل دامس ذلك الوقت.

وبالجملة: لا يدرك أهل العالم هذه الحادثة، وإنما يدركها من جاور محلها بقليل فالعلم في هذا العصر والاختراع كلاهما قد أيدا هذه المعجزة الباهرة.

أما السؤال: هل ردت الشمس لأحد قبله من الأنبياء والأوصياء؟

فجوابه: نعم.. لقد ردت الشمس من قبل ليوشع بن نون وصي النبي موسى عليهما السلام[1].

وفي ذلك يقول أمير الشعراء أحمد شوقي في قصيدة خاطب فيها الشمس وسماها (أخت يوشع):

قفي يا (أخت يوشع) خبرينا أحاديث القرون الغابرينا

هذا ولو علم (شوقي) بمعجزة رد الشمس لأمير المؤمنين (ع) لخاطبها بقوله: قفي لبي أمير المؤمنين.

القرآن الناطق علي:

وعلي بن أبي طالب آية من آيات الله الكبرى، ومعجزة من معجزات الإسلام ونبيه الكريم.. وهو شريك القرآن.. بل هو القرآن الناطق كما قال (ع): ذاك القرآن الصامت وأنا الناطق.

ألم يقل النبي العظيم: (إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي.. ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبدا.. وإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض).

قلنا إن القرآن معجزة باقية على الدهر.. إلى يوم الحساب، وكذلك علي بن أبي طالب معجزة خالدة.. إلى أبد الأبد بعقله الجبار وسيفه البتار، بسيفه الخالد العظيم ذي الفقار أقام عمود الدين ورفع سواري اليقين.

في يوم الأحزاب أو معركة الخندق: وقف الشرك كله (ممثلاً في شخص عمرو بن ود العامري) أسد الجزيرة المخيف وبرز الإيمان كله ممثلاً في شخص علي بن أبي طالب.

ورسم النبي الموقف بقوله: برز الإيمان كله إلى الشرك كله.

وقذف الله بسيف الحق على الباطل.. فانتصر وزهق الباطل.

عندها أطلق النبي قولته المشهورة الخالدة: (ضربة علي يوم الخندق تعدل عمل الثقلين إلى يوم القيامة).

كلمة خالدة صدرت من فم أصدق الصادقين النبي الأمين الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

كلمة عظيمة قالها عظيم العظماء (محمد بن عبد الله) ليضع بها على صدر البطل الخالد وساماً عظيماً من أوسمة الخلود.

أي بشر.. وأي إنسان حظي بمثل هذا الوسام العظيم؟

---

(١) معجزتا رد الشمس وانشقاق القمر: للشيخ الخالصي، بغداد ـ ١٩٥١م.

لم يحظ بهذا الوسام أحد من الأولين والآخرين إلا علي بن أبي طالب الذي ولد في الكعبة (بيت الله) وهذه فضيلة بل هي أولى الفضائل التي انفرد بها وحده دون الخلق أجمعين.

خرج هذا الإنسان الكامل من رحم الكعبة.. فكان أول من آمن برب الكعبة ونبيه الكريم.

وعاش حياته كلها مجاهداً في سبيل الله.. كاشفاً لكل كرب عن رسول الله حتى ختم حياته شهيداً في محراب الله، فكانت حياته وسيرته كلها معجزة خالدة من بدايتها في بيت الله إلى نهايتها في محراب الصلاة.

وتعال بنا لنتأمل في هذه الكلمة الخالدة أو هذا الوسام الخالد الذي وضعه رسول الله على صدر إمام المتقين وبطل الإسلام والمسلمين.

(ضربة علي يوم الخندق تعدل عمل الثقلين إلى يوم القيامة)

هذه الكلمة العظيمة أو هذا الحديث الشريف لا ينبغي أن نمر به مروراً عابراً.. فهو جدير بالتأمل والتدبر في كلماته ونستخلص معانيها التي أرادها رسول رب العالمين.

ومن يقدر على ذلك؟ والله إن الأقلام لتقف عاجزة عن تسطير المعاني العظيمة في هذا القول العظيم. وان العقل ليقف عاجزاً قاصراً عن الإحاطة بهذا السر الكبير.

فما من فضيلة من فضائل الإسلام.. وما من حسنة من حسنات المسلمين من يوم الخندق إلى يوم القيامة إلا وعلي أميرها وسيدها والسباق إليها، ما من آذان يرفع.. أو قرآن يتلى إلا ولعلي فيه سهم أو نصيب.

ما من مسجد يصلى فيه.. ما من حج مبرور إلى البيت المعمور إلا ولعلي نصيب في فضله وثوابه.

ما من نسمة تقول (لا إله إلا الله) وما من راية ترفع في سبيل الله إلا وعلي قائدها المنصور بأمر الله.

كل صلاة وكل صيام وكل حج وكل جهاد في سبيل الله.. كل شرائع الإسلام أحياها أسد الإسلام بضربته يوم الأحزاب التي اجتثت رأس المشركين إنها ضربة تعدل عمل الثقلين من الإنس والجن إلى يوم القيامة. وما أصدق الشاعر الذي يقول فيها:

يا لها ضربة كم حوت مكرمات ... لم يزنْ ثقلَ اجرها ثقلاها

والى الحشر رنة السيف منه ... يملأ الخافقين رجع صداها

ضربة قد حوت من الأفضال ... عدد النجوم والحصى والرمال

هذه من علاه إحدى المعالي ... وعلى هذه فقس ما سواها

ذو الفقار سيف علي بن أبي طالب معجزة خالدة لأنه انتصر للقرآن. ونهج البلاغة (فكر علي بن أبي طالب) معجزة خالدة لأنه ثمرة من ثمرات القرآن.

وسلام الله عليك يا شريك القرآن.

مفاهيم فيزياوية أخرى في كلام الإمام (ع)

القوة الانتباذية الطاردة عن المركز:

جاء في خطبة الإمام (ع) المعروفة (بالشقشقية) كلام مبتكر فيه إبداع يعبر عن فن وعلم غزير ببلاغة وتشبيه عظيم الشأن.. يستحق الإعجاب والتنويه عنه والتنبيه إليه من ناحية الفن الذي لم ينوه عنه الشارحون من قبل ألا وهو قول الإمام (ع): (إن محلي منها كل القطب من الرحى ينحدر عني السيل.. ولا يرقى إلي الطير)[1].

وقد طرح هذا الموضوع أمام أحد أساتذة الفيزياء من ذوي الاختصاص فقال: إن كلامه (ع) هو من وجهة الفن يتفق تماماً مع الحقائق العلمية وذلك لوجود قوة طبيعية تؤثر في الأجسام الدائرة حول المحور (القطب) تحاول أن تجعلها تسير بخط مستقيم.

ومن أمثلة هذه القوة في الحياة العملية الحديثة: إن السيارات لا يمكنها أن تبدل اتجاهها فجأة بما أن الضرورة تقضي إلى الانعطاف بخط منحن يتناسب لتلافي تأثير هذه القوة.

تظهر هذه القوة كما أسلفنا في الأجسام الدائرة حول المحور المماس للدائرة التي يتحرك عليها الجسم.

وقد ابتكر العلماء من هذه القوة آلات ميكانيكية خاصة في الصناعة الحديثة تشبه هذه الرحى التي أبدع الإمام في وصفها الذي كان ينطبق تماماً على آلات مبخرة الملابس المبتلة والأواني الحارة الدوارة التي يصب فيها محلول السكر أو الحليب فيتناثر منها السائل بعيدا عن (المحور).. ويتبخر الماء بتأثير الحرارة وترسب بلورات السكر أو مسحوق الحليب على جدار الوعاء. ويكون اتجاه حركة المحلول في اتجاه الجدار.. أي بعيداً عن المحور. ويمكنكم مشاهدة هذه الظاهرة بتجربة عملية بسيطة:

إذا وضعت قليلاً من الماء أو إبرة أو عوداً على اسطوانة حاكي يشبه (الرحى) التي نوه عنها الإمام فينحدر هذا الماء عنه ويطرد ذلك العود أو الإبرة بعيداً عن المحور أيضاً في مستوى الاسطوانة الدائرة عن القطب المنوه عنه.

وعلى كل ذلك يمكننا أن نجزم في متانة تشبيه أمير المؤمنين (ع) ودقته في قوله: (ينحدر عني السيل ولا يرقى إلي الطير).. لأنه شبه نفسه (ع) بالقطب (أي المحور).

فلو فرضنا صب الماء على الاسطوانة أو كل سائل فان هذا الماء أو السائل ينحدر عن القطب فعلاً ويتناثر بعيداً عنه. وهذا هو المشاهد عملياً بالضبط ولو جعلنا على هذه الاسطوانة قليلاً من الحصى أو حبوب الفول وحركنا آلة الحاكي كحركة الرحى الموضوعة وشبهنا هذه الأجسام بالطيور فإن هذه الأجسام أو الطيور تتناثر نحو الخارج في مستوى الاسطوانة ولا يمكنها أن ترقى إلى المحور بطبيعته لأعلى من مستوى الاسطوانة (الرحى) وهكذا يتضح

---

(١) نهج البلاغة.

لنا دقة تعبير الإمام الذي أيد في عصرنا هذا أدق القواعد العلمية وإني لأعجب كثيراً مما وصل إليه الأمير (ع) من نوع هذه الدقة.. باكتشاف القوة الطبيعية التي سميت في هذا العصر (بالقوة الانتباذية الطاردة) عن المركز.. هذا بالرغم من عدم وجود مختبرات علمية وآلات صناعية في ذلك الزمن الذي اتخذ فيه الإمام (ع) تشبيها بالرحى بهذه الدقة والأحكام والبلاغة في التعبير من الوجهة الفنية[١].

الحركة والسكون:

قال الإمام (ع): (تحريك الساكن أسهل من تسكين المتحرك).

القصور الذاتي أو الاستمرارية (Inertie) موضوع معروف في الفيزياء يعترف به الفيزياويون وهو: أن الجسم لو كان ساكناً لبقى ساكناً على حالته الأصلية.. فلا يتحرك من تلقاء نفسه إلا بمحرك آخر، ومع ذلك يحاول أن يبقى على حالته السابقة.

لذلك لو كنت جالساً في قطار ساكناً.. والقطار ساكن وتحرك القطار بسرعة، تأخر القسم من بدنك في متابعة حركة القطار من القسم الملتصق بسطح القطار.. كل ذلك ليحافظ على سكونه أي على حالته السابقة. فإذا استمر القطار في حركته أخذ بدنك يتحرك مع القطار فإن وقف القطار فجأة فإن القسم الأعلى من بدنك ليحافظ على حالته السابقة (أي الحركة) فيتحرك قليلاً إلى الأمام عند وقوف القطار فجأة.

مثال آخر:

إنا لو وضعنا فوق إناء (كأس) قطعة من المقوى (الورق السميك).. ووضعنا على المقوى درهما مثلاً، وسحبنا المقوى بسرعة ترى أن الدرهم لا يتابع الحركة الفجائية، بل يحاول أن يحافظ على حالته السابقة أي على سكونه.. فيسقط في الإناء[٢].

الموجات فوق الصوتية:

جاء في كتاب (شرح نهج البلاغة) للسيد محمد كاظم القزويني في الجزء الثالث في شرح قوله (ع): (وكل سميع غيره يصم عن لطيف الأصوات ويصمه كبيرها ويذهب عنه ما بعد منها):

هذه الكلمات تشتمل على موضوعات ثلاثة: أولاً: إن كل سميع لا يسمع الأصوات الخفية كأصوات النمل وصوت إقدام النمل أو الحشرات الصغيرة أثناء مشيها وحركتها، وما شابه ذلك من الأصوات اللطيفة الخفية الدقيقة.

والسبب في ذلك أن الصوت إنما يحدث من تماس أحد الجسمين بالآخر تماساً عنيفاً، أو من انفصال احدهما عن الآخر بقوة وعنف.

---

(١) أسبوع الإمام (ع): مجموعة محاضرات ألقيت في دار منتدى النشر - النجف الأشرف.

(٢) التكامل في الإسلام: الجزء الثاني - د. أحمد أمين - بغداد ١٣٧٨ هـ.

وعلى أثر التماس أو الانفصال يحدث ضغط في الهواء فيحدث التموج والحركة بصورة مستديرة كما يحدث من وقوع الحجر في الماء، فإذا انتهى التموج إلى الهواء الموجود في فضاء الأذن تحرك الهواء الراكد ووصل إلى الغشاء السمعي ويقال له (الطبلة) فتدرك القوة السامعة وصول الهواء إلى الغشاء بكيفية خاصة، ولهذا خلق الله الأذن بهذه الكيفية كي يكون الهواء مجاوراً دائماً للطبلة.

إذا عرفت هذا فنقول: إن حاسة السمع إنما تدرك قرع الصوت للغشاء إذا كان الصوت قريباً معتدلاً لأن الصوت إذا كان خفياً ضعيفاً لم يحدث التموج في الهواء أو يحدث تموجاً ضعيفاً جداً بحيث لا يؤثر في الهواء المجاور للغشاء السمعي.

ثانياً: إن الأصوات الكبيرة القوية جداً ربما تصم السمع، لقد حدث في هذا الزمان: أن رجلاً صرخ صرخة عظيمة في أذن طفل رضيع فبكى الطفل واستمر باكياً لم يهدأ وبعد الفحص والتدقيق تبين أن غشاءه السمعي قد تمزق على أثر تلك الصرخة وفقد الطفل حاسة السمع وصار أصماً بسبب الصوت القوي.

ولعل الانزعاج الذي نحسه من الصوت القوي هو من تألم الغشاء واضطرابه لمواجهته التموج الهوائي العنيف.. بحيث لو اشتد التموج على الغشاء السمعي الرقيق لكان متلفاً له.

ولعل العلم الحديث يؤيد هذه النظرية المحسوسة.

ثالثاً: إن كل سميع لا يسمع الأصوات البعيدة (الأصوات المجردة الطبيعية لا الأصوات المكبرة بالراديو والآلات المكبرة للصوت) والسبب في ذلك: إن التموج الذي يحصل في الهواء من ذلك الصوت لا يصل إلى الهواء المجاور للسمع بسبب بُعد المسافة.

وخلاصة القول: إن كل سميع لا يسمع الصوت الضعيف ولا البعيد.. والصوت القوي يصمه ولكن الله تعالى سميع.. والقريب والبعيد والضعيف والقوي من الأصوات عنده سواء، لا يخفى عليه شيء.

وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين فإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى.

الأشعة تحت الحمراء:

وقال السيد القزويني في المصدر نفسه في شرح قوله (ع): (وكل بصير غيره يعمى عن خفي الألوان ولطيف الأجسام).

إن الرؤية بالعين لا تتحقق إلا بعد وجود الهواء والضوء (النور) بين الرائي والمرئي فإذا فقد الهواء – وذلك بأن يقرب الجسم إلى العين إلى حد الإلصاق – فإن العين لا ترى ذلك الجسم لعدم وجود الهواء المتخلل بين العين والجسم، وكذلك إذا فقد النور فقدت الرؤية.. فإنك لا ترى الأشياء في الظلام.

إذن.. فكل بصير لا يرى الألوان الخفية بسبب الظلام.

وللحكماء كلام طويل حول اللون فقال بعضهم: إن اللون غير موجود في الظلمة، واستدلوا على ذلك بعدم إمكان الرؤية في الظلام، ولعل هذا غير صحيح لما ذكرنا أن الرؤية تتحقق بتوسط الهواء والنور معاً.

والأشياء التي لا ترى في الظلمة لا تكون فاقدة اللون، بل السبب فقدان الضوء الذي هو أحد شرطي الرؤية.

وكذلك كل بصير لا يرى الأجسام اللطيفة كالصوت.. فإن الصوت جسم فلو لم يكن جسماً لما حصل منه التموج في الهواء ولكنه لا يرى وكذلك الملائكة والجن والروح.. فهذه الأشياء لا ترى بالعين إلا لطائفة خاصة من البشر وهم الأنبياء والأوصياء وغيرهم من أناس معدودين.

لقد ذكر الحكماء: إن الروح إذا لطفت شاهدت الأجسام اللطيفة ولطافة الروح تحصل في الأكثر بالجوع أو التجوع كما هو شأن أهل الرياضات الروحية أو بسبب طهارة الروح وقدسيتها بالنورانية كما هو شأن الأنبياء والأولياء.

إذن.. فكل بصير يعمى (أي لا يرى لان العمى فقدان البصر) عن الألوان الخفية بسبب الظلمة والأجسام اللطيفة بسبب كثافة الروح أو ظلمتها.

ويمكن القول أن يكون المراد بالألوان الخفية هي الألوان المستورة المحجوبة بسبب الغطاء أو الحاجب.

ولكن الله تعالى لا يخفى عليه شيء ويرى كل شيء ويعلم كل شيء..

فلا يتفاوت عنده الخفي أو الجلي ولا اللطيف ولا الكثيف، بل علمه محيط بجميع الموجودات.. حتى الأعضاء المتفرقة للجراثيم.. والأجزاء المتلاشية من أبدان المكروبات التي لا ترى بالعين المجردة، وحتى الأفلاك والأجرام السماوية التي لم يبلغ إليها علم البشر واطلاعه، وكل ما في الكون وكل ما لم يظهر فإن الله بكل شيء عليم.

ويقول العلماء: إن كثيراً من الحيوانات لا ترى الألوان بل ترى الصور سوداء بيضاء فقط، أما الإنسان فإنه يرى الألوان السبعة التي هي ألوان الطيف المرئي والتي تنحصر أطول موجاتها بين (٠.٤) مكرون البنفسجي و (٠.٨) مكرون الأحمر.

أما الأضواء التي تقع أطوال موجاتها خارج هذا المجال فإن الإنسان لا يراها ومنها: الأشعة فوق البنفسجية، والأشعة تحت الحمراء[1].

ولعل هذا يندرج ضمن المعاني التي قصدها بقوله (ع): (كل بصير غيره يعمى عن خفي الألوان).

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٣ للسيد محمد كاظم القزويني.

تكون السحاب والمطر:

هل فكرت يوماً: ما هو هذا المطر؟ ومن أين يأتي؟

الملاحظ أن الطقس الممطر يصحبه سحاب، ويغلب عند نزول المطر أن تكون السماء مستورة بسحابة واحدة.

والمجربون من الناس ينظرون إلى السحاب في السماء ثم يقولون إن المطر نازل في المكان الفلاني أو أنه آت إلى هنا أو هو متجه إلى الجهة الفلانية. وإذا أمعنت النظر يمكنك أن تفهم ذلك بسهولة.

فإن في المكان (الذي فيه المطر) سحاباً، ويمتد بين ذلك السحاب والأرض خطوط منحنية، فهذه الخطوط هي قطرات المطر المتواصلة فيعلم أن السحاب يمطر الغيث هناك.

ولأجل العلم بسبب أمطاره ينبغي أولاً أن نفهم ما هو السحاب؟

كثيراً ما يوجد على روابي الجبال بعض السحاب، وإذا وصل الصاعد في الجبل إلى تلك الروابي لا يرون هناك إلا ضباباً، وإذا علوا في الجبل ومضوا على ذلك الضباب يرونه أيضاً سحاباً.

إذن فالسحاب المرئي على تلك الروابي ليس إلا ضباباً متراكماً.

وكل من صعد في الجبال فقد لاحظ هذا بلا أدنى ريب.

ولا فرق بين السحب التي على روابي الجبال والسحب الأخرى.

فكل السحب ليست إلا ضباباً متراكماً في الجو.

إذن.. فالضباب بخار، لا فرق بينه وبين البخار المتصاعد من القدر التي يغلي ماؤها.. وإذا فهمنا هذه الأشياء علمنا أن المطر ينتجه السحاب، والسحاب ليس إلا ضباباً متراكماً كما أسلفنا.. ونستنتج من ذلك:

إن تحول السحاب ماء ثم تساقطه على الأرض مطراً هو كالبخار المتصاعد من القدر إذا صادف إناء بارداً يتكاثف، ليتساقط قطرة قطرة.

وقد ينزل المطر ولو لم يكن في السماء غيم والشمس طالعة.

إن ذلك المطر يحصل من تكاثف الأبخرة التي في الهواء.

قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ (النور: ٤٣).

مفتاح هذه الآية هو في قوله تعالى: (ثم يؤلف بينه) فقد كان الناس يمرون بهذه الكلمات فيرونها مجازاً من المجازات البلاغية، وهي حقيقة من أمهات الحقائق الكونية التي كشف أسرارها العلم، فان التآلف بين السحاب ما هو إلا إشارة واضحة في وصف دقيق للتقريب بين السحاب المختلف الكهربائية فالسحاب (مكهرب) من غير شك كما أثبت ذلك (فرانكلين) لأول مرة في عام ١٧٥٢ م.

والمعروف أن نوعي الكهربائية يتجاذبان، وأن الموجب والموجب يتنافران، وكذلك السالب والسالب تتنافران أيضاً.

وهذا التنافر من شأنه تفريق السحاب ذي النوع الواحد، لكن الله سبحانه قد يجمعه برغمه بواسطة الرياح، وعندئذ تكبر السحابة، ثم إذا شاء الله ساق السحاب بالريح حتى يقترب السحاب الموجب من السحاب السالب قرباً كافياً، فإذا اقتربا تجاذبا، ومن شأن اقترابهما أن يزيد في (كهربائية) مجموع السحاب بالتأثير.

ولا يزالان يتجاذبان ويتقاربان حتى لا يكون محيص من اختلاطهما واتحاد كهربائيتهما، والمطر نتيجة لازمة لحدوث ذلك الاتحاد الكهربائي فالنواقل المسببة للأمطار محورها إذن هي (الكهربائية) الجوية.

وقد أشير إليها إشارة واضحة في آية أخرى، قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ (الحجر: ٢٢).

فالملاقحة في هذه الآية بين سحاب وسحاب، والشبه التام بين هذا التلقيح والتلقيح النباتي، لأنه في الحالتين اتحاد تام بين شيئين متضادين متجاذبين يختفي به الشيئان ويظهر مكانهما شيء آخر غيرهما[1].

ولنتأمل فيما قاله الإمام علي (ع) عن السحاب والمطر في نهج البلاغة:

(ثم لم يدع جُرُزَ الأرض التي تقصُر مياه العيون عن روابيها، ولا تجد جداول الأنهار ذريعةً إلى بلوغها حتى انشأ لها ناشئة سحاب تحيي مواتها وتستخرج نباتها ألّف غمامها بعد افتراق لُمَعِه وتباين قزعه. حتى إذا تمخضتْ لجة المزن فيه والتمع برقة في كففه ولم ينمْ وميضه في كنهْورَ رَبابه ومتراكم سحابه أرسله سحاً متداركا قد أسفّ هيدبه تمريه الجنوب درَرَ أهاضيبه ودفعَ شآبيبه. فلما ألقت السحابُ بَركَ بوانيها وبَعاعَ ما استقلتَ به من العبء المحمَول علها اخرج به من هوامد الأرضِ النباتَ ومن زُعرِ الجبالِ الأعشابَ فهي تبهجُ بزينة رياضها وتزدهي بما ألبستْهُ من ريَطِ أزاهيرها وحليةِ ما سمطتْ به من ناضر أنوارها. وجعَل ذلك بَلاغاً للأنام ورزقاً للأنعام، وخرق العجاج في آفاقها، وأقام المثار للسالكين على جواد طرقها).

(١) الموات من الأرض: ما لا يزرع.

(٢) جمع لمعة - بضم اللام - وهي في الأصل القطعة من النبات مالت لليبس استعارها لقطع السحاب للمشابهة في لونها وذهابها إلى الاضمحلال لو لا تأليف الله لها مع غيرها.

(٣) القزع: جمع قزعة - محركة - وهي: القطعة من الغيم.

(٤) تمخضت: تحركت تحركاً شديداً كما يتحرك اللبن في السقاء بالمخض، والضمير في (فيه) راجع إلى المزن، أي: تحركت اللجة التي يحملها المزن فيه، ويصح أن يرجع للغمام في أول العبارة.

---

(١) الجواهر الروحية: ج١ - حسن السيد علي القبانجي - النجف الأشرف ١٩٥٥م - ص ١٠٥ - ١٠٦.

(٥) كففه: جمع كفة - بضم الكاف - وهي الحاشية والطرف لكل شيء، أي: جوانبه.

(٦) نامت النار: همدت، والوميض: اللمعان، والكنهور - كسفرجل - القطع العظيمة من السحاب، أو المتراكم منه، والرباب - كسحاب - الأبيض المتلاحق منه، أي: لم يهمد لمعان البرق في ركام هذا الغمام.

(٧) سحاً: متلاحقاً متواصلاً.

(٨) أسف الطائر: دنا من الأرض، والهيدب - كجعفر - السحاب المتدلي أو ذيله، قال الشاعر في وصف السحاب:

دان مسف فويق الأرض هيدبه يكاد يدفعه من قام بالراح

وقوله: (تمريه) من (مرى الناقة) أي: مسح على ضرعها ليحلب لبنها. والدرر - كعلل - جمع درة - بالكسر - وهي اللبن. والأهاضيب: جمع أهضاب وهو جمع هضبة - كضربة - وهي المطرة، أي: دنا السحاب من الأرض لثقله بالماء، وريح الجنوب تستدر الماء كما يستدر الحالب لبن الناقة، فإن الريح تحركه فيصب ما فيه.

(٩) الشؤبوب: وهو ما ينزل من المطر بشدة.

(١٠) البرك (بالفتح) - في الأصل: ما يلي الأرض من جلد صدر البعير كالبركة، والبواني: هي أضلاع الزور، وشبه السحاب بالناقة إذا بركت وضربت بعنقها على الأرض ولاطمتها بأضلاع زورها.

(١١) (وبعاع) عطف على برك والبعاع - بالفتح - ثقل السحاب من الماء. وألقى السحاب بعاعه: أمطر كل ما فيه.

(١٢) العبء: الحمل.

(١٣) الهوامد من الأرض: ما لم يكن بها نبات.

(١٤) زعر - بالضم- جمع أزعر، وهو الموضع القليل النبات، والأنثى زعراء.

(١٥) بهج - كمنع - سر وفرح.

(١٦) تزدهي: تعجب.

(١٧) ريط جمع ريطة (بالفتح) وهي كل ثوب رقيق لين.

(١٨) جمع أزهار الذي هو جمع زهرة بمعنى النبات.

(١٩) (سمط) من (سمط الشيء) أي: علق عليه السموط وهي: الخيوط تنظم فيها القلادة.

(٢٠) الأنوار: جمع نور - بفتح النون - وهو الزهر بالمعنى المعروف أي: حلية القلائد التي علقت عليها من أزهار نباتها، وفي رواية (شمطت) بالشين وخفيف الميم من (شمطه) إذا خلط لونه بلون آخر، والشميط من النبات: ما كان فيه لون الخضرة مختلطاً بلون الزهر.

(٢١) البلاغ: ما يتبلغ به من القوت.

علم الذرة في تراث الإمام (ع)

تحدث إمامنا أمير المؤمنين (ع) عن القوانين الطبيعية.. والنواميس الإلهية التي تتحكم في عناصر المادة أو عناصر الكون إلى أصغر وحدة في تركيب المادة وهي الذرة. فما هي الذرة التي تحدث عنها الإمام في ذلك المجمع البسيط.. والتي لم يكتشف سرها إلا بعد أربعة عشر قرنا من الزمان في عصرنا الراهن.. الذي أطلق عليه (عصر الذرة).

جاء في نهج البلاغة قوله (ع): (أحال الأشياء لأوقاتها، ولأمَ بين مختلفاتها، وغرز غرائزها وألزمها أشباحها).

وقال (ع): (فأقام من الأشياء أودها، ونهج حدودها، ولأم بقدرته بين متضادها ووصل أسباب قرائنها).

وقال (ع): (مؤلف بين متعادياتها، ومفرق بين متدانياتها، دالة بتفريقها على مفرقها وبتأليفها على مؤلفها، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات: ٤٩).

انظر وتأمل في هذه الكلمات الشريفة التي قالها امامنا علي بن أبي طالب (ع) قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، ثم التفت وتأمل فيما يقوله (البرت أينشتاين) العالم العبقري الذي وضع أساس القنبلة الذرية.. نعم.. انظر وأنعم النظر إلى ما يقوله أعظم علماء القرن العشرين:

(لقد تمكن بنو البشر وبعد مرور قرون متمادية من التعرف إلى أسرار تركيب الذرة وتبين لهم أن هذا العالم المادي إنما يتألف من الذرات الناتجة بدورها من اتحاد الالكترونات بالبروتونات، وان وجود المادة وبقاءها رهين بدوام تلك الآصرة التي تربط بين أجزاء الذرة المتكونة من جسمين متضادين: سالب وموجب). هذا ما قاله أينشتاين (أبو القنبلة الذرية).

لكن الباحث المتتبع إذا نظر بدقة في كلام الإمام علي (ع) في تفسيره للآية الكريمة السابقة من سورة الذاريات سيندهش حين يرى بأنه (ع) قد سبق علماء عصرنا بأربعة عشر قرناً من الزمان بالتعرف إلى أسرار تركيب الذرة حيث جاء في أحاديثه وأقواله إشارات إلى ما يمكن انطباقه اليوم على (الإلكترون) و (البروتون) وتطرق إلى الآصرة الموجودة بين هذين الجسمين بشكل دقيق للغاية[1].

ولكن.. هل هذا كل شيء عن علم الذرة عند الإمام علي (ع)؟

وهل وقف الأمر عند حد الإشارات والعموميات؟ أم أنه - سلام الله عليه - قد صرح بهذا العلم تصريحاً ولم يكتف بالتلميح؟

الواقع إنني.. من خلال البحث - قد عثرت على كلام لأمير المؤمنين (ع) يذكر فيه (الذرة) باسمها ويبين تأثيرها وقوتها التدمرية الهائلة فيقول: (إن من ذرة لناراً) (وإن الذرة لتحرق العالم).

ويقول (ع): وان وراءكم الذر الأذر لا تبقي ولا تذر.

---

(١) موسوعة الإمام علي (ع) - المجلد العاشر - محمد الريشهري.

ولعل أعجب ما وصلنا عن أمير المؤمنين (ع) فيما يتعلق بالذرة قوله: (إذا فلقت أي ذرة تجد في قلبها شمساً).

هذا القول العظيم استشهد به المحرر العلمي لجريدة هيرالدتربون (جون اونيل) في كتابه (قصة الهندسة النووية) وأبدى دهشته من هذه المقولة حول (فلق الذرة).

هذه المقولة وردت في المجلة المصرية العدد (٩٩) في مقال لمحمد محمود غالي بعنوان (الذرة) جاء فيه إن الكاتب قرأ كتاباً صدر في أمريكا من تأليف جون اونيل، ذكر فيه المؤلف أن أمير المؤمنين (ع) أشار إلى الذرة من تلك المقولة.

لكن السؤال يطرح نفسه: كيف استطاع البشر أن يفلقوا هذه الذرة ولماذا اختير اليورانيوم المخصب في هذه العملية؟

طرح أحد الباحثين المعاصرين هذا التساؤل العلمي الدقيق ثم عاد يتأمل في مقولة أمير المؤمنين (ع): دعونا نرجع لكلمة سيدنا (علي) وهو يقول (إذا فلقت) وكلمة (فلقت) لا تحتاج إلى قواميس ولا يحتاج إلى من يشرحها ويفسرها فهي كلمة تفسر نفسها بنفسها، وما تعنيه هذه الكلمة هو (الانقسام) فحينما أقول (إذا فلقت) فهي العبارة ذاتها حينما أقول (إذا شطرت) أو (إذا قسمت) فكل هذه الكلمات تؤدي إلى معنى واحد كما جميع الطرق عند الغربيين تؤدي إلى روما.

عند كلمة (أي ذرة) هنا يجب أن نقف وقفة تأمل، إذ المعروف أن العناصر التي أوجدها الله في الطبيعة (٩٢) عنصراً. واخف هذه العناصر هو عنصر الهيدروجين وأثقلها عنصر اليورانيوم وما بين هذين العنصرين تقع مجموعة العناصر الأخرى كالذهب والفضة والزئبق والحديد وغيرها، ومعلوم أن العنصر الطبيعي الوحيد القابل للانشطار هو معدن (اليورانيوم المخصب) ولهذا يستخدم في القنابل النووية كالقنبلة التي ألقيت على هيروشيما وقتل في أقل من دقيقة جراء هذه القنبلة ثمانون ألف إنسان.

لماذا استخدمت عبارة (أي ذرة) فمن الملاحظ أن قارىء هذه العبارة سيتجه تفكيره إلى أي ذرة سواء كانت ذرة حديد أو فضة ونحن نعلم أن ذرة الحديد أو الفضة غير صالحة للانشطار النووي، فلماذا لم توضح العبارة وتقول (ذرة اليورانيوم)؟

إنني اعتقد أن هذا الأسلوب الذي اتبعه سيدنا ومولانا الأمير علي بن أبي طالب (ع) هو أسلوب بسيط جداً في التعامل مع أولئك الناس البسطاء (في ذلك الزمن) وهذه بحد ذاتها معجزة كبيرة فكيف تستطيع أن توصل تفكيرك إلى أناس الفرق بينك وبينهم كما الفرق بين السماء والأرض؟

دعونا نواصل تلك العبارة العظيمة (تجد في قلبها شمساً) أي انك تجد داخلها طاقة هائلة فكلمة (شمس) تعطينا مفهوم الطاقة الهائلة التي تنتج عن شطر هذه الذرة ولهذا كانت كلمة (شمس) هي أبلغ تشبيه نستطيع الحصول عليه في هذا المقام[1].

---

(١) من تراث الإمام علي (ع): حسن سعيد محمد الخاطر - ط١ - ٢٠٠٥ - بيروت.

وليس هذا كل شيء في تفسير هذا القول العظيم للإمام علي فقد اثبت العلم الحديث إن الصورة الداخلية للذرة تشبه حركة الكواكب حول (الشمس).

فالنواة تمثل الشمس. والكهارب تمثل الكواكب التي تدور حولها.

فلنتعرف أكثر فأكثر على عالم الذرة العجيب وأسرار تركيب الذرة..

الذرة هي وحدة البناء في كل الأكوان. فأجسامنا من ذرات.

والماء والهواء والجبال والأرض من ذرات.

والأقمار المتلألئة، والكواكب السيارة، والشموس الساطعة والأجرام السماوية الضخمة وما بينها.. أساس بنائها ذرات.

ولكي تكون هناك ارض وسماء وكائنات حية وماء وهواء.. كان لابد أن تحدث في ذراتها حركة ودوران حتى نراها بالصورة التي نراها بها اليوم.

فإذا سألتني - بعد هذا - مم يتكون جسم الإنسان مثلاً أو جسم أي مخلوق آخر.

قلت لك: من ذرات غاية في الصغر.

والذرات تكون جزيئات، والجزيئات تكون خلايا، والخلايا تكون أنسجة ولحماً وعظاماً، وهذه تكون الأعضاء.. أعضاء الإنسان أو أعضاء كل مخلوق حي.. تراه أو لا تراه.

إذن.. لنبدأ من الأساس.. من الذرات الدقيقة التي كونت جسم الإنسان وغير الإنسان.

ولكي نأخذ فكرة عن ضآلة الذرة كان لابد أن نتصور: إنه لو تراصت عشر ملايين ذرة من ذرات الهيدروجين في طابور لما بلغ طوله ملليمتراً واحداً فقط لا أكثر.

ولو كنت عطشاناً وتجرعت لترا من الماء فإن ما تجرعته يحتوي على عدد من الذرات يساوي عدد حبيبات الرمل التي تغطي سطح الكرة الأرضية كلها - بما في ذلك البحار والمحيطات - وبسمك يصل إلى ثلاثين سنتمترا.. هكذا يقول العلماء[1].

وقد دلت الدراسات على أن الذرة في أبسط صورها تتكون من نواة موجبة التكهرب يدور حولها كهرب سالب يسمى (الإلكترون) هذا في ذرة (الهيدروجين).

أما ذرة (الهليوم) التي تلي الهيدروجين في ترتيب العناصر فهي تتكون من نواة ومن كهربين يدوران حولها في مدار.

والعنصر الثالث (الليثيوم) يتكون من نواة وثلاثة كهارب. اثنان منها يتحركان في المدار الأول، بينما الكهرب الثالث يلف حول النواة في المدار الثاني.

وهكذا تتابع العناصر بإضافة كهرب إلى الذرة في كل مرة.

وتحاط النواة بمدارات محدودة.. تتحرك فيها الكهارب حول النواة وكل مدار يمكنه أن يستوعب عدداً محدداً من الكهارب لا يمكن أن يتعداه وعلى ضوء هذه النظرية أمكن تفسير كثير من الظواهر الطبيعية والكيمياوية للعناصر.

---

(١) دورات الحياة: د. عبد المحسن صالح - دار العلم - القاهرة ١٩٦٣

ومن الطريف أن هذه الصورة (للذرة) تشبه حركة الكواكب حول (الشمس) والنواة تمثل الشمس. والكهارب تمثل الكواكب التي تدور حولها[1].

هذه هي (الذرة) في ابسط صورها وقد عرفنا ضآلة حجمها.

ولكن كيف تمكن العلماء من استخراج تلك الطاقة الرهيبة الكامنة فيها والتي استخدمت فيما بعد في الحروب والسلم بعد اختراع القنبلة الذرية.

وما هو القانون الذي وضع أساس القنبلة الذرية، وما هي الطاقة الذرية؟

الواقع أن الأساس الذي قامت عليه القنبلة الذرية هو تلك المفاهيم التي جاء بها العلماء حول العلاقة بين الطاقة والمادة.

وقد عرفنا الآن شيئاً عن الذرة التي تتكون منها المادة.. لكن.. ما هي الطاقة؟

يقول العلماء: إن الطاقة مفهوم فيزياوي يعني اعتياديا مقدرة السستم (النظام) الفيزياوي على انجاز شغل. وتظهر الطاقة بأنواع مختلفة.. منها:

الطاقة الميكانيكية (الحركية والكامنة)، والطاقة الصوتية، والطاقة الحرارية، والطاقة الكهربائية، والطاقة المغناطيسية، والطاقة الضوئية والكيمياوية.. ثم الطاقة الذرية التي هي محل بحثنا الآن.

وقد كتب هكسلي يقول: (إن المادة والقوة اسمان لفنان واحد هو الذي يصنع الحياة والموت).

وعبرّ السير (جيمس جينز) عن وجهة النظر الحديثة في هذا المجال الخطير فقال: (إن الحياة في هذا الكون يمكن اعتبارها مظاهر للطاقة متنكرة في أشكال مختلفة وان جميع التغيرات في الكون إنما هي انتقال للطاقة من احد تلك الأشكال إلى شكل آخر من دون أن يتغير مقدارها الكلي).

أينشتاين والقنبلة الذرية:

الواقع أن عبقرية أينشتاين تتمثل في أنه أثبت ضمناً أن الكتلة ـ وبالتالي كل مادة ـ ليست سوى طاقة مركزة، فالطاقة والمادة شيء واحد، فلا فرق بين الفحمة وبين نار هذه الفحمة لان نار هذه الفحمة هي ذراتها التي تنفجر شيئاً فشيئاً.

فالمادة إذن طاقة متجمدة.. والطاقة مادة متحركة.

وخلص أينشتاين من أبحاثه إلى وضع معادلته الشهيرة التي تقول: (إن الطاقة الكامنة في أي جسم تساوي كتلته مضروبة في مربع سرعة الضوء الهائلة).

---

(١) الفلك والحياة: د. عبد الحميد سماحة، القاهرة ـ ١٩٦١.

ومضى أينشتاين في تحليلاته متسائلاً: (ولكن إذا كان كل غرام من المادة يحتوي على هذه الطاقة الهائلة فلماذا لا نفطن إلى هذه الطاقة؟

والجواب سهل يسير: هو انه ليس من الممكن ملاحظة الطاقة ما دام أن شيئاً منها لا يتبدد خارج المادة).

وكان هذا هو المفتاح الذي فتح له - وللعلم - الباب إلى أهم ميدان.. ميدان الطاقة الجبارة التي تتولد عن تحطيم الذرة والإشعاع الذري

ولقد وصل (أينشتاين) إلى هذه المعادلة في نهاية رسالة قصيرة استغرقت اثنتي عشرة صفحة، ولكن هل تعلم - أيها القارئ الكريم - كم كتاباً ألّف في سبيل شرح وتبسيط هذه الصفحات القلائل؟

ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسة وسبعون كتاباً وضعت لهذا الغرض وكانت تلك المعادلة (معادلة أينشتاين) هي الأساس الذي أنشئت عليه القنبلة الذرية.

على أن أينشتاين ظل إلى آخر عمره ينكر أنه أب الطاقة الذرية. وهو يقول في كتاب (حرب ذرية أم سلام؟)

إن دوره كان غير مباشر فما كان ليتوقع أن تنطلق الطاقة الذرية في حياته (لقد كنت اعتقد أن هذا غير ممكن إلا من الناحية النظرية).

ومع ذلك.. فإن أينشتاين لعب دوراً مزدوجاً في هذا المضمار.. دوراً تمثل في المعادلة.. كما تمثل في رسالة كتبها في سنة ١٩٣٩ إلى الرئيس روزفلت - الرئيس الأمريكي آنذاك - يؤكد له فيها أن النازيين يعملون دائبين لإنتاج القنبلة الذرية فما لم يسبقهم العالم الحر فمن المؤكد أن الإنسانية ستسير إلى هلاك محتوم.

وقد دفعت هذه الرسالة الرئيس روزفلت إلى تنفيذ البرنامج الذي مكن أمريكا من أن تسبق ألمانيا إلى إنتاج هذه القنبلة.

وما تلا ذلك من حصول مأساة هيروشيما وناكازاكي مما لم تشهد له البشرية مثيلاً في تاريخها الطويل.

كل هذا جاء نتيجة التجارب التي أصبحت تعرف الآن باسم: (التحطيم الذري Atomsmashng). لكن الاسم الأكثر ملائمة لها هو: الفيزياء النووية (Nuclear physies).

وبالإمكان استخدام الاسمين بالتبادل لان ذلك يتوقف على أي من الاثنين تفكر به: تحويل نواة الذرة إلى نواة أخرى، أو تحرير الطاقة في مثل هذه العملية[1].

هذه لمحة يسيرة ومبسطة عن فكرة الذرة والطاقة الذرية التي تحدث عنها إمامنا علي (ع) تلميذ الوحي وباب مدينة العلم الذي خصه الله ورسوله بهذا العلم. ❖

---

(١) قصة الطاقة الذرية: ديفد دايتز.

القيمة الحقيقية للسلطة في المنهج الإلهيّ
في ضوء تعامل الإمام مع السلطة

علي التميمي

لا يخفى أنّ الإنسان لا يتحرّك نحو تحقيق الأمور إلاّ برغبةٍ ما، وهذه الرغبة لا تكون لديه إلاّ بعد اكتمال (القيمة) المتصوّر لتلك الأمور وإلاّ فقد الدافع النفسي الذي يحرّكه نحو تلك الأمور.

وفي عالم السياسة؛ يُنصح بعدم التحرّك نحو القرارات إلا بعد تحديد (القِيَم) السياسية العامّة، التي على ضوءها يتمّ التحرّك في المجالات المختلفة، وهكذا في كلّ الكيانات التنظيمية، كالحكومة.

والإسلام؛ أيضاً وضع مختلف القِيَم لمجالات الحياة كافّة، وفي باب الحُكم جعل (العدل) الإلهيّ أساساً لا يمكن التنازل عنه بحالٍ.

وفي الآيات القرآنية والسنّة النبوية الكثير من الحديث عن (القِيَم) الواجبة في الحكومة الإسلامية، ولكن ما نريده في هذا الفصل التطرّق إلى (معنى) السلطة كي نفهم الكلمات والأعمال التي صدرت عن أمير المؤمنين (ع)؛ باعتبار أنّنا فتحنا بحوث هذا الكتاب لما يرتبط مباشرة.

معنى السلطة:

تطلق كلمة السلطة ويُراد منها؛ عادة، النفوذ والقوة على إدارة الأمور من دون عائقة من أحدٍ، وهذا هو (موضع) الأمنيات والغزل في كلمات الناس، ولكنّه يمكن أن نلحظ (السلطة) مِن عدّة جهات مهمة وحيوية فيها، وقد تكون تلك الجهات موضوعَ التشريع أحياناً؛ أو موضوعَ التنازع والتنازل أحياناً أخرى؛ أو موضوع المدح والقبح أحياناً ثالثة!

سنرى عند التمثيل لهذه الجهات أنّها معانٍ حاضرة ومهمّة لدى الناس إلاّ أنّ تمهيش فكر الناس وتجهيلهم استدعى هذا التشبيح المتواصل منذ قرون حتى وصل الأمر إلى أن يقول البعض إنّ أمير المؤمنين حريص على السلطة؛ مستشهداً ببعض أفعاله وكلماته (ع)، وهو لا يعلم مقاصد الكلام إلى أيّ جهة من السلطة تُريد!

وأياً ما كان؛ فلنستعرض تلك الجهات، التي يمكن أن تطلق كلمة (السلطة) فتراد بها، وهي:

الجهة الأولى: أسباب تحقّق السلطة!

وهذا أمر شائع؛ فالمرء قد يتكلم عن سلطته ولكنّه لا يقصد قوته على التنفيذ وإنّما يقصد أساس تحققها في الخارج، فإنّ مَن يتكلّم عن شرعية حكومته يقصد أنّ أساس

تحققها كان شرعياً! وهذه الجهة هي التي التفت إليها قوم طالوت عندما قالوا ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾، وكأنّ المُلك هو أن يؤتى سعةً من المال!

وهذه الجهة من السلطة يختلف فيها المنهج الإلهي عن المناهج الأخرى؛ إذ أنّه يرى انحصارها في أمور ثلاثة؛ تختلف المناهج الأخرى فيها كثيراً.

وتلك الأمور هي:

الأول: أمر الله سبحانه وتعالى

وقد تقدّم: فيما سبق، أنّ أمر (الحُكم) يرجع إلى الله سبحانه سواء من جهة التشريع والتقنين أم من جهة اختيار الحاكم وإعداده...

الثاني: قدرة الحاكم المؤهّل المختار

بمعنى أنّ الحاكم الإلهي يكون قادراً بحسب الظروف الاعتيادية من التصدي إلى مسؤوليته في الحكم؛ لا يمنعه من ذلك مانع قاهر، وهذه القدرة – بعد إعداده (ع) بما يلزم – تتوقّف على القدرات التي يمكن أن يسخّرها الناس للإمام من أجل خدمتهم ونفعهم لا من أجله هو!

الثالث: انقياد الناس اختيارياً

وهذا من الأمور المهمة، التي قد يتصوّر البعض أنّ الأمر الأول (أي رجوع أمر الحكومة إلى الله) يعني قهر الناس وإجبارهم على الحكم ابتداءً! والحال أنّ ذلك لا يعني إلا كما تعنيه أحكام الله الأخرى: فهو سبحانه يُبيّنها، والناس يختارون: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾!

وتقدّم ذِكرُ قوله تعالى ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾، وهو ما دلّ على أنّ أمر الولاية بيد مَن له الولاية الحقيقية على الخَلق! وفي الروايات يصرّح النبيّ الأعظم؛ (ص)، بأنّ الولاية مِن بعده ليس أمرها بيده وإنّما أمرها لله سبحانه وتعالى.

وقد واجه استخلافه؛ (ص)، لعليٍّ (ع) ما واجهته التجارب السابقة للأنبياء، كالعصيان الصريح من قِبل بني إسرائيل لخليفة موسى ع، والاعتراض على إعلان حاكمية طالوت! إذ ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾! وكأنّ المركوز لدى الناس أنّ الحاكمية من شأنهم الخاصّ؛ فيرسمونه ويُحدّدون مستحقّه كما شاءوا!

وهكذا فعلتْ هذه الأمّة... فقد اختارتْ قريش لنفسها... كما يقول عمر! واعترضوا على عليٍّ باعتراضات عديدة، تقدّم بعضها في الفصل الثاني، وسيأتي بعضها عند التعرّض لمنهج عمر في الاستخلاف وتقديم حاكمهِ إلى الأمة... ثم عصَوا الأمر!

ولا نحتاج لإثبات ركنية (انقياد الناس اختياراً) في تحقّق السلطة في المنهج الإلهيّ إلاّ تذكُّرنا لآيات كثيرة دالّة على عدم القهر والإلجأ فيما يُريده الله سبحانه وتعالى، والحاكم بأمره: كذلك، لا يُجبر الناس على حكمهِ، وليس له إلاّ البيان والتبليغ والنصيحة.

إذن: قد يتوهم البعض بأنّ حرية الإنسان في المنهج الإلهيّ مقصورةٌ على التبليغ الدينيّ وفترتهِ، وهو ما يزول بمجرّد قيام الدولة الدينيّة!

ما هذه الخديعة!؟

فهل يَلبسُ أولياء الله ثوباً مخملياً في فترة الضَعف ويكونون جبابرة في فترة القوة؟! أم أنّ ذلك واقع الجبابرة يُراد إسقاطه على الأولياء؟!

صريح القرآن... ينفي ذلك بالكليّة... ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾... ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾[1]... ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[2].

والتطبيق العمليّ لرسول الله كان متوافقاً جداً مع هذه الآيات... وما يوجد من صور عِدائية في فترته المباركة لا يصمد أمام التتبع والتحليل؛ فهي من اختراعات وعاظ بني أمية: فقد نسبوا إلى حضرته المباركة القتل والتمثيل بالناس وهم أحياء ثم إحراقهم وهم أحياء[3]!!

وأمّا التطبيق العمليّ لأمير المؤمنين (ع) فسيأتي بيانهُ في الفصل الأخير؛ الثامن، بإذنه تعالى.

وأمّا (انقياد الناس) وطاعتهم للسلطة في المناهج الأخرى فلا تمثّل أساساً فيها، وإنّما هي نتيجة من نتائج استحواذهم على السلطة؛ ومَن أبى فله السيف، كما سيأتي في الفصل السابع.

هذا، وفي الروايات تأكيد واضح على (اختيارية الناس)، منها:

الجهة الثانية: واقع السلطة

أي المتحقّق من منصبٍ أو مقامٍ أو قوّة أو... فاعلة... وهو ما يحصل؛ عادة، بعد تمام الجهة السابقة، ولكنّه قد يكون هذا الواقع بقهر الدبابات والخديعة وقد يكون بأمر الله وإرادة الناس وحريتهم.

وهذا (الواقع) هو غاية الآمال لدى الحكّام في المناهج الأخرى، ومن أجله يفعلون كلَّ شيءٍ، ولو ادّى ذلك إلى قتل المعارضين السلميين وتدمير البلاد! وجلّ مجهودهم في مقام السلطة ينصبّ على هذا الواقع؛ تدبيراً وحراسة!

بينما في المنهج الإلهيّ لا يمثّل هذا (الواقع) شيئاً على الإطلاق، بل هو مجرّد وسيلة لنيل رضا الله سبحانه، ونفع الإنسان... وإلاّ فهو لا يساوي عفطةَ عنزٍ!

وهذه هي الجهة التي ذمّها أمير المؤمنين (ع) من السلطة!

---

(١) سورة النحل: من الآية ٩٠.

(٢) سورة المائدة: ٢.

(٣) البخاري ج٢، ص٦٤، وج٤، ص٢٢ وج٥، ص٧٠. ومسلم ج٥، ص١٠٢.

أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ولا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ أو أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ فَمَا خُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِي أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ هَمُّهَا عَلَفُهَا أو الْمُرْسَلَةِ شُغْلُهَا تَقَمُّمُهَا تَكْتَرِشُ مِنْ أَعْلافِهَا وتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا أو أُتْرَكَ سُدًى أو أُهْمَلَ عَابِثاً أو أَجُرَّ حَبْلَ الضَّلالَةِ أو أَعْتَسِفَ طَرِيقَ الْمَتَاهَةِ[1].

ولذا فهذه الجهة لم يسعَ إليها أمير المؤمنين ابتداءً، وإنّما قبلَها عند رجوع الناس بأمورهم إليه! وإلاّ فهذا الجهة محكومة بالتبرئ في قاموسهِ (ع).

يقول (ع): أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء ألا يقرُّوا على كظّةِ ظالمٍ، ولا سَغَبِ مظلومٍ، لألقيتُ حبلها على غاربها ولسقيتُ آخرَها بكأس أوّلها ولألفيتُم دنياكم هذه عندي أزهد من عفطة عنزٍ[2].

وعند خروجه لقتال أهل البصرة قال عبد الله بن العباس دخلت على أمير المؤمنين (ع) بذي قار وهو يخصف نعله، فقال لي: ما قيمة هذا النعل؟! فقلت: لا قيمة لها. فقال (ع): والله لهي أحب إلي من إمرتكم إلا أن أقيم حقّاً أو أدفع باطلاً[3].

وإذا كانت لا قيمة لها فمن المؤكّد عنده (ع) أنّه لن يصرف في سبيلها شيئاً مهما كان! وليحدث ما يحدث، ولذا تمسك أمير المؤمنين (ع) بمنهج سيّده ومولاه؛ (ص)، فلم يقبل ألاعيب السياسة المقترحة من هذا أو ذاك، فنصائحهم المريضة تلك لم تلكن لتدخل في سياسة عليٍّ (ع)؛ إذ لا يدخل: في منهجه، شيءٌ في سياسته ولا يخالطها إلاّ بالمرور بـ (رضا الله) سبحانه وتعالى.

فعن رأيه بالموقف من عمّال عثمان قال (ع): وأمّا الذي يلزمني من الحق والمعرفة بعمال عثمان فواللهِ لا أوَلّيَ مِنهم أحداً أبداً[4].

فما يقال من أنّه (ع) فوّتَ الفرص السياسية إنّما هو قول الذين يجدون في أنفسهم حرجاً ممّا قضى الله ورسوله، وإلاّ هل يقبل الله أن يتّخذ المؤمنُ المضلّين عضداً! أو يماري أو يعطّل حدود الله أو يسأثر بالمال لتقوية سلطانه!

ويظنُّ البعض أنّ التنازل عن بعض (المبادئ) في الظروف غير الطبيعيّة يبرّره العزم على مراجعة واحترام تلك المبادئ عند الخروج من تلك الظروف! وقد تقدم تكذيب هذه الدعوى؛ فإنّ المبادئ ليست حجارةً أينما وُضِعت استقرّتْ وإنّما هي حقائق لا تكون إلاّ في قوابلها المناسبة، فلو تنكّر الإنسان وتنازل عن بعضها ففي الحقيقة أنّه قد تنازل عن كونه من (قوابل) تلك المبادئ!

---

(١) نهج البلاغة، ج٣، ص٧٢.

(٢) الإرشاد للشيخ المفيد ج١، ص٢٨٩. وعلل الشرائع للشيخ الصدوق ج١، ص١٥١. ومعاني الأخبار: له أيضاً ص٣٦٢. والأمالي للشيخ الطوسي ص ٣٧٤.

(٣) نهج البلاغة، ج١، ص٨٠.

(٤) تاريخ الطبري ج٣، ص٤٦٠.

يقول (ع): وإنّي لعالمٌ بما يُصلحكم ويُقيمُ أودكم ولكنّي لا أرى إصلاحكم بإفسادِ نفسي!

نعم؛ لم يكن من الصعب استخدام بعض الطلقاء المارقين في وظائف الدولة[١]: لحين استتباب الأمر، ولا من الصعب استخدام الشدّة والعنف لتعبئة الناس، ولا من الصعب استخدام المال... ولكنّ؛ ذلك كلّه، مما يؤدي إلى فساد النفس!

إذن؛ أهمية هذه الجهة من السلطة أنّها وسيلة لإقامة الحقّ ودفع الباطل، وهذا بخلاف التوجّه العام في المناهج الأخرى، الذي قلنا بأنّه ينظر إلى هذه الجهة بأنها غاية الآمال: إذ يُسدُّ بها الشعور الذاتي بالنقص، ويُشبع بها نفوس لا تشبع، ولا يجدونها إلاّ مغنماً: حازوه بأنفسهم، ولذا تراهم يتوسلون بكلّ وسيلة؛ ولو كانت فاجرةً، وهو ما يُناقضه المنهج الإلهيّ: أيضاً، الذي لا يرى السلطة في واقعها الخارجي إلاّ: كونها أمانةً في عُنق الحاكم.

كتب (ع) إلى الأشعث بن قيس عامله على أذربيجان: أنّ عملُكَ ليس لكَ بطُعمةٍ ولكنّه في عُنقِكَ أمانة[٢].

وفي الرواية عنه (ع): إن الله جعلني إماماً لخلقه، ففرض علي التقدير في نفسي ومطعمي ومشربي وملبسي كضعفاء الناس، كي يقتدي الفقير بفقري ولا يطغي الغني غناه[٣].

وعندما استشار عمر أصحابه عن مقدار ما يستحقه الحاكم من خزينة الدولة: انتهى أخيراً إلى أمير المؤمنين (ع)، فقال (تأخذ): ما أصلحك وأصلح عيالك بالمعروف ليس لك من هذا المال غيره! فقال القوم القول قول ابن أبي طالب[٤].

وعندما عاتب الإمام (ع) أحدَ الناس على ترفِهِ، أجابه ذلك: يا أمير المؤمنين فعلى ما اقتصرت في مطعمك على الجشوبة وفي ملبسك على الخشونة؟ فقال: ويحك إن الله عز وجل فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقره[٥].

وتبقى هذه الجهة من السلطة بحاجة إلى ما تقدّم؛ كي تؤتي أُكُلها، وهو (الانقياد الاختياري) من قِبل الناس، مع الانتباه إلى أنّ هذا الانقياد قد يكون في بعض الأحيان اختياراً إلاّ أنّه لا يؤدّي غرضه المطلوب، وذلك لنشوئهِ عن مقدّمات غير صحيحة في نفسها أو تكون آنيّةً، ولذا أشارَ أمير المؤمنين (ع) إلى ذلك؛ بقوله: أَوَّه عَلَى إِخْوَانِيَ الَّذِينَ تَلَوُا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوه، وتَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَأَقَامُوه، أَحْيَوُا السُّنَّةَ وأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ، دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا ووَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوه[٦].

---

(١) كما عرض مثل ذلك ابن عباس عندما طلب من أمير المؤمنين ع أن يدع معاوية فترة! انظر تاريخ الطبري ج٣، ص٤٦٠.

(٢) نفس المصدر ج٣، ص٧

(٣) الكافي للشيخ الكليني ج١، ص٤١٠.

(٤) تاريخ الطبري ج٣، ص١١١

(٥) الكافي للشيخ الكليني ج١، ص ٤١٠ ـ ٤١١

(٦) نهج البلاغة ج٢، ص١٠٩

وهكذا يضع (ع) الوصف العامّ للمجتمع الصالح، فهو إنّما بايع وأجاب قائده بعد وثوقه به، وهو لم يكن وثوقاً طارئاً آنياً، كما تبيّن ذلك أوصافه الحميدة المذكورة.

وأكّد أمير المؤمنين (ع) على ذلك كثيراً، كقوله: أنتم الأنصار على الحقّ، والإخوان في الدين، والجنن يوم البأس، والبطانة دون الناس، بكم أضرب المُدْبِرَ، وأرجو طاعة المقبل. فأعينوني بمناصحةٍ خَلِيّةٍ مِن الغش سليمة من الريب[١].

كما أنّه (ع)؛ من جهة أخرى، حذّرهم قبل بيعتهِ من بيعة لا يقدرون على لوازمها؛ لِما يقرأهُ (ع) من تصدّع كبير في عقائد الناس وأخلاقهم! ولذا دفعهم عن بيعته؛ بعد مقتل عثمان، ولمّا ألحّوا عليه قال لهم: دَعُونِي والْتَمِسُوا غَيْرِي؛ فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً، لَه وُجُوه وأَلْوَانٌ، لا تَقُومُ لَه الْقُلُوبُ، ولا تَثْبُتُ عَلَيْه الْعُقُولُ، وإِنَّ الآفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ، والْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ. واعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ، رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، ولَمْ أُصْغِ إلى قَوْلِ الْقَائِلِ وعَتْبِ الْعَاتِبِ، وإِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ، ولَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وأَطْوَعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوه أَمْرَكُمْ[٢].

إذن: يمكن: بدرايةٍ وإنصافٍ، أن نحكم على فترة الحكم الإلهيّ لأمير المؤمنين (ع)، فهي لا ترتبط بشخص سياستهِ، وإنّما هناك عوامل عديدة تتداخل مع تلك السياسة في انجاز النتائج في صورتها النهائية، ومن تلك العوامل؛ (العلاقة) الوجدانية التي يكنّها المجتمع أو الجماعة تجاه قائدهِ! وإلاّ فلا رأي لمَن لا يُطاع.

وفي الرواية أخرى يبيّن (ع) ما أخبرهم به سابقاً وحذّرهم منه فقال (ع): أَيَّتُهَا النُّفُوسُ الْمُخْتَلِفَةُ والْقُلُوبُ الْمُتَشَتِّتَةُ، الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ والْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، أَظْأَرُكُمْ عَلَى الْحَقِّ، وأَنْتُمْ تَنْفِرُونَ عَنْه نُفُورَ الْمِعْزَى مِنْ وَعْوَعَةِ الأَسَدِ، هَيْهَاتَ أَنْ أَطْلَعَ بِكُمْ سَرَارَ الْعَدْلِ، أو أُقِيمَ اعْوِجَاجَ الْحَقِّ!

اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّه لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً فِي سُلْطَانٍ ولا الْتِمَاسَ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَامِ ولَكِنْ لِنَرِدَ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ ونُظْهِرَ الإِصْلاحَ فِي بِلادِكَ؛ فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ، وتُقَامَ الْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ[٣].

فما حصل من تزعزع المجتمع الذي بايع أمير المؤمنين (ع) لا نحمّله على رواسب الجاهلية، التي تكلّمنا عنها في الفصل الثاني، وإنّما هناك رواسب جديدة تبلورت في المجتمع؛ بعد وفاة النبيّ الأعظم: (ص)، لم تكن موجودة أصلاً، أو كانت ولكنّها بحدود ضيّقة بين أبناء ذلك المجتمع، وهو ما أشار إليه أمير المؤمنين (ع) في أولى خطبه بعد البيعة له.

---

(١) نفس المصدر ج١، ص٢٣١.

(٢) تاريخ الطبري ج٣، ص٤٥٦. ونهج البلاغة ج١، ص١٨١ – ١٨٢. وتاريخ الطبري ج٣، ص٤٥٦. والمنتظم في تاريخ الأمم والملوك لابن الجوزي ج٥، ص٦٥. والكامل في التاريخ لابن الأثير ج٣، ص١٩٣.

(٣) نهج البلاغة ج٢، ص١٣.

قال شارح نهج البلاغة: فإن قلت: فإن أبا بكر قسم بالسواء، كما قسّمه أمير المؤمنين (ع)، ولم ينكروا ذلك، كما أنكروه أيام أمير المؤمنين (ع)، فما الفرق بين الحالتين؟

قلت: إنّ أبا بكر قسم محتذيا لقسم رسول الله (ص)، فلما ولّى عمر الخلافة، وفضّل قوماً على قوم ألِفوا ذلك، ونسوا تلك القسمة الأولى، وطالت أيام عمر، وأُشرِبت قلوبهم حبّ المال، وكثرة العطاء. وأما الذين اهتضموا فقنعوا ومرنوا على القناعة، ولم يخطر لأحد من الفريقين له أن هذه الحال تنتقض أو تتغير بوجه ما، فلما ولّى عثمان أجرى الأمر على ما كان عمر يجريه، فازداد وثوق القوم بذلك، ومن ألِفَ أمراً أشقّ عليه فراقه، وتغيير العادة فيه، فلما ولّى أمير المؤمنين (ع) أراد أن يرد الأمر إلى ما كان في أيام رسول الله (ص) وأبى بكر، وقد نُسي ذلك ورُفِضَ، وتخلل بين الزمانين اثنتان وعشرون سنة، فشقّ ذلك عليهم، وأنكروه وأكبروه، حتى حدث ما حدث من نقض البيعة، ومفارقة الطاعة، ولله أمر هو بالغه[1]!

ولذا فمَن يشكك بما قام به أمير المؤمنين (ع) أو يشكك في سياسته فعليه أن يتعلّم من أمير المؤمنين فن السياسة، ثم فليأت ويتكلم في السياسة وتقييماتها، فمَن يريد أن يعرف معنى (العجز السياسي) أو (الحكمة العملية) في عالم السياسة فليقرأ ذلك عند أمير المؤمنين لا أنّه يُسقط ما تعلّمه من ساسة الدبابات والاغتيالات والخديعة والنفاق على سياسة لم تعرف: ولو للحظة واحدة، معنى العنف ضد المعارض أو الاغتيال أو الخديعة أو غيره مما أقرفنا وأزعجنا لقرون طويلة؛ لا نجد أحداً ينتقدها، وإنّما يصبّون جام نقدهم وحقدهم على سياسات لو جمعت وعُرِضت على الناس لقبلوها بدلاً من عرضهم ما كتبوه من تشريعات العنف والقسوة.

وبهذا البيان؛ أيضاً، لا يبقى موضوع لما يقال من أنّ أمير المؤمنين (ع) قد سعى إلى السلطة كغيرهِ من الناس ونافسهم كما تنافسوا؛ لأنّه: ثبت بالدليل والوجدان أنّه (ع) صاحب الحقّ الشرعي بمنصب الخلافة، فلا غضاضة في مطالبتهِ بحقّه أبداً، وإنّما الكلام فيمَن أخذ ما لا يستحقّ، وقد نقلنا فيما سبق اعترافات عديدة من قِبل بعض مَن تقمّص الخلافة! فضلاً عن غيرهم من الصحابة؛ وقد أجمل المؤرّخ اليعقوبي الوضع آنذاك بقوله: وكان المهاجرون والأنصار لا يَشكُّونَ في عليٍّ[2].

ونؤكّد؛ مرّة أخرى، أنّ أحقيّتهُ (ع) في الخلافة كانت لاصطفائهِ لها من قِبل الله سبحانه، كما أخبر النبي الأعظم، في روايات كثيرة، تقدم بعضها.

الجهة الثالثة: آثار السلطة.

وهذه الجهة هي التي ينظر إليها عموم الناس؛ عادةً، لأنّها ما يعنيهم بالدرجة الأولى، وهي: أيضاً، موضع نظر الحاكم العادل؛ لأنّها بُغيته وهدفه من السلطة بمعناها السابق!

---

(١) نفس المصدر ج٧، ص٤٣و٤٤.

(٢) تاريخ اليعقوبي ج٢، ص١٢٤.

نعم: يختلف في ذلك حكّام الجور؛ فإنّهم في أوقات قوتهم وظهورهم ينسون هذه الجهة من السلطة، وينصرفون إلى ملذّاتهم، وارتكاسهم؛ أكثر فأكثر، في الفساد والرذيلة، وهو ما ينتهي بهم؛ عادة، بالانهيار.

وإذا قال أمير المؤمنين (ع): (أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ...) استحقاراً لواقع السلطة - الجهة السابقة - فإنّه (ع) يُعظِمُ ويُكبرُ السلطة من جهتها هذه: جهة الآثار! ولكن إذا كانت رضا لله سبحانه وتعالى واصلاح المجتمع: وإلاّ فهو يتبرأ منها ويستحقرها أكثر ممّا تقدم في الجهة السابقة.

ومع تخلّف الجهة السابقة عن الواقع؛ وأمكن النهوض بالمسؤولية إزاء هذه الجهة؛ جهة الآثار، فلا مانع مِن ذلك، بل ما يبدو من كلماته وسيرته (ع) أنّه يجب!

وفي رواية يقول (ع): فَمَا رَاعَنِي إِلاّ انْثِيَالُ النَّاسِ عَلَى فُلانٍ يُبَايِعُونَه، فَأَمْسَكْتُ يَدِي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ، قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الإِسلام، يَدْعُونَ إِلى مَحْقِ دِيْنِ مُحَمَّدٍ (ص)، فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الإِسلام وأَهْلَه أَنْ أَرَى فِيه ثَلْماً أو هَدْماً، تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِه عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ فَوْتِ وِلايَتِكُمُ، الَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلائِلَ، يَزُولُ مِنْهَا مَا كَانَ كَمَا يَزُولُ السَّرَابُ، أو كَمَا يَتَقَشَّعُ السَّحَابُ، فَنَهَضْتُ فِي تِلْكَ الأَحْدَاثِ حَتَّى زَاحَ الْبَاطِلُ وزَهَقَ، واطْمَأَنَّ الدِّينُ وتَنَهْنَه[1].

ويستنتج من هذه الرواية:

١- أنّه لا يتحرّك الإمام في المنهج الإلهيّ بالقوة لتحقيق البيعة لنفسه: فـ (فأمسكت يدي)؛ إشارة إلى ذلك.

٢- الشعور بالمسؤولية التامّة إزاء المجتمع الإسلاميّ، وهذا ليس خاصاً به (ع)؛ فينبغي على كلّ حال مراعاة المصالح العامّة؛ ولو وقع الاختلاف مع السلطة الحاكمة.

٣- أنّ السلطة بحسب الجهة الثالث متاع أيام قلائل؛ فلا قيمة لها أمام تلك المسؤولية الملقاة عليه (ع).

٤- وجوب النهوض الفعليّ لدرء الخطر عن الدين، وإنْ أُختلِف من السلطة الحاكمة.

٥- أنّ ما نهض به أمير المؤمنين في تلك الفترة قد زهق الباطل وزاح، وأطمأن الدين، وهذا له مؤشرات كثيرة بحسب تاريخ تلك الفترة.

إذن: فما نُقِل من مشوراته ونصائحه ومبادراته في تلك الفترة لم يكن المقصود منه إلاّ هذه الجهة: جهة آثار السلطة، فلا دلالة فيه على عدم تلك السلطة لا بحسب جهتها الأولى ولا بحسب جهتها الثانية.

فالنهضة التي يتكلّم عنها أمير المؤمنين (ع) بعد ذهاب سلطته إنّما هي بحسب هذه الجهة وحسب، وقد جهد الإمام (ع) على إيقاف معارضته ومطالبتهِ عند حدٍّ دقيقٍ، وهو الحدّ

---

(١) نهج البلاغة ج٣، ص١١٩.

الذي تذهب فيه حياته الشريف؛ هدراً، أو تذهب مكانته؛ نهائياً، وهو ما لا ينبغي في تلك الظروف الحساسة من تاريخ الإسلام.

ولذا خرج عن معارضته وأوقفها؛ مع ما تخلّلها من هضم كبيرٍ لحقّه ومن عنف ومصادرة أموال[١]، إلى حيث يمكن أن يشارك في الدفع عن الدين والمجتمع.

نعم؛ في زمن عثمان أخذت السلطة منحىً آخر معه (ع)؛ وهو المجاهرة بعدم الحاجة إلى مشاركته؛ ولذا قلَّ النقل التاريخيّ في هذا الشأن بالقياس إلى زمن مَن سبقه.

في رواية أنّ عليّاً (ع) قال لعثمان: ما تريد إلاّ أن تنهى عن أمر فعله رسول الله (ص)! فقال عثمان: دَعنا مِنك[٢]!!

ونفس هذه الجهة: أي آثار السلطة، هي التي دفعتْ الإمام (ع) إلى قبول بيعة الناس بعد مقتل عثمان، مع توضيحه (ع) لشرط القبول الآخر، وهو وجود الانقياد الاختياري من قِبل الناس.

ففي الرواية عنه (ع) قال: اللهمّ إنّك تعلم أنّه لم يكن الذي كان منّا منافسةً في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنَرِدَ المعالم من دينك، ونُظهر الإصلاح في بلادك؛ فيأمن المظلومون من عبادك، وتُقام المعطّلة من حدودك.

وفي رواية أخرى قال (ع): اللهمّ إنّك تعلم أنّي لم أُرِد الإمرة، ولا علوّ الملك والرياسة[٣]، وإنّما أردتُ القيامَ بحدودك[٤]، والأداء لشرعك، ووضع الأمور في مواضعها، وتوفير الحقوق على أهلها، والمضيَّ على منهاج نبيّك، وإرشاد الضالّ إلى أنوار هدايتك.

وفي رواية ثالثة قال (ع): لم تكن بيعتكم إيّاي فلتة، وليس أمري وأمركم واحداً، إنّي أُريدكم لله[٥]، وأنتم تريدونني لأنفسكم. أيّها الناس أعينوني على أنفسكم وأيم الله لأُنصفنّ المظلوم من ظالمه[٦]، ولأقودنّ الظالمَ بخِزامته حتى أُورده منهل الحقّ وإن كان كارهاً.

وفي رواية رابعة قال (ع):... ثمّ ولّوني وأنا كارهٌ، ولولا خشية على الدين لم أُجِبهم.

وفي رواية خامسة قال (ع): والله ما تقدّمتُ عليها إلاّ خوفاً من أن ينزو على الأمر تَيْس من بني أُميّة، فيلعب بكتاب الله عزّ وجلّ راجع.

---

(١) أعني أرض فدك.

(٢) المسند لابن حنبل ج١، ص١٣٦. وصحيح مسلم ج٤، ص٤٦. والسنن الكبرى للبيهقي ج٥، ص٢٢. ومسند أبي يعلى الموصلي ج١، ص٢٨٤.

(٣) هذه السلطة بمعناها من الجهة الثانية (واقع السلطة).

(٤) هذه وما بعدها كلها من السلطة بمعناها بحسب الجهة الثالثة (الآثار).

(٥) هذه إشارة إلى الجهة الثالثة.

(٦) هذه وما بعدها من مصاديق السلطة بحسب الجهة الثالثة؛ أيضاً.

وبعد قبول بيعة الناس لأجل هذه الجهة من السلطة فما هي الثمار التي جُنيت منها؟!

هذا وإنْ كان خارجاً عن موضوعنا، ولكن لا بأس بإشارة إجمالية إلى مجمل الثمار التي آتت بها تلك السلطة المباركة؛ ننقله عن بعض الباحثين.

وهي على مستويين؛ مستوى الإجراءات ومستوى التشريعات.

أمّا على مستوى الإجراءات الحكومية فمنها:

١- عزل عمّال عثمان؛ لفسادهم مالياً وإدارياً.

٢- استرداد أموال بيت المال.

٣- تطبيق القانون فلم يستثن أحد.

وأمّا على مستوى التشريعات ولوائحها:

أولاً: السياسة الإداريّة:

١- الصدق في السياسة.

٢- الالتزام بالحقّ.

٣- احترام القانون.

٤- عدم المداهنة (أي المجاملة على حساب القانون).

٥- تنظيم الأمور.

٦- الدرجات الوظيفية بحسب الكفاءة.

٧- عدم توظيف الخائن والعاجز.

٨- تحسين أجور العاملين.

٩- النظام الرقابي.

١٠- البرامج التشجيعية على العمل.

١١- الحزم في معاقبة المخالفين.

١٢- عزل من ثبتت خيانته من العمّال (العقوبات الإدارية).

١٣- عقوبة الخونة من العمّال (أي محاربة الفساد المالي والإداري).

١٤- نهي العمّال عن أخذ الهدية.

١٥- التخفيف في مواضع يمكن التخفيف فيها من العمل.

ثانياً: السياسة الثقافيّة.

ثالثاً: السياسة الاقتصاديّة

١- الحثّ على العمل.

٢- التنمية الزراعيّة.

٣- التنمية الصناعيّة.

٤- التنمية التجاريّة.

٥- مراقبة السوق مباشرة.

٦- منع الاحتكار.

٧- التوزيع من الواردات العامة على الناس بالتساوي.

٨- تأمين الحاجات الضروريّة للجميع.

٩- حماية الطبقة السفلى.

١٠- العناية الخاصّة بالأيتام.

١١- المنع من هدر المال العام.

١٢- عدم استئثار الأولاد والأقرباء.

رابعاً: السياسة الضريبية

وفي هذه السياسة ضرب أمير المؤمنين (ع) أروع مِثال لصون حقوق وكرامة الإنسان.

خامساً: السياسة الاجتماعيّة:

١- إقامة العدل.

٢- الالتزام بالحقوق.

٣- تنمية الحرّية البنّاءة.

٤- الاهتمام برضى العامّة.

٥- الرحمة للرعيّة والمحبّة لهم.

٦- الاتّصال المباشر بالناس.

٧- تحمّل مؤونة الناس.

٨- إعانة المظلوم.

٩- تقديم حسن الظن على سوءه.

سادساً: السياسة القضائية.

١- اختيار الأفاضل للقضاء.

٢- التأمين الاقتصادي للقضاة.

٣- الأمن الوظيفي للقضاة.

٤- التأكيد على آداب القضاء.

٥- مراقبة قضاء القضاة.

٦- التحذير من الجور والجهل في القضاء.

٧- رفع اختلاف القضاة في الأحكام.

٨- إقامة الحدود على القريب والبعيد.

٩- الخضوع للقضاء.

سابعاً: السياسة الأمنيّة.

١- الشعور بأهمّية الأمن.

٢- الاستخبار.

٣- استصلاح الأعداء.

٤- المسالمة مع الوعي.

٥- شدّة الحذر من العدوّ.

٦- عدم الاستهانة بالعدو.

٧- عدم العقوبة على الظنّة والتهمة.

٨- التحذير من التعذيب.

٩- النهي عن سبّ المواطنين.

١٠- تقديم الرفق.

ثامناً: السياسة الحربية.

١- الاهتمام بالجيش.

٢- تأسيس القوّات الخاصّة.

٣- الاهتمام بمعنويّات الجيش.

تاسعاً: السياسة العليا للدولة.

أ/ ما يحمي استقرار الدولة:

١ ـ إقامة العدل.

٢ ـ حسن التدبير.

٣ ـ الوفاء والأمانة سواء مع داخل الدولة أو خارجها.

٤ ـ الاستفادة من تجارب وعلوم الدول الأخرى.

٥ ـ الاستقلال الثقافي.

ب/ ما يوجب زوال الدولة

١ ـ الظلم.

٢ ـ سفك الدماء بغير حقّ.

٣ ـ سوء التدبير.

٤ ـ الاستئثار بأموال الدولة.

٥ ـ عمل ما يوجب معاداة الشعب.

وغير ذلك كثير. ❖

العرفان الصوفي في فكر الإمام علي (ع)
الإمام علي (ع) مدد العارفين

د. أحمدو بمبا بن صيار(*)

ملخص:

منذ أن كان الفرقان يتنزل، وأهل الله "الإحسان" يلتجؤون للمنعم عليهم متسنمين نبراس الهدى لتقوية إيمانهم، استسلاماً وانقياداً: (قل أن صلاتي ونسكي ومحياي وممتي لله رب العالمين لا شريك له) كان التصوف الإسلامي ثمرة وعصارة لرقة القلوب وطهرها - فرقة القلب موصلة لقوة العقيدة - وفي خضم الصراعات الأزلية التي تحكم الوجود كصراع الحق والباطل، والظاهر والباطن ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾[1] وكذا مع اتساع رقعة الإسلام وتعدد الشعوب والأعراق المعتنقة له طوعاً في الغالب حاملين معهم أفكارهم وحضاراتهم ورواسب دياناتهم الموروثة، ومع إلحاح المواجهة والمناظرة مع الخصوم لدفع الشبه من هؤلاء وأولئك الذين حادوا بقاطرة المسلمين من العدل إلى الظلم والجور، انبرى علماء المسلمين لاستحداث قوالب ناظمة معرفيا لهذا الجدل تتماشى مع المستجدات وتجتهد في إجابة التساؤلات الملحة من خلال نظرة مقاصدية، فكان علم الكلام، ومصطلح الحديث، والقواعد النحوية والأصولية، وعلم القراءة وكذا علم السلوك..... الخ.

وإن استمدت هذه العلوم واستعارت بعض قواعدها غير الأساسية من الفكر الإنساني وهو اقتراض معرفي محمود ما خلا منه زمان: (إنما جئت لأتمم مكارم الأخلاق) وكل هذه المعارف في جوهرها وحتى صنعة الكيميا استمدها أهلها من الإمام علي (ع) والأئمة الأطهار، قال الحسين بن علي الوشاء: أدركت في هذا المسجد - يعني مسجد الكوفة - تسع مائة شيخ كل يقول حدثني جعفر بن محمد.

وفي هذا السياق، كان التصوف متكفلاً بإصلاح وتهذيب الأخلاق وتربية النفوس وتزكية القيم، وترويض القلوب وتقوية العقيدة في النفوس والثورة على النفس والهوى والشيطان "فطهر النفس أرجح عند الله من إدراك الصواب".

ففي هذه العجالة نستصحب تعريفين ضمن مئات التعريفات:

- **التصوف:** إن تكون مع الله بلا واسطة، أو هو الخلق، أو حسن رعاية الأدب مع الله في الأعمال الباطنة والظاهرة.

(*) الأمين العام لمنظمة آل البيت بموريتانيا، وأمين العلاقات الخارجية للمركز الإفريقي للدراسات والابحاث الصوفية، خطيب جامع تيكماطين وأستاذ العقيدة بالمعهد العالي المشرف على مؤتمر تيكماطين الدولي للفكر الإسلامي.

(١) الأنعام: ١٢٠.

وكل عبر عنه بما وصل إليه من مقامات وأحوال ومشاهدات ومكاشفات ووجد والنهايات واحدة، قال شيخ الطائفة الجنيد: علمنا هذا مشيد على الكتاب والسنة.

ومن ثم تشعبت مدارس وطرق كما تسمت كل مدرسة إسلامية بمسمى، فكانت القادرية والشاذلية والنقشبندية والتيجانية والمريدية والرفاعية والجلالية... الخ وكل هذه المدارس لتحقيق المنظومات الثلاثة عن أجزاء الدين: الفقهيات للإسلام، والعقديات للإيمان، والصوفيات السلوكيات للإحسان، فيقولون كلمة التوحيد في مقام الإسلام ويعلمونها في مقام الإيمان (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك) ويعيشونها حية في نفوسهم وأرواحهم في مقام الإحسان: (قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) وهذه الثلاثية هي أقوال وأفعال وأحوال الرسول الأكرم (ص) التي ضمنها أمير المؤمنين الوصي خطبه ونقلت في نهج البلاغة.

من فكر الإمام كان الجهاد الصوفي:

لا يذكر الباحثون إبان العمليات الجهادية التحررية من الاستعمار في إفريقيا عمومها أي حراك ديني إسلامي مسلح قاوم هذا الاستعمار سوى الطرق الصوفية فكانت هذه القوة الروحية تورث مجاهدتك في الله وله، ففي المغرب كان الشيخ عبد الكريم الخطابي أمير دولة الريف مجاهدا ضد الإسبان وجلدا في تحرير الأرض وبدوره وكان للشيخ ماء العينين من الطريقة القادرية وبنيه الفضل في تحرير مراكش سنة ١٩١٣م، أما الجزائر بلد المليون شهيد كان جهاد الشيخ عبد القادر الجزائري ضد الفرنسيين، وفي ليبيا عمر المختار ابن الحضرة والطريقة السنوسية والمجاهدة ضد الطليان، وفي عكفة النيجر ونيجيريا الشيخ عثمان بن فوديو أما في السودان فالإمام المهدي ضد الإنجليز وسلطان الدولة التيجانية الشيخ عمر الفوتي في منطقة السني غامبيا والسأموري توري بغينيا وشيخنا أحمد حماه الله بموريتانيا.

جل هؤلاء أحفاد أمير المؤمنين شرفاء سادة من نسل المولى إدريس الأكبر، وأورادهم تنتهي إلى الإمام، وقبل هذا الاستعمار كان في القرون الوسطى الاستعمار الصليبي في المشرق الإسلامي والذي جابهه المتصوفة فكان مع القائد القادري الطريقة محرر القدس مجموعة من المتصوفة الكبار أمثال الشيخ العز بن عبد السلام، وسيدي أبو الحسن الشاذلي وسيدي عبد الرزاق الجزولى بالإسكندرية من تلامذة سيدي أبي مدين الغوث وجل هؤلاء سادة شرفاء، ولقد قال الذهبي إن عشرين ألف من أهل الذمة اسلموا على يدي سيدي عبد القادر الجيلاني.

الإمام علي (ع) مدد العارفين:

إن أعظم شخصية تواصلية التفت حولها كل الأطياف الإسلامية وشكلت مرجعية لكل تيار وتعددت قراءات المسلمين لها من منطلقات هوياتهم واختلاف مشاربهم وتمايز تراثهم وتقاليدهم ومحصت الإسلام المحمدي الأصيل ونافحت عنه في وجه الروافد الدينية الأخرى مناظرة ومحاججة وبياناً، كانت شخصية الإمام علي والسلسلة الذهبية مددا للعارفين وأئمة

للمتقين ووارثين للسر المحمدي ومحجة للتائهين المحرومين البائسين رغم انتزاع الإمامة في ظاهرها السلطوي من لدن الجبابرة والطغاة، حتى قال أحد الكتبة: ما سل سيف في الإسلام إلا على أساس الإمامة وكعمل إجرائي وسبكاً لفكرة المهاد نجد الحوار بين للأديان أسه الإمام علي حول المباهلة لنصارى نجران، وفي ردوده الشافية على اليهود، وكان أخوه جعفر فاتحة إسلام الحبشة بإفريقيا النصرانية، وبذلك دخل الإسلام إفريقيا قبل أن يدخل المدينة المنورة.

وفي جرد للسلاسل الصوفية وأورادها ومشايخها سنجد مددها الأول وفريد عقدها الإمام على من خلال الحسن المجتبى، فتارة يلقبونه بالقطب الأول ومرة بالإنسان الكامل وتارة قطب دائرة الأولياء.

ومن هنا نتذكر كذلك أنه وبعد الربيع العربي وانتفاض الشعوب على الظلمة والمستبدين ما وجدوا أبا لهذه الثورة غير سيد الثائرين: الإمام الحسين بن علي (ع)، لأن منظومة الحاكمية في الفكر الإسلامي جملة نكاد تجعل الحاكم ظل الله في الأرض من مات وليس في عنقه بيعته مات ميتة جاهلية، وهو ما قفزت عليه الشعوب وتمردت على مصادره واختطت لنفسها سبيل أن الفسقة وأهل الجور والظلمة لا يمكنون ولا يرثون رقاب المسلمين باسم الله، وعلى هذه الخطى قتل العارف الحلاج وأوذي سيدي محي الدين ابن العربي الحاتمي وتمت مضايقة ابن عطاء الله السكندري، إذ أن الحرية التي خلقت وولدت الإنعتاق للثائرين هي التي صبى إليها المتصوفة لإخلاص العبودية لله رب العالمين والسيادة على كل ما خلقه الله.

وبهذه البنيوية وتقاسيمها تتحول شفرة هذا البناء العقدي إلى نفسية المريد صاحب الإرادة والتوجه الرباني حينما يستثمر صفاءه الروحي لتحقيق مناط الشعور بالإنسان الكامل، اتجاه معبوده الحق، وفق منظومة تمثل النهائي في حضور اللانهائي بمقام الجوار طبعاً، ومقتضياتها من:

أ - امتلاك صاحب هذا المقام ازمة نفسه

ب - دحره لسهام الشيطان وتدرجه في علائق مطية الحياة نحو الآخرة

الاستنتاجات:

حتما بعض الخواطر ومزالق الفكر وأدوات القهر التي كبلت الكتبة عن فحص محتوى وجوهر ومكنون علم الإمام علي استطاردنا لنتساءل معكم كالآتي:

١ - بأي منطق يكون قاتل الخليفة عمر رضي الله عنه كافراً وقاتل أمير المؤمنين علي مجتهداً غير كافر ويوثق كبار المحدثين مادحي قاتله شعرا؟

٢ - هل يساعد على وقف السب الذي نذمه جميعاً، التغافل عن من بدأ سب الصحابة وتبرأته بعد سبعين خريفاً من لعن العترة على المنابر، أقره مسلم في صحيحه عن معاوية، فأي مكيال هذا؟

وختاماً فإن مدرسة الإمام التي تجاوزت العنصرية التي كرسها الطغاة فاحتقروا الأعراق والأجناس غير جنسهم، هي ملاءة الحرية وفضاؤها لهذا الإنسان الذي خلق حراً، وتنزوي آفاق حامليه كلما انزوت مساحة الحرية. ❖

الغَديرُ في الشعر العرفانيّ الفارسيّ
كتاب (مثنوي) لجلال الدِّين الرُّومي اختياراً

د. علي مجيد البديري
جامعة البصرة - كلية الآداب

مقدمة:

حَظِيَتْ أحداثُ يوم الغدير وأحاديثه بمساحةِ اهتمامٍ كبيرةٍ من قِبَل الشعر الإسلامي، قديمه وحديثه، رصدتْها بدأبٍ ودقةٍ علميينِ جهودٌ طيبةٌ لكثيرٍ من الباحثين والدارسين، بطريقةٍ وفَّرتْ على من يريد معاينةَ تجلياتِ هذا الحدث في النصوص الشعرية أمراً يسيراً، غير أنَّ ما تفتقر إليه المكتبة الأدبية الإسلامية هو دراسة هذه النصوص دراسةً محايثةً، تتجاوزُ ما هو تاريخيٌّ / تسجيليٌّ لتقف على طرائقَ إعادة تدوين هذا الحدث شعرياً، والكشف عن جماليات هذه الطرائق وغاياتها.

من هنا شرعتْ هذه المحاولةُ المتواضعةُ في مقاربة أنموذجٍ شعريٍّ من هذا الشعر الكثير، وكان الاختيار يتوجه نحو الشعر العرفانيّ الفارسيّ، كتاب (مثنوي) تحديداً، لتوافره على نصٍ يرى الباحثُ - بتواضعٍ كبير - أنَّه يمتاز بفرادةِ المعالجة وجماليتها الفائقة، ولا يعني هذا أن جلال الدين الرومي الشاعر الوحيد الذي وظَّف هذا الحدث في الشعر العرفاني الفارسي: فهناك الفردوسي، وسعدي الشيرازي، وحافظ الشيرازي، ومنوجهري دامغاني، وناصر خسرو، وسنائي غزنوي، وفريد الدين العطار، وغيرهم كثير.

حاولتِ الدراسةُ التوقفَ عند طريقةِ اشتغالِ القصيدةِ العرفانيةِ على موضوعةٍ تاريخيةٍ، والكشفَ عَمَّا يمنحُ تجربةَ الرَّومي خصوصيتَها التي تتخلَّقُ في نَسقِها الخاصِّ، وتعبِّر عن رؤيتِهِ ومواقفِهِ. وقد أفادَ الباحثُ من الإضافاتِ المَنهجيةِ المُتأخرةِ لمدارسِ الأدب المقارن في مجالِ الدِّراسةِ المُقارنةِ، حيثُ فرضتِ الدِّراسةُ عنايةً خاصةً بما هو داخلِ النَّص ويُشكِّلُ بنيتَهُ الداخلية، من غير أنْ تُهملَ معطياتُ السياق الخارجي في إضاءةِ النصِّ المدروس.

جلال الدين الرومي وكتابه (مثنوي):

يعد الشاعر العرفاني الفارسي جلال الدين، محمد بن محمد البلخي الرومي المولود في سنة ٦٠٤ هـ في بلخ، والمتوفى في قونيه ببلاد الروم في ٦٧٢ هـ[1]، من أشهر شعراء التصوف في العالم. فلم تقتصر معاينة شعره والاهتمام بدراسته على النقاد والباحثين الفرس والعرب بل تعدى ذلك إلى الكثير من النقاد الغربيين.

أتاحت له رحلة أسرته من (بلخ) إلى (قونية) التي استقروا فيها، وهو صبي، لقاءات مع أعلام التصوف من أمثال: فريد الدين العطار، وشهاب الدين السهروردي، وكانت ثمرة هذا

الانتقال الدائم ـ الذي قطعه جلال الدين الرومي عبر مسافات طويلة ـ نضوج تكوينه الروحي الأوّل. وبعد أن اكتسب معارف عصره وتفوق فيها، تولى التدريس في (قونية) حيث تزوّج، وتولى الإفتاء والتدريس فيها، بعد وفاة والده محمد المعروف ببهاء الدين الذي سبقه في هذا المنصب، وكان عدد كبير من العلماء والفنانين والصوفية من كل أنحاء شرق العالم الإسلامي يبحثون عن الملاذ في قونية بوصفها أحدى الأماكن القليلة الهادئة في زمن دمرت فيه فلول المغول أجزاءً واسعة من الدولة الإسلامية. ولذلك انتعشت الحياة الفكرية والدينية في هذه المدينة بشكل كبير. وكانت اللغة الفارسية هي لغة المثقفين.

في عام ٦٤٢هـ/١٢٤٤م التقى مولانا ـ وكان في الأربعين من عمره ـ بشمس التبريزي، فتحوّل الفقيه الورع إلى شاعر وصوفي لا يكاد يفيق من شدة وجده. إذ أضرم التبريزي في قلب الرومي حرائق العشق الإلهي، وبعث فيه كتابة الشعر وأدرك الرومي أنّه اهتدى إلى الطريق الذي خلق من أجله، وأنَّ لقاءه بشمس تبريز ـ كما يسميه ـ لم يكن من باب الصدفة وإنّما كان أمراً مقدراً.

وتمثل مرحلة لقاء الرومي بحسن حسام الدين ـ وهو من تلامذة الرومي ومريديه ـ قمة النضج الفكري والإنتاج الشعري في حياته، حيث دفع حسام الدين جلبي مولانا إلى نظم تعاليمه الصوفية في قصيدةٍ تسهل على تلاميذه قراءتُها بدلاً من ملاحم السنائي والعطار. فكان حسام الدين يكتب الأبيات التي يقولها الشيخ في أي مكان يرتاده، وبذلك نشأ كتاب (مثنوي). وبانتهاء الجزء السادس من هذا الكتاب وافت المنية جلال الدين طاوية حياة مليئة بالسعي إلى إعلاء شأن الروح والنفس على الجسد[٢].

لم يكن الوعي الثقافي للرومي مقتصراً على ما في عصره من علوم وآداب، فقد كان محيطاً بشكل كبير ودقيق بالثقافات السابقة لعصره، مثل الميثولوجيا اليونانية، وعلوم التفسير والحديث، وعلم الكلام، والمنطق، والعلوم الكلاسيكية، والأساطير والحضارات القديمة، وكانت له وقفة خاصة عند الشعر العربي فقد درس آثار الشعراء العرب وأعجب بالكثير منها، فضلاً عن الأدبين اليوناني والفارسي[٣].

والمثنوي شكل من أشكال الشعر (يبنى على أبيات مستقلة مصرَّعة، يشتمل كل بيت على مصراعين متفقين في القافية والروي، مستقلين في ذلك عن غيرهما.. ويعرف في العربية بالمزدوج، ويشترط في المثنوية... أن تجري أبياتها جميعاً ـ مهما كثر عددها ـ على وزن واحد)[٤]. والمعروف أنَّ جلال الدين بدأ نظم المثنوي حوالي ٦٥٧هـ، ثم نظم الجزء الأول بين عامي ٦٥٧ ـ ٦٦٠هـ، وأعقبت ذلك فترة عامين من التوقف، ثم استأنف النظم من جديد عام ٦٦٢ هـ. ولم ينقطع الرومي عن النظم حتى وصل إلى نهاية الجزء السادس في صورته الحالية. وللمثنوي طبعات متعددة ونسخ مخطوطة كثيرة، وله شروح كثيرة بلغات مختلفة شرقية، وغربية.

ويرى د. محمد كفافي أنَّ روعة المثنوي تأتي من تناوله الحياة بكل جوانبها، حتى أن القارئ لا يكاد يرى موضوعاً من موضوعات الأخلاق والسلوك لم يطرقه الشاعر، على أنَّ سبيل معالجة الرومي له لم يكن سبيل الواعظ، بل سبيل الشاعر الفنان. وقد دفعت ظاهرة احتفاء المثنوي بالقرآن والحديث، وقصص الأنبياء، والقصص الشعرية، والفلك، والأساطير، والعادات، والفلسفة، والكلام، والطب، بعض الباحثين إلى وصفه بأنه موسوعة صوفية، وربما كان لوصف المتصوفة له بأنه "كتاب الصوفية المقدس" - إعجاباً منهم بمحتواه الفكري - أثرٌ في ذلك، وهو تقييمٌ بعيدٌ عن طبيعة المثنوي؛ فالشاعر لم يقصد بعمله هذا أن يسجل الفكر الصوفي تسجيلاً موسوعياً تعليمياً، في حين أن الكثير من متذوقي الشعر والفنون يجدون فيه مصدراً خصباً لألوان من الجمال الفني، إلى جانب ما يحمله من مضامين فكرية أو دينية[٥].

ويعد مثنوي على ضخامته من أكثر الكتب رواجاً وشهرةً حتى سمّي بـ "القرآن الفارسي" لكثرة تداوله وشرحه وحفظ الناس لأجزاء منه. ويقوم الكتاب على مجموعة كبيرة من القصص يرويها الشاعر بأسلوب رمزي، و (يعمد إلى بعض الأفكار الدينية التي تعتبر من أسس الشريعة الإسلامية، وإلى صور محددة في القرآن والسنة النبوية، بل وإلى جمل كاملة من الكتاب العزيز أو إلى حديث كامل نصه، فيتخذ منها رموزاً ذات صبغة جمالية خالصة. وبهذا يفتح الشعر إمكانيات لا حدود لها لعملية ربط جديدة بين الصور الأرضية والسماوية، وبين الأفكار الدينية والدنيوية)[٦]، وبذا تجلّت في هذا المؤلف الضخم ثقافة الشاعر الواسعة وقدرته على تمثلها وتوظيفها في كتابته الإبداعية. ولم تقلل هيمنة الطابع الفلسفي أو التعليمي على بعض النصوص شيئاً من شعريتها وتوهّج لغتها. ومن هنا كانت لغة الرومي الرمزية في المثنوي تعكس مجمل عالم الفكر في عصره، فلا يوجد شكل بلاغي أو شعري واحد لم يستخدمه ببراعة، على الرغم من شعوره - أحياناً - بصعوبة التفكير بقوافٍ جميلة. ومن الواضح صعوبة تحقيق التوازن في الكتابة الشعرية في ما بين البعدين الفكري والفني. ولعل الرومي من الشعراء القلائل الذين تجلى في نصوصهم الشعرية هذا التوازن الصعب. ولهذا ولغيره من المزايا عُدَّ المثنوي في نظر الكثير من المحققين والدارسين كتاباً فريداً، لا نظير له في مجاله على امتداد القرون. ومما منحه هذا التميز انفتاح بدايته ونهايته على فضاء تأويلي غير مقيد بما يُشعر القارئ بالبداية والنهاية، فهو ينفرد من بين النصوص الشعرية العرفانية الفارسية بخلوّه من ديباجة البداية المعروفة (البسملة والحمد والتمجيد والثناء) وقد تأمل الكثير من الدارسين هذه السمة، ونظروا إليها على أنها سمة ومزية للمثنوي لا عيباً، ولم يسموه نصاً "أبتراً" مثلما جرت العادة في حالة كهذه[٧]، أما نهاية الكتاب فكانت قصة شعرية لا تتوقف عند نهاية محددة.

تنصيص الحديث النبوي والتاريخ في (مثنوي):

تكاد موضوعات النصوص في كتاب (مثنوي) أن تنهل بشكل مستمر وتام من روافد عديدة أهمها القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والتاريخ، وما أكثر ما جذبت

التداعياتُ الشاعر الرومي إلى توسيع مساحة مثوياته بتأملات شعرية، يلمس القارئ في كثير منها، انفتاحها وعدم اكتمالها، أو أن الشاعر كان ينوي الرجوع إليها ثانية لإتمامها.

لقد كان التنوع في موضوعات المثوي كبيراً وواضحاً إلى الدرجة التي جاء فيها الكتاب متضمناً جميع النظريات الصوفية التي كانت معروفة في القرن الثالث عشر، وأصبح من اليسير جداً على كل باحث أو شارح أن يجد ما يبحث عنه في الكتاب من موضوعة وحدة الوجود إلى التصوف الذاتي، ومن الحب ومراتبه إلى الموقف المتمسك بالشريعة[٨].

ولا شك في أن خوض الشاعر في كل هذا، مرتكز إلى أصول التشريع، وموجَّه بما قدمه الخطابان القرآني والنبوي من رؤية ومنهج واضحين. فالرومي ومعه معظم الشعراء الفرس (قد قرؤا كتب الأحاديث واستوعبوها، عندما تعلموا اللغة وفنون الأدب، لأنهم كانوا يعدُّون الأحاديث النبوية أنموذجاً متكاملاً للكلام العربي الفصيح يمكن أن يحتذى)[٩].

احتل توظيف الحديث النبوي في (مثنوي) مساحة كبيرة، وصل العدد فيها إلى (٧٤٥ حديثاً نبوياً مفسرةً ومشروحةً، يذكر الحديث باللغة العربية مباشرةً، أو يشير إلى معناه في مواضع أخرى)[١٠]، ويشكِّل الحديث النبوي في جميع هذه المواضع عاملاً محفزاً على الاسترسال الشعري العرفاني، يتنقَّل الرومي من خلاله بانسيابية كبيرة بين فضاءات متسعة، لا يشعر القارئ المتأمل فيها بالتعب أو الملل.

الغدير في (مثنوي): موضوعةً عرفانيةً:

لا تتوقف مثنويات الرومي عند حدود استحضار ما يمكن تسميته بمكتبتها النصية؛ التي هي مجموعة النصوص الدينية والأدبية والتاريخية، والعمل على تضمين جملٍ أو موضوعات منها لغرض تجميلي أو تعليمي، ذلك أن رؤية الشاعر العارف تعدُّ هذه النصوص جزءاً من بنية الوجود، وهو حينما يتوقف عند موضوعة متأملاً إياها فإنَّه يفعل ذلك في ضوء جزئيتها، وعلاقتها بالوجود كله، ولعل هذا الأمر يفسر لنا انتقالات الرومي في (مثنوي) من موضوعة إلى أخرى قد لا تجد بعض القراءات لها صلة واضحة توحدها أو تربطها بعلاقة ما.

من هنا يأتي توظيف حدث الغدير وحديثه في نص للرومي ـ الذي ندرسه هنا ـ بطريقة خاصة، أكثر جمالاً، وعمقاً مما تحدده بعض المفاهيم الجزئية الخاصة بالتضمين أو الاقتباس.

النص:

(ولهذا السبب سمى الرسول (ص) ذو الاجتهاد نفسه وعلياً باسم المولى.

ـ قال: كل من أكون له مولى وحبيباً، فابن عمي علي مولاه أيضاً.

ـ فمن هو المولى؟ إنه هو الذي يحررك، وهو الذي يضع الأغلال عن قدمك.

ـ وما دامت النبوة هادية إلى الحرية، فالحرية تكون للمؤمنين من الأنبياء.

ـ فاسعدوا يا جماعة المؤمنين، وتحرروا كالسرو والسوسن.

ـ لكن داوموا في كل لحظة على شكر الماء بلا لسان كالروضة جميلة الألوان.

- فبلا لسان تردد أشجار السرو والمروج شكر الماء وشكر عدل الربيع في أوله!!.
- فهي مرتدية الحلل، باسطة أذيالها، ثملة، راقصة، سعيدة، ناثرة للعنبر.
- فأعضاؤها عضواً عضواً حاملٌ من ملك الربيع، وأجسادها كالأدراج مليئة بدر الثمار.
- إنها على مثال مريم حامل في المسيح دون بعل، صامتة لا تنبس بهذر، أو كلام فصيح.
- إن ثمرنا قد سطع سعيداً دون نطق، وكل لسان وجد النطق من بهائنا.
- ونطق عيسى (ع) يكون من بهاء مريم، ونطق آدم (ع) شعاع لذلك النفس.
- وحتى يزداد الشكر أيها الثقات، هناك أذن نبات آخر في نبات.
- وانعكاسه هنا: ذل من قنع، وفي ذلك الطور عز من طمع.
- فلا تمضي في جوال نفسك كثيراً، ولا تكن غافلاً عن الذي يشرونك)[١١].

يتصل النص عبر نسيج دلالاته المتفرعة بنصوص مضمرة ليست بغائبة تماماً عن فضائه، فهي حاضرة على مستوى التشابه الذي ينشغل الشاعر ببيانه، وهي نصوص قرآنية تتعلق بالنبيَين الكريمين: آدم وعيسى (عليهما السلام). ويقوم النص بتفريع دلالة التساوي في (الولاية) مابين النبي (ص) وأمير المؤمنين (ع) إلى ما يوصلها بعلاقات تساوٍ أخرى على سبيل تقريب الدلالة المقصودة من لفظة (المولى)، وهو أمر لا يخفى على القارئ المتفحِّص قصديَّة الرومي في فعله هذا إزاء حديث هو موضع خلاف عقائدي بين مدرسة أهل البيت (ع) ومدرسة الصحابة.

تحرص الأبيات في النص على دفع القارئ إلى إجراء عملية استبدال بين أطراف التشبيه في الأمثلة التي يسوقها بطريقة تأملية، وهي عملية لا يفهم منها بالتأكيد تذويب الفوارق ما بين الأطراف، وإلغاء خصوصية كل طرف، ولكنه يؤكد الدلالة المشتركة المتخلّقة عنها؛ فالصورة التي يرسمها لقيامة الربيع وانبعاث الحياة متولدةٌ من دلالة (الولاية) التي تشترك مع (النبوة) في الهداية والإحياء وانبساطهما على وجه المعمورة. وهذا التوالد والاتصال ما بين البداية وتفرعات النص دلالياً، يشير إليه الشاعر في نهاية النص إشارةً معبرةً، وجميلةً، حيث يقول: (.. هناك أذن نبات آخر في نبات)، وهذه النظرة التي تجعل من الشجر معادلاً للعالم والحياة بأسرها، تقود الرومي في هذا الموضع، وفي غيره من المثنوي إلى أنْ يصف الأشجار بأنها "ذات أحمال"، وهي في جمالها وبراءتها العذرية تستسلم للنسيم الإلهي المتجلي في أنفاس الربيع، فتلد الثمار المبهجة[١٢].

ولعل وراء تكرار هذا الاستخدام في مثنوي الرومي مؤثرات غير نصيَّة تتمثل في ما يشتمل عليه السياق الثقافي من مكونات فاعلة، فـ (زيادة الأشعار الربيعية الكثيرة لدى الرومي لا يفهمها إلا أولئك الذين عرفوا كيف أن سهول مدينة كونيا (قونية) يغطيها اللون الأخضر بعد عاصفة تزدهر بعدها الورود وتتفتح أزهار الصفصاف ويمتلئ الهواء بنسيم عطر. وهذا الربيع يعد بمثابة (قيامة) تبعث الأزهار والأوراق من الأرض السوداء. فالأوراق تتراقص من وجد رياح الحب، والأزهار تحمد الله بلغتها الصامتة، والرومي يسمع هذا التسبيح ويشارك فيه بترجمته إياه في سطور مقفاة)[١٣].

وتحيل نهاية النص إلى معنى التجدد والاتصال بنبع الهداية الذي ابتدأ به النص: اتصال الولاية من غير انقطاع، الذي أسس له الرسول (ص) في غدير خم، امتداد الحرية والحياة: (إن ثمرنا قد سطع سعيداً دون نطق، وكل لسان وجد النطق من بهائنا)، ستكون ولاية علي (ع) تأكيداً للهوية الربانية التي رسمت ملامحها النبوة، وهي نعمة كبرى وهبها الباري لأمة النبي الأكرم، لا تدوم إلا بالشكر، ولا شكر بدون الوعي بهذه الحقائق، والازدياد في التمسك بها.

إنَّ نُطْق التواصل في النهاية شبيه ـ تماماً ـ بنطق النبي عيسى (ع)، المعلن عن بداية رسالته، وهو مثيل النطق الأول لأبينا آدم (ع)، بداية الحياة والخلافة الإلهية. وهكذا تتصل البدايات بثمارها وتؤدي إليها:

النفخ الإلهي ← آدم (ع)

مريم (ع) ← عيسى (ع)

النبي (ص) ← علي (ع)

وجود آدم (ع) ونطقه وخلافته على الأرض من نفس إلهي ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ (الحجر: ٢٩)، وعيسى (ع) كذلك ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ٩١) وفي ضوء ذلك يقرأ حديث الغدير. وحين نتأمل معنى الروح الواردة بشأن النبيين الكريمين (ع)، نجد المفسرين يعرفونها بأنها (كلمة الإيجاد وهو فعله تعالى الخاص به الذي لا يتوسط فيه الأسباب الكونية بتأثيراتها التدريجية، وهو الوجود الأرفع من نشأة المادة وظرف الزمان، وأن الروح بحسب وجوده من سنخ الأمر من الملكوت)[١٤].

وينقل السيد محمد حسين الطباطبائي في مجال الروايات الواردة بشأن تفسير (الروح) حديثاً عن المعاني بإسناده عن محمد بن مسلم قال: (سألت أبا جعفر (ع) عن قول الله عز وجل (ونفخت فيه من روحي) قال: روح اختاره واصطفاه وخلقه وأضافه إلى نفسه وفضَّله على جميع الأرواح فأمر فنفخ منه في آدم)[١٥]. ولا يخفى في ضوء ذلك ما أراد أن يلمح إليه الرومي من معنى ودلالة وهو يستدعي هذه النصوص القرآنية، ويفرع في صورة الإحياء والانبعاث وتواصل الحياة والهداية.

دوافع قراءة "الغدير" عرفانياً:

من جانب آخر نجد أنَّ في استدعاء الشاعر لموردين من القرآن الكريم ـ حصراً ـ في مجال تأمله لحديث الرسول (ص) ونسجه مثنويات النص حوله بطريقةٍ تفريعيةٍ إلماحاً إلى ضرورة قراءة مسائل الخلاف في ضوء معطيات القرآن الكريم ومفاهيمه، وإن كانت مقاربته هنا تتوسل الشعر للوصول إلى وعي كامل ورؤية واضحة في قراءة حديث الغدير ونص الولاية. ولذا ينبغي التعامل مع خصوصية هذه المقاربة بنوع من الحذر والدقة فـ (لا يمكن دراسة النص/ اللغة الصوفية إلا بعد دراسة آلية تكون المفردة والجملة المكونة للنص بمعنى آخر الرجوع إلى التجربة الصوفية المكونة للغة التصوف، لأن اللغة هنا تكونت من منظور صوفي

خاضع لسلسلة من الاستعدادات والممارسات الخاصة، فالنص هنا لا يتكون بعد إجهاد عقلاني وتخطيط إنشائي مسبق بل من إجهاد/استعداد روحي وراء النظر العقلي)[١٦].

ومن هنا ترتبط لغة الرومي بتجربته ارتباطاً وثيقاً، فلا يمكن ربط سبب التصاق شعره بالواقع عامةً، وبالحدث التاريخي خاصةً، بالغرض التعليمي وحده، الهادف إلى تحقيق توصيل المعرفة لمريديه وتلامذته، شأنه شأن بقية النصوص التي أفاد منها في مثنوياته، ذلك أنَّ الرومي يدرك خصوصية الشعر وقابليته على قراءة الواقع والحدث التي تتجسد في أنه يهيئ مساحةً واسعة لتأمل الوجود وفهمه، فالنص الشعري يمثل رؤيةً تأويليةً/جماليةً للواقع والفن في الوقت ذاته، يحقق الشاعر فيه وبهِ ما لا يستطيع المؤرخ أو الراصد العادي أنْ يصل إليه.

إنَّ قراءة الرومي لحدث (الغدير) ونصِّهِ لم تكن مجرد وضع دالٍ مكافئ لمدلول ما، إنَّما هي عبارة عن حوار يجسد اتصالاً وتفاعلاً بينه بوصفه قارئاً، وبين الموضوع بوصفه مقروءاً. وقد عمد الرومي إلى انتزاع حديث الغدير، أو نص الولاية من حدود الحدث التاريخي، وتوظيفه في النص، محاولةً منه للفت انتباه المتلقي إلى الدلالة الكامنة وراءه، فهي حركة باتجاه إبعاد الحديث عن التفسير المألوف في دلالته من أنَّ (المولى) هو (المحب)، إلى فضاء دلالي واسع وعميق، يمنحه حضوراً جديداً، متفاعلاً، في نسيج الشعر وأبنيته المتعاضدة، وأنَّ (التاريخي) هنا يكتسب وجوداً جديداً وهو يدخل فضاء (الشعري)، ويتخطى مزاياه النوعية المتعلقة بكونه حدثاً من أحداث ماضية، ولا ينظر إليه في النص الشعري إلا من جهة وصفه بأنَّه مادة داخلة في بنية الشعر وخاضعة لاشتراطاته وقوانينه، ومن جانب آخر ستتمتع المثنويات هنا (في هذا النص) بمزايا إضافية منحها إليها تواشج الواقعي/التاريخي مع جماليات النص. وسيقوم الخيال هنا - بوصفه مضغة الشعر - بدور معرفي على نحو يذكرنا بقول ابن عربي عن المتصوفة بأنَّ (الخيال عندهم يساعد في الكشف عن نوع مهم من المعرفة وينير الطريق لإدراك طائفة من الحقائق المتعالية التي لا يصل إليها العقل الصارم للفيلسوف، ولا يقترب منها ذهن الرجل العادي المنصرف للظواهر.. والذي يتعامل مع الأشياء من زوايا المنفعة دون أن ينفذ إلى دلالتها الرامزة إلى المعاني الروحية العميقة)[١٧].

يدخل الشعر مع الحدث ودلالاته في هذا النص في علاقة يمكن أن نسميها بـ (علاقة تصالحية)، (موصوفة بالتساكن: أي أن أحدهما يسكن الآخر، وموصوفة كذلك بالسعي المشترك للإمساك بتجربة الكون، التاريخ بجدله الإنساني، والشعر بمحاولته أن يوظف هذا الجدل في خلق شعري يتصف بملامح جدلية على مستوى البنية والدلالة)[١٨].

إنَّ هذه الطريقة في توظيف التاريخي أو قراءته عرفانياً، والمتداخلة مع توظيف الحديث النبوي الشريف في الشعر لا تتم منفصلةً عن غاية الرُّومي الرئيسة من كل هذا، وهي تندرج ضمن ما فرضهُ السياق الثقافي الذي عاش فيه، وتأثر بمعارفه، وعلومه، وبما كان يشكل خلافاً فكرياً أو عقائدياً من المسائل فيما بين المفسرين والمتكلمين والفقهاء، غير أنَّه كان (يركز أكثر من أسلافه على ضرورة إفناء النفس،.. ولم يكن هدفه القضاء على هوى

النفس فحسب، بل كان يرى أنه يجب أن تستهلك النفس الجزئية في النفس الكلية، وتفنى كما تستهلك القطرة في البحر. والدنيا والموجودات كلها هي عين ذات الله لأنها كلها مثل جداول نبعت من منبع واحد وفي النهاية تصب فيه، وأساس الوجود هو الله وبقة الموجودات ذات وجود ظلي فقط في مواجهته)[١٩].

لقد حقق جلال الدين الرومي انسجاماً رائعاً بين موضوعة النص وبين طريقة تناوله، وهو أمر تكاد تشترك نصوص الكتاب فيه، وكأن الشاعر عاش لحظة شعرية واحدة متواصلة طوال فترة تأليف أجزاء الكتاب الستة، وقد ظل حريصاً على توسعة مساحة المحمول الدلالي لنصه هذا من غير أن يطغى حضور مكتبة النص على موضوعه الرئيس، فجاء التوافق كبيراً بينهما.

الهوامش:

(١) ينظر: تاريخ أدبيات إيران (از فردوسي تا سعدي): ادوارد براون، ترجمة: غلام حسين صدري افشار، انتشارات مرواريد - تهران، ط٤، ١٣٨٦ هـ. ش: ٢٠٠، ٢٠١

(٢) مثنوي: مولانا جلال الدين الرومي، ترجمه وشرحه وقدم له: إبراهيم الدسوقي شتا، المركز القومي للترجمة - القاهرة، ط٢، ٢٠٠٨ (الكتاب الأول) المقدمة: ٨-٣٠.
وينظر: الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف: آنا ماري شيمل، تر: محمد إسماعيل السيد، رضا حامد قطب، منشورات الجمل - كولونيا (ألمانيا) - بغداد، ط١، ٢٠٠٦: ٣٥٢، ٣٥٥.

(٣) ينظر: مولانا جلال الدين: عبد الباقي كولبي ناري، ترجمة: د. توفيق سبحاني، مؤسسه ى مطالعات وتحقيقات فرهنكي، طهران، ١٣٦٣: ٤٠٨.

(٤) فنون الشعر الفارسي: د. إسعاد عبد الهادي قنديل، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، ط٢، ١٩٨١: ١١٩.

(٥) ينظر: في الأدب المقارن دراسات في نظرية الأدب والشعر القصصي: د. محمد عبد السلام كفافي، دار النهضة العربية - بيروت، ط١، ١٩٧١: ٤٩٤ - ٤٩٥.

(٦) الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف: ٣٢٣. وينظر كذلك: سبك شناسى، د. سروس شمسا، انتشارات فردوس - طهران، ط٣، ١٣٧٦: ٢٣٢.

(٧) ينظر: ا ز نى نامه (كزيده ى مثنوى معنوى)، انتخاب وتوضيح: د. عبد الحسين زرين كوب، د. قمر آريان، انتشارات سخن - طهران، ط١، ١٣٧٧: ٣٧.

(٨) ينظر: الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف: ٣٥٦.

(٩) أحاديث وقصص مثنوي: بديع الزمان فروزانفر، انتشارات أمير كبير - تهران، جاب ٢، ١٣٨١ هـ. ش / ٢٠٠٢م: ١٣.

(١٠) الشاعر الفارسي الكبير جلال الدين المولوي المعروف بالرومي: بديع الزمان فروزانفر، مجلة الدراسات الأدبية، س١، ع٤، ١٩٦٠م: ٦٤.

(١١) مثنوي: مولانا جلال الدين الرومي، ترجمه وشرحه وقدم له: د. إبراهيم الدسوقي شتا، المركز القومي للترجمة - القاهرة، ٢٠٠٨، الكتاب السادس: ٣٨١ - ٣٨٢.

(١٢) ينظر: الشمس المنتصرة، دراسة آثار الشاعر الإسلامي الكبير جلال الدين الرومي: آنا ماري شيمل، تر: د. عيسى علي العاكوب، مؤسسة الطباعة والنشر / وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي - طهران، ط١، ١٣٧٩ش / ١٤٢١ق: ١٦٤.

(١٣) الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف: ٣٦٥.

(١٤) الميزان في تفسير القرآن: العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط١، ٢٠٠٦، مج ١٣: ١٦٠.

(١٥) المصدر السابق: مج ١٢: ١٤٣.

(١٦) نقد / تصوف، النص - الخطاب - التفكيك: شريف هزاع شريف، مؤسسة الانتشار العربي - بيروت، ط١، ٢٠٠٨ ص: ٧٣.

(١٧) الفتوحات المكية: محيي الدين بن عربي، تحقيق: د. عثمان يحيى، د. إبراهيم مدكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، مج ٢: ٨٥.

(١٨) الشعر والتاريخ، شعرية التناص: ناظم عودة، الأقلام، ع ٨/٧ تموز/آب - ١٩٩٢: ١٣٢.

(١٩) التصوف عند الفرس: د. محمد الدسوقي شتا - دار المعارف - مصر، ١٩٧٨، سلسلة كتابك ع: ٦٢، : ص ٣٥.

مصادر الدراسة:

أولاً: الكتب العربية والمترجمة إليها:

١ - **الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف**: آنا ماري شيمل، تر: محمد إسماعيل السيد، رضا حامد قطب، منشورات الجمل - كولونيا (ألمانيا) - بغداد، ط١، ٢٠٠٦.

٢ - **التصوف عند الفرس**: د. محمد الدسوقي شتا دار المعارف - مصر، ١٩٧٨، سلسلة كتابك ع: ٦٢، : ص٣٥.

٣ - **الشمس المنتصرة، دراسة آثار الشاعر الإسلامي الكبير جلال الدين الرومي**: آنا ماري شيمل، تر: د. عيسى علي العاكوب، مؤسسة الطباعة والنشر / وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي - طهران، ط١، ١٣٧٩ش / ١٤٢١ق.

٤ - **الفتوحات المكية**: محيي الدين بن عربي، تحقيق: د. عثمان يحيى، د. إبراهيم مدكور، الهيأة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦.

٥ - **فنون الشعر الفارسي**: د. إسعاد عبد الهادي قنديل، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، ط٢، ١٩٨١.

٦ - **في الأدب المقارن دراسات في نظرية الأدب والشعر القصصي**: د. محمد عبد السلام كفافي، دار النهضة العربية - بيروت، ط١، ١٩٧١.

٧ - **مثنوي**: مولانا جلال الدين الرومي، ترجمه وشرحه وقدم له: إبراهيم الدسوقي شتا، المركز القومي للترجمة - القاهرة، ط٢، ٢٠٠٨.

٨ - **مولانا جلال الدين**: عبد الباقي كولبي ناري، ترجمة: د. توفيق سبحاني، مؤسسه في مطالعات وتحقيقات فرهنكي، طهران، ١٣٦٣ ش.

٩ - **الميزان في تفسير القرآن**: العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط١، ٢٠٠٦.

١٠ - **نقد / تصوف، النص - الخطاب - التفكيك**: شريف هزاع شريف، مؤسسة الانتشار العربي - بيروت، ط١، ٢٠٠٨.

ثانياً: الكتب الأجنبية

١ - **ا ز نى نامه (كزيده ى مثنوى معنوى)**، انتخاب وتوضيح: د. عبد الحسين زرين كوب، د. قمر آريان، انتشارات سخن - طهران، ط١، ١٣٧٧

٢ - **أحاديث وقصص مثنوي**: بديع الزمان فروزانفر، انتشارات أمير كبير - تهران، جاب ٢، ١٣٨١ هـ ش / ٢٠٠٢م.

٣ - **تاريخ أدبيات إيران (از فردوسي تا سعدي)**: ادوارد براون، ترجمة: غلام حسين صدري افشار، انتشارات مروارید - تهران، ط٤، ١٣٨٦ هـ. ش.

٤ - **سبك شناسى**: د. سروس شمسا، انتشارات فردوس - طهران، ط٣، ١٣٧٦.

ثالثاً: المجلات

١ - **مجلة الدراسات الأدبية**، س١، ع٤، ١٩٦٠م

٢ - **مجلة الأقلام العراقية**، ع ٨/٧ تموز/آب - ١٩٩٢. ❖

واقعة الغدير تتجسد في القرآن

كاظم مهدي صالح سعيد الحسيني الذبحاوي
النجف الأشرف - العراق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓرٰ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ هذه الآية هي الآية الأولى من آيات سورة الرعد نجدها تحمل رسالة تقدمها إلى العالم بتوسط العرب وسنامهم قريش، فهي ترسي بوضوح قضيّة وغرض هذه السورة التي تتسلسل آياتها بتقديم هذا الغرض الخطير، وأعني به ولاية ولي أمر السماء من بعد رسول الله (ص)، ذلك أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب صلوات الله عليه.

وسنرى من خلال البحث فيها كيف أنّ الله تعالى أنزل هذه الآية من ضمن هذه السورة ليقول لنا أنّ موضوع ولاية ولي الأمر الإلهي هي قضية هذه السورة ورسالتها.

وسنقوم بسرد بعض ما سار عليه المفسرون الأوائل والأواخر، ولكن بأسلوب آخر يبتعد بعض الشيء عن المنهج المتبع في الجامعات والمعاهد التي تعنى بدراسة (علوم القرآن)، باعتبار أن ذلكم المنهج إنما هو منهج بحوث الترقية الذي تنتفع منه فئة الباحثين حسب.

لكن هذا البحث سيتخذ شكلاً يختلف فيه عن المباحث القرآنية وغيرها التي تعرضت إلى موضوع ولاية أمير المؤمنين (ع) التي كان الإعلان عنها في غدير خم.

البحث في هذه الآية لاستخراج قضيتها والتعرف على رسالتها:

(المر) ذكر المفسرون معانيَ لهذه الأحرف الأربعة، وكذا باقي الحروف المقطّعة كانت صحيحة بذاتها لكنها لا ترتبط بغرض السورة وقضيتها، كونها إحدى آياتها.

على هذا ينبغي أن تكون هذه الأحرف الأربعة رمزاً للسورة يرتبط بآية البسملة، فيقال حينئذ أنها سورة (المر)، أو أنها رمز لآيات الكتاب وللذي انزل.

لكنَّ هذه احتمالات ممكنة لا تستند إلى دليل.

(تلك) اسم إشارة للبعيد أشير به إلى (آيات الكتاب) مما يعني أن في المقام بُعداً استدعى إيراده.

إلاّ أننا ومن خلال معاينة الاستغراق الظاهر المأخوذ من لفظة (آيات) نتذوقُ معنى القُرب الذي هو من لوازم الإبانة التي تتسم بها (آيات الكتاب) على الرغم من ظهور البُعد المأخوذ من اسم الإشارة (تلك) ممّا يدفعنا للبحث والتدقيق في معرفة السر الكامن وراء مجيء كلٍّ منهما في آن واحد، ومن ثمّ الفصل بين ذلك البعد وبين هذا القرب، من خلال الوقوف على معنى لفظ (الكتاب) ومعنى لفظ (آيات).

معنى الكتاب في القرآن:

لقد وردت في القرآن معان متعددة للفظة (الكتاب) وإنَّ أشهر تلكم المعاني انصرف إلى هذا القرآن باعتبار أنَّ معنى الكتاب مأخوذ من الكتابة في صحائف، والقرآن هو أصدق وأشرف مصداق لذلك.

وقد قيّدت بعض الآيات معنى الكتاب بهذا القرآن بنحو أو آخر كقوله تعالى في الآيتين ١، ٢ من سورة يوسف: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾. لكنّ آيات أخرى يستفاد منها غير هذا المعنى، بينما عزلت بعضها عزلاً واضحاً بين لفظتي القرآن والكتاب، كما جاء في الآية ١٥١ من سورة البقرة: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ والآية ٣٧ من سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. والآية ١ من سورة الحجر: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾. أو ما جاء في الآية ١ من سورة النمل: ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٖ﴾.

أما معاني لفظ (الكتاب) في القرآن، فهي عديدة، لكن قرينة كل مقام هي التي تُقيّد كل معنى فيه، فمن معانيها: الكون، والكتاب المكنون، والكتب السماوية النازلة إلى أهل الأرض، وصحائف الأعمال يوم القيامة الكبرى، ثم شيء آخر ذكرته آيات كثيرة اختصَّ به الأنبياء وأوصياؤهم (عليهم السلام)، ونُورد من هذه الآيات النماذج التالية:

١ - ﴿وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ (البقرة: ٥٣).
لاحظ الكتاب هنا غير الفرقان.

٢ - ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ (آل عمران: ٤٨).
لاحظ الكتاب هنا غير التوراة وغير الإنجيل.

٣ - ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ (آل عمران: ١٦٤).
لاحظ هنا الكتاب غير الآيات، فإذا كان المقصود بها هو آيات القرآن، فيكون الكتاب هنا غير القرآن.

٤ - ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا﴾ (النساء: ٦٤).

٥ - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ (الأنعام: ٨٩).

وكانت الآيات التي سبقتها (من الآية ٨٣ وإلى ما بعدها قد ذكرت: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ۝٨٣ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلّٗا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحٗا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ

وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

٦ - ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ (مريم: ١٢).

٧ - ﴿ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (النمل: ٤٠).

٨ - ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (العنكبوت: ٢٧).

والملفت للنظر هو أنّ هذا الكتاب، كتاب واحد وغير متعدد أُوتي إلى جميع الأنبياء عليهم السلام الذين ذكرهم القرآن، فهو بحق يتخطّى بكثير حدودَ الشيء المكتوب في صحائف؛بل هو شيءٌ أكبر من ذلك. هو قوّةٌ غَيْبيَة لا يعلمها أحدٌ منّا باستخدام الأدوات العلمية المتداولة عند أهل الاختصاص؛ فهو إتيانٌ من الله سبحانه إلى عباده المُقرَّبين، عبّرَ عنه القرآن بتعبير (الكتاب)، حيث إن من دأب القرآن أن يُسمّي بعضَ الأشياءِ ببعض صفاتها، أو ما يُشابهها من الصفات الأُخر، كتسمية عيسى (ع) بـ (الكلمة)كما جاء في قوله تعالى في الآية ٤٥ من سورة آل عمران: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾.

أو أن يرمز لعبدٍ من عباده الصالحين بالشجرة إكراماً للاسم وللمسمى، وتعبيراً تمثيلياً عن حقيقة قائمة، كما جاء في قوله في الآية ٢٤من سورة إبراهيم: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾.

العودة إلى الآية:

وعلى الرغم من عدم وجود القرينة اللفظية التي تقيّد معنى (الكتاب) بالقرآن في مقام الآية، فإنه يمكن أن نفترض أنّ المراد بالكتاب هنا هو هذا القرآن، عند ذلك سيكون البعد المأخوذ من اسم الإشارة (تلك) إنما هو بعد ذهني يلتصق بـ (الناس) الذين ذكرت الآية أن أكثرهم لا يؤمنون.

ويمكن أن يتمثل هذا الالتصاق بانصرافهم إلى ما سواه. قال تعالى في الآية ٢ من سورة الأنبياء: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾.

فيكون المعنى الأقرب إلى المراد بحسب هذا الفرض: هو أن هؤلاء لا يتدبرون آيات القرآن التي تدعوهم إلى الإيمان بهذا (الذي أُنزل)، على الرغم من إبانتها ووضوحها، فهم بالنتيجة بعيدون عنها.

وهنا يستقيم الاحتجاج عليهم المأخوذ من ذيل الآية (ولكنّ أكثر الناس لا يؤمنون). قال تعالى في الآية ٢٤ من سورة محمد: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾.

فانّك تلاحظ في هذه الآية أنها نسبت الأقفال إلى القلوب لا إلى القرآن، الذي هو كتاب مُيَسَّرٌ للفهم من لدن المخاطبين به عند تدبرهم إياه. فإنك ترى هذا هو المسوّغ لا يراد الإشارة للبعيد مع استفادة القرب!

أما إذا كان معنى الكتاب في المقام ينصرف إلى معنى آخر يقوم على المجاز، وهو معنى يُنتزعُ من بعض الآيات، كقوله تعالى في الآية ١٩٠ من سورة آل عمران: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾. فيكون المراد بـ (الكتاب) بحسبه هو (الكون) حيث أن المخلوقات التي تشكل أفراده هي الآيات محل التدبر.

وقد تبنى هذا المعنى العلامة الطباطبائي حيث قال: (.. فظاهر ذلك كله أن يكون المراد بالآيات المشار إليها بقوله: تلك آيات الكتاب الموجودات الكونية والأشياء الخارجية في النظام العام الإلهي، والمراد بالكتاب هو مجموع الكون الذي هو بوجه اللوح المحفوظ أو المراد به القرآن الكريم بما يشتمل على الآيات الكونية بنوع من العناية والمجاز..)[1] ثم بعد ذلك يقول: (.. والمعنى - والله أعلم - تلك الأمور الكونية - وقد أُشير إليه بلفظ البعيد دلالة على ارتفاع مكانتها - آيات الكتاب العام الكوني دالة على أن الله سبحانه واحد لا شريك له في ربوبيته)[2].

لكنّ انصراف معنى الكتاب في المقام إلى معنى الكون يؤدي إلى تعطيل وظيفة اسم الإشارة (تلك) في الآية، لأن الموجودات الكونية ملحوظة من جانب البشر فلا بُعد في البين.

وقد جاء التعبير عن قرب الموجودات الكونية في عدد من الآيات كقوله تعالى في الآية ٦١ من سورة العنكبوت: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾.

ولما كانوا يدركون خالقيتها، فهي لابد أن تكون قريبة من أذهانهم وحواسهم الأخرى لا بعيدة عنها. فيكون معنى (الكتاب) بحسب ما رجّحه العلامة الطباطبائي غير مختص بالمقام. والمتحصل: هو لابد من وجود بُعد يظهره لنا اسم الإشارة (تلك) وهو بُعدٌ يلتصق بـ (الناس) - كما ذكرنا -.

ثم أنّ القول بتعيين فائدة اسم الإشارة (تلك) هي لتبيين ارتفاع مكانة الآيات وعلو شأنها تفخيماً وتعظيماً لها، قول غير سديد، لأن ارتفاع شأن الشيء قد يفضي إلى عدم التمكن من إدراكه بنحو يكفي لتقرير مخلوقيته من لدن الخالق سبحانه على النحو الذي أوردته آية سورة العنكبوت التي بيّنت هذه الحقيقة بجلاء.

فالأكثر مناسبة هو التصاق البعد المأخوذ من (تلك) بأذهان (الناس) كما تقدم.

كما إن استفادة معنى القرب من (آيات) إنما يجيء نتيجة لسهولة وتيسير هذا الكتاب التدويني وهو القرآن. وهو ما دلت عليه آياتٌ كثيراتٌ، كمثل دلالة قوله تعالى في الآية ٩٧ من سورة مريم (عليها السلام): ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن ١٣: ٢٨٥.

(٢) المصدر والصفحة.

زبـــدة البحـــث:

معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾

لقد ذكر المفسرون أن المراد بـ (الذي انزل) هو مجموع ما في هذا القرآن من سور نازلة، والحال أن هذا (الذي أُنزل) هو غير القرآن وإن كان الاثنان طرأ عليهما فعل الإنزال من الله تعالى إلى العباد.

وقد وقع الاشتباه من لدن البعض في أنّ (الذي أُنزل) هو هذا القرآن حسب، في الوقت الذي يقرر أنّ معنى الكتاب الوارد في الآية الأولى من السورة هو القرآن أيضاً. وأظن السبب في هذا الاعتقاد هو اتكاؤهم على قرينة الإنزال في المقام وهو شائعٌ عندهم.

غير أن فعل الإنزال في القرآن يطرأ على أشياء كثيرة والقرآن منها. ثمّ أنهم لم يعتنوا بوظيفة حرف العطف (الواو) في الجملة ولم يقيموا له وزناً، ذلك أنّ العطف إنما يقع بين متغايرين، ولو قلنا بعدم التغاير لوقع العطف بين الشيء وذاته، وهو في غاية البطلان.

وقد تابع الكثير من الأعلام ما ذهب الزمخشري إليه من أن «"تلك" إشارة إلى آيات السورة، والمراد بالكتاب السورة، أي تلك الآيات آيات السورة الكاملة العجيبة في بابها، ثم قال "والذي أنزل إليك" من القرآن كله هو "الحق" الذي لا مزيد عليه، لا هذه السورة وحدها»[1]. وهو كما ترى من العطف على الشيء نفسه.

كذلك فإنّ المسلمين يطلقون لفظ (القرآن) على آية واحدة أو مجموعة آيات منه فضلاً عن إرادة الكتاب الجامع للسوَر والآيات الشريفات.

قال آية الله العلاّمة السيّد مسلم نجل العلاّمة السيّد حَمُّود الحسيني الحلّي[2] «اعلم أن اللفظ الموضوع لمعنى تدخل تحته أجزاء؛ يكون على نحوين: فتارة يشترك ذلك المعنى مع تلك الأجزاء في إطلاق اللفظ عليه بحيث يجمعها اسم واحد يشترك وذلك كسائر الأسماء الموضوعة للأجناس، كالماء مثلاً فإنّ قليله يشترك مع كثيره في اسم واحد يطلق على الجميع بإطلاق واحد، فالقطرة من الماء والبحر منه ماء، وتارة لا يشترك ذلك المعنى مع تلك الأجزاء

---

(١) تفسير الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل تأليف الإمام أبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمّد الزمخشري (٤٦٧ ـ ٥٣٨)/المجلّد الثاني: الصفحة ٤٩٢.

(٢) هو مسلم بن حمّود بن ناصر بن حسين بن علي بن محمد بن حسن بن هاشم بن عزّام بن محمد بن عزّام بن عبد الله بن أبي القاسم بن أبي البركات بن قاسم بن علي بن شكر بن محمد بن النقيب أبي محمد الحسن الأسمر صاحب المرقد والمزار في ناحية النيل الحليّة. ولد في الحلّة سنة ١٣٣٤ ونشأ بها على والده العلاّمة الفاضل المتوفى سنة ١٣٧٢، وشقيقه العلاّمة الكبير السيد هادي. فقيهٌ أصوليٌ متكلّمٌ مفسّرٌ بارعٌ، حضر الأبحاث العالية فقهاً وأصولاً على الشيخ محمد حسين الأصفهاني والشيخ ضياء الدين العراقي والشيخ محمد حسين كاشف الغطاء وقد أُجيز بالاجتهاد منه، إضافة إلى أنه يروي عن السيّد حسين الحمامي. وقد تلمذ عليه عدد كبير من الأعلام كالشيخ علي الغروي والشيخ بشير النجفي والسيد علي البعّاج والعلاّمة السيد عبد الستار الحسني البغدادي والسيّد كمال الحيدري والشيخ عبد الأمير الجمري والسيّد علاء الدين الغريفي. له مؤلفات مطبوعة ومخطوطة. مات في الحلة يوم الأربعاء ١٧ جمادى الأولى سنة ١٤٠١ ونقل جثمانه إلى النجف ودفن فيه.

في الاسم، بل يكون لذلك المعنى العامّ اسم خاصّ به، ولكلّ واحد من تلك الأجزاء اسم خاصّ به بحيث لا يشترك فيه القليل مع الكثير، وذلك كأسماء الأعداد، فالعشرة مثلاً موضوعة لمجموعة من الآحاد تجمّعت فأطلق عليها اسم العشرة، لكنّ الجزء منها لا يشاركها في الاسم وقليلها لا يستوي مع كثيرها في إطلاق اللفظ عليه، ويسمّى الأوّل باسم الجنس المجموعي، والثاني باسم الجنس الجمعي، والأوّل لا ينتفي بانتفاء أحد أجزائه أو جزئيّاته، والثاني ينتفي بانتفاء أحد أجزائه، فالماء ينتفي بانتفاء القطر، بل البحر من الماء، لكنّ العشرة مثلاً ينتفي منها اسم العشرة عند انتفاء واحد من العدد الذي تتكوّن منه.

إذا عرفت هذه المقدّمة فاعرف أنّ لفظ القرآن الكريم هو من قبيل القسم الأوّل، معنى أنه يشترك قليلُهُ مع كثيرهِ في الاسم ويتساوى معه في إطلاق لفظ القرآن عليه، فما بين الدَفّتين ممّا شمل جميع أجزاء الكتاب المقدّس هو قرآن، والسورة من سور الكتاب، بل الآية، بل الكلمة منه قرآن»[1].

ثمّ أنّ الإنزال في هذه الآية ورد من غير ما يتعلق به شيءٌ يطرأ عليه، غير مجيء صلة الموصول بالزمن المجهول، وهنا يتقرر التغاير ما بين (الكتاب) وما بين (الذي أنزل)، ممّا يوجب وجود العطف في المقام.

على هذا فإني أظن أن قضية السورة هي الحديث عن هذا الذي أنزل وعدم إيمان أكثر الناس به. قال الدكتور محمود البُستاني: «بهذا المقطع تفتتح سورة الرعد، حيث تضمنت مقدمتها الإشارة إلى أنّ مبادئ الله تعالى هي الحق، إلاّ أنّ أكثر الناس لا يؤمنون. هذه المقدمة سوف تنعكس أصداؤها على هيكل السورة الكريمة بحيث تتلاحم أجزاؤها على المحور المذكور كما سنرى. وهذا من حيث عمارة السورة الكريمة.....»[2].

قلت: من خلال التتبع، فإن مراده من المقدمة هو الآية الأولى من السورة.

إذن السورة هي نظام غير مشتت يرتكز على محور واحد، لا يحسن اختراقه.

وقد صرفت بعض القرائن الخارجية، القرآنَ عن معنى (الذي أُنزل) كما جاء في بعض الآيات الشريفات كقوله تعالى في الآية ١٢ من سورة هود: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾.

وهذا لا يشمل مجموع ما في هذا القرآن؛ بل مختصّ ببعضهِ، وهو ما كان سبباً لضيق صدره (ص)، على هذا فإن الذي أنزل هو بعض ما أوحي إلى هذا النبيّ لا جميع ما أوحي إليه ذلك الذي تتحدث عنه الآية ٦٧ من سورة المائدة التي أمرت الرسول (ص) بما أنه رسولٌ مرسلٌ

---

(١) القرآن والعقيدة أو آيات العقائد - آية الله العلاّمة السيد مسلم نجل حَمّود الحسيني الحلّي النجفي (١٩١٦ - ١٩٨١) تقديم: الدكتور محمد طه السلامي - تحقيق: فارس حسّون كريم ص ١٤٠.

(٢) التفسير البنائي للقرآن الكريم - الدكتور محمود البُستاني - الجزء الثاني - الصفحة: ٣٨٣ - الطبعة الأولى - توزيع: شركة به نشر. المكتب المركزي. مشهد.

من لدن المُرسِل سبحانه أن يُبلّغ (ما أنزل إليه) بقولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإنّ الذي أنزل جزءٌ من كل.

وفي مفتتح سورة الأعراف: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

فإن التأمل في هذه الآيات الثلاث يُظهر لنا شيئين طرأ عليهما فعل الإنزال:.

(الأول): الكتاب وقد عبّرت عنه الآية انه أُنزل إلى هذا الرسول (ص) وهو المعنى المستفاد من قوله: كتاب أُنزل إليك.

(الثاني): وقد جاء مبهماً من دون تعريف؛ إلاّ بالقول انه أُنزل إليهم من ربهم وقد جاء بالزمن المجهول، وضمير الجمع الغائب يعود، بحسب الظاهر، إلى المسلمين بقرينة قوله: (إليكم من ربكم). وهذا لا يستلزم أن يراد به هذا القرآن بما انه كتاب جامع للسور والآيات؛ بل يصحّ أن يُراد به فردٌ من أفراد (الحق) أعربَ عنه القرآن في مواضع عدّة بأنه: الذي أُنزل، أو نحو ذلك، لاسيما بعد ملاحظة النقاط التالية:

النقطة الأولى: إن الإتباع والولاية لا تكون للقرآن بما انه كتاب صامت. قال الإمام أمير المؤمنين (ع): **(هَذَا ٱلْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْطُورٌ بَيْنَ ٱلدَّفَّتَيْنِ لاَ يَنْطِقُ بِلِسَانٍ وَلاَبُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ، وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ ٱلرِّجَالُ. وَلَمَّا دَعَانَا ٱلْقَوْمُ إِلَى أَنْ نُحَكِّمَ بَيْنَنَا ٱلْقُرْآنَ لَمْ نَكُنِ ٱلْفَرِيقَ ٱلْمُتَوَلِّيَ عَنْ كِتَابِ ٱللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَقَدْ قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَى عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ فَرَدُّهُ إِلَى ٱللَّهِ أَنْ نَحْكُمَ بِكِتَابِهِ، وَرَدُّهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ، فَإِذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ ٱللَّهِ فَنَحْنُ أَحَقُّ ٱلنَّاسِ بِهِ وَإِنْ حُكِمَ بِسُنَّةِ رَسُولِ ٱللَّهِ ص فَنَحْنُ أَحَقُّ ٱلنَّاسِ وَأَوْلاَهُمْ بِهَا)**[1].

النقطة الثانية: إن الذين لا يؤمنون بالقرآن برمته هم خارج الجماعة الإسلامية الذين أمر الله نبيّه محمّداً (ص) بمجاهدتهم ومقاتلتهم في غير واحدة من الآيات الشريفات كقوله تعالى في الآية ٧٣ من سورة التوبة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾. أو في الآية ١٢٣ من نفس السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

فالحرج الذي يُساوِر نفس النبي (ص) لا يكون مصدرُه الكفّار، وإنما من أُناس لا يمنع أن يكونوا من داخل الجماعة الإسلامية ذاتها. قال تعالى في الآية ١٢ من سورة هود: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ

---

(١) (الخطبة ١٢٥) شرح نهج البلاغة تأليف عزّ الدين عبد الحميد المدائني الشهير بابن أبي الحديد المعتزلي ـ تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ـ الجزء الثامن الصفحة ١١٢.

وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾؛ تلك المجموعة التي تُعارض بعض ما يُوحى إلى هذا الرسول (ص) من القرآن لا يتوافق مع أهوائهم.

تَأمَّل جيداً في قوله تعالى في سورة محمّد ص الآيات من ٢٠ إلى ٣٠: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾.

النقطة الثالثة: إن ما يدلل على أن الذي انزل هو غير القرآن ما جاء في قوله تعالى في الآية ٢ من سورة محمد: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ فنلاحظ أن الإيمان بالّذي نُزِّلَ على محمد (ص) وهو الحق من ربهم، شرطٌ للتكفير عن سيّئاتهم وإصلاح بالهم بعد الإيمان وعمل الصالحات، وهذا - كما ذكرنا - غير ناظر إلى مجموع ما في القرآن؛ بل إلى شيءٍ آخر هو فردٌ من أفراده، ورد ذكره، والحث على الإيمان به، وإتباعه وموالاته في هذا القرآن.

وبدلالة ما تقدم، وما سيأتي من مباحث في هذه السورة المباركة، فإنّهُ لا توجد ممانعة من افتراض موائمة بين المقام وبين قوله تعالى في الآية ٦٧ من سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فإن الكفر فيها تعلّق بهذا الذي أنزل وهو غير الرسالة الإسلامية التي نزل بها هذا القرآن.

أما (الحق) فهو صفةٌ له وقد جُعل في الجملة نائباً للفاعل.

معنى قوله: وَلَـٰكِنَّ أكثر النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ

(الواو) جَعلت هذه الجملة جملةً حالية، أي أنّ حال أكثرهم لا يؤمنون بهذا الذي أُنزل، وأنّ سبب عزوف أكثر الناس عن (الكتاب) هو أنه دعاهم إلى الإيمان بهذا الذي أنزل.

أما الاستدراك الظاهر فيها فعِلّتُهُ عدم إيمانهم به على الرغم من أنّه (الحق) وعلى أيّ حال فهذه الجملة خبرية، أي فيها إخبارٌ بحالهم، وسيأتي مزيد تفصيلٍ في مباحث قادمة إن شاءَ اللهُ تعالى.

أما لفظ (الناس) فمن المحتمل جيء به بمعنى الجنس بقرينة (أكثر) أي أن الذي يؤمن منهم بهذا قليل قال تعالى في الآية ٤٠ من سورة هود: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾. ❖

الأبعاد التربوية للإمامة
ـ الإمام علي (ع) أنموذجاً ـ

د. علاء إبراهيم رزوقي الموسوي

الإمامة ودورها في حياة الإنسان:

أن معرفة قضية الإمامة وتحديد حجمها وموقعها في الشريعة الإسلامية والإيمان بها هو الذي يحدد مسار الإنسان واتجاهه في هذه الحياة. وعلى أساس هذا التحديد، والمعرفة والاعتراف يتحدد مصيره، ويرسم مستقبله، وبذلك تقوم حياته، فيكون سعيداً أو شقياً، في خط الإسلام وهداه، أو في متاهات الجاهلية وظلماتها، كما أشير إليه في الحديث الشريف: **(من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية)**[1].

فعلى أساس الاعتقاد بالإمامة وطريقة التعامل معها يجسد الإنسان على صعيد الواقع، والعمل، مفهوم الأسوة والقدوة، الذي هو حالة طبيعية، يقوم عليها من حيث يشعر أو لا يشعر بناء وجوده وتكوين شخصيته، منذ طفولته ومن ثم يختار أهدافه، ويختار السبل التي يرى أنها توصله إليها.

كما أن لذلك تأثيره الكبير في تكوينه النفسي، والروحي، والتربوي، وفي حصوله على خصائصه الإنسانية، وفي حفاظه على ما لديه منها.

والإمامة هي التي تبين له الحق من الباطل، والحسن من القبيح، والضار من النافع وعلى أساس الالتزام بخطها يرتبط بهذا الإنسان أو بذاك، ويتعاون معه، ويتكامل، أو لا يفعل ذلك.

كما أنها هي التي تقدم للإنسان المعايير والنظم، والمنطلقات التي لا بد أن يلتزم بها، وينطلق منها، ويتعامل ويتخذ المواقف ـ إحجاماً أو إقداماً ـ على أساسها.

أضف إلى ذلك: أنها تتدخل في حياته الخاصة، وفي ثقافته، وفي أسلوبه وفي كيفية تفكيره.

ومن الإمام يأخذ معالم الدين، وتفسير القرآن، وخصائص العقائد، ودقائق المعارف. وهذا بالذات هو السر في اختلاف الناس في ذلك كله، واختلفوا في تحديد من يأخذون عنه دينهم، وفي من يتخذونه أسوته وقدوته دون ذاك.

إذن.. فموضوع الإمامة، ونصب الإمام للناس، وتعريفهم به، لا يمكن أن يكون على حد تنصيب خليفة، أو حاكم، أو ما إلى ذلك، بل الأمر أكبر وأخطر من ذلك.. كما أنه ليس

---

(١) المجلسي، محمد تقي، **روضة المتّقين في شرح من لا يحضره الفقيه**، علّق عليه: حسين الموسوي الكرماني وعلي بناه الاشتهاردي، الجزء الخامس، ص٤٩٠.

حدثاً عابراً فرضته بعض الظروف، لا يلبث أن ينتهي ويتلاشى تبعاً لتلاشي وانتهاء الظروف التي فرضته أو أوجدته، وليصبح في جملة ما يحتضنه التاريخ من أحداث كبيرة، وصغيرة، لا يختلف عنها في شيء، ولا أثر له في الحياة الحاضرة إلا بمقدار ما يبعثه من زهو، واعتزاز، أو يتركه من مرارة وألم على مستوى المشاعر والانفعالات لا أكثر.

بل أمر الإمامة، يمس في الصميم حقيقة هذا الإنسان، ومصيره ومستقبله، ودنياه وآخرته، ويؤثر في مختلف جهات وجوده وحياته.

ومعنى ذلك هو: أنه لا بد من حسم الموقف في هذا الأمر، ليكون الإنسان على بصيرة من أمره، فلا يموت ميتة جاهلية. كما تقدم عن الرسول الأعظم (ص) واشتراط الحديث الشريف تحصيل معرفة الإمام في النجاة من الهلكة، وذلك في صيغة عامة تشمل كل إنسان، حتى ولو لم يكن يعتنق الإسلام، حيث قال: (من مات ولم يعرف إمام زمانه..)، ولم يقل: إذا مات المسلم ولم يعرف إمام زمانه.

إن هذا الاشتراط يوضح لنا: أن تجاهل قضية الإمامة ودورها في حياة الإنسان، وعدم حسم الأمر في موضوع الأسوة والقدوة يساوي رفضها، وإبعادها عن محيط الحياة والإنسان في كونه يوجب الميتة الجاهلية، ويترك آثاره السلبية المهلكة والمبيدة، على مجمل حياة هذا الكائن وعلى مستقبله ومصيره، في الدنيا والآخرة.

ومما يدل على ذلك، ويثبته ويؤكده: أنه تعالى قد اعتبر عدم إبلاغ أمر الإمامة إلى الناس، يساوي عدم إبلاغ الرسالة نفسها من الأساس، وذلك يعني: أنه لا يمكن التسامح فيها ولا المحاباة، كما أنه لا مجال لإبعادها وتعطيلها، لأن ذلك يعني إبعاد الدين وتعطيله، ومنعه من أن يكون هو سيد الموقف، وصاحب القرار في حياة الإنسان، وفي مجمل مواقفه وفي مستقبله.

إن ما يهمنا في هذا البحث هو إبراز أمر مهم جداً هو تحليل البعد التربوي للإمامة أو قل الأهداف التربوية المتوخاة من جعل الله تعالى الإمامة كقيادة للأمة بعيداً عن الجانب العقائدي وتفاصيله. لإيصال الإنسان عن طريقها إلى الكمال المنشود.

وأرى: إن الإمامة هي احد المناهج التربوية الإلهية كما هي النبوة التي وضعها الله تعالى لتربية الإنسان وكماله، أما بالنسبة لموضوع الخلافة فمن يعتقد بموضوع الإمامة بديهياً يعتقد بأن أول خليفة بعد النبي (ص) هو الإمام علي (ع) ولمسألة الإمامة بعد بُعد ديني تربوي باق أثره إلى يومنا هذا، وسيبقى بعد ذلك والى قيام الساعة، وبما أن الأدلة دلت على تنصيب الإمام علي (ع) ولي وإمام بالمعنى الذي تتبناه الإمامية يكون الإمام علي إضافة إلى كونه زعيما في ذلك العصر. كونه مرجعا في رفع المشاكل التي خلفتها رحلة النبي (ص) ويضطلع هذا الدور أيضاً بالأئمة (عليهم السلام) من بعده ليكونوا هداة ومربين لأنهم عدل الكتاب وهو دستور الحياة والقادرين على الوقوف على معارفه وأسراره وفهم حقائقه وتبيين مضامينه، وليس ذلك

إلا من جعلهم النبي بوحي من الله قرناء الكتاب إلى يوم القيامة كما قال (ص): "**إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي وأنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض**"[١].

مفهوم الإمامة:

الإمامة لغةً:

ففي المفردات: "الإمام: المؤتم به، إنساناً، كأَنْ يُقتدى بقوله أو فعله. أو كتاباً أو غير ذلك. مُحِقّاً كان أو مُبْطِلاً. وجمعه أئمّة"[٢] وفي الصحاح: "الإمام: الذي يُقتدى به، وجمعه أئِمّة"[٣]. وفي لسان العرب "يقال إمام القوم: معناه هو المتقدّم لهم، ويكون الإمام رئيساً كقولك: إمام المسلمين"[٤].

الإمامة اصطلاحاً:

- (وهي رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا خلافة عن النبي)[٥].
- وهي نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا به تسمى خلافة وإمامة والقائم به خليفة وإماماً فأما تسميته إماما فتشبيها بإمام الصلاة في اتباعه والاقتداء به ولهذا يقال الإمامة الكبرى وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي في أمته فيقال خليفة بإطلاق وخليفة رسول الله[٦].
- (الإمامة خلافة عن الرسول في إقامة الدين وحفظ الملة بحيث يجب اتباعه على كافة الأمة).

والتعريف الأول أليق على مذهب الإمامية، والبقية الصق بمذهب أهل السنة في الإمام[٧].

---

(١) الحر العاملي، محمد بن الحسن، **تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة**، (مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت، ١٤١٤ ق = ١٣٧٢) ج٢٧، ص٣٣.

(٢) الأصفهاني، الراغب، **مفردات ألفاظ القرآن**، تحقيق: صفوان عدنان داوودي (ط٢، منشورات طليعة النور، إيران، : ١٤٢٧ هـ) ص٨٧.

(٣) الصحاح، ج٥، ص١٨٦٥.

(٤) ابن منظور، **لسان العرب**، ج١٢، ص٢٥.

(٥) الأردبيلي، أحمد، **مجمع الفائدة والبرهان في شرح إرشاد الأذهان**، صححه ونمقه وعلق عليه: آقا مجتبى العراقي وعلي بناه الاشتهاردي وآقا حسين اليزدي الأصفهاني (مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ـ بقم المشرفة، ١٤٠٤ هـ) ج٣، هامش ص٢١٣.

(٦) ابن خلدون، **مقدمة العلامة ابن خلدون** (ط٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، د. ت) ص١٩١.

(٧) السبحاني، جعفر، **الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل**، بقلم: حسن محمد مكي العاملي (ط١، دار إحياء التراث الإسلامي، لبنان ـ بيروت، د. ت) ج٤، ص٨.

فالإمامة في حقيقتها هي محور الاتصال بين الأرض والسماء، حيث أن الاتصال الغيبي بين الخالق ومخلوقه لم ولن ينقطع منذ بدء الخليقة حتى قيام الساعة، فدائما يوجد من يمثل تلك الصلة الروحية والمعنوية ومن هنا اعتبروا الإمامة امتداداً للنبوة والرسالة، فهي من تلك الجهة تؤدي نفس وظيفة النبوة في عالم الدنيا، كما أن الأدلة قائمة على ضرورة وجود حجة لله (عز وجل) في كل زمان، وأن الاتصال لا ينقطع بوفاة النبي (ص) وهذا هو المقام الإلهي الذي يثبته الإمامية الاثني عشرية، وهو من الأمور التي انفردوا بها عن بقية المذاهب.

ما الغاية من الإمامة؟

تتوضح الغاية من الإمامة من خلال الجواب على السؤالين الآتيين وهما:

الأول: لماذا لم يكن استمرار الرسالات السابقة بالإمامة أيضاً؟

الجواب: أن الاستمرار للنبوة في الرسالات السابقة كان أمراً طبيعياً وذلك لأسباب هي:

١- الوصول بالرسالة والإنسانية معاً إلى مرحلة التكامل الرسالي والإنساني، فكان من الضروري أن يأتي أنبياء تابعون للرسالة الإلهية التي يرسل الله تعالى بها نبياً من الأنبياء أولي العزم، لأن الرسالات الإلهية كانت تتعرض إلى التحريف فيها لدرجة تفقدها دورها الرسالي المطلوب.

٢- إن الرسالات لم تبلغ التكامل الرسالي المفروض الذي بلغته في الرسالة الخاتمة.

٣- إن الإنسانية لم تبلغ مرحلة التكامل الرسالي أي تطبيق المبادئ الأساسية للرسالات الإلهية في مسيرتها.

لذلك كانت الحاجة إلى هذه النبوات التابعة التي قد يندمج فيها دور النبوة والإمامة في بعض الأحيان، وقد ينفصل حسب طبيعة المرحلة والزمان، فنشاهد أنبياء دون إمامة لإبلاغ الرسالة وبيان أو كشف ما تعرضت له من تحريف أو أوصياء دون نبوة، ليكون دورهم هو مواصلة دور النبوة السابقة المحدود.

الثاني: لماذا كان من الضروري أن تستمر الرسالة الإسلامية من خلال الإمامة، مع أن هذه الرسالة هي رسالة خاتمة؟

الجواب: أن الحاجة في الرسالة الخاتمة إلى الاستمرار والبقاء - بسبب أهميتها وجلالتها وسموها وامتيازاتها أكثر من حاجة الرسالات السابقة إلى الاستمرار والبقاء، لأنها الرسالة الأهم والأعظم فمن حيث مضمونها ومحتواها الرسالي أصبحت رسالة خاتمة وكاملة إلا أنها لا تحتاج إلى إكمال على مستوى البلاغ والتبشير والإنذار الذي يتحمله الأنبياء عادة، لمعالجة الانحرافات العقائدية والأخلاقية أي لا تحتاج متابعة على مستوى (الأنبياء) وذلك لأن النبي (ص) أكملها في بلاغها وعرضها على الناس، وقد صرح القرآن الكريم بذلك: ﴿... ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ...﴾(المائدة: ٣).

ولكن تبقى الرسالة الخاتمة بحاجة إلى وجود متابعة لها على مستويات أخرى سنوضحها في ثلاث نقاط رئيسية وهي:

الاختلاف في العبادة ودور الإمامة:

أن الأنبياء عندما أرسلهم الله سبحانه وتعالى إلى عباده كانوا يقومون بمهمات ذات بعدين رئيسيين:

أحدهما: البلاغ والإنذار لهؤلاء الناس فيبينوا الرسالة بتفاصيلها المطلوبة، وهذا ما قام به رسول الله (ص) في الرسالة الخاتمة، وقام به الأنبياء السابقون ـ أيضاً ـ في الرسالات الأخرى.

ثانيهما: مواجهة ظاهرة الاختلاف في المجتمع الإنساني والعمل على حله، لأن الله تعالى يقول: ﴿...فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ...﴾(البقرة: ٢١٣) وتدخل مهمة التربية والتزكية ومهمة التعليم، كنتيجة لهاتين المهمتين الرئيسيتين.

وجد الاختلاف بين الناس منذ أن قتل قابيل أخاه هابيل، واستمر حتى اليوم، وسيبقى إلى آخر يوم فقضية الاختلاف هي قضية مهمة جدا يواجهها الأنبياء في عملهم وحركتهم وهي ظاهرة قائمة وثابتة في التاريخ الإنساني كما أنها ظاهرة ثابتة في التاريخ الإسلامي في زمن النبي وبعده، ولا يمكن لأحد من الناس أن ينكرها أو يخفيها، وهذه القضية ليست مجرد قضية نظرية، وإنما هي قضية ذات واقع قائم في المجتمع الإنساني والإسلامي كله ما زلنا نواجهه في هذا العصر.

وقد قسم السيد الطبطبائي الاختلاف بي الناس إلى قسمين:

أحدهما: الاختلاف من حيث المعاش وهو الذي يرجع إلى الدعاوى وينقسم به الناس إلى مدع ومدعى عليه وظالم ومظلوم ومتعد ومتعدي عليه وآخذ بحقه وضائع حقه، وهذا هو الذي رفعه الله سبحانه بوضع الدين وبعث النبيين وإنزال الكتاب معهم ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ويعلمهم معارف الدين ويواجههم بالإنذار والتبشير.

وثانيهما: الاختلاف في نفس الدين وما تضمنه الكتاب الإلهي من المعارف الحقة من الأصول والفروع، وقد صرح القرآن في مواضع من آياته أن هذا النوع من الاختلاف ينتهي إلى علماء الكتاب بغيا بينهم، وليس مما يقتضيه طباع الإنسان كالقسم الأول، وبذلك ينقسم الطريق إلى طريقي الهداية والضلال[1].

والاختلاف الثاني هو ما نقصده أي في الدين ودائماً ناشىء من وجهة نظر الناس للمثل العليا التي يتخذوها للعبادة وفهمهم للحياة والكون وحركتهم الاجتماعية وهذا اخطر ما يواجه الناس في حركتهم التكاملية، حيث يتخذ هؤلاء الناس لهم الآلهة المصطنعة ـ والمثل

---

(١) الطباطبائي، محمد حسين، **الميزان في تفسير القران**، (دار الأندلس، لبنان، بيروت، ٢٠١٠) ج١٠، ص٣١.

المحدودة، والأسماء المزيفة المستلهمة من القوى الموجودة في هذا الكون أو الشهوات والأهواء والميول، أو الطغاة والمستكبرين والمترفين، أو من تقليد الآباء والأجداد ـ يعبدونها من دون الله حيث يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٧٠) وقال تعالى: ﴿... أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (هود: ٦٢).

ان عمر الرسول مهما طال زمانه، لا يستوعب زمان الاختلاف لأن الله تعالى جعل قضية الاختلاف بين الناس سنة من السنن الطبيعية وعلى مر التاريخ وفي كل الأدوار وهي قضية قائمة لا يختلف فيها زمان عن زمان ولا تنتهي هذه القضية إلا بنهاية حركة البشرية والقرآن الكريم يشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ...﴾ (هود: ١١٨ ـ ١١٩) ولما كانت قضية الاختلاف هي سنة من السنن الطبيعية في المجتمع الإنساني والتي أوجدت الآلهة المزيفة والمصطنعة، فنحتاج إلى من يتصدى لمعركة إزاحة هذه الآلهة أمام الحركة التكاملية للإنسان وهذه المعركة طويلة كانت قيادتها تارة تكون من قبل نبي يقوم بدور الإمام كما في كثير من الأنبياء السابقين التابعين، وأخرى تكون من قبل الإمام الذي لا يتصف بعنوان النبوة لعدم الحاجة إليها، ولما كانت الرسالة الإسلامية هي الرسالة الخاتمة، الكاملة، المحفوظة، ونبوة محمد (ص) لا نبوة بعدها، تطلب قيادتها من قبل النبي (ص) ولما كان عمرها أطول من عمر النبي (ص) الذي واجهها ببسالة، ولأن عمره الشريف محدوداً لا يستوعب الزمان الكافي لعمر المعركة ولحل هذا النوع من الاختلاف وإزاحة جميع العوائق والموانع التي تقوم أمام الرسالة في حركتها الاجتماعية والإنسانية، لذلك تصبح الرسالة بحاجة إلى قيادة معصومة للحركة التربوية والاجتماعية ولحل هذا النوع من الاختلاف، وهذه الحاجة ثابتة في كل الرسالات الإلهية، فكيف إذا كانت الرسالة رسالة خاتمة طويلة، يراد لها أن تعم الأرض كلها، وتزيل جميع الآلهة المصطنعة.

لذا كانت الحاجة قائمة لوجود القائد وهو الإنسان الكامل الذي نعبر عنه بالإمام، ليقود معركة تحرير الإنسان من كل هذه الآلهة والقيود، وتحقيق العبادة المطلقة لله تعالى، دون غيره من الآلهة، وهو المثل الأعلى للحق، لأن هذه المعركة تحتاج إلى شخص يتصف بالاستيعاب الكامل والرؤية الواضحة للرسالة من ناحية، والشعور العالي بالمسؤولية أمام الله تعالى في الإدارة القوية للمعركة التي تعتمد على جهاد النفس وتربيتها من ناحية أخرى اقتضى أن يكون الدور للإمامة التي لا تتصف بالنبوة.

الاختلاف في التأويل ودور الإمامة:

وهو الاختلاف في تفسير هذه الرسالة الإلهية، وفهم مداليلها وتأويلها وتجسيد المصاديق الخارجية فيها، وهذا نوع آخر من الاختلاف، أشار إليه القرآن الكريم في كثير من الآيات الكريمة التي تحدث فيها عن أهل الكتاب وما اختلفوا فيه من تأويله، منها قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (الجاثية: ١٦- ١٧).

وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ (البقرة: ١٧٦).

كما أن بعض الآيات القرآنية أشارت أيضاً إلى كلا النوعين من الاختلاف في العبادة والتأويل، كما في قوله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (البقرة: ٢١٣).

وهذا النوع من الاختلاف هو معركة أخرى تخوضها الرسالات الإلهية عادة وهو غير الاختلاف الناشئ من تحريف أصل الرسالة بمعنى ضياع بعض معالمها المهمة، فهو تحريف في التطبيق والفهم، ويحتاج أيضاً إلى قيادة معصومة في فهمها الكامل للرسالة وفهم مضمونها وآفاقها وفي حرصها على الرسالة وقيمها ومثلها ومبادئها وصبرها واستقامتها في هذا الطريق. وتحملها لمسؤوليتها وأعبائها، وفي معرفتها لتفاصيلها التي لا يمكن عادة للنبي أن يبينها لجميع الناس لمحدودية عمره الشريف أو لسيطرة الشهوات والأهواء والميول على بعض الناس وغيرها من الأسباب.

وقد كان ذلك يتم أيضاً عن طريق الأنبياء التابعين من الرسالات الإلهية الأخرى، أو الأوصياء الذين كانوا يتحملون هذا الدور أيضاً وأما في الرسالة الخاتمة فقد تمحض هذا الأمر في دور الإمامة.

وهذا النوع من الاختلاف هو الذي يفسر لنا ما ورد في أحاديث عديدة عن رسول الله (ص) عندما كان يتحدث مع الإمام علي (ع)، وغيره عن مستقبل الأيام في التاريخ الإسلامي وتطورات الأحداث فيه، حيث كان هناك معركتان إحداهما على التنزيل كان يقودها رسول الله (ص) في مواجهة المشركين وأهل الكتاب، ومعركة أخرى على التأويل الذي كان يخبر الرسول عن دور الإمام علي (ع) في قيادتها، فقد روى عن النبي (ص) قال: **أيّها الناس! لا ألفينّكم بعدي ترجعون كفّاراً؛ يضرب بعضكم رقاب بعض، فتلقوني في كتيبة كمجرّ السيل الجرّار! ألا وإنّ عليّ بن أبي طالب أخي، ووصيّي، يقاتل بعدي على تأويل القرآن كما قاتلتُ على تنزيله)**[1]. وعنه (ص): **(أنا أُقاتل على تنزيل القرآن، وعليّ يقاتل على تأويل القرآن)**[2].

---

(١) المفيد، أبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي، **الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد**، (ط٢، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت. لبنان، ١٤١٤ هجرية ـ ١٩٩٣ ميلادية) ج١، ص١٨٠.

(٢) القندوزي، سليمان بن إبراهيم، **ينابيع المودة لذوي القربى**، تحقيق: علي جمال أشرف الحسيني (ط١، : دار الأسوة للطباعة والنشر، د. ت) ج٢، ص٢٣٥.

إذن، فهذه المعركة هي قضية حقيقية قائمة في التاريخ الرسالي والتاريخ الإسلامي وقد ذكرها القرآن الكريم على مستوى تاريخ الأنبياء أيضاً وأكدتها الأحداث التي جرت بعد رسول الله (ص) كحقيقة من الحقائق التاريخية، أخبر بها رسول الله (ص) في مستقبل الأيام.

الإمامة والولاية:

إن الرسالة الخاتمة امتازت بامتيازات عديدة لم تشبهها الرسالات الإلهية السابقة وكان من جملة الامتيازات أن تختص من بين الرسالات الأخرى بضمانات ووسائل الحفظ من الضياع والتحريف المطلق في مضمونها، وذلك من خلال عدة عناصر أساسية ومهمة، يأتي في مقدمتها القرآن الكريم، والمحافظة عليه من التحريف والزيادة والنقصان سواء بالأسباب الغيبية أو المادية ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩)، أو ببركة قيام النبي (ص) بتدوينه ووجود العدد الكبير من الصحابة الأفذاذ الصالحين وفي مقدمتهم الإمام علي (ع)، الذين تمكنوا من حفظ القرآن في الصدور، ولا شك أن لوجود أهل البيت (عليهم السلام) دور مهم وعنصر أساس أيضاً في ذلك.

ولذا لم تحتاج إلى النبوات التابعة، أما الرسالات السماوية الأخرى فقد تعرضت للتحريف والضياع وقد ذكر هذا التحريف في القرآن حيث يقول الله تعالى ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (البقرة: ٧٩).

وكان أحد الامتيازات المهمة أيضاً هو أنها تمكنت من أن تُقيم الدولة الإسلامية في المجتمع الإنساني في عصر صاحب الرسالة وبعده. فالولاية المجعولة للرسول (ص) هي ولاية كلّ لدين والدنيا، بما في ذلك من الإمارة والحكومة والقيام بالأمور السياسية في النظام الاجتماعي والسياسي وكذا الولاية في التشريع والقيمومة على الدين وغير ذلك من الشؤون في حكم الدولة. فعندما تكون من خصائص هذه الرسالة وجود هذه الدولة، فهذه الدولة تحتاج إلى قيادة تقودها، وهذه القيادة لا بد أن تكون في منذ البداية معصومة ولها ولاية مستمدة من ولاية الرسول (ص)، لتتخذ الدولة صيغتها الإسلامية الكاملة في التطبيق والمتميزة عن الصيغ الأخرى، وهذا إنما يتحقق من خلال الإمامة، لأن مثل هذه الدولة، ومثل هذه التجربة لا يمكن أن تقاد وبصورة كاملة وصحيحة، بحيث تحقق كل الأهداف التي جاءت بها الرسالة، إلا بمثل هذه القيادة التي نعبر عنها بالإمامة.

وهناك مسألة رأينا من الضروري توضيحها حيث لها مدخلية في البحث وهي:

- الإمامة جعل الهي تكويني:

إن وظيفة النص في تعيين الإمام لا تنحصر في الجعل والاعتبار والإنشاء كما يقوم أي حاكم في تعيين حاكم آخر، بل إن النص سوف يكون كاشفاً عن الإرادة التكوينية والجعل الإلهي - فعن معاذ بن كثير، عن أبي عبد الله قال (ع): "**إن الوصية نزلت من السماء**

على محمد (ص) كتاباً ولم ينزل على محمد (ص) كتاب مختوم إلا الوصية، فقال جبرائيل: يا محمد هذه وصيتك في أمتك عند أهل بيتك، فقال رسول الله (ص): أي أهل بيتي يا جبرائيل؟ قال: نجيب الله[1] منهم وذريته، ليرثك علم النبوة كما ورثه إبراهيم (ع) وميراثه لعلي (ع) وذريتك من صلبه، قال: وكان عليها خواتيم، قال: ففتح علي (ع) الخاتم الأول ومضى لما فيها[2] ثم فتح الحسن عليه السلام الخاتم الثاني ومضى لما أمر به فيها..... "[3]. ومن هنا يتضح أن نصب الرسول أو الإمام السابق للإمام اللاحق لا يقوم به من تلقاء نفسه بل هو بإيحاء من الله (عز وجل) فهو جعل اعتباري كاشف عن الجعل التكويني.

وبالتالي أن مثل هذا المقام لا يكون بيد الإنسان بل لله (عز وجل) يجعله حيث يشاء ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (القصص: ٦٨)، أما إذا اقتصرنا في محل النزاع على الزعامة الدنيوية فواضح أن ما يطرحه العامة من جعله بيد الناس وباختيارهم يكون أوهم إلى العقول وأميل إلى النفوس وكأنه أشبه بلغة العصر، لنفرة الإنسان من تسلط فئة معينة على إرادته وتقييدها في إدارة شؤون مجتمعه، فطرح محل النزاع بتلك الصورة يخدم الغير، أما على ما ذكرناه من حقيقة الإمامة يتضح السبب في إيكال ذلك الأمر إلى الله (عز وجل)، وما إن يجعل الحق تعالى إماماً فلا معنى للجوء إلى طرق أخرى لتعيين من له الزعامة الدنيوية بل يكون هو المتعين، وبتعبير آخر أن من تثبت فيه الكمالات الروحانية العالية ومن يتصل بالغيب لا يمكن أن يلجأ الناس إلى غيره لإدارة شؤونهم، وبهذا ترى أن مركز الزعامة الدنيوية متفرع على ذلك المقام وتابع، كما رأينا في حياة الرسول (ص) فإنه بعد ثبوت نبوته وإيمان الناس به لم ينازع أحد في حاكميته، والخلاصة أنه يمكننا القول أن مقام الزعامة الدنيوية هو أدنى مراتب الإمامة ومقاماتها.

المبحث الثاني
خطوات الإعداد التربوي والفكري للإمام علي(ع)

إن خطوات الإعداد الفكري والتربوي التي قام بها رسول الله (ص) كانت تسير في خطين متوازيين ومتكاملين، وهما:

أولاً: إعداد الإمام علي (ع) تربوياً وفكرياً.

ثانياً: إعداد الأمة وتهيئتها لتقبل واستقبال إمامة الإمام علي (ع) وخلافته.

فبينما نجد الرسول (ص) يتعهد علياً برعاية خاصة، تربية وتثقيفاً، فكرياً وعقائدياً، وفق برنامج دقيق ويومي متواصل، نجده (صلوات الله عليه) يتولى تهيئة ذهنية الأمة المسلمة

---

(١) أي من نجبائه بمعنى الكريم الحسيب، كنى به عن أمير المؤمنين(ع)

(٢) (مضى لما فيها) معنى الأداء ونحوه أي مؤدياً أو ممتثلاً لما أمر به فيها.

(٣) الكليني، أبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق، **الأصول من الكافي**، صححه وعلق عليه: علي أكبر الغفاري (ط٣، طهران، ١٣٣٨هـ)ج١، ص٢٧٩

وتربيتها فكرياً وعقائدياً أيضاً لترسيخ ولاية علي (ع) وتأكيد أهليته لقيادة المسيرة الإسلامية والتجربة الإسلامية بعده مباشرة. وقد كان تدخل الوحي المباشر في كثير من الموارد والمناسبات - كما سيأتي - يصب هو الآخر في هذا الاتجاه.

لقد كان القرآن ينزل دائما يحمل الإشادة بفضل علي (ع) تارة، ويدل على خصائصه تارة، وبشخصه دون غيره إلى أن يصل الأمر إلى تعليق إكمال تبليغ الرسالة على الإعلان عن ولايته، والتصريح بها للأمة في يوم اختاره الله تعالى جامع للناس من كل فج عميق وهو يوم حجة الوداع لكي لا تبقى حجة على الله وعلى رسوله لمن يريد أن ينكر التبليغ بالولاية.

أولاً: إعداد الإمام علي (ع) تربوياً وفكرياً

أ- الإعداد التربوي (التنشأ) للإمام علي (ع)

فقد زخرت كتب السيرة والرواية والتواريخ، وما نقله الرواة الثقاة، ببيان تفصيلات وافية في هذا الصدد، من تعهد الرسول (ص) لعلي بكفالته منذ صغره، وتربيته ورعايته في بيته من أوضح ما تزخر به سيرته الشريفة حيث قام الرسول الأعظم (ص) بعملية الإعداد (التربوي) لعلي بن أبي طالب (ع) قبل النبوة.

إن اللحظة التي ولد فيها الإمام علي (ع) لم يكن النبي (ص) قد تجاوز الثلاثين من عمره المبارك هذا مع العلم بأنه (ص) قد بعث بالرسالة في سن الأربعين، وأول من أسلم وهو صبي يوم بعث رسول الله (ص) بالرسالة[1].

أن هذا الفترة في حياة كل إنسان مهمة جداً، فشخصية الطفل في هذه الفترة تشبه صفحة بيضاء نقية تقبل كل لون وهي مستعدة لان تنطبع عليها كل صورة مهما كانت، وهذه الفترة من العمر تعتبر - بالتالي - خير فرصة لان ينمى المربون والمعلمون فيها كلما أودعت يد الخالق في كيان الطفل من سجايا طيبة وصفات كريمة، وفضائل أخلاقية نبيلة، ويوقفوا الطفل عن طريق التربية على القيم الأخلاقية والقواعد الإنسانية وطريقة الحياة السعيدة وتحقيقا لهذا الهدف السامي تولى النبي الكريم (ص) بنفسه تربية علي (ع) بعد ولادته، وذلك عندما آتت فاطمة بنت أسد بوليدها علي (ع) إلى رسول الله فلقيت من رسول الله حباً شديداً لعلى حتى أنه قال لها: اجعلي مهده بقرب فراشي، وكان (ص) يطهر علياً في وقت غسله، ويوجره اللبن عند شربه، ويحرك مهده عند نومه، ويناغيه في يقظته، ويلاحظه ويقول: هذا أخي، ووليي وناصري وصفيي وذخري وكهفي، وصهري، ووصيي وزوج كريمتي وأميني على وصيتي وخليفتي[2].

---

(١) المرعشي، شهاب الدين المرعشي، **ملحقات إحقاق الحق** (ط١، نشر: مكتبة آية الله المرعشي النجفي، إيران، قم، ١٤١٥هـ) المجلد ٣١، ص٥٦٨.

(٢) الأربلي، أبى الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح، **كشف الغمة في معرفة الأئمة** (ط٢، دار الأضواء، بيروت - لبنان، ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م) ج، ص ٦٠.

ففي خصائص العشرة للزمخشري (إن النبي (ص) تولى تسميته بعلي وتغذيته أياما من ريقه المبارك بمصه لسانه فعن فاطمة بنت أسد أم علي (رضي الله تعالى عنها) أنا قالت لما ولدته سماه علياً وبصق في فيه ثم إنه ألقمه لسانه فما زال يمصه حتى نام قالت فلما كان من الغد طلبنا له مرضعة فلم يقبل ثدي أحد فدعونا له محمداً (ص) فألقمه لسانه فنام فكان كذلك ما شاء الله)[1].

وفي خبر آخر عن فاطمة بنت أسد: كنت مريضة فكان محمد (ص) يمص علياً (ع) لسانه في فيه، فيرضع بإذن الله[2].

ولقد كانت الغاية من هذه العناية هو تكوين الشخصية العلوية، بواسطته (ص)، وأن لا يكون لأحد غير النبي (ص) دخل في تكوين الشخصية العلوية الكريمة.

وإذ كان الله تعالى يريد لولي دينه أن ينشأ نشأة صالحة وان يأخذ النبي علياً إلى بيته وان يقع منذ نعومة أظفاره تحت تربية النبي الأكرم (ص)، ألفت نظر نبيه إلى ذلك:

ينقل ابن الصباغ في الفصول المهمة انه: لمّا نشأ عليّ بن أبي طالب (ع) وبلغ سنّ التمييز أصاب أهل مكّة جدب شديد وقحط أجحف بذوي المروّة وأضرّ بذوي العيال إلى الغاية، فقال رسول الله (ص) لعمّه العبّاس ـ وكان من أيسر بني هاشم ـ: يا عمّ إنّ أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ما ترى، فانطلق بنا إلى بيته لنخفّف من عياله فتأخذ أنت رجلاً واحداً وآخذ أنا رجلاً، فنكفلهما عنه. قال العباس: أفعل. فانطلقا حتّى أتيا أبا طالب فقالا: إنّا نريد أن نخفّف عنك من عيالك حتّى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما لي عقيلاً وطالباً فاصنعا ما شئتما، فأخذ رسول الله (ص) علياً وضمّه إليه، وأخذ العبّاس جعفراً فضمّه إليه، فلم يزل عليّ مع رسول الله (ص) حتّى بعث الله عزّ وجلّ محمّداً نبيّاً فاتّبعه عليّ (ع) وآمن به وصدّقه، وكان عمره إذ ذاك في السنة الثالثة عشر من عمره ولم يبلغ الحلم، وقيل غير ذلك، وأكثر الأقوال وأشهرها أنه لم يبلغ الحلم[3].

وقال ابن كثير أسلم علي قديماً، وهو ابن سبع وقيل ابن ثمان.....، ويقال إنه أول من أسلم والصحيح أنه أول من أسلم من الغلمان)[4] ربّاه النبيّ (ص) وأزلفه وهداه إلى مكارم

---

(١) الحلبي، **السيرة الحلبية** (ط١، دار المعرفة، ١٤٠٠ هـ)، ج ١ ص ٤٢١ ـ **والإمام علي بن أبي طالب** (ع) للهمداني ص ٥٣٢.

(٢) شهرآشوب، رشيد الدين أبي عبد الله محمد بن علي، **مناقب آل أبي طالب**، (ط١، المكتبة الحيدرية)، ج٢ ص ١٨ وبحار الأنوار، ج ٣٨ ص٣١٨.

(٣) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**: ج٢/ص٥٨، **تاريخ الطبري**: ج٢، ص ٥٧، **شرح النهج لابن أبي الحديد**: ١٩٨/١٣، ينابيع المودّة: ص٣٠٢.

(٤) ابن كثير، أبي الفداء، إسماعيل، **البداية والنهاية**، حققه ودقق أصوله وعلق حواشيه علي شيري، (ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨م) ج٧، ص٢٥٠.

الأخلاق والفقه، وكان رسول الله (ص) قبل بدء أمره إذا أراد الصلاة خرج إلى شعاب مكة مستخفياً وأخرج علياً معه فيصلّيان ما شاء الله، فإذا قضيا رجعا إلى مكانهما[١].

ويكفي أن نورد ما بينه الإمام علي (ع) نفسه في خطبته الشهيرة بالقاصعة إذ يقول: **(وقد علمتم موضعي من رسول الله (ص) بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وأنا ولد، يضمني إلى صدره، ويكنفني في فراشه، ويمسني جسده، ويشمني عرفه. وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول، ولا خطلة في فعل... ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل اثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علما، ويأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري. ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله (ص) وخديجة وأنا، أرى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوة ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه (ص) فقلت: يا رسول الله ما هذه الرنة؟ فقال: هذه رنة الشيطان قد أيس من عبادته، إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلا أنك لست بنبي وأنك لوزير وأنك لعلى خير)**[٢].

إن هذه الصورة التي ينقلها لنا الإمام علي (ع) نفسه عن كيفية وطريقة التعامل التي كان يتبعها النبي معه تكشف لنا عن حقيقة وأبعاد الهدف الأعظم من ذلك. إن هذه التربية المخصوصة لعلي (ع)، والرعاية الفائقة، والحرص على أن يكون قريباً جداً من أنوار الوحي، وأن يكون متعرضاً لنفحات النبوة وأن يكون ثالث ثلاثة في بيت الرسول (ص) حيث مهبط الوحي، فيتلقى في هذا المكان المشرف الدروس الأولى والتوجيهات النبوية المباشرة فينعكس ذلك على تكوينه الفكري والعقيدي (لم يسجد لصنم)[٣] ولا يخالط عقله لحظة شرك، وينعكس على سلوكه (فلا كذبة في قوله، ولا خطلة في فعل). إن هذا ليكشف عن إعداد تربوي خاص بلا أدنى شك.

ومما يلاحظ في هذا الصدد أن تعهد الرسول (ص) لعلي(ع) بالرعاية والعناية الخاصتين لم يقتصر على فترة الطفولة والصبا، ولم يتوقف عند مرحلة معينة لأننا نجد أن الرسول (ص) كان حريصاً على أن يكون علي (ع) إلى جانبه دائماً لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً، بل نجده لا يفارق علياً (ع) إلا في بعض المواطن التي تحتاج إلى الحفاظ على الرسول (ص) وعلى الدين.

---

(١) ابن الصباغ، عليّ بن محمّد بن أحمد المالكي المكي، **الفصول المهمّة في معرفة الأئمّة**، التحقيق: سامي الغريري (ط١، دار الحديث للطباعة والنشر، إيران، ١٤٢٢) ج١، ص١٨٤.

(٢) القندوزي، **ينابيع المودة لذوي القربى** (ج١، ص٢٩ ونهج البلاغة: ١٨٢/خ ١٩٠) ط عبده وراجع بهج الصباغة ٤: ١٠٦ وفي شرح ابن أبي الحديد ١: ١٥عنه (عليه السلام): "كنت أسمع الصوت وأبصر الضوء سنين سبعاً" ورواه في بهج الصباغة ٤: ١٢٣ عن الصادق (ع).

(٣) طنطاوي، محمد. **تفسير الوسيط للقرآن الكريم**، المجلد الخامس عشر، ص٤٣٠.

ومن تلك المواطن ما ذكره الحسكاني في شواهد التنزيل - في مبيته (ع) في فراش الرسول ليلة الهجرة المباركة، إيهاما لقريش المترصدين، وإنجاء لنفسه (ص) من مؤامرتهم لقتله[١] وقد نزل في ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة: ٢٠٧)[٢].

والموطن الآخر ما ذكره أبن عقدة عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله (ص) لعلي في غزوة تبوك: "**اخلفني في أهلي**". **فقال علي: يا رسول الله إني أكره أن تقول العرب: خذل ابن عمه وتخلف عنه! فقال: "أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟" قال: بلى. قال: "فاخلفني"**[٣].

كما خص الرسول (ص) بأحاديث تدل على مكانة الإمام علي (ع) لديه وحبه له تذكرها معظم كتب الحديث ومن كلا الفريقين ومنها:

- عن الطبراني: عن أبي الطفيل، قال: سمعت أم سلمة تقول: أشهد أني سمعت رسول الله (ص) يقول: (**من أحبّ علياً فقد أحبني، ومن أحبني فقد أحب الله، ومن أبغض علياً فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله**)[٤].
- عن الطبراني: حدثنا عبيد العجلي، حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، حدثنا حسين بن محمد، حدثنا سليمان بن قرم، عن فطر بن خليفة، عن عبد الرحمن بن أبي نعم، عن سفينة مولى النبي (ص): أن النبي (ص) أتي بطير، فقال: (**اللهم ائتني بأحب الخلق إليك يأكل معي من هذا الطير، فجاء علي (ع)، فقال النبي (ص): اللهم وإليّ**)[٥].
- وقال الطبراني: حدثنا عبد الرحمان بن سلم، قال: حدثنا أبو الأزهر النيسابوري، قال: حدثني عبد الرزاق ـ وحدي ـ قال: حدثنا معمر، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: نظر النبي (ص) إلى علي(ع) فقال: (**لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق، من أحبك فقد أحبني، ومن أبغضك فقد أبغضني، وحبيبي حبيب الله، وبغيضي بغيض الله، ويل لمن أبغضك بعدي**)[٦].

---

(١) ابن هشام، **سيرة ابن هشام** (مطبعة الحجازي ـ القاهرة ـ ١٩٣٧) ص ٩٥..

(٢) الحسكاني، عبيد الله بن أحمد المعروف بالحاكم، **شواهد التنزيل لقواعد التفضيل**: تحقيق وتعليق: محمد باقر المحمودي (ط١، مجمع أحياء الثقافة الإسلامية، إيران، طهران، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠ م) المجلد الأول، ص١٢٩.

(٣) الكوفي، ابن عقدة، **فضائل أمير المؤمنين (ع)**، جمعه ورتبه وقدم له: عبد الرزاق محمد حسين فيض الدين، ص٥٧.

(٤) الطبراني، أبي القاسم سليمان بن أحمد، **المعجم الكبير**، حققه وخرج أحاديثه: حمدي عبد المجيد السلف (ط٢، دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥ م) ج٢٣، ص٣٨٠ وتاريخ دمشق: ج٤٢/ص ٢٧٠.

(٥) الطبراني، **المعجم الكبير**: ٨٢/٧ ـ تاريخ دمشق: ٢٥٦/٤٢.

(٦) الطبراني، أبي القاسم سليمان بن أحمد، **المعجم الأوسط**، (دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥ م): ج٥/ص٨٧.

كل ذلك يدل بما لا يدع مجالا للشك على أن التربية التي خص بها نبينا محمد (ص) عليا كانت تهدف إلى بيان مكانته عند الله تعالى ولدى رسول الله وإعداده وتهيئته لمسؤولية قيادة الأمة، وليس لمجرد أن يكون أحد أركانها وكوادرها الأساسية. إذ وجدنا الرسول (ص) يتعهد جمعاً من صحابته بالتربية والتثقيف والرعاية، ولكن ليس بمثل المستوى والطريقة والأسلوب والعناية التي اتبعت مع الإمام علي (ع) مما يكشف أن المسؤولية المنوطة به هي أكبر بكثير من مسؤولية الآخرين.

ب - الإعداد العلمي والفكري:

وهو تخصيص الإمام علي(ع) بالعلوم، وخاصة القرآنية، وتثقيفه تثقيفاً مركزاً بأحكام الشريعة ولقد تولى رسول الله (ص) بنفسه، وبأمر إلهي مهمة الإعداد الفكري والعلمي لعلي (ع)، وتزويده دون سواه بالمعرفة القرآنية الشاملة، وبأصول العلوم وينابيعها وبالحكمة وآدابها، وبتفهيمه أحكام الشريعة حلالها وحرامها. فإن هناك شواهد كثيرة وأدلة وفيرة عليه، ومن يراجع كتب الحديث والسيرة والتواريخ يظفر بالكثير جداً. ونذكر هنا بعض الأمثلة التي منها ما جاء على لسان الإمام (ع) على ذلك:

- ففي حديث طويل تحدث الإمام علي (ع) في هذا الصدد قائلاً: **(فما نزلت على رسول الله (ص) آية من القرآن إلا أقرأنيها وأملاها علي فكتبتها بخطي وعلمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وخاصها وعامها، ودعا الله أن يعطيني فهمها، وحفظها، فما نسيت آية من كتاب الله ولا علما أملاه علي وكتبته، منذ دعا الله لي بما دعا، وما ترك شيئاً علمه الله من حلال ولا حرام، ولا أمر ولا نهي كان أو يكون ولا كتاب منزل على أحد قبله من طاعة أو معصية إلا علمنيه وحفظته، فلم أنس حرفا واحدا، ثم وضع يده على صدري ودعا الله لي أن يملأ قلبي علماً وفهماً وحكماً ونوراً، فقلت: يا نبي الله بأبي أنت وأمي منذ دعوت الله لي بما دعوت لم أنس شيئاً ولم يفتني شيء لم أكتبه أفتتخوف علي النسيان فيما بعد؟ فقال: لا لست أتخوف عليك النسيان والجهل)**[1].

- جاء عنه (ع) قوله: **(علمني رسول الله (ص) ألف باب من العلم، يفتح لي من كل باب ألف باب)**[2].

وبعد أن علمه رسول الله (ص) ألف باب من العلم، لكل باب يفتح ألف باب صعد المنبر وقال (سلوني قبل أن تفقدوني)، وقد نقل عن ابن عبد البرّ- وهو من أعاظم علماء العامّة - أنّه

---

(١) الكليني، **الأصول من الكافي**، ج١، ص٦٤.

(٢) الهندي، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، صححه: صفوة السقا (مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩) ج١٣، ص١١٤.

قال: أجمع الناس على أنّه لم يقل أحد من الصحابة وأهل العلم «سلوني» غيره (ع) وهذا دليل على أنّه معدن العلم)[١].

ونقل الصدوق في كتاب التوحيد: عن الإمام الصادق عن آبائه عن الإمام علي (ع) **(سلوني قبل أن تفقدوني فإن بين الجوانح مني علماً جماً، هاه هاه إلا لا أجد من يحمله، ألا وإني عليكم من الله الحجة البالغة فلا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور)**[٢].

نقل السيوطي أنه قام خطيباً (ع) فقال **(سلوني قبل أن تفقدوني، فإني لا أسأل عن شيء دون العرش إلا أخبرت عنه)**[٣].

وقد أورد السيوطي في أن معمر روى عن وهب عن أبي الطفيل قال: شهدت علياً يخطب وهو يقول: **(سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أحدثكم به، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم في نهار أم في سهل أم في جبل...)**[٤].

كما ينقل اليعقوبي في تاريخه عنه (ع) قال **(سلوني قبل أن تفقدوني، .....، فوالذي فلق البحر وبرأ النسمة لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فتنة تضل مائة أو تهدي مائة إلا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها إلى يوم القيامة)**[٥].

وجاء في شرح أصول الكافي: (قال بعض العامّة: لقد كان فيه (ع) من الفضل والعلم ما لم يكن لجميع الصحابة، وبالجملة. هو بسبب تربية النبيّ (ص) وشرافة نفسه القدسية كان أعلم الأوّلين والآخرين، وكان عالماً بمنازل سكّان السماوات ومراتبهم من الحضرة الربوبية ومقامات الأنبياء وخلفائهم من حظائر القدس وبأحوال الأفلاك ومداراتها وأحوال الأرضين وما فيها وبالأمور الغيبية والوقائع الماضية والمستقبلة وبمنازل القرآن ومقاماتها وهو لسان الحقّ في تيه الطبائع البشرية والداعي إليه في بيداء العوالم السفلية ولذلك قال في بعض كلامه: «سلوني قبل أن تفقدوني»، وقد نقل عن ابن عبد البرّ ـ وهو من أعاظم علماء العامّة ـ أنّه قال: أجمع الناس على أنّه لم يقل أحد من الصحابة وأهل العلم «سلوني» غيره (ع) وهذا دليل على أنّه معدن العلم)[٦].

---

(١) المازندراني، محمد صالح، **شرح أصول الكافي**، تعليق: أبو الحسن الشعراني (ط١، دار إحياء التراث العربي، لبنان، بيروت، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠ م) ج٢، ص٢٩٨.

(٢) الصدوق، أبي جعفر محمد علي بن الحسين بن بابويه القمي، **التوحيد**، صححه وعلق عليه: هاشم الحسيني الطهراني (منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية) ص٩٢.

(٣) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، **كتاب المحاضرات والمحاورات**، تحقيق: الدكتور يحيى الجبوري (ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣ م) ص١٧٩.

(٤) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، **الإتقان في علوم القرآن**، ج ٢، ص٤٩٢.

(٥) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب، **تاريخ اليعقوبي** (دار صادر، بيروت، د. ت) المجلد الثاني، ص١٩٣.

(٦) المازندراني، **شرح أصول الكافي**، ج٢، ص٢٩٨.

ثانياً: إعداد الأمة وتهيئتها لتقبل واستقبال إمامة الإمام علي (ع) وخلافته

لقد بدأت عملية إعداد الأمة وتربيتها لقبول واستقبال إمامة علي (ع)، وقيادته للمسيرة الإسلامية بعد النبي (ص)، منذ وقت مبكر، فعندها أمُر النبي الأكرم بالإنذار والتبليغ كما في قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ (الحجر: ٩٤).

قال الطبري: ثم إن الله (عز وجل) أمر نبيه محمداً (ص) بعد مبعثه بثلاث سنين أن يصدع بما جاءه منه وأن ينادي الناس بأمره ويدعو إليه فقال له ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾، وأنزل عليه: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٤) ثم أخرج الطبري رواية عن عبد الله بن عباس عن علي بن أبي طالب (ع)، قال: (لما نزلت هذه الآية على رسول الله (ص) ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ دعاني رسول الله (ص)، فقال لي: يا علي إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، فضقت بذلك ذرعا، وعرفت أني متى أباديهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره فصمت عليه حتى جاءني جبريل، فقال يا محمد إلا تفعل ما تؤمر به يعذبك ربك، فاصنع لنا صاعاً من طعام واجعل عليه رجل شاة، واملأ لنا عساً من لبن ثم أجمع لي بني عبد المطلب حتى أكلمهم وأبلغهم ما أمرت به، ففعلت ما أمرني به ثم دعوتهم له وهم يومئذ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصونه، فيهم أعمامه أبو طالب والحمزة والعباس وأبو لهب...) وتكررت المحاولة فلما أكلوا وشربوا قال الطبري: (فتكلم رسول الله فقال: **يا بني عبد المطلب إني والله ما اعلم شابا في العرب جاء قومه بأفضل ما جئتكم به إني جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم.** قال: فأحجم القوم عنها جميعاً، فقلت وأني لأحدثهم سنا، وأرمصهم عينا... **أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه،** فاخذ برقبتي ثم قال: **إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا** قال - أي علي (ع) - **فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع...**)[1].

ومن هذه الحادثة يتضح لنا أن أول عملية لإعداد الذهنية من أجل قبول علي (ع)، وصياً وخليفة، قد تمت في الوسط الخاص (عشيرة النبي المقربين) وكان ذلك جنباً إلى جنب مع التبشير برسالته والإعلان عن نبوته وبعثته (ص).

ثم اتخذت عملية إعداد الأمة منحى آخر: فقد بدا القرآن يتنزل تباعاً، وبدا علي (ع) يقاتل دونه مع رسول الله وبدأت الآيات القرآنية تنزل أيضاً في الإشادة بفضل علي (ع) وبفضائله، لأجل نفس الهدف.

ومن ذلك ما أخرج الطبراني عن ابن عباس قال ما أنزل الله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ إلا وعلي أميرها وشريفها ولقد عاتب الله أصحاب محمد في غير مكان وما ذكر علياً إلا

---

(١) الطبري، **تاريخ الطبري**، راجعه وصححه وضبطه نخبه من العلماء الأجلاء (مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان - بيروت، د. ت) ج٢، ص٦٣.

بخير، وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال ما نزل في أحد من كتاب الله تعالى ما نزل في علي وأخرج ابن عن ابن عباس قال نزلت في علي ثلاثمائة آية[١].

ونورد هنا بعض الآيات التي ذكر غير واحد أنها نزلت في علي (ع)، وتدخل في هذا الإطار أي تؤشر حقيقة إعداد الأمة وتربيتها لتقبل ولاية الإمام علي (ع) ومن تلك الآيات:

١- سورة البقرة: قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (الآية: ٤٣).

عن ابن مردويه، عن ابن عباس: نزلت في رسول الله (ص) وعليّ (ع) خاصّة، وهما أوّل من صلّى وركع[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ (النساء: ٥٩).

ابن مردويه، عن النعمان بن بشير، أنّ علياً تلاها ـ يعني ـ: (أُولي الأَمْرِ مِنكُمْ) وقال: أنا منهم. وعن عبد الغفار بن القاسم، قال: سألت جعفر بن محمّد عن أُولي الأمر في الآية فقال: كان والله عليّ منهم[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (التوبة: ١٩ ـ ٢٠).

ابن مردويه، عن ابن عباس (رضي الله عنه) في الآية قال: نزلت في عليّ بن أبي طالب والعباس (رضي الله عنهما)[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ (التوبة: ٣) ابن مردويه، عن أنس (رضي الله عنه) قال: بعث النبيّ (ص) ببراءة مع أبي بكر (رضي الله عنه)، ثمّ دعاه فقال: "لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلاّ رجل من أهلي" فدعا علياً، فأعطاه إيّاه[٥].

٥- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (الرعد: ٧).

ابن مردويه، عن ابن عباس (رضي الله عنه) قال: لمّا نزلت ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ وضع رسول الله (ص) يده على صدره فقال: "أنا المنذر ـ وأومأ بيده إلى منكب عليّ (رضي الله عنه) فقال ـ: أنت الهادي يا عليّ، بك يهتدي المهتدون من بعدي"[٦].

---

(١) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، **تاريخ الخلفاء**، تحقيق: لجنة من الأدباء (دار التعاون، مكة المكرمة، د. ت) ص١٨٩.

(٢) الأصفهاني، أبي بكر أحمد بن موسى بن مردويه، **مناقب علي بن أبي طالب (ع) وما نزل من القرآن في علي**، جمعه ورتبه وحققه: عبد الرزاق محمد حسين حرز الدين (دار الحديث، قم، ١٤٢٢ ق/١٣٨٠ ش) ص٢٢٢.

(٣) الأصفهاني، **المصدر السابق**، ص٢٢٩.

(٤) الأصفهاني، **المصدر السابق**، ص٢٥٥.

(٥) الأصفهاني، **المصدر السابق**، ص٢٥١.

(٦) الأصفهاني، **المصدر السابق**، ص٢٦٥.

٦- قوله تعالى: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ (الصافات: ٢٤). ابن مردويه، عن ابن عباس، أن النبيّ (ص) قال: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ عن ولاية عليّ بن أبي طالب[1].

ونكتفي بهذا القدر من الآيات للدلالة على الإشادة بفضل الإمام علي (ع) وبفضائله في القرآن الكريم.

هناك سؤال يتردد قديماً وحديثاً وهو إذا كانت هناك (٣٠٠) آية تخص الإمام علي(ع) كما قال ابن عباس إذن لماذا لم يذكر اسم الإمام بشكل صريح في القرآن؟

الجواب: قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩) أن الحفظ الإلهي المذكور في الآية الشريفة يكون على نحوين:

الأول: أما أن يكون هذا الحفظ بصورة جبرية وإعجازية وبتدخل إلهي مباشر. فيمنع الناس (جبراً) ويمسك بأيديهم، ويصرف قلوبهم عن تحريفه وهذا غير معقول ولا مقبول لأن معناه قهر إرادة الإنسان وتحجيم لعقله وعلمه، والحيلولة بينه وبين ما يختار، وإسقاط لهذا الاختيار وتلك الإرادة عن قابلية التأثير، وهذا ظلم للإنسان، وهو يتنافى مع عدل الله سبحانه، ويتنافى مع ربوبيته تعالى وهو القائل: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (الكهف: ٤٩).

ويقول: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (فصلت: ٤٦) فالظالم إذن لا يمكن أن يكون هو الله ولأجل ذلك فإن الله سبحانه وتعالى حين حفظ نبيه حين الهجرة من الكفار لم يمارس أي نوع من أنواع القهر لإرادتهم بل وفر الأسباب الطبيعية التي تحمي الرسول (ص) من إرسال العنكبوت فنسجت، وجاءت الحمامة وجمعت العش على باب الغار، أما الكفار فتصرفوا بإرادة كاملة فلم يمسك الله تعالى بأرجلهم عن السير، ولا منع أعينهم من الرؤية.. إلخ.

الثاني: أو أن يكون هذا الحفظ بتوفير مقتضياته ووسائله، من دون إبطال لاختيار الإنسان، ولا حيلولة بينه وبين ما يريد ويختار، فيشرع مثلاً استحباب حفظ القرآن وقراءته في كل حين، واستحباب كتابته، وختمه، وتفسيره، ويدخل آياته وسوره في العبادات المستحبة والواجبة، ويجعله مصدراً من مصادر التشريع، والمعرفة الإيمانية، إلى غير ذلك من تشريعات التي تجعل القرآن باستمرار محوراً للتداول في كل الحالات والأوقات، فتتوفر الدواعي من خلال ذلك على المداومة على قراءة آياته، ومراجعتها، والبحث والتفكر فيها وحولها ومن ثم حفظها، ومن جهة أخرى فإنه تعالى قد أبعد عن القرآن كل ما يدعو إلى المساس به، أو الرغبة في التبديل في آياته وهذا ما عناه تفسير الآية.

وبعد هذا التوضيح نرجع إلى أصل الموضوع فقد روي في الكافي أن أبا بصير قد قال للإمام الصادق (ع): "إن الناس يقولون: فما له (الله تعالى) لم يسم علياً وأهل بيته (عليهم السلام) في كتاب الله (عزّ وجل)؟ فقال: **(قولوا لهم: إن رسول الله (ص)، نزلت عليه الصلاة**

---

(١) الأصفهاني، **المصدر السابق**، ص٢٦٥.

ولم يسم الله لهم ثلاثاً ولا أربعاً، حتى كان رسول الله (ص) هو الذي فسر ذلك، ونزلت عليه الزكاة ولم يسم لهم من كل أربعين درهما درهم..... ونزلت ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ ونزلت في علي والحسن والحسين ـ فقال رسول الله (ص): في علي: من كنت مولاه، فعلي مولاه، وقال (ص) أوصيكم بكتاب الله وأهل بيتي، فإني سألت الله عز وجل أن لا يفرق بينهما حتى يوردهما علي الحوض، فأعطاني ذلك وقال: لا تعلموهم فهم أعلم منكم، وقال: إنهم لن يخرجوكم من باب هدى، ولن يدخلوكم في باب ضلالة، فلو سكت رسول الله (ص) فلم يبين من أهل بيته، لادعاها آل فلان وآل فلان، لكن الله عز وجل أنزله في كتابة تصديقاً لنبيه (ص) ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1].

ونستنتج مما تقدم بان عدم ذكره الإمام (ع) في القرآن لعدة أسباب منها:

١ ـ يدخل في سياق حفظ القرآن من أن تتحرك الدواعي والأهواء لمحاولة تحريفه فعلاً، لأنه إن ذكر اسم علي(ع) صراحة في القرآن سيسعى أعداؤه إلى حذفه، وتحريف القرآن من أجله، فإن منعهم الله جبراً وقسراً، كان ظالماً لهم، وهو ينافي عدله وألوهيته كما قلنا وإن تركهم ومكنهم من تحريفه فهو خلاف ما وعد به من حفظ القرآن كما بين الصادق (ع) (فلو سكت رسول الله (ص) فلم يبين من أهل بيته، لادعاها آل فلان وآل فلان) وذلك سيكون مصيبة عظمى، لأنه سيسقط القرآن عن الاعتبار.

٢ ـ إذا ذكر اسم الإمام بشكل صريح فسيكون أعداؤه أمام ثلاثة خيارات هي:

الأول: أن يؤمنوا بالقرآن وبولاية علي (ع) وذلك مما لا يحصل لأن حقدهم وحسدهم واستكبارهم يمنعهم من ذلك.

الثاني: أن يكفروا ويخرجوا من الإسلام، ويكونوا له أعداءً، وسبباً في إضلال الناس، وفي خلق المتاعب والمصاعب ولا شك في أن نتائج ذلك خطيرة جداً على مستقبل هذا الدين، ولا يريد الله سبحانه أن يعرض دينه لمثل هذا الخطر العظيم.

الثالث: أن يثيروا الشبهات حول القرآن بدعوى تحريفه بالزيادة فيه، أو السعي إلى تشكيك الناس بسلامته، وصحته وهذا بلا شك أشد خطراً، وأعظم ضرراً.

وبذلك يتضح: أنه قد كان لا بد من تكريس هذا الأمر وتثبيته، مع حفظ القرآن وصيانته فكانت هذه السياسة الإلهية المعجزة التي حفظت القرآن، والإمامة، وكانت رحمة للعالمين.

أما في ما يخص بيان مكانة وخصائص وفضائل الإمام علي (ع) للناس من قبل الرسول (ص) فقد ورد ذلك في مواطن كثيرة نحصي منها:

- ورد في صحيح مسلم: عن بكير بن مسمار عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً فقال ما منعك أن تسب أبا التراب فقال إما ما ذكرت

---

(١) الكليني، **الأصول من الكافي**، ج١، ص٢٨٦.

ثلاثاً قالهن له رسول الله (ص) فلن أسبه لان تكون لي واحدة منهن أحب إلى من حمر النعم سمعت رسول الله (ص) يقول له خلفه في بعض مغازيه فقال له على يا رسول الله خلفتني مع النساء والصبيان فقال له رسول الله (ص) أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوة بعدي وسمعته يقول يوم خيبر لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله قال فتطاولنا لها فقال ادعوا لي علياً فأتى به أرمد فبصق في عينه ودفع الراية إليه ففتح الله عليه ولما نزلت هذه الآية فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم دعا رسول الله (ص) علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال اللهم هؤلاء أهلي[١].

من خلال رواية سعد بن أبي وقاص وما ذكر من اية المباهلة والتطهير يتبين لنا من ذلك أن القرآن الكريم بعد أن أشاد بفضل علي وبفضائله، ارتقى به إلى منزلة التزكية المطلقة (التطهير) ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٣) وهي نزلت في علىّ وفاطمة والحسن والحسين[٢] ثم صعد به إلى منزلة غاية من الأهمية إذ جعل نفس علي كنفس النبي محمد (ص) كما هو صريح آية المباهلة، ومن هنا يبدأ الاستحقاق لان يحتل علي مقام الخلافة والولاية وقيادة المسيرة، قال الراغب الأصفهاني: (لا يصلح لخلافة الله ولا يكمل لعبادته وعمرة أرضه إلا من كان طاهر النفس قد أزيل رجسها ونجسها، فللنفس نجاسة كما إن للبدن نجاسة، لكن نجاسة البدن قد تدرك بالبصر ونجاسة النفس لا تدرك إلا بالبصيرة... وإنما لم يصلح لخلافة الله إلا من كان طاهر النفس لأن الخلافة هي الاقتداء به، ومن لم يكن طاهر القول والفعل فكل إناء بالذي فيه يرشح...)[٣].

وتأسيساً على ذلك اخذ الرسول (ص) يبين مكانة الإمام علي (ع) في كثير من المواطن والمواقف ومنها:

- أكد النبي (ص) مراراً وتكراراً قائلاً: (**على مني وأنا من علي**)[٤] وعندما حاول بعض الناس الشكوى من علي بغية التشويش على مقامه هذا ومنزلته، قال رسول الله (ص) والغضب يعرف في وجهه (**ما تريدون من على، ما تريدون من على، ما تريدون من على، إن علياً منى وأنا منه، وهو ولى كل مؤمن من بعدي**)[٥].

---

(١) النيسابوري أبي الحسين مسلم بن الحجاج ابن مسلم القشيري، **صحيح مسلم**، (دار الفكر، بيروت لبنان، د. ت) ج٧، ص١٢٠/وذكره الترمذي في صحيحه، ج٥، ص٣٠٢.

(٢) السيوطي **الإتقان في علوم القرآن**، ج ٣ - ٤، ص٥٢٤.

(٣) الراغب الأصفهاني، أبن المفضل، **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، مراجعة وتعليق: طه عبد الرؤوف سعد (ط١، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة/١٣٩٣هـ)، ص ٢٩.

(٤) الطبري، أبى جعفر محمد بن جرير، **المنتخب من كتاب ذيل المذيل من تاريخ الصحابة والتابعين** (مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م) ص٦٧.

(٥) الترمذي، أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، **سنن الترمذي**، حققه وصححه: عبد الرحمن محمد عثمان (ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) ج٥، ص٢٩٦.

- ومن أجل قطع الطريق أمام المتشككين بهذه المنزلة الرفيعة التي أنزل الله تعالى فيها علياً، ولترسيخ وتأكيد ولايته وخلافته بعد النبي، في كل ما يهم المسلمين من أجل ذلك، جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (المائدة: ٥٥) عن عمّار بن ياسر، قال: وقف بعليّ ـ سائل وهو راكع في صلاة تطوّع ـ فنزع خاتمه فأعطاه السائل، فأتى رسول الله (ص) فأعلمه ذلك، فنزلت على النبيّ (ص) هذه الآية ولإزالة الالتباس، وقطعاً لدابر أي تأويل في المراد بالولي وتشخيصه في مثل هذه الموارد، قرأها رسول الله (ص) على أصحابه، ثمّ قال: "من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللّهمّ والِ من والاه، وعادِ من عاداه"[١].

- ولتأكيد ولاية علي، ودوره الهام بالنسبة إلى الرسالة الإسلامية قال رسول الله (ص): (**علي مني أنا من علي ولا يؤدي عني إلا أنا وعلي...**)[٢] ثم رسخ هذا المفهوم عمليا جهارا نهارا في قصة تبليغ سورة براءة، فعن أبي بكر الصديق أن النبي (ص) بعثه ببراءة إلى أهل مكة لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان ولا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة ومن كان بينه وبين رسول الله (ص) مدة فأجله إلى مدته والله برئ من المشركين ورسوله قال فسار بها ثلاثا ثم قال لعلي إلحقه فرد علي أبا بكر وبلغها قال ففعل قال فلما قدم على النبي (ص) أبو بكر بكى وقال يا رسول الله أحدث في شيء قال (**ما حدث فيك إلا خير إلا أني أمرت بذلك أن لا يبلغ إلا أنا أو رجل مني..**)[٣].

- وما جاء في مسند أحمد بن حنبل: عن ميمون أبى عبد الله عن زيد بن أرقم قال كان لنفر من أصحاب رسول الله (ص) أبواب شارعة في المسجد قال فقالوا يوماً سدوا هذه الأبواب إلا باب على قال فتكلم في ذلك الناس قال فقام رسول الله (ص) فحمد الله تعالى وأنثى عليه ثم قال أما بعد فإني أمرت بسد هذه الأبواب إلا باب على وقال فيه قائلكم واني والله ما سددت شيئاً ولا فتحته ولكني أمرت بشيء فاتبعته...)[٤].

- عن جابر ابن عبد الله قال: (**دعا رسول الله (ص) علياً يوم الطائف فانتجاه، فقال الناس: لقد طال نجواه مع ابن عمه، فقال الرسول: ما انتجيته ولكن الله انتجاه**)[٥].

نقول: ومما يؤسف له حقا نقرأ في ما سبق أن بعض الناس كان لا يرضيهم أن يعطى الإمام علي (ع) مثل هذه الامتيازات والمقامات، وكان بعض الناس يكثر لغطه واعتراضه عندما يخص

---

(١) الأصفهاني، **مناقب علي بن أبي طالب (ع) وما نزل من القرآن في علي**، ص٢٣٤.

(٢) الترمذي، **سنن الترمذي**، ج٥، ص٣٠٠.

(٣) الهيثمي، نورالدين علي بن أبي بكر، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، تحرير: العراقي وابن حجر (دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، د. ت) ج٣، ص٢٣٨.

(٤) **مسند الإمام أحمد بن حنبل** (دار صادر، لبنان، د. ت)، المجلد الرابع، ص٣٦٩.

(٥) الترمذي، **المصدر السابق**، ج٥/٦٣٩.

الرسول الأكرم (ص) عليا (ع) بذلك، فيضطر (ص) أن يذكرهم بأنه رسول رب العالمين الذي يصدع بما يؤمر وانه (ص) كلما يخص عليا دون سواه بأمر، يصرح لهم، ويبين للأمة أن ذلك إنما هو بأمر من الله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم: ٣ - ٤).

ومما يلاحظ أيضاً أن المواقف الحاسمة في تاريخ الإسلام، وفي حياة الرسول الأعظم (ص)، بما فيها ما يتصل بحماية التجربة الإسلامية ومستقبلها، يلاحظ أن الرسول (ص) كان يقدم عليا ويدعوه شخصيا دون غيره لحسم تلك المواقف ودفع الخطر الداهم، حدث ذلك في معركة بدر الكبرى، إذا كان علي صاحب الراية، وكان من قتل من المشركين يصيح قتلني علي بن أبي طالب[١]، وحدت ذلك يوم أحد إذ قتل علي طلحة بن عثمان صاحب لواء المشركين، روى الطبري قال: لما قتل علي بن أبي طالب أصحاب الألوية، أبصر رسول الله جماعة من المشركين فقال لعلي: احمل عليهم، ففرق جمعهم، وقتل عمرو الجمحي، ثم أبصر رسول الله (ص) جماعة من المشركين، فقال جبريل يا رسول الله إن هذه للمواساة، فقال رسول الله (ص): (**إنه مني وأنا منه، فقال جبريل وأنا منكما**)، قال الطبري ثم سمعوا صوتا يهتف: (لا سيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا علي)[٢].

وأخيراً ختم القرآن الكريم هذا الموضوع الحيوي والمهم أي عملية إعداد الأمة وتهيئتها لتقبل ولاية الإمام علي (ع) وخلافته في آخر ما نزل منه في آية التبليغ ثم في أية إكمال الدين بعد حديث الغدير المشهور وهو يوم الثامن عشر من ذي الحجة[٣] وعنده لم يعد هناك عذر لمعتذر. وقصة الغدير - كما تناقلها الرواة مع بعض الاختلاف - هي كما يأتي: لما رجع رسول الله (ص) من حجة الوداع، نزل عليه الوحي مشدداً ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (المائدة: ٦٧) ففي السنن الكبرى: عن زيد بن أرقم قال لما رجع رسول الله (ص) عن حجة الوداع ونزل غدير خم أمر بدوحات فقم من ثم قال كأني قد دعيت فأجبت إني قد تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله وعترتي أهل بيتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما فإنهما لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض ثم قال إن الله مولاي وأنا ولي كل مؤمن ثم أخذ بيد علي فقال من كنت وليه فهذا وليه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه فقلت لزيد سمعته من رسول الله (ص) قال ما كان في الدوحات رجل إلا رآه بعينه وسمع بأذنه[٤] وقد أعقب هذا الحدث الكبير نزول الوحي مرة أخرى بقوله تعالى ﴿ ... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ... ﴾ (المائدة: ٣).

---

(١) النقدي، جعفر، **الأنوار العلوية والأسرار المرتضوية** (ط٢، المطبعة الحيدرية في النجف، ١٩٦٢ م- ١٣٨١ هـ) ص١٧٨.

(٢) الطبري، **تاريخ الطبري**، ج٢، ص١٩٧.

(٣) المازندراني، **شرح اصول الكافي**، ج٥، ص١٩٥.

(٤) النسائي، الامام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب، **السنن الكبرى**، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن، (ط١، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤١١هـ - ١٩٩١م) ج٥، ص٤٥ وجاء في (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد) ج٩، ص١٦٣.

وقد ورد في الروايات أن الرسول (ص) قال بعد نزول: (**الحمد لله على إكمال الدين وإتمام النعمة ورضى الله تعالى برسالتي وبولاية علي بعدي**)[١].

وفي رواية لأحمد (فلقيه عمر ابن الخطاب بعد ذلك فقال له هنيئاً يا ابن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة...)[٢].

وأخيراً يقتضي موضوع الإعداد أن نعالج تساؤلاً هو طالما أثير مراراً وهو إذا كانت كل تلك الإجراءات والخطوات العملية قد اتخذت من أجل إعداد الإمام علي(ع) للخلافة وقيادة المسيرة بعد الرسول الأعظم (ص) فلماذا لم يكن هناك عهد مكتوب جازم ليس فيه عذر لمعتذر ولا تأويل لمتأول؟.

الجواب: إن النصوص التي أوردناها، والروايات المتضافرة التي تصرح ببيان الرسول الأعظم (ص) ولاية علي ووزارته، وخلافته، وإمرته من بعده، في مواقف لا تحصى كثرة، ومناسبات لا تعد مما لم يحظ به امر ديني أو دنيوي، ومما لم ينل من اهتمامه (ص) ما ناله مثل هذا الأمر، حتى انتهى إلى الإعلان الرسمي يوم الغدير المشهود، وإلى التصريح به مراراً إن هذا لفيه الكفاية لمن ألقى السمع وهو شهيد. ومع ذلك كله فقد أراد الرسول القائد (ص) أن يختصر على الأمة المعاناة، وأن يكرمها بألطاف العناية الربانية فيجنبها العثرات وأسباب الضلال فقال (ص) وهو على فراش مرضه وفي آخر ساعات حياته الشريفة: (**هلموا أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعدي أبدا**...)[٣] وقد كان عنده جمع من كبار الصحابة، إلا أن الرزية كل الرزية قد حدثت ـ كما عبر ابن عباس ـ عندما حيل بين النبي الأكرم وبين كتابة الكتاب على ما أخرجه البخاري قال: (عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: لما حضر رسول الله (ص) وفي البيت رجال فقال النبي (ص) هلموا اكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده فقال بعضهم أن رسول الله (ص) قد غلبه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله فاختلف أهل البيت واختصموا فمنهم من يقول قربوا يكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده ومنهم من يقول غير ذلك فلما أكثروا اللغو والاختلاف قال رسول الله (ص) قوموا. قال عبيد الله فكان يقول ابن عباس إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله (ص) وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب لاختلافهم ولغطهم)[٤].

---

(١) الكوفي، محمد بن سليمان، **مناقب الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)**، تحقيق: محمد باقر المحمودي (ط١، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، إيران – قم، ١٤١٢هـ) المجلد الأول، ص٤٠٩.

(٢) المجلسي محمد باقر، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار** (ط٢، بيروت، لبنان، مؤسسة الوفاء، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م)، ج٣٧، ص١٥٩ ـ ومسند احمد ابن حنبل، المجلد الرابع، ص٢٨١.

(٣) البخاري، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة بن بردزبة، **صحيح البخاري** (دار الطباعة العامرة، استانبول، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١ م) الجزء الخامس، ص١٣٧.

(٤) البخاري، **صحيح البخاري**، الجزء الخامس، ص١٣٨.

ولعل من المناسب أن نذكر هنا محاورة رواها ابن عباس جرت بينه وبين عمر بن الخطاب في أوائل عهده بالخلافة، وملخصها أن عمر قال له: (يا عبد الله عليك دماء البدن إن كتمتنيها هل بقي في نفسه شيء من أمر الخلافة؟ قلت: نعم، قال، أيزعم أن رسول الله نص عليه؟ قلت: نعم، وأزيدك، سألت أبي عما يدعيه فقال: صدق، فقال عمر: لقد كان من رسول الله (ص) في أمره ذرو من قول لا يثبت حجة ولا يقطع عذراً! ولقد كان يزيغ في أمره وقتا ما، ولقد أراد في مرضه أن يصرح باسمه فمنعت من ذلك إشفاقا وحيطة على الإسلام! لا ورب هذه البنية لا تجتمع عليه قريش أبدا، ولو وليها لانتقضت عليه العرب من أقطارها، فعلم رسول الله (ص) أني علمت ما في نفسه فأمسك، وأبى الله إلا إمضاء ما حتم)[1] وسواء صحت أم لا، فإن هناك ما يؤيد هذا المسعى من الخليفة عمر في أكثر من مناسبة لاحقاً، وقد صرح مرة وهو يخاطب ابن عباس كما نقل ابن ابي الحديد: (إن قومكم يكرهون أن تجتمع فيكم النبوة والخلافة...)[2].

والظاهر إن ترك رسول الله (ص) للكتابة والعهد المذكور قد يكون لاعتبارين والله العالم:

الأول: هو وقوع الاختلاف والتنازع واللغط في الدار عند إرادة كتابة الكتاب - العهد - إلى الحد الذي وصل إلى اتهامه (ص) عليه بأنه يهجر[3] أو غلبه الوجع كما في رواية البخاري - وهذا اتهام خطير يمس أصل النبوة وصدق الرسالة. ثم إن الأمر قد بينه رسول الله (ص) مراراً وتكراراً كما وضحنا. فليبق إذن الاختيار، ولتبق القضية للامتحان والابتلاء.

الثاني: إن النبي الأكرم (ص) قد اتخذ احتياطا لمثل هذه الحالة الطارئة، إذ قد جهز جيش أسامة بن زيد، وأمر بإنفاذه على كل حال، وقد بلغ من حرصه (ص) على إنفاذه مبلغا عظيما، إذ تذكر الروايات أن الرسول الأعظم مع بدء مرضه واشتداده لم يكن يشغله شيء عن محاولة إنفاذ جيش أسامة، وننقل من رواية ابن سعد في الطبقات ما يثبت ذلك، فقد قال - بعد أن ذكر تجهيز جيش أسامة - لما كان يوم الأربعاء بدا برسول الله المرض فحم... فلما أصبح يوم الخميس عقد لأسامة لواء بيده ثم قال: اغز باسم الله وفي سبيل الله، فقاتل من كفر بالله فخرج بلوائه معقوداً..... فتكلم قوم وقالوا: أيستعمل علينا هذا الغلام على المهاجرين الأولين؟ فغضب الرسول (ص) غضباً شديداً، فخرج وقد عصب على رأسه عصابة، فصعد المنبر، وقال: **(أما بعد أيها الناس فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة ولئن طعنتم في إمارة أسامة لقد طعنتم في إمارة أبيه من قبله، وأيم الله إن كان للإمارة لخليقا،**

---

(١) الحلي، الحسن بن يوسف بن المطهر، **كشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين**، تحقيق: حسين الدركهي - أبا محمد حسن حسين آبادي (ط١، طهران - إيران، ١٤١١هـ - ١٩٩١ م) ص٤٧١.

(٢) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ج ٢.

(٣) النساني، **كتاب السنن الكبرى**، الجزء الثالث، ص٤٣٤.

وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة إن كان لمن أحب الناس إلى..... ثم نزل (ص)، فدخل بيته... وثقل على الرسول المرض، وجعل يقول: أنفذوا بعث أسامة...)[١].

ويظهر من كل تلك المواقف والكلمات وتطورات الأحداث أن الرسول الأعظم إنما أراد:

١ - تهيئة الأجواء النفسية من جهة تأمير أسامة على وجوه المهاجرين والأنصار، فيكون قبوله سابقة لقبول تولي علي الإمرة والخلافة، فلا يعترض معترض بكونه أصغر سناً من بعضهم.

٢ - أراد أيضاً تهيئة الأجواء السياسية والأمنية وذلك بإبعاد عناصر المعارضة المحتملة وهذا ما ذكره السيد عبد الحسين شرف الدين في كتاب المراجعات حيث يقول (وكان ـ بأبي وأمي ـ أراد أن تخلو منهم العاصمة، فيصفوا لأمر من بعده لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب على سكون وطمأنينة، فإذا رجعوا وقد أبرم عهد الخلافة، وأحكم لعلي عقدها، كانوا عن المنازعة والخلاف أبعد)[٢].

ومع كل ذلك فقد جرت الأمور والأحداث على غير ما أراده رسول الله (ص)، فقد أراد أن يختزل على الأمة المعاناة، وأراد أن يجنبها ويلات تجربة الخطأ والصواب، أراد أن تتمسك الأمة بالكتاب الكريم، وبالعترة الطاهرة لتسلم من التيه والضلال.

وهكذا ترك أمر كتابة العهد لتظل الأمة عرضة للامتحان في مثل هذه القضية الخطيرة، أراد الله تعالى ذلك أن يكون إيمان من يؤمن منهم بمن ولاه عليهم وجعله خليفة من بعده إيماناً راسخاً، واعتقادهم بأحقيته اعتقاداً عن تدبر، وتشيعهم له تشيعاً مخلصاً، حتى تستمر المسيرة في تنفيذ الإرادة الإلهية تحت قيادته المباركة، ويتحقق إزالة الظلم والفسق والكفر من الوجود.

وقفة للتأمل:

وباعتقادي: حتى أن مسألة اختص الإمام علي (ع)، بكرامة الولادة في الكعبة، دون رسول الله (ص) هي تدخل ضمن مرحلة إعداد الأمة لقبول إمامته ولكن هذا الإعداد من قبل الله تعالى، كيف؟

في البداية نذكر ما ورد في علل الشرائع في ذلك: أقبلت فاطمة بنت أسد أم أمير المؤمنين (ع) وكانت حاملة به تسعة أشهر وقد أخذها الطلق فقالت رب إني مؤمنة بك وبما جاء من عندك من رسل وكتب وإني مصدقة بكلام جدي إبراهيم الخليل (ع) وأنه بني البيت العتيق فبحق الذي بني هذا البيت وبحق المولود الذي في بطني لما يسرت علي ولادتي قال

---

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، المجلد الثاني، ص١٩٠.

(٢) الموسوي، عبد الحسين شرف الدين، **المراجعات**، تحقيق وتعليق: حسين الراضي (ط٢، الجمعية الإسلامية ـ بيروت ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م) ص٣٦٩.

يزيد بن قعنب فرأينا البيت وقد انفتح عن ظهره ودخلت فاطمة وغابت عن أبصارنا والتزق الحائط فرمنا أن ينفتح لنا قفل الباب فلم ينفتح فعلمنا أن ذلك أمر من الله تعالى ثم خرجت بعد الرابع وبيدها أمير المؤمنين (ع)[1].

ونجيب: أن قضية ولادة الإمام علي (ع) في جوف الكعبة، فيها حكمة لله تعالى وسياسة ربانية حكيمة ورائعة، وذلك في عدة نواحي منها:

١- إن ولادته (ع)، في البيت الحرام ولم يولد قبله أحد سواه، وهي فضيلة خصّه الله تعالى بها إجلالا له وإعلاءً لمرتبته وإظهاراً لتكرمته[2]، فهو أمر من صنع الله تعالى له، لأنه يريد أن تكون هذه الولادة رحمة للأمة، وسبباً من أسباب هدايتها وإعدادها للمستقبل وهي ليست أمراً صنعه الإمام علي (ع) لنفسه، ولا هي مما سعى إليه الآخرون، ليمكن اتهامهم بأنهم يدبرون لأمر قد لا يكون لهم الحق به، أو اتهامهم بالسعي لتأييد مفهوم اعتقادي، أو لواقع سياسي، أو الانتصار لجهة أو لفريق بعينه، في صراع ديني، أو اجتماعي، أو غيره.

٢- إن الله تعالى قد شق جدار البيت لوالدته (ع) حين دخلت، وحين خرجت، بعد أن وضعته في جوف الكعبة الشريفة وقد جرى هذا الصنع الإلهي له (ع) حيث كان لا يزال في طور الخلق والنشوء ليدل دلالة واضحة على اصطفائه تعالى له وعنايته به، وذلك من شأنه أن يجعل أمر الاهتداء إلى نور ولايته أيسر، ويكون الإنسان في إمامته أبصر، ويتأكد هذا الأمر بالنسبة لأولئك الذين سوف تترك لمسات سيفه آثارها في أعناقهم من مستكبرين وطغاة في مستقبل الإسلام.

٣- ثم إن معالجة قضايا الحب والبغض، والرضا والغضب، والانفعالات النفسية، من إيقاظ الضمير، وإثارة العاطفة، بالإضافة إلى زيادة البصيرة في الدين، وترسيخ اليقين بحقائقه، هذا بالذات هو من مفردات السياسة الإلهية، في معالجة الأحقاد التي علم الله سبحانه أنها سوف تنشأ فيما بعد ضد الإمام (ع)، وقد نشأت بالفعل، كنتيجة لجهاده في سبيل هذا الدين.

ثم إن هذا الرصيد الوجداني، قد هيأه الله لهم ليختزنوه في قلوبهم وعقولهم من خلال النصوص القرآنية والنبوية التي تؤكد فضل علي (ع) وإمامته يدخل في مرحلة إعداد الأمة لتقبل هذه الإمامة، ثم جاء الواقع العملي ليعطيها المزيد من الرسوخ والتجذر في قلوبهم وعقولهم من خلال مشاهدتهم لولادته، ووقوفهم على ما حباه الله به من ألطاف إلهية، وإحساسهم بعمق وجدانهم بأنه وليد مبارك، وبأنه من صفوة خلق الله، ومن عباده المخلصين وذلك سيجعلهم يدركون أنه (ع)، لا يريد بما بذله من جهد وجهاد في مسيرة

---

(١) الصدوق، أبي جعفر محمد بن علي ابن الحسين بن موسى بن بابويه القمي، **علل الشرايع** (منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها في النجف، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦ م) ج١، ص١٣٥.

(٢) ابن الصباغ، **الفصول المهمّة في معرفة الأئمّة**، التحقيق: سامي الغريري، ج١، ص١٧١.

الإسلام، إلا رضا الله سبحانه، وإلا حفظ مسيرة الحياة الإنسانية على خط الاعتدال لأنها مسيرة سيكون جميع الناس ـ بدون استثناء ـ عناصر فاعلة ومؤثرة فيها ومتأثرة بها وبذلك يصبح الذين يريدون مستقبلاً أن يكونوا في موقع المخاصم له (ع)، أو المؤلب عليه، أمام صراع مع النفس ومع الوجدان، والضمير، وسيرون أنهم حين يحاربونه إنما يحاربون الله ورسوله ويسعون في هدم ما شيده للدين من أركان، وما أقامه من أجل سعادتهم وسلامة حياتهم، من بنيان.

٤- وكذلك كانت ولادة الإمام علي (ع)، في الكعبة المشرفة، لطف إلهي، بالأمة بأسرها، حتى بأولئك الذين وترهم الإسلام، وهو سبيل هداية لهم ولها، وسبب انضباط وجداني، ومعدن خير وصلاح، ينتج الإيمان، والعمل الصالح، ويكف من يستجيب لنداء الوجدان، عن الإمعان في الطغيان، والعدوان، وعن الإنسياق وراء الأهواء، والعواطف، من دون تأمل وتدبر.

وغني عن البيان، أن مقام الإمام علي (ع) وفضله، أعظم وأجل من أن تكون ولادته (ع)، في الكعبة سبباً أو منشأً لإعطاء المقام والشرف له. بل الكعبة هي التي تعتز، وتزيد قداستها، وتتأكد حرمتها بولادته (ع) فيها.

إذن فالقضية هي قضية إعداد للأمة وأيضاً قضية إيمان وكفر، وحق وباطل، لا بد من إدراكهما وتفريغ القلب من أي داع آخر، قد يكون سبباً في التساهل في رصد الحقيقة، أو في التعامل مع وسائل الحصول عليها، والوصول إليها، فالله تعالى لا يريد أن تكون مظاهر الكرامة، سبباً في إعاقة العقل عن دوره الأصيل في إدراك الحق، وفي تحديد حدوده، وتَلَمُّس دقائقه، وحقائقه والتبيُّن لها إلى حد تصير معه أوضح من الشمس.

رب سائل يسأل لماذا هذا الإعداد للإمام (ع) وإعداد الأمة له؟

نجيب: أن موضوع إعداد الإمام علي (ع) وإعداد الأمة لإمامته موضوع طويل وضخم وقد أسهبت الكتب فيه لما له من أهمية فإضافة إلى المصادر التي ذكرناها هناك الكثير من المصادر لمن يريد أن يراجع إلا أننا لم نذكر هنا إلا الشيء اليسير كمطلب للبحث.

إن هذا الإعداد بشقيه كان لغاية وهي المواجهة فبحجم وضخامة الإعداد سوف تكون المواجهة مع الأمة التي بدأت بمجرد أن أغمض الرسول عينيه أعلنت وبينت الانقسامات والانقلابات والدسائس والأحقاد المبيتة فكان كل ذلك يتطلب إعداد ضخم وكبير ومع هذا المجهود الذي بذله الرسول (ص) في التبليغ والبيان والإشادة بمقام الإمام ومكانته إلا أنه هذا جرت المواجهة وكانت ضخمة ولم نزل نعيشها إلى يومنا هذا.

اختصاص الإمام علي (ع) بالمعرفة القرآنية في الإعداد لإمامته:

من خلال ما تقدم يتضح لنا أن هناك ارتباطاً وعلاقة بين الإمام علي(ع) والقرآن الكريم، أكدها الرسول الأعظم (ص) بقوله: (**القرآن مع علي وعلي مع القرآن، ولن**

يفترقا حتى يردا على الحوض)[١] فما قيمة ذلك في عملية الإعداد الفكري والتربوي لخلافة علي؟

نستطيع أن نؤكد أن الرسول (ص) نفسه قد قام بتنمية وترسيخ مثل هذه العلاقة وبأمر من الله تعالى كما كان يحدث دائماً. ويظهر أن هدفاً كبيراً يلزم الوصول إليه عبر تلك الإجراءات والخطوات العلمية والعملية. ونستطيع أن نبين ذلك الهدف في ضوء الملاحظات الآتية:

أولاً: إن منطق الشريعة الخالدة الكاملة يقتضي تأمين الوصول إلى فهم القرآن ومعرفة تفسيره وفقه أحكامه، بصفته المصدر الأساس لهذه الشريعة الخالدة وإن تحكيم القرآن في البلاد والعباد هو ما أمرنا الله تعالى به، إذ جاء فيه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ (النساء: ٥٩) ومقتضاه أن نحتكم إلى القرآن في كل صغيرة وكبيرة. وأن نكفر بحكم الجاهلية الذي هو حكم الأهواء. كما نهانا الله تعالى أيضاً أن نتحاكم إلى الطاغوت، فقال: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴾ (النساء: ٦٠).

إذن فبحسب منطق القرآن، يكون عدم الرجوع إلى أحكام القرآن التي أنزلها الله تعالى، يعني الاحتكام إلى الطاغوت وكذلك اختيار التحاكم إلى غير ما انزل الله وإلى غير رسول الله (ص) تحاكماً إلى الشيطان، الذي يسير بهم إلى الضلال حتما، ثم أكد القرآن الكريم أن الاحتكام إلى غير ما انزل الله هو فسق وظلم وكفر، قال تعالى ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ (المائدة: ٤٤ - ٤٥ - ٤٧) وقد بعث نبينا محمد (ص) لإمحاء صفحة الظلم والفسق والكفر.

وعليه فإذا كان ذلك يتطلب بالضرورة الوصول إلى حكم الله تعالى الذي أنزله في القرآن الكريم، فلا بد من افتراض من هو مؤهل ومعد إعداداً أميناً لتحقيق ذلك الأمر الإلهي، وتلك الإرادة الربانية، وليس ذلك بالضرورة إلا رسول الله ومن مؤهل مثله، ومعد لذلك الغرض كما قال (ص) لأبي بكر في تبليغ سورة براءة (... **أني أمرت بذلك أن لا يبلغ إلا أنا أو رجل مني..**)[٢].

ثانياً: إن العلماء قد وقع بينهم الاختلاف الكثير، وقد حصل ذلك منذ وقت مبكر، بالأخص في القضايا التي تهم الناس، وتتصل بحياتهم، وليس ذلك إلا بسبب عدم فقههم بالقرآن، وقد تحدث الإمام علي (ع) عن هذه المسألة في ذاماً لمثل هذا الاختلاف مع وجود القرآن بين أظهرهم، فقال (ع): (**ترد على أحدهم القضية في حكم من الأحكام فيحكم**

---

(١) المجلسي، **بحار الأنوار**، ج٤٠، ص٧٧.

(٢) الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، ج٣، ص٢٣٨.

فيها برأيه، ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلاف قوله، ثم يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذي استقضاهم فيصوب آرائهم جميعاً، وإلههم واحد، ونبيهم واحد، وكتابهم واحد، أفأمرهم الله سبحانه بالاختلاف فأطاعوه، أم نهاهم عنه فعصوه، أم أنزل الله دينا ناقصا فاستعان بهم على إتمامه أم كانوا شركاء له فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى، أم أنزل الله سبحانه دينا تاما فقصر الرسول (ص) عن تبليغه وأدائه، والله سبحانه يقول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ وذكر أن الكتاب يصدق بعضه بعضاً، وأنه لا اختلاف فيه فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ وأن القرآن ظاهره أنيق، وباطنه عميق لا تفني عجائبه، ولا تنقي غرائبه، ولا تكشف الظلمات إلا به)[1] إذن بموجب هذا وبمقتضاه لا بد من إعداد أحد مؤهل لفقه القرآن.

ثالثاً: إن اختصاص علي بالعلوم القرآنية، وبمعرفة القرآن ظاهره وباطنه محكمة ومتشابهه، خاصة وعامة، وإن قدرته الفذة على فهم آياته وفقه أحكامه، أمر متسالم عليه عند الصحابة ونورد هنا بعض كلامهم في ذلك:

- عن عمر بن الخطّاب: يا بن أبي طالب! فما زلت كاشف كلّ شبهة، وموضّح كلّ حُكم[2].
- أخرج العلامة الحافظ الحسكاني بسنده عن عبدالله بن عمر بن الخطاب قال: علي (ع) أعلم الناس بما أنزل الله على محمد (ص)[3].
- عن ابن عبّاس: أمير المؤمنين، وابن عمّ رسول الله (ص)، الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر، والصادع بإلحقّ، والقيّم بالهدى، والحاكم بحكم الكتاب، الذي لا يرتشي في الحكم، ولا يداهن الفجّار، ولا تأخذه في الله لومة لائم[4].
- عن عبد الله بن مسعود: إنّ القرآن أُنزل على سبعة أحرف، ما منها حرف إلاّ له ظهر وبطن، وإنّ عليّ بن أبي طالب عنده منه علم الظاهر والباطن[5].
- عن عمّار بن ياسر: إنّي والله اخترت لنفسي في أصحاب رسول الله (ص)، فرأيت عليّاً أقرأهم لكتاب الله عزّ وجل، وأعلمهم بتأويله، وأشدّهم تعظيماً لحُرمته، وأعرفهم بالسنّة مع قرابته من رسول الله (ص)...[6].

---

(١) الطبرسي، أبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب، **الاحتجاج**، تعليق: محمد باقر الخرسان (مطابع النعمان، النجف الأشرف، ١٣٨٦ ـ ١٩٦٦م) ص ٣٨٩.

(٢) المجلسي، **بحار الأنوار**، ج٣٠، هامش ص٦٧٩.

(٣) الحسكاني، **شواهد التنزيل لقواعد التفضيل**، المجلد الأول، ص٣٩.

(٤) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٣، ص١٨٧.

(٥) القمي، لأبي الحسن علي بن إبراهيم، **تفسير القمي**، صححه وعلق عليه وقدم له: طيب الموسوي الجزائري (ط٣، مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، قم ـ إيران، عام ١٤٠٤) ج١، ص٢٠.

(٦) الطوسي، أبي جعفر محمد بن الحسن، **الأمالي**، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية ـ مؤسسة البعثة (ط١، دار الثقافة ـ قم، ١٤١٤هـ) ص١٤٣.

وحسبنا هذا كمحل شاهد وآخر ما نورد ويؤيده مطلبنا حول اختصاص علي (ع) بالعلوم القرآنية، ما جاء على لسانه (ع) قوله: (**سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أحدثكم به، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم في نهار أم في سهل أم في جبل...**).. وهكذا يصرح الإمام علي ويؤكد بأن هذا القرآن بما انطوى عليه من هذه المطالب الجليلة والمعاني العميقة، وانتظام أمور الحياة بكل جوانبها، كل ذلك لا يكون بمقدور أحد أن يصل إليه، أو يفقهه إلا هو، وإلا عن طريقه. وهكذا يتضح لدينا أنه ليس هناك أحد مؤهل لفقه القرآن ومعد لتحقيق الأمر الإلهي وتنفيذ الإرادة الربانية بإزالة الظلم والفسق والكفر غير علي بن أبي طالب حصراً. كما هو مقتضي النصوص والوقائع. وهو الافتراض المنطقي والمعقول جداً لتفسير الإجراءات العلمية والعملية التي اتخذها الرسول القائد (ص) بإفراد علي وتخصيصه دون غيره بالعلوم القرآنية والمعارف القرآنية والأحكام القرآنية كما صرحت النصوص المتواترة.

المبحث الثالث

مهام الإمام

إن الإمامة من وجهة نظر الشيعة الإمامية هي استمرار وظائف النبوة (لا نفس النبوة لانقطاعها برحيل النبي (ص)، فيقوم الإمام بنفس ما كان النبي (ص) يقوم به، فالنبوة ونزول الوحي منقطعة لكن الوظائف الملقاة على عاتق النبي (ص) كلها على عاتق الإمام، فهو يقوم بإدارة البلاد وعمرانها وتوزيع الأرزاق وتأمين السبل والطرق والجهاد في سبيل الله لإشاعة الإسلام وكسر الموانع والعوائق. فهو يقوم مع هذه الوظائف بوظائف أخرى، تطلب لنفسها صلاحيات إلهية وتربية سماوية، وتلك الوظائف عبارة عن:

١ - بيان الأحكام الإسلامية من كليات وجزئيات.

٢ - تفسير الكتاب العزيز وشرح مقاصده، وبيان أهدافه، وكشف رموزه وأسراره.

٣ - تربية المسلمين، وتهذيبهم وتزكيتهم وتخليص نفوسهم من شوائب الشرك والكفر والجاهلية

٤ - الرد على الشبهات والتشكيكات التي كان يلقيها أعداء الإسلام ويوجهونها ضد الدعوة الإسلامية.

٥ - الحفاظ على الرسالة الإلهية من أية محاولة تحريفية، ومن أي دس في التعاليم المقدسة[1].

وبعد أن بينا مهام الأمام بصورة عامة نوضح دور الإمام علي (ع) وجهوده في تربية الأمة الإسلامية من خلال تفصيل الوظائف السابقة من لحظة استشهاد الرسول الأكرم (ص) إلى حكومته (ع) وسوف تكون على مرحلتين:

---

(١) السبحاني، جعفر، **مفاهيم القرآن (العدل والإمامة)**، الجزء العاشر، ص٨٣.

المرحلة الأولى: الإمام علي (ع) ومهمة تربية الأمة في عهد الخلفاء

هناك دور مفروض على الإمام (ع) في الشريعة الإسلامية وهو رعاية شؤون الرسالة الإسلامية وديمومتها في الحياة وخوض الصراع مع التيارات المنحرفة والمختلفة بعد وفاة النبي (ص) وقد نصت الشريعة على أن الإمام علي ومن بعده أبناءه (عليهم السلام) هم المعنيون بذلك، عن ابن مسعود عن النبي (ص) قال: (**الخلفاء بعدي اثنا عشر كعدة نقباء بني إسرائيل**)[١].

وممارسة دور الراعي والقائد لشؤون الرسالة تقتضي أن يتولى الإمام المعصوم أعلى السلطات في الدولة ولكن بعد وفاة الرسول (ص) حدث ما حدث وتدخلت عناصر غير مؤهلة واستولت على الحكم ولم يكن ذلك ليمنع الإمام (ع) من ممارسة دوره ولكن طبيعة الصراع تطلب تعدد أوجه هذا الدور وتنوعه فكان عمل الإمام علي (ع) في اتجاهين لمحاولته أصلاح انحراف الأمة والمحافظة على عقيدتها وهما:

الاتجاه الأول:

التنازل عن حقه للحفاظ على الدين ووحدة الأمة والاستمرار في المسير بها نحو الهدف السماوي الذي فرضه الله تعالى عليها ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠) وقد عمل الإمام على هذا المحور مباشرة بعد استشهاد الرسول (ص) وعبر عن مسؤوليته اتجاه هذا الأمر حيث قال: (فوالله ما كان يلقى في روعي ولا يخطر ببالي أن العرب تزعج هذا الأمر من بعده (ص)عن أهل بيته، ولا أنهم منحوه عني من بعده، فما راعني إلا انثيال الناس على فلان يبايعونه، فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد (ص) فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلما أو هدما تكون المصيبة به علي أعظم من فوت ولايتكم التي إنما هي متاع أيام قلائل يزول منها ما كان كما يزول السراب أو كما يتقشع السحاب فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق واطمأن الدين وتنهنه[٢].

كل الأحداث التي جرت بعد استشهاد الرسول (ص) وما سادها من أجواء المشاحنات وما حفها من ابتعاد عن الحق وانجراف في غير الطريق الذي كان على المسلمين سلوكه لم تُنسي علي (ع) بأنه الإمام والوصي على هذه الأمة وعلى تطبيق الرسالة الإسلامية.

وإن كانت بيعة ابي بكر قد استلبت حق الإمام في إدارة شؤون الأمة مباشرة واضطرته إلى أن يعتزل الحكم إلى حين، إلا أن وصيا الرسول (ص) له وعهده إليه بالتكليف الإلهي برعاية الأمة ثم حرصه العميق على الرسالة الإسلامية والمجتمع من التمزق والضياع جعل من

---

(١) الصدوق، أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، **عيون أخبار الرضا**، صححه وقدم له وعلق عليه: حسين الأعلمي (ط١، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤ م) ج١، ص٥٤.

(٢) عبده، محمد، **شرح نهج البلاغة** (دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، د. ت) ج٣، ص١١٨.

أمير المؤمنين القدوة المثلى للمدافعين عن الكيان الإسلامي في كل الميادين وهذا أحد الدروس التربوية للإمام (ع) فوقف ليدلي بآرائه الصائبة موضحاً قواعد الدين الصحيحة في كل موقف يستعصي على الماسكين بالحكم في زمن عصيب وفي أمة لم تترسخ العقيدة الإلهية في نفوس أبنائها فكان الإمام (ع) سيد القضاء ومرجعاً للإفتاء في شؤون الحياة الإسلامية وكان الأولى بالحكم من أبي بكر حتى اعترف أبي بكر بذلك، ونذكر هنا ما أخرجه أبو حامد الغزالي وابن روزبهان الشيرازي - وهو من متكلمي أهل السنة - عن أبي بكر أنه قال وهو على المنبر: "أقيلوني ولست بخيركم وعلي فيكم" ولا ريب أن هذه الإقالة هي الإقالة من الخلافة، وبعبارة أخرى: إن الخليفة نوه بقوله هذا للمسلمين: فإن كنتم قد بايعتموني على أني أفضلكم وخيركم فأقيلوا البيعة، وذلك لأني لست كذلك، ولست بخيركم وأفضلكم وهذا علي (ع) فيكم[1].

كما نقل متكلم أهل السنة العلامة القوشجي في بيان إقرار أبي بكر بعبارة أخرى قال: وليتكم ولست بخيركم وعلي فيكم، فهذه العبارة صريحة في مسالة الخلافة كما ترى[2].

وعلى أي حال، فان كلا العبارتين "أقيلوني" أو "وليتكم" صريحتان في اعتراف أبي بكر بان الإمام علي (ع) أولى بالخلافة والولاية بعد النبي (ص)، وان طلبه الاستقالة يمكن أن يحتج به على أبي بكر ويلزمُه باعترافه هذا.

الاتجاه الثاني:

تحصين الأمة ضد الانهيار وإعطاؤها من المقومات القدر الكافي كي تتمكن من البقاء صامدة في مواجهة محنة استيلاء فئة غير كفوءة على الحكم ومن ثم انحدار الأمة عن جادة الحق والصواب بسببها فاجتهد الإمام (ع) في تعميق الرسالة تربوياً وفكرياً وروحياً وسياسياً في صفوف الأمة وتقديم الوجه الحقيقي للنظرية الإسلامية عبر عدة أساليب منها:

١- التدخل الايجابي في عمل الخلفاء إذ كانوا لا يحسنون مواجهة ومعالجة القضايا الكثيرة البسيطة منها والمعقدة فكان دور الإمام (ع) دور الرقيب الرسالي الذي يتدخل لتقويمهم وتوجيههم نحو المسار الصحيح لإنقاذ الأمة من مزيد من الضياع.

ونجد الإمام (ع) مرة يتدخل للرد على شبهات المنكرين للرسالة بعد أن عجز المتصدي للحكم عن ذلك ومرة يتدخل ليعطي للخليفة نصائح عسكرية أو اقتصادية[3]، وما أكثر

---

(١) المجلسي، **روضة المتّقين في شرح من لا يحضر الفقيه**، نمقه الجزء الخامس، ص٣٥٤ - **وسر العالمين** - لأبي حامد الغزالي: **وإبطال الباطل** لابن روزبهان، **تشييد المطاعن** ١: ١٤٩، **بحار الأنوار**، ج٢٨: ص٢٠١.

(٢) العلامة الحلي، **كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد**(قسم الإلهيات)، ص ٣٧١ المقصد الخامس من مبحث الإمامة.

(٣) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٢: ص ١٣٢.

نصائحه ومعالجاته القضائية فقد روى العديد من الحفاظ والفقهاء والمتكلمين والأدباء في كتبهم وجوامعهم التي يعتمدون عليها ـ إن الخلفاء الثلاثة ـ أبا بكر وعمر وعثمان كانوا يراجعون أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) ليحل لهم المعضلات والشدائد التي كانوا يواجهونها في أبواب الفقه والقضاء والتفسير والأمور السياسية وغيرها من المسائل التي ترتبط بالدين ارتباطاً وثيقاً، وكانوا يأتون إليه بأنفسهم ويراجعونه، أو يرسلون إليه من يسأله، أو يبعثون إليه نفس السائل الذي تورط في مشكلة فكان الإمام علي (ع) يجيب على مسائلهم من دون مقدمة وكانت أجوبته في غاية الدقة بحيث كانوا يتعجبون منها، ويحسون بعدها بالطمأنينة والارتياح، بل كانوا يدركون خطا أنفسهم وأجوبتهم التي كانت مخالفة للواقع، ويقرون بعدها بان أمير المؤمنين علي (ع) هو الحلال للمعضلات، وما عساهم أن يكتموا الحقائق إلا أن يعترفوا بالحق فيقول أبي بكر: لعلي في مسألة اليهودي يا مفرج الكروب[١]، ويقول عمر: لولا علي لهلك عمر[٢]، ويقول عثمان: لولا علي لهلك عثمان[٣] أو عبارات وجمل أخرى يُبدونها مما تدل على إقرارهم وإذعانهم بسمو رتبة الإمام علي (ع) العلمية وكونه سنداً وملجأ لحل المعضلات التي يواجهونها.

٢- توجيه مسار سياسية الخليفة ومنعها من مزيد من الانحراف والتخبط من خلال الوعظ والنصيحة.

وبدأ هذا الأسلوب جلياً في عهد عثمان بن عفان حيث كان الإمام يعضه ويوبخه، يذكره الله وأيام الله والآخرة ورسول الله لكن عثمان لم يكن يتعظ وكان الإمام حريصاً كل الحرص على أن يبدو تدخله في سياسة الخليفة موضوعياً عقائدياً يستهدف النظرية لا الشخص، يستهدف تثبيت دعائم نظرية حقيقة الإسلام لا تدعيم شخصه[٤].

٤- تربية وبناء ثلة صالحة من المسلمين تُعين الإمام (ع) في حركته الإصلاحية والتغييرية وذلك عبر تحركها وسط الأمة لإنضاج أفكارها وتوسيع قاعدة الفئة الواعية الصالحة لتستمر في مسيرها عبر التاريخ لتتواصل الأجيال اللاحقة في العمل وفق النهج الإسلامي[٥] ويبدو أن الإمام علي (ع) بدأ عملياً في هذا المسار منذ حياة الرسول الأكرم (ص)

---

(١) المرعشي، شهاب الدين، **ملحقات إحقاق الحق**، (ط١، نشر: مكتبة آية الله المرعشي النجفي(ره)، إيران، قم، ١٤١٥ هـ) المجلد ٣١، ص٣٨٦.

(٢) ابن طاووس، رضي الدين أبي القاسم علي بن موسى الحلي، **الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف**(مطبعة الخيام ـ قم، ١٣٩٩هـ) ص٣٥٥.

(٣) **مسند أحمد**، ج١: ص١٠٠و ج١: ١٦١ ـ **مجمع الزوائد**، ج٣: ص ٢٢٩، **السنن الكبرى**، ج ٥: ص ١٩٤ ـ **سنن أبي داود**، ج٢: ص١٧٠.

(٤) الصدر، محمد باقر، **أهل البيت تنوع ادوار ووحدة هدف**، تحقيق: عبد الرزاق هادي الصالحي (مؤسسة أهل الذكر، إيران، ١٤٢٩هـ) ج٢، ص٣٥٩.

(٥) الصدر، **المصدر السابق**، ج٢، ص٣٦٣ ـ ٣٦٤.

ومن هؤلاء الثلة عمار بن ياسر وأبو ذر الغفاري وسلمان المحمدي وميثم التمار والمقداد بن الأسود وغيرهم ممن ثبتوا على هذا الخط رغم كل الظروف الصعبة التي مرت بها الرسالة الإسلامية بعد وفاة الرسول (ص).

المرحلة الثانية: الإمام علي (ع) ومهمة تربية الأمة في عهده

- الأسس التربوية لحكومة الإمام (ع)

وصل الإمام علي(ع) إلى الحكم بعد ربع قرن من عزله عن ممارسة دوره كإمام وكخليفة لرسول الله (ص) في قيادة الأمة الإسلامية فكان هذا عاملاً مؤثراً في إضعاف موقف الإمام (ع) من الأحداث وعقبات أمام حكمه وذلك لعدة أسباب منها:

١- طوال الفترة السابقة ألِف الناس أن يروا الإمام (ع) محكوماً لا حاكماً، محكوماً من قبل ناس هم اقل كفاءة وشأناً وعلماً منه.

٢- إن العناصر التي وقفت ضده وضد وصوله إلى الحكم كان أغلبهم ممن له صحبة مع رسول الله (ص) وهذا مما انخدع به أعداد كبيرة من المسلمين.

٣- إن الإمام استلم دولة مترامية الأطراف ففي زمن الخليفة الأول لم تكن تتجاوز الدولة الإسلامية حدود الجزيرة والعراق، أما في عهد الإمام فإنها تمتد إلى شمال إفريقيا وأواسط آسيا إضافة إلى الجزيرة والعراق والشام، وقد دخل في الإسلام أقوام من غير العرب، وهؤلاء المسلمون الجدد فتحوا عهدهم مع الإسلام في ظل حكومة غير معصومة بل منحرفة عن الخط الصحيح للرسالة الإسلامية إلا أن الإمام (ع) رغم كل هذه الأمور قام بمهام رئيسية تصب في إعادة بناء الأمة وإصلاحها بخطوات تربوية صحيحة في اقصر وقت ومن تلك المهام:

أولاً- المحافظة على الشريعة الإسلامية من الانحراف:

كانت أول الخطوات التي قام بها الإمام علي (ع) من أولويات مهامه بعد غياب الرسول الأعظم (ص) هو صيانة الشريعة المقدسة من الزيغ والانحراف لأنها السبيل الوحيد لكمال الأمة وقد بذل جهده في ذلك أثناء حكم الخلفاء، وما إن أمسك زمام الحكم حتى خطا خطوات عظيمة وذلك بجمع القرآن الكريم وتفسيره واهتم اهتماماً كبيراً في إحياء سنة رسول الله (ص)، وتربية الأمة وإصلاح فسادها أينما وجد في ظل تعاليم القرآن والسنة ويمكن أن نتتبع من خلال سيرة حياته (ع) الخطوات التي قام في سبيل تحقيق ذلك بها وهي:

١- اتفقت كل الروايات الصحيحة على أن الإمام (ع) علي ما أن انتهى من تجهيز الرسول (ص) ومواراته الثرى حتى اعتكف في داره منشغلاً بجمع آيات القرآن الكريم وترتيبها حسب نزولها بعد أن كانت مبعثرة في الألواح، فقد روي عن الإمام الصادق (ع) قال: **(إن رسول الله (ص) قال لعلي (ع): يا علي، القرآن خلف فراشي في الصحف والحرير والجريد والقراطيس، فخذوه واجمعوه ولا تضيعوه كما ضيع اليهود التوراة. فانطلق علي (ع) فجمعه**

في ثوب أصفر، ثم ختم عليه في بيته، وقال: لا أرتدي حتى أجمعه، وإنه كان الرجل ليأتيه، فيخرج إليه بغير رداء، حتى جمعه)[١] إذا تعتبر هذه الخطوة على قدر كبير من الأهمية لأن القرآن الكريم والسنة الشريفة دستور الحياة وهما عماد الشريعة وكان لابد أن تدرك الأمة حقائقهما وتفهمهما لأنها سوف تسير على هديهما إلي يوم الدين.

لذلك روي أن علياً (ع) (لزم بيته، وأقبل على القرآن يؤلفه ويجمعه، فلم يخرج من بيته حتى جمعه، وكان في الصحف الشظاظ والأكتاف والرقاع، فلما جمعه كله وكتبه بيده: تنزيله وتأويله، والناسخ منه والمنسوخ، بعث إليه أبو بكر اخرج فبايع، فبعث إليه علي (ع) **إني مشغول وقد آليت على نفسي يميناً أن لا أرتدي برداء إلا للصلاة حتى أولف القرآن وأجمعه**، فسكتوا عنه أياماً فجمعه في ثوب واحد وختمه، ثم خرج إلى الناس وهم مجتمعون مع أبي بكر في مسجد رسول الله (ص)، فنادى علي (ع) بأعلى صوته: **أيها الناس إني لم أزل منذ قبض رسول الله (ص) مشغولاً بغسله، ثم بالقرآن حتى جمعته كله في هذا الثوب الواحد، فلم ينزل الله على رسوله آية منه إلا وقد جمعتها وليست منه آية إلا وقد أقرانيها رسول الله (ص) وعلمني تأويلها ثم قال علي(ع) لئلا تقولوا غدا إنا كنا عن هذا غافلين، ثم قال لهم علي (ع): لا تقولوا يوم القيامة إني لم أدعكم إلى نصرتي، ولم أذكركم حقي، ولم أدعكم إلى كتاب الله من فاتحته إلى خاتمته**"[٢].

٢- إحياء سنة رسول الله (ص) من خلال روايتها وتدوينها ومدارستها وأمر بالبحث في علوم السنة فكان يقول: (**تزاوروا وتدارسوا الحديث ولا تتركوه يدرس**)[٣] كما أنه (ع) أحيا سنة رسول الله (ص) في سيرته العبادية والأخلاقية.

٣- فتح باب الحوار والسؤال عن القرآن والسنة وما يتعلق بالشريعة المقدسة بصورة عامة أمام المسلمين وغيرهم من مخالفيه وأعدائه، ففي مجال التفسير كان (ع) يستخرج محاسن المعاني عن الآيات مما يبهر ويحير العقول. ومن ذلك: ما روى الطبرسي وغيره أن يهودياً سأل علياً (ع) عن مدة لبث أصحاب الكهف، فقال (ع): ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾ (الكهف: ٢٥)، فقال اليهودي: إنا نجد في كتابنا: ثلاثمائة، فقال (ع): "**ذاك بسني الشمس، وهذا بسني القمر**"[٤].

وبذلك يبين الإمام لليهودي قوله تعالى: ﴿وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾، ما هذا إلا للإشارة إلى أن التعبيرين كليهما صحيحان، واحد منهما بالسنوات الشمسية، والآخر بالقمرية.

---

(١) البحراني، هاشم الحسيني، **البرهان في تفسير القرآن**، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية (مؤسسة البعثة - قم، د. ت) ج٥، ص٨٦٦.

(٢) المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار**، ج٢٨، ص٢٦٤.

(٣) الهندي، ، **كنز العمال في سنين الأقوال والأفعال**، ج١٠، ص٣٠٤، ح٢٩٥٢٢.

(٤) المجلسي، **المصدر السابق**، ج٥٥، ص٣٥٢.

وكم للإمام علي (ع) من هذه المواقف في استخراج حكم الوقائع من كتاب الله وسنة نبيه، وكم له من حل للمعضلات من الأمور عن طريق تفسير الكتاب وقد اكتفينا بهذا المثال.

٤- الاهتمام بالقراء مراعياً لشؤونهم ومتبعاً فيهم سنة رسول الله (ص) في التعليم فكان تعليم قراءة القرآن مقروناً بتعلم ومعرفة ما فيه من العلم والعمل والتفقه في أحكام الدين.

ففي الغارات عن سالم بن أبي الجعد قال: فرض عليّ (ع)لمن قرأ القرآن ألفين ألفين. قال: وكان أبي ممّن قرأ القرآن[١].

وفي نهج البلاغة قال (ع) موصياً القراء وغيرهم: (**اعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش، والهادي الذي لا يضل، والمحدث الذي لا يكذب، وما جالس هذا القرآن أحد الا قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادة في هدى، ونقصان من عمى، واعلموا انه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى، فاستشفوه من أدوائكم، واستعينوا به على لأوائكم، فان فيه شفاء من أكبر الداء، وهو الكفر والنفاق والعمى والضلال، فاسألوا الله به، وتوجهوا إليه بحبه، ولا تسألوا به خلقه، إنه ما توجه العباد إلى الله بمثله، واعلموا انه شافع مشفع، وقائل مصدق، وانه من شفع له القرآن يوم القيامة شفع فيه، ومن محل به القرآن يوم القيامة صدق عليه، فإنه ينادي مناد يوم القيامة: الا ان كل حارث مبتلى في حرثه، وعاقبة عمله، غير حرثة القرآن، فكونوا من حرثته واتباعه، واستدلوه على ربكم، واستنصحوه على أنفسكم، واتهموا عليه آراءكم، واستغشوا فيه**)[٢].

٥- الاهتمام بقراءة المسلمين من غير العرب أو من الذين لا يحسنون اللغة العربية بصورة صحيحة، فوضع علم النحو لتقويم اللسان عن اللحن في الكلام.

وذكر بن كثير في البداية والنهاية: إن أبو الأسود الدؤلي أول من تكلم بعلم النحو، وإنما أخذه عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وان أول من ألقى إليه علم النحو علي بن أبي طالب، وذكر له أن الكلام اسم وفعل وحرف، ثم إن أبا الأسود نحى نحوه وفرع على قوله، وسلك طريقه، فسمى هذا العلم النحو لذلك، وكان الباعث لأبي الأسود على ذلك تغير لغة الناس، ودخول اللحن في كلام بعضهم أيام ولاية زياد على العراق[٣].

٦- ركز الإمام (ع) على مصدرية القرآن والسنة في التشريع والأحكام وأدان المصادر الأخرى كالقياس والاستحسان وغيرهما مما لا يكون مصدراً شرعياً للأحكام الإلهية وقد

---

(١) الكوفي، أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الثقفي، **الغارات**، بتحقيق: السيد جلال الدين، المجلد الأول، ص١٣١.

(٢) عبده، **شرح نهج البلاغة**، ج٢، ص٩١.

(٣) ابن كثير، أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، **البداية والنهاية**، حققه ودقق أصوله: علي شيري (دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت) ج٨، ص٣٤٢ - ٣٤٣ - **وشرح إحقاق الحق**، ج٨، ص١٢.

قال (ع) في ذلك: (**لا رأي في الدين**)[١] وعن أبي عبد الله الصادق (ع): (**فإن علياً (ع) أبى أن يدخل في دين الله الرأي وأن يقول في شيء من دين الله بالرأي والمقاييس**)[٢].

وعنه في وصيته لكميل بن زياد قال، (**يا كميل لا غزو إلا مع إمام عادل، ولا نقل إلا من إمام فاضل، يا كميل هي نبوة ورسالة وإمامة وليس بعد ذلك إلا موالين متبعين، أو منادين مبتدعين، إنما يتقبل الله من المتقين، يا كميل لا تأخذ إلا عنا تكن منا الحديث**)[٣].

ثانياً ـ هدم الكيان الطبقي الذي أنشأه الخلفاء وذلك عبر:

١- الإجراءات الإصلاحية ومن ضمنها استرجاع الأموال المنهوبة من بيت المال في عهد عثمان فقد أعلن الإمام (ع) إن الأموال المأخوذة بغير حق لابد أن ترجع إلى بيت المال حيث كانت الأموال الطائلة عند طبقة محيطة بالخليفة أو من عطاياه لذلك أعلن (ع): (**ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان، وكل مال أعطاه من مال الله، فهو مردود في بيت المال، فإن الحق القديم لا يبطله شيء، ولو وجدته وقد تزوج به النساء، وفرق في البلدان، لرددته إلى حاله، فإن في العدل سعة، ومن ضاق عنه الحق فالجور عليه أضيق**)[٤] وبهذه الإجراءات فقد صادر الإمام (ع) جميع ما وهبه عثمان من الأموال العظيمة لطبقة الأرستقراطيين، وألغى كذلك كل أشكال التمييز مهما كانت في توزيع المال على الناس.

٢- المساواة في العطاء بين المسلمين جميعاً متبعاً في ذلك سنة رسول الله (ص) التي أهملها من كان قبله من الخلفاء وقد أوضح في إحدى خطبه سياسة التوزيع النابعة من حكم لله حيث قال (ع): (**ألا وأيّما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله (ص) يرى أنّ الفضل له على من سواه لصحبته فانّ له الفضل النيّر غدا عند الله وثوابه وأجره على الله، وأيما رجل استجاب لله وللرسول فصدّق ملّتنا ودخل في ديننا واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده فأنتم عباد الله والمال مال الله يقسم بينكم بالسوية لا فضل فيه لأحد على أحد وللمتّقين غداً عند الله أحسن الجزاء وأفضل الثواب**)[٥].

ونذكر هنا حادثة تؤكد المطلب (ما روي عن عيسى بن عبد الله الهاشمي، عن إباءة عن علي (ع)، قال: لما رجع الأمر إليه أمر أبا الهيثم بن التيهان، وعمار بن ياسر وعبد الله بن أبي رافع فقال: **اجمعوا الناس، ثم انظروا إلى ما في بيت مالهم فاقسموه بينهم بالسوية**. فحسبوا، فوجدوا نصيب كل واحد [منه] ثلاثة دنانير، فأمرهم يقعدون للناس ويعطوهم.

---

(١) العاملي، محمد بن الحسن الحر، **تفصيل وسائل الشيعة**، (ط٢، مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث ـ قم، ١٤١٤هـ) ج٢٧، ص٥١.

(٢) العاملي، **المصدر السابق**، ج٢٧، ص٥١.

(٣) العاملي، **المصدر السابق**، ج٢٧، ص٣٠.

(٤) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ج١، ص ٢٦٩.

(٥) ابن أبي الحديد، **المصدر السابق**، ج٧، ص ٣٦١.

قال: وأخذ مكتله ومسحاته، ثم انطلق إلى بئر الملك، فعمل فيها، فأخذ الناس ذلك القسم حتى بلغوا الزبير، وطلحة، وعبد الله [بن عمر] أمسكوا بأيديهم وقالوا: هذا منكم أو من صاحبكم؟ قالوا: بل هذا أمره، لا نعمل إلا بأمره.

قالوا: فاستأذنوا لنا عليه. قالوا: ما عليه إذن، هو ذا ببئر الملك يعمل. فركبوا دوابهم حتى جاؤوا إليه، فوجدوه في الشمس. ومعه أجير له يعينه فقالوا له: إن الشمس قد آذتنا، فارتفع معنا إلى الظل. فارتفع معهم إليه. فقالوا له: لنا قرابة من نبي الله، وسابقة وجهاد وأنك أعطيتنا بالسوية ولم يكن عمر ولا عثمان يعطوننا بالسوية، كانوا يفضلونا على غيرنا. فقال علي (ع): **أيهما عندكم أفضل: عمر، أو أبو بكر؟** قالوا: أبو بكر. قال: **فهذا قسم أبي بكر، وإلا فدعوا أبا بكر وغيره، هذا كتاب الله فانظروا ما لكم من حق فخذوه.** قالا: فسابقتنا! قال: **أنتما أسبق مني بسابقتي؟** قالوا: لا. قالوا: قرابتنا بالنبي؟ قال: **أقرب من قرابتي؟** قالوا: لا. فقالوا: فجهادنا! قال: **أعظم من جهادي؟** قالوا: لا. قال: **فوالله ما أنا في هذا المال وأجيري هذا إلا بمنزلة سواء**)[1].

لقد ضرب الإمام (ع) أروع مثل للحكام في حكم الناس بالعدل وإنصافهم حتى على حساب النفس والأهل والقرابة مؤكداً أن السابقية في الإسلام وأرحام الحاكم لا تمنح أصحابها امتيازات في الدنيا، فالله يتولى جزاءه، أما في هذه الدنيا فالناس سواسية في الواجبات والحقوق.

٣- المساواة بين الناس أمام القضاء وحكم الله تعالى فقد أراد الإمام إرجاع الناس إلى دولة رسول الله (ص) وإبعاد ما ترسب في الأذهان من سياسة وقضاء تحكمهما الأهواء والمصالح فبعد أن كان يتدخل في عهد الخلفاء ليقضي ويفصل بالحق إذ يعجز غيره، وما أن استلم زمام الحكم حتى ضرب أروع الأمثلة للعدل وسلك أوضح سبل الحق مظهراً عدل الشريعة الإلهية وقدرتها على إقامة دولة تنعم بالحرية والأمان والعدل.

ومواقف الإمام كثيرة نذكر منها ما أورده المرعشي في إحقاق الحق قال: (عرف علي درعا له مع يهودي، فقال: **درعي سقطت مني يوم كذا**، قال اليهودي: درعي، وفي يدي، بيني وبينك قاضي المسلمين. فلما رآه شريح، قام له من مجلسه، وجلس علي، ثم قال: **لو كان خصمي مسلماً، جلست معه بين يديك، ولكني سمعت رسول الله يقول: لا تساووهم في المجلس، ولا تعودوا مرضاهم، واضطروهم إلى أضيق الطريق، فإن سبوكم فاضربوهم، وإن ضربوكم فاقتلوهم.** فقال: درعي، فقال: صدقت يا أمير المؤمنين ولكن بينة؟ فدعا قنبرا، فشهدا له، والحسن، فقال: أما هذاك فنعم وأما شهادة ابنك فلا، فقال: **أنشدك الله أسمعت عمر يقول: قال رسول الله (ص): الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة؟** قال: اللهم نعم،

---

(١) الراوندي، قطب الدين، **الخرائج والجرائح**، تحقيق ونشر: (مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام، قم المقدسة، د. ت) ج١، ص١٨٧.

فأمضى شهادة الحسن، **والله لتخرجن إلى بانقيا، فلتقضين بين أهلها أربعين يوماً**، قال: ثم سلم الدرع إلى اليهودي، فقال اليهودي: أمير المؤمنين مشين معي إلى قاضيه، فقضى عليه فرضي به، صدقت أنها لدرعك، التقطتها، وأسلم، فقال علي: **الدرع لك، وهذا الفرس لك**، وفرض له، وقتل بصفين[١].

ثالثاً ـ السياسات العامة لحكومة الإمام علي (ع):

إن الإمامة وكما عرفناها في الفصل الأول: وهي رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا خلافة عن النبي.

وكما هي مرجعية عامة في أمور الدين كذلك هي رئاسة وحكومة وقيادة في أمور الدنيا وهناك دور مفروض على الإمام (ع) في الشريعة الإسلامية كحاكم وهو سياسة العباد بما يصلح أمورهم في كل الجوانب السياسية والإدارية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية وسوف نتطرق إلى سياسة الإمام (ع) في كل هذه الجوانب.

١- الجانب السياسي:

كانت سياسة أمير المؤمنين (ع) في مختلف الأبعاد وفي كل أمر مارسه سياسة حكيمة رشيدة مقتبسة من سياسة الله تعالى خالق البشر وهو العالم بأحسن سياسة لهم والمنزل للقران الحكيم أدق واجمع دستور عرفه البشر، وأيضاً اتبع (ع) سياسة رسول الله (ص) التي هي أول وأحكم وأعمق وأدق سياسة مارسها إنسان على وجه الأرض.

فمن سياسته (ع) حفظ الوحدة الإسلامية فلم يدع مجالاً للمشعوذين والمنافقين الذين يريدون إلقاء الخلاف بين المسلمين، فقد أخرج الأربلي في كتاب (كشف الغمة) بسنده عن الإمام الحسين (ع) قال: (جاء رجل إلى أمير المؤمنين يسعى بقوم، فأمرني إن دعوت له قنبرا فقال له علي (ع) **اخرج إلى هذا الساعي فقل له قد أسمعتنا ما كره الله تعالى فانصرف في غير حفظ الله تعالى**)[٢].

ومن سياسته (ع) العدل في كل أمر ومن ذلك ما أوصى به ولاته في أهل الكتاب ومنهم اليهود الذين وصفهم الله تعالى حيث قال: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ (المائدة: ٨٢).

فقد أخرج الحر العاملي في الوسائل بسنده عن رجل من ثقيف قال: استعملني علي بن أبي طالب (ع) على بانقيا[٣] وسواد من سواد الكوفة، فقال لي والناس حضور: **انظر خراجك فجد فيه، ولا تترك منه درهما، فإذا أردت أن تتوجه إلى عملك فمر بي، قال: فأتيته فقال لي:**

---

(١) المرعشي، **ملحقات إحقاق الحق**، المجلد الثاني والثلاثون، ص١٨٧.

(٢) الأربلي، أبي الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح، **كشف الغمة في معرفة الأئمة**، (دار الأضواء، بيروت ـ لبنان، د. ت) ج٣، ص٩.

(٣) بانقيا: مكان قرب الكوفة (معجم البلدان ١: ٣٣١).

إن الذي سمعته مني خدعة، إياك أن تضرب مسلماً أو يهودياً أو نصرانياً في درهم خراج، أو تبيع دابة عمل في درهم، فإنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو[١].

ومن سياسته (ع) مع خصومه استخدام النصيحة والدعوة للحوار وكراهية الغدر لأنه ليس شيم المؤمن والوفاء بالعهد ففي عهده إلى مالك الأشتر يقول: (**وإن عقدتَ بينك وبين عدوّك عقدة، أو ألبسته منك ذمّة، فحط عهدك بالوفاء، وارع ذمّتك بالأمانة، واجعل نفسك جُنّة دون ما أعطيتَ، فإنّه ليس من فرائض الله شيء الناس أشدّ عليه اجتماعاً، مع تفرّق أهوائهم، وتشتّت آرائهم، من تعظيم الوفاء بالعهود، وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين لِمَا استَوبَلُوا**[٢] **من عواقب الغدر، فلا تغدرنّ بذمّتك، ولا تخيسنّ**[*] **بعهدك، ولا تختلنّ**[**] **عدوّك، فإنه لا يجترئ على الله إلا جاهل شقي. وقد جعل الله عهده وذمته أمنا أفضاه بين العباد برحمته**)[٣].

٢- الجانب الإداري:

أخطر ما يواجه الناس وعلى مسار التاريخ سياسة الحكام وتوجهاتهم لأنه وكما يقال (الناس على دين ملوكهم) لذلك اهتم أمير المؤمنين جداً بهذا الجانب لأنه إذا صلح الحاكم صلحت الرعية فقد قام الإمام (ع) بعزل الولاة الذين عهد إليهم عثمان ولاية الأقاليم الإسلامية. وبين أسباب عزلهم بقوله: (**ولكني آسى أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها، فيتخذوا مال الله دولاً، وعباده خولاً، والصالحين حرباً، والفاسقين حزباً، فإن فيهم من شرب فيكم الحرام، وجلد حداً في الإسلام، وإن منهم من لم يسلم حتى رضخت له على الإسلام الرضائخ**)[٤]. وكما يوضح الشهيد الصدر: (فإن الإمام علياً (ع) لو كان قد أمضى هذه الأجهزة الفاسدة التي خلفها عثمان من قبله، فليس من المعقول بمقتضى طبيعة الأشياء أن يستطيع أن يمارس عملية التغيير الحقيقي في هذه التجربة التي يتزعمها)[٥].

فاهتم بأمر الولاة في حكومته اهتمام كبير فكان يدقق كثيراً في اختيارهم واختار لدولته الولاة الصالحين وتلامذته الذين تخرجوا من مدرسته وساروا على منهاجه التربوي أمثال سلمان المحمدي واليه على المدائن ومالك الأشتر واليه على مصر وإن لم يتم أمره وغيرهم.

---

(١) الحر العاملي، **تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة**، ج٩، ص١٣٢.

(٢) الوبال: في الأصل: الثقل والمكروه (النهاية: ١٤٦/٥).

(*) خاس عهده وبعهده: نقضه وخانه (لسان العرب: ٧٥/٦).

(**) يقال: خَتَله يَختِله: إذا خدعه وراوغه (النهاية: ٩/٢).

(٣) عبده، **شرح نهج البلاغة**، ج٣، ص١٠٦.

(٤) المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار** ج٣٣، ص٥٩٧.

(٥) الصدر، **أهل البيت تنوع ادوار ووحدة هدف**، ج٢.

ويضع الإمام أمير المؤمنين (ع) بين يدي واليه على مصر مالك الأشتر عهد يعتبر خلاصة تجارب الحكم الإسلامي وعصارة تجارب الحكومات السابقة واللاحقة ويجمع كل التجارب في نسق منتظم وعلى صورة قطعة أدبية من أروع ما أنتجه الفكر البشري من فنون الحكم والإدارة ويعتبر منهاج تربوي للحاكم إلى وقتنا الحاضر وقد استشهدنا بكثير من مقاطعه في البحث، فهذا العهد ليس نظرية يمكن أن تصيب أو تخطئ بل قواعد في الحكم هي اقرب ما تكون بفن الحكم منها بنظرية الحكم.

إن عهد مالك الأشتر يوازن في كل قاعدة من قواعد الحكم بين مصالح الأمة ومصالح الحكومة ويأخذ بنظر الاعتبار حق الوالي وحق الرعية ويطرح جميع قواعد الحكم من زاوية قرآنية ومنسجمة تماماً مع متطلبات الواقع، فكل كلمة قالها الإمام في هذا الجانب حرص أن تأتي منسجمة مع القرآن ومع روح الدولة الإسلامية والقواعد التي نسجها الإمام في هذه المقطوعة الأدبية هي خمسون فقرة بعد أن قطعنا الفقرات وحسب ما تعطيه الفقرة من مدلول وقد أوردنا هنا خمس فقرات فقط كشاهد لسياسية الإمام الإدارية:

القاعدة الأولى: (اشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم)[1] فالرحمة والمحبة والعطف المتبادل هي جسور متينة بين الحاكم ورعيته وتزيد من الثقة المتبادلة وهي دعم معنوي للحاكم يشعره بالقوة في مواجهة أي خطر يواجه الرعية.

القاعدة الثانية: (فاعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه)[2] يجب على الحاكم أن يشعر بان حكماً فوقه هو الله وان ما يريده من الله تعالى من رحمة وعفو أن يوفره لرعيته لأنهم يطلبونه منه أيضاً.

القاعدة الثالثة: (ليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق وأعمها في العدل واجمعها لرضا الرعية)[3] الخيار الأفضل من بين الخيارات المتعددة هو الذي يتجسد فيه الحق ويتحقق به العدل ويرضى به الناس.

القاعدة الرابعة: (أطلق عن الناس عقدة كل حقد)[4] الحاكم الناجح هو الذي يواجه بحزم الأحقاد الاجتماعية والعقد النفسية ويضع لها العلاج من منظار الإنسان المربي والمصلح الاجتماعي.

القاعدة الخامسة: (واردد إلى الله ورسوله ما يُضلعك من الخطوب ويشتبه عليك من الأمور فقد قال الله تعالى لقوم أحب إرشادهم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ

---

(١) عبده، **شرح نهج البلاغة**، ج٣، ص٨٤.

(٢) عبده، **المصدر السابق**، ج٣، ص٧٠.

(٣) عبده، **المصدر السابق**، ج٣، ص٨٦.

(٤) عبده، **المصدر السابق**، ج٣، ص٨٧.

مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ **فالرد إلى الله الأخذ بمحكم كتابه، والرد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة)**[1].

وقد عرف عن الإمام علي (ع) شدته في اختيار الولاة وعدم التساهل مع الضعيف وحرصه على محاسبتهم في الصغيرة والكبيرة وكتابه لعثمان بن حنيف واليه على البصرة يدل على ذلك حيث قال له (ع) **(أما بعد يا ابن حنيف فقد بلغني أن رجلا من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان وتنقل إليك الجفان، وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو. وغنيهم مدعو. فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم، فما اشتبه عليك علمه فالفظه، وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه ألا وإن لكل مأموم إماما يقتدى به ويستضئ بنور علمه، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه. ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفة وسداد. فوالله ما كنزت من دنياكم تبرا، ولا ادخرت من غنائمها وفرا)**[2].

نلاحظ في كلام الإمام لهجة التأنيب والتوبيخ لان الوالي يطبق سياسة الحاكم وسيرته، والحضور إلى دعوة تستطاب فيها الألوان وتنقل إليها الجفان ليست من أخلاق الحاكم بل على العكس كانت حياة الحاكم حياة زهد في الدنيا ومغرياتها وهكذا كان الإمام (ع) يربي ولاته.

وفي سياق الجانب الإداري يدخل القضاء:

فمن القضايا الحساسة التي واجهت الإمام (ع) هو اختيار القضاة فإذا كان الاختيار صائباً استتب العدل وتعزز الأمن والسلام لان القضاء أهم أداة من أدوات التربية الصحيحة للمجتمع عند الإمام حيث يتوقف عليه العدل والمساواة وحل المعضلات ومن ثم تربية مجتمع لا يتعدى على القانون والأخلاقيات والقواعد الاجتماعية الصحيحة، وقد أبرز الإمام (ع) هذا الجانب المهم من أركان الدولة من خلال تأكيده على اختيار الأفاضل للقضاء وذلك من خلال عهده لمالك الأشتر حيث يقول (ع): **(ثمّ اختَرْ للحكم بين الناس أفضل رعيّتك في نفسك، ممّن لا تضيق به الأمور، ولا تمحّكه (اللجاج) الخصوم، ولا يتمادى في الزلّة، ولا يحصر من الفيء إلى الحقّ إذا عرفه، ولا تشرف نفسه على طمع، ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه، وأوقفهم في الشبهات، وآخذهم بالحجج، وأقلّهم تبرّماً بمراجعة الخصم، وأصبرهم على تكشّف الأمور، وأصرمهم عند اتّضاح الحكم، ممّن لا يزدهيه إطراء ولا يستميله إغراء، وأولئك قليل)**[3].

---

(١) عبده. **المصدر السابق**. ج٣، ص٩٣.

(٢) عبده. **المصدر السابق**. ج٣، ص٧٠.

(٣) عبده. **المصدر السابق**. ج٣، ص٩٤.

ومن خلال هذه القطعة من العهد يتبين لنا أن هناك شروط يضعها الإمام (ع) في اختيار القضاة وهي:

- **ثمّ اختر للحكم بين الناس أفضل رعيّتك في نفسك:** حيث إنّ المتصدّي للقضاء لا بدّ وأن يكون من أفضل أفراد الأمّة، وإذا كان من أفضل أفراد الأمّة فيكون مستقلاً في أمره ولا يتسلّط عليه غيره لأنّ المفضول لا يحكم على الفاضل والأفضل، مضافاً إلى ما أكّد ذلك الاستقلال بما ذكره (عليه السّلام) في آخر الفصل من قوله **(وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصّتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك).**
- **لا تضيق به الأمور:** لقلّة الإحاطة بوجوه تدبيرها وعدم قوّة التحليل والتجزية للقضايا الواردة عليه فيحار فيها ويعرضه الشكّ والترديد في حلّها وفصلها.
- **ولا تمحكه الخصوم:** قال في الشرح المعتزلي: جعله ماحكاً أي لجوجاً، وقال ابن ميثم: أي يغلبه على الحقّ باللّجاج، وقيل: ذلك كناية عن كونه ممّن يرتضيه الخصوم فلا تلاجّه ويقبل بأوّل قوله.
- **لا يتمادى في الزّلّة:** حيث إنّ القاضي في معرض الاشتباه دائما من جهة تحيّل المترافعين وتشبّث كلّ واحد منهما في جلب نظر القاضي إلى الاعتماد بكون الحقّ له فإذا عرض له رأى ثمّ كشف له أنّه خلاف الحقّ لا يتمادى في الزلّة ولا يصعب عليه الرجوع إلى الحقّ.
- **لا يحصر من الرجوع إلى الحقّ إذا عرفه:**، قال الشارح المعتزلي: أنّه لا يحصر أي لا يعيا في المنطق، لأنّ من الناس من إذا زلّ حصر عن أن يرجع وأصابه كالفهاهة والعيّ وأضاف ابن ميثم أنّه لا يأبى للرجوع إلى الحقّ حفظا لجاهه وخوفا من الشناءة كما يفعله قضاة السوء.
- **أن لا يحدّث نفسه بالطمع:** وذلك بالاستفادة من المترافعين فيتوجّه إلى إلى الأوفر منهم ثروة أو جاها ليستفيد من ماله أو جاهه، ثمّ يجرّه ذلك إلى أخذ الرشوة والميل عن الحقّ والحكم بخلاف الحقّ.
- **ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه:** أن يكون دقيقاً في كشف القضيّة المعروضة عليه محقّقا لفهم الحقيقة ولا يكتفي بالنظر السطحي في فهم صدق المتداعيين وكذبهم، بل يكتنه القضيّة عن طرق كشف الجرم وعن طرق كشف الحقيقة.
- **أوقف الرعيّة عند عروض الشبهة:** فلا يأخذ بأحد طرفي الشبهة حتّى يفحص ويبيّن له الحقّ بدليل علمي يوجب الاطمئنان.
- **آخذهم بالحجج:** فلا يقصّر في جمع الدلائل والأمارات على فهم الحقيقة من أي طريق كان.
- **وأقلّهم تبرّماً بمراجعة الخصم:** وأقلّ الناس تضجّراً وقلقاً من مراجعة الخصوم، فلا ينهرهم ولا يصيح في وجوههم ليسع لهم بيان الحال والمال فينكشف له الحقّ ولا يضيع حقّ الخصوم قال الشارح المعتزلي: وهذه الخصلة من محاسن ما شرطه (ع) فانّ القلق والضجر والتبرّم قبيح وأقبح ما يكون من القاضي.

- **وأصبرهم على تكشّف الأمور**: أن يكون أصبر الناس على كشف حقيقة الأمور بالبحث وجمع الدلائل.
- **وأصرمهم عند اتّضاح الحكم**: أن يحكم عند وضوح الحقّ صريحاً وقاطعاً ولا يؤخّر صدور الحكم.
- **ممّن لا يزدهيه إطراء ولا يستميله إغراء**: أن لا يؤثّر فيه المدح والثناء من المتداعيين أو غيرهما فيصير متكبّراً ولا يؤثّر فيه تحريض الغير فيجلب نظره إلى أحد الخصمين.

فهذه هي الصفات الّتي توجب فضيلة الفرد وتشكّل له شخصيّة رهيبة تؤهّله لتصدّي منصب القضاة وقد أعلن عليه السّلام بعد بيان هذه الأوصاف بأنّ الواجدين لها قليل[١].

ومن وصاياه (ع) في عهده إلى مالك أن يبذل المال للقضاة **(ثمّ اختر للحكم بين الناس أفضل رعيّتك في نفسك... وافسح له في البذل ما يزيل علّته وتقلّ معه حاجته إلى الناس**[٢].

وكان (ع) يركز جداً على تربية وأخلاق القاضي وذلك بان يتأدب في مجلسه حتى يكون مُهاب ويؤخذ بحكمه وان يكون في حالة جسمية ونفسية جيد حتى لا يؤثر ما يشعر به من جوع أو غضب في حكمه ومن ذلك ما قال لشريح: **ولا تقعدنّ في مجلس القضاء حتى تَطعَم**[٣].

وقال (ع) لشريح: **(لاتسارّ أحداً في مجلسك، وإن غضبت فقم؛ فلا تقضينّ وأنت غضبان)**[٤].

وقال (ع) لمّا بلغه أنّ شريحاً يقضي في بيته: **(يا شريح، اجلس في المسجد؛ فإنّه أعدل بين الناس، وإنّه وهنٌ بالقاضي أن يجلس في بيته)**[٥].

وقال (ع): **(من ابتلى بالقضاء فليواسِ بينهم في الإشارة وفي النظر، وفي المجلس)**[٦].

وقال(ع): **(ينبغي للحاكم أن يدَعَ التلفّت إلى خصم دون خصم، وأن يقسم النظر فيما بينهما بالعدل، ولا يدَعُ خصماً يُظهر بغياً على صاحبه)**[٧].

---

(١) الخوئي، حبيب الله الهاشمي، **منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة**، عنى بتصحيحه وتهذيبه: إبراهيم الميانجي (ط٤، منشورات دار الهجرة، إيران – قم، د. ت) ج٢٠، ص٢٣٢ - ٢٣٤.

(٢) عبده، **شرح نهج البلاغة**، ج٣، ص٩٤.

(٣) الكليني، **الأصول من الكافي**، ج٧، ص٤١٣.

(٤) الملايري، إسماعيل المعزي، **جامع أحاديث الشيعة في أحكام الشريعة** (دار المهر - قم١٣٧٣ هـ ش - ١٤١٥هـ ق) ج٢٥، ص٣٩.

(٥) الطبرسي، حسين النوري، **مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل**، تحقيق ونشر: (ط٢، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨) ج١٧ ص٣٥٨.

(٦) الكليني، **المصدر السابق**، ج٧، ص٤١٣.

(٧) الطبرسي، **المصدر السابق**، ج١٧، ص٣٥٠.

وكان (ع) يعزل من تخلّف عن الآداب وأخلاقيات القضاء ففي عوالي اللآلي: إنّ أمير المؤمنين ولّى أبا الأسود الدؤلي القضاء، ثمّ عزله فقال له: لِم عزلتني وما جنيت وما خنت؟ فقال (ع): **(إنّي رأيت كلامك يعلو على كلام الخصم)**[١].

وكان (ع) يراقب قضاء القضاة بنفسه أو يعرض عليه الحكم بعد إصداره ليتأكد من عدالة القاضي ومن ذلك ما قال (ع) لشريح: **(إيّاك أن تنفّذ قضيّة في قصاص أو حدّ من حدود الله أو حقّ من حقوق المسلمين حتى تعرض ذلك عليّ إن شاء الله)**[٢].

أو عن طريق تكليف ولاته بمراقبة القضاء ومن ذلك ما قال (ع): في عهده إلى مالك الأشتر **(ثمّ أكثر تعاهدَ قضائه)**[٣].

وبالمحصلة يتضح لنا مما تقدم أن الإمام (ع) كان شديد الحذر في موضوع القضاء وتربية القاضي لأنه أداة في تحقيق العدل والمساواة والأمان في المجتمع.

٣- جانب الرعاية والضمان الاجتماعي:

وهذا جانب تربوي مهم لكل من يتصدى لدفة الحكم حيث نجد الإمام (ع) هو أول من أنشأ مؤسسة الرعاية والضمان الاجتماعي فهنالك دائماً طبقات محرومة في المجتمع بحاجة إلى الرعاية الدائمة والاهتمام المستمر ويتحمل الوالي النصيب الأكبر من المسؤولية في رعاية شؤون هؤلاء وهم أصحاب الحاجات والفقراء واليتامى والضعفاء وقد جاء في عهد الإمام (ع) إلى مالك الاشتر اهتمام كبير في هذا الجانب حيث يقول (ع):

(ثمّ الله الله في الطّبقة السّفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤسى والزّمنى، فإنّ في هذه الطّبقة قانعا ومعترّا، واحفظ لله ما استحفظك من حقّه فيهم. واجعل لهم قسماً من بيت مالك، وقسما من غلّات صوافي الإسلام في كلّ بلد، فإنّ للأقصى منهم مثل الّذي للأدنى، وكلّ قد استرعيت حقّه، فلا [ولا] يشغلنّك عنهم بطر، فإنّك لا تعذر بتضييعك [بتضييع] التّافه لأحكامك الكثير المهمّ، فلا تشخص همّك عنهم، ولا تصعّر خدّك لهم، وتفقّد أمور من لا يصل إليك منهم ممّن تقتحمه العيون، وتحقره الرّجال، ففرّغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتّواضع، فليرفع إليك أمورهم، ثمّ اعمل فيهم بالإعذار إلى الله يوم تلقاه، فإنّ هؤلاء من بين الرّعيّة أحوج إلى الإنصاف من غيرهم، وكلّ فأعذر إلى الله في تأدية حقّه إليه وتعهّد أهل اليتم وذوى الرّقّة في السّنّ ممّن لا حيلة له، ولا ينصب للمسألة نفسه، وذلك على الولاة ثقيل)[٤].

---

(١) الملايري، **المصدر السابق**، ج٢٥، ص٣٧.

(٢) الكليني، **المصدر السابق**، ج٧، ص٤١٣.

(٣) عبده، **المصدر السابق**، ج٣، ص٩٤.

(٤) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ج١٧، ص٨٥.

قد عبّر (ع) عن المحتاجين بالطّبقة السّفلى نظراً إلى ظاهر حالهم عند النّاس حيث إنّهم عاجزون عن الحيلة والاكتساب وهم مساكين ومحتاجون والمبتلون بالبؤس والزّمانة ولكن سوّاهم مع سائر النّاس في الحقوق وأظهر بهم أشدّ العناية والاهتمام وقسّمهم إلى ثلاثة أقسام.

أ- القانع: وقد فسّر بمن يسأل لرفع حاجته ويعرض حاجته على مظانّ قضائه.

ب- المعترّ: وهو السيّئ الحال الّذي لا يسأل الحاجة بلسانه ولكن يعرض نفسه في مظانّ التّرحم والتوجّه إليه فكان يسأل بلسان الحال.

ج- من اعتزل في زاوية بيته لا يسأل بلسانه ولا يعرض نفسه على مظانّ قضاء حوائجه، إمّا لرسوخ العفاف وعزّة النّفس فيه، وإمّا لعدم قدرته على ذلك كالزّمنى وهم الّذين بيّن حالهم في قوله (ع) (**وتفقّد أمور من لا يصل إليك منهم، ممّن تقتحمه العيون وتحقره الرّجال**)[1] وقد وصّى فيهم بأمور:

أ- حفظ حقوقهم والعناية بهم طلبا لمرضاة اللّه وحذرا من نقمته لأنهم لا يقدرون على الانتقام ممن يهضم حقوقهم.

ب- جعل لهم قسماً من بيت المال العام الّذي يجمع فيه الصّدقات الواجبة والمستحبّة وأموال الخراج الحاصل من الأراضي المفتوحة عنوة.

ج- جعل لهم قسما من صوافي الإسلام في كلّ بلد، قال في الشّرح المعتزلي: وهي الأرضون الّتي لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب وكانت صافية رسول اللّه (ص)، فلمّا قبض صارت لفقراء المسلمين، ولما يراه الإمام من مصالح الإسلام[2].

د- أن لا يصير الزهو بمقام الولاية موجبا لصرف النّظر عنهم وعدم التوجّه إليهم مغترّا باشتغاله بأمور هامة فقال (ع): أحكام الأمور الهامّة الكثيرة لا يصير كفّارة لصرف النظر عن الأمور الواجبة القصيرة.

هـ- الاهتمام بهم وعدم العبوس في وجوههم والمصاحبة لهم لإظهار حاجتهم.

ثمّ أوصى بالتفقّد عن القسم الثالث المعتزل بوسيلة رجال موثق من أهل الخشية والتواضع وخصّص طائفتين من العجزة بمزيد التّوصية والاهتمام وهما:

أ - الأيتام الّذين فقدوا آبائهم وحرموا من محبّة والدهم الّذين يلمسونهم بالعطف والحنان دائماً.

ب- المعمّرون إلى أرذل العمر الّذين أنهكتهم الشيّبة وأسقطت قواهم فلا يقدرون على انجاز حوائجهم بأنفسهم، وأشار إلى أنّ رعاية هذه الطبقة على الولاة ثقيل بل الحقّ كلّه ثقيل.

فاليتامى والمساكين والعجزة وذوو العاهات وكل صاحب حاجة هم في رعاية الدولة الإسلامية ونجد الإمام (ع) يضع برنامجاً لإدارة شؤونهم الاقتصادية والاجتماعية والمهنية وذلك

---

(١) الخوئي. **منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة**، ج٢٠، ص٢٧٧.

(٢) الخوئي. **المصدر السابق**، ج٢٠، ص٢٧٧.

بإنشاء هيئة مشرفة على رعاية حقوقهم وهذا ما يسمى بالضمان الاجتماعي في المصطلح الحديث وتؤمن ميزانية المؤسسة التي تقوم بهذه الوظيفة من مصدرين اثنين هما بيت المال والثاني نسبة من واردات الأراضي المفتوحة وبذلك سوف تكون هذه الميزانية متحركة على ضوء الإنتاج وبحجمها يتم رعاية الناس المحتاجين.

٤- الجانب الثقافي:

تكمن أبرز مرتكزات الجانب الثقافي في حكومة الإمام على ما يأتي:

أ - التأديب والتعليم:

ترتكز فلسفة الوحي والنبوّة وفلسفة الحكم في منهج الأنبياء الإلهيّين، على تربية الإنسان وتعليمه، وإنَّ جميع الجهود ما هي إلاّ مقدّمة لتربية الإنسان الكامل. على هذا الأساس كان الأنبياء والأوصياء يتولّون شخصياً تعليم الناس وتربيتهم، وعلى هذا مضت أيضاً سيرة الإمام أمير المؤمنين (ع) لأنه يرى أن مهمة تربية وتعليم الناس من تكاليف الإمام لذلك قال: (**على الإمام أن يُعلّم أهل ولايته حدود الإسلام والإيمان**)[١].

واهتم اهتمام كبير في هذا الجانب لان حاجة الناس إلى التربية والتعليم أكثر من حاجتهم إلى الأمور المادية كالذهب والفضة لذلك يقول: (**إنّ الناس إلى صالح الأدب أحوج منهم إلى الفضّة والذهب**)[٢] وكان (ع) يرى أن هذا الأمر من حق الرعية عليه لذلك قام خطيباً في الناس وقال: (**أيّها الناس! إنّ لي عليكم حقّاً، ولكم عليَّ حقّ؛ فأمّا حقّكم عليَّ فالنصيحة لكم، وتوفير فيئكم عليكم، وتعليمكم كي لا تجهلوا، وتأديبكم كيما تعلموا**)[٣].

وكان يقوم بتربية وتعليم الناس بنفسه وهذا ما نقله الباقر (ع) حيث يقول: (**كان عليّ (ع) إذا صلّى الفجر لم يزل معقّباً إلى أن تطلع الشمس، فإذا طلعت اجتمع إليه الفقراء والمساكين وغيرهم من الناس، فيعلّمهم الفقه والقرآن، وكان له وقت يقوم فيه من مجلسه ذلك**)[٤].

ب - تصحيح الثقافة العامّة:

تكمن واحدة من أبرز العناصر الأساسيّة لمنهج الحكم العلوي في الإقدام على تصحيح الثقافة العامّة للمجتمع. وكان الإمام يدافع عن السنن والتقاليد الاجتماعيّة البنّاءة وقد ذكر

---

(١) الواسطي، علي بن محمد الليثي، **عيون الحكم والمواعظ**، التحقيق: حسين الحسني البيرجندي (ط١، دار الحديث، قم، ١٣٧٦هـ)، ص٣٢٨.

(٢) الواسطي، **المصدر السابق**، ص١٤٣.

(٣) عبده، **شرح نهج البلاغة**، ج١، ص٨٣.

(٤) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ج٤، ص١٠٩.

ذلك في عهده إلى مالك الأشتر حيث قال له: (**لا تنقض سُنّة صالحة عمل بها صُدورُ هذه الأُمّة، واجتمعت بها الألفة، وصلحت عليها الرعيّة، ولا تُحدثنّ سُنّة تضرّ بشيء من ماضي تلك السُّنن؛ فيكون الأجر لمن سنّها، والوزر عليك بما نقضت منها**[١].

على الحاكم أن يُقر السنن الصالحة العادات الاجتماعية والقوانين الخيرة التي اجمع عليها الصلحاء من الأمة وان لا يعمل على إلغائها بقلم أهوائه النفسية أو مصالحه الدنيوية ولا يُحدث سنة تكون وبال عليه وتُعرف به ومن ثم يُأثم عليها.

وكان يهاجم الأعراف والتقاليد الخاطئة لذلك قال: (**اعلم أنّ أفضل عباد الله عند الله إمام عادل، هُديَ وهَدَى، فأقام سنّة معلومة، وأمات بدعة مجهولة، وإنّ السنن لنيّرة لها أعلام، وإنّ البدع لظاهرة لها أعلام**)[٢] ولم يكن يسمح أن تواصل التقاليد الخاطئة والأعراف الضارّة، حضورها في المجتمع الإسلامي.

ج - النقد البناء بدلاً من الإطراء والتملّق:

من أهم خطوات التربوية التي قام بها الإمام علي(ع) لتصحيح الثقافة الاجتماعيّة العامّة سواء للولاة أو للرعية هي مواجهته لحالة تملّق الأُمراء ومديح القادة السياسيّين. لقد حثّ الإمام أمير المؤمنين الولاة والعاملين معه على أن يقربوا الأجرأ في قول الحق، والأكثر صراحة في الجهر به، وأن يربوا مَن حولهم على عدم تملّقهم والإطراء عليهم أكثر من الاستحقاق لذلك قال (ع) في عهده إلى مالك الأشتر بعد ذكر خصائص البطانة الصالحة: (**فاتّخذ أُولئك خاصّة لخلواتك وحَفَلاتك، ثمّ ليكن آثرهم عندك أقولهم بمرّ الحقّ لك، وأقلّهم مساعدةً فيما يكون منك ممّا كره الله لأوليائه، واقعاً ذلك من هواك حيث وقع. والصَق بأهل الورع والصدق، ثمّ رُضْهُم على ألاّ يُطروك ولا يَبْجَحوك بباطل لم تفعله؛فإن كثرة الإطراء تُحدث الزهو، وتُدني من العزّة**)[٣].

أما فيما يرتبط بالإمام شخصياً فقد كان يرفض أي ضرب من الثناء حوله، وكان يواجه المثنين والمتملّقين بمواقف علنيّة صريحة وحازمة. كما كان يحثّ الناس أن لا يُطروه بسبب نهوضه بأداء التكاليف الإلهيّة، وأن يتّجهوا بدل الثناء إلى النصيحة بخير، والنقد البنّاء الصريح لبرامجه وأعماله، إذا كان ثمّة نقد في هذا المجال وفي ذلك قال عنه (ع) في جواب من قال: أنت أميرنا ونحن رعيّتك، بك أخرجنا الله عزّ وجلّ من الذلّ، وبإعزازك أطلق عباده من الغلّ. فاختر علينا وأمضِ اختيارك، وائتمر فأمض ائتمارك؛ فإنّك القائل المصدَّق، والحاكم

---

(١) عبده. **المصدر السابق**، ج٣، ص٨٩.

(٢) عبده. **شرح نهج البلاغة**، ج٢، ص٦٩.

(٣) عبده. **شرح نهج البلاغة**، ج٣، ص٨٧.

الموفّق والملك المخوّل، لا نستحلّ في شيء معصيتك، ولا نقيس علماً بعلمك، يعظم عندنا في ذلك خطرك ويجلّ عنه في أنفسنا فضلك. فقال (ع): (.. **إنّ من أسخف حالات الولاة عند صالح الناس أن يُظنّ بهم حب الفخر، ويوضع أمرهم على الكبر، وقد كرهت أن يكون جال في ظنّكم أنّي أُحبّ الإطراء، واستماع الثناء، ولست ـ بحمد الله ـ كذلك، ولو كنت أُحبّ أن يقال ذلك لتركته انحطاطاً لله سبحانه عن تناول ما هو أحقّ به من العظمة والكبرياء. وربّما استحلى الناس الثناء بعد البلاء. فلا تُثنوا عليَّ بجميل ثناء، لإخراجي نفسي إلى الله وإليكم من البقيّة في حقوق لم أفرغ من أدائها، وفرائض لابدّ من إمضائها؛ فلا تكلّموني بما تُكلّم به الجبابرة، ولا تتحفّظوا منّي بما يُتحفّظ به عند أهل البادرة، ولا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنّوا بي استثقالاً في حقّ قيل لي، ولا التماس إعظام لنفسي لما لا يصلح لي؛ فإنّه من استثقل الحقّ أن يقال له، أو العدل أن يعرض عليه، كان العمل بهما أثقل عليه**)[1].

د- جعل الحقّ معيار لمعرفة الرجال:

من الخطوات التربوية المهمة للإمام (ع) لتصحيح الثقافة العامة هي جعل الحق ميزاناً في اتّباع الشخصيات السياسية والاجتماعية وموالاتها.

وتنشأ أغلب الانحرافات السياسية والاجتماعية من التمحور حول مفهوم الشخصيّة. وفي هذا الاتّجاه حذّر الإمام أمير المؤمنين (ع) المجتمع من أنّ الشخصيّات مهما عظمت، ولحظتها العيون بالحبّ والتقدير والإجلال، فلا يمكن أن تتحوّل إلى معيار للحقّ والباطل، وإلى ميزان لهما، ثمّ سعى أن يرفع المجتمع من زاوية الوعي الثقافي، ويرتقي به إلى المستوى الذي يزن به الشخصيّات الكبيرة ويعرفها بمعيار الحق، لا أن يزن الحقّ بمعيار الرجال فقال(ع): (**إنّ الحقّ لا يعرف بالرجال؛ فاعرف الحقّ تعرفْ أهله**)[2].

٥- الجانب الاقتصادي:

إن الإمام علي (ع) في كل جيل وعصر يربي ويُعلم الحكام أن الولاء للحق يعني رفض إغراء الدنيا، ورفض غرور السلطان، فاليوم، حيث تعبئ الحضارة كل قواها لمحاربة الفقر، والتوزيع العادل للثروات، نجد أمير المؤمنين علياً (ع) يدرك من قرابة ألف وأربعمائة عام بؤس الفقر ووظيفة المال إدراك الحاكم المسئول، إن وظيفة المال عنده، تتمثل في سد حاجات الشعب فردا فردا، وان المال ليس مثوبة على دين، ولا تكريماً لمركز، بل ولا ثمنا لجهد. إنه قيام بضرورات العيش، وسد لحاجات الناس، لا أكثر من هذا، ولا أقل. فلا يصلح قط أن يكون حكراً ولا أن يكون دولة بين أيدي قلة مثرية. إن

---

(١) عبده، **المصدر السابق**، ج٢، ص٢٠٠.

(٢) المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار**، ج٤٠، ص١٢٦.

تحديد إقامة المال في بضع أيد، أو بضع بيوت، هدر لوظيفته وإلغاء لدوره الصحيح في فقه الإمام، الذي هو فقه الإسلام. من أجل هذا قال كلمات راشدة صاغ بها مبدأ من أعظم مبادئ حكمه وحكومته حيث قال (**إن الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء فما جاع فقير إلا بما متع به غني والله تعالى سائلهم عن ذلك**)[١]. من العسير أن نجد عبارة تحدثنا عن وظيفة المال ويجتمع فيها المنطق العلمي، والألق الإنساني، على هذا النسق الفريد والرشيد. وإن الإمام بهذا المبدأ، لا ينفى عن المال نزوة الاحتكار فحسب. بل ينفى عنه كذلك نزوة السرف في إنفاقه والجموح في طلب ترف العيش. فجوع الفقير ناشئ عن تخمة الغنى، والجوع والتخمة كلاهما مظهر لخلل في وظيفة المال وعدالة التوزيع. فحين تأخذ وظيفة المال دورها الصحيح في تغطية المعايش وسد الحاجات بغير سرف أو ترف عند ذاك لا توجد التخمة التي تخلق الجوع، ولا يوجد الجوع الذي يحقد على التخمة. وعبارته الرشيدة هذه: إن الله فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء. تعطينا دلالتها الرائعة حكما فقهيا باهرا، هو أن أموال الأغنياء ليست حقا خالصا لهم ما دام في مجتمعهم فقراء بل هي حق لهم وللفقراء معا، هي حق للفقراء الذين خلت منها أيديهم، بقدر ما هي حق للأغنياء الذين تمتلئ بها أيديهم. ولقد كان الإمام (ع) يضع مبدأه هذا كما يضع كل مبادئه موضع التنفيذ السديد وللنهوض باقتصاد دولته وضع أسس تتمثل في:

١ - إشاعة ثقافة العمل:

من أسباب الفقر في نظر الإمام (ع) هو تلازم الكسل والعجز لدى أفراد المجتمع حيث يقول: (**إنّ الأشياء لمّا ازدوجت ازدوج الكسل والعجز، فنُتجا بينهما الفقر**)[٢] إذ إنّ المجتمع الذي تهيمن عليه ثقافة العمل لا يمكن أن يُصاب أبداً بآفة الفقر، الذي يعدّ بدوره بؤرة لتفشّي كثير من الأمراض المادّية والمعنويّة في لدى الفرد ومن ثم المجتمع، على هذا الأساس راح الإمام يُشيع ثقافة العمل في ربوع المجتمع بوصف العمل عبادة فكان يقول: (**الشاخص في طلب الرزق الحلال كالمجاهد في سبيل الله**)[٣] بل جعل طلب الرزق وإصلاح حال العيال أعظم الجهاد في سبيل الله (**ما غدوة أحدكم في سبيل الله بأعظم من غدوته يطلب لولده وعياله ما يصلحهم**)[٣] وكان هو نفسه (ع) عاملاً نموذجياً.

---

(١) عبده. **شرح نهج البلاغة**، ج٤، ص٧٨.

(٢) الكليني. **الأصول من الكافي**، ج٥، ص٨٦.

(٣) الطبرسي. **مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل**، الجزء الثالث عشر، ص١٢.

٢ - إشرافه (ع) المباشر على السوق:

حرص الإمام (ع) على ممارسة إشراف مباشر ومراقبة السوق شخصياً، وهو يحثّ الباعة على التزام التقوى، والاحتراز عن التطفيف والكذب والظلم والاحتكار، وينهاهم عن ضروب المعاصي التي قد ينزلقون إليها في هذا المجال. كما يطلب منهم رعاية الإنصاف، وتحرّي الأخلاق الإسلاميّة في التعاطي مع المشترين يقول الإمام الباقر (ع): (**كان أمير المؤمنين (ع) بالكوفة... يغتدي كلّ يوم بكرة من القصر، فيطوف في أسواق الكوفة سوقاً سوقاً ومعه الدرّة على عاتقه، وكان لها طرفان، وكانت تسمّى: السبيبة، فيقف على أهل كلّ سوق، فينادي: يا معشر التجّار، اتّقوا الله عزّ وجلّ. فإذا سمعوا صوته (ع) ألقَوا ما بأيديهم، وأرعَوا إليه بقلوبهم، وسمعوا بآذانهم. فيقول (ع): قدّموا الاستخارة، وتبرّكوا بالسهولة، واقتربوا من المبتاعين، وتزيّنوا بالحلم، وتناهوا عن اليمين، وجانبوا الكذب، وتجافوا عن الظلم، وأنصفوا المظلومين، ولا تقربوا الربا، وأوفوا الكيل والميزان، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين. فيطوف (ع) في جميع أسواق الكوفة، ثمّ يرجع فيقعد للناس**)[١].

٣ - عدم التأخّر في توزيع المال العامّ:

لم يسمح الإمام (ع) بحبس المال العام في خزانة الدولة، ولم يكن يرضى بتأخير توزيع أموال بيت المال وتقسيمها حتى لليلة واحدة إذ أنّ ما يعود إلى الناس ينبغي دفعه إليهم وعدم تأخيره، ففي الغارات: عن بكر بن عيسى: كان علي (ع) يقسم ما في بيت المال، فلا تأتي الجمعةُ وفي بيت المال شيء ويأمر ببيت المال في كلّ عشيّة خميس فينضح بالماء، ثمّ يصلّي فيه ركعتين[٢].

٤- تقسيم المال العام بالتساوي:

كان الإمام يسلك سياسة توزيع المال العام بين جميع المسلمين بالتساوي؛ففي نهج الإمام كان يتساوى في العطاء: العربي والأعجمي، والمهاجري والأنصاري، والأسود والأبيض بل لم يكن يختلف العبد المعتق عن سيّده ومولاه في نصيبه من الدخل العام، ففي إحقاق الحق: عن عاصم بن كليب عن أبيه قال: قدم على عليّ مالٌ من أصبهان، فقسمه على سبعة أسهم، فوجد فيه رغيفاً، فكسره على سبعة، وجعل على كلّ قسم منها كسرة، ثمّ دعا أُمراء الأشياع فأقرع بينهم لينظر أيّهم يعطي أوّلاً[٣].

---

(١) الكليني، **المصدر السابق**، ج٥، ص١٥١.

(٢) الكوفي، **الغارات**، المجلد الأول، ص٦٨.

(٣) المرعشي، **ملحقات إحقاق الحق**، ج ٨، ص ٥٣٨.

٥ - تأمين الاحتياجات الأساسيّة للجميع:

كان يرى (ع) أنّ الدولة الإسلاميّة مسؤولة عن تأمين متطلّبات الحدّ الأدنى، وتوفير المستلزمات الضروريّة لجميع الذين يعيشون في نطاق جغرافيّة الأمصار الإسلاميّة، فكما أنّ الذي يعيش في الكوفة ينبغي أن يحظى بالرفاه النسبي، وأن لا يواجه مشكلة على صعيد المستلزمات الأوّليّة مثل الطعام والشراب والمسكن، فكذلك الحال في سائر الأمصار، إذ كان الإمام (ع) يركّز على حماية الطبقة الضعيفة من المجتمع، ويولي عناية خاصة بالأيتام وأُسر الشهداء، بحيث كان يهتمّ بذلك شخصياً كلّما واتته الفرصة فكان يقول(ع): (**إنّ الله فرض على الأغنياء في أموالهم بقدر ما يكفي فقراءهم؛ فإن جاعوا وعرَوا جهدوا في منع الأغنياء؛ فحقّ على الله أن يحاسبهم يوم القيامة ويعذّبهم عليه**)[١].

٦ - حرمة بذل المال العامّ:

كان الإمام يعدّ المال العام أمانة لدى العاملين في أُطُر الدولة، وكان لا يسمح في بذل هذا المال وتوزيعه هدايا وهبات، ويقول: (**جود الولاة بفيء المسلمين جور وخَتْر**)[٢]، ولم يكن الإمام يعترف بأي امتياز خاص لأحد في توزيع المال العامّ، ولم يُستثنَ من هذا القانون أحدٌ لا من الشخصيّات السياسيّة والاجتماعيّة البارزة، ولا من أولاده المقرّبين إليه.

٧ - التقشّف في المال العامّ والتدبر في صرفه:

كان أسلوب الإمام في صرف المال العام منهاج تربوي زاخر بالدروس والعبر. فلكي يدفع ولاته والعاملين معه إلى أقصى نهايات التقشّف وصيانة الأموال العامة، عمّم الإمام أمراً إدارياً حثَّ فيه هؤلاء أن لا ينسوا هذا المبدأ في الكتابة إليه، وراح يقول: (**أدقّوا أقلامكم، وقاربوا بين سطوركم، واحذفوا عنّي فضولكم، واقصدوا قصد المعاني، وإيّاكم والإكثار؛ فإنّ أموال المسلمين لا تحتمل أضراراً**)[٣]. أمّا حرص الإمام نفسه وسلوكه الشخصي في التصرّف ببيت المال، فهو أمر يبعث على الدهشة، فالإمام لم يكن على استعداد لأن يستفيد من نور سراج تابع لبيت المال في جواب من راجعه ليلاً في أمر شخصي! فعندما كان الإمام (ع) مشغولاً بكتابة ما يتعلّق بكيفيّة تقسيم بيت المال، ودخل عليه طلحة والزبير في أمر شخصي، عمد إلى السراج الذي كان يستهلك وقوده من الثروات العامّة فأطفأه، وأمر من يأتي إليه بسراج آخر من بيته فسألاه عن ذلك، فقال: كان زيته من بيت المال. لا ينبغي أن نصاحبكم في ضوئه[٤].

---

(١) الهندي. **كنز العمال في سنين الأقوال والأفعال**، ج٦، ص٥٢٨.

(٢) الري شهري محمد، **ميزان الحكمة**، (دار الحديث، قم، ١٣٧٥ هـ)، ج٤، ص٤٨٤.

(٣) الحر العاملي. **تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة**، ج١٧، ص٤٠٤.

(٤) المرعشي. **المصدر السابق**، ج ٨،ص ٥٢٩.

المصادر:

١- **القرآن الكريم**

٢- **أهل البيت تنوع ادوار ووحدة هدف** محمد باقرالصدر

٣- **الإتقان في علوم القرآن** جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي

٤- **الاحتجاج** أبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي

٥- **الإرشاد في معرفة حجج الله علي العباد** أبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي المفيد

٦- **الأصول من الكافي** أبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني

٧- **الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل** جعفر السبحاني

٨- **الأمالي** أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي

٩- **الإمام علي بن أبي طالب (ع)** الهمداني

١٠- **الأنوار العلوية والأسرار المرتضوية** جعفر النقدي

١١- **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار** محمد باقر المجلسي

١٢- **البداية والنهاية** أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي

١٣- **البرهان في تفسير القرآن** هاشم الحسيني البحراني

١٣- **التوحيد** أبي جعفر محمد علي بن الحسين بن بابويه القمي الصدوق

١٥- **تاريخ الخلفاء** جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي

١٦- **تاريخ الطبري** أبى جعفرمحمد بن جرير الطبري

١٧- **تاريخ اليعقوبي** أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب اليعقوبي

١٨- **تفسير القمي** أبي الحسن علي بن إبراهيم القمي

١٩- **تفسير الوسيط للقرآن الكريم** محمد طنطاوي

٢٠- **تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة** محمد بن الحسن الحر العاملي

٢١- **جامع أحاديث الشيعة في أحكام** إسماعيل المعزي الملايري

٢٢- **الخرائج والجرائح** قطب الدين الراوندي

٢٣- **الذريعة إلى مكارم الشريعة** أبن المفضل الراغب الأصفهاني

٢٤- **روضة المتّقين في شرح من لا يحضر الفقيه** محمد تقي المجلسي

٢٥- **سنن الترمذي** أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي

٢٦- **السنن الكبرى** أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي

٢٧- **سيرة ابن هشام** ابن هشام

٢٨- **السيرة الحلبية** الحلبي

٢٩- **شرح أصول الكافي** محمد صالح المازندراني

٣٠- **شرح نهج البلاغة** ابن أبي الحديد

٣١- **شرح نهج البلاغة** محمد عبدة

٣٢- **شواهد التنزيل لقواعد التفضيل** عبيد الله بن أحمد المعروف بالحاكم الحسكاني

٣٣- صحيح البخاري أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة بن بردزبة البخاري
٣٤- صحيح مسلم أبي الحسين مسلم بن الحجاج ابن مسلم القشيري النيسابوري
٣٥- الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف رضي الدين أبي القاسم علي بن موسى الحلي ابن طاووس
٣٦- علل الشرايع أبي جعفر محمد بن علي ابن الحسين بن موسى بن بابويه القمي الصدوق
٣٧- عيون الحكم والمواعظ علي بن محمد الليثي الواسطي
٣٨- عيون أخبار الرضا أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي الصدوق
٣٩- الغارات أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الثقفي الكوفي
٤٠- الفصول المهمّة في معرفة الأئمّة عليّ بن محمّد بن أحمد المالكي المكي ابن الصباغ
٤١- فضائل أمير المؤمنين (عليه السلام) ابن عقدة الكوفي
٤٢- كتاب المحاضرات والمحاورات جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي
٤٣- كشف الغمة في معرفة الأئمة أبي الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي
٤٤- كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد العلامة الحلي
٤٥- كشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين الحسن بن يوسف بن المطهر الحلي
٤٦- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي
٤٧- لسان العرب ابن منظور
٤٨- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد نورالدين علي بن أبي بكر الهيثمي،
٤٩- مجمع الفائدة والبرهان في شرح إرشاد الأذهان أحمد الأردبيلي،
٥٠- المراجعات عبد الحسين شرف الدين الموسوي
٥١- مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل حسين النوري الطبرسي
٥٢- مسند الإمام أحمد بن حنبل
٥٣- المعجم الكبير أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني
٥٤- المعجم الأوسط أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني
٥٥- مفاهيم القرآن (العدل والإمامة) جعفر السبحاني
٥٦- مفردات ألفاظ القرآن الراغب الأصفهاني
٥٧- مقدمة العلامة ابن خلدون ابن خلدون
٥٨- ملحقات إحقاق الحق شهاب الدين المرعشي
٥٩- مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام وما نزل من القرآن في علي أبي بكر أحمد بن موسى بن مردويه الإصفهاني.
٦٠- مناقب الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) محمد بن سليمان الكوفي
٦١- مناقب آل أبي طالب رشيد الدين أبي عبد الله محمد بن علي شهرآشوب
٦٢- المنتخب من كتاب ذيل المذيل من تاريخ الصحابة والتابعين أبى جعفر محمد بن جرير الطبري
٦٣- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة حبيب الله الهاشمي الخوئي
٦٤- الميزان في تفسير القرآن محمد حسين الطباطبائي.
٦٥- ينابيع المودة لذوي القربى سليمان بن إبراهيم القندوزي. ❖

أهمية دعاء الإمام علي بن أبي طالب (ع)

دراسة أسلوبية نحوية

محمد إسماعيل عبدالله سعيد آل بدير

من المعلوم أن النتاج الفكري الضخم لأمير المؤمنين (ع) قد حوى في جنباته على موضوعات كثيرة تناولها بأسلوبه الخاص، ومنها الأدعية. فقد عرف عنه (ع) أنه طرق أغلب الموضوعات الاجتماعية وتناولها بشيء من الإسهاب والعرض الذي يوصل ـ حسب وجهته في الحياة ـ إلى فهم الحياة والتنوّر من قضاياه المهمةِ، فتطرّق إلى مواضيع مثل النصيحة والنقد للمجتمع وقضايا أخر تجري في هذا المضمار، همّه فيها محاولة فهم الحياة بما يرضي الربّ وبما يحسّن صورة المرء مع ربّه. وكان من هذه المواضيع: الدعاء، الذي اتخذه سلاحاً يواجه به هواجس النفس وتطلّعاتها ورغباتها، وجعله ترساً يتترّس[1] به ضد الإغراء والأهواء، وقدّسه بوصفه سبيلاً من سبل الاتصال بالذات المقدّسة. وهو في ذلك كلّه (**العبد الضعيف الذليل الحقير المسكين المستكين**)[2] الذي يطلب من ربّه التوبة والصفح عنه وكأنّه أسيرٌ مرتهن يطلب من سيّده الذي بيده عتقه إطلاق السراح والرحمة والغفران. وقد اشتهر عنه (ع) أنه كان (رجلاً دعّاءً)[3]، وكان (ع) يقول: (**ما أبرز عبدٌ يدَه إلى الله العزيز الجبّار عزّ وجل إلاّ استحيا الله عزّ اسمه أن يردها صفراً حتى يجعل فيها من فضل رحمته ما يشاء...**)[4].

لقد انتهج الإمام علي (ع) في أدعيته نهجاً يسّر لغيره سلوكه والإقتداء به، ومن منّا لا يحتاج إلى الدعاء للاتصال بربّه الكريم؟. ومن منّا يحسن مناجاته ﷻ بصحيح العبارات ودقيق الألفاظ وواضح المعاني؟. نعم كلّ الناس محتاجون لمثل هذه الأدعية الشريفة التي خرجت من قلبٍ صافٍ مليءٍ بالحبّ للربّ عزّ وجل. وذلك أن (الدعاء عند الأئمة الأطهار سلام الله عليهم غنىً ورحمةٌ عظيمةٌ يهبُها الله للناس، جاء في تفسير الإمام الرضا لقوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ ﴾[5] يقول: أغناك بأن جعل دعاءك مستجاباً)[6].

---

(١) ينظر: الأصول من الكافي: ثقة الإسلام أبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي (قدس) (ت ٣٢٩ هـ)، تح: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط/٣، ١٣٨٨ هـ: ٤٦٨/٢.

(٢) جزء من دعاء كميل يصف فيها أمير المؤمنين نفسه أمام الله عزّ وجل، ينظر: إقبال الأعمال: السيد علي بن موسى بن جعفر بن طاووس (ت ٦٦٤ هـ)، تح: الشيخ حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط/١، ١٩٩٦: ٢٢٢.

(٣) الأصول من الكافي: ٤٦٨/٢.

(٤) مكارم الأخلاق: الطبرسي: ٢٨١.

(٥) الضحى: ٨.

(٦) الاحتجاج: أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، تعليق: محمد باقر الخرسان، مؤسسة النعمان، بيروت: ٢١٩/٢.

لقد أحسن عليّ بن أبي طالب (ع) مناجاة ربّه الكريم حتى عدّ من الدعاة المشهورين لكثرة أدعيته وقدسيتها وأهميتها ونحن الآن نذكر من أهميتها النزرَ اليسير التي منها:

١. احتياجُ كلِّ الناس للاتصال بالله عزّ وجل، وعلى هذا فالناس كلّهم محتاجون إلى دعائه (ع)، للدعاء به كونه دعاءً متكاملاً وموثوقاً به.
٢. أغلب الناس غير قادرين على إنشاء الأدعية وخصوصاً ذات النفس الطويل. وهم بطبعهم يميلون إلى النتاج الكامل والمتوافر بين أيديهم للاستشهاد والدعاء به.
٣. إن من المسلّم به - ولو عند بعض الناس - أن لأدعية أمير المؤمنين قدسية خاصة وشرفية مميّزة وذلك لقدسية أمير المؤمنين (ع) وأفضليته من ناحية أخرى.
٤. الاعتداد بمثل هذه الأدعية للدعاء بها من جانب وللقياس عليها من جانب آخر.
٥. الاهتمام بمثل هذه الأدعية كونها تمثل نتاجاً أدبياً خلاباً له اتصال بالنفس الإنسانية من ناحية، وله اتصال بالذات المقدسة من ناحية أخرى. ولهاتين الناحيتين أهمية لا تنكر.
٦. امتياز أدعيته الشريفة بالأسلوب الرصين والبلاغة العجيبة جعلها مصدر اهتمام محبّي هذا النوع من الأدب. فقد اشتهر عنه (ع) أنه (**كان رجلاً دعّاءً**)[١] أي كثير الدعاء، وكذلك ينبغي أن يكون وهو سيد الموحّدين وإمام المتعبدين، وقد جاءت أدعيته كخطبه آيةً من آيات البلاغة العربية كدعاء كميل بن زياد المشهور[٢]. وقد تضمّنت من المعارف الإلهية والتوجيهات الدينية ما يصلح أن يكون منهجاً رفيعاً للمسلم الصحيح.
٧. انفراد دعاء الإمام علي (ع) وأهل بيته بأنماط وصور خاصة به تجعله ذا قيمة فنّية رفيعة ويشار إلى صاحبه بالبنان، كما أشير إلى غيره ممن عُرف بأسلوب أدبي خاص. وإن الدعاء الذي تفرّد به الإمام يظلُّ (واحداً من الأشكال الفنّية التي توفّر الإمام (ع) صياغتها: فمن حيث المظهر الخارجي له يقوم الدعاء على عنصر (المحاورة الانفرادية) وهي: التوجّه بكلام مسموع إلى الله تعالى، ومن حيث المظهر الداخلي له، يقوم الدعاء على عنصر (وجداني) يجسّده الكلام المذكور، ومن حيث أدوات الفن يقوم الدعاء على أدوات الصياغة اللفظية والإيقاعية والصورية والبنائية نفسها التي تستمر في سائر الأشكال الأدبية، ومن حيث المضمون تنطوي هذه المحاورة على جملة أفكار بعضها فردي يتّصل بحاجات الداعي الشخصية، وبعضها موضوعي يتّصل بظواهر عبادية واجتماعية...)[٣].

---

(١) الأصول من الكافي: ٢/ ٤٦٨.

(٢) ينظر: مصباح المتهجّد: شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (قدس) (ت ٤٦٠ هـ): صحّحه: الشيخ حسين الأعلمي، مط/الأعلمي، بيروت، ط/١، ١٩٩٨: ٥٨٤.

(٣) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي: د. محمود البستاني، مجمع البحوث الإسلامية، بيروت، ١٩٩٠: ٢٣٤.

مصادر دعاء الإمام علي (ع):

إن البحث عن مصادر دعاء الإمام علي (ع) قد يدخلنا في متاهات الكتب التي حوت نتاجه عموماً ودعائه على الخصوص. فإنّ مثل هذه الكتب أخذت منحيين عامين في التأليف الأول ذكرها الأدعية ذكراً مرسلاً من دون التعرض لذكر صاحب الدعاء إلا ما اشتهر منها والآخر: من قام بذكر الأدعية مع ذكر أصحابها وقائليها أو رُواتها. وعلى العموم فإن أغلب الكتب اعتمد حالة إظهار الدعاء والنصّ عليه دون الاهتمام من قريب أو بعيد بصاحب الدعاء أو عصر منشئه. وبمعاينة إلى هوامش الصحيفة العلوية الثانية والمحقّقة نلاحظ عدداً كبيراً من الكتب التي اهتمت بذكر أدعية الإمام علي (ع) منها ما هو مشهور متداول ومنها ما هو مغمور لم يشتهر ومنها ما كان مختصاً بالأدعية وبسطها ومنها ما كان أوسع من ذلك.

وبقياس الزمن الطويل الذي مرّ منذ إنشاء أمير المؤمنين علل أدعية إلى عصرنا هذا وشدة اهتمام العلماء الذين اهتمّوا بذكر هذه الأدعية والتمثل لها والاستئناس بها وانشغال العلماء والأدباء ـ ممن اهتم بها ـ على نسخها والتمثل بها، نجد أن هنالك كتباً كثيرة حوت مثل هذه الأدعية غاب بعضها وتلف آخر وخُبّئ مثل ذلك خوفاً أو ضنّاً به. على أن بعض هذه الكتب ظهر للعيان ورأته العيون، وغمر بعضها ولم تصل إليه يد العناية لإظهاره للوجود.

على أن هناك مصادر كثيرةً تلك التي ذكرت نتاجات أمير المؤمنين، ومنها الدعاء الشريف الذي كان من أسمى وأجلّ نتاجاته على العموم. وقد اعتمد محقق الصحيفة العلوية الثانية مثلاً على كتبٍ ومصادرَ، نذكرها مرتبة على حروف الهجاء لمعرفة مصادر دعاء الإمام علي (ع):

اسم الكتاب مع اسم مؤلّفه	ذكر الصفحات في هوامش الصّحيفة
أصل زيد الزراد	٢٠
أصول الكافي للشيخ الكليني	٦٩ / ٧٠ / ٨٠ / ٨١ / ٨٣ / ١٢٣ / ١٣٢
أقبال الأعمال لابن طاووس	١٢١ / ١٤٧ / ١٤٨ /١٤٩ / ١٥١ / ١٥٣/ ١٥٤ / ١٥٥ / ١٥٦ / ١٥٧ / ١٦١ / ١٦٢
الأمالي للشيخ الصدوق	٨٦
أمل الآمل للشيخ الحرّ العاملي	١٨٠
بحار الأنوار للمجلسي	١٧ / ٤٨ / ٤٩ / ٥٠ / ٥١ / ٥٥ / ٥٦ / ٥٧ / ٧٠ / ٨٨ / ١٠٧ / ١٠٩ / ١١١/ ١١٢ / ١١٤ / ١٢٤ / ١٢٥ / ١٣٧ / ١٣٨/ ١٣٩ / ١٤٠ / ١٤١ / ١٤٤ / ١٤٥ / ١٦٠ / ١٦٥ / ١٧٠ / ١٧٩

اسم الكتاب مع اسم مؤلّفه	ذكر الصفحات في هوامش الصّحيفة
البلد الأمين للشيخ إبراهيم الكفعمي	٢٠ / ٢٨ / ٣٠ / ٣١ / ٣٢ / ٣٣ / ٣٥ / ٣٧ / ٣٨ / ٣٩ / ٤١ / ٧٩ / ٩٩ / ١٠١
الجعفريات لأبي علي محمد ابن محمد بن الأشعث الكوفي	٨٥ / ١٢٦ / ١٢٧/ ١٣١ / ١٦٩ / ١٧٧ / ١٧٨
جمال الأسبوع لابن طاووس	٩٢ / ٩٣
الخصال للشيخالصدوق	٦٥ / ١٣٧ / ١٦٨
دعائم الإسلام للقاضي النعمان المصري	١٠٣ / ١٠٨ / ١٠٩ / ١٦٤ / ١٦٧ /١٧٠/ ١٧١ / ١٧٤ / ١٧٦ / ١٧٧ / ١٧٨
الدعوات أو سلوة الحزين للسيد فضل الله الراوندي	١٠١ / ١٠٧ / ١١٧ / ١٤٧ / ١٦٣
ذكرى الشيعة بأحكام الشريعة للشيخ الشهيد الأول	٨٧
شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار للقاضي النعمان المصري	١٧٥
عدّة السفر وعمدة الحضر للحسن بن علي الطبرسي	١٥٩
فلاح السائل للسيد عليّ ابن طاووس	٧٠ / ٧١ / ٨١ / ٨٥ / ٨٩ / ٩٠ / ٩٧ / ٩٨ / ١٠٣ / ١٠٤ / ١٠٥ / ١٠٦ / ١٠٧
قبس المصباح للشيخ سليمان ابن الحسن الصهرشتي	١٢٤
قرب الإسناد لعبد الله بن جعفر	٨٦ / ١٧٢
كامل الزيارات لابن قولويه	٢٠ / ١٧٨
كتاب صفين لنصر بن مزاحم	٩١ / ٩٨ / ١٧٢ / ١٧٣ / ١٧٤ / ١٧٦ / ١٧٩
كتاب الغيبة للشيخ الطوسي	١٠٢
كتاب الفقه المنسوب للإمام الرضا ع	٨٧
كشف المحجة في ثمرة المهجة للسيّد ابن طاووس	٨٧
الكلم الطيب للسيد علي خان المدني	١٣٣ / ١٣٤

اسم الكتاب مع اسم مؤلّفه	ذكر الصفحات في هوامش الصّحيفة
كنوز النجاح للشيخ الطبرسي	٦٩ / ٨٦ / ١٢١ / ١٢٢
لب اللباب للقطب الراوندي	١٨٠
مجموع الدعوات للتلعكبري	١٦
مجموع الرائق من أزهار الحدائق لهبة الله الموسوي	١٢٣
المحاسن لأحمد بن محمد البرقي	٨٠ / ١٦٤ / ١٦٥
المزار للشهيد	٨٨
المزار الكبير للشيخ الحائري	١١٢
المصباح للسيد ابن الباقي	١١١
المصباح للشيخ الكفعمي	٧٢ / ١٤٦
مصباح المتهجّد للشيخ الطوسي	٧٣ / ٧٥
مفاتيح النجاة للمحقق محمد باقر السبزواري	٤٤
مكارم الأخلاق للطبرسي	١١٥ / ١١٦ / ١٦٥
مناقب آل أبي طالب ابن شهر أشوب	١٣ / ١٢٢ / ١٦٦
المناقب للخوارزمي	١٢١ / ١٢٢
نهج البلاغة جمع الرضي	١٢٨ / ١٢٩ / ١٣٠
النوادر للسيد الراوندي	١٢٧ / ١٣١
النوادر لمحمد بن عيسى	١٣

هذه هي الكتب التي استشهد بها المحقق للصحيفة العلوية الثانية، وهي في مجموعها قليلة بالنسبة للكتب التي ذكرت أدعية الإمام علي (ع) لآن أغلب الذين تعرضوا لذكر هذه الشخصية ذكروا أنها شخصية مميزة ومتكاملة وأن لها نتاجاً أدبياً راقياً ومن ضمن هذا النتاج الأدعية ومنهم كارل بروكلمان المستشرق الشهير إذ يقول عنه (ع): (وله أدعية منسوبة له، منها الجوشن الكبير ودعاء الصبر ودعاء صباح وكميل ومشلول)[1]، وذكر له صحيفة سماها بـ (الصحيفة الكاملة)[2]. ولكن من ناحية أُخرى يمكن أن نستفيد من هذه المصادر

(١) تاريخ الأدب العربي: كارل بروكلمان، نقله إلى العربية: د. عبد الحليم النجار، دار المعارف بمصر، ١٩٥٩: ١٨٢/١.

(٢) ينظر: تاريخ الأدب العربي: ١٨٣/١.

بأن نعلم أن كتباً منوعة متفرقة تلك التي ذكرت أدعيته أو تعرضت لذكرها منها ما اختصّ بالأنساب والرجال والمناقب، ومنها ما كان عاماً في طرحه مثل كتب الأمالي والنوادر وغيرها. فهذا الجاحظ في موسوعته (البيان والتبيين) يذكره في صدر الجزء الثالث الذي خصّصه لمقتطعات من كلام النسّاك وقصار مواعظ الزهّاد فيقول: (وكان عليّ بن أبي طالب (ع) يقول: **اللهمّ إنَّ ذنوبي لا تضرُّك، وإنَّ رحمتك إياي لا تنقصك، فاغفر لي ما لا يضرُّك، وأعطني ما لا ينقصك**)[١]. وهذا الأستاذ سعيد علي يظهر إلى الوجود مناجاة أمير المؤمنين (ع) برواية السيّد فضل الله بن عليّ الراوندي (ح ٥٧٢ هـ) الذي يقول عن موضوعها: (يضم هذا الكتاب كما يتضح من اسمه المناجاة المنقولة عن أمير المؤمنين وإمام العارفين ع. وتتميّز هذه المناجاة بأسلوب بديعٍ وجذّاب، فضلاً عن المضامين السامية التي وردت فيها)[٢]وهكذا فأنت ترى أن نتاج الإمام علي (ع) غير محدود في كتاب بعينه، وإنّما كتب ألفت وغاب بعضها واختفى بعضها وهذا بعضها يُرى للعيان لأول مرّة.

إن نتاج أمير المؤمنين (ع) لم يكن مجموعاً لمدة طويلة من الزمن إلى أن جاء متأخراً من جمعه في صحيفةٍ علويّةٍ مباركةٍ، ثم ظهر أن هذه الصحيفة لا تحوي كلَّ نتاجه من الدعاء فجاء من يُتمَّ عمله هذا بصحيفةٍ أخرى سمّيت بالثانية، وعلى العموم فإن غلب نتاجه الشريف من الدعاء تداخل مع نتاجات غيره والدليل على ذلك أن هناك من ينسب دعاءً معيّناً إلى أمير المؤمنين (ع) في كتابٍ وإلى غيره في كتابٍ آخرَ مثل (دعائه إذا نظر إلى الهلال) فإنه ينسب إلى الإمام علي بن أبي طالب (ع) في الصحيفة العلوية الأولى[٣]، وينسب إلى الإمام علي السّجاد في الصحيفة السّجادية[٤]. ومثل ذلك دعاء الاستسقاء فقد نسب إليه في الصحيفة الثانية[٥]، وينسب إلى السّجاد في الصحيفة السّجادية[٦].

الأساليب الواردة في أدعية الإمام (ع):

النداء:

أسلوب من أساليب العربية الجميلة والمهمة، ويكمن جمال هذا الأسلوب في تنويعاته الكثيرة التي يعتمد عليها المنادي. أما عن أهميته فإنه أسلوب يعمد إليه المتحدث إلى جلب الانتباه والتركيز عليه والإصغاء له وفي ذلك أهمية لا تنكر. وهو أسلوب متحرر من قيود

---

(١) البيان والتبيين: ٢٢٣/٣.

(٢) مناجاة مولانا أمير المؤمنين عبرواية السّيد ضياء الدين فضل الله بن علي الراوندي (ح ٥٧٢ هـ): تح: سعيد علي، مط. العترة، إيران، ط/١، ١٤٢١ هـ: ٥٤.

(٣) ينظر: لـ: ١٢٥.

(٤) ينظر: الصحيفة السجّادية: الإمام علي بن الحسين زين العابدين (ع)، مط/المغرب، بغداد، ٢٠٠٠: ١٣٠.

(٥) ينظر: ص ١٢٦.

(٦) ينظر: الصحيفة السجّادية: ٦٥.

كثيرة، لأن منشئ النص أو المتحدث يعبر بصور كثيرة من التعبيرات التي تنطوي تحت هذا الأسلوب. ويعرفه الأقدمون بالأوصاف دون الحدود، فقد عدّه الخليل مع أوجه النصب فقال: (فالنصب أحد وخمسون وجهاً: نصب من مفعول به، ونصب من مصدر ... ونصب من نداء نكرة موصوفة... ونصب من النداء المضاف ...ونصب على النداء في الاسم المفرد المجهول...)[١]. أما سيبويه فيقول: (اعلم أن النداء كلّ اسم مضاف فيه فهو نصب على إضمار الفعل المتروك إظهاره، والمفرد رفع وهو في موضع اسم منصوب)[٢]. أما ابن السراج في مقدم حديثه عن النداء، فقد ابتدأ حديثه عن الحروف التي ينادى بها وعدّها خمسة، ثم قال: (وهذه ينبه بها المدعو)[٣]، إلا أنه استدرك بعد ذلك فقال: (وأصل النداء تنبيه المدعو ليقبل عليك)[٤].

ومثله ما ذكره أبو علي الفارسي من أن النداء تنبيه واستعطاف للمخاطب (لأجل أن المخاطَب قد يكون معرضاً عن المخاطِب متباعداً عن مكانه)[٥] ومثل ما فعله ابن السراج فعله ابن جني أيضاً من تصدره الكلام على النداء بذكر الحروف، فيقول: (الحروف التي ينبّه بها المدعو خمسة)[٦].

وعلى هذا فالجميع لديهم النداء تنبيه المدعو حتى قيل: (النداء هو تنبيه المنادى وحمله على الالتفات)[٧] وكان هذا التنبيه من أهم خصائص النداء، فلم نلحظ أياً من النحاة ممن كتب في النداء أهمل ذكره فهو عندهم أصل النداء وحقيقته على أننا نلاحظ هنا أن التنبيه المقصود في النداء هو مقدمة لعرض كلام جديد، فكل نداء هو تنبيه للسامع أن يسمع ما بعده من كلام، ولهذا يعدون للنداء معاني في أغلبها تدل على التأثر المفاجئ للمقابل وهو المدعو المقصود بالنداء.

أما حروف النداء فهي عند سيبويه ومن تابعه خمسة (يا، وأيا، وهيا، وأي، والألف)[٨]. وعدها ابن مالك وابن هشام ستة فأضافا إلى الخمسة (وا) التي للتفجع، فهي عندهم حرف تفجع لوحدها حتى يؤمن اللبس، وهي عندهم إحدى حروف نداء البعيد أو من في حكمه[٩]، وقد سمى سيبويه الحرف الخامس (الألف)، وسماه المبرد همزة الاستفهام[١٠]، ويسمّيه الرمّاني

---

(١) كتاب الجمل في النحو: الخليل بن أحمد الفراهيدى: ٦٤ ـ ٦٥.
(٢) الكتاب: سيبويه: ١٨٢/٢.
(٣) كتاب الأصول في النحو: ابن السراج: ٤٠٠/١.
(٤) نفسه: ٤٠١/١.
(٥) كتاب المقتصد: ٧٦١/٢ ـ ٧٦٢.
(٦) اللمع: ١٩٨.
(٧) في النحو العربي نقد وتوجيه: ٣٠١.
(٨) ينظر: الكتاب: ٢٢٩/٢.
(٩) ينظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث، القاهرة، ١٩٨٨: ٢٥٥/٢ ـ ٢٥٦، وينظر: مغني اللبيب: ٣٦٩/١.
(١٠) المقتضب: ١٦٣/١.

والزجاجي[١] وابن مالك الهمزة. ويرى بعض النحاة أن الهمزة حرف لوحده، والألف وهو المد حرف لوحده أيضاً، فيكون عدد الحروف ستة. وعد ابن هشام حرفي الهمزة وأي مقصورتين وممدودتين فزاد حروف النداء مع (وا) التي للندبة والتفجع إلى ثمانية حروف[٢].

وتستعمل هذه الحروف ظاهرة فإذا حذفت قدر عنها جميعاً بـ (يا) التي من دلالتها تنبيه المدعو قريباً كان أم بعيداً شريفاً كان أم وضيعاً، ويظهر في حرف المد الذي يختمه إمداد للصوت ينفع عند إطالته لإيصال الصوت إلى السامع البعيد أو إلى (الشيء المتراخي عنهم والإنسان المعرض... أو النائم المستثقل)[٣] ومن دلالاته أيضاً استعماله مع أخواته (إذا كان صاحبك قريباً مقبلاً عليك توكيداً)[٤].

إن هذه الحروف لم تلق من الاهتمام ما لقيته (يا) فهي أم الباب وهي المعول عليها في التقدير عند حذف الحروف إلى غير ذلك، ولها استعمالان الأول في المعنى الحقيقي للدعاء إذا كان المدعو من الأشياء القابلة للدعاء، والآخر هو ما يخرج إليه الدعاء من معان مجازية.

ولأهمية (يا) في الدعاء الذي نحن بصدده اهتممنا بها دون غيرها من حروف النداء فهي من (أكثر حروف النداء استعمالاً)[٥] في عموم النداء و (ليس في التنزيل نداء بغير (يا)...)[٦].

ولـ (يا) مداخل عديدة وعدّ ابن فارس بعضها فقال: (تكون للنداء نحو: (يا زيد). والدعاء نحو: (يا الله). وتكون للتعجب، كقوله (يا له فارساً). وفي التعجب من المذموم: (يا له جاهلاً ...)[٧].

وتكون للمدح والذمّ ومثّل لذلك بشواهد شعرية[٨]، وتكون للتلهف والتأسف نحو قوله عزّ وجل: ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِ ﴾[٩] وتأتي للتنبيه في مثل قوله (عزّ وجل): ﴿ أَلَّا يَسۡجُدُواْ ﴾[١٠]، وتكون للتلذذ نحو قوله (يا بردها على الفؤاد لو يقف)[١١].

إن ابن فارس وقع على معنىً مهم من معاني (يا) وهو الدعاء، ولم يشر إليه أحدٌ ممن تحدّث عن معانيها، وذلك لتركيزهم على المعاني النحوية والبلاغية التي حدّدوها في

---

(١) ينظر حروف المعاني: أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي(ت ٣٤٠ هـ)، تح: د. علي توفيق الحمد، دار الأمل، الأردن، ط/١، ١٩٨٤: ١٩.

(٢) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك: تح: عبد المتعال الصعيدي: ١٩.

(٣) الكتاب: ٢/ ٢٣٠.

(٤) كتاب الأصول: ٣٢٩/١.

(٥) مغني اللبيب: ٣٧٣/٢.

(٦) نفسه: ١٣/١.

(٧) الصاحبي: ١٤٩.

(٨) ينظر: نفسه.

(٩) يس: ٣٠.

(١٠) النمل: ٢٥.

(١١) ينظر: الصاحبي: ١٥٠.

مؤلفاتهم، على أنّ خاصّتين من خواص (يا) هما من أهم خواص هذا الحرف على الإجمال وهما:

١. إن حرف النداء (يا) هو أكثر حروف النداء استعمالاً في العربية وإنه الأوحد من الحروف الذي استعمل في الذكر الحكيم.

٢. إنه جاء في لغة الأدب بمعناه المجازي. فإذا علمنا أن أكثر النتاج الأدبي العربي هو الشعر، فإن المتتبع للشعر العربي يلمح هذا المعنى بدقة، إذ إن الشعراء دأبوا على استعمال النداء بـ (يا) بمعناه المجازي دون الحقيقي.

وقد ورد نداء الله (عزّ وجل) بـ (يا) ظاهرة ومضمرة في دعاء الإمام علي (ع) في مواضع كثيرة بشكل ملحوظ، كلّ ذلك ليدلل على أهمية النداء في الدعاء، وقد ورد النداء عنه بأنماط وصور هي:

النمط الأول: نداء الله (عزّ وجل) بـ (لفظ الجلالة)

وقد ورد هذا النمط بصور منها:

الصورة الأولى: النداء بـ (اللّهُمّ)

وهو من أشهر الأسماء التي اختصت بنداء الله (عزّ وجل) وأكثرها على الإطلاق. والمتتبع لأدعية أمير المؤمنين (ع) يلحظ ذلك بوضوح، فأدعيته في الأغلب تتضمن هذا النداء إلاّ ما كان تحميداً أو تسبيحاً[١]، أو أن يستعاض عنه بـ (إلهي).

وقد خرج الخليل لفظ (اللّهُمّ) بأنّه (يا الله) حذفت منه (يا) وعوّض عنها بـ (ميم) مشدّدة في آخر اللفظ فعنده أن (اللّهمّ) فيه لفظ الجلالة مع النداء المعوض عنه بـ (ميم مشدّدة) فلا حاجة لذكر (يا) قبلها[٢].

أما الفراء فيراه نداءً معه (أُمّ) فعنده أن أصل (اللّهُمّ) هو (يا الله أُمّنا بالخير) فخفّف بالحذف لكثرة الدوران على الألسن[٣]. أي أن الهمزة ألقيت وطرحت حركتها على ما قبلها، وقد ردّ كثيرون على الفراء قوله، منهم المبرد[٤] والرضي بقوله: (يقال أيضاً اللّهُمّ لا تؤمّهم بالخير)[٥]. وهو على كل حال نداء مفخّم له سبحانه لدلالة (الميم) على التفخيم[٦].

---

(١) ينظر: شرح نهج البلاغة: تح: محمد أبو الفضل: ٧٦/١٠ و١١٣.

(٢) ينظر: الكتاب: ١٩٦/٢، وينظر: الخليل بن أحمد الفراهيدي، أعماله ومنهجه: مهدي المخزومي، مط/الزهراء، بغداد، ١٩٦٠: ٢١٤.

(٣) ينظر: معاني القرآن: ٢٠٣/١، وينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف: الشيخ كمال الدين أبو البركات الأنباري (ت ٥٧٧ هـ)، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، مط/السعادة، مصر، ط/٣، ١٩٥٥: ١٩٠/١.

(٤) ينظر: المقتضب: ٢٣٩/٤.

(٥) شرح الكافية في النحو لابن الحاجب (ت ٦٤٦ هـ): رضي الدين الاسترابادي (ت ٦٨٦ هـ) ط/العثمانية، ١٣١٠ هـ: ٧٦.

(٦) ينظر: مدرسة الكوفة: ٢٢٣.

وقد ورد لفظ (اللّهُمّ) في أدعيه أمير المؤمنين كثيراً، ولا يمكن حصره في عدد بعينه لعدم القدرة على حصر أدعية أمير المؤمنين - كما أشرنا - وقد ورد بنماذج وصور منها:

١. ورد كثيراً في بداية الأدعية عموماً للدلالة على المدحة والتفخيم للمدعو وهو الله (عزّ وجل) ذلك أن الداعي يعمد إلى إظهار هذا التفخيم ابتداءً ليكون له مدخلاً حسناً لما يأتي بعد ذلك من أمور هي من صلب الدعاء، نحو قوله (ع): (**اللّهُمّ إنك ابتدأتني بالنعم ولم أستوجبها منك بعمل ولا شكر**)[١] وقوله: (**اللّهُمّ ربّ البهاء والعظمة والكبرياء والسلطان...**)[٢].

٢. ورد كثيراً ذكره في أثناء الدعاء، وكان يعمد (ع) إلى ذلك لتقسيم الدعاء إلى فقرات، كلّ فقرة تبدأ بـ (اللّهُمّ). وقد يلجأ إلى تقسيم الفقرة ذاتها على فقرات أصغر، كلّ منها تبدأ بـ (**اللّهُمّ**). نحو دعائه (ع) في قنوت صلاة الفجر فقد ابتدأه بـ (**اللّهُمّ إنّا نستعينك ونستهديك ونؤمن بك ونتوكل عليك ونثني عليك بالخير...**)[٣] ثمّ قال بعد ذلك كبداية لفقرة أخرى: (**اللّهُمّ إياك نعبد ولك نصلّي ونسجد وإليك نسعى و...**)[٤] ثمّ بعد ذلك فقرة أخرى (**اللّهُمّ اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولّنا فيمن تولّيت...**)[٥].

وقد يستعمل في تقسيم الفقرة على فقرات صغيرة (واو العطف) بعد (**اللّهُمّ**) وقبل الجملة الجديدة دليلاً على ذلك، نحو قوله في منتصف أحد أدعيته: (**اللّهُمّ وأسألك سؤال من اشتدّت فاقته، وأنزل بك عند الشدائد حاجته...**)[٦] ونحو قوله: (**اللّهُمّ ولا تجعل بي حاجة إلى أحد من شرار خلقك ولئامهم...**)[٧].

١. ورد كثيراً مع السؤال في صيغة (**اللّهُمّ إني أسألك**) و (**اللّهُمّ وأسألك**) نحو قوله: (**اللّهُمّ إني أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والغنيمة من كل خير والسلامة من كل إثم والفوز بالجنّة والنجاة من النار**)[٨].

٢. ورد كثيراً قبل الطلبة، نحو قوله: (**اللّهُمّ اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم، اللّهُمّ اغفر لي الذنوب التي تنزل النقم، اللّهُمّ اغفر لي الذنوب التي تغير النعم.**)[٩] ونحو قوله: (**اللّهُمّ أصلح لي سمعي وبصري وشعري وبشري وقلبي صلاحاً باقياً...**)[١٠].

---

(١) ص دعاء الأمان: ٤٩.
(٢) ص دعاؤه في النهار: ٧٣.
(٣) ص في قنوت صلاة الفجر: ٨٨
(٤) نفسه.
(٥) نفسه: ٨٩.
(٦) لـ: ١١٤.
(٧) ص ٨٦.
(٨) ص ٩٠.
(٩) لـ: ١١٢.
(١٠) لـ: ٧٤.

٣. ورد كثيراً جملة اعتراضية نحو قوله: **(وأفتحاللّهُمّ لنا مصاريع الصباح بمفاتيح الرحمة والفلاح، وأغرس اللّهُمّ لعظمتك في شرب جناني ينابيع الخشوع، وأجر اللّهُمّ لهيبتك من آماقي زفرات الدموع، وأدّب اللّهُمّ نزق الخرق مني بأزمة القنوع)**[١].

٤. ورد أحياناً مع نداءات أخر يقدم خلالها على الجميع، نحو قوله: **(اللّهُمّ مولاي كم من قبيح سترته)**[٢].

٥. ورد في أسلوب خاص مع التسبيح والتحميد نحو قوله: **(سبحانك اللّهُمّ وبحمدك)**[٣].

٦. ورد مع الصلاة على محمد وآل محمد التي اشتهرت في أدعية آل البيت شهرة عظيمة، نحو قوله: **(اللّهُمّ صلّ على محمد وآل محمد، وأعطني من فضلك وأعذني من الشيطان الرجيم)**[٤] ونحو قوله: **(صلّ اللّهُمّ على الدليل إليك في الليل الأليل، والمتمسك من أسبابك بحبل الشرف الأطول، والناصع الحسب في ذروة الكاهل الأعبل، والثابت القدم على زحاليفها في الزمن الأول، وعلى آله الأخيار المصطفين الأبرار)**[٥].

الصورة الثانية: نداء الله (عزّ وجل) بـ (يا الله)

اللّه: اسم للذات المقدّسة الواجبة الوجود، وهو من أشرف الأسماء التي سمى بها اللّه نفسه، وأقدسها واجلها شرفاً. ومن عرف العربية أن لا ينادى الاسم المحلى بـ (أل) مباشرة بحروف النداء، حتى يتوسط بينها وبين الاسم (أيّها) أو (أيّتها) وأمثالها، إلاّ اللّه وذلك لأن الألف واللام فيه ملازمة قال سيبويه: (إن هذا الاسم لا تفارقه الألف واللام، وكثر في كلام العرب)[٦]. وعلى هذا فيمكن أن نقول (يا اللّه). وقد ورد في دعاء أمير المؤمنين (ع) بنماذج منها:

١. لم يرد هذا النداء كثيراً في دعاء الإمام علي (ع) وإنما ظهر قليلاً قياساً إلى غيره من النداءات، ومؤدّى ذلك راجع إلى طبيعة اللغة، فلم يرد فيها كثيراً أيضاً.

٢. ورد في أثناء الأدعية، ولم يوضع في بدايات الأدعية وذلك لأن لغيره من النداءات مثل **(اللّهُمّ)** و **(إلهي)** وقع أكثر في السمع وإن لم نعدم ما للفظ (اللّه) من وقع إلا أن ذلك لم يكن مع النداء به.

٣. ورد في أثناء الدعاء مع غيره من النداءات نحو: **(اللّهُمّ يا اللّه يا هو يا من لا يعلم أين هو...)**[٧].

---

(١) لـ: ١٠.

(٢) لـ: ١١٤.

(٣) لـ: ١٢.

(٤) لـ: ٢١.

(٥) لـ: ٩ – ١٠.

(٦) الكتاب: ٢/٩٤.

(٧) ص ١٣٩.

٤. ورد بعد السؤال وقبل الطلبة نحو: (**اللّهُمّ إني أسألك يا الله بحق الاسم الرفيع عندك...**)[١] ونحو: (**وأسألك يا الله بالربوبية التي تفرّدت بها أن تقيني من النار بقدرتك**)[٢].

٥. ورد دعاء له عاعتمد فيه على نداء (**يا الله**) المكرّر الذي جعل بينه نداء أسماء الله الحسنى مرتبة: (**يا الله يا الله يا الله يا رحمن يا الله يا رحيم يا الله يا ملك يا الله يا قدوس يا الله...**)[٣].

٦. ورد مكرراً في بعض الأدعية نحو: (**يا الله يا الله يا رحمن يا رحيم يا رحيم...**)[٤].

الصورة الثالثة: (إلهي)

يبدو أن لهذه الصيغة أهمية ملحوظة لكثرة ورودها في أدعية أمير المؤمنين ع، وتأتي أهميتها لكونها تقرب المنادى من النفس لكونها مضافة إلى (ياء المتكلم) وبذلك تشعر بقرب المنادَى إلى المنادي. وهي متكونة من (نداء مضمر) + (إله) + (ياء المتكلم)، وهي شبيهة بـ (**اللّهُمّ**) في جميع المسائل تقريباً، وقد جاءت بنماذج منها:

١. وردت في أول الأدعية عند عدم ذكر (اللّهُمّ) فيها مثل: (**إلهي إليك أخبتتقلوب المخبتين وبك أنست عقول العاقلين**)[٥]، وقوله: (**إلهي كيف أدعوك وقد عصيتك، وكيف لا أدعوك وقد عرفتك**)[٦].

٢. وردت في أثناء الدعاء وبشكل ملحوظ وجميل يشعر السامع والمردد للدعاء بالسكينة والارتياح جراء تكرار هذه الصيغة في بداية كلّ فقرة، نحو قوله: (**إلهي إن كان ذنبي قد أخافني منك فإنّ حسن ظنّي بك قد أجارني. إلهي كأنّي بنفسي قائمةً بين يديك، وقد أظلّها حسن توكلي عليك. إلهي إن عفوت فمن أولى منك بذلك...**)[٧].

٣. وردت في بدايات الفقرات الداخلية التي تعدّ تقسيمات للدعاء الطويل، لإحداث مهلة في الدعاء أو لترتيب الموضوع العام للدعاء على شكل فقرات صغيرة نحو: (**إلهي كبر سنّي، ودقّ عظمي، ونال الدهر منّي، واقترب أجلي، ونفدت أيامي، وذهبت محاسني، ومضت شهوتي، وبقيت تبعتي...**)[٨] ثم قال: (**إلهي أفحمتني ذنوبي، وانقطعت مقالتي، ولا حجّة لي**)[٩] ثم قال: (**إلهي أنا المقر بذنبي...**)[١٠]، وهكذا.

---

(١) ص ١٥٠.
(٢) ص ١٥٠.
(٣) لـ: ١٦١.
(٤) لـ: ٢٥٣.
(٥) ص ١١١.
(٦) ص ١١٢.
(٧) ص ٦١.
(٨) ص: ١١٣.
(٩) ص ١١٣.
(١٠) ص ١١٣.

٤. وردت في وسط الدعاء وقد جاء بعدها استفهام منوع، فمنه ما كان بـ (كيف) نحو: **(إلهي كيف انقلب بالخيبة من عندك محروماً، وكان ظنّي بك وبجودك أن تقلبني بالنجاة مرحوماً)**[١]، ونحو: **(إلهي كيف تطرد مسكيناً التجأ إليك من الذنوب هارباً...)**[٢] والهمزة نحو: **(إلهي أمن أهل الشقاء خلقتني فأطيل بكائي...)**[٣].

٥. وردت وبعدها شرط كثير ملحوظ نحو: **(إلهي إن كان لا يجوز على الصراط إلاّ من أجازته براءة عمله، فأنى بالجواز لمن لم يتب إليك قبل انقضاء أجله)**[٤] ونحو: **(إلهي إذا ذكرت رحمتك، ضحكت إليها وجوه وسائلي. وإذا ذكرت سخطتك بكت لها عيون مسائلي)**[٥].

٦. وردت بعدها طلبات بأفعال أمرية نحو: **(إلهي فاقض بسجل من سجالك على عبد بائس فقد أتلفه الظمأ...)**[٦] ونحو: **(إلهي ارحمنا غرباء إذا تضمّنتنا بطون لحودنا، وعميت باللبن سقوف بيوتنا)**[٧].

٧. وردت بعدها جمل اسمية وفعلية نحو: **(إلهي كلّ مكروب إليك يلتجئ وكلّ محزون إياك يرتجي، إلهي سمع العابدون بجزيل ثوابك فخشعوا)**[٨].

٨. ومما اشتهر عند الناس مناجاة أمير المؤمنين المنظومة التي يُذكر منها ثلاثون بيتاً، ورد في جميعها النداء بـ **(إلهي)** إلاّ ثلاثة منها. التي منها:

لك الحمد يا ذا الجود والمجد والعلى ... تباركت تعطي من تشاء وتمنعُ
إلهي وخلاّقي وحرزي وموئلي ... إليك لدى الإعسار واليسر أفزعُ
إلهي ترى حالي وفقري وفاقتي ... وأنت مناجاتي الخفيّة تسمعُ
إلهي لئن جلّت وجمّت خطيئتي ... فعفوك عن ذنبي أجل وأوسعُ

الصورة الرابعة: (يا إلهي)

وهذه الصورة وإن لم ترق للنداءات السابقة في الاستعمال إلاّ أنها تبرز وبشكل مهم في الدعاء لأن لها الأثر الأبلغ من غير سابقتها التي أضمر فيها النداء لأن الإظهار أوكد من الإضمار، لأن التوكيد فيه واضح فبين قولنا (إلهي اغفر لي) و (يا إلهي اغفر لي) يبرز الأثر

---

(١) لـ: ٧٥.
(٢) لـ: ١١.
(٣) لـ: ٧٧.
(٤) لـ: ٨٢.
(٥) لـ: ٨٠.
(٦) لـ: ٨٠.
(٧) لـ: ٨٣.
(٨) لـ: ٧٩.

للثانية، لأن الكلام قد أطاله المتكلم، وإن وقع صوت (يا) له أثر في النفس إلى غير ذلك من الأسباب التي تجعل النداء بوجود حرف النداء أبلغ من الإضمار، إلاّ أن في الإضمار نوعاً من السهولة واليسر في اللفظ للمنادي وسلاسة في النطق يوفرها عدم حجر الكلام بنطق (يا). فالإظهار أبلغ والإضمار أيسر وأخفُّ.

وعلى الرغم من أن الدعاء بها لم يرد كثيراً فقد وردت هذه الصيغة في دعاء أمير المؤمنين بنماذج منها:

١. وردت في بدايات فقرات داخلية، إذ لم يرد لها في بداية الأدعية ذكرٌ مطلقاً.

٢. وردت مع نداءات أخرى نحو: **(يا إلهي وسيدي وربيّ أتراك معذبي بنارك بعد توحيدك وبعدما انطوى عليه قلبي من معرفتك)**[1].

٣. وردت جملاً ندائية اعتراضية نحو **(فهبني يا إلهي وسيدي ومولاي وربّي صبرت على عذابك، فكيف أصبر على فراقك...)**[2].

النمط الثاني: - نداء الله بـ (ربّ)

(الربّ): تطلق على المالك، فربُّ كلِّ شيءٍ مالكه، والمالك الأعظم هو الله (عزّ وجل) فهو الربّ المطلق لجميع الموجودات وإن لهذه الصيغة جمالية خاصة في النداء، فقد ركز القرآن الكريم عليها تركيزاً واضحاً حتى نكاد نلمح هذه الصيغة وأخواتها هي الغالبة في أدعية القرآن الكريم ومثل ذلك وجدناه في أدعية أمير المؤمنين إلا في بعض الخصوصيات التي منها:

١. إن القرآن الكريم لم يذكر الأدعية الطوال - كما أسلفنا - وإنما ذكر الأدعية الموجزة والمختصرة، وقد ذكرت **(اللهمّ)** مع أدعية أهل البيت الطويلة، فمن هنا نلحظ فارقاً مهماً وهو أن **(اللهمّ)** تستعمل مع الأدعية الطويلة، وأن **(ربّ)** مع الأدعية القصيرة أو فقرات الأدعية الطويلة الداخلية.

٢. ذكر القرآن الكريم للدعاء بـ (ربّ) يدلل على أن من خصوصية القرآن الدعاء بـ (ربّ) وأخواتها، وأن من خصوصية أدعية أهل البيت الدعاء بـ **(اللهمّ)**.

٣. إن لذكر الربّ في القرآن الكريم خصوصية ملحوظة فإذا عرفنا أن للربّ معانيَ عديدةً، واشتقاقُ الربّ من جذور كثيرة يؤدي بنا لفهم القرآن في طروحاته جميعها، فالقرآن كتاب معجز في نظمه فقد يكون لذكر عبارة معينة مثل **(ربّ)** لها دلالة معينة هنا ولها دلالة أخرى هناك على حين ركز دعاء أهل البيت على معان بعينها فذكر **(اللهمّ)** لذلك لشمولها على الدعاء حسب.

٤. إن للفظة **(ربّ)** المقتضبة أهمية ملحوظة في ذكر الدعاء المقتضب، وإن للفظة **(اللهمّ)** مع الأدعية الطويلة أهمية لذلك.

---

(١) لـ: ١١٧.

(٢) لـ: ١١٩.

فظهرت (ربّ) في القرآن الكريم كثيراً ولم نلحظ لها وجوداً في الأدعية مقارنة بغيرها من النداءات، وقد جاءت هذه اللفظة بصور منها:

الصورة الأولى: يا ربّ

وردت هذه الصيغة في دعاء الإمام علي (ع) بنماذج منها:

١. جاءت في جملة نداء ابتدائية إذ يبتدأ بها لتشكيل فقرة جديدة نحو: **(يا ربّ إنك تدعوني فاولّي عنك وتتحبّب إليّ فاتبغّض إليك وتتودّد إليّ فلا أقبل منك كأن لي التطوّل عليك)**[١]. ونحو: **(يا ربّ ارحم ضعف بدني ورقّة جلدي ودقّة عظمي)**[٢].

٢. جاءت في جملة نداء اعتراضية نحو: **(خلقتني يا ربّ وتفردت بخلقي)**[٣]. ونحو: **(فإليك يا ربّ نصبت وجهي وإليك يا ربّ مددت يدي)**[٤].

٣. جاءت ضمن نداءات أخر نحو: **(يا ربّ يا الله يا منزل البركات بك تنزل كلّ حاجة)**[٥].

٤. تأتي في معنى النداء الموجه، وهذه خصوصية لها فقد جاءت في قوله ع: **(وهو يناديك يا ربّه)**[٦].

٥. ولها خصوصية أخرى كونها تأتي مكرّرة إذ تحدث نسقاً موسيقياً يجري فيه المنادى بانسياب جميل كانسياب الماء في الغدير فقد جاءت في قوله: **(يا ربّ يا ربّ يا ربّ أسألك بحقك وقدسك وأعظم صفاتك وأسمائك...)**[٧]. ونحو: **(يا سيدي يا من عليه معوّلي يا مَنْ إليه شكوتُ أحوالي ياربّ ياربّ ياربّ قوِّ على خدمتك جوارحي...)**[٨].

الصورة الثانية: ربّ

وقد يلجأ الداعي إلى حذف حرف النداء تخفيفاً أو استغناءً، ومع هذا اللفظ الذي شغف به الدعاة شغفاً كبيراً حصل هذا الحذف فأصبح هذا اللفظ بصيغة سهلة في النطق رقيقة في النبر، فحصل أن حذف حرف النداء وتم مناداة (ربّ) مباشرة، وقد جاءت هذه الصورة بنماذج في دعاء أمير المؤمنين (ع) منها:

١. وردت في بداية فقرة فيها طلب نحو قوله: **(ربّ اجعلنا من الشاكرين)**[٩].

---

(١) لـ: ٦٢.

(٢) لـ: ١١٦.

(٣) لـ: ٢١٣.

(٤) لـ: ١٢٣.

(٥) ص ١٦٢.

(٦) لـ: ١٢٠.

(٧) لـ: ١٢٢.

(٨) لـ: ١٢٢.

(٩) ص ١٦٤.

٢. وردت في بداية فقرة لتدلل على تقسيم الدعاء إلى فقرات نحو: (**ربّ لا أهلك وأنت الرجاء...**)[١]. ونحو: (**ربّ ما أحرصني على ما زهّدتني وحثثتني عليه... ربّ دعتني دواعي الدنيا من حرث النساء والبنين، فأجبتها سريعاً... ربّ خوفتني وشوّقتني واحتجبت عليّ، فما خفتك حقّ خوفك...**)[٢].

٣. وردت مع نداءات عديدة نحو: (**يا إلهي وسيّدي ومولاي وربّي...**)[٣].

الصورة الثالثة: ربّنا

ورد هذا النداء في أدعية أمير المؤمنين (ع) بنماذج منها:

١. ورد في جمل اعتراضية نحو: (**لا إله إلا أنت تبقى ربّنا ويفنى كلُ شيء...**)[٤] ونحو: (**فلك الحمد وجهك ربّنا أكرم الوجوه، تطاع ربّنا فتشكر**)[٥].

٢. يأتي في ضمن نداءات أخر نحو: (**اللهمّ ربّ الموت والحياة وربّ السماوات والأرض وربّ العالمين ربّنا وربّ آبائنا الأولين...**)[٦].

ولم يأتِ هذا النداء كثيراً في أدعية الإمام علي (ع) لأن النداء بـ (**ربّنا**) نداء الجماعة وأدعية الإمام علي أدعية شخصية فيها نداء المفرد واضح وضوحاً بارزاً نحو:

- (**هب لي من لدنك رحمة وعلماً ومالاً وولداً طيباً**)[٧].
- (... **أكثر ذكرك في الضراء واغفل عنه في السراء...**)[٨].
- (**اللهم واستغفرك لكل ذنب يدعو إلى غضبك...**)[٩].

وهذا هو الأغلب والأعم حتى إذا ألجأه ملجأٌ إلى غير ذلك مثل الأدعية التي تكون جماعية كأدعية الاستسقاء وغيرها فيظهر النداء الجماعي في مثل هذه الأدعية. إلا أنه قد يذكر (**اللّهمّ**) لذلك أيضاً لأنها دعاء المفرد والجمع على السواء نحو (**اللهم خرجنا إليك حين فاجأتنا المضائق الوعرة وألجأتنا المحابس العسرة...**)[١٠] ونحو (**اللهم اسقنا رحمة منك واسعة وبركةً من الهاطل نافعة يدافع الودق منها الودق...**)[١١] ونحو قوله في إصلاح المخالفين (**اللهم احقن دماءَ هم وأصلح ذات بيننا وبينهم...**)[١٢].

---

(١) ص ١٨٤.
(٢) ص ١٨٢.
(٣) ص ١٦٨.
(٤) لـ: ٢٧٩.
(٥) ص ٩١.
(٦) لـ: ٢٩٠.
(٧) ص ١٥٥.
(٨) ص ٥١.
(٩) ص ٢٢.
(١٠) لـ: ١٩٤.
(١١) لـ: ١٩٦.
(١٢) لـ: ١٨٦.

الصورة الرابعة: نداء (ربّ) المضاف إلى غيره

الله (عزّ وجل) إلهُ كلّ شيءٍ وخالقُ كلّ شيءٍ وهو ربّ كلّ شيءٍ، والمخلوقات بأجمعها رهن طاعته طوعاً أو كرهاً، وهو القادر عليها جبروتاً، فإضافة الربّ إلى هذه المخلوقات جزء من إظهار أحقية الله (عزّ وجل) باعتداده ربّ كلّ شيءٍ. وقد ورد هذا النداء في دعاء أمير المؤمنين (ع) بنماذج منها:

١. جاءت هذه الصيغة بعد الدعاء المفخم (**اللّهمّ**) مباشرة نحو: (**اللّهمّ ربّ النور العظيم وربّ الكرسي الرفيع وربّ البحر المسجور...**)[١]، ونحو: (**اللّهمّ ربّ السماوات السبع وما أظلت وربّ الأرضين السبع وما أقلت...**)[٢].

٢. جاءت معطوفة على ما شابهها من نداءات أخر نحو الأمثلة السابقة ونحو: (**فلك الحمد ربّ السماوات والأرض وربّ العالمين...**)[٣].

٣. جاءت النداءات المتكررة بهذه الصيغة بعد المدحة كما في الدعاء السابق ونحو: (**الحمد لله ربّ السماوات السبع وربّ العرش العظيم وربّ الأنبياء والمرسلين وربّ الأولين والآخرين...**)[٤].

الصورة الخامسة: يا ربّاه

قد يعمد الداعي إلى تنويع النداءات، ومثل ذلك نرى الأمر عند أمير المؤمنين عإذ لجأ إلى نداء الله (عزّ وجل) بهذه الصيغة وهي التي تتألف من (يا) ثمّ (ربّ) ثم مدّ بعده هاء، وهي شبيهة بصيغة الندبة التي يستعاض عن (يا) فيها بـ (وا)، وقد يكون لها اشتراك مع الندب فقد تقول (وا نفساه) وتقول (يا نفساه) إذا نعيت نفسك إلا أن الأمر مع الله لا يكون كذلك لأن الله حاضر غير غائب وحيّ لا يموت.

وقد وردت في دعاء الإمام علي (ع) بقلّة ملحوظة لقلة استعمالها في اللغة عموماً، وقد وردت في دعائه (ع) بنماذج منها:

١. ذكرت مع نداءات أخر نحو: (**يا الله يا ربّاه...**)[٥].

٢. يكرر إذا ذكر في الدعاء نحو: (**يا الله يا ربّاه يا الله يا ربّاه يا الله يا ربّاه...**)[٦].

النمط الثالث: نداء الله (عزّ وجل) بـ (سيدي ومولاي)

لقد اشتهر في أدعية أهل البيت – عليهم السلام ـ ومنهم الإمام علي استعمال النداء (**يا سيدي**) و (**يا مولاي**) كنمط من أنماط الدعاء المشهور وقد ورد هذا النمط بصور منها:

---

(١) لـ: ١٢٦.
(٢) ص ٩٩.
(٣) ص ١٤٥.
(٤) لـ: ٢٤٢.
(٥) ص ١٦١.
(٦) ص ١٦١.

الصورة الأولى: سيدي

إن لفظ (السيد) من الألفاظ التي وردت في أدعيه الإمام علي وإن لم تبلغ من الكثرة مبلغ غيرِها مما ذكرنا ولكن وجوده في الأدعية في فقرات هنا وهناك يشعر الداعي بتعظيم الذات المقدسة التي يرومون دعاءها ويشعر بتقليل ذات الداعي وتحقيرها أمام الله وهو المدعو. وقد وردت هذه الصيغة بنماذج منها:

١. ورد في بدايات فقرات صغيرة داخلية مصاحباً نداءات أخرى نحو: (**إلهي وسيدي فأسألك بالقدرة التي قدرتها وبالقضية التي حتّمتها وحكمتها وغلبت من عليه أجريتها...**)[١].

٢. ورد ضمن نداءات أخر أخذت نسقاً معيناً يزداد مثلاً في النسق نداءات أخر فقد ورد في دعاء كميل قوله ع: (**إلهي وسيدي**) ثم قال: (**إلهي وسيدي ومولاي ومالك رقّي يا من بيده ناصيتي**)[٢].

٣. يأتي مع نداءات أخر لجمل اعتراضية نحو: (**فهبني يا إلهي وسيّدي ومولاي وربي صبرت على عذابك...**)[٣].

الصورة الثانية: يا سيدي

ورد الدعاء بصيغة (**يا سيدي**) في دعاء أمير المؤمنين بنماذج منها.

١. ترد في بداية فقرة صغيرة داخلية للسؤال أو ما شابه نحو (**يا سيدي فكيف بي وأنا عبدك الضعيف الذليل، الحقير المسكين المستكين...**)[٤].

٢. وردت مع نداءات أخر ضمن جملة نداء اعتراضية نحو (**وأنا أسألك يا سيدي ومولاي باسمك الأعظم أن تستجيب لي دعائي**)[٥]، ونحو (**فإني أسألك به يا سيدي ومولاي وإلهي يا حيّ يا قيّوم ويا كهفي...**)[٦].

٣. يأتي في نهاية فقرة نحو: (... **لا أجد لذنوبي غافراً ولا لتوبتي قابلاً ولا لندائي سامعاً ولا لعثرتي مقيلاً ولا لعورتي ساتراً ولا لدعائي مجيباً غيرك يا سيدي...**)[٧].

الصورة الثالثة: يا سيّدنا

وهي صيغة (**سيّد**) المناداة ومعها الضمير (**نا**) وعلى الرغم من أنها لم ترد كثيراً في دعاء الإمام علي (ع) إلا أنها قد وردت بنماذج معينة منها:

---

(١) لـ: ١٢١.

(٢) لـ: ١٢١.

(٣) لـ: ١١٨.

(٤) لـ: ١١٨.

(٥) لـ: ٣٣٠.

(٦) لـ: ٣٤٠.

(٧) ص ٥٤.

١. تأتي مع غيرها من النداءات في ختام فقرة أمرية نحو: (... **خل بيننا وبين أعدائنا وانصرنا عليهم يا سيدنا ومولانا**)[١].

٢. تأتي مع غيرها من النداءات المتكررة، ويلحظ تكرار بعض هذه النداءات إلى ثلاث مرات وان لهذا التكرار معناه الذي قد لا نفقهه نحن مع ماله من أثر في إحداث نسق موسيقي عند التكرار نحو: (**وأسألك بوجهك الكريم يا كريم** (ثلاثا) **يا سيدي** (ثلاثا) **يا فخرنا** (ثلاثا)...)[٢].

الصورة الرابعة: ـ مولاي

وترد بنماذج منها:

١. وردت ضمن نداءات أخر في بداية فقرات داخلية نحو: (**اللّهمّ مولاي كم من قبيح سترته وكم من فادح من البلاء أقلته**...)[٣]، ونحو: (**إلهي ومولاي أجريت عليّ حكماً اتبعت فيه هوى نفسي ولم احترس فيه من تزيين عدوي**...)[٤].

٢. وردت ضمن نداءات كثيرة يطيل فيها النداء له سبحانه لإطالة المدحة له وهو أهل لها نحو: (**وليت شعري يا إلهي وسيدي ومولاي أتسلط النار على وجوهٍ خرت لعظمتك ساجدةً**...)[٥]، ونحو: (**يا إلهي وسيدي ومولاي وربّي**...)[٦].

٣. وردت في جمل نداء اعتراضية نحو (**وتطوّلك يا سيّدي ومولاي على طول معصيتي لك اقصدني إليك**...)[٧]، ونحو: (... **وما ألزمتيه مولاي من فرض الآباء والأمهات**...)[٨].

٤. وردت في أسلوب خاص بها نحو: (**مولاي يا مولاي**)[٩].

٥. وقد يحوي دعاءٌ واحدٌ على هذه الصيغة بصورها دون غيرها فقد وردت مثلاً في دعاء كميل ست مرات وهذا دليل على مدى ما تحدثه من أثر في الدعاء.

الصورة الخامسة: يا مولاي

وترد بنماذج وصور منها:

١. تأتي في بداية فقرة استفهامية نحو: (**يا مولاي فكيف يبقى في العذاب وهو يرجو ما سلف من حلمك**...)[١٠].

---

(١) ص ١٤٥.
(٢) لـ: ٢٦٥.
(٣) لـ: ١١٤.
(٤) لـ: ١١٦.
(٥) لـ: ١١٧.
(٦) لـ: ١١٨.
(٧) لـ: ٣٤٨.
(٨) لـ: ٣٧٢.
(٩) ص ٥٧.
(١٠) لـ: ١١٩.

٢. تأتي في جمل نداء اعتراضية نحو: (**أتقول يا مولاي لدعائي نعم أم تقول لا...**)[١]، ونحو (**كلا وعزتك يا مولاي إنّك أكرم من ذلك...**)[٢].

٣. تأتي بأسلوب خاص بها نحو: (**مولاي يا مولاي**) وقد وردت أربعاً وعشرين مرةً في دعاء واحد دلالةً على خصوصيتها[٣].

النمط الرابع: نداء الله سبحانه بأسمائه الحسنى وغيرها

ورد في الشرع المقدس أن لله (عزّ وجل) (الأسماء الحسنى) وقد كثر الكلام عنها شرحاً وترتيباً وهي مائة إلاّ واحداً لقوله (ص): (**أن لله تسعاً وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة**)[٤] وعلى الرغم من عدم ورود صيغة مناداة أسماء الله الحسنى في القرآن فإنها كثرت في أدعية أمير المؤمنين كثرةً ملفتة تأسياً بقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[٥]. وقد ورد هذا النمط بصورٍ عدة منها:

الصورة الأولى: ـ نداء يا رحمن

الرحمن هو من أشهر الأسماء الحسنى وله أهميته في الدعاء لأن الداعي يركز على طلب الرحمة من ربّ الرحمة فكأنّه يقول له فارحمني لأنّك متصف بالرحمة وارحمني لأن اسمك الرحمن وهكذا لأن الله أهل أن يرحم الداعي وقد ورد هذا النداء بنماذج منها:

١. يرد مع نداءات أخر في وسط الدعاء نحو: (**يا الله يا رحمن أسألك بأسمائك بما هو رضى لك، يا الله يا رحمن أسألك أن تصلّي على محمّد وآل محمّد قبل كلّ شيء...**)[٦]، ونحو: (**يا رحيم يا رحمن يا عظيم يا من هو كل يوم في شأن...**)[٧].

٢. غالباً ما يكرر مع (رحيم) أو مع نفسه نحو: (**يا رحمن يا رحيم**)، ونحو: (**أنت القائم على كل نفس بما كسبت يا رحمن يا رحيم**)[٨]، ونحو: (**يا الله يا الله يا رحمن يا رحمن يا رحيم يا رحيم سبحانك اللّهمّ وبحمدك...**)[٩].

٣. ويأتي مكرراً تكراراً ملحوظاً كبقية النداءات التي تكرّر ثلاث مراتٍ نحو: (**يا الله (ثلاثاً) يا رحمن (ثلاثاً) يا رحيم (ثلاثاً) يا ذا الجلال والإكرام...**)[١٠]، ونحو:

---

(١) ص ٥٢.

(٢) ص ٥٤.

(٣) ينظر: ص ٥٧ ـ ٥٨.

(٤) صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦ هـ)، دار الفكر، بيروت: ١٨٥/٣.

(٥) الإسراء: ١١٠.

(٦) لـ: ٥٤.

(٧) لـ: ٣٨.

(٨) لـ: ٧٥.

(٩) لـ: ٢٥٣.

(١٠) لـ: ٢٦٥.

(يا الله (ثلاثاً) يا رحمن (ثلاثا) يا رحيم (ثلاثا) لا اله إلاّ أنت خشعت لك الأصوات...)[١].

الصورة الثانية: يا كريم

الكريم صفة له سبحانه واسم من أسمائه تعالى التي يسأل بها فكأن السائل يقول له سبحانه فكما أنّك كريم فجد عليّ من هذا الكرم وهكذا. وقد جاء في دعاء الإمام علي (ع) بنماذج منها

١. ورد في بداية فقرة داخلية نحو: (**يا كريم لكرمك تعرّضت وبه تمسّكت...**)[٢].
٢. ورد مع نداءات أخر في وسط الدعاء نحو: (**وأسألك بوجهك الكريم يا كريم** (ثلاثاً) **يا سيّدنا يا فخرنا يا ذخرنا...**)[٣].
٣. ورد في نهاية فقرة أو نهاية الدعاء نحو: (**إني أسألك الأمان الأمان يا كريم**)[٤]، ونحو: (... **ولك الحمد حمداً دائماً أبداً فأنت الذي تسبح لك الأرض ومن عليها يا كريم**)[٥].
٤. ورد مكرّراً نحو: (**يا كريم يا كريم يا كريم... يا كريم يا كريم يا كريم، اكفني مؤونة نفسي...**)[٦].

الصورة الثالثة: بقية أسماء الله الحسنى

إن من أهم مميزات أدعية أمير المؤمنين (ع) هي إغداقه المدحات له (عزّ وجل) بوصفه الواهب والمعطي والراحم والجواد إلى غير ذلك، فاحتاج أمير المؤمنين (ع) لإظهار هذه المدحات إلى نداءات كثيرة وأوصاف له كثيرة فأختار نداءه (عزّ وجل) بأسمائه الحسنى لذلك فكان في دعائه (ع) الكثير منها وقد وردت بنماذج منها:

١. وردت في أغلب أدعيته (ع) فلا يكاد دعاءٌ يخلو منها أو يستعاضَ عنها بـ (**اللّهمّ**) أو (**إلهي**).
٢. وردت في أغلب الأحايين مجتمعةً مع غيرها من النداءات إذ يعمد (ع) إلى نداء ربّه بأسمائه الحسنى بشكل مرتّب وفق نهجٍ وضعه (ع) فكان يدعو بالأسماء الحسنى مكرّرة تكرّراً واضحاً نحو: (**اللهمّ أنت اللّهُ، وأنت الرحمن، وأنت الرحيمُ، الملكُ، القدوس، السلامُ، المؤمن، المهيمن، العزيزُ، الجبّارُ، المتكبّرُ، الأول، الآخرُ...**)[٧].

وقد جاءت الأسماء الحسنى بصيغ منها:

---

(١) لـ: ٢٦٧.
(٢) ص ١٥١.
(٣) لـ: ٢٦٥.
(٤) ص ٥٥.
(٥) لـ: ٢٤٠.
(٦) لـ: ٦١.
(٧) لـ: في ذكر أسماء الله الحسنى: ٣٢ ـ ٣٣.

١. ذكر المنادى وحده نحو: (**يا محسن قد أتاك المسيء...**)[١]، ونحو: (**يا نور أنت نور السماوات والأرض قد استضاء بنورك أهل سماواتك وأرضك...**)[٢].

٢. ذكر الاسم المنادى مع غيره نحو: (**يا صادق يا بارّ يا من لا يخلف الميعاد يا من أمر بالدعاء وتكفّل بالإجابة...**)[٣]، ونحو: (**يا برُّ يا رحيم أنت أبر بي من أبي وأمّي ومن الناس أجمعين...**).

٣. ذكر الاسم المنادى مع أكثر من اسم معه نحو: (... **يا سميع يا مجيب يا بصير قد أحاط بكلّ شيء علمك...**)[٤]، ونحو: (**يا كريم يا جواد يا متكرّم يا قريب يا مجيب يا متعال...**)[٥].

٤. وقد تتكون الأسماء قد ذكرت كلّها أو أغلبها نحو: (**يا سلام المؤمن المهيمن العزيز الجبّار المتكبر الطاهر المطهّر القادر القاهر المقتدر يا من ينادى من كلّ فجّ عميق...**)[٦]، ونحو: (**يا ذا الملك والملكوت يا ذا العزّة والجبروت يا ملك يا قدّوس يا سلام يا مؤمن يا مهيمن يا عزيز يا جبّار يا متكبّر يا خالق يا بارئ يا مصوّر يا مقدّر يا مفيد يا مدبر يا شديد يا مبديء يا معيد يا مبيد...**)[٧].

الصورة الرابعة: دعاء الله عز وجل بالصفات

وقد ذكرت في أدعية أهل البيت (ع) نداءات كثيرة متضمّنة صفات عديدة له عز وجل تربو في بعض الأدعية على الألف صفة مثل دعاء الجوشن الكبير[٨]، وقد وردت في دعاء الإمام علي (ع) نداءات بالصفات. وقد جاءت بنماذج منها:

١. تأتي فرادى أو مجتمعةً مع باقي الأسماء الحسنى نحو: (**يا قدّوس... يا جبّارُ... يا متكبّرُ... يا عزيزُ... يا عليمُ...**)[٩].

٢. تكررت مجتمعة قد يراعى في ذكرها الحرف الأخير نحو (**أسألك يا فتّاح يا نفّاح يا مرتاح...**)[١٠]، ونحو: (**يا خبيرُ يا مجيرُ يا منيرُ يا بصيرُ يا ظهيرُ يا كبيرُ يا وترُ يا أحدُ يا صمدُ يا سندُ...**)[١١].

---

(١) ص ٨٥.

(٢) ص ١٥١.

(٣) ص ١٠٢.

(٤) ص ١٥٣.

(٥) لـ: ٢٧.

(٦) لـ: ٢٨.

(٧) لـ: ٣٦.

(٨) ينظر: مفاتيح الجنان: الشيخ عباس القمي، مط/ بني الزهراء، قم، إيران، ط/١، ١٤٢٥ هـ: ١٣٩.

(٩) ص في يوم المباهلة: ١٥٢.

(١٠) لـ: ١٣٩.

(١١) منهج الدعوات ومنهج العبادات: العالم العامل السيد علي بن موسى بن طاووس الحسني (ت ٦٦٤ هـ)، تقديم: الشيخ حسين الأعلمي، مط/إيران، إيران، ط/٢، ١٤٢٢هـ: ١٩٥.

٣. تأتي في أواسط الأدعية ويلجأ الإمام (ع) إلى ذكرها لإطالة الدعاء وبالتالي إطالة مدحته (عزّ وجل) نحو قوله (ع): (**يا كريم الجواد المتكرم يا ظاهر يا قاهر ألانت القادر المقتدر يا عزيز المتعزز...**)[١]، ونحو: (**يا جليل يا جميل يا وكيل يا كفيل يا مقيل يا منيل يا نبيل يا دليل يا هادي يا بادي...**)[٢].

النمط الخامس: نداء الله (عزّ وجل) بأشياء أخر

علمنا مما سبق أن أمير المؤمنين استفاد من أسماء خاصة بالله (عزّ وجل) لدعائه ومناجاته وكان منها ما هو من الأسماء الحسنى ومنها ما لم يشتهر بأنه من الأسماء الحسنى وكان هناك أسماء وصفات له (عزّ وجل) يمكن مناداته بها فاستعملها مولانا علي (ع) وبادر بسؤاله بها وجاءت بصور منها:

الصورة الأولى: نداؤه سبحانه بأسماء جاءت بأوضاع خاصة منها

١. (**يا هو**): فقد اعتمد على هذا النداء أمير المؤمنين كونه قد ورد في قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[٣] وقد أخذ العرفانيون هذا المعنى وعدوا الضمير (**هو**) اسماً جليلاً له سبحانه ووصفوه بأنه سر من أسرار الذات لأن الذات المقدسة وصفت نفسها به وقدّمته حتى قبل لفظ الجلالة المشهور (**الله**) في قوله (**قل هو الله أحد**) وعدّوا أصل (**هو**) الهاء وأصل الهاء الدائرة إلى غير ذلك من الأمور الغيبيّة[٤]. وقد جاء في دعاء أمير المؤمنين بشكل خاص نحو: (**يا هو، يا من لا يعلم ما هو إلا هو، وكيف هو إلا هو...**)[٥]، ونحو (**اللهم، يا الله، يا هو، يا من لا يعلم أين هو، وحيث هو إلا هو...**)[٦].

٢. (**يا سندَ من لا سندَ له**) **وأمثال ذلك**: وفيها يذكر الإمام علي اسما عاما ثم يضيفه إلى (من) الموصولة التي صلتها متكونة من (لا) التي تنفي الجنس مع اسمها وجار ومجرور بعد ذلك وينفي في الصلة جنسية المنادى عن الموصول الذي قصد به السائل وكأن المعنى قد خرج إلى المعنى العام لنداءات أمير المؤمنين وهو الجملة الاسمية المتحصلة من تعويض حرف النداء بـ (أنت) الدالة على الله (عزّ وجل) وكأن المعنى هو (أنت سند من لا سند له) وهكذا. وقد وردت في دعاء الإمام علي (ع) نحو (**يا عماد من لا عماد له، يا سند من لا سند له، يا ذخر من لا ذخر له، يا حرز من لا حرز له، يا كهف من لا كهف له،**

---

(١) نفسه: ١٧٤.

(٢) نفسه: ١٩٤.

(٣) الإخلاص: ١.

(٤) ينظر: شرح دعاء الصباح: للحكيم المتأله الحاج ملاّ هادي السبزواري (١٢٨٩ هـ)، تح: نجف قلي حبيبي، مؤسسة انتشارات جاب دانكشاه، إيران: ٤.

(٥) ص ١٠٠.

(٦) لـ: ٣٥ وص: ١٣٩.

يا كنز من لا كنز له، يا ركن من لا ركن له، يا غياث من لا غياث له، يا جار من لا جار له...)[١].

٣. **نداء (يا عالماً) وأمثالها:** وهي أسماء وصفات له (عزّ وجل) ينادي بها (ع) بطريقة نداء الشبيه بالمضاف نحو: **(يا نور المستوحشين في الظلم، يا عالماً لا يعلّم، صلّ على محمّد وآل محمّد...)**[٢]، ونحو قوله: **(يا عالماً بضرّي ومسكنتي، يا خبيراً بفقري وفاقتي...)**[٣]، ونحو قوله: **(يا كائناً بعد كلّ شيء ويا مكوّن كلّ شيء...)**[٤]، ونحو: **(يا حليماً لا يعجل، يا عليماً لا يجهل، يا جواداً لا يبخل، يا قريباً لا يغفل...)**[٥]، ونحو: **(يا فعّالاً لما يريد، أزل عنّي من يريدني بسوء...)**[٦].

الصورة الثانية: نداء الله بـ (اسم الفاعل) أو بالوصف:

اشتهر في دعاء أهل البيت نداء الله (ع) باسم الفاعل وهو أحد استعمالات النداء المشهورة الذي يسمى بنداء المضاف والشبيه بالمضاف، وقد ورد في دعاء الإمام علي عمن هذه النداءات الشيء الكثير الذي ينمّ عن حرص الإمام للدعاء بها بوصفها ذات أهمية في نفسها لأنها أحد استعمالات أسلوب النداء عامة ولأن لها تأثيراً في إظهار قدسية المدعو عند المدحة بها. وقد جاءت بنماذج منها:

١. ورد في أثناء الدعاء مع نداءات أخر مثله نحو قوله ع: **(يا رزّاق البشر، يا مقدّر القدر يا محصي قطر المطر، يا دائم الثبات... يا نور السماوات والأرض...)**[٧]، ونحو قوله **(يا مسبّب الأسباب، يا مفتّح الأبواب، يا مدبّر الأمور، يا لطيف يا خبير....)**[٨].

٢. ورد بصيغة اسم الفاعل المضاف إلى جمع المؤنث السالم نحو قوله: **(يا قاضي الحاجات، يا منجح الطلبات، يا جاعل البركات، يا محيي الأموات، يا رافع الدرجات، يا راحم العبرات، يا مقيل العثرات، يا كاشف الكربات...)**[٩]، ونحو: **(اللّهمّ لك الحمد، رفيع الدرجات، مجيب الدعوات، منزّل البركات، من فوق سبع سماوات، معطي السؤلات، مبدل السيئات حسنات...)**[١٠].

---

(١) لـ: ٤٠ ولـ: ٢٧٥ وص: ١٠١.

(٢) لـ: ١٢٤.

(٣) ص ١٢٢.

(٤) لـ: ٣٣١.

(٥) ص ١٠١.

(٦) ص ١٤٤.

(٧) ص ١٠٠.

(٨) لـ: ٣٨.

(٩) ص ١٠٠.

(١٠) ص ٨٩.

٣. ورد بصيغة اسم الفاعل المضاف إلى جمع المذكر السالم نحو قوله: (**يا معزّ المؤمنين بسلطانه، يا مذلّ الجبارين بعظمته، أنت كهفي حين تعييني المذاهب...**)[١]، ونحو قوله: (**اللّهمّ إني أسألك، يا مدرك الهاربين، ويا ملجأ الخائفين...**)[٢].

٤. ورد بصيغة اسم الفاعل المضاف إلى جمع التكسير نحو قوله: (**يا سابغ النعم، يا رافع النقم، يا بارئ النسم، يا جامع الأمم، يا ذا الجود والكرم...**)[٣]، ونحو قوله (ع): (**يا سابغ النعم، يا دافع النقم، يا بارئ النسم، يا جامع الأمم، يا شافي السقم، يا نور الأرض والسماوات...**)[٤].

٥. ورد بصيغة اسم الفاعل المضاف إلى اسم آخر نحو قوله: (**يا رازق البشر، يا مقدّر كلّ قدر، يا عالي المكان، يا شديد الأركان،يا مبدّل الزمان، يا قابل القربان...**)[٥]، ونحو قوله: (**يا ملجأ كل طريد، يا مأوى كل شريد، يا حافظ كلّ ضالّةٍ، يا راحم الشيخَ الكبير، يا رازق الطفلَ الصغير، يا جابر العظمَ الكسير...**)[٦].

٦. ورد بصيغة الوصف المضاف إلى اسم آخر نحو قوله: (**يا سريع الرضا، اغفر لمن لا يملك إلا الدعاء...**)[٧]، ونحو قوله: (**يا علام الغيوب، يا ستّار العيوب، يا غفّار الذنوب، اغفر لي ذنوبي...**)[٨].

الصورة الثالثة: نداء الله (عزّ وجل) باسم له مضاف إلى ياء المتكلم

من الملاحظ أن اغلب الأدعية الواردة عن أمير المؤمنين هي أدعية شخصية تبرز فيها الصبغة الذاتية والعلامات الفردية بشكل واضح وفيها نسبة اسم الله (عزّ وجل) إلى الداعي بياء المتكلم زيادة في توكيد الأحقية والعبودية له (عزّ وجل) وصورة من صور استدرار رضا الربّ وعطفه على الداعي. وقد ورد بنماذج منها:

١. ورد مكرراً مع غيره بألفاظ مختارة تدل على اتكال العبد (الداعي) على الربّ (المدعو) نحو قوله: (**يا نوري في كلّ ظلمةٍ، ويا أنسي في كلّ وحشة، ويا رجائي في كلّ كربةٍ، ويا ثقتي في كلّ شدّة، ويا دليلي في الظلالة...**)[٩].

---

(١) ص ١٠٧.

(٢) ص ٩٩.

(٣) ص ١٠١.

(٤) لـ: ٣٩.

(٥) لـ: ٣٨.

(٦) لـ: ٣٩.

(٧) لـ: ١٢٣.

(٨) لـ: ١٤.

(٩) ص ١٢٣.

٢. وردت بترتيب منسّق يعتمد إظهار الاسم المضاف إلى ياء المتكلم، وبعده متعلّقات لتحديد الاسم وهو نوع من التدقيق، وعدم ترك الاسم مجملاً. وهو أسلوب خاص، قام به أمير المؤمنين للتنويع في النداءات وإطالة المدحات نحو قوله: (**يا عدّتي عند كربتي، ويا غياثي عند شدّتي، ويا وليّ في نعمتي، ويا منجحي في حاجتي، يا مفزعي في ورطتي، يا منقذي من هلكتي، يا كالئي فيوحدتي...**)[١].

٣. قد يلجأ إلى ذكر الاسم المضاف إلى ياء المتكلّم دون ذكر المتعلّقات كأسلوب آخر لتحقيق الأحقية له (عزّ وجل) في توالي الأسماء المناداة تباعاً ممّا يشعر بتحقير النّفس أمام بارئها، وإعلاء شأن المنادى نحو قوله: (**يا رجائي، ويا كهفي، ويا كنزي، ويا ذخري، ويا ذخيرتي، ويا عدّتي لديني ودنياي ومنقلبي...**)[٢].

٤. وقد يرد الاسم المضاف من الأسماء المشهورة بمناداة الذات المقدّسة مثل (إلهي - سيّدي - مولاي) وأمثال ذلك، وقد أشرنا إلى كثرتها، وأنها تحدث في الدعاء نوعاً من الإيقاعات الخلّابة التي تسحر الألباب عند ذكرها نحو قوله: (**وأنا أسألك يا سيّدي ومولاي ويا إلهي وقوّتي ورجائي وكهفي وفخري ويا عدّتي لديني ودنياي وآخرتي...**)[٣].

الصورة الرابعة: نداء الله (عزّ وجل) باسم له مضافٍ إلى اسم بعده:

وكثيراً ما يلجأ (ع) إلى إظهار عظمة المدعو وتبجيله وتمجيده بصيغٍ من النداءات الموحية، التي منها أن يعمد إلى إضافة اسم له (عزّ وجل) إلى اسم آخر عامٍ في معناه، هو من مخلوقاته (عزّ وجل) لتحقيق الأحقية له (عزّ وجل) وإظهار عظمته التي لا يقوم لها شيء، وقد وردت بنماذج منها:

١. جاءت متتابعة مع نداءات أخر لإطالة النداءات منه (ع) لربّه لاستعطافه نحو طلبته القادمة نحو قوله: (**يا عالي المكان، يا شديد الأركان، يا وليّ الدرجات، يا مؤتي السؤلات... يا نور الأرض والسماوات... يا أمان الخائفين، يا ظهير اللاّجئين، يا ولي المؤمنين، يا غياث المستغيثين، يا غاية الطالبين...**)[٤].

٢. قد يرد في أسماء معيّنة مضافة إلى أسماء مختلفة نحو: (**يا أهل التقوى، ويا أهل المغفرة...**)[٥]، ونحو قوله: (**اللّهمّ يا ربّ السماوات السبع وما أظلّت، وربّ الأرضين السبع وما أقلت، وربّ الرياح وما ذرت، وربّ كلّ شيء... وربّ جبريل وميكائيل واسرافيل...**)[٦].

---

(١) لـ: ٢١٧.

(٢) لـ: ٣٤٠.

(٣) لـ: ٣٢٩.

(٤) لـ: ٣٨ - ٣٩.

(٥) ص ١٠٩.

(٦) ص ٩٩.

تأتي بعد النداءات هذه طلبات هي غاية الدعاء ومحوره الخاص نحو قوله: (**اللّهمّ إني أسألك بمعاقد العزّ من عرشك... يا مولاه، يا غاية رغبتاه، ... يا عالي المكان... يا نعم المستعان، يا قديم الإحسان... يا وليَ المؤمنين، يا يد الواثقين يا ظهير اللاّجئين، يا غياث المستغيثين، يا جار المستجيرين، يا ربّ الأرباب... يا ربّ البيت العتيق... اكفني ممّا أطيق وممّا لا أطيق، وفكّني من حلق المضيق...**)[١].

الصورة الخامسة: نداء الله (عزّ وجل) بـ (مَنْ) الموصولة:

تتابع تنويع الإمام علي (ع) لنداء الذات باستعماله أسماء مشهورة له (عزّ وجل) وأسماء حسنى وصفات، وكان ممّا استعمله أيضاً نداء الله (عزّ وجل) بـ (مَنْ) الموصولة التي تدلّ على العاقل وتحتاج إلى صلة، وقد أكثر منها علما لها من حظٍ في إطالة الكلام لطول جملة الصلة العائدة لها، التي تتنوّع بين اسمية، وفعلية وجاءت بنماذج منها:

١. نداء الله (عزّ وجل) بـ (من) الموصولة بصلة هي جملة اسمية مثبتة، نحو قوله: (**يا من له التدبير والتقدير، يا من العسير عليه يسير، يا من هو على كلّ شيءٍ قدير، يا من هو بكلّ شيءٍ خبير، يا من هو بكلّ شيءٍ بصير... يا من بيده كلّ مفتاح...**)[٢].

٢. نداء الله (عزّ وجل) بـ (من) الموصولة بصلة هي جملة اسمية منفية أو منسوخة نحو قوله: (**يا من ليس معه ربّ يدعى، يا من ليس فوقه خالق يخشى، يا من ليس دونه إله يتّقى، يا من ليس له وزير يرتشى، يا من ليس له نديم يغشى، يا من ليس له حاجب ينادى، يا من لا يزداد على كثرة السؤال إلا كرماً وجوداً، يا من لا يزداد على عظيم الذنوب إلا رحمة وعفوا...**)[٣].

٣. نداؤه (عزّ وجل) بصلة جملة فعلية مثبتة وهو الأكثر والأشهر في أدعيته (ع)، نحو قوله: (**فيا من خصّ نفسه بالعزّ والرفعة، فأولياؤه بعزّه يعتزّون، ويا من وضع له الملوك نير المذلة على أعناقهم فهم من سطواته يخافون...**) ونحو قوله: (**يا من علا فقهر، يا من ملك فقدر، يا من بطن فخبر، يا من عبد فشكر، يا من عصي فغفر...**)[٤].

٤. نداؤه (عزّ وجل) بصلة جملة فعلية منفية نحو قوله: (**يا من لا ينعت بتمثيلٍ ولا يمثّل بنظيرٍ ولا يغلب بظهيرٍ...**)[٥]، ونحو: (**اللهمّ يا من لا تراه العيون ولا تخالطه الظنون، يا من لا يصفه الواصفون، يا من لا تغيّره الدهور، يا من لا يخشى الدوائر، يا من لا يذوق الموت، يا من لا يخشى الفوت، يا من لا تضرّه الذنوب ولا تنقصه المغفرة...**)[٦].

---

(١) ص ١٠٠ – ١٠١.
(٢) لـ: ٤٠.
(٣) ص ١٦٠.
(٤) لـ: ٣٨.
(٥) ص ١٤٧.
(٦) ص ١١٥ – ١١٦.

وقد يجمع كلّ ذلك دعاءٌ واحدٌ نحو قوله: (**يا من هو أقرب إليّ من حبل الوريد، يا فعّالاً لما يريد، يا من يحول بين المرء وقلبه، يا من هو بالمنظر الأعلى، يا من ليس كمثله شيء**)[١].

الصورة السادسة: نداء الله (عزّ وجل) بأسماء التفضيل:

ورد في أدعية الإمام علي (ع) نداءات كثيرة اعتمدت على اسم التفضيل المضاف إلى أسم آخر وقد جاء بنماذج منها:

١. يأتي مضافاً إلى اسم مجموع يدل على الصفة والفعل نحو قوله: (**يا أسمع السامعين ويا أبصر المبصرين، ويا أنظر الناظرين ويا أسرع الحاسبين ويا أحكم الحاكمين...**)[٢]، ونحو قوله: (**يا أجود الأجودين، يا أكرم الأكرمين، يا أسمع السامعين، يا أبصر الناظرين...**)[٣].

٢. وقد يأتي مضافاً إلى مفرد ليدل على الأحقية له سبحانه بالدعاء والمسألة نحو قوله: (**يا أسمع مدعو، وخير مرجو، وأحلم مغض، وأقرب مستغاث...**)[٤].

٣. وقد يرد اسم التفضيل مضافاً إلى (من الموصولة) نحو قوله: (**فيا أكرم من أقرَّ له بذنبٍ وأعزّ من خضع له بذُلٍ لكرمك أقررت بذنبي ولعزّك خضعت بذلّي...**)، ونحو قوله: (**يا خير من سئل ويا أكرم من جاد بالعطاء صلّ على محمّد وآل محمّد...**).

٤. وقد اشتهر في دعاء آل البيت عموماً وفي دعاء الإمام خصوصاً نداء الله سبحانه بـ (يا أرحم الراحمين) ختاماً للدعاء بعامته أو لفقرة داخلية فيه، نحو قوله: (**... واكفني ما أهمني واجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً، ولا تفرّق بيني وبين العافيةِ أبداً ما أبقيتني وعند وفاتي إذا توفّيتني يا أرحم الراحمين**)[٥].

الصورة السابعة: نداء الله (عزّ وجل) بـ (ذا)

وهو اسم من الأسماء الستة مضافاً دائماً إلى ما يتم معناه وقد ورد في دعاء الإمام علي (ع) مضافاً إلى أسماء تدل على الشرف الباذخ له سبحانه لتتمَّ معنى (ذا) الذي بمعنى (صاحب) لأن الله سبحانه صاحبُ كلِّ فضيلةٍ عالية وشرفٍ باذخ وقد ورد بنماذج منها:

١. وردت في ضمن الأدعية الطويلة مع نداءات أخر في بسط الدعاء نحو: (**يا مبدل الزمان يا قابل القربان، يا ذا المن والإحسان، يا ذا العز والسلطان يا رحيم يا رحمن...**).

---

(١) لـ: ٤٦.

(٢) ص ١٤٨.

(٣) ص ١٠٠.

(٤) لـ: ٢٥.

(٥) لـ: دعاؤه ليلة السبت: ٢١٣.

٢. تأتي في جملة نداء متصلة أو منفصلة نحو: (... **وبحولك يا ذا الجلال والإكرام، وبقوتك يا ذا القوة، وبعزتك يا ذا العزة، وبقدرتك يا ذا القدرة، وبمنعتك يا ذا المنعة، وبسلطانك يا ذا السلطان وبكفايتك يا ذا الكفاية**...).

٣. اشتهر نداء الله سبحانه بـ (يا ذا الجلال والإكرام) نحو: (**اللّهمّ إنّي أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم يا ذا الجلال والإكرام يا حيّ يا قيّوم**...)، وقد يأتي مكرراً نحو قوله: (**يا الله (ثلاثاً) يا رحمن (ثلاثاً) يا رحيم (ثلاثاً) يا ذا الجلال والإكرام (ثلاثاً)**...)

وقد يأتي في ختام الدعاء مصحوباً بـ (يا أرحم الراحمين)، ونحو قوله: (**وارحمنا برحمتك يا أرحم الراحمين، يا ذا الجلال والإكرام**).

نداء الصفات:

ورد في أدعية أمير المؤمنين (ع) نداء الله (عزّ وجل) بالأسماء المضافة إلى أسماء أخر وهو المعروف عند النحاة بنداء الصفات، وفيه يتحول النداء من أسلوبٍ إنشائيٍ إلى أسلوبٍ خبريٍ، ومؤدّى ذلك أن النداء من الأساليب الإنشائية القصد منه طلب التفات المخاطب، إلاّ أنّه قد يخرج لمعانٍ ليس القصد منها طلب إقبال المخاطب نحو المتكلّم كالمدح والتعظيم أو الذمّ والتحقير وذلك (بإطلاق مجموعة من الصفات التي تحدّد كان النداء خرج لمعنى المدح أو الذمّ، ويكون هذا النداء بصفات المدح أو الذمّ أبلغ مما لو استعملنا المدح أو الذمّ المباشر وبدون الصّفات)[1] وهو ما أشار إليه عبد القاهر الجرجاني الذي عدّ هذا النمط من الدعاء من الاستعارة، وقال: (متى صلحت الاستعارة في شيءٍ فالمبالغة فيه أصلح، وطريقها أوضح، ولسان الحال فيها أفصح أعني إنك إذا قلت:

يا ابن الكواكب من أئمة هاشمٍ
ويا ابن الليوث الغُرِّ

... كان قولك (هم الكواكب) و (هم الليوث)...)[2]

وفي أدعية أمير المؤمنين تبرز هذه الحقيقة واضحةً للعيان بشكلٍ جليٍّ فإن قول أمير المؤمنين في دعائه: (يا ملك، يا قدّوس، يا سلامُ، يا مؤمن، يا مهيمن، يا عزيزُ، يا جبارُ، يا متكبّرُ، يا خالقُ، يا بارئ، يا مصوّرُ، يا مقدّرُ...)[3] يعني أنت الملك، وأنت القدوس، وأنت السلام، وأنت المؤمن، وأنت المهيمن، وهكذا. ❖

---

(١) أساليب الطلب في نهج البلاغة (رسالة ماجستير): عدوية عبد الجبار كريم، جامعة بابل، كلية التربية، ٢٠٠٠: ١٦٣.

(٢) أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ)، تح: هـ. رتير، مط/وزارة المعارف، استانبول، ١٩٥٤: ٢٣١.

(٣) لـ: دعاء المشلول: ٣٦.

الإمـامـــة
وحقـوق الأقليـات السياسي
الإمام علي (ع) أنموذجاً

د. خولة مهدي شاكر الجراح
كلية الفقه - جامعة الكوفة

مقدمة:

من العبث أن يحاول أحد إنكار ما حدث في حقب تاريخية طويلة من كوارث إنسانية وأحداث دموية أورثت المجتمع البشري دماراً وخراباً وإراقة دم أثر اعتبار الأمر المتفاوت والمختلف عقيدياً ودينياً مستحقاً للعذاب.

وزخرت صفحات التاريخ بإلحاق أشد العقوبات وأقسى العذاب بأناس لم يكن لهم ذنب إلا الاختلاف في الرأي والعقيدة، ولا يختلف الآن عن السابق كثيراً في وجود مثل هذه الصراعات والفتن من أقصى بقاع العالم إلا أقصاها، وإن الصراع العقيدي أو الفكري مما لا يمكن حصره في دين أو مذهب دون أخر والذي يروم إليه البحث هو بيان ضرورة الاعتراف بوجود أخر يختلف معنا في الرأي والرؤية وفي الدين والعقيدة وأن نتأكد من استحالة استئصال التعدد المذهبي والديني من خلال ممارسة الإلغاء وأعمال الشطب ضده.

والذي نتطلع إليه في هذا البحث التعرف على الرؤية الإسلامية المتجسدة بشخصية نظير الرسول (ص) وأمينه ووصيه الإمام علي (ع) أنموذجاً لتلك الرؤية الحقة سعياً لتقديم حدود وأطر من الإنسانية والعقلانية والفطرة من جهة أخرى حيث تنطوي على الإيمان بالله وبالقيم المشتركة بين أبناء البشر، الأمر الذي جاء الدين مع اختلاف أسمائه وتعدد نسخه في كل حقبة تاريخية لتكريسه وتمتينه في الحياة وأحسب أن الوصول إلى فهم أن الدين بكل تجلياته وتبلوراته جاء ليدفع الإنسان إلى الأمن لا يدعوا إلى بذل جهد كبير، ولعل من خير فوائد مثل هكذا بحوث الوصول إلى تكريس الأصول الدينية والحقائق السامية في الشرائع السماوية أهم بكثير من التركيز على الجانب التشريعي والمنهاجي المتعلق بالظروف الزمانية والحيثيات الاجتماعية، وإلا فإن الطريق المؤدي للخلاص واحد غير متعدد والصراط حسب التعبير الإلهي مفرد لا يتعدد.

المبحث الأول: المفهوم اللغوي والاصطلاحي لمفردات العنوان (الإمامة، الحق، الأقليات)

أولاً: الإمامة

١ ـ المفهوم اللغوي:

الأم: القصد، أمه يؤمه أما إذا قصده[١].

والإمام بمنزلة القدام يقال: فلان إمام القوم، معناه هو المتقدم لهم[٢]. وفي الحديث الشريف: (إن أم الكتاب هي فاتحة الكتاب)[٣] لأنها هي المتقدمة أمام كل سورة في جميع الصلوات، وابتدئ بها في المصحف فقدمت[٤].

والإمام: كل منت أقتدي به وقدم في الأمور، والنبي (ص) إمام الأمة، والخليفة إمام الرعية، والقرآن إمام المسلمين[٥] والإمام: المؤتم به، إنسانا كأن يقتدى بقوله أو فعله، أو كتاباً أو غير ذلك، محقاً كان أو مبطلاً[٦].

ومن خلال الجذر اللغوي لمفهوم الإمامة نستطيع التوصل إلى المفهوم الاصطلاحي لها فهو منحدر عن ذلك الأصل.

٢ ـ المفهوم الاصطلاحي:

يجب علينا قبل التوغل في المعنى الاصطلاحي للإمامة أن نبين أن المراد بالمعنى اللغوي للإمام هو كل ما أقتدي به وقدم في الأمور والذي يؤتم به أما في الصلاة أو الجهاد.. أو في جميع الشؤون السياسية والاجتماعية سواء كان بحق أو بباطل. فعن أبي عبد الله (ع) قال: (أن الأئمة في كتاب الله (عزّ وجل) إمامان: قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ...﴾[٧] لا بأمر الناس يقدمون أمر الله قبل أمرهم وحكم الله قبل حكمهم. وقال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ...﴾[٨] يقدمون أمرهم قبل أمر الله وحكم الله ويأخذون بأهواءهم خلاف ما في كتاب الله)[٩] وفي سورة التوبة: ﴿... فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ...﴾[١٠].

---

(١) الفراهيدي ـ العين: ١٢ ـ ٢٢.

(٢) ظ: ابن منظور ـ لسان العرب: ١٢ ـ ٢٦.

(٣) الميرزا النوري ـ مستدرك الوسائل: ٤ ـ ١٦٨.

(٤) ظ: الفراهيدي ـ العين: ٨ ـ ٤٢٦، ابن منظور ـ لسان العرب: ١٢ ـ ٣١.

(٥) ظ: الفراهيدي ـ العين: ٨ ـ ٤٢٨، ابن فارس ـ معجم مقاييس اللغة: ١ ـ ٢٨.

(٦) الراغب الأصفهاني ـ المفردات، ٢٠.

(٧) الأنبياء: ٧٣.

(٨) القصص: ٤١.

(٩) الكليني ـ الكافي: ١ ـ ٢١٦.

(١٠) التوبة: ١٢.

ولما كانت إمامة الأئمة الإثني عشر ثابتة عندنا بالنص وبوجدانهم شرائط الإمامة الحقة، صار هذا سبباً لانصراف لفظ الإمام عندنا أليهم (عليهم السلام)، حتى كأن لفظ الإمام وضع لهم. فالإمامة: (هي منصب إلهي يختاره الله سبحانه وتعالى بسابق علمه بعباده، كما يختار النبي النبي، ويأمر النبي بأن يدل الأمة عليه، ويأمرهم بأتباعه[١] وبذلك فإمامة هي عهد من الله بينه وبين من يختاره لذلك وتعتبر الإمامة هي الأصل الذي امتازت به الإمامية وافترقت عن سائر فرق المسلمين، وهو فرق جوهري أصلي، وما عداه من الفروق فرعية عرضية، كالفروق التي تقع بين أئمة الاجتهاد عندهم كالحنفي والشافعي وغيرهم[٢].

وقد أجمع المسلمون على وجوب الإمامة إلا ما يحكى عن أبي بكر الأصم من قدماء المعتزلة من عدم وجوبها إذا تناصفت الأمة ولم تتظالم، وقال المتأخرون من أصحابه: إن هذا القول غير مخالف لما عليه الأمة، لأنه إذا كان لا يجوز في العادة أن تستقيم أمور الناس من دون رئيس يحكم بينهم فقد قال بوجوب الإمامة على كل حال[٣]. ووافق الأصم بذلك النجدات من الخوارج[٤].

وقد اختلف في دليل وجوب الإمامة هل هو العقل أم الشرع أم هما معاً في كلام طويل نحيل من يريد الاطلاع عليه إلى مصادرها.

ثانياً: الحق

١ ـ المفهوم اللغوي:

الحق نقيض الباطل، وجمعه حقوق وحقائق..، وفي حديث التلبية: لبيك حقاً حقاً أي غير باطل...، وهو مصدر مؤكد لغيره، كما تقول: هذا عبد الله حقاً فتؤكده به وتكرره لزيادة التأكيد[٥].

والحق: الوجوب واللزوم والثبات، قال تعالى: ﴿...وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٦] أي وجبت وثبتت..[٧].

وأحقه: صيره حقاً. وحقه وحققه: صدقه.

---

(١) محمد حسين آل كاشف الغطاء ـ أصل الشيعة وأصولها: ٢٢١.

(٢) م. ن: ٢٢١، عباس حسن جعفر كاشف الغطاء ـ رسالة في الإمامة: ١.

(٣) ابن أبي الحديد ـ شرح نهج البلاغة: ٣ ـ ٣٠٨.

(٤) النجدات: هم أصحاب نجدة بن عامر الحنفي بايعه أصحابه وسموه أمير المؤمنين ثم نقموا عليه أشياعه فقتلوه سنة ٦٩ هـ. ظ: الشريف المرتضى ـ الشافي في الإمامة: ١ ـ ٥ عن مصدره.

(٥) ابن منظور ـ لسان العرب: ١٠ ـ ٤٩.

(٦) الزمر: ٧١.

(٧) ابن منظور ـ لسان العرب: ٤٩/١٠ ـ ٥٢، محمد بن عبد القادر ـ مختار الصحاح ـ ٦٦، الطريحي ـ مجمع البحرين: ١ ـ ٥٤٥.

ويقال أحققت الأمر إحقاقاً إذا أحكمته وصححته.

وحققت الأمر وأحققته إذا كنت على يقين منه.

وأحتق القوم: قال كلمة واحدة منهم: الحق في يدي[١].

وورد في كتب اللغة[٢] معانٍ عدة للحق منها:

١ ـ الحق من أسماء الله عز وجل، وقيل من صفاته، قال ابن الأثير: هو الموجود حقيقته المتحقق وجوده وإلهيته.

٢ ـ الحق: التنزيل، قال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ... ﴾[٣] أي بالقرآن على الكفر. وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ... ﴾[٤] قال الزجاج: ويجوز أن يكون الحق هنا التنزيل أي لو كان القرآن بما يحبونه لفسدت السماوات والأرض.

٣ ـ الحق بمعنى الحظ والنصيب، جاءني الحديث: (وأعط كل ذي حق حقه) أي حضه ونصيبه الذي فرض له.

ومن معاني الحق: الأمر المقضي، والعدل، والإسلام، والمال /والملك، والموجودات الثابتة، والموت، والحزم)[٥].

وعند النظر في هذه المعاني التي ذكرت للحق نجدها جميعاً ترجع لأول وهلة إلى معنيين.

الأول: الأمر الثابت المتحقق.

الثاني: المطابقة والموافقة.

فإطلاقها على الباري سبحانه وعلى الأمر المقضي وعلى الموت وعلى الملك والنصيب واليقين والحزم وأمثالها؛ لأنها ثابتة واقعاً أو اعتباراً.

وإطلاقها على القرآن والإسلام والصدق والعدل ومقابل الباطل باعتبار مطابقتها للواقع؛ فالحق عرفاً الحكم المطابق للواقع يطلق على الأقوال والعقائد والأديان والمذاهب باعتبار اشتمالها على ذلك[٦].

غير أن المطابقة والموافقة تعني بالتالي: الثبوت، ولذلك فأنه يمكن إرجاع معاني الحق جميعها إلى ذلك[٧].

---

(١) ظ: م. ن: ١٠ ـ ٤٩.

(٢) ظ: ابن منظور ـ لسان العرب ـ ١٠ ـ ٥٠، الطريحي ـ مجمع البحرين: ١/٥٤٥ – ٥٤٦.

(٣) الأنبياء: ١٨.

(٤) المؤمنون: ٧١.

(٥) ظ: الفيروز آبادي ـ القاموس المحيط: ٣ ـ ٢٢١، الزبيدي ـ تاج العروس: ٦ ـ ٣١٥.

(٦) ظ: الزبيدي ـ تاج العروس: ٦ ـ ٣١٥.

(٧) ظ: عدنان البكاء ـ الحكم والحق: ٢٣.

٢ ـ المفهوم الاصطلاحي:

لقد عرف الحق اصطلاحاً عدة تعريفات، وأغلبها منحدر عن الأصل اللغوي لها، وخصوصاً ما ورد في القرآن الكريم.

إن أغلب مضامين كلمة الحق ترجع جميعاً إلى معنى التحقق والثبوت[١].

لقد عرف السيد الخوئي الحق بأنه: (يصح إطلاق الحق على كل أمر متقرر في وعائه المناسب له سواء أكان هذا تقررا تكوينياً أو اعتبارياً)[٢].

أما توسلي فقد عرفه بأنه (ثبوت اعتباري لأمر وضعي، وقد تقرر لشخص بنح يكون في صالحه وامتيازا له)[٣].

ويقول الدكتور أمجد الزهاوي (ومن الأصوليين من أراد أن يعرف الحق تعريفاً جامعاً، فعرفه محمد عبد الحليم اللكنوي بأنه: حكم يثبت. إلا أن تعريفه جاء مجملاً في بيان ما يتميز به الحق، وواضح أن مراده بالحكم أثر لا ذات الخطاب. وقد وضع الفقهاء المعاصرون عدة تعريفات للحق، منها تعريف أستاذنا الشيخ علي الخفيف: بأنه مصلحة مستحقة شرعاً. وتعريف أستاذنا الشيخ مصطفى الزرقا بأنه: اختصاص يقربه الشرع سلطةً أو تكليفاً)[٤].

ثالثاً: الأقليات

١ ـ المفهوم اللغوي:

الأقليات من القلة، والقلة بالكسر: ضد الكثرة والكثر[٥]. وقوم قليلون، أقلاء، قلل، ويكون ذلك في العدد ودقة الجثة والنحافة والقليل من الرجال: القصير الجثة النحيف الرقيق[٦].

قال تعالى ﴿...وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ...﴾[٧] أي كثر عددهم أو زادهم غنى[٨]. وتذكير بتدرجهم من القلة إلى الكثرة[٩].

ويلاحظ أن القلة تشير إلى النقص كما جاء في القرآن الكريم ﴿... كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ...﴾[١٠].

---

(١) م.ن: ٣١، سعيد أمجد الزهاوي ـ التعسف في استعمال الحق: ١٦.

(٢) الخوئي ـ مصباح الفقاهة: ٢ ـ ٧٤.

(٣) حسين توسلي ـ مفهوم الحق دراسة تحليلية في الفقه والقانون ـ مجلة الحياة الطيبة: ٢٩.

(٤) أمجد الزهاوي ـ التعسف في استعمال الحق: ١٦.

(٥) الزبيدي ـ تاج العروس: ١٥ ـ ٢٢٧.

(٦) الشعراء: ٥٤.

(٧) ظ: الطريحي ـ مجمع البحرين: ٣ ـ ٥٤٣.

(٨) الطبرسي ـ مجمع البيان: ٢ ـ ٣٥٦.

(٩) الطباطبائي ـ الميزان: ٨ ـ ١٩٦.

(١٠) البقرة: ٢٤٩.

وكذلك تستخدم لبيان حالة اجتماعية إلى جانبها صفة الاستضعاف كما في قوله ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[١] والاستضعاف عد الشيء ضعيفاً بتوهين أمره[٢].

٢ ـ المفهوم الاصطلاحي:

لم يعرف مصطلح الأقلية في الحضارة الإسلامية بدلالته المعاصرة التي تعرفها العلوم السياسية والاجتماعية المعاصرة، والتي تعني: مجموعة خصائص تفارق بها الأقلية الأغلبية، فإنما صارت أقلية لكونها أقل عدداً ولديها خصائص تفارق بها الأغلبية العددية في المقومات الطبيعية أو الثقافية، ويؤدي هذا الاختلاف إلى تدني نصيبها من القوة الاجتماعية والسياسية، وتعرضها لممارسة تمييزية تدفع بأفرادها إلى التضامن فيما بينهم لمواجهة هذه الأخطار والممارسات مما يؤدي إلى توتر في العلاقة بين الأقلية هذه والأغلبية في المجتمع وتقلل من فرص التعايش والاندماج[٣].

وقد عرفت الأقلية بأنها: جزء من سكان دولة معينة، كما أن الأغلبية تراها بصورة مختلفة أو تعترف لها بمكانة خاصة مجتمعياً[٤].

وعرفت كذلك بأنها: جماعة تصر لأسباب تخصها على أن تبقي نفسها خارج نطاق الأغلبية متشبثة بوضعها الماضوي وبخصوصيتها النسبية أو الثقافية أو الأقوامية[٥] ويلاحظ من هذه التعريفات أن الأقلية تتميز بوجود خصائص في العقل القيمي متميزة عن خصائص ذلك العقل عند الأغلبية، وربما تعاني تهميشاً اجتماعياً، وانكفاء على الذات مما يشجع ظهور شعور تضامني داخلي يوحدها في مواجهة الأغلبية أو الأقليات الأخرى.

أما الحضارة الإسلامية فقد عرفت مصطلحات أخرى، ولها مفاهيمها الخاصة كانت تعبر بها عن الآخرين الذين يختلفون عن المسلمين[٦]. مع ملاحظة إن المعيار الأساس للتمييز بين الناس في التفكير العملي لدولة الإسلام كان قائماً على أساس الدين، حتى داخل الجماعة المسلمة؛لاعتبار إن دولة الإسلام هي دولة دينية وعقائدية لقوله تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ...﴾[٧] وقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٨]

---

(١) الأنفال: ٢٦.

(٢) الطبرسي ـ مجمع البيان: ٢ ـ ٥٣٥.

(٣) بتول فاروق ـ الأقليات وأحكامها في الفقه الإسلامي ـ دراسة مقارنة: ١٤ عن مصدرها.

(٤) محمد علي كتاني ـ مشاكل الأقليات المسلمة: ٨٧.

(٥) جعفر المهاجر ـ الأقليات في دار الإسلام ـ مجلة المنهاج: ٢٨٥.

(٦) ظ: كمال السعيد حبيب ـ الأقليات والسياسة في الخبرة الإسلامية: ٣٥.

(٧) سورة آل عمران: ١٩.

(٨) سورة آل عمران: ٨٥.

إلا أن معيار التفاضل بين الناس قد بني على التقوى لقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[١] والتقوى هنا التزام أوامر الله ونواهيه[٢].

فالأقلية داخل الدولة الإسلامية هي تلك الجماعات التي تعيش داخل المجتمع الإسلامي على سبيل الاستقرار (الدوام) بيد أن لها أحكاماً شرعية مختلفة عن أحكام المسلمين أو الذين فارقوا جماعة المسلمين بتأويل ديني لا يسوغ، أي لا تجيزه قواعد اللغة وضوابط الشرع، فيدخل ضمن هؤلاء الفرق التي عدت خارجة عن الإسلام[٣].

وهكذا بعد أن تعرفنا على كل من مصطلحات الإمامة والحق والأقليات سوف يخوض البحث في معرفة كيفية تعامل الإمام علي (ع) مع هذه الأقليات وما لها من حقوق في ظل أمة موحدة إسلامية.

المبحث الثاني

الوحدة الإسلامية والأقليات السياسية في منظور الإمام علي (ع)

١ ـ الوحدة الإسلامية:

توطئة:

يأمر الإسلام بإقامة الوحدة بين المسلمين والحفاظ عليها؛ لأن رباط الإسلام يجب أن يكون أمتن من كل رباط وأقوى من كل نزعه للتفرقة مهما كان نوعها؛ لأن ما يشد المسلم إلى المسلم هو الإيمان بالله الواحد الأحد وبرسالة رسوله محمد (ص) التي أتى بها من عنده تعالى، فتكونت بذلك جماعة متحابة متآخية كما يصفها تعالى بقوله ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ... ﴾[٤] وقول رسوله (ص): (مثلهم في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[٥].

وهذه الوحدة ليست مجرد تجميع لأفراد تشدهم إي عصبية تتيسر، بل هي وحدة في الله ملزمة بإتباع صراطه إذ يقول تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ... ﴾[٦]. والاعتصام بحبل الله التمسك بكتابه وبسائر ما أوحى إلى النبي (ص)[٧].

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) ظ: الطبرسي ـ مجمع البيان: ٥ ـ ١٣٦، الطباطبائي ـ الميزان: ١٨ ـ ٣٥٤.

(٣) ظ: كمال السعيد حبيب ـ الأقليات السياسية: ٥٦.

(٤) الحجرات: ١٠.

(٥) مسلم النيسابوري ـ صحيح مسلم: ٨ ـ ٢٠.

(٦) آل عمران: ١٠٣.

(٧) الطباطبائي ـ الميزان: ١٨/٤ – ٢٦.

ومن هنا كانت اللحمة هي الاستجابة للأحكام الإلهية حتى إذا ما تهددت تهدد حكم الله في الأرض ووجب على المسلمين معالجة الموقف وتدارك الانقسام عملا بقوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ ... ﴾[1] غير أن واجب الإصلاح ليس دائماً حتى ولو أصرت فئة من المتخاصمين على الاعتداء وتجاوز حدودها لأن الله في هذه الحالة يأمر بالتصدي لها حتى تفيء إلى حكم الله. ﴿ ... فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ... ﴾[2]. وعندما تجب العودة إلى الإصلاح على أساس من الإنصاف لا خلط الحق بالباطل إذ تضيف الآية ﴿ ... فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[3].

وهكذا فإن الإسلام لا يأمر بالحفاظ على الوحدة بعد قيامها بأي طريقه تتيسر، بل هو يوجب التصدي للانحراف والعدوان. ولقد أفاض الرسول (ص) في الدعوة إلى مقاومه هذه الظواهر ولو بالقوة حفاظاً على وحدة ألامه فقد قال (ص): (ستكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرق أمر هذه ألامه وهي جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان)[4]. ولكن شرط أن يكون العامل على تفريق ألأمة عاصياً لأحكام الله ومخالفاً لسنة رسوله. ذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ ... وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[5]. ويكون وفئته عند الإصرار من الباغين الذين ينطبق عليهم حكم الآية التاسعة من سورة الأنفال التي مرت الإشارة إليها قبل قليل. وهذه الأمور واجهها الإمام علي (ع) ميدانياً واستنبط الأحكام التفصيلية الضرورية لها.

أ ـ الإمام علي (ع) ووحده الأمة:

عمل الإمام علي (ع) بكل ما أوتي من قوه للحفاظ على وحدة الأمة الإسلامية وقدم التنازلات على طريقها حتى إذا أصرت فئات على الشقاق قاتلها ليعيد إلى الأمة وحدتها ويرى الإمام (..... سبحانه امتّن على جماعة هذه الأمة فيما عقد بينهم من حبل هذه الألفة التي يتنقلون في ظلها ويأوون إلى كنفها)[6]. لذلك وجب عليهم الحفاظ عليها والإبقاء على الجماعة لأن يد الله معها (فإن الشاذ من الناس إلى الشيطان)[7]. فعندما أتاه أبو سفيان والعباس بن عبد المطلب يدعون إلى النهوض بالخلافة بعد بيعة أبي بكر، رد الإمام قائلاً: (أيها الناس شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة وعرجوا عن طريق المنافرة. وضعوا عن تيجان المفاخرة)[8]. وعندما

---

(١) الحجرات: ٩.

(٢) الحجرات: ٩.

(٣) الحجرات: ٩.

(٤) مسلم النيسابوري، صحيح مسلم ٢٢/٨.

(٥) الأنفال: ١٣.

(٦) خطب الإمام علي (ع)، نهج البلاغة ١٥٤/٢.

(٧) م. ن: ٢ ـ ٨.

(٨) م. ن: ١ ـ ٤٠.

بويع عثمان ابن عفان خليفة وكان الإمام يخشى عاقبة ذلك جدد حرصه على وحده الصف الإسلامي بقوله: (ووالله لأسالمن ما سلمت أمور المسلمين)[١].

وبعد مقتل عثمان ووفود المسلمون إلى بيت الإمام لمبايعته لم يقبل الإمام إلا بيعة عامة في المسجد، وهذا ما حصل فعلاً. ولدى مطالبة بعض الأمويين بالاقتصاص ممن اجلبوا على عثمان وقتلوه رد الإمام قائلاً (تعالوا نداو ما لا يدرك اليوم بإطفاء النائرة وتسكين العامة حتى يشتد الأمر ويستجمع فنقوى على وضع الحق في مواضعه)[٢] ثم أنه حتى قبل الاضطرار إلى القتال وكلما لاحت بارقة أمل أثناءه، كان الإمام يحاول الاستفادة من الهدنة ليعمل على إعادة اللحمة إلى الأمة، فهو لم يبدأ خصماً بقتال لا في البصرة ولا في صفين ولا في النهروان وهو يقول في أحد ردوده على الخوارج بشأن الهدنة التي أعلنت للقيام بالتحكيم: (لعل الله يصلح في هذه الهدنة أمر هذه الأمة)[٣]. غير أن الإمام علي (ع) قاتل بعض الفئات الإسلامية كما أشرنا ولا سيما أولئك الذين اسماهم بالناكثين والقاسطين والمارقين، فهل يعد ذلك نسفاً لوحدة الأمة.

كنا أشرنا في بداية البحث إلى أن وحدة الأمة هي الوحدة القائمة على الحق المحدّد من لدن الله تعالى، وهي لا تقبل تعدي حدود الله ولا تحديها.

والإمام قاتل فئات تعدّت حدود الله وحتى تحدّتها من جهة، وشقّت عصا المسلمين من جهة أخرى وكان لابدَّ، من أجل أعادة الحق إلى نصابه، ومن أجل القضاء على عوامل التفسخ في الأمة من ردع القائمين بالانشقاق، وبخاصة وإن كل الأساليب السلمية لم تنفع في إعادة اللحمة فقادة حرب الجمل بذل معهم الإمام كل الجهود ليثنيهم، وكان آخرها ظل يناقشهم حتى على أرض المعركة، ولكنهم أصروا على مواقفهم من النية بقتاله بعد أن كانوا بايعوه فكانوا ناكثين للبيعة ناقضين للعهد، ومعاوية تمرد على الخليفة الذي بايعه طوعاً من بايع الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه وراح يعين أهل الشام، وهو ممن لم يسلموا إلا يوم فتح مكة بعد اليأس من أمكانية القضاء على الإسلام، وقد ظهر منه ما كان يخشاه الإمام علي (ع) مسبقاً على المسلمين، أما الخوارج فهم تمردوا على أعطاء العهد ليبدءوا مسيرة قادتهم إلى ارتكاب الفساد في الأرض بشكل متكرر.

على إن الإمام لم يكتف بمعالجة الشروخ الداخلية في الأمة الإسلامية بل اتخذ الموقف المحافظ عليها في وجه الإخطار الخارجية فقد بلغ من حرصه (ع) على وحدة المسلمين أنه كان مستعداً للتنازل عن أي مطلب، بل وحتى لمهادنة أي خصم مسلم، بل ولإيقاف أي حرب داخلية عندما تكون وحدة المسلمين مهددة بخطر خارجي.

---

(١) م.ن: ١ - ١٢٤.

(٢) م.ن: ٣ - ١١٥.

(٣) م.ن: ٢ - ٥.

فهو بايع أبا بكر عندما دهم خطر القبائل المرتدة عن الإسلام وأخذت تهدد وجود الدين الحنيف نفسه، وقد شرح موقفه هذا بقوله:

(فأمسكت يدي ـ عن البيعة ـ حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد (ص) فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً وهدماً، فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل، وزهق واطمئن الدين وتنهنه)[١].

وهكذا فقد حافظ الإمام (ع) على الوحدة الإسلامية بمداراتها في عهود ما قبل خلافته وبمحاولة ثني الناوين على المشاقة بعد ولايته، ثم بقتال من عرضوا وحدة المسلمين للخطر، كل ذلك نفاذاً لالتزام أتخذه على نفسه وعبر عنه في رسالة إلى أبي موسى الأشعري الذي توجه ليشارك في التحكيم بقوله: (وليس رجل أحرص على جماعه أمة محمد (ص) وألفتها مني)[٢].

وفي كل الحالات كان الإمام (ع) يرى إن من معه هم أهل الجماعة وأهل السنة، وان خصمهم هم أهل الفرقة وأهل البدعة فقد أجاب سائلاً عن هذه الأمور بقوله: (فأما أهل الجماعة فأنا ومن تبعني وإن قلوا، ذلك الحق من أمر الله وأمر رسوله، وأما أهل الفرقة فالمخالفون لي ولمن اتبعني، وان كثروا. وأما أهل السنة فالمتمسكون بما سنه الله ورسوله (ص) وإن قلوا. وأما أهل البدعة فالمخالفون لأمر الله ولكتابه ورسوله والعاملون برأيهم وأهوائهم وإن كثروا....)[٣].

ب ـ طبيعة الوحدة في نظر الإمام علي (ع):

إن الوحدة التي كان يسعى إليها الإمام علي (ع) لم تكن وحدة معروضة بالقوة المادية أو بالإرهاب المعنوي، وحدة انطباقية من ذوات متشابهة المصنفات المادية، بل وحده إنسانية حركية (ديناميكية) مكونة من شخصيات إنسانيه عاقلة، تتكون أفكارها وآراؤها بحرية فتتناقش ويؤثر بعضها في بعض ويتأثر به، وحدة لا تتناقض مع وجود التجمعات ذات الطابع الاجتماعي وحتى السياسي بل تتحمل الجميع من جهات إسلامية أو من إتباع الديانات الأخرى، وتؤمن لجميع وسائل المعيشة أو تحفظها، وتجيز حتى المشركين وتسمح بوجودهم المؤقت في هذه الحالة بين ظهراني المسلمين رغم أنهم في حاله حرب معهم[٤].

٢ ـ الوحدة والأقليات:

توطئة:

لم تكن أحكام الإسلام بخصوص الأقليات السياسية قد وضحت كفاية حتى عهد الإمام علي (ع) فعهد الرسول (ص) عرف أهل الديانات الأخرى كالوثنية واليهودية والمسيحية

---

(١) م. ن: ٣ ـ ١١٩.

(٢) م. ن: ٣ ـ ١٣٧.

(٣) الميرجهاني ـ مصباح البلاغة: ١ ـ ١١، العلامة المجلسي ـ بحار الأنوار: ٣٢ ـ ٢٥٧.

(٤) ظ: ناصر مكارم الشيرازي ـ عقائدنا: ٣٤.

فنزلت أحكام التعامل معهم وطبقها الرسول (ص). أما الأقليات داخل الجسم الإسلامي فلم تكن قائمة على أسس سياسية واضحة بل على أسس قبلية أو مناطقية كالمهاجرين والأنصار وكالأوس والخزرج، أما العهود التالية فقد عرفت انقسامات ذات طابع سياسي وقبلي: إذ كان في المعارضة في بداية عهد أبي بكر بعض الأنصار وبنو هاشم وبعض الآخرين. غير أن التعامل معهم لم يفصح عن قواعد يمكن اعتمادها؛ لأنها كانت تقسم بالطابع الظرفي.

أما عثمان الذي تألب عليه المسلمون من الأمصار فهاجموا المدينة لكي يزيحوه، وانتهى الأمر على هذا النحو إلى أن تولى الإمام علي (ع) الخلافة فتعامل مع الأقليات السياسية وكما الدينية على أسس ثابتة واضحة ودائمة بحيث يمكننا تحديدها واعتمادها كقواعد للتعامل مع هذه الأقليات.

أ - الإمام علي (ع) والأقليات السياسية:

لقد عرف عهد الإمام علي (ع) عدداً من الحركات السياسية التي اتخذت أشكالاً منظمة وخاضت معارك سياسية ضد الإمام (ع) وحكمه تمهيداً لخلعه بالقوة، وقد تعامل معها الإمام علي (ع) في كل الحالات بما تقضي به مبادئ الإسلام مستخرجاً عدداً من الأحكام السياسية الهامة في التعامل مع الأقليات السياسية[١].

وسوف نستعرض فيما يأتي ملخصاً عن الأقليات التي تعامل معها الإمام علي (ع):

١ - الخوارج:

وهم فرقة من جيشه احتجت على قبوله بالتحكيم في حرب صفين بعد أن كان أفرادها ممن ضغطوا عليه ليرضخ لخدعه رفع المصاحف على الرماح والقبول بتعيين الحكمين بينه وبين معاوية[٢]. وقد كفرت هذه الفرقة الإمام علي (ع) ودعته إلى التوبة وعمدت أخيراً إلى تطبيق حكم المشركين على من يؤيد الإمام علي (ع) ممن وقع بين أيديها الأمر الذي اضطر الإمام (ع) إلى مواجهتها فقاتلته، فهزمها في معركة النهروان، ولكنه لم يقض عليها بشكل نهائي[٣].

٢ - جماعة طلحة والزبير وعائشة:

إن ظاهر الفتنة بالبصرة هو عندما نكث كل من طلحه والزبير البيعة التي بذلاها لأمير المؤمنين طوعاً واختياراً وإيثاراً وخروجهما من المدينة إلى مكة بحجه العمرة فلما وصلا إلى مكة اجتمعا مع عائشة وعمال عثمان الهاربين بأموال المسلمين إلى مكة طمعاً فيما احتجبوه منها وخوفاً من أمير المؤمنين (ع) وقد اتفقت آراؤهم على الطلب بدم عثمان والتعلق

---

(١) المفيد - الجمل: ٣٠.

(٢) م. ن: ٢٩، الدينوري - الإمامة والسياسة: ١ - ١٢٧.

(٣) المفيد - الجمل: ٣٠، محمد الكوفي - مناقب أمير المؤمنين (ع) ٢/٣٣٧.

عليه في ذلك بانحياز قتلة عثمان وحاصريه وخاذليه من المهاجرين والأنصار وأهل العراق ومصر وكونهم جنداً له وأنصاراً واختصاصهم به في حربهم منه ومظاهرته لهم بالجميل وقوله فيهم الحسن من الكلام، وترك إنكار ما صنعوه بعثمان والإعراض عنهم في ذلك[١] وانتهى الأمر بأن قاتلت هذه الجماعة علياً (ع) في ألبصرة، فهزمها وقضا عليها[٢].

٣ ـ جماعه معاوية ـ أهل الشام:

بعد مقتل عثمان، راح معاوية يدعي أنه ولي دمه ويطالب بالاقتصاص من قتلته رافضاً بيعة الإمام علي (ع)، وانتهى الأمر بحرب استمرت طويلاً في صفين، وآلت إلى التحكم بين علي (ع) ومعاوية، ذلك التحكيم الذي انتهى بخديعة المندوب الذي مثل علي (ع) بعد أن فرض عليه فرضاً من قبل قاده جيشه[٣].

ب ـ التعامل مع الأقليات السياسية:

رغم أن الأقليات لم تكن تنوي الاقتصار في مواجهتها للإمام (ع) بالصراع السياسي، بل كانت تضع منذ البدء نصب أعينها اللجوء إلى السلاح لتحقيق أهدافها، فإن الإمام تعامل معهم كما يجب التعامل مع جهات مسالمة.

ألا ترى إن طلحة والزبير وعائشة بإجماع العلماء بالسير والآثار هم الذين كانوا أوكد السبب لخلع عثمان وحصره وقتله وان أمير المؤمنين (ع) لم يزل يدفعهم عن ذلك (٤) ويلطف في منعهم عنه ويبذل الجهد في إصلاح حاله مع المنكرين عليه، والعائبين له والمحتجين عليه بأفعاله وأحداثه فمن أنكر ما ذكرناه أو شك في شيء مما وصفناه فهو بعيد عن علم الأخبار ناء عن معرفة السير والفتن والآثار ومكابر يحمل نفسه على جحد لا على اضطرار وهذا باب لا يحسن مكالمة الخصوم فيه إلا مع الإنصاف والاطلاع على ما جاءت به الأخبار ومخالطة العلماء من أهل الأخبار في الإسلام. وأما من لا معرفة له بالروايات أو منقطع عنها إلى صناعه الكلام أو عامي له غفلة أو مترف مشغول باللذات فلا وجه لمجاراته في هذا الباب وأمثاله، طرقه السمع والأخبار وسبيله ملاقاة الخاصة والعلماء والاستفادة مما عندهم من علم على ما ذكرناه[٥].

لقد تمتعت الأقليات السياسية المسلمة في عهد الإمام علي (ع) بكافة حقوق المسلمين وحريتهم دونما انتقاص، مادامت لم تستخدم السلاح ضد السلطة أو ضد الناس من مثل حرية إبداء الرأي وحرية التجمع لاسيما المنظم وحق الملكية وسائر الحقوق الاقتصادية.

---

(١) ظ: المدني ـ وقعة الجمل: ١٥ ـ ١٦.

(٢) ظ: المفيد ـ الجمل ـ ٦٧، الدينوري ـ الإمامة والسياسة: ١/ ٥١.

(٣) ظ: ابن مزاحم المنقري ـ وقعة صفين: ٧٧.

(٤) ابن أبي الحديد ـ شرح نهج البلاغة: ١ ـ ٢٥٦.

(٥) ظ: المفيد ـ الجمل: ٦٨.

١ - حرية إبداء الرأي:

لم يتعرض الإمام علي (ع) لحرية إبداء الرأي رغم أنها بلغت تكفيره، ناهيك عن مطالبته بالتنحي فعلى الرغم من كون الخوارج مجموعات من جيشه خرجت عليه وهو في حالة الحرب، فإنه لم يتعرض لهم بقتال ماداموا لم يستخدموا السلاح وكان يقول: (.... ولا نهيجهم (الخوارج) ولا نبغيهم شراً ما لم يحدثوا حدثاً أو يفسدوا في الأرض... إن سكتوا تركناهم، وإن تكلموا حاججناهم وإذا أفسدوا قاتلناهم)[١] وكان يكرر قوله: (لا أقاتلهم حتى يقاتلوني...)[٢]. وفعلاً إن الإمام لم يكن يناقشهم، ويرسل الرسل إليهم وقد كلف غير رسول بنقاشهم ولقائهم. فقد أوفد إليهم عبد الله بن عباس يرافقه صعصعة بن صوحان وزياد بن النضر وطلب من ابن عباس أن لا يناقشهم بالقرآن فإنه حمّال ذو وجوه فيقول ويقولون، بل يناقشهم بالسنة ولكن دون جدوى[٣] ثم ذهب إليهم الإمام نفسه لمناقشتهم[٤] وكانت مطالب الخوارج تتخلص بعد إصرارهم على التحكيم بداية، بالتراجع عنه؛لأنه ينخلع من الإمامة، كما أخذوا عليه إعطاء الأجل في التحكيم وعدم البدء به فوراً.

ولكن الإمام علي (ع) كان يرد عليهم بأنهم كانوا من بين أولائك الذين اجبروا على القبول بالتحكيم بعد أن كتشف لهم أن رفع المصاحف على الرماح خدعة، وأنهم أصروا إلى وقف القتال والاحتكام إلى كتاب الله[٥]. فإذا كانوا اليوم غير رأيهم فإنه لا يسعه موافقهم وقد أعطى المواثيق على القبول، وأما تحكيم الرجال بدل القرآن فأوضحه بقوله: (إذا لم نحكم الرجال وإنما حكمنا القرآن وهو لا ينطق بلسان ولابد له من ترجمان وإنما ينطق عنه الرجال)[٦].

وإنه اشترط على الحكمين أن يحكما بكتاب الله (ويحييا ما أحيا الكتاب ويميتا ما أمات فان حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف ما حكما به وإن أبيا وزاغا فنحن من حكمهما براء)[٧].

وأما مسالة الأجل فسوغها الإمام علي بقوله (فعلت ذالك ليتبين الجاهل ويتثبت العالم لعل الله أن يصلح في هذه الهدنة أمر هذه ألامه فلا تؤخذ بأكظامها فتعجل عن تبيين الحق وتنقاد لأول الغي)[٨].

---

(١) الدينوري - الأخبار الطوال: ١٥٧.

(٢) المبرد - الكامل: ٢/١٥٦.

(٣) ظ: ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة: ٤/٢٣٦.

(٤) محمد باقر المحمودي - نهج السعادة: ٢/٢٨٣.

(٥) ظ - ظ: ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة: ١ - ٢٠١.

(٦) خطب الإمام علي (ع) - نهج البلاغة: ٢ - ٥.

(٧) محمد باقر المحمودي - نهج السعادة: ٢/ ٣٢٨ - ٣٢٩.

(١) خطب الإمام علي(ع) - نهج البلاغة: ٢ - ٥.

وأما كلمتهم (لا حكم إلا لله) فقد رد عليهم بأنه لم يكفر بقبوله ضغطهم ورضوخه للتحكيم ولاختيارهم ممثله رغم أن هذا الموقف كان موقفاً ضعيفاً نابعاً من وضع عسكري غير ملائم بعد ظهور التمرد بين الجند ومع ذلك لم ييأس الإمام من أمكانية الإقناع. حتى بعد أن امتنعوا عن الصلاة خلفه بل كان يناقشهم حتى في أثناء تأدية الصلاة فقد ورد أنه كان يصلي وإذا بمصلٍ ورائه يقرأ ﴿ ... إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾[1] فقرأ الإمام (ع) دون أن يقطع صلاته ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾[2] فقد وصل الأمر بالخوارج أن اتهموا الإمام (ع) بالشرك فقد قراء الكواء خلفه في الصلاة وبصوت عالٍ ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[3] فرد عليها الإمام بالآية السابقة نفسها على أن حرية الرأي لم يعترف بها الإمام (ع) للخوارج فقط فقد مارستها جماعة الجمل وحاجهم الإمام (ع) وكان قال عندما غادر طلحة والزبير إلى البصرة (إن فعلوا هذا فقد انقطع نظام المسلمين وما عليهم في المقام فينا مؤونة ولا إكراه)[4] هذا بعد إظهارهم مواقفهم المخالفة لموقف الإمام (ع) كما ناقش أهل الشام وأفاض جيش الشام بقياده معاوية دون أن يستعجلهم بالحرب. هذا وعلى الرغم من أن الفئات المذكورة لم تكن دائماً تستخدم النضال السياسي للتأثير على رأي الإمام وموقفه بل هي تتوسل ذلك تبريراً لقتاله بهدف الخلاص منه والحلول محله، فإنه لم يحاسبها على نواياها ولم يستبق إعلانها الحرب عليه بالمبادرة إلى قتالها، وترك لها الحرية لتنشر رأيها في مقابل رأيه.

٢ ـ حرية التنقل:

لم يقيد الإمام علي (ع) حركة الفئات التي عارضته رغم وجود السوابق في تاريخ الخلفاء الراشدين، إذ إن عمر لم يكن يسمح لقريش أن يتركوا المدينة المنورة فكان يقول (إنني قائم دون شعب الحرة أخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا في النار)[5].

ترك الإمام علي (ع) طلحه والزبير يغادران المدينة وهو يعلم إنهما سيشاغبان عليه تحت ستار تأدية العمرة[6] إذ قال لهما (ليس العمرة ما قصدتما بل الغدرة)[7].

---

(١) الأنعام: ٥٧.

(٢) الروم: ٦٠.

(٣) الزمر: ٦٥.

(٤) الحرب الأهلية في صدر الإسلام: ٨٢.

(٥) الطبري ـ تاريخ الطبري: ٤٢٦/٣.

(٦) ظ: المفيد ـ الجمل: ٦٧.

(٧) خطب الإمام علي (ع) ـ نهج البلاغة.

وعندما توجه طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة مع جموع من الأمويين يقودون جيشاً من المتمردين ليستولوا عليها لحق بهم الإمام علي (ع) ليناقشهم على أمل إقناعهم ولقد تمكن من إقناع الزبير قبيل بدأ المعركة فانسحب منها. أما الخوارج فإن الإمام لم يتعرض لهم إلا بالنصح والإرشاد وكانوا ينتقلون من أماكنهم ويتجمعون وقد كان رجال من الكوفة يتسللون إليهم بوجود الإمام في الكوفة[١]. وحتى من كانوا يتسللون للحاق بمعاوية من أهل المدينة لم يمنعهم[٢] كل هذا مع العلم أن هؤلاء المتمتعين بحرية الحركة كانوا يريدون خلعه أو الانضمام إلى عدوه.

٣ ـ الحقوق ألاقتصاديه والاجتماعية:

صحيح إن علياً استرد القطائع التي أقتطعها عثمان دون حق إلا أنه لم يصادر أملاك خصومه وأموالهم التي أحرزوها بالطرق الشرعية، كما أنه لم يكن ليقطع العطاء لمجرد رأيه مادام الخصم لم ينفصل عن جماعه المسلمين. فالخوارج رغم تكتلهم واتهامهم الإمام (ع) بالكفر فهو لم يقطع عطائهم فقد لاحظ صاحب كتاب الأموال (إن علياً رأى للخوارج في الفيء حقاً ما لم يظهروا الخروج على الناس (استخدام السلاح ضد المواطنين) وهو مع هذا يعلم أنهم يسبونه ويبلغون منه أكثر من السب إلا أنهم كانوا مع المسلمين في أمورهم ومحاضرهم)[٣] وهذا ما صرح به الإمام علي (ع) مراراً فكان يقول لهم (لكم عندنا ثلاث خصال: لا نمنعكم مساجد الله أن تصلوا فيها ولا نمنعكم الفيء ما كانت أيديكم مع أيدينا ولا نبدأكم بالحرب حتى تبدؤنا)[٤] أما إذا انشقت الأقلية بشكل نهائي وانفصلت عن المسلمين ولم تعد تقاتل تحت راية الإمام فإن العطاء يتوقف بطبيعة الحال. وهذا ما لاحظه أبو عبيد حيث يقول عن الخوارج (حتى صاروا إلى الخروج فيما بعد فقطع عطاؤهم)[٥] وهذا هو المبدأ فالعطاء هو المقابل للالتزام الواقعي بالجماعة والقتال إلى جانبها.

وهذا ما أفهمه الإمام علي (ع) لعبد الله ابن عمر إذ قال له (شككت في حربنا فشككنا في عطائك)[٦].

وهكذا فإن الإمام علي (ع) اعترف بحقوق الأقليات السياسية بالمعارضة والحركة. وبحقوقها ألاقتصاديه دون إي انتقاص، بشكل لا تدانيه فيه الأنظمة القائمة اليوم في أحسن صورها وذلك إن الأنظمة الحديثة تسمح بممارسه الحقوق والحريات مادام النظام غير مهدد.

---

(١) م. ن.

(٢) م. ن.

(٣) أبو عبيد، الأموال ـ ١٠٣.

(٤) المحقق النوري ـ مستدرك الوسائل: ١١ ـ ٦٥.

(٥) أبو عبيد ـ الأموال: ١٠٢.

(٦) محمد باقر المحمودي، نهج السعادة: ١٢٧/٤.

أما عندما يهدد النظام فان هذه الحريات تلغى. وما قرارات المحكمة الدستورية الألمانية بإلغاء الأحزاب النازية الجديدة أو الشيوعية إلا خير دليل على ذلك[١].

وإذ أضفنا إلى ذلك إن الإمام علي (ع) كان في حاله حرب بشكل دائم منذ تسلم ألخلافة حتى استشهد، عرفنا قدر إيمانه بحرية وحقوق الأقليات. فاليوم إذا كان النظام في حالة حرب أو في ظروف استثنائية فانه يعلن حالة الطوارئ أو حالة الحصار ويسمح لنفسه بمصادرة الحريات فيمنع التجمعات ويقمع الحريات ويصادر الأشخاص لزجهم في القتال على أساس أنهم جنود احتياطيون ولاسيما أرباب الحرف والمهن ممن يحتاجهم المجهود الحربي وكذالك هو يصادر الممتلكات. وقد عرفت دساتير العديد من البلدان أحكاماً خاصة بحالات الضرورة والظروف الاستثنائية تمنح السلطة التنفيذية العليا صلاحيات دكتاتوريه وهذا ما كان واضحاً جداً في النظام البائد وقمعه للحريات.

وكذلك العرف الدستوري الأمريكي سمح للرئيس روزفلت باحتجاز اليابانيين وحتى الأمريكيين المنحدرين من أصل ياباني احتياطاً إبان الحرب العالمية الثانية خوفاً من أن يشكلوا طابوراً خامساً دون أن يمارسوا أي عمل اتجاه أمريكا[٢].

والدستور الفرنسي في المادة ١٦ منح رئيس الدولة سلطات دكتاتوريه عندما يقدر أن عمل المؤسسات المنتظم قد يتوقف أو أن الخطر يهدد مؤسسات الجمهورية أو استقلال الأمة أو وحدة أراضيها أو تنفيذ التزاماتها الدولية وتقدير الرئيس لهذه الأمور ليس من شروطه تحققها واقعياً وهو عند ذلك يتخذ كل التدابير التي يراها ضرورية لمواجهه تلك الظروف[٣].

أما الدستور الألماني فقد أعطى السلطة التنفيذية في المادة (٨١) صلاحية استثنائية بالتشريع عندما تفقد الأكثرية في البندستاغ[٤].

أما الإمام علي (ع) فإنه التزم باحترام الحقوق والحريات حتى في أحلك الظروف وهو الذي كان يرى من الممكن المواجهة بيسر لو تخلى عن التزامه فقد كان يقول (قد يرى حوّل ألقلب وجه الحيلة ودونها مانع من أمر الله أو نهيه فيدعها رأي العين بعد القدرة عليها وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين)[٥] لهذا فانه لم يلجا إلى الغدر[٦] ولم يتخذ تدابير استثنائية اتجاه حقوق يعدها ممن حمى الله تعالى وقد دفع الإمام علي (ع) على هذا الطريق ثمنا باهظا كان يمكنه لو تهاون في الأحكام التي التزم بها أن يوفره.

---

(١) محمد طي، القانون الدستوري والمؤسسات السياسية: ٣٤٢.

(٢) م. ن: ٢٣٠.

(٣) م. ن: ٣٠٦ – ٣٠٧.

(٤) م. ن: ٢٤٤.

(٥) خطب الإمام علي (ع) - نهج البلاغة.

(٦) م. ن.

النتائج:

١ - لقد استطاع الإمام علي (ع) في الحقل المتروك لاجتهاده أن يبرز للإسلام صورة سمحة مشرقة عن طريق اعترافه بحقوق الأقليات السياسية، لم تتجاوز عصره فحسب بل هي تتجاوز عصرنا.

٢ - استطاع الإمام علي (ع) وفي ظروف استثنائية للغاية أن يطبق قانوناً يصعب تطبيقه اليوم في الظروف العادية، فهو أقر للمتآمرين على نظامه وليس لمجرد معارضيه، ممن حملوا السلاح وشاطروه المقاتلين والأموال، بحقوقهم وحرياتهم ما داموا لم يستعملوا سلاحهم للانقضاض على مؤسسات حكمه، وعندما كان يتواجه معهم كان يدعوهم إلى التحكيم في كتاب الله، وهو القانون الأسمى الذي يفترض أنه المشترك بينه وبينهم، ولم يكن يقاتلهم حتى ينشبوا القتال.

المصادر:

١ - القرآن الكريم

٢ - الأخبار الطوال - أبو حنيفة الدينوري - تح: عبد المنعم عامر - ط١ - ١٩٦٠ م - نشر دار إحياء الكتب العربية.

٣ - أصل الشيعة وأصولها - الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء - تح: علاء آل جعفر - ١٤١٥هـ - ط١ - مط: ستارة.

٤ - الأقليات وأحكامها في الفقه الإسلامي - دراسة مقارنة - بتول فاروق محمد علي - ط١ - ١٤٣٠هـ - دار الضياء للطباعة - النجف.

٥ - الأقليات والسياسة في الخبرة الإسلامية - كمال السعيد حبيب - ط٢ - مط: العربية للطباعة والنشر - القاهرة - ٢٠٠٢ م.

٦ - الإمامة والسياسة (تاريخ الخلفاء) - أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري - تح: طه محمد الزيني - نشر مؤسسة الحلبي وشركاؤه.

٧ - الأموال - أبو عبيد - مؤسسة ناصر للثقافة - بيروت - ١٩٨١م.

٨ - بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار - محمد باقر المجلسي - ط٢ - مؤسسة الوفاء - بيروت، ١٤٠٣.

٩ - تاج العروس من جواهر القاموس - محب الدين أبي فيض الزبيدي - تح: علي شيري - مطبعة دار الفكر - بيروت - ١٤١٤هـ.

١٠ - تاريخ الأمم والملوك - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري - تح، مراجعة، وتص، ضبط: نخبة من العلماء الأجلاء - ط٤ - ١٤٠٣ - مؤسسة ألأعلامي - بيروت.

١١ - التعسف في استعمال الحق - سعيد أمجد الزهاوي - ط١: دار الاتحاد العربي للطباعة - القاهرة.

١٢ - الجامع الصحيح - مسلم بن الحجاج النيسابوري - دار الفكر - بيروت.

١٣ - الجمل - الشيخ محمد بن محمد بن النعمان المفيد - نشر: مكتبة الداوري - قم.

١٤ - الحرب الأهلية في صدر الإسلام - عمر أبو النصر - منشورات عمر أبو النصر - ط٢: ١٩٧٠م.

١٥ - حقوق الأقليات في الإسلام - جعفر المهاجر - مجلة المنهاج - العدد ١٠ - مركز الغدير للدراسات الإسلامية - بيروت - ١٩٩٨م.

١٦ - رسالة في الإمامة - عباس حسن الشيخ جعفر كاشف الغطاء - بلا.

١٧ - الشافي في الإمامة - الشريف المرتضى - ط٢ - مط: مؤسسة إسماعيليان.
١٨ - شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد - تح: محمد أبو الفضل إبراهيم - ط١ - دار إحياء الكتب العربية - ١٣٧٨هـ.
١٩ - عقائدنا - ناصر مكارم الشيرازي - دار الآيات - بيروت - ١٩٩٧ م.
٢٠ - العين - أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي - تح: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي - ط٢ - إيران - نشر: مؤسسة دار الهجرة - ١٤٠٩هـ.
٢١ - القاموس المحيط - الفيروز آبادي - بلا.
٢٢ - الكافي - أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني - تح: علي أكبر الغفاري - ط٥ - دار الأضواء - بيروت - ١٩٨٥م.
٢٣ - لسان العرب - أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور المصري - ١٤٠٥ هـ - نشر أدب الحوزة - قم.
٢٣ - مفهوم الحق - دراسة تحليلية في الفقه والقانون - حسين توسلي - مجلة الحياة الطيبة - العدد ١٢ - سنة ٤ - ١٤٢٤هـ.
٢٤ - مجمع البحرين - الشيخ فخر الدين الطريحي - تح: أحمد الحسيني - ط٢: ١٤٠٨ - نشر: مكتب النشر الثقافة الإسلامية.
٢٥ - مجمع البيان في تفسير القرآن - أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي - تح: لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين - تق: محسن الأمين العاملي - ط١ - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت - ١٤١٥هـ.
٢٦ - مختار الصحاح - محمد بن أبي بكر بن عبد القادر - الرازي - تص: أحمد شمس الدين - ط١ - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٥ هـ.
٢٧ - مستدرك وسائل الشيعة - المحقق النوري - تح: مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث - ط٢: ١٤٠٨.
٢٨ - مشاكل الأقليات المسلمة - محمد علي كتاني - بحث ضمن كتاب الأقليات المسلمة في العالم - إعداد رعد هادي جبارة - رابطة الثقافة والعلاقات الدولية - طهران - ٢٠٠٠م.
٢٩ - مصباح الفقاهة - السيد الخوئي - تقرير بحث السيد الخوئي لمؤلفه الميرزا محمد على التوحيدي التبريزي - ط١ - مط: العلمية، قم.
٣٠ - معجم مقاييس اللغة - أبو الحسن أحمد بن فارس - تح: عبد السلام محمد هارون - مط: مكتبة الإعلام الإسلامي - ١٤٠٤ هـ.
٣١ - المفردات في غريب القرآن - أبو القاسم الحسين المعروف بالراغب الأصفهاني - ط٢ - ١٤٠٤ هـ - نشر: دفتر نشر الكتاب.
٣٢ - مناقب أمير المؤمنين - محمد بن سليمان الكوفي - تح: محمد باقر المحمودي - ط١ - مط: النهضة - ١٤١٢هـ.
٣٣ - الميزان في تفسير القرآن - محمد حسين الطباطبائي - منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية - قم.
٣٤ - نهج البلاغة - مجموع ما أختاره الشريف الرضي من كلام سيدنا (علي بن أبي طالب) (ع) شرح محمد عبدة - ط١ - مط: النهضة، ١٤١٢ هـ.
٣٥ - نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة - محمد باقر المحمودي - مؤسسة المحمودي - ط١: مط دار التعارف ١٣٩٦هـ - بيروت.
٣٦ - واقعة الجمل - المدني - تح: سيد تحسين آل شبيب الموسوي - ط١: ١٤٢٠ هـ - مط محمد - نشر المحقق.
٣٧ - وقعة صفين - نصر بن مزاحم المنقري - تح: وشرح: عبد السلام محمد هارون - ط٢ - ١٣٨٢هـ - مط: المدني - المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر. ❖

التفسير الوعظي لآيات القرآن الكريم في نهج البلاغة

د. حسن كريم ماجد الربيعي
جامعة الكوفة - كلية الفقه

المقدمة:

كان مشروع جمع التراث الفكري والعلمي لأمير المؤمنين (ع) يراودني منذ أمد بعيد، وقد قدمت ورقة أولية بالدعوة لإصدار مجلة علمية وفكرية تعنى بفكر وتراث أمير المؤمنين (ع)، ولم تلق هذه الدعوة آذان صاغية عند الشؤون الفكرية للروضة العلوية في دورتها السابقة، وكنت أعيش هاجس هذه الدعوة بألم حتى وجدت القبول عند القائمين على الشؤون الدينية في هذه الدورة وفرحت كثيراً عندما كتبت لهم هذا البرنامج الذي عن طريقه يمكن جمع هذا التراث الضخم وهو أقل خدمة تقدم في هذا المجال الفكري والعلمي.

هذه الندوات إن شاء الله إذا كتب لها النجاح تكون باكورة الأعمال لجمع تراث الإمام (ع) الفكري والعلمي وقد افتتحنا التراث القرآني عند أمير المؤمنين (ع) وهو محور علوم القرآن وموضوعاته عند الإمام وهو أجل المحاور وأهمها، وسمحنا للباحث أن يختار أي موضوع من موضوعات علوم القرآن للكتابة فيه.

وفي اختيارنا لموضوع التفسير عند الإمام علي (ع) انصب هذا البحث عن آيات تلاها أمير المؤمنين (ع) في بعض خطبه وفسرها تفسيراً وعظياً يأخذ بالأفكار والقلوب وأسميته (التفسير الوعظي لآيات القرآن الكريم في نهج البلاغة)، وكانت آية التكاثر، وآية الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع، وآية ما غرك بربك الكريم، وتفسير هذه الآيات عند الإمام (ع) من التفسيرات الرائعة في بناء البنية الدينية والروحية للإنسان بروح الواقعية المستقبلية.

ويؤكد هذا البحث على تراث ضخم يحتاج لمزيد عناية وتشمير السواعد لجمعه ونشره بين الناس.

تمهيد:

انشغل الفكر المعاصر بالنظريات المادية الصرفة وتغافل عن التفكر في سر الوجود والحياة الروحية وأثرها في صياغة الشخصية المتزنة والمتنورة بالعالمين المادي والروحي، فالرؤية الكونية تهيئ النفس للاتصال والتواصل مع العالم الآخر الذي يزدريه علماء المادة التجريبية والحسية، وكل ما جاء به العالم المادي من أفكار مادية، ونظّر لإيديولوجيات كبرى في العالم فهو لم يؤثر تأثيراً ساحقاً على الرابط الروحي، فقد تمثل الرابط الروحي بالإنسان من غير انفكاك مع أكثر الماديين صرامة، فان الروح تبقى في شعور مخالف للمادة في وجودها

وارتحالها إلى عوالم غيبية، ولا يخلو الغيب من تفكير الإنسان منذ وجوده وعلى مر الحضارات والثقافات والأساطير والى اليوم وبعده.

فالإنسان قلق في مستقبله ويكاد ينظّر ويتأول مفاهيم عدة، وأفضل من صوّر العالم الآخر (اليوم الآخر) هو القرآن الكريم إذ يصوّر ذلك العالم بالنظرات الحسية المتمثلة بالراحة والخلود والاتكاء والرفاهية العامة من جهات معيشة الإنسان وفق عالم تسوده الرفاهية بكل معانيها وتسوده اللذة الممتعة وهناك تصوير رائع يشتاق إليها كل من يقرأ تلك النصوص التي تمثل الواقع الأخروي المنشود، وما يقابل ذلك الحياة الدنيا أو عالم الوجود الأرضي الذي يصوّره القرآن الكريم بأنه الممارسة للوصول إلى الرفاهية.

وفي ضوء هذه الرؤية كان يعظ الإمام أمير المؤمنين (ع) المجتمع الكوفي ويحاول رفعه إلى حالة الثقافة الروحية فيذكر له النصوص القرآنية لينقله نقلة روحية يتسامى بها عن الأرضي إلى العلوي القرآني.

فإن جدوى البحث في تراث أمير المؤمنين (ع) مما يؤصل الأفكار المتداولة إذا قرأنا هذا التراث قراءة جديدة وحللنا المفاهيم والمصطلحات التي استعملها الإمام (ع) في تفسيره، وهذا يحتاج تعداد وتداخل المناهج في هذه القراءة ثم الخلوص إلى نتائج تطبيقية نافعة، تؤهل لصياغات جديدة في التعامل مع مفاهيم معاصرة أو اكتشاف نظريات مختلفة في الحياة العامة أو خلق معيارية بين الرؤية المكشوفة والرؤية الغائبة (المخفية).

ففي الآية الأولى محل البحث يجمع بين ألفاظ القرآن الكريم في تفسيره للتكاثر والمقابر في قوله تعالى: (ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر)، وهذه الانتقالة من حالة الغفلة إلى ضيق المضجع، وفي آية: (رجال لا تلهيهم....) صفات عظيمة لرجال كأنهم قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فيها فشاهدوا ما وراء ذلك، أما في آية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾، يعظ ويعطي درساً في الموعظة وهكذا يقرأ القرآن بالدرس الوعظي الأخلاقي التفكري، فقوله (ع): (وحقاً أقول ما الدنيا غرتك ولكن بها اغتررت)، فإن هذه الآيات التي تطرق إليها الإمام (ع) وهو يؤسس تفسيراً وعظياً اعتبارياً يأخذ بالقلوب والعقول والنفوس إلى الصفاء والطهارة والاستغفار وطلب المعالي الأخروية وهي ثقافة الروح (الميتافيزيقية) الغائبة بجدار النزول الأرضي ولذلك يقول: (وإن السعداء بالدنيا غداً هم الهاربون منها اليوم إذا رجفت الراجفة وحقت بجلائلها القيامة...).

هكذا تفسر مفاهيم القرآن الكريم لبيان الواقع المادي والواقع الروحي (الأهم) في رحلة الإنسان إلى عالم آخر يجهله أوضحه الإمام بأروع الألفاظ والمباني والمعاني لصيانة هذا الإنسان من وهم المادية والوجودية وبعث حقيقة الجوهر الإنساني من كوامنه.

هذا التفسير يُعلّي من شأن الروحية في كينونة الإنسان ويعرفه أصل الوجود وهدفه ومقاصده وغاياته من أقواله وأفعاله وتقريراته في دنيا الانتقال إلى عالم الخلود السرمدي المأمول حصوله في عالم غائب عنا لا يُدرك بالحواس.

وفي الختام نتمنى أن يوفق العلماء والباحثين للوصول إلى كنه المعرفة العلوية في العلوم التي أسسها لكي يمكن الانتفاع بها والعمل عليها، والله وراء القصد والحمد لله رب العالمين.

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾[١]

قبل بيان التفسير الوعظي لهذه الآية ما هو المقصود من حالة الوعظ كمفهوم وموضوع ذات أهمية قصوى في التأمل والتفكر والسلوك؟، لذلك قال (ع): (أيها الناس إني قد بثثت لكم المواعظ التي وعظ الأنبياء بها أممهم وأديت إليكم ما أدت الأوصياء إلى من بعدهم...)[٢]، وفي موضع آخر قال: (والسعيد من وعظ بغيره)[٣]، وفي غيره قال (ع): (أيها الناس استصبحوا من شعلة مصباح واعظ متعظ... انه ليس على الإمام إلا ما حُمّل من أمر ربه الإبلاغ في الموعظة والاجتهاد في النصيحة والإحياء للسنة وإقامة الحدود على مستحقيها...)[٤].

وعرف الوعظ بأنه التذكير بالخير فيما يرق له القلب أو التذكير بما يردع عن الشر من الوعد بالثواب والوعيد بالعقاب[٥]، إذا من أعظم أهدافه تغيير السلوك فهو من هذه الجهة من المفاهيم التربوية العالية المضامين وهو مسلك الأنبياء والأئمة والصالحين والعلماء من أهل التقوى والمخالفة لهوى النفوس، ولذلك قال أمير المؤمنين (ع) فيما رواه الثقفي (٢٨٣هـ) في كتابه (الغارات) من خطبة في الموعظة جاء في آخرها: (فافهموا ما توعظون... إلا وقد وعظتكم فنصحتكم ولا حجة لكم على الله)[٦] وصفة الوعظ صفة ملازمة لكل المصلحين والمتقين ولا تنفك عن الأنبياء والأوصياء بدرجات متفاوتة ومتسلسلة من الوعظ النفسي (الاتعاظ بالآخر) والوعظ الجمعي والجماعي ووعظ الأمة وإصلاحها بما ينفعها ويطورها نحو الفهم الحقيقي للوجود الدنيوي والرحلة إلى الآخرة، وهو مفهوم ثقافي توعوي يلامس الشعور وسيكولوجية النفس الإنسانية.

وفسر عبد الوهاب (ت ٦هـ) كلام أمير المؤمنين (ع): (السعيد من وعظ بغيره)، يعني السعادة في الدنيا والآخرة لمن يتعظ ويقبل النصيحة ممن هو ينصح لآخر ويزجره عن فعل شنيع وأمر قبيح، وإذا رأى منكراً صادراً عن الغير استكرهه ولا يقاربه أصلاً كما قيل للقمان الحكيم: (ممن تعلمت الأدب؟، فقال: ممن ليس له أدب لأني كلما رأيت ما يصدر منه

---

(١) التكاثر: ١ ـ ٢.

(٢) نهج البلاغة، شرح: محمد عبده، (قم: النهضة، ١٤١٢هـ)، ج٢، ص١٠٨.

(٣) نهج البلاغة، شرح: صبحي الصالح، بيروت، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، ص١١٧.

(٤) المصدر نفسه، ص١٥٢.

(٥) محمد قلعجي، معجم لغة الفقهاء، (بيروت: دار النفائس، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ص٥٠٦.

(٦) الثقفي، إبراهيم بن محمد الكوفي، الغارات، تحق: جلال الدين الحسيني الارموي المحدث، طبع على طريقة أوفست في مطابع بهمن، ج٢، ص٥٠٣.

تركته)[١]، والوعظ عند اللغويين: النصح والتذكير بالعواقب[٢]، والموعظة الحسنة قيل: هي القرآن[٣].

لقد فسر الإمام (ع) القرآن ونصوصه بالتفسير الوعظي الإرشادي والأخلاقي كهدف أساس من أهداف هذه النصوص وفي الآية موضوع التكاثر وموضوع المقابر، ففي التكاثر يعني الأموال وفي المقابر الأموات فكيف يمكن الجمع بينهما؟.

يشرح ابن أبي الحديد المعتزلي (ت ٦٥٦هـ) ويقول: (قد اختلف المفسرون في تأويل هاتين الآيتين فقال قوم المعنى إنكم قطعتم أيام عمركم في التكاثر بالأموال والأولاد حتى أتاكم الموت فكنى عن حلول الموت بهم بزيارة المقابر، وقال قوم بل كانوا يتفاخرون بأنفسهم وتعدى ذلك إلى أن تفاخروا بأسلافهم الأموات فقالوا منا فلان وفلان لقوم كانوا وانقرضوا وهذا هو التفسير الذي يدل عليه كلام أمير المؤمنين (ع) قال: (يا له مراماً) ما أبعده أي لا فخر في ذلك، وطلب الفخر من هذا الباب بعيد، وإنما الفخر بتقوى الله وطاعته، وزورا ما أغفله إشارة إلى القوم الذي افتخروا جعلهم بتذكر الأموات السالفين كالزائرين لقبورهم... الى الخ[٤]، ونحن هنا ليس بصدد شرح المعاني كلها ولكن بإشارة التأسيس الذي أسسه الإمام علي (ع) للتفسير الوعظي العظيم لنصوص القرآن الكريم، بالتأكيد على هدف عظيم من أهداف القرآن الكريم هو الوعظية والاعتبارية من ألفاظه العميقة وقد فسر هذه الآية بالمنهج الوعظي الإرشادي من الصفحة ٢٠٤ إلى الصفحة ٢١٠ يصف حالة الانتقالة من عالم الحياة إلى عالم آخر غابت عنا أخباره، لذلك قال (ع): (وإنما كانوا جميعاً فشتتوا، وآلافاً فافترقوا وما عن طول عهدهم ولا بعد محلهم عميت أخبارهم وصمت ديارهم)[٥]، ونقل الشيخ محمد جواد مغنية بعض كلماته (ع) في التفسير الكاشف بعد تفسير التكاثر والمقابر فقال: (وللإمام علي (ع) كلام طويل قاله بعد تلاوة هذه الآية الكريمة)[٦]، ثم نقل عبارته (ع): (أفبمصارع آبائهم يفخرون؟ أم بعديد الهلكى يتكاثرون...) ومن نصوص الكلام والتفسير الذي ذكره الإمام (ع) يستشعر المقابل بالملاحظة الدقيقة للواقع المأساوي للإنسان حينما يتغافل عن ذلك الواقع ليعيش في غفلة عميقة وطويلة تنتهي به إلى الأجساد الخاوية المتفرقة فان التكاثر

---

(١) عبد الوهاب، شرح كلمات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع)، تحق: جلال الدين المحدث، (قم: جماعة المدرسين، ١٣٩٠هـ)، ص٤٩.

(٢) الجوهري، الصحاح، تحق: أحمد عبد الغفور العطار، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ج٣، ص١١٨١.

(٣) الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، (طهران: مرتضوي، بلا)، ج٤، ص٢٩٢.

(٤) ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة، تحق: محمد ابو الفضل ابراهيم، (القاهرة: دار احياء الكتب العربية، ١٩٦١م)، ج١١، ص١٤٥.

(٥) نهج البلاغة، ص٢٠٦، طبعة دمشق.

(٦) محمد جواد مغنية، التفسير الكاشف، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨١م)، ج٧، ص٦٠٣.

غريزة واقعية كالمذهب النفعي المادي والقبر والمقابر حقيقة مرة غير مرغوبة، ولابن أبي الحديد المعتزلي بعد إيراد هذا الكلام كلام غاية في الحسن فقد قال: (من أراد أن يعظ ويخوف ويقرع صفاة القلب ويعرف الناس قدر الدنيا وتصرفها بأهلها فليأت بمثل هذه الموعظة في مثل هذا الكلام الفصيح، وإلا فليمسك فان السكوت أستر والعي خير من منطق يفضح صاحبه، ومن تأمل هذا الفصل علم صدق معاوية في قوله فيه: (والله ما سن الفصاحة لقريش غيره)، وينبغي لو اجتمع فصحاء العرب قاطبة في مجلس وتلي عليهم أن يسجدوا له كما سجد الشعراء لقول عدي بن الرقاع:

قلم أصاب من الدواة مدادها

فلما قيل لهم في ذلك قالوا إنا نعرف مواضع السجود في الشعر كما تعرفون مواضع السجود في القرآن، واني لأطيل التعجب من رجل يخطب في الحرب بكلام يدل على ان طبعه مناسب لطباع الأسود والنمور وأمثالهما من السباع الضارية، ثم يخطب في ذلك الموقف بعينه إذا أراد الموعظة بكلام يدل على ان طبعه مشاكل لطباع الرهبان لابسي المسوح الذين لم يأكلوا لحماً ولم يريقوا دماً فتارة يكون في صورة بسطام بن قيس الشيباني وعتيبة بن الحارث اليربوعي وعامر بن الطفيل العامري، وتارة يكون في صورة سقراط الحبر اليوناني ويوحنا المعمدان الإسرائيلي والمسيح بن مريم الإلهي، وأقسم بمن تقسم الأمم كلها به لقد قرأت هذه الخطبة منذ خمسين سنة وإلى الآن أكثر من ألف مرة ما قرأتها قط إلا وأحدثت عندي روعة وخوفاً وعظة وأثرت في قلبي وجيباً وفي أعضائي رعدة ولا تأملتها إلا وذكرت الموتى من أهلي وأقاربي وأرباب ودي وخيلت في نفسي فقال إني أنا ذلك الشخص الذي وصف (ع) حاله، وكم قد قال الواعظون والخطباء والفصحاء في هذا المعنى؟، وكم وقفت على ما قالوه وتكرر وقوفي عليه فلم أجد لشيء منه مثل تأثير هذا الكلام في نفسي فإما أن يكون ذلك لعقيدتي في قائله أو كانت نية القائل صالحة ويقينه كان ثابتاً وإخلاصه كان محضاً خالصاً فكان تأثير قوله في النفوس أعظم وسريان موعظته في القلوب أبلغ)[1]، وهذا التفسير الوعظي من أعظم الهدايات لمن ألقى السمع وهو شهيد انظر إلى بعض مفرداته التي تلامس الشعور الباطني لواقع آت وهو يقرر التحولات الحقيقية للإنسان فيقول: (سلكوا في بطون البرزخ سبيلاً سُلطت الأرض عليهم فيه، فأكلت من لحومهم، وشربت من دمائهم، فأصبحوا في فجوات قبورهم جماداً لا ينمون، وضماراً لا يوجدون، لا يفزعُهُم ورود الأهوال ولا يحزنهم تنكر الأحوال... الخ)[2].

ويبدو حسب تتبعي لم أجد تفسيراً وعظياً للقرآن الكريم كما وجدته عند الإمام علي (ع) وهو يؤسس هذا العلم الذي أهمل من مدرسته العظيمة ونحن بأمس الحاجة للوعظ والاتعاظ

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١١، ص١٥٣.

(٢) نهج البلاغة، ص٢٠٦.

والعبرة والاعتبار في السير على هدى هذا التفسير الذي هو من أجل وأعظم أهداف الآيات القرآنية، والتي تؤسس لمنهج تنظيمي للحياة بكل أشكالها وصورها ومنها حاجة الإنسان إلى التأمل والنظر في عالمه والعوالم المستقبلية التي تنتظره، إذ أن المنهج الوعظي يجعل الإنسان في الصورة الروحانية التي فقدت في عالمنا المعاصر المادي النفعي فان البراجماتية قد غزته وبشدة بعد صعود مفاهيم العولمة والديمقراطية والحرية وكان الإنسان يعيش لعالمه الدنيوي فقط فتحول إلى إنسان تقني لا يكاد يسمع الميتافيزيقية أو عوالم الغيب حتى ينعت المخاطب بالغيبية والمشاعر الروحانية غير الواقعية وكأنه قد اكتشف كل شيء ولا يدري إنه مجهول.

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[1]

يحدد الإمام (ع) أهمية الذكر كمفهوم قرآني وعظي أي من أهم مصطلحات الوعظ القرآنية هو (الذكر) وهو أعلى مقامات العارفين، وقيل ذكر الله تعالى سيف المريدين به يقاتلون أعداءهم وبه يدفعون الآفات التي تقصدهم، وان البلاء إذا أظل العبد ففزع بقلبه إلى الله حاد عنه كل ما يكرهه، وفي الخبر المرفوع: (أنا جليس من ذكرني)[2]، لهذا جعل الإمام (ع) مفتتح تفسيره ووعظه بأن الله سبحانه وتعالى جعل الذكر جلاء للقلوب[3]، ورب سائل يسأل هل هو الذكر القلبي أم الذكر العملي أو الفكر لذلك يقول (ع): (عباد ناجاهم في فكرهم وكلمهم في ذات عقولهم، فاستصبحوا بنور يقظة في الأبصار والأسماع والأفئدة، يُذكرون بأيام الله، ويخوفون مقامه، بمنزلة الأدلة في الفلوات، من أخذ القصد حمدوا إليه طريقه، وبشروه بالنجاة، ومن أخذ يميناً وشمالاً ذموا إليه الطريق، وحذروه من الهلكة...)[4]، وهذا التفسير ذكر فيه الإمام (ع) مفاهيم عدة منها الذكر القلبي والذكر اللساني والعملي والفكر كذلك، وربط بين هذه المفاهيم رباطاً وعظياً عظيماً.

لذلك وصف أهل الذكر مادحاً ومحركاً للمحاكاة لهم، قال (ع): (وإن للذكر لأهلاً أخذوه من الدنيا بدلاً، فلم تشغلهم تجارة ولا بيع عنه، يقطعون به أيام الحياة ويهتفون بالزواجر عن محارم الله في أسماع الغافلين، ويأمرون بالقسط ويأتمرون به، وينهون عن المنكر ويتناهون عنه، فكأنما قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فيها، فشاهدوا ما وراء ذلك فكأنما اطلعوا غيوب أهل البرزخ في طول الإقامة فيه...)[5] وهذا هو من أعظم آثار الذكر

---

(١) سورة النور: ٣٦ - ٣٧.

(٢) نهج البلاغة، شرح نهج البلاغة، ج١١، ص١٧٦.

(٣) نهج البلاغة، ص٢١١.

(٤) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(٥) نهج البلاغة، ص٢١٢.

والدوام عليه سواء الذكر القلبي والتأملي أو الذكر القولي والتبشير به، أو أعمال الفكر مع الذكر والفكر والذكر من مقامات العلماء والعرفاء والمتعظين والوعاظ أهل العمل، ويبيّن التفسير الوعظي أهمية التربية النفسية وتعزيزها بهذه المفاهيم الرائعة، لذلك يختم كلامه وتفسيره الوعظي بقوله: (فحاسب نفسك لنفسك، فان غيرها من الأنفس لها حسيب غيرك)[١].

ويؤسس الإمام (ع) نظرية المحاسبة الرياضية للنفس ولأجلها أي تحقيق المحاسبة الذاتية لثمرتها المرجوة من إصلاحها ورفعتها ووصولها إلى الكمال فهو أعظم أهداف النفس البشرية بعد تحبيب الإيمان لها وأهمية المحاسبة تظهر عن عدمها فإن الأشياء تعرف بأضدادها، فهي تهوي في مهاوي الفساد والرذيلة إذا تركت من دونها - أي المحاسبة -، والمحاسبة الذاتية تعطي ثمارها وآثارها في المعرفة والعلم بالأهداف الكبرى لهذا الوجود، فتحدث الاستقامة والعلو والإنصاف وجميع صفات الإنسانية، أي تبرز الخصائص الفطرية على المكتسبة.

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾[٢]

والغرور كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان وقد فسر بالشيطان اذ هو أخبث الغارين[٣]، وقد فسر الإمام (ع) هذه الآية تفسيراً وعظياً يأخذ بالقلوب ويبين حقيقة الحياة وأهمية النفس الإنسانية في معرفة علاقتها تجاه خالقها وان لا تغتر بما ترى حولها فهي إلى ترك كل ذلك حتماً، فالأولى إطاعة الخالق ونيل جائزته وإلا الورطة والتورط لذلك قال (ع): (وقد تورطت بمعاصيه مدارج سطواته...)، وفي موضع آخر قال (ع): (وكن لله مطيعاً، وبذكره آنساً)، ويقرر الإمام (ع): (وحقاً أقول ما الدنيا غرتك، ولكن بها اغتررت)[٤]، موعظة عظيمة ووصف للانتقال من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة، والإنسان لفظ مطلق يشمل هذا الكائن الممكن المخلوق للمعرفة والتعرف والتمييز بين العوالم لذلك قال أمير المؤمنين (ع): (فتحرّ من أمرك ما يقوم به عذرُكَ، وتثبتُ به حجتك، وخذ ما يبقى لكَ مما لا تبقى له، وتيسَّرْ لسفرك، وَشِمْ برقَ النجاة)[٥]، هذه النصوص الوعظية على غاية من ملامسة الروح الإنسانية وأهداف الوجود في هذا العالم والغايات الانتقالية من عوالم ممكنة وحتمية قهرية إلى عالم آخر لا يندفع أبداً إلا بأوامر من واجب الوجود للنفس المحشورة التي قامت بالجسد في دنيا زائلة إلى نفس وجسد أخروي.

---

(١) المصدر نفسه، ص٢١٣.

(٢) الانفطار: ٦.

(٣) الراغب الأصفهاني، المفردات، ص٣٧٣.

(٤) للمزيد ينظر: نهج البلاغة، ص٢١٥.

(٥) المصدر نفسه، ص٢١٦.

خلاصة البحث:

بعد هذه الجولة السريعة في التعامل التفسيري الوعظي مع آيات القرآن الكريم يمكن الوصول إلى النتائج الآتية:

١- أسس الإمام علي (ع) التفسير الوعظي لآيات القرآن الكريم وتحقيق أهم هدف من أهداف النص القرآني.

٢- يمكن الدعوة إلى كتابة تفسير جديد يوافق دعوة الإمام علي (ع) لتفسير الآيات القرآنية تفسيراً وعظياً يأخذ بالقلوب والنفوس نحو السمو والرفعة وصناعة الإنسان الملتزم في دنيا الوجود ليحصل على الآخرة بسلام وشوق واطمئنان ويلقى بظلاله على الإنسان النافع في دنيا الوجود.

٣- يحقق التفسير الوعظي ثمرات عظيمة في تغيير الثقافة الاجتماعية للأمة الإسلامية نحو الواقع الدنيوي والأخروي.

٤- يحقق التفسير الوعظي الرؤية المكشوفة والرؤية المخفية وان الإنسان يعيش بين الرؤيتين وعليه تبنى ثقافته الاجتماعية الثنائية فينتج الإنسان الوعظي الذي يعيش المراقبة الذاتية بحرية تامة واستقرار من دون خوف أو وجل.

المصادر والمراجع:

- ابن أبي الحديد المعتزلي، عز الدين عبد الحميد (ت ٦٥٦هـ).
١- شرح نهج البلاغة، تحق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦١م).
- الثقفي، إبراهيم بن محمد بن سعيد الكوفي (ت ٢٨٣هـ).
٢- الغارات، تحق: جلال الدين الحسيني الارموي المحدث، طبع على طريقة الأوفست في مطابع بهمن.
- الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣هـ).
٣- الصحاح، تحق: أحمد عبد الغفور العطار، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).
- الراغب الأصفهاني، ابو القاسم الحسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ).
٤- المفردات في غريب القرآن، ضبط: هيثم طعيمي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٣هـ).
- الشريف الرضي، أبو الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين (ت ٤٠٤هـ).
٥- نهج البلاغة، شرح: محمد عبده، (قم: النهضة، ١٤١٢هـ).
٦- نهج البلاغة، شرح: صبحي الصالح، بيروت ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
- الطريحي، فخر الدين (ت ١٠٨٥هـ).
٧- مجمع البحرين، (طهران: مرتضوي، بلا).
- عبد الوهاب (ت ق ٦هـ).
٨- شرح كلمات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، تحق: جلال الدين المحدث، (قم: جماعة المدرسين، ١٣٩٠هـ).
- محمد جواد مغنية.
٩- التفسير الكاشف، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨١م).
- محمد قلعجي.
١٠- معجم لغة الفقهاء، (بيروت: دار النفائس، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م). ❖

الحرب بين الإمام علي (ع) ومعاوية في نهج البلاغة

حسن عبد الأمير عبد الصاحب الظالمي
النجف الأشرف

المقدمة:

إن الثورة التي أدت إلى مقتل الخليفة عثمان بن عفان كانت بداية لمسلسل الفتن الدامية التي طحنت المسلمين برحاها وفرقت شملهم وأسالت الدماء الغزيرة فيهم.

هذه الفتنة كان سببها الأول تصرف الولاة الذين نصبهم عثمان على الأمصار الإسلامية في العراق ومصر وغيرها فقد كانوا يجهلون مبادئ الإسلام ولا يقيمون لتعاليمه أي اهتمام بل كانوا يعادونه جهرة بالانسياق وراء أهوائهم وملذاتهم، مما ألبّ الناس على عثمان فجاءوا إلى المدينة المنورة يطالبونه بعزلهم وإبدالهم بآخرين، فتلقاهم مروان شيخ بني أمية وطريد رسول الله (ص) الذي أعاده عثمان إلى المدينة وسلمه مقاليد الأمور ليثير الفتن ويزيد الطين بلّه، وتأزمت الأوضاع وسادت الفوضى في المدينة المنورة (وحوصر عثمان أربعين يوماً وقيل ثمانين يوماً فكان أن قتل في ١٨/ ذو الحجة/ ٣٥هـ)[١].

موقف معاوية من الفتنة:

وكان معاوية يرنو للخلافة من بعيد طامعاً فيها وهو الذي لم ينصر قريبه عثمان بجيشه من أهل الشام حين كتب إليه يستنصره، وزاد طمعه فيها بعد أن قتل عثمان واستوثق من ولاء أهل الشام له بعد معاشرته لهم عشرين عاماً منذ خلافة عمر بن الخطاب وجمع منهم قوة لا يستهان بها لتنفيذ مآربه ومطامعه.

موقف الإمام علي من الفتنة:

لما تأزمت الأوضاع تدخل الإمام علي (ع) يهدئ الحالة ويرجع الثائرين الذين يطالبون بالإصلاح وتبديل الولاة - إلى بلدانهم وأخذ من عثمان شرطاً أن لا يطيع مروان بن الحكم وسعيد بن العاص ولكن مجرد أن هدأت الأوضاع عاد مروان وحرّض عثمان على أن يخرج وينال من الثوار فخرج إليه الإمام (ع) مغضباً وقال لعثمان: (أما رضيت من مروان ولا رضي منك إلا بتحريكك عن دينك وعن عقلك مثل جمل الضعينة يقاد حيث يسار، والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا في نفسه)[٢].

ولكن الأوضاع ساءت وسادت الفوضى وحوصر عثمان وكان أول من دخل عليه محمد بن أبي بكر فأخذ بلحيته ثم دخل عليه رومان بن أبي سرحان ومعه خنجر فاستقبله وقال: على أي دين أنت يا نعثل؟ وضربه على صدغه الأيسر فقتله[٣].

وبعد مقتل عثمان تحرك الثائرون نحو الإمام علي (ع) لكي يبايعوه بالخلافة وقد رفض للمرة الأولى وقال (لا حاجة لي في إمرتكم أنا معكم فمن اخترتم رضيت به فاختاروا)[٤]، وقال (ع) بعد أن أصروا عليه بالخلافة (إني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم وأنا لكم وزير خير لكم مني أمير)[٥].

لكنهم تكاثروا عليه مطالبين قبوله بالخلافة ووصف (ع) ذلك الموقف بقوله (فما راعني إلا والناس حولي كعرف الضبع ينثالون عليّ من كل جانب حتى لقد وطيء الحسنان وشُق عطفاي مجتمعين حولي كربيضة الغنم)[٦].

فقبل الإمام (ع) أن يتولى الخلافة لكنه أخر القبول إلى اليوم الثاني وان تكون بيعة علنية في المسجد.

الفصل الأول

تولي الإمام علي (ع) الخلافة

وفي اليوم السادس بعد مقتل عثمان كانت بيعة الإمام علي (ع) بالخلافة يوم الثلاثاء ٢٤/ذي الحجة / ٣٥هـ[٧].

قال الطبري: وقد بويع علي بالخلافة سنة ٣٥هـ وبايعه المهاجرون والأنصار وأطاعت فارس ومصر والعراق علياً[٨]، وكانت بيعة عامة وصفها هو (ع) بقوله (وبلغ سرور الناس ببيعتهم إياي أن ابتهج بها الصغير وهدج إليها الكبير، وتحامل نحوها العليل وحسرت إليها الكعاب)[٩].

ولكن معاوية امتنع عن البيعة، ورفض التخلي عن ولاية الشام بعد أن دانت جميع الأمصار الإسلامية للإمام، وعندما أرسل الإمام سهل بن حنيف والياً على الشام تلقته خيل معاوية وأجبرته على العودة[١٠].

موقف الإمام (ع) من معاوية:

كان موقف الإمام (ع) من معاوية واضحاً منذ البداية في عدم إبقاء معاوية بن أبي سفيان على ولاية الشام لما يعرفه عنه من بُعده عن الدين ومعاداته للإسلام وحين كتب إليه معاوية يطلب إبقاءه على الشام كان رده (ع) صارماً معه حيث قال: (وأما طلبك إليّ الشام فاني لم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك أمس)[١١] ولقد تجلى موقف الإمام علي (ع) من معاوية في الخطوات التي اتخذها الإمام علي (ع) معه بدأها بما يلي:

أ - إرسال الرسل والرسائل إلى معاوية لإقناعه بالتخلي عن موقفه:

وقد أرسل الإمام (ع) في البداية حكمه جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية بكتاب يطلب فيه البيعة جاء فيه (إنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار فان

اجتمعوا على رجل وسموه إماماً وكان ذلك لله رضا، فان خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى ما خرج منه فان أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين)[١٢].

وتوالت كتب الإمام (ع) ورسله على معاوية حتى قبيل وقوع حرب صفين، فأرسل إليه وهو في صفين وفداً من بشير بن عمرو بن محصن الأنصاري وسعيد بن قيس الهمداني وشبث بن ربعي، وقال لهم (ع): ائتوا الرجل فادعوه إلى الله وإلى الطاعة وإلى الجماعة فلم ينفع ذلك في تغيير رأيه[١٣].

ولما حل المحرم من عام ٣٧هـ وتوادعاً على ترك القتال طمعاً في الصلح بعث الإمام إلى معاوية: (عدي بن حاتم، ويزيد بن قيس، وشبث بن ربعي وزياد بن حفصة فدخلوا عليه وتحدثوا معه وبينوا فضل أمير المؤمنين وقرابته من رسول الله (ص) ولكنه ازداد بعداً وعناداً)[١٤].

وإذا استقرأنا رسائل الإمام وكتبه إلى معاوية وجدنا الدليل القاطع والحجة الواضحة والكلام الهادي الذي ينشد الهداية والرشد واتخاذ السلام طريقاً لحل الخلاف وقد رأينا كلام الإمام (ع) يركز على النقاط الآتية:

١ - أحتج ببيعة الناس من المهاجرين والأنصار له الذين بايعوا الخلفاء الثلاثة.
٢ - أوضح أن هذه البيعة ألزمت الشاهد والغائب.
٣ - إن الإمام جادل معاوية بما احتج به الخلفاء من أن الشورى للمهاجرين والأنصار.
٤ - إن الخارج عن أمرهم خارج عن الدين وإن من حقهم رده ومقاتلته حتى يعود إلى ما اجتمعوا عليه.

والأمثلة كثيرة في هذا المضمار نتلمسها في رسائل الإمام (ع) إلى معاوية وردت في رسالة مطولة بعث بها (ع) إلى معاوية جواباً على كتاب بعثه إليه تجلت فيه بلاغة الإمام في أعلى صورها حيث رد ادعاءات معاوية فقرة فقرة وهو كتاب رقم ١٧ ص٤٧٤ صبحي الصالح. وكتاب رقمه ٢٨ الذي هو جوابٌ لمعاوية على ادعاءاته.

وتكشف رسائل الإمام من الجانب الآخر سيرة القائد الرسالي والراعي الأمين لرسالة السماء الذي لا يداهن ولا يهادن في وجوب تطبيق الشريعة وإقامة الحدود الشرعية وعدم تولية الأمة من ليس آهلاً للولاية.

ب - بيان الإمام فضله وسابقه للإسلام وقرابته من رسول الله.

كما احتج الإمام على معاوية في رسله ورسائله وخطبه التي ألقاها على جيشه بفضله وسابقته في الإسلام وقرابته من رسول الله (ص) وملازمته له وجهاده في سبيل ترسيخ دعائم الإسلام ليكون رادعاً لمعاوية عن غيّه وعناده، وقد جاء في كتاب بعثه (ع) إلى معاوية (ولا ينبغي لمن ليست له مثل سوابقهم في الدين ولا فضائلهم في الإسلام أن ينازعهم الأمر الذين هم أهله وأولى به فيجور ويظلم، ولا ينبغي لمن كان له عقل أن يجهل قدره ويعدو طوره، فان أولى الناس بأمر هذه الأمة قديماً وحديثاً أقربها من الرسول (ص) وأعلمها بالكتاب وأفقهها في الدين، وأولها إسلاماً وأفضلها جهاداً وأشدها بما تحملّه الأئمة من أمر الأمة اضطلاعاً)[١٥].

ويمضي الإمام في هذا الطريق فيبين فضله وجهاده وسابقته فيقول: وقد خطب أصحابه في صفين (نحن أهل بيت الرحمة، قولنا الصدق، وفعلنا القصد، ومنّا خاتم النبيين وفينا قادة الإسلام وفينا حملة الكتاب، ألا وإن أعجب العجائب أن معاوية بن أبي سفيان الأموي وعمرو بن العاص السهمي أصبحا يحرضان الناس على طلب الدين بزعمهما، ولقد علمتم أني لم أخالف رسول الله (ص) قط ولم أعصه في أمر، أقيه في المواطن التي يَنكِص فيها الأبطال وترعد فيها الفرائص بنجدةٍ أكرمني الله سبحانه بها وله الحمد، ولقد قبض رسول الله (ص) وأن رأسه لفي حجري)[١٦].

جـ - إبداء النصيحة لمعاوية وتحذيره الآخرة:

وأراد الإمام إلقاء الحجة على معاوية وتبصيره بمواقفه وبيان ضلالة رأيه بكلام الناصح المشفق الذي لا يبخل بالنصيحة على أحد حتى ولو كان عدوه، وبصّره بما يؤول إليه أمر المسلمين من التفرق والنزاع والمخاصمة لكن معاوية كان يروغ عنها ولا يلتفت إليها. كتب (ع) إليه رسالة جاء في جزء منها:

(وكيف أنت صانع إذا تكشفت عنك جلابيب ما أنت فيه من دنيا قد تبهجت بزينتها، وخدعت بلذاتها، دعتك فأجبتها، وقادتك فاتبعتها وأمرتك فأطعتها، وأنه يوشك أن يوقفك واقف على ما لا ينجيك منه منجنٍ فاقعس عن هذا الأمر وخذ أهبة الحساب وشمّر لما نزل بك ولا تمكن الغواة من سمعك)[١٧].

وقال في كتاب بعثه إلى معاوية: (فاتق الله قَيماً لدينك، وانظر في حقه عليك، وارجع إلى معرفة ما لا تعذر بجهالته، فإنّ للطاعة أعلاماً واضحة وسبلاً نيّرة ومحجة نهجة، وغاية مطلّبه، يردها الأكياس ويخالفها الأنكاس، ومن نكب عنها جاز عن الحق وخبط في التيه وغيّر الله نعمته، وأحّل به نقمته، فنفسك نفسك قد بين الله لك سبيلك، وحيث تناهت به أمورك فقد أجريت إلى غاية خسر ومحلة كفر فإن نفسك قد أولجتك شرّاً وأقحمتك غيّاً وأوردتك المهالك وأوغرت عليك المسالك)[١٨].

وترى في هذه النصائح تذكيراً بالآخرة بعبارة سهلة ولين في الكلام ووضوح في الصورة وإيقاظ للنفس من الغفلة تؤطرها نية صادقة وكلام مخلص.

د - تأكيد براءته (ع) من دم عثمان:

لقد كانت ذرائع معاوية وادعاءاته تنصّب على اتهام الإمام (ع) بالمشاركة في دم عثمان أو عدم نصرته وإيواء قاتليه، وقد اسقط الإمام (ع) هذا الادعاء برسائل بعثها إلى معاوية لم تترك لذي عقل حجّة، اتسمت بالحجج الراسخة والأدلة الواضحة التي لا تدع أدنى مجال للشك في ذلك، كتب (ع) لمعاوية رسالة جاء في بعضها:

(ولعمري يا معاوية لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني ابرأ الناس من دم عثمان ولتعلمن أني كنت في عزلةٍ عنه إلا أن تتجنى فتجنَّ ما بدا لك)[١٩].

بل أنه اتهم معاوية بالمشاركة في قتل عثمان من خلال تقصيره في نصرة ابن عمه مع ما يملك من جيش وقوة وقد استنصره وطلب منه الحماية فكتب (ع) قائلاً: (ثم ذكرت ما كان

من أمري وأمر عثمان، فلك أن تجاب عن هذه لرحمك منه، فأينا كان أعدى له وأهدى إلى مقاتله، أم من بذل له نصرته فاستقعده واستكفّه (أي طلب قصوره وكفايته) أم من استنصره فتراخى عنه، وبعث المنون إليه حتى أتى قدره عليه، وما كنت لأعتذر من أني كنت أنقم عليه أحداثاً، فان كان الذنب إليه إرشادي وهدايتي له، فرب ملوم لا ذنب له)[٢٠].

وقال عندما اتهمه معاوية بأنه يطلب الخلافة ولم ينصر عثمان، رسالة جاء فيها: (وولي عثمان فعمل بأشياء عابها الناس عليه فصاروا إليه فقتلوه، ثم أتاني الناس وأنا معتزل أمورهم فقالوا لي بايع فأبيت عليهم)[٢١].

وحينما طالبه معاوية بقتلة عثمان أجابه (ع) بالقول: (وأما ما سألت من دفع قتلة عثمان إليك، فاني نظرت في هذه الأمر فلم أره يسعني دفعهم إليك ولا إلى غيرك ولعمري لئن لم تنزع عن غيك وشقاقك لتعرفنهم عن قليل يطلبونك)[٢٢].

ثم راح يقحم معاوية بالدليل في مسألة مطالبته بدم عثمان ويستهزئ به في ذلك، وجاء ذلك في رسالة بعث بها إليه قائلاً: (وبعد... وما أنت وعثمان، أنت رجل من بني أمية وبنو عثمان أولى بالمطالبة بدمه، فان زعمت أنك أقوى على ذلك فادخل فيما دخل فيه المسلمون ثم حاكم القوم إليّ)[٢٣].

ولعمري أن هذه أقوى حجة دامغة جابه بها الإمام معاوية حتى أن الكتاب المسلمين من الفرق الإسلامية أذعنت لما جاء فيها، فطالب الدم يرفع أمره إلى الخليفة والحاكم الشرعي ليرى ما يفعله من أجل تحصيل حقه لا أن يخرج إليه يقاتله بحجة طلب قاتليه.

هـ - منعه أصحابه من التسرع إلى الحرب طمعاً في الصلح:

ولم يقطع الإمام آماله في عودة معاوية عن غيّه وحقن دماء المسلمين وقد كان أصحابه يلحون عليه في مقاتلة معاوية قبل أن يكمل استعداداته الحربية ومعاجلته النزال وهو صابر ينتظر الصلح والهداية، وقد لام بعضاً من أصحابه الذين دعوه إلى معاجلة الحرب ومقاتلة معاوية قائلاً: (وأما قولكم شكاً في، فوالله ما دفعت الحرب يوماً إلا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي، وتعشو إلى ضوئي فهو أحب إلي من أن أقتلها على ضلالها وإن كانت تبوء بآثامها)[٢٤].

وهل بعد هذه الخطبة ذريعة لمدع أن الإمام هو الذي أراد القتال وبدأ الحرب وهو الذي تحمل لوم قادة جيشه في الإبطاء طلباً للهداية والرشد والدعوة إلى الاجتماع والألفة.

و - نهيه عن السب وطلبه الدعاء بحقن الدماء:

ومن أخلاقه (ع) التي تربى عليها في حجر الإسلام منعُه أصحابه من السب والشتم لمعاوية وجيشه لأنها صفة لا يرتضيها (ع) لهم، فقال وقد سمع بعض أصحابه يسبون أهل الشام:

(كرهت لكم أن تكونوا لعّانين شتّامين تشتمون وتتبرأون ولكن لو وصفتم مساوئ أعمالهم فقلتم من سيرتهم كذا وكذا كانت أصوب في القول وأبلغ في العذر، وقلتم اللهم احقن دماءنا ودماءهم وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالهم حتى يعرف الحق من جهله. ويرعوي عن الغي منهم من لهج به، لكان أحبّ إليّ وخيراً لكم)[٢٥].

الفصل الثاني

الاستعداد للحرب

وبعد أن أوصدت الأبواب وسدت السبل في وجه الصلح والموادعة أخذ الإمام (ع) يعدّ العدة لمقاتلة العدو وإنزال الهزيمة به على أصعدة الحرب الإعلامية والنفسية والسوقية وتجلى ذلك في المواقف التالية:

١ ـ بيان مساوئ معاوية وضلالة رأيه:

ولكي يكون جيشه على دراية وعلم بمن يقاتلونه ورؤية واضحة للنهج الذي يسلكه عدوهم الذين يحاربونه ويعرفوا ضلالة الطريق الذي سلكه والنهج الذي اتخذه، فقد توزعت خطب الإمام ورسائله إلى جيشه على المحاور التالية:

أ ـ مقارنة نفسه بمعاوية:

وكان الإمام في الكثير من خطبه ورسائله يبين الفرق الشاسع بينه وبين معاوية، ويقارن بين شخصيتهما ليوضح لجيشه الفرق بين من يمثل الإسلام وبين من يمثل الجاهلية، قال في رسالة بعث بها إلى معاوية رداً على رسالة منه:

(وأما قولك إنّا بنو عبد مناف فكذلك نحن، ولكن ليس أمية كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا المهاجر كالطليق، ولا الصريح كاللصيق، ولا المحق كالمبطل، ولا المؤمن كالمدخل (المفسد) ولبئس الخلف يتبع سلفاً هوى في نار جهنم) [٢٦].

وقد تضمنت الرسالة معاني عميقة لا مجال لشرحها ولكن وجبت الإشارة إلى أن المهاجر هو علي والطليق هو أبو سفيان وابنه معاوية عندما أطلق سراحهما النبي (ص) عند فتح مكة، واللصيق عني به معاوية، قال الزمخشري في كتاب ربيع الأبرار ونصوص الأخبار: كان معاوية يُعزى إلى أربعة: مسافر بن أبي عمر، وعمارة بن الوليد بن المغيرة، والعباس بن عبد المطلب، وإلى الصباح، وهو مغنٍ كان لعمارة بن الوليد، وكان أبو سفيان ذميماً قصيراً، وكان الصباح عبداً أجيراً لأبي سفيان شاباً وسيماً فدعته هند إلى نفسها ففشيها) [٢٧].

وقال (ع) وهو يخطب في أصحابه: (والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهة الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن كل غدرة فجرة وكل فجرة كفرة، ولكل غادر لواء يُعرف به يوم القيامة) [٢٨].

وقال لأصحابه يصف معاوية: (فلم يرعني إلا شقاق رجلين قد بايعاني، وخلاف معاوية الذي لم يجعل اللهُ له سابقة في دين، ولا سلف صدق في الإسلام، طليق ابن طليق، من هذه الأحزاب، لم يزك لله عز وجل ولرسوله (ص) وللمسلمين عدواً هو وأبوه حتى دخلا في الإسلام كارهين) [٢٩].

وقال في رده على رسالة لمعاوية: (ما أنت والفاضل والمفضول، والسائس والمسوس، وما الطلقاء وأبناء الطلقاء والتمييز بين المهاجرين الأولين، وترتيب درجاتهم وتعريف طبقاتهم،

ألا تربع أيها الإنسان على ضلعك (تقف عند حدك) وتعرف قصور ذرعك (بسط يديك) وتتأخر من حيث أخرك القدر، فأنك لذهّاب في التيه رواغ عن القصد)[٣٠].

فلو كانت لمعاوية ذرة حياء لانزوى بنفسه ولا أخرج وجهه بعد هذه الكلمات اللاذعة التي لا يتحملها أدنى ذي لب.

ب ـ دعوة معاوية للحرب بمفردهما:

ثم وجه الإمام دعوته لمعاوية للمبارزة والقتال لوحده ليخلص المسلمين من تبعات الحرب وإراقة الدماء أولاً، ثم ليكشف عن جبن معاوية وعجزه عن القتال والمبارزة ثانياً، قال (ع) في كتاب أرسله إلى معاوية: (وإن دعوت إلى الحرب فدع الناس جانباً، واخرج إلي واعف الفريقين من القتال لتعلم أينا المرين على قلبه (المغلوب) والمغطى على بصره، فأنا أبو الحسن قاتل جدك وأخيك وخالك، شدخاً يوم بدر، وذلك السيف معي، وبذلك القلب ألقى عدوّي)[٣١].

وفي هذا المعنى خاطب (ع) معاوية قائلاً: (ويحك يا معاوية، هلّم إليّ فبارزني، ولا يقتلن الناس فيما بيننا، فقال عمرو بن العاص: اغتنمه منتهزاً فقد قتل ثلاثة من أبطال العرب، وإني لأطمع أن يظفرك الله به، فقال معاوية: والله لن تريد إلا أن أقتل فتصيب الخلافة بعدي، إليك عني فليس مثلي يخدع)[٣٢].

٢ ـ بيان حال المقربين من معاوية وأهل مشورته:

ثم بين الإمام لجيشه حال المحيطين بمعاوية وأصحاب مشورته، وأوضح للناس حقيقتهم في الجاهلية والإسلام، وما هم عليه من الضلال والنفاق، يقول (ع): (فوالله لأقرب قوم من الجهل قائدهم ومؤذنهم معاوية وابن النابغة وأبو الأعور السلمي وابن أبي معيط شارب الخمر، المجلود حداً في الإسلام إن فساقاً غير مرضيين، وعلى الإسلام وأهله متخوفين خدعوا شطراً من هذه الأمة، وأشربوا قلوبهم حب الفتنة، واستمالوا أهواءهم بالإفك والبهتان، قد نصبوا لنا الحرب في إطفاء نور الله عز وجل)[٣٣].

٣ ـ بيان حال جيش معاوية وضلالته:

وخطب جيشه وهم سائرون إلى صفين يبصرهم بطبيعة جيش الشام وضلالتهم وبعدهم عن الإسلام، فقال (ع): (ألا وأن معاوية قد قاد لمة من الغواة وعمّس عليهم الخبر حتى جعلوا نحورهم أغراض المنية)[٣٤].

ثم وصف لهم جيش معاوية بأقسى العبارات وأفدح النعوت التي تظهر حقيقة هؤلاء الناس الذين أغواهم معاوية طيلة العشرين سنة من حكمه، فقال (ع): (حفاة طغام، عبيد أقزام، جمعوا من كل أوب (جهة)، وتلقطوا من كل شوب (خليط) ممن ينبغي أن يفقه ويؤدب، ويعلم ويدرب، ويولى عليه، ويؤخذ على يديه، ليسوا من المهاجرين والأنصار، ولا من الذين تبوءوا الدار والإيمان)[٣٥].

الفصل الثالث

بدء القتال ثم النهاية بالتحكيم

وفي ١/صفر/ ٣٧ بدأت الحرب فكان أبو الحسن (ع) قطب رحاها ومدير حركاتها وهو ابنها منذ صغره وقائدها في كبره، فقد اتبع (ع) الخطوات التالية:

أ ـ حث أصحابه على القتال والصبر عند اللقاء:

وقد بدأ (ع) بتحضير جيشه لملاقاة عدوهم فشحذَ الهمم ورفع الروح المعنوية لهم ومضى يحثهم على القتال ويدعوهم إلى الثبات ويشجعهم على المنازلة ويحذرهم أن يتركوا مواضعهم فقال (ع)، وهو يخطب في جيشه: (أيها الناس: استعدوا لقتال عدوٍ في جهادهم القربة إلى الله عز وجل، ودرك الوسيلة عنده، قوم حيارى عن الحق لا ينصرونه، موزعين بالجور والظلم لا يعدلون به، حفاة من الكتاب، نكب عن الدين يعمهون في الطغيان، ويتسكعون في غمرة الضلال فاعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل وتوكلوا على الله[٣٦].

وقال (ع) في هذا المجال، يبشر جيشه بالفلاح والجنة: (ولعمري ما عليَّ من قتال من خالف الحق، وخابط الغي من إدهان ولا إيهان، فاتقوا الله عباد الله، وفروا إلى الله من الله، وامضوا في الذي نهجه لكم، وقوموا بما عصبه بكم، فعليٌّ ضامن لفلحكم آجلاً إن لم تمنحوه عاجلاً)[٣٧].

وهي لعمري أعلى حالات اليقين بصحة الطريق الذي سلكوه وهو ينسبه إلى الله سبحانه (الذي نهجه لكم).

ب ـ تعليم جيشه فنون القتال ومهنة الميدان:

وقال (ع) وهو يعلم جيشه مهنة الميدان وكيفية القتال: (والله مستأديكم شكره، ومورثكم أمره، وممهدكم في مضمار محدود، لتتنازعوا سبقه، فشدوا عقد المآزر، واطووا فضول الخواصر، ولا تجتمع عزيمة ووليمة، وما أنقض النوم لعزائم اليوم، وأمحى الظلم لتذاكير الهمم)[٣٨].

وقال وهو يعاتب قسما من جيشه تركوا مواقعهم: (وقد رأيت جولتكم وانحيازكم عن صفوفكم، تحوزكم الحفاة الطغام، وأعراب أهل الشام، وأنتم لهاميم العرب، ويآفيخ الشرف، والأنف المقدم، والسنام الأعظم، وقد شفى وحاوح صدري، أن رأيتكم بآخرة تحوزونهم كما حازوكم وتزيلونهم عن مواقعهم كما ازالوكم، حَسّاً بالنصال، وشجراً بالرماح، تركب أولاهم أخراهم كالإبل الهيم المطرودة)[٣٩].

وقد منح جيشه في هذه الخطبة أرفع الأوسمة وأسمى النعوت وأعلى المراتب، فهم (لهاميم العرب) و (يآفيخ الشرف) و (الأنف المقدم) و (والسنام الأعظم)، وهي في لغة الحرب من أعظم مفاصل الدفع المعنوي ورفع قدرة الجيش على القتال.

وقال في خطبة له (ع) يرشد جيشه إلى فنون القتال: (معاشر المسلمين، استشعروا الخشية، وتجلببوا بالسكينة، وعضوا على النواجذ فإنه أنبى للسيوف عن الهام، وأكملوا اللامة (العدة) وقلقلوا السيوف في أغمادها قبل سلها، وألحظوا الخزر، واطعنوا الشزر، ونافحوا بالضُبا، وصلوا السيوف بالخطى، واعلموا أنكم بعين الله، ومع ابن عم رسول الله (ص)، فعاودوا الكر، واستحيوا من الفر، فإنه عار على الأعقاب، ونار يوم الحساب، وطيبوا عن أنفسكم نفساً، وامشوا إلى الموت مشياً سحاً (الليّن السهل) وعليكم بهذا السواد الأعظم والرواق المطنّب (مقر معاوية) فاضربوا ثبجه فان الشيطان كامن في كسره (جانبه) فصمداً صمداً، حتى ينجلي لكم عمود الحق وأنتم الأعلون)[٤٠].

جـ - تعبئة الجيش وتعيين القواد والمواقع:

وقال - وهو القائد المجرب - والفارس المتمرس - يُعبئ جيشه ويعيّن مواقعهم وأماكن تواجدهم في الحرب: (قال الله سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ فسووا صفوفكم كالبنيان المرصوص، وقدموا الدراع، وأخروا الحاسر، وعضوا على الأضراس فانه أنبى للسيوف عن الهام، واربطوا الجأش، وأسكتوا القلوب، وأميتوا الأصوات، فانه أطرد للفشل وأولى بالوقار، والتووا في أطراف الرماح فانه أمور للأسنة، ورايتكم فلا تميلوها ولا تزيلوها، ولا تجعلوها إلا في أيدي شجعانكم المانعي الذمار)[٤١].

ومر علي (ع) بأهل راية من جيش معاوية وهم لا يزولون عن مواقعهم فحرّض جيشه عليهم وقال: (إن هؤلاء لن يزولوا عن موقفهم دون طعن درّاك يخرج منهم النسَم (الأرواح) وضرب يفلق منهم الهام، ويطيح العظام، وتسقط منه المعاصم (الأكف) حتى تصدع جباههم بعمد الحديد وتنشر حواجبهم على الصدور والأذقان، أين أهل الصبر وطلاب الأجر)[٤٢].

والخطب بهذا المعنى كثيرة وهي تنبئ عن خبرة في الحرب وحنكة في القتال وتجربة في القراع وإدارة رائعة لدفة الحرب، كيف وقد مارسها وعمره دون العاشرة وهو من بني هاشم وابن أبي طالب، الذي لو ولد العرب لكانوا كلهم شجعاناً، لاشك أنها كلمات تأخذ طريقها إلى النفوس فتشحذ الهمم وتقوي العزائم وتسكن الروع وتدفع بالمقاتل إلى التضحية.

خدعة رفع المصاحف والتحكيم: ومرت أيام صفين فمنذ الأول من صفر حتى العاشر منه، ثقيلة على الجيشين وهما بين كر وفر يراوحان مكانيهما، حتى كانت الليلة الحادية عشرة وهي ليلة الهرير التي استمر فيها القتال طوال الليل، ومالت كفة الحرب لصالح جيش الإمام (ع) وبان الانكسار على جيش معاوية، وحزم معاوية أمتعته واستعد للهرب، فابتدع ابن النابغة خديعة رفع المصاحف، ونادى القرآن بيننا وبينكم ودعا إلى التحكيم، فانقسم جيش علي (ع) بين موافق ومعارض، والإمام ينظر وهو يعرفها خدعة ويرى النصر قاب قوسين من جيشه، لكنهم أحاطوا به وهددوه بالقتل إن هو لم يوقف القتال ويقبل بالتحكيم.

واستسلم للأمر الواقع وقبل التحكيم، فعاد بجيشه مكسور الجناح كاسف النبال، حيث لا أمر لمن لا يطاع فصاغ أبلغ عبارات الأسف على نصر مضاعٍ يعتصر فيه ألماً وحسرة، فقال (ع): (إنه لم أزل من أمري على ما أحب حتى قدحتكم الحرب وقد والله أخذت منكم وتركت وهي لعدوكم أنهك، وقد كنت بالأمس أميراً فأصبحت اليوم مأموراً، وكنت ناهياً فأصبحت اليوم منهياً، فليس لي أن أحملكم على ما تكرهون).

وقال متألماً من جيشه: (أعظكم بالموعظة البالغة فتتفرقون عنها، وأحثكم على جهاد أهل البغي فما آتي على آخر قولي حتى أراكم متفرقين أيدي سبأ)[٤٤].

ثم بين موقفه من التحكيم وتعيين الحكمين الذين اختارهما بعض من جيشه، فقال: (أما بعد... فانه معصية الناصح الشفيق، العالم المجرب، تورث الحسرة، وتعقب الندامة، وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمري، ونحلت لكم مخزون رأيي لو كان يطاع لقصير أمر فأبيتم عليَّ إباء المخالفين الجفاة، والمنابذين العصاة، حتى ارتاب الناصح بنصحه، وضنَّ الزند بقدحه)[٤٥].

حتى أخذ يدعوهم إلى معاودة قتال أهل الشام ولكنهم تقاعسوا عن أمره، فقال وهو يستنهض الناس: (ألا وأني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسراً وإعلاناً وقلت لكم اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا، فتواكلتم وتخاذلتم حتى شنت عليكم الغارات، وملكت عليكم الأوطان)[٤٦].

ثم أظهر ألمه من أهل الكوفة ووصف موقفه معهم بخطبة قال فيها: (يا أهل الكوفة: منيت منكم بثلاث واثنين: صمٌ ذوو أسماع، وبكمٌ ذوو كلام، وعميٌ ذوو أبصار، لا أحرار صدق عند اللقاء، ولا إخوان ثقة عند البلاء، تربت أيديكم، يا أشباه الإبل غاب عنها رعاتها كلما جمعت من جانب تفرقت من آخر)[٤٧].

ولما آيس منهم أخبرهم بانتصار أهل الشام عليهم من بعده وما يؤول إليه أمرهم من الذل والشتات ويبين سبب ذلك بمخالفتهم لأمره، فقال: (أما والذي نفسي بيده ليظهرن هؤلاء القوم عليكم، ليس لأنهم أولى بالحق منكم، ولكن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم، وإبطائكم عن حقي، ولقد أصبحت الأمم تخاف رعاتها، وأصبحت أخاف رعيتي، استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا، وأسمعتكم فلم تسمعوا، ودعوتكم سراً وجهراً فلم تستجيبوا، ونصحتكم فلم تقبلوا)[٤٨].

وفي هذه الكلمات ترى المرارة والحسرة والألم والغصة من قائد فقد طاعة جيشه وحكيم لم يجد لنصيحته مستمع وهو يعلم أن رأيه هو الصواب ومخالفته الضلالة حتى مضى شهيداً مقتولاً، فقال قولته العظيمة (فزت ورب الكعبة) لأنه تخلص من محن تزول منها الجبال.

الخاتمة:

وهكذا سرت مع حرب علي (ع) ومعاوية التي وقعت في (صفين) فسميت باسمها من خلال كلماته (ع) ورسائله وخطبه التي وردت في نهج البلاغة وهو أوثق المصادر التي جمعت كلامه (ع)

وحاولت أسلسل الأحداث التي مرّ بها الإمام (ع) منذ الثورة على عثمان بن عفان التي انتهت بقتله ثم مبايعته بالخلافة وإعلان معاوية بن أبي سفيان العصيان وشق عصا الطاعة وما جرت بينهما من مراسلات أفصحت عن نصائح وحكم في كلام جميل ومعاني واضحة وعبارات سهلة وتبعها بيان لأفضليته وإشارة لجهاده وسابقته وقرابته من رسول الله (ص) وقد صحبها إرسال الوفود وذوي الرأي والمنزلة ليعود معاوية عن غيه وتزويدهم بالرسائل والكتب المهمة.

ثم إني وجدت أن الإمام (ع) قد وصل إلى طريق مسدود وأن معاوية قد ركب غيّه وأحاطت به ثلة مجرمة يضلونه عن الطريق ويمهدون له العصيان فرأيت الأسلوب قد تغيّر والخطب قد اتخذت منحىً آخر في بيان حقيقة معاوية ومساوئه ومقارنته بالإمام وبيان الفرق بينهما ثم فضح المحيطين به وكشف الزيف والخداع عن واقعهم والإشارة إلى طبيعة الجيش الذي أعتمد عليه معاوية في قتال أهل الحق.

وسرت مع الحرب ورأيت الإمام يهيئ للحرب ويعد لها عدتها من التعبئة النفسية وبيان حقيقة الطريق الذي عليه جيشه وضلالة عدوهم وشحذ الهمم وتقوية العزائم وضمان الفلاح لهم في الآخرة، ثم وجدته (ع) قائداً محنكاً وفارساً مجرباً يدير دفة الحرب فيحرك الفرسان ويرسم لهم فنون القتال ويعين لهم المواقع ويلاحظ أماكن القوة والضعف عنهم.

ولم أنس الإشارة إلى خدعة رفع المصاحف والتحكيم وما آل إليه أمر الحرب وحالة الإمام المؤلمة من تقاعس جيشه عن معاودة القتال.

الهوامش:

(١) تاريخ الرسل والملوك/ الطبري/ ٥/ ٢١٨.

(٢) ن. م/ ٢/ ٣٩٧.

(٣) الطبقات الكبرى/ ابن سعد: ٢/٧٢، شرح نهج البلاغة/ ابن أبي الحديد: ٢/١٥٧.

(٤) البداية والنهاية / ابن كثير/ ٢٥٢.

(٥) نهج البلاغة/ صبحي الصالح/ الخطبة ٩٢ ص١٦٩.

(٦) ن. م خطبة ٩٢ ص١٧٠.

(٧) تاريخ اليعقوبي/ ٢/ ١٧٦.

(٨) تاريخ الطبري: ٤/٢.

(٩) نهج البلاغة/ صبحي الصالح/ خطبة ٢٢٩ ص٤٤٤.

(١٠) شرح نهج البلاغة/ ابن أبي الحديد ٣/ ٢٣١.

(١١) نهج البلاغة / صبحي الصالح/ كتاب ١٧ ص٤٧٤.

(١٢) ن. م كتاب ٦ ص٤٦٣.

(١٣) جمهرة خطب العرب/ زكي مبارك/ ١/٣٢٨.

(١٤) ن. م: ١/ ٣٣١.

(١٥) شرح نهج البلاغة/ ابن أبي الحديد: ٣/ ١٣٢.

(١٦) ن. م ٥/١١٤.

(١٧) نهج البلاغة/ صبحي الصالح/ كتاب رقم ١٠ ص٤٦٧.

(١٨) ن. م/ كتاب ٣ ص٤٩٤.
(١٩) ن. م / رسالة رقم ٦ ص٤٦٤.
(٢٠) ن. م / رسالة ٢٨ ص٤٩٢.
(٢١) جمهرة خطب العرب / زكي مبارك: ١/٣٣٦.
(٢٢) نهج البلاغة/ صبحي الصالح / رسالة ٩ ص٤٦٧.
(٢٣) شرح نهج البلاغة جـ٣ ص٥٩.
(٢٤) ن. م ٣/٢٣٠.
(٢٥) نهج البلاغة/ كلام ٢٠٦ ص٤٠٦.
(٢٦) ن. م رسالة ١٧ ص٤٧٤.
(٢٧) شرح النهج/ ابن أبي الحديد: ١/٢١٤.
(٢٨) نهج البلاغة/ صبحي الصالح/ خطبة ٢٠ ص٤٠٠.
(٢٩) جمهرة خطب العرب/ زكي مبارك/ ١/ ٣٥٣.
(٣٠) ن. م: ١/ ٣٣٦، خطبة ٢٨ ص٤٨٨ نهج البلاغة.
(٣١) نهج البلاغة / صبحي الصالح/ كتاب ١٠ ص٤٦٨.
(٣٢) شرح نهج البلاغة/ ابن أبي الحديد/ ٥/ ١٥٦.
(٣٣) ن. م: ٥/ ١٥٦.
(٣٤) جمهرة خطب العرب ١/ ٣٢٤.
(٣٥) نهج البلاغة/ صبحي الصالح/ كلام ٢٣٨ ص٤٥٣.
(٣٦) جمهرة خطب العرب/ زكي مبارك/ ١/ ٣٢٥.
(٣٧) نهج البلاغة / صبحي الصالح/ خطبة ٢٤ ص٥٦.
(٣٨) ن. م/ ص٤٥٦.
(٣٩) جمهرة خطب العرب/ زكي مبارك/ ١/٣١٤.
(٤٠) نهج البلاغة/ صبحي الصالح/ كلام ٦٦ ص١٠٤.
(٤١) جمهرة خطب العرب/ زكي مبارك: ١/٣٤٨.
(٤٢) ن. م: ١/٣٤٨.
(٤٣) ن. م: ١/ ٣٥٠.
(٤٤) ن. م: ١/ ٣٧٥.
(٤٥) ن. م: ١/ ٣٩٢.
(٤٦) نهج البلاغة/ صبحي الصالح/ خطبة ٢٧ ص٦١.
(٤٧) ن. م خطبة ٩٧ ص١٧٧.
(٤٨) ن. م خطبة ٩٧ ص١٧٦.

المصادر:

(١) تاريخ الرسل والملوك ـ محمد بن جرير الطبري/ دار إحياء التراث العربي/ بيروت ط الأولى / ٢٠٠٨. جـ٣ ـ ٤ ـ ٥ ـ ٦.
(٢) شرح نهج البلاغة/ ابن أبي الحديد المعتزلي ـ دار الكتاب العربي ـ بغداد ط١ ـ ٢٠٠٧ تحقيق محمد إبراهيم.
(٣) جمهرة خطب العرب/ زكي مبارك ـ دار الحداثة ـ القاهرة ط١ / ١٩٨٥.
(٤) نهج البلاغة/ الإمام أمير المؤمنين (ع) جمع الشريف الرضي / ضبط صبحي الصالح مطبعة أنوار الهدى / إيران، ط٣ / ١٤٢٩هـ. ❖

الدلالات التفسيرية في شواهد نهج البلاغة القرآنية

د. عدي جواد الحجار

المقدمة:

إن لكتاب "نهج البلاغة" بما يحمل من خطب، وأقوال، وكلمات قصار، وأمثال، وشواهد بلاغية وقرآنية، أهمية كبرى في العلوم الشرعية وعلوم اللغة والعلوم التي تصب في خدمتها عموماً، إذ انتظم بين دفتيه معارف الهية عالية، ومنهجاً للأخلاق الفاضلة، وقوانين الاجتماع الدقيقة، إلى جانب السياسة الملتزمة، وضوابط الحرب العادلة، وما يتعلق بأصول الاقتصاد، وما يمت إلى العلوم النظرية والتطبيقية بكافة نواحيها، وقد كان لعلوم الشريعة والعلوم المساعدة حيزاً كبيراً فيه، ولذا فهو منهل للباحثين في الحكمة، والأدب، والعرفان وتفسير القرآن الكريم، وقد امتاز كتاب "نهج البلاغة: بوحدة الروح والمثل والأسلوب على اختلاف موضوعاته ومقاصده وفنونه في صور فنية رائعة تسمو بأرفع أساليب البلاغة والفصاحة. وذلك مما يضيف للباحثين من توثيق لنسبته إلى إمام البلغاء، زائداً إلى وثاقة ما اعتمده الشريف الرضي من مصادر جمع منها نهج البلاغة، كونه عالما بصيراً، وثبتاً مؤتمناً، مما يجعل كتاب النهج جديراً بأن يكون من أوثق الكتب وأعلاها قيمة، إذ يرتقي لدرجة ما يرويه المحدثون الثقات، الذين يؤخذ بمروياتهم مسلمة من دون تشكيك، وبعد ثبوت نسبة ما في "نهج البلاغة" من الخطب والكلمات إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، الذي ألقيت على عاتقه مسؤوليات تفسير القرآن بعد النبي (ص)، يتضح أن الأداء الفكري والتطبيقي والتنظيري لتفسير القرآن، هو من ذلك النمير الرائق المتصل بالعلم الإلهي الذي أوحاه الله لرسوله الكريم (ص)، فقد ورد في نهج البلاغة جملة من تفسير الآيات والألفاظ القرآنية، بل يمكن الإفادة من بعض الشواهد أسساً تمثل قواعد أولية للجانب النظري في تفسير القرآن الكريم، وانتظم جملة من الدلالات التفسيرية التي يتلمسها الباحث في شواهد "نهج البلاغة" القرآنية، واضحة وجلية كما سيثبت البحث ذلك، باعتبار أن أمير المؤمنين هو الأعرف بكتاب الله تعالى بعد الرسول الأكرم، إذ أنه كان الأذن الواعية للقرآن الكريم وما فيه من أحكام ودلالات، من محاسن الاستخراج ولطائف الاستنباط، ومن بيان مصاديق لكلي ورد في القرآن الكريم، وبيان مفردة أو تفصيل إجمال، أو بيان تخصيص عام، وغير ذلك من شواهد. لذا اقتضت طبيعة البحث أن ينتظم على النحو الآتي:

- نهج البلاغة منهل العلوم.
- نسبة نهج البلاغة.
- الشخصية التفسيرية لأمير المؤمنين (ع).
- الأداء التأسيسي لتفسير القرآن الكريم في "نهج البلاغة".
- الشواهد التطبيقية في التفسير في "نهج البلاغة".

"نهج البلاغة" منهل العلوم:

من نافلة القول التعريف بكتاب "نهج البلاغة" من حيث شهرته ونسبته وسمو مكانته، واشتماله على المعارف الإلهية والعلوم الشرعية وعلوم اللغة وغيرها، لما ضم ـ من علم الإمام الذي هو من رشحات ينبوعه المعرفي ومكنون علمه ـ من ومضات علمية ومعرفية، فهو يلقي الضوء على التوحيد ويشير إلى بداية الخليقة وانبثاق الوجود، وخلق الملائكة، وخلق السماوات والأرضين، والإنسان، والحيوان، وما اشتمل من رؤى مكثفة في علوم الاجتماع، وعلم النفس، والتاريخ، والأدب، بل انتظم العلوم الطبيعية من فيزياء، وعلم الأرض "الجيولوجيا" مما لا يزال يتسم بالجدة والحداثة لدى العلماء المعاصرين على الرغم من التطور الذي وصل له الإنسان في هذا العصر. ولا غرو وهو عمّن هتف بصلابة ورسوخ: "سلوني قبل أن تفقدوني"[١]، ثم لم يعجز عن جواب سؤال قط، ولم يسجل التاريخ مثيلاً لهذه الظاهرة[٢]، وقد كان هذا القول منه في عدة مواقف، منها ما يتعلق بعلوم شتى، ومنها يختص بالقرآن الكريم، إذ قال: (سلوني قبل أن تفقدوني، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لو سألتموني عن أية آية، في ليل أنزلت، أو في نهار أنزلت، مكيها ومدنيها، سفريها وحضريها، ناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وتأويلها وتنزيلها، إلا أخبرتكم)[٣].

وقد ضم نهج البلاغة من روائع البيان وأسرار العلوم، وقد أشار الشيخ محمد عبده (ت١٣٢٣هـ) إلى انطباق اسمه على محتواه، بقوله: (ولا أعلم اسماً أليَق بالدلالة على معناه منه، وليس في وسعي أن أصف هذا الكتاب بأزيد ممّا دلّ عليه اسمه، ولا أن آتي بشيء في بيان مزيته فوق ما أتى به صاحب الاختيار)[٤]، وذلك أنه كلام وصي خاتم الأنبياء (ص)، الذي انتهل من مدينة العلم ألف باب من العلم يفتح له من كل باب ألف باب[٥]، فهو قبس من نور الخطاب الإلهي وسراج يضيء بفصاحة المنطق النبوي، ومن هذا قيل: (ليس في أهل هذه

---

(١) أبو جعفر الإسكافي ـ المعيار والموازنة: ٨٢+ الصدوق ـ الأمالي: ١٩٦+ الحاكم النيسابوري ـ المستدرك: ٣٥٢/٢ + الشريف الرضي ـ نهج البلاغة: من كلام له (ع) ١٨٩+ ابن سلامة ـ دستور معالم الحكم: ١٠٤.

(٢) ظ: محمد الريشهري ـ موسوعة الإمام علي (ع): ١٨٩+٩/١٠.

(٣) الصدوق ـ الأمالي: ٤٢٣.

(٤) شرح نهج البلاغة: ٤/١.

(٥) ظ: الصدوق ـ الأمالي: ٣٧٣ + الزرندي (الحنفي) ـ نظم درر السمطين: ١١٣.

اللغة إلاّ قائل بأنّ كلام الإمام علي بن أبي طالب هو أشرف الكلام وأبلغه بعد كلام الله تعالى وكلام نبيّه، وأغزره مادّة، وأرفعه أُسلوباً، وأجمعه لجلائل المعاني)[١]، بما يمثله من أُنموذج واضح وصورة من صور المنهج العام لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، في الدين والسياسة والإدارة العامّة للدولة، وسائر شؤون النشأتين من أمر المعاش والمعاد.

ويلحظ أن الخطب والأقوال والحكم التي في نهج البلاغة تتسق ونظام القرآن الكريم تفسيراً واستشهاداً وحثاً على قراءته وحفظه والاعتبار به وتدبره، وتطبيقه، ولا غرو أن يكون الهدف الأساسي في "نهج البلاغة" هو القرآن الكريم بوصفه الدستور الإلهي، إذ هو جدير بأن يصب في خدمته كل كلام، استجلاءً للخطاب الإلهي في القرآن الكريم، قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع): (ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق، ولكن أُخبركم عنه: ألا إنّ فيه علم ما يأتي، والحديث عن الماضي، ودواء دائكم، ونظم ما بينكم)[٢]، وهو (ع) أعرف بتفسيره، بعد رسول الله (ص) لما حباه من علوم هي أسس في تفسير النص القرآني، إذ قال (ع): (إنّ الله تبارك وتعالي قد خصّني من بين أصحاب محمّد (ص) بعلم الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، والخاصّ والعامّ، وذلك ممّا منَّ الله به عليَّ وعلى رسوله)[٣]، ومن الأداء التفسيري، لما اختص بذلك، إذ قال (ع): (لو شئت لأوقرت من تفسير الفاتحة سبعين بعيراً)[٤]، وذلك مما دعى البحث أن يتتبع مظان الشواهد التفسيرية في "نهج البلاغة".

نسبة نهج البلاغة:

من المسلم به حتى عند من شكك في نسبة "نهج البلاغة" إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، أن جامعه هو أبو الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى ابن إبراهيم بن موسى بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين ابن علي بن أبي طالب (ع)، المتوفى في المحرم سنة ست وأربعمائة، كان فاضلاً عالماً شاعراً مبرزاً.

قال الثعالبي (ت٤٢٩هـ): (ابتدأ يقول الشعر بعد أن جاوز العشر سنين بقليل وهو اليوم أبرع أبناء الزمان وأنجب سادات العراق يتحلى مع محتده الشريف ومفخره المنيف بأدب ظاهر وفضل باهر وحظ من جميع المحاسن وافر)[٥]، والثعالبي قد عاصر الشريف الرضي وشهادته عن حس.

---

(١) محمد عبده - شرح نهج البلاغة: ٦/١.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٥٨

(٣) الصدوق - الخصال: ٥٧٦.

(٤) الوقر - بكسر الواو -: الحِمْل، وأكثر ما يُستعمل في حِمْل البغل والحمار: النهاية: ٢١٣/٥ + ظ: القندوزي - ينابيع المودّة: ٢٠٩/٣ + ابن شهرآشوب - المناقب:٤٣/٢.

(٥) الثعالبي - يتمة الدهر: ١٥٥/٣.

وكذلك شهادة أبي الحسن العمري العلوي إذ قال: (وكانت له هيبة وجلالة، وفيه ورع وعفة وتقشف ومراعاة للأهل وغيرة عليهم وعسف بالجاني منهم، وكان أحد علماء الزمان، قد قرء على أجلاء الرجال. وشاهدت له جزءاً "مجلداً" من تفسير منسوب إليه في القرآن مليح حسن يكون بالقياس في كبر تفسير أبي جعفر الطبري أو أكثر)[١]، وهذا ما يضيف للشريف الرضي فوق ما هو معروف عنه من العدالة لدى الإمامية[٢]، شهادة حسية بالتقوى والورع المانعة من الإقدام على الوضع، وشهادة له بالمعرفة بالرجال ووثاقة حديثه واضطلاعه من درايته، ومعرفته بالتفسير، وذلك تعضيد وتمجيد ينزه ساحته عن أن ينسب إلى أمير المؤمنين (ع)، ما ليس له، لعدم حاجة الإمام إلى ذلك، مع ما فيه من كذب على المعصوم الذي يمثل معصية وذنباً، وهو في مندوحة عنه، (وكيف يقبل العقل أن يزور مثل الشريف على مثل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في كتاب اطلع عليه السني والشيعي في عصره، سيما في مدينة بغداد الحافلة بجماهير من العلماء، من غير أن ينكر ذلك أحد عليه أو يرده، مع وجود الدواعي الشديدة لهم في تكذيبه، واظهار تزويره، فاحتمال ذلك حتى بالنسبة إلى كلمة من هذا الكتاب مقطوع العدم)[٣]. يضاف إلى ذلك أمور، منها:

إن الكثير من نصوص النهج محكوم بتواترها عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، وإذا ثبت صحة نسبة البعض، ثبت أن الجميع منه، لاتفاق جميع نصوصه في الأسلوب.

والطعن عليه بأنه يستقيم بأسلوب واحد لأنه من وضع واحد وهو الشريف الرضي، مدفوع بعد مقارنته مع مؤلفات الشريف الرضي مثل "حقائق التأويل"، و"المجازات النبوية" وديوانه الشعري، وغيرها، فإن بينهما اختلاف واضح في الأسلوب والمتانة.

إن كثيراً من خطب نهج البلاغة موجودة في مصادر شتى، قبل زمن الشريف الرضي، أما ما لم نقف اليوم على مصادره، فلا يعني أنه موضوع، فقد كان في متناول يده الكثير من المكتبات الكبيرة[٤]، مع ما يلحظ من وحدة النظم والأسلوب، ولعدالة الشريف وأمانته، وقد قبلت مراسيل من هو أقل منه شأناً.

الإخبار بالمغيبات وأسرار العلوم الواردة في النهج بتلك الجزالة والقوة في السبك والدلالة، مما يبعد الشبهة واحتمال الوضع، فإن من دواعي اعتبار خبر الواحد الاعتبار بمتنه ودلالته.

مطابقة الكلام المثبت في النهج والقرآن الكريم، فلو تأملنا كل كلمة لوجدنا فيها دلالة مبينة للقرآن الكريم بالتفصيل أو الإجمال أو بما انطوت عليه من مباحث قرآنية، هذا

---

(١) المجدي في أنساب الطالبيين: ١٢٦. وقال السيد المدني في الدرجات الرفيعة: ٤٦٧: (في كبر تفسير أبي جعفر الطوسي) وهو سهو واضح.

(٢) علي خان المدني ـ الدرجات الرفيعة: ٤٦٦ ـ ٤٧١.

(٣) لطف الله الصافي ـ مجموعة الرسائل: ٢/ ٤١٠.

(٤) عبد الزهراء الحسيني الخطيب- مصادر نهج البلاغة: ١٩ ـ ٢٢.

مع أن كلام الله تعالى تفرد بخصائص لا يشاركه فيها كلام البشر، ولا يمكن أن ينشئ النهج بهذه الكيفية غير وصي الرسول الأكرم الذي خصه بعلم القرآن.

وقد أشار إلى ذلك جملة من العلماء والباحثين[١]، مما يدفع المطاعن ولا يدع مجالا للتشكيك في نسبة المجموع في "نهج البلاغة: إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع).

الشخصية التفسيرية لأمير المؤمنين:

وتتمثل بأهليته (ع) لبيان مراد الله تعالى في خطابه في القرآن الكريم، من إيضاح معنى لغوي عام، أو تفصيل إجمال، أو بيان مبهم، أو تخصيص عام، أو تجلية مصداق، أو استنباط حكم شرعي فرعي، أو إرشادي أو تنزيهي، وغير ذلك مما ينتظمه تفسير النص القرآني.

كان النبي الأكرم (ص) المفسر الأول للقرآن الكريم، كما عهد إليه الله سبحانه وتعالى، بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢]. ونهض من بعده أئمة أهل البيت (ع)، فهم الراسخون في العلم، وهم عدل القرآن الذي أكد عليه النبي (ص) في مواقف عديدة.

وعلى رأسهم أول من تكلم في تفسير القرآن بعد رسول الله (ص) مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، وهو أعلم المسلمين بتفسير كتاب الله وتأويله بلا مدافع، بل هو باب مدينة العلم.

عن ابن مسعود أنه قال: "إن القرآن نزل على سبعة أحرف ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن، وإن علياً عنده من الظاهر والباطن[٣]. ثم لاشك ولا ريب أن أحاديث أهل البيت (ع) داخلة في السنة الشريفة، وتفسير القرآن لا يمكن أن يخلو مما صدر عنهم صلوات الله عليهم، لما جعلهم الله وعاة للقرآن، فقد ورد أنه قرأ رسول الله (ص): ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾[٤]، ثم التفت إلى علي فقال: "سألت الله أن يجعلها أذنك، قال علي (ع) فما سمعت شيئاً نسيته[٥].

قال الزمخشري (ت٥٣٨هـ): (إن قلت: لم قيل "أذن واعية" على التوحيد والتنكير؟ قلت: للإيذان بأن الوعاة فيهم قلة، ولتوبيخ الناس بقلّة من يعي منهم، وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا

---

(١) ظ: جورج جرداق - روائع نهج البلاغة: ٢٧+ محمد جواد مغنية - في ظلال نهج البلاغة: ٨/١+ محمد مهدي شمس الدين - دراسات في نهج البلاغة: ١٤٧ + خالد البغدادي - تصحيح القراءة في نهج البلاغة: ٢٥ - ٣٨+ عبد الهادي الشريفي - نهج البلاغة جمعه، مصادره، مناقشة التشكيك في نسبته إلى الإمام علي(ع). مؤسسة دار الحديث العلمية الثقافية - www. darolhadith. net.

(٢) النحل: ٤٤.

(٣) ظ: القمي - التفسير ٢٠/١.

(٤) الحاقة: ١٢.

(٥) أبو الفتح الكراجكي - كنز الفوائد/٢٦٥ + ابن طاووس الحسني - سعد السعود/١٠٨ + الزرندي الحنفي - نظم درر السمطين/٩٢ + المتقي الهندي - كنز العمال: ١٧٧/١٣ + الطبري - جامع البيان ٦٩/٢٩ + الحاكم الحسكاني - شواهد التنزيل ٢٦٥/٢.

وعت وعقلت عن الله فهي السواد الأعظم عند الله، وأن ما سواها لا يبالى بهم وإن ملأوا ما بين الخافقين)[1]، وروى الكليني (ت٣٢٩هـ) بإسناده عن سليم بن قيس الهلالي (ت: نحو٨٥هـ): قال سمعت أمير المؤمنين (ع)، يقول... وساق الحديث إلى أن قال: (ما نزلت آية على رسول الله (ص) إلا أقرأنيها وأملاها عليَّ فكتبتها بخطي وعلمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها ودعا الله لي أن يعلمني فهمها وحفظها فما نسيت آية من كتاب الله ولا علما أملاه علي فكتبته منذ دعا لي بما دعا وما ترك شيئاً علّمه الله من حلال ولا حرام ولا أمر ولا نهي كان أو يكون ولا كتاب منزل على أحد قبله من طاعة أو معصية إلا علمنيه وحفظته فلم أنس منه حرفاً واحداً ثم وضع يده على صدري ودعا الله أن يملأ قلبي علماً وفهماً وحكمة ونوراً. فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي مذ دعوت الله لي بما دعوت لم أنس شيئاً ولم يفتني شيء لم أكتبه أو تتخوف علي النسيان فيما بعد؟ فقال: لست أتخوف عليك نسيانا ولا جهلا)[2].

فأمير المؤمنين علي ابن أبي طالب (ع) تكونت شخصيته التفسيرية من خلال الجعل التكويني لوجود المؤهل ومن خلال التربية النبوية الكريمة، بما تحمل من إعداد له لتحمّل أعباء الوصية الكبرى للولاية التشريعية العامة، ولما جعله الله تعالى الأذن الواعية للقرآن الكريم، صار سيد الراسخين في العلم، وخصه الرسول الأكرم بعلوم القرآن بما فيها من أسس تفسيرية كعلم الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه والخاص والعام، وغيرها، وبما ألهمه الله تعالى من علوم أخرى فوق كونه من أفصح أهل اللسان الذي أنزل به القرآن الكريم. ونجد العلوم التفسيرية وشواهدها التطبيقية مبثوثة في أمهات كتب التفسير والمجاميع الحديثية وغيرها من الكتب التاريخية الإسلامية، فكان أولى بنا أن نتتبع تلك الشواهد التفسيرية في كتاب "نهج البلاغة" الذي اشتمل الجمَّ من مختلف العلوم بعد أن ثبتت صحة نسبته إلى أمير المؤمنين (ع).

الأداء التأسيسي لتفسير القرآن الكريم في نهج البلاغة:

الأداء ما يوصل به أو يتوصل به، ويستعمل في المقدمات التي يُتهيأ بها للوصول، كما يستعمل في الاستعداد الذاتي والقابلية للوصول إلى الشيء، ويكون الشخص الذي يتوسل بها مؤدياً.

فيعبّر عما يتوصل به المفسر لاستكشاف المراد والوقوف على معاني الآيات بالأداء التفسيري، وهو يستند إلى أسس وضوابط تمثل معاييراً تحدد نظام سير الأداء في العملية التفسيرية.

وقد خص الرسول الأكرم (ص) أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، بهذه الضوابط لما يتفق ومنصب الإمامة الكبرى، التي من أول خصوصياتها بيان المراد من كلام الله تعالى في القرآن الكريم، بلحاظ أن أمير المؤمنين (ع)، له مقام حفظ الشريعة المقدسة، وقد بكّر في رسم الخطوط

---

(١) الزمخشري ـ الكشاف: ٥٨٨/٤.

(٢) الكافي ٢٢٨/١.

العريضة للتفسير التي تمثل الأطر الأولية التي يمكن أن تكون منطلقاً لتشييد دعائم يتماسك بها البناء المعرفي المحصن للعملية الفكرية التي على رأسها ما يتعلق بكتاب الله تعالى وتفسيره.

ويمكن تلمس جملة من تلك الأسس فيما ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، في نهج البلاغة، فمنها ما ذكره من الأسس في أخذ الرواية، والتي يفاد منها أسساً في التفسير والحديث لاتحاد النص القرآني والحديث الشريف لإمكان النسخ والتخصيص والإجمال فيهما، كما عبّر عنه (ع) في كلامه، الذي انتظم الملامح الأولى للأداء التفسيري، والتي تظهر معالمها في جوابه لسليم بن قيس (ت نحو ٨٥ هـ)، إذ سأله قائلاً: (رأيت في أيدي الناس أشياء كثيرة من تفسير القرآن والأحاديث والروايات عن رسول الله (ص)، يخالفونها. فيكذب الناس متعمدين، ويفسرون القرآن بآرائهم(؟)[١].

فكان جواب أمير المؤمنين (ع): (قد سألت فافهم الجواب)[٢]، وفي ذلك إلفات للسائل بما يتضمنه كلامه من قواعد كلية، إذ قال (ع): (إن في أيدي الناس حقاً وباطلاً، وصدقاً وكذباً، وناسخاً ومنسوخاً، وعاماً وخاصاً، ومحكماً ومتشابهاً، وحفظاً ووهماً، إنما أتاك بالحديث أربعة ليس لهم خامس: رجل منافق يظهر الإيمان متصنع بالإسلام لا يتأثم ولا يتحرج أن يكذب على رسول الله (ص)، متعمداً... ورجل سمع من رسول الله (ص)، شيئاً ولم يحفظه على وجهه فوهم فيه ولم يتعمد كذباً... ورجل ثالث سمع من رسول الله (ص) شيئاً يأمر به ثم نهى عنه وهو لا يعلم، أو سمعه ينهى عن شيء ثم أمر به وهو لا يعلم، فحفظ المنسوخ ولم يحفظ الناسخ... وآخر رابع لم يكذب على الله ولا على رسوله، مبغض للكذب خوفاً من الله وتعظيماً لرسوله (ص)، ولم يهِم، بل حفظ ما سمع على وجهه، فجاء به على ما سمعه لم يزد فيه ولم ينقص منه، فحفظ الناسخ فعمل به وحفظ المنسوخ فجنب عنه، وعرف الخاص والعام فوضع كل شيء موضعه وعرف المتشابه ومحكمه، وقد يكون من رسول الله (ص)، الكلام له وجهان، فكلام خاص وكلام عام، فيسمعه من لا يعرف ما عني الله به ولا ما عني رسول الله (ص)، فيحمله السامع ويوجهه على غير معرفة بمعناه وما قصد به وما خرج من أجله)[٣]، ثم أشار إلى أن معرفة ذلك لم تكن على حد سواء حتى بالنسبة إلى أصحاب رسول الله (ص)، إذ (ليس كل أصحاب رسول الله (ص)، كان يسأله عن الشيء ويستفهمه، كان منهم من يسأل ولا يستفهم، حتى لقد كانوا يحبون أن يجئ الأعرابي أو الطاري أو الذمي فيسأل حتى يسمعوا ويفهموا...)[٤].

فالذي أسسه الإمام في هذا النص حل لكثير من الإشكاليات في النصوص الشرعية الموروثة وما يتعلق بها من أمر ونهي ونسخ ومتشابه وكشف عن المراد وفهم ذلك، إذا ما قيست

---

(١) الكليني - الكافي: ٦٢/١ + ابن عقدة - فضائل أمير المؤمنين:١٦١.

(٢) الكليني - الكافي: ٦٢/١ + ابن عقدة - فضائل أمير المؤمنين:١٦١.

(٣) نهج البلاغة: خطبة ٢١٠.

(٤) الكليني - الكافي: ٦٢/١ + ابن عقدة - فضائل أمير المؤمنين:١٦١.

وفق الضوابط التي وضعها عليه السلام من حيث سلامة الأداء. لذا لا بد من اتباع هذا المنهج في التفسير أو الحديث ليفاد منه تفسيراً أو غيره.

وتعد هذه الحوارية قواعد كبرى في "نهج البلاغة" لرسم الخطوط العريضة التي ينبغي أن تبنى عليها جملة من الأسس في الأداء التفسيري. ولا عجب فإن المرجع الثاني بعد رسول الله (ص)، عند عموم المسلمين في تأسيس الأصول وترسيخ القواعد لشتى العلوم الإسلامية سيما ما يتعلق منها بالقرآن الكريم، هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)[١].

ومن أسس التفسير ما جاء في وصيته (ع) لابن عباس (ت٦٩هـ) والتي وردت في "نهج البلاغة"، لتأسس أن القرآن يحتمل وجوها، وأن (هناك من القرآن ما لا يعلم ولا يفهم إلا ببيان من أهل البيان، وهم المعصومون "عليهم السلام"، ومن القرآن ما يفهم معناه بدون حاجة إلى ذلك، حيث إنه ظاهر اللفظ، واضح المعنى لا سترة فيه)[٢]، إذ قال (ع): (لا تخاصمهم بالقرآن فإن القرآن حمال ذو وجوه، تقول ويقولون، ولكن حاججهم بالسنة، فإنهم لن يجدوا عنها محيصا)[٣]، وهي من وصية له (ع) لعبد الله بن العباس، لما بعثه للاحتجاج على الخوارج.

وقد فصّل الإمام الصادق (ع)، كلام جده أمير المؤمنين، ومناط المنع من المحاجة بالقرآن، (وذلك أنهم ضربوا بعض القرآن ببعض، واحتجوا بالمنسوخ، وهم يظنون أنه الناسخ، واحتجوا بالمتشابه، وهم يرون أنه المحكم، واحتجوا بالخاص، وهم يقدرون أنه العام، واحتجوا بأول الآية، وتركوا السبب في تأويلها. ولم ينظروا إلى ما يفتح الكلام وإلى ما يختمه، ولم يعرفوا موارده ومصادره، إذ لم يأخذوه عن أهله، فضلّوا وأضلّوا)[٤].

وملخص مفاد هذا الأداء التأسيسي للتفسير، الوارد في "نهج البلاغة": أن القرآن الكريم منه ما يمكن للمفسر أن يفهم منه بأدوات متاحة، والآخر ما اختص المعصوم ببيانه، ومنه ما لا بد من التوقف في تفسيره، وعلى ضوء تلك الوصية بيّن ابن عباس أقسام التفسير، فقال: (تفسير لا يعذر أحد بجهالته. وتفسير تعرفه العرب بكلامها. وتفسير يعلمه العلماء. وتفسير لا يعرفه إلا الله عزّ وجل. فأما الذي لا يعذر أحد بجهالته: فهو ما يلزم الكافة من الشرائع التي في القرآن، وجمل دلائل التوحيد. وأما الذي تعرفه العرب بلسانها: فهو حقائق اللغة، وموضوع كلامهم. وأما الذي يعلمه العلماء: فهو تأويل المتشابه، وفروع الأحكام. وأما الذي لا يعلمه إلا الله: فهو ما يجري مجرى الغيوب، وقيام الساعة)[٥]، فكلام الإمام في "نهج البلاغة" وضع قاعدة كبرى للتعامل مع النص القرآني، ويمكن إفادة تفريعات هذه القاعدة من كلام الإمام نفسه في موارد أخرى حيث جاء على ذكر هذه التقسيمات[٦].

---

(١) ظ: عبد الحي الكتاني ـ التراتيب الإدارية "نظام الحكومة النبوية": ٣/٣٧٣.
(٢) مسلم الحلي ـ القرآن والعقيدة: ٦١.
(٣) نهج البلاغة: وصية ٧٧.
(٤) الحر العاملي ـ وسائل الشيعة: ٢٧/٢٠١.
(٥) الطبرسي ـ مجمع: ١/٤٠.
(٦) ظ: الحر العاملي ـ الفصول المهمة: ١/٥٩٧ + علي الكوراني العاملي ـ تدوين القرآن: ١٩٢.

الشواهد التطبيقية في التفسير في "نهج البلاغة":

أمير المؤمنين (ع) هو أعلم الناس بعد الرسول (ص) بالقرآن الكريم بلا منازع، وأعرفهم بتفسيره وتأويله بلا مدافع، فكان بحراً زخاراً لا يسبر غوره، ولا يدرك مداه، فهو أعلم بظاهر القرآن وباطنه، وحده ومطلعه، وتنزيله وتأويله، ومن ذلك قوله: (لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب)[١]، وقد تناثر التفسير المأثور عن أمير المؤمنين (ع)، في بطون الكتب عن ألسنة الرواة، وهناك شواهد تطبيقية اشتملها كتاب "نهج البلاغة" توفرت على مناحي تفسيرية عدة، فمنها:

١. **كشف المراد من آية:**

وهو إيضاح المراد من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[٢]، إذ ذكر الآية، فقال: (فاستقيموا على كتابه، وعلى منهاج أمره، وعلى الطريقة الصالحة من عبادته)[٣]، فالاستقامة معلومة، ولكن لم يتضح معيار الاستقامة المطلوب لإطلاق اللفظ، فذكر الإمام (ع) المعايير الثلاثة لذلك. وهذه المعاني التي وردت في "نهج البلاغة" عن أمير المؤمنين قد انفرد بجمعها، إذ تفرقت مفرداتها في كلام قدماء المفسرين[٤]، وأفاد منها البعض من متأخري مفسري الإمامية[٥]، مشيرين إلى أن هذا المورد التفسيري من كتاب "نهج البلاغة".

٢. **تفصيل مجمل بالاستشهاد بآية:**

ورد ذكر الظلم في القرآن الكريم في مواطن كثيرة، ولم تتجلَّ تفاصيله، ومن ذلك: الظلم الذي لا يغفر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٦]، جاء قول أمير المؤمنين في "نهج البلاغة"، مفصلاً لهذا الإجمال، إذ قال: (ألا وإن الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفر، وظلم لا يترك، وظلم مغفور لا يطلب. فأما الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[٧] وأما الظلم الذي يغفر فظلم العبد نفسه عند بعض الهنات. وأما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضا)[٨]، وهذا الشاهد من محاسن بيان دقائق المراد.

---

(١) أبو طالب المكي - قوت القلوب: ١/١٠١.

(٢) سورة فصلت: ٣٠.

(٣) نهج البلاغة: خطبة ١٧٦.

(٤) ظ: الصنعاني - تفسير القرآن: ٣/١٨٦ + الطبري - جامع البيان: ٢٤/١٤٣ + ١٤٤ - ١٤٥ + السمرقندي - تفسير السمرقندي: ٣/٢١٥ + الثعلبي - تفسير الثعلبي: ٨/٢٩٤.

(٥) ظ: الفيض الكاشاني - الصافي: ٤/٣٥٨ + الحويزي - نور الثقلين: ٤/٥٤٦.

(٦) لقمان: ٢٠.

(٧) النساء: ٤٨.

(٨) نهج البلاغة: خطبة ١٧٦.

٣. بيان انصراف الإطلاق في آيتين:

إن انصراف الذهن من اللفظ إلى بعض مصاديق معناه، أو بعض أصنافه يمنع من التمسك بالإطلاق، لما له من ظهور يجعل اللفظ بمنزلة المقيد بالتقييد اللفظي، ففي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴾[٢]، بيّن أمير المؤمنين (ع)، أن النصرة هنا ليست على إطلاقها، إذ أن النصرة على إطلاقها تكون من ذل، والاستقراض على إطلاقه يكون عن حاجة فقال (ع): (فلم يستنصركم من ذل، ولم يستقرضكم من قل)[٣] بل هو سبحانه (استنصركم وله جنود السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم. واستقرضكم وله خزائن السماوات والأرض وهو الغني الحميد)[٤] ثم كشف سر المراد من الاستنصار والاستقراض بعد أن أضيف لله سبحانه، ليتضح مؤداها: بأنه تعالى: (أراد أن يبلوكم أيكم أحسن عملاً)[٥]. وقد أثبت صاحب تفسير نور الثقلين[٦] هذا المورد التفسيري عن "نهج البلاغة".

٤. كشف المراد من خطاب العموم في آية:

قد يأتي الخطاب بلفظ يحتمل شمول أنواع أو أفراد، وإن كان لأمور، منها: التأكيد، التعظيم، التشريف، التقريع، التغليظ، التنزيه، التغليب، إلى غير ذلك من الموارد. قال (ع): (إنما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضا فقال سبحانه: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴾[٧]، فما كان إلا أن خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المحماة في الأرض الخوارة)[٨]، ففي تعميم اللفظ تغليظ لقبح الفعل وعظمه، ولما يترتب عليه من تعميم الجزاء. وقد نقل بعض المفسرين[٩] نص كلام الإمام التفسيري من "نهج البلاغة" في هذا المورد.

٥. بيان مفهوم في آية:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[١٠]، ومفهوم الأولوية في هذه الآية كشف عنه الإمام (ع)، إذ قال: (إن أولى الناس بالأنبياء أعلمهم بما

---

(١) محمد: ٧.

(٢) الحديد: ١١.

(٣) نهج البلاغة: خطبة ١٨٣.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) ظ: الحويزي: ٥/٣٠.

(٧) الشعراء: ١٥٧.

(٨) نهج البلاغة: قصار الكلمات ٢٠١.

(٩) ظ: الفيض الكاشاني ـ التفسير الأصفى: ٢/٨٩٣ + التفسير الصافي: ٤/٤٨ + الحويزي: ـ تفسير نور الثقلين: ٤/٦٣ ـ ٦٤ + محمد حسين الطباطبائي ـ تفسير الميزان: ١٥/٣٠٧.

(١٠) آل عمران: ٦٨.

جاءوا به. ثم تلا ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ...)[١]، وقد استشهد بعض المفسرين بهذا النص التفسيري دون نسبته إلى "نهج البلاغة"[٢].

٦. **بيان مصداق في آية:**

قد لا يكون من المجازفة القول بأن ذكر الأوصاف المختصة أبلغ في تشخيص المصاديق من ذكر الاسم، فقد يشترك الاسم فيحصل الأجمال في تشخيص الأفراد والمصاديق، أما في الأوصاف المختصة فلا محالة من انصرافها للانطباق على الفرد الأكمل الجامع لتلك الأوصاف، خصوصاً إذا كانت تلك الأوصاف لا تجتمع إلا بمثل أمير المؤمنين صلوات الله عليه وشواهد ذلك في القرآن كثيرة، وذلك ما جاء من الموارد التفسيرية في "نهج البلاغة"، لقوله تعالى: ﴿ ... وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ... ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ... ﴾[٤]، " إذ شخص مصداق ما ذكر في الآيتين، إذ قال (ع): (فنحن مرة أولى بالقرابة، وتارة أولى بالطاعة)[٥]، وذكر ذلك صاحب تفسير نور الثقلين في موردي التفسير للآيتين[٦].

٧. **تفسير آية بلفظ:**

قال في النهج: (وسئل عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾[٧]، فقال: هي القناعة)[٨]، وقد اختلفت كلمات المفسرين في تفسير هذه الآية، وذكروا فيها أقوالاً، منها أن الحياة الطيبة تعني القناعة، ثم منهم من صرّح بنسبة هذا القول مشيراً إلى وروده في "نهج البلاغة"، ومنهم من نسبه إلى الإمام (ع) دون ذكر المصدر، ومنهم من أشار إلى القول دون نسبته إلى الإمام[٩].

---

(١) نهج البلاغة: قصار الكلمات ٩٥.

(٢) ظ: الطبرسي - مجمع البيان: ٣١٨/٢ + الفيض الكاشاني - التفسير الأصفى: ١٥٥/١ + التفسير الصافي: ٣٤٧/١ + الحويزي - تفسير نور الثقلين: ٣٥٣/١.

(٣) الأنفال: ٧٥.

(٤) آل عمران: ٦٨.

(٥) نهج البلاغة: من كتاب له ٢٨.

(٦) الحويزي: ٣٥٤/١+ ج١٧٢/٢.

(٧) النحل: ٩٧.

(٨) نهج البلاغة: باب الحكم ٢٢٩.

(٩) ظ: الطبري - جامع البيان: ٢٢٤/١٤ + النحاس - معاني القرآن: ١٠٤/٤ + السمرقندي - تفسير السمرقندي: ٩٠/٢ + الثعلبي - تفسير الثعلبي: ٤٠/٦ + الطوسي - التبيان:٤٢٤/٦ + الزمخشري - الكشاف: ٤٢٧/٢ + الطبرسي - مجمع البيان: ١٩٨/٦ + الأندلسي - البحر المحيط: ٥١٦/٥ + الفيض الكاشاني - الأصفى: ٦٦٢/١ + الصافي: ١٥٤/٣ + الحويزي - نور الثقلين: ٨٤/٣ + ناصر مكارم الشيرازي - الأمثل: ٣٢١/٨.

٨. تفسير لفظ في آية:

قال في النهج: (قال عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾[١]، العدل الإنصاف، والإحسان التفضل)[٢]، وقد ذكر المفسرون من الجمهور والإمامية هذا التفسير عن الإمام من مصادر شتى[٣].

٩. جمع تفسيري بين مفهومي آيتين:

في نهج البلاغة: (قال عليه السلام: لا تأمنن على خير هذه الأمة عذاب الله لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[٤]، ولا تيأسن لشر هذه الأمة من روح الله، لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[٥]...)[٦]، وقد ذكر ذلك التفسير بعض المفسرين مصرحين بنسبته إلى كتاب نهج البلاغة[٧].

١٠. جري صدق مفهوم في آية:

قال (ع): (كان في الأرض أمانان من عذاب الله وقد رفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسكوا به. أما الأمان الذي رفع فهو رسول الله (ص). وأما الأمان الباقي فالاستغفار قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[٨][٩] وعلق صاحب النهج على ذلك، بقوله: (وهذا من محاسن الاستخراج ولطائف الاستنباط)[١٠]، وقد صرح بعض المفسرين بنسبة هذا التفسير إلى "نهج البلاغة"، قال في الأمثل: (فإن مفهوم الآية لا يختص بمعاصري النبي (ص)، بل هو قانون عام كلي يشمل جميع الناس)[١١] مفيداً ذلك من قول أمير المؤمنين، كما أفاد من ذلك التفسير بعض المفسرين مصرحين بنسبته إلى نهج البلاغة[١٢] حيناً، والاقتصار على نسبته إلى الإمام حيناً آخر[١٣].

---

(١) النحل: ٩٠.

(٢) نهج البلاغة: باب الحكم ٢٣١.

(٣) ظ: القرطبي ـ تفسير القرطبي: ١٦٥/١٠ + السيوطي ـ الدر المنثور: ١٢٨/٤ + الفيض الكاشاني ـ الصافي: ١٥١/٣ + الشوكاني ـ فتح القدير: ١٨٩/٣ + محمد حسين الطباطبائي ـ الميزان:٣٥٠/١٢.

(٤) الأعراف: ٩٩.

(٥) يوسف: ٨٧.

(٦) نهج البلاغة: باب الحكم ٩٠.

(٧) ظ: الحويزي ـ نور الثقلين: ٥٢/٢ + ناصر مكارم الشيرازي ـ الأمثل: ١٣٢/٥.

(٨) الأنفال: ٣٣.

(٩) نهج البلاغة: باب الحكم ٨٨.

(١٠) نهج البلاغة: ٢٠/٤.

(١١) ناصر مكارم الشيرازي ـ الأمثل: ٤١٦/٥.

(١٢) ظ: الفيض الكاشاني ـ الصافي: ٣٠٠/٢ + الحويزي ـ تفسير نور الثقلين: ١٥٢/٢.

(١٣) ظ: الطبرسي ـ مجمع البيان: ٤٦١/٤ + ابن عربي ـ تفسير ابن عربي: ٢٧٩/١.

١١. بيان الحد الدلالي للفظ في تفسير آية:

قال في النهج: (قال عليه السلام: الزهد كله بين كلمتين من القرآن قال الله سبحانه ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ... ﴾[١]، ومن لم يأس على الماضي، ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه)[٢]، ففي ذلك تفسير للآية وتصريح بأنها تعني وضع حدٍ دلاليّ للزهد، وقد نقل بعض المفسرين تلك الفائدة التفسيرية عن الإمام من كتاب "نهج البلاغة"[٣].

١٢. بيان مصادر التشريع من تفسير آية:

(فقد قال الله تعالى لقوم أحب إرشادهم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾[٤]، فالرد إلى الله الأخذ بمحكم كتابه، والرد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة)[٥]، ويلحظ أنه (ع)، قد أشار إلى قيدين للأخذ بالكتاب والسنة، فالكتاب مقيد بالمحكم منه، والسنة الشريفة مقيدة بما كان مجمعاً على صحة نسبتها إلى الرسول (ص)، وفي ذلك إرشاد للفقيه والمفسر والحاكم لما يشتبه عليهم من الأمور، وقد ذكر هذه الفائدة التفسيرية بعض المفسرين[٦].

١٣. تفسير لفظتين في آية:

قال "عليه السلام" في تفسير قوله تعالى: ﴿ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾[٧]، فالعاكف المقيم به والبادي الذي يحج إليه من غير أهله)[٨]، وقد استقى جملة من المفسرين هذا التفسير من أمير المؤمنين (ع)، منهم من سبق عصره جمع "نهج البلاغ"[٩]، ومنهم من صرح بنسبته إلى النهج[١٠]، ومن نسبه إلى أمير المؤمنين دون الإشارة إلى مصدره[١١].

---

(١) الحديد: ٢٣.

(٢) نهج البلاغة: باب الحكم ٤٢٩.

(٣) الفيض الكاشاني - التفسير الصافي: ١٣٨/٥ + ج ١١٨/٧ + الحويزي - تفسير نور الثقلين: ٢٤٩/٥ + محمد حسين الطباطبائي - الميزان: ١٦٩/١٩ + ناصر مكارم الشيرازي - الأمثل: ٦٨/١٨ - ٦٩.

(٤) النساء: ٥٩.

(٥) نهج البلاغة: المختار من كتبه ٥٣.

(٦) ظ: الفيض الكاشاني - التفسير الصافي: ٤٦٥/١ + الحويزي - تفسير نور الثقلين: ٥٠٦/١ + محمد المشهدي - تفسير كنز الدقائق: ٥٠٤/٢.

(٧) الحج: ٢٥.

(٨) نهج البلاغة: المختار من كتبه ٦٧.

(٩) ظ: الطبري - جامع البيان: ١٨٠/١٧.

(١٠) ظ: الفيض الكاشاني - التفسير الصافي: ٣٧١/٣ + الحويزي - نور الثقلين: ٤٨٠/٣.

(١١) ظ: الراوندي - فقه القرآن: ٣٢٧/١ + الفيض الكاشاني - التفسير الأصفى: ٨٠٢/٢ + ناصر مكارم الشيرازي - الأمثل: ٣١٧/١٠.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾[١]، قال (عليه السلام): (سائق يسوقها إلى محشرها وشاهد يشهد عليها بعملها)[٢]، وقد صرّح جملة من المفسرين بنسبة هذا التفسير إلى أمير المؤمنين (ع) في كتاب "نهج البلاغة"[٣].

ومن خلال ما تقدم من تشخيص للدلالات التفسيرية للشواهد القرآنية التي جاء على ذكرها أمير المؤمنين (ع) في خطبه وكتبه ووصاياه وأقواله والتي قام بجمعها الشريف الرضي في كتاب" نهج البلاغة" يظهر للبحث بعداً تأصيلياً جديداً يضاف إلى ما ضمّ هذا السفر القيّم من علوم بكر في طريقة طرحها، نظرية وتطبيقية، دنيوية وأخروية، تتعلق بالعلة الأولى وبدء الخلق وكيفيته ونهاية ذلك وقيام الساعة وبعث الخلائق. وإن هذا التأصيل يتجلى واضحاً في التفسير والكشف والبيان لمراد الله تعالى في كتابه الكريم كون الإمام معنياً بعد رسول الله (ص) ببيان مبهمه وتفصيل مجمله وتخصيص عامه وتقييد مطلقه وناسخه ومنسوخه وسبب نزوله كما صرح (ع) بهذا المعنى في مواطن كثيرة حتى قال: (سلوني قبل أن تفقدوني، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لو سألتموني عن أية آية، في ليل أنزلت، أو في نهار أنزلت، مكيها ومدنيها، سفريها وحضريها، ناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وتأويلها وتنزيلها، إلا أخبرتكم)[٤].

وإن المنصف ليجد في هذا القول تصريحاً واضحاً بالمعرفة الجلية التي لا يشوبها تردد ولا يعتريها ضعف أو اشتباه في بيان المعنى والدلالة لجميع الحيثيات التي جاء على ذكرها الإمام في هذا القول، كيف لا وهو صاحب المَلَكَة في زمٍّ أعنة اللغة ومعانيها، لتكون طوع قلبه ولسانه ليطبق المفصل بين الألفاظ ومعانيها مضافاً لما حباه الله به من أذن واعية وكفى بها من حبوة.

والشواهد التي جاء البحث على ذكرها والتي كانت شواهد تطبيقية للتفسير في خطب وكتب ومقالات "نهج البلاغة" والتي تنوعت بين كشف المراد من آية وتفصيل مجمل، وبيان انصراف الإطلاق، وكشف المراد من خطاب العموم، وبيان المفهوم، وبيان المصداق، وتفسير آية بلفظ، وتفسير لفظ في آية، والجمع التفسيري بين مفهومين، وجري صدق مفهوم في آية وبيان الحد الدلالي للفظ، وبيان مصادر التشريع من تفسير آية وتفسير لفظتين في آية،

---

(١) ق: ٢١.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ٨٥.

(٣) ظ: الفيض الكاشاني ـ التفسير الصافي: ٦١/٥ + ج ٥٣٧/٦ + الحويزي ـ تفسير نور الثقلين: ١١١/٥ + محمد حسين الطباطبائي ـ الميزان: ٣٥٧/١٨.

(٤) الصدوق ـ الأمالي: ٤٢٣.

تكشف عن اشتمال كتاب "نهج البلاغة" أداءً تفسيرياً ثراً يندرج تحت واحد من عناوين الشواهد التفسيرية الآنفة، يمكن الأخذ به واعتماده مصدراً للتفسير لما تقدم من ثبوت صحة نسبة ما في النهج إلى الإمام (ع).

خلاصة البحث:

إن لكتاب "نهج البلاغة" أهمية كبرى في العلوم الشرعية وعلوم اللغة والعلوم التي تصب في خدمتها عموماً، وقد كان لعلوم الشريعة والعلوم المساعدة حيزاً كبيراً فيه، ولذا فهو منهل للباحثين في الحكمة، والأدب، والعرفان، وتفسير القرآن الكريم. وقد امتاز كتاب "نهج البلاغة": بوحدة الروح والمثل والأسلوب على اختلاف موضوعاته ومقاصده وفنونه في صور فنية رائعة تسمو بأرفع أساليب البلاغة والفصاحة. وقد ثبتت صحة نسبة ما مجموع في "نهج البلاغة" إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، إذ إن الكثير من نصوصه محكوم بالتواتر عنه (ع)، وإذا ثبت صحة نسبة البعض، ثبت أن الجميع منه، لاتفاق جميع نصوصه في الأسلوب. ثم إن كثيراً من خطب "نهج البلاغة" موجودة في مصادر شتى، قبل زمن الشريف الرضي، أما ما لم نقف اليوم على مصادره، فلا يعني أنه موضوع، لكثرة ما كان في متناوله من المصادر. ولما اشتمله "نهج البلاغة" من الإخبار بالمغيبات وأسرار العلوم الواردة، بتلك الجزالة والقوة في السبك والدلالة، مما يبعد الشبهة واحتمال الوضع، فإن من دواعي اعتبار خبر الواحد الاعتبار بمتنه ودلالته. وبعد ثبوت نسبة ما في "نهج البلاغة" من الخطب والكلمات إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، الذي ألقيت على عاتقه مسؤوليات تفسير القرآن بعد النبي (ص)، يتضح أن الأداء الفكري والتطبيقي والتنظيري لتفسير القرآن، هو من ذلك النمير الرائق المتصل بالعلم الإلهي الذي أوحاه الله لرسوله الكريم (ص)، فقد ورد في نهج البلاغة جملة من تفسير الآيات والألفاظ القرآنية، بل يمكن الإفادة من بعض الشواهد أسسا تمثل قواعد أولية للجانب النظري في تفسير القرآن الكريم، وانتظم جملة من الدلالات التفسيرية التي يتلمسها الباحث في شواهد "نهج البلاغة" القرآنية، واضحة وجلية وقد أثبت البحث أن المفسرين قد استقوا موارد تفسيرية عديدة في مصنفاتهم التفسيرية، فمنهم من صرّح بنسبة ذلك التفسير إلى الإمام علي (ع) في "نهج البلاغة"، ومنهم من اكتفى بذكر التفسير منسوباً إليه (ع)، مع أخذه للنص التفسري المثبت في "نهج البلاغة" من دون إشارة إلى المصدر، فضلاً عن ورود بعض النصوص التفسيرية المطابقة لما في "نهج البلاغة" المنسوبة للإمام (ع)، عند متقدمي المفسرين الذي سبقوا عصر جمع الشريف الرضي لنهج البلاغة، مما يزيد في اعتبار صحة نسبة النهج إلى أن أمير المؤمنين (ع). ❖

دور الإمام علي بن أبي طالب (ع) وتلامذته في ريادة المدرسة الأولى للقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف

أ. م. د مهند عبد الرضا حمدان الكنزاوي ـ أ. م. د عواد كاظم لفتة الغزي
جامعة ذي قار ـ كلية الآداب جامعة ذي قار ـ كلية الآداب

إن شخصاً كالإمام علي بن أبي طالب (ع) الذي وصفه الرسول الأكرم (ص) بأنه باب مدينة العلم الذي تؤتى منه لابد أن يكون على قدر من العلوم والمعارف أسمى من أن تصفه الألسن أو تجسده الأقلام ولابد أن يكون له تلامذة من طراز خاص لينهلوا من علومه، وقد حبى الله الإمام علي (ع) بتلامذة وصحابة أفذاذ برعوا إضافة إلى مؤازرتهم له ولآل بيته (ع) وشجاعتهم الفذة وأدوارهم السياسية التي كان لها الأثر العظيم في تاريخ الإسلام، حيث كان لهم باعاً طويلاً في النواحي الفكرية بمختلف ميادينها فقد برز منهم المفسرين والمحدثين والمصنفين والأدباء والشعراء الذين تركوا بصماتهم واضحةً في هذه الميادين التي وضحّوا فيها إن صحبتهم للإمام علي (ع) أثرت فيهم على مختلف الأصعدة، فقد كان (ع) المدرسة التي خرجتهم والمصّب الذي نهلوا منه فورثوا الإبداع وورّثوه، ولعل أهم المجالات التي جسدّت أدوارهم الفكرية هي:

القرآن الكريم وتفسيره:

القرآن الكريم هو كلام الله المنزّل على نبيّه محمد (ص) وهو المصدر الأساسي للتشريع الإسلامي، وتفسيره احد العلوم الشرعية المتعلقة به، إذ يهدف إلى استنباط الأحكام الشرعية منه بشكل صحيح، وليس من المبالغة القول بأن أصحاب الإمام علي (ع) كانوا الرواد الذين لعبوا الدور الأكبر والأساسي في المحافظة على كتاب الله، وإيصاله إلينا بهذه الصورة، فقد شهد لهم عموم المسلمين بالتفوق في هذا المضمار، إذ لم يكن جميع الصحابة على درجة واحدة من العلم والفقه ولا مستوى واحد من الإدراك حتى إن بن خلدون قال في ذلك: ولم يكن جميع الصحابة أهل فتيا، ولا كان الدين يؤخذ عنهم جميعاً، وإنما كان ذلك مختصاً بالحاملين للقران الكريم العارفين بناسخه ومنسوخه ومتشابهه ومحكمه وسائر دلالته[1]، فيذكر إن رجلاً جاء إلى عمر بن الخطاب وهو بعرفات، فقال: جئتك من الكوفة، وتركت بها رجلاً يحكي المصحف عن ظهر قلبه، فغضب عمر غضباً شديداً! (خوفاً من أن يكون أحداً ينسب إلى القرآن الكريم ما ليس منه)، فقال: ويحك من هو؟! فقال له: هو عبد الله بن مسعود، فذهب غضب عمر بن الخطاب وسكن وعاد إلى حاله! ثم قال: والله ما اعلم

من الناس بالكوفة رجلاً أحق بذلك منه (وقد كان عمر بعث إلى الكوفة عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود، وكتب إلى أهلها: إني بعثت لكم عمار بن ياسر أميراً، وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً فاقتدوا بهما واسمعوا قولهما وقد آثرتكم بعبد الله بن مسعود على نفسي)[٢]، مما يدل على مكانته الفقهية المرموقة، ولم يكن ذلك غريباً من عبد الله بن مسعود فقد كان أول من جهر بالقرآن الكريم على الملأ في مكة في وقتٍ كان ذلك يُعد فيه هدماً وثلماً كبيراً لكل ما كان يعتقد به المجتمع غير المسلم في مكة[٣].

ويُعد حذيفة بن اليمان أول من بادر من الصحابة لجمع القرآن الكريم حيث تنبّه لاختلاف القراءات في القرآن، فنصح الخليفة عثمان بضرورة توحيد المصاحف إذ يُذكر انه اجتمع لغزو أذربيجان وأرمينيا أهل الشام وأهل العراق فتذاكروا القرآن فاختلفوا فيه، حتى كاد ينشب بينهم قتال، فلما رأى حذيفة ذلك الاختلاف، ركب إلى عثمان بن عفان فأخبره بذلك، وأشار عليه بتوحيد القرآن الكريم، قائلاً: إن الناس اختلفوا في القرآن، ؛حتى إني والله لأخشى أن يصيبهم ما أصاب اليهود والنصارى من الاختلاف، ففزع عثمان لذالك فزعاً شديداً وأرسل إلى حفصة (رض) فاستخرج الصحف التي كانت لديها فنسخ منها المصاحف وبعث بها إلى الآفاق[٤] إذ نسخوا الصحف في المصاحف ورد عثمان الصحف إلى حفصة، وأمر بكل ما خالفها من صحيفة أو مصحف أن يحرق[٥]، وهذا يوحي بعظمة دور حذيفة في ذلك وحرصه على عدم تحريف القرآن الكريم أو أدعّاء ما ليس منه بأنه من كلام الله تعالى.

وقد أثرت في حذيفة مصاحبته للرسول الكريم (ص) وللأمام علي (ع) من بعده، فكان من خيرة تلامذة مدرستهما القرآنية، عارفاً بالآيات الكريمة وتفسيراتها وأسباب نزولها وأحكامها مفتيا للناس بها، فقد سأله سعيد بن العاص في فتح طبرستان عن صلاة الخوف كيف صلاّها النبي (ص)، فعلمه بها فصلاّها بالمسلمين[٦]، كما كانت لحذيفة حلقة دراسية لتعليم القرآن الكريم وتفسيره[٧]، وقد ذكر ابن كثير إن رجلاً جاء إلى ابن عباس وكان عنده حذيفة، فقال الرجل لابن عباس: اخبرني عن قول الله تعالى (حم) و (عسق)، فقال له حذيفة أنا أنبئك بها[٨]، إما ابن عباس الذي لقبه الرسول الكريم بـ (حبر الأمة) لكثرة علمه، فيتعبر من مؤسسي علم التفسير حيث كان يجلس في المسجد يفسر آيات القرآن الكريم لعموم المسلمين[٩]، وحتى في أبان ولايته على البصرة للأمام علي (ع) بعد حرب الجمل لم يأخذه عمله الإداري كوالٍ عليها من الانصياع للخوض بدراسات القرآنية والتفسير وغيرها من العلوم الإسلامية التي عرف بها حيث كان يغشى الناس بالمسجد في شهر رمضان وهو أمير فما ينقضي الشهر حتى يفقههم، حتى صار زعيماً لمدرسة البصرة القرآنية[١٠].

كما قام ابن عباس بتقسيم وجوه تفسير القرآن الكريم إلى أربعة أقسام: تفسيرٌ لا يعذر احد بجهالته، وتفسيرٌ تعرفه العرب بكلامها، وتفسيرٌ يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله عزّ وجل، فأما الذي لا يعذر احد بجهالته فهو ما يلزم الكافة من الشرائع التي في

القرآن الكريم، وإما الذي تعرفه العرب بكلامها فهو حقائق اللغة ومصوغ الكلام، وإما الذي يعلمه العلماء فهو تأويل المتشابهة وفروع الأحكام، وإما الذي لا يعلمه إلا الله فهو مجرى الغيوب وقيام الساعة[١١] وإضافة إلى تقسيمه وجوه التفسير وفق ما ذكرنا فقد كان له منهجا خاصا به في التفسير إذ كان كثيراً ما يستعين باللغة وشواهد الشعر على فهم القرآن الكريم وروي عنه انه قال: (إذا تعاجم عليكم شيئاً من القرآن فانظروا في الشعر فأن الشعر عربي)[١٢]، وبذلك كان أول من اعتمد اللغة والشعر في التفسير[١٣]، وكانت حلقته القرآنية في مسجد جامع البصرة من اكبر الحلقات العلمية في العصر الأموي، قيل انه فسرّ فيها في إحدى ليالي رمضان سورة البقرة وآل عمران آية آية[١٤]، لذا فدور بن عباس في مجال علوم القرآن الكريم لا ينكر وإنما أشير إليه بالبنان على مرّ التاريخ، حتى إن الحسن البصري وصفه بقوله[١٥]: (كان والله مثجاً يسيل غُرباً)[١٦]، وكان لابن عباس تلامذة أخذوا عنه القرآن الكريم وعلومه[١٧]، ولم يقتصر تلامذته على عامة الناس فحسب وإنما لزم حضور حلقته الكثير من العلماء كأبي الجوزاء[١٨] الذي يقول: (لازمت بن عباس اثنتي عشر سنة، ما في كتاب الله آية إلا وسألته عنها)[١٩].

كما كان زميله في مدرسة الإمام علي بن أبي طالب (ع) أبو الأسود الدؤلي كان له الأثر الخالد في مجال القرآن الكريم والذي لا ينسى ولا يمحى ذكره ألا وهو قيامة بتنقيط المصحف الشريف[٢٠] حيث أن لهذا العمل الجليل أهمية كبرى تيسر على الدارسين عملية قراءة آيات القرآن الكريم أو كتابتها من غير إرباك أو عسر إذ تم التميز بواسطة نقاط أبو الأسود مابين حرف أو أخر[٢١]، وقد تتلمذ على يد أبو الأسود في مجال القرآن الكريم، الكثير من العلماء والمسلمين الذين دأبوا على الجلوس إلى حلقته العلمية[٢٢] ويقال بأن أبا الأسود قام بإعراب القرآن الكريم أبان خلافة معاوية[٢٣] وبذلك يكون الأول ممن قام بهذا العمل الجليل من علماء الأمة الإسلامية.

أما خزيمة بن ثابت فعندما جمعت المصاحف وتم توحيد القرآن أتى بآخر آيات سورة التوبة، ولم تكن عند غيره من المسلمين، وكانت كتابتها في المصحف تتطلب اتفاق اثنين الثقات على سماعها من الرسول (ص)، ولم تكن إلا عند خزيمة فقال زيد بن ثابت: اكتبوها فإن الرسول (ص) جعل شهادة خزيمة بشهادة رجلين، فكتبها[٢٤] وأيضاً اعتبر جابر بن عبد الله الأنصاري من الطبق الأولى من مفسري القرآن الكريم[٢٥] وكذلك ابن سعيد الخدري الذي كان له دور هام في تعليم الناس القرآن الكريم اذ كان بمجلس من المجالس ليقرى خمس آيات لا ينتقل إلى سواها حتى يتقنوها[٢٦] وقد كان فرض بن كعب احد الأنصار الذين أرسلهم عمر بن الخطاب إلى الكوفة، وكان لهم دور كبير في تعليم أهلها القرآن الكريم وترغيبهم فيه وحثهم عليه لاهتمام فيه وعدم الإنصاف إلى غيره[٢٧]، وكان علقمة بن قيس يقوم ويشرح الآيات الكريمة للمسلمين وتبيين معانيها كما إن بعض المسلمين يستفتيه

فيجيبهم ويسألونه على معاني الآيات فيعرفهم إياها[٢٨] حتى انه وصف بفقيه أهل الكوفة وعالمها ومقرئها وإمامها[٢٩] وكذلك كان أبو عبيد السلماني ممن يقرئ الناس القرآن الكريم ويحفظهم إياه ويفتيهم فيه[٣٠].

وقيل إن ميثم كان من أوائل مفسرين القرآن الكريم حتى أنه قال لابن عباس يوماً: سلني عما شئت عن تفسير القرآن الكريم، فاني قرأت تنزيله عند أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب (ع) وعلمني تأويله، فاخذ بن عباس -على علمه - وجعل يكتب عن ميثم[٣١].

وهذا يدل على إن صحابة الإمام علي ابن أبي طالب (ع) كانوا أول من تناول القرآن الكريم بدراسة من سائر المسلمين لمعرفتهم بعلومه التي نهلوها من أستاذهم الإمام علي ابن أبي طالب (ع) الذي وصفه الرسول الكريم بـ (باب مدينة العلم) ومن ثم تبعهم تلامذتهم أو من جاء بعدهم من سائر المسلمين، في السير في طريق دراسة القرآن الكريم مستنيراً برواياتهم وآرائهم وفتاويهم بهذا المجال.

الحديث النبوي الشريف:

الحديث لغةً ضد القديم، والحديث الرواية المنقولة شفاهاً[٣٢]، إما اصطلاحاً فهو كل ما ينسب إلى النبي (ص) من القول أو الفعل أو التقرير أو الصفات الخلقية[٣٣] والحديث من العلوم التي أوجدها الإسلام والتي بعد القرآن الكريم، ولها أهمية كبرى في المجتمع الإسلامي فهو مصدر ثاني من مصادر التشريع الإسلامي، ففي القرآن الكريم الأصول العامة للإحكام الشريعة دون التعرض إلى تفاصيلها، فمثلاً ذكر القرآن الكريم الصلاة دون أن يبين أوقاتها وأركانها وعدد ركعاتها وسجداتها، فوضع الرسول (ص) بأحاديثه الشريفة[٣٤]، والتي قد أمر الله تعالى بان يطاع الرسول (ص) فيما يأمر حيث قال الله تعالى ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[٣٥].

وكان لصحابة الإمام علي ابن أبي طالب (ع) دور بارز في رواية حديث رسول الله (ص) حيث اقتفوا أثره (ع) فقاموا بكتابة الحديث النبوي المروي عنه فجمعوا شذرات الحديث النبوي الشريف وشوارد السيرة وأصول الأخلاق[٣٦] فقد قيل إن مؤسس علم الحديث أبو رافع[٣٧] إذ إن أول كتاب في الحديث النبوي الشريف - ألف في الإسلام - كتاب الإمام علي بن أبي طالب (ع) أملاه رسول الله (ص) وخطه الإمام علي (ع) على صحيفة فيها كل حلال وحرام، وله كذلك صحيفة في الديات كان يعلقها بقراب سيفه، ثم دون أبو رافع كتاب السنن والأحكام والقضايا[٣٨] فكان غاية في الأهمية والتعظيم عند المسلمين رووه بطرقهم المختلفة وأسانيدهم المتعددة[٣٩]، لاشتماله على الصلاة والصيام والحج والزكاة وسائر القضايا في أبواب مرتبّة[٤٠]، وكان لولده علي بن أبي رافع بعده كتاباً في الحديث وهو على قدر من الأهمية لاحتوائه على شتى صنوف العلم حتى أنه كان يملى في المساجد ويعّظم من قبل سائر المسلمين[٤١]، أما ولده عبيد الله (وهو من أصحاب الإمام علي (ع) كما ذكرنا) فقد كان صاحب أول كتاب تدون

فيه أسماء الصحابة الذين شايعوا علياً (ع)، وما شاركوا فيه من حروب، وأحاديثهم التي رووها عن الرسول (ص)، وكان كتابه يسمى بـ (كتاب عبيد الله بن أبي رافع، وهو كتاب شامل بين التاريخ والتراجم والأحاديث النبوية الشريفة[٤٢] بل اعتبر هو الأول في الرجال والتاريخ واعتمده كبار المؤرخين والمحدثين كالطوسي وبن الأثير وابن عساكر وبن حجر[٤٣] لبراعته بضبطه وتنقيحه[٤٤] وكذلك وصف أبو سعيد الخدري بأنه من رواة الألوف من الأحاديث النبوية الشريفة[٤٥]، ولم يكن احد من أحداث الصحابة افقه منه[٤٦]، روى أحاديثه عن الثقات[٤٧]، وروى عنه علماء السنّة والشيعة المعتبرين[٤٨] كما يعد جابر الأنصاري من أشهر رواة الحديث عن النبي (ص) إذ روى الكثير من الأحاديث الشريفة الصحيحة، وكانت له حلقة دراسية في المسجد يؤخذ عنه الحديث فيها[٤٩]، وروى عنه الكثير من الصحابة، ودوّن عنه كتاب الحديث ألف وخمسمائة وأربعين حديثاً[٥٠] ويكاد يتفق رواة الحديث النبوي إن هناك صحيفة حوت الحديث الشريف تتصل بجابر بن عبد الله الأنصاري[٥١] مع العلم انه لم يكن يروي الحديث إلا إذا كان قد سمعه من الرسول (ص) مباشرة، أو تحقق له كون مصدره صحيحاً حتى انه رحل إلى مصر للتوثق من حديث واحد سمعه في المدينة[٥٢] وقد سار على هذا النهج (التوثق من الحديث الشريف قبل روايته أو الأخذ به) سائر صحابة الإمام علي بن أبي طالب (ع) فقد اقتصرت رواية عبد الله بن جعفر للحديث على أن يكون قد أخذه عن النبي (ص) أو عن الإمام علي (ع) أو من أمه أسماء بنت عميس أو عمار بن ياسر وعنه روى الحديث الشريف جماعة من المسلمين[٥٣]. وأيضاً عمل عبد الله بن مسعود وكذلك أبو أيوب الأنصاري على التوثق من الأحاديث الشريفة وعدم قبولها إلا بعد ذلك، فقد رحل أبو أيوب الأنصاري إلى مصر لسماع حديث واحد كما فعل جابر الأنصاري من قبل، أما عبد الله بن مسعود فكان يقول: لو كنت أعلم أحداً أعلم بكتاب الله تعالى وسنّة نبيه (ص) تبلغه الإبل لذهبت إليه لأسمع منه[٥٤]، أما عبد الله بن عباس (حبر الأمة) فإلى جانب نبوغه في القرآن الكريم وتفسيره، كان علماً من أعلام الحديث الشريف وروايته بل وشرحه وتعليله وتأويله والإفتاء على ضوءه[٥٥] وكجميع تلامذة وأصحاب الإمام علي (ع) كان زر بن حبيش الذي اتفق جميع أصحاب الصحاح بكونه ثقة صحيح الحديث[٥٦] كثيره[٥٧] روى عنه أهل الكوفة[٥٨] كان يلّحُ في التحقق من الحديث حتى إن رجلاً أنكر عليه ذلك، فقال له زر: ويحك أما سمعت رسول الله (ص) يقول: (إن الملائكة لتحط أجنحتها لطالب العلم)[٥٩]، وكان علقمة بن قيس عالماً بالحديث الشريف، قيل إن من بقي من الصحابة (رض) بعد الرسول (ص) كان يسأله في الحديث، حتى إن بعضهم قال: ما أقرأ شيء وما اعلم شيئاً إلا وعلقمة يقرؤه ويعلمه[٦٠] وهو ثقة كثير الحديث، روى عن الثقات وكبار الصحابة وأمير المؤمنين (ع)[٦١] ومروياته متفق عليها في الصحاح[٦٢].

كما إن للأحنف بن قيس معرفة بالحديث إذ روى جملة من الأحاديث الشريفة ونقلها عنه الكثير من الصحابة وكبار التابعين[٦٣] وكذلك رويت عن الحارث بن عبد الله الهمذاني

أحاديثاً شريفة عن أمير المؤمنين (ع) وانفرد بالحديث القائل: عن علي (ع) قال: قال لي النبي (ص): أنين المريض تسبيحه وصياحه تهليله ونومه على الفراش عبادة ونفسه صدقة وتقلبه جنباً لجنب قتال لعدوه، ويكتب له من الحسنات مثل ما كان يعمل في صحته فيقوم وما عليه خطيئة)[٦٤]، قيل انه كان من أوعية العلم إلا انه كان ينقل حديث رسول الله (ص) بلهجته هو فكذبّه بعض المحدثين والرواة، ووثقه غيرهم لاتفاق مضامينه مع مبادئ السنة النبوية، وذكر إن لهجته خاطئة آما حديثه فلا[٦٥] أما سلمان المحمدي فقد وصف بأنه كان محدثاً، حدثه الرسول (ص) وأمير المؤمنين (ع) بما لا يحتمله غيره من مخزون علم الله ومكنونه[٦٦] إضافةً إلى معرفته بالقرآن الكريم وتفسيره والحديث النبوي الشريف فقد صنفّ كتاباً في حديث الجاثليق ❖ الذي بعثه ملك الروم بعد وفاة رسول الله (ص)[٦٧] وكان مصنف سلمان هذا أول مصنف ضمّ المناظرات في الإسلام، وكان هدفه منه، توضح الأجوبة عن أسئلة الجاثليق إضافة إلى دفاعية عن أحقية الإمام علي بن أبي طالب (ع) بالخلافة، وتعبيراً عن ولائه الطلق له وتمسكه ينهجه، إذ رأى إن حادثة الجاثليق هي بمثابة نصرة إلهية للإمام علي، وكبح جماح من يرى غير ذلك وادحاض حججه سيما وأن من تقلد الخلافة قد عجز عن إجابة وفد النصارى مع مقدرة غيره من المسلمين على ذلك مما يدل على انه ليس بأعلمهم أو أفقههم، وبالتالي كان منهم من هو أحق منه بذلك.

إما أبا ذر فقد كان بحراً زاخراً في كل مجالات الفكر الإسلامي ومنها الحديث فقد نقل على الرسول (ص) جملة من الأحاديث الشريفة مباشرة أو ممن تحققت له عدالته وثقته وروى عنه الكثير، ومن اهتمامه بالحديث ومواظبته على طلبه قوله: ما ترك رسول الله (ص) شيئاً مما صبّه جبرائيل وميكائيل في حدوده إلا وقد صبّه في صدري[٦٨].

وقيل إن أبا ذر ثقة حسن الحديث لا يحتاج إلى تجريح أو تعديل ولا نقد فقد أزيل عنه غبار ذلك بنص قول الرسول (ص): (ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء اصدق لهجة من أبي ذر)[٦٩]، وله كتاب (الخطبة) يشرح فيه الأمور التي حدثت بعد النبي (ص)[٧٠] ولا تخلو جميع كتب الحديث من أن ترد جملة من الأحاديث التي رويت عن أبي ذر مع اتفاقها على صحتها[٧١]، فقد وصف أبا ذر بأنه أول من تكلم في علم البقاء والفناء والحياة والموت) وثبت على المشقة والعناء وحفظ العهود والوصايا وصبر على المحن والرزايا، وتعلم الأصول ونبذ الفضول، وكان يوازي بن مسعود في علمه[٧٢] وهو أول من جمع كل حديث إلى الذي مثله في باب واحد وعنوان واحد[٧٣]، وله أيضاً كتاب (وصايا النبي، والذي شرحه المجلسي وسماه (عين الحياة)[٧٤] ويُشار إلى إن أبا ذر هو الذي زرع بذرة التشيع في كثير من بلدان العالم الإسلامي آنذاك لا سيما البلدان التي رحل إليها إضافة إلى التي التقى ببعض أهلها، وكان ذلك عن طريق تركيزه على أحاديث الرسول الكريم في استخلاف أمير المؤمنين علي (ع) والإشادة بفضله في الإسلام وحقه في الخلافة والتعريف بمكانته من الرسول (ص)[٧٥].

ولا يغفل ما كان من دوره في حفظ حديث رسول الله (ص) وروايته لأغلب أصحاب الإمام علي (ع) الذي يضيق البحث عن الخوض بتفصيل أدوارهم ومروياتهم ومناهجهم في الجمع أو الرواية ومن أبرزهم: الاصبغ بن نباته[٧٦] وجندب الأزدي[٧٨] ومخنف بن سليم[٧٩] وأويس القرني[٨٠] وحبة بن جوين[٨١] وقرضة بن كعب[٨٢] وقيس بن سعد[٨٣] ويزيد بن قيس[٨٤] وعامر بن وائلة[٨٥].

الهوامش:

(١) المقدمة: ٨٣.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى: ١٥١/٣ ـ ١٥٢؛ ابن حجر، الإصابة: ١٩٩/٤ ـ ٢٠١.

(٣) ينظر: خليفة بن خياط، طبقات خليفة: ٤٧؛ الطوسي، الخلاف: ٣٧٨/٤ ـ ٣٧٩؛ ابن عبد البر، الاستيعاب: ٩٩٢/٣ ـ ٩٩٤.

(٤) ينظر: ابن حبان، الثقات: ٤٥/٧؛ الشافعي: أحكام القرآن: ٦٠٨/٢؛ البيهقي، السنن الكبرى: ٤١/٢ ـ ٤٢؛ ابن حزم، الأحكام: ٥٢٣/٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ١٥٠/٧؛ الزركشي، البرهان في علوم القرآن: ٢٣٦/١؛ العيني، : عمدة القارئ في شرح البخاري: ٢٨٣/١٦؛ السيوطي، الدر المنثور: ٣١٧/١؛ المتقي الهندي، كنز العمال: ٥٨١/٢؛ الخوئي، البيان في تفسير القرآن: ٢٤١.

(٥) سيف بن عمر، الفتنة ووقعة الجمل: ١٠؛ ابن حجر، فتح الباري: ١٤/٩؛ الصالح، مباحث في علوم القرآن: ١٠٧؛ مير محمد رزندي، بحوث في تاريخ القرآن وعلومه: ٣١ ـ ٣٢.

(٦) الطبري: تاريخ الطبري: ٦٠٤/٢.

(٧) السهمي، تاريخ جرجان: ٤٧؛ محسن الأمين، أعيان الشيعة: ٥٩٩/٤.

(٨) تفسير ابن كثير، بيروت/دار الفكر العربي (ط١ – ١٩٨١): ٩٥/٤.

(٩) ابن سعد، الطبقات: ٢٢٨/٢.

(١٠) ينظر: ابن حجر، الإصابة: ٣٣٤/٢.

(١١) ينظر: ابن تيمية، التفسير الكبير: ١٩٣/٣ ـ ١٩٥؛ الثعالبي، : تفسير الثعالبي: ٥٦/١ ـ ٦٢؛ المحقق الكركي: جامع المقاصد: ١٥/١ ـ ١٦؛ المحقق الاردبيلي، زبدة البيان: ٢ ـ ٤؛ جعفر السبحاني: مفاهيم القرآن: ٣٨٣/١٠ ـ ٣٨٤.

(١٢) الطبري، جامع البيان: ٢٦٩/١٧.

(١٣) ابن قدامة، الشرح الكبير: ٢٦١/٢؛ حامد عبد الستار: دور البصرة في تتطور التفسير في القرنين الثاني والثالث الهجريين: ١٣.

(١٤) ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية: ٣٣٢/٨.

(١٥) م ن: ٣٣٢/٨.

(١٦) المثج الخطيب المفوّه والغرب الماء الذي يسيل من الدلو أي إن الكلام كان يجري على لسانه كالماء من الدلو (الجاحظ، البيان والتبيين: ٣١٧/١).

(١٧) سفيان الثوري: تفسير الثوري: ٥.

(١٨) أبي الجوزاء أوص بن عبد الله الربعي ذو شأن بالفصاحة والخطابة، إضافة إلى ورع ودين وهو من أعلام المفسرين المسلمين (الذهبي، سير أعلام النبلاء: ٨١/٣).

(١٩) ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٢٢٤/٧.

(٢٠) الانباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء: ١٦؛ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: ٤٥٧/٢.

(٢١) ينظر: الأصفهاني: الأغاني: ١٠٢/١١؛ ابن عطية الأندلسي المحور الوجيز بالتفسير الكتاب العزيز: ٥٠/١.

(٢٢) ابن النديم، الفهرست: ٤٦.

(٢٣) السيوطي، بغية الوعاة: ٣٣/٢؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء: ٨٣/٤؛ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥٣٧/٣، الشيخ الأنصاري، كتاب الصلاة، قم (ط١ ـ ١٩٩٥): ٣٥٥.

(٢٤) ينظر: البخاري، صحيح البخاري، باب جمع القرآن: ١٧٢٠/٤؛ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: ٥٨/١.

(٢٥) ينظر: المتقي الهندي، كنز العمال: ٣٩٧/٦: ابن العماد، شذرات الذهب. ٨٤/١؛ فارس حسون، الروض النظير: ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(٢٦) ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال: ٦٣/٣؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٣٩١/٢٠.

(٢٧) ابن حبان، الثقات: ٢٢١/٣؛ الحلي كشف اليقين: ١١ ـ ١٢؛ البراقي، تاريخ الكوفة: ٤٣١ ـ ٤٣٢؛ عبد الرحمن البكري: حياة عمر بن الخطاب: ٢٩٠ ـ ٢٩١.

(٢٨) ابن حجر، الإصابة ١٠٥/٧ ـ ١٠٦؛ تهذيب التهذيب: ٧ ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

(٢٩) الذهبي، سير أعلام النبلاء: ٥٣/٤ ـ ٥٤.

(٣٠) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ١٢١/١١ ـ ١٢٢.

(٣١) الكشي، رجال الكشي: ٤٧؛ جعفر السبحاني، رسائل ومقالات: ٣٠٩؛ هدى جاسم محمد، المنهج الاثري في تفسير القرآن الكريم: ٤٥ ـ ٤٦.

(٣٢) ابن منظور، لسان العرب: ١٣١/٢.

(٣٣) السيوطي، تدريب الراوي: ٤٠/١.

(٣٤) الكنزاوي: التعليم في البصرة في العصر الإسلامي: ١٣٤ ـ ١٣٥.

(٣٥) سورة الحشر/آية ٧.

(٣٦) الحلي، : الجامع للشرائع: ٥ ـ ٧.

(٣٧) النجاشي، فهرست أسماء المصنفين من الشيعة: ١٩٤. محسن الأمين، مستدركات أعيان الشيعة: ١٥/٨، الجلالي، تدوين السنة الشريف: ٢٢٧ ـ ٢٢٨؛ الأنصاري: الموسوعة الفقهية المسيرة: ٤٠/١ ـ ٤١.

(٣٨) الكليني: الكافي: ٥ ـ ٤؛ النجاشي، رجال النجاشي: ٢٥٥؛ التبريزي، مرآة الكتب: ٤٢ ـ ٤٤؛ الخوئي، الاجتهاد والتقليد: ٥.

(٣٩) النجاشي، رجال النجاشي: ٦.

(٤٠) الطبسي، رجال الشيعة في أسانيد السنة: ١٣ ـ ١٤.

(٤١) ابن البراج: جواهر الفقه: ١٠.

(٤٢) الحلي، إيضاح الاشتباه: ٧٩؛ التفرشي، نقد الرجال: ١٧٤/٣؛ الطوسي، الفهرست: ١٧٤؛ ابن شعبة الحراني، تحف العقول: ١٧٦ ـ ١٧٧.

(٤٣) الجلالي، تدوين السنّة الشريفة: ٢٢٦.

(٤٤) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٩/١؛ أصل الشيعة وأصولها: ١٥٣.

(٤٥) الخزاز القمي (ت ٤٠٠هـ/): كفاية الأثر: ٣١٦؛ ابن الأثير، أسد الغابة: ٢٨٩/٢؛ الحر العاملي: وسائل الشيعة: ٤٤٠/١٩؛ الخوئي، معجم رجال الحديث: ١٨٢/٢٢.

(٤٦) البحراني: مدينة المعاجز، قم – ط١، ١٩٨٣: ١٧٥/٢؛ المدرسي: التشيع في رأي التسنن: ٣٤٧

(٤٧) ابن طاووس: إقبال الأعمال: ١٩٧/٣؛ الذهبي، تاريخ الإسلام: ٥٥١/٥؛ الاحسائي: عوالي اللئالي: ١٠٠/١.

(٤٨) البروجردي، جامع أحاديث الشيعة: ١/٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٤٩) ابن حبان، الثقات: ٣/١٥٨؛ ابن الجوزي، صفة الصفوة: ٦/٤٨٦؛ السيوطي، إسعاف المبطأ: ٢٣؛ الخوئي، معجم رجال الحديث: ٤/٣٢٧.

(٥٠) ابن قتيبة، المعارف: ١٣٣؛ محمد ابو زهو: الحديث والمحدثون: ٤٧.

(٥١) ابن سعد، الطبقات: ٣/٥٧٤؛ البخاري، التاريخ الكبير ٢/٢٠٧؛ ابن الأثير، أسد الغابة: ١/٣٥٦؛ ابن عبد البر، الاستيعاب: ١/٢١٨؛ الذهبي، العبر في خبر من غبر: ١/٨٩؛ اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقضان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان: ١/١٥٨؛ ابن العماد، شذرات الذهب: ١/٩٤

(٥٢) الخطيب البغدادي، الكفاية في علم الرواية: ٤٤١ ـ ٤٤٢؛ النمازي الشاهرودي، مستدرك سفينة البحار: ٧/٩٥.

(٥٣) الرازي، الجرح والتعديل: ٥/٢١؛ الباجي، التجريح والتعديل: ٢/٨٩١ ـ ٨٩٢؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب: ٥/١٤٩ ـ ١٥٠.

(٥٤) الخطيب البغدادي، الكفاية في علم الرواية: ٤٤٢.

(٥٥) ينظر: ابن ماجه، سنن بن ماجة: ١/١٥٦؛ الطبري، جامع البيان: ٦/٨٣؛ ابن كثير، تفسير بن كثير: ٣/٤٤؛ ابن الأثير، أسد الغابة: ٣/١٩٣.

(٥٦) ينظر: الخطيب التبريزي، الإكمال في أسماء الرجال: ١٩٤؛ الرازي، الجرح والتعديل: ٣/٦٢٢؛ الباجي، التجريح والتعديل: ٣/٦٣٢.

(٥٧) الذهبي، سير أعلام النبلاء: ٤/١٦٧؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب: ٣/٢٧٨.

(٥٨) ابن حبان، الثقات: ٤/٢٦٩؛ البيهقي، معرفة السنن والآثار: ١/٣٤٢.

(٥٩) الطبراني، المعجم الكبير: ٨/٥٩ ـ ٦٠؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء: ٤/١٦٧؛ ابن عبد البر، التمهيد: ١١/١٥٤.

(٦٠) ابن سعد، الطبقات: ٦/٨٦؛ الرازي، الجرح والتعديل: ٦/٤٠٤، الذهبي، تذكرة الحفاظ: ١/٤٨ ـ ٤٩.

(٦١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ١٢/٢٩٣ ـ ٢٩٤.

(٦٢) ابن حبان، الثقات: ٥/٢٠٨؛ الطبراني، المعجم الكبير: ١٠/٧٧؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب: ٧/٢٧٦، الأنصاري، محمد حياة: معجم الرجال والحديث: ١/١٥٣.

(٦٣) ابن حبان، مشاهير علماء الأمصار: ١٤٢.

(٦٤) البخاري، صحيح البخاري: ٤٣٧.

(٦٥) ينظر: ابن حبان، كتاب المجروحين: ١/٢٢٢؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٨/٤٢ ـ ٤٣؛ الخطيب التبريزي، الإكمال في أسماء الرجال: ١٧٩؛ الذهبي، الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة: ١/٣٠٣: ١/٤٣٥؛ الخوئي، معجم رجال الحديث: ٥/١٧٢ ـ ١٧٣.

(٦٦) الصدوق، علل الشرائع: ١/١٨٣.

(❖) لما قبض رسول الله (ص) وتقلد أبو بكر قدم المدينة جماعة من النصارى يقدمهم جاثليق (رجل دين كبير) له معرفة بالكلام والتوراة والإنجيل وما فيهما، فقصد ابو بكر، فقال الجاثليق: إنّا وجدنا في الانجيل رسولاً يخرج من بعد عيسى، وقد بلغنا خروج محمد يذكر انه ذلك الرسول، ففزعنا إلى ملكنا، فجمع وجوه قومنا، وأنفذنا في التماس الحق فيما اتصل بنا وقد فاتنا نبيكم محمد، وفيما قرأنا إن الأنبياء لا يخرجون من الدنيا حتى يقيموا أوصيائهم يخلفونهم في أممهم، ويقتبس منهم الضياء فيما أشكل أفأنت أيها الأمير وصيّه فأسلك عما احتاج إليه؟ فقال عمر: هذا خليفة رسول الله (ص)!

فجثا الجاثليق على ركبتيه، وقال: اخبرنا أيها الأمير عن فضلكم علينا في الدين فأنا جئنا نسأل عن ذلك؟ فقال أبو بكر: نحن مؤمنون وانتم كافرون والموحد خير من الكافر، فقال الجاثليق: هذه دعوى تحتاج إلى حجة، فخبرّني أنت مؤمن عند الله أم عند نفسك؟ فقال أبو بكر: أنا مؤمن عند نفسي ولا علم لي بما عند الله. قال الجاثليق: فما اراك الا شاكاً في نفسك ولست على يقين من دينك، فخبرني ألك عند الله منزلة في الجنة تعرفها؟ قال ابو بكر: أجل أرجو ذلك. فقال الجاثليق: أراك راجياً خائفاً على نفسك فما فضلك عليّ في العلم، ثم قال: هل احتويت علم الرسول المبعوث جميعه: قال أبو بكر: لا ولكن اعرف منه ما قضي إليّ علمه! قال: كيف صرت خليفةً وأنت لا تحيط علم ما تحتاج أمته إليه، وكيف قدمك قومك على هذا فقال عمر: كف أيها النصراني وإلا أبحنا دمك. فقال الجاثليق: ما هذا عدل على من جاء مسترشداً طالباً. (ينظر: ابن جبر: نهج الإيمان: ٣٦١ ـ ٣٦٢؛ الحاكم النيسابوري، المستدرك: ٥٩٨/٣؛ بحر العلوم، الفوائد الرجالية: ٢٠/٣ ـ ٢١.

(٦٧) الخطيب التبريزي، الإكمال: ٩٦ ـ ٩٧؛ الحر العالمي، وسائل الشيعة: ٨/١.

(٦٨) الخزرجي، خلاصة تهذيب الكمال: ٤٤٩.

(٦٩) الطوسي، الفهرست: ٤٦؛ المازنداري، معالم العلماء: ٣٣.

(٧٠) ابن ماجة، سنن ابن ماجة: ١٤٠/٢؛ أبو داوود: سنن أبي داوود: ١٦٥/١؛ البخاري، صحيح البخاري: ١٠٢/١؛ الترمذي، سنن الترمذي: ٣/١ ـ ٥؛ ابن حنبل، مسند بن حنبل: ١٥٥/٥.

(٧١) ينظر: الاميني، الغدير: ٣١١/٨ ـ ٣١٢.

(٧٢) حسن الصدر، الشيعة وفنون الإسلام: ٣١.

(٧٣) محسن الأمين، أعيان الشيعة: ٣٢٦/١٦ ـ ٣٢٨.

(٧٤) الكوراني، جواهر التاريخ: ١٩٠/٢ ـ ١٩١.

(٧٥) المزي، تهذيب الكمال: ٣٠٨/٣؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب: ٣١٦/١.

(٧٦) الذهبي، سير أعلام النبلاء: ١٧٥/٣.

(٧٧) ابن حيان، الثقات: ١١٠/٤.

(٧٨) ابن النديم، الفهرست: ١٠٥؛ ابن الأثير، أسد الغابة: ١٤١/٤؛ الكامل في التاريخ: ٢٥١/٣.

(٧٩) ابن سعد، الطبقات: ١٦١/٦ ـ ١٦٣؛ الخوئي، معجم رجال الحديث: ١٥٤/٤؛ محمد حياة الأنصاري، معجم الرجال والحديث: ٣٥/١.

(٨٠) ابن سعد، الطبقات: ١٦١/٦ ـ ١٦٣؛ الخوئي، معجم رجال الحديث: ١٥٤/٤؛ محمد حياة الأنصاري، معجم الرجال والحديث: ٣٥/١.

(٨١) ابن الأثير، أسد الغابة: ٤٣١/١.

(٨٢) المقدسي: الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار، نسب الصحابة من الأنصار: ١٢٣ ـ ١٢٤؛ ابن حجر، الإصابة: ٢٣١/٣.

(٨٣) خليفة بن خياط، طبقات خليفة: ٢٣٥؛ البخاري، تاريخ البخاري: ١٤١/٧؛ ابن حيان، الثقات: ٣٣٩/٣؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٥٩/٦؛ ابن العماد، شذرات الذهب: ٥٢/١، معجم رجال الحديث: ٩٣/١٤.

(٨٤) الأصفهاني: ذكر أخبار أصفهان: ٣٤٣/٢.

(٨٥) ابن سعد، الطبقات: ٦٤/٦؛ الخطيب التبريزي، الكامل في أسماء الرجال: ١١٩؛ ابن عدي، الكامل: ٨٧/٥؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق: ١٢٧/٢٦ – ١٢٨؛ ابن حجر، الإصابة: ١١٣/٤؛ ابن العماد، شذرات الذهب: ٤٠٣/١؛ ابن عبد البر، الاستيعاب: ١١٥/٤. ❖

أثر نهج البلاغة في التفسير

د. نجم الفحام

المبحث الأوّل

الحاجة إلى التفسير بين مدرسة أهل البيت ومدرسة الصحابة

هناك اتجاه في الأمة يرى عدم إمكانية تفسير القرآن الكريم، لان النص القرآني أكثر آياته هو المتشابهات، وبالتالي الوقوع في الزيغ والفتنة عند التعاطي مع النص القرآني تفسيراً وتحليلاً.

وعليه فان فهم القرآن أمر يستحيل الوصول إليه من قبل الأمة إلاّ من خلال النبي والأئمة ـ صلوات الله عليهم ـ لأنهم الراسخون في العلم والذين يعلمون تأويل القرآن الكريم مستندين في ذلك إلى بعض آيات القرآن الكريم والأحاديث المروية عن النبي وأهل بيته ـ صلوات الله عليهم أجمعين.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[1].

والآية الكريمة وإن لم تحدد هذه المتشابهات التي يستند إليها أصحاب هذا الرأي إلا أنهمّ قد يجدوه في كثير من الروايات التي تذهب إلى أن المتشابهات هو الحروف المقطعة النازلة في أوائل السور مثل: كهيعص، وحم، وآلم... أو العكس أن هذه الحروف هي المحكمات والمتشابهات غيرها وبالتالي فإن المتشابه في القرآن يستغرق معظم آياته، والمتشابه كذلك هو المجمل، والآيات المنسوخة التي نؤمن بها ولا نعمل بها وهو المروي عن ابن عباس وابن مسعود وبعض الصحابة، ومنه كذلك ما يحتاج في معرفته إلى تأمل وتدبّر، والمتشابه عندهم مالا سبيل إلى العلم به كوقت الساعة ونحوه، والمتشابهات ماعدا آيات الأحكام؛ ونحن نعلم أنّ آيات الأحكام لا تتجاوز الخمسمائة آية[2] إن لم تكن أقل ـ ومن المتشابه لديهم ما احتمل من التأويل أوجهاً كثيرة، ومنه ما تشابهت ألفاظهُ من قصص الأنبياء مع أممهم بالتكرار في سور متعددة، ومنه آيات الصفات خاصة أعم من صفات الله سبحانه كالعليم والقدير والحكيم والخبير، وصفات أنبيائه كقوله تعالى في عيسى بن مريم (عليهما

---

(١) آل عمران: ٧.

(٢) ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ٤/ ٣٥.

السلام): ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ﴾[١]، والمتشابه مالا سبيل للعقل إليه، ومنه ما اختلف في تأويله[٢]، ومنه ما أريد به خلاف ظاهره...[٣].

ولكي لا نقع في الزيغ - على وفق هذه الرؤية - علينا الوقوف عند ما قاله الراسخون في العلم لأنهم هم الذين يعلمون تأويله، فقد ورد عن أبي عبد الله (ع) قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾، أنه قال: (فرسول الله (ص) أفضل الراسخين، قد علمه الله عزّ وجل جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل، وما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلمه تأويله، وأوصياؤهُ من بعده يعلمونه كلّهُ... والقرآن خاص وعام، ومحكم ومتشابه، وناسخ ومنسوخ، فالراسخون في العلم يعلمونه)[٤].

مستندهم في ذلك أنّ أهل البيت عليهم السلام عدل الكتاب[٥]. وعدل الشيء لابد ان يكون مساوياً له وهذا الأمر باق لهم في كل عصر ومصر وإنهما لن يفترقا حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها. بل إن عندهم - عليهم السلام - علم التوراة والإنجيل والزبور، وبيان ما في الألواح. وإنهم هم الذين يعلمون ظاهر القرآن وباطنه وليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن الكريم. وان للقرآن قيِّمٌ لابدّ من الرجوع اليه. وهم خزّان وحي الله وتراجمة وحيه. وقد آتاهم الله علم التفسير من أوله إلى آخره.

عن منصور بن حازم قال قلت لأبي عبد الله (ع): (... إن من عرف أن له ربّاً، فينبغي له أن يعرف أنَّ لذلك الربِّ رضاً وسخطاً، وانه لا يعرف رضاه وسخطه إلاّ بوحيٍ أو رسولٍ، فمن لم يأتهِ الوحي فقد ينبغي له ان يطلب الرسل، فإذا لقيهم عرف أنهم الحجة وان لهم الطاعة المفترضة. وقُلتُ للناس: تعلمون أن رسول الله (ص) كان هو الحجة من الله على خلقه؟ قالوا: بلى. قلتُ: فحين مضى رسول الله (ص) من كان الحجة على خلقه؟ فقالوا: القرآن. فنظرت في القرآن فإذا هو يخاصم به المرجئ والقدريُّ والزنديق الذي لا يؤمن به حتى يغلب الرجال بخصومته، فعرفت أنّ القرآن لا يكون حجة إلاّ بقيم، فما قال فيه من شيء كان حقاً، فقلتُ لهم: من قيم القرآن؟ قالوا: ابن مسعود قد كان يعلم، وعمر يعلم وحذيفة يعلمُ، قلتُ: كلّهُ؟ قالوا: لا، فلم أجد أحداً يقالُ: إنه يعرف ذلك كلّهُ إلاّ علياً (ع). وإذا كان الشيء بين القوم فقال هذا: لا أدري، وقال هذا: لا أدري، وقال هذا: أنا أدري، فأشهد أن علياً (ع) كان

---

(١) النساء: ١٧١.

(٢) المراد به المعنى المرادف للتفسير.

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٦٨/٢ وما بعدها.

(٤) الكافي. ثقة الاسلام: الشيخ محمد بن يعقوب الكليني، ط ١، منشورات الفجر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٧م - ١٤٢٨هـ. ج ١ ص ١٢٧.

(٥) وهذا ما جاء في حديث الثقلين من معنى عدم الافتراق والحجية: (فالحجية لهما معاً فللقرآن الدلالة على معانيه والكشف عن المعارف الإلهية، ولأهل البيت الدلالة على الطريق وهداية الناس الى أغراضه ومقاصده). الميزان: ٧٦/٣.

قيمُ القرآن، وكانت طاعته مفترضةً وكان الحجة على الناس بعد رسول الله (ص) وان ما قال في القرآن فهو حقٌّ. فقال: رحمك الله)[١].

وعن أمير المؤمنين (ع) قال: (إن الله تبارك وتعالى طهرنا وعصمنا وجعلنا شهداء على خلقه، وحجته في أرضه وجعلنا مع القرآن وجعل القرآن معنا، لا نفارقه ولا يفارقنا)[٢].

ـ قال الباقر (ع): (نحن خُزَّانُ علم الله ونحن تراجمة وحي الله، ونحنُ الحجّة البالغة على من دون السماء وفوق الأرض)[٣].

ومعنى هذا ان عندهم تفسير القرآن وأحكامه، وإنهم لا يسألون عن شيءٍ فيقولون لا ندري لأنهم الحجة على عباده وعندهم ظاهر القرآن وباطنه لأنهم هم الأوصياء بعد رسول الله (ص).

وفي حديث بُرَيْهٍ، قال ابو عبد الله (ع): (... إن الله لا يجعل حجة في أرضه يسأل عن شيءٍ فيقول لا أدري)[٤].

وروي عن أبي جعفر الباقر (ع) أنه قال: (إنَّ من علم ما أوتينا تفسير القرآن واحكامه، وعلم تغيير الزمان وحدثانهِ...)[٥].

ـ قال الصادق (ع): (والله إني لأعلم كتاب الله من أوّله إلى آخره كأنه في كفّي، فيه خبر ما كان، وخبر ما هو كائن، قال الله عزّ وجل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[٦].

ـ وقال أبو جعفر الباقر: (ما يستطيع أحدٌ أن يدعي أنَّ عنده جميع القرآن كله ظاهره وباطنه غير الأوصياء)[٧].

وكذلك يستدلون بما روي عن الإمام أمير المؤمنين (ع): (سلوني عمّا شئتم فلا تسألوني عن شيءٍ الاّ أنبأتكم به)[٨].

وقد سأل رجل من أهل الكوفة أبا جعفر (ع) عن قول أمير المؤمنين هذا فأجابه الإمام قائلاً: (إنهُ ليس أحدٌ عنده علمُ شيءٍ إلاّ خرج من عند أمير المؤمنين (ع)، فليذهب الناس حيث شاؤوا، فو الله ليس الأمر إلاّ من هاهنا، وأشار بيده إلى بيته)[٩].

---

(١) الكافي: ١/٩٧ ـ ٩٨.
(٢) المصدر نفسه: ١/١١٢.
(٣) المصدر نفسه: ١/١١٣.
(٤) الكافي: ١/١٣٥.
(٥) المصدر نفسه: ١/١٣٦.
(٦) النحل: ٨٩.
(٧) المصدر نفسه: ١/١٣٦.
(٨) المصدر نفسه: ١/٢٥٠ ـ ٢٥١.
(٩) المصدر نفسه: ١/٢٥١.

وهذا الاتجاه يرى أنَّ للقرآن أهلاً آتاهم الله علمه فلا يرغب عنهم ولا عن مسألتهم إلى سواهم. لانّ عدم مسألتهم يوقع في الهوى والانحراف عن جادة الحق والوقوع في التفسير بالرأي المهني عنه، وليس لأحدٍ أنْ يأخذ بهواه ولا رأيه ولا مقاييسه.

- عن إسماعيل بن مخلدٍ السرَّاج إن الإمام الصادق (ع) كتب إلى أصحابه رسالة قال فيها: (... قد أنزل الله القرآن وجعل فيه تبيان كلِّ شيءٍ، وجعل للقرآن ولتعلُّم القرآن أهلاً، لا يسع أهل علم القرآن الذين آتاهم الله علمهُ، أن يأخذوا فيه بهوىً ولا رأي ولا مقاييس، أغناهم الله عن ذلك بما آتاهم من علمه، وخصَّهم به، ووضعه عندهم كرامةً من الله أكرمهم بها، وهم أهل الذكر الذين أمر الله هذه الأمة بسؤالهم[١]، وهم الذين من سألهم - وقد سبق في علم الله أن يصدِّقهم ويتَّبع أثرهم - أرشدُوْهُ وأعطوهُ من علم القرآن ما يهتدي به إلى الله بإذنه، والى جميع سُبل الحق...)[٢].

- قال أبو عبد الله (ع): (إنما الوقوف علينا في الحلال والحرام...)[٣].

لاشك ان التفسير بالرأي منهيٌّ عنه. فقد جاء في الحديث النبوي الشريف: (من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار)[٤].

والذي يبدو للباحث أن أصحاب هذا الاتجاه إنما ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه لكثرة ما ورد من النهي عن التفسير بالرأي وما شاب عملية التفسير من الوضع والدس والإسرائيليات والكذب على رسول الله (ص) والتحذير من ذلك منذ بواكير الدعوة الإسلامية، فقد جاء شيءٌ من هذا التحذير على لسان صاحب الرسالة (ص) نفسه. فقد كذب عليه (ص) على عهده حتى قام خطيباً فقال: (يا أيها الناس قد كثُرت عليَّ الكذَّابةُ، فمن كذب عليَّ متعمداً فلَيتبوَّأْ مقعده من النار)[٥].

ثمَّ كُذِب عليه (ص) من بعده كما يقول الإمام أمير المؤمنين (ع): (... وانما أتاكم الحديث من اربعةٍ ليس لهم خامس: رجلٌ منافقٌ يظهر الإيمان، متصنّعٌ بالإسلام لا يتأثَّم ولا يتحرج انْ يكذب على رسول الله (ص) متعمداً...)[٦].

وكان (ص) يقول: (أيها الناس: ما جاءكم عني يوافق كتاب الله فانا قلته، وما جاءكم يخالف كتاب الله فلم أقله)[٧].

---

(١) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

(٢) الكافي: ٦/٨ - ٧.

(٣) المصدر نفسه: ١٦٠/١.

(٤) سنن الترمذي، سليمان بن الاشعب السجستاني، مطبعة البابي، القاهرة، ١٩٢٧، ج٢ ص١٥٧ ؛ وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، محمد بن الحسن الحر العاملي، ط٣، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، ج٢٧ ص١٨٩

(٥) الكافي: ٣٧/١.

(٦) المصدر نفسه: ٣٧/١.

(٧) المصدر نفسه: ٤١/١.

عن النبي (ص): (من فسَّر القرآن برأيه فقد افترى على الله الكذب)[١]. وعن الإمام أمير المؤمنين (ع): (قال الله جلَّ جلاله: ما آمن بي من فسر برأيه كلامي)[٢]. وعن الإمام الباقر (ع): (وليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن)[٣]. وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع): (ليس شيء أبعد من عقول الرجال من القرآن)[٤].

يقول الشيخ الطوسي: (واعلم أنّ الرواية ظاهرة في أخبار أصحابنا بأن تفسير القرآن لا يجوز إلاّ بالأثر الصحيح عن النبي (ص) وعن الأئمة عليهم السلام الذين قولهم حجّة كقول النبي (ص) وان القول فيه بالرأي لا يجوز. وروى العامة ذلك عن النبي (ص) أنه قال: (من فسر القرآن برأيه وأصاب الحق فقد أخطا) وكره جماعة من التابعين وفقهاء المدينة القول في القرآن بالرأي: كسعيد بن المسيب وعبيدة السلماني، ونافع، ومحمد بن القاسم، وسلم بن عبد الله، وغيرهم. وروي عن عائشة أنها قالت: لم يكن النبي (ص) يفسّر القرآن إلاّ بعد أنْ يأتي به جبرائيل (ع)[٥].

عن الصادق (ع): (من فسّر القرآن برأيه، إنْ أصاب لم يؤجر، وإنْ أخطأ خرَّ أبعد من السماء)[٦]. (من حكم برأيه بين إثنين فقد كفر، ومنْ فسّر أيةً من كتاب الله فقد كفر)[٧].

وفي الحديث: (من قال في القرآن بغير ما علم، جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار)[٨] وقال (ص): (أكثر ما أخاف على أمتي من بعدي رجل يتأوّل القرآن يضعه على غير مواضعه)[٩].

قال ابن تيمية: (فمن قال بالقرآن برأيه فقد تكلف ما لا علم له به، وسلك غير ما أمر به. فلو أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ لأنه لم يأت الأمر من بابه! كمن حكم بين الناس على جهلٍ فهو في النار وانْ وافق حكمه الصواب في نفس الأمر، لكن يكون أخفّ جرماً ممن أخطأ...)[١٠]. والتفسير بمجرد الرأي عنده حرام[١١].

وقد خلط الذهبي بين التفسير بالرأي والاجتهاد الأصولي؛ لانّ التفسير بالرأي، هو التفسير بمجرد الاستحسان، والترجيح بحسب الظن والميل النفسي الموافق للهوى بغير علم وبلا دليل ولمجرد أنّ نفسي تهوى أنْ تحمِّل الآية هذا المعنى أو ذاك. بينما الاجتهاد يعني

---

(١) وسائل الشيعة: ٢٧/١٩٠.

(٢) المصدر نفسه: ٢٧/١٨٦.

(٣) المصدر نفسه: ٢٧/١٩٢.

(٤) المصدر نفسه: ٢٧/٢٠٣.

(٥) تفسير التبيان: ١/٤ ؛ بحار الانوار: ٨٩/٧٨.

(٦) وسائل الشيعة: ٢٧/٢٠٢.

(٧) المصدر نفسه: ٢٧/٢٠٣.

(٨) بحار الانوار: ٨٩/٧٨.

(٩) المصدر نفسه: ٨٩/٧٨.

(١٠) التفسير الكامل، مقدمة في اصول التفسير، ابن تيمية، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٣ـ٢٠٠٢م، ج١ ص٢٤.

(١١) ينظر: المصدر نفسه: ١/٢٤.

الاستنباط القائم على أساس من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. إذ: (التفسير بالرأي غير الاستظهار من الآيات المباركة بالقرائن)[١].

ولعلّ هذا الخلط هو الذي أوقعه فيما ذهب إليه من أنّ التفسير بالرأي قسمان: قسم جائزممدوح، وآخر مذموم غير جائز. مما دفعه إلى الإسهاب في ذكر الأدلة على ما يذهب إليه من معنى عند ذكره لموقف العلماء من التفسير بالرأي.

يقول الذهبي: (اختلف العلماء... في جواز تفسير القرآن بالرأي، ووقف المفسرون بإزاء هذا الموضوع موقفين متعارضين: فقوم تشدّدوا في ذلك فلم يجرءوا على تفسير شيءٍ من القرآن ولم يُبيحوه لغيرهم، وقالوا: لا يجوز لأحدٍ تفسير شيءٍ من القرآن، وإنْ كان عالماً أديباً متّسعاً في معرفة الأدلة، والفقه، والنحو،والأخبار والآثار، وإنما له أنْ ينتهي إلى ما روي عن النبي (ص)، وعن الذين شهدوا التنزيل من الصحابة رضي الله عنهم، أو عن الذين أخذوا عنهم من التابعين. وقوم كان موقفهم على العكس من ذلك، فلم يروا بأساً من أنْ يفسروا القرآن باجتهادهم ورأوا انَّ من كان ذا أدبٍ وسيع فموسع له أنْ يفسر القرآن برأيه واجتهاده. والفريقان على طرفي نقيض فيما يبدو، وكلٌ يعزّز رأيه ويقوّيه بالأدلّة والبراهين)[٢].

وعليه فان المسلمين السنة كإخوانهم الشيعة لم يخلُ واقعهم أيضاً من هذا الاتجاه الذي يرى عدم إمكانية تفسير القرآن الكريم من قبل الأمة إلاّ من خلال ما أُثر عن النبي (ص) من طريق الصحابة رضوان الله تعالى عليهم وتابعيهم بإحسان.

المبحث الثاني

عليّ (ع) يربّي الأمّة على الاتجاه إلى القرآن

لاشكّ أنَّ كثيراً من الناس لا يستطيع أنْ يستوعب معاني كثيرٍ من الآيات، ولعل بعض هؤلاء، ممن كانوا معاصرين لنزول الوحي[٣]. فكيف بمن جاء بعدهم مع تعدد دلالات النص القرآني وما حفل به من المتشابه، والمشكل، والمطلق، والجمل، والعام...

---

(١) مواهب الرحمن، عبد الأعلى السبزواري، ط١، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م، ج١ ص٦.

(٢) التفسير والمفسرون: ١/٢٥٦ - ٢٥٧.

(٣) فقد قال ابو بكر: أي ارض تقلّني، وأي سماء تظلني، إذا قلت في القرآن مالا أعلم. وفي رواية أخرى: إذا قلت في القرآن برأيي: أو بما لا أعلم. وذلك عندما سئل عن قوله تعالى: ﴿وفاكهة وابا﴾. و قال عمر: قال الله: ﴿ وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً: وحدائق غُلباً وفاكهة وابا﴾ كل هذا قد علمناه، فما الأب ؟ ثمّ ضرب بيد ه. ثمّ قال: لعمرك إنّ هذا لهو التكلّف، واتبعوا مايتبيّن: لكم في هذا الكتاب... وما يتبيّن فعليكم به. ومالا فدعوه. جامع البيان: ج١ ص٥٢، ج١٥ ص٦٧.

ومثله في الدر المنثور للسيوطي سئل ابو بكر عن قوله أبا فقال: أي سماء تظلني وأي ارض تقلني إذا قلت في كتاب الله مالا أعلم: وقرأ عمر على المنبر ﴿فأنبتنا فيها... إلى قوله ﴿وابا﴾ قال: كل هذا قد عرفناه فما الأب؟ ثم رفع عصاً كانت بيد ه، فقال: هذا لعمر الله هو التكلّف فما عليك أنْ لاتدري ماالابّ اتبعوا مابيّن لكم هداه من الكتاب فاعملوا به ومالم تعرفوه فكلوه الى ربه. الدر المنثور: ج٨ ص٤٢١ - ٤٢٢.

وإذا كان النص القرآني خطاباً للناس كافة[١] في كل زمان ومكان على مرّ العصور وكرّ الدهور وتعدّد الأجيال حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، فستكون الحاجة للتفسير أكثر كلما ابتعدنا عن عصر نزول الوحي وملابساته والظروف المحيطة بنزول الآيات وقرائن الأحوال وعدم الإحاطة بالمعاني اللغوية المتداولة وقت نزول الوحي.

فنحن اليوم نحتاج إلى ما يحتاج إليه من عاصر نزول الوحي وزيادة، وهذه الزيادة يحتمها علينا النص القرآني الذي يتميز بالجدة في كل زمان فقد جاء في الحديث الشريف: (إنّ الله تبارك وتعالى لم يجعل القرآن لزمانٍ دون زمان، ولناسٍ دون ناسٍ، فهو في كل زمانٍ جديد)[٢].

فالقرآن الكريم جاء ليستفيد منه الناس كل الناس، لأنه كما قال تعالى: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[٣]. وهو تبيان لكل شيء، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[٤]. وهو الكتاب المبين الذي نزل بلسانٍ عربيٍ مبين. قال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾[٥]، ﴿ الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾[٦]، ﴿ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾[٧].

ومؤدّى هذه الآيات الكريمات أنّ فهم القرآن الكريم ليس بمقصورٍ على جماعةٍ أو صنفٍ من الناس، على المفسرين من العلماء والفقهاء بحسب، وإنما جاء القرآن الكريم ليستفيد منه الجميع كما ألمح إلى ذلك الحديث الشريف الآنف الذكر، لانّ القرآن الكريم نزل بلسان عربيٍ أي باللغة العربية، والذين نزل بين ظهرانيهم هم عربٌ أقحاح، وكانوا أرباب الفصاحة وحذّاق البلاغة، فهم والحال هذه يمكنهم التعاطي مع القرآن والرجوع إليه مباشرةً.

وقد كان لهذه السمة أثرها الواضح في فهم القرآن الكريم في كثير من آياته البيّنات والمحكمات لمن كان على دراية باللغة العربية التي نزل بها النص الكريم ـ النص السماويُ الأرقى ـ وما يحويه من دلالة وبلاغة، والتعاطي معه فهماً وتدبّراً.

فقد (كان البدوي راعي الغنم يسمع القرآن فيخرّ له ساجداً لما عنده من رقة الإحساس ولطف الشعور... أرأيت أهل جزيرة العرب، كيف انظووا إلى الإسلام بجاذبية القرآن لما كان لهم من دقّة الفهم، التي كانت سبب الانجذاب إلى الحق)[٨].

---

(١) قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (سبأ: ٢٨).

(٢) بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ط١، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م، ج٢ ص٢٨٠.

(٣) آل عمران: ١٣٨.

(٤) النحل: ٨٩.

(٥) المائدة: ١٥.

(٦) يوسف: ١.

(٧) النحل: ١٠٣.

(٨) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ط٢، دار الفكر، ج ١ ص ٢٨.

ويمكن أنْ نرى هذا بوضوح في حال البنت الأعرابية التي فطنت لاشتمال الآية الكريمة الآتية على أمرين ونهيين وبشارتين.

يقول الأصمعي: (سمعتُ بنتاً من الأعراب خماسية أو سداسية تنشد:

أستغفر الله لذنبي كلّهِ ... قتلتُ إنساناً بغير حلّهِ

مثلُ غزالٍ ناعمٍ في دَلّهِ ... وانتصف الليلُ ولم أُصلّهِ

فقلتُ لها: قاتلكِ الله ما أفصحكِ، فقالت: ويحكَ أيُعَدُّ هذا فصاحة مع قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[1] فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وبشارتين)[2].

ولكن مع دقّة الفهم هذه هناك الكثير من الدلالات والمعاني في النص القرآني لا يمكن استيعابها من قبل الناس من دون الرجوع إلى أهل الصناعة أو الاختصاص، بل هناك من المعاني ما لا يدركها أهل الاختصاص ولا يعرفها حتى العلماء، ويمكن عدّها وجهاً خامساً لما ذكره ابن عباس من انّ التفسير: (على أربعة أوجه، وجهٌ تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعذر أحدٌ بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلاّ الله)[3].

وهذا الوجه: هو ما لا يعلمه الاّ الراسخون في العلم وهم محمد (ص) وأهل بيته الطاهرون صلوات الله عليهم أجمعين.

- عن أبي عبد الله (ع) قال: (ما جاء به عليٌّ (ع) آخذُ به وما نهى عنه انتهي عنْهُ، جرى له من الفضل مثلُ ما جرى لمحمد (ص)، ولمحمدٍ (ص) الفضل على جميع من خلق الله عزَّ وجلَّ، المتَعَقّبُ عليه في شيءٍ من أحكامه كالمتَعَقّب على الله وعلى رسوله. والرادّ عليه في صغيرةٍ أو كبيرة على حدِّ الشرك بالله، كان أمير المؤمنين (ع) باب الله الذي لا يؤتى إلاّ منه، وسبيله الذي من سلك بغيره هلك، وبذلك جرت الأئمة عليهم السلام واحد بعد واحد...)[4].

ولكن هذا المعنى أو هذا الوجه لا يعني بالضرورة عدم إمكانية تفسير القرآن الكريم كون أكثر آياته هو المتشابهات وبالتالي الوقوع في الزيغ والفتنة.

وعليه فان هذا القول لا يستقيم لأصحاب هذا الرأي وهو لا يستند إلى دليل، بل الآية المباركة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[5] دليل يثبت خلاف ما ذهبوا إليه تماماً

---

(١) القصص: ٧.

(٢) تفسير المنار: ١/٢٨.

(٣) جامع البيان: ١/٥٠.

(٤) الكافي: ١/١١٦.

(٥) آل عمران: ٧.

إذ الآية تدعو إلى تفسير القرآن الكريم وتعطي المفتاح والمنهجية الصحيحة في تناول المتشابه وذلك بالرجوع إلى المحكم، ولم تتطرق الآية المباركة إلى هذه المصاديق التي ذكروها للمتشابهات من بعيد أو قريب. وكذلك أقوال المعصومين عليهم السلام تدعو إلى ذلك.

يقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) في وصفه لكتاب الله تعالى: (... ثمّ أنزل عليه الكتاب نوراً لا تُطفأُ مصابيحه، وسراجاً لا يخبو توقدهُ وبحراً لا يُدْرَكُ قعرهُ، ومنهاجاً لا يُضلُّ نهجهُ، وشعاعاً لا يُظلِمُ ضوْءُهُ، وفُرْقاناً لا يخمدُ بَرْهانُهُ، وتبياناً لا تهْدمُ أركانهُ، وشفاءً لا تخشى أسقامه، وعزا لا تهزم أنصارُهُ، وحقّاً لا تخذل أعوانُهُ، فهو معدن الإيمان وبُحْبُوحَتُهُ، وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدلِ وغدرانه، وأثافيُّ الإسلام وبنيانه، وأوديةُ الحق وغيطانهُ، وبحرٌ لا ينزفه المستنزفون وعيونٌ لا ينضبها الماتحون، ومناهل لا يغيضها الواردون، ومنازل لا يضلُّ نهجها المسافرون، وأعلام لا يعمى عنها السائرون، وآكامٌ لا يجوزُ عنها القاصدون، جعله الله ريًّا لعطش العلماء، وربيعاً لقلوب الفقهاء، ومحاجَّ لطُرقِ الصلحاء، ودواءً ليس بعده داءٌ، ونوراً ليس معه ظلمةٌ، وحبلاً وثيقاً عروتهُ، ومعقلاً منيعاً ذروتُهُ، وعزّاً لمن تولاهُ، وسلماً لمن دخله، وهدىً لمن ائتمَّ به، وعذراً لمن انتحلهُ، وبرهاناً لمن تكلَّم به، وشاهداً لمن خاصم به، وفلجاً لمن حاجَّ به، وحاملاً لمن حمله، ومطيَّةً لمن أعملهُ، وآيةً لمن توسَّمَ، وجُنَّةً لمن استَلأمَ، وعلماً لمن وعى وحديثاً لمن روى وحكماً لمن قضى)[1].

فكلام الإمام أمير المؤمنين (ع) مُوجَّهٌ للناس كل الناس وليس لطبقة خاصّة من العلماء أو الفقهاء، وعلى الأمة أنْ تتولاه لتنال عزّها به وسلامتها وهداها ونجاتها من ضلالتها وضياعها. ولو كان تفسير القرآن منحصراً بأهل بيت النبوة عليهم السلام وليس لأحدٍ غيرهم أنْ يعرفه لما قال أمير المؤمنين (ع) في وصفه ريًّا لعطش العلماء، وربيعاً لقلوب الفقهاء ومحاجَّ لطُرق الصلحاء. وانما خاطب الناس بأنه نور ليس معه ظلمةٌ وهدىً لهم إذا أتمُّوا به، وكيف يمكن لهم ذلك إذا لم يعرفوا القرآن وما فيه من أمرٍ ونهيٍ. وكيف يكون لهم مطيةً وهم لا يعلمون ما فيه ولا يعملون به. وكيف يكون الناس حفظةً للقرآن فيما استحفظهم الله من كتابه واستودعهم من حقوقه، وأنه تبيان لكل شيءٍ وهم لا يعلمون ولايعرفون من خلاله خير أعمالهم أو شرّها، وكيف يمهّد الناس لأنفسهم وأقدامهم من زاد التقوى إذا لم يدركوا ما أحبه الله تعالى من الطاعة وما كرهه من المعصية.

يقول الإمام (ع): (... فالله الله أيها الناس فيما استحفظكم مِنْ كتابه، واستودعكم من حقوقه، فإنَّ الله لم يخلقكم عبثاً ولم يتركم سدى، ولم يدعكم في جهالةٍ ولا عمى، قد سمّى آثاركم، وعلَمَ أعمالكم، وكتب آجالكم، وانزل عليكم الكتاب تبياناً لكل شيءٍ،

---

(١) شرح نهج البلاغة، الجامع لخطب وحكم ورسائل الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. تأليف عزّ الدين أبي حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائني الشهير بابن أبي الحديد المعتزلي، تحقيق: الاستاذ: محمد أبي الفضل ابراهيم، ط ١، الدار اللبنانيَّة للنشر، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م. ، الخطبة: ١٩٨.

وعمَّرَ فيكم نبيّهُ أزماناً، حتى أكمل له ولكم فيما أنزل من كتابه دينه الذي رضيَ لنفسه، وانهى إليكم على لسانه محابَّهُ من الأعمال ومكارهه، ونواهيه وأوامره، وألقى إليكم المعذرة، واتخذ عليكم الحجة، وقدم إليكم بالوعيد، وأنذركم بين يديْ عذابٍ شديد)[١].

بل إن الإمام (ع) يدعو الرجل الذي أتاه يسأله قائلاً: صِفْ لنا ربنا مثل ما نراه عياناً لنزداد له حُبّاً، وبه معرفةً، يدعوه إلى النظر والتأمل بالقرآن ليستضيء بنور كتابه عزّ وجلَّ، إذ يقول: (.... فانظر أيها السائل فما دلّك القرآن عليه من صفته فائتمَّ به، واستضئ بنور هدايته...)[٢].

فالإمام (ع) يدعو إلى التدبر في القرآن الكريم وتعلمه لأنّه أحسن القصص وانفعها، يقول في خطبةٍ له (ع) يذكر فيها فرائض الإسلام: (.... وتعلموا القرآن فانه أحسن الحديث، وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص...)[٣].

والإمام (ع) يريد أنْ يربِّي الأمة على الاتجاه إلى القرآن الكريم واتخاذه مرجعاً للهداية ليعرفوا الرشد من خلاله وذلك بإطاعة أوامره، لانّ إطاعة الله رشدٌ إلى النجاة وانَّ الهدى هداه عزّ وجلّ وهذا الخطاب من الإمام (ع) موجه للناس كل الناس ليس لطبقة أوفئة دون أخرى ولا لمن عاصروا الإمام (ع) دون غيرهم. وهذا المعنى يرد قول القائلين بعدم فهم نصوص الكتاب العزيز من قبل الأمة. بل الإمام (ع) ينعى على الذين تركوا القرآن وراء ظهورهم وأصبحوا هم أئمة الكتاب وليس الكتاب أمامهم، وتمسَّكوا بالمنظر منه دون الجوهر فلم يقيموا محتوى القرآن وانما راحوا يذهّبون غلافه.

يقول الإمام أمير المؤمنين (ع): (... فتجلّى لهم سبحانه في كتابه... وليس... سلعةٌ أبور من الكتاب إذا تلي حقَّ تلاوته، ولا أنفق منهُ إذا حُرِّف عن مواضعه... فاجتمع القومُ على الفرقة، وافترقوا عن الجماعة، كأنهم أئمة الكتاب، وليس الكتاب إمامهم، فلم يبق عندهم منه إلاّ اسمه، ولا يعرفون إلاّ خَطَّهُ وزبْرَهُ...)[٤].

ثمَّ يُبين الإمام علي (ع) أنّ فهم الكتاب له مراتب ودرجات قد يتعذّر على عامة الأمة إدراكها وإنْ كان ظاهر القرآن حجة لانّ باطنه لا يعرفه كل أحدٍ لانّ: (المتصدِّين لفهم معاني القرآن لا يصلون إلى منتهاه، لانه غير متناهي المعاني، بل وفيها دلالة على أنّ معاني القرآن لا تنقص أصلاً، كما لا تنضب العيون الجارية بالسقاية منها)[٥].

وقد أعطى الإمام (ع) النهج والمنهاج في التعامل مع الكتاب العزيز إذ يقول: (... واعلموا أنكم لن تعرفوا الرشد حتى تعرفوا الذي تركهُ، ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي

---

(١) شرح نهج البلاغة، الخطبة: ٨٦.
(٢) المصدر نفسه، الخطبة: ٩٠.
(٣) المصدر نفسه، الخطبة: ١٠٩.
(٤) المصدر نفسه، الخطبة: ١٤٧.
(٥) البيان في تفسير القرآن: ٢٤.

نقضهُ، ولن تمسّكوا به حتى تعرفوا الذي نبذهُ. فالتمسوا ذلك من عند أهله، فإنهم عيش العلم، وموت الجهل، هُمُ الذين يخبركُم حُكْمُهُم عن علمهم، وصمتهم عن منطقهم، وظاهرُهُم عن باطنهم، لا يخالفون الدين ولا يختلفون فيه، فهو بينهم شاهدٌ صادق، وصامتٌ ناطقٌ)[١].

وهذا منتهى الإيضاح والبيان في هذا الباب الذي أشار إليه الإمام أمير المؤمنين (ع)، وذلك: (لأنّ الحق الذي كلّف الخلق اعتقاده له مراتب ودرجات وله مبدأ ظاهر وغور باطن...)[٢].

فالمراتب والدرجات التي يمكن تدبّرها والنظر فيها لابدّ وانْ يكون المكلّف غير معذورٍ في تركها أو ترك البحث فيها والتحليل لمضامينها، لانَّ القرآن الكريم ذمَّ الذين لا يتدبّرون القرآن الكريم إذ يقول: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[٣].

وعليه فالآيات القرآنية: (تدعو الناس عامة من كافر أو مؤمنٍ ممن شاهد عصر النزول أو غاب عنه، إلى تعقّل القرآن وتأمله والتدبّر فيه، وخاصّة قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾، تدل دلالة واضحة على أنّ المعارف القرآنية يمكن أنْ ينالها الباحث بالتدبر والبحث...)[٤].

وعليه فلكل إنسانٍ نصيبه في استمطار معاني النص الكريم كلٌّ بحسبهِ لانّ الناس يتفاوتون فيما بينهم في الفهم والإدراك والقابلية على التعاطي مع النص السماوي الأرقى قال تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾[٥]. وهذا الاختلاف والتفاوت أمرٌ طبيعيٌّ في غريزة الإنسان، يقول الغزالي: (... وكيف ينكر تفاوت الغريزة ولولاه لما اختلف الناس في فهم العلوم، ولما انقسموا إلى بليد لا يفهم بالتفهيم الاّ بعد تعب طويلٍ من المعلم، والى ذكيٍّ يفهم بأدنى رمزٍ وإشارة، والى كاملٍ تنبعث من نفسه حقائق الأمور، بدون التعليم كما قال تعالى: ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾[٦]... وانقسام الناس إلى من يتنبّه من نفسه ويفهم والى من لا يفهم الاّ بتنبيه وتعليم والى من لا ينفعه التعليم أيضاً، ولا التنبيه كانقسام الأرض إلى ما يجتمع فيه الماء فيقوى فيتفجّر بنفسه عيوناً والى ما يحتاج إلى الحفر ليخرج إلى القنوات والى ما لا ينفع فيه الحفر وهو اليابس، وذلك لاختلاف جواهر الأرض في صفاتها، فكذلك اختلاف النفوس في غريزة العقل)[٧].

أمّا المراتب والدرجات والمعارف القرآنية التي لا يمكن أنْ ينالها الباحث بالتدبر والبحث فطريقها ما أشار إليه الإمام أمير المؤمنين (ع) في ردّها إلى سنة النبي وأئمة الهدى.

---

(١) إحياء علوم الدين، ابو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت:٥٠٥ هـ)، ط١، دار المعرفة، بيروت، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م، ج١، ص٣٣٥.

(٢) شرح نهج البلاغة، الخطبة: ١٤٧.

(٣) محمد: ٢٤.

(٤) الميزان: ٥/٢٥٥.

(٥) الرعد: ١٧.

(٦) النور: ٣٥.

(٧) إحياء علوم الدين: ١/١٦٦.

صلوات الله عليهم - تأسّياً بالراسخين في العلم الذين أغناهم ربّهم عن تقحّم ما خفي عليهم، لأنه: (ما قال النبي (ص) من شيء فهو في القرآن، وفيه أصله، قرب أو بَعُدَ، فهمه من فهمه، وعمِه عنه من عَمِه، قال الله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[١]...)[٢].

يقول (ع): (... وما كلّفك الشيطان علمه، مما ليس في الكتاب عليك فرضه، ولا في سنة النبي (ص)، وأئمة الهدى أثرُهُ، فكِل علمه إلى الله سبحانه، فإنّ ذلك منتهى حق الله عليك...)[٣].

وذلك لانّ أئمة الهدى هم عدل القرآن الذين قال فيهم النبي (ص): (إني تارك فيكم ما إنْ تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر وهو كتاب الله حبلٌ ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما). وفي رواية: (إني تارك فيكم خليفتين كتاب الله حبلٌ ممدود مابين السماء والأرض أو مابين السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض)[٤].

يقول الغزالي: (... ومنْ ظنَّ أنَّ عقل النبي (ص) مثل عقل آحاد السوادية وأجلاف البوادي فهو أخسّ في نفسه من آحاد السوادية)[٥].

وعلم عليٍّ (ع) علم رسول الله (ص) فقد روى الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله صاحب حلية الأولياء وطبقات الأصفياء أنَّ رسول الله (ص) قال: (يا علي إنَّ الله أمرني أن أُدنيك وأعلمك لتعي، وأُنزلت هذه الآية وتعيها أذنٌ واعية فأنت أذنٌ واعية لعلمي)[٦].

ولذلك يقول الإمام أمير المؤمنين (ع): (... ذلك القرآن فاستطقوه ولن ينطِق ولكن أُخبركم عنه، ألا إنَّ فيه عِلمَ ما يأتي، والحديث عن الماضي، ودواء دائِكم، ونَظمَ ما بينكم)[٧].

ولكن هذا القول من الإمام (ع) لا يعني أنَّ الأمة لا تستطيع تفسير القرآن في كل مراتبه ودرجاته وإنما المراد أنَّ فهم محتوى القرآن كلّه لا يتيسّر إلاّ لمن خوطب به وهو النبي محمد (ص) ومن جعلهم أحد الخليفتين بعده.

بل إنّ الإمام (ع) لا يرى موعظة للأمة مثل كتابها العزيز الذي آثرها الله عزّ وجلّ به دون الأمم السالفة إذ يقول: (... فإنَّ الله سبحانه لم يعِظْ أحداً بمثل القرآن، فإنه حبل الله

---

(١) الأنعام: ٣٨.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ١٢٩/٢.

(٣) شرح نهج البلاغة، الخطبة: ٩١.

(٤) مسند أحمد، أحمد بن حنبل، وبهامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، طبع ونشر: دار الفكر العربي، ج ٥ ص ١٨٢، جامع الأصول: ١٨٧/١.

(٥) إحياء علوم الدين: ١٦٦/١.

(٦) حلية الأولياء: ٦٧/١.

(٧) شرح نهج البلاغة، الخطبة: ١٥٩.

المتين، وسببه الأمين، وفيه ربيع القلب، وينابيع العلم، وما للقلب جلاءٌ غيرُهُ، مع أنه قد ذهب المتذكّرون، وبقي الناسون أو المتناسون...)[١].

وكيف يأخذ الإنسان العضة والعبرة من القرآن الكريم إذا كان لا يفهم خطابات هذا الكتاب العزيز الذي أنزله الله تعالى هدىً للناس، والإمام إنما يريد شدَّ الأمة إلى القرآن لأنها لا غنى لها عن القرآن إذ هو الناصح الأمين والشافي لها من أدوائها والدليل إلى ربها.

يقول (ع) في خطبةٍ له يحذّر فيها من متابعة الهوى: (... واعلموا انَّ هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغشُّ، والهادي الذي لا يضِلُّ، والمحدِّثُ الذي لا يكذبُ، وما جالس هذا القرآن أحدٌ إلاّ قام عنه بزيادةٍ أو نقصان، زيادةٍ في هدىً، أو نقصانٍ من عمىً. واعلموا أنه ليس على أحدٍ بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنىً، فاستشفوه من أدوائكم، واستعينوا به على لأوائِكم، فإنّ فيه شفاءٌ من أكبر الداء، وهو الكفر والنفاق، والغيُّ والضلال، فاسألوا الله به، وتوجهوا إليه بحبِّه، ولا تسألوا به خلْقه، إنه ما توجّه العبادُ إلى الله تعالى بمثله. واعلموا أنه شافعٌ مشفّع، وقائلٌ مصدقٌ وأنه منْ شفع له القرآن يوم القيامة شفِّع فيه، ومن محل به القرآن يوم القيامة صُدِّق عليه، فإنه ينادي منادٍ يوم القيامة: الا إنَّ كلَّ حارثٍ مبتلىً في حرثِهِ وعاقبة عمله، غير حرثة القرآن. فكونوا من حرثته وأتباعه، واستدلّوه على ربكم، واستنصحوه على أنفسكم، واتهموا عليه آراءكم، واستغشُّوا فيه أهواءكم)[٢].

ثمّ يذكر لنا الإمام (ع) أنموذجاً من هذه الأمة، قرؤوا القرآن وتدبروا ما فيه وفهموا وأدركوا مطالبه وما فيها من معارف سلكت بهم سبيل ربهم اللاحب فأحكموا وأطاعوا واتبعوا.

يقول متأوهاً عليهم: (... أين إخواني الذين ركبوا الطريق، ومضوا على الحق ! أين عمّار! وأين ابن التّيِّهان[٣]! وأين ذو الشهادتين! وأين نُظراؤهم من إخوانهم... أوْهِ على إخواني الذين قرؤوا القرآن فأحكموهُ، وتدبّروا الفرض فأقاموه! أحيوا السنّة، وأماتوا البدعة، دُعُوا للجهاد فأجابوا، ووثقوا بالقائد فاتبعُوهُ)[٤].

وليس هذا بكثيرٍ على عليٍّ (ع) وإخوانه الذين ذكرهم فقد جاء في حلية الأولياء للحافظ أبي نعيم، عن أبي سعيدٍ الخدري قال: (كنّا نمشي مع النبي (ص) فانقطع شسع نعله، فتناولها عليٌّ يصلحها ثمّ مشى فقال: (يا أيها الناس إنَّ فيكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله) قال أبو سعيد فخرجتُ فبشرته بما قال رسول الله (ص) فلم يكترث به فرحاً، كأنه قد سمعهُ)[٥].

---

(١) شرح نهج البلاغة، الخطبة: ١٧٧.

(٢) المصدر نفسه، الخطبة: ١٧٧.

(٣) هو أبو الهيثم بن التّيِّهان، واسمه مالك واسم أبيه مالك أيضاً ابن عبيد بن عمرو بن عبد الأعلم بن عامر الأنصاري أحد النقباء ليلة العقبة.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة: ١٨٣.

(٥) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم احمد بن عبدالله الأصفهاني (ت: ٤٣٠هـ)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م، ج١ ص٦٧.

وجاء أيضاً عن عكرمة عن ابن عباس أنَّ رسول الله (ص) قال: (من سرّه أنْ يحيا حياتي، ويموت مماتي، ويسكن جنة عدن غرسها ربّي؛ فليوال علياً من بعدي وليوالِ وليَّهُ، وليقتدِ بالأئمة من بعدي فإنهم عترتي خلقوا من طينتي، وزقوا فهماً وعلماً. وويلٌ للمكذبين بفضلهم من أمتي، القاطعين منهم صلتي، لا أنالهم الله شفاعتي)[1].

ولعلَّ هذا العلم الذي أشار إليه النبي (ص) هو الذي حدا بالقائلين بعدم إمكانية التفسير إلى القول باختصاص العترة بتفسير القرآن الكريم دون غيرهم وقد رأينا أنّ هذا المعنى لا يستقيم لأصحاب هذا الاتجاه من خلال ما أوردناه من أقوال الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع). أمّا ما أوردوه من أحاديث عن أهل البيت أو الصحابة فيمكن مناقشته بما يأتي: -

إنّ قولهم أنّ رسول الله (ص) أفضل الراسخين وان الله تعالى وتبارك قد علم نبيّه التنزيل والتأويل وأنه (ص) وأوصياؤه من بعده يعلمون هذا التنزيل والتأويل وما في القرآن الكريم من خاصّه وعامّهِ، ومحكمه ومتشابهه، وناسخه ومنسوخه...

فهذا كلّه صحيح ولكن المراد من هذا القول هو علم المعصوم ومعرفته بالتفسير أو غيره فيما يتعلّق بالقرآن الكريم أي المراد علم الكتاب كلّه إذ ليس عند أحدٍ سواهم عليهم السلام علم الكتاب كلّه قطعاً وواقعاً.

فعن سويد الصيرفي قال: (كنت أنا وأبو بصير ويحيى البزّاز وداود بن كثير في مجلس أبي عبد الله... فلما أخذ مجلسهُ قال: يا عجباً لأقوامٍ يزعمون أنّا نعلمُ الغيب، مايعلم الغيب الاّ الله عزّ وجلّ... قال سدير: فلما أنْ قام من مجلسه وصار في منزله دخلتُ أنا وأبو بصير ومُيسَّرٌ وقلنا له: جعلنا فداك... نحن نعلم أنَّك تعلمُ علماً كثيراً ولا ننْسَبُكَ إلى علم الغيب. قال: فقال: يا سدير: ألم تقرأ القرآن؟ قلتُ: بلى، قال: فهل وجْدتَ فيما قرأت من كتاب الله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[2] قال: جُعلتُ فداك قدْ قرأته، قال: فهل عرفت الرجل؟ وهل علمت ما كان عنده من علم الكتاب؟! قال: قلتُ: أخبرني به؟ قال: قدرُ قطرةٍ من الماء في البحر الأخضر فما يكون ذلك من علم الكتاب؟! قال: قلتُ جعلتُ فداك ما أقلَّ هذا، فقال: يا سدير: ما أكثر هذا؛ أنْ ينسبه الله عزَّ وجلَّ إلى العلم الذي أخبرُكَ به. يا سديرُ: فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله عزَّ وجلَّ أيضاً: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[3]. قال قلتُ: قد قرأتُه جعلتُ فداك. قال: أفمن عنده علمُ الكتاب كلُّهُ أفهم أم منْ عنده علمُ الكتاب بعضُهُ؟ قلتُ: لا، بل من علمُ الكتاب كلُّهُ، قال: فأومأ بيده إلى صدره وقال: علمُ الكتاب والله كلُّهُ عندنا عِلمُ الكتاب والله كلُّهُ عندنا)[4].

---

(١) حلية الأولياء: ١/ ٨٦.

(٢) النمل: ٤٠.

(٣) الرعد: ٤٣.

(٤) الكافي: ١/ ١٥٢ ـ ١٥٣.

أمّا قولهم عليهم السلام وليس شيءٌ أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن الكريم وذلك لانَّ القرآن فيه ظاهرٌ يمكن أنْ يناله عامّة الناس ممن لهم أدنى معرفة في اللغة التي نزل فيها القرآن الكريم والذي خاطبهم بها على وفق فن القول لديهم، وفيه باطن عميقٌ أو بطن عميق إلى سبعة أبطن، ففي الحديث: (إن للقرآن ظهراً وبطناً ولبطنه بطناً إلى سبعة أبطن)[١].

فهذه الأبطن العميقة وهذه المعارف العالية بكل ما تحتويه من مراتب ودلالات لا يمكن أنْ يصلها كل من هبَّ ودبَّ، فالقرآن بكل ما فيه ﴿ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾[٢]. وهذا هو معنى قول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع): (إنّ الله تبارك وتعالى طهرنا وعصمنا وجعلنا شهداء على خلقه، وحجته في أرضه وجعلنا مع القرآن وجعل القرآن معنا، لا نفارقه ولا يفارقنا)[٣].

فغيرهم عليهم السلام لا يمكن أنْ يعرف كل تنزيل القرآن وتأويله بجميع مراتبه؛ لانّ هذا العلم مخصوص برسول (ص) وبالعترة الطاهرة عليهم السلام لانَّ علمهم من علم رسول الله (ص) وقد أطلعه ربه عزَّ وجلّ على ما يشاء من العلم الذي يقضيه ويمضيه مما غاب عن غيرهم.

فعن سدير الصيرفي قال: (سمعتُ حُمْران بن أعين يسأل أبا جعفر... أرأيت قوله جلَّ ذكره: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾[٤] فقال ابو جعفر (ع): ﴿ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾[٥]. وكان والله محمد ممن ارتضاه، وأمّا قوله ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ ﴾ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ عالمٌ بما غاب عن خلقه فيما يقْدر من شيءٍ، ويقضِيه في علمه قبل أنْ يخلقه، وقبل أنْ يقضِيه إلى الملائكة، فذلك يا حُمْران، علمٌ موقوفٌ عنده، إليه فيه المشيئة، فيقضيه إذا أراد، ويبدو له فيه فلا يمضيه، فأمّا العلم الذي يقِرُّهُ الله عزَّ وجلَّ فيقضيه ويمضيه فهو العلم الذي انتهى إلى رسول الله (ص) ثمَّ إلينا)[٦].

وهم عليهم السلام يؤكدون هذا المعنى ـ كون علمهم علم النبي (ص) لتنبيه الأمة ولقطع الطريق على منْ يذهب إلى أكثر من هذا المعنى في حقهم، فقد بيّنوا عليهم السلام لأصحابهم ما هم وما حقيقتهم.

فعن سدير الصيرفي قال: (قلتُ لأبي عبد الله (ع): إنَّ قوماً يزعمون أنكم آلهة، يتلون بذلك علينا قرآناً: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾[٧]. فقال: يا سدير سمعي وبصري وبشري ولحمي ودمي وشعري من هؤلاء براء وبرئ الله منهم، ما هؤلاء على ديني ولا على دين

---

(١) ينظر: تفسير الصافي، الفيض الكاشاني، ط١، دار الجوادين، دمشق، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩ م، ج١ ص٢٠.
(٢) الواقعة: ٧٨ ـ ٧٩.
(٣) الكافي: ١/ ١١٢.
(٤) الجن: ٢٦.
(٥) الجن: ٢٧.
(٦) الكافي: ١/١٥٢.
(٧) الزخرف: ٨٤.

آبائي، والله لا يجمعني الله وإياهم يوم القيامة الاّ وهو ساخطٌ عليهم، قال: قلتُ: وعندنا قومٌ يزعمون أنكم رسلٌ يقرؤون علينا بذلك قرآناً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾[1] فقال: يا سدير سمعي وبَصَري وشَعْري ولحمي ودمي من هؤلاءِ براءٌ وبرئَ الله منهم ورسوله، ما هؤلاءِ على ديني ولا على دين آبائي والله لا يجمعني الله وإياهم يوم القيامة إلاّ وهو ساخطٌ عليهم. قال: قلتُ: فما أنتم؟ قال نحن خزان علم الله، نحن تراجمة أمر الله، نحن قومٌ معصومون، أمر الله تبارك وتعالى بطاعتنا ونهى عن معصيتنا، نحن الحجَّة البالغة على منْ دون السماء وفوق الأرض)[2].

المبحث الثالث
عليّ (ع) عنده علم الكتاب

أما استدلالهم بأنّ الله عزَّ وجلَّ لا يجعل حجَّة في أرضه يسأل عن شيءٍ فيقول لا أدري فهذا لا يعني أنْ التفسير موقوف عليهم وليس لأحد من هذه الأمة انْ يفقه شيئاً من كتاب الله عزَّ وجلَّ حتى في ظواهره وإنما المقصود كما قلنا سابقاً هو معرفتهم بجميع ما يحويه القرآن من الظاهر والباطن وهذا هو ما يسمّى في أقوالهم عليهم السلام بجميع القرآن. قال أبو جعفر الباقر (ع): (ما يستطيع أحد أنْ يدعي أنَّ عنده القرآن كلّه ظاهره وباطنه غير الأوصياء)[3].

فالباطن لا يمكن معرفته للعامة الاّ من خلال الأوصياء من آل محمد (ص) لأنهم أهل القرآن وأهل الذكر فلا يرغب عنهم ولاعن مسألتهم في معرفة ذلك. لانّ: (في كل سورة منه بحار من المعارف وتتجلى من كل آية منه أنوار من الحقائق، وكيف لا يكون كذلك، وقائله لانهاية لعلمه وكماله، ولا حدَّ لعظمته وجلاله...)[4].

ولكن هذا لا يعني أنَّ عامة الناس الذين خاطبهم القرآن الكريم على وفق فن القول لديهم وما اعتادوهُ في حواراتهم وأساليب كلامهم أنهم لا يستطيعون فهم شيءٍ منه: (إنه لا يجوز أنْ يكون في كلام الله تعالى وكلام نبيه تناقض وتضاد. وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا ﴾[5] وقال: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴾[6] وقال: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾[7] وقال: ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ﴾[8] وقال: ﴿ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن

---

(١) المؤمنون: ٥١.
(٢) الكافي: ١/١٦١.
(٣) الكافي: ١ ١٣٦.
(٤) مواهب الرحمن: ١/١٣٦.
(٥) الزخرف: ٣.
(٦) الشعراء: ١٩٥.
(٧) إبراهيم: ٤.
(٨) النحل: ٨٩.

شَيْءٍ ﴾[١] فكيف يجوز أنْ يصفه بأنه عربيٌّ مبين، وأنه بلسان قومه، وأنه بيان للناس ولا يفهم بظاهره شيء؟ وهل ذلك الاّ وصف له باللغز والمعمى الذي لا يفهم المراد به الاّ بعد تفسيره وبيانه؟ وذلك منزّه عن القرآن وقد مدح الله أقواماً على استخراج معاني القرآن فقال: ﴿ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾[٢] وقال في قومٍ يذمّهم لم يتدبّروا القرآن ولم يتفكروا في معانيه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[٣] وقال النبي (ص) : (إني مخلفٌ فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي) فبيّن أنّ الكتاب حجة، كما العترة حجة. وكيف يكون حجة مالا يفهم به شيء؟ روي عنه (ع) أنه قال: (إذا جاءكم عني حديث، فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فاقبلوه، وما خالفه فاضربوا به عرض الحائط). وروي مثل ذلك عن أئمتنا عليهم السلام، وكيف يمكن العرض على كتاب الله، وهو لا يفهم به شيء؟)[٤].

وهذا لا يعني أنَّ التفسير موقوف على العترة وليس لأحد من هذه الأمّة أنْ يفقه شيئاً من كتاب الله عزَّ وجلَّ حتى فيما يتعلّق بظواهره من مفاهيم ودلالات.

و عليه فـ (إنَّ الآيات التي تدعو الناس عامّة من كافر أو مؤمن ممن شاهد عصر النزول أو غاب عنه إلى تعقّل القرآن وتأمّله والتدبّر فيه وخاصّة قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[٥]، تدل دلالة

واضحة على أنَّ المعارف القرآنية يمكن أنْ ينالها الباحث بالتدبّر والبحث)[٦].

أمّا ما يذهب إليه أهل هذا الاتجاه من عدم إمكانية تفسير القرآن الكريم إلاّ عن طريق أهل البيت عليهم السلام بعّدهم أهل القرآن الذين آتاهم الله عزَّ وجلَّ علمه فلا يرغب عنهم ولاعن مسألتهم إلى سواهم؛ لانّ عدم مسألتهم يوقع في الهوى والانحراف عن جادة الحق والوقوع في التفسير بالرأي المنهي عنه، وليس لأحدٍ أنْ يأخذ بهواه ولا رأيه ولا مقاييسه. فهذا الكلام صحيح لا نقاش فيه ولكن فيما يتعلّق بالإحكام وتفصيلاتها ولعلّ كلَّ ما أوردوه من الأحاديث في هذا المعنى إنما هو فيما يتعلّق بمعرفة تفاصيل الأحكام الشرعية، ومن هذا الحديث الذي نقلوه عن الإمام الصادق (ع): (إنَّما الوقوف علينا في الحلال والحرام...)[٧] وهكذا باقي الأحاديث والأقوال والروايات إنْ لم تكن كلها.

وهذا هو معنى كلامهم سلام الله تعالى عليهم في أقوالهم: تبيان كل شيء، ما تحتاج إليه الأمة، أعلم منكم. علم الكتاب كلّه، علم النبيين، علم الوصيين، علم العلماء، ممن

---

(١) الأنعام: ٣٨.

(٢) النساء: ٨٣.

(٣) محمد: ٢٤.

(٤) التبيان: ١/ ٤ ـ ٥.

(٥) النساء: ٨٢.

(٦) الميزان: ٣/ ٧٤.

(٧) الكافي: ١/ ١٦٠.

مضوا، حكم الله الذي لا اختلاف فيه، ما يحتاج إليه ولد آدم، وليس عند أحدٍ شيء إلاّ ما خرج من أهل البيت، تفويض الله تعالى لنبيه والأئمة وإنْ لم يكونوا أنبياء...

فمعنى كل شيء إنما هو الحلال والحرام والحدود والأحكام ولذلك قال النبي - (ص) - لا تعلموهم. فعن أبي جعفر الباقر (ع) قال: (قال رسول الله - (ص) .... فلا تعلّموهم فإنهم أعلم منكم...)[١].

فهم أعلم بكل شيء بيَّنه القرآن الكريم من الحلال والحرام وكل ما يحتاج إليه الناس في أمور دنياهم وشؤون حياتهم من أحكامٍ وحدود. يقول الإمام الرضا (ع): (... جهل القوم وخُدِعوا عن آرائهم، إنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يقبض نبيه صلى الله وآله وسلم حتى أكمل له الدين، وانزل عليه القرآن فيه تبيان كل شيء، بيّن فيه الحلال والحرام، والحدود والأحكام، وجميع ما يحتاج إليه الناس كملاً، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾[٢] ونزل في حجّة الوداع وهي آخر عمره صلى الله وآله وسلم: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[٣] وأمر الإمامة من تمام الدين، ولم يمضِ (ص) حتى بيّن لامته معالم دينهم، وأوضح لهم سبيلهم، وتركهم على قصد سبيل الحقّ، وأقام لهم علياً (ع) علما وإماماً، و ما ترك لهم شيئاً يحتاج إليه الأُمّة إلاّ بينهُ، فمن زعم انَّ الله عزَّ وجلَّ لم يكمل دينه فقد ردَّ كتاب الله، ومنْ ردَّ كتاب الله فهو كافرٌ به)[٤].

فمعرفة الحكم الشرعي وما يتعلّق به محصورٌ فيهم عليهم السلام، ولا يدعي أحدٌ أن الله عزَّ وجلَّ أراهُ شيئاً الاّ رسول الله (ص) ومن فوّضَ إليه من الأوصياء ممن لهم الولاية بعد رسول الله (ص) يقول الإمام الصادق (ع): (لا والله ما فوّضَ الله إلى أحدٍ من خلقه إلاّ إلى رسول الله (ص) والى الأئمة، قال عزّ وجلَّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾[٥]، وهي جاريةٌ في الأوصياء عليهم السلام)[٦].

وخير شاهدٍ على ذلك ما دار بين الإمام أبي جعفر الباقر (ع) وابن عباس في معرفة حكم الله عزَّ وجلَّ والحدّ الذي فرضه تعالى فيما يحدثُه في خلقه. قال أبو جعفر (ع): (... زعمَّ ابن عباس أنه من الذين قالوا ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا﴾[٧] فقلتُ له: هل رأيت الملائكة يابن عباس تخبرك بولايتها لك في الدنيا والآخرة، مع الأمن من الخوف والحزن، قال: فقال: إنّ الله تبارك وتعالى

---

(١) المصدر نفسه: ١/١٢٤.

(٢) الأنعام: ٣٨.

(٣) المائدة: ٣.

(٤) الكافي: ١/١١٧ - ١١٨.

(٥) النساء: ١٠٥.

(٦) الكافي: ١/١٦٠.

(٧) فصّلت: ٣٠.

يقول: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[١] وقد دخل في هذا جميع الأمة... ثمَّ قلت: صدقت يا ابن عباس أنشدكَ الله هل في حكم الله جلَّ ذكره اختلاف؟ قال: فقال: لا، فقلتُ: ما تقول في رجلٍ ضرب رجلٌ أصابعه بالسيف حتى سقطت، ثمَّ ذهب واتى رجلٌ آخر فأطار كفَّه، فأتي به إليك وأنت قاضٍ، كيف أنت صانع؟ قال أقول لهذا القاطع: أعطِهِ دِيَّةَ كفِّهِ، وأقول لهذا المقطوع: صالحه على ما شئت، وأبعث به إلى ذوي عدلٍ، قلتُ: جاء الاختلاف في حكم الله عزَّ ذكره، ونقضتَ القول الأول، أبى الله عز ذكره أنْ يحدث في خلقه شيئاً من الحدود وليس تفسيره في الأرض، اقطع قاطع الكفَّ أصلاً ثُمَّ أعطيه ديَّةَ الأصابع، هكذا حكم الله ليلةَ ينزل فيها أمرهُ، إنْ جحدتها بعدما سمعت من رسول الله (ص) فأدخلك الله النار، كما أعمى بصرك يوم جحدتها على ابن أبي طالب... فقال ابن عباس: ما اختلفنا في شيءٍ فحكمُهُ إلى الله، فقلتُ له فهل حكم الله في حكمٍ من حكمه بأمرين؟ قال: لا: فقلت: هاهنا هلكت وأهلكت...)[٢].

وعليه فمن يريد أنْ يبيّن حكم الله عزّ وجلّ لابد له من أنْ يكون مسدّداً في تبليغ أحكام الله تعالى على نحو القطع واليقين. وهذا أمرٌ لا يكون ولا يتحقق بمعزلٍ عن مقام فهمهم وادراكهم لمعارف القرآن الكريم، لأنهم عليهم السلام عدِل القرآن والثقل الأصغر الذي لا يفترق عن الثقل الأكبر كتاب الله الذي هو تبيان لكل شيء. وقد امرنا نبينا محمد (ص) بالأخذ بهما معاً وليس بواحدٍ منهما دون الآخر، والله تعالى يقول: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[٣]، وهذا تفويض من الله تعالى لنبيه (ص) وعترته أهل البيت عليهم السلام.

لانّ: (الله عزَّ وجلَّ أدب نبيّه فأحسن أدبه، فلما أكمل له الأدب، قال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[٤]، ثمَّ فوض إليه أمر الدين والامة ليسوس عباده، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ ... الآية ﴾ وانَّ رسول الله (ص) كان مسدّداً موفقاً مؤيداً بروح القدس، لا يزلُّ ولا يُخطيء في شيءٍ مما يسوس به الخلق، فتأدب بآداب الله...)[٥].

وليس هذا بكثيرٍ عليهم لانَّ رسول الله (ص) ورثهم عِلَمَ الكتاب كلّه ظاهره وباطنه. فقد روي عن الإمام أبي جعفر الباقر في تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[٦]، أنَّهُ قال: (إيانا عنى، وعليٌّ أولنا وأفضلنا وخيرنا بعد النبي (ص)[٧].

---

(١) الحجرات: ١٠.

(٢) الكافي: ١/١٤٦.

(٣) الحشر: ٧.

(٤) القلم: ٤.

(٥) الكافي: ١/١٥٨ ـ ١٥٩.

(٦) الرعد: ٤٣.

(٧) الكافي: ١/١٣٦.

ومثله عن الإمام أبي عبد الله الصادق (ع) أنه قال: (... عندنا والله عِلمُ الكتاب كلِّهِ)[١].

وهم وإنْ لم يكونوا أنبياء الا أنهم هم العلماء حقاً لأنهم إنما أخذوا علمهم من رسول الله (ص) وعملوا به ولم يضيعوه وكانوا يشيرون إلى هذا المعنى كي تفهم الأمُه دورهم ومقام معرفتهم للأحكام الشرعية لتهتدي إلى الله تعالى بإذنه وتنال سبل الحق لديه، بما أكرمهم به من كرامة الذكر وما آتاهم وخصّهم به من العلم بالكتاب كلّه.

يقول الإمام أبو جعفر (ع): (إنما الوقوف علينا في الحلال والحرام فأمّا النبوة فلا)[٢]. وعن بُريد بن معاوية، عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قال قلت له: ما منزلتكم؟ ومن تشبهون ممن مضى؟ قال: (صاحب موسى وذي القرنين، كانا عالمين ولم يكونا نبيّين)[٣]. وعن الإمام أبي عبد الله الصادق (ع) أنه قال: (الأئمة بمنزلة رسول الله (ص) إلاّ أنهم ليسوا بأنبياء ولا يحلُّ لهم من النساء ما يحلُّ للنبي (ص) فأمَّا ماخلا ذلك فهم فيه بمنزلة رسول الله (ص)[٤].

وأهل البيت إنما لم يكتفوا برواية واحدةٍ أو روايتين في المعنى - أي التأكيد على أخذ الأحكام الشرعية عنهم - لأنهم كانوا يرون كثرة المدارس أو الآراء الفقهية وتعددها واختلاف مناهجها في معرفة الأحكام الشرعية من القرآن دون الرجوع للعترة التي ألزم حديث الثقلين الأمة بالرجوع إلى هذين الثقلين الثقل الأكبر كتاب الله عزَّ وجلَّ والثقل الأصغر وهم العترة الطاهرة سلام الله عليهم لاسيَّما في عصر الإمامين الباقرين عليهما السلام، وانْ كانت بوادر هذا الاتجاه قد نمتْ منذ عصر الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع).

فعن صالح بن ميثم، عن أبيه قال: (بينما أنا في السوق إذ أتاني أصبغ بن نباته فقال: ويحكَ يا ميثم لقد سمعت من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) حديثاً صعباً شديداً فأيّنا نكون كذلك؟ قلت: وما هو؟ قال: سمعته يقول: إنّ حديثاً أهل البيت صعب مستصعب لا يحتمله الاّ ملك مقرّب، أو نبيٌّ مرسل، أو عبدٌ امتحن الله قلبه للإيمان، فقمتُ من فورتي فأتيتُ علياً (ع) فقلت: يا أمير المؤمنين حديث أخبرني به الأصبغُ عنك قد ضقتُ به ذرعاً قال: وما هو؟ فأخبرته قال: فتبسَّم ثمَّ قال: اجلس يا ميثم، أو كُلّ علمٍ يحتمله عالم؟ إنّ الله تعالى قال لملائكته: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٥]. فهل رأيت الملائكة احتملوا العلم؟ قال: قلتُ: هذه والله اعظمُ من ذلك. قال: والأُخرى أنَّ موسى (ع) أنزل الله عزَّ وجلَّ عليه التوراة فظَنَّ أنْ لا أحد أعلم منه فأخبره الله عزَّ وجلَّ أنّ في خلقي من هو اعلم منك،

---

(١) المصدر نفسه: ١/١٣٦.

(٢) المصدر نفسه: ١/١٦٠.

(٣) المصدر نفسه: ١/١٦١.

(٤) المصدر نفسه: ١/١٦١.

(٥) البقرة: ٣٠.

وذاك إذ خاف على نبيّه العُجْب، قال: فدعا ربَّه أنْ يرشده إلى العالم، قال: فجمع الله بينه وبين الخضر فخرق السفينة فلم يحتمل ذلك موسى، وقتل الغلام فلم يحتمله، وأقام الجدار فلم يحتمله، وأمَّا المؤمنون فإنَّ نبيّنا (ص) أخذ يوم غدير خُمٍّ بيدي فقال: اللهم من كنتُ مولاه فإنَّ علياً مولاه، فهل رأيت احتملوا ذلك إلاّ منْ عصمه الله منهم؟ فابشروا ثمَّ أبشروا فإنَّ الله تعالى قد خصّكم بما لم يخصّ به الملائكة والنبيين والمرسلين فيما احتملتم من أمر رسول الله (ص) وعلمه)[1].

وقد بلغ عزل العترة عن الأمَّة الذروة في حياة الإمامين الباقرين عليها السلام واستشرت مسالة الرأي في التفسير والقياس وغيره في فقه الأحكام وكان من جرّاء ابتعاد الأمة عن أئمتها أنْ تشعّبت بهم الأمور وتعددت السُبُل وتركت الأخذ عمن أخذوا علمهم عن رسول الله (ص) بل وصل الأمر ببعض من جهلوا أنْ رأوا أنفسهم على علمٍ وانّ العترة الطاهرة عليهم السلام على جهلٍ وضلال.

ولذلك راح أئمة أهل البيت يتصدون لهذا التيار الذي استشرى في الأمة بكل ما أُتوا من علمٍ وطاقة لا يألون في ذلك جهداً ولا علماً ليخرجوا الأمة من ضلال التقليد والقياس ومزالق الرأي.

فقد سأل رجل من أهل الكوفة الإمام الباقر (ع) عن قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع): (سلوني عمّا شئتم فلا تسألوني عن شيءٍ الا أنبأتكم به. قال: إنه ليس أحدٌ عنده علمُ شيءٍ الاّ خرج من عند أمير المؤمنين (ع)، فَليذهب الناس حيث شاؤوا، فوالله ليس الأمر الاّ من هاهنا، وأشار بيده إلي بيته)[2] وقال: (ليس عند أحدٍ من الناس حقٌ ولا صوابٌ، ولا أحد من الناس يقضي بقضاءٍ حق، الاّ ما خرج منّا أهل البيت، وإذا تشعَّبت بهم الأمور كان الخطأ منهم والصواب من عليٍّ (ع)[3]. وقال: (عجباً للناس أنهم أخذوا علمهم كلّه عن رسول الله (ص)، فعلموا به واهتدوا، ويرونَ أنّ أهل بيته لم يأخذوا علمه، ونحن أهل بيته وذريتُهُ في منازلنا نزل الوحي، ومن عندنا خرج العلم إليهم، أفيرون أنهم علموا واهتدوا وجهلنا نحن وضللنا، إنّ هذا لمحالٌ)[4].

فكل ما يحتاج الناس إليه من الحدود والأحكام منذ خلق الله تعالى آدم (ع) إلى أنْ يرث الله عزَّ وجلَّ الأرض ومن عليها فهو عند آل محمد صلوات الله وسلامه عليهم وهو من علم رسول الله (ص) مضافاً إلى علم الكتاب كلّه.

فعن الإمام أبي جعفرٍ الباقر (ع) قال: (إنَّ الحسين بن علي عليهما السلام لمّا حضره ما حضره، دعا ابنته الكبرى فاطمة بنت الحسين عليهما السلام فدفع إليها كتاباً ملفوفاً

---

(١) بحار الأنوار: ٢/٣٥٩.

(٢) الكافي: ١/٢٥٠ ـ ٢٥١.

(٣) المصدر نفسه: ١/٢٥٠.

(٤) المصدر نفسه: ١/٢٥٠.

ووصيَّةً ظاهرةً، وكان علي بن الحسين (ع) مبطوناً معهم لا يرون إلاّ أنه لما به، فدفعت فاطمةُ الكتاب إلى علي بن الحسين (ع) ثمَّ صار والله ذلك الكتاب إلينا... فيه والله ما يحتاج إليه ولدُ آدم منذ خلق الله آدم إلى أنْ تفنى الدُّنيا، والله إنَّ فيه الحدود، حتى أنَّ فيه أرْشَ الخَدْشِ)[1].

ففهم القرآن الكريم كل القرآن لاسيما معرفة الأحكام الشرعية لا يمكن أن تتمّ من دون الرجوع إلى العترة الطاهرة تحقيقاً لقوله (ص) في حديث الثقلين: (إني تارك فيكم الثقلين...) لانّ الثقل الأصغر وهم العترة قد زوّدهم رسول الله (ص) بكل ما يجعلهم اهلاً ومرجعاً في مقام فهم القرآن والوصول إلى ذلك كي لا تضل هذه الأمة بعد نبيها (ص) أبداً.

ومن هذه الطرق التي ليست بأيدي غيرهم هو ما ورثوه عن النبي (ص) من علم أملاه على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وخطّهُ بيمنه مما يحتاج إليه الناس من مسائل الحلال والحرام، وما أخذوه عنه من علم النبيين والوصيين، وعلم ما هو كائن إلى أنْ تقوم الساعة.

فعن أبي بصير قال: قال الصادق (ع): (... وإنّ عندنا الجامعة وما يدريهم ما الجامعة؟ قال: صحيفة طولها سبعون ذراعاً بذراع رسول الله (ص) وإملائه من فلق فيه وخطّ عليٍّ بيمينه، فيها كلَّ حلال وحرام وكل شيءٍ يحتاج الناس إليه حتى الأرْشُ في الخدْشِ... قلتُ: هذا والله العلم، قال: إنه لعلمٌ وليس بذلك... وعندنا الجفر وما يدريهم ما الجفر؟ قال: قلت: وما الجفر؟ قال: وعاءٌ من أدم فيه علم النبيّين والوصيين، وعلم العلماء الذين مضوا من بني إسرائيل... قلت: إن هذا هو العلم، قال: إنه لعلم وليس بذاك... وإن عندنا لمصحف فاطمة به مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات، والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد... قلت: هذا والله العلم قال: إنه لعلم وليس بذاك... إن عندنا علم ما كان وعلم ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة... قلت: جعلت فداك فأي شيء العلم؟ قال: ما يحدث بالليل والنهار، الأمر من بعد الأمر، والشيء بعد الشيء، إلى يوم القيامة)[2]. وعنه (ع): (إن عندنا ما لا نحتاج معه إلى الناس، وإن الناس ليحتاجون إلينا، وإنَّ عندنا كتابا إملاء رسول الله (ص) وخط علي (ع)، صحيفة فيها كل حلال وحرام، وإنكم لتأتونا بالأمر فنعرف إذا أخذتم به ونعرف إذا تركتموه)[3].

ومن هنا يتبيّن لنا أن كل ما ذكروه من أحاديث واستشهدوا به من اقوال في عدم الحاجة إلى تفسير القرآن أو عدم امكانية تفسيره، والاقتصار على ما ورد عن المعصوم (ع) إنما هو من باب عدم جواز استنباط الاحكام النظرية من ظواهر القرآن، الاّ بعد معرفة

---

(١) المصدر نفسه: ١/١٨٤.

(٢) الكافي: ١/١٤١ - ١٤٢.

(٣) المصدر نفسه: ١/١٤٣.

تفسيرها من الأئمة عليهم السلام، ووجوب التوقّف والاحتياط في القضاء والفتوى، والعمل في كل مسألة نظرية لم يعلم حكمها بنصٍ منهم عليهم السلام، لانهم هم الذين يعرفون الحلال والحرام، وهم الحجّة لله عزّ وجلّ على خلقه.

ويمكن أنْ ترى هذا بوضوح في الكتب والمصادر التي تناولت مسائل الشريعة في الحلال والحرام، كما هي الحال في كتاب وسائل الشيعة على سبيل المثال لا الحصر، إذ أورد الحرُّ العاملي في هذا الكتاب كل ما ذكره أصحاب هذا الاتجاه من أحاديث في متن البحث وزيادة[١].

وكذلك هي الحال عند من يرى عدم إمكانية التفسير الاّ بالرجوع إلى أخبار الصحابة رضوان الله عليهم الذين شاهدوا تنزيله وأدّوا إلينا من السُّنن ما يكون بياناً لكتاب الله تعالى وبالتالي حصر معرفة آيات الكتاب العزيز وفهمها بالسلف الصالح من الصحابة وما نُقل عنهم.

وقد رفض كثير من علماء الأمة هذا الاتجاه بل عدّه الغزالي حجاباً من الحُجب التي تمنع عن فهم معاني القرآن إذ يقول: (... أنْ يكون قرأ تفسيراً ظاهراً واعتقد أنّه لا معنى لكلمات القرآن إلاّ ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما. وأنّ ما وراء ذلك تفسير بالرأي وانّ من فسّر القرآن برأيه فقد تبوّأ مقعده من النار فهذا أيضاً من الحجب العظيمة)[٢].

ومن ثمَّ فإنَّ حصر معرفة وفهم آيات الكتاب العزيز بالسلف الصالح من الصحابة وأقوالهم لاستبعاد أنْ تختفي عليهم معاني الكتاب العزيز أمرٌ غير ميسور لأنّ الصحابة أنفسهم قد اختلفوا في فهم وتفسير آيات الكتاب العزيز وقد رتبوا على اختلافهم في الفهم آثارهُ في الواقع العملي والسلوكي لهم.

وحصر المعرفة بهذا الطريق: (... وهو الاقتصار على ما نقل من مفسِّري صدر الإسلام من الصحابة والتابعين في معاني الآيات القرآنية يوجب توقف العلم في سيره، وبطلان البحث في أثره كما هو مشهود في ما بأيدينا من كلمات الأوائل والكتب المؤلفة في التفسير في القرون الأولى من الإسلام، ولم ينقل منهم في التفسير الاّ معانٍ ساذجة خالية عن تعمّق البحث وتدقيق النظر فأين ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[٣]، من دقائق المعارف في القرآن؟ وأمَّا استبعاد أنْ يختفي عليهم معاني القرآن مع ما هم عليه من الفهم والجدِّ والاجتهاد فيبطله نفس الخلاف الواقع بينهم في معاني كثيرة من الآيات والتناقض الواقع في الكلمات المنقولة عنهم إذ لا يتصور اختلاف ولا تناقض إلاّ مع خفاء الحق واختلاط طريقه بغيره)[٤]. ❖

---

(١) ينظر: وسائل الشيعة: ٢٧/١٥٥ ـ ٢٠٥.

(٢) إحياء علوم الدين: ١/٣٢٥ ـ ٣٢٦.

(٣) النحل ٨٩.

(٤) الميزان: ٣/٧٦.

من القيم الصوتية في نهج البلاغة

د. تحسين فاضل عباس
جامعة الكوفة، كلية الآداب

تقدم العرب على غيرهم من الأمم في دراسة الأصوات، إذ تعد اللبنة الأولى والأساسية للاطلاع على أسرار اللغة، والأداة المعبرة عن كنه أفكار المتكلم وأحاسيسه. وقد ترجم الفراهيدي (ت١٧٥هـ) هذا الاهتمام بمعجم (العين)، الذي أقامه على وفق مخرج الحروف، بحسب اتجاه مجرى الهواء عند النطق به، بمنهج (علمي موضوعي يقوم على دراسة الصوت اللغوي مفردا أو مركبا، وهو المنهج الذي تقوم عليه الدراسة الصوتية الحديثة والمعاصرة، بشقيها الفوناتيكي والفونولوجي)[١].

وتواصلت الجهود من الرعيل الأول من ثلة من علماء العربية الذين كن لهم فضل السبق حتى نضجت تلك الجهود بمصنفات فيلسوف اللغة (ابن جني) (ت٣٩٢هـ) بمنهجية واضحة وخاصة في كتابيه: (سر صناعة الإعراب)، و (الخصائص) الذي حدّ اللغة بأنها عبارة عن أصوات، وعلى الرغم من عدم توافر الإمكانات والمختبرات الصوتية وقتئذٍ فقد توافقت النتائج إلى حدّ كبير بين القدماء والمحدثين في وضع القواعد الوصفية لعلم الأصوات.

وعلى هذا المفهوم بتعريف اللغة بهذه الشمولية والدقة فـ (لا يمكن أن تتم دراسة جادة لعلم المعنى الوصفي لأية لغة منطوقة؛ ما لم تعتمد هذه الدراسة على قواعد صوتية وأنماط تنغيمية)[٢]. فالأصوات (تشكل الإطار الأساس الذي يبني البنى الأخرى (النحوية والصرفية والدلالية)، في كلامنا المنطوق والمكتوب من خلال الاستبدال الفونيمي داخل مفردات اللغة)[٣].

ويقوم الخطاب الأدبي على عنصرين أساسيين: (الصوت والمعنى)، فإن علاقة الخطاب بالأصوات وثيقة، كونه فنا يعتمد على المواجهة والمشافهة، وعنصر الإلقاء يؤثر بصورة أكبر في المتلقي موازنة مع الكتابة، وهذا ما نلمسه عند سماعنا شعرا أو نثرا، ومدى تأثير منشئ النص وأسلوبه فينا من شدّ وانتباه، وتعميق الدلالة من خلال إبداع المتكلم باستعماله للأصوات وتوظيفها لتوسعة المعنى بإيجاد نسيج متناغم بينهما، (الذي يعتمد بالأساس على

---

(١) التفكير الصوتي عند الخليل ١٠١.

(٢) علم الأصوات، كمال بشر ٦٠٥.

(٣) منهج النقد الصوتي في تحليل الخطاب الشعري ٩.

الحكم والانتقاء الحدسي لمبدع النص في انتقاء المفردات التي تتحكم بها ظروف وعوامل كثيرة، منها ثقافة المبدع، ومعجمية لغته، وحاله النفسية وظروف بيئته، وسياقاتها الدلالية، المرتبطة بالمنتَج الإبداعي)[١].

إن علم الأصوات (لا يُعنى إلا باللغة المنطوقة، دون أشكال الاتصال الأخرى المنظمة، ... فعلم الأصوات لا يهتم إلا بالتعبير اللغوي، دون المضمون الذي يقوم تحليله على القواعد والمعجم، أي: الجانب النحوي، والدلالي للغة)[٢].

والخطابة فن قديم، نشأ مع الإنسان، (فهي سبيل الإقناع، وأداة الدعوة إلى العقيدة والرأي، ووسيلة الدفاع عنهما، وعماد النهضات والثورات، فلربما كانت الكلمة البليغة تصب موضعها أمضى من الحسام في يوم الخصام)[٣]. وشروط الإقناع عند الخطيب تكمن في ثلاث وسائل هي قدرته:

(١ ـ على التفكير المنطقي،

٢ ـ وعلى فهم الخلق الإنساني والخير في مختلف أشكالها،

٣. وأن يفهم الانفعالات)[٤].

والخطابة والشعر يعتمدان على اللغة الدقيقة الواضحة، وكلاهما يخاطب العقل والعاطفة بقدر مشترك تختلف مقاييسه بينهما، والخطيب يتخلى عن الوزن، لكنه يصوغ عباراته في إيقاع يثير الانفعال، ويلاحظ في تقسيم الجمل قربها من الأوزان الشعرية[٥].

وظهرت في أسلوب الخطابة الإسلامية سمات عامة (ناجمة عن قوة العاطفة وشدة إيمان الخطيب بما يقول وحرصه على إقناع المخاطبين برأيه واستمالتهم إليه وتقرير الفكرة في نفوسهم، كاللجوء إلى أساليب التوكيد المختلفة من تكرار وقسم)[٦].

وبرز الإمام علي (ع) خطيباً مفوهاً مقتدراً على التأثير في المتلقي بأساليبه المتنوعة، وقد وصف كلامه بأنه (دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق)[٧]، ويمثل نهج البلاغة (أسس البيان العربي، مكانة تلي مكانة القرآن الكريم... وتتصل به أساليب العرب، في نحو ثلاثة عشر قرناً، فتبني على بنائه، وتقتبس منه جذوتها، ويحيا جيدّها في نطاق من بيانه الساحر)[٨].

---

(١) م. ن ١٠.

(٢) علم الأصوات، مالمبرج ٦.

(٣) الخطابة في صدر الإسلام ٤٨/١.

(٤) الخطابة، أرسطو ٣٠.

(٥) ينظر: الخطابة في صدر الإسلام ١٢/١.

(٦) الخطابة العربية في عصرها الذهبي ٤٥.

(٧) م. ن ٤٨.

(٨) روائع نهج البلاغة (المقدمة).

والخطابة فرع من الجدل وعلم الأخلاق[١]، و (بطولات الإمام ما اقتصرت يوماً على ميادين الحرب، فقد كان بطلاً في صفاء رأيه، وطهارة وجدانه، وسحر بيانه، وعمق إنسانيته، وحرارة إيمانه، وسمو دعوته، ونصرته للمحروم والمظلوم من الحارم والظالم، وتعبده للحقّ أينما تجلّى له الحق)[٢].

وأسلوب خطب الإمام علي (ع) تتماز (بالتكرار بغية التقرير والتأثير، وباستعمال المترادفات وباختيار الكلمات الجزلة ذات الرنين)[٣]، (والجنوح إلى الأسلوب الإنشائي المعتمد على الاستفهام والتعجب والدعاء، وأسلوب التوكيد)[٤]، و (بقوة المنطق وبراعة البيان استطاع علي وابن عباس إقناع الخوارج بخطئهم حين خرجوا عليه في أول أمرهم فعادوا إلى الكوفة)[٥].

واختص البحث بدراسة الظواهر الصوتية المُتشكّلة: كالسّجْع، والتنغيم والنبر والقطع الصوتي.

أولاً - السجع:

هو (تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد)[٦]، وقد اشتهر السجع (غير المتكلف) في خطب الإمام علي (ع) الذي يحقق موسيقى الأسلوب[٧]، في حين رأى بعض الباحثين وجود شك في طائفة من خطبه يظهر فيها تكلف السجع فضلاً عن تكلف ألوان أخرى من الصنعة البديعية، وهي ألوان لم تعرف طريقها إلى النثر العربي إلا مع العصر العباسي[٨]، ويضعّف هذا الرأي أن (الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين، فيكون في تلك أسجاع كثيرة، فلا ينهونهم)[٩].

فالسجع موجود في كلّ العصور الأدبية حتى في عصر صدر الإسلام[١٠]، فـ (لو كان عيباً لكان كلام الله سبحانه معيباً؛ لأنه مسجوع، كله ذو فواصل وقرائن)[١١]، والمذموم هو السجع المتكلف الثقيل على المعنى أو السمع. والسجع يتحقق في الوزن والفاصلة، وهي الكلمة الأخيرة في القرينة.

---

(١) ينظر: الخطابة، أرسطو ٣٠.

(٢) روائع نهج البلاغة(المقدمة).

(٣) م. ن ٣٠.

(٤) الخطابة العربية في عصرها الذهبي ٤٥.

(٥) م. ن ٤٧.

(٦) المثل السائر ١/١٩٥.

(٧) ينظر: فن الخطابة ١٩٢.

(٨) ينظر: الخطابة العربية في عصرها الذهبي ٤٤.

(٩) البيان والتبيين ١/٢٩٠.

(١٠) ينظر: تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي ٢٠٧.

(١١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد ١/١٣٥ - ١٣٦.

وفي خطب الإمام (ع) يتحقق موسيقى الكلام والأسلوب، ويمسك قلب المتلقي وفكره عن طريق السجع غير المتكلف، وورود الانسجام والتوافق الصوتي، مما له أثر إيقاعي في نفس المتلقي، ومن هنا تبدأ العلاقة بين الخطابة والسجع من ذلك قوله:

(وَفَرَضَ عَلَيْكُمْ حَجَّ بَيْتِهِ الْحَرَامِ، الَّذِي جَعَلَهُ قِبْلَةً لِلأَنَامِ، يَرِدُونَهُ وُرُودَ الأَنْعَامِ وَيَأْلَهُونَ إِلَيْهِ وَلَهَ الْحَمَامِ وَجَعَلَهُ سُبْحَانَهُ عَلامَةً لِتَوَاضُعِهِمْ لِعَظَمَتِهِ، وَإِذْعَانِهِمْ لِعِزَّتِهِ. وَاخْتَارَ مِنْ خَلْقِهِ سُمَّاعاً أَجَابُوا إِلَيْهِ دَعْوَتَهُ وَصَدَّقُوا كَلِمَتَهُ، وَوَقَفُوا مَوَاقِفَ أَنْبِيَائِهِ، وَتَشَبَّهُوا بِمَلائِكَتِهِ الْمُطِيفِينَ بِعَرْشِهِ، يُحْرِزُونَ الأَرْبَاحَ فِي مَتْجَرِ عِبَادَتِهِ، وَيَتَبَادَرُونَ عِنْدَهُ مَوْعِدَ مَغْفِرَتِهِ جَعَلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِلإِسلام عَلَماً، وَلِلْعَائِذِينَ حَرَماً، فَرَضَ حَقَّهُ، وَأَوْجَبَ حَجَّهُ، وَكَتَبَ عَلَيْكُمْ وِفَادَتَهُ)[1].

وعند تحليل السجع في خطبة الإمام (ع) نجده من النوع القصير، الذي تكون ألفاظه قليلة من (٢ ـ ١٠)، وكلما قلت الألفاظ كان أحسن لقرب لفواصل من السامع[2]. ففي الفقرة الأولى خمسة ألفاظ، والفقرة الثانية أربعة ألفاظ، والفقرة الثالثة ثلاثة، والرابعة أربعة ألفاظ.

وهذا النوع من السجع أصعب وأوعر طريقاً من الطويل، مما يدل على تمكن منتج النص من فنه؛ (لأن المعنى إذا صيغ بألفاظ قصيرة عزّ مواتاة السجع فيه لقصر تلك الألفاظ وضيق المجال في استجلابه)[3].

ونجد التقارب في كلمات الفِقَر، والاعتدال في مقاطع الكلام، وحلاوتها وقوة جرسها، وتوافقها الصوتي، (ومن سجع الإمام آيات تردّ النغم على النغم رداً جميلاً، وتذيب الوقع في الوقع على قراءات لا أوزن منها على السمع ولا أحبّ ترصيعاً)[4].

هذه اللوحة الأدبية الخطابية كتبت بريشة فنان مقتدر، يعرف كيف يؤثر في المتلقي العربي البليغ المتذوق بدرجة عالية للنص، روافد هذه اللوحة ألوان متعددة، أسهمت في نتاج نص عالٍ في ألفاظه ومعانيه، وفي كل وقفة هناك فاصلة لسجع خفيف، ذي وقع حسن في الأذن. جاء هذا الحسن عن طريق صوتين هما: الميم والهاء، ليكونا دار استراحة صوتية محببة، بما يمتلكان من سمات تنسجم مع المعنى المركزي، وهو (الشوق) إلى لقاء أمر عظيم واستجابة لنداء السماء، وهو (الحج).

ويمكن أن نفصّل القول في ذلك بالمخطط الآتي:

---

(١) م.ن ١/١٣١.

(٢) ينظر: المثل السائر ١/٢٣٥ ـ ٢٣٦.

(٣) المثل السائر ١/٢٣٥.

(٤) روائع نهج البلاغة ٢٩.

النص	المعنى القريب	المعنى المركزي	صوت الروي
- يردونه ورود الأنعام	يأتي الناس إلى بيت الله ليشربوا من فيض مغفرته ويدخلوا إلى بيته كما تشتاق الأنعام وتتزاحم على الماء لترتوي.	الشوق	الميم
- ويولهون إليه وله الحمام	يشتاق الناس إلى الكعبة شوق الطير إلى وكره حتى يكاد هذا الشوق يذهب العقل.	الشوق	الميم
- وجعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته وإذ عانهم لعزته	شعائر الحج فيها تعظيم للخالق وتذلل وتواضع من المخلوق	سمة الشوق	التاء
- واختار من خلقه سُمّاعاً أجابوا إليه دعوته، صدقوا كلمته	أجاب العباد الصالحون دعوة ربهم وامتثلوا لأمره.	السرعة في تلبية نداء السماء	التاء
- ووقفوا مواقف أنبيائه، وتشبهوا بملائكته المطيفين بعرشه	التذكير بقدسية المكان وبمنزلة وقوف الحجاج فقد وطأت أقدام الأنبياء فيه وبطوافكم هذا كأنه طواف الملائكة المحيطين بعرش الله تعالى	ثمار لهذا الشوق	الهمزة+ الشين
- يحرزون الأرباح في متجر عبادته	ينالون الأجر الكبير تجاه الحج	حصد ثمار لهذا الشوق	التاء
- ويتبادرون عنده موعد مغفرته	يتسارع الناس لموعد الحج يوم المغفرة	السرعة لتحقيق الشوق	التاء
- جعله سبحانه وتعالى للإسلام علماً، وللعائذين حرماً	الحج هو رمز للمسلمين وكنفهم.	مآل الشوق	الميم
- وفرض حقه، وأوجب حجة، وكتب عليكم وفادته	وجوبه لعظيم الحدث	الأهمية الكبيرة له	القاف + الجيم + التاء

وبذلك وجدنا في أغلب الألفاظ الواردة في نص الخطبة أنها تدور حول معنى الشوق، لهذا اليوم العظيم، هذا المدلول يوافقه دال عليه بأصوات الروي بنسبة كبيرة للتاء والميم فقد تكررت التاء (٧ مرات) والميم (٦ مرات)، والعرب يولون اهتماماً كبيراً للقافية أو الفاصلة؛ لأنها الوقفة الأخيرة التي يبقى رنينها في أذن المتلقي فتأثيرها فيه كبير.

فجاء الميم (المجهور) منسجماً مع كبر الحدث، في فريضة الحج (وفرض عليكم حج بيته الحرام)، وجاء دوي هذا الجهر متوافقاً مع عظيم منزلته وهي الاتجاه والقبلة للمسلمين (الذي جعله قبله للأنام)، ولإطفاء عطش القاصد من ماء بيت الله الحرام (يردونه ورود الأنعام)، وعظيم الشوق إليه (ويولهون إليه وله الحمام).

ختمت تلك الفواصل المتقدمة بالميم الذي يتميز بحركته المجهورة وصوته المسموع القوي وفي الوقت نفسه ما يتمتع به من الجمالية بوجود الغنة فيه وهو عبارة عن الإطالة في الصوت[١]، وإعطاء المد والفضاء لإظهار المعاني فهو قريب من أصوات المد، لذا (أطلق بعضهم على هذا النوع من الأصوات أصوات شبه علة)[٢]، فهواء الميم يخرج حراً طليقاً كالحركات تماماً، ولكنه يخرج مع الميم من الأنف[٣].

ثم أنه من الأصوات الشفوية أول المخارج الذي جاء مساعداً لتحقيق الشوق لزيارة بيت الله الحرام، ويتوافق مع سرعة الوصول والاشتياق إلى هذا الهدف السامي والكبير.

وتكرار صوت الروي في الوحدة الصوتية (ته) أضفى جواً إيحائياً لمعنى معين ودلالة تختلف عما تقدم، فالتاء والهاء صوتان مهموسان أي فيهما همس وخفوت، فالصوت الأول هو الروي والثاني ضمير، أسهما في بث مدلول الانحناء والتواضع والإذعان والإجابة للنداء الإلهي (لتواضعهم لعظمته، وإذ عانهم لعزته، أجابوا إليه دعوته)، وصوت الهاء فيه مد يشبه إلى حد ما الصوائت الطويلة في وضع مجرى الهواء، فيحدث الهاء (بهواء مندفع من الصدر، لا يحول دونه عائق غير أن فتحة الوترين الصوتين بها شيء من تضييق)[٤]، أو هو (الهواء المار بالحنجرة أثناء الزفير)[٥]، فهو يقترب من أصوات المد الهوائية، (ويتخذ الفم عند النطق بالهاء وضعاً يشبه الوضع الذي يتخذه عند النطق بأصوات اللين)[٦]، و (حروف المد أوضح في السمع من الحروف الأخرى)[٧].

---

(١) ينظر: الأصوات اللغوية، أنيس: ١٥٦.

(٢) دراسة الصوت اللغوي: ١٠٠.

(٣) ينظر: علم اللغة العام(الأصوات): ١٣١.

(٤) في صوتيات العربية: ٩٠.

(٥) علم الأصوات، مالمبرج: ١٢٦.

(٦) الأصوات اللغوية، أنيس: ٨٨ .

(٧) موسيقى الشعر: ٣١٢ ـ ٣١٣.

فالميم والهاء بقربهما من أصوات المد قد استوعبا الشحنة الدلالية، وأصبح التعادل بين الصوت المعبر عنه والحالة الشعورية لمنتج النص، بصداها الكبير، تضافراً في نتاج ذي وقع مؤثر في السجع بشكل متوازن، مما زاد الصورة وضوحاً وجمالاً.

ومن وسائل الأسلوب الخطابي الرفيع أن يكون موسيقياً رناناً، ليكون خفيفاً على اللسان، حسن الوقع في الآذان، ويتحقق ذلك عن طريقين: انسجام الحروف وحلاوة جرسها، وائتلاف الكلمات وتلاؤم فقرها وإيقاعها، فتطول الجملة وتقصر طوعاً لحركة الفكر وحالة العاطفة[١].

ومنه قوله (ع): (**أَحْمَدُهُ اسْتِتْمَاماً لِنِعْمَتِهِ، واسْتِسْلاماً لِعِزَّتِهِ، واسْتِعْصَاماً مِنْ مَعْصِيَتِهِ، وأَسْتَعِينُهُ فَاقَةً إلى كِفَايَتِهِ، إِنَّهُ لا يَضِلُّ مَنْ هَدَاهُ، ولا يَئِلُ مَنْ عَادَاهُ، ولا يَفْتَقِرُ مَنْ كَفَاهُ، فَإِنَّهُ أَرْجَحُ مَا وُزِنَ، وأَفْضَلُ مَا خُزِنَ، وأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، شَهَادَةً مُمْتَحَناً إِخْلاصُهَا، مُعْتَقَداً مُصَاصُهَا، نَتَمَسَّكُ بِهَا أَبَداً مَا أَبْقَانَا، ونَدَّخِرُهَا لأَهَاوِيلِ مَا يَلْقَانَا، فَإِنَّهَا عَزِيمَةُ الإِيمَانِ وفَاتِحَةُ الإِحْسَانِ، ومَرْضَاةُ الرَّحْمَنِ، ومَدْحَرَةُ الشَّيْطَانِ**)[٢].

نلحظ في هذه الخطبة قيماً صوتية متعددة جاءت من أساليب متنوعة، استطاع مبدع النص أن يشرك المتلقي في الإحساس بالمعاني المعروضة، وهي:

١ - الفاصلة ذات المقطع المغلق عند الوقف، جاء متناغماً مع مدلولات معنية في تمام النعمة، والخضوع لقهر الخالق، وطلب الحصانة من معصيته، فهي طلبات لنهايات الاستعانة وثمارها، (**أَحْمَدُهُ اسْتِتْمَاماً لِنِعْمَتِهِ، واسْتِسْلاماً لِعِزَّتِهِ، واسْتِعْصَاماً مِنْ مَعْصِيَتِهِ**).

٢ - الترصيع، وهو أسلوب بلاغي (يعتمد تصيير مقاطع الأجزاء في البيت المنظوم أو الفصل من الكلام المنثور مسجوعة)[٣]، أو هو التقابل بين الألفاظ من ناحية الوزن والتقفية[٤]، نحو (استتماماً، استسلاماً، استعصاماً)، فيخلق هذا اللون من الأسلوب ترددات موسيقية متساوية الانشطار في إيقاعها، ذات التأثير الهادر.

٣ - لزوم مالا يلزم، هو (أن يجيء قبل حرف الروي ما في معناه ما ليس بلازم في مذهب السجع)[٥]، نحو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾[٦]، التزام الهاء في الموضعين قبل الراء، نحو ما جاء في خطبة الإمام علي (ع): (هداه وعاداه، وزن وخزن)[٧]، ولزوم ما لا يلزم دليل على القدرة الإيقاعية والسمو بموسيقى الفاصلة[٨].

---

(١) ينظر: فن الخطابة: ١٩٢.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١/١٣٩.

(٣) سر الفصاحة: ١٩٠.

(٤) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ٣٦٢، المثل السائر: ١/٢٥٨.

(٥) الإيضاح في علوم البلاغة: ٣٦٧.

(٦) الضحى: ٩ - ١٠.

(٧) ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١/١٤٠.

(١) ينظر: موسيقى الشعر: ٣٠٦ - ٣٠٧.

٤ ـ الفاصلة، ذات المقطع المفتوح الطويل، (إخلاصها، مصاصها، أبقانا، يلقانا) وأصوات المد تقوم بإعطائنا قوة على الإسماع بسبب عدم وجود الاحتكاك والحائل في مجرى الهواء في أثناء الأداء الصوتي لها[١]، وأصبحت هذه القوة مزدوجة باقترانها مع الهاء الشبيه بأصوات اللين[٢]، والنون التي تسمى بشبه أصوات العلة لقوة الوضوح السمعي فيها، وحرية مرور الهواء[٣].

المقاطع الطويلة جاءت امتداداً للمعاني المعينة التي يوافقها سمة هذا المقطع، نحو: (شهادة ممتحناً إخلاصها)، أي أنّ كلمة التوحيد والشهادة خرجت بإخلاص من أعماق الإمام وهي غير متناهية، وستبقى سرمدية ما بقي الأمام، و (معتقداً مصاصها)، أي أن عقيدته خالصة من كل شائبة، و (نتمسك بها أبداً ما أبقانا، وندخرها لأهاويل ما يلقانا)، التمسك بالإيمان والمعتقد عنده (ع)، باقٍ ببقاء الحياة الدنيا، وهو ذخر كبير للإنسان في الحياة الآخرة. وكل تلك المعاني غير المتناهية وغير المحدودة عبّر عنها بالمقطع الطويل المنفتح.

ثم عضّد ذلك المستوى الصوتي، وتوافقه مع المدلول بالوحدة الصوتية، للفاصلة (ان)، نحو: (فإنها عزيمة الإيمان، وفاتحة الإحسان، ومرضاة الرحمن، ومدحرة الشيطان). فالنون ساعدت في بيان الحالة الشعورية الممتدة، مع وجود تردد موسيقي محبب فيها[٤]، والنون تلي أصوات اللين في الطول الطبيعي فهي من أطول الأصوات الصامتة[٥].

وبذلك وظّفت الأصوات توظيفاً دلالياً وإيقاعياً، بمهارة لغوية عالية، للتأثير في المتلقي الذي يستقبلها بانسيابية، بسبب هذا التناسق الصوتي مع المعنى في الوصول إلى صورة أدبية عالية ومؤثرة، لان غاية الخطابة هي الإقناع والتأثير.

ثانياً: التنغيم والنبر والمقطع الصوتي:

التنغيم مصطلح حديث، لم يتناوله القدماء بصورة مستقلة في دراستهم، وقد أشار إليه (ابن جني) في (الخصائص)، في حذف الصفة وإقامة الحال مكانها، (فتقول: كان والله رجلاً فتزيد في قوة اللفظ بـ (الله) هذه الكلمة وتتمكن في تمطيط اللام وإطالة الصوت بها (وعليها) أي رجلاً فاضلاً أو شجاعاً أو كريماً، أو نحو ذلك وكذلك تقول سألناه فوجدناه إنساناً وتمكن الصوت بإنسان وتفخمه فتستعين بذلك عن وصفه بقولك إنساناً سمحاً أو جواداً، أو نحو ذلك)[٦].

---

(١) ينظر: في الأصوات اللغوية: ٤٥.

(٢) ينظر: الأصوات اللغوية: ٨٨ ـ ٨٩ .

(٣) ينظر: علم اللغة العام(الأصوات): ١٣١.

(٤) ينظر: الأصوات اللغوية: ٧٠.

(٥) ينظر: م. ن: ١٥٤.

(٦) الخصائص: ٢/ ٣٧١.

والتنغيم هو: ارتفاع الصوت وانخفاضه في الكلام، وله وظيفة نحوية ودلالية مهمة، لتمييز الجمل: قد تكون إثباتية (تقريرية)، أو استفهامية، ولمعرفة معنى التهكم أو الزجر، والموافقة أو الرفض أو الاستغراب والدهشة[١]، فكلمة (نعم) لها تنغيم يختلف عن التنغيم في حالة الغضب، ويمكن أن أطلق عليه تسمية (موجّه الكلام) لما له من دور في توضيح الجمل، وتفسيرها وتوجيهها بالصورة الصحيحة.

وله عدة تسميات تبعاً للترجمة، فمنهم من ترجمه بـ (موسيقى الكلام)[٢]، والنبر الموسيقي[٣]، والتنغيم موجود في معظم اللغات[٤].

وقد صنّفه د. تمام حسان على أبواب[٥]، يمكن إيجازها بالمخطط الآتي:

نوع الكلام	نوع التنغيم ودرجته
المجموعة الكلامية التي يتم بها المعنى	نغمة هابطة
المجموعة الكلامية التي لا يتم بها المعنى	نغمة صاعدة
تأكيد الإثبات في جواب المنكر لفعل قام به تأكيد الاستفهام (عدا الفعل والهمزة)	إيجابي هابط
الاستفهام بـ (هل والهمزة)	إيجابي صاعد
الإثبات غير المؤكد التحية المعدودات النداء الكلام التام	نسبي هابط
الاستفهام بغير هل والهمزة	نسبي صاعد
التسليم بالأمر نحو لا حول ولا قوة إلا بالله عبارات الأسف والتحسر	سلبي هابط
التمني والعتاب	سلبي صاعد

(والفرق بين الثلاثة مديات (الايجابي والنسبي والسلبي) فرق في علو الصوت وانخفاضه، فالايجابي أعلاها والسلبي أخفضها وبينهما النسبي)[٦].

---

(١) ينظر: علم اللغة العام (الأصوات): ١٦٣.

(٢) الأصوات اللغوية: ١٧٥.

(٣) علم الأصوات، مالمبرج: ٢٠٩.

(٤) دراسة الصوت اللغوي: ٣١٤.

(٥) ينظر: مناهج البحث في اللغة: ١٦٨ - ١٦٩.

(٦) مناهج البحث في اللغة: ١٦٩.

وهناك عدة عوامل مؤثرة في التنغيم، منها: الحالة النفسية والشعورية للمنتج، والنبر، والوقف، وتغير تردد نغمة الأساس، وزمن المستغرق، ونوعية الصوت[١]. فالأصوات لا ينظر إليها من جهة الانفراد والتفكك، بل إنّ حياتها وجمالها يكمن في علاقاتها (بالمجموعة الكلامية بصفة عامة، كالموقعية والنبر والتنغيم)[٢].

وهناك فرق بين التنغيم والنغمة، فالأول يعني: (الارتفاع والانخفاض المميز في العبارة وهو يتعلق بالجملة، وينقل معلومات في اللغات حول المكونات القواعدية في التعبير، أما النغمة فهي درجة العلو في الكلمة)[٣].

وهناك علاقة بين التنغيم والنبر والمقطع في التحليل الصوتي، (وتسمى النغمة (صاعدة) Rising tone إذا تم صعودها من أسفل إلى أعلى على المقطع الذي وقع عليه النبر. والنغمة هابطة Falling tone إذا تم نزولها من أعلى إلى أسفل، على آخر مقطع وقع عليه النبر)[٤].

من أجل (ذلك كانت علاقة التنغيم بالنبر وثيقة؛ لأنه لا يحدث (تنغيم) دون (نبر) للمقطع الأخير من الجملة التي تقع ضمنها الكلمة)[٥].

ويمكن أن نزيد على ذلك بأن النوعين يتفقان على كشف الحالة الشعورية والنفسية عند منشئ النص، أو القصدية في إثبات أمر ما. ولكنهما يختلفان في أنّ النبر لا يؤثر في تغيير المعنى خاصة في العربية، على حين أن التنغيم له وظائف دلالية متعددة.

والتنغيم على الرغم من اختلاف صوره وإمكاناته يمكن حصر نغماته الرئيسة في تنغيمتين اثنتين (نظرا إلى نهاياتها لا إلى الوحدات الداخلية)، الأولى: الهابطة: كالجملة التقريرية، ذات المعنى الكامل، نحو: محمود في البيت، والجمل الاستفهامية بالأدوات الخاصة عدا (هل، والهمزة)، والجمل الطلبية: التي تحتوي على فعل أمر أو نحوه.

الأخرى: النغمة الصاعدة: لصعودها في نهايتها: كالجمل الاستفهامية التي تستوجب الإجابة بلا أو نعم، والجمل الشرطية (المعلقة)، وفيها الكلام غير تام لارتباطه بجواب الشرط، نحو: إنْ تدرسْ تنجح.

فالصعود يكمن في فعل الشرط فهو كلام معلق، ويتوقف تمامه على الجواب، والنغمة الهابطة تكمن في الجزء الثاني من الجملة الشرطية (جواب الشرط)؛ لأن الكلام قد تم وأصبحت الجملة تقريرية[٦].

---

(١) ينظر: دراسة السمع والكلام: ٢٦٣ ـ ٢٦٤.

(٢) مناهج البحث في اللغة ١١١.

(٣) منهج النقد الصوتي ٥١.

(٤) في البحث الصوتي عند العرب ٦٣.

(٥) م. ن ٦٤.

(٦) ينظر: علم الأصوات، كمال بشر ٥٣٤ ـ ٥٣٧.

وقد تظهر النغمات الصاعدة والهابطة معاً في منطوق واحد، نحو: واحد، اثنين، ثلاثة، أربعة، فالصعود يكون في (١ - ٣) لعدم تمام المعنى، والهبوط في أربعة لانتهاء الكلام[١].

ومنهم من حدد ستة مستويات للتنغيم من جهة النوع، هي:

١ - الصاعدة: تتمثل في الأمر، والترغيب، والتعجب، والاستفهام، والإثارة، والإهانة، والنهي المحض.

٢ - المستوية: تتمثل في التقرير والخبرية، والتذكير، والنصح، والإرشاد، والنداء المحض، وطلب الانتباه.

٣ - الهابطة: وتتمثل في التمني، والتهكم، وإظهار الأسف والحزن.

٤ - المستوية الصاعدة: وتتمثل في التهديد، والسخط والغضب.

٥ - المستوية الهابطة: وتتمثل في الإنكار، والتوبيخ، والعتاب، والتعجيز، والإهانة، والسخرية.

٦ - الهابطة المساوية: وتتمثل في الحيرة والتخبط[٢].

والنبر هو: الضغط على مقطع معين، فهو نشاط في جميع أعضاء النطق في وقت واحد، إذ تنشط عضلات الرئتين نشاطاً كبيراً، كأقصى الحنك واللسان والشفتين[٣]، أو هو (نطق مقطع من مقاطع الكلمة بصورة أوضح وأجلى نسبياً من بقية المقاطع التي تجاوره)[٤]. والمقطع هو (وحدة صوتية تبدأ بصامت يتبعه صائت، وتنتهي قبل أول صامت يرد متبوعا بصائت، أو حيث تنتهي السلسلة المنطوقة قبل مجيء القيد)[٥].

وتوجد في العربية أنواع المقاطع الآتية:

١ - مقطع قصير: (صامت + صائت قصير)، مثل: كَ.

٢ - مقطع متوسط، أو الطويل المغلق بحركة قصيرة: (صامت + صائت قصير+صامت)، مثل: كمْ.

٣ - مقطع طويل مفتوح: (صامت + صائت طويل)، مثل: كا.

٤ - مقطع طويل مغلق: (صامت + صائت طويل + صامت)، مثل: نارْ في حال الوقف.

٥ - مقطع طويل مغلق بصامتين: (صامت + صائت قصير + صوتان صامتان)، مثل: بَحْرْ في حال الوقف.

ويتألف معظم الكلام العربي من المقاطع الثلاثة الأولى[٦].

---

(١) ينظر: م. ن ٥٣٨.

(٢) ينظر: التنغيم اللغوي في القرآن الكريم ١٥٧.

(٣) ينظر: الأصوات اللغوية ١٦٩ - ١٧٠.

(٤) علم الأصوات، كمال بشر ٥١٢.

(٥) أبحاث في أصوات العربية ٨.

(٦) ينظر: موسيقى الشعر ١٤٦ - ١٤٨.

٦ ـ صامت + صائت طويل + صامت + صامت، ويسمى مقطعاً مديداً مقفلاً بصامتين، نحو: رادّ، وهذا نادر.

والمقطع والنبر (متلازمان في الدرس والتحليل، ذلك أن المقطع حامل النبر، والنبر أمارة من أمارات تعرفه)[١]. وفيما يخص علاقة التنغيم بالمقطع، فإن النبر على مقطع بعينه يؤدي دلالة. فالنبر على المقطع الأخير إذا كان طويلاً، نحو: نستعين ونستغفر، يحدث إطالة في صوت المد (الياء)، بزيادة الهواء المتدفق من الرئتين وكميته، فيؤدي إلى وظيفة تنغيمية دلالية، وهي الزيادة في الاستعانة بالله تعالى، وكذلك الحال مع المقطع المتوسط، نحو: استفهم، فيدلّ على تأكيد عملية الفهم للشخص المتكلم عليه. أما إذا كان النبر على المقطع الأول (استفهم) فالنغمة تهبط إلى أسفل حتى تصل إلى المدى النفسي، ثم تنتقل إلى المدى الهابط لتدل على استهزاء[٢].

وتوجد في اللغة العربية عدة قواعد للنبر[٣] منها:

١ ـ المقطع الواحد منبور دائماً.

٢ ـ إذا توالت عدة مقاطع مفتوحة يكون الأول منها منبوراً، نحو كلمة: (كَتَبَ)، (اجتمع)، و (انكسر).

٣ ـ إذا تضمنت الكلمة مقطعاً طويلاً واحداً، يكون النبر على هذا المقطع الطويل، نحو كلمة (كتاب)، فالنبر وقع على المقطع الثاني، أو نحو: أبوك وقع على (بو)، ونحو: نهضتُ: نَ/هضْ/تُ، فالنبر وقع على (هض).

٤ ـ إذا تكونت الكلمة من مقطعين طويلين، يكون النبر على أولهما، ففي كلمة (كَاتِب)، نجد مقطعين طويلين أولهما مفتوح، والآخر مغلق، والنبر على المقطع الأول.

٥ ـ يقع النبر على المقطع الأخير، إذا كان من النوع الرابع أو الخامس، نحو: نستعين: صامت + صائت قصير + صامت (نَسْ)/ صامت صائت قصير (تَ)/ صامت + صامت طويل+ صامت (عين)، فالنبر وقع على آخر مقطع (عين). وإذا كان آخر مقطع من النوع الخامس فإن النبر يقع عليه، نحو: مستقرّ: صامت + صائت قصير +صامت (مُسْ)/صامت + صائت قصير (تَ)/ صامت + صائت قصير + صامت + صامت (قرّ)، فالنبر وقع على (قَرّ).

وهناك علاقة بين النبر وطول المقطع، فنبر الصوت في المقطع يؤثر في باقي أصواته، لذا تنطق الأصوات في المقطع المنبور بقوة أكبر تجعله أكثر تصويتاً (إسماعاً)[٤].

---

(١) علم الأصوات، كمال بشر ٥٠٣.

(٢) ينظر: علم الصرف الصوتي ١٠٢ وما بعدها.

(٣) ينظر: الأصوات اللغوية ١٧١ وما بعدها، مدخل إلى علم اللغة ٨١ ـ ٨٢.

(٤) ينظر: دراسة الصوت اللغوي ١٩٠ ـ ١٩١.

وليس النبر مستعملاً في كل اللغات للتفريق بين المعاني، ومن ثم فهو ليس فونيما في كلّ اللغات. كما في العربية واليابانية والفنلندية والتشيكية والبولندية والفرنسية والهنغارية والسواحلية، وكل هذه اللغات غير النبرية تثبت النبر في مكان معين[١]. أما اللغات النبرية فهي (الانجليزية والألمانية والأسبانية)[٢].

وللنبر قيم صوتية في الوضوح السمعي، وأخرى وظيفية في التعرف على التتابع المقطعي في الكلمات ذات الأصل الواحد، عند تنوع درجات نبرها. هذا على مستوى الكلمة، أما على مستوى الجملة فإن للنبر وظائف في تنوع النبر ودرجاته يفيد التأكيد أو المفارقة، إذ يتنقل النبر القوي من كلمة إلى أخرى، للكشف عن هذه المفارقة. وعلى مستوى الكلام المتصل ترشد إلى تعرف بدايات الكلمات ونهاياتها وبخاصة في اللغات ذات النبر الثابت، كالعربية وغيرها[٣].

إنّ تلك السمات فوق التركيبية، لا غنى عنها، فالنبر يؤدي إلى إنتاج كمية أكبر من الهواء الخارج من الرئتين، لذلك يكون المقطع المنبور أوضح من غير المنبور. ويضم المقطع المنبور ـ غالباً ـ صوتاً صائتاً (مركز الوضوح). وهذا التباين في الوضوح السمعي، يؤثر في نسيج النص، ويؤدي أثراً في وضوح المقاطع التي تشكل الكلمات، التي تنسج بدورها أنماط التنغيم، الذي يؤثر بدوره في المتلقي[٤].

وقد قام تقسيم مستويات التنغيم في هذا البحث على وفق الوحدة الداخلية للنص وهي على ما يأتي:

أولاً ـ المستوى الصاعد:

يتحقق بما يأتي:

١ ـ الاستفهام:

أسلوب لغوي يراد به طلب الفهم[٥]، والاستفهام نوعان: حقيقي ومجازي. والنوع الأول أعلى درجة في التنغيم من النوع الثاني، لأنه يراد به الجواب، على حين لا يراد به الجواب من الثاني.

وفي خطب الإمام علي (ع)، يغلب الاستفهام المجازي الذي يخرج عن الاستفهام الحقيقي إلى أغراض متعددة، كالإنكار، والتوبيخ، والتقريع، وغيرها، لان الاستفهام في واقعه يراد به طلب العلم بشيء، لم يكن معلوماً من المتكلم، والإمام علي باب مدينة العلم وهو نفس رسول الله (ص) الذي خصه بالحديث النبوي الشريف قائلاً: (أنا مدينة العلم وعلي بابها)،

---

(١) ينظر: م. ن ١٨٨، علم الأصوات ٥١٧ ـ ٥١٨.

(٢) علم الأصوات، كمال بشر ٥١٧.

(٣) ينظر: م. ن ٥١٤ ـ ٥١٥.

(٤) ينظر: منهج النقد الصوتي ٥١ ـ ٥٢.

(٥) ينظر: في النحو العربي نقد وتوجيه: ٢٦٤.

وهو محيط أي إحاطة بأحداث السابقين والمعاصرين له. لذا لا نجد المعنى الحقيقي للاستفهام من لدن الإمام، فليس به حاجة لجواب الاستفهام.

والاستفهام الحقيقي إنما هو تحول من الخبر إلى الإنشاء، نحو: هل قرأت؟، على حين أن الاستفهام المجازي خروج عن دلالته الأصلية، فلم يعد فيه طلباً وهو عدول من الإنشاء إلى الخبر، ولكنه خبر غير محض، بل يشويه الاستفهام، وقد أكسب الاستفهام بعضاً من سمات الخبر عن طريق ركنين أساسين هما الزمن والإسناد [١].

ومما جاء في نهج البلاغة (**فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيّاً ومَيِّتاً**)[٢]، (من): استفهام فيه معنى الإنكار، ومراده من هذا الكلام، أنه أحق بالخلافة بعد الرسول الكريم (ص) وأحق الناس بالمنزلة منه حيث كان بتلك المنزلة منه في الدنيا [٣].

فعلو التنغيم الذي تحقق بالاستفهام هنا جاء، نتيجة لمقدمة ذكر فيها (ع) منزلته الكبيرة وقربه من رسول الله (ص) قائلاً: (**وَلَقَدْ سَالَتْ نَفْسُهُ فِي كَفِّي، فَأَمْرَرْتُهَا عَلَى وَجْهِي. وَلَقَدْ وُلِّيتُ غُسْلَهُ (ص) والْمَلائِكَةُ أَعْوَانِي، فَضَجَّتِ الدَّارُ والأفْنِيَةُ: مَلأٌ يَهْبِطُ ومَلأٌ يَعْرُجُ ومَا فَارَقَتْ سَمْعِي هَيْنَمَةٌ مِنْهُمْ، يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِي ضَرِيحِهِ فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيّاً ومَيِّتاً**) [٤].

وهنا علاقة بين المقطع والنبر والتنغيم فـ (مَنْ) مقطع طويل مغلق بحركة قصيرة (مقطع متوسط)، وما دام المقطع واحداً فهو منبور. فحقق: المقطع الواحد + النبر، درجة تنغيمية عالية أدت إلى وجود معنى معين، منحت النص قوة في الدلالة، على أحقية الإمام وفضله ومنزلته الكبيرة على الصحابة، ثم أسهم المقطع المغلق بغلق الباب وحسم الأمر في علو كعبه، وأردفه بمقطع طويل مفتوح (ذا) لإسماع أقوى في النبر لان المقطع حامل النبر، الذي نتج عنه إطالة في صوت المد (الألف)، بزيادة في كمية الهواء الخارج من الرئتين، حقق دلالة معينة خدمت النص وفكرته.

ومن كلام له (ع) (قاله للأشعث بن قيس وهو على منبر الكوفة يخطب، فمضى في بعض كلامه شيء اعترضه الأشعث فيه، فقال يا أمير المؤمنين، هذه عليك لا لك، فخفض (ع) إليه بصره ثم قال: مَا يُدْرِيكَ مَا عَلَيَّ مِمَّا لِي عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ ولَعْنَةُ اللاعِنِينَ) [٥]

ما: هنا استفهامية فيه معنى الإنكار، وفي النص نجد علو درجة الصوت لما نلحظه من شعور متنامي عالٍ من الإمام (ع)، جاء في مناخ تنغمي حاد، منح النص هالة من الأدلة والحجج على بطلان قول خصمه الاشعث بن قيس.

---

(١) ينظر: التناوب الدلالي بين الخبر والإنشاء في التعبير القرآني(رسالة دكتوراه): ١٩٨.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١٠/١٤٠.

(٣) م. ن: ١٠/١٤٥.

(٤) شرح نهج البلاغة، (ابن أبي الحديد): ١٠/١٤٠.

(٥) م. ن:

وعند الوقوف على أسلوب الاستفهام نجد أنّ (ما) حملت مقطعاً طويلاً مفتوحاً (بالألف)الذي هو أعلى الصوائت وضوحاً، عضده النبر في هذا المقطع الواحد (ما)، فالوضوح السمعي أتى من ماهية الأصوات المستعملة الذي أردفه بـ (مقطع مفتوح)بالياء (يدريك): ص ح ص (يُدْ) +ص ح ح (ري) + ص ح (كَ). فالنبر وقع على المقطع المفتوح (ري)، فدرجة علو الصوت فيه أوضح من المقاطع المجاورة غير المنبورة

وظّف ذلك لتوضيح وقوة الدلالة الذاهبة إلى تفنيد وإثبات بطلان خصمه، يزاد على ذلك ان علو الصوت مرتبط بالحالة الشعورية وحالة الغضب عندما قطع الأشعث كلام الإمام علي (ع)، تجسد ذلك عن طريق المقطع المفتوح، والنبر، والتنغيم.

ومن كلام له (ع) في ذم أصحابه: (**لا أَبَا لِغَيْرِكُمْ مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ، والْجِهَادِ عَلَى حَقِّكُمْ!..... لِلَّهِ أَنْتُمْ! أَمَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ، ولا حَمِيَّةٌ تَشْحَذُكُمْ**) [١]. من المتوقع أن تكون نغمات النص في هذه الخطبة من المدى العالي؛ لأنه يستعرض فيه حال أصحابه من التقاعس عن تأدية الواجب، وعدم الاستجابة لدعوة الإمام، (ما تنتظرون) استفهام فيه معنى الإنكار التوبيخي، ومعناه ما تنتظرون بتأخيركم عن نصرة دين الله، ثم صعّد من المستوى التنغيمي باستعماله أسلوب التعجب (لله أنتم!) أما دين يجمعكم ولا حمية تشحذكم).

ومن كلامه (ع) لما عوتب على منهجه في التسوية بالعطاء وبين الناس من غير تفضيل أصحاب السابقات والشرف: (أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ) الهمزة (استفهام على سبيل التقريع والتوبيخ: أي كيف تأمرونني أن اطلب النصر منكم بالجور والظلم (في)حق من وليت عليه وملكت أمره من المسلمين) [٢].

إنّ (العامل الأهم في هذا النوع من الاستعمال هو الانزياح لذي يمارسه المتكلم فيحول الوظيفة الأصلية التي يؤديها استعمال أدوات الاستفهام إلى وظيفة مختلفة تحقق انزياحا آخر ولكنه دلالي) [٣].

فإنّ التنغيم هنا نقل الدلالة من الاستفهام الحقيقي إلى التوبيخ، وذك له أثر في وضوح المعنى المراد، فلو كانت المنظومة الصوتية على وتيرة واحدة، وبمستوى واحد لقلّ التأثير في المتلقي.

٢- التعجب:

من كلام له (ع) في ذم أصحابه: (**لا أَبَا لِغَيْرِكُمْ مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ والْجِهَادِ عَلَى حَقِّكُمْ الْمَوْتَ أو الذُّلَّ لَكُمْ فَوَاللَّهِ لَئِنْ جَاءَ يَومِي ولَيَأْتِيَنِّي لَيُفَرِّقَنَّ بَيْنِي وبَيْنَكُمْ وأَنَا لِصُحْبَتِكُمْ قَالٍ وبِكُمْ غَيْرُ كَثِيرٍ لِلَّهِ أَنْتُمْ! أَمَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ ولا حَمِيَّةٌ تَشْحَذُكُمْ**) [٤].

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٥٤/١٠.

(٢) منهاج البراعة: ١٦٢/٨.

(٣) المستويات الجمالية في نهج البلاغة ١٥١.

(٤) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد ٥٤/١٠.

نغمات النص متصاعدة بسبب:

أ ـ وجود الاستفهام على سبيل الإنكار التوبيخي في: (ما تنتظرون)، أي أنكم تتقاعسون عن إحراز النصر، و (أمَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ)، فهو استفهام على معنى التقرير أو التوبيخ.

ب ـ التعجب: في: (لله أنتم).

والحالة النفسية للمنشئ لها أثر في تصعيد النغمات الترددية، لوجود نقيضتين من المنهج والموقف؛ موقف الإمام المعروف بالصلابة والشجاعة وموقف أصحابه المتهاونين الضعفاء. فهذا أنتج حرقة في نفس الشجاع يفرغه في الكلام الموجه لهم، الذي يذكرهم بحقوق عليهم من الجهاد، والإسلام الموحد الجامع لهم، وحمية العربي الأصيل.

فقد/ هيّأ الإمام (ع) مساحة فيحاء لإظهار مشاعره عن طريق الأصوات، نحو: (ما تنتظرون): ص ح ح (ما)، ص ح ص (تَنْ)، ص ح (تَ)، ص ح (ظِ)، ص ح ح ص (رونْ). (لله): ص ح (لِ)، ص ح ح (لا)، ص ح (هِ) في الوصل. (أما): ص ح (أَ)، ص ح ح (ما)، (لا): ص ح ح. تلك الحزم الصوتية في هذا التركيب واضحة من خلال سمة الجهر فيها، واختلاف المقاطع الصوتية فيها. ففي المقطع المفتوح (ما، لله، أما، لا) فأسهم في إعطاء مد دلالي، وتوكيد للمعنى، وكشف لمسار الانفعال والعواطف عند المتكلم، وكذلك وجود النبر فيها إضافة إلى المقطع (رون) في (تنتظرون)، المكون من (الراء والنون) الأصوات المائعة، التي تعدّ أوضح الصوامت، والواو المدية ذات الحزمة الصوتية العالية، كل ذلك أنتج نسيجا تنغيميا داخل الجو الخطابي الذي ألقى بظلاله على المتلقي.

وقوله (ع): (**وَلَيْسَ لِوَاضِعِ الْمَعْرُوفِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ، مِنَ الْحَظِّ فِيمَا أَتَى إِلا مَحْمَدَةُ اللِّئَامِ، وثَنَاءُ الأَشْرَارِ، ومَقَالَةُ الْجُهَّالَ، مَا دَامَ مُنْعِماً عَلَيْهِمْ مَا أَجْوَدَ يَدَهُ**)[1]. فأي مال أغاث ملهوفا فهو خير، وما عداه فليس بشيء، وربما كان شرا، ووبالا على صاحبه كالذي ينفق أمواله على اللئام، والأشرار يبتغي ذلك الشهرة، وهم يثنون عليه، ويقولون: (ما أجود يده)، فإذا منع عنهم نواله، نعتوه بأقبح الصفات[2].

وجاء التعجب في النص بصيغته القياسية: (ما أفعله) منح الكلام انفعالا بحكم النتيجة على العطاء، وإذا بذلك المال غير مستقر في نفوس اللئام، وعدم وجود الثبات والاستقرار في النفس الإنسانية غير الراقية. هذا الانفعال حقق التنغيم الصاعد في مستواه ومداه. عبر صراع الضدين: أهل الخير الثابتين، وأهل الشر المتلونين، ساعدت هذه الصيغة: (ما أجود يده) التعجبية في إحداث صدمة وتأثير عند التلقي، ليعمل موازنة بين الفريقين بصورة واضحة، حركت جو الخطبة، وأعطت شحنة من التأمل في فضاء التقابل والثنائية، ليقوم برصد وإظهار النتيجة والحكم بنفسه.

---

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد ٥٩/٩.

(٢) ينظر: في ظلال نهج البلاغة ١٨٤/٣.

وقوله (ع): (فَلا تَسْتَعْجِلُوا مَا هُوَ كَائِنٌ مُرْصَدٌ، ولا تَسْتَبْطِئُوا مَا يَجِيءُ بِهِ الْغَدُ. فَكَمْ مِنْ مُسْتَعْجِلٍ بِمَا إِنْ أَدْرَكَهُ وَدَّ أَنَّهُ لَمْ يُدْرِكْهُ، ومَا أَقْرَبَ الْيَوْمَ مِنْ تَبَاشِيرِ غَدٍ!) [١]. بالصبر والرويّة يبلغ الإنسان ما يريد، ويضع الأشياء في موضعها الصحيح، وكلما قرب الغد بعُد الذي قبله [٢].

استعمل الإمام أساليب إنشائية، شحنت الجو والسياق بأدلة على صحة الفكرة المعروضة، وهي عدم التسرّع، ذاكرا أسلوب النهي المحض: (فلا تستعجلوا)، و (لا تستبطئوا)، والاستفهام بـ (كم) (كم من مستعجل) (خبرية تفيد التكثير وبعدها تمييز مجرور بالإضافة أو مجرور بمن)، والتعجب: (وما أقرب اليومَ) فمنحت هذه الأساليب مناخا تنغيميا هي النفوس المتلقية للكلام لاستقبال تلك الفكرة، ومن ثم التأثير فيها، حتى ظهرت لنا موجات تنغيمية عالية الأمواج تتلاطم وتحرك النفوس والعقول المستقبلة لها.

وجاء معنى التعجب عن طريق حرف النداء: (أَلا وإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ ذَمَّرَ حِزْبَهُ واسْتَجْلَبَ جَلَبَهُ لِيَعُودَ الْجَوْرُ إلى أَوْطَانِهِ ويَرْجِعَ الْبَاطِلُ إلى نِصَابِهِ واللَّهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَراً ولا جَعَلُوا بَيْنِي وبَيْنَهُمْ نَصِفاً. وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقّاً هُمْ تَرَكُوهُ ودَماً هُمْ سَفَكُوهُ فَلَئِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ فَإِنَّ لَهُمْ لَنَصِيبَهُمْ مِنْهُ ولَئِنْ كَانُوا وَلُوهُ دُونِي فَمَا التَّبِعَةُ إِلا عِنْدَهُمْ وإِنَّ أَعْظَمَ حُجَّتِهِمْ لَعَلَى أَنْفُسِهِمْ يَرْتَضِعُونَ أُمّاً قَدْ فَطَمَتْ ويُحْيُونَ بِدْعَةً قَدْ أُمِيتَتْ يَا خَيْبَةَ الدَّاعِي مَنْ دَعَا وإِلامَ أُجِيبَ وإِنِّي لَرَاضٍ بِحُجَّةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وعِلْمِهِ فِيهِمْ) [٣].

(يا خيبة الداعي)، (نداء على سبيل التعجب من عظم خيبة الدعاء إلى قتاله، وهو نظير النداء في قوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ [٤]، أي يا خيبة احضري فهذا أوانك) [٥]. وهي (من خطب الجمل واردة في معرض التعرض على الناكثين، وقد وقع التصريح بذلك في بعض طرقها حسبما تأتي إليها الإشارة، وقد كنى عنهم بحزب الشيطان وجنود إبليس كما قال: (ألا وإن الشيطان قد ذمر حزبه)، وحشا قبيله (واستجلب جلبه)، وجمع جمعه (ليعود الجور إلى أوطانه)، كما كان عليها أولاً) [٦]، وقال على سبيل الاستصغار لهم (من دعا)، أي أحقر القوم دعاهم هذا الداعي (وإلى ما أجيب)، أي أقبح بالأمر الذي أجابوه إليه فما أفحشه وأرذله [٧].

فالنص الذي أمامنا فيه مستويان: الأول: تنغيم مستوي، بسبب وجود الجمل الخبرية، التي قبل النداء، والآخر: تنغيم صاعد، لوجود دلالة التعجب، الذي تحقق بحرف النداء:

---

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد ٩٧/٩.
(٢) ينظر: في ظلال نهج البلاغة ٢٥١/٣.
(٣) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد ٢٧٩/١.
(٤) آل ياسين: ٣٠.
(٥) منهاج البراعة ٢٦٨/٣.
(٦) م. ن ٢٦٨/٣.
(٧) م. ن ٢٧٠/٣.

(يا خيبة الداعي). والأسلوب الإنشائي أشد تنبيها للمتلقي، وأكثر درجة في موسيقى الكلام من الأسلوب الخبري. فهذا الأسلوب حقق قفزة صوتية عالية في السلسلة الكلامية، بالإضافة إلى ما يحدثه الصائت الطويل (يا) من الارتفاع الصوتي، وقوة الوضوح السمعي؛ لإبراز معنى مؤلم عند منتج النص.

٣ ـ الأمر:

تسهم صيغة أمر بعلو درجة التنغيم من كونها تدل على مطلوب غير حاصل وقت الطلب، ورغبة صاحب النص في تحقيقه ومراده فيما بعد. وهو يشترك مع النهي، والاستفهام، والتمني، والنداء، بذلك المدلول. ويتعلق كذلك الأمر بالغير، الذي يمد جسرا من التأثير في المتلقي تبعا لهذا المعنى.

ومما ورد في خطب نهج البلاغة من صيغ الأمر قوله (ع): (**فَاتَّعِظُوا عِبَادَ اللَّهِ بِالْعِبَرِ النَّوَافِعِ، واعْتَبِرُوا بِالآيِ السَّوَاطِعِ، وازْدَجِرُوا بِالنُّذُرِ الْبَوَالِغِ، وانْتَفِعُوا بِالذِّكْرِ والْمَوَاعِظِ**)[١]. العبر كثيرة في الحياة والسواطع الواضحة، والنذر التي بلغت الغاية من الوضوح، والموت أظهر الآيات، والعبر، والنذر حيث يتساوى فيه الملوك، والصعاليك[٢].

إنّ الارتفاع والانخفاض في مستوى الصوت أو التنغيم عند الخطيب (يجعل بذاته ونغماته ووقفاته ملائمة للأفكار والعواطف، فهو مبتهج تارة، وشاك تارة، وهو ساخط حيناً، ومتهكم حيناً، ومتعجب حيناً، فلابد ان ينوّع صوته ليلائم شعوره، ويساعده على التصوير)[٣].

ومن قوله (ع): (**إِنِّي أُحَذِّرُكُمْ ونَفْسِي هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ. فَلْيَنْتَفِعِ امْرُؤٌ بِنَفْسِهِ، فَإِنَّمَا الْبَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ، ونَظَرَ فَأَبْصَرَ، وانْتَفَعَ بِالْعِبَرِ**)[٤].

ويحذر الإمام من الغفلة عن العواقب، وأشرك نفسه معهم في التحذير ليحرك شعورهم، ويؤثر كلامه في قلوبهم: (فلينتفع امرؤ بنفسه): أي بعقله، والعقل آلة التفكير، وحدد الإمام مفهوم العقل بتلك الصفات: سمع، ورأى بعقل، وروية لا بالهوى[٥].

أسهم الأداء الصوتي لهذا النص في إيجاد جو متوازن من الدلالة الهادئة المعبرة، ليدخل إلى نفوس المتلقين كأنه نهر جارٍ بصوته الهادر بانسيابية واضحة. عرف مبدع النص كيف يوصلها بأدوات صوتية، حملت على جناحيها الهمس والخفوت عن طريق (الفاء)، بما يحمله من جمال موسيقي خافت، هيّأ الجو العام لتقبل الموعظة. إضافة إلى تأثيره في تسارع الإيقاعات السريعة والجملة لبث الفكرة مع صوت (الواو) في: (فلينتفع) الذي حقق الانزياح في

---

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد ٦/ ٢٧٠.

(٢) ينظر: في ظلال نهج البلاغة ٢/ ١٩١ ـ ١٩٢.

(٣) فن الخطابة ٣١.

(٤) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد ٩/ ١٢١.

(٥) ينظر: في ظلال نهج البلاغة ٣/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

بنية الكلمة، ليحقق السكون من (لِينتفع) إلى (فلْينتفع)، وتتعاقب الإيقاعات السريعة في: (إنما، فتفكر، ونظر، فأبصر، وانتفع)، التي حملت معها الوضوح السمعي الظاهرة في المقاطع القصيرة المفتوحة، (والمقطع عبارة عن قوة إسماع)[١].

ثم جاء صوت (الراء) الذي تكرر أيضاً (سبع مرات)، ليتمم المسحة الجمالية المتناسقة بينه وبين دلالة المحتوى بثقل العاقل وسماته فالعبر كثيرة ومتكررة، جاء ذلك متناغما مع سمة نطق (الراء) المتكررة، الذي يعطيه قوة وضوحه السمعي وجهره صفة التلاقح والانسجام بينهما. (هذا التناغم الصوتي بين الألفاظ المفردة والمركبة، لا تتم جماليته الموسيقية، إلا بتمام التناسق بين صوت اللفظ ودلالة محتواه)[٢]، وبذلك أظهر لنا مبدع النص الطاقات الموسيقية للأصوات المتآلفة مع الدلالة في إنتاج جو إيحائي معبّر.

ومنه قوله (ع): (**لَنْ يُسْرِعَ أَحَدٌ قَبْلِي إلى دَعْوَةِ حَقٍّ، وصِلَةِ رَحِمٍ، وعَائِدَةِ كَرَمٍ. فَاسْمَعُوا قَوْلِي، وعُوا مَنْطِقِي**)[٣]، فهنا يلوح الإمام لأهل الشورى (**بأنه أحق الناس بالخلافة لسبقه إلى الإسلام، وجهاده في سبيله، بالإضافة إلى سائر فضائله، ومنها الكرم وصلة الرحم**)[٤].

٤. **النهي**: كصيغة الأمر بتعلقه بالمخاطب، وهو طلب الكف عن فعل القبيح. ويساعد (المبنى) بـ (لا) الناهية الجازمة + الفعل المضارع المجزوم، بإيصال (المعنى) المنهي عنه، أي: جزم الحركة = قطع هذا الفعل، وتحديده.

ومما جاء في نهج البلاغة بهذه الصيغة: (**ولا تُرَخِّصُوا لأَنْفُسِكُمْ، فَتَذْهَبَ بِكُمُ الرُّخَصُ مَذَاهِبَ الظَّلَمَةِ، ولا تُدَاهِنُوا فَيَهْجُمَ بِكُمُ الإِدْهَانُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ**)[٥]، أي لا تطلقوا لأنفسكم العنان وتكون وراء الشهوات؛ لأنها تقودكم إلى التهلكة وهي المصير الحتم لكل من أهمل، ولا تداهنوا، والمداهنة والرياء بمعنى واحد، وهي تقود إلى المعاصي[٦].

ومن قوله (ع): (**أَيُّهَا النَّاسُ الزَّهَادَةُ قِصَرُ الأَمَلِ، والشُّكْرُ عِنْدَ النِّعَمِ، والتَّوَرُّعُ عِنْدَ الْمَحَارِمِ، فَإِنْ عَزَبَ ذَلِكَ عَنْكُمْ فَلا يَغْلِبِ الْحَرَامُ صَبْرَكُمْ، ولا تَنْسَوْا عِنْدَ النِّعَمِ شُكْرَكُمْ، فَقَدْ أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ بِحُجَجٍ مُسْفِرَةٍ ظَاهِرَةٍ**)[٧]. فقد حدد الإمام الزهد بثلاثة أوصاف: قصر الأمل، والشكر عند النعم، والتورع عند المحارم، فإذا لم تعملوا بالثلاثة فعليكم بالاثنين الأخيرين، وهما الكف عن المحرمات، وشكر النعم[٨].

---

(١) أسس علم اللغة ٩٦.

(٢) الفن والأدب ١٢٢.

(٣) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد ٣٩/٩.

(٤) في ظلال نهج البلاغة ١٦٨/٣.

(٥) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد ٢٧٤/٦.

(٦) ينظر: في ظلال نهج البلاغة ٢٠٤/٢.

(٧) شرح نهج البلاغة: ١٨٣/٦.

(٨) ينظر: في ظلال نهج البلاغة: ١٣١/٢ - ١٣٢.

ثانياً: المستوى المستوي، ويحصل بما يأتي:

١ ـ النداء: وهو طلب إقبال المخاطب، غايته إلى جذب انتباهه. ومما جاء في نهج البلاغة على هذا المستوى من التنغيم، قوله (ع): (**أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وتَعَلُّمَ النُّجُومِ إِلا مَا يُهْتَدَى بِهِ فِي بَرٍّ أو بَحْرٍ فَإِنَّهَا تَدْعُو إِلى الْكَهَانَةِ**)[١]، حين عزم الإمامعلى السير إلى تأديب الخوارج، قال له بعض أصحابه: إنْ سرت في هذا الوقت خشيت أن لا تظفر بمرادك عن طريق علم النجوم، فأجابه الإمام بنهيه عن تعلم وتصديق المنجّم الذي هو كالكاهن في أباطيله، لان علم الغيب لله وحده، واستثنى بكل ما ينفع الناس بجهة من الجهات فهو علم، وإذا كان الغرض من ذلك الحث على طلب العلم بالنجوم الذي يزيد الإيمان بالله ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[٢] [٣]. وأسلوب النداء حقق لنا تنغيماً وسطاً في الدرجة بين العالي والهابط لانه أراد التنبيه لحالة محددة.

ومنه قوله (ع): (**يَا عَبْدَ اللَّهِ، لا تَعْجَلْ فِي عَيْبِ أَحَدٍ بِذَنْبِهِ، فَلَعَلَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ، ولا تَأْمَنْ عَلَى نَفْسِكَ صَغِيرَ مَعْصِيَةٍ، فَلَعَلَّكَ مُعَذَّبٌ عَلَيْهِ**)[٤]، فالمقاطع القصيرة المنبورة المفتوحة في (يا، لا تعجل، لا تأمن)، خلقت مكوناً تنغيمياً أسهم فيه الوضوح السمعي العالي للصائت الطويل في تشكيل موسيقاها ويعزز أبعادها الفونولوجية والدلالية[٥].

٢ ـ **الكلام التام في معناه:** إنّ إكمال المعنى في المجموعة الكلامية لا يحقق ارتفاعاً في درجة التنغيم، ولا انخفاضاً فيه، إنما مرحلة وسطى بين الأمرين. عكس الكلام غير المكتمل في دلالته الذي ينتج شوقاً من المخاطب وتأثيراً أكبر من منتج النص في المتلقي.

من ذلك قول الإمام (ع): (**أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ والثَنَاءِ عَلَيْهِ أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنِّي فَقَأْتُ عَيْنَ الْفِتْنَةِ، ولَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِئَ عَلَيْهَا أَحَدٌ غَيْرِي بَعْدَ أَنْ مَاجَ غَيْهَبُهَا، واشْتَدَّ كَلَبُهَا**)[٦]، هذا النص مسوق لإظهار مناقبه الجمة وفضائله الدثرة. وقد أشار إلى فضيلته وشجاعته بأنه قلع الفتنة بشحمها أو أدخلت الأصبع فيها، وهو استعارة لكسر ثورانها وإسكان هيجانها، وهي فتنة أهل البصرة والنهروان. وأشار إلى شدة الفتن وظلمتها بقوله: (بعد أن ماج غيهبها)، والى غلبة شرها وأذاها بقوله (واشتد كلبها)[٧].

ومنه قوله (ع): (**فَلَمَّا مَهَّدَ أَرْضَهُ وأَنْفَذَ أَمْرَهُ، اخْتَارَ آدَمَ (ع) خِيرَةً مِنْ خَلْقِهِ، وجَعَلَهُ أَوَّلَ جِبِلَّتِهِ وأَسْكَنَهُ جَنَّتَهُ، وأَرْغَدَ فِيهَا أُكُلَهُ، وأَوْعَزَ إِلَيْهِ فِيمَا نَهَاهُ عَنْهُ وأَعْلَمَهُ أَنَّ فِي الإِقْدَامِ**

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٥٩/٦.
(٢) النحل: ١٦.
(٣) ينظر: في ظلال نهج البلاغة: ١٢٢/٢ ـ ١٢٥.
(٤) شرح نهج البلاغة: ٤٧/٩.
(٥) ينظر: منهج النقد الصوتي: ٧٧.
(٦) شرح نهج البلاغة: ٣٥/٦.
(٧) ينظر: منهاج البراعة: ٥٨/٧ ـ ٥٩.

عَلَيْهِ التَّعَرُّضَ لِمَعْصِيَتِهِ والْمُخَاطَرَةَ بِمَنْزِلَتِهِ فَأَقْدَمَ عَلَى مَا نَهَاهُ عَنْهُ)[١]. هذا الكلام فيه تمجيد الله سبحانه باعتبار خلقه آدم (ع) وتفضيله على غيره وإتمام نعمته عليه ومقابلة عصيانه بقبول توبته. (فَلَمَّا مَهَدَ أَرْضَهُ)، أي أصلحها له لإتمام خلق الأرض على ما تقتضيه المصلحة في نظام أمور ساكنيها، وأمضى أمره التكويني في إيجاد المخلوقات.

واختار آدم أبا البشر خيرة من خلقه، وجعل أول جبلته، أي أول شخص من نوع الإنسان، وأرغد فيها أكله، أي جعله واسعاً طيباً. وأوعز إليه فيما نهاه عنه، أي نهيه عن الأكل من الشجرة[٢].

فالنصان يتألفان من جمل خبرية. والجملة الخبرية يكون فيها إعلام واحتمالية الصدق والكذب في الخبر، فصدقه مطابقة حكمه للواقع، وكذبه عدم مطابقة حكمه له[٣]. وعند الأصوليين أنّ الجملة الخبرية (ما كان لنسبتها واقع خارجي قبل التلفظ به فيصح وصفها بالصدق والكذب، والإنشائية ليس لنسبتها هذا الواقع الخارجي، وإنما اللفظ الذي يوجد واقعها، ولذلك وصفت الجملة الإنشائية، بأنها موجدة لمعناها والخبرية بأنها حاكية عنه)[٤].

في النص الأول عرض الإمام (ع) أفعاله الكريمة في درء الفتنة بأسلوب هادئ انبنى على الأفعال، الماضية مشفوعاً بمؤكدات من (أمّا) التي تفيد الشرط والتفصيل والتوكيد، والضمير (أنا)، الذي جاء موضحاً للضمير (تُ) في فقأتُ.

وفي النص الثاني نجد مستوى التنغيم بين العلو والانخفاض في أسلوب الشرط الوارد، والجمل الخبرية والمدلول المكتمل.

ثالثاً ـ المستوى الهابط:

ويحصل في:

١ ـ **العتاب:** وهي ظاهرة اجتماعية مزيج من نوعين من أنواع الانفعال: الحب والبغض، تصور شعور الفرد بالأذى أو الظلم أو الخطأ، الصادر من المقابل[٥]، وقد ورد في نهج البلاغة مدلول العتاب، كقوله (ع): (**فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ عَلَى الْفُرْقَةِ، وافْتَرَقُوا عَلَى الْجَمَاعَةِ، كَأَنَّهُمْ أَئِمَّةُ الْكِتَابِ ولَيْسَ الْكِتَابُ إِمَامَهُمْ فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنْهُ إِلا اسْمُهُ**)[٦]، اتفق أهل ذلك الزمان على الافتراق من الكتاب، وافترقوا عن الجماعة المعهودة وهم أهل الكتاب، كأنهم أئمة الكتاب يحرفونه عن وجهه على ما يطابق أغراضهم، والواجب عليهم إتباع الكتاب واللازم لهم اقتفاء أثره[٧].

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٥/٧.

(٢) ينظر: منهاج البراعة: ٢٨/٧ ـ ٣١، في ظلال نهج البلاغة: ٢٩٥/٢ ـ ٢٩٧.

(٣) ينظر: الصاحبي في فقه اللغة: ١٧٩، مفتاح العلوم: ١٦٤.

(٤) البحث النحوي عند الأصوليين: ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

(٥) ينظر: اشعر أبي طالب دراسة أدبية: ٢١٩ ـ ٢٢١.

(٦) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٩ ـ ٨٢.

(٧) ينظر: منهاج البلاغة ٩ ـ ٧٤.

ليس هناك من مدلول يدعو إلى ارتفاع درجة الصوت فجو الخطبة يتمثل في العتاب لأصحابه عن عدم التمسك بكتاب الله، وفيه كل ما يحتاجونه من أمور دينهم.

إنّ انخفاض موسيقى الكلام في هذا النص، لوجود الجمل الخبرية، أو دلالة العتاب لا يعني ذلك حكماً واحداً. إنما أسهمت عوامل عدة في بيان المنظومة الصوتية، التي أظهرت لنا أصواتاً واضحة، لوجود النبر على المقطع الأول في الفعل الماضي في هذا النص (اجتمع)، وغلبة الأصوات المجهورة ذات العلو في ضغط الهواء، التي شكلت ثلثي النسبة بالمقارنة مع الأصوات المهموسة.

وأسهم (هاء السكت) عند الوقف على الفواصل بإفراغ الهموم النفسية عند الإمام، وغلق الدائرة الصوتية بالمقطع المغلق عند ذلك الصوت الذي ينتج هبوطاً في قوة الوضوح الموسيقي، ولكنه هبوط نصفي لما يتمتع به هذا الصوت من انفتاح في مجرى الهواء عند النطق به. ويبقى ذلك مرتبطاً بالحالة الشعورية عند المتكلم. وبذلك ظهر لنا نسيج صوتي متوازن ساعد في تنسيق التنغيم وتوازنه.

٢ ـ **التمني**: هو توقع حدث محبوب عند المتكلم في المستقبل، ولا يشترط فيه الإمكان كقوله الشاعر:

يا ليت أيام الصبا رواجعاً

وقد يتمنى لإبراز المتمنى لكمال العناية به في صورة الممكن[١]، كقوله تعالى حكاية عن الكفار (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا)[٢].

وجاء مدلول التمني في الخطبة (١١٥) من نهج البلاغة: (**وَلَوَدِدْتُ أَنَّ اللَّهَ فَرَّقَ بَيْنِي وبَيْنَكُمْ، وأَلْحَقَنِي بِمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِي مِنْكُمْ، قَوْمٌ واللَّهِ مَيَامِينُ الرَّأْيِ، مَرَاجِيحُ الْحِلْمِ، مَقَاوِيلُ بِالْحَقِّ، مَتَارِيكُ لِلْبَغْيِ، مَضَوْا قُدُماً عَلَى الطَّرِيقَةِ وأَوْجَفُوا عَلَى الْمَحَجَّةِ، فَظَفِرُوا بِالْعُقْبَى الدَّائِمَةِ، والْكَرَامَةِ الْبَارِدَةِ**)[٣].

جاءت هذه الخطبة لاستنهاض أصحابه إلى حرب الشام متمنياً مفارقتهم واللحاق بالرسول الكريم (ص)، الذي عاشره ثلاثين عاماً، ثم عاشر الناكثين والمارقين والقاسطين، فتمنى صحبة الرسول وذلك العصر الإيماني.

نتائج البحث وخلاصته:

برز الإمام علي (ع) مفوهاً مقتدراً على التأثير في المتلقي بأساليبه المتنوعة، ويمثل نهج البلاغة أسس البيان العربي، مكانة تلي مكانة القرآن الكريم.

---

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ١٣٠.

(٢) الأعراف: ٥٣.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٢١٧/٧.

واشتهر السجع (غير المتكلّف) في خطب الإمام، الذي يحقق موسيقى الأسلوب، وعند تحليلنا لبعض منها وجدنا أنها تنتمي إلى النوع القصير، الذي تكون ألفاظه قليلة من ٢ ـ ١٠، وهذا النوع أصعب طريقاً من النوع الطويل، الذي يدلل على تمكّن المتكلم من فنه.

وظهرت لنا أصوات للفواصل والسجعات لبست ثوب الدّلالة بصورة منسجمة، كاليم والهاء والنون، وتكرار السجعة في الوحدة الصوتية (ته).

ونجد في خطب نهج البلاغة تنوع الأساليب وتلوّنها تبعاً للفكرة والمناسبة وحالة العاطفة، عن طريق انسجام الحروف وحلاوة جرسها، وتلاؤم فِقرها وإيقاعها، فطغى السجع ذو المقطع المغلق مرة، والمفتوح مرة أخرى، والترصيع، ولزوم ما لا يلزم، ووظّفت الأساليب والأصوات توظيفاً دلالياً وإيقاعياً بمهارة لغوية عالية.

وهناك علاقة بين التنغيم والنبر والمقطع الصوتي، في تحديد مستوى النغمة، فتسمى صاعدة إذا تم صعودها من أسفل إلى أعلى على المقطع الذي وقع عليه النبر، وتسمى النغمة هابطة، إذا تم نزولها من أعلى إلى أسفل، على آخر مقطع وقع عليه النبر، وكذلك لا يحدث تنغيم من دون نبر للمقطع الأخير من الجملة، وأن النوعين يتفقان على كشف الحالة الشعورية والنفسية عند منشئ النص، أو القصدية في إثبات أمر ما. ولكنهما يختلفان في أن النبر لا يؤثر في تغيير المعنى، على حين أنّ التنغيم له وظائف دلالية متعددة.

وجاء تقسيم مستوى درجة التنغيم في البحث على ثلاثة: صاعد ومستوي وهابط، على وفق الوحدة الداخلية للخطبة. وقد وجد البحث علاقة التنغيم والنبر والمقطع الصوتي في إيجاد قوة في الدلالة، واختيار الأسلوب والمقطع على وفق الحالة الشعورية ومناسبة الخطبة بعد أن هيأ الإمام مساحة واسعة لإظهار مشاعره عن طريق الحزم الصوتية الواضحة، التي تعطي مدا دلاليا وكشفا لمسار الانفعال والعواطف عنده، وبذلك يظهر لنا مناخ تنغيمي، يعمل في تهيئ المتلقي لاستقبال فكرة وعواطف الخطبة بانسيابية عالية.

مصادر البحث ومراجعه:

- القرآن الكريم.
- أبحاث في أصوات العربية، د. حسام النعيمي، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١، بغداد، ١٩٩٨م.
- أسس علم اللغة، ماريو باي، ترجمة: د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط٨، القاهرة، ١٩٩٨م.
- الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس، ط٥.
- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تحقيق: الشيخ بهيج غزاوي، دار إحياء العلوم، ط٤، بيروت، ١٩٩٨م.
- البحث النحوي عند الأصوليين، د. مصطفى جمال الدين، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠
- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر.
- تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، أنيس المقدسي، دار العلم للملايين، ط١، بيروت، ١٩٦٠.
- التنغيم اللغوي في القرآن الكريم، سمير إبراهيم، دار الضياء، ط١، الأردن، ٢٠٠٠م.
- التفكير الصوتي عند الخليل، د. حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، ط١، الإسكندرية، ١٩٨٨م.

- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت.
- الخطابة، أرسطو، ترجمة: د. عبد الرحمن بدوي، دار الرشيد، العراق، ١٩٨٠.
- الخطابة العربية في عصرها الذهبي، إحسان النص، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣.
- الخطابة في صدر الإسلام، د. محمد طاهر درويش، دار المعارف، مصر، ١٩٦٥.
- دراسة السمع والكلام، سعد مصلوح، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٠.
- دراسة الصوت اللغوي، د. أحمد مختار عمر، مطابع سجل العرب، ط١، ١٩٧٦م.
- روائع نهج البلاغة، جورج جرداق، الغدير للطباعة والنشر، ط٢، بيروت، ٢٠٠٢.
- سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٨٢.
- شرح نهج البلاغة، عز الدين أبي حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائني الشهير بـ (ابن أبي الحديد)، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي، ط١، بغداد، ٢٠٠٥م.
- شعر أبي طالب، دراسة أدبية، د. هناء عباس كشكول، مكتبة الروضة الحيدرية، ط١، ١٤٢٩هـ.
- الصاحبي في فقه اللغة، ابن فارس، تحقيق: مصطفى الشويمي، مؤسسة بدران، بيروت، ١٩٦٣م.
- علم الأصوات، د. كمال بشر، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- علم الأصوات، برتيل مالمبرج، تعريب ودراسة: د. عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٥م.
- علم الصرف الصوتي، عبد القادر عبد الجليل، أزمنة للنشر، عمان، ١٩٨٨م.
- علم اللغة العام (الأصوات)، د. كمال بشر، دار المعارف، ط٥، مصر، ١٩٧٩م.
- فن الخطابة، د. أحمد محمد الحوفي، دار نهضة مصر، ط٤، القاهرة، ١٩٨٦م.
- الفن والأدب، بحث في الجماليات والأنواع الأدبية، ميشال عاصي، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٣م.
- في الأصوات اللغوية دراسة في أصوات المد العربية، د. غالب فاضل المطلبي، دار الشؤون الثقافية، العراق، ١٩٨٤م.
- في البحث الصوتي عند العرب، د. خليل إبراهيم العطية، دار الجاحظ، بغداد، ١٩٨٣.
- في صوتيات العربية، د. محيي الدين رمضان، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان.
- في ظلال نهج البلاغة محاولة لفهم جديد، محمد جواد مغنية، تحقيق: سامي الغريري، دار الكتاب الإسلامي، ط١، ٢٠٠٥م.
- في النحو العربي نقد وتوجيه، د. مهدي المخزومي، دار الرائد العربي، ط٢، بيروت، ١٩٨٦م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، بن الأثير، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٥م.
- المدخل إلى علم اللغة، د. محمود فهمي حجازي، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٩م.
- المستويات الجمالية في نهج البلاغة دراسة في شعرية النثر، نوفل أبو رغيف، دار الشؤون الثقافية، ط١، بغداد، ٢٠٠٨م.
- مفتاح العلوم، أبو يعقوب السكاكي، عالم الكتب، بيروت.
- مناهج البحث في اللغة، د. تمام حسان، در الثقافة، ط٢، الدار البيضاء، ١٩٧٤م.
- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، حبيب الله الهاشمي الخوئي، تصنيف: الشيخ حسن زادة، تحقيق: علي عاشور، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت، ٢٠٠٣م.
- منهج النقد الصوتي في تحليل الخطاب الشعري، د. قاسم البريسم، دار الكنوز الأدبية، ط١، ٢٠٠٠م.
- موسيقى الشعر، د. إبراهيم أنيس، دار القلم، بيروت،
- الرسائل الجامعية:
- التناوب الدلالي بين الخبر والإنشاء في التعبير القرآني، د. مديحة خضير كاظم، جامعة الكوفة، كلية الآداب، ٢٠٠٧م. ❖

فلسفة أحكام الجرائم والأمراض الاجتماعية في نهج البلاغة

د. حميد سراج جابر
جامعة البصرة، كلية التربية، قسم التاريخ

يعد هذا البحث جزء من مشروع موسع قيد الانجاز عن فلسفة الأحكام الشرعية في نهج البلاغة والذي يتكون من صور عدة استوعبت أطراف الفكر الإسلامي من هذه الناحية، فالمتتبع لكلمات الإمام علي (ع) في نهج البلاغة يجد أنه (ع) قد حرص على بيان فلسفة الأحكام والمبادئ التي يذكرها ولم يكتف برفض أو قبول للأمور وإنما يبين فلسفة وأسباب هذا الرفض وهذا القبول مما أتاح لنا استخراج هذه الصور ودراسة الموضوع دراسة مستفيضة عن كل الأحكام الشرعية العامة والخاصة وبجوانبها كافة، ونسأل الله تعالى أن يوفقنا لإتمام هذا المؤلف والذي هو على أبواب النهاية إن شاء الله.

أما بخصوص بحثنا هذا فهو يتعلق بجزء من إذ الموضوع الأم الذي ذكرناه إذ يختص بفلسفة أحكام الجرائم والأمراض الاجتماعية في نهج البلاغة، وهو مبني على محورين، أولهما دراسة فلسفة أحكام الجرائم الاجتماعية ولماذا اتخذ منها الشارع المقدس هذا الموقف السلبي، وثانيهما فلسفة أحكام الأمراض الاجتماعية وسبب الموقف التشريعي منها.

أولاً - فلسفة أحكام الجرائم الاجتماعية:

لا يمكن أن نحصر أو نخصص جريمة معينة في جانب من الجوانب دون أن تكون هناك آثار شاملة تتعدى هذا الجانب أو ذاك، غير أن غلبة بعض الجرائم على جانب أو تأثيرها الأكبر فيه هو الذي يدفعنا لإبراز الأثر الاجتماعي أو الاقتصادي أو ما شابه ذلك فيها، ومن هنا فإن للجانب الاجتماعي نصيب وافر في نهج البلاغة، ومن ذلك ما ذكر عن الجرائم الاجتماعية، فقد رفض الإمام علي (ع) هذه الجرائم مبيناً آثارها الهدّامة وذلك حينما بيّن فلسفة رفضها والموقف التشريعي منها.

ومن الجرائم التي ذكرها في هذا الإطار جريمة السرقة[1]، وبالتأكيد فإن حرمتها من الأمور البديهية في الفكر الإسلامي لما لها من آثار سلبية كبيرة على مختلف المستويات، وهذه الحرمة مبنية على جملة أمور حددت في الفكر الإسلامي، غير أن الإمام علي (ع) حينما يبين فلسفة هذه الحرمة وسبب موقف المشرع من هذه الجريمة ينطلق بنا إلى صورة تفسيرية

(١) ينظر د. أبو طالب زايد، جرائم السرقة، جميع صفحاته.

للموقف من جميع جهاته وإن كان كلامه مختصراً إذ يقول (ع) وهو يعظ ويوصي الناس بترك مثل هذا العمل القبيح (.. ومجانبة السرقة إيجاباً للعفة..)[١].

ولكي تتوضح الفلسفة التي ذكرها الإمام (ع) يفترض بنا معرفة معنى العفة، لأن معرفة معناها مفتاح لفهم فلسفة التحريم، فالعفة هي كلمة جامعة لصفات الفضيلة، ومن ثم فإن كلام الإمام يعني أن السرقة هي نقيض ونافٍ للعفة، لذا يمكن فهم الفلسفة التي أراد (ع) تأكيدها في ضوء النقاط الآتية:

١- إن العفة التي وردت في قول الإمام (ع) تنتفي بجملة أمور من آثار السرقة وهي:
أ- الإثراء غير المبني على أسس شرعية وعلمية وعلى حساب المجتهدين بالعمل ممن عرفوا بالعفة.
ب- خلق جو وبيئة يمكن أن نسميها بيئة الغابة، والبقاء للأقوى وليس للعفيف الذي يطبق أوامر الله تعالى.

٢- أراد الإمام (ع) الإشارة إلى أن الشهوة والنفس الأمارة هي الحاكمة في السرقة، ومعلوم أن هذه الشهوة لا تحارب إلاّ بالعفة، حتى قيل أن السرقة تنشأ عن كمال طاعة الشهوة والعبور فيها إلى حد الإفراط[٢]، أي أن السرقة تمثل الحد الأعلى من حدود الشهوة الشيطانية.

٣- هناك وعظ خفي بالتوجه للعمل وتحمل المسؤولية في تحقيق المطالب بشكل لا يؤثر على المجتمع.

٤- العفة حسب هذا المفهوم هي النتيجة الفضلى التي حرمت السرقة لأجلها، أو بعبارة أخرى فإن فلسفة تحريم السرقة تقوم على أن يكون الإنسان عفيف النفس[٣] لأن السرقة خسة ودناءة[٤] وهي الغاية في الضعة والمهانة[٥] وهذه الأوصاف هي معاكسات ومتضادات مع العفة.

والمعروف أن نهج البلاغة أشار إلى السرقة في أكثر من مناسبة وذلك للحيلولة دون أن تشيع، ولم يقتصر على مسألة الفلسفة في تحريمها، إذ أشار مثلاً إلى نوع العقوبة وكيفيتها[٦] وكذلك أشار إلى الحد المفروض في العقوبة وهو الأمر الذي اختلف فيه عند المسلمين[٧]. كما تحدث عن استحقاق السارق كمسلم وهل يتأثر بمسألة العقوبة وغيرها ولا سيما ما يخص توزيع الفيء[٨].

---

(١) نهج البلاغة ص٦٤٧.
(٢) شبر، نخبة الشرحين، ج٤، ص١٩٥١.
(٣) الشيرازي، نهج البلاغة، ص٦٧٣.
(٤) مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ج٤، ص٣٦٧.
(٥) دخيل، نهج البلاغة، ص٦٩١.
(٦) نهج البلاغة ص٢٣٢.
(٧) نهج البلاغة ص٦٥٨.
(٨) نهج البلاغة ص٢٣٢.

الجريمة الأخرى التي وردت في نهج البلاغة على المستوى الاجتماعي والتي بين الإمام علي (ع) فلسفتها هي جريمة الزنا، ونتيجة لأبعادها الخطيرة فقد حرّم المشرع الإسلامي هذا الفعل القبيح لأنه يقود إلى هلاك المجتمع بكل ما تعني هذه الكلمة من معنى، بيد أن طرح الإمام علي (ع) بهذا الخصوص يفصح لنا يختزل لنا فلسفة هذا التحريم بكلمات بسيطة غاية في الواقعية في بناء المجتمعات بناء قائم على أسس سليمة، إذ أوضح هذا الأمر حينما بين سبب دعواه إلى ترك الزنا، إذ قال (وترك الزنا تحصيناً للنسب)[١].

وهذه الفلسفة شمولية وليست جزئية فلا يستطيع أحد القول أن هذا السبب مجتزئ لأن شموليته وقاعدته عريضة لجملة أمور:

١- إن النسب الذي أشار إليه الإمام (ع) هو نفسه الأثر المستقبلي المتكامل للزنا لأن الآثار المادية المتعلقة بالزنا تظهر بالأنساب.

٢- إن الفاحشة التي تظهر للمجتمع من الزنا إنما تظهر بمصاديقها ولا شك إن أبرز مصداق هو الأثر المادي المتمثل بأولاد الزنا.

٣- إن أولاد الزنا وهم الأثر لهذه الجريمة، يمثلون صورة الفاحشة التي ستعكس على المجتمع سواء من حيث الصورة الواقعية لهم أو من حيث النوازع النفسية لهم وتأثيراتها على تصرفاتهم.

٤- لا ننسى أن الزنا مدعاة لضياع الأنساب[٢] وما يتبعها من المواريث فإن الزنا يوجب اختلاط الأنساب وضياع الأموال التي هي قوام الخلق في الدنيا[٣] فترك الزنا تحصيناً للنسب وحفظه من الاختلاط فضلاً عن تجنب الأمراض وما شابه[٤].

٥- في هذا الكلام بعد فردي وبعد جماعي فالبعد الفردي يمثله الوعظ بأخذ الحيطة والحذر في النسل على مستوى الفرد وأسرته وضرورة عمله على أن يدرأ الخطر الذي قد يتأتى من هذا الجانب لقوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾[٥]، أما على المستوى الجماعي فكلام الإمام (ع) وصية بضرورة حماية المجتمع من حيث توفير البيئة الرافضة للفاحشة والعمل على إيجاد ثقافة نوعية وليس كمية بهذا الشأن، لا سيما مع صعوبة هذا الأمر لأنه يتعلق بالنفس والعاطفة معاً، ومن هنا كان تقديم الزانية على الزاني في القرآن الكريم لقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾[٦] إشارة إلى أن مقدمات الزنا أكثر توفراً عند المرأة من الرجل[٧].

---

(١) نهج البلاغة ص٦٤٧.

(٢) مغنية. في ظلال نهج البلاغة، ج٤، ص٣٦٧.

(٣) شبر. نخبة الشرحين، ج٤، ص١٩٥١.

(٤) دخيل. نهج البلاغة، ص٦٩١.

(٥) المجادلة: ١١.

(٦) النور: ٢.

(١) ينظر الطبرسي. مجمع البيان ١٨٢/١.

وعليه فإن مسألة الزنا في نهج البلاغة لم تتحدد بإطار واحد وإنما فيها آثار سلبية علة الأصعدة كافة إذ نجد أن هناك إشارات إلى نوع العقوبة وكيفيتها وفئاتها، هذا فضلاً عن أنواع الزنا[١]. إلى جانب استحقاقات الزاني بعد جريمته من أموال المسلمين وكيف تصرف الرسول (ص) معه[٢].

وتعد جريمة القتل وفلسفة القصاص الأظهر في البناء الاجتماعي الذي أشار له الإمام علي (ع) في نهج البلاغة إذ يعد القتل من أقبح الجرائم التي حرمها المشرع الإسلامي وأكد على القصاص فيها ويمكننا بيان فلسفة تحريم القتل من خلال بيان فلسفة القصاص وهي الفلسفة التي ذكرها الإمام علي (ع) في كلماته، أي إننا سوف نفهم فلسفة منع القتل من فلسفة القصاص من القاتلين، إذ يمكن القول أن القتل من الأمور القبيحة بذاتها ومن ثم لا تحتاج إلى مشرع، وإن كان المشرع قد منعها فعلاً ولكنه فعل ذلك بسبب قبح هذه الجريمة.

ومن هنا ركّز الإمام (ع) على فلسفة القصاص التي أوجزها بكلمات بسيطة تحمل بين طياتها فلسفة القصاص بهيكليتها المتكاملة، إذ قال في إحدى المناسبات (.. والقصاص حقنا للدماء..)[٣] وقد يتصور بعضهم أن هذه الفلسفة تحمل معنى معاكس غير أن دراستها بشكل موضوعي يدل على ما يأتي:

١- اخذ كل ذي حق حقه فالقاتل يقتل حتى لا يتعدى الأمر إلى قتل غيره ومن ثم منع القتل في عموم المجتمع.

٢- جسّد القرآن الكريم المفهوم بالآية القرآنية الكريمة التي رادفت المعنى الذي ذكره الإمام علي (ع) إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[٤]. أي حفظ الدماء[٥] وكأن كلام الإمام (ع) ترجمة للقرآن الكريم، وهو الأمر الذي لا يختلف فيه اثنان.

٣- بقي أن نذكر إن القصاص هو المماثلة في الفعل بشرط عدم المثلة وهو أن يوقع على الجاني مثل ما جنى، النفس بالنفس والعين بالعين لحقن الدماء أي منعها من أن تسفك[٦].

وأيضاً نجد أن مسألة القصاص قد شغلت حيزاً آخر في نهج البلاغة بذكر الإمام (ع) لطبيعة التعامل الفقهي مع أموال القاتل الذي اقتص منه ومسألة الميراث إذ أشار (ع) إلى حكم الرسول (ص) فيه حينما قال عنه: (.. وقتل القاتل وورث ميراثه أهله)[٧] وهنا إشارة إلى أن فلسفة القصاص فردية وليس انتقامية من الأسرة والمجتمع بدليل وراثة المقتول اقتصاصاً.

---

(١) نهج البلاغة ص٦٤٧.
(٢) نهج البلاغة ص٢٣٢.
(٣) المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة ص٣٨٦.
(٤) البقرة: ١٧٩.
(٥) الشيرازي، نهج البلاغة، ص٦٧٣.
(٦) دخيل، شرح نهج البلاغة، ص٦٩١.
(٧) نهج البلاغة ص٢٣٢.

النوع الآخر من الجرائم هو شرب الخمر لما فيه من آثار اجتماعية كبيرة قد تتعدى بعض الأحيان وتفوق الجرائم السالفة، وأسمينا شرب الخمر جريمة لأنها تقود إلى جرائم كونها تنفي العقل، ومن هنا فأن تحريم شرب الخمر قائم على أسس علمية الهدف منها حماية العقل ومن ثم حماية المجتمع، ومن هنا فأن الإمام علي (ع) قد بين الفلسفة من تحريم شرب الخمر ومن الوعظ بتركه إذ قال (.. وترك شرب الخمر تحصينا للعقل..)[١]. والخمر من الأمور الفعالة في منع العقل من أداء وظيفته على أتم وجه، ولعل ذهاب العقل عند المخمور أشهر من أن يذكر ولكننا نجد إن الإمام (ع) شخّص المسالة وذكر علاجها في الوقت عينه فجعل حصانة العقل مرتبطة بترك هذه العادة السيئة المفسدة[٢].

وربما مسألة الحصانة التي ذكرها الإمام علي عليها السلام هي الفلسفة من منع شرب الخمر ونقصد هنا حصانة العقل والتي تعني في جملة ما تعنيه:

١- الإبقاء على الفارق بين العقلانية والحيوانية سيما وان الإنسان بفقده عقله يصبح كالحيوان وهو الأمر الذي يحصل في حال شرب الخمر.

٢- منع الآثار المترتبة على شرب الخمر وهي أثار متنوعة ومتعددة وهدّامة لأنها مرتبطة بفقدان العقل.

٣- مسألة إطاعة أمر المشرع الإسلامي لأنه قائم على أسس علمية وشرعية الهدف منها بناء الإنسان والمجتمع.

وفي كلام الإمام (ع) هذا رد على القائلين بشرب الخمر أو من يثقف عليه كما نرى اليوم في المجتمعات المنحلة وحجتهم في ذلك مثلاً" إنهم يستخدمونه كعلاج، وقد نسوا ما ورد بأنه ما من محظور في الإسلام الاّ ووجد في الحلال ما ينوب عنه[٣] لذا فأن منطق الإمام (ع) صريح بان الخمر يذهب بالعقل[٤] ويحوله إلى كائن حيواني[٥].

وقد نجدهم في بعض الأحيان يحاولون التحايل حتى على المشرع الإسلامي في سبيل إتيان ما حرم فقد ورد في النهج أيضاً إن الإمام (ع) أشار إلى هذه المسألة في إحدى المناسبات قائلاً: (.. فيستحلون الخمر بالنبيذ..)[٦] وهو تأكيد على الإصرار في فعل الكبائر التي يعود أثرها على الفرد والمجتمع معاً.

---

(١) نهج البلاغة ص٦٤٧. ينظر ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١٨/١٩، البحراني، شرح نهج البلاغة الكبير ٢٦٧/٥.

(٢) د. حميد سراج، مفهوم العقل في نهج البلاغة ص٨.

(٣) شبر. نخبة الشرحين، ج٤، ص١٩٥١.

(٤) مغنية. في ظلال نهج البلاغة، ج٤، ص٣٦٧.

(٥) دخيل. شرح نهج البلاغة، ص٦٩١.

(٦) نهج البلاغة ص٢٧٥.

ثانياً ـ فلسفة أحكام الأمراض الاجتماعية:

تعد الأمراض الاجتماعية باباً آخر من أبواب الفساد والانحدار في المجتمع، وقد تصدى لها المشرع الإسلامي، لدرء خطرها إذ كان لهذا التصدي فلسفة وأسباب، جسدها الإمام علي (ع) بكلماته المجموعة في نهج البلاغة.

ولعل أول الأمراض التي بين الإمام علي (ع) فلسفة رفضها مرض الحسد لما فيه من آثار سلبية على الفرد والمجتمع إذ قال عن هذه الظاهرة المنحرفة (لا تحاسدوا فإن الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب)[١]. وتقوم هذه الفلسفة التي ذكرها الإمام (ع) على أبعاد مختلفة:

البعد الأول: فردي يتعلق بعمل الحاسد نفسه وانتفاء الاتصال بينه وبين ربه لأنه فعل المنكر الذي يأكل إيمانه.

البعد الثاني: جماعي لأنه يتعلق بالمجتمع، فهو معول هدم في جسم البنية الاجتماعية والألفة والأخوة بين المؤمنين ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[٢].

البعد الثالث: نفسي يتعلق بالعلاقة المريبة بين الناس من ناحية الحسد لذا نجده (ع) ذكر القول (لا تحاسدوا) إشارة إلى التقابل بين الناس في هذا الأمر.

وقد نجد أن الإمام (ع) أراد الوعظ والإرشاد إلى أن الحسد يقود إلى الافتراء والبغي لأن الحسود ساخط على الله والناس أجمعين[٣] فقد شرع (عليه الإسلام) في ذم الحسد والنهي عنه لان الحسد من الصفات المهلكة للإنسان ومن الرذائل النفسانية ويتولد من اجتماع البخل والشرية في النفس، فإنه مضر بالنفس لأنه يذهلها ويغرق فكرها بالاهتمام بأمر المحسود فكلما رأى الحاسد نعمة اشتغل فكره بتمني زوالها وقد استعار (ع) لفظ الأكل لان الحسد يمحو ما في النفس من خواطر الخير التي هي الحسنات ويمنع من صيرورتها ملكات باستغراقها في حال المحسود وشبه ذلك بأكل النار الحطب[٤].

وقد زخر نهج البلاغة بكلمات كثيرة عن الحسد إلاّ أنها لا تعنينا في هذه الدراسة ولكنها تدل على مدى اهتمام الإمام (ع) بالتحذير من هذه العادة الاجتماعية الذميمة مع الحاجة المستمرة للتذكير بأخطارها وآثارها[٥].

كما يعد الكذب من الآفات الاجتماعية التي بين الإمام علي (ع) سلبيتها موضحاً الفلسفة في رفضها وذلك حينما قال في إحدى المناسبات (جانبوا الكذب فإنه مجانب

---

(١) شبر، نخبة الشرحين، ج١، ص٤٧٨.

(٢) الحجرات: ١٠.

(٣) شبر، نخبة الشرحين، ج١، ص٤٧٨.

(٤) شبر، نخبة الشرحين، ج١، ص٤٧٨.

(٥) المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة ص٦٨٨.

للإيمان، الصادق على شفا منجاة وكرامه والكاذب على شرف مهواة ومهانة)[١] وفي إشارة أخرى (.. وترك الكذب تشريفاً للصدق..)[٢] وعلى ما يظهر فإن الإمام قصد في بيان فلسفة رفض الكذب عدة أمور:

١- إن الصادق المخلص في قصده وسلوكه قريب من الله وجنته ومرضاته والكاذب مشرف على الهلاك والهوان[٣].

٢- الصدق دليل على الإيمان الحقيقي لذا فهو أمر لا بد منه في شخصية المسلم الحقيقي فالصدق باب من أبواب الجنة والكذب باب من أبواب الجحيم يهوى بصاحبه فيها، ومن انتهى إلى الباب فقد شارف الدخول[٤].

٣- إن ترك الكذب وتجنبه تشريفا للصدق وتعظيمه بتحريم ضده لبناء مصلحة العالم عليه ونظام أمور الخلق به[٥].

٤- الكذب نقيض الإيمان والصدق هو ما يسمو بالمؤمن إلى بر الأمان.

وقد ذكر الإمام (ع) الكذب مرات عديدة في النهج للدلالة على تحذيره الدائم من هكذا مرض اجتماعي فتاك[٦].

أما عن الخيانة فإن الفلسفة التي ذكرها الإمام علي (ع) في رفضها هي فلسفة نفسية ومعنوية ولا تتعلق بالجانب المادي كثيراً، وهذا ما نلمسه من قوله (ع) (من استهان بالأمانة ورتع في الخيانة ولم ينزه نفسه ودينه عنها فقد احل بنفسه الذل والخزي في الدنيا وهو في الآخرة أذل وأخزى)[٧].

وكلام الإمام (ع) هنا بالغ الوضوح في بيان فلسفة رفض الخيانة بصور عدة:

الصورة الأولى: صورة الانحدار في الخيانة إلى درجة الاعتداد بها.

الصورة الثانية: صورة سوء التوفيق بالإصرار على ارتكابها.

الصورة الثالثة: صورة الذليل المهان.

الصورة الرابعة: صورة المبالغة في الذلة والخزي.

ونفهم من كلام الإمام علي (ع) عدة أمور[٨]:

---

(١) نهج البلاغة ص١٤٠.

(٢) نهج البلاغة ص٦٤٧.

(٣) مغنية. في ظلال نهج البلاغة، ج١، ص٤٢٨.

(٤) شبر. نخبة الشرحين، ج١، ص٤٧٧.

(٥) شبر. نخبة الشرحين. ج٤، ص١٩٥١.

(٦) المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة ص ١٣٦٦ - ١٣٦٧.

(٧) نهج البلاغة ص٤٨٥.

(٨) د. حميد سراج. نظم ضمان الجودة في فكر الإمام علي (ع) ص ٤.

١- إن الأمانة التي ذكرها الإمام هي لفظ عام عن كل ما يؤتمن عليه الإنسان ولا شك أن أموال الشعب والوطن أولها.

٢- إنه (ع) قرن بين الاستهانة بالأمانة وبين الخيانة وهو أمر يثير أكثر من تساؤل عن نظرة الإمام (ع) الشديدة لمن يقومون بهكذا أعمال.

٣- أن الإمام (ع) بيّن عاقبة المتهاونين بهذه الأموال وعقوبتهم الدنيوية التي تتعلق بالنظرة والسمعة السيئة وربما استعجال العقوبة المباشرة، وأيضاً العقوبة الأخروية.

٤- بين الإمام (ع) دور الدين في الحفاظ على الفرد وعصمته عن تلك الأخطاء لا سيما وأنه (ع) أشار إلى أن ضعف الدين وعدم تنزيهه بهكذا أعمال هو الذي فتح الباب لتلك الأخطاء.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- ابن أبي الحديد، عز الدين عبد الحميد بن هبة الله المعتزلي ت ٦٥٦هـ ـ ١٢٥٨م.
  - شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد إبراهيم، بغداد ـ ٢٠٠٩.
- دخيل، علي محمد علي
  - نهج البلاغة، ط١، بيروت، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.
- شبر، عبدالله
  - نخبة الشرحين في شرح نهج البلاغة، ط١، بيروت، ١٤٢٥ هـ ـ ٢٠٠٤م
- شمس الدين، محمد مهدي
  - دراسات في نهج البلاغة، تحقيق سامي الغريريالغراوي، ط١، قم ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.
- الشيرازي، محمد الحسيني
  - شرح نهج البلاغة، تحقيق عبدالحسن دهيني، ط١، بيروت ١٤٢٩هـ.
- عبده، محمد
  - نهج البلاغة، تحقيق فاتن محمد خليل، ط١، القاهرة، د. ت.
- علي (ع)، الإمام ت ٤٠هـ
  - نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي، ضبط صبحي الصالح، لبنان، د. ت.
  - نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي، ضبط صبحي الصالح، إيران، ط٢، ١٤٢٩هـ.
- لجنة، المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، بيروت، ١٩٩٠.
- مغنية، محمد جواد
  - في ظلال نهج البلاغة، ط٢، بيروت ١٤٢٨هـ. ق.

الرسائل والدراسات:

- زايد، د. أبو طالب
  - جرائم السرقة، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة البصرة، كلية التربية، ٢٠٠٨.
- سراج، د. حميد
  - مفهوم العقل في فكر الإمام علي (ع) (دراسة في نهج البلاغة) مقبول للنشر في مجلة آداب البصرة ٢٠٠٩.
  - نظم ضمان الجودة في فكر الإمام علي (ع) (دراسة في نهج البلاغة). ❖

سيمياء التأمّل في نهج البلاغة بين التصوير والإشارة

د عبد الحسين عبد الرضا العمري
جامعة ذي قار

تعتمد السيميائية في دراستها على إجراءات تحليلية تساعد على فهم الأنظمة الدلالية ووصفها من جهة تحليل الخطاب؛ ومن هنا نجد أن أفلاطون قد جعل الخطاب (عنصراً لتأمل أخلاقي له مدى كوني)[١]، وأرسطو جعله (أداة عملية للتمويه)[٢]، بينما الخطاب العلوي في نهج البلاغة جعل التأمل يرشح من كلماته بوصفه مرقاة باتجاه الفناء الكلي في أتون العشق الوجداني لعلة الوجود؛ لأنه نظر إلى معطيات الوجود بوصفها علامات دالة، وإشارات ترشد ذوي العقول الراجحة للتوجه إلى علة الوجود، فهو في أكثر كلماته التي نطق بها أو كتبها في عهوده ومواثيقه كان ينحو منحىً تأمليّاً، لا كما هو مألوف لدى غيره في التأمل الفلسفي للوصول إلى حقائق الأشياء، بل إنه يستجلي هذه الحقائق لمعرفته بها ولكونه يرغب من الآخرين أن يقتبسوا من المنهاج نفسه على الأقل؛ لأن الإمام علي ع عبّر عن تأمله المعرفي المقترن باليقين حينما قال (**ما شككتُ في الحق منذ أريتُهُ**)[٣]، وهذا يعني أن هذه الرؤية هي بمعنى المعرفة[٤] التي لا يشوبها شك ولا يمكن أن تخضع للحدس والظن والتشكيك؛ إذ أن النص في إشارته إلى الرؤية يعني أنه خرج من دائرة الظن الكبرى إلى دائرة التعامل الواقعي مع الألفاظ في دلالاتها ومعانيها؛ لأن الرؤية التي أشار إليها النص، لا يمكن حملها على أساس الرؤية البصرية، إنما الرؤية التي تدركها القلوب عن طريق التأمل الروحي الذي أشار إليه الإمام بقوله لأحدهم حين سأله **هل رأيت ربّك يا أمير المؤمنين؟ فكان جوابه: (أفأعبدُ ما لا أرى!)**[٥] وهذا معناه أن التأمل الروحي للإمام بلغ حداً لا يمكن التكهّن به عن طريق مستويات الوصول العادية التي درج عليها من هم دونه في هذا الباب؛ لأننا يمكننا القول بأن الجواب يتوافق تماماً مع النص السابق في إشارته التأملية تلك، وحين يستتم جوابه للسائل بقوله (**وكيف تراه؟**) كان جواب الإمام يمثل انتهاكاً لكل مستويات اللغة؛ لأنها لا تستطيع أن تتحمل أكثر من قابلياتها التعبيرية الكامنة فيها، فقال (**لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان، قريب من الأشياء غير ملامس، بعيد منها غير مباين... لطيف لا يوصف بالخفاء، كبيرٌ لا يوصف بالجفاء، بصيرٌ لا يوصف بالحاسة، رحيمٌ لا يوصف بالرقّة، تعنو الوجوه لعظمته، وتجبُ القلوب من مخافته**)[٦].

يستند النص إلى ركيزتين مهمتين فيه هما الإدراك واللا إدراك - كما نرى -: لأن قوله (**لا تدركه العيون....**) بيان من قوله (**تدركه القلوب**) وبين مشاهدة العيان وحقائق الإيمان مجال فسيح للتأمل؛ لأن صرف النظر هنا إلى النظر القلبي ليس بالأمر الهيّن، فالشعور الباطني الذي يقدّم الحقائق الثابتة دون التشكيك فيها، إنما يمثل ماهية التأمل الروحي؛ لأن ("التأمل" هو كشف وإلهام يمكن "المتأمل" من رؤية ما لا يرى ومعرفة ما خفي واستتر)[٧]، فالحدس التأملي يُبنى على معطيات ذاتية لدى المتأمل الروحي تشمل الخيال والرؤى والإلهام، وهذه المعطيات تمنحه الطاقة الروحية لاقتناص الكليات والخروج بتجربته من الفردية إلى الموضوعية، وحينذاك تصبح تجربته شاملة، وهذا ما عبّر عنه الإمام بقوله (**قريب من الأشياء غير ملامس، بعيد عنها غير مباين**) ثم أردف ذلك بقوله عن الباري عز وجل (**لطيف لا يوصف بالخفاء، كبير لا يوصف بالجفاء**) مما يعني أن لفظتي (**لطيف، كبير**) دلّتا على مدى التنافر بين المعنيين إلا أن ذلك لم يحطّ من قيمتهما السياقية في النص؛ لأن (**لطيف**) يمكن أن يذهب فيها المتلقي إلى معنيين، أحدهما أنه (لا يرى لعدم صحة رؤية ذاته)[٨]؛ لأن إطلاق لفظ السبب على المسبب أخرجه من دائرة الأجسام اللطيفة في استحالة رؤيتها[٩]، وثانيهما أن (**لطيف**) هي من الأسماء التي وردت في القرآن الكريم، وهي تعني الرحمة الإلهية بالعباد، وهذا يشير إلى أن إدراك هذه الحقائق لا يمكن أن يتم بوساطة التصوير البصري، إنما يجري على وفق إطلاق الحدس التأملي الذي يتحول بالنتيجة إلى نص منطوق أو مكتوب تتضح رؤية التأمل من خلاله بما تحمل من إشارات تخاطب الوجدان والشعور، وتفتح المجال رحباً أمام الخيال لكي يسبح في عوالم سديمية ربما يصح لها أن تنتمي إلى عالم الأحلام وليس إلى عالم اليقظة؛ لأن التأمل في حالة الرؤية التي ذكرها النص يتحول إلى طاقة تصويرية داخلية تنتزع آفاقها من الواقع المنظور لتتداخل مع اللامرئي، وهذا يعني البحث عن الجذر الذي تنتمي إليه روحياً.

في كلامه عن الباري عز وجل، يستشف هذا التأمل الذي تحمله الكلمات في سياقها، قال الإمام علي (ع):

(**الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون، ولا يحصي نعماءه العادون، ولا يؤدي حقه المجتهدون، الذي لا يدركه بُعدُ الهمم، ولا يناله غوصُ الفطن، الذي ليس لصفته حد محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود، فطر الخلائق بقدرته، ونشر الرياح برحمته، ووتّد بالصخور ميدان أرضه...**)[١٠].

إن عمارة النص تمكننا من أن نتصورها تأملياً على أنها يمكن أن تبنى بأكثر من طريقة، ليس لأن النص يعاني من ضعف التصور أو عدم الترابط الفكري، بل إن النص

يتصف بالمرونة الفكرية التي يستطيع من خلالها المتأمل أن يعيد صياغته على وفق ترسيمة تخرجه من دائرة الكلمات المتراصة إلى فضاء التشكيل المتفرع في دائرة الوجود الكبرى من دون أن يمسك بنهاياتها حدّ التصور أو التأمل البشري إنما تبقى مفتوحة إلى ما لانهائية الوجود. كما بدأت من لا محدودية الصفة، ولا معدودية الزمن، مروراً بالحمد والمدح اللذين توهّم في شرحهما ابن أبي الحديد حينما قال (الذي عليه أكثر الأدباء والمتكلمين أن الحمد والمدح أخوان لا فرق بينهما)[11] وهو صحيح من حيث الحروف المكونة للفظة، أما من حيث المعنى فإن ذلك مختلف. كما نرى. إذ أن الحمد عن نعمة سابقة، والمدح على نعمة مأمولة: لأن التناظر في الحروف لا يعني بالضرورة التماثل بالمعنى، كما أن سياق النص يوميء إلى أن (الحمد) صادر عن الذات المتكلمة، أما قوله **(لا يبلغ مدحته القائلون)** فإنه يشير إلى أن المدح تقرير لحقيقة، صادر عن غيره، وهو داخل في ذلك، وهو ما يكون عن نعمة متوقعة ومأمولة.

من ذلك نستطيع القول إن قراءة تأملية للنص يمكن أن تجعله مركباً تركيباً جديداً يتمثل فيه بناء النص من الأعلى إلى الأسفل وبالعكس، تبعاً لإيراد السبب والنتيجة، وكما أشرنا قبل قليل إلى ترسيمة النص التي يمكن تخطيطها وفقاً لما يراه المتأمل في لحظة التلقّي الوجداني التي تجعل من مسألة الوقوف بين يدي البارئ عز وجل نقطة كونية تنفتح على كافة الاتجاهات بما يشكل إشارة واضحة إلى الوجود المطلق، وبما يمكننا أن نفهم النص على أن توالي النعم من الباري عز وجل وهذه القدرة التي لا يستطيع الإنسان أن يتصورها بعقله القاصر، لا يمكن تأملها إلا لأن تكون سبباً لئلا يجد القائلون مجال قولٍ لكي يستطيعوا الوفاء لله تبارك وتعالى بالحمد والمدح، ولا المجتهدون بأداء حقه، وصولاً إلى النتيجة الكبرى الأولى التي هي عدم إحصاء النعم الإلهية بما يفضي إلى نتائج كبرى جديدة، في وضعها العمودي الممتد بين لحظة الوعي الداخلي والإحساس بالوجود.

ترتبط عملية الحدس التأملي ارتباطاً وثيقاً بالعفوية في الخطاب والتلقائية، بناء على انصهار الذات في بوتقة الشعور بالفناء والذوبان في التأمل الوجودي، وبما يحقق أعلى مستوى من الانثيال في اللغة لكي يترجم ذلك الإشراق المنبعث من داخل الروح كالبرق الخاطف، يقول الإمام علي ع في ترنيمة تنطق عن نفسها:

(.. اللهم لك الحمد على ما تأخذ وتعطي، وعلى ما تعافي وتبتلي،
حمداً يكون أرضى الحمد لك، وأحب الحمد إليك، وأفضل الحمد عندك.
حمداً يملأُ ما خلقتَ، ويبلغُ ما أردتَ،

حمداً لا يحجبُ عنك، ولا يُقصَرُ دونك،
حمداً لا ينقطعُ عددُهُ، ولا يفنى مدَدُهُ،

فلسنا نعلم كنه عظمتك، إلا أنّا نعلمُ أنكَ حي قيوم، لا تأخذه سنةٌ ولا نوم، لم ينته إليك نظر، ولم يدركك بصر، أدركتَ الأبصار، وأحصيتَ الأعمال، وأخذتَ بالنواصي والأقدام، وما الذي نرى من خلقك، ونعجب له من قدرتك، ونَصِفهُ من عظيم سلطانك، وما تغيّبَ عنّا منه، وقصرت أبصارنا عنه، وانتهت عقولنا دونه، وحالت سواتر الغيوب بيننا وبينه، أعظمُ.

فمن فرّغ قلبه، وأعمل فكره؛ ليعلم كيف أقمت عرشك، وكيف ذرأتَ خلقك، وكيف علّقتَ في الهواء سمواتك، وكيف مددت على مور الماء أرضك، رجع طرفه حسيراً، وعقله مبهوراً، وسمعهُ والهاً، وفكره حائراً..)[١٢].

إن هذا النص يمكن أن يقال عنه إنه فعل دعائي - نسبة إلى الدعاء - لكنه بقوة ما يتضمنه من فعل كلامي ارتقى إلى مستوى التأمل؛ وهذا يمكن ملاحظته من خلال استعراض فقراته، التي بدأت بهذا الاستهلال التعبدي (**اللهم لك الحمد**...) ثم تم استدعاء صفات هذا الحمد، بعد ذلك يبحر في تأمل يتجلّى من خلاله ذلك المقدس الذي يتلاشى من دونه العقل والبصر والفكر، وتهيم فيه الموجودات؛ لأن المعنى المطلوب من وراء هذا الرصف في الكلمات هو الحقيقة، وعبر هذا التأمل الذي تعيش فيه الكلمات، تنبثق الإشارات وهي تمثل (رؤيا أو وحياً مغروساً في وعي الفرد.... بوساطة قوة مطلقة القدرة فكأنه تعبير مجازي عن قوة الخيال الفردي ومقياس لقدرته)[١٣]، إذ يمكن الوقوف على حافة التأمل الذي يعني في أسمى لحظاته، انفتاحاً روحياً إلى الأعلى، وعلى كل ما هو لا نهائي في الوجود.

١- التصوير:

يعد التصوير في سيمياء التأمل - من وجهة نظرنا - سمة تتخذ من التصوير الفني المتعارف عليه بلاغياً، قاعدة انطلاق له في محاولته المزاوجة بين التصوير الذهني والتصوير اللغوي؛ لأن ذلك يمثل تصويراً لتفاعل المتأمل مع العالم الواقعي، من جهة، ومحاولة التخلص من هذا البعد المادي والتجرد بعيداً عنه روحياً من جهة أخرى.

إن التصوير في سيمياء التأمل يعتمد اللغة في تركيباتها المعروفة وسيلة له مستنداً إلى طاقاتها التي تمنحها له؛ وإن المهم في هذا التصوير ما يمنحه للمتلقي من تصورات وأحاسيس ورؤى يبنيها عبر تفاعله مع الأفكار والسمات الجمالية التي يزخر بها النص[١٤]، زيادة على المتعة الأدبية التي يستشعرها المتلقي من وراء ذلك، وهكذا فإن التصوير في سيمياء التأمل

تصبح وظيفته الأساسية هي (استشفاف الجوهر والتعبير عنه وتقديمه مباشرة دون تفسير وبرهان)[١٥]، إن التصوير في التأمل (ينقل تجربة في الباطن الخفي... وهي تجربة متعالية، على الرغم من تأصلها في الزمان، لا نقدر أن نؤطّرها، فضلاً عن أنها تتجاوز حدود الطاقة اللغوية، فهناك محدودية للكلمات أمام لا محدودية التجربة، اللغة تجيء من العالم، والتجربة تجيء مما وراءه، وهذه التجربة رؤيا في اتساع دائم)[١٦].

إن هذه اللامحدودية هي المحور الذي يدور حوله الخطاب العلوي في تأملياته، يقول الإمام علي ع في إشارته إلى اللامحدودية في وجود الحق تعالى:

(**الحمد لله الذي بطن خفيات الأمور، ودلّت عليه أعلام الظهور، وامتنع على عين البصير، فلا عين من لم يره تُنكرُه، ولا قلب من أثبته يُبصرُه، سبق في العلوّ فلا شيء أعلى منه، وقرُبَ في الدنوّ فلا استعلاؤه باعده عن شيء من خلقه، ولا قربه ساواهم في المكان به... فهو الذي تشهد له أعلام الوجود، على إقرار قلب ذي الجحود، تعالى الله عما يقوله المشبّهون به والجاحدون علوّاً كبيراً**)[١٧].

إن هذا التصوير اللامحدود الذي يشير إليه النص، إنما ينطلق من ركيزتين أساسيتين هما: البصيرة القلبية، والنظر الروحي؛ لأن قوله (**فلا عينٌ من لم يرهُ تنكره**) يعني أن رؤيته لا تتم بالعين المتعارف عليها أي الحاسة المعروفة من خلال النظر إلى المضمون، وإنما تتم عبر عين روحية أشار إلى ذلك الإمام بقوله: (**لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان..**)[١٨]، وهذا يؤكد (الإطلاق الذاتي وعدم تناهي الذات)[١٩]، بمعنى أن الإحاطة بتلك الصورة محال مطلقاً، فالعين الحاسة لا يمكن لها أن تحتوي ما لا حدود له، في الوقت الذي نرى فيه أن تلك الصورة - مع جواز التعبير - هي حقيقة الحقائق، فكيف لما هو محدود أن يدرك ما ليس محدوداً؟

إن الخطاب العلوي في سيمياء التأمل يمثل التأسيس الأول للنظرية الصوفية الإسلامية وإلى ذلك يشير ابن أبي الحديد بقوله (ومن العلوم علم الطريقة والحقيقة وأحوال التصوّف، وقد عرفت أن أرباب هذا الفن في جميع بلاد الإسلام إليه ينتهون، وعنده يقفون... ويكفيك دلالة على ذلك أن الخرقة التي هي شعارهم، ... وكونهم يسندونها بإسناد متصل إليه (ع)[٢٠]، مما يفيدنا في القول بأن التأمل في الخطاب العلوي هو أقرب إلى (أشواق إنسانية إلى الجمال والكمال مشوبة بقصور الإنسان وتصوّراته المحدودة بحدود مداركه واستعداداته)[٢١] في فهم هذا الكون وتجليات الخلق ومحاولة صياغة كل ذلك الفهم والإدراك عن طريق اللغة، على أن ذلك لا يتم إلا بالتأمل في التجلّيات الفلسفية والجمالية التي تنبثق عن هذا التفاعل الإنساني.

إن إشارات تأمله تتجه إلى أن العقل يقف قاصراً أمام الاكتناه وأمام الإحاطة العلمية بذات الحق تعالى فلا يمكنه إدراك كنه الذات المقدسة؛ لأن المحيط المحض لا يقع مطلقاً تحت إمكانية إحاطة المحدود إطلاقاً، وإلى ذلك يشير الإمام علي ع في كلامه بقوله:

(الحمد لله الذي انحسرت الأوصاف عن كنه معرفته، وردعت عظمتُه العقولَ فلم تجد مَساغاً إلى بلوغ غاية ملكوته، هو الله الحق المبين، أحقّ وأبينُ مما ترى العيون، لم تبلغه العقولُ بتحديدٍ فيكون مُشَبَّهاً، ولم تقع عليه الأوهام بتقديرٍ فيكون ممثلاً...)[٢٢].

إن العروج في المفهوم التأملي يقدم حركة ذهنية تقف اللغة فيها تحت الهامش؛ بمعنى أن اللغة لا تستطيع مواكبة هذا العروج في التأمل؛ لأن الأوصاف انحسرت عن ذلك الكنه المعرفي، وانحسارها ذاتي إدراكاً منها بعدم القدرة على ضبط مكامن الصورة في أوصافها الكلية، الأمر الذي يحيل الإدراك اللامحدود إلى تجليات تأملية تنسج من أهداب الخيال تصويراً يبرز لديها عظمة الباري عز وجل رادعاً للعقول من أن تبلغ غاية ملكوته؛ لأن اكتشاف الذات المقدسة بالتأمل يعد منهجاً نتحسس من خلاله وجودنا فإذا كان بلوغ غاية الملكوت هو آخر درجات التأمل، فالنتيجة هي أن هذه العقول مازالت تفتقر إلى كثافة مطلقة تجعلها خارج الزمن[٢٣]، لكي تكتشف ضعفها الباطني الذي يمنعها من أن تكون مطلقة الرؤيا، وهذا ما أشار إليه قوله (**... أحقّ وأبين مما ترى العيون، لم تبلغه العقول بتحديد فيكون مُشبَّهاً، ولم تقع عليه الأوهام بتقدير فيكون ممثلاً**)؛ إن قوله هذا يحدد عن طريق الإشارة والرمز والتجريد، تلك الدلالات والمعاني المنزوية وراء حجب اللغة؛ لأن اللغة لن تستطيع أن تعبر عما لم يكن تحت تصرفها في إطار نظرية المعرفة الإنسانية، وهذا يجعلها بالنتيجة غير قادرة على استكناه التصور التأملي في أعلى درجاته.

إن البحث عن التصوير التأملي سيميائياً في نهج البلاغة، من حيث معاضدته لمكونات الخطاب بحثاً في خصوصيات نص مفرد قائم بذاته، وأن ما يكشف عنه البحث هي الخاصية والصفة التي تتساند مع مكونات جنس أدبي تساندا ينتج تصويراً فنياً[٢٤]، وبذلك يكون التأمل فسيحاً تكون وظيفته المطلوبة إبراز أو تقريب وصف الحقيقة الكلي عن طريق التصوير، إلى ذهن المتلقي الجزئي بما يجعل وجه الحقيقة متجلياً في الدلالة والمعنى والمضمون والشكل الفني.

إن التعويل على الإمكانات اللغوية والبلاغية والصيغ التعبيرية والأساليب الفنية في تشكيل الخطاب في سيمياء التأمل، يمثل نهجاً يريد الخطاب من خلاله بيان قدرته على التصوير الذي يستند في تكوينه إلى الترميز والبناء الإشاري، وعبر هذا التشابك بين طاقات

اللغة وترميزها، يتمكن من تصوير الذات الإلهية وعلاقتها بالإنسان بوصفه مخلوقاً محدوداً، على أن ذلك يعد من المدارات التصويرية التي ضرب فيها الخطاب العلوي في سيميائية تأمله بسهم لايجارى، يقول الإمام علي (ع):

(هو القادرُ الذي إذا ارتمت الأوهامُ لتدرك منقطع قدرته وحاول الفكرُ المبرّأ من خطرات الوساوس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته، وتولهت القلوب إليه لتجري في كيفية صفاته، وغمضت مداخل العقول في حيث لا تبلغه الصفات، لتناول علم ذاته - ردعها وهي تجوب مهاوي سُدف الغيوب، متخلّصةً إليه سبحانه، فرجعت - إذ جُبهت - معترفةً، بأنه لا يُنال بجور الاعتساف كنهُ معرفته، ولا تخطر ببال أولي الرّويّات خاطرةٌ من تقدير جلال عزّته..)[٢٥].

إن توالي الصور في النص يعني أن خصبها متسق في استنباتها، فتفرع أشكالاً وألواناً متعددة في تداخل عجيب بوشائج تجعلها تنتمي إلى التأمل في أرقى درجاته لولا أن نماءها العضوي يتم في إطار التركيبات اللغوية، وهي متسقة الخطوط لا يكاد يقع منها المتلقي على فجوة أو ثغرة ينفذ منها إلى ما يمكن أن يكون شرخاً فكرياً في الخطاب في تأمله، فهو يقول (**الحمد لله الذي إذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته...**) فالارتماء هنا يذهب إلى قذف النفس وجولان الخيال متوهّماً إدراك اللامحدود، وبمتابعة الجملة التي تأتي بعدها (... **وحاول الفكر المبرّأ من خطرات الوساوس... الخ**) يمكن القول إن هناك صراعاً خفياً بين الأوهام والخيالات من جانب، والروح الخالي من شوائب ما علق بها من وساوس من جانب آخر، على أن هذا الصراع لا يمكن أن يؤدي إلى نتيجة على صعيد تصوير الذات المقدسة؛ على الرغم من رجحان كفة الفكر المبرّأ من الوساوس على الآخر الملوث، وكلما اشتد عشق النفوس والقلوب وذهبت كيفما تشاء فإنها لن تستطيع أن تأتي بشيء إلا بما تجود به اللغة في تركيباتها بما يدفع إلى التشتت الفكري والضياع، وبما يضفي على الخطاب هالة من التلاحم الكلامي المعنوي؛ لأن ذلك يرجع إلى محاولة اقتناص الأفكار التجريدية وتمثلها من خلال تحويلها إلى صيغ في اللغة تتناغم والعقل الإنساني في أرفع درجاته التأملية.

إن التصوير في الخطاب العلوي في سيميائية تأمله، تصوير لغوي يستند إلى طاقة الخيال الفكري لتكوين صوره الحسية والمجردة على السواء؛ لأنه نابع عن الإنسان ومعبر عنه بوساطة اللغة، لا يمكنه أن يتعدى الحدود الحسية للخيال، بالرغم من أنه مكون جوهري في التصوير في سيميائية التأمل بما يجعله ينفتح على مختلف العوالم الواقعية والإيهامية التي يرودها الخطاب ويسعى إلى تصويرها عبر مختلف الإمكانيات التي تمنحها له اللغة، إلا أن

هذا التصوير هو بمثابة استشعار المتأمل في أعماقه ووجدانه لما يراه بحقيقة إيمانه لا مشاهدة عيانه - كما عبّر الإمام - وبذلك يتضح الرابط بين العبد وبين الخالق عز وجل، يقول الإمام علي (ع):

(فانظر أيها السائل فما دلّك القرآن عليه من صفته فائتمّ به، واستضيء بنور هدايته، وما كلّفك الشيطانُ علمه، مما ليس في الكتاب فرضه، ولا في سنة النبي (ص) وأئمّة الهدى أثرهُ، فَكِلْ علمه إلى الله سبحانه، فإن ذلك منتهى حق الله عليك..)[٢٦].

تتبين أهمية النص في أنه يشير بوضوح العيان، إلى أن المراوحة بين الحقيقة والوهم في عملية صراع ملتهب، هي لب المستوى التأملي في الخطاب، وهي تخلص من ذلك إلى معرفة الحقيقة المقدسة بكيفية مجردة متعالية عن الزمان والمكان والإنسان.

٢- الإشارة أو الرمز:

تتشكل الإشارة في نهج البلاغة سيميائياً عن طريق (الإشارات اللغوية التي تنتج معانٍ ثوانٍ لا يمكن الوصول إلى أبعادها.... إلا عبر طاقة التأويل)[٢٧]، وأن هذه الإشارات أو الرموز التي تنبثق من بين تراكيب الخطاب من سماتها أنها شفافة، وفي الوقت ذاته، قادرة على مخاطبة وجدان المتلقي وخياله وذهنه.

إن توظيف الإشارة تأملياً بوصفها (وسيلة لتهجّي اللا منطوق، وهو يتحدث عن شيءٍ ما لا يمكنه أن يعبر عنه بألفاظ، ويلجأ إلى وصف يجتاز الإحساسات ويسمح بقياس المسافة الكائنة بين التداول العام لهذه الألفاظ والحقيقة التي تدفعه لإظهارها)[٢٨]؛ إذ يمكن أن يتم ذلك من خلال التعبير المغمور بالإشارات التي لا تزيد العبارة إلا غموضاً وانغلاقاً؛ لأن الأمور الذوقية يستحيل إدراك خصائصها بالعبارات النطقية، مما يعني أن لغة الإشارة تؤدي وظيفة تعبيرية تسمو على اللغة المباشرة؛ لأن الإشارة (هي البؤرة التي تتجمع عندها ملكات الإدراك الإنساني في الحدسية والذهنية والوجدانية لدى المتلقي لتكوين عالمه التخيّلي ولبناء معانيه الخاصة التي توحي بها)[٢٩] الإشارة تلميحاً لا تصريحاً.

إن الذوق والتأويل والتخييل تمثل أهم المرتكزات التي يتم عن طريقها تلقي الإشارة التي يحملها الخطاب في تأملياته؛ لأن الإشارة تكون بمثابة الدليل على عجز الخطاب عن التعبير عن كنه الذات، إلا أنها تحاول عكس جانب أو أكثر من جوانب الحقيقة، فالخطاب (يجسد خبرته في رموز)[٣٠] للمتلقي بما يحفزه على محاولة الإمساك بدلالات هذه الرموز وأبعادها، وصولاً إلى تحويلها إلى لغة مفهومة ومدركة منطقياً أو عملياً أو فنياً جمالياً[٣١].

يقول الإمام علي ع مخاطباً البارئ عز وجل، بما يمكننا من فهم تلك الإشارة:

(فأشهد أن من شبّهك بتباين أعضاء خلقك، وتلاحم حقاق مفاصلهم المحتجبة لتدبير حكمتك لم يعقد غيبَ ضميره على معرفتك، ولم يباشر قلبه اليقين بأنه لا نِدَّ لك، وكأنه لم يسمع تبرّؤ التابعين من المتبوعين، إذ يقولون ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٣٢].

كذب العادلون بك، إذ شبّهوك بأصنامهم ونحلوك حلية المخلوقين بأوهامهم، وجزّؤك تجزئة المجسّمات بخواطرهم، وقدّروك على الخلقة المختلفة القوى بقرائح عقولهم)[٣٣].

تتشكل البنية الرمزية أو الإشارية في الخطاب بكيفيات متنوعة، ولأن الدلالة الرمزية أو الإشارية هي طاقة إيحائية تتضمن معنى مقصوداً وآخر غير مقصود، فإن النص المذكور يحمل من منطقية الإشارة في خطابه المباشر إلى البارئ عز وجل؛ لأنه بعد أن قدّم قوله (.... فأشهد أن من شبّهك بتباين أعضاء خلقك..... لم يعقد غيبَ ضميره على معرفتك...) الذي يحمل من إمكانية البحث العقلي للوجود وبطابع كلي تنطق عنه دعوته وشهادته بالكف عن النظر إلى العالم الخارجي والنظر التأملي في الأنا المفكرة[٣٤]؛ لأن استعمال الآيات القرآنية في خطاب التأمل إنما يفصح عن توجه منطقي يحمل سمة حجاجية وتوظيفها في أثناء البنية الإشارية أو الرمزية للدلالة على لامحدودية المطلق، ولاسيّما أن الخطاب في تكملته التي يقول فيها (كذب العادلون بك، إذ شبّهوك بأصنامهم... وقدّروك على الخلقة المختلفة القوى بقرائح عقولهم) التي تتخذ من التعليلية وسيلة في إبراز التفكير أو التأمل الذاتي الذي هو ملاحظة الذهن لعملياته الباطنية، مما ينتج عنه كثافة العمليات الاستدلالية التي يقوم بها الذهن نفسه فتصبح هذه العمليات أفكاراً تؤدي إلى المعرفة.

كما أن استعمال النص لبعض الأساليب البيانية أو الألفاظ الدالة على التشبيه (شبّهك، كأنّه، شبّهوك...) إنما يستند إلى الطاقة الإيحائية التي تكتنزها هذه الأساليب فتتحول إلى إشارات موحية تكتنفها ظلال من المعاني والدلالات التأملية، وهذا واضح في قول الإمام:

(وأشهد أنّ من ساواك بشيءٍ من خلقك فقد عدل بك، والعادل بك كافر بما تنزّلت به محكمات آياتك، ونطقت عنه شواهد حجج بيّناتك، وأنت الله الذي لم تتناهَ في العقول، فتكون في مهبِّ فكرها مكيَّفاً، ولا في رويّات خواطرها محدوداً مصرَّفاً)[٣٥].

إن استعمال النص للأساليب البيانية كالاستعارة وغيرها، وهي تتواءم داخل النص مع بيان الحجة وإظهارها تدل على لا محدودية الباري عز وجل، يعني أن النص ينزع نحو البعد

الحجاجي في تأمله من خلال الخطاب، بالرغم من أن ذلك لا يفسد الإشارية المنطقية التي تغلّف النص أو الخطاب، كما أن النمط التقريري الذي يسير فيه الخطاب لم يغب عن الذهن، بما يولّد اتجاهاً في النظر إلى الإشارة المنطقية على أنها تشكل الرابط الموضوعي بين المعايير المثالية التي يستند إليها الخطاب في سيميائية تأمله.

وقد تقوم الإشارة المنطقية على أساس التوالد الجملي في النص نفسه بما يوفّر جوّاً تأمّلياً تنمو فيه الإشارة بحسب تكاثر الجمل التي تشغل مساحة ذهنية كبرى لدى المتلقي كما في قول الإمام علي ع عن معرفة الخالق عز وجل:

(أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه...)[٣٦]، وبذلك فإن الخطاب العلوي في هذا المجال (يلامس الحقيقة نفسها في مستوى الفكر الخالص)[٣٧] ثم يستمر في هذه الملامسة التي تحمل إشارات منطقية يتبناها النص في قوله:

(فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزّأه، ومن جزّأه فقد جهِلَه، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن قال " فيم؟"فقد ضمّنه، ومن قال " علامَ؟ " فقد أخلى منه..)[٣٨].

يتشكل الخطاب في سيميائية تأمّله هنا من الإشارة التي تتحول إلى حقائق مجردة تنشأ بالضّد من تراكيب اللغة باستعمالاتها؛ لأن البارئ عز وجل لا يمكن أن يتخيّله الخيال البشري أو أن يكون قادراً على أن يُلِمَّ بوجوده.

إن الرمز أو الإشارة في منحاها العملي أو الفعلي تسعى من خلال الخطاب لتأسيس منهج عملي يقوم على النصح والإرشاد والتهويل والتخويف في الوقت الذي لا يغفل الخطاب فيه الترغيب والتذكير بما عند البارئ عز وجل، كل ذلك يتم عبر استثمار طاقات اللغة الكامنة في مستوياتها كافة تركيباً وأداءً، كما أن ذلك لم يكن مانعاً من أن تعتمد الإشارة العملية على المظاهر والحالة النفسية التي يعانيها المتأمل، إما خوفاً من البارئ عز وجل وإما رجاءً له، وكل ذلك ينتظم من خلال رصد الخطاب لتلك السلوكيات التي تعدّ إشارات عملية على العلاقة الربانية بين البارئ عز وجل وبين الذين سلكوا سبيل التأمل بغية المعرفة الكلية، يقول الإمام علي ع:

(أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي ضرب لكم الأمثال، ووقت لكم الآجال، وألبسكم الرياش، وأرفَغَ لكم المعاش، وأحاط بكم الإحصاء، وأرصد لكم الجزاء، وآثركم بالنعم السوابغ، والرِّفَد الرّوافغ، وأنذركم بالحجج البوالغ، فأحصاكم عدداً، ووظّف لكم مدداً، في قرار خبرةٍ ودارِ عبرةٍ، أنتم مختبرون فيها، ومحاسبون عليها)[٣٩]

حين يبدأ النص بالوصية فذلك ما تقتضيه منهجية الخطاب بوصفه تربوياً يلج من باب التذكير بالنعم الإلهية، وهذه أولى الإشارات العملية في مبادلة السلوك البشري الذي يجب أن ينسجم مع هذا التفضل الإلهي على البشر، كما أن النص أقام شيئاً من الموازنة بين الإنعام والمحاسبة بين التذكير والزجر، بين الترغيب والترهيب، لكي يحمل النص إشارات عملية تمثل مرتكزاً مهماً في عمارة مضمون النص، يقول الإمام علي ع في الحض على ذلك:

(**فيا لها أمثالاً صائبة ومواعظ شافية لو صادفت قلوباً زاكية، وأسماعاً واعية، وآراءً عازمة، وألباباً حازمة..**)[٤٠].

وقد يعمد الخطاب العلوي في التأمل إلى الإشارة العملية في ضرب المثل الذي يعبر عن الفكرة التي يدور حولها النص، مما يجعلها إشارة أو رمزاً يجب اتباعه أو محاكاته في سلوكه، يقول الإمام علي ع بعد التحذير الذي يسبق المثل المشار إليه:

(**واعلموا أن مجازكم على الصراط ومزالق دحضه، وأهاويل زَلَلِهِ، وتارات أهواله**) ثم يأتي بالمثل فيقول (**فاتقوا الله تقية ذي لبٍّ شَغَلَ التفكّر قلبه، وأنصَبَ الخوفُ بدنه، وأسهر التهجّد غرار نومه، وأظمأ الرجاءُ هواجرَ يومه، وظلف الزهدُ شهواته، وأوجفَ الذكرُ بلسانه وتنكّب المخالج عن وضح السبيل، وسلك أقصد المسالك إلى النهج المطلوب، ولم تفتله فاتلات الغرور، ولم تَعْمَ عليه مشتبهات الأمور، ظافراً بفرحة البشرى، وراحة النعمى، في أنعم نومه، وآمن يومه**)[٤١].

إن اعتماد النص توظيف المثل بوصفه نهجاً إشارياً أو رمزياً، إنما ينطلق من أن التأمل يعدّ بعداً روحانياً يتعاطى مع الواقع، لأنه مجال العمل المادي والحياتي المعيش، وبذلك يخلق نوعاً من الموازنة بين ما هو فانٍ وما هو باقٍ، كما أن النص في استعماله المثل في قوله (.... **فاتقوا الله تقيّة ذي لبٍّ شغف التفكّر قلبه**.....) إنما يشير إلى مبدأ التأمل الفكري الذي يترجم تلك العلاقة القائمة بين البارئ عز وجل وبين العبد عن طريق هذه الجمل والألفاظ في سهولتها وفي تراكيبها بحيث تشتمل على مرتكزات سلوكية يومية تستقي منها مادة النص حسن المعنى وسعة إيصال المفهوم، كما أن الخطاب العلوي في اعتماده الإشارة العملية، أحياناً يشير إلى الزمن بوصفه وعاءً للسلوك الفردي والجماعي، فيقول:

(**الآن عباد الله، والخناقُ مهملٌ، والروحُ مرسلٌ، في فينة الإرشاد، وراحة الأجساد، وباحة الاحتشاد، ومهل البقية، وأنُفِ المشيّة، وإنظار التوبة، وانفساح الحوبة، قبل الضنك والمضيق، والروع والزهوق، وقبل قدوم الغائب المنتظر، وأخذةِ العزيز المقتدر**)[٤٢].

يكشف النص عن ضرورة استغلال الزمن بشكله الأمثل ـ عملياً ـ لأن فسحة الحياة هي قصيرة بالقياس إلى ما ورائها، كما أن هذا الزمن الذي يسمى عمر الإنسان، له ما بعده من حساب ثواباً أو عقاباً، وبذلك يحقق النص في سيمياء التأمل، من خلال نظرته إلى الزمن وتفصيلاته، يحقق الغاية المرجوّة، وهي الاتصال الروحي في التطبيقات السلوكية اليومية بما يحمل من إشارات أو رموز عملية يوظف النص مكنوناته البلاغية لأجل تعزيز المنهج الإشاري في الخطاب، مستمداً ـ أحياناً ـ من النص ذاته، الإشارة في ثوبها الذوقي الجمالي، بما يضفي على الكلام سحراً إبداعياً جاذباً، كل ذلك يتم عن طريق توظيف ما تتيحه اللغة من إمكانات وطاقات كامنة في السياق نفسه، بعد تحريضه المتلقي على إعادة قراءة الخطاب ذوقياً وجمالياً وحينها تتوفر لدى المتلقي سمات إشارية يمكنه معرفتها من النص نفسه، يقول الإمام:

(عباد الله، إن من أحب عباد الله إليه، عبداً أعانه الله على نفسه، فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف، فزهر مصباح الهدى في قلبه، وأعد القِرى ليومه النازل به، فقرّب على نفسه البعيد، وهوّن الشديد...)[٤٣].

فالنص ينطلق من مبدأ تحذيري، بعدها حبّب إلى الناس هذا الإنسان الموصوف، وبذلك فهو يعتمد المبدأ الذوقي، كما أن استعمال الخطاب للجملتين **(فقرّب على نفسه البعيد، وهوّن الشديد)** أعطى للخطاب بعداً إشارياً رمزياً يتمثل في أن العبد المحبوب هذا قد نظر إلى الموت على أنه قريب فكانت سيرته سيرة مدبر من الحياة الدنيا، كما أنه هوّن الشديد وهذه رياضة نفسية في تهوين الشدائد، ويستمر الخطاب في عرض جمالي ذوقي، فيقول الإمام:

(نظر فأبصر، وذكر فاستكثر، وارتوى من عذب فراتٍ، سُهِّلَت له موارده، فشرب نهلاً وسلك سبيلاً جدداً).

(قد خلع سرابيل الشهوات، وتخلى عن الهموم..... وصار من مفاتيح الهدى، ومغاليق أبواب الردى..).

(قد أبصر طريقه، وسلك سبيله، وعرف مناره، وقطع غماره، ... قد نصب نفسه لله سبحانه في أرفع الأمور...).

(مصباح ظلمات، كشّاف عشوات، مفتاح مبهمات، دفّاع معضلات.... يقول فيُفْهِم، ويسكت فيسلم).

(قد أخلص لله فاستخلصه، فهو من معادن دينه، وأوتاد أرضه، قد ألزم نفسه العدل، فكان أول عدله نفي الهوى عن نفسه).

(يصف الحق ويعمل به، لا يدع للخير غاية إلا أمّها، ولا مظنةً إلا قصدها، قد ألزم الكتاب زمامه، فهو قائده وإمامه، يحل حيث حلّ ثقله، وينزل حيث كان منزله)[٤٤].

إن النص بما يحمل من سمات ذوقية جمالية تتناغم وإيقاع المفردات في طياته، تحول إلى منظومة روحية تحاكي إيقاع الكون الذي هو أثر من آثار الذات المقدسة، وعليه فإن إشارة النص إلى نوعية العبد الذي أحبه الله، إنما يمثل تحريضاً على أن يتمنى كل فرد أنّه ذلك العبد المحبوب، وكأن الصورة تبدو مقلوبة، إذ أن المتعارف عليه أن المحبوب هو البارئ عز وجل كما هو معروف لدى أهل العرفان؛ لأن التأمل الحقيقي هو الذي يؤدي إلى ذلك، إلا أن النص أشار إلى أن هناك عبداً من أحب عباد الله إليه، وهذا يشير إلى مدى الإخلاص الذي اتصف به هذا العبد المؤمن، لكي يصل إلى هذه الدرجة من القرب إلى البارئ عز وجل، وهذا يعني أن صورة العالم قد توحدت في شخص هذا العبد، وتحول إلى روح خالصة قد تلاشت وفَنَتْ في الحب الإلهي، وهو ما أشار إليه بقوله (.. **قد أخلص لله فاستخلصه...**) مما يعني أن ذلك التلاشي والفناء في الذات الإلهية لم يكن ليأتي اعتباطاً لولا أن هذا العبد قد رأى البارئ عز وجل منه إخلاصه، فلما حصل منه هذا الأمر استخلصه الباري عز وجل لنفسه فكان الموصوف من خلال النص قد فني وتلاشى وتحطّمت لديه القيود المادية وأصبح **(قد نصب نفسه لله في أرفع الأمور)** في رياضة نفسية ومجاهدة سلوكية حتى يصل إلى ذلك المقام الصعب الذي لا تثبت العقول في تصوره واكتناهه.

الهوامش:

(١) التداولية من أوستن إلى غوفمان ٢١.

(٢) المصدر نفسه والصفحة.

(٣) ابن أبي الحديد ٣٠٠/١٨.

(٤) المصدر نفسه والصفحة.

(٥) المصدر نفسه ٥١/١٠.

(٦) نفسه.

(٧) اشتعال الذات ٨٠.

(٨) ابن أبي الحديد ٥٢/١٠.

(٩) ينظر: المصدر نفسه والصفحة.

(١٠) نفسه ٨١/١.

(١١) المصدر نفسه والصفحة.

(١٢) نفسه ١٧١/٩.

(١٣) الوعي والفن١٣١.

(١٤) ينظر: اشتعال الذات ٢٩.

(١٥) الوعي والفن ١٤٥.

(١٦) الصوفية والسريالية ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

(١٧) ابن أبي الحديد ١٦٩/٣.

(١٨) المصدر نفسه ٥١/١٠.

(١٩) الحكمة النظرية والعملية في نهج البلاغة ٩٣.

(٢٠) مقدمة الشرح ٤٥/١.

(٢١) بنية الخطاب النقدي ٩٤.

(٢٢) ابن أبي الحديد ١٤٠/٩.

(٢٣) ينظر: آفاق الفكر المعاصر ٩٣.

(٢٤) ينظر: اشتعال الذات ٨٦.

(٢٥) ابن أبي الحديد ٣١٦/٦.

(٢٦) نفسه ٣١٣/٦.

(٢٧) اشتعال الذات ٣٩.

(٢٨) الخطاب الصوفي، نص حركة الجسد، ٥٣.

(٢٩) اشتعال الذات ٤٠.

(٣٠) موسوعة المصطلح النقدي ٦٤.

(٣١) ينظر: الرمز الشعري عند الصوفية ١٩.

(٣٢) سورة الشعراء: ٩٧ ـ ٩٨.

(٣٣) ابن أبي الحديد ٣٦٠/٦.

(٣٤) ينظر: الفينومينولوجيا ـ المنطق عند أدمون هوسرل ـ ٥٦.

(٣٥) ابن أبي الحديد ٣٢٠/٦.

(٣٦) نفسه ٩٢/١.

(٣٧) الفينومينولوجيا ـ المنطق عند أدمون هوسرل ـ ٢٧٩.

(٣٨) ابن أبي الحديد ٢٩/١.

(٣٩) نفسه ١٩٣/٦. أرفغ: من الرفغ وهو ترف العيش وسعته وخصبه، اللسان، مادة رفغ.

(٤٠) المصدر نفسه ٢٠١/٦.

(٤١) ابن أبي الحديد ٢٠٧/٦ ـ ٢٠٨.

(٤٢) المصدر نفسه ٢١٧/٦.

(٤٣) نفسه ٢٨٢/٦.

(٤٤) المصدر نفسه ٦ /٢٨٢.

المصادر والمراجع

- أسرار البلاغة ـ عبد القاهر الجرجاني، تحقيق هـ. ريتر، مكتبة المثنى، بغداد ـ العراق، ط٢ ـ ١٩٧٩.
- اشتعال الذات، سمات التصوير الصوفي في الإشارات الإلهية للتوحيدي، محمد المسعودي، الانتشار العربي، بيروت - لبنان، ط١ ٢٠٧.
- آفاق الفكر المعاصر، غايتان بيكون، ترجمة لجنة من الأساتذة الجامعيين، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٦٥م.
- بنية الخطاب النقدي، دراسة نقدية، د. حسين خمري، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد - العراق، ط١/١٩٩٠م.
- التداولية من أوستن إلى غوفمان، فيليب بلانشيه، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا - اللاذقية، ط١، ٢٠٠٧ م.
- الحكمة النظرية والعملية في نهج البلاغة، جواد آملي، نقله إلى العربية باسم محمدي، منشورات ذوي القربى، قم - إيران ٢٠٠٠م.
- الخطاب الصوفي نص حركة الجسد، ميشال دو سارتو، ترجمة محمد شوقي الزين، مجلة كتابات معاصرة، بيروت - لبنان، ع٤٤/تموز ٢٠٠١م.
- الرمز الشعري عند الصوفية د. عاطف جودة نصر، دار الكندي، بيروت، ط١/١٩٧٨م.
- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي بيروت ـ لبنان، بغداد - العراق ط١. ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥ م.
- الصوفية والسريالية، أدونيس، دار الساقي، بيروت، لندن، ط١، ١٩٩٢م.
- الفينومينولوجيا، المنطق عند أدمون هوسرل، يوسف سليم سلامة، دار التنوير، بيروت، ٢٠٠٧م.
- موسوعة المصطلح النقدي، التصور والخيال، ر. ل. بريت، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، دار الرشيد، بغداد، ١٩٧٩م.
- الوعي والفن، غيورغي غاتشيف، ترجمة نوفل نيوف، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عالم المعرفة، ١٩٩٠.

❖ ❖ ❖

تجربة الإمام علي بن أبي طالب (ع) في إصلاح الدولة والمجتمع

رعد الدخيلي

استلم الإمام علي (ع) الخلافة بعد مقتل عثمان بسبعة أيام، ذلك في (٢٥) ذي الحجّة عام (٣٥ هـ)، فوجد الأوضاع متردّية بشكل عام، وعلى أثر ذلك وضع خطّة إصلاحية شاملة، ركّز فيها على شؤون الإدارة والاقتصاد والحكم، فقدّمَ إصلاحاتٍ شاملةً للدولةِ الإسلامية الجديدة، أهمها ما يلي:

١. تطهير الدولة:

أول عمل قام به عزل ولاة الخليفة السابق عثمان بن عفان.. بما فيهم والي الشام معاوية بن سفيان ـ رأس البلاء في الإسلام ـ واستبدلهم بآخرين، وهنا بدأت معركته المعلنة مع معاوية ـ الوالي الخبيث المتستر خلف كواليس خلافة عثمان الأموي.

حتى قال علي (ع):

قد جعل الله سبحانه لي عليكم حقاً بولاية أمركم؛ ولكم عليَّ من الحق مثل الذي عليكم.. جعل سبحانه من حقوقه حقوقاً، افترضها لبعض الناس على بعض، فجعلها تتكافأ في وجوهها.. وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق: حقّ الوالي على الرعية، وحقُ الرعية على الوالي، فريضةٌ فرضها الله سبحانه لكلٍّ على كلٍّ، فجعلها نظاماً لأُلفتهم، وعزّاً لدينهم، فليست تصلح الرعية إلاّ بصلاح الولاة، ولا تصلح الولاة إلاّ باستقامة الرعية، فإذا أدّت الرعية إلى الوالي حقه، وأدّى الوالي إليها حقّها، عزّ الحقّ بينهم، وقامت مناهج الدين، واعتدلت معالم العدل، وجرت على إذلالها السنن، فصلُح بذلك الزمان، وطمع في بقاء الدولة، ويئست مطامع الأعداء... وإذا غلبت الرعية واليها، وأجحف الوالي برعيته، اختلفت هنالك الكلمة، وظهرت معالم الجور وكثُر الأدغال في الدين، وتُركتْ محاجُّ السنن، فعمل بالهوى وعطّلت الأحكام وكثرت علل النفوس، فلا يستوحَش لعظيم حقٍّ عُطّل، ولا لعظيم باطلٍ فُعل، فهنالك تذلّ الأبرار، وتعِزُّ الأشرار. فعليكم بالتناصح في ذلك، وحسن التعاون عليه، فليس أحد ـ وإن أشتدّ على رضى الله حرصه، وطال في العمل اجتهاده ـ ببالغ حقيقة ما الله

أهلّه من الطاعة.. وليس امرؤ - وإن عظمت في الحق منزلته، وتقدّمت في الدين فضيلته - بفوق أن يعان على ما حمّله الله من حقّه، ولا امرؤٌ - وإن صغّرته النفوس واقتحمته العيون - بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه.

٢. تأميم الأموال المختلسة:

فبادرت السلطة التنفيذية بوضع اليد على القطائع التي أقطعها عثمان لذوي قُرباه، والأموال التي استأثر بها عثمان، وقد صودرت أمواله حتى سيفه ودرعه، وأضافها الإمام (ع) إلى بيت المال.

وقال (ع): أتأمرونّي أن أطلب النصر بالجور فيمن وُليِّتُ عليه! والله لا أطور به ما سَمَرَ سَميرٌ، وما أمَّ نجمٌ في السماء نجماً! لو كان المال لي لسوِّيت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله؟!

٣. تأديبه لباطل قريش:

وهو القائل: (مَالي وَلِقُريش، لقد قتلتُهم كافرين، ولأقتلنَّهم مَفتونين، والله لأبقرنَّ الباطل حتى يظهر الحقّ من خَاصِرَتِه، فَقُلْ لقريش فَلتضجّ ضَجيجَها).

٤. إصلاح السياسة المالية للدولة:

المساواة في التوزيع والعطاء، فليس لأحد على أحد فضل أو امتياز، وإنما الجميع على حدٍّ سواء. فلا فضل للمهاجرين على الأنصار، ولا لأسرة النبيّ (صلى الله عليه وآله) وأزواجه على غيرهم، ولا للعربي على غيره. وقد أثارت هذه العدالة في التوزيع غضب الرأسماليين من القرشيين وغيرهم، فأعلنوا سخطهم على الإمام (ع).

حيث أعلن المساواة في التوزيع والعطاء، فليس لأحد على أحد فضل أو امتياز، وإنما الجميع على حدٍّ سواء. فلا فضل للمهاجرين على الأنصار، ولا لأسرة النبيّ (ص) وأزواجه على غيرهم، ولا للعربي على غيره. وقد أثارت هذه العدالة في التوزيع غضب الرأسماليين من القرشيين وغيرهم، فأعلنوا سخطهم على الإمام (ع).

فقال عليه أفضل الصلاة والسلام:

أن لا يقولنَّ رجال منكم غداً قد غمرتهم الدنيا، فاتَّخذوا العقار وفجَّروا الأنهار وركبوا الخيول الفارهة، واتَّخذوا الوصائف الروقة، فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً، إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون، فينتقمون ذلك ويستكرون، ويقولون: حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا!

٥. تربية المجتمع الإسلامي:

لم يعهد عن أحد من الخلفاء أنّه عنى بالناحية التربوية أو بشؤون التعليم كالإمام (ع)، وإنما عنوا بالشؤون العسكرية، وعمليات الحروب، وتوسيع رقعة الدولة الإسلامية، وبسط نفوذها على أنحاء العالم. وقد أولى أمير المؤمنين (ع) المزيد من اهتمامه بهذه الناحية، فاتخذ جامع الكوفة معهداً يلقي فيه محاضراته الدينية والتوجيهية. وكان (ع) يشغل أكثر أوقاته بالدعوة إلى الله، وإظهار فلسفة التوحيد، وبَثّ الآداب والأخلاق الإسلامية مستهدفا من ذلك نشر الوعي الديني، وخلق جيل يؤمن بالله إيمانا عقائدياً لا تقليدياً.

بعد مقتل الخليفة عُثمان، ولم يكن ثمة فرصة لتعيين من يقوم بعده بالخلافة، فلا سقيفة ولا شورى! فكان من حقّ الجماهير، ولأوّل مرّة في تأريخها، أن تطلق صوتها وترجع إلى رشدها. فنهضت الجماهير عطشى تتسابق سباق الإبل إلى الماء، جاءوا دار الإمام علي (ع) حيث اعتزل قبل هلاك عُثمان، ولم يخرج من بيته، يطالبون أن يخرج إليهم ليبايعوه.. حتى وصف أمير المؤمنين (ع) هذا السيل العارم وإصرارهم على البيعة بقوله: فما راعني من الناس إلا وهم رسلٌ إلي كعُرف الضبع، يسألونني أن أُبايعهم، وأنثالوا عليَّ حتى لقد وُطئ الحسنان، وشُقَّ عطفاي. ومضى يصف في خطبته هذه موقفه من الخلافة: أما والذي فلق الحبَّة وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر ولزوم الحجَّة بوجود الناصر، وما أخذ الله على أولياء الأمر إلا يقرُّوا على كظّة ظالم أو سغب مظلومٍ، لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أوَّلها لألفوا دنياهم أزهد عندي من عفطة عنزٍ. وتمّت بيعته في الخلافة في يوم الجمعة الخامس والعشرين من ذي الحجَّة عام ٣٥هـ، وقال (ع) يصف ذلك الأمر وبسطتهم يدي فكففتها، ومددتموها فقبضتها، ثُمَّ تداككتم عليَّ تداكَّ الإبل الهيم على حياضها يوم وردها، حتى انقطعت النعل وسقط الرداء ووُطئ الضعيف. وعن أبي ثور - كما جاء في (الإمامة والسياسة) - أنّه قال: لمّا كانت البيعة بعد مصرع عثمان خرجت في اثر عليٍّ (ع) والناس حوله يبايعونه، فدخل حائطاً من حيطان بني مازن، فألجأوه إلى نخلة وحالوا بيني وبينه، فنظرت إليهم وقد أخذت أيدي الناس ذراع الإمام، تختلف أيديهم على يده، ثُمَّ أقبلوا به إلى المسجد الشريف، فكان أوَّل من صعد المنبر في المسجد طلحة وبايعه بيده، وكانت أصابعه شلاء، فتطيَّر منها عليٌّ (ع) وقال: ما أخلقها أن تنكث، ثم بايعه الزبير وأصحاب النبيِّ (ص) وجميع من في المدينة من المسلمين. بهذه اللهفة تمّت أوَّل بيعة على صعيد واسع، وصعد الخليفة الحق بعد رسول الله (ص) المنبر الشريف بقبول الناس ورضاهم، لكنَّ الإمام علياً (ع) لم يكن من أصحاب السلطة، فلم يقبل بالخلافة إلا بعد أن رأى أنْ لا مفرَّ من ذلك، وأنَّ مصلحة الإسلام

والمسلمين تقتضي أن يمدَّ يده لتختلف عليه أيدي الناس المبايعة، إلا أن موعد خلافته نزامن مع موعد مشحون بالفتن والحوادث بعد مقتل الخليفة عثمان وما خلف قتله من قلاقل في الأمة الإسلامية.

حاول الإمام علي (ع) أن يؤجل مشروع الفتوحات الإسلامية الذي سبقه به الخلفاء الثلاثة، لأنه رأى ـ وهو كان يرى ـ أنَّ الأمّة التي تزخر بكم بشري هائل لا يحتوي على النوع الإنساني.. أمّة تزخر بأفراد وجماعات بشرية دخلت الإسلام بالسيف أو الإكراه أو القناعة الهشة، سوف لا يعتد عليها بأن تكوّن مجتمعاً إسلامياً يريده الله سبحانه وتعالى. لذا: آثر أن يبني مجتمعاً رسالياً حقيقياً، أفضل من أن يبني إمبراطورية إسلامية واسعة، سرعان ما تذوب تحت أول اختبار تتعرض له في تفاعلاتها الحضارية مع القوميات والأديان التي كانت تعاصرها.. أول ستعاصرها، أو تنهار تحت حالة التقاطع مع مصالحها الأنانية.. دون حُبِّ المجموع. فاتجه (ع) إلى عملية البناء العقائدي العريضة، لذلك؛ خلّف لنا هذا الخليفة الحقّ ما لم يخلّفه خلفاء من قبل ومن بعد. فلم نرَ في أدبيات المكتبة الإسلامية.. منذ صدر الإسلام حتى سقوط الخلافتين الأموية والعباسية خطاباً تكاملياً قرآنياً إنسانياً يداني (نهج البلاغة)!!!

كما حاول الإمام (ع) أن يستبعد السيئين من عناصر السلطة التنفيذية في حكم خلافته، وحاول (ع) أن يعيد الحقوق المسلوبة إلى أهلها الشرعيين، التي كانت تملأ جيوب الأقارب والحاشيات ـ بغير وجه حق ـ، كما حاول أن يوزّع الخيرات بالحقّ والمساواة على عباد البلاد.

ما أحوجنا إليك يا أمير المؤمنين، وأنت تحق الحقَّ وتزهق الباطل، ما أحوجنا إلى خليفة يضع جمرةً في كفِّ أخيه، بدلاً من حقٍّ غيره. ما أحوجنا إلى عليٍّ جديد يوزّع الأراضي السكنية على المواطنين حسب الاستحقاقات الوطنية لا حسب المحاصصات السياسة.

المصادر:

- د. شاكر سلمان ـ بيعة الإمام علي (ع) للخلافة
- الإمام علي (ع) سيرة وتاريخ (مركز الرسالة) سلسلة المعارف الإسلامية.

❖ ❖ ❖

الإمام علي (ع)
سيد البلغاء وباب الحكمة

د. إيمان سالم حمودي الخفاجي

المقدمة:

الحمد لله حق حمده والصلاة والسلام على أشرف خلقه محمد وآل بيته وبعد: من الله تعالى علينا نحن المسلمين بإرسال نبياً كريماً إلينا من أنفسنا وهي نعمة لا تقدر ومنحة عظيمة جليلة ليخرجنا من الظلمات إلى النور، ويتفضل علينا بهدايتنا إلى مستقيم الصراط، وسوقنا إلى أقصى درجات الكمال الذي فيه ينبع ديننا الكامل، ولنوحد الله في العبادة، ويقوم الأخلاق الدينية والاجتماعية التي تتفرع على تلك الدعوة إلى ذكره وشكره قال تعالى ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[١]، وقد وردت أحاديث كثيرة عن الرسول الأكرم (ص) وعن أهل بيته (عليهم السلام) في الذكر وفضائله وأنواعه وأوقاته وأماكنه وأدواته. وجاء في بعض الكتب المنزلة من الله على الأنبياء (عليهم السلام) (وإن من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي)[٢]، وإن حب الله يقطع المحب عن غيره من الموجودات وهذا ما يسمى بالانقطاع عند أهل المعرفة، وتموت النفس الأمارة بالسوء وتبدأ الحياة العقلية للإنسان وفي أعلى درجاتها تستضيء بصيرة الإنسان بنور لقاء الله. وان الله سبحانه يمكن رؤيته بالرؤية العقلية والقلبية وهو ما أشار إليه أمير المؤمنين (ع) حيث قال: (لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان قريب من الأشياء غير ملامس، بعيد منها غير مبائن، متكلم لابروية، ومريد بلا همة، صانع لا بجارحه، لطيف لا يوصف بالجفاء، كبير لا يوصف بالجفاء، بصبر لا يوصف بالحاسة، رحيم لا يوصف بالرقة، تعنو الوجوه لعظمته، وتجب القلوب من مخافته)[٣].

إن ما أنجبت الأمة الإسلامية علماء في كافة الفنون وفي كافة العصور هو نتيجة جهد ومشقة وهذا ما يظهر له أثر من الكتب المبثوثة والتي تزخر المكتبات في أرجاء المعمورة ولعل أبرز ما تحدث عند وما مدحه المسلمون شخصية طالما كان لها أثر في حياة المسلمين تلك

---

(١) سورة إبراهيم: ٧.

(٢) مستدرك الوسائل: ح٥، ص٢٩٨.

(٣) بحار الأنوار، ح٤، ص٥٣.

الشخصية التي ما فتئ أحد يذكرها ويسرح خياله في ذلك العصر كيف امتاز عن بقية أقرانه، تلك الشخصية الإسلامية التي يكشفها من لا غبار على علمه تلك الشخصية (علي بن أبي طالب "ع") وقربه من الرسول (ص) فالكلام الذي يصدره أمير المؤمنين (ع) هو موافق لما قاله النبي (ص) وما قاله القرآن الكريم.

وعن إبراهيم بن سعد عن أبيه قال النبي (ص) لعلي: (أما ترض أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى)[١]. وهذه علامة مميزة لعلي (ع) كي يكون من الذين قال عنهم القرآن الكريم ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[٢].

وعن فاطمة سلام الله عليها: أن رسول الله (ص) قال لها: (أما ترضين إني زوجتك أول المسلمين إسلاماً، وأعظمهم علماً فانك سيدة نساء العالمين كما سادت مريم نساء قومها)[٣].

وعن زينب ابنة علي (ع) عن فاطمة بنت رسول الله (ص) قال: قال رسول الله (ص) لعلي (ع) (أما أنك يا علي وشيعتك في الجنة)[٤].

وعن سهل بن سعد الأنصاري قال: سالت فاطمة بنت رسول الله (ص) عن الأئمة فقالت: (كان رسول الله (ص) يقول لعلي (ع): يا علي! أنت الإمام والخليفة بعدي، وأنت أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فإذا مضيت فابنك الحسن أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فإذا مضى الحسن فابنك الحسين أولى بالمؤمنين من أنفسهم... إلى آخر الحديث)[٥].

سيد البلغاء وباب الحكمة:

أبو الحسن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، ابن عم الرسول الأعظم (ص) وأول من لبى دعوته واعتنق دينه وصلى معه، فهو أفضل هذه الأمة مناقب وأجمعها سوابق وأعملها بالكتاب والسنة، وأكثرها إخلاصاً لله تعالى وعبادة له، وجهاداً في سبيل دينه، فلولا سيفه لما قام الدين، ولا خابت صولة الكافرين.

والحديث عن علي بن أبي طالب (ع) طويل لا تسعه المجلدات ولا تحصيه الأرقام، حتى قال ابن عباس لو أن الشجر أقلام والبحر مداد والأنس والجن كتاب وحساب، ما أحصوا فضائل أمير المؤمنين (ع) وكان لا بد لنا من الاختصار في الكتابة في هذا البحث

---

(١) صحيح البخاري، ح٢، ص١٨٥ باب مناقب علي بن أبي طالب الهاشمي (ع).

(٢) سورة الرعد: ٧.

(٣) أسنى المطالب، العلامة الوصابي اليمني، مخطوط، أعلام الهداية، فاطمة الزهراء (ع) سيدة النساء، مطبعة المجمع العالمي لأهل البيت، قم، ط٢، ح٣.

(٤) دلائل الإمامة: ٢ و٣ ومثله في ينابيع المودة ص٢٥٧.

(٥) يراجع كفاية الأثير: ١٩٣ - ٢٠٠، أعلام الهداية، ص٢٠٦.

وحسبنا أن نشير فيها إلى بعض خصائصه ومناقبه ومن ذلك يمكننا القياس، ولد عليه السلام بمكة في البيت الحرام يوم الجمعة ١٣ من شهر الله رجب الأصب بعد عام الفيل بثلاثين سنة، ولم يولد في البيت الحرام سواه لا قبله ولا بعده، وهي فضيلة خصه الله بها إجلالاً له وإعلاء لرتبته وإظهاراً لكرامته، وكان عليه السلام هاشمياً من هاشميين وأول من ولده هاشم من قبل الأب والأم، فمن جهة الأب أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، ومن جهة الأم فهي فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف. مضى أمير المؤمنين (ع) في عمره الشريف وهو ابن خمس وستين سنة ونزل الوحي له اثنا عشر سنة، وأقام بمكة مع النبي (ص) ثلاث عشر سنة ثم هاجر، فأقام معه بالمدينة عشر سنين وأقام بعده ثلاثين سنة، واستشهد (ع) في ليلة الجمعة ٢١ من شهر رمضان المبارك سنة ٤٠هـ، دفنه ابنه الإمام الحسن (ع) وأخفى قبره خشية من الخوارج ومن معاوية، وهو يطاول اليوم السماء سموا ورفعة، فعلى أعتابه يسجد الذهب ويتنافس المسلمون على زيارته من جميع العالم الإسلامي بينما اختلفت الأمة في إمامته بعد وفاة رسول الله (ص) وقالت شيعته وهم: بنو هاشم كافة وسلمان وعمار وأبو ذر والمقداد وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين وأبو أيوب الأنصاري وجابر بن عبد الله وأبو سعيد الخدري وغيرهم أو أمثالهم من المهاجرين والأنصار: (أنه كان الخليفة بعد رسول الله (ص) لما اجتمع له من صفات الفضل والكمال والخصائص التي لم تكن في غيره كسبقه إلى الإسلام ومعرفته بالأحكام وحسن بلائه في الجهاد وبلوغه الغاية القصوى في الزهد والورع والصلاح وما كان له من حق القربى)، ثم للنص الوارد في القران وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[1] والولاية كانت ثابتة له عليه السلام بنص القرآن ويقول النبي (ص) يوم الدار وقوله في غدير خم فكانت إمامته (ع) بعد النبي (ص) ثلاثين سنة، منها أربع وعشرون سنة وأشهر ممنوعاً من التصرف آخذاً بالتقية والمدارة محلاً عن مورد الخلافة قليل الأنصار، كما قال هو عليه السلام: (فطفقت ارتأى بين أن أصول بيد جذاء أو اصبر على طخية عمياء) ومنها خمس سنين وأشهر ممتحناً بجهاد المنافقين من الناكثين والمارقين، مضطهداً بفتن الضالين، واجداً من العناء ما وجده رسول الله (ص)[2]. ومن كناه وألقابه (ع) أبو الحسنين، أبو الريحانتين، أبو تراب، أمير المؤمنين، يعسوب الدين، مبيد الشرك والمشركين، قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، مولى المؤمنين شبيه هارون، المرتضى، نفس الرسول، زوج

---

(١) سورة المائدة: ٥٥.

(٢) مجلة زهور الجوادين، العدد ٤٢، الذكرى السنوية ١٢٥٠ لاستشهاد الإمام موسى، ص٣٦.

البتول، قاتل الفجرة، قسيم الجنة والنار، صاحب اللواء سيد العرب، خاصف النعل، كشاف الكرب، الصديق الأكبر، ذو القرنين، الهادي، الفاروق الأعظم، الداعي، الشاهد، باب المدينة، غرة المهاجرين صفوة الهاشميين، الكرار، غير الفرار، صنو جعفر الطيار، رجل الكتيبة والكتاب، راد المعضلات، أبو الأرامل والأيتام، هازم الأحزاب، قاصم الأصلاب، قتال الألوف، مذل الأعداء، معز الأولياء، أخطب الخطباء، قدوة أهل الكساء، إمام الأئمة الأتقياء، الشهيد أبو الشهداء، أشهر أهل البطحاء، مثكل أمهات الكفرة، مفلق هامات الفجرة، الحيدرة، مميت البدعة، ومحيي السنة، سيد العرب، موضع العجب، وارث علم الرسالة والنبوة، ليث الغابة، الحصن الحصين، الخليفة الأمين، العروة الوثقى، ابن عم المصطفى، غيث الورى، مصباح الدجى، الضرغام، الوصي الولي، الهاشمي، المكي المدني الأبطحي الطالبي، الرضي المرضي، وهذا قليل من كثير، وهو صاحب حوض النبي وصاحب لوائه، وحبيب قلبه ووصيه ووارث علمه، ومستودع مواريث الأنبياء، من قبله وأمين الله على أرضه، وحجة الله على بريته، وهو ركن الإيمان وعمود الإسلام، ومصباح الدجى ومنار الهدى، والعلم المرفوع لأهل الدنيا فمن اتبعه نجا ومن تخلف عنه هلك، وهو الطريق الواضح والصراط المستقيم، وقائد الغر المحجلين ويعسوب المؤمنين[1].

علي بن أبي طالب (ع) وفلسفة الولادة:

هل ثمة علاقة بين الإنسان ومحل ولادته؟ هل للزمان اثر في ميلاده؟ أسئلة قد تبدو غريبة في التأسيس لكينونة الإنسان وتأثيرها في مستقبل وجوده، وقد يتصور الكثير من المؤرخين وبعض الفلاسفة أن لا علاقة سببية بين الولادة ومحلها وزمان حدوثها، على اعتبار أن مصير الإنسانية تحدد منذ عصر خلق أدم (ع) فصار على البشر أن يولدوا على هذه البسيطة وإن كل الوقائع الأخرى لا تشكل قيمة مادية وجودية أو معنوية نفسية في تحقق استمراره في الحياة، وهم في هذه النظرة يتجاوزون حتى أبسط ملامح التاريخ كما سردها المؤرخون، فقالوا إن التاريخ هو: حدث وزمان ومكان، والذين قالوا بهذه الفكرة لم يؤمنوا بالتأثيرات الزمانية والمكانية في تشكيل الحدث، أما مقولتنا في تفسير التاريخ والتي تنطلق من أن الحدث التاريخي يتأثر بالعقائد والبيئة الاجتماعية والاقتصاد والوعي، إضافة إلى ما قيل في الزمان والمكان، وهذا التفسير الذي يطلق عليه الآن نظرة (ابستمولوجية) إذ تعني هذه الكلمة تأثير التاريخ بالعقائد وبمجريات الحياة كافة، وهي في الحقيقة تمثل موقفا

---

(١) مجلة زهور الجوادين.

عقلانيا من حركة التاريخ، فقد استطاعت أن تقدم تفسيراً أكثر نضجاً لحركة التاريخ من التفسيرات القديمة الغارقة في بساطتها وسذاجتها وسوف أُسلط الضوء على قضية ولادة الإمام علي (ع) في البيت الحرام.

الإمام علي (ع) والبيت الحرام:

لاشك أن سؤالاً يخترق حجب الذهن يقول: إن الرسول الخاتم (ص) أعظم من علي (ع) فلماذا لم يولد هو في البيت الحرام وولد علي؟ وكان الأحرى أن يولد محمد في البيت العتيق أليس هو نبي الله؟ من الناحية العلمية والعقلية لا يمكن إسقاط مشروعية السؤال وفيه الكثير من الواقعية الظاهرين، وحتى تتم الإجابة عليه علينا إدراك قضية مهمة هي: تعرض المجتمع القبلي للرسول الخاتم (ص) بشكل مباشر باعتباره المنادي الأول بالتغيير الاجتماعي والفكري وهو المصلح والهادي الأول لهذه الأمة، فعلى الرغم من المعرفة الكلية لمجتمع مكة بتاريخ قريش وبتاريخ بني هاشم وبالتخصيص آل عبد المطلب، إلا أن النزعة القبلية والنظرة الضيقة لعلاقة المجتمع بالوثنية حالت دون القبول بالنبي ورسالته، فربما تصور البعض منهم أن الرسالة السماوية يجب أن تأتي وتؤدي بواسطة الملائكة بشكل مباشر: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾[1]. هذه النظرة كانت تمثل منتهى القصور الفكري وتهافت الوعي الجمعي للمجتمع القبلي، ومن هنا كان من الواقع أن يولد الرسول الخاتم (ص) في بيت من بيوت مكة لتكون الحجة أبلغ وأكثر وقعاً، فخروج رجل من أحد بيوتات مكة بالرسالة الإلهية ستكون أكثر تأثيراً من هبوطه من السماء أو ولادته في البيت العتيق، فكان جوابه تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا﴾[2] ولتعلم قريش أن الله قادر على أن يبعث بشراً رسولاً وأن ولادته في بيت من البيوت لا تكون عائقاً أمام رسالته وبعثه من الحي القيوم. أما ولادة الإمام علي (ع) في البيت الحرام فتاتي لتوكيد ارتباط هذه الشخصية بالبيت الحرام ولتكون هذه الولادة حجة عقلية على المجتمع القبلي لاستنهاض الوعي للتفكر في معاني هذه الولادة العظيمة وعلاقتها باستمرارية الرسالة بعد وفاة الرسول الخاتم (ص) وهذا الترابط بين الغيب والإمام علي (ع) يؤكده الرسول الخاتم (ص) في قوله: (إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً، كتاب الله وعترتي أهل بيتي) ولما كان النبي

---

(١) سورة الفرقان: ٧.

(٢) سورة الفرقان: ٩.

الأكرم (ص) يتكلم بالوحي، ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[1]، فإن اختياره لعلي كان وحياً وهذا الاختيار يقع في دائرة العلة والمعلول، وكانت ولادته (ع) في البيت الحرام إحدى العلل العقلية ليتم اختياره وصياً أمام المجتمع من النزعة الفكرية القبلية في فكرة الأغنى والأكثر ثراء، ولتدريب العقول على أن الاختيار الإلهي يكون وفق أسباب إلهية، أي أن ولادته (ع) في البيت الحرام كانت سبباً من هذه الأسباب.

فبالنهاية إن كل ما قلناه لم يكن مجرد فرضيات ولا احتمالات يمكن أن تحدث أو لا، بل إنها شواهد من الكتاب المنزل والسنة المطهرة فيها ما يكفي لكل صاحب عقل سليم.

أهل البيت وخيارات المواجهة:

المدرسة الفكرية والفقهية لأهل البيت (ع) تشكل رؤية شاملة للإسلام، وبرنامجاً كاملاً لتطبيقه، ولاشك أنهم كانوا مهتمين ببث ونشر ما يعتقدون أنه الفهم الصحيح للدين، وأن يأخذ طريقه للتنفيذ والتجسيد في حياة المسلمين. ولوجود النص النبوي على مرجعيتهم كما في حديث الثقلين وحديث سفينة نوح وحديث الغدير وأمثالها، وباعتبارهم الأكفأ والأعرف بشريعة الله تعالى، فإن أئمة أهل البيت (ع) يرون لأنفسهم أحقية الإمامة والقيادة للأمة. لكن ذلك لم يدفع أياً منهم للصراع والمغالبة على الحكم والسلطة، ولا للسعي من أجل الفرض والهيمنة على الجمهور.

الإمام علي والخلافة:

بعد وفاة رسول الله (ص) ومبايعة أبي بكر بالخلافة في سقيفة بني ساعدة، كان هناك من يستحث الإمام علياً للتصدي للخلافة كما ينقل ابن الأثير في تاريخه.. قال: (فقالت الأنصار أو بعض الأنصار، لا نبايع إلا علياً... وقال الزبير: لا أغمد سيفاً حتى يبايع علي.. أقبل أبو سفيان وهو يقول: إني لأرى عجاجة لا يطفئها إلا دم، ثم قال لعلي: ابسط يدك أبايعك، فوالله لئن شئت لأملأنها عليه خيلاً ورجلاً، فزجره علي وقال: والله إنك ما أردت بهذا إلا الفتنة، وإنك والله طالما بغيت للإسلام شراً، لا حاجة لنا في نصيحتك)[2] ونحوه ورد في تاريخ الطبري[3].

---

(١) سورة النجم: ٣ - ٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص١٠، ١١، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٩٨٩م.

(٣) الطبري: محمد بن جرير، تاريخ الطبري، ج٢، ص٤٤٩، مؤسسة الأعلمي، بيروت.

وينقل ابن قتيبة في كتابه (الإمامة والسياسة) إن العباس بن عبد المطلب قال لعلي: ابسط يدك أبايعك، فيقال: عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله[١] ويبايعك أهل بيتك، فإن هذا الأمر إذا كان لم يقل [٢]، لكن علياً رفض ذلك حفاظاً على وحدة الأمة ومراعاة لخطورة الظروف.

ومرة أخرى عرضت الخلافة على الإمام علي (ع) بعد مقتل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب حيث كان واحداً من ستة عينهم الخليفة عمر ليختاروا أحدهم خليفة للمسلمين فعرض عبد الرحمن بن عوف على الإمام علي (ع) بمحضر المسلمين في المسجد قائلاً: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه (ص) وفعل أبي بكر وعمر؟ فقال: الإمام علي: اللهم لا ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي [٣]. لقد فوت على نفسه الخلافة آنذاك برفضه الالتزام بشرط لا يقتنع به، لأنه لم يكن حريصاً على السلطة بمقدار حرصه على مبادئه.

وقرأت مؤخراً تعليقاً جميلاً على هذه الحادثة التاريخية يقول فيه: (ولقد كان الجيل الأول من المسلمين (رضوان الله عليهم) يريد أن يجعل من تجربته السياسية والتنظيمية في إدارة الدولة، جزءاً من الشريعة، لولا تصدي الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) لمثل هذه المحاولة، وكلفه هذا التصدي التضحية بمنصب الخلافة، في أول عرض لتوليها، عندما رفض الالتزام بتجربة الشيخين بعد كتاب الله وسنة نبيه، إذ كان تقييمه لهذه التجربة لا يعدو كونها اجتهاداً بشرياً، يسع من بعدهم، ويتسع لآفاق المستقبل وبتضحيته هذه أوقف الإمام (كرم الله وجهه) زحف الثابت من الدين إلى حدود تلك المساحات)[٤].

ويتحدث المؤرخون عن تمنع علي وعزوفه عن الخلافة بعد مقتل الخليفة عثمان، لولا إلحاح الجمهور عليه، قال ابن كثير: (وقد امتنع علي من إجابتهم إلى قبول الإمارة حتى تكرر قولهم له، وفر منهم إلى حائط بني عمرو بن مبدول، وأغلق بابه، فجاء الناس فطرقوا الباب وولجوا عليه، وجاؤوا معهم بطلحة والزبير فقالوا له: إن هذا الأمر لا يمكن بقاءه بلا أمير، ولم يزالوا به حتى أجاب)[٥]. وحينما تصدى للخلافة، واضطر لمواجهة فتن المناوئين في حرب الجمل وصفين والنهروان حفاظاً على الأمن والاستقرار ووحدة الأمة، كانت تلك المواجهات مؤلمة له، وثقيلة على نفسه، ولولا كونه في موقع المسؤولية، لكان أبعد عن تلك الصراعات

---

(١) مجلة الرسول الأعظم (ص): العدد ١٠ محرم ١٤٢٩هـ، ص٤٥.

(٢) ابن قتيبة الدينوري: عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة، ج١، ص١٢، مؤسسة الحلبي، القاهرة.

(٣) ابن كثير: أبو الفداء الحافظ، البداية والنهاية، ج٧، ص١٤٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.

(٤) الشطي: الدكتور إسماعيل الإسلام الذي نريد، مقال في جريدة الشرق الأوسط، ٧، ٦، ١٩٩٨م.

(٥) ابن كثير: أبو الفداء، البداية والنهاية، ج٧، ص٢١٨، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.

مع الطامحين للمواقع والمناصب، التي لا حرص له عليها، ولا رغبة له فيها، يقول (ص): (أما والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء إلا يقاروا على كظة ظالم، ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكاس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه ازهد عندي من عفطة عنز)[1].

الإمام علي (ع) منتهى الكمال البشري:

الكمال: وهو التمام وعدم النقص في أي جزء من الأجزاء المادية والمعنوية للشيء فنقول تمام الشيء وكماله فالتمام قياساً للجانب المادي والكمال قياساً للماديات والمجردات؟

وفي الإنسان يسري هذا المفهوم على جانبيه الخلقي والخلقي فالجانب الخلقي المعبر عنه بعلة سلسلة الخلق من النطفة والعلقة والمضغة وهلم جرى وصولاً إلى المعلول أي المخلوق الفرد من أفراد الإنسان قال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾، لقد اختصر القران الكريم كل المراحل التي يمر فيها الإنسان أبلغ اختصار، اختصاراً يشمل الجانبين المشار إليهما في الخلق والأمر أي الجانب المادي والمجرد.

والكمال الخلقي دلل عليه رسول الله (ص) (النظر إلى وجه علي عبادة) ويعلل (ص) ذلك، فيقول: لأن الناظر إلى وجهه (ع) يقول بشكل فطري وعفوي سبحان الله ولا إله إلا الله لشدة جماله وتمامه وكماله الخلقي والخُلقي وجاء في كتاب نهج البلاغة البلاغة قول للشريف الرضي (رحمه الله) في وصف علي بن أبي طالب (ع). هو الإمام علي؟ اجتمع للإمام علي بن أبي طالب من صفات الكمال، ومحمود الشمائل والخلال، وسناء الحسب وبازخ الشرف، مع الفطرة النقية، والنفس الرضية، ما لم يتهيأ لغيره من أفذاذ الرجال. تحدر من أكرم المناسب، وانتمى إلى أطيب الأعراق، فأبوه أبو طالب عظيم المشيخة من قريش، وجده عبد المطلب أمير مكة وسيد البطحاء ومن هامات بني هاشم وأعيانهم، وبنو هاشم كانوا كما وصفهم الجاحظ: ملح الأرض وزينة الدنيا، وحلى العالم، والسنام الأضخم، والكاهل الأعظم، ولباب كل جوهر كريم وشرف كل عنصر شريف، والطينة البيضاء، والمغرس المبارك والنصاب الوثيق ومعدن الفهم، وينبوع العلم. نعم ولم لا يكون ذلك وهو (ع) أخو رسول الله (ص) وقاضي دينه وزوج ابنته وأبو ريحانته الحسن والحسين والمدافع عنه والحامي حوزته والخليفة من بعده نصبه رسول الله ذلك المنصب بأمر الله قال (ص): كنت وعلياً نوراً واحداً قبل إني خلق الله الخالق وكنا نسبح الله عز وجل على أركان العرش إلى أن خلق الله آدم (ع)

---

(١) الموسوي: الشريف الرضي، نهج البلاغة، خطبة رقم ٣.

فقسم الله ذلك النور نصفين، نصف هو محمد ونصف هو علي ولازلنا نتردد في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة حتى كنت في صلب عبد الله وأخي علي في صلب أبو طالب قال تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ﴾ وفي ذلك سر كبير قد التبس على البعض وعرفه البعض الآخر [1]. فمنهم من مرق ومنهم من لحق ومنهم من لازم فنجى وفاز، وإن التطابق الحاصل بين قول علي وسلوكه كان شاهداً على ما سبق من القول فنجد أن الواقع العملي المتكامل مع الواقع العقلي، فرض على جميع الفلاسفة والباحثين من دون النظر إلى هوياتهم الدينية ومعتقداتهم الفكرية، أقروا بأنهم لم يصلوا إلى معرفة أمير المؤمنين ولو بعشر معشار مما هو عليه حقيقة حتى صرح بعضهم إن ما أخفاه أعداؤه من فضائله حسداً، وأخفاه أحباؤه خوفاً منهم، رشح من فضله ما يملئ الخافقين وما يزكي الكونين. قد يقول قائل وما الدليل على صحة هذا الوصف وهنا عندما يكون الدليل والشاهد جلي لهذا المستوى من الوضوح ويأتي من يطالب بالدليل والشاهد هذا كالأعمى الذي لا يرى ضوء الشمس.

إذا فالكمال له مقوماته وما جاء من ذكر آبائه ورفيع منزلتهم من العلم والحلم هو أساس من الأسس الممهدة لمثل هذه النتيجة الكمالية ومن أحاط العلم بحقائق الأشياء من المهد إلى اللحد وإلا كان الكمال ناقصاً حيث أن كل مقدمة تنتج نتيجة معينة، وهكذا تتسلسل العلل إلى لحظة وجود المعلول النتيجة، وإن قول الإمام أمير المؤمنين (ع) (لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً) نعم لأن كل الحقائق حاضرة لديه علماً حضورياً ومع ذلك كان مع الناس كسائر الناس رحمة منه وكان في وجه الأعداء الذين انقطع منهم الأمل والرجاء ذلك الشديد القاسي الذي لا تأخذه في الله لومة لائم، وهو الذي قدم نفسه وأهله ليقيم كلمة الله حتى غدا الحق لا يعرف إلا به قال رسول الله (ص): (علي مع الحق والحق مع علي، حيث ما دار علي يدور الحق) وهو الشخصية التي هلك فيها الغالي والتالي ونجى الملازم لها فكانت مقوم الإنسانية وكانت الحجة الظاهرة التي أخفت فضائلها الغيرة والحسد والبغض والكراهية والعداوة فأقامه الله حجة واضحة بينة قاسمة بين الجنة والنار وجعلها من متممات النعمة وكمال الدين وجعلها في رقاب العالمين (من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من ولاه وعاد من عاداه) وأشهد الله عزّ وجل أنه قد بلغ هذا ليس بالأمر الغير طبيعي لا بل لو كان غيره من الأمر لكان هذا الغير هو الغير طبيعي ولما كان (ع) هو الكمال. والآن ليس من المستغرب أن يكون أول أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، بل من الطبيعي أن ينزل فيه قول الله تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ وهو القائل (ع) (من أصلح ما بينه وبين الله، أصلح الله ما بينه

(١) مجلة الرسول الأعظم (ص): العدد ١٠ محرم ١٤٢١هـ، ص٥٨.

وبين الناس، ومن أصلح أمر آخرته أصلح الله أمر دنياه ومن كان له من نفسه واعظ كان له من الله حافظ). ومما لا شك فيه أن من كانت هذه بعض خصاله استحق أن يكون الصراط المستقيم الذي هو أقصر ما بين نقطتين، وما قوله (ع) أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه إلا أن دعى كميل بن زياد أن طلب منه أن يعرفه بنفسه، وسمي هذا الحديث بحديث كميل بن زياد قال: سألت أمير المؤمنين (ع) قلت: أريد أن تعرفني نفسي. قال: يا كميل أي نفس تريد، قلت: يا مولاي وهل هي إلا نفس واحدة؟ فقال: (يا كميل إنما هي أربع:

١ ـ النامية النباتية

٢ ـ الحسية الحيوانية

٣ ـ الناطقة القدسية

٤ ـ والكلية الإلهية ولكل واحدة من هذه خمس قوى وخاصتان:

١- فالنامية النباتية لها خمس قوى:

١- ماسكة ٢- جاذبة ٣- هاضمة

٤- دافعة ٥- مربية

والخاصتان: الزيادة ـ النقصان.

٢- والحسية الحيوانية: ولها خمس قوى وخاصتان:

١- السمع ٢- البصر ٣- الشم

٤- الذوق ٥- اللمس

والخاصتان: الرضا ـ الغضب.

٣- الناطقة القدسية: ولها خمس قوى:

١- فكر ٢- ذكر ٣- علم

٤- حلم ٥- النباهة وليس لها انبعاث وهي تتشبه بنفس الملائكة.

والخاصتان: النزاهة ـ الحكمة.

٤- الكلية الإلهية: لها خمس قوى:

١- بقاء في فناء ٢- نعيم في شقاء ٣- عز في ذل

٤- فقر في غنى ٥- صبر في بلاء.

والخاصتان: الحلم ـ الكرم.

وهذه النفس التي مبدأها من الله وإليه تعود ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ والعقل وسط الكل[1].

---

(١) مجلة الرسول الأعظم (ص): العدد ١٠ محرم ١٤٢١هـ، ص٦٠.

العلاقة بين هذه الأنفس:

من أدلة كماله (ع) كل الإعجازات والمعاجز التي وصلتنا رغم ما أخفي علينا من فضائله ومعاجزه (ع) ولو تمعنا بهذا التعدد في الأنفس والعلاقة المتبادلة بينها صعوداً وهبوطاً لاستفدنا نحن في زمننا الصعب على الأقل أن نحصن أنفسنا من الرذيلة وسرنا باتجاه الفضيلة بموجب قواعد ثابتة مفادها باختصار. إن النفس النامية النباتية وبموجب القوى والخاصتان كشف (ع) مهمتهما النمو فلو كان النمو من الحرام تتأثر قابلية هذه النفس من تحسس آثار النفس الحيوانية الحسية فتلوث النفس الحسية الحيوانية وتفقدها سلامة إيصال التيار الحامل لما تحسسته الحاسة فتاتي غرفة العمليات التي يمكن التشبيه بها النفس الناطقة القدسية فتفقدها التعبير السليم وتصدر تقريباً مشوهاً ومشوشاً ويأتي دور النفس الكلية الإلهية لتبسط سلطتها على باقي الأنفس فلا تمتثل لسلطتها بسبب الفساد الذي تمكن منها فقلب مفاهيمها وشوه دورها وفطرتها والرابط بينها جميعها عملية تسمى العقل. وعندما نقول إن علي (ع) منتهى الكمال البشري يتمثل موجز هذا القول في قوله (ع): (إلهي كفاني عزاً أن أكون لك عبداً، وكفاني فخراً أن تكون لي ربّاً، فيكون منتهى العبودية لله غاية الكمال وشاهد ذلك شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله) ولا لبس ولا غرابة أن الله عز وجل شرف علياً (ع) برتبة الإمامة والولاية وجعلها عهداً وثيقاً مهد لهذا العهد من زمن نبينا إبراهيم (ع) ليعي الناس دور وأهمية ومنزلة هذه الرتبة التي شرفها علي (ع) ولكي لا يجهل الخلق عظمة هذه المنزلة أمر الله عز وجل نبينا محمداً (ص) الذي أرسله للناس كافة بأن يرفع علياً عَلماً في غدير خم ليشهد الله عز وجل أنه بلغ بولاية علي حيث نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وعندما صدع الرسول الكريم بما أمره الله قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ وكان (ع) شرط من شروط قبول الإسلام من أسلم لأنه إما إسلام كامل وإلا لا إكمال للدين ولا إتمام للنعمة وبالتالي كيف يرضى الله ذلك الإسلام، ثم أكد سبحانه على ذلك بقوله ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾. وقال (ع): إن أولياء هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا إذ نظر الناس إلى ظاهرها، واشتغلوا بأجَلها إذ اشتغل الناس بعاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم، وتركوا منها ما علموا أنه سيتركهم، ورأوا استكثار غيرهم منها استقلالاً ودركهم لها فواتاً، أعداء ما سالم الناس وسلم ما عادى الناس، بهم أعلن الكتاب وبه علموا وبهم قام الكتاب وبه قاموا، لا يرون مرجواً فوق ما يرجون، ولا مخوفاً فوق ما يخافون، وهكذا يريد (ع) أن يرسم طريق الكمال ثم يضيء للمردين ذلك

الطريق ويؤكد (ع) على أن الأيام التي تمر بنا قدماً وتمرر علينا الوقت الذي إذا فاتنا لا يمكننا إعادته والعقل السليم يقول أن علينا اغتنامها وعدم تفويتها بلا فائدة بل ولا تبعة. فيقول (ع) عباد الله، الله، الله في أعز الأنفس عليكم وأحبها إليكم، فإن الله قد أوضح لكم سبيل الحق وأنار لكم طرقه، فشقوة لازمة أو سعادة دائمة، فتزودوا في أيام الفناء لأيام البقاء، لقد بين لكم الزاد، وأمركم بالظعن، وحثكم على المسير، فإنما أنتم كركب وقوف، لا يدرون متى يؤمرون بالسير، إلا ما يصنع بالدنيا من خلق الآخرة، وما يصنع بالمال من عما قليل يسلبه وتبقى عليه تبعته وحسابه، وهذا هو الكامل المكمل الإنسان الغاية الذي نزل قوله تعالى ليعرف به فقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ إلى قوله ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ سورة الإنسان ومن كان أو من يمكنه أن يكون ندا لعلي (ع) قول وفعل، نظرياً وتطبيقياً هل دعا (ع) لشيء إلا وكان أول الفاعلين لما دعا له بل من هو الند الذي استطاع أن ينتزع من صفات الله وأسمائه كما انتزع (ع) بل هي بقي شيئاً من صفات الله عزّ وجل إلا وصبت في علي (ع) صباً. وهو الذي قال فيه رسول الله (ص): يا علي ما عرف الله إلا أنا وأنت وما عرفني إلا الله وأنت، وما عرفك إلا الله وأنا، وقد سمي هذا الحديث بحديث المعرفة، هذا هو أمير المؤمنين (ع) الذي قال فيه رسول الله (ص) يا علي مثلك كمثل قل هو الله أحد في كتاب الله، فمن قرأها مرة كمن قرأ ثلث القرآن، ومن قراها مرتين كمن قرأ ثلثي القرآن، ومن قراها ثلاثاً كأنما ختم القرآن، وأنت يا علي من عرفك كأنما استحوذ ثلث الإيمان، ومن أحبك كأنما استحوذ ثلثي الإيمان، ومن دافع عنك بقلبه ويده ولسانه كأنما استحوذ الإيمان كله، وهو قوله (ص) لما برز لعمرو بن عبد ود بعد أن بلغت القلوب الحناجر وسمح لأمير المؤمنين بمنازلته (لقد برز الإيمان كله للشرك كله) وكانت ضربة علي (ع) توازي عبادة الثقلين، وهو علي بن أبي طالب (ع) الذي طهر بيت الله بولادته فيه بعد أن بين أن أي مسجد حتى البيت حرم دخوله على المجنب أو اجتيازه أو أن يدخله ليأخذ منه شيئاً حتى مريم بنت عمران (عليها السلام) أمرت بمغادرة المعبد الذي ما فارقته لحظة في تعبدها حتى كان طعامها ينزل إليها من السماء، أمرت بالخروج من بيت الله لأجل الولادة وولادة روح الله عيسى (ع) وهو القائل في المهد صغيرا ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (مريم: ٣٠ - ٣٣). وقال (ع): كان لي فيما مضى أخ في الله وكان يعظمه في عيني صغر الدنيا في عينه، وكان خارجاً عن سلطان بطنه فلا يشتهي ما لم يجد ولا يكثر إذا وجد وكان أكثر دهره صامتاً فإن قال بد القائلين ونقع

غليل السائلين وكان ضعيفاً مستضعفاً فإن جاء الجد فهو ليث غاب وصل واد لا يدلي بحجة حتى يأتي قاضياً وكان لا يلوم أحداً على ما يجد العذر في مثله حتى يسمح اعتذاره، وكان لا يشكو وجعاً إلا عند برئه، وكان يقول ما يفعل ولا يقول ما لا يفعل، وكان إذا غلب على الكلام لم يغلب على السكوت، وكان علي ما يسمع أحرص منه على أن يتكلم، وكان إذا بدهه أمراه ينظر أيهما أقرب إلى الهوى فخالفه فعليكم بهذه الخلائق فألزموها وتنافسوا فيها، فإن لم تستطعيوها فاعلموا أن أخذ القليل خير من ترك الكثير فكم حري بنا أن نكون من أصحاب علي (ع) أو من شيعته وأتباعه وهل هنالك عز وكمال وفخر أعظم للمرء من أن يكون من المقتدين بالكمال من الخلق.

المعصوم والكعبة:

تحقق الوعد الإلهي وفتحت مكة للنبي (ص) ورجع إلى بيت الله وطهره من الأصنام والأوثان وبقايا الجاهلية وكان تحطيم الأصنام بيد أمير المؤمنين (ع) فقد روى عنه الحاكم النيسابوري: انطلق بي رسول الله (ص) حتى أتى بي الكعبة فقال لي اجلس فجلست إلى جنب الكعبة فصعد رسول الله (ص) بمنكبي ثم قال انهض فنهضت، فلما رأى ضعفي تحته قال اجلس فنزلت وجلست ثم قال لي يا علي اصعد على منكبي فصعدت على منكبيه ثم نهض بي رسول الله (ص) فلما نهض بي خيل إلي لو شئت نلت أفق السماء فصعدت فوق الكعبة وتنحى رسول الله (ص) فقال لي الق صنمهم الأكبر صنم قريش وكان من نحاس موتداً بأوتاد من حديد إلى الأرض فقال لي رسول الله عالجه ورسول الله (ص) يقول ايه ايه جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً فلم أزل أعالجه حتى استمكنت منه فقال اقذفه فقذفته فتكسر[1].

وليد الكعبة (ع):

ما أحرى أن يكون علياً (ع) هو الذي يطهر البيت الحرام وقد ولد في جوف الكعبة، إذ قال الحاكم النيسابوري (فقد تواترت الأخبار إن فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) في جوف الكعبة)[2]، ويصور شاعر أهل البيت (ع) السيد رضا الهندي رحمه الله العلاقة بين الولادة فيها وتطهيرها بقوله:

لما دعاك الله قدماً لأن ... تولد في البيت فلبيته
شكرته بين قريش بأن ... طهرت من أصنامهم بيته)[3]

---

(١) الحاكم النيسابوري: المستدرك ٣٦٨/٢.

(٢) المستدرك ٤٨٤/٣.

(٣) المستدرك ٢٣/٦.

ويبدأ هذا الميلاد المبارك بأن تقبل أمه وهي حامل لتسعة أشهر إلى بيت الله الحرام قائلة: (رب إني مؤمنة بك وبما جاء من عندك من رسل وكبت، وإني مصدقة بكلام جدي إبراهيم الخليل (ع) وأنه بنى البيت العتيق، فبحق الذي بنى هذا البيت، وبحق المولود الذي في بطني لما يسرت علي ولادتي، قال يزيد بن قعنب: فرأينا البيت وقد انفتح عن ظهره، ودخلت فاطمة، وغابت عن أبصارنا، والتزق الحائط، فرمنا أن ينفتح لنا قفل الباب فلم ينفتح، فعلمنا أن ذلك أمر من أمر الله تعالى ثم خرجت بعد اليوم الرابع وبيدها أمير المؤمنين (ع) ثم قالت: إني فضلت على من تقدمني من النساء، لأن آسية بنت مزاحم عبدت الله عزّ وجل سراً في موضع لا يحب أن يعبد الله فيه، إلا اضطراراً، وإن مريم بنت عمران هزت النخلة اليابسة بيدها حتى أكلت منها رطباً جنياً، وإني دخلت بيت الله الحرام وأكلت من ثمار الجنة وأرزاقها)[1]، فلاحظ هذه الولادة التي أراد الله سبحانه أن تكون مميزة، فالمرأة الحامل وهي في أواخر أيام حملها تلجأ لبيت ربها تدعوه لتسهيل حملها بعد أن تعرض تصديقها بالله وكتبه ورسله وبجدها إبراهيم الخليل (ع) ويستجاب دعاؤها ويرحب رب البيت بهذه الحامل فيدخلها جوف الكعبة (هو خلاف ما مطلوب من تطهير المساجد من كل أنواع النجاسات) والولادة عادة وعند كل الناس ترافق عادة دم نجس وحالة نفاس يجب أن تطهر المساجد منها فضلاً عن بيت الله الحرام مما يدل على عدم وجود كل هذا في هذه الولادة الفريدة، ومما يركز فرادة هذه الولادة أن الإذن الإلهي لدخول هذه الحامل جوف الكعبة لم يكن من الباب (بكسر قفله مثلاً) بل بانشقاق الجدار بحيث تدخل من هذا الشق امرأة حامل ويرجع يلتئم خلفها هذا الشق ليفتح بعد ثلاث أيام، ويقينا أن مثل هذا الأمر العجيب قد جرى أمام مرأى ومسمع المتواجدين في الكعبة الشريعة وقد تناقلته الألسن وانتشر هذا الخبر في كل مكة، إن لم نقل خارجها أيضاً ويقيناً إنهم انتظروا ماذا سيكون نهاية الحدث ويقيناً إنهم رأوا تلك النهاية بانشقاق الجدار ثانية وخروج الأم والوليد وسمعوا حديثها عن الثلاثة أيام الماضية لأن المرأة الحامل تحتاج إلى من يساعدها على الولادة وتحتاج إلى طعام وشراب وإذا بها تتحدث أن أربعة من سيدات نساء العالمين جئن من عالم آخر ليساعدنها على ذلك وأكلت من ثمار الجنة وشرابها ولم تر ما تراه المرأة عند ولادتها بل قامت عن وليد ساجد لربه ويلهج بذكر ربه[2]. ألا يدل كل ذلك على أن هذا الوليد والذي حف بكل هذا الاهتمام الإلهي... ولي من أولياء الله، وإن الله سبحانه أراد أن ينبه أهل مكة وأهل ذلك الزمان كلهم بل كل البشرية أن لهذا

---

(١) علل الشرائع ١٣٥.

(٢) إصدارات العتبة الكاظمية المقدسة ١٤٣٢هـ، قسم الشؤون الفكرية والثقافية.

الوليد شأن من الشأن عند الله سبحانه، وأراد المولى سبحانه إظهار ذلك الشأن من أول يوم ولد فيه، وقد صدقت الأيام والسنون اللاحقة هذا التميز فتبين للدنيا أن هذا الوليد مميز بكل شيء وهذه من خواص الإمامة، إذ قد يكون شخصاً ما متقدماً على الناس في صفة معينة، لكنه لا يمكن أن يكون متقدماً عليهم في كل الصفات فهذا شجاع لكنه قد يكون بخيلاً، أو ذاك كريماً وفي الوقت نفسه قد يكون جاهلاً.. بينما نجد الأئمة (ع) فإنهم متقدمون على سائر الناس في كل المجالات، بل لا يمكن أن يقارن بينهم وبين غيرهم وإذا حصلت هذه المقارنة فهي ظلم لهم، ومن ذلك نعرف مدى ظلامة أمير المؤمنين (ع) عندما يقارن بغيره وتكون نتيجة تلك المقارنة أن ذلك الغير هو الأفضل رغم نص القرآن الكريم على أن أمير المؤمنين هو نفس رسول الله (ص) كما في آية المباهلة، والمعلوم بالضرورة واليقين أن الرسول الأكرم (ص) أفضل الأولين والآخرين فيكون نفسه أفضل من غيره مهما كان هذا الغير وإن كان نبياً مرسلاً.. وما أروع ما قال الألوسي عند شرحه لقول عبد الباقي العمري:

أنت العلي الذي فوق العلى رفعا بـبطن مكة عند البيت إذ وضعا

حيث قال: (وكون الأمير كرم الله وجهه ولد في البيت أمر مشهور في الدنيا، وذكر في كتب الفريقين السنّة والشيعة ـ إلى أن قال ـ: ولم يشتهر وضع غيره كرم الله وجهه كما اشتهر وضعه، بل لم تتفق الكلمة عليه، وما أحرى بإمام الأئمة أن يكون وضعه فيما هو قبلة للمؤمنين؟ وسبحان من يضع الأشياء في مواضعها وهو أحكم الحاكمين)[1]. وينتج من هذا أن الإنسان المسلم بارتباطه بالكعبة المشرفة في صلاته وحجة وطوافه وذبحه وغير ذلك فهو مرتبط بمحل ولادة أمير المؤمنين (ع) فهذا الارتباط يعني ارتباطا به (ع) وإذا عرفنا من حديث الإمام الصادق (ع) بني الإسلام على خمس دعائم: على الصلاة، الزكاة، الصوم، الحج وولاية أمير المؤمنين والأئمة من بعده (ع))[2]، نجد أن أغلب ما بني (عليه الإسلام) يذكرنا ويربطنا بأمير المؤمنين واستمرت هذه العلاقة الوطيدة بين أمير المؤمنين (ع) والكعبة حتى آخر لحظة من عمره فحينما ضرب بالسيف نادى (فزت ورب الكعبة) وكان من وصيته لأولاده، ولكل من بلغه كتابه (الله الله في بيت ربكم، فلا تخلوه ما بقيتم، فإنه إن ترك لم تناظروا)[3].

حب أمير المؤمنين علي (ع):

إن من يقرأ سيرة بطل الإسلام الخالد علي بن أبي طالب (ع) سيجد نفسه على مشارف الكمالات الإنسانية الفريدة التي لا تتكرر عند غيره من البشر قط. وإن الروايات الواردة عن

---

(١) سرح الخريدة الغيبية ١٥.

(٢) أمالي الصدوق ٢٦٨.

(٣) نهج البلاغة ٤٧.

رسول الله (ص) والداعية إلى محبة المولى صلوات الله عليه كثيرة لا تحصى، والكلام في حب علي بن أبي طالب (ع) ليس أسطورة من عالم الخيال أو نسجاً من المحبين، إن المحبة دخلت إلى أعماق الزمان حتى صار أنشودة يترنم بها أصحاب الديانات الذين هم على غير دين الإسلام.

إن الله عزّ وجل أمر حبيبه المصطفى (ص) بواسطة أمين وحيه وعظيم ملائكته جبرائيل (ع) أن يبين لأنصاره أن حب علي (ع) هو السبيل الذي يوصلهم إلى النجاة والسلامة، والسبب الذي ما أن تمسكوا به آمنوا من الضلالة من بعده إلى يوم القيامة... قال رسول الله (ص) (أوصي من آمن بي وصدقني، بولاية علي بن أبي طالب (ع) فمن تولاه فقد تولاني، ومن تولاني فقد تولى الله، ومن أبغضه فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله عزّ وجل)[1]. كيف لا نحب علياً (ع) ونحن نسمع الرسول (ص) يقول: (يا علي ما أحبك إلا مؤمن وما أبغضك إلا منافق كافر).

والحب ينبغي أن يكون مزجاً بينه وبين الله، أي أننا نحب علياً (ع) من أجل حبنا لله عزّ وجل ولا يمكن للمحب أن يمزج حب علي (ع) وحب أعدائه، لأن هذا الحب حباً شاحباً لا يعطي بصير وإيماناً صادقا للمحب، جاء رجل إلى الإمام علي (ع) قال: يا علي إني أحبك وأحب أعداءك؟ فقال علي (ع): اذهب فإنك أعور.

وكيف لا نحب من جعل الله بيته مكاناً لولادته حينما جاءت فاطمة بنت أسد (ع) وهي تحمل نوراً في بطنها يشرق من ناصيتها فحظيت بهذا المكان المقدس الذي جعله الله قبلة للمسلمين وفي ذلك يقول الشاعر "شاعر الغدير" الشيخ حسين نجف وهو من شعراء القرن الثالث عشر في قصيدته الكبيرة:

جعل الله بيته لعلي ... مولدا يا له علا لا يضاها
لم يشاركه في الولادة فيه ... سيد الرسل لا ولا انبياها
فاكتست مكة بذاك افتخارا ... وكذا المشعران بعد مناها
بل به الأرض قد علت إذ حوته ... فغدت أرضها مطاف سماها

وقال رسول الله (ص) (لا يجوز احد الصراط إلا من كتب له علي الجواز)، حيث لا يدخل الجنة مبغض لعلي وأهل بيته، فدخول الجنة إذن متوقف على حب الوصي (ع) لأنه لا يدخل الجنة من لا يجتاز الصراط ولا يجتاز الصراط إلا من كتب له علي (ع) الجواز وهو لا يمنحه إلا لمن اعتصم بحبله ولاقى الله تعالى بحبه وحب أهل البيت (ع)، وقد أجاد من قال:

---

(١) كنز العمال المتقي، ج٦.

لـو أن عبـدا آتـى بالـصالحات غـدا ... وود كـل نـبي مرسـل وولـي
وعـاش مـا عـاش الأفـا مؤلفـة ... خلـوا مـن الـذنب معـصوما مـن الزلـل
وصـام مـا صـام صـواما بـلا ملـل ... وقـام مـا قـام قوامـا بـلا كلـل
وطـار في الجـو لا يـأوي إلى جبـل ... وغـاص في البحـر لا يخـشى مـن البلـل
فلـيس ذلـك يـوم البعـث ينفعـه ... إلا بحـب أمـير المـؤمنين علـي

وقد قال رسول الله (ص) (يا علي أنت صاحب حوضي وصاحب لوائي ومنجز عداتي، وحبيب قلبي ووارث علمي، فأنت مستودع مواريث علمي، فأنت مستودع مواريث الأنبياء من قبلي، وأنت أمين الله على أرضه، وأنت حجة الله على بريته، وأنت ركن الإيمان وعمود الإسلام، وأنت مصباح الدجى وأنت منار الهدى، وأنت العلم المرفوع لأهل الدنيا، من اتبعك نجا ومن تخلف عنك هلك، فأنت الطريق الواضح وأنت الصراط المستقيم، وأنت قائد الغر المحجلين وأنت يعسوب المؤمنين وأنت مولى من أنا مولاه، وأنا مولى كل مؤمن ومؤمنة، لا يحبك إلا طاهر الولادة ولا يبغضك إلا خبيث الولادة، وما عرج بي ربي عزّ وجل إلى السماء وكلمني ربي ألا قال لي: يا محمد أقرئ علياً مني السلام، وعرفه أنه إمام أوليائي ونور أهل طاعتي فهنيئاً لك هذه الكرامة)[1]. وعن جابر بن عبد الله الانصاري (رض) قال: لقد سمعت رسول الله (ص) يقول: (في علي (ع) خصالا لو كانت واحدة منها في رجل اكتفى بها فضلاً وشرفاً). قوله (ص): من كنت مولاه فعلي مولاه قوله (ص): علي مني بمنزلة هارون من موسى قوله (ص): علي مني وأنا من علي.

قوله (ص): علي مني كنفسي طاعته طاعتي ومعصيته معصيتي وقوله (ص): حرب علي حرب الله وسلم علي سلم الله، قوله (ص): علي حجة الله على عباده، قوله (ص): حب علي إيمان وبغضه كفر. قوله (ص): علي مع الحق والحق معه لا يفترقان، قوله (ص): علي قسيم الجنة والنار، قوله (ص): من فارق عليا فقد فارقني ومن فارقني فقد فارق الله، قوله (ص): شيعة علي هم الفائزون يوم القيامة[2].

إن فضائل الإمام علي بن أبي طالب (ع) أكثر من أن تعد أو تحصى، حيث أن الله عز وجل أخذ يباهي بعلي (ع) ملائكة السماء، وقد أنزل في شأنه أكثر من ثلاثمائة آية في كتابه العزيز، وروي عن الخوارزمي مسندا إلى ابن عباس قول النبي (ص): (لو أن الغياض أقلام والبحار مداد والجن حساب والإنس كتاب ما أحصوا فضائل علي بن أبي طالب (ع)). لقد قال رسول الله (ص) في الإمام علي (ع): (علي بن أبي طالب أقدم أمتي سلماً وأكثرهم

(١) بحار الأنوار، ج٣٨.
(٢) ينابيع المودة.

علما وأصحهم ديناً وأفضلهم يقيناً وأحلمهم حلماً وأسمحهم كفاً وأشجعهم قلباً، وهو الإمام والخليفة بعدي)[١].

إن أي نص من النصوص التي جاءت بحق إمام المتقين علي (ع) يعتبر كاشفاً عن جوهر وخصائص الذات وعن عظمة المنزلة وجلالة القدر، لقد تم اختياره واصطفاؤه من قبل الله عزّ وجل ليكون الامتداد لرسالة النبي محمد (ص)، فهو مصدر إشراق وإشعاع على كل الوجود ويعتبر هذا الإشعاع هو الدليل الساطع على عظمته وأهليته وجدارته على إدارة الحياة لأنه يعطي ولا يأخذ أي شيء من أهلها وكما قال الفراهيدي: احتياج الكل إليه واستغناؤه عن الكل دليل على أنه إمام الكل. إن الإمام علي (ع) فوق قوة الأبصار وهو أسنى من أشعة الأنوار وهو الدليل الأقوى من كل دليل والأجمل من كل ثناء وإطراء وهو المضمون الأكبر من كل الكلمات والعبارات...

إن حب الإمام علي (ع) هو النور الذي يهدينا إلى الصراط المستقيم ويملأ زوايا حياتنا المظلمة وعلينا أن نستلهم العبر والمواعظ ونأخذ من بركات وإشراقات هذه الشخصية العظيمة وأن حب هذا الإمام العظيم وقاية لنا من النار ومن كل ضر. وكما قال الشاعر:

علي حبه جنة قسيم النار والجنة وصي المصطفى حقاً أمام الإنس والجنة

اللهم أشهد أن زادي في سفري هو حب علي.. يا سيدي يا وجيها عند الله اشفع لنا عند الله

يوم الفرقان: نهاية ونتائج معركة بدر

انتهت معركة بدر عن أربعة عشر شهيداً من المسلمين يتقدمهم ابن عم النبي (ص) عبيدة بن الحارث وعن سبعين قتيل كلهم أو جلهم من فراعنة قريش ومثلهم أسرى بعد أن حصل الاثخان في الأرض وأن اتخاذ الأسرى بعد الاثخان مباح في الشريعة وقد روى المسلمون أن الرسول الأكرم (ص) خاطب جثث مشركي قريش بقوله: يا أهل القليب هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني وجدت ما وعدني ربي حقا فقال أصحابه يا رسول الله تكلم أقواماً موتى فقال لقد علموا أن ما وعدكم ربكم حق[٢]، وكان لأمير المؤمنين (ع) الحظ الأوفر في قتل نصف السبعين وقد شارك في قتل بعض النصف الآخر مما كان له الأثر الكبير في تعريف شجاعة الإمام (ع): لذا كانت قريش إذ رأت أمير المؤمنين (ع) في كتيبة تواصت خوفاً منه، ونظر إليه رجل، وقد شق العسكر، فقال: قد علمت أن ملك الموت في الجانب الذي فيه

---

(١) أمالي الشيخ الصدوق ج٦.

(٢) المستدرك ٥/٢٢٥.

علي[١]، وكان عاقبة ذلك أن يكون علياً (ع) مبغوضاً من قريش عامة ومن أولياء المقتولين خاصة وإذا علمنا أن مواقفه اللاحقة هي نفسها في هذا الموقف، نفهم موقف قريش العدائي لأمير المؤمنين (ع) في حياته وبعد ذلك فقد روى التاريخ نداء قائد جيش بعد عشرين سنة من استشهاد أمير المؤمنين (ع) محرضاً على قتال ابنه سيد شباب أهل الجنة (ويلكم أتدرون من تبارزون؟ هذا ابن الأنزع البطين هذا ابن قتال العرب فاحملوا عليه من كل جانب)[٢].

التبرك بالإمام علي (ع) عند المسلمين:

عن أبي بصير قال: بينما رسول الله (ص) ذات يوم جالسا إذ اقبل أمير المؤمنين (ع) فقال له رسول الله (ص): (إن فيك شبهاً من عيسى بن مريم ولولا أن تقول فيك طوائف من أمتي ما قالت النصارى في عيسى بن مريم لقلت فيك قولا لا تمر بملأ من الناس إلا أخذوا التراب من تحت قدميك يلتمسون بذلك البركة...)[٣]. وعن أبي عبد الله (ع) قال: نحن نقول بظهر الكوفة قبر لا يلوذ به ذو عاهة إلا شفاه الله[٤].

التوسل بالنبي (ص) والإمام علي (ع):

روى الشيخ الكليني قدس: عن سمعة قال: قال لي أبو الحسن (ع): إذا كان لك حاجة يا سماعة إلى الله جل وعلا فقل: (اللهم إني أسالك بحق محمد وعلي فإن لهما عندك شأناً من الشأن وقدراً من القدر، فبحق ذلك الشأن وبحق القدر أن تصلي على محمد وآل محمد، وأن تفعل بي كذا وكذا، فإنه إذا كان يوم القيامة لم يبق ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا مؤمن ممتحن ألا وهو يحتاج إليهما في ذلك اليوم)[٥].

روى الشيخ المفيد قدس: ثم ادع فقل: (اللهم إني أسالك بحق محمد نبيك، وعلي وليك، وبالشأن والقدر الذي خصصتهما به دون خلقك أن تصلي عليهما وعلى ذريتهما)[٦]، اللهم إني أسالك بحق محمد نبيك، ونجيك، وصفوتك، وأمينك، ورسولك إلى خلقك، وبحق أمير المؤمنين، ويعسوب الدين، وقائد الغر المحجلين... اللهم إني أسالك بحق محمد وآل محمد أن تصلي على محمد وآل محمد، وأن تلعن من جحد هذا اليوم، وأنكر حرمته...)[٧].

---

(١) محاضرات الأدباء ١٣٨/٢.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١١١/٤.

(٣) الكافي للكليني ج٨ ص٥٧.

(٤) التهذيب ج٦ ص٣٤ ح٧٠.

(٥) الكافي للشيخ الكليني ج٢ ص٥٦٢ باب الدعاء للكرب والهم والحزن ط: طهران - دار الكتب الإسلامية.

(٦) المقنعة الشيخ المفيد ص٢٠٥ باب صلاة يوم الغدير وأصلها ط: مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين.

(٧) المصدر ص٢٠٦.

أمير المؤمنين (ع) في صحيح البخاري:

إن البخاري لم يغفل مناقب أصحاب الرسول الأعظم الذين هم الطليعة في ترسيخ مبادئ الإسلام فكان من هؤلاء الأصحاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) وآثرت أن أوضح حديث في حقه وما هي دواعي التي ذكرها في ذكر ذلك الحديث في صحيحه؟ والحديث هو:

قال النبي (ص): لعلي (أنت مني وأنا منك وقال عمر توفي رسول الله (ص) وهو عنه راض[١].

توضيح: أن البخاري يشير إلى أمر مهم ألا وهو أن الرسول الكريم (ص) قد أوضح أمراً لا لبس فيه إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) من النبي (ص) والمقصود هنا ليس من ناحية النسب لأنه ابن عمه ويلتقيان في عبد المطلب ولا من ناحية المصاهرة فهو زوج ابنته (ع) ومن جهة أولاد علي (ع) فهم أولاد ابنته (ع) بل هم أولاده الذين يذكرهم في مجالسه كي تكون لهم مكانة عظيمة في المجتمع الإسلامي. كل ذلك لم يرد ذكرها لأن هذه الأمور يعرفها القاصي والداني وسواء كانوا مسلمين أم كافرين وإنما الذي أراده (ص) أن أمير المؤمنين (ع) بمنزلة النبي (ص) في العدل والقضاء وفي سياسة الدولة والأولوية بالمسلمين التي ذكرها القران الكريم بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[٢] فمن أنكر ولايته أنكر ولاية رسول الله (ص) وولاية الله تعالى.

وهناك أمر آخر ألا وهو أن كل ما يشير به أمير المؤمنين وكل ما يفعله ويقوله (ع) فهو نابع من تعاليم الرسول الأعظم (ص) وهذه التعاليم فهي بأمر من السماء فإنكارها إنكار لما جاءت به السماء من أحكام لفائدة بني البشر ليعم الخير بينهم وينبذ الشر عنهم. ولعل ما أشارت إليه عائشة لما قالت: من خير الناس بعدك يا رسول الله؟ قال: علي بن أبي طالب هو نفسي وأنا نفسه[٣]. والأمر الآخر هو شهادة عمر بن الخطاب وغيره ممن رضي الله تعالى عنهم بل ممن لم ينكر لأفعاله شيئاً، ولذا كانت أفعاله هي أفعال النبي (ص) حتى أقر ابن الخطاب لولا تدارك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) له لأورثته أفعاله الهلاك بقوله (لولا علي لهلك عمر)[٤].

---

(١) صحيح البخاري ص٦٧٥ باب مناقب علي بن أبي طالب الهاشمي (ع) ط: دار الكتب العلمية ٢٠٠٧م - ١٤٢٨هـ.

(٢) سورة المائدة: ٥٥.

(٣) المناقب للخوارزمي ص١٤٣ ط: دار البلاغ قدم له سيد محمد رضا الموسوي الخرسان.

(٤) نفس المصدر ص٨١ ط: مؤسسة النشر الإسلامي- الطبعة الخامسة ١٤٢٥هـ.

نهج البلاغة والإمام علي (ع):

نهج البلاغة وما أدراك ما نهج البلاغة فهو الكتاب الذي يطابق اسمه محتواه، والكتاب المشار إليه قبل أي كتاب بعد كتاب الله وسنة نبيه (ص) والكتاب الذي توالت عليه الدراسات الإسلامية وغير الإسلامية ففيه العلم والحلم، وفيه الفكر المعاصر والفكر القديم وفيه الأدب واللغة، بل لا يبالغ لو قيل فيه أغلب العلوم.

فالنهج الذي أعده الشريف الرضي قدس جمعاً لكلام أمير المؤمنين وسيد الموحدين علي بن أبي طالب (ع)، فقد عزم رضوان الله عليه على ذلك مشمراً عن سواعده باذلاً مجهوده بجمع خطب أمير المؤمنين (ع) وكتبه، مرتباً لها ترتيباً جميلاً يستوعبه العام والخاص، حتى جاء من بعده ما بين مستدرك وشارح حتى ألفت الكتب حوله من كتب أو شراح نهج البلاغة وليس ذلك إلا إحساس العلماء والمفكرين وبضرورة هذا الكتاب الجلي العظيم، بل هنالك من استدرك على النهج ومن تممه ككتاب (تمام نهج البلاغة) وهو آخر المستدركات حول النهج، وأسست المؤسسات المتخصصة حول نهج البلاغة بالإضافة إلى المواقع الالكترونية وكذلك البرامج الكومبيوترية فممن كتب دراسات حول شروح نهج البلاغة المحدث النوري المتوفى (١٣٢٠هـ) فقد ذكر شروح نهج البلاغة في خاتمة مستدركه، والسيد محسن الأمين العاملي قدس (ت١٣٧١هـ) صاحب أعيان الشيعة ذكر ذلك في أعيان الشيعة، والسيد هبة الدين الشهرستاني (ت١٣٨٦هـ) ذكر ذلك في كتابه (ما هو نهج البلاغة) والعلامة الأميني قدس (ت١٣٩٠هـ) فقد اسرد شروح نهج البلاغة في كتابه العظيم موسوعة الغدير عندما ترجم للشريف الرضي قدس وغيرهم الكثير ممن كتب وتناول شروح نهج البلاغة.

يوم الغدير مناسبة للتغيير:

قال الله العظيم في كتابه الكريم: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ الأعياد في الإسلام تختلف عنها، في المبادئ الأخرى، فالعيد في غير الإسلام، هو عيد الحصول على شيء، فإذا حقق شخص ما، أمنية من أمانيه، فانه يعتبر ذلك اليوم عيداً له. أن نتولى الإمام علي (ع) يعني أن نكون مثل سعيد بن جبير الذي واجه طغيان الحجاج بن يوسف الثقفي، وأن نموت كما مات فقد مصل أمام الحجاج وناقشه مناقشة عنيفة قال فيها: أنت على دين علي؟ فقال سعيد: دلني على دين أحسن من دينه لكي أتمسك به. فطلب منه التبري من الإمام علي (ع) فرفض ذلك، وقال الحجاج: اذبحوه إلى القبلة كما يذبح النعاج. فقال سعيد: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[1]. فقال

(١) سورة الأنعام: ٧٩.

الحجاج: اقتلوه بخلاف القبلة، فقال سعيد: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[1]، فقال الحجاج: فأكبوه على وجهه أرضاً، فقال سعيد: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[2] فإذا عشنا صامدين في جبهة الحق، وقاومنا الباطل، ومشينا خلف الإمام (ع) إذن يتحقق لنا قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

فضل زيارة أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (ع):

روى الشيخ الطوسي رحمه الله بسند صحيح عن محمد بن مسلم عن الصادق (ع) قال: ما خلق الله خلقاً أكثر من الملائكة وأنه لينزل كل يوم سبعون ألف ملك فيأتون البيت المعمور فيطوفون به فإذا هم طافوا به طافوا بالكعبة فإذا طافوا بها أتوا قبر النبي (ص) فسلموا عليه ثم أتوا قبر أمير المؤمنين (ع) فسلموا عليه ثم أتوا قبر الحسين (ع) فسلموا عليه ثم عرجوا، وينزل مثلهم أبداً إلى يوم القيامة ثم قال: من زار أمير المؤمنين (ع) عارفاً بحقه أي وهو يعترف بإمامته ووجوب طاعته وانه الخليفة للنبي (ص) حقاً غير متجبر ولا متكبر كتب الله له أجر مائة ألف شهيد وغفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وبعث من الأمنين وهون عليه الحساب واستقبلته الملائكة. وروي عنه (ع) أيضاً أنه قال لابن مارد: يا ابن مارد من زار جدي عارفاً بحقه كتب الله له بكل خطوة حجة مقبولة وعمرة مبرورة، يا بن مارد والله يطعم الله النار قدماً غبرت في زيارة أمير المؤمنين (ع) ماشياً كان أو راكباً، يا بن مارد اكتب هذا الحديث بماء الذهب.

الخاتمة:

عندما نتحدث عن الإمام على (ع) نستنطق المسيرة بصورها المختلفة ومحاورها المتعددة الخط الإسلامي المعتمد على العلم والمعرفة هو الخط الأصيل الذي يتحرك فيه، الأمر الذي يجعل المعرفة أمراً حيوياً على مستوى العقيدة في الخط الخاص والعام ونحن عندما نتحدث عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) إنما نتحدث عن الإسلام برحابته فكراً وبشموليته نهجاً ودرب حياة وحينما ندخل في عالم أئمة أهل البيت يجب أن يكون القرآن الكريم خطاً لنا في البداية والنهاية وأن يكون الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام وعلى آل بيته الشريفة وعظمتها والتجدد والانطلاق فيها عنواناً ثابتاً لنا، وعندما نتحدث عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) فإننا نتحدث عن قمم الروح والفكر والجهاد والانفتاح على الواقع الإسلامي كله من موقع الريادة والمسؤولية، قصتنا مع أهل البيت قصة رسالة قصة أناس يمثلون كل الحقيقة وكل

---

(١) سورة البقرة: ١١٥.

(٢) سورة طه: ٥٥.

الطهر والنقاء وذلك لأنهم عاشوا الرسالة المحمدية كلها في فكرهم وإحساسهم وحركتهم حتى كان كل واحد من الأئمة الأطهار قرآناً يتحرك ورسالة تتجسد على كل القيم الروحية في الإنسان والحياة سيرتهم عالم منفتح على الله عزّ وجل وعلى الإنسان والحياة في عبادة تهز الأعماق وفيه يذوب الإنسان في أجواء العشق الإلهي، والولاية لأهل البيت ليس نبضة قلب وخفقة إحساس، ولكنك لا يسعك ألا أن توالي الله فتطيعه وتوالى رسول الله فتتبعه وتوالي أهل البيت فتتحرك مع منهجهم منهج أهل البيت أغنى الواقع الإسلامي وأجاب عن الكثير من الأسئلة التي تكون جواباً على أكثر من سؤال معاصر وأغنى الواقع الإسلامي برؤية ثاقبة لمحاور العلم والمعرفة كافة، فلذلك عندما نقف مع سيرة الإمام علي (ع) وهو حلقة من حلقات الموصلة إلى خاتم الأئمة الحجة، كما هو عيسى (ع) الحلقة الموصلة لخاتم النبيين النبي الأكرم والرسول الأعظم محمد (ص).

ومن خلال دراستنا لحياة الإمام، ووجدنا أن ما له من الصفات والمعجزات تميزه لنعتبره حقاً نقطة تحول وامتداد المعرفي والحركي للنبوة وليس قيادة الدولة الإداري للحكم في الأمة فقط بل تمثل الإمامة عند الإمام القيام بالدور الرسالي في الدعوة والتربية والمواجهة للتحديات الفكرية المضادة وإن سيرة الأئمة الأطهار بحاجة إلى دراسة توثيقية تحليلية واسعة لنستوحي منها أكثر من خط فكرى وأخلاقي وروحي واجتماعي على مستوى النظرية من المنهج العام وقد ينفتح الدارسون، من هذه السيرة العطرة على الكثير من مفردات الثقافة الإسلامية لمختلف جوانبها الفقهية وغيرها بضرورة عدم إبعاد منهج أهل البيت عن الثقافة التي فرضتها ذهنية التخلف، وما هذا المؤتمر إلا حلقة رائدة في هذا النهج البحثي الأصيل إن شاء الله تعالى. وهذا جهد مبارك موفق إن شاء الله بذلته التمس وأقول (ضجّت إليك الأصوات بضروب اللغات يسألونك الحاجات وحاجتي إليك أن تذكرني عند البلى إذا نسيني أهل الدنيا).

المصادر والمراجع:

١- القرآن الكريم

٢- الأندلسي، ابن حيان، تفسير المحيط، مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢.

٣- ابن الأثير أبو الحسن على بن أبي الكرم (ت ٥٥٥ هـ/٣٦٠ هـ، الكامل في التاريخ تعليق عبد الوهاب النجار، المطبعة: مؤسسة التاريخ العربي، بيروت ١٩٨٩ م.

٤- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، ت (٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء، دار الفكر، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٥- الحاكم النيسابورى، محمد بن عبد الله (ت ٤٠٥هـ/١٠١٥ هـ) المستدرك على الصحيحين تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩١م.

٦- الحسيني، المرتضى بن الداعي الحسيني، (ت١٠٤٤هـ)، تبصرة العوام في مقالات الأنام، مطبعة طهران، قم، ١٣٢٧هـ.

٧- الخوارزمي، محمد بن موسى، المناقب، مطبعة دار البلاغ، قدم له سيد محمد رضى الموسوي.

٨- الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي، إكمال الدين وتمام النعمة، صححه وعلق عليه علي أكبر غفاري، مطبعة مؤسسة النشر الإسلامي، إيران، ١٤٠٥هـ.

وكتاب الخصال، مؤسسة الأعلمي، لبنان، بيروت.

٩- الطبري، محمد بن جرير، (ت ٣١٠هـ-٩٢٢م)، تاريخ الطبري، مؤسسة الأعلمي، بيروت.

١٠- ابن قتيبة الدينوري، عبدالله بن مسلم، الإمامة والسياسة، مؤسسة الحلبي، القاهرة.

١١- بن قولويه، الشيخ جعفر بن قولويه، كامل الزيارات، باب ٨٨، فصل كربلاء وزيارة الحسين (ع)، مطبعة دار المرتضى، بيروت.

١٢- ابن كثير، أبو الفداء الحافظ، (ت ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.

١٣- الكليني، أبي جعفر بن محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني، (ت ٣٢٨هـ)، تصحيح وتحقيق علي أكبر الغفاري، مطبعة حيدري، دار الكتب الإسلامية، طهران.

١٤- المدرسي، هادي، الإسلام منهج الحياة، مطبعة دار البيان العربي، بيروت، ١٤١٠هـ.

١٥- الموسوي، الشريف الرضي، نهج البلاغة، ولكن الطبعة التي أطلعت عليها للسيد محمد الحسيني الشيرازى، مطبعة دار العلوم، ط٣، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م لبنان.

١٦- المفيد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، باب مختصر من كلام علي (ع)، قم، سعيد بن جبير، ط١.

وكتاب المقنعة، باب صلاة يوم الغدير، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين.

١٧- المجلسي، الشيخ محمد باقر الأصفهاني، ت (١١١١هـ)، بحار الأنوار الجامعة لدرر الأئمة الأطهار، مطبعة الأمين، بيروت، ٢٠٠٨م.

المجلات:

١- مجلة زهور الجوادين، العدد ٤٢، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

٢- مجله الرسول الأعظم، العدد ١٠، محرم الحرام، ١٤٢٩هـ، مركز الرسول الأعظم للدراسات الإسلامية.

٣- من إصدارات العتبة العباسية (النبي الأكرم وأهل البيت في صحيح البخاري)، العدد ٦.

يا أبا الأمة

✍ السيد عباس شبر

لاطفت رائع الرياض النسائم فتنفسن بالأريج البراعم

وعليها من الندى لؤلؤٌ رطب أبى أن يُسام في كف سائم

نثرته السماء فالتمس المنثور شوقاً لمثله كُلُّ ناظم

وكسته الأزهارُ سبعين لوناً بين ذي صفرةٍ وأحمر قاتم

ومَشى اللُطف في صفوف الريَّاحين فهبت أرواحها في الكمائم

وتدلَّى الهلال فهو أخيذ بسنىً منه في الجداول عائم

جلوة للوجود ترشح سحراً ما لعقلٍ منه سوى الله عاصم

لست أدري أللطبيعة عرس كالعذارى أم للجمال مواسم

مغريات (أنى توجهت العين) وكم للعيون فيها ولائم

خفق الفجر مثلما تخفق الرا يةُ مرفوعة لجيش مسالم

ومضى الليل يسحب الذيل زهواً وأتى الصبح بالمسرة قادم

وسرى نفحه فأيقظ ما كا ن من الطير في الخمائل نائم

فأفاقت بها تحي سرايا النور بالسجع صادحات الحمائم

راقصات حول الغدير سروراً قاعدات فوق الغصون قوائم

وأطلت من خدرها ربة النور فلم تلق غير ثغر باسم

غمر البشر عالم الأرض حتى فاض منه على جميع العوالم

فإذا الكون فتنة وخيال كل ما فيه بالسعادة حالم

أي سر أذاعه الملأ الأعلى وبشرى تحدرت بالعلائم

ضربت في الأثير طولاً وعرضاً وسرت في عبابه المتلاطم

فاقرأ «الفتح» أيها الدهر وافتح عهد من جاء للنبوة خاتم

بعث الصادق الأمين فهذا يوم بعث الهدى وبعث المكارم

بعث الدين والحجى بعث الحق مصاناً بين الفنا والصوارم

بعث المجد من (حراء) فدانت لعُلى يعرب صروح الأعاجم

في مصاص الفخار آل نزار في صميم العلى سلالة هاشم

قسمة في الأنام خصت وعمت بأبي الطيب الزكي القاسم

بُعث الطاهر المطهر للنو ع من الشرك وانتهاك المحارم

بُعث المصلح المعالج بالعلم نفوساً قد أفسدتها الجرائم

بُعث المنقذ المحرر شعباً عاش مستعبداً لشتى المزاعم

كل يوم إله وعيد يعقر الكرم عنده والكرائم

بعث الناصح المؤلف قوماً بددَّتهم غاراتهم والملاحم

بُعث المصطفى الذي اختاره الله لنصر التقى وحرب المآثم

بُعث الرحمة الإلهية الكبرى التي عمت الورى بالمراحم

بُعث العدل مستنيراً من القدس ليطوي به ظلام المظالم

آن أن تخضع الممالك للعُرب وتعفو تيجانها للعمائم

آن أن ترسل المحاضير عدواً علق النصر عهده بالشكائم

جائلات كأنهن قشاعم والبها ليل فوقها كالضياغم

مآنجات كالعصم لا يعصم البا طل منها حواضر أو عواصم

تملأ الجو بالسبيل كما تملأ بالرعب صدر كل ضبارم

سآئرات مع الرياح السوافي خائضات مع السلاح الخضارم

عاصفات بكل دست وعرش شادة الظالمون فوق الجماجم

عارجات إلى سماء المعالي والعوالي معارج وسلالم

وجدتها على هدى راية التوحيد حتى هانت عليها العظائم

نهضة للحياة يدعمها الوحي وأعظم بما له الوحي داعم

نشرت في الأمصار دين المساواة وأنف الجحود والجور راغم

يـــا لعهـــد أيامـــه مـــشرقات بـــسنى تلكـــم الظبـــى واللـــهاذم
كـــان عيـــداً للمـــؤمنين ســـعيداً وعلـــى الكـــافرين عهـــد مـــآتم
شـــيد صـــرح الإســـلام فيـــه وقامـــت خالـــدات أركانـــه والـــدعائم
لـــست أدري وليـــتني كنـــت أدري كيـــف باخـــت عنـــد البـــنين العـــزائم
إيـــن تلـــك المـــآثر الغـــر في الإســـلام أم أيـــن مجـــدنا المتقـــادم
أيـــن تلـــك الـــدنيا المليئـــة بـــالحزم وأيـــن الإيمـــان ملـــؤ المحـــازم
فرقتنـــا الغايـــات حتـــى أضـــعنا مـــا ورثنـــاه مـــن عُلـــىً ومكـــارم
ونـــسينا تاريخنـــا واستعـــضنا عـــن تعاليمنـــا بمـــا لا يلائـــم
وانـــصرفنا لغيرنـــا وتركنـــا كـــل أمجـــاد قومنـــا للمعـــادم
ولهونـــا عـــن العُلـــى بالـــدنايا وعـــن العلـــم باقتنـــاص الـــدراهم
راقنـــا أن نعـــيش عـــيش البهـــائم نتملـــى مـــن مـــشرب ومطـــاعم
وحـــسبنا بعـــض الأمـــور مغـــانم وهـــي عنـــد المحققنمخـــارم
وعكفنـــا علـــى القـــشور وأمـــسى غيرنـــا باللبـــاب زهـــوان نـــاعم
كلنـــا شـــاعر بمـــا حـــل مـــن دا ء ولكـــن أيـــن المـــداوي الحـــازم
نـــستعيد الـــذكرى وهـــل تنفـــع الـــذكرى ولم نعتـــبر بهـــا ونـــساهم
محـــنٌ تـــوقظ الجمـــاد فهـــلا أيقظـــت مـــن علـــى المـــشارف نـــائم
ومنـــاكير والعيـــون تراهـــا كـــل حـــين وليـــس في القـــوم نـــاقم
لـــو رآنـــا الـــنبي أنكـــر منـــا خلقـــاً لـــيس للأبـــاة الأكـــارم
أو رأتنـــا أجـــدادنا لاســـتهلت ثـــم عـــضت علـــى رؤوس الأبـــاهم
مـــا حفظنـــا عهودهـــا أفتستـــسقي لأجـــدائها عهـــاد الغمـــائم
يـــا أبـــا الأمـــة اســـتمع بـــث شـــكوىً يتنـــزى بـــين اللـــهى والغلاصـــم
بـــشظايا الفـــؤآد ســـال قريـــضاً وجـــرى سلـــسلاً كـــدمعٍ ســـاجم
وأفـــض مـــن عليـــاك روحـــاً علينـــا مـــن حنـــان ومـــن هُـــدى ومـــراحم
وعليـــك الـــصلوة مـــا كـــر عـــام وتغنـــى بـــذكر مجـــدك نـــاظم

❖ ❖ ❖

الإمام

معن سعيد الطريحي

يا غُرّةَ الإيمان في حُبِّه ... وجنةُ الفردوسِ للطالبِ
وصاحبُ الحوض غداً حيدرٌ ... يسقي الهُداة في غدٍ أصعَبِ
وحبّهُ الأكسيرُ من شأنه ... يَكفّر السوءَ عن المذنبِ
يرعاكَ في الموت كفى قُرّةً ... يكفيك مِن والٍ ومن صاحبِ
مَن لي إذا نادى بنا صارخٌ ... يحدو بنا للاحَدِ النادبِ
من لي إذا الأفعالُ قد أُحضِرت ... وجيءَ بالشاهدِ والكاتبِ
وماجت الأهوال في عيننا ... واصطكت الأخطار من جانبي
ناديتُ حبّي يا علي نحوكم ... مولايَ في قَلبي وفي مذهبي
أنت المنى حسبي إذا نابني ... خَطبٌ من الأهوال في حاصبِ
أنت المنى حسبي ومَن جُنّتي ... آلُ النبي المصطفى الأطيَبِ
يا قُرّةَ الإسلام في جوده ... لولاك لم يبق سوى الناكبِ
مَن صالَ في الاحزاب ربّانها ... غيرُ الوصيِّ الخَلَف النائبِ
لما دهى الإسلامَ في سطوةٍ ... عمرو بن ودٍ في رُؤى الاشهبِ
واقتحم الأسوارَ من هازيءٍ ... مَن لي إلى الجنةِ مِن راغبِ
أجابه الكرارُ في ساحها ... أنا لك الموعودُ في الثُّوّبِ
هيّا بنا في مصرعٍ نلتقي ... يا سَوءةَ الاشراك مِن خائبِ
حتى إذا هبَّ له عادياً ... وضاق بالاشرس في مركبِ
ألفَيْتَ ليثاً حيدراً واثباً ... عمراً فريساً في يد الواثبِ
سيفاً من الله هوى ثاقباً ... ارداهُ في قعر الردى اللاهبِ
يا طلعة الامجاد يا عصمة ... رُحماك للسائل والهاربِ
يا كوكباً شَعَّ بانواره ... تبقى مناراً في الهدى اللاحبِ
هيهاتَ يخبو في الدنى نورُكم ... بدرُ الدّجى في نوره الضاربِ
لكنّما الاعينُ إن أحدَقتْ ... بالشمس تعمى والسّنا الثاقبِ
من ذا على نور الهدى ساعياً ... طابتْ مساعيهِ إلى المآربِ
تبّاً لمن عادى الهدى ناصباً ... لا يرعوي عن غيّه الاعيَبِ
بغضُ الوصي المرتضى الطاهرِ ... مِن مَولِد السوء لدى الناصبِ
خانوك مُذ غاب الهدى عنهم ... واستبدلوا المنصوبَ بالغاصبِ
دعْهُم لئامَ الخلق يا صاحبي ... حسابُهم في طلعة الغائبِ

أبو تراب

غالب الناهي

إلى عواليك وحي الشعر يستبق ... وفي مجاليك آفاق ومنطلق
وفي مجالات أخلاق لمشترع ... يخط شخصك تاريخا فيأتلق
وضم بردك ما يحدو النفوس على ... من العقيدة أبهاء لمن سبقوا
وجئت في محنة كان الرسول بها ... غريب دار وأصحابا له صدقوا
فكنتم عصبة لله أنفسهم ... بيعت وما دونها في حاضر نزق
عرفتم الناس أن العيش ما نزعت ... كف العزيمة فيه صارما يهق
تركتم الشرك أشلاء مبعثرة ... وجانب الخزي من أنتابها غرق
لبستم القلب فوق الدرع تمنعها ... عقيدة ما لغير الخير تستبق
مهيئون كأن الله يذخركم ... لراية الدين حيث الشرك منزلق
منزهون من الأوضار ما علقت ... بردن عفتكم ما يشتهي القلق
صحابة الصدق والإخلاص مبدأهم ... وكل فرد له في عزة شفق
وبدرها التم لاخبت لطلعته ... أبو تراب به الإسلام مؤتلق
ترف في جنبه روح يرققها ... من الأبوة عطف نفحه عبق
أما إذا العزم قد شاطت رهيجته ... فمارد الحق للهامات يفتلق
له الكرامات تسعى تبتغي شرفا ... ومن تغذى بحب الله ذا السبق
ما طأطأت لجلال اللات هامته ... لأنه من رسول الله يغتبق
يسقيه من كفه عذراء تمخضه ... صفو الهداية في كأس بها غدق
أبا الشهامات ما مدحي لكم بطر ... وقد تمادى بمدح الكفر من نزقوا
أراد للفسق والإلحاد مدرسة ... لكن من (محسن) الرّيعْ ينصعق
أنار للناس ديجور الفساد وذي ... (فتوى الحكيم) كإعصار وهم ورق
تحلب الدين من ضرع رائده ... وفي فتاواه هذا الدين منتطق
تململ الفجر أسوانا للاعبة ... من القذائف فيها العرب تحترق
ففي عمان عتا جنبول لزمرته ... سيخضب الأرض من أسد الحمى علق
وذي الجزائر تشكو لوعة كلحت ... بها الشموس فليس النور ينطلق

يقول ديغول علج الغرب مفتخرا ... أرض الجزائر منا بئس ما نطقوا
إن الجزائر والابناء تحرسها ... سترتقي المجد هامات وتعتلق
وما فلسطين إلا نغمة عبقت ... بها التلاحين شجوى والهوى أرق
يسومها الذل أنذال يوحدهم ... بغض العروبة لا دين ولا خلق
فيا على وذي ذكراك عاطرة ... متى نرى العرب بالأفعال تتفق
تشتاقهم لاجتماع الشمل ساجية ... من التضامن يغذوه الأخا ومق
بنى العراق وإني ارتجي حلما ... بوحدة الصف لا زيف ولا ملق
يهدم الدار تفريق لمبدئكم ... ويجعل الأهل أعداء بها فرق
فدعوة الغرب تسخير لدولتنا ... ودعوة الشرق آفاق بها شرق
أيرضى المرء أن يغتال فكرته ... بدعوة لغريب ليس يفترق
لو أن جهدكم كل البلاد لما ... تأخر الركب لكن كلنا فرق
تعاور الفكر أنصاف الرجال ولم ... يراود الفكر في إشراقه فلق
هنا سيحلوا لتركيز العميل ولي ... بهذه الدار تحقير وقد زلقوا
وصبيتي اليوم مرتاعون من شغب ... وقد تنادى لسحلي شأنه حنق
الأرض أرضي وقد طل الجدود ثرى ... لها الدخيل وأسياد الخنى سرقوا
إرادة الله شاءت أن تبيدهم ... وكان لي في حياتي هذه رمق
أشرعة الغاب لا درت حواضنهم ... تعلق البكر ما فعل به سبقوا
ماذا بكركوك (إحسان) تناهشه ... عصابة الرجس وهو الراحم الحذق
أم كان (إدريس) ابن المجد ممتشقاً ... سيف الخيانة فاهتاجوا وقد مرقوا
إلى ذراريهم في قتل ما عرفوا ... أن العروبة بالمرصاد مذ أبقوا
بنى العراق علام اليوم نحترب ... ماذا اجتناه (نضال) حينما حرقوا
فوحدة القلب والأديان تعضدها ... من مسلمين، نصارى، يرتجي سمق
فحاذروا كل دساس يشننكم ... لا يشغب الحر نهاز ومرتزق
فإن في جمعكم هذا لموعظة ... ما عاد يفرقنا من بعده خرق

تمَّ (المجلد الثاني) من الانسكلوبيديا العلوية ويليه (المجلد الثالث) بعونه تعالى

The interpretary connotations of the examples in Nahj Al Balagah; UdayJawadAlHajar 672

The role of Imam Ali bin AbiTalib (pbuh) and his disciples in pioneering the first school of theHoly Quran and Hadith; Dr. MuhanadAbdAlridaHamdanAlkanzawi and d.rAwadKadhumLeftehAlgaz 687

The impact of Nahj Al Balagha in Quranic interpretation; dr. NajimAlfahaam.....697

From the phonetic values in Nahj Al Balagha; Dr. TahseenFadhelAbas.....720

Philosophy of the provisions of crimes and social ills in Nahj Al Balagha; dr. Hameed SuraajJaber ..744

Semiotics of meditation in Nahj Al Balagha between imaging and signaling; dr. AbdAlhussain AbdAlriddaAlumri 752

The experience of Imam Ali bin AbiTalib (pbuh) in reforming state and society; RaadAldagheely 767

Imam Ali (pbuh); door of wisdom; dr. Iman Salem HamoodyAlghafadhji.....771

Poetry by Sayyed Abbas Subbar 795

Poem by Ma'an Said Al-Touraihi 798

Poem by Ghalib Al-Nahy 799

End of Volume 2

Al Ghadir in Persian mystical poetry (the book 'Mathnawi' by Jalal eddinArrumi as an example); dr. Ali MujidAlBadri.....534

Al Ghadir event embodied in the Quran; KadhumAlhussainiAlthabhawi.....543

A model for educational dimensions in the Imamate of Imam Ali (pbuh); dr. Alaa Ibrahim RazuqiAlmusawi.....551

The importance of prayers of Imam Ali bin AbiTalib (as) (stylistic and grammatical study); Mohamed Ismail Abd Allah Said AalBedeer.....605

A model for the Imamate and political rights of minorities (Imam Ali (pbuh); dr. Ghawla Mahdi ShakirAljaraah.....634

The preaching interpretation of verses of the Quran in Nahj Al Balagha; dr. Hasan Kareem Majid Alrubaiy.....652

The war between Imam Ali (as) and Muaweeya in Nahj Al Balagha; Hasan AbdAlamirAbdAlsahibAldhaleemy.....660

Dr. UdayJawadAlHajar

Chapter 1: The Caliphate of Imam Ali.....661

Chapter 2: Preparation for war.....665

Chapter 3: Starting with war and ending with arbitration.....667

Lingual thinking and religious consciousness of Imam Ali as a model;dr. Mohamed KadhumAlbaka' 384

Algahdeer between two theories; Sayyid Sadr AldeenAlqabbanji 389

Social justice in the thought of Imam Ali (pbuh) (methodology and application); dr. Sami JawdehAzzaydi and dr. Haidar Hussain Jaloed 399

Legal and linguistic signs in the speech of Imam Ali (pbuh) (from Lisan Al Arab); dr. Hussain Hatem Hussain and dr. Jacob Hasan Abd.....412

Economic development and Imam Ali (pbuh); AllaFalehAalGhalf 425

The established content of the book of Ali (pbuh); dr. WafqaanMuhsenGhudairAlKa'abi.....457

Physical Understandings in the heritage of Imam (pbuh) (the concept of "relativity" in the Quran and Nahj Al Balagha; Hussain Abed Alfuraiyi.....493

The real value of power in the divine way, in the light of the dealings of the Imam with power; Ali AlTimimi.....519

Sufi mysticism in the thought of Imam Ali (pbuh) the savior of the mystics; AhmaduBimbaibn Sayyar 531

Imam Ali (pbuh) and the art of dealing with people; dr. RazaqAbdAlamir Mahdi and dr. SuhadKadhumAlmusawi 257

Imam Ali (pbuh) in the human heritage, dr. Hassan Azzain 288

Imam Ali, the miracle of Islam, Sheikh Mohamed RidaAlmuzafar.....297

Imam Ali and democracy; Sheikh AbdAlhussainSadeq.....299

The sense of security by Imam Ali (pbuh) and its role in the delivery of AbiDharr to the Prophet (pbut); Dr. MostafaAloeth 307

Presence in Absence. A comparative study of the movement s of Imam Ali and Imam Mahdi (pbut); Dr. Amjad Hameed Abdullah Fadil.....309

The Ashbah poem by Al Mufjaa Al Basri (D. 327 H.) (an analytical study); Dr. Hasan AbdAwdaAlghaqani and Dr. Hussain Abd Hussain Alwateefy 329

Imam Ali (pbuh) in the narratives of AbiDharrAlghafary; Dr. Jabar Mohamed Hashem Almussawi and Dr. Amal SuhailAbdAlhussaini 348

Imam Ali (pbuh) an inexhaustible stream. AbdAlhussainAlghazaii.....365

The secret of linguistic creativity of Imam Ali (pbuh); Dr. Abas Ali Alfahaam 153

Grammatical structures in the 'GhadeerGhum' speech; dr. Hasan AbdAlmajeedAbasAlShaer.....158

Astronomical and cosmic materials in the thought of Imam Ali (pbuh), health care in the thought of Imam Ali (pbuh); dr. Mohamed Hussain Alwaseety and dr. Atta Salman Salem 168

AbdAlamirAlmoemen; 179

Chapter 1: Creation of the universe and it's demise 183

Chapter 2: Sky of the universe 192

Chapter 3: Universal gravity 198

Chapter 4: The stars and galaxies 204

Chapter 5: Mother sun 212

Chapter 6: The Earths' moon.....219

Chapter 7: The earth 225

Chapter 8: Planets of the solar system.....232

Chapter 9: Devine meteors.....238

Human dimensions in the charter delivered by Imam Ali (pbuh) to Malik Al Ashtar, Dr. Abd Al-KadhumMuhsen Al-Jassery.....243

'The other' in speeches of Imam Ali ibn AbiTalib (pbuh); Dr. Bashaar Nadeem Ahmed AlPachachi..255

Table of Contents
Volume 2

The appointment of the Imam and the circumstances of the divine message; Ayatullah Sheikh JafarAlsubhani.....11

System of rights in the charter of Al Ashtar; Dr. Ayad Mohamed Ali Alarnaoeti.....18

The concepts of Al Ghadir between the Holy Quran and the Nubda prayer; Ahmed JasemThany.....39

The missives of Imam Ali (a structural and analytical study); AhoedThu'baanJusefAlasady 46

Statement of Imam Ali (pbuh) in the expression of worship in Nahj Al Balagha; Dr. Ahmed AshruJuaaz.....98

The unity of the self between The Prophet (pbuh) and Imam Ali (pbuh); Abbas Ali al-Moussawi 120

The impact of the Prophet Muhammad (pbuh) on the methods of Imam Ali. His charter to Malik Al Ashtar as a model; Dr. NoeriKadhumAlsaaidy 127

Literature dialogue inspired by the Ghadir event and memories of the religious gatherings;Dr. Usama Rashid Assafaar 146

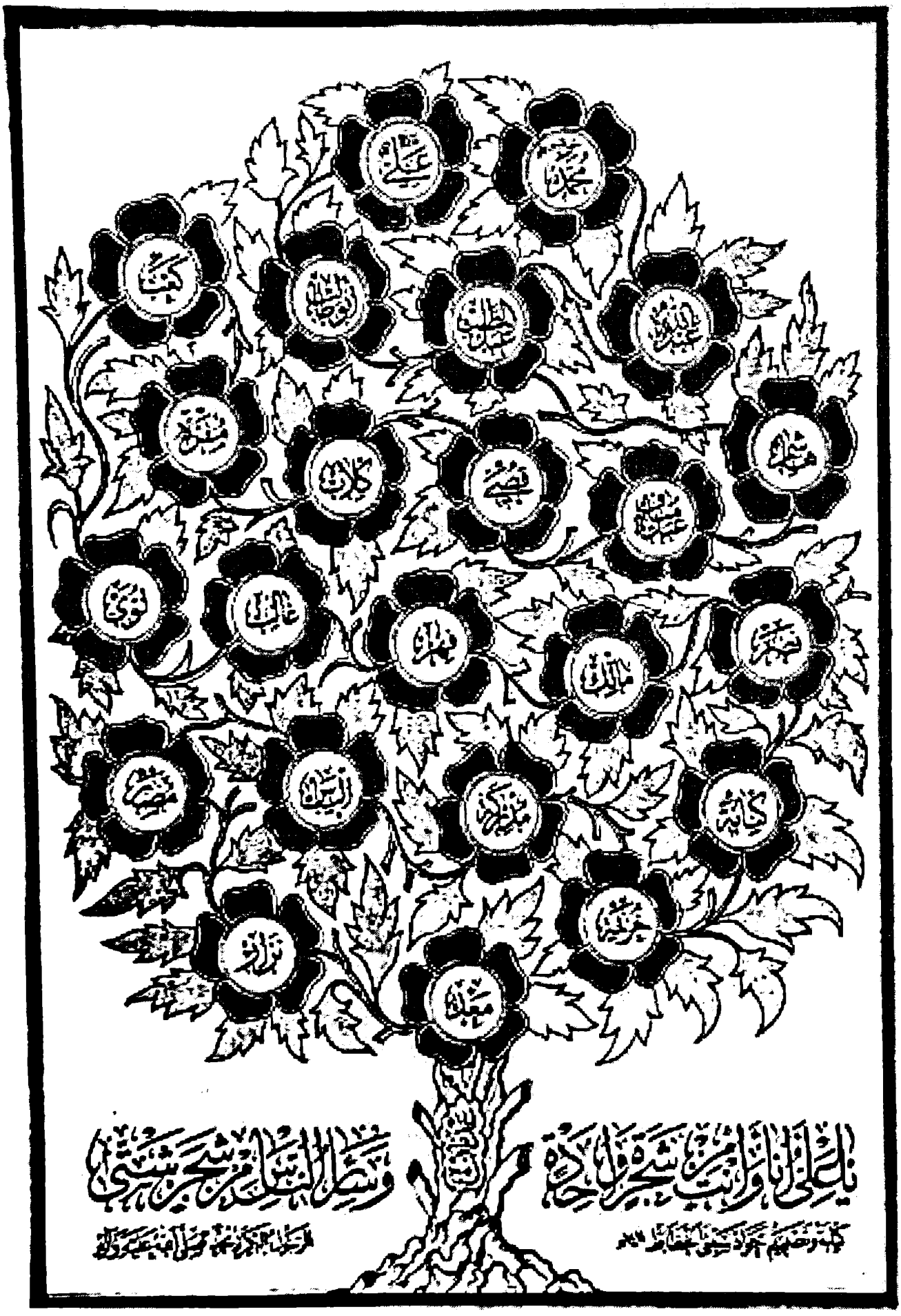
محمد
علي
عبد المطلب
عبد الله
أبو طالب
عبد مناف
هاشم
عبد شمس
نوفل
أسد
قصي
كلاب
مرة
كعب
لؤي
غالب
فهر
مالك
النضر
كنانة
خزيمة
مدركة
الياس
مضر
نزار
معد
عدنان
وسل الثمام من شجر بشري
يا علي أنا وأنت من شجرة واحدة

The Imam Ali Encyclopedia

A scientific, intellectual and literary encyclopedia about the life of Imam Ali (peace be upon him)

Special issue on the occasion of the fourteen centuries since the designation of Imam Ali of Kufa as the capital of the Islamic world. (36-1436 H/656-2015 C.E)

Authored by a selection of scholars, intellectuals, writers and literates.

Editor in chief
Mohammed Said Al Touraihi

Publisher
Kufa Academy - The Netherlands.

Year: 1436 H - 2015 C.E.

الكوفة
Kufa Academy
أكاديمية الكوفة
هولندا